

الموسم

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1939

Volume 1

PUBLICATION PROTEGEE

PAR LA

LEGISLATION SUR LA PROPRIETE

LITTERAIRE ET ARTISTIQUE

LOI N **57-298** DU **11** MARS **1957**)

PROVENANCE DE LA COLLECTION

**INSTITUT DU MONDE
ARABE**

Cote: 833 (051) RIW

MICROFILM ÉTABLI

PAR

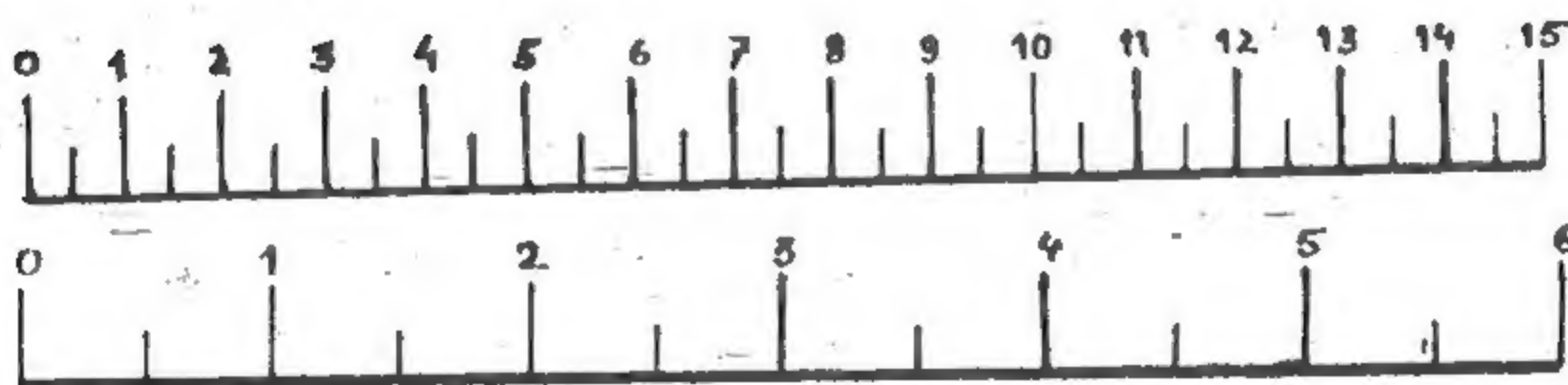
**L'ASSOCIATION POUR LA CONSERVATION
ET LA REPRODUCTION PHOTOGRAPHIQUE
DE LA PRESSE**

PARIS

*L'Exploitation commerciale de ce film est interdite.
La Reproduction totale ou partielle est soumise à
l'autorisation préalable des ayants droit et à
celle de l'A.C.R.P.P. qui conserve un exemplaire
du microfilm négatif.*

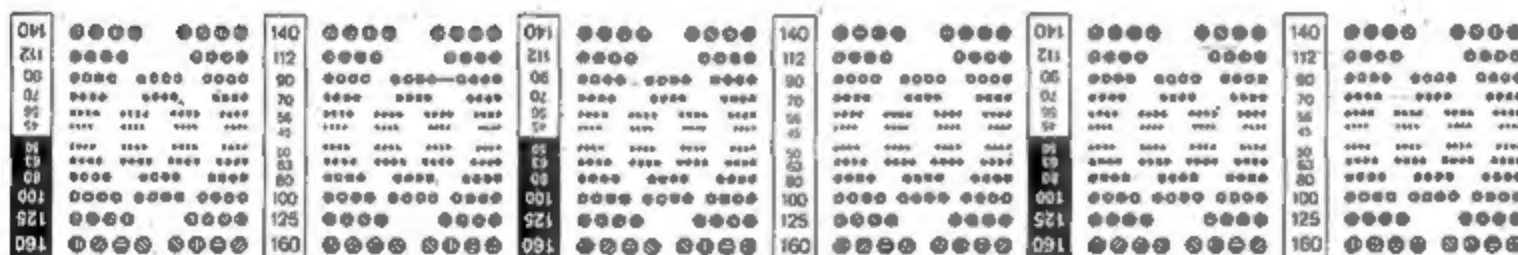
© 1998 A.C.R.P.P.

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx9

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1
NF Z 43-007

AFNOR

Cedex 7 - 92080 PARIS-LA DÉFENSE



الحرورية

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

تصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك هو سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة

٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ - ١٥ يناير سنة ١٩٣٩

العدد ٤٨

وأخذته الحيرة وهو يدنو
منها ماذا عساه أن يقول بعد
هذا الغياب؟ وجمل يدور بعينيه
ليقين ما إذا كان أحد يراه من
أهل القرية... ولكنه حين
أصبح منها على خطوات وحين
وقفت على عيناها عيناها أحس
من نظراتها كأنما أصاب قلبه

من صُور الرّيف
جَلِيلَة
أَقْصُوصٌ مُصَرِّعَةٌ
يَقْتَلِمُ الْأَيْتَادُ مُحَمَّدُ الْجَنيفُ

سهم مسموم...

ومرت به الفتاة مصفارة الوجه لا تكاد تنفجر
شفتاها على رغبها عن بسمه كالشعاع الخافت، حتى
تطبقهما كأنما تداركت أنها تأتي شيئاً محرماً،
وتتجههم للفتى وتتنكر كأنه بات من عدوها؛ ثم
تدور بوجهها متظاهرة أنها تزجر بقرتها فتجذب
جبلها وتستعثرها ولا تستقبل الطريق حتى تفوته
بخطوات.

رأها أول مرة بعد عودته، ولم يبق من الشمس
إلا حمرة طفيفة في أطراف السقف؛ وكانت كمادتها
كل مساء قافلة إلى القرية بعد أن سقت بقرتها من
قناة قرية

أخذتها عيناها مقبلة فصار للقاءها وإنه من فرحه
ليطفر كما يطفر المصفور، وإن قلبه ليخفق خفقات
يكاد لا يقوى عليها جسده، فلقد ارتهكت مفاصله
حتى ما تحمل رجلاه بدنه إلا في مشقة

يرى في لون الشفق مثل حمرة الجفون قرحها للنحيب
والسهر ...

وصات جليلة إلى دارها فربطت بقرتها وألقت
أمامها بعض الملف، ثم تناولات جرتها من فوق
المسطبة القاعة في مدخل الدار وخرجت لملأها
من الساقية، وسارت ثقيلة الخطى كأنما ينقض
ظهرها عب ... وجلست عند الساقية حتى يأتي
دورها، وصاحباتها يتضاحكن ويتمايبن، وهي عنهن
في شغل بما يشغل قوادها، وهن لا يدريين ماذا يكرهها
وكانت من قبل بينهن أسرعهن إلى المزاح وأمهريهن
عند المداعبة، كما كانت تفوقهن جميعاً على كثرتهم
عذوبة روح وخفة حركة ..

وعادت تحمل الحجرة فوق أكتافها، فوضعتها حيث
كانت ثم صعدت إلى سطح الدار فجلست على التراب
شاخصة إلى القمر وبوجهها مثل ما بوجهه من
شحوب ومثل ما به من ملاحظة

ودخل على القرية في نور القمر وإنه ليتوارى
من الأعين في ظلال النخيل والشجر، ولا يدري
لماذا يحس في نفسه الرغبة ألا يراه الناس؛ ولما باغ
منزله وهو في القرية أول ما تقع عليه عين القادم من
الحقول، صعد إلى حجراته ونادى الخادمة فأشملت
له الصباح؛ ثم صرفها مشدداً عليها أنه متعب فلا يجب
أن يرى أحداً وأنه عما قليل سيأوى إلى مضجعه

وأخذ الفتى يفكر وقد طافت برأسه الوسوس
وأخذته الحيرة من أمر تلك الفتاة التي طالما كانت
تبتنى إلى قلبه الوسيلة وتجهد في استرضائه وتحرص
على مودته، والتي بلغ من سرورها بلفائه في العام
الماضي أنها لم تقو وهي في سرب من صاحباتها على
كتمان ما بها حتى لقد سقطت جرتها فتخطمت
وبلات ملابسها وزادت ربة على ربتها

وكيف يحمل على الصبر نفسه، وهو يرى في
هذا الجفاء إهانة له، وأي إهانة أشد وقماً على نفسه

ويقف هو كالتثال لا يبى ولا يتحرك، وقد
جف ريقه وتصبب بالمرق جبينه، ويظل على تلك
الحال الأليمة حتى ينتبه بعد لحظات على صوت رجل
يحياه وقد صر به مسرعاً على ظهر دابته ... فيمد
عينيه ويرسل بصره فلا يراها تلتفت وراءها مرة
حتى تنيب عنه. فيكاد يأكل الغيظ قلبه ويود لو أنه
استطاع أن يسحقها أو يسحق ذلك القلب. ثم إنه
يجر رجله بعد ذلك جراً لا يدري أين يذهب؛ فهو
مأخوذ عن نفسه كمن نزع من الشيطان نزعاً

كان ذلك أول الصيف وقد عاد على إلى القرية
يلتمس في مسارحها الراحة بعد المناء، ويقضى
لبانة نفسه وأرب مشاعره من فنون السحر وضروب
الجمال في مجالها؛ وإنه ليكمل للقرية كل عام أجازته
الطويلة اللهم خلا أيام معدودات يقضيها غريباً على
بعض السواحل ... وإنه ليعس كلما عاد إلى منبته
ومنجم أرومته مثل إحساس النبات جي به إلى يئته
وتربته فترعرع واستنلظ واستوى على سوقه ...

السماء حلو النسيم تبعق أنفاسه الرخية في غير
انقطاع ولا وناء؛ والأفق الغربي بارع الرواء تطرز
حواشيه ظلال الغروب وتتجمع في جوانبه ألوان
الشفق، والحقول منبسطة أمامه إلى آخر ما يمتد إليه
بصره، وهي بين خالية تتناثر فيها بقايا عيدان القمح
بعد الحصاد، وحالية تزينها شجيرات القطن الغالية
التي تقرأ العين في سطورها مبلغ عناء الزارع وكده،
وشجيرات السرو والصفصاف والجيز على جوانب
القدراة مورقة فينانة تتباعد حيناً وتتقارب أحياناً
فتكون منها خائل بهيجة لا تمل الأعين من النظر إليها
ولكن عليها يحس أن هذا المجتلي الساحر قد شملته
في تلك الساعة كآبة قابضة فلم يمد يدي شيئاً من
روائه؛ وإنه ليخيل إليه كأنه من بعيداً غريباً من الوجوم
والوحشة بات ينشئ الفضاء من حوله وأن بالشجر
مثل ما به من هم فهي تمايل من فتور ومسكنة، ثم إنه

ومهما يكن من الأمر فهو لن يحفل بمدى كان أو يلتفت إليه .

كانت جليلة في الثامنة عشرة من عمرها يحسدها صبايا القرية على ما توافى لها من أسباب الجمال . وكان اسمها على السنة الشباب كلما هفا بهم إلى الحب والجمال ذكر ... وكانت تعرف ذلك فتدل به وتزهي ولا ترداد بالدلال إلا ملاحه وفتنة

وماذا عسى أن تبلغ للكلمات من هذا الجمال وفي مقدمة خصائصه الأعجاز ؟ وما كان النظر إليه إلا ليشر الناظر لأول وهلة بالتحدي ، تحدى الريف أنه قد ينبت من الجمال نوعاً تتقاصر عنه المدن ... وتحدى الطبيعة أنها تأتي إذا أرادت بما لا يحسن أن يأتي بمثلها فن مهما تأنى له من قوة التخيل وعمق التأمل وبراعة الابتكار ... وتحدي الفقر أنه قد يبلغ على ضفته منزلة يتحرق الفنى أن يبلغها ولو بخلع رداءه والهبوط من سماءه ، ثم من وراء هذا كله يرى الناظر ذلك السحر الذي يحس ولا يفهم ويسجب ولا يوصف ، ذلك السر الذي يكون قصارى أمرنا فيه هتافنا به وانجذابنا إليه وإذعاننا له ولقد أحس على حينها وقعت عيناه على هذا الجمال أول ما وقفتا كأنما تمثل له طيف أحلامه هيكلا يمشى على الأرض ، وهو لا يدري لهافته على هذا الجمال سبباً غير هذا السبب ، وكثيراً ما حدثه خياله الشاعر أن بهذه الفتاة القروية من السحر ما لم ير في غيرها من بنات الريف أو بنات المدن

كان يخيل إليه أن هذه القسامة لن توجد في وجه غير هذا الوجه ، وكان إذا تأمل في تكوينه يحار أي أجزاءه بحث فيه تلك الفتنة الأخاذة وهاتيك الطلاقة الرائعة ، أما هاتان المينان الساجيتان الدججوان ، أم هو ذلك الغم اللطيف الذي ترف عليه أحلام الصبا وتختلج في بساطه عذاب المنى .. أم هو ذلك الأنف الذي يراه وكأنما صبيغ لينتسق في هذا

من أن يتقدم بالزاني إلى فتاة لا يحسبها تزيد في المرتبة عن خادمته ، فتشيع بوجهها عنه ولا ترضى له مقاماً ثم إنها تظهر الجفاء على غيرة فلا تحفظ الجليل ولا تذكر ما كان بينهما من مودة ولا ما كان منه على بعد ما بينهما في الدرجة من ملاطفة وإحسان وزين له شيطانه أن يمس الحاقدين قد سعى بينها وبينه ، فود لو يعرفه ليديقه من بأسه وليريه عاقبة تطاوله ثم ليرى ما معه مبالغ ماله من جاه وسطوة وليفهمها أنه إن عفا عنها فما ذلك إلا لضعفها وهوان شأنها عنده

وتطوف برأسه فكرة تمذهبه وتزجيجه فهي قد آثرت عليه غيره ؛ وهذا الذي باتت تؤثره قد أخذ عليها العهد ألا تكلم الناس وعلى الأخص لا تكلمه هو ، وإلا فهو لن يعرفها إن فعلت ... وهي إنما تنفذ الآن ما أمرها به لا تنهون فيه ، وما أشد ما ينيظه منها هذا الأذعان لصاحبها وهو لا يراها . أفما كان منها كلمة ثم تنطلق في سبيلها ولا تفجأ هذه المفاجأة للشئمة الوحقة ؟

ثم إن الفتى يفرع إلى النوم من هذه الوسواس فيطفيء الصباح ، ولكنه قبل أن يذهب إلى سريره يطل من النافذة على القرية الهاجمة ، وقد غاب القمر ؛ وما يلبث أن يبتسم كأنما هو يسخر من نفسه ويضحك من أوهامه ، وكأنما يلقي بأفكاره في هذا الفضاء المنبسط أمامه والذي تكتنفه الظلمة فلا يراه وإن كان يعرفه ...

يسخر من نفسه أن كان يحمل كل هذا المم من أجل فتاة قروية ساذجة فقيرة ؛ ورأي المسألة أهون من أن تكدر عليه صفو أجازته ، فانه إلى الراحة في هذا الصيف أشد حاجة منه في كل ما سلف من الأعوام ، لما كان من نصبه في الاستعداد لامتحانه . ولن يخرج الأمر فيها بظن عن أن يكون أبواها قد شدا عليها ألا تطيع غير من شباب أسرته

الجمال ... أم تري هو ذلك الخلد الأسيل المشرب
الصفحة من حمرة الشفق ووضاءة البدر ؟

الحق لقد كان مراد ذلك الجمال إلى هذا كله ،
وقد اختلف على صورة معينة اهتزت لها نفسه وجاوبتها
روحه ، بحيث لو جاء على نسق آخر ما كان له
في قلبه ذلك السحر المجيب ... أضف إلى ذلك
سماحة ونضارة كانت منهما الروعة وكان فيهما السر
وكانما أرادت الطبيعة ألا يكون في هذا الجمال
نقص ، فأودعت فيها سر الأنوثة كأنهم ما تكون
الأنوثة وسوت هيكما بحيث يكون بهجة في منظره
ثم هو في حركته نوع عجيب من الألحان الصامتة
التي تحس النفس فيها وإن لم تقصد معاني الائتلاف
والتناسق والظرف . ولقد كان على يشبه حركاتها
والتفاتاتها بما يكون من حركات المهرة الكريمة التي
لم تتعلم شيئاً مما تبديه من رشاقها فهي تأتي به لأنها
هكذا خلقت ... وإنه ليراها من بعد بين صوحيحاتها
فيميزها منهن بحركة أو التفاتة قبل أن تتحقق من
شخصها عيناه

وكان لها صوت تجمعت فيه كل معاني أنوثتها
وكل خصائص جمالها ، حتى لو قدر للمرء أن يسمع
ذلك الصوت دون أن يرى صاحبه لدل عليها دلالة
للصورة أو دلالة الوصف ... صوت كأنما يملن
به الحب عن نفسه ثم هو يسوقه بعد دليلا على سلطانه
وكان في سجاياها شيء من الكبر فوق ما كان
فيها من الدلال ... ولكنه كان كبراً تحبه النفوس
إذ تشعر أن مبتهه الاحساس بالتفوق والميل إلى
التسامي ، وما كان التبذل ليتفق وهذا الجمال ،
بل ما كان للتواضع إلا لينال من عنفوانه وينتقص
من سلطانه ؛ وكثيراً ما استمتع على بهذا التكبر
لأنه كان يكبر فيه بمعنى السمو ، وإنه ليمجب
ويطرب لتلك النظرات التي كانت تنبث من عينيها
وهي في أسماها ، فلا تكون أقل أنفة واعتزازاً من

نظرات الناشئات في الحرير والورد ، بل لتكونن
أكثر عزرة لأن فيها عفة هي مع الفقر غاية النبيل
هكذا كان نصيب جليلة من الحسن ، بحيث
لو جملوا في الريف ملكة للجمال لاستويت هي على
عرشه ، ولكانت وهي في عرشها المتخذ من
الصفصاف والسعف والكافور والسعد ، أسمى منزلة
في الجمال من كثيرات تربن على عروش الذهب
والدمقس

وكان على يستشرف للحادية والمشرين وهو
في القرية سيد ابن سيد ، لأسرته الرياسة والحكم
فيها منذ أكثر من مائة عام ، وقد انحصرت الرياسة
في هذا البيت لا عن جيروت وبطش كما هو الشأن
في كثير من البيوت في الريف ، ولكن عن كرم
محدد وطيب عنصر وسماحة

ولئن لم تكن تلك الأسرة بذات ثروة واسعة
كثيرها من الأسرى القرى المجاورة ، فلقد كان لها
من حسن سمعتها وعراقة أصلها ما رفع قدرها في
أعين الأجباب والخصوم على السواء

وكان على يحب الفلاحين ويمطف عليهم ،
وكثيراً ما كان يجلس إلى جماعتهم يتفياون ظلال
الأشجار في أوقات المسير وينعمون بالهواء الرخي
على ضفاف الترع في ساعات الأسيل ويسمرون على
جوانب البيادر في ليالي القمر ؛ ولقد أحبه هؤلاء
الفلاحون وأكبروه ، وما لبثت أن ارتفعت بينه
وبينهم الكلفة فصار كأنه أحدهم ؛ وهو في القرية
يحس كأنما انقطعت الصلة بينه وبين المدينة حتى
كأنه ما خرج منها قط ، وكثيراً ما كان يضحك بينه
وبين نفسه ، إذا تصور ما عسى أن يقوله شاب من
خلانه من أهل المدينة إذا هبط للقرية ورآه في جليابه
الفضفاض جالساً في ذروة كومة من الرماد تحت
سرحة أو على بقايا حصير في مصلى على ضفة قناة ؛
ولكنه لن يعبأ بذلك ولن يرى شيئاً أوجب إليه من

أن يطلق نفسه على سجيته

وكان لا يغيب عن القرية إلا ازداد حباً لها
وتعلقاً بكل ما فيها ، فإذا آب راح يتملى كل شيء
حسنة لا يستثنى منظرأ مهما هان أمره ، وبخاصة
تلك الملاعب التي كان لا يفتأ وهو غلام يثب في
أنحائها ويرف كما يرف الفراش ... تلك المسارح
الخضراء في ظلال النخيل وحول أشجار الليمون
والنارج في بستان أسرته ... وهاتيك الظلال
الوارفة التي تدسها شمائل التوت على ضفة التربة
الكبيرة في الحقل البعيد ...

وكان على يستصحب معه بعض الكتب كل
عام وكان أكثرها دواوين شعر وقصص ، وما كان
أعجب أمر هذا الفلاح الشاعر حين يقلب صفحات
الشعر يقرأ تارة للمتنبي وتارة لبيرون في تلك القرية
فيرى في كل شيء لمحة واختلاجة تصور ما تنطوي
عليه نفسه ... إذ كانت مناظر قريته أعز عنده
وأحب إلى فؤاده من كل ما تجيء به الكتب

في وسط هذا الكون الذي ينسج بروائح الجنة
وفي ميعه هذا للشباب التوثب المتفتى ، وفي نشوة
هذا الخيال الشاعر ، رأى على جليلة وكان ذلك منذ
عامين حين كانت في السادسة عشرة تسويها يد
الطبيعة وتفيض عليها من رونقها ، وتبرز محاسنها
وتوضح مفاتيحها

رأها الفتى فمجب كيف لم يرها من قبل ،
وما أسرع ما نسى ما بينها وبينه من الفوارق ،
فصار يرى فيها خلاصة ما في القرية من سحر ،
وكان جمال تلك القرية بكل ما يسع من الماء قد
تجسم فكان هاتيك الفتاة . بل لقد غدت عنده هي
التي تبت في تلك البقعة من الوجود كل ما يجيبها إلى
نفسه ويربطها بمشاعره

وحادثها فلم تمرض عنه أو تهيب من مودته .
فكانت لا تزال غريزة لاهية ، ثم إنها كانت تراه

يسطف على أخيها ، وهو فتى في مثل سنه ، وكان
أخوها يثنى عليه إذا جاء ذكره ويصف لأبيه وأمه
طيب قلبه وتواضعه وسخاء يده . وعرفت جليلة
هذا السخاء بمد حين فيا كانت تبينه له من الخضر
التي كان يشتريها ولا حاجة به إليها فينقدها أضعاف
ثمها وهو مقتبط بهذه الوسيلة التي بها يستطيع أن
يسطيها من ماله دون تخرج أو استحياء ، وإنه ليذكر
ما عراه من الاضطراب وعراها من الحياء يوم غير
طريقته في المطاء لأول مرة فقال لها : « خذي
هذا ثمناً لتلك الخضر وهذا لك أنت »

واطمأنت الفتاة إليه وصارت تحرص على لقائه
على علم من أمها إذ كان يسرها سخاؤه ؛ وما كان
على يقبض يده عنها قط وما كانت هي تردد أن تمد
يدها لتتال ما يمنحها حتى لقد دعاه ذلك أن يحمل
إليها من القاهرة بعض الهدايا كلما آب إلى القرية ،
وإنها لتفرح بذلك أشد الفرح وما كان أشد غبطته
وابتهاجه حين كانت تتقبل هداياه بقولها : « كتر
خيرك يا سيدي . ربنا بخليك لنا »

ذكر على ذلك حيناً رأى من الفتاة ما رأى من
إعراض وصد ؛ وأخذته حال عجيبة من الحيرة والآلم
مما ؛ وصار إذا أبجه فكره إليها يتنازعه مزيج من
الصفح والنضب والهم والتأسي ، وكثيراً ما كان يسخر
من حاله ويرد ما هو فيه إلى الوم والخيال ... ولكنه
يعود فيسأل نفسه أهو يحب تلك الفتاة ؟ فإذا أجابته
نفسه بالنفي تسأل فيم إذا هذا الهم كله من أجلها ؟
وماذا يهمه من إعراضها عنه وهي مهما تطاولت
لا تزيد حريته على خادمته ؟ وإذا أجابته نفسه أنه
يحبها ازدادت حيرة وراح يتساءل ما غرضه من هذا
الحب ؟ إنه لا يعرف السوء ولا يطبق حتى مجرد
ذكره ، وهو يسمو بروحه عن مواطن الفواية ،
ويقوي على عصيان الشيطان قوة قلما تتاح لمن كان
في مثل سنه ، كما أنه من خياله وحسه يسبح أبدأ

ولكن ذلك كان قصاراه منها ؛ كان حسبه أن ينم
بالجمال في صورة من صورته وفي نمط من أنماطه وأن
يستمتع به استمتاع صاحب الفن بتمثال من تماثيله ،
فما كان يرى فيها أكثر مما يراه في دمية من الدمى
إلا أنها تتحرك وتنطق وتبتسم !

والآن تبس دميته وتغر به كأن لم يكن بينها
وبينه شيء ! وما كان ذلك منها عن غضب فكثيراً
ما رآها من قبل غاضبة ، ولكنه يكن لم يري في ملاحظها
وعينها من المعاني مثل ما يري اليوم ؛ إنه يري القطيعة
سافرة جليلة بحيث لا يخالجه فيها شك ؛ وهذا المم
الذي يرسم على عياها وتلك الصفرة التي باتت تنشأ
وهذا السكون الذي حل محل الجذل والمرح في
طبيعتها ، إنما هي دلائل لا يغفل عنها إلا غرأ وأحمق .
ولكن فلتنقل جليلة كما تشاء أو كما يشاء لها صاحبها
فهو لن يشغل بها نفسه بعد اليوم . ذلك ما وطد
عليه العزم

تجنب على طريقها فلم يعد يراها ، وأعرض عن
أخيها فلم يعد يدعو إليه ، وخاصم أمها فلم يعد يرد
عليها تحياتها إلا بقدر ؟ ورأى أبوها أنه لا يتحرك
للدفاع عنه إذا شكاه إلى عمه العمدة شاك من الدائنين
أو إذا اعتدى عليه معتد من الفلاحين ؛ وحارت
تلك الأسرة في ذلك أول الأمر ولكنهم ردوه إلى
ما استقر في نفوسهم من معان وما علق بخيالهم من
صفات ينعت بها كثير من الفلاحين في قرى مصر
ذوى الجاه والنفوذ فيهم ، مهما تبين لهم مما ينهض
دليلاً على عكس ما يعتقدون ؛ وإنهم ليؤمنون بتلك
الآفكار إيماناً كونه فيهم ما تدودوا أن يذوقوه من
البعاش والجورم وأجلافهم طوال القرون وهم
يسلمون على تلك التربة لياكلوا ويلتفسوا ولو كما
تأكل وتنفس الدواب !

ومضى شهر من الأجازة وعلى لا يرى جليلة ،
ولكنه لم يطق أن يبقى حيث هو طول هذا الشهر ،

في عالم من الشعر والسحر لا يري فيه الجمال إلا على
أنه وسيلة تتخلص بها النفس من هذا العطين وتتطلع
بوحيه صوب السماء ، ولكن كان له في هذا الجمال
الذي أسبغته الطبيعة على تلك الفتاة ، من ضروب
الوحي وصنوف الإلهام

وإذا كان هذا أمراً فلم يبق من غاية إلا الزواج ،
ولكنها غاية أبعد من المستحيل ، فما زال سلطان
العرف في مصر يضع بين الطبقات من الحوائل
والموانئ ما لا تكسره إلا ثورة جارفة أو حجب قد
تمتد حتى تبلغ القرون . وهل يجوز في عقل أن يقدم
شاب من أسرة كآسرة ، له مثل ثقافته ونظرته
إلى الحياة ، فيمد يده إلى فتاة كذلك الفتاة التي
ما عرفت سوى دارها وحقلها والتي مارأت غير أهل
قربتها من الناس إلا من يجيئون إليها من الباعة
والشترين يوم السوق من كل أسبوع ؟ إنه لكي
يفعل هذا لا بد له من أحد أمرين : السر ، وهذا غير
مقبول ولا مقبول ولا طم له ، أو العلن ، وهذا معناه
في رأي الناس الجنون

وإذا كان هذا موقفه من جليلة فقيم إذا كان
اتصاله بها مدة عامين ؟ وكيف يفسر تلك الصلة ؟
ألم يك يحرص على لقائها فيجلس وإياها إذا جنهما
الليل وسترهما عن أعين الرقباء وينم بمحدثها الساذج
ساعة أو بمض ساعة ؟ ألم يك يمد إلى المرور بمحفلها
الصغير مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد كلما علم أنها
هناك في بعض شأنها ؟ ثم ألم يك يجعل مسيره عصر
كل يوم في طريقها إلى التربة لكي يراها بخاطر بين
أربابها من حاملات الجرار فلا يتحول بصره عن
صدرها الناهد وعن قوامها المرفف الرشيق حتى
تغيب عنه ، وفي نفسه نشوة قوية تهزه إثر نظرة من
نظراتها أو إثر ابتسامة خفية لا تلبث حتى تطفئها
وقد أثلج فؤادها أنه رآها ؟

ذلك كله حق لا مريية فيه ولا أثر خيال أو وهم ؛

وأقبل الليل فأقبلت عائشة فأشارت إليه بيدها وهو جالس أمام داره ، تخف إليها فأسرت في أذنه كلمات ثم انصرفت مسرعة وجالس هو يفكر ، وفي نفسه نشوة كنشوة النصر

أمام دار من تلك الدور المتواضعة ، في دزب من الدروب الضيقة خلف « دوار » العمدة ، اجتمع لفيف من الشبان لسماح « المواويل » يتغنى بها في سكون الليل إبراهيم ، ذلك الذي يتبسم شباب القرية أبنا سار ويتحلفون حوله في كل سامر ، يتمتعون أنفسهم بتلك الأغاني الحلوة التي يرتجلها في يسر عجيب وفي رشاقة تسحر الأبواب ويديرها على كل معنى يخطر له أو يقترح عليه . وكان إبراهيم في تلك الليلة في حال من التجلي ارتفع بها عن مستواه ؛ فاقصد كانت ليلة من ليالي عرس صاحبه حسن ، ولذلك اكتظت الحارة بالجالسين حتى لم يبق فيها إلا ممر ضيق يسلكه القادمون في عسر شديد ؛ وكان أمام دار حسن في تلك الليلة « كارب » وهاج يشيع الضوء في الحارة كلها ، لذلك لم تجلس للفتيات كما تمودن أن يجلسن إلى جوانب الحيطان فأوين إلى سطوح الدور ليستمن مسعورات طروبات .. وعلى سطح إحدى الدور الملاصقة « الدوار » العمدة جلست عائشة وجليلة ؛ وكانت عائشة قد أغلقت باب دارها حتى لا يصمد إلى سطحها أحد من البنات .

جلست البناتان على حافة السطح ، أما إحداها فكانت مقبلة على إبراهيم تني مواويله بسممها وقلها وأما الأخرى فهي جليلة فلم تك تسمع شيئاً وما هي إلا برهة حتى نزل شبح على سلم كانت وضعت عائشة على جدار « الدوار » ، وغمرت عائشة صاحبها بأصبعها فأقافت صرناعة ونظرت فإذا هو على ..

ونهضتا للقاءه فسارتا بضع خطوات على استحياء

كما أنه لم يستطع أن يسافر فيبعد كل البعد ، ولذلك آثر أن يذهب إلى حيث يقيم جماعة من البدو في حقل لأسرته بعيد فأقام هناك في شبه عزلة ، وهو يتملل بمحاجته إلى الهدوء والراحة والهواء النقي

وخطر له ذات صباح أن يعود إلى القرية فولى وجهه شطرها ، وسار حتى أصبح منها غير بعيد فلمحت عيناه سرباً من البنات كن عائدات من للترعة ورأى فيهن جليلة فأثر أن يمضي على مهل حتى لا يدركهن ، ثم رأى إحداهن تتأخر عنهن فكاد يدخل في روعه أنها هي لولا أنه تبين أنها عائشة ، ومن عجيب أمره في تلك اللحظة أنه تأهب ليحدثها كأنما نسي غضبه وترفعه . ثم إنه أدرك عائشة فحيتها باسمه وحياتها ، فرأى في وجهها وعينيها أنها تود أن تقول شيئاً ولكنها تحار كيف تبدأ الحديث فبدأ هو بسؤالها لم تخلفت عن صاحباتها ، وكأنما فتح لها هذا السؤال باب الحديث على مصراعيه فأجابت في خفة وفي خبث :

— عاززه أقول لك كله يا سيدي

— قولي

— رأيتك من بعد فأحببت أن أكلمك فأنا من أيام أريد ذلك

— وهل رأيتني وحدك ؟

— لا . رأيتك كلنا وجليلة في الأول

— لا . لا أحب أن أسمع اسمها أو سيرتها

— كيف وهي دائماً تذكرك وتشكر

— كاذبة .. كاذبة ؛ قابليني فيما بعد ... قابليني

فيما بعد

وأسرع على في مشيته وترك عائشة في حيرة شديدة واضطراب ؛ ولم يتوقف أو يعطى حتى بلغ القرية فأسرع فدخل منزله ، وصرت عائشة بعد برهة وفي وجهها كدرة من أثر الخيبة ، وذهل مما فعلت به الدهشة

باكية وهو يصدها، وأما من قريب تدعو عليه دعوة ارتاع لها فؤاده...

وأخذت الأيام تنصرم، وكان على يرى صاحبه من بعد إذا ساقته إليها المصادفة، وكانت إذا أمنت الرقيب تدنو منه فتحييه باسمه ويحييها... ولكنه لم يعد يرى في وجهها شيئاً من تلك المعاني التي يفهمها الماشقون باللمحة الخاطفة دون حاجة منهم إلى لغة الكلام... واكتفى على بذلك، وكانا هان أمر تلك الفتاة عنده، فلقد استشمر الراحة بعد تضرعها إليه وبكائها بين يديه في تلك الليلة التي لا ينساها؛ وكان إذا همس بمردها في نفسه هاجس أنها تخدعه، وأنها تحب فتى من طبقها حاول أن يرضى بذلك، بل لقد صور له قلبه أن يكون قصارى حبه لها للعمل على إسعادها ما وسعه الاسعاد، وكان يسأل نفسه كلما ذبت للغيرة إلى قلبه: ماذا يريد منها؟ وماذا ينتظر سوى أن تحب فتى على شاكلتها تأمل من وراء حبه ما تأمله فتاة في مثل عمرها؟

وأوشكت أجازته أن تنتهي فلم يبق منها إلا شهر أو نحوه. وأقبل الخريف السمع على القرية يمسح عليها بكفه وينفجها بأنفاسه، وغصت الطرقات بين المزارع في البكر والآصال بالبنات والصبية يسرون جماعات إلى الحقول ويمودون منها بعد جمع تلك الثمرة البيضاء الغالية التي ما زال الفلاحون يماقون عليها الآمال كل عام على رغم ما لحق بها من كساد وما أصابها من بوار. والمزارعون يمودون بالقطن في الأعدال فيكون في منظره وهم يدخلون به القرية فرحة السنة وبشير الخير، وإن كان منهم من ينمي على القطن وسنيته «اللي بقت زى الزفت»

وكان يحشد من أبناء القرية وبناتها عدد كبير لجمع قطن العمدة وأسرته، فبذل على كل ما في وسعه لكي تكون جليلة بين هؤلاء فيحدثها وتحدثه ولو مرة قبل أن يسافر، ومالبت أن تذكر أن أباه

قد يده دون أن يتكلم وأخذتها عائشة فقيلتها، وأمحتت جليلة تلثمها ولكنه شدها سريعاً وجلس فجلسا أمامه...

ولم يدر أول الأمر ماذا يقول، ولكنه داعبهما مشيراً إلى ما يسمع من معاني الحب ترخر بها أغنيات إبراهيم. ثم أشار إلى عائشة من طرف خفي فطلبت إلى جليلة أن تنتظرها برهة ريثما تمود ونزلت إلى فناء الدار... فلما انفردا قال لفتاته: — أهكذا يصير ما بيننا؟

— لا شيء يا سيدي، أنا خادمك، وسأبقى خادمك. أنا «غليانه» والناس يهتمونني إذا... أعني أخاف أن «يميل بختي».. وأنا أحلف لهم فلا يصدقونني، أبداً لا يمكن أن أرى مثلك وسأبقى طول عمري أحلف بحياتك. بس أنا خائفة من «ميلة البخت»

— وماذا أردت من مقابلي؟

— أردت أن أعتذر إليك وأرجوك أن تنساني فأنا خادمك يا سيدي فلا أستحق أن يهتم بي مثلك إني لن أنساك أبداً... أبداً ولي عندك يا سيدي مسألة؛ ابن عمك سيدي محمد يريد أن يحجز على الجاموسة في نظير الإيجار المتأخر فمن أجل خاطري قل له ينتظر حتى يفرجها ربنا الله بخليك لنا يارب.

وأجهشت الفتاة، ولكنها كتمت بكاءها خشية أن يسمها أحد، واستجمع على قوته وأخذها بين ذراعيه لأول مرة منذ رآها وضمها إلى صدره وأحس بدموعها تبلل شفثيه، ثم همس في أذنها قائلاً: «لا تخافي قلن يحجز عليك أحد وأنا موجود»... وهم فصعد على السلم وتركها وحدها

في حال أشبه بالانغماء، وآوى إلى مضجعه وهو لا يدرى إن كان ما وقع حقيقة أم كان في حلم؟ ورأى تلك الليلة فيما يرى النائم أن جليلة أمامه تتوسل إليه

يريقهما لولا بقايا من فتور زادتها ملاحه وسحرأ ؛
وقام بنو الأعمام متظاهرين أنهم يفتشون وراء
الخلوى وأعوانه ... وكان يذهب كل منهم إلى حيث
كانت جليلة تجمع القطن فيحييها وبلاطفها وهي
لا تجيب إلا بابتسامة هادئة ... أما محمد فربها وفي

عينيه شروفي وجهه عبوس وحلق

وحاول على أن يذهب كما ذهبوا ولكنه بقي
مكانه متردداً ؛ ولقد كان يحيل إليه أن الأنظار جميعاً
لا بد أن تنجبه إليه إن هو فعل وهو لا قبل له بالتميزات
تبادلها الخبيثات من البنات ؛ وعلى الرغم من أنه كان
يدرك أن موسم جمع القطن موسم تطلق فيه الحرية
بعض الشيء ، فقد بقي مكانه لا يتحرك ؛ وكان يكتفي
بنظرة من عيني صاحبتة كلما جاءت إلى « الفرش »
على رأس الحقل لتضع فوق كومتها ما جمعت ...
على أنه كان يتبرم أحياناً لندرة مجيئها ، ولأنها لا تأتي
إلى التربة لتشرب كما يفعل غيرها كأنها لا تحب أن
تبادل النظرات ، وكأنها إنما تأتي لتضع القطن
فحسب ...

وجاء فتى من القرية يدعى أحمد طويل القامة
أبلج الجبين ، طلق الحيا ، في عينيه خبث وفي نظره
جراة وذكاء ؛ ودخل بين الخدم ولم يدعه أحد وراح
يجيب « الطلبات » في خفة وسرعة ويؤدي ما يطلب
منه في لباقة عجيبة ، حتى لقد صار لا ينادى غيره ،
فهو طوراً ينقل الفرش إلى الظل ، وطوراً يصنع
الشاي ويدبر كؤوسه ، وطوراً يشغل نفسه بأعداد
الطعام ...

وفي الظهيرة خرجت الماملات يطعمن ويتلمسن
في ظلال الشجر مقيلهن ؛ وبسطت كل منهن خرقة
فيها طعامها ، وجلسن يأكلن على ضفة التربة وقام
على فريهن ، ونظر ماذا تأكل جليلة ، فلم يجد على
خرقتها غير الخبز المتخذ من الدرة ؛ وقطعة من الجبن
وبعض الملح ، وراعه سفرة قاعة تمشت في وجهها ،

مدين لابن عمه فلتعمل أياماً نظير جزء من هذا
الدين وليضاعف هو لها الأجر سرأ ، ولجأ إلى
صاحباتها فخبين إليها ذلك كأنه من لديهن حتى قبلته
من أجل أبيها ؛ وسرعلى بذلك وأخذ يترقب في شوق
شديد ...

وحان يوم الجمع في حقول الأسرة وخرجت
جليلة مع « القافلة » كما يسميها الفلاحون في هذه
القرية ، ولقد جرت العادة أن تكون على رأس كل
قافلة امرأة تتعهد بجمع البنات تسمى « شيخة
القافلة » وقابل على « الشيخة » في الليلة السالفة
وأوصاها بجليلة وشدد عليها أن تتأكد من
حضورها كل يوم

ولم يشأ أن يذهب على أول يوم إلى الحقل إلا عند
الأميل ؛ ولقد استطاع أن يحمل على الصبر نفسه
طول النهار ، ولما ذهب وجد محمداً يزن للبنات لكل
ما جمعت ويكتب ذلك ابن عم آخر في كراسة ، ووقف
على ينظر فلما جاء دور جليلة أبصر محمداً يداعبها
ويطيل في مداعبتها ولكنها لا ترد إلا بابتسامة خفيفة
ثم تدير وجهها عنه ؛ ورأى على أن ذلك يؤله وإن
كان يخفى ذلك الألم ، فأوجس في نفسه خيفة عليها
فما كان محمد بالذي يرضى أن تتكبر عليه فلاحه وهو
الذي يخشى الرجال والشباب بأسه ويتوقون جرأته
وبطشه بله النساء والبنات

وفي اليوم الثاني بكر على إلى الحقل في رفقة من
بنو أعمامه فسبقوا إليه للقافلة ، وقد حمل الخادمون
لهم سجادة ووسائد فرشوها تحت شجرة ؛ ولم تك
ترتفع الشمس على الأفق حتى أقبلت الماملات ،
ونزلت كل واحدة في خطها ، وبعد ساعة أو نحوها
خرجن بـ « الوش » الأول ووضعت كل فتاة قطعها
في كومة ...

وكانت جليلة في ذلك اليوم فتنة الحقل وبهجته ،
عادت إلى وجهها نصرته وبشاشته ، وعاد إلى عينيها

مقربة منهما رجال لفهم الغلام وقد هجمت القرية ،
وتقدم أحد الرجال فهمس في أذن محمد وعاد إلى
موضعه ، وغمز محمد الخفير ، فسحب حماراً ومشي
به خطوات وقد أقبل نحوه شبح فلما سار أمامه
أمسك به ونفخ في « صفارة » وتجمع الرجال
وقد هب بعضهم من النوم ، وجاؤا يستفهمون
فوجدوا أحمد يساق إلى « دوار » للعمدة لأنه
سرق حماراً من ذرية البستاني

وشهد الشهود وكتب المحضر وسبق السكين
إلى « نقطة البوليس » ، وأصبح حديث القرية
كلها في اليوم التالي . وراحت جليلة تبكي حظه
للمأثر فلا أقل من ستة أشهر يقضيها فتاهها في
السجن كما يخبرها بذلك المارفون ...

وعرف العمدة حقيقة الأمر ، فدعا أبا الفتاة
وأما ، وأمرها في طهجة صارمة أن تزوجها من
ابن خالتها إسماعيل خشية أن يفتضح أمرها وأن
يتقول عليها الناس الأفاويل ... وجيء بالمأذون بعد
ساعة وأرغمت البنت إرغاماً على القبول فأعطت
« التوكيل » وإنها لتوشك أن تموت من الغيظ
والحسرة ...

وسافر على بعد أيام ولو أنه بقي لرأى مكان
جليلة فتاة غير فتاته التي أحبها . لو أنه بقي لرأى
بقايا هيكل من جمال وسحر ، يبعث منظره اليوم في
النفوس من حسرة وألم بقدر ما كان يبعث فيها
ألم من نشوة وقتون ، وهل كان يقوى على رؤية
جسدها الناحل الهزيل ووجهها الذي يلوح عليه
شبح الموت ، وعينيها اللتين أصبحتا تهربان عن
الألم واللوعة ؟ حسبه ما يؤرقه إذا أراد للنوم ،
وما يشغل باله من هم كلما ذكر ذلك الحلم الذي أفاق
منه على توسل جليلة ودعوة أمها

الخفيف

وضريح من الدهشة والخوف يختلج في عيائها . . .
وكانت قد بسطت مائدة الطعام وتحلق حول
الصينية النحاسية الكبيرة بنو الأعمام ، فنادوا
هلياً فجلس وأخذ من الطعام جزءاً بيديه ونادى
إحدى الخاديمات فأمرها أن تذهب به إلى جليلة ،
ولم يبال في تلك اللحظة ما ارتسم على وجوه الجميع
من دهشة وسخرية ، وتلفت فلماذا رأى ؟ أيمكن ذلك ؟
ها هي ذى جليلة تريد أن ترفض معتذرة ! ولا حظ
عليها أنها تمد يدها تارة وتستردها ناظرة إلى أحمد
وهو يحدهما حدج اللامة ، ولكنها لم تستطع آخر
الأمر إلا أن تأخذ الطعام فتضمه أمامها . وصربها
أحمد بعد برهة وقد جل إليها بمض الحلوى مما بقي
على المائدة فأخذتها مطرقة وفي وجهها ووجهه من
المانى مالا يخفى على أحد

إذا لقد انكشف الأمر ؛ ولكن لينته ما انكشف !
لقد تربد وجهه على وأظلمت في عينيها الدنيا ، وصارت
تأكل الفيرة قلبه ، وعبثاً حاول أن يهدي نفسه ،
فلقد غابت عنه فلسفته ؛ وذهل منطقته وتبدد حلمه ،
أوتبيمه هذه الفتاة من أجل أحمد ؟ وكيف اجترأت
على خداعه والكربه ؟ ألا إنه لخدوع غرثم إنه
لماثق أحق . ذلك ما كانت تحده به نفسه ؛ وفي تلك
اللحظة التي يعمى الحقد فيها البصائر ، حدث على
محمد آ حديثاً ، يا شؤمه من حديث !

انقضى اليوم ، وسار البنات تلقاء للقرية ،
وركب على دابة لتمود به فلما كان مما به من هم يقوى
على المشي ، وكأنما أرادت الظروف أن تكيد له كل
الكيد فيها هو ذا يرى جليلة وأحمد تحت شجرة
يتناحيان ، ولما رآه الفتى من بعد أسرع الخطى
واختفى ... واختفت جليلة ولم تمد بعد لجمع القطن
انقضت أيام وفرغت القرية من جمع القطن ،
وشملها فنور الخريف وطافت بها طيوفه . . وفي ذات
ليلة كان يقف محمد وإلى جانبه أحد الخفراء وعلى

وكان النسيم يداعب شعورها
الأسود الفاحم الغدودن ليسرق
عطره، وينشره في ذلك الكون
المنظّم أرجاءً ينمش النفوس
بالأمل، أو يكون للضالين قبسة
من سبناه !
تري لماذا أرسلت هذا
الدثار الأسود الحزين، فوق تلك

عزير الماء

أقصو صخرة مصرية
يقلم الأستاذ دريني خشبة

الشفوف البيض الحربية !
تري لماذا جلست وحدها فوق تلك الصخرة
الفريدة النائية عن السويس، في تلك الساعة التي
توشك أن تنام فيها الطبيعة ؟
كل شيء ساكن هادي، إلا خرير الماء
ورشاش الشج
الشمس تاج أبواب المغرب، والبدر يذر من
بيان المشرق ...
الشمس تحتم كتاب النهار ... والبدر يغني
أنشودة الليل ...
فيا ترى لم جلست هذه الحسناء وحدها
هناك ... فوق تلك الصخرة الفريدة ؟

فيم تفكر ؟
أوه ! إنها تبكي !
يا لله ! ألا ما أجمل الدموع في عيون المنداري ؟
ألا ما أجمل المنداء تبكي وحدها في دنيا جميلة كهذه
من شفق وبنفسج ونسيم وبر وبحر وأرض وسما
وليل مقبل ونهار مول ؟
فيم تبكي يا ترى ! ألا ما أغلى هذه الدموع التي
تنسكب من هذه العيون !
إسمي يا طبيعة ! إن عذراءك تنفي :

كانت تجلس وحدها على صخرة فريدة من تلك
المخور الوردية التي تشرف على هذا البحر القديم
الكريم المقدس، بحر النازم كما كان يسميه العرب،
أو البحر الأحمر كما تسميه الطبيعة والشعر، لأنه بحر
الزبرجد والمقيق والمرجان، وبحر الجمال والذكريات
والجوارى المنشئات !

وكانت الشمس تهبط إلى الأفق، متأججة في
السحاب المنتثرة في سماء السويس الساحرة، فتوشى
أذيالها بالشفق، وتثر في اللجة دنانير الذهب،
وتسكب في حواشها ذوب اللجين ... ثم تمحور
للطبيعة كلها هيكل تلك الراهبة الصامته، الجالسة
فوق الصخرة الفريدة تفكر ساهمة، وتمتلئ من
جمال الله ووحدانيته، وتمبده في هذه الآثار الجليلة
الجميلة الكاملة التي أبدعتها يده، وبرأتها قدرته،
فهي عندها الدليل عليه، والوسيلة إليه ...

وكان النسيم الرخي يهب في أنفاس المغرب كأنما
عمرته هزة من ذكريات موسى حينما لح المصرية الجميلة
الرائمة تشرف على بحره القديم الكريم المقدس فيكاد
يكون فرقين لتخوض بينهما فتغلب بحسباء دره،
وتلهو بمكنون مرجانه ...

كانت تنظر بسينها النجلاوين في الوج المضطرب

«ما أنفك أيها البحر ، لم قنلت حبيبي ؟»
إنها تسرد مأساة غرامها ، وهامى ذى تنغم من
بحر موسى ما أطبق موجه على ابن فرعون !
مسكينة أيتها المذراء ، لقد تخضب مرجان
البحر بدماء حبيبك ، وتفتحت أصدافه لتلقف
أنفاسه ليكتسب الدر سناءها !

كان علوى يذرع رمال الشاطئ* في هذه الهدأة
الرائحة من مغرب السويس ، حينما لمح الفتاة الباكية
تجلس وحدها فوق الصخرة الفريدة ، ترسل في أطباق
الموج نظراتها المندأة

لقد أحس الشاب بماطفة قوية تجذبه إلى حيث
جلست الفتاة ، فهرول كالشبح بين الكتيبان الناعمة
حتى كان قاب قوسين من صخرتها ، فجلس في كن
يسمع إلى بكائها وغنائها ، فاذا بالبكاء والغناء قصة
حب دامية ، وإذا الفتاة قد أقبلت من جهة بعيدة
نائية تصلى من أجل حبيبها ، وتذرف الدموع حارة
سخينة على ذكراه !

ولقد كان علوى ينظر إلى الفتاة من كنهه ،
فيراها ملاكا نورانيا صورته يد القدرة في نسيم
البحر الأحمر ، أو طبيسته في أديم سحائه ؛ وكانت
جلستها جلسة شمسية ، لأنها لم تكن تلتفت حولها
بمنة أو يسرة ، بل كانت تثبت عينيها في لجة واحدة ..
وتبكي ! وبكاء عذراء تجلس وحدها فوق صخرة
موحشة من صخور هذا البحر ، شيء يشير الفضول
في قواد العابر ، وخاصة إذا كان في مثل شباب
علوى المشبوب

لقد لمح علوى جمالا يشير الألم في النفس ...
جمالا غامضا من ذاك الجمال النادر الذى يخلقه الله
كما يخلق المعجزات

وجه حزين ، بيد أنه جميل فتان رائع .. وجسم
شفه الوجد وأضنته الأحزان ، بيد أنه أهيف ممشوق
يتثنى ... وثوبان ، أما أحدهما فأبيض كالنهار
وأما الآخر فأسود كالليل ، يتهدل فوقهما شعر فاحم
خلق للحب ولم يخاف للأحزان !

وعجب علوى لغناء الفتاة ، لأنه كان يتشقق عن
نفس باكية ، وروح وفية ، في صوت بللته الدموع ،
وأنفاس صهرتها نيران الألم ، وعاطفة مكبوتة محبوسة
لا يفرج عنها الشدو إلا قليلا

ثم صمتت الفتاة فجأة ، لأن للقرص الملتب أخذ
يستتر رويدا وراء الأفق ؛ ونضت ثوبها الأسود
في هدوء وتؤدة ، وتزعّت حذاءيها ، وكشفت عن
ساقها ، فاختلط بياض الحرير ببياض اللحم الوردى
وقبل أن يختفى القرص الملتب كله ... أوحى
لم يبق منه إلا هذه البضعة التى تحكى الجرح في كف
الأفق ... تجردت الفتاة من ثوبها الأبيض كذلك
ثم وقفت عروسا من عرائس الماء مادة ذراعها نحو
البحر ... وهبطت إلى الماء فجأة ففاصت فيه

وأفاق علوى من الطلسم الذى سحر قلبه حينما
شهد الفتاة تتجرد من ثوبها ، وذكر أن هذا الجزء
من الشاطئ* هو أخطر الجهات للاستحمام ، لكثرة
مابه من الصخور المؤذية ، وما يأوى إليه عادة من
حيوان هذا البحر ليستخفى فيه ... وإن تكن تلك
خرافة انتشرت بين أهل السويس ، لم تؤيدها
حجة ، ولم يقم على صحتها برهان

ذكر ذلك علوى فبرز من غيبته على عجل ...
ونضا ثيابه على عجل كذلك ، وكانت فكرة جديدة
من ألوف الأفكار التى ترد في الخاطر في مثل تلك
اللحظة تريد في عجلته ، وتضاعف نشاطه ، حتى

قريبة من سطح الماء ، فوقف فوقها مشهورا مكدودا ،
لا يكاد يحسك نفسه من التعب
وكان القمر المصري الجليل قد أخذ يسكب فضته
فوق الكون الهامد إلا من جرجرة الزوج حول
الصخرة التي وقف فوقها علوى الحائر ...
فيا ترى ؟ هل يسخر القمر بعلوى ، كما سخر
به البحر ؟ !

أين الفتاة يا ترى ؟
لقد راح المسكين يبحث عنها بعينه المرتبشتين
في آفاق الماء ... لكنه لم يجد شيئا ، غير لجة عند
لجة عند أخرى ... !!

هل غرقت ؟
ولم لا يكون ذلك ؟
إن هذا بحر تفرق فيه الجن ، فما بال فتاة طرية
حزينة كمود القصب الرقيق ؟
أخذ علوى طائف من الحزن والوجوم وأخذت
الوساوس تمصف في قلبه ، وشمر كأن كنزا بأكله
من السعادة والهناء قد أفلت من يديه .. وراح وهو
فوق الصخرة ، وحوله هذا الموج المفترس ، يستعيد
رجع الفناء الذي ملأ أذنيه فوق الشاطئ ، فلا يذكر
أنه سمع مثله فيما عاش حلاوة وطلاوة ولا سحرا ..
ولا إجماعا كذلك !

وظفق يتحدث نفسه حديثا طويلا مؤسسا ...
« وأسفا عليك يا فتاة ؟ ليتك عشت لي ؟ ليتك
عرفتني قبل أن تاتي بنفسك في هذا اللج الصخاب
هل حسبت أن الدنيا أقفرت من القلوب بعد
حبيبك ؟ ! أي قلوب العالم لا تتفتح كالزهر لتنشق
أنفاسك ؟ هلنى إلى من الماء يا عروس الماء اعودى
إلى الحياة فهي أحفل من قاع البحر بحبيبك

لأوشك أن يرتبك وهو يخلع ثيابه ، فكان لا يبالي
تقطيع أزراره أو تمزيق إزاره ... ذلك أنه حسب
أن الفتاة قد فعلت فعلتها لتنتحر ، وقد كان غناؤها
الحزين يعني ذلك ، لأنها ذكرت أن تلك اللجة في
ذلك المكان عند هذه الصخرة ، كانت قبر حبيبها
الذى غيبه البحر في أحشائه ، غير راحم شبابه ...
لذلك ارتبك علوى ارتباكا شديدا قبل أن يقذف
بنفسه في اليم لينقذ الفتاة الجميلة البارعة التي ضاقت
بها الحياة بعد حبيبها ، فبادرت إلى الانتحار في
المكان نفسه ، وفي البحر نفسه ، وفي هذه الهدأة
الرائحة من مغرب السويس نفسها

وسبح علوى ...
ثم سبح ... بيد أن البحر الذى يخضع للغيث
الحسان النواعم ، هو البحر نفسه الذى يابى أن
يقهره أحد من ذكران البشر ، ولو كان فرعون
ومن وراء فرعون جنوده ! لذلك لم يدر علوى لم
تار العباب حوله وفار ، واصطخب الموج وأرغى الزبد
وهزى الشاب الفتى أول الأمر ، ثم مضى في
سباحته قدما ، غير أن البحر هزى هو أيضا ،
ثم جرجرت حول علوى أمواجه ، وأزبدت من
فوقه أثباجه ، حتى غدا الليل في عينيه ليلين ،
وإن كان البدر السافر قد صار هو الآخر في روعة
بدرين ، بدرأ في السماء وبدرأ في الماء !

وعجب علوى لطائبان البحر وشدة مراسه ،
ورجع بذكريته إلى ألوف المرات التى خاض فيها
عبابه ، فلم يذكر أنه عتا مثل هذه المرة ، ومثل ذاك
للمتو ...

ثم سبح ولم يبالي ...
وباغ بعد إعياء وبعد جهد ، جزيرة من الصخر

والفرمين بك ، وعباد جمالك ! إن حبيبك الذي
تحسينه قد ثوى كالنمر في أصداف هذا اليم ، هو
هنا ! هنا ، فوق هذه الصخرة ، وهو يكلمك الآن ،
إنه ليس هناك في القاع يا فتاة فعودي ! عودي إلى
الذي لا يعرف اسمك ، وإن كان قد انطبع في فؤاده
رسمك ! عودي فإن في قلبك جنة موشاة بأزاهير
حبك ، وهي في حاجة إلى الأنفاس المبقعة التي يرددها
فك الجبل الشاذي ! لم كرهت الدنيا وشيكا هكذا ؟
الآن قلباً واحداً من ملايين القلوب التي تنفق
بحبك قد أودى ، فانك تهجرين الدنيا من أجله ؟
أو قد كنت تخلصين له إلى هذا الحد ؟ ما أسعده
حياً وميتاً ؟ ترى من هو يا فتاة ؟ أو هكذا تمسين
حلماً في خاطري بعد إذ كنت حقيقة ملء ناظري ؟
وكان الريح قد هدأ ، والموج قد تطامن إلا قليلاً
والبدر قد ارتفع بضعة أمتار فوق الأفق ، وكان
علوى قد يئس من العثور على الفتاة ولو جثة هامدة
تطفو على اليم ... وكان قد سرت في كيانه رعدة
من البرد والحزن والخوف ، فاعتزم أن يعود إلى الشاطئ
وقبل أن يخوض الماء ، سمع خلفه هاتفاً
يقول : « هل السيد في حاجة إلى معاونة ؟ »
وتلفت علوى مذهولاً ، فرأى الفتاة معلقة
بنتوء من صخرته ، وجسمها الجليل يلمع في فضاء
القمري ، تحفق قلبه خفقة شديدة لهذه المفاجأة ثم قال :

— أمي أنت ؟

— ... ؟ ...

— ألم تترقى ؟ أما ترالين حبة ؟ ما أسعدني !

— ماذا ؟

— لقد كنت أبكي قبل لحظة من أجلك !

— من أجل أنا ؟ ... من أنت ؟

— أنا ... أنا ... علوى ؟ وأنت ؟
— علوى ؟ ... من علوى ؟
— أجل ... أنا علوى ... أنا والله علوى الذي
كاد يهلك في هذا الباب من أجلك ! ألا تريد
أن تذكر اسمك ؟ إذن لماذا كنت تبكين ؟
وبرزت الفتاة من الماء فوقفت فوق الصخرة ،
وراحت قلب في وجه علوى عينيها الحاليتين ...
ثم أشاحت فجأة ، وصرخت قائلة :
— كلا ... لست أنت علوى ... هذا حلم ...
هذا ... باطل !

ثم أهرعت إلى اليم فأعملت فيه ذراعها
ولم يتوان علوى ، بل قذف بنفسه في اللجة ،
وانطلق يسابق الفتاة إلى الشاطئ ... وقد نشط
هذه المرة ، وتدقت القوة كالحديد في أعصابه ،
وأحس كأن الماء الذي كان كالشاج قبل لحظة ،
قد صار حاماً ساخناً
وبالرغم مما عراه من جأ وتلف ، فقد ذهب
بأكل هذا الجبال الشامم بسنيبه الجائعتين ، وبعلاً
رثيه بذلك الأرج الذي أخذ يتضوع بالحب فوق
البحر وتحت القمر ...

وكان علوى أسبق من الفتاة إلى الشاطئ ،
فوقف عنده ينظرها ...

وقالت له وهي في الماء

— إذا أنت ظلت واقفاً هكذا فما عود !

— تبودين ؟ وإلى أين ؟

— إذهب أرجوك !

— بل اخرجي وأنا خادمك ... إلى أهيك

حياتي تسير في ركابك حتى تباني مأمناً المدينة !

— أشكرك ... لا حاجة بي إلى أحد !

— وكيف ؟ إن هذا مكان موحش ، وإن الطريق انقصر ، ولا بد أن أصحبك إلى المدينة ... أو إلى حدودها على الأقل ! أنصرفين لم نزلت وراءك إلى البحر ؟

— لتفرق ؟ أليس كذلك ؟

— بلى ! لقد كنت أعرق والله !

— لقد رأيتهك تبحر الموحش ، ولولا أنك كنت قريباً من الصخرة لأتخذتك ... فاذهب مشكوراً إذن !

— ولكنك تفرين نفسك بالبقاء هكذا في الماء . فلم لا تخرجين ؟

وبرزت الفتاة من الماء فازلزل فؤاد علوى ... ثم توابت كالقطاة فوق رمال الشاطئ حتى كانت دون الصخرة ، فقفزت قفزتين أو ثلاثاً فكانت فوقها ...

واثنت تفتح حقيبتها فأخذت فوطاة فمسحت بها جسمها للبض المرتجف ... وهنا ... نظر إليها علوى وهو فوق رمال الشاطئ ينتفض من برد الليل ، ففهمت سؤله ، وقذفته بالفوطاة فتلقفها باسمها ، وبدلاً من أن يجفف بها جسمه المرتمش ، دس فيها وجهه ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يصنع ، وأى أنفاس حرار كان يرد ، ولا أى دموع كان يذرى ويسكب !

ولبست الفتاة ثوبها الأبيض الناصع الذى زاده أشعة القمر بهاء وسناء وجاذبية ، ثم أضفت عليها من ثوبها الأسود ، واستدارت لترى هل انتهى علوى ... فلما رآته واقفاً تحت هذا الليل الفضى والرياح تساوره ، وقطرات الماء تداوره ، هبطت

كالحمأة من فوق صخرتها واقتربت حتى كانت تلقاه ثم وقفت صامتة ساكنة ولم تحرك ... ومد علوى يديه المتداعيتين بالفوطاة آخر الأمر ثم قال :

— أشكرك !

— وأين ثيابك ؟

— وراء الصخرة السميدة !

— الصخرة السميدة ؟ ماذا تعنى ؟

— الصخرة السميدة التى كانت تحملك إذا أنت

تبتكين وتغنين !

— أوه !

ونهدت الفتاة فكانت فوق الصخرة ، ثم استدارت حولها . فاكشفت الكنى الساكن حيث ملابس الشاب ، وحيث كان يختبئ ويسترق السمع . والأنين . والبكاء . والسر !

وعادت تحمل ملابسه جيماً فوضعتها على الرمال تلقاه ثم قالت له : « هذه ملابسك فينبى أن تلبسها وإلا عرضت نفسك لخطر البرد . أما فوطتي . » ولم تكمل عبارتها ، بل أطلقت ساقها لتسبح البحر فكانت فوق الصخرة ، وحلت حقيبتها وانطلقت لا تلوى على شيء ...

وجفف علوى ما تبقى على بدنه من قطر ، ثم هرول فوق الشاطئ وملابسه في يده ، وانطلق يمدو في إثر الفتاة ... وكان مع ذلك يدس إحدى ساقيه في جزء من سرواله — أى يتناولونه — ثم بخطو فيتمتر ، ويقف فيدس الأخرى في مكانها الآخر من السروال ، ثم يمدو ... ويدس ذراعه في كم القميص ، ويهبط ، ثم يدس الذراع الثانية في الكم

- الآخر، وهكذا. . حتى لم يبق في يده إلا حذاؤه !
ضحك علوى حين رأى نفسه يقتنى أثر معبوده
المفاجئة وفي يده حذاؤه ! فتركه على للصخر
وانطلق كالظلم وراءها .
— ما هذا ؟
إن الفتاة تقفز في سيارة كانت تنتظرها عند
هامش الصحراء في أول الطريق الموصل إلى طريق
القاهرة ...
ولمح علوى ذلك ، فكاد يصمق ويتخشب ساقاه ،
فلا يستطيع عدوا بل لا يستطيع حرا كما ...
لكنه سمع على أن يلحق بها . لأنه أحس بشيء
غريب يمتزج بدمه ، ويجرى دقاقا في عروقه ...
وأحس أيضاً أن القدرة التي حرمتها كل
هذه السنين الطوال نعمة الحب ، قد فتحت له
جنة الحب فجأة بتفياً منها حيث يشاء فإذا
هربت هذه الفتاة فستلق أبواب الجنة ، ويظل
إلى الأبد طريداً منها ، يطوف بأهراقها ، ولا يناله
من نصيبها شيء ... فجري ، ثم جري ، وظل يجري
كالجنون ، وكان يسب الأرض لأنها لا تنطوى
بسهولة تحت قدميه ، وظل يدعو الله أن ينبت له في
ظهره جناحين أو ثلاثة أو أربعة ... أو أجنحة
لا عدد لها ، ليبلغ السيارة قبل أن تهبط ...
ولم يقبل الله دعاءه طبعاً ... فلم تنبت له أجنحة
بيد أنه مع ذلك قد بلغ ضالته ... وقبل أن تتحرك
السيارة ، استطاع أن ينطرح أمامها لتقف ...
أو لتقتله ... وهل أشهى في هذه الدنيا من قتلة
بسيارة تحمل نجيباً كهذا الحبيب !
وتبسمت الفتاة ... وأوقفت الماكينة ... ثم
- نزلت لترى ما خطب هذا الشاب !
— أوه ؟ ماذا تريد ؟
— أريد أشياء كثيرة .
— أريد أن أعرف
— قبل كل شيء أحب ألا تعبسى هكذا ؟ هل
أنت غصبي ؟
— وكيف لا أغضب وقد حصل منك كل
ما حصل ؟
— وماذا حصل متى جعلت فداك ؟
— ألم تخشي أن تسرق سر فتاة ؟
— الصدقة والله فعلت هذا ؟
— ولماذا نزلت البحر وأنت لا تحسن السباحة ؟
— أنا أحسن السباحة جداً ، وقد فعلت فماني
هذه لا تقذك ؟
— لتنقذني ؟ وماذا ظننتني أصنع ؟
— حسبك ...
— حسبك ماذا ؟
— حسبك عولت على الانتحار ؟
— وماذا يجعلني أنتحر ؟
— ألم تكوني تتعنين وتبكين وتذكرين حبيباً
لك ... أوه ؟ معذرة ؟ ...
— آه ! إنها أغنية يا هذا ؟
— أنا لست (هذا) .. أرجوك .. لقد ذكرت
لك اسمي ؟
— آه ! اسمك ... علوى ... أليس كذلك ؟
— هو ذاك ... وبقيني أنه كان يسمى
علوى^(١) أيضاً
— كان يسمى علوى ؟ ومن هو يا ترى ؟

(١) نقتدر عن منع الأعلام من الصرف في كل قصصنا

— لا والله يا أختاه ، لكنى أشفق على شبابك
وجالك أن يستسلما ليد الدبول فتدوى زهرتك وهى
أعجب ماتكون ، وبصوح ربيمك وهوبعد فى إياه !
— أشكرك ... ألا تتركنى أنصرف إذن ؟
— تنصرفين ... وأنا ؟
— وأنت ماذا ؟
— أين أذهب ؟
— إلى بيتك !
— ليس لى بيت ... لقد خرجت اليوم من صدفة !
— أرجوك ... أنا لا أحتمل الدعابة !
— دعابة ؟ أية دعابة يا ... يا عجبا ! ألا أعرف
اسمك ؟

— هذا مستحيل !
— وله ؟
— لأنى أقسمت ألا أخونه !
— أقسمت ألا تخونى من ؟
— لقد عرفتة ...
— ألم أقل لك ؟
— ألم تقل لى ماذا ؟
— ألم أقل لك إن اسمه علوى !
— حقا ، لقد كان اسمه علوى ...
— ولماذا غرق إذن ؟
— كما أوشكت أنت أن تغرق !
— ليتنى غرقت ... ليتنى غرقت !
— ولم تتمنى ذلك ؟
— لأنى أوشك أن أقنط من ...
— مم ؟
— من إقناعك !
— إقناعى بماذا ؟

— الشاب السعيد الذى غرق فى البحر
— لقد بدأت تمزح !
— كلا والله ، إنى ما إلى المزاح أردت !
— إذن كيف يكون سعيداً من يغرق ؟
— أى مخلوق يرزقه الله نعمة ... حبك ...
يكون أسعد خلق الله ولو غرق ؟
— حقا إنك شاب جري ...
— لست جريشا ولكنى ...
— ولكنك ماذا ؟
— ولكنى أقول الحق !
— إنهمض ... لقد أرويت الرمال بالدم المتصيب
من قدميك ؟

— دم ؟ ... أوه ؟ ... ليتنى سفتك دى كله
تحت قدميك !
— ما شاء الله ؟ كيف تستطيع لنفسك أن
تخاطبنى هكذا ؟
— وكيف أخاطبك إذن ؟
— كما يخاطب الناس أناسا لا يعرفونهم ؟
— غير أننى أعرفك !
— تعرفنى ؟
— ولم لا ... لقد كان غناؤك وحيا تنزل على
فؤادى لحفظته من ظهر قلب ... لقد حفظت قصتك
كلها ... أناذين بسماعها ؟
— وهل تؤمن أن ما غنيت قصة ؟
— بل أومن أنها حقيقة لا ريب فيها !
— فلم إذن لا تحترم قدس الموت ؟
— قدس الموت ! أوه ! ما أبشع أن يذكر
اسم الموت ههنا ؟
— لأنك رجل أنانى !

أبأنق القاهرة فى ميماء لا أأب أن أعدوه
وتنأى علوى ... وقفزت للفناة فى السياره ..
وقبل أن تقاق بأبها نظرت إلى الشاب نظرات
غامضة لم يفهم منها إلا أنها تدعوه . فتقدم خطوات
ووقف كالشبح .. فدت إليه يدها الناعمة الخصبه ،
فتناولها فى يديه جيماً ، ثم أهوى عليها بفمه المرتش
يطبع فوقها عشرات القبل ، وينثر عليها قلبه وروحه
ودموعه ...

ثم مدت يدها الأخرى فربت بها على شمره
الأشمت ، وخديه البليلين ، وجذبتة إلى جانبها فى
السيارة .

— آه يا قاسية !

— لنفس !

— وما اسمك إذن ؟

— اسمى ... ستعرفه فى القاهرة !

— فى القاهرة ؟

— أجل ... هناك !

— لقد تركت هنا ...

— طربوشك وحذاءك ؟ أليس كذلك ؟

— بلى !

— نشترى غيرهما من هناك ؟

... ..

وأقيم فى السويس مرادق نغم حاشد ، وأقبل

لناس من كل فج يمزون والده علوى ... أليس

قد غرق ؟ أليس هذا طربوشه وهذا حذاءه ، وهذه

فوطه ملقاة على الرمال !

وكان من بين المزين علوى نفسه !

لقد أقبل هو وأسماء فى الليلة التالية ليزفا إلى

أبيه للبشرى السعيدة ... لقد خطبها !

وسينى فسينى

— بجمال هذه الدنيا وكثرة مباحجها ...

— فاذا غاب منها شخص لم تعد جميلة كما تحسب ...

— هذا وهم ، ويجب أن تعالجه بالذسيان !

— أجل ، سأعالجه بأن أنسى كل شيء ...

إلا ذكراء ! آه يا علوى ! آه يا حبيبى ! تعال الآن

من قاع هذا البحر المفترس فانظر كيف يريد للناس

أن ينسخوك من ذا كرتى ! الناس الأثانيون الذين

لا يحترمون قدس الموت ، ولا تقشمر قلوبهم فرقا

لذكره ! لقد صارت الدنيا بليدة من بعدك يا حبيبى

ها هو ذا رجل ... لا يريد أن يخص فناة لالفها

الذى أخلص لها حتى الموت ... الذى خفى نفسه

وشبابه من أجلاها ... ما أقبحك أيتها الدنيا ! لقد

شوهتك أمانة الانسان ! لقد كنت قبل آدم جميلة

ساذجة طهوراً فاطخ وجهك بأوحاله

تنح أيتها الشاب ! لقد كنت أحسب دماءك

هذه دماء نقية ... لقد كنت أرثى لك والبحر

يلتفك ... لقد خدعت فى دموعك التى ذرقنها من

أجلى فوق رمال الشاطئ ، وكنت أرجو أن أعثر

فى روحك على صديق ، فاذا للشيطان القدر يتحدر

فى صلبك من أيام آدم

— أختاه ... أرجوك ؟

— علام تساومنى ؟ على قلبى ؟

— بل أذ ضحية أخرى من ضحاياك

— أسكت فانى ليس لى ضحايا ... إنك تدنس

دمك ودموعك بهذا الهراء ! كيف تستبينع لنفسك

للتلصص على فجائع القلوب

— التلصص ! آوه ! إنك تهيننى !

— وأنت أهنت ذكرى حبيبى ، وآلمت روحه !

— إذن ، فأنا أعتذر

— إذن ، تنح ، فقد طال حوارنا ، وأريد أن

الرسالة في عامها السابع

المجلة التي أحدثت في الأدب الحديث مدرسة خاصة

المجلة التي ثبتت على مكاره الجهاد والانتقاد والزمن

المجلة التي تنسم بأريج الاسلام والعروبة والشرق

المجلة التي لا تتخلف ولا تتوقف ولا تهين

ستخطو هذا العام أوسع خطواتها وأجرأها

أدب ، علم ، فن ، فلسفة ، اجتماع ، سياسة ، اقتصاد ، قصص ، شعر

تقارير ، محادثات ، مذكرات ، مختارات ، أخبار ، مسرح ، سينما

أسرة الرسالة في سذتها الجديدة

الأستاذ العقاد ، الأستاذ المازني ، الأستاذ توفيق الحكيم ، الأستاذ عبد الرحمن شكري ، الأستاذ اسماعيل
النشاشيبي ، الأستاذ ساطع بك المصري ، الدكتور محمود عزمي ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، الدكتور زكي
مبارك ، الدكتور محمد محمود غالي ، الدكتور أحمد موسى ، الدكتور يوسف هيكل ، الأستاذ محمد أحمد
القمراي ، الأستاذ سميد المريان ، الأستاذ دريني خشبة ، الأستاذ عبد المنعم خلاف ، الأستاذ محمود الخفيف ،
الأستاذ عمر الدسوقي ، الأستاذ محمد حسن ظاظا ، الأستاذ أحمد خاكي ، الأستاذ علي الطنطاوي ،
الأستاذ أنور المطار ، الأستاذ أحمد الطرابلسي ، الأستاذ الحوماني ، الأنسة أسماء فهمي ، الأنسة زينب
الحكيم ، الأنسة الزهرة ، الأنسة فلك طرزي ، الأستاذ محمد لطفي جمعة ، الأستاذ فليكس فارس ،
الدكتور بشر فارس ، الأستاذ محمود غنيم ، الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، الأستاذ أحمد حسن الزيات .

ادفع من الآن لغاية آخر يناير ستين قرشاً

تكتب مجلة الرواية ومعهما كتاب متوسط الحجم ، أو كتاب كبير بالتخفيض ، أو مجموعة السنة الأولى
أو الثانية من مجلة الرواية بحيث يصبح اشتراك الرسالة مع هذه الهدايا عشرين قرشاً . والاشتراك في الخارج
هو مثله في الداخل ، ويزاد عليه ثلاثون قرشاً مصرياً فرق أجور البريد . وسنمان عن كتب الهدايا في
الرسالة خلال شهر يناير — أما الاشتراك بمدة التخفيض فهو ستون قرشاً للرسالة وثلاثون للرواية
في الداخل ، ومائة قرش للرسالة وخمسون في الخارج للرواية وبخمس في كل منها للطلاب ٢٥ /.

تظهر في ثوبها الجديد : بحروف جديدة ، وطبع متقن

كَيْلَاهُنَّ

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ

للقليبين الذين يصادفهم أجل
التوفيق وأسعده في دنيا للنساء
فمشتق عدداً وافراً من المثلثات
والراقصات وربات القصور
المصونات غير متردد ولا متعرج
ورشف من كؤوس الهوى خمرأ
صافية ، أعمته نشوتها عن طي
الأعوام ، فايدري يوماً إلا وهو

يصحو على عاذل يقول : « أتباع الخامسة والأربعين
ولما تزوج ؟ » الخامسة والأربعون ... أحقاً ذهب
الشباب الناضر وولى ؟ أحقاً تسم ذروة الكهولة ؟
ووجد نفسه يفكر في مسألة الزواج تفكير
شاب يهدف للثلاثين ، وبكاد الزواج أن يكون
كالوت نهاية كل رجل ، وإلا فلن يترك هذه الثروة
الطائلة التي يمتلكها ؟ ومن يؤنس وجشته إذا احتجزه
البيت يوماً ؟ ومن يمينه على متاعب الشيخوخة
وأهوال الكبر إذا تألبت عليه عوامل للفناء ؟

ولكنه لم ينفل عن طبعه وأنه مفاسر عشاق ،
ومثله يستطيع أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب
الفتوح ، ويعرف طبيعتها معرفته لبيدهيات الحساب
لذلك رأى أن الحكمة تلي عليه ألا يختار زوجة
شابة تفصل بينها وبينه عشرات الأعوام ، وصحت
عزيمته على الزواج من أرملة أو مطلقة في الثلاثين
على أدنى تقدير ، حذراً من أن يقضى عليه بما قضى
به على ضحايا الكثيرين ...

ولكنه شاء غير ما شاءت الأقدار ، وما حيلته
في ذلك ؟ لم يكن هو الذي يبرم الأقدار حين دعى
يوماً إلى حفلة زفاف فراح مالكاً لفؤاده وعاد مسلوب
الفؤاد والارادة ، ولم يكن هو الذي يخلق الأعمار

هل يتمنى الانسان على الله أكثر من أن يهبه
زوجة حسناء وثروة طائلة ، ويمتعه بصحة سابعة
وبنين ، ويؤته مركزاً اجتماعياً فذاً ، وقد فاز حضرة
صاحب المزة جمال بك ذهني بأولئك جميعاً ؛ كانت
له زوجة شابة حسناء يعزى النظر إلى وجهها الحسن
عن أحزان الدنيا جميعاً ، ووهبه الله أربعة من الأبناء
كالورود صحة وجمالاً ، وترقى في مراتب المولة حتى
تولى كرمى الاستشارة في أكبر هيئة قضائية ،
وورث عن والده ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع ،
ومع ذلك فن كان بطلع على وجهه ذلك اليوم إذ هو
جالس في شرفة قصره المطل على شارع السرايات
ياخذه المجب لهذا الاكفهرار الذي يظله وتلك
النظرة القلقة التي تحار في عينيه منذرة بالشقاء !

ولا سبيل إلى إبطال هذا المجب ما لم نلم بماضيه
لأن حاضر الانسان يقع غالباً من ماضيه موقع النتيجة
من المقدمات وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما
في الحياة بما تدعم به في المنطق من الضرورة والاحكام ،
ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضى صاحب المزة
حافلاً بالشباب المرح السعيد والعمل التزيه والدكاه
الوقاد والمفاصرات التي تجمل من الشباب ديوان
شمر غنياً بالكذريات المذبة ، لأنه كان من الرجال

في هذه الفيلا يأتى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوج أم أعزب؟ وكان يستطيع أن يسأل زوجته عما يحيرة ولكنه نفر من هذا نفورا عجيبا وآثر عليه الجهل والحيرة.

وكان قلقه غريبا لدرجة أنه ود لو يستطيع أن يحمل زوجته على ثقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى من القصر المظلة على شارع القشلاق وإحلال المكتبة محله، ولكنه لم يدر كيف يملأ طلبه وأبت كبرياؤه عليه أن يقاتحها بشأته.

ووجد في حياة الفراع الجديدة فرصة طيبة لمراقبة «غريمه» في صمت وحذر، فلاحظ أنه يتناول الشاي كل صباح في شرفته وأنه يعود فيجلس بها عند الأصيل ساعة أو نحو ذلك، وفي تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجته إلى الشرفة فيدبم الشاب النظر إليها، وخيل إليه أن بصرها يتجه أحيانا إلى شرفته، نعم يحتمل ألا يكون وراء هذه النظرات أى معنى سوء ولكن يتعذر عليه أن يتصور أنه من الممكن أن ينظر شاب إلى مثل زوجته الحسنة نظرة بريئة لا يشوبها طمع.

وضاق بصمته المرهق فأشار يوما إلى شرفة الضابط وسألها:

— من يقيم في هذه الفيلا؟

فقالت:

— جار جديد، أظنه مفتشاً في الداخلية

فسألها بلا اكتراث في الظاهر:

— ومن الضابط الذى يظهر أحيانا كثيرة

في هذه الشرفة؟

— أى ضابط؟ ... لا أدري ... لعله ابن المفتش

فوقع تجاهلها من نفسه موقعا أليما؛ واشتد

إذا كانت التى سلبته فتأده فى المشرى من عمرها ، ربما قلت إنه كان ينبغي له أن يغلب الحكمة والعقل على الهوى ، ولكن والأسفاه فان هذا القول وأمثاله لا يجدى فىمن تسيطر عليهم للشهوات ، فجميعهم — أباً كانت الشهوة التى تتحكم فيهم — لا يرون فى العقل إلا وسيلة لتحقيق شهواتهم ، يستوى فى ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد المال أو يعبد النساء ، فلم يتردد جمال بك عن سلوك سبيله المحتوم وخطب الأنسة حياة إلى والدها الأستاذ محمد عويس الخبير بالمجلس الحسى وتمت الزيجة وأثمرت على الأيام أربعة من الأبناء أكبرهم فى المدرسة الثانوية وأصغرهم فى الروضة ...

ولكن للزمن حكمه الصارم كذلك ، فقد أحبل المستشار فى هذا الأسبوع إلى الماش وأذن النذير بمجى الخامسة والستين بكوارثها المهددة من نضوب الأعصاب وبرودة الاضمحلال وتنكر معالم الدنيا وتآلب أمراضها ، وما كان به من ظلم ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملا من متاعها الفرور ، ولكن دب بقلبه ديب القلق الذى تمود بواعثه التى تلك الزوجة الحسنة التى يعطيها الزمن — الآخذ منه — نضجا وكالا ويزيدها كل يوم حسنا على حسن ، وما كانت مخاوفه أوهاما ولا محض حذر تمليه مفاسراته الماضية ، ولكنه شاهد هذا الصباح فى شرفة الفيلا التى تواجه قصره ضابط بوليس شابا ، يتألق جماله فى بذلته الرسمية المزدانة بالنجوم الذهبية ، وتنفع صدره قوة الشباب وغروره ، وتمتث أنامله بشاربه الأنيق الصغير فانتفض صدره لمرآه وتوجس منه خيفة لغير سبب بين ، ومجب كيف أنه لم يره قبل اليوم ، وهل يقيم

غضبه اشتداداً لا يستند إلى أسباب معقولة فقال :

— لا أشك في أنه ضابط أحسن وقع

فبدت الدهشة على وجهها وسألته :

— ما الذى يهضبك عليه ؟

فقال بمحبة :

— رأيتته مراراً ينظر إليك نظرات وقحة

سافلة ، جعلتني أفكر جديداً في ثقل حجرة النوم

إلى الجهة الأخرى

فقلت بلهجة استياء :

— ولكنه تمب لامبروله ، وأرى أنه يتضمن

إهانة قاسية لي يا بك

— كلا يا هانم ، ما أردت هذا قط ولكني أحب

أن تتمنى بحريتك بعيداً عن تطفل الميون

فهزت منكبيها استهانة وقالت : « افعل

ما بدالك »

وتحقت مشيئة ، ولكن آلمته استهانتها واعتقد

أنه تسرع تسرعاً معيباً ورطه فيه الغضب وأحس

من تصرفه بخزي أليم وكبر عليه أن يمتلئ رعباً

من نظرة يرسلها هذا الشاب الغرور ، وما عسى

أن يفيدته ثقل حجرة من مكان إلى مكان ؟ وهل

يعنى هذا زحزحة الحب من موضعه إذا كان أنشب

أظافره في لحم قلبها الطرى ؟ ... هيات ...

ولم تهاده شكوكه وخاوفه ، وقد ثقلت عليه

وطأنها يوماً وكان يجلس في قهوة لوفبارك مع محام

كبير فاستأذن بفترة وقام إلى سيارته التي انطلقت به

إلى قصره وبلغت شارع السرايات وكان الوقت

أصيلاً ونظر خلل زجاج النافذة فرأى زوجته في

شرفة المكتبة ونظر إلى الناحية الأخرى فرأى

الشیطان ...

وكان يهد في زوجه البرود والرزانة والسيطرة

على الأعصاب وكانت كهمده بها فلم تفجأ بحضوره

وسألته بإنكار :

— خير ... ما الذى أنى بك قبل ميعادك ؟

فانفجر غاضباً وسألها بشيظ وحنق :

— قولى لي أنت ما الذى أنى بك إلى هذه الشرفة ؟

فقلت بنضب وإباء :

— إنك تهينني يا بك إهانة لا تحتمل

فاشتد به النضب والغليظ وقال بعنف :

— أنت تحاولين تضليلي بأسطناع هذا الإباء

الكاذب

— عهدى بك أعظم أدباً من هذا

— ما شاء الله ، وددت لو يستمع إليك أبناؤنا

إذ تعلمين أباهم الأدب

— أما أنا فلا أود أن يستمعوا إلى أبيهم وهو

يكيل اللهم لشرف أهم

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن

يطامه على خبيثة نفسها وجمل يتساءل في حيرة :

ترى هل هي صادقة في غضبها ؟ هل هي حقاً بريئة

بما رماها به ، وتهد حزناً شقيقاً وقال وكأنه يحادث

نفسه :

— حقاً إن الشك مس من الجنون ...

فقلت باستياء :

ألا ترى أنك تترف بأنك شككت في ؟

فماودة النضب وقال لها بمرارة :

— لماذا تعودين إلى الظهور بهذه الشرفة ؟ وفي

هذه الساعة المهددة ؟ اصنى إلى يا هانم ، أنا لا أسمع

لامرأة بأن تتغفلني أبداً ...

— هذا كلام لا يليق برجل له مكانتك

وأخلاقك ويجدربك أن تنادى عقلك الذى عذب به
للغضب ، فإذا ينفعك إغلاق الأبواب والنوافذ إذا
أنا بيت الغدر ؟ ... وما يضريك ظهورى بكل مكان
إذا انطوى قلبى على الاخلاص والأمانة ؟
فقال بذهول :

— الاخلاص ... الأمانة ... ما عدت أفقه
معنى لهذه الكلمات لأن عقلى تسم فينبى أن تفهمى
ذلك جيداً ، قد يكون المرض لعله ، وقد يكون
لغير علة إلا الوهم ، فاعمل على إعادة الطمأنينة إلى
نفسى ، ودعى الوعيد جانباً ... فأنا رجل لا يمكن
أن تتغفله امرأة مهما أوتيت من المكر والدهاء

— أهكذا تتغير بعد المشرة الطويلة وتنقلب
إنساناً غير الانسان لأنك رأيت شاباً ينظر إلى من
بعيد ؟

وأى امرأة لا تلتهمها العيون كلما بدت للناظرين ؟
نظرة من بعيد . كلا ليس الأمر كذلك ، إنها
تكذب وتجد فى الكذب وهى تعلم بما يمدبه ويشقيه
إنها تتجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلا معنى واحد
إنها تتغفله ولكنها لن تفوز بباطل ...

— اصنى إلى يا هانم لا بد من وضع حد
لكل هذا

فذهلت إليه بارتياح وقالت :

— ياله من قول خطير . فقال :

— لا خطورة هنالك ، إنى أقر بأنى أخطأت
فيما صنعت من تغيير ترتيب بيتنا ، وأقر بأنى ليس
لى الحق فى الحجز عليك لأنه ينبى أن أكون أرفع
من الموام ، فاذهبى إلى حيث تشاءين وتنقلى كما
تشتهين ولكنى لن أقارئك وأظن أن هذا حتى أيضاً
فلم تماك نفسها من الضحك وسأته :

— أبداً ؟

فقال يهدوء :

— سألازمك كظلك

— ياله من أسر مرهق !

— لك ؟

— كلا ... فانه يسعدنى ولا شك أن يظل

زوجى إلى جانبى ، ولكن كيف لك أنت بالصبر على
هجر لونا بآرك وسنت جيمس ؟

— هذا شأن يعنينى وحدى

فلم ترد على أن قالت : افعل ما فيه راحتك

ومضى اليك يحقق وعده أو وعيده دون إهمال
نخلع ثيابه وارتنى البيجاما والروپ دى شامبر
وجلس إلى جانبها . وتسلسلت الأيام على منوال
واحد ، فكانا يقطمان النهار معاً يتحدثان حيناً
ويطالمان حيناً آخر ، فإذا سئمت من جلستها وقامت
إلى الشرفة أخذ مقعداً إلى جانبها ، أو نزلت إلى
حديقة القصر تريض فى عماشها رافقها إليها حتى
إذا ولى النهار وجاء الليل وحانت ساعة النوم أو يامعاً
إلى مخدعهما فنام ملء جفنيه ...

وكأنما يخرجان كثيراً لزيارة الأصدقاء والأقارب ،
أو لنشيان الملاعب والملاهى والسينمات فلا يفترقان
دقيقة . وثابر على حياته الجديدة مثابة الصابرين
ولازمها حقاً كظلالها ، وحافظ على كلمته أن يتركها
تفعل كما تشاء على أن تتركه بفعل ما يشاء كذلك ،
ولم تظهر السيدة أى تدمر وقضت أيامها مرحلة
ضاحكة كأنها أسعد الأزواج حقاً . وفى يوم من
الأيام اقترحت عليه أن يذهب إلى شيكوردل لشراء
حاجاتها وحاجات الأولاد ، فذهب معاً ودخلا
الحل الشهير ، ودارت به على الأقسام المختلفة تشاهد

البضائع وتسأل البائعين وصعدا إلى الطابق الثاني وجالا هنا وهناك ، وهو يتبعها صامتاً يقف حيث تقف ويسير حيث تسير ، فر على تجوالهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيهما دقيقة واحدة حتى لثت من شدة التعب وعلا صدره وانخفض ، وسال عرقه بارداً ، واشترت ذلك اليوم شريطاً من الدانتلا ثم عادا إلى السيارة فارتقى الرجل على مقعده منهوك القوى وقال لها :

— لم تشتري شيئاً ذا بال

فقلت :

— ينبغي التريث في الشراء ، سنعود غداً

وعادا في الغد ودارت به كما فعلت بالأمس ولكنه

لم يحتمل المشى والوقوف ولحقه الاعياء فقال لها :

— سأنتظرك في السيارة

وانتظراها ساعة أو يزيد ، ثم حضرت يتبعها

غلام يحمل المشتريات ، فسألها البك :

— هل انتهيت والحمد لله ؟

فقلت بهدوء :

— هذه كسوة حسنى

فقال الرجل دهشاً :

— حسنى فقط ؟ ... وإخوته ... وأنت ؟

فقلت :

— لسه يابك ... لسه ... أرجو ألا تنكر

على تباطئي فهذه عادتي في الشراء وإن كنت تطلع عليها لأول مرة ...

وجاءا معا في اليوم التالي ودخلت الزوجة

إلى المحل وانتظر البك في السيارة وفات على دخولها

ساعة ثم ساعة أخرى فتعلم البك في جلسته

وأحس برغبته في الحركة فغادر السيارة ودخل

إلى المحل ، وبحث عن زوجه بعينه ، ومضى يسير هنا وهناك ولكن الظاهر أنها كانت بالطابق العلوى فصعد الأدراج على مهل وقطع المكان ذهاباً وإياباً ولكنه لم يثر لها على أثر ، فماد أدراجه وهم بالبحث مرة أخرى في الطابق الأول ولكنه رآها مقبلة من أقصى المحل والفلان يتبعها حاملا المشتريات فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها إلى السيارة ... وتساءل في صمته كيف لم يثر بها مع أن المحل لم يكن مزدحماً ؟ هل لأنه لم يحسن البحث ياترى ؟ ... ولده الشك ... هل من الممكن ...! ولكن هذا بعيد عن التصور

وجاءت معه في غداة اليوم التالى ودخلت المحل

ولبت هو في السيارة كما فعل بالأمس ولكنه لم يبعها

إلا دقيقة ثم تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطا

منمنطقة إلى يمين الداخل فظن أنها قاصدة إلى المصعد

ولكنها واصلت السير إلى باب المحل الجانبي وخرجت

منه ، تخفق قلبه بشدة وتبعها بخفى سريعة ، وبأنح

الباب ، ثم نظر إلى الطريق فرآها تدخل إلى عمارة

« لا كير » المواجهة لباب المحل وشاهدها تدخل

إلى المصعد ثم صعد بها ، فاجتاز الطريق ودخل إلى

العمارة وانتظر هبوط المصعد وسأل البواب عن

الطابق الذى صعد إليه فرفع الرجل بصره وقال :

« الطابق الرابع » فدخل المصعد وضغط الزر رقم ٤

وخرج منه فوجد نفسه في ردهة تواجهه ثلاثة

أبواب فألقى عليها نظرة هائلة وهو يقول : تري في أيها

دخلت ، واقترب من أولها فقرأ عليه اسم المسيو

فالدعير كراوس المحامى بالمحكمة المختلطة ، وقرأ على

الباب الثانى اسم هـ . ليفى متمهد راديو تلفنكن

وكتب على الثالث « مدموازيل فلورا خياطة

للبيوت حسبان ؟ أم أن الشيطانة موجودة بداخل
شقة الخياطة ؟ ولماذا صرخت الفتاة المملونة بهذا
الصوت المزعج وهي تنادي مدام جمال ذهني ؟
ألا يجوز أنها فعلت ذلك لتحذر الغافلين ؟ وهل
يجوز أن يبقى في مكانه لا يحرك ساكناً وزوجه
في داخل الشقة في خلوة غرامية ؟ فاعسى أن يفعل
وكيف يضبط الآثمة متلبسة بجريعتها ؟ ...

وعند ذاك فتح الباب ، فتقهقر خطوتين ،
وخرجت سيدة ، وأوصلتها الفتاة الأفرنجية وقد
رأته ولكنها لم تباليه ، وأغلقت الباب مرة أخرى .
فضى يروح ويحيى في خيرة شديدة . من
المؤكد أنها في هذه المارة ، فقد رآها وهي تدخل
ورآها وهي تندس في المصعد ، وأكدت البواب أنها
صعدت إلى الطابق الرابع وما هوذا الطابق الرابع ،
ولامكان بصح اقتراض دخولها إليه إلا شقة الخياطة .
فالشيطانة لا شك في الداخل ، ولكن ما عسى أن
يفعل ؟ هل يظل يروح ويحيى ؟ أم هل ينتظر
إلى ما شاء الله ؟ وما يزيد ارتباكاً أن وقوفه هكذا
قد يربب الصاعدين والهابطين وتيارهم لا ينقطع .
ومرت عليه ساعة كاملة كانت أقسى ساعات حياته
جميعاً وقال منه التعب والفهر كل منال ، فاضطر إلى
مغادرة مكانه وفي نيته أن ينتظرها لدى الباب الخارجي
ولكن خطر له خاطر أزججه فسأل البواب : « هل
للمارة مدخل آخر ؟ » فأجابه الرجل بلهجة البربرية
بأن للمارة ثلاثة أبواب ، فأحس باليأس وذاق
مرارة الخيبة وعض شفته من الحنق والغيظ ، وكبر
عليه أن تتغله الشيطانة وتمثل به هذا التمثيل المزري .
وكان ما عناه عقله وجسمه فوق ما يحتمله شيخ في
(٤)

للبيوت حسبان ؟ ووقف أمام الباب الأخير لا يريم ،
وقد انحصر فيه ارتياحه ، وضغط على الجرس ففتح
الباب ، ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول فتراجعت
أمامه التي فتحت الباب دهشة مستاءة ، وألقى نفسه
في ردهة متوسطة الحجم تحيط بها حجرات أربع ،
منها ثلاث مضافة الأبواب وواحدة مفتوح بابها
على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيدات
والأوانس منهن من تظمن إلى مقعدها ومنهن من
تقف أمام المرآة لتأق النظر الأولى على فستانها الجديد .
وانتبه إلى الفتاة الواقفة أمامه يبدو على وجهها
الانكار وسمعتها تسأله : « هل المدام مع الباك ؟ »
فالتفت إلى مغزى السؤال وتحير كيف يجيب أو كيف
يستدر عن وجوده ، لأنه اندفع تحت تأثير الغضب
والحنق اندفاعاً فلم يتدبر أسره ، وألقى على الأبواب
المغلقة نظرة ارتياح وقهر ، وود لو يستطيع أن
يقتحمها ليرى ما بداخلها ولكنه لم يفعل شيئاً لأنه
لم يكن فقد عقله ، ولأنه وهو رجل القانون - لم تكن
تخفى عليه مغبة عمله فيما أخطأ تقديره وحسبان .
وكانه أراد أن يقامر بما تبقى لديه فسألها « أليست
هذه شقة مدموازبل فلورا ؟ » فقالت الخبيثة :
« بلى ، ألم تقرأ اللافتة يامسيو ؟ » فقال : « إن
زوجتي سبقتني إلى هنا » فسأله : يا اسمك ياسيدي ؟
فقال : جمال ذهني . فصاحت بصوت عال لدرجة
مزعجة : مدام جمال ذهني . ولكن سيدة من
الموجودات لم تلب النداء ، فقالت : المدام غير موجودة
بلا شك . قالت ذلك بلهجة من ترى وجوب
انتهاء المقابلة عند هذا الحد ، فلم يربدا من الخروج ،
وأغلق الباب خلفه ، ولكنه لم يتحرك من مكانه
ولبت يرمى الباب بعين منتقدة . ترى هل أخطأ

إلى القبر وهو كظيم . وكيف يفعل غير ذلك وهو
القاضي الذي قضى حياته في خدمة القانون ؟
ولاحث منه التفاته إلى الطريق فرأى بعض
المارين يمدجون السيارة بنظراتهم المتطفلة ، فسأل
نفسه ترى هل ينفسون عليه السيارة الفخمة
والزوجة الحسنة ؟

حقاً إنه يستحق الرثاء ، وسيكون أحق بالرثاء
في مستقبله حين يخلو بينه منها — وهو ما صدقت
نيتة عليه — فكيف تكون حياته بلازوجة ؟ وكيف
تكون حياة أبنائه بلا أم ؟

وهل تروج يوم تروج إلا إشفاقاً من أن يلحقه
الكبر وهو وحيد فيعاني حرارة الشيخوخة ووحشة
الوحدة ...

نجيب محفوظ

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جون ارطاني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ومنها ١٥ قرشاً

سنه ، فماد خائر القوى إلى سيارته . وكما كانت دهشته
عظيمة حين هم بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة
مطمئنة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت
إليه بانكار وسأله :

— أين كنت يا بك ؟

فأنهم في وجهها النظر فرآها تبسم ابتسامتها
المألوفة ، ولكن لم يخف على عينه للثاقبة شعوب
لونها ونظرتها الدالة على الأثم بقدر دلالتها على
للطهارة المصطنعة ، فهي شيطانة بلا ريب ولكنها
لم تعود الأجرام بعد

وجلس إلى جانبها سامتاً وانطلقت بهما السيارة
وكان مقهوراً مغلوباً على أمره ، يعاني حرارة
المرزعة ويحس كأن يداً تخنق كبريائه خنقاً . وكان
يسوؤه أن يجلس هكذا إلى جانب المرأة التي تنقلته
وهزأت بكرامته ولوثت عرضه ، ولم يرتب قط في
أنها تعلم بأمر مطاردته الفاشلة لها . ومن يعلم ؟ فلعلها
تضحك في سرها الآن من خيبتها وهزيمته . ياله من
نصور لا يحتمل !

لقد أنذرهما بأنه لن يتركما لحظة ، ثم اضطر
إلى تركها أو هي اضطرته إلى ذلك ، ولكن لم يخطر
له على بال أن تتخذ من زيارتها لشيكوريل سيلا
إلى مقابلة عشيقها

واستسلم للتفكير الحزين ، وذكر طريقة حامة
الشعب في الانتقام من الخائنات فوجد نفسه — في
محتته — يقرأها ، وهل تستحق الأذى إلا تهشيم
رأسها ؟ ... أما هو البك الوجيه المثقف فيجلس
إلى جانب مذبذبة يعاني آلامه في صمت ، ويشيع كبريائه

انقضاء الاميرك

للقصص الفرنسي أرنست دوديه
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

تصطدم بصخرة القصر الهائلة
وتنحسر عنها فيسمع لها زئير
كزئير الأسد وهزم كهزم
الرعد

في تلك الأثناء كان الأميرال
المركيز « دى بك هيلون »
جالساً إلى نضد صغير وضع عليه
بضع رسائل عني على لونها الزمن

فاسفر وحال ، وبضع زهور ذاوية ونوط قلادة
وشريط من الحرير الأزرق ، وبجوار هذه الأشياء
صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس المطعم
بالماج ، كان ولاربب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة
على النضد . وتجلت أمارات الحزن العميق على وجه
الأميرال بينما لمعت عيناه فجأة يريق للفضض السجوز
وكان الأميرال رجلاً رقيق السن واهن للمظم
له وجه مفضن بارز المظام ، وعينان غائرتان قد
قد انطفاً فيهما التآلق والبريق ، وبدان معروقتان
عاريتا الأشاجع . وعلى الجملة كان بدنه النهوك قد
ذبل بفعل المرض الذي يفتك به فتكا ذريماً
ولقد فقد أميرال البحر المظم قوة العزم التي
كانت تسبح نائرة في دمه وتشع من عينييه .
وخفت فيه ذلك للصوت الجمهوري الملى الذي
كان يمزق المواصل ويطنى عليها . ولم تبق
فيه ذرة من القوة التي طالما أعجب بها رجال أسطوله
وبحارته من قبل . وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا
ذلك الجسم المهدم للفاني ففارقته بمد إذ كانتا تفوران
فيه فوراناً حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج
بقوة الرجولة . واشتد به السقام حتى صيره هزبلاً
ناحلاً . ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره إلا
ليعالج هذه الجريمة النكراء التي اكتشف الآن فقط

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق
صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر . وكانت الشمس
حينذاك تضيئ للغروب وتنحدر رويداً من شارف
السما ، إلى ما بين الأفق والماء . وقد سالت حولها
أباطح الدم ، وارتسم على جبينها الكلال والأتين .
ويشرف القصر أيضاً على الطريق المتبد إلى « برست »
وعلى قارعة هذا الطريق تقع الميناء وقد أطلت من
ورائها سوارى السفن ومداخنها مصبوغة بألوان
الشفق الزاهى الجميل ... ومن نوافذ القصر الضيقة
بان البحر كأنه بساط من سندس واستبرق تجرى
عليه للسفن بقلاعهما التي يهددها نسيم الأسيل
فتتموج ، وتداعبها الرياح الخفيفة فتترجرج ...
وتملو من القصر المنيف قباب وأبراج شاذخة في
الفضاء تتعدى الزوابع اللعانية والمواصل الموجهاء ..
وتحف أغصان الأشجار اللغاء الوارفة بجدران
تتحركها الرياح المواتى فتبدو كضفائر جافة خشنة
لطيف امرأة تضرب فزعاً في الليل المدلم ...
وعند ما غسق الليل وأجن الكون في مسوحه
الطاخي الأسحم ، أترعت السماء سحاب ثقال منشئات
تتحركها المواصل الموجه في شدة وعنف . وغب
عباب الرياح فهاجت الأمواج الصاخبة المزبدة فراحت

دليها الخامس ، وليرى مدى قدرته على الثأر وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث اعتاد أن يقضى فصل الشتاء من كل سنة ، يقول فيها كاتبها : « لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك ممعنة في خيانتك ، دائبة على اللعب بشرفك ؛ ولملك وحدك الشخص الذي لا يعلم شيئاً عن علاقتها الآتية بمساعدك السابق الكاتبين « فوشيون » . وإذا أردت على ما أقول شاهداً ودليلاً فاذهب إلى مخدع المركيزة ، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت إحدى الصور المعلقة خزانة في الحائط ، بها صندوق صغير . افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه ، فستنقشع اللغشاة عن عينيك ، وتبين بوضوح ما غاب عن بصيرتك كل تلك السنين الماضى »

وعزا المركيزة هذه السعاية إلى خادم مطرود. لذلك قضى سريعاً على ما أثاره الخطاب في نفسه من شكوك وأوهام ، وفرك الرسالة في يمينه وهم يمزيقها لولا أن حاك الشك في صدره فأرجع الكتاب يتلوه مرة أخرى... وللمرة الأولى في كل حياته مع زوجته تساوره الغنون والريب . وتحامل على نفسه وغادر مضجعه ، ثم راح يجر نفسه جراً ، وفي الحرز الممين في الكتاب ألقى أدلة الاتهام السود

وراح يتمثل ويهيج كيف حمرت عليه هذه السنون الطوال وهو غارق في لجج هذا الوحل دون أن يدري ... ما هو ذا يغضى إلى منواه الأخير تكتنفه قرائن الجريمة الدنسة التي اكتشفها اليوم فقط هازئة ساخرة... فكيف إذن يتسنى له الثأر لنفسه من هذين المجرمين قبل أن ينطفيء سراج حياته الخافت الضئيل يا للخيانة يا للفدر ! أزوجه التي شملها بحبه ووهب لها كل قلبه ! ومرؤوسه الذي أمطره بوابل

من عنايته ، وغمره بفيض من صداقته .. يا للمعار ويا للدرن ! أنسى هذا السافل الخؤون ، هذا الجاحد الكنود ... أنسى كيف كان يرعاه كابنه وزيادة ؟ وهذه الشقية زوجه ؟ لا نكران أنه اقترن بها والفرق بين عمرهما جد كبير. إذ كانت في العشرين وهو في الخمسين ... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضاً أنه انتشلها من وهدة اليتيم والمحنة ، وأضفى عليها لقبه المجيد الثالث وقلها في ثرائه الواسع ، وضمن لها الحماية والرعاية في حياته ، وسينزع عليها من ثرائه درعاً يقيها من بعده عدوان الناس وغدرات الزمن . أبداً ما أرغمها امرؤ على الزواج منه ، بل كان هذا عن اختيار منها ورغبة ... ولم يكن يوماً لبني عن تلبية رغبة لها مهما صعبت وشقت . فالصيف في الريف الجميل الساحر ، والشتاء في أرفع فنادق باريس الفواخر . أو إذا شاءت في قصره العظيم في « نيس » . في كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب والصواحب . في كل جمع كان يعلو بها اسم زوجها إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سائر الفتيات والمقاتل . وبينما كان يثق في وفائها وإخلاصها ويمجج بجمالها وفتنتها وبتبته لسحرها وأنوثتها ، إذا هي تخونه وهو لا يدري

لقد خدم بلاده أربعين سنة سوياً . حارب في أفريقيا وفي المكسيك ، وحاز أرفع القلائد والأوسمة وجلب المجد والفخار لابنه ... ثم ماذا بعد كل تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال وطيب المآثر ؟ عار تجلبه عليه هذه الخلوة الشقية وهو من الموت على شفا جرف هار

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب ، بل جرت به إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله فيمضى إلى رمنه مخبولا . ابنه « باتريك » زهرة

— قل إنى انتهيت يا دكتور
 — لم يضع الأمل بمدى يا سيدى ... إنك فى
 حال سيئة ولكن ...
 — لا تراوغنى . لقد صمدت للموت مراراً ،
 ولا أود أن يأخذنى هذه المرة على حين غرة . قل الحق
 إنى أسرك ...
 فقال الطبيب صامتاً لا ينبس دقيقتين قال بهذهما:
 — سيختارك الله هذا المساء على الأكثر
 يا سيدى إن لم تحدث معجزة
 وتلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات ... قال
 — حسن ... وستعودن طبيعاً مرة أخرى ...
 أليس كذلك ؟
 — بالتأ كيد يا سيدى الأميرال . ألا تحب أن
 نخطر سيدتى المريضة
 — وأى جدوى فى ذلك وهي فى نيس . ثم
 إنى لا أود أن أحملها الجزن فجأة . إنها تعلم أنى
 مريض . وستعرف على كل حال أنها ترملت . ولكن
 يجب أن يكون هذا بمد أن أموت
 فانسحب الطبيب
 وقابله باتريك لدى الباب فقال له :
 كيف أبى ؟
 فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه حينئذ . فأصرع
 الصبي نحو أبيه بقلب جزوع . فهض الأميرال
 بجهد جهيد على مرفقه وقال :
 — ادن منى يا بنى . إن لى حديثاً معك ...
 إنك فى الثانية عشرة من عمرك يا باتريك . ولكنى
 مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلاً
 ولم يأخذ منهما الحديث طويلاً . ولكن حينما
 انتهى ومضت عين الصبي يريق من نار ، وتشاج بدنه
 حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه

آماله وعمره الثانى ... آبنه هو ، أم ابن غريمه
 فوشيزون ؟ باتريك . لقد شب ونما فى قصره المتيد
 حيث تقضى أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو
 ليعانقه ويتحلى من رؤيته . إنه يبدو قوياً كمنصن
 شاهخ فتى ، ويتملى الزهو والكبرياء فى نظراته ،
 ويبدو للصلف والخيلاء فى لفتاته ، وتنطق ملامح
 وجهه بقوة المزم وشدة المراس . ياله من إله صغير
 من آلهة القوة والجمال أخير خلف لأشرف سلف .
 ومما زاد الرجل تملقاً بابنه وحباً له أنه ورث عنه
 قوة المزم وصلابة الرأى وثبات الجنان
 والآن تقضى هذه الجريمة التى اقترفتها زوجته
 على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك
 الإعجاب الذى يحبه الرجل لوحيدة
 وأمسك الرجل للنفس رأسه للتأثر بين كفيه
 كأنه يمنعه من الانفجار ، وسرت حى الغضب فى دمه
 فغمغم وهو فى تلك الحال من اليأس والضعف والمرض
 — سأنتقم لنفسى ... سوف أثار لشرفى ...
 ولكن كيف ؟ أيقتل ذينك اللذين لوأ اسمهما
 ولطخا شرفه ، وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ
 العديدة تفصلهما عنه . فلا هو بمستطيع أن يبلغهما .
 ولا هما بيالفيه قبل أن يموت ... وأوغل فى سبل
 الانتقام الكثيرة المتشعبة ... وأغطش الليل ولما يهتد
 فكره إلى سبيل يبلغه طيته فيشقى غليله ... واستاق
 على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتنز نازاً تكاد تانى
 على بقايا جسمه المحطم
 وعند ما انصدع عامود الفجر أقبل طبيب
 الطوافة « المتيد » التى اغتلاها علم الأميرال طويلاً ،
 ليمود رئيسه الليل وذعر لدى رؤيته وجهه رئيسه
 الشاحب المنقع ودهش . لتقدم الرض السريع فى
 يوم وإيلة ... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال
 الأميرال :

إلى بدنه . وفي أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة وما تحمل من متاعب وأعباء

وفي السنة التي تلت ذلك . أي بعد موت الأميرال بمشرة أشهر أو تقل راح الناس يلخطون بقرب زواج أرملة من الشاب الوسيم للقسيم فوشيريون . تناقلوا ذلك فيما بينهم في غمز ولز كأنما كان ذلك عين ما يتوقعون . ويبدو أن الماشقين قد آثروا بعد علاقتهما الدنسة الآئمة أن يرتبطا بملاقة يقرها للعرف والدين

ووصل الكابتن فوشيريون ذات صباح إلى القصر المتيد حيث تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها محبة

وعند ما متع النهار وارتفعت الشمس دخل باريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوء به عمره الصغير . قال لها :

— أحقا أنك تمدين المدة للزواج من الكابتن فوشيريون يا أماء ؟

فأجابته بصوت مضطرب :

— من أبلغك هذا ؟

لم ينبس الغلام . فاستطردت المرأة

— على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه

— إني لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل

الكابتن فوشيريون مكان أبي

— لا تقبل : ماذا تقصد بهذا الهراء ؟

ثم أشارت إلى الباب غاضبة واستأنفت

— أخرج من هنا حالا يا سيدي

فانصرف من لديها إلى غرفته ، ثم غادرها بعد

بضع دقائق إلى غرفة فوشيريون واقتحمها دون

استئذان واضمًا إحدى يديه في جيب بنطلونه

وكان فوشيريون يخلق لحيته أمام مرآة ،

فاستدار نحو باريك وقال :

— إن اللياقة تقضى بدق الباب قبل الدخول

— إنه ييتى ياسيدي . ومن حق أن أدخل

أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان . ثم إن لي حديثًا معك

— لك حديث مني ... تكلم

— إني أعلم سبب وجودك هنا . وإن ما تبنيه

لا يمكن أن يتم . ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود

أبدًا . إني أضمنك من الزواج بأبي

— إنك مجنون ولا ريب أيها الطفل

— من الخير لك أن تطيعني

فشعب وجه فوشيريون من شدة الغضب .

وومضت عيناه من فرط الغيظ . قال :

— أخرج أيها الغرير وإلا عركت أذنيك

واتجه نحو باريك رافعا يده . فتراجع الغلام

عنه ثم وأخرج من جيبه شيئًا كان يخفيه ، مسدسًا

ورفع به يده . ضغط الزناد ، فانطلق

فانشق صدر فوشيريون عن صرخة هائلة دوت

في سكون القصر العميق . وترشح ثم سقط جثة

هامدة وقد اخترقت الرصاصة جبينه ...

وأقبلت المركيزة على عجل ورأت كل شيء ...

ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها

وجردته من سلاحه .

— ماذا فعلت أيها الشقي ؟

وتركها باريك تأخذ منه السلاح ثم قال : وقد

رأها ترتعي على الجثة تبكيها وتندبها :

— لقد أنبأني أبي قبيل وفاته أن هذا الرجل

عدولي وعدو لك ، وأوصاني بمهايتك من شره وغدره

حق ولو أدت الحال إلى قتله . ولقد نفذت وصية أبي .

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن فوشيريون

مات منتحرا محمد عبد الفتاح محمد

الغلاف بطبيعة كونه مسجلاً ألف
مثل هذه الأحوال فهياً على عينيه
منظاره ، وقرأ في صوت أجش
جبل على تفصيل المقود :

يا ابني ، يا ابني العزيزين ،
إني لا أستطيع أن أنام قريراً
في ضجتي الأبدية ما لم أبحث

إليكم من رجام القبر باعتراف ، باعتراف بجرمة مرتقت
حياتي بالندم . أجل ، لقد اقترفت جرماً ، جرماً
خفيفاً شنيعاً

كنت إذذاك في السادسة والعشرين من عمري ،
أمارس المحاماة في باريس ، وأعيش في تلك المدينة
عيشة الشبان الغرياء ، بغير معارف ولا أصدقاء
ولا آباء .

فأخذت خلية . وكم من الناس من يشورون
لهذا اللفظ وحده : « خلية » ولكن بعض الخلق
لا يستطيع أن يعيش فريداً ، وأنا من بين هؤلاء ؛
فإن الوحدة لئلائي باستيعاش خفيف ، وحدة المأوى ،
قرب المصطلي ، في المساء . حينئذ يخيّل إلي أني أعيش
على ظهر الأرض وحيداً ، تحديق أخطار مبهمة ،
وتكفني أشياء مجهولة وخفيفة . حينئذ يخيّل إلي
أن الحاجز الذي يفصلني عن جاري ، جاري الذي
لا أعرفه ، يمدني عنه بمد النجوم التي ألتأها من
نافذتي ؟ فتعروني حتى من الجزع والخوف ، ويرهني
صمت الجدران . ما أبلغ الحزن وما أجمع الصمت
في غرفة الرجل الوحيد ! أنت هناك لا يأخذك
الرب إذا رنق الصمت قدر ما يحتويك إذا اختلج
ستر أو قرقت قطعة من أثاث . لأنك في ماواك

الإعتراف

للقصص الفرنسي جي دي موباسان
بقلم الأديب شكري محمد عيسا

أقيمت قرية « فزير لوريتيل » عن بكرة أبيها تشيع
جناز السيد « بادون ليرمنتيه » وتشهد رسمه .
وانطبعت في كل ذهن كذات نائب الولاية في تأييده :
« إن أقل ما يقال فيه إنه رجل شريف ! »

لقد كان رجلاً شريفاً بكل ما قدم من عمل مجيد ،
بأقواله ومثله ، بسلوكه ومعاملاته ، بسياحه وشارته ،
بهيبته لحيته ووضع قبعته . ما قال يوماً كلمة إلا ضمنها
حكمة ، ولا جاد يوماً بصدقة إلا شفعها بنصيحة ،
ولا بسط يوماً يده إلا كان كمن يزلف حسنة

ولقد خلف ولدين : ذكراً وأنثى . أما الابن
فقد كان على وشك أن يمين قائداً في الجيش ؛ وكانت
الابنة من عقائل فزير ، فقد كانت زوجة المسجل
السيد بوارل دلا فولت

وكانا موت أبيهما آسيبين لا يميزان ، فقد كانا
يصدقانه الحب ويخلصان له الولاء

وما انتهت مراسم الدفن حتى آبا إلى المنزل ،
واختلوا ثلاثتهم : الابن والابنة وزوجها ، ففضوا
الوصية التي كان عليهم أن يتلوها وحدهم بمد أن يقر
في الأرض تابوت الفقيد . وكانت على الظروف
إشارة تمن هذه الرغبة ، وتحتم هذا الشرط

كان السيد بوارل دلا فولت هو الذي فض

الكثير لا تنتظر صوتاً ولا تتوقع نامة

وكم من مرة أزعجني السكون الآخر فطفقت أنكم ، أفوه بالفاظ لا رابطة بينها ولا معنى لها لأحدث صوتاً . حينئذ يلوح لي صوتي من الغرابة بحيث أخافه هو أيضاً . وهل أبست على الرعب من أن تنكلم وحيداً في منزل خال ؟ إن صوتك لي لوح لك حينئذ كأنه صوت سواك ، صوت مجهول يتكلم لغير سبب ولغير أحد ، ويشق جوف الهواء لغير أذن تسمعه . ذلك بأننا نعرف قبل التلفظ ما نوشك أن نقول ، فإذا أرن الصوت الحزين في الصمت الجاثم لم يعد إلا شبيه الصدى ، صدى عجيب خلفت ضئيل همس به الدهن الكليل .

اتخذت خلية : فتاة ككل أولئك الفتيات اللاتي يمشن في باريس من عمل لا يقبتهن . كانت حلوة ناعمة ممحة بسيطة ؛ وكان أبواها يستوطنان وارس ، فكانت تذهب إليهما من حين إلى حين فتمضي بينهما بضعة أيام .

قضيت معها حولا في عشرة هادئة ، وأنا ثابت للمزم على هجرها متى وجدت الفتاة التي أرتضيها زوجة . وكنت أهبها أجرها قدرأ صغيراً من المال ، فقد جرى للعرف في مجتمعنا على أن الحب يجب أن يشري من المحبوب بالمال إن كان فقيراً وبالهدايا إن كان غنياً .

ولكن هاهي ذي تنبئني ذات يوم أنها حبلى . فذهرت ولحت في لحظة كارثة وجودي . وبدا لي الغل الذي سوف أرسف فيه دائماً : في أسرتي المستقبلية ، في شيخوختي ، حتى أموت . غل المرأة التي ارتبطت بي بوليد ، غل الطفل الذي يجب أن

ينشأ ويحفظ دون أن يعرفني ، ودون أن يعرفه الناس . ذهلت لهذا الخبر وامتلكتني فكرة مبهمة ما كنت لأجتليها ، ولكنني أحسستها في قلبي على أهبة للبروز ، كأولئك القوم المتوارين وراء السدل ينتظرون إشارة بالظهور . كانت تدور في أعماق تفكيري رغبة فائكة : لو حدث حادث ! إنه كثيراً ما يقع لتلك الكائنات الصغيرة ، التي تموت قبل أن تولد !

أوه ! ما كنت أريد أن تموت عشيقتي ، فقد كنت أحبها حقاً تلك الفتاة المسكينة ؟ ولكن لملي كنت أؤمل أن يموت الآخر من قبل أن أراه بيد أنه برز إلى الوجود يرهقنا بالنفقات ويطالبنا بالعناية ؛ لقد كان يشبه كل الأطفال وما كنت لأحبه . والآباء لا يحبون إلا متأخرين فليس لهم مثل ما للأمهات من حنان فطري وحذب مكتسب وحب سريع . لكن يشبه عطفهم شيئاً فشيئاً ، ويرتبط قلبهم بتلك الوشيجة التي تؤلف بين المتعاشين وتزيد على الأيام توثقاً وإصراراً .

وأدبر حول جديد فاذا أنا أفر من مسكني الصغير وقد انتشرت فيه ثياب ولقائف وجوارب كالفافيز ، وألف شيء من كل نوع ماقى في كل مكان : على قطعة من أثاث أو على ذراع من مقعد . ولقد كنت أفر حتى لا أسمع صياحه ، فقد كان يصيح دائماً ويصرخ بغير انقطاع : إن بدلنا مكانه أو نظفنا جسده ، أو لسناء أو أرقدناه أو حملناه .

وعقدت مع بعض الأسرات أوامر المعرفة ، فلقيت في أحد الأبياء تلك التي غدت أمكاً ، فشغفت بها حباً واستيقظت في نفسي رغبة أن أتزوج منها .

أن أذوده ، وبأن أفتح ذهني لأفكار بعيدة وآمال جديدة ، كما تفتح النافذة لنسيم الصباح البكر فيزج هواء الليل السم ، ولكني لم أستطع أن أبعد ذهني لحظة واحدة . لست أدري كيف أصف هذا المذاب . لقد كان يقضم روحي ، فأحس لجذأسنانه الما هائلا ، الما حقيقيا يلهب الجسد والروح جميعا .

لقد قضيت نحبي ، فكيف أخلص من هذا الكلام ؟ كيف أرد للهمة ثم أثبت الاعتراف ؟

لقد كنت أحب تلك التي غدت أمني حب الجنون . وكنت أقول إن الحجر الكثود سوف يسد طريقها أيضا ، وسوف يملأ قلبها شجي ولوعة وامتلكني غضب خفيف ، غضب سد حنجرتي ودفعني نحو الجنون ... نحو الجنون ... ! بقينا لقد كنت مجنوناً ذاك المساء البعيد ؟

كان الصغير ينام . فقامت ونظرت إليه وهو نائم . إنه هو ذلك السقط ، تلك الدودة ، ذلك اللاشيء الذي يلزمني شقاء مبرماً لا يراجع ! كان ينام مفتوح للفم ، مدرجاً في لفائفه ، ناعماً في مهده ، قرب فراشي الذي لم أكن أنا أستطيع عليه نوماً !

كيف فعلت ما فعلت ؟ هل أعلم أنا ؟ أي قوة دفعتني ؟ أي شيطان استبطنني ؟ لقد كانت الجريمة تجتذني بنير وعي مني . لست أذكر إلا أن قلبي كان يدق ! وكان في رأسي صخب عجيب كأنما غادره كل تفكير وكل هدوء . كنت في ساعة من ساعات الدهول حيث لا يقدر المرء ما يرى ، ولا يدري ما يفعل ولا يقرر ما يريد

رفعت الأغشية التي كانت تستر جسد ولدي ،

وعينت في القضاء فطلبت يدها ، وأجبت إلى ما طلبت . وأمسييت من أمسي في رهن شديد . أبني بتلك التي أعبدتها ولي ذاك الولد ، أم أصرح بالحق فأفقدتها وأفقد السعادة والمستقبل وكل شيء ؟ لقد كان أبواها من الصارمين المتزمطين ولو علما الحقيقة ما أسلماها إلى .

قضيت شهراً في أتون من الهم والألم ، تموج في ذهني آلاف من الأفكار الخفيفة ، فتثير في نفسي البغض والممداء نحو ابني ، نحو هذه القطعة الوجلة من اللحم الحى ، نحو هذه النطفة التي تسد طريقى ، وتسلمنى إلى وجود لا رجاء فيه ، ولا أمنية تملأ الشباب حياة وجمالا .

ولكن ها هي ذى خليتي يعترها المرض قاتلي والطفل وحدي .

كنا في ديسمبر ، وكان الطقس قرأ شديداً . يا لها من ليلة ! لقد بارحتني خليتي فتعشيت في قاعتي الضيقة وحدي ، ودلفت إلى غرفة الصغير للنائم . جلست على مقعد إلى المصطلي ، وكانت الريح تمصف فيقرقع لها الزجاج ، وكنت أبصر النجوم من نافذتي تلمع لمها الحاد في ليالي الصيف .

إذ ذاك سمعت إلى رأسى الكره الذي احتواني شهراً ، وما كدت أجلس ساكناً حتى هبط على ونفذ إلى وتا كل قلبي . وإذا هو في رأسي كالفكرة الراسخة ينخر فيه نخر السرطان في اللحم اللين . كان يخيل إلى أنه يدب مني في الرأس والقلب والجسد ، ويمس مني الأطراف والشفاف والمسامع ، ويبتلمني كأنه الوحش الجائع النهوم . فأردت أن أطرده ،

وألقيتها تحت المهد، فرأيتني عارياً تماماً . ولم يستيقظ
فذهبت إلى النافذة في هدوء وفتحتها

واندملت هبة من الهواء كأنها المجرم الأثيم ،
نكست لبردها ، وخفق لمصفاها نور الشمعتين .
وظللت بجوار النافذة قائماً ، لا أجسر على الارتداد
حتى لا أرى ما يجري خلفي ، وأنا أحس على يدي
وخدي وجيبي برد الريح الميتة لا تفتأ ما كفة
على المهبوب . وبقيت كذلك طويلاً

لم أفكر قط ولم أندبر شيئاً ، حتى نمت سعة
صغيرة أرسلت في رعدة بلغت منبت الشمر أحسها
اللحظة مرة أخرى ، وفي حركة عنيفة مجنونة أوسدت
مصراعى النافذة ، ثم عدت فعدت إلى المهد

كان ما يزال نائماً ، مفتوح الفم ، عارياً تماماً .
فلست قدسيه فاذا هما باردتان كالثلج ؛ فرددت
عليهما الغطاء

ورق قلبي فجأة وانحطم ، وامتلأ حناناً وعطفاً
وحبا لذلك الخلق البريء المسكين الذي أردت قتله
لقبته طويلاً في شمره الرقيق ، وعدت فجلست
إلى المصطلي

تدبرت في ذهول ورعب ما فعلت . وساءلت
نفسى من أين تعصف بالإنسان هذه الفكر التي يفقد
مهما كل تقدير للأشياء وكل سلطان على نفسه ،
ويجمل في مثل نشوة السكران أو ذهول الآخرق
غير عالم ما يفعل ولا حاسب حساباً لما سيكون ،
فكانه زورق وسط إعصار شديد

نمل الطفل ثانية ، وأحسست كأن قلبي يتمزق .
آه لو مات الرباه الرباه ! ومن أغدو أنا !
نهضت كي أراه ، وحنوت عليه وفي يدي شمة

رأيتني يتنفس في هدوء فطأنت نفسي ، بيد أنه سعل
مرة ثالثة فأحسست مثل وقع الصاعقة ، ونكست
على عقبى كمن رأى شيئاً أروعيه فحطت الشمعة
من يدي

ولما التفتها واستويت واقفاً إذا بخدي مبللان
بالعرق ، بذلك للعرق الذي تعجبه النفس ساعة ثورتها
لاهباً مثلجاً في وقت ممّا ، وكأنما تنفست بين المظم
والخاخ نفحة من ذلك المذاب الفليظ ، الفارس
كالثلج ، اللافح كالنار

ظلمت حتى الصباح طافاً على ولى ، أسرى
عن نفسى المم كما رأيتني هداً وصفاً ، وعزقنى الألم
كلما انبمشت من فم الصغير سعة خافتة

واستيقظ وقد احمرت عيناه ، واضطرب حلقه
وبان عليه الألم

وعند ما أقبلت بخادي أرسلت في طلب طبيب ،
فجاء بعد ساعة ، وقال بمد أن فحص الصغير :

— ألم يصبه برد ؟

فطفقت أرتعد كارتعاد الشيوخ الطاعنين
ونعمت :

— كلا ، لا أظن

فأجاب :

— أنا لا أعرف شيئاً غير هذا . ساءود هذا
الساء

وعاد في الساء . وكان ولى قد قضى جل النهار
مبتكلاً لا يفتق ، ساءلاً بين الحين والحين

ودامت تلك الحال عشرة أيام ، ولست بقادر
على أن أصف ما قاسيت في تلك الساعات الغلاظ التي

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائب

ابن العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقذو أبي للملاء إنه عارض به القرآن . ظل
طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة وسدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محور حسن زنتاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

تفصل بين كل صباح ومساء ، وكل مساء وصباح
لقد مات ...

ومنذ تلك اللحظة لم أعرف ساعة واحدة
تعفني من شناعة هذا الجرم ، أو تحجبني من طيب
هذه الذكرى التي تقد الحشا وترمض الجوانح ،
وتدور في النفس كوحش مبيت ، حبيس في أعماق
هذه الروح

آه لو استطعت أن أغدو مجنوناً !

خلع السيد يوارل دلائل منظاره في جركة
مألوفة لديه عند فراغه من قراءة عقد ، وتبادل الورثة
الثلاثة النظرات دون أن ينبسوا بكلمة ، فقد كانوا
شاحبين ساهمين لا يتحركون

وبعد دقيقة قال المسجل :

— يجب أن نعدم هذه

ونخفض الآخرين رأسيهما إشارة الاقرار ،
فأوقد السيد شمعة ، وفي عناية واحتراس فصل
الأوراق الحاوية الاعتراف المخوف عن تلك الشاملة
توزيع المال ، ثم قدمها إلى النار وقذفها في المدخنة
وراقبوا الأوراق البيضاء وهي تحترق ، فلم تدم
بعد قليل غير كومة صغيرة سوداء . ورأت الابنة
أجزاء من الورق لا تزال بيضاء تحمل حروفاً قليلة
فخطمتها بضربات صغيرة من كعب حذائها وخلطتها
بالرماد القديم

وفي ثلاثتهم زمناً يشهدون هذا الرماد ، كأنما
خشوا أن يفر من المدخنة السر المحرق

شكري محمد عيار

وفي مقصورة — وقتئذ —

من مقاصير الحمراء ، المقمة
بأريج المسك ، وشذى المنبر ،
كان أبو عبد الله آخر ملوك
بنى الأحمر جالساً للقرفصاء في
محراب من محارب الصلاة ،
يعبد الله ويندب حظه ، ويودع

أيامه المظرة للساجمة على أمواج الماضي في آخر
ليلة من ليالي الحمراء العابسة .

وتولت للطلقات تدمدم في آفاق غرناطة ،
فلم أن الساعة قد أزفت ، وأمر الله قد وقع ، فقام
من فوره متثاقلاً وانحبط على شرفة من شرفات
الحمراء فترأى له جبال سيرانفادا Sierranevada^(٢)
وقد تجمعت بركام من الثلج الفضي الذي يلعب في
أعطاف الفجر ؛ وإنه كذلك وإذا بنسبات الفجر
الرقيقة قد هبت من أعالي هذه الجبال حاملة معها
أنفاس الروج ، وعطر الأحراج ، إلى غرناطة
ومحراثها .

ثم أغمض عينيه ، ووضع رأسه بين يديه ،
واستسلم لتفكير عميق ممض ، وراحت مواكب
الدكريات تتزاحم على نفسه ، وتثقل صدره ، ولم تدم
طويلاً لأن غممة الأحراج ، وهممة الجداول
الساجية التي تشق ردهات الحمراء قطعت عليه سلسلة
تفكيره فرفع رأسه المثقل ورمى بطرفه ثانياً في ضوء
الفجر فرأى غرناطة ، غرناطة حبيبتها التي صب
عليها أجداده من قبل أنوار المعظمة والجمال ،
غارقة في أمواج من الخضرة والنعرة والسكون
للممبق ...

(٢) معناها سلسلة جبال الثلج

نَفْسُ الْعَرَبِيِّ

أَقْصَوْصُ شَرْقِيَّةِ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَمُودِيِّ

(إلى غرناطة ...)

ليه ... يا زهرة مدائن الأندلس الجميلة ؛
يا موطن النور والحب والأزهار !
أين ذهبت السعادة التي كان يرقل في أتوابها
سادتك الأجداد ؟ أين قصورك الصيفية المشرقية
البدية ذات المنائر الطاعنة في أجواز الفضاء ؟
ما الذي حدث يا غرناطة حتى قطعت عن الوجود
لحنك المطرب ، وأغانيك الشجية ؟

(الفرناطى : جوزى زورلا)

في صباح مكفهر الوجه ، صربد الأفق ، وفي
ساعة مشثومة من ساعات الدنيا الفاصلة لجمال التاريخ
وقعت أجمع فاجعة دامية حملها تاريخ الاسلام ،
وطويت آخر صفحة من صفحات النبوغ للعرب
في بلاد الأيبان !

كان ذلك في صباح ١٠ يناير من سنة ١٤٩٢
ميلادية عند مادوت في سهل الفيجيا Vega للفسيح
ضربتان من مدفع نصب على أعلى برج من أبراج
الحمراء ، مخطرة ملك إسبانيا الجديد فرديناند المتحصن
بمدينة سانتافي Santefé^(١) التي لا تبعد كثيراً عن
غرناطة ، أن يتحرك ليتسلم زمام الأمر ومقاليد
الحكم في حمراء غرناطة !

(١) مدينة في الفيجيا بناها الكاثوليك أثناء حصارهم

لغرناطة

شوارع غرناطة وقد أقفرت من كل شيء تحفت
به كوكبة من رجاله المخلصين وبلغ آخر الممار فاحتضنه
سهل الفيجا ، فلاحته خلال أغصان النار الخوذة
اللامعة ، والرياح المتألقة ، ودمدمة الجيش الاسباني
المتصر يشق طريقه إلى غرناطة ...

وهناك في مكان معين قابلته أولى طلائع الجنود
الاسبانية وقد نسجت في الجو من غيرها رداء
عكراً حجب قرص الشمس ، وقد ملأ هزونها
الآفاق وفي مقدمتها ذلك الملحج الأسباني
(بدرو فانزالو دي مندوزا) الذي يعتبره التاريخ
أعظم موقد لنار الحرب على غرناطة . ونظر هذا
إلى أبي عبد الله نظرة الشبهة ، أتبعها بتحية صفراء
مزقت أحشاء الأمير العرب الشمس

وتتابعت مواكب الأسبانيول تملاً السهل
والوعر ، وهي تصب في سهل الفيجا أروع حماسيات
قشتالا ، وأعذب ألحان أرافونيا ، وابن الأحمر
سام واجم تفتسه الآلام ، وتنوشه الهموم من كل
جانب ، ولكنه أبدى من رباطة الجأش ، ومثانة
الرجولة ، ما بهر أنظار الفرسان وهم يمرون به سريعاً .

وبينا طرفه بموج في هذه الأمواج إذ لاحته
له كوكبة من الفرسان تتوسطها مركبة مرصعة
بكرات الفضة ، وعلى واجهتها الخلفية المرتفعة
يتذبذب في وهج الشمس صليب ضخّم الحجم هائل
النظر ، من تحته يجلس الزوجان السعيدان فردناند
وإزابلا ومن حولهما صفوة مختارة من الفرسان
شاكي السلاح !

وطبقاً للشروط القاسية التي تعهد بتنفيذها هذا
الأمير النعس فقد انحط من على فرسه بسرعة البرق

وصعدت من صدره زفرة أرسلها في جوف
الفجر إزاء هذه المناظر الساحرة التي حركت
إحساسه ، وألحبت عواطفه ، وهزت أسلاك قلبه ،
وأثارت كامن شجونه ! ثم طفرت من عينيه دموعتان
ساخنتان ، وعيناه ضنيتان بمثل هذا الماء في جميع
الأدوار القاسية التي مرت به ، ولكن للرجال
ساعات تتلانى فيها رجولتهم وكبرياؤهم

وراح صدره ينمو ويهبط ، وعيناه ممدقتان
إلى غرناطة وقد بلتتهما الدموع ونسجت عليها ثوباً
شفافاً تراءت له هذه المدينة الساحرة من خلاله
وهي مضطجعة في هذا السهل المرع المخضل ،
كأنها قطعة من سحب ناصع ضارب في سماء
صافية ! !

وغرق ابن الأحمر في بحار التأملات ، وما أفاق
إلا على قول الحارث بن حنزة :
أجموا أمرهم عشاء فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصها

ل خيل ، خلال ذاك رغاء
فأطل من شرفته ليرى ما الخبر ، فإذا بمحاشيته
تضطرب في فناء السباع ، وقد أعدت كل معدات
السفر ، ولم يبق إلا نزول السلطان ليأخذ طريقه
إلى منفاه !

غامت مقاصير الجراء في عينيه ، وقد كانت
بهجة النفوس ، ومنتعة الخواطر ، ونزل ابن الأحمر
يجر أذيال الخيبة وثقل الزمن ، وحساب التاريخ ،
متثاقلاً متهاكاً يترنح في مشيته كالتمل ، واخترق
الفناء فامتطى صهوة جواده الأدهم فاندفع به في

أبواب غرناطة بينا الأهازيج تجلجل في أجواء الفيجيا
ووقف سيد الأمس وطريد اليوم ، بتدب حظه
وملكه المضاع ، ثم زفر زفرة محرقة مزقت أحشاءه
وسقط منشياً عليه ، وما أفاق إلا على طلقة مدفع
أحدثت دوياً شديداً في سهل الفيجيا ...

نهض وقدهاقت بوجهه الشاحب حبيبات من
الرمال ، أبعدا بردنه ثم أقبل على جواده فرأى هناك
بسيداً على قنة برج من أبراج الحمراء صليبا من الفضة
الصافية مؤذنا بأفول الهلال ، وعلى برج آخر حلت
حل راية القرآن الراية القشتالية تتموج في الرياح !
ومن هذا اليوم انقطع ذلك اللحن السامى
الحنون الذى ينصب في أذن الفجر هاتفا : الله أكبر ...
الله أكبر ... ! وارتفعت ضربات النواقيس ، ودق
الطبول ، وترانيم القسوس ، وسقطت غرناطة في
أحضان المسيحية !



تحرك ابن الأحمر من مكانه ، وامتلأ صهوة
جواده ، ولحق به أصحابه ، فلفهم الأفق بردائه
وهناك تحت أقدام جبال اللانج اضطجعت قرية
صغيرة على سفح من سفوحه قد لفها الضباب بردنه
تسكنها بضع عائلات عربية رقيقة الحال ، تستغل
بالزراعة

فزل ابن الأحمر على عين من عيونها ليقضى
(سواد) نهاره هناك ، وعلمت بمقدمه جموع
العرب فتوافدت إليه تسكب بين يديه العبرات
الحرار ، وتندب ملكا مزقته العvisية ، وتثرته
الشهوات والأهواء !

عند ما اقتربت منه المركبة الملوكية ، واخترق
الصفوف ، ووقف في قلب الوكب والحزن يحز قلبه
خزاً ، وشاهده في هذه الأثناء فردناند بمهامته العربية
البيضاء المتازة قترت قليلا في سيره ليسلب ثرقه
هائياً وبحطم كبرياهه العربي ، ونظر إلى أبي عبد الله
نظرة فهم مضمونها فأنحنى له هذا ، وقد أغمض
عينيه ، انحناء ماحرفتها ملوك العرب منذ الأزل ،
انحناء كان كابوسها الرهيب يتمثل له في لياليه
الأخيرة حتى أجهز عليه !

وتأذت أنظار الجمهور من هذه النهاية المؤلة التي
حلت بأمر المؤمنين سلطان غرناطة ومالقة والمرية
أبي عبد الله سليل بنى الخزرج !

ثم رفع للسلطان رأسه وقد احمرت عيناه وأدلى
بيده على جبيه وأخرج مفاتيح المدينة وقدها
لفردناند قائلا :

« أيها السيد ! هذه غرناطة ملكاك ، وما قدر
الله كان ، فهانذا أضع مفاتيح هذا الفردوس بين
يديك وأفوض إلى رحمتك وصدق إخلاصك حقوق
أبنائي^(١) »

ثم أشاح بوجهه وقد تقصد جبينه حرقاً ،
وظن الجمهور أن الأسبان وقد أخذته نشوة
النصر ، وتفتحت له جنان غرناطة ، ستأخذ حنوة
على هذا الأمير النكود فيفيض على قلبه المسحوق
اللطيف وحسن المعاملة ، ولكن العزة الكاذبة ،
سلبت منه مميزات النفس البشرية فاستلم المغاليد
وتابع سيره في جموع المسيحية التي قاربت طلائعها

(1) Luisa banal : gli ultimi signori dell'al-hambra

فترأت لهم آفاق الأندلس في صفوة الفجر تبعث
معاني التهليل والتسبيح في النفوس... هذه رحاب
الأندلس كلها قد بدت كاليساط المدور حالة غارقة
في أمواج الخضرة ، ضاحكة بمفاتن الطبيعة ؛ وهذه
خيالات القرى البيضاء قد لاحت من خلال أشجار
السرو والصفصاف كاللؤلؤ المنتور ، وتفقد ابن الأحرز
مدينة أحلامه ، ليودعها آخر نظرة ، وأخر زفرة ،
إلى الأبد ! فرآها غارقة في سبات عميق وقد غسلت
أمواج القمر أبراجها المشمخة ومناظرها السامقة ،
فبدت تتلأل في ضمير الفجر كشابخ من فضة
تهدل من أجفان السماء !

أثر هذا المنظر الساحر في نفسه فزفر زفرة
عميقة سجلها التاريخ في مطاويه ثم هتف هتافاً
عالياً :

الله أكبر .. الله أكبر ..

غرناطة .. غرناطة ..

وسقط تخنقه العبرات في نجيب طويل !

في هذه الأثناء كان قرص الشمس المتهب قد برز
من خلال الجبال مهيباً تلك الغمام الرقيقة السابجة
في هذه الأجواء . وأفاق ابن الأحرز على قبسات
الشمس الباقية وقد تقرحت أجفانه من فرط النجيب
بينما كان أصحابه ينشجون نشيجاً مؤلماً يفتت الأكباد
ويذيب الجداد ، وتشجع أحدهم وقد آلمته هذه
المواقف التي تدمى الفؤاد فتقدم نحو السلطان وعلى
شفثيه بضع كلمات تقال في مثل هذه المناسبات
الموجمة تخفيفاً للكرب وترفيفاً للخاطر المشرد :
— صبراً يا عظيم الروح صبراً ... فليعض

لم يعض على وصوله ساعات حتى أقبلت أمه
عائشة ، المرأة التي كان لها القدح الممل في هذه
الفاجمة ، تحف بها جوع الخدم والحشم وقد حملت
من أبهاء الجراء كل ما خف حمله ، وغلا ثمنه !
وآذنت الشمس بالغيب ، وقبل أن تختبئ وراء
خرائب الأبدية ، وقبل أن تمانق قلوبها هامات الجبال
المسكلة بمصائب الثلج ، آوى أبو عبد الله إلى مخدعه
يائساً وقد هد الحزن أركان قلبه ، وأبكت نار
المذاب فؤاده ، وانطرح على فراشه وعيونه تنفجر
بآلام أعظم فاجمة عرفها تاريخ البشر !

كان ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر يناير
سنة ١٤٩٢ ، قبل أن تنفض ذكاء أشعتها الدافئة
على أعالي جبال البشرات Alpuxarrat أخذ
أبو عبد الله طريقه إلى إفريقيا في غلس الفجر قبل
انبثاق النور ...

ولفهم سهل الفيجا بصمته الرهيب ، فلم تحس
لهم حساً ولا جرساً ، اللهم إلا حوافر الخيل توقع
اللعن الموجه في منمع الطبيعة ، وعلى على الوجود
سورة الخلود العربي الخلف في بلاد الأسبان
ونجاة ، كانت الخيل قد وصلت إلى أعتاب
جبال الثلج ، فافتحمت صخورها ، وتغلقت
في أحشائها ترهاها مرتفعاتها الناهية صمداً إلى
أعنان السماء !

وهنا بلغوا الدروة القصوى لهذه الجبال ،
وهنا نفث العربي الخزرجي زفرته الأخيرة كأنفاس
الصيف ...

وأجال الفرسان أنظارهم من على هذا النجم ،

وقفته الأخيرة ، وزفر فيها زفرته المشهورة فلا تزال
حتى هذه الساعة تؤلف مزيجاً من الخرافة والتاريخ
في صدور الأسبانيول

يمر بها السائر فيحييها فتحتدم في نفسه ذكريات
الماضي الماطر ، ويرنو إليها البحار الأسباني وهو
معلق بسارية سفينته في عرض البحر المتوسط فيطرق
مليا مشغول البال ، مبلبل الخاطر ، ثم يترنم بأغاني
شجية ومقاطع رومانسية تتعلق بأخبار العرب
وآثارهم ... هذه الربوة مشهورة في الغناء والتاريخ !
هذه il sospiro del moro « زفرة العربي » (١)

(القاهرة) محمد عبد الله العمودي
دبلوم دار العلوم

المصائب ثم ... ! ولها فوائد فعالة عند ما تتعرج
ذكرياتها في أذهان الأحفاد ... !

ولكن أبا عبد الله لم يعبأ بهذا ، بل أشار بيده
وقد خفضها قليلا إلى غرناطة الساحرة وهي تضحك
في نور الشمس وأجاب بكلام رقيق كنوم السحر :
— أواه ! أي نكبة تعادل نكبتى هذه ؟

ثم همز جواده المطهر ، فابتلمته أحشاء الجبال ،
وغابت عن عينيه غرناطة ... إلى الأبد !

وركب البحر إلى (مليللا) على الشاطئ الأفريقي
وشخص نحو (فاس) عاصمة الأيالة المراكشية وبقيت
روحه متشعة بوشاح الحزن والكآبة طيلة حياته



(1) Yoseph mccabe : the splendour of moorish
spain

أما الربوة العالية التي وقف عليها أبو عبد الله

شركة مصر للغزل والنسيج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في اثمانها ...

رائعة في ألوانها ...

فبادروا باخذ طلباتكم

حاجي بابا اصغر هاني

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الصادرة إليك فتان بالعمدة وكبار أهل
المدينة؟ أنا لو كنت هناك لأخرقت جثث
هؤلاء الأوغاد أو لأذقتهم أنواع التعذيب
حتى يعترفوا بأن لديهم ثروة مخبوءة «

وقال شعير بك بمد أن نظرك إلى مستنجداً:
« لقد كنا نريد أن نأتى بهم وشددنا وثاقهم
وضربناهم وعنفناهم وحاجى بابا يعرف كل شيء فقد
طلب إليهم أن يدفعوا للضريبة تقدماً وإلا فانهزموا
يوجدوا منا رحمة لأن الرحمة ليست من أخلاقنا، وحذرهم
من سطوتك يا سيدى الرئيس قائلاً إن شجاعتك
لا تعرف التردد، وقوتك لا تعرف الدين، ولم يزل
يصفك أمامهم حتى أغشى عليهم من الخوف «

قال لى الجلاد: « ما الذى أجابوك به يا حاجى بابا؟
إننى لم أفهم لماذا لم يأت هؤلاء القوم أمامى كما أمرت «
فقلت بمتعنى الخضوع: « وأنا لم أفهم كذلك
فإن شعير بك هو الذى كان ينوب عنك فى هذه
المهمة، وقد تولى الأمر كله بنفسه وقد ذهبت فى
خدمته فلم يمهّد إلى شيء «

عند ذلك ثارت نائرة الجلاد وخاطبنا بأشد
ألفاظ الاحتقار ونظر إلى أصدقائه وقال: « من
الواضح أن هذين الوغدين قد لعبا لعبة هناك .
قل لى يا شعير بك بحق الملح والخبز الذى
أكلته فى خدمة الشاه، كم طوماناً أخذت فى هذه
الصفقة؟ « ثم نظر إلى وقال: « وأنت يا حاجى لم يعض
عليك أكثر من شهر واحد فى الخدمة فكى طوماناً
ربحت؟ «

حاولنا عبثاً أن نبرى أنفسنا وأقسمنا أغلظ
الايمان فلم تقابل بغير التكذيب. ثم استدعى الجلاد
(٦)

الفصل الخامس والثلاثون

الخط يتسم فى وجه حاجى بابا بك

كانت الهدية الوحيدة التى عدنا بها إلى رئيسنا
هى كبشين سميين، فلما وصلنا إلى معسكرنا قدمنا
نفسنا إلى النائب الذى قدمنا إلى «النازا كشى باشا»
وكان إذ ذاك جالساً فى خيمته يتحدث مع بعض
أصدقائه

قال لشعير بك: « هل جئت بالضريبة
أم بالعمدة؟ ما الذى فعلت؟ «

قال شعير بك بلهجة عجيبة من التملق لم أتصور
أنه قادر على مثلها: « كلا يا سيدى الرئيس لم أجيء
بهذا ولا بذاك، ولكن للعمدة أرسل كبشين ليزبحا
عند بابك، ولم يكن عنده غيرهما حتى ولا للقوت، وإذا
لم تنجد الحكومة الإيرانية هذه القرية بما يكفيها من
الطعام فإن أهلها سيموتون جوعاً أو سياً كل بعضهم
بعضاً «

فصاح الجلاد: « أ هذا هو الصدق؟ إذا كان
عندهم خراف فهل يعقل أنه ليس عندهم نماج؟ هل
هذا القول مقبول؟ «

قال شعير بك: « إن ظنك سائب يا سيدى
الرئيس ولكننا لسنا نتكلم عن الغنم بل عن اللقمح «
قال الجلاد: « ولكن لماذا لم تتبع الأوامر

ثابته وأمره أن يسجنتنا حتى يأتى العمدة ورجال
المدينة فيواجهوهم بنا

ولما صرت أنا وشعير بك وحدنا عرض على
نصف ما أخذه قائلا : إنه لم يرد نحرمانى ولكنه
كان ينتظر غودتنا ثم تقسم الهدية

فقلت له : « كلا أيها الصديق . لقد جاء هذا
الجود بعد فوات الوقت وإذا كنت قد شربت
من الخمر المحرمة فأصيب رأسك بالصداع فلماذا
تطلب إلى أن أصدع رأسى وأنا لم أشاركك في شربها ؟
حسبى من هذه الرحلة أننى تعلمت درساً وقنعت به ؛
وشكراً لأنك أنت الذى علمتنى هذا الدرس »

فحاول بعد ذلك أن يذال منى وعداً بمساعدته
عند ما تواجه بالعمدة وأن أقسم على صحة ما سوف
يدعيه . وبالرغم من تشدده قارة ولينه طوراً فأننى
لم أنله هذا الوعد . وقال لى إنه إذا جلد فلن يعيش
لأنه اشتهر بالقسوة الشديدة فى جلد المحكوم عليهم
وإنه لذلك لا يرجو من الجلادين شيئاً من الرحمة ،
وأقسم أنه بفضل أن ينكب بأية نكبة على أن يحكم
عليه بالجلد

ولما اقترب الوقت الذى سئدى فيه إلى
« النازاكشى بانى » لم يوجد شعير بك . وسئلت
عنه فقلت : إنه خاف أن يحكم عليه بالجلد ، ولذلك
لاذ بالفرار

ولما جئ بالعمدة وأصحابه شهدوا بأنى لم آخذ
منهم أى شئ ، وأنى على النقيض من ذلك كنت
أحتمهم على تقديم هدية ثمينة للنازاكشى بانى
وشهدوا ضد شعير بك بأنه ساومهم وقبل رشوتهم
وقد أثرت شهادتهم هذه أثراً حسناً فى نفس
النازاكشى بانى . وتداولت سيرت الألسن فأخذ

زملائى ينظرون إلى نظرتهم إلى رجل نزيه لانتسخته
المطامع وقال أحدهم : « إن ذلك يرجع إلى كونه
طبيباً والأطباء يعرفون الحكمة وهى أعلى من
كنوز الأرض »

وقال آخر : « إنه رجل يقدر المواقب فلا يضع
رجليه حيث ينبغي أن توضع رأسه »

وصفوة القول أننى اشتهرت بأننى رجل حريص
حذروا أننى — بالرغم من كل ما رأته من المصائب —
رجل حسن الطالع موفق الحظ

وكانت نتيجة هذه الشهرة أننى عينت مساعداً
لرئيس الجلادين ، وهذا منصب كبير الأهمية كما سيتضح
 للقراء .

الفصل السادس والثلاثون

رقعة القاب لا تغيرها طبيعة المنصب

فى ذلك الوقت نشبت الحرب بين حكومة الشاه
وبين المسكوف الذين اعتدوا على الحدود الإيرانية
فى المقاطعة الواقعة بين نهري خور وأراس ، وهى
مقاطعة يحكمها قائد من خاصة أتباع الشاه ، ورتبته
فى الجيش رتبة « سردار » فصد هذا الحاكم الجنود
الروسية التى اخترقت حدود بلاده ، ولكنه لم يكتف
بذلك بل طارد الأعداء فى بلادهم راغباً فى تحقيق
أمل قديم عند الإيرانيين وهو الاستيلاء على البلاد
الجنوبية من القوزاق حتى مدينة تفليس

وكانت الأخبار تصل يومياً إلى الشاه فى قصر
السلمانية كما كانت تصله بين حين وحين رؤوس
الضباط الروسيين الذين يقتلهم الجيش الأيرانى ، فكانت
تقابل بحفلات عسكرية لأن استمرار إرسالها كان
دليلاً على النصر

وأمر الشاه حاكم مقاطعة أذربيجان بأن يمد
السردار بقوة عظيمة من جيشه ليستمر في غزواته
للبلاد الروسية

وفي يوم من الأيام جاء رسول من السردار
يقود خمسة جمال بحملة برؤوس الروسين، ولكن يظهر
أنه جاء في الوقت نفسه بأخبار مقلقة لأن الشاه
أمر بإرسال حملة يقودها النازا كشي باشي وعدد
جنودها مائة ألف ومعه ضباط برتبة بكباشي
« قائد ألف » ويوزباشي « قائد مائة » وأونباشي
« قائد عشرة »

في ذلك اليوم أنعم على كثيرين من الجلادين
ببعض هذه الرتب واكتظت الطرق المؤدية إلى خيمة
القائد بالضباط الرأحين والغازدين على عجل لتأق الأوامر
الخاصة بنظام هذا الجيش

وكانت مهمتي من أصعب المهمات لأنني كانت
بقيادة فرقة من الجنود والروور بها على القرى لتجنيد
الشبان من أهلها وتدريبهم على القتال

وكانت هذه المهمة تستلزم نشاطاً شديداً وحركة
دائمة ولكن فيها من جهة أخرى نفعا كبيرا لأنه
كان من السهل على فيها أن أحصل على ثروة كبيرة
لو أردت ذلك. لكن الموعظة التي استفدتها من حادثة
شعير على بك لم تنب عن ذهني، فعمزت على أن أطفى
نار الطمع بماء الصبر وعلى أن أبقى يدي طاهرة من
أموال الناس

وصلت بفرقتي إلى مدينة أريفان قبل وصول
الجيش ببضعة أيام وهناك وجدت السردار وكان
قد وصل إلى مدينة جافيشار ولكنه عاد فتقهقر
إلى أريفان منتظراً وصول المدد. وفي هذا الوقت
وصلت فرقة أخرى من الجيش الفارسي بقيادة

ولي العهد إلى مدينة جانجا التي حاصرها العدو
ولما تداول السردار مع نازا كشي باشي يوم
وصول الأخير اتفق رأيهما على بث الجواسيس في
الجهات القريبة من الميدان لترقب حركات الروس
وجعلت رئيساً للجواسيس المينين من قبل
نازا كشي باشي وجعل رجل آخر رئيساً للجواسيس
المينين من قبل السردار ولكن القسم الأخير لم يكن
له مثل درايثنا بهذه البلاد فكافوا باستشارتي وجعلت
في الواقع رئيساً على للفرقتين، فجمعت الرؤساء حولي
بعد صلاة العشاء وألقيت عليهم أوامري ثم صررت
بهم إلى قرية « اشتارك » وصررنا في أثناء الطريق
إليها بقرية ايتشمياريك وهي قاعدة البطريركية الأرمنية
وكان وصولنا إلى جسر اشتارك قبيل الفجر؛
وكننا نسير على الشاطئ للصخري للنهر بين المرتفعات
المالية. وكانت للقرية واقعة خلف تلك المرتفعات.
وبالرغم من أن نور الفجر لم يكن قد سطع في هذا
الحين فقد كان من في القرية يستطيعون رؤيتنا بين
الآكام المتخلقة عن بقايا الكنائس الأرمنية الكثيرة
في هذه البقعة من إيران

وقد نهت حوافر الجياد في عدوها كلاب
للقرية فأخذت تنبح ونحن لا نزال بعيدين، فلما
ازددنا من القرية دواً سمعنا رجلاً يقول للآخر:
« يا على ! يا على ! ألا ترى شبحاً أبيض بالقرب من
الكنيسة ؟ »

وأشار إلى مكاننا
فأجابه الآخر: « نعم هذا هو النول الذي
اعتدنا رؤيته في هذه الساعة. إنه يبحث عن جثة
ليأكلها »

سرنا في الطريق ونحن نسمع هذين الرجلين

وغيرهما يستميزون بالحسين وبالأئمة وبالنبي وببلى .
وعلمهم أحد الموجودين آية ، قال : إنهم إذا تلوها
هرب الغول . فتلوها ولكنهم ما زالوا يرون شبحاً
غامضاً ، فأكد ذلك الرجل أن الشبح لو كان غولاً
لاختفى بعد تلاوة الآية الشريفة ، وقال وهو يمدو
بجواده : انتظروني حتى أراه وأخبركم بحقيقته

وجرى في غير اتجاهنا ثم عاد يقول : إن الذي
كانوا يحسبونه غولاً لم يكن إلا امرأة على وجهها
نقاب أبيض وهي تحاول الاختفاء في أنقاض
كنيسة أرمنية

عرفت أنهم لم يكونوا ناظرين إلينا . وذهبت
إلى المكان الذي أشار إليه لأرى تلك المرأة ذات
النقاب الأبيض لعلها ذات صلة بالمهمة التي نيطت
بنا وأمرت رجال أن يتبعوني عن بعد

وجدت في ركن بين جدارين مهدين من هذه
الأنقاض امرأة يظهر من اصفرار وجهها أنها مريضة
وكان معها رجل ، وكلاهما في مبة الشباب ، والفتاة
جميلة فائقة والفتى قوى تبدو عليه مخالب القوة
والنشاط والرجولة ، وهو يحمل إلى جنبه سيفاً ولاحظت
أن ثياب الفتاة ويديها غضبة بالدم ، وعرفت أن الرجل
ليس عدواً لها لأنه كان يضم جراحها ويواسيها .
وبالرغم من أن عملي ومهمتي كانا يسانزمان قسوة في
القلب فقد أخذتني رحمة بهما واحترمت حزنهما
وقلت : « ما الذي تفعلانه هنا ؟ وإذا كنتم غريبين
فلماذا لا تذهبان إلى القرية ؟ »

فقال لي الشاب : « إن كنت رجلاً ذا قلب
فاحم هذه الفتاة ، وإذا كنت مرسلان من قبل السردار
لاعتقال فاني لن أقاوم ولكن الفتاة تحتضر فارحمها »
قلت له : « من أنت ؟ إن السردار لم يقل لنا

شيئاً بشأنك . من أين جئت ؟ وإلى أين تريد
الذهاب ؟ »

فقال لي الشاب : « إن قصتي طويلة محزنة ،
فاذا ساعدت على نقل هذه الفتاة المسكينة إلى حيث
تأمين ويمنى بأمرها فسأقص عليك قصتي . وهي
مصيبة بجراح شديدة ولكنها مستشفية منها إذا صادفت
عناية . أحمد الله على أنك لم تكن من جنود السردار
وأرجو أن تعطف عليّ لأنك ستجد بعد أن تسمع
قصتي ما يملكك على مساعدتي وإنقاذي »

لم أكن في حاجة إلى استجدائه رحمتي لأنني
أشفقت عليه وعلى المرأة التي معه ساعة وقع نظري
عليهما وقلت له إنني أجيب مطلبه فيما يتعلق بالفتاة
وإنني سأخبره عن رأيي فيه بعد أن أسمع قصته

ثم ساعدته على تضميد جراح الفتاة وأمرت
واحداً من جنودي بأن يترجل عن جواده وحملناهما
عليه وأخذناهما إلى القرية ثم درنا على منازل أهلها
حتى توصلنا في أحدم المروءة والانسانية فمهدنا إليه
بملاجها ووجدنا من الرجل قبولاً حسناً وشهادة ،
وقابلتنا زوجته فقالت إنها تسر من أداء هذه الخدمة
في علاج المريضة ، وعلمت من ذلك الشاب أن صاحبي
المنزل أرمنيان مثله ومثل المريضة التي معه وأنه
مسرور لذلك فهو لم يكن يتوقع أحسن منه

الفصل السابع والثلاثون

يوسف الأرمني وزوجته مريم

كان في عزى الذهاب إلى مرتفعات أيران
حيث الهواء بارد طلق وحيث الرعي معشب خصب
صالح للعياد ، ولكنني علمت أن قبائل الرجل التي
كنت أحسبها مسكرة في مكان معين قد انتقلت

وهو قسيس القرية ، ومن أجل ذلك أراد والهاى
أن يجعلانى قسيساً

ولما بلغت العاشرة من العمر أرسلت إلى الكنيسة
لأتلم الكتابة والقراءة وأصول الدين وكان فى
الكنيسة كتب كثيرة أخذت أقرؤها واحداً بعد
واحد حتى أصبحت القراءة أحب عاداتى وأزرها؛
وصرت أشتري كتباً من أنواع مختلفة فلا أستريح
منذ يصل إلى كتاب حتى آتى على آخره

وكانت أكثر هذه الكتب دينية، ولكننى قرأت
بعض كتب التاريخ الأرمى فتنبه إحساسى بماطفة
الوطنية وعرفت أن بلادى كانت أمة وكان لها ملوك
اضطروا العالم إلى احترامهم؛ وتأملت فى حالتنا اليوم
فخزنت ووددت أن يتاح لنا من يث بيتنا الدعوة
ويجمع شملنا للتخلص من نير الحكم الأجنبى وشغلتنى
المزم على أن أعمل نحو هذه الغاية عن الواجبات
الدينية التى كرسيت حياتى لها باعتبارى قسيساً

وفى هذه الأثناء نشبت الحرب بين روسيا وبين
فارس وكانت بلادنا فى وسط ميدان القتال لوقوعها
على الحدود فانتقلت من الكنيسة إلى قريبتى لأكون
بين أهل الدين وجدتهم شديدى الخوف والقلق
بسبب هذه الحروب لأن كلا الفريقين المتحاربين
(فارس وروسيا) جدير بأن يخاف

ولم تكن نتيجة الحرب لتفيد إحدى الدولتين
فائدة كبرى ولكنها كانت شديدة الضرر علينا،
لا لخوفنا من القتل فقط بل لأن الجيوش المحاربة
من الجانبين كانت تفسد علينا زراعتنا فتسلب لناضج
من الحبوب وتطم جياها بما لم ينضج بعد

وكان الفلاحون معرضين دائماً للاعتقال والأسر؛
ولما خشبنا أن نموت من الجوع بسبب هذا الاعتداء

إلى تلك المرتفعات وما يليها من الجبال خوفاً من
الحرب الناشئة، فمزمّت على أن أظل فى أشتارك حتى
تنخب حرارة النهار

وانقسم رجالى فذهبوا إلى أجزاء مختلفة فى المدينة
فذهب البعض إلى جهة الجسر ليطمعوا جياهم من
الحشائش الطويلة النابتة على الشاطئ، وذهب فريق
آخر إلى طاحون بجانب النهر ليستظلوا وللغرض
للسائف أيضاً . وجلست فى غرفة من أقباض
إحدى الكنائس قائمة على قمة عالية لأشرف على المنظر
كله ولأرى أى شبح يبدو من جهة الحدود الروسية
وقد أثر الهواء الطلق فى نفسى فتمت ساعتين
ثم قمت فاستدعيت للشاب الأرمى وطلبت إليه أن
يقص على قصته خصوصاً ما كان متعلقاً بعجيبته مع
السيدة إلى هذا المكان الذى قابلتهما فيه

وكانت القوة والحياة قد ظهرت على وجهه وتبينت
من مخايل النبل البادية عليه أنه لم يقل غير الصدق
وهذا هو مجمل القصة على لسانه :

« أنا أرمى المولد مسيحى الدين واسمى يوسف
وكان أبى رئيساً لمدينة جافيشلو التى أكثر سكانها
من الأرمن وهى قرية من مجرى نهر « بجباكي »
وتبعد عن هذا المكان ستة فراسخ وحول هذه
المدينة أراض خصبة مزروعة وهى غنية بمحصولاتها
جميلة المناخ هادئة السكان

وكنا كسائر أهلها سعداء على فقرنا بما رزقناه
من جودة الصعة ومنا فريق يسكن فى الجبال خوفاً
من مظالم الحكام الذين لا ينجو من بطش أيديهم
كل أهل المدن

وعاداتنا كلها بسيطة ونظام حياتنا دبنى بمحت
ولى عم من الأساقفة فى بطريركية ابشميزين، وخال

على المزارع وصلنا الليل بالنهار في خدمة الأرض
لنموض ما فقدناه، ولكن فلاحينا كانوا يخرجون
إلى الحقول والفؤوس في أيديهم والسيوف إلى جنوبهم
والبنادق محشوة بالبارود معلقة على ظهورهم، وكنا
كلنا رأينا أجانب مقبلين نحونا تجممنا وأظهرنا
استعدادنا للدفاع

وبقينا على هذه الحال عدة أعوام استعملنا فيها
أن نحفظ بالقوت بالرغم من القليل الذي كان يؤخذ
على الرغم منا

ومنذ عامين ذهبت في جلة من ذهب إلى الحقل
من أبناء قريتي لمراقبة الحصاد عند جنبه كالمادة
حاملا ببندقيتي وسيفي فرأيت جواداً يمدو وعلى ظهره
رجل فارسي ووراءه فتاة أسيرة

وعندما وقع نظر الفتاة على صاحبة مستجيرة
مستنجدة فركبت جوادتي وركضت نحو الفارسي
شاهراً سيفي في وجهه فلم يستطع الرجل بالنظر لوجود
المرأة خلفه أن يجرد سيفه ويهاجمني فاختار أن يسرع
حتى يفر مني، ولكنني أسرعت فأطلقت من بندقتي
رصاصة في الهواء ففزع جواده لأن الرصاصة كانت
قريبة من عينيه وشب فصرخت الفتاة المردفة خلف
الفارس وسقطت عن الجواد

وكان الرجل في هذه الحالة يستطيع أن يقاومني
إما بالسيف أو بالبندقية ولكنه وجد بندقتي مصوبة
نحو رأسه فرأى الفرار أسلم ونجا بنفسه؛ وذهبت
إلى تلك الفتاة التي كانت منقبة فساعدتها على الوقوف
ووجدتها جريحة لسقوطها عن الجواد

وبعد إساقى لها وتأكدي من أنها لم تصب بكسر
أورض تبينت أنها أرمنية مثلي ووجدتها أجمل شيء
وقع نظري عليه وهي لا تتجاوز الخامسة عشرة من

العمر. وإذا نسيت شيئاً فلن أنسى شعوري بالحب
وبالسرور وبالشفقة ساعة أبصرتها وأحسست بأن
مشاعري في هذا الحين جديدة كلها ونسيت كل ما كان
لي في الحياة من غاية أو غرض إلا السهر على ما فيه
خير هذه الفتاة ورضاها

وجرت أول كلمات قالتها الفتاة في مجري دى
من المروق ثم بكيت بكاء شديداً أخذت بعده تمالك
نفسها شيئاً فشيئاً

ولما علمت أنني من أبناء جنسها وأبناء دينها
وذكرت أنني منقذها أخذت تشر نحوى شهوراً
مختلفاً، وأملى على غروري أن إحساسها نحوى كان
مثل إحساسى نحوها

وشجمني هذا السرور على أن أكشف النقاب
عن وجهها وكان ذلك منى جريئة لم تقتفرها الفتاة
لأن الفتيات الأرمنيات يحتفظن به كل الاحتفاظ
أمام الأجانب عنهن ويمددن السفور فضيحة منكزة
ولما رأيت غضبها وقفت أمامها وقوف الجرم
ولكنني اعتذرت بأن وقوعها عن ظهر الجواد
قد حبس أنفاسها وبأنه لولا نزع هذا النقاب عن فمها
وأنفها لاختنقت، لكن هذا الاعتذار لم يصادف
قبولاً عندها. ولم يكن في استطاعتي إقناعها بأن
رؤيتي وجهها كله أمام هذه الضرورة لا تشينها
ولا تلحق بها عاراً لأن ذهنها كان ممتلئاً بهذه الفكرة،
ثم أقسمت لها بأن رؤيتي إياها سبق سرراً أكتمه
ما دمت على قيد الحياة، فاطمأنت وتمزت ثم طلبت
إليها أن تقص قصتها على وتخبرني عن الرجل الذي
كان من حسن حظي أنني أنقذتها من بين يديه
فقلت: «إن كل ما أعرفه عن الرجل أنه فارسي

ولم أره قط قبل هذه المرة ولم يختطفني إلا لكي
بيمني في سوق الرقيق

ومنذ أيام قليلة حدثت موقعة بين الفارسيين
وبين القوزاق، فطرد الفارسيون القوزاق من قرية
أربنان وهي القرية التي أنا منها وابتهجوا بذلك
إبتهاجاً عظيماً، وصار الفرس يمتقلون النساء القوزاقيات
ويرسلونهن إلى البلاد الأخرى ليبيهن في أسواق
الرقيق . ويظهر أن الوغد الذي اختطفني أراد يبي
على أنى قوزاقية

ذهبت في الصباح كالعادة لأملأ إناء من البئر
فلابني وشرع في وجهي سيفاً وهددني بالقتل إذا لم
أتيه حيث شاء دون أن أحدث ضجة فاطمئنته
مكرهة وأركبني جواده

وكان الفتيات في ذلك الوقت يصرننا فذهبن
إلى المدينة ركضاً واعتمدت على الضجة التي سببها
هؤلاء الفتيات بعد عودتهن . ولكنه لم تمض بضعة
دقائق حتى كنا ببيدين عن المدينة بسرعة الجواد
بين النجاد والوهاد التي يقل فيها مرور الناس، وكنت
أنت أول إنسان رأيته واستنجدت به على الرغم من
طول المسافة التي قطعناها .

لم تكن الفتاة تصل إلى هذا الحد من قولها
حتى بدا لنا عدة أشخاص أحدم على ظهر جواد
والباقون مشاة، وكانوا مقبلين نحونا على جناح السرعة
وقد عرفتهم الفتاة عند ما رأتهم قهلاً وجهها
استبشاراً وصاحت : « هذا أبي وإخوتي أوفان
وأغوب وأرتوان ومهم أعمامى أيضاً »

وكنت أخشى أن يكون في الأشخاص المقبلين
أحد يستميل عطفها عني ولكنني حدثت الله إذ لم
يكن فيهم غير الأقارب

ولما دنوا أعربوا لها عن ذهرهم لما علموا أنها
اختطفها وقالوا إنهم يحمدون الله إذ لم يضلوا الطريق
وبعد أن وصفت لهم كيفية اختطفها قالت في
حياء واضطراب إن الفضل في نجاتها يرجع إلى .
فأجهت إلى عيونهم وبدأ عليهم الاهتمام بمعرفة حقيقة
وقال لي أبوها : « من أين أنت يا بني ؟ »

قلت : « أنا ابن رئيس قرية جافيشلو »
فأجابني : « أنت إذن ابن صديق وجاري ولكنني
لم أرك من قبل . لعلك الطالب الذي كان يتعلم في
الكنيسة ثم عاد بعد نشوب الحرب لمساعدة أهله ؟ »
قلت : « نعم أنا هذا الطالب » فرحب بي ودعا
لي وقال إنه وأسرته مدينون لي بالشيء الكثير، وأصر
على أن أذهب معه لا كون في ضيافته ، وقال : إن
أبناء أسرته يسرون بأن يحملوني على رؤوسهم
ويقبلوا قدي لا تقاذ صريم من البيع في سوق ارقيق
فتصبح طول عمرها في أسر المسلمين »

ثم حياني أعمامها بكلمات رقيقة وألحوا على أن
أرافقهم إلى القرية فلم أستطع مقاومتهم لشدة تأثر
بما أبدوه من اللطف ولأنني كنت أريد أن أرى
صريم في دارها فقبلت الدعوة وسرنا جميعاً إلى قريتهم
ولما وصلنا إلى تلك القرية وجدنا النساء والأطفال
عند بابها منتظرين عودة صريم مع من ذهبوا للبحث
عنها . ولما رأوها تمود معهم أبدوا من مظاهر الفرح
ما ليس في وسع كاتب أن يوفيه حقه من الوصف .
وأعيدت على مسمهم قصة اختطفها وإنقاذها

وبمثل سرعة البرق انتقلت القصة من فم إلي
فم وزيد عليها من المبالغات ما لا بد منه في مثل
هذه الحالة ، وكان مجمل القصة كما رويت للمرة
الأخيرة : أن شيطاناً ذا رأس من الحديد وحوافر

كخوافر الخيل وغالب كمخالب الأسد اختطف الفتاة فوضعها على جواد من جياد النار ينهب الأرض في قفزه ، ويكاد يباغ للسماء بوثبه ، وجري بها فراسخ وأميالا ، فهبط من السماء ملاك من ملائكة الرحمة وأمن للشيطان لمة حاقته به ، فقلت يده وأخرست لسانه وأتقت الفتاة من مخالبه بمد أن أحالته رماداً . ومازال هذا الملاك الحارس يحمي الفتاة حتى وصلت إلى أهلها . ثم أشير إلى وقيل : إنني هذا الملاك . فأتجهت إلى عيون أهل القرية جيماً . ولكن حدث لسوء الحظ أن فتى من المزارعين كنت أراه كثيراً في الحقل نظر إلى وقال لأهل القرية : إنني لست ملاكاً ، ولكنني يوسف بن رئيس قرية جافشيلو ، فمدت في نظرم إنساناً هالكا كما كنت . ولكنني مع ذلك ظلت أعامل معاملة ممتازة عن التي يعاملها سائر الناس خصوصاً من أهل مريم الذين لم يتركوا وسيلة إلا أعزبوا بها عن شكرهم وعن عجزهم عن إظهار كل ما تكنه جواهرهم نحوى من الشكر وعرفان الجليل

ولكنني لم أعد أبصر مريم مرفوعة النقاب ، فقد مضت تلك اللحظات الهنية التي ملبت فيها بحسنها ، ولكنني قلت في نفسي إن هذه الصلة لن تنقطع بل ستعود وستبقى مستمرة طول الحياة ، ولن تكون في الحياة قوة تستطيع للفصل بيني وبينها . إنني لم أكن أعرفها ولم يكن بيني وبينها أية علاقة ؛ فالقوة التي سافنتني إليها وساقتها إلى قوة مريدة رأت جمع حظي وحظها والثوبيق ما بين نفسي ونفسها . ولو أن هذه القوة كانت تريد غير ذلك لتركت الفارسي الذي اختطفها يذهب بها إلى حيث شاء . وبالرغم من أن حديثي من مريم كان قصيراً فقد كان

الحديث الذي دار بين عيني وعينيها طويلاً متمكناً يدل على أن شعورها نحوى مثل شعوري نحوها . وبلغ بي الزهو إلى حد تمنيت معه لو أن الفارسي الذي اختطفها وأتقتها منه كان عشرين فارساً ليكون لي حق المفاخرة والتباهي ، ولكنني عدت فذكرت أنني لست إلا أرمنياً حقيراً من شعب حقير وأنني لست من القوة بحيث يحق لي أن أغنى هذا التمنى . وحسبي أن أطرد الدئب عن أغناني

أمضيت طول هذا اليوم في قرية « جلکو » وهي القرية التي فيها أهل مريم . وأقيمت لي وليمة ذبح فيها كبش سمين ودعى كثيرون من الأصدقاء والأهل . . .

وفي اليوم التالي عدت إلى أبوي اللذين أزعجهما غيابي عنهما واللذين أنصتا إلى قصتي بكل ما كنت أرجوه من الاهتمام ، وكان اشتغالي بهذا الحب أكبر من أن يسمح لي بالتفكير في أي شأن آخر وقلت لهما : « إنني بفضل الله وفضلكما أصبحت قوی الدراعين وبلغت من العمر ما يحق لي معه أن أنفرد بالنظر في أمر نفسي وأريد أن أتزوج وقد هيات لي العناية الإلهية طريق الزواج »

ثم طلبت إليهما أن يخطبا مريم من أبويها ثم قبلت يدي والدي ووالدتي ، وكان جوابهما أن الزواج أمر كبير الأهمية خصوصاً في هذا الزمن الصعب ، وأن الأسرة فقيرة لا تستطيع القيام بنفقات الزواج ، وأنه من الضروري شراء ثياب وخاتم وشمع وحلوى وفراش وأغطية للفراش واستئجار مضمين والدعوة إلى وليمة ، وأن كل ذلك يتطلب من المال ما لا يوجد منه شيء . . .

قلت : إن هذا كله صحيح ؛ فالمال غير موجود

وكذا من المصوغات ومناديل اليد وأخرى للرأس وجوارب وحذاءين وسلسلة ذهبية للعنق وخمسين قرشاً فارسياً للمصاريف الثرية وأن يكون سلسلة العنق طومان فارسى .

وبعد أن استشار أهل المروس بمض سواحبهن قبلن ما عرضته أى ، ولكن مجوزاً فيهن كانت خادمة فى بيت من البيوت الإيرانية اقترحت اقتراحاً آثار المناقشة وهو أن أقدم مقداراً من المال لا يتفق على تحديده وإنما يترك لاختيارى جرياً على العادة الإيرانية

فقلت أى : إن هذه العادة ليست من هوائى الأرمن ولا يحسن بنا اتباعها . وقد أدت المناقشة إلى ارتفاع الصوت فى المخاطبة من الجانبين بالرغم من تأكيدى على والدنى ألا توجد أو تسين على وجود شيء من المصاعب . ثم وقف البحث فى ذلك إلى مقابلة أخرى مع الرجال

ودعيت وخالى فذهبت ، وقد نصح لى الأصدقاء ألا أضحك أو أبتسم فى أثناء الحديث لأن ذلك يعتبر عند الأرمن فالاً سيئاً على الحياة المقبلة

ذهبت فوجدت أى ومن معها وأمامهن أم للمروس وإلى جانبها سواحبه . ودخلت مريم فى اللحظة التى دخلت فيها فقدمت أى لها خاتماً (وكان لسوء حظى من النحاس) فوضعت فى أصبعها وقدم النبىء إلى القسيس فشرب جرعة منه وقال : إن الخطبة أصبحت معقودة بين مريم ويبنى وهناك الحاضرون فكان سرورى عظيماً بقبول هذه التهنئة . ورأيت على وجه خطيبتى كل علامة السرور والفرح وربما كنا أسعد المتزوجين فى هذه الساعة التى تم فيها عقد الخطبة .

والزواج لا يحسن أن يتم بغير هذه التكاليف محافظة على كرامة أسرته وإظهاراً لتقديرى أسرة المروس . ولكن فى وسى أنت أقرض لأن لى أصدقاء فى الكنيسة وسأعمل بجهد مضاعف حتى أتمكن من الوفاء ولن أعيش عيشة المرفين حتى لا يصبح وفاء دبنى مستحيلاً .

وقلت لهما إن فى عزى الاشتغال فى خدمة واحد من التجار والسفر معه أو عنه إلى الاستانة أو استرخاء ، وفى كسب هذا العمل ما يقوم بنفقاتى ويبنى دبنى .

ومجل القول أننى أقنعت والدى بمقدرتى على الكسب وعلى تحمل مسئوليات الزواج وقد وعدنا بأن بخطبة مريم من أبويها . وتحديد يوم قريب لسفر أبى وعمى القسيس ورجل من المتقدمين فى السن من أهل القرية — إلى قرية « جوكلى »

وفى نفس هذا اليوم ذهبت إلى تلك القرية متعللاً سبباً من الأسباب حتى لا تفاجئهم وأهلها بهذه الخطبة

وقد استقبلت أسرة الفتاة رجال أسرة أحسن استقبال ، وفتح باب الكلام فى هذا الموضوع فأبدى أهلها رضى واعتباطاً ، وانتهزوا هذه الفرصة فقدموا لضيوفهم أكثر مما اعتادوا شربه من العرق ، وهو الشراب المفضل عند الأرمن ، وتم الاتفاق على إتمام المراسيم الشرعية للزواج بعد أن يتم الجهاز

وبعد ثلاثة أيام ذهبت أى وثلاث من نساء القرية وخالى القسيس إلى جوكلى فكان استقبالهم أحسن من الاستقبال الأول وتم الاتفاق معهم على جانب آخر من التفاصيل وعرضت أى بالنيابة عنى أن أقدم للمروس كيت وكيت من الثياب وكذا

في أثناء الطريق بمض رجال القبائل الراحلة فنتام
في خيامهم

وقد اشتهرت هذه القبائل بكرم الضيافة على الرغم
منما هو معروف عنها من الشر والبلى إلى الثوب والساب
سافرت وكانت أمي على ظهر الحمار وكنت
أسير على قدمي والبندقية على ظهري والسيف إلى جنبي
فلما وصلنا إلى مرتفعات أيران وجدنا خياماً
كثيرة بيضاء وفي وسطها خيمة كبيرة حسنة الشكل
هي خيمة الزعيم . وأخبرنا فارسي قائلنا في الطريق
أن هذه خيام سردار إيفان وجنوده وقد عسكروا
هنا استعداداً للحرب مع الروس

أزعجنا هذا الخبر ورأت أمي أن تعود إلى قريبنا
وأن تؤجل الزواج الآن . ولكن حبي كان أكبر
من أن يسمح لي بالاصغاء إلى مثل هذا الرأي فحثتها
على الإسراع حتى تتمكن من الدودة سريعاً .
وأسرعنا في اليوم الأول حتى بدانا في نهاية هذا
اليوم دخان إيفان

وقضينا الليلة تحت صخرة بارزة واستأنفنا
السير في فجر الغد فوصلنا إلى إيفان آمنين

وذهبت أمي لشراء الملابس في يوم وصولنا؛ أما
أما فتجولت في الأسواق مصفياً لأحاديث الدين
يسرون فيها فسمعت إشاعات كثيرة عن الحرب
وعن المواقع التي ينوي السردار أن يقوم بها ضد
الروس . وظهر لي أن هذه الحرب ستكون من أشد
الحروب التي اشتركت فيها فارس لأن عمال الدخيرة
كانوا يواصلون الليل بالنهار في صنع قنابل من نوع
لم يسبق صنعه في البلاد الفارسية

وخطر لي خاطر كدت أبدأ في تنفيذه وهو أن
أطلب بواسطة الكنيسة من السردار أن يحمي قرانا

ثم عادت أمي ومن معها إلى القرية ، وبقيت
للاتفاق على سائر المسائل التي لم يكن تم الاتفاق
عليها . وعزمت على أن أجيب بالقبول على كل
ما يطلب مني مهما كان الثلو فيه والسرف
ولما تكلمنا عن المال وجدت جملة ما يطلب مني
على أجزاء قد بلغت مبلغاً معضلاً فوافقت وأنا أفكر
في اقتراض البقية من شخص آخر غير الذي أزممت
الاقتراض منه إلى حد معين

ولكنني دهشت عند ما رأيت أبي يخرج من
جيبه كيساً من النقود ويقدمه لأهل العروس
ويناولني عشرة طومات وهو يقول لي : « إن رئيس
قرية جافشيلو لا يرضى على ابنه بشيء في يوم غرسه .
خذ هذا يا يوسف وقدمه لزوجتك زيادة على
ما اتفقتم عليه »

عند ذلك لم يسعني إلا السجود وتقبيل يديه
وتأثر عمي من موقف أبي وموتني فباركني
وقال لي : « إن للكنيسة الأرمنية فقيرة وإن رجالها
أشد فقراً؛ ولكن خذ هذا واشتر به شماً لمرسك »
وأعطاني عشرين عباسية فضية

وكذلك فعل سائر أقربائي حتى لم تعد ضرورة
نذهب إلى الاقتراض ؛ وزاد عندي من المال ما يكفي
للاتفاق مدة بمدة القيام بكل النفقات المطلوبة . فشكرت
لهم وعزمت على السفر إلى إيفان وهو المركز الذي
تبعه القرية لكي أشتري منه الثياب اللازمة

لكنني كنت أجهل في البيع والشراء خصوصاً
ما كان متعلقاً بثياب النساء ، فعزمت على أن آخذ
من أمي وأن أركبها حماراً وأن أسير على قدمي .
ولكن المسافة كانت بعيدة ولا بد من النوم ليلاً
في أثناء الطريق فاعتمدت على أن أجِد مصادفة

قريبين . وكان من المنتظر أن تدور حى الحرب فوق رؤوسنا

وكان صبرى يقل فى كل يوم وحى يزداد ولكنه كان من المحال إتمام الزواج فى هذه الظروف ولذلك كان على أن أصبر على كره مما كافى للصبر مضى أسبوعان من يوم عودتنا ولم يحدث حادث جديد وكانت علاقتنا بضيوفنا الروسين حسنة جداً . وكانت الروابط التى تربطنا بهم كثيرة فهم مسيحيون مثلنا ينادون عند الفزع الإله الذى نعبده ويشكرون عند النصر الذى نشكره ويصلون فى الكنائس التى نصلى فيها ويشربون معنا الخمر ومجالسها كما يعلم شاربوها تقوى الروابط

وكان قائد الفرقة الروسية شاباً حسن الأخلاق شديد الرغبة فى معرفة أحوالنا وعوائدنا كثير الميل إلى محادثتنا فى كل موضوع نحب أن نتحدث فيه . وقد كلمته فى موضوع زواجى فأصنى إلى باهتمام شديد ووجدت فيه صديقاً صادقاً . وكان مما قاله لى : « ولماذا تؤخر الزواج ؟ اقبل نصيحتى وتزوج الآن فإنا إنما جئنا لنحميكم ولم يظهر الفارسيون إلى الآن ما يدل على أنهم سيقدمون خطوة واحدة

ووعدتنى فضلاً عن ذلك بأن يقدم لمرسمى هدية هي عقد من الذهب الروسى وبأن يميزنى جواده لأركبه فى يوم الزفاف ولم يكتف بحديثه من بل حادث أهل المروس فى هذا الموضوع فأقنعهم بتمجيل الزواج وتحديد يومه بواسطته . ولقد كان اهتمامه للشخصى باتعام هذا الأمر يكاد يشير ريبى ويحمل على الغيرة منه لولا أنه كان قبيح الوجه إلى درجة عظيمة فلا خوف من أن تميل مرسمى إليه لأنه خير لها أن تحب قرداً بدلاً من أن تحب ضابطاً كهذا

الأرمنية . ولكن قليلاً من التفكير حملنى على المدول عن هذا الخطر وقلت إن حماية الله وسيوفنا خير من حماية السردار وجنوده

وعدت أنا وأمى من نفس الطريق الذى ذهبنا منه ولكننا كنا أبطأ فى السير لمدم الحاجة إلى السرعة ولأننى كنت أحمل عبئاً ثقيلاً من اللثياب . ولم يحدث لنا أى حادث يستحق الذكر حتى وصلنا إلى مرتفعات جافيشلو فرأت أى خيمة فأشارت إليها وسألتنى عنها ولم أكن إذ ذاك أفكر فى أى شيء غير المرس ومعداته فكان جوابى لها : « لعل أهل المروس سيقيمون لنا مأدبة فى هذا المكان »

قالت : « ما هذا القول يا يوسف ؟ هل جنت ؟ يظهر أن الروسين قد احتلوا قريتنا » فلم أجبها ولما وصلنا إلى القرية وجدت ظنها كان صائباً فان فرقة صغيرة من الجنود الروسية قد احتلتها وألزمت كل أسرة فى المدينة أن تقدم الطعام لواحد من الجنود . ولما كانت أسرتنا أسرة الرئيس فقد كان ضيفنا هو قائد الفرقة ؟ ولقد كان من سوء حظى حدوث ذلك فى وقت المرس ، وقد شكوت أمرى إلى بعض أصحابى فى جوكلى التى لم يكن الروسيون قد احتلوها ولكن أهلها شاركونا خوفنا لما علموا بما حدث عندنا

وقابلت مرسمى بالرغم من أن عوائدنا لم تكن تسمح بالتحدث معها فى الفترة ما بين الخطبة والزفاف ، ولكن الحب يغلب كل عادة ويتغلب على كل المصاعب قابلتها وتحادثت معها صراراً وكنت على وشك الجنون من حدوث هذه الحوادث التى من شأنها تأخير زواجنا . وكانت للقرائن كلها تدل على قرب حدوث نكبة عظيمة لأن الجيشين المتحارين كانا

أصحابي من الأرمن والضابط الروسي، وكانت الموسيقى
أماننا تعزف بألحانها الجميلة . ولما وصلنا إلى منزل
المروس أدبرت علينا المرطبات ووفد علينا أهل
القرية جميعاً لتهنئتنا

ولما حان وقت هودتنا مع المروس إلى قرية
أبي ألبست المروس ثياباً حمراء من مفرق الرأس
إلى القدم . وأركبت جواد أبيها وسار حولها إخوتها
وأعمامها ووضعوا في يدها طرفاً من جبل أمسكت
أنا بطرفه الآخر وأنا على جوادى وفقاً للعادة حتى
وصلنا إلى الكنيسة

وصحب الموكب كل من له علاقة به من قريب
أو صهر أو صديق وكان بعضهم مشاة والبعض على
ظهور الخيل وكانوا يهتفون ساعة ويغنون ساعة
وكان عمى يقود هذا الموكب . ولما وصلنا
إلى القرية وجدنا فرقة من الجنود الروسية في انتظارنا
كما أمرها الضابط المتولى قيادتها وهو صديق الذي
رافقني في الموكب ومشت أماننا هذه الفرقة
إلى الكنيسة فزادت موكبنا جلالاً وهيبه .

وكنت والمروس لا تزال ممسكين بطرف الجبل
حتى بعد أن نزلنا عن الجوادين . وأتى علينا
الأصدقاء الزهور والورد .

ثم ، وقفت أمام صريم ووضعت يديها في يدي
وفتحت الكتاب المقدس فجعل بين رأسي ورأسها
ثم جاء القسيس وسألها وسألني هل يريد كل منا
أن يتزوج من الآخر، فأجبنا إجابة القبول ثم أخذ
القسيس يرتل وأقيمت صلاة العرس .

ولما انتهت هذه الصلاة علا الحثاف والانشاد
ودقت الطبول وصدحت الموسيقى . وكان ضوء
النهار في هذه الساعة قد تلاشى وبدأت المصافة

وذا وجه كبير المظام وحجرتين عظيمتين في مكان
عينيه ، كبير الأنف أقناه ، هيئة وجهه كهيئة
البومة ، وكانت شفته العليا غليظة وفكه الأسفل
صغيراً وذقنه رفيعة محدبة

قلت في نفسي : « محال أن تحب صريم مثل
هذا الوجه وهي أشبه بأن تحب عملاقاً فارسياً من
حبها مثل هذا الروسي

ثم وازنت بينهما وبين نفسي فأرضيت غروري
بأن قلت إنني أجمل منهما وإنها لن تحب غيري
قبل الزفاف بليلة أرسلت الثياب وغيرها من
الهدايا إلى قرية المروس في موكب يتقدمه الموسيقيون
وهم يكتفون في كل مدينة وكل قرية ، وقد أعارنا
الضابط الروسي طيلة من طبول الجيش زيادة
في إكرامنا

وبعد إرسال الهدية بساعات قليلة ذهبت إلى
تلك القرية لكي آخذ الهدية التي تهديها المروس
وفقاً لموائدنا

وكانت هديتها لي مسدسين مصنوعين في القوزاق
وقد كانا مملوكين من قبل لأحد أعمامها وهو ضابط
في جيش الوالي الفارسي لتلك الولاية قبل أن يستولي
عليها الروس

وفي اليوم التالي وهو الذي كنت أعده أسعد
أيام حياتي وكنت أنتظره بصبر نافذ استيقظ كل
أقاربى مبكرين . وكان الجو ينذر بهبوب عاصفة
والسماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الهواء كان معتدلاً نقياً
لأن المطر الذي هطل في الليلة السالفة نقاه وطهره .
وأرسل إلى صاحبي الضابط جواده في ذلك اليوم
وابست ثيابي الجديدة وتحليت بكل ما أملك من
الحناجر والمسدسات وعلب الخرطوش وسار معي

وسمنا أصواتاً عنيفةً وضجيجاً فحسبنا ذلك من هزيم الرعد . ولكننا عرفنا بعد قليل أنها أصوات آدمية وسمنا وقع حوافر الخيل تمدو في الطريق

وكانت الكوة مسدودة سداً محكماً خوفاً من المطر ولم أجسر على فتحها خوفاً من تسرب الماء إلى الغرف ولكن سرعان ما سمنا وقوع شيء ثقيل فوق سقف الغرفة ووجدنا جانباً منه يسقط بجانب الفراش ورأينا نور السماء يتخلل الغرفة فصحت بزوجتي: إن هذه ساعة. وأصرتها بالفراش من الغرفة لتنجو ، ولكن قبل انقضاء لحظة واحدة حدث انفجار في الغرفة فذهلت وحسبت أنني نقلت إلى الجحيم ووقعت على الأرض في حالة إغماء ، وكل الذي أذكره عن تلك اللحظة أنني رأيت نوراً يتفجر وشممت رائحة كبريتية ثم ساد سكوت عميق

لا أعرف كم انقضى وأنا غائب عن الحس؛ ولما عاد إلى الشعور عاد بالتدريج . ولما تنهت وجدت أنني لم أصب بجرح أو كسر وراجعت ذاكرتي في الحوادث الثرية فذكرت زواجي كأنه حلم رأيت في النوم أو قصة سمعتها ، وأصغيت فسمعت حركة عظيمة اختلط فيها الأنين بأصوات الفرقعات وصليل السلاح بالأصوات التي تحدث من تهدم المنازل . ولم أزل أحسب نفسي في عالم آخر حتى ذكرني بالحقيقة صوت امرأة تصرخ وكان هذا للصوت هو صوت صريم وقت لأري مصدر الصوت فوجدت تراباً كثيراً وقطعاً صغيرة من الأحجار ملقاة فوق جسمي فنفضتها وقت فرأيت في الطريق منظرأ لا أستطيع وصفه لموه

وجدت رجلاً فارسياً يجري وفي يمينه سيف مجرد مخضب بالدم وفي يساره رأس مقطوعة ، وكان

التي كانت منذ الصباح تنذر بالهبوب فتساقطت الأمطار الغزيرة وهبت الرياح الموجه وأرعد الرعد وأبرق البرق ، ومن أجل ذلك انتهت سريعاً الحفلة التي أقامها أبي للضيوف . وبعد انصرافهم قابلت المروس فكننت بهذه المقابلة أسعد إنسان في الوجود لست أعرف هل تحب أن أقف عند هذا الحد من قصتي المزججة الرهيبة أم تريد أن تسمع ما حل بنا بعد ذلك من النكبات .

أريد قبل كل شيء أن تعلم أن عروسي كانت جميلة مشرقة مثل كوكب الصبح طاهرة، بريئة مثل الملائكة ، وكانت تحبني أخلص حب وأتقا؛ وأظنك تقدر موقفي في هذه الساعة بعد إذ علمت أنني كنت شديد الفلق من تأخر يوم الزواج ، وبعد إذ علمت مقدار حبي لها ورغبتني في للتزوج منها ، وبمدا اعتباري هذه الليلة أسعد ليلة في الحياة

ولكي تفهم حقيقة الحال يجب أن تعرف أولاً أن البيوت في القوزاق وفي هذا الجزء من البلاد الأرمنية يجعل جزء منها تحت الأرض لأنه ينحت في بطنها تحتاً بحيث أن للساكنين في الطرقات يعرفون أن تحت الطبقة الأرضية التي يمشون فوقها غرقاً من البيوت القائمة على الجانبين . وفي هذه الغرف يقيم أهل تلك البيوت . وكانت غرفتي في بيت أبي إحدى تلك الغرف الأرضية وبها كوة على الطريق تصلح باباً وتقوم مقام النافذة .

وكان من عادات الأرمن أن يدخل الزوج غرفته قبل عروسه وتتولى المروس نزع حذاءيه وجوريه ثم تغطي النور قبل أن تزع ثيابها

وفي هذه اللحظة كانت الرعود تهزم في السماء وتحديث أصواتاً عنيفة مزججة، وكان الشتاء يتدفق.

ينير الظلام بين لحظة ولحظة وميض البرق وتمكنت بواسطته من رؤية ما يجري في الطريق من مطاردة الجنود الفارسية لجنود الروس ومن كان يؤويهم من الأرمن

ولم أعرف كيف ولا أين أبحث عن زوجتي وكنت لا أزال أسمع بكاءها، وعمرت جسمي رهشة لما خفت أن يكون أبنها هو أبن الاحتضار، وبالرغم من أنني كنت في ثياب النوم فقد خرجت إلى الطريق بحالة أشبه بحالات المجانين فرأيت على وميض البرق فارسين يجريان ومعهما امرأة فتبعتهما ركضاً لأنني لم أكن أبالي بشيء غير زوجتي

ولما كان اتجاهاهما ساعة رأيتهما نحو الجبل فقد سرت في هذا الاتجاه وأنا لا أراهما؛ وكنت حافياً والأرض كثيرة الأحجار والصخور، وكنت عارياً والبرد شديد والمطر ينهمل؛ وكنت متعب الجسم من شدة الدحر، ولكنني لم أزل أجرى على غير هدى حتى رأيت نفسي على قمة الجبل، ثم أدركني الكلال واشتدت الجراح فلم أعد أستطيع الاستمرار في الجري الذي رأيته غير مجد، فجلست باكياً متعباً ولم أفق حتى سمعت في الصباح تغريد المصافير وفتحت عيني فرأيت الشمس مسفرة

وقلت في نفسي : « أين أنا ؟ ومن الذي جاء بي إلى هذا المكان ؟ »

وكان الجو في ذلك اليوم جميلاً، وليس بالسوء ما يدل على عاصفة الأمس، فلم أستطع تعليل الحالة التي كنت فيها إلا بأنها حلم من أحلام الشيطان لكن إذا كان كل ما رأيته حلمًا فأين زوجتي المحبوبة ؟ هل هي لا تزال بالمنزل وهل تركتها فيه وجمت إلى الجبل حافياً بثياب النوم ؟ إذن فلم يبق

من الافتراضات التي أعلل نفسي بها غير أنني قد جئنت وعند ذلك فاضت من عيني الدموع التي كانت لا تزال محبوسة، وقمت أمتشي على مهل نحو المنزل ورأيت الفلاحين في أثناء الطريق مجتمعين ذرافات وهم يتحدثون همساً عما جرى بالأمس والخوف يكاد يقضى عليهم جميعاً. وكان كل منهم ينتظر أن تحمل به نكبة من النكبات

أما أنا فلم أكن أنتظر شيئاً منها لاعتقادي أنه لم يبق في الدنيا نكبة لم تحمل بي وأنني لم أجد أحداً من أهلي باقياً على قيد الحياة فلا زوجة لي ولا أب ولا أم ولا إخوة ولا قريب أو صاحب، وأن المنزل الذي أسير نحوه قد أصبح أنقاضاً مهتمة. لكن خيالي كان مغالياً في تصوير الواقع فاني لم أكد أقترب من المنزل حتى رأيت أمي مقبلة نحوي وعانقتني وقبلتني وهي تبكي

ثم لما هدا روعها وروعي أخبرتني أن أبي أصيب في جسمه ورأسه بجراح من انفجار الفرقعات وأن منزلنا قد هدم بمضه خصوصاً غرفة العروس فانه لم يبق بها شيء وأن الضابط الروسي الذي كان ضيفاً لدينا قد خرج عند ما حدث الانفجار الأول فاخطفه جنديان فارسيان وأن أهل منزلنا فيها عدا ذلك لم يصابوا بسوء

قالت ذلك ثم أدخلتني المنزل فقدمت لي ثوباً من ثياب أبي. وبعد أن عدت أبي عزمت على أن أبدأ في الحال بالبحث عن زوجتي واقتنعت بأن بعض الجنود الذين هاجموا المدينة قد اختطفوها وأنها لا بد أن تكون الآن في مدينة أريفان لأنها أقرب سوق للرقيق وأخذت سبقي ومسدساتي وبنديتي ووضعت في جيبي بعض النقود الفضية وودعت

وأنا لا أعلم شيئاً عن مريم ولكنى كنت أعتقد أنها في قصره هناك وكان ذلك للقصر مبنياً على صخرة عظيمة تحتمها هاوية تفصل بين ذلك القصر وبين مجرى النهر

وكان على هذا النهر جسر وهذا الجسر هو الذى يصل البلاد التركية على أحد الشاطئين بمرجان على الشاطئ الآخر

وكان القسم المخصص للسيدات في هذا القصر مطلاً على النهر وهو مميز عن غيره بما على نوافذه من الحواجز؛ وكنت لا أشك أن مريم موجودة وراء تلك النوافذ فوقفت على الجسر أنتظر أن تطل فأراها. وكنت أقول في نفسى: « ماذا أستفيد إن أطلت على ؟ إننى لا أزداد بذلك إلا يأساً وحسرة » وكان مما يشبه المستحيل أن تنجو من هذا السجن أو تبقى على قيد الحياة إذا ألقت بنفسها من إحدى النوافذ المطة على الهاوية سوى أن تحت نافذة واحدة من تلك النوافذ شجرة يمكن أن تكون وسيلة للفرار ظلت في مكانى أنظر إلى النوافذ وأطيل التفكير والتأمل وكنت أخشى أن يرانى أحد فتقع على شبهة فشيت على أن أعود عند انتهاء النهار

استمرت مراقبتى للنوافذ أسبوعين كاملين ، وفى آخر يوم من هذه المدة رأيت نافذة مفتوحة ، وقد رفع الحاجز الذى عليها ورأيت امرأة تطل منها فاشتبهت فى أنها هى وانقطعت أنفامى حتى ظهر لى أن التى تطل من النافذة قد عرفتنى ودنوت من المنزل فإذا هى مريم ، وكنت إذ ذاك بالشاطئ الآخر . ولما مدت يديها نحوى لم أفكر فى المواقب بل ألقيت بنفسى فى النهر وسبحت إلى الشاطئ

قربى منذراً ألا أعود إليها حتى أجد زوجتى وسافرت بخطى سريعة إلى أربيفان سالكا إليها أقصر طريق . وفى أثناء الطريق وجدت فارسين فاستوقفاني وسألاني عن غايى فلم أتردد فى إخبارهما بالحقيقة عليهما يساعداًنى على البحث عن زوجتى وقد عرضا على هذه المساعدة ولكن بأخشن لمجة مما دعانى إلى الشك والريبة

وكانا لقسوتهما يضحكان من حزنى ويسخران من شدة اهتمامى وأفهماني أنها إن كانت الآن فى منزل السردار بين الجوارى التى أسرن فإن كل جهد أبذله سيذهب سدى

حدث الله إذ سمح لى هذان الشريدان بالذهاب وحدى فذهبت وكلى أمل فى الله الذى ابتلانى بهذه النكبة أن يجد لى مخرجاً منها أو يلهم قلبى صبراً وسلواناً

ولما اقتربت من المعسكر الذى كنت قد رأيته أثناء ذهابى مع أمى إلى أربيفان علمت أن السردار كان لا يزال فى هذا المعسكر وأنه أرسل رؤوس الروسين الذين قتلوا فى قربتنا إلى الشاه لأن جلالته لا يقتنع بنصر جنوده إلا إذا رأى هذا الدليل المادى وعلمت أن فى المعسكر حركة تدل على شدة السرور بما فعلوه فى قربتنا كأنما كانوا يظنون أنه ختام للحرب أو أن هجومهم فى الليل على قرية صغيرة بعد موقعة حاسمة . ولكن سرعان ما تغيرت الحال فان هذا المعسكر المنتشى بنشوة السرور قد أعد المدة للتهقر وجلا عن موقعه فى أقل من ساعتين حيث ظهر الجيش الروسى من جهة الحدود رحل السردار بجيشه إلى أربيفان وتبعته إليها

الذى هى فيه ووقفت على حافة الهاوية تحت النافذة التى تطل منها زوجتى المحبوبة

وتكرر مدها ذراعها نحوى كأنها كانت تهم بأن تلقى بنفسها من النافذة فأشرت إليها بالأفعال وكدت أرفع صوتي بتنبيهها إلى ذلك خوفاً عليها

وكان كلانا ينظر إلى الآخر نظرة شوق وقد منمنا الخوف أن نتكلم وأن نهرب عما يجيش في صدورنا من الشوق

وأخيراً رأيتها على حين فجأة ترفع بقية الحاجز وتفتح المصراع الآخر من النافذة فبقيت في مكانى أنتظر النهاية ثم رأيتها تلقى بنفسها من النافذة فبهت ولم تقو رجلاى على حملي وشردت نظراتي ودارت عيناى في وجهي ثم رأيت جسمها معلقاً على الشجرة التى تحت هذه النافذة فصعدت على الشجرة مدفوعاً بدافع الغريزة لأنه لم يكن لى مجال للتفكير . ولو أن حيواناً في مكانى لما فعل غير ما فعلت ، وبذلك أنقذت أعز مخلوق لى

ولما أزلتها عن الشجرة جلست وإياها على جانب حائط مهدم ، وكان كلانا مسلوب القوة ولكنها كانت مشحونة بالجراح من أثر الصدمة التى اصطدمتها بفروع الشجرة . وبالرغم من أنه لم ينكسر شيء من عظامها فقد كانت جراحها بالغة لأن بعض فروع الشجرة قد شق ثيابها وجعلها في مواضع متعددة وأضعفها مائزف من دمها ضعفاً شديداً وكانت مفقودة الرشد من الخوف والاعياء

وأخيراً أفاقت ونادت باسمي فكدت في هذه اللحظة أن أجن من الفرح وعانقتها وقت أريد

الذهاب بها إلى قريتي ولكنني عدت فذكرت أنه لا بد لنا من عبور النهر أو الانتظار إلى الغد حيث يعاد الجسر الذى يرفع في المساء عادة لنمر السفن . لكنه ما كان في وسعنا الانتظار حيث كنا . وكذلك رأيت أن تقضى الليل في أنقاض الكنيسة الأرمنية وهناك أقفنا حتى جئت ووجدتنا . ولقد كان أملى كبيراً في عطفك ولست أستطيع وصفك بعد الذى وجدته من رأفتك إلا بأنك حامينا ومنقذنا فشكراً لك من القلوب للنعمه التى تنتظر عودتنا . ومهما كانت مهمتك والفرص الذى جئت من أجله فانك كبير الرجولة وسندعو لك بالرغم من كوننا على غير دينك دعوة يستجيبها الله الذى يشب على عمل الخير

« يتبع » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسائل

تباع مجموعات الرسائل مجلدة بألوانها الاربعة

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

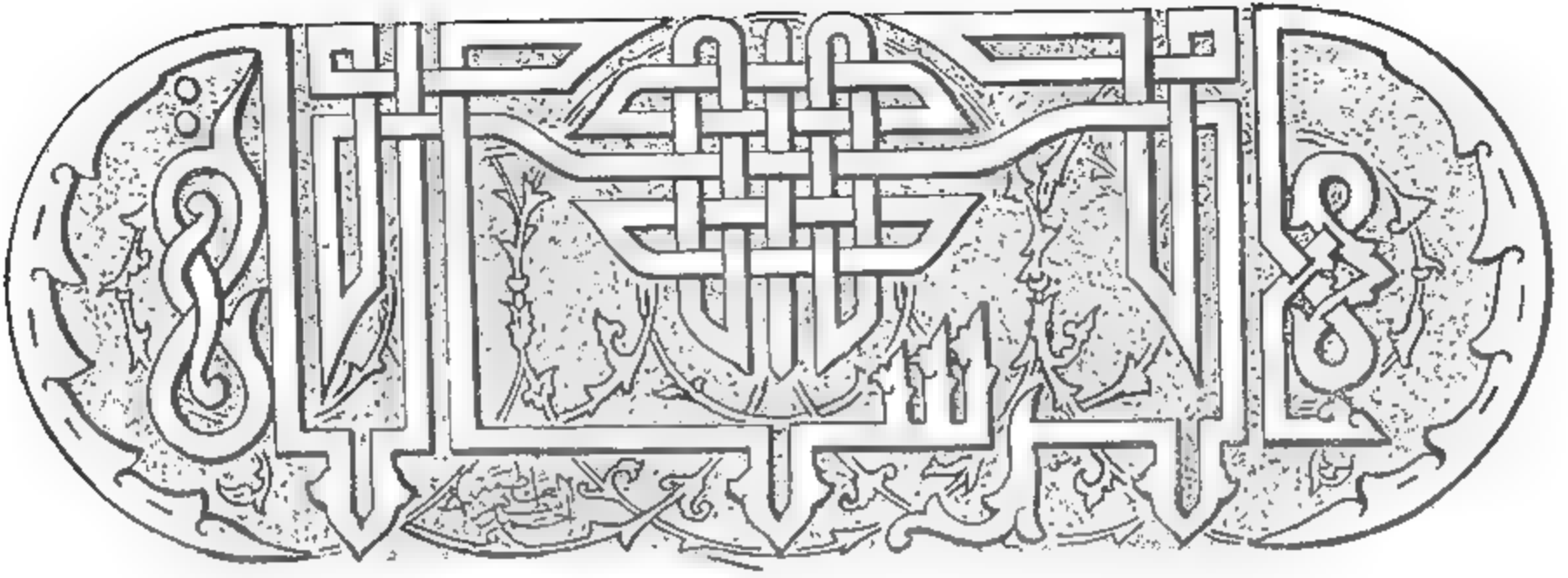
٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد

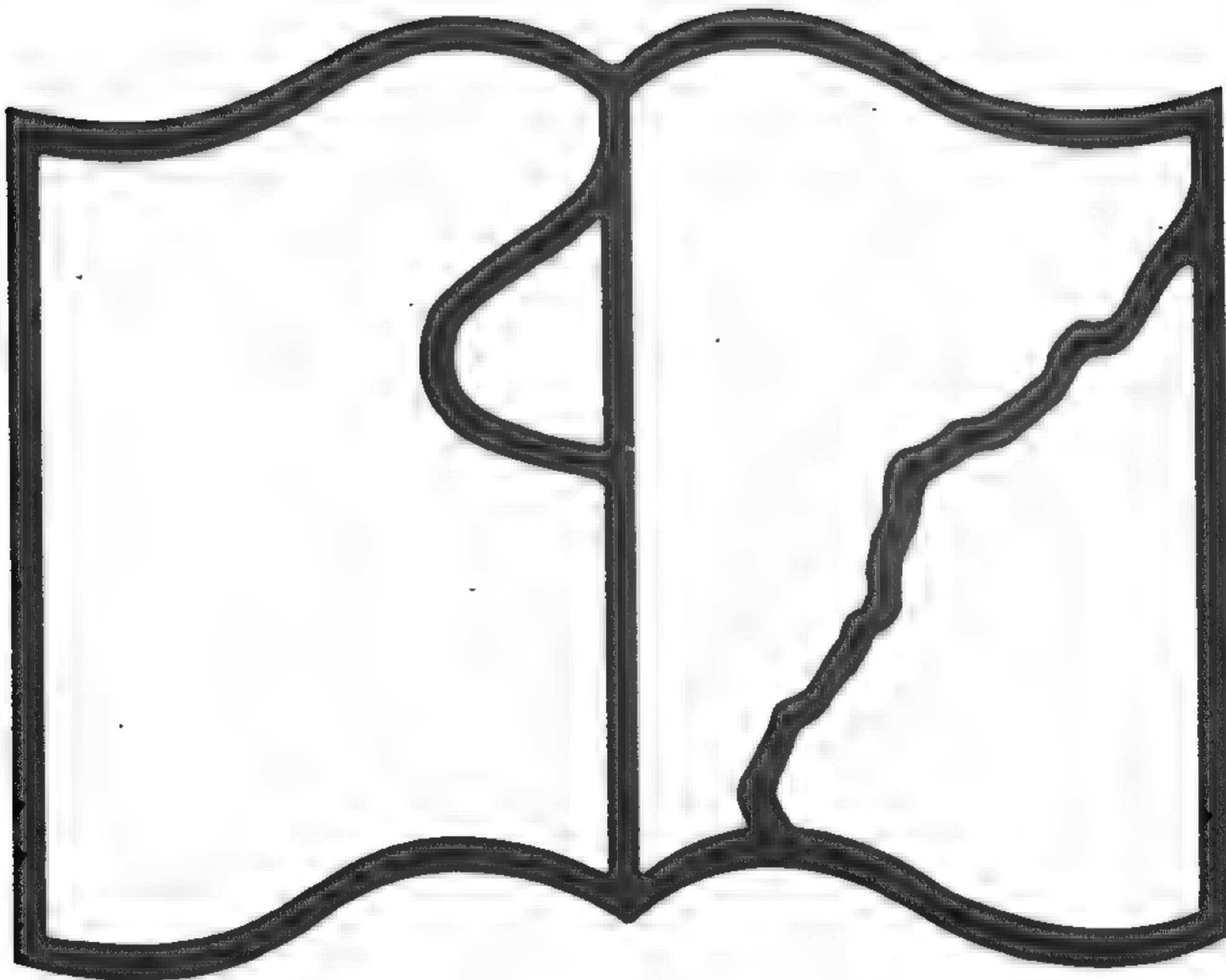


مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النِّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرَصِّدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفَ عَامَّةٍ

الاشتراك الدخلى سنون قرشاً ، والخارجى ما يساوى جنيهًا مصرياً ، وللبلاد العربية بخضم ٢٠٪



Texte détérioré — reliure défectueuse

NF Z 43-120-11



صاحب المجلة ومديرها:
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك هي ستة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولي رقم ٣٤
حاديين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

البردية

مجلة أسبوعية للقصص والسير

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ - أول فبراير سنة ١٩٣٩

العدد ٤٩

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة		
٥٨	صوفية جديدة	أقصصة مصرية
٦٩	النافذة المفتوحة	عن الانجليزية
٧٢	الأراجوز الحزن	أقصصة مصرية
٧٩	غزوة الجزائر البريطانية	للكاتب الانجليزي آرثر كونان دويل
٨٥	الأب الشاكل	أقصصة مصرية
٩٢	مذمب من سمائه	أقصصة مصرية
٩٧	حاجي بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي « جيمز مور »
		بقلم الأستاذ دريني خشبة ...
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
		بقلم الأديب نجيب محفوظ ...
		بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة ...
		بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد
		بقلم الأديب محمد طه الحاجري
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

— لست أفهم ! جمال
الظاهر كأي شيء ؟
— كالسحر الذي ملأ به
عبونهم ، وجمرة الورد التي
موت بها خدودهن
— وكأي شيء أيضاً ؟
— الفوام الرشيق !
— وماذا أيضاً ؟

صُوفِيَّةٌ جَلِيلَةٌ
أَقْصُوصَةٌ مُصَرَّرَةٌ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ دُرَيْخِ خَشْبَةٍ

— والسيقان الخلد لجة والأذرع التي تكاد
تنمقد من لين وطراوة ؟
— ثم ماذا يا شيخ عبد القوي ؟
— أسكت لحاك الله ... وماذا بعد هذا ؟
— بعد هذا ما بعده يا شيخ عبد القوي ...
أيها الصديق الصوفي !
— معاذ الله أن أكون قد ضللت !
— أنت ، ومن زعم لك أنك ضللت ؟
— حسبتك ظننت هذا !
— كلا أيها الصديق ... لكنني أطمع في أن
تكلمني بأصرح مما فعلت ... أفى الحق أن الله
قد خلق أكثر جمال الظاهر كما تزعمون فتنة لمباد
المتقين !

— أنا أعتقد هذا
— إذن أنتم تؤمنون أن الله يريد للفتنة ؟
— معاذ الله أن يريد شراً بالمباد !
— أليس قد خلق أكثر جمال الظاهر فتنة لنا ؟
— هو بلاء فحسب !
— إذن نحن غيرون
— الله خلقنا وما نصنع ؟
— من خير أو شر !

— آه يا صديقي الشيخ عبد القوي لو رأيتهن
مرة واحدة ! مرة واحدة يا صديقي الشيخ
عبد القوي ثم تنسى هذه الصوفية وذاك النقشف !
— ذاك لأنني إن فعلت ألقى بزمامي للشياطين
أمثالك !

— أأستطيع أن أحدثك لم خلق الله النساء ؟
— خلقهن لعمار هذه الدنيا يا صالح !
— ولم خلقهن جميلات رائعات فائنات ؟
— ليلو عباده ، فن سلم منهن سلم في دينه
ودنياه ، ومن أغوينه خسر الدنيا والآخرة
— إذن أنتم يا معاشرة المتصوفة تزعمون أن الله
خلق الجمال للنواية !

— ليس الجمال كله ... أرجوك !
— جمال النساء فحسب !
— وليس جمال النساء كله !
— جزء من جمالهن فقط ؟
— هو ذاك
— وهذا الجزء ، أأكثر الجمال هو أم أقله ؟
— أكثر جمال للظاهر
— جمال الظاهر ؟
— أجل ...

- قل كل من عند الله !
 — هذا هو الذى لا تفهمونه من كلام الله ...
 لنترك هذا... وجمال الباطن ، ماذا تقصدون به ؟
 — جمال الروح
 — وكيف تكون الروح جميلة ؟
 — الروح التى تفزع من الاثم
 — هذا هو الجانب السلبى ...
 — وتصدر عنها المكررات
 — أحسنت ! والروح التى تفزع من الاثم ،
 هل تحسبونها تفزع من جمال المرأة ؟
 — قل جمالها الظاهر أرجوك ! أجل ، إنها
 تفزع من هذا الجمال الخبيث فزعاً شديداً
 — ألا تتفق معي أن مثل هذه الروح تكون
 روحاً شريرة فاقصة ؟
 — ولماذا تكون كذاك ؟
 — لأنها كلما رأت جمال المرأة الظاهر نفرت
 وقرنته بالشر ؛ ولو أنها قرنته بالخير ، ومجدت الله
 الذى خلقه ، لكان خيراً لها وأكثر إيماناً بالله !
 — .. ؟ ...
 — أراك لا تستطيع أن تتكلم ، وأنت تريد
 أن تفعل ؟ !
 — ولماذا هذا الحوار الطويل عن المرأة ،
 ألا يوجد فى الدنيا غيرها ؟
 — بل يوجد غيرها كثير ... فيم تريدنى
 أن أناقشك ؟
 — أنا لم أعترض على مخلوقات الله مثلك ،
 فتكلم أنت !
 — وهل حسبته اعترضت على مخلوقات الله
 يا صديق ؟
- وهل تريد أن تنكر ذلك ؟
 — إنى أنكره لأنى لم أفعله !
 — ألم أعترض على الصوفية والمتصوفة ؟
 — لقد سألتك عن أشياء فلم تستطع أن تقرر
 حجتى ، أف يكون ذلك اعتراضاً منى ؟
 — إننا يا صديق قد طلقنا هذه الدنيا ثلاثاً ،
 ونحن أحرار نصنع ما نشاء
 — وكيف تطلقونها وقد اعترفت أن الله أراد
 عمارها ؟
 — أنا اعترفت بهذا !
 — ألم تعترف ؟
 — أبداً ، أبداً ...
 — إذن يريد الله خراب الدنيا !
 — أليست الساعة ستقوم ؟
 — سوف تقوم ما فى ذلك ريب !
 — أليس فى قيامها خراب الدنيا ؟
 — إنها تكون قد انتهت إلى الأجل الذى
 أجلها الله إليه ، وإلى أن يجيء سوف تظل عامرة
 جميلة فاضرة !
 — آه من عمارها وجمالها ونضرتها !
 — وما عليك من ذاك يا عبد القوى ؟
 — طوبى لمن يخلع عنه بردها الزائف يا صالح !
 — وكيف يخلع بردها ولماذا ؟
 — إنها دار الغرور يا أخى !
 — أنا أسألك كيف يخلع المرء بردها ولماذا
 يخلعه ؟
 — يخلعه هكذا ... إلبس كما ألبس أنا ...
 ذاك الصوف الخشن وتلك النمل المخصوصة ، وهذا
 الطربوش الذى ليس له زر ... و...

— ما ضر الدنيا من عبادة الأصنام !

انصرف صالح لشأنه ، وأقام عبد القوي ،
أو الشيخ عبد القوي زعيم متصوفة القرية ، يفكر
في هذا الحديث الطويل الذي جرى بينه وبين صديقه
عن ظاهر الجمال وباطنه ، وعن المرأة من وجهة
نظر المتصوفة ، وعن الدنيا ... والتكشف ...
والشعر المرسل والملبس الخشن ... والنمل
المحصوفة ... ثم هذه المكحلة وتلك المذبة التي
هي فضل مندبل المهامة ...

ولكنه كان يعود من كل أفكاره إلى التفكير
في المرأة ، فما كانت أفكاره فيأعدها إلا كإخفاف البرق
لقد نى عليه صالح أن المتصوفة يمدون المرأة
عدوم الأكبر لأنهم يزعمون أن الشياطين تتخذ
من مفاتها سموماً تصيد فرائسها ... وصالح يقول
إن هذا زعم خاطئ ، لأنه يقرن جمال المرأة بالشر ،
ولو قرنوه بالخير لكان أصلح لأرواح الناس ،
ولقربت الدنيا أن تكون جنة ، ولهربت الأبالسة
من حياتنا ...

فكرة طيبة ، وهي أقرب إلى حكمة الله من
هذا النظر الأسود إلى أحسن مخلوقاته التي اختصها
بالجمال ، واستودعها الرقة والمذوبة والطلاوة والسحر
ووفر في قلب الشيخ أنه لم يستطع أن يدفع
حجة صديقه صالح في فساد رأي المتصوفة في المرأة ..
وكان مجزء ذلك أول إحساسه الخفي بالهزيمة ، وقد
رأى ببني تصويره كيف أخذت هذه القصور المعجبية
التي شادها الوم في وجدانه الصوفي تنهار وتنقض
وتتحطم وتصير ركاما

— وماذا أيضا يعبد القوي ؟

— وترسل لحيتك وشعر رأسك حتى تكون لك

وفرة وله وذوائب

— ثم ماذا ؟

— وتكون لك سبعة كبيرة ومكحلة

— ولماذا المكحلة ؟

— لا تكون صوفيا إلا بها !

— لقد جمعت المكحلة للتجمل والزينة ، أليس

كذلك يا صديقي للشيخ ؟

— كلا ... كلا ... إنها تقاليد يا صالح !

— لا ... لا بد أن تفسر لي اتخاذكم المكحلة

وتشبهكم بها !

— وهل ذلك في استطاعة أحد ؟

— ليس في استطاعة أحد أن يفسر

اتخاذكم المكحلة ؟

— هذا محال يا صديقي !

— ولماذا يكون محالا ؟

— مثل المكحلة مثل هذه المذبة التي ترى !

— لقد كدت أسألك عن أمر هذه المذبة

لماذا ترسلونها على أفتيتكم هكذا ؟

— هي أيضا من تقاليدنا مباشرة المتصوفة

— ما أحسبها إلا من بقايا الوثنية التي تندس

في طبائع الناس دون أن يشعروا ...

— وثنية ! نحن لسنا وثنيين يا صديقي !

— ومن قال إنكم وثنيون يا عبد القوي !

— وما بقايا الوثنية التي اندست في طبائنا إذن ؟

— هذه المكحلة التي تأخذون بها أنفسكم

وتلك المذبة ، والنمل المحصوفة

— وماذا ضرك من ذلك ؟

— حل من حديثه في قلبي أنه يعيرني بأننا
معاشر المتصوفة تقرر نظرنا إلى ما ظهر من جمال
المرأة بالشر ، ولو أننا قرنا هذه النظرة بالخير لكان
خيراً لأرواحنا ، واطردنا الأبالسة من حياتنا وبذلك
تصبح الدنيا جنتنا الأولى ...

— كلام جميل ، بيد أنه يُخلب ... أو ...
ممسول !

— أما إنه جميل فهذا رأيي فيه ... ولست أدري
كيف يكون خلباً

— إن الذي قال صالح هو ما تقول يا أخي
— نحن تقول بالذي يقول به صالح أيها الشيخ
— هو هو !

— هذا عجيب !
— وما عجيبه ؟

— وأي خير تقرر به جمال المرأة ؟ ألم تخلق
عدة للشيطان ؟

— معاذ الله أن يكون ذلك ؟
— إنك تحيرني يا سيدي الشيخ !
— وكيف ؟

— أليس أول ما يأخذ به الصوفي نفسه هو
الحذر من المرأة ومن الدنيا ؟

— هذا حق !
— إذن فلم نعمت ما ظهر من جمال المرأة ؟

— نحن لا نعمت جمالها ما ظهر منه وما بطن !
— يا سيدي وأنت مع ذلك كبير من مشايخ

الصوفية ؟ !
— بل أنا أكبر مشايخها قاطبة ! ! إسمع

يا عبد القوى ، إننا معاشر المتصوفة نجيب الجمال
ونهم به ونقتني فيه ، وجمال المرأة هو أبرز صورة من

واقى بعد ذلك شيخاً من أجل مشايخ الطرق
فذا عثم أن آثار المسئلة بحذافيرها ... وكان قد نسي
الوقار الذي لم يكن منه بد في تناول هذه المسائل ،
والتي يزعم المتصوفة أن الخوض فيها كالخوض في
حديث القضاء والقدر ، لا بد فيه من الاحتراز
والاحتباس إن لم يفضل فيه التسليم كل التسليم

ولحظ الشيخ الجليل في محذره هذا التبذل الذي
يخرج بالصوفي من أصول المذهب ، فشده أول
الأمس ... ثم علم أنه للشيطان قائله الله قد استطاع
أن يتغذ إلى قلبه ، وأن يسيل من هناك على لسانه ،
فقال له :

— أي حبيبي عبد القوى ، ماذا دهاك ؟ إنك
تتحدث بما لم نعهد فيك !

— عمرك الله مادهاني شيء ... إنما هو حديث
جري بيني وبين صديق صالح ، لم أستطع أن أرد
عليه شيئاً مما قال

— لا بد أنه كلك في المرأة وفي الدنيا وفي الذي
نحاربهما به من الجفوة والتقصيف !
— أوه ! ... لقد حصل كل هذا ، فهل حدثك
مثل ذاك الحديث ؟

— كلا ولكن فهمت ذلك من سياق حديثك
— وماذا ترى إذن في الذي حدث ؟

— أرى أنه حق يؤدي إلى باطل
— حق يؤدي إلى باطل ؟

— أجل يا أخي !
— وكيف أيها السيد ؟

— أنسألي كيف ؟
— إي والله إنني أسألك

— قل لي أولاً ماذا حل من حديثه في قلبك !

— لذلك ...
 — لذلك ينبغي أن نحارب في نفوسنا الهيام
 بالمرأة ...
 — ولذلك ...
 — ولذلك أرسلنا شعورنا وأعفينا لحانا وآثرنا
 لبوس الصوف الخشن والنمل المخصوفة والهندام
 الجاني ...
 — ليتك جادلت صالحاً ... ليتك جادلت صالحاً

لم يمد عبد القوي هذا الرجل المتصوف المتكشف
 الزاهد بعد ... لقد تبدلت حاله ، وصار كلما تذكر
 المكحلة والنمل المخصوفة والسبعة والوفرة والدواب
 يامن هذه الأيام التي حرم نفسه فيها من مباحج الحياة
 لقد شك أول الأمر في قيمة هذه الأسلحة
 التي يتخذها المتصوفة ليظهروا في ذلك المظهر الخشن
 الجاني بحجة أن هذه أحسن وسيلة لاذلال النفس
 وقهر للشيطان ... وعجب لماذا لا تكون الأناقة
 والمظهر المحتشم والنظافة معواناً للمرء على ضبط
 النفس واكتمال أديها ...

— لا ... لن تكون لي هذه اللحية الكثة ،
 ولا ذاك المظهر الزري ... لتذهب المكحلة والسبعة
 إلى الشيطان ... لماذا أعد صلواتي وتسابيحاتي ؟
 أفضل ذلك لأحاسب ربي ؟ أم آخذ السبعة شماراً
 ومظهراً ورتاء الناس ؟ لن ينفعني ظاهري إن لم يكن
 لي وازع من باطني ... إن هذا الطربوش الذي
 ليس له زر تدجيل وشموذة ، إن لم يكن على الناس
 فعل نفسي ... لقد خلق الله الدنيا وجعل فيها من
 كل شيء ، فلنملأها بشراً وخيراً ولنملأها سلاماً
 وإيماناً ... ليكن كل ما فيها جيلاً فقد خلقها الله

جمال الدنيا ... لكن نظرنا إلى جمالها غير نظرة
 سوانا من الناس ... إن الناس ينظرون إلى المرأة
 بعين تتقد شهوة وفسوقاً ، أما نحن فنتنظر إليها
 لنعبد الله وتقديس أسماؤه . ونحن حين نخشى المرأة
 لا نخشاها لأنها عدوة لنا ، بل نخشى أن نفتن
 ونزل ونقع في حبال الشيطان الذي أقسم لربنا أن
 يقعد لعباده طريقهم المستقيم ... فنحن نستفيد
 بالله من الشيطان إذا وقع بصرنا على المرأة ، ليس
 لأنها عدوة لنا ولكن لأن الشيطان هو عدو لنا ...
 ونحن نظلم المرأة كما نظلم الدنيا التي نملأها بالفاسد
 والمعاصي ، ولو عقل بنو آدم لملأوها بالطاعات
 والخيرات فتكون جنتهم الأولى كما زعم لك صديقك
 صالح ... ولكن ...

— ولكن ماذا يا سيدي الشيخ !
 — ولكن ... لي معك كلمة بعد الذي قلته لك !
 — تفضل !
 — أأستطيع يا عبد القوي إذا أنت نظرت إلى
 المرأة — غير عاق طبعاً — أن تجمل نظرتك للخير
 لا للشر ؟

— وكيف لا أستطيع ؟
 — هذا ما أشك فيه !
 — وهل تستطيع أنت يا شيخنا الجليل !
 — أنا دائماً أجاهد نفسي
 — ولماذا لا أجاهد نفسي أنا أيضاً ؟
 — هنا تتفاوت نفوس الصالحين ... ولذلك
 قلت لك إن كلمة صالح حق يؤدي إلى باطل يا صديقي !
 — وكيف أيها الشيخ ؟
 — لأننا لا نستطيع دائماً أن نقرن نظرنا
 إلى المرأة بالخير ... هذه مرتبة الملائكة التي أعيت
 أكثر البشر

لا ينبعث إلا من أعين المؤمنين الصالحين الخاشعين ،
الذين لا يستعينون على عبادة الله بقهر أبدانهم وحرمان
نفوسهم ، ولكن يستعينون على تقديسه بالاندماج
الطاهر في الدنيا التي برأها وأبدع فيها الكائنات

وذهب صرة إلى قرية قريبة في عمل له ، فسمع
الناس يلهمجون بذكر رجل تقى ورع قوام لليل
صوام للدهر عزوف عن الدنيا ، تكفيه السميمة
إذا أفطر ، والزيبية إذا تحلى ، وتنبية الماء إذا ظمى ...
لا يحرك لسانه بهجر ولا يرفع عينيه فيمن يكامه ...
يعطيل الركوع ويخضع في السجود ويسبغ الوضوء
ولا يفتر لسانه عن ذكر الله والتسبيح له

وعرف أن الرجل يتخذ صومعة في منعرج
قريب تحت جيزة باسقة عند شاطئ النيل ، فهو
يمتزل الناس فيها فلا يلقاهم إلا لماماً

واتوى الشيخ عبد القوي أن يزور هذا الرجل
الصالح عسى أن ينفعه الله بلاقائه ، أو أن يقف منه
على سر عزله واستيحاشه ... ولم يشأ أن يصحب
أحدًا ممن عرضوا أن يذهبوا معه إلى الشيخ الصالح
بل شكرهم وآثر أن يذهب إليه وحده ... لأنه
يعرف من تجاربه أن الوحدة هي الطريق إلى البوح ،
ثم هو يعلم أن التأمل والاتحاد بالمالم لا يتلفهما
إلا فضول الناس والثرثرة التي هي فجارة في ألسنتهم
فا يقلعون عنها إلا قليلاً

وخرج الشيخ عبد القوي من مسجد القرية
بعد صلاة العشاء ، وتسلل من الناس ثم اتخذ سبيله
إلى شاطئ النهر

وكان الليل قد نشر طيلسانه فوق الكائنات ،
والقرية توشك أن تهجع إلا من نباح الكلاب ،

جميلة ... لماذا تبدو في هذا المظهر الأشعث الأغبر
لنذل أنفسنا ونؤذيها بالقهر ، وكان خيراً لنا أن
نأخذها بالكرامات وحميد الخصال ... إن السبع
لا يزداد بالمقاومة إلا شراسة وشماساً ... وهو بالين
والموادعة يسلس وينقاد ويطأطن لمروضه ... إنما
ينبغي أن أذكر دائماً أنني في نضال مع نفسي ...
لن أتركها تنتصر على ... لن أدع زمامها للشيطان
ولكني لن آخذها بالخشونة والقهر مع ذاك ... كلما
لقيت امرأة فلن أنظر إليها باشتها ولا فسوق ...
إن المرأة الجميلة تحفة رائعة من صنع الله فينبغي
ألا ندنسها بأنظارنا الشريرة ... والدنيا مثل المرأة
فيجب أن نغلاها بهجة ... إن اشتهاها للمرأة هو
مثل اشتهاها للعالم ... الأول يدل على نقص في
طبائعتنا كلما حاولنا إرواءه من النساء تضاعف ثم
تضاعف حتى يجرفنا ... والثاني يدل على طائفة من
عيوبنا من أبرزها الجشع والطمع والافتناء والذل
المقيم لمطالب الجسد من طعام وشراب وكساء ...
ونحن أمام هذين ننحط إلى مراتب الحيوان الأعجم
وننسى فضائلنا ...

وهكذا استطاع الشيخ عبد القوي أن يرسم
هذه الصوفية الجديدة ... وهي صوفية مبنوية سامية
لم يزخر على نفسه لبلوغها بنداثر الشعر وذوائبه ،
ولا بهذه العبادة الفضفاضة من الصوف الخشن ،
ولا بتلك النمل المخصوفة والسبحة الهائلة
وصرت الأيام ...

وبدا عبد القوي بين الناس فتى أنيق البزة
رشيق الهندام نظيفاً ، لا تحمل ذقنه إلا شمرات ،
وينبثق من عينيه هذا البريق المجيب الجميل الذي

والأمن ذاك للضوء المربض المتنبث من وكان البقال
الذى يبيع للناس ألف صنف مما يحتاجون

ما أشد رهبة الليل في مروج الريف ؟

لقد كان خربير الماء المتدفق في النيل يبعث
الرب في قلب الشيخ عبد القوي حتى لقد فكر
في أن ينثني إلى بيت مضيفه ، ويقذف إلى الشيطان
زيارة هذا الشيخ الصالح للذي اهتزل العالم تحت تلك
الصفصافة البعيدة كأنها في عالم وحدها ...

وكان الظلام الدامس يرسل عفاريته في الهواء
الرطب فلا تفتأ رقص فوقاً كوام السباخ وشواخص
القبور الغريبة .. لكن عبد القوي استماد بالله وتم
بآيات من القرآن .. ثم ذهب لا يابيه بتهاويل الليل
واقترب من الجزيرة ... فأرهدف أذنيه عسى
أن يسمع تسبيح الشيخ الصالح المعتكف ثمة ...
بيد أنه لم يسمع شيئاً

وكان القمر قد أخذ يرسل أذنته الدواكن
في الأفق الشرق ، فيختلط الضوء للنحاسى بفحمة
الليل ...

ومن وراء أحراج النخل البعيدة ، ظهر البدر
الشاحب فاهتزت الكائنات خاشمة لهذه الآية من
آيات الله القدير ... ووقف الشيخ عبد القوي هو
أيضاً يفكر في خالق الأرض والسماوات ، ويرمق
النهر الجبار الأبدى يجري كأنه نهر الزمن لا يابيه
للتواني والدقائق والساعات .. بل الأيام والدهور .
وأرسل الكروان المصرى الجليل شذوه في هدأة
الليل الساجى ، فقال الشيخ عبد القوي معه « اللهم
مالك الملك . لك الملك وأنت صاحب الملك ... »
والفلاحون في ريف مصر يزعمون أن الكروان

ينفى في سمواتهم بهذه العبارة ، وهم يرددونها بعده
لذلك كلما سمعوها ،

وبرز رجل من كهف فجاة ، وأخذ هو أيضاً
يقول في إرتسيح الكروان : « اللهم مالك الملك .
لك الملك .. وأنت صاحب الملك .. »

وتلفت عبد القوي فاذا حياله رجل أشعث أغبر
قد أرسل لحيته حتى تهدلت فوق بطنه ، وانتشرت
فوق ظهره ذوائب بيض كالندف ، وهو مع ذلك
أصلع عريض المنكبين ، وييده هراوة كبيرة كأنها
هراوة نوح أو عصا موسى

ثم صرخ الرجل صرخة مدوية ، وأخذ يترنح
بمئة ويسرة وهو يقول :

« الله — حى — الله — حى — الله — حى »
وكان يقولها في تلك النغمة الموسيقية المروفة
التي وقع بها المنشدون أذكارهم ، ويرتلون
على جرسها أورادهم ...

ووقف عبد القوي مكانه باهتا صامتا مسبوها
لهذا الشيخ التمرد الذى انشق عنه بطن الأرض
فبرز يشوه جمال الطبيعة بصوته الأجنس وبمخته
المنكرة ، وإنشاده المختنق ؛ ويكسب بصدأ حشرجته
موسيقى القمر وغناء الكروان

— السلام عليك أيها المؤمن !
— حى — الله — حى — الله !
— اللهم لا حول ولا قوة إلا بك !
— الله — حى — الله — حى !
— الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... رويدك
يا أخى وترفق بنفسك
— حى ... حى ... حى ... حى ...

- وخطا عبد القوي نحو الرجل خطوات ثم أخذ
يربت على كتفه يمينه ، والرجل مع ذاك كأنه
بندول الساعة يهبط هنا ثم يهبط هناك
ثم جذب عبد القوي جذبة قوية فتوقف الرجل
ثم حدق فيه بصره وقال :
- إني الله ... لماذا تجذبني هكذا ؟
— اعتذر إليك إن أكن قد أسأتك
— ولماذا أبيت إلا أن تقطع عليّ تأملاتي ؟
— أنا ؟ أنا قطعت عليك ... ؟ أي تأملات
يا صاحبي ؟
— تأملاتي في خلق الله ؟
— لقد كنت تتأرجع وتجد وتهتز ، أهذه
تأملات ؟
— أسكت ... لحك الله أيها الشيطان !
— من ؟ أنا ؟ ... أنا شيطان ؟
— أنت أكبر الأبالسة !
— معاذ الله يا صاحبي ... ليس هكذا يكون
خلق الرجل الذي انقطع لعبادة الرحمن
— من أنت ؟ هه !
— أنا ... أنا عبد من عباد الله سميت إليك
لأزورك
— ما اسمك ؟
— ولماذا تريد أن تعرف اسمي ؟
— أنت عبد القوي ؟
— هل تنبأ ، أم أنك تطلع للغيب ؟
— لا هذا ولا ذاك ... لكني أعرفك !
— تعرفني ؟
- أجل ... أنا أعرفك ... أعرفك من
زمن طويل !
— ومتى عرفتنني وأين ؟
— قل لي أولا ... لن أجيبك حتى تقول لي :
— أقول لك ماذا ؟
— أين لحيتك الضافية السابقة ؟
— لحيتي ؟
— أجل ... لحيتك التي كانت أطول من هذه !
— حلقها !
— وله ؟
— لقد كانت تضايقني !
— والمكحلة ؟
— استغثت عنها
— والسبحة ؟
— فرطت عقدها !
— ولماذا آثرت هذا المندام الأنيق ؟ هل
صبات ؟
— معاذ الله أن أفعل ! ألا تخبرني من أنت إذن ؟
— أنا ؟ ... أنا عبد الله !
— عبد الله من ؟
— ولماذا تلحف ؟
— أحب أن أعرفك ...
— لا حول ولا قوة إلا بالله ! سبحان الذي
بدلنا يا عبد القوي !
— سبحان من بدلنا كيف ؟
— إذن ... فاعلم أنني ... خدني شبائك
ورفيق صباك ... صالح !

- قال ذلك وكأنما ساخت قدماء في الأرض ، ثم
نشج نشيجاً مؤلماً ... واستعبرت عيناه ... ثم
استخرط في البكاء ...
- ماذا ؟ هل تبكي ؟ ... وبك ... ؟ أنت
حقاً صالح ؟
— ... ! ... !
- لا حول ولا قوة إلا بالله !
— أجل يا عبد القوى ... أنا صالح يا صديقي !
وهذا حال !
- مسكين أيها الرفيق !
— أين أنت أيها الأخ طيلة هذه السنين ؟
ليتني ... ولكن ...
— ليتك ماذا ؟ ... لماذا قطعت كلامك ...
قل ...
- لا أجسر !
— لا تجسر ؟ ولماذا يا أخي ؟
— أخشى أن تنخسف الأرض تحتي !
— أترك يا صديقي هذه المواجهات التي تستعر
في قلبك فالله ولينا ...
- ليتني يا أخي سرت في الحياة سيرتك ...
— أية سيرة يا صالح ؟ ...
— سيرتك الأولى التي كنت أعجبها عليك !
— سيرتي الأولى ؟
— أجل ... سيرتك الأولى التي كنت تستعين
عليها بلحيتك وسبعحتك ومكحلتك وهراوتك
وصوفك الجاني الخشن ونملك المخصوفة الغليظة !
— أنت تحيرني يا صالح ...
- لا ... لست أحيرك ... أنظر يا أخي ماذا
أصابني !
— إن كنت تشتغي أن تكون مثلي في الأيام
الخلو ، فالك الآن أشد رهبانة وأكثر تقشفاً ...
فم تشكو ؟
— أشكو أنني لم أكن كذلك قبل أن أعترض
عليك !
- لقد كنت تعيب هذا المظهر على ، فما الذي
جملك تؤثره على ما أحل لنا الله من زينة هذه
الحياة الدنيا ؟
— أوه ! ... لا أستطيع ... لا أستطيع !
— لا أستطيع ماذا ؟
— لا أستطيع أن أحرك بذلك لساني !
— هو سر رهيب إذن ؟
— رهيب جداً يا صديقي !
— مسكين !
— مسكين جداً
— لكنك تعذب نفسك بالكتمان أضاعف
ما تعذبها بالبوح ... تكلم ...
— هذا حق ... لكنني لا أستطيع ...
— يخيل لي أنك عصيت الله معصية كبيرة !
— أوه ...
— ولذلك فأنت تخجل من الكلام !
— كل ما تقول ...
— صحيح ! أليس كذلك ؟
— أجل يا صديقي !
— لكني أعبدك أن أكنم ما تقول ، وأن

جعلتني شيئاً آخر ... لقد ضاعت كل نظرياتى التى
كنت أبدعك بها فلا تستطيع لها زدا ... لقد
كنت أقول لك ، لم لا تقرن نظرتنا إلى المرأة بالخير ؟
لم لا ننظر إليها فنعبد الله وتقديس أسماءه ؟ لماذا نجعل
من جمالها شراً مستطيراً نتجنبه وننوءه ؟ لم تستعينون
بمعاشر المتصوفة على إذلال أنفسكم بارسال شعورك
وإعفاء لحاكم والصوف الخشن والنمل المخصوفة ؟
إنكم تشوهون خلق الله الذى شاء أن يجعله جميلاً
موتقاً وتأبون أنتم إلا أن تجعلوه بشماً كريهاً ...
هكذا كنت أقول لك .. وهكذا كنت أنى عليك !
وأسفاه ! ليتنى كنت مثلك يا عبد القوى ... ليتنى
أرسلت لحيتى وأعفيت شعري وأذلت نفسى بما أذلتكم
به نفوسكم .. لا .. لقد ذهبت أدل بشبابى وأتته ..
وأتشق بنظريات فارغة ما جعل الله لها سنداً من
الحق ، وإن جعل لها رواء وإن جعل فيها طلاوة !
لم أستطع يا أخى أن أصبر على حبها الذى غزا
قلبي وعصف بنفسى ، وزلزل وجدانى ... إذن ،
لقد غازلتها ... ولم تستمع طويلاً على ... فقد
صدتها فى شراك محكة من كلمات الغزل المعسول
وآهات الهوى المشتعلة ...

وسهرنا الليالى ...

وتبادلتنا القبل ...

ثم .. سقطنا !

وضقت بها وبنفسى حينما جاءها الخاض ... ماذا
أصنع ؟! عاوتها ... لكن ، لأنجو من جريمتى ...
لأفقت من الجريرة ...

ثم فررنا إلى جهة نائية . وفى الطريق . وتحت جنح
الليل ، جلسنا تحت صفصافة حيث وضعت !

أعينك على بلواك إذا استطعت !

— أتقسم لى ؟

— أقسم لك

— إذن ... لقد قتلت ... ؟

— قتلت ؟

— أجل يا عبد القوى ! أجل يا صديقى ! ؟

— قتلت من ؟

— ولدى ... ؟ ... ولدى ...

— ولماذا أيها الرجل تقتل ولدك !

— ألا تعرف لماذا ؟ لقد أتيت به من سفاح

يا أخى !

— آه ... جريمة تله جريمة ...

— لقد خدعتنى نظرياتى فى الحياة يا أخى !

— كلا ... لقد كنت أنت السبب فى اعتناق

هذه الصوفية الجديدة المهدبة يوم عنيت بالرد عليك .

لقد كنت على حق يا صالح ، ولم تكن قط على ضلال

ولكن هلم فحدثنى كيف سقطت هذا السقوط !

— أوه ؟ هذا خديث شاق يا أخى !

— ليس شاقاً كما تتصور ... أوه ... لقد تعبت

على ما يبدو ... هلم إلى كهفك السحيق نستريح به

وكان القمر قد أطل وارتفع ، وأرسل أضواءه

ملء للكون ... وكانت البرايا كلها قد أرهقت

آذانها تصنى للحديث وتتلفه ... أليست هذه

مأساة الجميع ؟ أليس يعب الإنسان أمراً ثم يتردى

فيما هو شر منه ؟ !

— عرفتها يا أخى ريانة الالهاب موفورة

الشباب ... لقد كانت فينانة كالزهرة تبعق بالحب

فى فؤاد كل من نظر .. حينما رنت إلى قلبت كيانى ..

- يا لله ... ربي ؟ لقد وسعت رحمتك كل شيء ... مسكين يابني ؟ ... ليتني أبقيت عليك واعترفت بك وذهبت فداك ... لقد خفت يابني أن تفضحني حينما سمحت أول صيحتك في هذه الدنيا المنكودة فلم أبال أن أقبض على رقبتك وأختنقك ! لماذا ياربي لم أمت قبل أن أفعل هذا ؟
- مسكين يا صالح . والفتاة ؟ ماذا صنعت ؟ !
- لقد كانت تبكي على ولدها
- أهذا كل شيء ... ؟
- لا إنها طلبت إلى أن أقتلها
- هل فعلت ؟
- أجل يا صديق
- وواريت سوء تيهما ؟
- بل ألقيتهما في ...
- أين !!
- في هذا النهر ... آه ... آه ... إنه ينظر إلى ... إحمي يا عبد القوي إحمي يا صديق ... إن للنيل يغمر فاه ليبتلعني ! إني أسمع صياح ابني وآلام حبيبتى ...
- مسكين ! ومن يدري !
- ومن يدري ماذا يا أخى ؟
- لا شيء ... ولكن ... خبرني يا صالح ... ماذا ترجو بعد ذلك من الله ؟
- أرجو مغفرته يا أخى ! إني أسوم الدهر وأقوم الليل ولا يفتر لسانى عن ذكر الله !
- وهل ذلك يكفي لو فعلته ألف سنة ؟
- وماذا أصنع ؟ لقد عجزت عن حرب نفسى
- وبجاهدتها قبل أن أرتكب جرائمى ، ولو استطعت ما حصل منها شيء مما يروعنى الآن
- إن كنت تطمع في مغفرة الله
- فإذا أصنع يا أخى
- فلا يكفي أن تحيا حياتك هذه !
- وكيف ؟
- يجب أن يقع عليك القصاص الذى أمر الله أن يقع على أمثالك !
- أوه ! لقد فكرت في ذلك ... !
- وما الذى عاتك أن تفعل ؟
- خفت أن أقتل نفسى !
- لو قتلت نفسك لكنت جريمة رابعة !
- إذن ...
- تعلم نفسك لولى الأمر !!
- دربنى خبيته

آلام فتر

للشاعر الفيلسوف جوتة الاطالانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار للفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ومعها ١٥ قرشاً

- مسكين ! ومن يدري !
- ومن يدري ماذا يا أخى ؟
- لا شيء ... ولكن ... خبرني يا صالح ... ماذا ترجو بعد ذلك من الله ؟
- أرجو مغفرته يا أخى ! إني أسوم الدهر وأقوم الليل ولا يفتر لسانى عن ذكر الله !
- وهل ذلك يكفي لو فعلته ألف سنة ؟
- وماذا أصنع ؟ لقد عجزت عن حرب نفسى

النافذة المفتوحة

عن الأنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كنت من الذين تصاب أوتار
الصوت عندهم بالشلل عند رؤية رجال
البوليس

وكان هذا الجندي طويلًا جدًا
عريض الأكتاف قوى الجسم
والنظرات أحمر الشعر مهيب الطلعة في
نظري على الأقل ، وكان ينظر إلى

الفضاء كما كثر رجال البوليس حينما يرون سارقاً
أو قاتلاً لا يستحق التشريف بنظرهم إليه

فلما اقتربت منه رمقني بنظرة كنظرة علماء
الحشرات تحت المجهر فلاحظت زرقة عينيه واتساع
ذقنه وبروزها

ولم يكن من عادتي دعوة رجال البوليس إلى
الاشتراك في حديث : أولاً لأنني أخشاهم ، وثانياً
لأنني قصير القامة نحيل وأعد من الأمور المهيبة لي
أن أقف ثانياً رأسى إلى الوراء لأنهم من عادة
العائلة الطوال ، لكنني الآن تحت تأثير الخمر وجدت
في نفسي ميلاً إلى تحية هذا الجندي لا لأحدثه ،
ولكن لأتق عليه السلام ثم أستمع في طريق . وقد
يكون هذا الليل من جانبي مظهراً واضحاً من مظاهر
الخوف .

قلت : « سعد صباحك ! » فأجابني الجندي
وقد سر من تحتي إياه سروراً كان يحاول كتمان :
« سعد صباحك ! »

قلت وكنت لا أريد أن أتحدث ولا أن أفاخر ،
ولكن لأشرح علة وجودي في الطريق في مثل هذه
الساعة : « لقد كنت مدعواً إلى وليمة فتأخرت
للآن » فنظر إلى الجندي نظرة طويلة وقال :
« وهل أنت من سكان هذا الشارع ؟ »

قلت : « نعم في المنزل رقم ٢٨ » فأشار لي الجندي

وقفت لحظة في منعطف من شارع « كريكت
جراوند » لأشمل غليونى وأشكر نعمة الله على أننى
غير متزوج ، لأننى في حياة العزوبة استطعت أن
أقضى هذه الليلة للسارة ساهراً إلى منتصف الساعة
الخامسة صباحاً فأشهد طلعة الفجر في اليوم المقبل
الجميل من أيام شهر يونيو . وكنت إذ ذاك في طريقى
إلى المنزل بعد وليمة دُعيت إليها في بداية الليل فتمتعت
بالطعام الشهى وبالشراب المتق . وكنت رجلاً
كسائر الرجال غير خال من الهم ، ففي ليلة كهذه
تفريج عن النفس وسرور وممتعة قلما ينسيان بعد
عدة أعوام . وفضلاً عن مسرات هذه الليلة فقد
اشتركت فيها في لعب القمار فكان حظى حسناً
وفوق الحسن

ثم مشيت وأنا أتفنى طروباً مرحاً ولكن لا تحسب
أننى كنت أرفع صوتى بالغناء في مثل هذه الساعة
فأفانى راحة الناعمين لأننى كنت أوفر أدباً من ذلك
بل كنت أغنى بصوت رقيق لأرضى عاطفتى التى
بعثتها في نفسى نشوة الخمر ونشوة الكسب في المقامرة .
وإنى لأعترف بأن تأثير الخمر في نفسى كان شديداً
جداً وإن كان لم ينسنى إلى ذلك الوقت طريقى إلى
منزلى ولم يسلبنى قوة التفكير

ولما وصلت إلى شارع « لا بورنم » رأيت جندياً
من جنود البوليس فاحتبست الأغنية في حلقى لأننى

النافذة في هذا الوقت. فلما وقف الجندى أمام الباب قلت له : « إذا كان بالمنزل لص واحد ساعدتك عليه؟ وإن كان به لصان قبضت على واحد وأنت على الآخر وإن كانوا عدة لصوص استمنت بي على الاستنجاد بجنود أخرى »

فلم يجبني الجندى ولكنه دفع الباب فوجده مفتوحاً ودخل فدخلت وراءه بغير دعوة . وكنت في أثناء سيرى أراقب الأثاث وقد أعجبني بناء المنزل ولم يعجبني أثاثه فقلت للجندى : « هذا فراشي رث وإن منزل إحدى الخدم لأفضل . . . » فلم يدعني الجندى أنعم جلتي بل زجرني بلفظة حادة ونظرة أشد إزعاجاً لنفسى ، فلزمت الصمت وتيمته إلى الغرفة التي رأينا فيها النافذة المفتوحة ، فإذا بها مكتب المستر ترول ؟ ولحيت أدراج مكتبه مفتوحة وأمرني الجندى بالوقوف في مكاني وتقدم هو :

وكانت هذه أول مرة خالفت فيها أوامر البوليس لأنني لو بقيت حيث كنت لما تمكنت من رؤية الجسم الممدد على الأرض ، وتيمت الجندى فرأيتة

قال الجندى : « أهذا هو المستر ترول ؟ » قلت : « نعم هو وأدي رأسه مائلاً بشكل غير طبيعي . فقال الجندى : « إن رقبته مكسورة ولا بد أن يكون الذي لواها قد فعل ذلك من وقت قريب » قلت : « إن الذي فعل ذلك قد أراح الدنيا من شرير كبير ، ولا شك أن كثيرين سيفرحون عند ما يصل إليهم هذا الخبر »

قلت : « نعم فقد كان الرجل صرايياً يتر في وقت عمله أموال الساكنين ويتجر بالفضائح ليحاول الكسب أيضاً عن طريق التشهير بالناس وإذاعة أسرارهم » فقال الجندى : « هل كان الرجل سيئاً إلى هذا الحد ؟ »

إلى المنزل الذي أسامه وقال : « وهل تعرف القيم في هذا المنزل ؟ » فنظرت إلى منزل جميل صغير المساحة له حديقة أنيقة وقلت : « نعم هذا المنزل رقم ٤ يقيم فيه المستر « ألاريك ترول » هل تحب أن تعرف به ؟ » فقال الجندى : « هل هو صديقك ؟ »

قلت : « إنه ليس صديقاً لأي إنسان » فتأمل الجندى في المنزل لحظة ثم قال : « إنني أستغرب بقاء هذه النافذة مفتوحة في مثل هذه الساعة » وأشار إلى نافذة فقلت : « إن نظرك كنظر الصقر ولكن لا أظن أن من حق أحد أن يسأل المستر ترول عن فتح نافذته »

قال الجندى : « هذا صحيح ولكن هذا وقت غير مناسب لفتح النوافذ وأظن أني رأيت النافذة مغلقة ساعة صرحت بالمنزل منذ عشرين دقيقة » قلت : « إن المستر ترول رجل شاذ ولا يبعد أن يكون قد تمعد فتح النافذة الآن ليستنشق نسيم الفجر في هذا اليوم الجميل »

فتأمل الجندى في وجهي لحظة وقال : « يظهر أنك تعرف الشيء الكثير عن هذا الرجل فكيف مع ذلك تقول إنك لست صديقه ؟ »

قلت : « لقد أخبرتك بأنني لست صديقه وبأنني لا أظن له صديقاً في العالم ؛ ولو أنني خيرت بينه وبين كلب أعور أعرج قد هبت في الحال لأشتري طوقاً للكلب . إنني لست صديقه ولكني أعرفه كما يعرفه عدد كبير من الناس »

قال الجندى : « أهذا وصفه ؟ إنني على كل أرى فتح النافذة الآن أصراً غريباً » ثم عاد إلى النظر نحو النافذة ومشى مسرعاً نحو منزل المستر ترول مشيت وراءه لأنني لم أكن متمجلاً في الذهاب إلى منزلي، ولأنني كنت مثل الجندى أستغرب فتح

السرى وقدمت لى ابنها فوجت ساعة رأيتة وصاحته
دون أن يفوه كلانا بحرف

وانتهزت فرصة تخلوت به فقال : « لا تذكر
شيئاً لأى عن سابقة لقائك بى فانى لم أخبرها »
وكان ابن خالى هذا هو الجندى الذى اجتمعت
به فى منزل القنيل

ثم سارحته فقلت : « لقد عثرت ساعة كنت
تسكك فى التلفون على زر من أزرار سترة عسكرية
تحت ذراع القنيل فوضعتة فى جيبى وهذا هو » ثم
أدبته إياه

وقلت : « وقد نسيته بعد ذلك نظراً لحالة
السكر التى كنت فيها . ولكننى تنبئت له بعد انتهاء
القضية . وأظننى فهمت بعض الشيء »

فابتسم ابن خالى وقال : « هو زر سترى وأنا
الذى قتلتة ثم عدت إلى الوقوف فى الطريق مترقباً
رؤية سكران مثلك برىء لأستشهد به على ملاحظتى
رؤية النافذة المفتوحة واستكشاف الجريمة . ولكننى
لم أكن أريد قتل هذا الرجل بل أخذ أوراق عنده
لأنه كان يهدد أذى بالتشهير بها لأن لديه خطابات
منها . وكانت أذى تسكنه بالمال حتى لم يبق لديها شيء
منه فذهبت لأحصل على تلك الخطابات ولكن الرجل
كان ضعيفاً فلم يتحمل تهديدى ومات بين يدي ،
وأذكر أنك حدثتني عن قريب لك اضطر إلى
الاستدانة منه ثم سرق بسببه ليوفى باقى الربا المضاعف
منها . أنا هذا القريب . وقد تطوعت فى خدمة
البوليس من أجل هذا الغرض .

وعلى الرغم من أنى لم أكن أميل إلى الاجرام
فلم يسمنى إلا تهنة ابن خالى على قتله هذا الشرير
وعاهدته على بقاء سره مكتوماً . وقد كتمته حتى
مات ابن خالى بعد عدة أعوام

عبد اللطيف النشاء

قلت : « نعم ولو لم يقتله قاتله الليلة فانى أعرف
نحو خمسين من غير المجرمين يودون لو يقتلونه ؛ ثم
هم مستعدون بعد ذلك لتحمل جزاء القتل لى
يربحوا العالم منه . وقد علمت أن شاباً من أقاربى
اضطر إلى الاستدانة منه وكان هذا الشاب لا يزال
صغيراً جداً فلم يزل يدفع من أقساط الدين ما بلغت
جملته ضعف ما استدانه ، ولكنه ظل مديناً بعد ذلك بجزء
كبير من الربا . وضايقه « ترول » ليضطره إلى الوفاء
فاضطر هذا الطائش إلى سرقة مال من المصنع الذى
كان يشتغل به ووفى دينه ، ثم هرب لما وقمت عليه
الشبهة ولا يزال أهله يبحثون عنه فلا يجدونه من
نحو عشرين عاماً

وكان الجندى يصنى إلى قصتى باهتمام ثم خطر
بىالى خاطر فقلت : « لعلنا بالتحدث الآن عن حياة
هذا الوغد نفعل غير الذى ينتظره القانون من رجلين
استكشفا جريمة فى الساعة الخامسة . ألا نستدعى
الطبيب ؟ » فقال الجندى : « هل تعرف مكان
التلفون ؟ » فأشرت إلى غرفة الجلوس وذهب
وأمرنى بالبقاء حيث أنا حتى يعود .

أخذت القضية مجراها فلم تهتد النيابة إلى شيء
وقضت بأن القاتل مجهول

وبعد بضعة أسابيع وصل إلى كتاب من خالى
فى بلدة قريبة فى الريف تدعونى فيه إلى مأدبة ، فسافرت
وكننت قد علمت قبل ذلك أن ابنها الغائب منذ عشرين
عاماً قد عاد من أمريكا فجملت غرضى من إجابة
الدعوة أن أهنئها وأرى ابن خالى الذى أوقعه
سوء الحظ فى شبابه فى نكبته تلك التى اضطرته
إلى الفرار

وتلقتنى خالى بالمناق وعرفتني بسائر المدعويين
وكلهم من عليا القوم الذين كانوا أصدقاء لزوجها

ولكن هيات أن تكفى هذه
الكلمة للدلالة على ثروته ، فهو
يملك خمسة آلاف فدان في النيا
ونصف مليون من الجنيهات
نقداً في البنك الأهلي ، وعمارة
النياوى الشهيرة بشارع الملكة
نازلى بالقاهرة . هذا غير أهمهم

الأرجوز المحزن

أقصوصة مصيرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

والسندات مما لا يعلم عدده إلا الله

فصاح الشاب وقد تملكته الدهشة :

— يا سلام سلم

فقال الشيخ مبتسماً :

ألا تعلم أنه الآن عميد أعرق أسرة بالنيا ؟ ...

هو الابن الوحيد للمفقور له على باشا النياوى الذى
كان وزيراً للأوقاف ، وحفيد محمد باشا النياوى أحد
النظار في نظارة نوبار باشا

فسها الشاب عن محدثه لحظة ثم قال متسائلاً :

— والظاهر من خطابته أنه متعلم

فأمن الرجل على قوله قائلاً :

— إنه حاصل على شهادة الحقوق المصرية .

وعلى أعلى شهادات فرنسا في القانون . والحق أن العلم
والمال من بعض تراث أسرته المريقة ...

وانتهى عند ذاك الحديث وودعه الشيخ وذهب
إلى حال سبيله . وأجس الشاب برغبة في المشى بعد
طول الجلوس في السرادق المكتظ ، فسار إلى غير
وجهة معلومة ينتقل من طريق إلى طريق كيفما
اتفق ، وخواطره تحوم حول الشاب للسعيد وما قاله
عنه الشيخ إبراهيم . وانتهت به قدماء إلى محطة
النيا . وعند اقترابه من بابها الخارجى وقفت أمامه
سيارة فخمة ، وفتح بابها وإذا بالخارج منها الوجه

كانت المرة الأولى التى رأى فيها عبد الرحيم
افندى جاد الكاتب بناية النيا الأهلية الوجيه السرى
محمد بك النياوى في الاجتماع الانتخابى الذى أقيم
للدعوة للبك الوجيه . رآه واقفاً على منصة الخطابة
باقى الخطاب الختامى فأنشأ على من تقدمه من الخطباء
والشعراء الذين أخرجوا تواضعه ، وشرح برنامجه
الانتخابى الحرى بأن يصلح أمماً برمتها شرحاً مسهباً
في أسلوب خطابى رائع قوبل من ألوف الحاضرين
بالتصفيق الحاد والهتاف المتواصل ، ولكن عبد الرحيم
افندى لم يؤخذ بمنطقه قدر ما أخذ بجمال وجهه
الفتان ، ولم يتحمس لبرنامجه الانتخابى بمضى تحمسه
لشبابه الفاضل وقامته الكاملة وقوته البادية . وانقض
الاجتماع وغادر المكان وخياله لا ينى بتثبيت بصورة
الشاب الجميل ، الذى لم تقع عينه قط على إنسان بمثاله
حسناً وشباباً وقوة . وكان يسير إلى جانبه الشيخ
إبراهيم سليم المعلم بالمدرسة الإلزامية وهو شيخ
متقدم في السن قضى من عمره سنين طويلة في النيا
فقال له :

— مرشح دأرتنا عظيم لا نظير له بين الشباب ،

وتبدو عليه النعمة ... هل هو غنى ؟

فقال الشيخ إبراهيم :

— غنى ! ... نعم يا بنى غنى وما غنى إلا الله .

لحوم وطيور وفاكهة . وإن أراد شرباً فله ما يشاء
من ماء للنيل وماء فيش والكونياك والشمبانيا .
وإن تاق إلى مشاهدة فالأرض جميعاً من الأسكندرية
إلى البندقية ، ومن سويسرا إلى اسكتلندا تفتح
له ذراعها وتتمناه ... فيا للقوة ... ويا للحرية ...
ويا للسعادة ... !

رباه ... وما نصيبه هو من الدنيا ... !
وحين خطر له هذا السؤال علت شففيه ابتسامة
ساخرة مريرة .

ما هو إلا هيكل نحيل ، شاحب اللون ، غائر
المينين ، بارز الفكين ، متهافت البنيان ، يستقبل
الفصول الأربعة بيذلة واحدة لا تبدل حتى يئأس
منها الرقاء ينكش فيها شتاء كمصفور يتقى البرد
تحت غصن شجرة عار ، ويشوي فيها صيفاً في جو
الصعيد الخانق ... وهو ابن جاد رضوان البائع البائس
يحمل عطارة الماوردي بالقرية ؛ والله وحده يعلم من
هو رضوان جدّه ، فلو كان شيئاً يذكر ما ألقى أبوه
على ذكراه ستاراً من الصمت الأليم . وأما ثروته
فهى ستة جنيهات شهرية يرسل منها لوالده ثلاثة
لتعينه على معاش أسرته المكونة من عشر أخوات
وعمتين . فهو على بؤسه وفقره ليس الابن الوحيد
لجاد رضوان ، وإن كان محمد بك النياوى الابن الوحيد
لملى باشا النياوى . وبقى له ثلاثة جنيهات يدبر بها
حياته من مسكن ومأكل وملبس . وإن كان يدين
لشئ غير هذا فهو الفول المدمس والطعمية والطماطم
والجبن الرومى ، فهى غذاؤه طول أيام الأسبوع
إلا يوم الجمعة جملة عيلاً بهيجاً فيذهب فيه إلى
« لو كائنة الأمراء » ويطلب أرزاً ونصف رطل
كباب وضغناً من الخضر تشتد حيرته عادة قبل
(٢)

محمد بك النياوى وفى صحبته عادة هيفاء مياسة
القد ، بادية الفتنة ، وهبها الله عينين ساجيتين جمع
فيهما ما وزعه على عيون الحسان الغوانى من الفتنة
والروعة . وكانت ترتدى معطفاً أسود ويزين وجهها
البرقع الأبيض الشفاف الذى تتمسك به سيدات
الأسر التركية النبيلة ؛ فأحس بقلبه يكاد يقفز من
صدره ، ولبت مكانه واقفاً ذاهلاً غافلاً عما حوله
حتى غيبتها عن عينيه الساهيتين باب المحطة . ثم مضى
ثانية فى سيره وهو لا يشك فى أنه رأى الوجه
مع زوجه

وشمر عبد الرحيم بقهر غريب لا يجده
إلا المظلومون المغلوبون على أمرهم . وخال الدنيا عدواً
يتهم به وينشقي منه . فأحس نحوها بكراهية مريرة
وتغرد مكنوم لا يجد منفذاً ينفس منه عن كربه .
وانطوى على نفسه كأنه يرغب فى مقاطعتها تعالياً
عليها . والحق أنه يمجز كل المجز أن يصلها صلة تجمل
له فيها قيمة أو شأنًا . وتساءل متكرراً غاضباً : كيف
أمكن أن يوجد الكمال على الأرض ؟ ... كيف
غفل الدهر عن هذه السعادة المتناهية ؟ وكيف
جهلت الأحزان الطريق إلى هذه الجنة الآمنة ؟ ...
ألا من عيب يشينه ؟ ... ألا من نقص يستوره ؟ ...
جمال لم يكتس بمثله وجه رجل من قبل ، وصحة لم يتمتع
بمثالها جسم إنسان ، ونسب يردد نغماً وتهاكماً
أوغل فى الماضى المجيد ، وثروة لا يحيط بها حصر
ولا يفنيها الدهر ، وزوجة تسير السعادة بين يديها
سير الشماع المنير بين يدي الشمس السافرة . ومستقبل
باسم مشرق بالآمال يبشر اليوم بالنيابة وغداً بالوزارة
والدنيا جميعاً طوع إشارة من يده . تعطيه ما يشاء
حين يشاء ، فإذا اشتهى طعاماً فدونه وما يحب من

وتساءل : ترى هل يوجد في هذه الخليقة من يشمر
بآلاى ... ؟

ولكن كانت السماء جامدة متعالية ، والأرض
صلبة خرساء ، والناس منشغلين بهمومهم . فأحس
بعزلة قلبية موحشة . وخال نفسه ميتاً في قبر مظلم ،
وعاد إلى حجرته الكثيفة كاسف الببال ، تنطوى نفسه
على غيظ قاتل وثورة جامحة وحسد أليم ضاعف
أثقال حياته ، وجعلها سلسلة متصلة من الغضب
والسخط والتبرم

والواقع أنه كان مقدراً له أن يرى من حقائق
الدنيا أعجب مما رأى . واستطاع وهو جالس إلى
مكتبه الحقيق أن يطلع على أسرار حسنها وعقله الشارد
التائه أعجب ما في الدنيا من عجائب ...

أذكر حادثة الصراف حسين عارف الذى اختلس
عشرة آلاف من الجنيهات منذ شهر ؟ لقد اتضح
للمحققين أن التهم تمت بصفة القربى إلى الوجه
محمد بك النياوى ، فطلبوا إلى نيابة الدنيا إجراء
اللازم للاطلاع سراً على الخطابات الواردة للبك من
جميع أنحاء القطر لعل وعسى أن يعثروا بينها على
خطاب من اللص الحارب يهددون به إلى المنطقة
التي يلوذ بها . وكانوا قد شددوا الرقابة على الحدود
فندا اللص محصوراً داخل القطر عرضة لقييد
البوليس في أى وقت . وظنوا لذلك أنه ربما دفعه
الخوف واليأس إلى الاستغاثة بقريبه ذى النفوذ ...
وكان الأمر خطيراً ، لأن انتهاك حرمة
الخطابات إجراء لا يلجأ إليه المحققون إلا في ظروف
قاسية دقيقة ، وزاد من خطورته ما يتمتع به البك
من منزلة سامية في البيئات المالسية والأوساط
السياسية . وعرضت النيابة المسألة على القاضي ،

اختياره ... ومن الغريب أن نفسه كانت تهوى
الحركة والتنقل والمغامرات البعيدة ، وتبرم بالقمود
والجمود ولون الحياة الذى لا يتغير ولا يتبدل ،
ولكنه لم يعلم بمواقع البلدان إلا في كتاب الجغرافيا .
وأنى له أن يراها وكامله ينوء بالفقر وسلاسل الوظيفة
المرهقة التى تسلبه وقته كله وتحتم عليه أن يكون
وهن إشارتها آتاء الليل وأطراف النهار ؟ ... ولشد
ما يمزجه الحرمان ويقتله التبرم . ولشد ما تتوزع
قلبه للشهوات وتنسب به الأحلام والأخيلة او كم من
مرة يكون جالسا إلى مكتبه بدار النيابة ، ثم يشرد
عقله فتغيب عن عينيه الأوراق والدقار ، ويخال
المكتب مائدة طعام حفلت بما له وطاب من فراخ
عذرة ولحم مشوى وفريك بالحمام والبطاطس والرز
والهلبية والبقلادة والكنافة . أو يستحضر له خياله
صوراً قاتنة مما علق به في الطريق فيرى صدراً ناهداً
أو ردفاً ثقيلاً أو لحظاً كخيلاً أو ساقاً ممتلئة . وربما
جذبه الأوهام إلى وديان بعيدة فيخلق لنفسه دنيا
على هواه ويندمج فيها اندماجاً كاملاً ويستسلم
لأحلامها السعيدة ويظل كالنائم حتى يستيقظ على
نداء زميل أو لدعة جوع ...

ولكنه كان على كل حال يمسلم — في أوقات
يقظته — أنها دنيا خيال لا تتحقق على الأرض
أبداً ، حتى رأى النياوى بك ، فأمن بأن تلك الدنيا
التي حلم بها لنفسه تحققت في عالم الحقائق لغيره .
ووقع ما كان يظنه ممجزة

وحين انتهى من هذه الموازنة التمسعة بينه وبين
الشاب الوجيه تهاد من صدر ثقيل ، ونظر فيما حوله
إلى السماء والأرض والبيوت والدكاكين والسابلة ،

وأذن القاضى للنيابة بفحص الخطابات بعد اقتناعه
بوجهة نظر المحققين ...

وكان عبد الرحيم يتتبع سير التحقيق باهتمام
شديد . فلما انتهى إلى تلك النهاية تهدأ ارتياحاً
وأحس بفرح أقيم أن تتاح له فرصة الاطلاع على
خطابات محمد بك الخصوصية . أليس هذا انتقاماً
شافياً من الذى خلقته الدنيا عدواً له وغريباً ... ؟
واستطاع بالفعل أن يطلع على الخطابات التى وردت
للك فى فترة التحقيق ، وكان مرسلوها إما من
الأصدقاء أو التجار أو بعض شباب الحزب الوطنى
ولم تكن تحوى شيئاً ذا بال، ولكن أرادت المصادفات
أن تكتب إلى البك أمه فى تلك الفترة خطابين
غربيين قد ينسى عبد الرحيم افندى ماضيه وحاضره
قبل أن ينسى مدلولها . وقد جاء فى الخطاب الأول
بعد المقدمات الممهودة ما يلى « ... أخبرنى الدكتور
بأنك لا تعنى باتباع نصائح وتعاليمه العناية المرجوة،
وأنتك تهاون أحياناً كثيرة فتأكل ما تشهيه
نفسك وربما تباطأت عن تجديد الأدوية؛ وقد يبالغ بك
الاستهتار ألا تتعاطى الحقن فى مواعيدها المقررة .
والله وحده يعلم بما أحدثه كلام الدكتور فى نفسى
من الحزن والأسف . لأننى أدرك خطورة السكر
وضغط الدم وخاصة إذا اجتمعا . فخذ حذرك يا بنى
العزیز ولا تهمل صحتك واتبع بدقة تعاليم الطبيب
مهما كانت قاسية ، فلا تذق اللحوم ولا المصلصة
ولا المواد الدسمة ، وامتنع بتاتا عن تناول المشروبات
والحلوى ، وواظب دائماً على تعاطى الدواء عسى الله
أن يقيك شر المرض ويصون لى ولك شبابك .
واذكر دائماً أن أى إهمال لتعاليم الدكتور هو بمثابة
قضاء أبدى على الحزن والألم »

وأما الخطاب الثانى فكان مختصراً لا يشق غلة
المتطفل ويدل على تخرج كاتبه ولكنه كان عظيم
الدلالة وقد جاء فيه ما يلى « ... لماذا تشكو دائماً
يا بنى العزیز .. لماذا تكتب إلى دائماً هذه الكلمة التى
ينفر منها قلبى أشد النفور: (ليت الله يأخذ ثروتى
ويهبى السعادة) والحق أقول لك أن قلبى لا يسلم
بوجهة نظرك . وأنا على كل حال أمك ، ويحق لى
أن أقول إنى فى هذا الشأن على الأقل أعظم منك تجربة
ومعرفة، لذلك تلهمنى نفسى بأن التوفيق بينك وبين
قربنتك ليس أمراً مستحيلاً كما تقول وتؤكد .
فأرجو أن تترى قبل أن تخطو تلك الخطوة الأليمة
التى لم تكتب بها أسرتنا من قبل . وإنى أقترح عليك
أن تنفصلا مؤقتاً عسى أن يشوب كل منكما إلى رشده
ويدير أمره بما يصون كرامته ويحقق له السعادة . »
ولبت عبد الرحيم زمناً لا يدرك كيف يصدق
ما طالعت عيناه ، ولا كيف يفى من الدهشة والخيرة
اللتين استولتا على عقله . ومضى يتسائل تسأول
الخيران هل حقاً أن ذلك الشاب الذى رآه منتصباً
كالطود على منصة الخطابة عليل سقيم ؟ وهل حقاً
أن مرضين ويولين يهددان شبابيه الفص بالقبول
والعناء ؟ وهل حقاً أنه مضطر إلى الزهد الأبدى
فى أطيب الطعام وللشراب ليدفع عن نفسه غائلة
الهلاك ولا ضحلال ؟ ولن خلق نعيم الدنيا إذن مادام
يمز على الفقير ويؤذى الغنى للقادر ؟ ... أياكون
وهو الضعيف التهاك الذى لا يستطيع أن يتق
شراً أو يدفع بلية أصح منه بدناً وأكل عافية
وأهناً حياة .

إنه على أى حال لا يشكو مرضاً ولا يعاني من
الدواء وألم الحقن . نعم إنه لا يستطيع أن يأكل

ما تشهيه نفسه ولكنه يتناول يوم الجمعة ما لا يستطيع أن يذوقه البك الوجيه إلا ويعرض نفسه لشر المرض وغدره . وقد تناح له فرص سعيدة فيدعى مع موظفي النيابة إلى ولائم ذخرة لمناسبات الترقى والملاوات فيأكل بشهوة نهمة ويشرب بشراهة مفترسة غير متحرج ولا خائف حتى ينتفخ بطنه ويفقد النطق والقدرة على الحركة .

ياغبيا ! فما فائدة المال ؟ .. كيف لا يبق صاحبه شر المرض والخاوف ؟ ... وكيف لا يشفيه إذا أصابه سوء ؟ .. كيف ينمل حزن من أحزان الدنيا إلى بيت تمر خزائنه الذهب والفضة ؟ ...

على أن ذلك جميعه بدا لناظره قافها إلى جانب المعجبية الأخرى التي يدل عليها الخطاب الثاني وتساءل في تهيّب وخوف وعدم تصديق ترى هل يفرق شقاق بين قلبي الوجيه الثرى والغادة الحسنة التي رآها تخطر إلى جانبه كملك كريم ؟ .. ياله من تساؤل سخيف بعيد عن التصور . ومع ذلك فما الذى يدل عليه خطاب الأم الثانى ؟ ... رباه .. أى شيطان ما كراستطاع أن يسمى بالفساد بين هذين المخلوقين الجميلين ؟ ... أيطمع البك فى امرأة تفوق زوجه حسنا وجمالا ؟ . أم تتوهم الزوجة أنه يوجد بين الرجال من يفوق زوجها شبابا وثراء ومكانة ؟ .. فما الذى عكر صفوح حياتهما وجعل البك يجأ بالشكوى ويصارح أمه بأن التوفيق أصبح مستحيلا ؟ ما الذى جعل البك المجنون يتمنى للمقر الذى لا يفقه معناه ويزهد فى ماله وجاهه ؟ ..

واشتدت به الحيرة وغلبه القهر ومضى يضرب أخماسا لأسداس ... ترى أيهما المستول عن هذا الشقاء الزوج أم الزوجة ؟ ... أليس الظاهر من

شكوى البك أن الزوجة هى المتعجبة عليه ؟ .. فهل جنت هذه الشابة الحسنة فهي لا تبصر ولا تنقل ؟ كيف لا تحب هذا الشاب الكامل ؟ . وإذا لم تحب محبة بك المتباوى فمن عسى أن تحب من الرجال ؟ .. وبدأت له هذه الأسئلة التى يراها المجرمون غاية فى التفاهة والابتذال ألغازاً مستعصية على كل حل ومجائب خارقة تعدل المعجزات ، وتوهم عقله المريض الذى أنهكه الحرمان أن هذه الحقائق دليل على الانتقام الالهى من الأغنياء . فالدنيا تعطيم مالا وجاهاً والله يسومهم سوء العذاب والمرض ، ولكن لماذا لم يصف الفقراء من خيرية الشقاء والمذاب ؟ ومهما يكن من الأمر فإن عبد الرحيم لم يشمر نحو غريمه بشيء من الرحمة أو الرثاء ، وعلى العكس من هذا وجد فى شقائه شقاء لحقده وسخيمته وعزاء عن حرمانه وقهره ...

وقد التقى فى ذلك الوقت بالشيخ ابراهيم سليم فأفضى إليه بالسر الرهيب وقال له دهشاً وهو يضرب كفاً بكف :

— أنظر يا أستاذ إلى عجائب الدنيا ! ولكن للشيخ ابراهيم هز رأسه استهانة وقال برزائته المهدودة :

— ألم تسمع يا بني بالقول الحكيم : (لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع) وهأنت ذا تطلع على خبيثة أكبر الناس حظاً من حسد الناس فكيف تجده أحق بالرثاء منى ومنك ... أليس كذلك ؟ فتطلب طبع الشاب المريض عليه وقال بمحبة :

— كلا يا شيخ ابراهيم . لست أقل منه شكوى أو شقاء . بل إن شقائه يهونه السال أما شقائى فلا يهونه شيء ، أتقول اخترتم الواقع ؟ ... كيف

أختار الواقع إذا كان يبسط أمانى مستقبلًا مظلمًا
تافهاً وفقراً مدقماً ويضع على عاتق أباً شيخاً وعشر
أخوات وعمتين ؟

فقال الشيخ :

— إن الله لا يذسى مخلوقاته : ألا ترى أنه يرزق
الطير على غصون الشجر وبطم النمل في سراديب
الأرض ؟

— أرى حقاً أن النمل يجد رزقه سائناً ،
أما عبد الرحيم جاد الكاتب بنبابة الدنيا الأهلية
فلا يذوق اللحم إلا يوماً واحداً في الأسبوع ،
وأصبحت الطعمية تأكل ممدتي وليس ممدتي
التي تأكلها

فقال الشيخ بلهجته المأدبة :

— القناعة ملاذ المؤمنين

— إنا جميعاً مؤمنون ولكننا لانفى عن الشكوى .
الكل يشكو ويشقى . والظاهر أن الدنيا هي أصل
البلاء . وكأنى بها تطرب لأفات الشكوى والألم
فهز الشيخ سليم رأسه بقوة وقال بحدة :

— من أخطر الأخطاء التي ترتكبها أن نعلم
الشيء بغير أسبابه الحقيقية فنخلق لأنفسنا مشكلاً
غير قابل للحل ومستعصياً على العلاج ، ومثل اتهامك
الساذج هذا للدنيا مثل اتهام الموام للشيطان أو للمعين
الحاسدة أو لتناول اللبن والسمك يوم الأربعاء .
ما ذنب الدنيا ؟ هل الدنيا هي التي جعلت النياوى بك
يفرط في الأكل والشراب والاستهتار حتى وقع
فريسة للأمراض ؟ أم هي نفسه الأمانة بالسوء ؟
الإنسان هو السبب الجوهرى في إسعاد نفسه
أو شقاءها ... أنظر إلى " يا بنى . أنا إنسان سعيد
لا يعرف الشكوى ، وقديماً خبرت حالى بمين فاحصة

وقلت لنفسي جاداً : حرى بمن كان حاله كحالى ألا يأكل
إلا كذا من الطعام وألا يرتدى إلا كيت وكيت
من الثياب وأن تقتصر ملاهيه على هذا وذاك من
الملاهى البريئة . وانبعت نظاماً دقيقاً لا أحيد عنه
ولا أنطاع إلى سواء حتى أنه لا يوجد من الطعام
في الدنيا إلا ما آكله ، ولا من الثياب إلا ما أرتديه
ولا من الملاهى إلا ما أتلهى به . فلم أرمق بعين الحسد
من فضلهم الله على بالآلاء والنعم وتمزيت بذكر من
فضلى الله عليهم فقدر لهم حظاً دون حظى وعشت
حياتى قائماً سعيداً لا بنى لسانى عن الشكر والحمد .
ولكل حياة سعادة توافعها يستطيع الإنسان أن يفوز
بها إذا راض نفسه على الرضاء والقنوع وسداد
النظر . ولو أنى تركت نفسى تهيم في وديان الأمانى
والأحلام الخلب لأضلتنى شقاء وشكوى ولم تجدنى
شكواى شيئاً ... فقال عبد الرحيم بتمرد جامع :

« إذا كانت هذه هي القناعة فهي الموت . وأنا
لا أدري ماذا كان يكون حال الدنيا لو آمنت بمحكمتك
هذه . هل كانت تكتشف أمريكا ؟ هل كانت تستغل
الناسجم وتستثمر الأراضى ؟ ... هل كانت تقوم
الثورات وتخلق المبادئ والأنظمة ؟ .. هل أستطيع
بالقناعة أن آكل ما تشتهي نفسي ، وأن أسعد
أخواتى وأبى ، وأن أشقى في أسوان وأصطاف في
الاسكندرية ... وأن أتزوج امرأة حسناء وأخلف
بنين وبنات .. ؟ هل السعادة أن أقنع نفسي بأنه
لا يوجد طعام في الدنيا سوى الطعمية والفول
الدمس ... وأنه لا توجد بها ثياب إلا هذه البذلة
للقدرة المهلهلة ... وأنه لم تر فيها نساء قط ؟ ... »

فضحك الشيخ إبراهيم وقال :

« المسألة قناعة أو لا قناعة . والذي لا يقنع

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائف

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي الملاء إنه عارض به القرآن . ظل
طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زغاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

لا يقنع ولوم ملك الدنيا . فكما يشكو عبدالرحيم أفندي
يشكو محمد بك النياوى . وإذا كان ذلك كذلك
فما جدوى للتخير ؟ ... أراك تهم بالاعتراض على ..
مهلاً فقد وجبت صلاة العصر وليس لدى منسج
من الوقت ولن أقول لك إلا كلمة واحدة : إذا
استطعت أن تحول التراب إلى ذهب كأبناء أمريكا
فافعل .. وإلا فاقنع . هل تجد سبيلاً غير هذين ؟ ...
ولكنه لا يستطيع أن يحول التراب إلى ذهب ،
ولا يستطيع أن يقنع ويرضى . وهل كان محمد بك
النياوى حول التراب إلى ذهب ؟ وهل في مصر
كلها من حول تراباً إلى ذهب ؟ ... ومع هذا فيها
من يتقلب على الذهب وأغلبها يبرخ في التراب .
ما ذنبه أن يكون هذا نصيبه من الدنيا ؟ ...

وانتهى التحقيق في جريمة الصراف بالقبض
عليه كما يذكر القراء . واستدعى رئيس نيابة
النيابة حضرة صاحب العزة محمد بك النياوى ليخبره
بما اتخذته النيابة نحوه من الاجراءات السرية ،
وحضر الوجهه إلى دار النيابة فرآه عبدالرحيم للمرة
الثالثة ؛ ولكنه لم ينظر إليه هذه المرة بالمعنى الذى
نظر إليه بها في المرتين السابقتين . نعم لم يزل يعبه
عدوؤه ، ولكنه عدو حقيق بالرأى على أية حال .
وقد ابتسم لمراه ابتسامة ساخرة كأنه يقول له لانت
صعباً ، ولا تنمش في الأرض مرشحاً ، فأنا أعلم بما
وراء هذا الحسن والشباب من البلاء والشقاء

آه لو يتكاشف الناس ! ... آه لو تعلن سرائرهم
للأعين كوجوههم وثيابهم ! ... ألا يبدون حينذاك
كالعوبة بائسة ؟ ...

ولكن ما عسى أن تكون اليد التى تلعب بهم
على هذا الوجه المزرى ؟ من الذى يحمل تبعه هذا
السخف المحزن .. الدنيا كما ظن هو ، أم الانسان نفسه
كما يظن الشيخ ابراهيم ؟ ... يجب محفوظ

من مضاجعته . ولما قامت
زوجتي في الأمر تهلل وجهها
وقالت :

— يا لها من فرصة سانحة

تجمع بيني وبين مستر هولز
وما أطيب الأيام تقضيها في كنفه
على شاطئ البحر . وفي الساعة
الثامنة من صباح السبت التاسع

من شهر فبراير سنة ١٨٩٠ قصدت إلى مكتب
شركة الأسفار في بوند ستريت فتقاضينا التذاكر
وأجازات الرحيل لمركبة اللزوم والطعام . وبعد الظهر
بساعة واحدة تحرك بنا القطار من محطة تشانج
كروس . وعند الساعة الرابعة اتقلنا إلى باخرة
الغزال الانجليزي فتناولنا الشاي قبل أن نطأ أقدامنا
أرض فرنسا في ميناء بولوني ، وكان القطار السريع
ينتظر الركاب على إفريز الميناء فتبوأنا مقاعدنا في
عربة عريضة مديدة مكتوب عليها بالخط الكبير
بولوني سيرمير — نيس ومونت كارلو . فصرخت
زوجتي صرخة صغيرة تدل على الفرح وقالت : هالو
يا زوجي العزيز ! قد آن الأوان أن نقضى أجازة
تموض علينا شهر العسل الذي لم تتح لنا الأيام فرصته
فابتسم هولز وقال : ويل للشجى من الخلى !
ما أسهل ما تلتبس المرأة أسباب السعادة وقال :
الغاية الأولى الاستراحة والاستجمام وشهر العسل
يأتي مؤجلاً . بيد أنني لا أرى لذة في شهر العسل
بعد مولد الطفل الأول ، إنما تكون لذة للمروسين
خالبي للبال

فضحكت وقلت له :

— من يسمعك تحكي هذا القول يعتقد أنك

غرفة الجرائد البريطانية

للكاتب الإنجليزي سير آرثر كونان دويل
يقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

روى الدكتور وطسن قال :

كان لحادث الهندي أثر عميق في نفس هولز
فقد ساق رجلاً وامرأة إلى المشقة على أهون سبيل ،
ولم نمد نرى الوالد المتكول بمد تأدية شهادته في
محكمة أولد بيلي . وقد طلب هولز من القضاة أن
يقبلوا الرض لاسمه بحرق الكاف والماء أمام الجمهور
وأن يكتبوا بتقرير كتاب بدل الشهادة للشفوية
المسبوقه بالقسم التي يحتمها القانون ، ولكن مخبري
الصحف لم تفهم حقيقة الأمر ولم تخف عنهم خافية ،
فذكروا في جرائدهم أن بطل هذه المأساة هو مستر
شرلوك هولز نفسه كالمادة ؛ وقد بزر رجال الشرطة
الرسمية ولكنهم في النهاية يمحصدون ثمرات جهوده ،
لأنه يحب الاستخفاء كغيره من الهواة . فقال لي
هولز : خير لنا أن نقضى بضعة أيام في ريميرا ،
وهو شاطئ الذهب ومشتى الأعيان والسراة في
جنوب فرنسا ، استجماماً وفراراً من هجوم جيش
من طالبى الفتيا وهواة الاستشارة . فأبدت له
مماذيرى وتلكأت في إجابته متملاً بزوجتي وطفلي
الذي ما زال في الهد رضيعاً ، ولكنه لم يأبه لقولى
وقدم لي شيكا دسماً قائلاً : « هذا لتوظيف طبيب
ممتاز يحل محلك في عيادتك » فملت أن لا مناص

السبعين إلى وقتنا هذا ، فإن الحرب الحاضرة بين مولداقيا وزيندانا قيا مقدمة لحروب أخرى سيرها العالم ويخوض غمارها وهذه الحروب كلها ستكون أسلحتها الماضية وسائل التجسس .

قلت : مصلحة الأخبار (١)

فضحك هولز وأشار لزوجتي وخادمتي بالانصراف بمد أن شربتا الشاي وأكنا الكعك والخبز التمديد الموه بالزبدة والمربي

وقال لي : سمها ما شئت ، ولكن اعلم أنني أنا الذي أسست هذا العمل الضخم ورسمت خطته ، فأخذوا في تنفيذه بمخاديفه دون أن يستشيروني في وسائل التنفيذ . ومن هنا

فبدت علي علامة الدهشة ، لأنني لم ألحظ في أثناء احتكاكي به أنه تدخل في النشاط السياسي ، ولم يكن يصير حرب مولدوفيا ضد زيندانا قيا أقل اهتمام فقال لي :

— أيد هتشك ذلك يا وطني ؟

قلت : لا ، ليس ثمة ما يدعو إلى العجب من ذلك ، فإن من له ذكاؤك وخبرتك يستطيع أن يفعل ما فعلت دون عناء أو مشقة . ولكن أين للشخص الذي تتوافر له الفطنة والخبرة . فإن رجالاً مثل آشندين وكروسوبل وجراسفام جديرون بأن يكونوا تلاميذك ، والآن فقط أدركت سر عجزهم وابتغاف أوداجهم فإنهم يسرحون ويمرحون على شهرة خطة أنت مديرها وسبيل عيبتها لهم . فقال هولز :

— الواقع أن شيئاً لم يستعمل علي في بلوغ غايتي ... وأثناء دراستي حكمت أجمع المعلومات الخاصة بوسائل التجسس المولدوفي والمجروسوفاني

خبير بنظم الزواج وطبائع النساء . وكنا قد اتخذنا مقاعدنا في مركبة المائدة ، بمد أن كافنا حارس القطار بتصنيف أمتعتنا في أمانا كنها . وطلب هولز إلى النادل أن يحضر قناني المياه المعدنية التي يشربها ثم أمر لنا بالشاي ، وكان شديد العناية بمس جولدز هامر مربية طفلي الصغير . وكانت ألمانية غضة بضعة حراء الوجنتين كأنها تحمل على خديها وردتين من ورود الربيع فأطلق عليها هولز اسماً جديداً يدعيها به وهو : « فراولان بروز » فسرت بهذا الاسم كثيراً وسألته إن كان يتكلم الألمانية ، وكانت خادى هذه من البساطة بمكان عظيم ، فقال هولز لها وهو يتسم : « بضع كلمات لقفتها من أفواه الناطقين بها » ثم سكت برهة وقال لي :

— أتذكرها يا وطني ؟

وكان لا يذكر ضمير المؤنث الغائب إلا وهو يقصد إليها : إلى السيدة جوز بند أدلر ، بطلة تلك المغامرة العريقة وهي فضيحة في بوهيميا . وعند ما نطق باسمها لحق في عينيه برقاً عجبياً ، حتى لقد سألت نفسي : هل تركت تلك المرأة في نفسه أثراً . وهل كان يحبها لو أن الحب مما قسم له في هذه الدنيا ؟ هذا ما لم أستطع الجواب عليه . كان هولز يبدو لي ذا شخصية غامضة كل الغموض ولا يظهر منه إلا ذكاؤه الخارق كأنه مصباح نافذ الضوء في وسط الضباب . فقلت له : نعم ومن ينس تلك المرأة ، يحرم نفسه أجل ذكرى وأوقمها وأبقاها

فقال هولز : إن فضائلها على في هوايتي أعمق أثراً من جمالها أو حشكتها أو سعة حيلتها أو دقيق فكرها ، فلولاها لم أكن لأنصل بتلك الدوائر السياسية التي كان لها الشأن الأول منذ حرب

وكان القطار السريع يظوى سهول فرنسا ووديانها ويخترق الحقول والبطاح ويصمد في الجبال ويمر خلال الأنفاق وينساب تارة كالأنفوان وطوراً يندفع كالسيل التهمر . ونحن من هذه المركبات الفسيحة في نعمة لا يقدرها إلا القليل من أهل الفطنة ، فهنا مجلسك ومطعمك ومنمك ومشربك ومغناك على مجل يتحرك ويدور بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة الواحدة

وكان القطار يقف في المحطات الكبرى دقائق معدودة . وعند ما يبلغ محطة كبرى مثل ديجون أوليون يترى هواز فلا يبدو لأحد ، ثم أراه يصعد فجأة قبيل تحرك القطار بقليل ولا أسأله عن مكانه أو مسرحه أثناء وقفة القطار . ولما كانت الساعة التاسعة تناولنا طعام العشاء وعلمنا أن القطار يبلغ ثغر مرسيليا عند الفجر ثم يمرج على ثغر طولون الحربي ، وكان هذا الحصن البحري مغلقاً من الجانب الشمالي فلا تطأ قدم المدينين بسبب الأعمال الحربية للقاعة على ساق وقدم .

ولم يكن ثغر طولون أو صرفاً بونابرت أو حياض الأسلحة والتعويض الموهلة التي بناها مهندسون بحربون من فرنسا وإنجلترا هي التي تهمني في تلك اللحظة ، ولكن الذي كان يهمني زيارة مونتكارلو وكان أنيس في صحبة امرأتى ونجاتنا نحن وطفلتنا الصغير من أهوال البرد الفارس في إنجلترا أثناء هذا الفصل الشديد الرطوبة والضبباب ...

وأيضاً ... وهذه مسألة أخجل من ذكرها ، فضلاً عن تدوينها ... تجريب حظي على مائدة اللعب في مونتكارلو ... فنحن الأطباء نعلم أن المغامرة أظهر معالم الحظ في الحياة . وهي تتفق (٤)

ووجدت السبل إلى إحاطة إدارة المخابرات في لندن وباريس ببعض المعلومات المهمة في أوقات متعاقبة فقلت : أ. كبر للظن أن فرنسا وإنجلترا والجمهورية الأمريكية أفادتا من وسائلك

قال هولز : نعم ، ولكن ليس هذا الذي يكرهني ويكرهني في الوقت الحاضر ، وإنما الذي يكرهني انتقال ذلك الداهية الشديد الخطر ، الذي يعتبر الحياة رقعة شطرنج بيادقها وقلاعها وفيلها ملوك الأرض وسواس الدول

قلت : أتقصد إلى البروفسور موريارتى ؟

قال : هو بنفسه فإن هذا الرجل لا وطن له ولا دين ولا ملة ولا عقيدة ولا ضمير وقد باع نفسه لأعدائنا بنصف مليون جنيه ذهباً تسلمها عدداً وتقدأ وسمح له بأجازة حتى تمكن من إخفائها في مكان مجهول ، ثم عاد واتقطع إلى محاربتنا بمقله قلت لهواز : وعلام استقر رأيك ؟

قال : لقد استقر رأيي على إحباط مناورته مهما كلفني ذلك من جهد . غير أني أدركت أنه لكي أتبعه إلى بلاد الأعداء يجب على أن أخترق فرنسا من شمالها إلى جنوبها

قلت : إن هذه المطاردة هي الأولى من نوعها ، لأنك خبرتني من قبل أنك لن تمكن هذا الوغد من مقارنة مواهبه بمواهبك

فقال هولز : صدقت يا وطني ولكن هذا الشيطان ضرود بأوراق تكفل له مخادعة رجال المخابرات المربية الإنجليزية والفرنسية وقد وفق في اختيار الاسم الذي انتحل لشخصيته الجديدة فضلاً عن أنه يبدو للناس متواضعاً ، رضى الخلق ، مثقفاً لا تفارق الابتسامة شفثيه الدقيقتين حتى في أخرج المواقف ...

وصنعتنا اتفاقاً تاماً . فان صنعتنا حظ وحذر وكذلك المقامرة . ولكن مالى أراى قد اندفعت فى تسجيل خواطرى ؟

عند الفجر بلغنا مرسيليا وعند الظهر كنا فى مرفأ أنتيب وهو ركن من جنة الفردوس فى وسط الشتاء . واتخذنا موطناً مؤقتاً ، وموتلا فى فندق « جرانداوتيل ريش » وفى الحق أنى شديد الدهر من أسماء هذه الفنادق التى تدور على المظلة والثراء وتبعد عن البساطة التى تتبعها فى تسمية فنادقنا الطيبة الهادئة . وكانت شرفات ذلك الفندق للفخم الفنى تطل على البحر بطبيعة الحال ، كما أن له بستاناً نخلاً فى جنوب البناء فيه لفائف الأشجار وبدائع الأزهار ولذائد الثمار .

وفى الليلة الثانية استأذنته فى السفر إلى مونتكارلو فاستمهلنى يوماً وليلة .

وقد لقيتـه فى إحدى شرفات الفندق المطلـة على البحر وكان متكئاً بمرفقيه على حاجز الشرفة وقد تجلت فى عينيه نظرة لامة وإن كانت ساهمة بما دلنى على أنه مستغرق للتفكير ، وظل ينقل بصره بين صفحة النساء ووجه النساء الذى زينته العناية بأضواء ومصاييح كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجب .

وقد هالنى وآلنى أن يقضى هذا الرجل العجيب خيائه بعيداً عن عواطف الحنان والرحمة التى يمكن أن تسبها على قلبه الكليم امرأة مخلصـة ودود ، ولكن أنى لى أن أعبر له عن إخلاصى وحبى إياه ورغبتي فى إسعاده ؟ لقد خيل إلى أنه يشمر بالخوف ، لا من الموت ولا من المرض أو الفاقة ، ولكن خشية أن يدمه القدر قبل أن تحين الساعة الرهيبة

التي يتاهف عليها ، تلك الساعة التى يقضى فيها على الرجل الذى باع دينه وشرفه وعقله ليبيع وطنه للأعداء . لقد خيل إلى أن هذا كل ما يطلبه هواز من الحياة ، فإذا تحقق هذا المطلب فليكن بعد ما هو كائن . لم يكن حب الوطن وحده ، أو مقاومة الشر أو رغبة الانتصار على خصم قوى عنيد هى التى تحركه ، بقدر ما كان هواه فى تخليص الانسانية من ذلك العقل المجرد الذى يلبس الشر ثوباً محكماً على أجزائه .

وفى صباح اليوم التالى قامت مستر هواز فى رغبتي ، ولشد ما دهشت عندما علمت أنه هو أيضاً يرغب فى مشاهدة مونتكارلو وذلك «الكازينو» الفخم الذى يزينها . وكانت الشقة بين أنتيب وعاصمة موناكو ضئيلة . وكان هواز قد احتجز لنا بالتلفون مائدة فى البهو البلورى الذى نسقته يد الأفاقة والبذخ أجل تنسيق . وكان هواز بعيد الفراغ من المشاء يجوس خلال المقاعات الارجوانية الفخمة التى مدت فيها موائد اللعب الخضراء . وللمرة الأولى وجدته مستغفياً فى زى كونت إيطالى بلحية كثة مستطيلة ومرعان ما التف حوله فريق من بنى جلده المزعومة كان يتحدث إليهم بلهتهم بفصاحة نادرة . وكانت زوجتي قد أتقنت تلك اللغة فى أوقات الفراغ .. وفجأة شق تلك الصفوف رجل قصير القامة عريض المنكبين وأخذ يتكلم بالفرنسية الفصحى للفيف من السيدات والفتيان الذين جاءوا ليقضوا إجازة آخر العام وقد أصغيت إليه وتخلت عن الحلقة التى كان يقف حولها هواز فقال :

« إذا حدثتكم أنفسكم باستغلال شهرتكم أو ثروتكم والتوسل بها لأغراضكم الشخصية وشهواتكم البدنية

المادية ، فالويل للإنسانية منكم والويل للحقيقة من
شعوركم والويل لأبطال الرأفة والرحمة والعدل
والخلق الكريم من خيانتكم ونكرانكم وجحودكم
ستكون أحسابكم وأنسابكم وأسماؤكم أكبر مساعد
لكم على خداع السذج ومضاعفة الأغلال في أعناقهم.
لقد أدهشكم أن تجدوا الناس والمجتمعات تسير على
نظم تخالف ما تفرضه الفضيلة فلا يأخذكم المعجب
لأن السلطان لا يزال بأيدي المشعوذين والدجالين .
وفي الوقت الذي يسيطر العلماء المتخصصون على
القوى التي تدير العالم ستحل مشا كل كثيرة .
ستجدون أناساً يصفون الأبيض بالسواد والأسود
بالبياض وآخرين يعبدون الجبروت والظلمة
ويحتقرون من تملأ قلوبهم عواطف الرحمة والحنان
وينمتونهم بأهل الخيال والسخف . ستجدون
لصوصاً ينحني الناس أمامهم خوفاً لا لاحترام ،
وقد يقدمون شرفهم وضائرتهم وكرامتهم لتداس
بالأقدام ، ومثل هؤلاء كمثل الجندي الذي يتسلم
السلاح والعتاد للدفاع عن وطنه فإذا ما اتى كفة
العدو هي الراجحة انضم إلى المنتصرين وسدد نار
سلاحه إلى قلوب بني وطنه وأهل جنسه

وفي تلك اللحظة كان الكونت كاسيان أو كاسيني
يقرب من حلقتهما شيئاً فشيئاً وهو يصنى إلى كلام
الرجل .

ثم استدردت لحظة واتجهت نحو المائدة الوسطى
المستطيلة وهي التي عليها لعبة الروليت الشهيرة وكان
« الكروبييه » وهو الموظف الموكل إليه حصاد
المال وتوزيعه بين اللاعبين يقول : لا شيء ينزل إلى
المائدة، لقد تمت الصفقة . ادفموا نقودكم ورسوها
رساً قبل الختام . فسمت خلفي صوتاً ناعماً يقول :

ليس في اللعب . ليس من أسوئه : وآخر يقول : عليك
أن تطير وتنغذي ! ليس من شاك أو شاتي
أن نجادل

ورأيت الكونت كاسيان يشق الصفوف ويهمس
في أذني : خذ حذرك من الظلام . ولم يكذب ينطق بهذه
الألفاظ حتى أطفئت الأنوار فجاء ولم يبق في الغرفة
ضوء تقاب ، وساد المهرج خطوات إلى اليمين خطوة
وقبضت على يد زوجتي وسحبها متقهقراً وإذا
بصوت يدوي كالرعد :

— لقد خاطرت بحياتك يا موريارتي وخطأت
بين الخيانة في السياسة وبين سرقة قطاع الطريق .
هل قبضت عليه يا جريفيين ؟ لقد سهلت الأمر لكم .
واختلطت أصوات النساء بأصوات الرجال وسمعنا
طلقات الرصاص في الظلام وتحطيم مرآة كبري ،
واستغاثة وضعيفاً ، وقد أخذت حذري كما نبت منذ
هنية وقادتنى الغريزة وزوجتي إلى باب الخروج
بعد أن اصطدمنا مرتين أو ثلاثاً في عمود من الممر
الوردي أو في مقعد مقلوب كدنا تنثر فيه ، لولا
أن الله سلم . وكانت ساحة الكازينو الكبير هي
الأخرى مظلمة ، ولكن نجدة المشاغل قد وصلت
إلينا فخرجنا جميعاً صاخبين صارخين وقد سلبت
النساء حلين والرجال نقودهم وبعض أسلحتهم ،
وكان بودي أن أفدى هولز بحياتي لو أمكنني
الاهتداء إليه وقد تبينت كل ذوى اللحي فلم أله
بينهم ولم يكن يخيفني شيء عليه بقدر اللندر . فإن
موريارتي وأعوانه لا يترددون في أن يوردوه الردي
بخنجر خائن أو وخزة دبوس مسموم ، وقد حشدنا
جميعاً في بهو المطعم الكبير ولم نستطع حركة وبقينا
زهن تحقيق البوليس

يزدهى في « ثوب المساء » المحكم التطريز ، المحبوك
الأطراف

ولم تكده عينه تقع على حتى قال :
لقد كانت غزوة موقفة ، فقد البنك أثناءها
مليونى فرنك ، وفقد النساء نصف حلين ، والرجال
بمض أموالهم . ثم ضحك ضحكة عالية . أما نحن فقد
خسرنا موريارتى ، ولم تتمكن من القبض عليه ، وإن
كنا قد سمعنا صوته واعظاً .

فقلت : وماذا نكسب إذا خسرنا موريارتى ؟
أجاب وهو يتشم ابتسامة هريضة حلوة :
لقد كسبنا غزو بلاد إنجلترا واسكوتلاندا
وإيرلاندا بلاد الغال . وأخرج من جيبه خريطة
ملونة ونشرها على المائدة . وقال :

والذى يفرحنى وأغتبط له أن هذه الخريطة مفردة
وقد احتوت على مفتاح الشفرة ، فلا محتاج لعناء حل
رموزها ، لقد أعدها موريارتى فى خلاصة دراسة
عشرين عاماً وتجسس خمسة أعوام . خذها يا وطن
وسافر فوراً إلى لندن . إن لورد كراوبروك أوف
كاتورياج ينتظر فى دوننج ستريت وأبق زوجتك
معى وخادمتها كذلك ، وفى أثناء غيابك ... سيقبض
على أياماً معدودة ، ولم يكده ينتهى من حديثه
وأفرغ من طى الخريطة ووضعها فى أخفى مكان
فى ثيابى حتى تقدم إلينا أربعة من الشرطة وقال
أحدهم بلفسة مونتكاتيني : سنيورى أيكما سنيور
سارلوك هولمز؟ فأشار هولمز إلى وقال : أما أفاضل صاحب
دكتور وطن ، نخلوا سبيل وألقوا القبض عليه
وبعد عشرين ساعة كانت خريطة الغزوة
للبريطانية فى إحدى خزان وزارة الحرية وقد
اجتمع الوزراء لدراستها وفحصها .

محمد لطفي حمدة

وفى للصباح خرجنا من اللهبو مبليين ممزقين
مهلين ، ومشينا إلى فناء الكازينو بخطى متثاقلة .
وكان الفناء ينص بزائرى الكازينو الذين أطفئت
عليهم الأنوار وسلبت تقودهم ورأيت ضباط البوليس
للسرى وهم يستجوبونهم فرداً فرداً بينما كان مدير
الكازينو وحصاد المال « كروبييه » عند الباب
الكبير ينتظرون الأوامر

وكان من المبعث أن يرفض أحد اللاجئين الإجابة
عما يلقى إليه من الأسئلة أو الامتناع عن تقديم
« جيوبه » أو حقيبة اليد للتفتيش والفحص الدقيق
وإبراز الوثائق الخاصة بتعقيق شخصيته ومركزه
الاجتماعى وماضيه وعمله فى الحاضر وما يترجم للقيام
به فى المستقبل ، وكان أى تردد أو تلمس أو ارتباك
كافياً لأن يسيد أحدنا إلى المظلم مقبوضاً عليه . لم أدم
فى حياتى على شيء ندى على موافقتى على اقتراح
هولز فى مصاحبته إلى شاطئ ريشيرا . وكان الذى
يهمنى أكثر من كل شيء خوفاً على أعصاب
زوجتى من الاختلال فقد تمزق نياط قلبى من الظلام
والخوف . وقلق للبال على هولز الذى انتقدته ...
وقبل الظاهر وصلنا إلى الفندق ونحن بحال من
الاهياء لا مثيل لها . ولكن كان همى الأول أن
أعلم ماذا حل بهولز الذى سمعت صوته بلا ريب
وكان متزياً بزي الكونت كاسيان .

أما زوجتى فقد لُزمت الفراش علية مما أصابها
من الانزعاج وبليلة الخاطر .

وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم دق
تليفون الغرفة التى تقطنها زوجتى وأنا ، وإذا بهولز
يستبلى حركتنا فى مؤاكلته على مائدة المشاء .
قلبنا دعوته مبتهجين . فألفينا حليفاً معطراً منظاً

الابن الشاكك

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

مسحة من الشقاء والبؤس
لأنها تمضي في سبيل حياتها دون
أمل أو رجاء . ولكم سرحت له
أنها على استعداد للتنازل عن أعز
ما تملك مقابل أن تنجب طفلاً ..
ولكن الأبناء — وبالأسف —
لا يشترون بالمال ، وإلا لما استطاع

العامل الفقير أن يرى حوله عدداً كبيراً من الأبناء .
إنهم هبة الله ونعمته يوليهما من يشاء من عباده
ثم رفع فتحي وجهه إلى أعلى وتتم في حرارة
وإخلاص :

— اللهم هب لها من عندك طفلاً
وظل ينظر إلى أعلى فترة طويلة كأنما أحس
الراحة في الاتجاه إلى الله في هذا المطلب الذي خرج
تحقيقه عن طوقه وقوته . ثم أخذ يخفض بصره
رويداً رويداً حتى وقع على زوجته ، فلمح الدموع
تساقط من عينيها ، ففاض قلبه بين جنبيه وهتف
وهو يفادر مكانه إليها :

— سميرة !
وجثا تحت قدميها ثم رفع وجهها المخضل
بالدموع وقال :

— أتبيكين يا سميرة ... ؟ أنت مجنونة ؟
فحلت وجهها عنه كأنما أخجلها تساقط دموعها
ثم مسحت عينيها بمنديلها الموثى الصغير وقالت :

— لا شيء ... دعني ... دعني بربك
— إنني أعرف لماذا تبكين ، ولكن ماذا نفعل
ولا حيلة لنا في الأمر ؟
فالتفت إليه بسرعة وأنعمت فيه النظر لحظة
قصيرة ، ثم ابتسمت في تهكم وقالت :

... ومضى فتحي ينظر إلى زوجته نظرات
تفيض بالحنو والاشفاق وهي تجلس قبالة مطرقة
واجبة ... كأنها تحلق بروحها في أجواء هموم
وأشجان طوتها فجأة فأنستها زوجها الذي كان
يحادثها منذ لحظة ... وكانت في وضعها هذا برأسها
المستقر بين كفيها ، وشعرها الوحف المرسل ،
وجسدها اللدن اللين ؛ تبدو عند أهل الفن وحباً
صادقاً للجمال الحزين

كانت سميرة — وهذا اسمها — هي التي كفت
عن الحديث فجأة عند ما عرض اسم نبيل ابن
جيرانهم ، واسترسلت في أفكار تملكها فوراً ،
فتقلصت ملامح وجهها الساحر وارتمت عليه علامة
البأس الشديد

وقد احترم فتحي صمت زوجته إذ كان يدري
الواقع القاسي الذي زوجها فيه . كان يعلم أنه نكأ
الجرح الذي في صدرها بذكره اسم نبيل ابن
جيرانهم ، فقد لوّح لها بشيء هي محرومة منه ،
ونحس الشقاء والبؤس في هذا الحرمان

لقد كانت أميتها الوحيدة عقب أن بنى بها هي
أن ترزق طفلاً ؛ أما وقد انصرفت ثماني سنوات
على زواجها منه ولم تنسل ، فقد ضاعت آمالها
وانهارت أمانيتها ، لذلك كان يفتش وجهها الجليل

— ماذا نفعل ... ؟ أجل ماذا نفعل

كانت تعلم أنه فكر كما فكرت هي في أن يستند الأمر إلى طبيب ليرى أيهما المقيم ، بيد أنه لم يفعل بخافة الهزيمة . لقد استشفت منه هذا الاحساس من حديث لها في هذا الأمر . ولا ريب أنه محق في خوفه ، لأنها تحس إحساساً صادقاً بأنها كآبة امرأة أخرى فيها الاستعداد للانسال والنفت إليه فجأة وقالت :

— ومع ذلك ففي وسعنا أن نصنع شيئاً

— ماذا ؟

— لماذا لا أذهب إلى طبيب ليفحصني ، ومن

ثم يماجنى إذا كان المقيم منى ؟

وكان في جلتها تعريض بفتحي ، بيد أنه لم ينتبه

إليه إذ قال :

أخشى أن تذهب هذه المحاولة سدى . فاني أعلم

أن الأطباء لا يملكون — على رغم تهويلهم —

في ذلك الأمر شيئاً

وتوقف قليلاً ثم استطرد :

— وما يدريك ؟ لعل أنا السبب

فمادت سميرة إلى إطراقها ولم تجب

كانت سميرة تحس في نفسها فراغاً كبيراً لا يملأه

إلا وجود طفل لها يضيء حياتها الظلمة . أجل ،

لقد أحست فجأة وعقب أن هدأت نشوة حبها

ونجست شملة غرامها — بحياتها يتكاثف فيها الظلام

ويتوالد حتى أضحت قائمة مدلممة تتخبط فيها يائسة

القلب ، مقرحة الجفن . لقد أولاها الله من نعمته

كثيراً ، ولكنه حرما النسل والولد . ها هي ذى

ترفل في كل أسباب المتع واللذائذ لا ينقصها شيء

منها ؛ غير أنها تحس نقصاً هائلاً يتضاد إحساسها

بالنعم الذي هي فيه بجانب إحساسها بمذابح وآلامه .

لشد ما تتمنى أن يهوى بها الله من حائق هذا النعم

الرائل إلى حياة للفقر والعموز على أن يهبها نمياً غلداً ،

ابناً تتركه في هذه الحياة الدنيا قطعة منها بخلاها

على مر الأجيال والزمن ، ابناً يشع النور من بسمته

ويفيض الحنان من نظراته ... ماذا تفيد تلك الفرش

الثمينة والرياش الغالية وهذا البيت الجميل وتلك الحديقة

الفينانة التي تكتنفه ؟ ماذا يفيد كل ما هي فيه من

متاع مع هذا النقص الذي تحسه ؟ إنها تشمر

كأنها تعيش وسط صحراء قاحلة تضرب للظلمات

في جنباتها ، وأنها بعيدة عن عالم الحياة والنور .

إنها لا تدخل غرفة من غرف المنزل إلا تراها

قابضة موحشة خالية من الحياة والروح ، فتراها

تتلقت يمنة ويسرة كأنما تبحث عن شيء تفتقده

بجوارها ... ولا تسير في الحديقة حتى يتولاها

السأم والضجر ... ولا تقف أمام المرأة حتى ترى

جمالها الذي طالما غررها ، مجرداً من الروح كأنه

تمثال من الحجر الأصم . وأين روحها وهو محلق

في شروذ وراء أمنيئتها البعيدة ؟ بل إنها لترى أن

جمالها إن هو إلا كأموال البخيل التي يسره أن ينظر

إليها كل يوم دون أن يستثمرها وينميها ... تقص

وحرمان يقضان مضجعهما ويذهلان عقلاهما ويسببانهما

سوء الأفكار السود المدلمة

كانت بحياتها هذه تعيش مسلوكة للمقل عازبة

اللب ، تعيش بجسدها الآلى كما تعيش الوبى والألاعيب

وما كانت يتفكرها من عذاب هذا التفكير

إلا التريض سائرة إلى بيت صديقتها (زاهية) تبثها

شجنها وتنفت إليها خبيثة نفسها وقد تسكب

وبترت جلثها إذ لمحت ملامح صديقتها تنقلص
ويتغشاها الحزن العميق . فأدركت خطأها في الانقضاء
لها بالخبر على هذه الصورة السارة البهيجة .. وأحست
سميرة بآلم هائل يحز في نفسها ... بيد أنها تماثلت
نفسها بجهد واسطعنت الابتسام ثم سارت بجوار
زاهية إلى غرفة الاستقبال . تنسأها الهواجس
والأفكار .. لقد جاءت لتنسى همومها قليلاً فصددها
محرك قاس أثار عواصف قلبها الهوجاء ... وقالت
في نفسها : « لم يارب هذا المذاب ؟ .. لم خصصتني
بهذا الحرمان القاسي الشديد ؟ .. كل من حولي من
النساء ينجبن قرة أعين ... أما أنا ؟ ... آه ! ... »
وكانت زفرة حارة انشق عنها صدرها الجياش لم تخف
على زاهية فأطرقت خجلى من تصرفها إزاء صديقتها
المحرومة

وأحست سميرة بالجلسة يسودها التكاف البغيض
حيناً والصمت الثقيل حيناً ، فاستأذنت ثم غادرت
دار صديقتها ، وسارت تضرب في الطرقات ذاهلة
على غير هدى ، وراحت تتفكر في حياتها المحرومة
وهي في سيرها البطيء المتثد

وانتهت من أفكارها الطاغية المستبدة على
صوت يهمس في أذنيها كلمات لم تتيينها فاستدارت
إلى التكلم فآلفته شاباً غريباً عنها ، فخدجته بنظرة
قاسية وقالت له :

— ماذا تبني ؟

— ماذا أبني ؟ لا شيء ... غاية الأمر أن
رأيتك تسيرين ذاهلة عن الطريق فأثرت أن أحادثك
قليلاً لأسترعى انتباهك الشارد وأعيد إليك ذهنك
للمازب

لم تجب سميرة وإنما أنعمت إليه النظر فوجدته

أمامها الدمع فيفرج عنها عقب هذا البكاء الهادي ،
وتنسى همومها قليلاً فتنتطلق هي والصديقة تتجاذبان
أطراف الحديث في مختلف الشئون

وكانت زاهية فتاة في ميمة الصبا وشرح
للشباب ، وقد تزوجت منذ بضعة شهور ، وكانت
في غمرة الحب الأولى ، لذلك كانت تسرى عن نفس
سميرة ما هي فيه من عذاب وشجن وتقبح لها ما وراء
تربية الأطفال من تعب وإرهاق ، وتعرض على نعمها
صوراً عديدة من تفرغ الزوجين لإشباع عواطفهما
الجياشة للنائرة بسيدتين عن جلبة الأبناء وهموم
تربيتهم ... وما كان مثل هذا الحديث ليلقى أذناً من
سميرة ، بل كانت تستمع إليه في ذهول وشروود ...
ثم تنخرط فجأة في البكاء

وعابت سميرة على نفسها أن تحمل زاهية همومها
وأشجانها وهي من نصيبها وحدها .. ومن يديرها ؟
لعلها هي الأخرى لا تنجب بنين فيكون بثها الحزن
والهم إيماء لها بالإقبال في الحزن والهم ... لذلك
راحت تقلل من زيارتها ، بل آلت على نفسها
ألا تزورها إلا إذا وثقت أنها تحررت من همومها
وأفكارها بعض التحرير ، أو أن في وسعها أن تتلم
بقناع صفيق من البشاشة والرح

وخرجت سميرة إلى صديقتها بعد أن غابت عنها
شهوراً برمتها فتلقتها زاهية بفرح عنيف تجلى في
حركاتها العصبية وضحكاتهما المضطربة . ودهشت
سميرة لحال صاحبتهما فقالت تشكاف البشاشة والرح :
— ما كل هذا الفرح يآري ؟ خير إن شاء الله !
فأجابتها زاهية بين الضحك والثنى :

— آه يا سميرة آه ... إن في أحشائي جنبناً ،
وعما قريب سأغدو ...

وأبقظها من أفكارها يد الشاب وهي توضع في رفق على ركبتيها فأجفلت إجمالا ، وانقبضت في ركن اللبنة وهي تنزع يده عنها ، فالتصق بها وراح يفرغ في أذنيها آياته التي يحفظها عن ظهر قلب .. ثم طوق خصرها بذراعه وهو ي على شفيتها لئلا وتقيلا

أوه ... ماذا تصنع ؟ ماذا تصنع ؟ أيمكنها أن تعترض ؟ إذن فلماذا ركبت معه ؟ لا ... إنها لا تستطيع أن تعترض ... ولكنها جريئة تلك التي تأتيها . يجب أن تبعد الشاب عنها وتطلب إليه النزول .. ولتصرخ إن أبي .. ولكن من ذا الذي سيستمع إلي مراحتها وها هي ذي اللبنة تطوى الأرض طيا ؟

وأحست بالضعف بين هذين العاملين اللذين يتجاذبانها فأنشأت تبكي في بؤس مرير ومضي الشاب يسرى عنها بقبلاته للهمة الجامعة ويهدئها بكلماته المنمقة المسولة حتى وقفت السيارة فأمسك يدها ودعاها إلى النزول ... ثم صعد بها بعد أن نقد السائق أجرته إلى أحد طوابق المبنى الذي وقفت أمامه السيارة

بعد ساعتين من ذلك كانت سميرة تدخل منزلها وهي تكاد لرؤوحها تحت عبء الائم الذي اقترفت أن تلطم خدما وتجنب شمرها ... كانت في حالة يأس هائل فأتجهت قدما إلى غرفتها وهي تتنعم : « أواه ... لقد عرفت ... »

لقد أدركت الآن فقط الدافع الذي دفعها في عنف إلى اقتراف ذلك الجرم الشنيع ... هو رغبته في إجاب ولها

شبابا طويل القامة عريض المنكبين جميل الوجه ، كان في مكتبته أن يفخر برجولة زاخرة لو لم يضاف عليها رداء من التخنث والنأنق . ولم يخف على سميرة مصري الشاب من ذلك للتطفل ، إذ أدركت أنه من أوائك الشبان المتأليف الذين يتسكعون في الطرقات ابتغاء إيقاع الفتيات في حبائلهم ... قالت :

— أشكرك .. إنني أفضل أن أسير وحدي

فابتسم الفتى ابتسامة أقرت سميرة بينها وبين نفسها أنها فائنة خليقة بأن تجذب القلوب حقا . وقال :

— ولكنني أخشى على هذا الجمال الساحر أن يتعرض للخطر وهو يعني هكذا ذاعلا عما حوله ولم تدر سميرة ما الذي منعها أن تصفع الشاب على هذه الواقعة ؛ كأن ثمة دافعا خفيا يدفعها إلى الصبر . فوقفت عن السير ونظرت إليه نظرات لاهي بالناضبة ولا بالشجعة . كانت نظرات حيرى زائفة ، وأيقن الشاب إزاء حيرتها أنها غدت في قبضة يده فاستدعى سيارة كانت مارة ودعاها إلى الركوب

وارتفعت سميرة لجرأة الشاب وتلفتت بمنة ويسرة ثم قفزت إلى السيارة مبهورة الأنفاس وأرتمت على المقعد وهي ترتعد ارتعادا

وأحست بهول ما أقبلت عليه . وراحت تقاب في رأسها الأفكار . لقد حادتها الشاب وسار إلى جوارها كأنه يعرفها . ثم توقفت عن السير فاستدعى السيارة . أكان في مكتبته بعدئذ أن تنضب وترفض الركوب ؟ . أبدا ما كان لها أن تفعل ذلك إذ أحست أن كل الناس عيون تنظر إليها ، وأنهم أدركوا أنها على معرفة سابقة بالشاب . ومع كل فاذ في ذلك ؟ ستطلب إليه النزول فتضفي إلى حال سبيلها ...

وتقضى شهران شمريت سميرة بعدما بتغيير تام في حالتها . إذ أصابها تحول خفيف وامتنع لونها قليلا وصدفت عن الطعام وأخذ الاغماء بماودها من حين إلى حين فارتاع زوجها من تلك الأعراض وظن أن بها داء فاستدعى للطبيب بنفس خائفة جزعة .

والنفث الطبيب إلى فتحي باسمًا ثم سحبه من ذراعه إلى خارج الغرفة وهمس في أذنه يقول :
— أبشر يا سيدي ... إن زوجك حامل عقلت الدهشة لسان فتحي فظل برهة ينظر إلى الطبيب في ذهول ، ثم انتبه أخيراً إلى نفسه وقال بصوت يتهدج من شدة الفرح :

— آه ... أشكرك يا سيدي ... أشكرك

ثم تركه وهربول مسرعاً إلى مخدع زوجه ووقف بالباب لحظة قصيرة ينظر إليها وتنتظر إليه وكانت نظراتها زيجاً من الحدة والحجل ... والخوف غير أنه لم ينتبه إلى تلك النظرات الناطقة بل أسرع إليها وهو يهتف :

— سميرة ! أما علمت يا سميرة ؟ إنك حامل .
هكذا قال الطبيب ... : وافرحتي وافرحتي ...
فأسبلت سميرة عينيها وقالت في نفسها : « نعم ... كنت أعرف . كنت أعرف . لك الله أيها الرجل »
ومنذ تلك اللحظة أحست سميرة بأن هذا الرجل الجائئ بجوارها غريب عنها

اكتملت أشهر الحمل وأنجبت سميرة طفلاً فرح به فتحي فرحاً شديداً وأطلق عليه اسم عادل ... وفرحت سميرة بالطفل ، لا لأنه طفلها — هي

وزوجها — بل لأنه طفلها هي فحسب ، فما كانت لتلقى بالا إلى سمور زوجها الذي كان سيكاً في حرمانها تلك النعمة طوال تلك السنوات الماضية ... لقد ارتكبت إثماً زرياً ... ولكنه أيضاً إثم محتمل . ألم يمنعها ما يحجز زوجها عن منعها إياه ... إنها مجرمة في نظر المجتمع وفي نظر الناس ، ولكن أيدري المجتمع عن إثمها شيئاً ؟ ما من أحد يعلم ، حتي زوجها لا يدري من الأمر شيئاً ، وخير له ألا يعلم . ولكن أبلغ بها اللئذ والخيانة أن تخدعه هذه الخديعة ؟ لم لاتصارحه بالحقيقة وتقضي إليه بالسر وليكن بعدئذ ما يكون . وما الذي تراه سيكون ؟ سينكرها ؟ سيطردها ؟ أجل ، فما في وسمه أن يفعل غير هذا . حسن او ماذا في ذلك ؟ حسبها إذا طردها أن يكون لها عادل . ذلك النور الذي أشرق في أفق حياتها المظلم . ذلك الأمل الذي أجرت لتحقيقه وأثمت لتبلغه . أجرت ؟ أثمت ؟ إنها لم تجرم ولم تأثم . إن المرأة لتزخر بعاطفة أخرى غير عاطفة الحب ... عاطفة الأمومة ويجب أن تشبعها كما تشبع عاطفة الحب ... فهي لا تستطيع أن تعيش على الحب فحسب .. وما هو ذا زوجها قد قصر عن إشباع تلك العاطفة المكبوتة فالتفت إشباعها عند رجل غيرة ، فهل في هذا إجرام ؟ . . . خليك بالرجل قبل أن يتزوج أن يلبس في نفسه كل ما يحقق أمانى المرأة ... وإلا فليتنع عن الطريق لغيره ... إذن فالذنب ذنبه لا ذنبها .

وهكذا أخذت سميرة تلمس لنفسها المآذير وتبرز الحجج حتى اتزوى ضميرها وطفى عليه ذلك الحب الوليد الذي نشأ بين جوانحها نحو طفلها العزيز ونصرت بضمة أشهر كبر فيها الطفل واستطاع

وما كان يفيظ سميرة وبفسد عليها سمادتها إلا رؤيتها
زوجها متعلقاً بابنها كل هذا التعلق

وكان يسيراً أن ترى الحياة على هذا النسق ،
لو لم يحدث ذلك الحادث الجلل الجسيم ، إذ سقط
عادل مريضاً محمواً فأضفى على البيت رداء حالكا
كثيلاً . . . وجزع فتحي لرض صغيره ودعاه
الأطباء فسكانوا يخرجون بنتيجة واحدة ، هي أنه
مريض بحمى معدوية ، إن ينج منها فسكاناً ولد
من جديد

وكاد فتحي يحن من هول الصدمة . . . فأضفى
لا ينادر غرفة عادل ، بل راح يمضي ليله ونهاره على
مقعد بجوار فراشه لا تفارق عيناه وجهه النحيل
المصفر ، وإذا أضناه السهر أو ألهكه التعب تراه ينفو
قليلاً في جلسته ثم ينتبه من غفوته فجأة على تحجب
زوجيه ونشيجها

ومضى يومان أوغل فيهما المرض في بدن الصغير
فصيره كالخيال ، ورسم الموت على وجهه علام الفناء ،
وارتاع فتحي لتقدم المرض السريع فراح يذرع
أرض الغرفة في عصية واحتياج وهو بين الفينة
والفينة يمسح الدمع السخين ويوفر الزفرات الحار ،
بينما جثت سميره بجوار الفراش تتطلع إليه بعينين
شعنا كل معاني الجزع والاهفة واليأس

لم تكن تبكي فقد استعصى عليها البكاء ، إنما
كان قلبها يتقطع ويتفتت أمي وحزنا . . .

وكان الطفل راقداً في فراشه كالخيال يملو صدره
ويهبط في اضطراب وحسرة وتوجه عيناه الطفأان
إلى سقف الحجرة كأنما شيء فيه يسترعى النظر

أن يبتسم لمراى فتحي ، فكاد هذا يطير من الفرح ..
وراح يحمله بين ذراعيه ويهدده في حنان ويحاده
بلهجة مكسرة إعزازاً وتديلاً ويخرج من الأصوات
ما يجمل للطفل يحدق فيه ويبتسم في سداجة الطفولة
البريئة ...

وكانت سميرة إبان ذلك تنظر إلى زوجها نظرات
جامدة لا ترسم على وجهها تلك البسمة التي تبدو
على وجه الأم حين يداعب الأب طفله . . . بل كثيراً
ما كانت نظراتها تقسو حتى تخرج بالهمك والازدراء
وتكاد أن تهم بأن تنزعه منه قائلة : « دعه ...
دعه أيها الرجل فانه ليس ابنك »

وبانح الطفل العامين من عمره فكان فتحي
لا تسمه الدنيا حين يناديه بلفظة « بابا » أو يمتلئ
نخذه ويداعب شاربه بأنامله الصغيرة البيضاء في براءة
وطهر . . . بل كان يشمر بالزهو والخيلاء حين يسير
في الطرقات الهوينى وبجانبه عادل يتمتر في مشيته
وهو ممسك بيده

واستقرت سميرة وهدأت نفسها وظنت أنها
أوتيت خزان الدنيا في شخص صغيرها المقدى . . .
وكانت تنظر إلى وجهه الأبيض المشرق فتحس الحنين
بطنى عليها وتشمر بقلبها يخفق بالحب الكبير . . .
وكثيراً ما عاودتها ذكريات قديمة وهي تنظر إلى
وجه ابنها ، فقد كانت ترى في وجهه ملامح نجم
أشرق في أفق حياتها ساعة ثم خبا . . . كانت ترى
في وجهه وجه أبيه فترمد وتهتز كأنما مسها تيار
من الكهرباء عنيف

ملاً الطفل البيت حياة وبهجة ، فأضفى كدبنة
مأهولة صاخبة بمد إذ كان كصجراء مجدية قاحلة .

كوبا من الماء وأدنته من فم الصغير وما كاد الماء يلمس
شفتيه حتى لفظ النفس الأخير

صرخت سميرة في جنون وزاغت تلطم خدها
وتقتلع شعرها فداخض قلب فتحنى وجزع. وكانما خاف
الحقيقة فوقف ينظر إلى الطفل البيت نظرات ذاهلة برهة
قصيرة.. ثم أدركته الحقيقة للقاسية فاندفع إلى الجنة
يعطرها وابلا من قبلاته وهو يزأر زئير أسد جريح
وانتهت سميرة من حزنها على صراخ زوجها
وعويله ونظرت إليه وهو منكب على الجنة يقبلها في
كل أجزاء الوجه المتقع... نظرت إليه في ذهول
ودهشة... ثم تولاهما الحنق والنفى... وتحتمت
وعلى وجهها ابتسامة ساخرة:

— يا للفر الأبله! ماذا يفعل إذن لو كان يعلم!

محمد عبد الفتاح محمد

وانشق صدر سميرة عن صرخة هائلة دوت في
سكون الغرفة الرهيب، ثم واتاها الدمع فانفجرت
تبكي بكاء مرأ: فارتاع فتحنى وأسرع إلى الطفل
فألفاه بتنفس يبطء وصعوبة فعاوده الأمل، وأدرك
أنها تكاد تبجن من شدة الحزن وأن منظر الطفل
المشجى قد بعث في نفسها اليأس قتالا مميّتا

والواقع أن سميرة أنكرت على القدر أن ينتقم
منها هذا الانتقام الرهيب فيسلب منها طفلها...
ماذا عليه لو تركه لها ليفعل فيها ما يشاء؟
إنه انتقام... أجل إنه انتقام. فيا القسوة المتتقم!
والثفت الطفل برأس أثقلته الحصى للقاتلة إلى أمه
وقال بصوت تمشى فيه الفناء:

— أشرب... عاوز أشرب

فاندفعت أمه تنثر في دموعها للفرار وأحضرت

شركة مصر للغزل والنسيج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في اثمانها...

رائعة في ألوانها...

فبادروا باخذ طلباتكم

مَذْهَبُ طَرَفِ سَمَاءٍ

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّةٍ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ مُحَمَّدِ طَهْ الْخَالِجِيّ

إلا عطر الأحاديث . إذ كان رجلا كامل الرجولة ، فاضلا على أتم معاني الفضيلة ، لا يستهويه من تزق الشباب ونزوات الفتوة ومغريات البيئة ما تهافت عليه أهل المصر عامة إلا من عصم الله . فنعمت به خير ما ينعم حبيب بحبيبه ، وحدث الله على هذا

التوفيق الذي أنساني هموم الحياة وغمرني بالتمعة الحقة ، وأوجد حولي جوامع الواقع يتسق مع ما كان يقوم في نفسي من أحلام المثل العليا التي أنشأتها في نفسي تلك البيئة الدينية الخاصة في انقباضها وترتمتها ، وزينتها في صدري غضارة القلب الناشئة السليم . . .

ولكني لا أكتمك أني كنت أحس في بعض الأحيان أنه قد احتجز لديه من أسرارهِ سرّاً يطويه عني ، ويصطنع الحيلة والحذر في كتمانهِ وإخفاء بوادرهِ ، فكان يحبك لهذا في صدري شيء من الغيرة والألم ، ولكن ما كان أسرع ما يتلانشي في غمرة النسيم الروحي الذي يملأ قلبي ، فلا أرى أمامي إلا ذلك الرجل الفاضل المذهب ، وتلك الروح اللطيفة الصافية ، وذلك الضوء الساطع الذي يمتد فيما بيننا وينشر ما حولنا ، وهكذا مضينا أعواماً خمسة لم ينل من هذه الصداقة شيء . ولا تغير في عيني شيء من معاني الكمال الخلق الذي كانت تتألق به نفسه ، ولم أعد أعبا بذلك السر الذي كان في قرارة صدرهِ وكان يخيل إلي أحيانا أنه سر امرأة ، إذ كنت أشم منه عبير الحب ، فلم أحاول مطلقاً أن أسأله منه وما ندمت على شيء فيما بعد ندي على إغفالي هذا

حدثني صاحبي ، قال :

كان فيمن صحبت من الناس في أوائل الشباب شاب في عنقوان السن ، وكان من أهل اليسار والنعمة ، أبيض اللبسة ، متدفق الفتوة ، كثير المرح ، ولكنه مع هذا على خير ما يكون عليه الرجل السعيد ، فيها أعرف أنا من كلمة السعادة ، سلامة صدر ، وطهارة قلب ، ومتانة خلق ، وبمدا عن سفايف الحياة وصغائر الشباب .

وكان أول أمرى معه أني لم أكد أعرفه معرفة للسمع والبصر ، حتى أحبيته حب الرأي وال عاطفة ، كأنما كان بين روحينا منذ البدء أمرة ، كما يقول علماء الروح ، وإن فرقت من بعد بيننا شتى الفوارق الاجتماعية ، حتى ما كان لئلي أن يصحب مثله . ولكننا ما إن تراءينا حتى تعارفنا فتآلفنا فحضر كل صاحبه وده وخلق به نفسه ، فكان عيبة سره ومستقر أمره وراحة صدره . وذهبتنا نتساقى كؤوس الصداقة الصادقة ، لا يشوبها شائبة غرض ، ولا يميها ما تخضع له علاقات الناس من أهواء النفوس المختلفة ، وعلاوات الحياة المادية العنيفة . ومضينا على ذلك عهداً طويلاً لا أجد له في قلبي إلا كل محمداً ، ولا أنسم عنه بين الناس

الروحى الذى فقدته فقدت منه حظاً غير قليل من
المتعة الصادقة والروح النفسى

وسارعت إليه ، فهش لى ، ونحنى لى ، وأجل
تحيى ، وبالغ فى تكرمى . ولكنى كنت أشعر بذلك
كله فى دخيلة نفسى أفاظاً لا معنى لها ، وصورة
للصداقة لا روح فيها ، وأنكرت من شخصه
ما أنكرت بالأمس من رسائله ، وكأن لم يتغير شيء
فى رأى قلبى . وحسبت هذا صنع الزمن ، فرجوت
منه تجديد ما أخلقه

ولكن هيهات ... !

فلقد ترامت إلى الأخبار من كل وجه أن صاحبي
قد حال أمره ، وتغير عهده ، وانتقضت عراه ،
فأصبح من ذوى المجانة والمهر والتبطل ، وجعل
حياته كلها فى أعقاب كل فاجرة ، وابتغاء كل
مستهرة ، واقتناص كل سادرة . وجعل يبذل لهذا
عن سمة من نفسه وماله لا يبالي ما أنفق منهما ،
ولا يأبه لمصيبته فيهما ، ولا يراجع فى ذلك رأياً ،
ولا يعبأ بمبرة مطوية أو مكشوفة . وذهب عنه كل
ما عهده الناس فيه من رأى مترن وبصيرة نافذة ،
فطوى كل قواء الفكرية ومواهبه النفسية فيما زين
له من شهوة عاتية وثرثرة طائشة

فيل لى هذا وروبت لى النوادر المجدبة والصور
الطريفة من حياته هذه ، وأنا لا أكاد أصدق ما يرويه
الناس ويؤكدونه ويتواترون عليه . فقد صحبته تلك
المدة المديدة ، وخالطته مخالطة الأخ الأدنى ، كما سبق
لى القول ، فما أنكرت عليه شيئاً تحزى منه الفضيلة ،
ولا أخذت عليه ما يقدر فى خلقه أو مروءته ،
ولقد أثبت أمره فإذا هو نقي الدخلة قد تشابه ظاهره
وباطنه واستوى سره وعلنه ، فما ياله اليوم ؟

الأمر ، وإغضائى عن هذا السر ، وعدم احتيالى
لمعرفته فربما كان فى ملكى أن أعمل شيئاً أخذه
قرباناً للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجلها قرينة ،
ولكن الله غالب على أمره

ثم ضرب بيننا الدهر فطرحتنى بعض شؤون
الحياة العاتية مطرحاً بعيداً ، فكنا نتراسل بما يقوم
بحق الصداقة بعد أن حاول الزمن أن ينال منها ،
وكانت تأتبنى رسائله فيفتتح لها قلبي ، وتسطع أفاظها
بمعانيها سطوفاً روحياً باهراً ، فأجد لها نشوة
أى نشوة ، وأسشعر منها لذة لا تمدها لذة ثم ...
ثم أخذ شعوري بهذه اللذة بضعف ويتضاءل ، ثم
إذا بى لا أرى ذلك النور الذى كان يتألق فى كلماته
وعدت من بعد لا أقرأ فى رسائله إلا أحرفاً مجتمعة
وعبارات مصطنعة ، لا أكاد أعرف لها معنى ،
وأخذتنى لها غاشية من الألم والحيرة ، وآهت
نفسى بالنسيان ، ورميت قلبى بالملل ، وعالجته للعلاج
الشديد أن يعود إلى عهده من إدراك المعانى الصداقة .
ثم لم أدر بعد إن كان قد صدى فلم تمد تلك المعانى
تتجلى فيه وتنمكس عنه ، أو أن فى الأمر شيئاً وراء
هذا يرجع إلى أن الصداقة قد فقدت قوتها الروحية
وخلت من معانيها التى قامت عليها وشدت منها
وحاطتها أبغ الحياطة . وما زالت الحيرة تتردد بى
بين شتى الفروض ولكن الرسائل كانت ما تزال
تروح وتقدو فيما بيننا تحمل ما يتراسل به عامة الناس
من كلام لا طعم له ولا روح فيه

ثم أتيت لى العودة إلى مسارح ودى للقديم
بعد عام وبعض العام ، فعدت وأنا أشد ما أكون
شوقاً إلى مطالعة صاحبي وتجديد المهد بذلك الجلال

روح المكان ، وفنتينا في جلال الكرى وأحسست في قرارة قلبي بالضوء الجميل الذي كان يغمرنا حين كنا نجلس هذا المجلس من قبل . ثم بدأ صاحبي يتحدث أجمل حديث وأروحه على قلبي حتى كدت أنسي تمامًا انقلابه الأخير ، ولا أرى إلا عهداً من الود الصادق موصولاً .

وبينا نحن كذلك لاح لنا ضوء سيارة على الطريق الزراعي تتوجه شطرنا ، حتى إذا حاذتنا أو كادت وقفت لتمود . وكان بها شاب حسن البزة ، متأنق للشباب ، وإلى جانبه فتاة بديمة القوام مشرقة الوجه ، وقد ألقى القمر عليها أشمته فبدت في أبهى منظر وأروع مجلى . ورأيت صاحبي قد ألقى نحوها نظرة ثابتة مبهوطة لم يرجعها حتى دارت السيارة ورجعت أدراجها ، فزفر زفرة حري والنفث إلى يقول :

— أرايت هذه الفتاة ؟

— أجل ! وماذا تريد ؟ أطريدة جديدة تنصب لها شباكك ، وتعد لها أشراكك ؟

— معاذ الله ! بل معبد روحي ومحراب قلبي : حبل بيني وبينه ، فاندفعت في الطرقات اندفاع الهم الجامعة

فسكت برهة أتأمل قوله ، فلم يكشف لي عن وجهه ، فاستوضحته ممناه ، فأطرق لحظة حسبته يعالج فيها نفسه أشد الملاج ، ويرادها عن سر قامت دونه الحجب والأغلاق ، ولبثت أنتظار وأناهب لسماع قصة ممتعة تكشف لي عن ناحية من حياته . ثم التفت إلى يقول :

— أعني أنها كانت حبيبتى التى سيطرت على قلبي ، ثم ...

أفى الممكن أن تتغير الأخلاق وتحول الطباع وتتحول الشخصيات بهذه السهولة ، وفي عدة من الشهور قليلة ؟ أم كنت غدوعاً في أمره ، معصوب الميئين تجاهه ، وأنا أحنبنى بصيراً به ، مثبتاً من حقيقته ؟ أفى الممكن هذا ؟ ذلك سر من أسرار النفس ، ولنز من النار الحياة الانسانية ، وما أكثرها وأخطرها !

لقد ذهبت النفس التفسير من كل مظانه ، وأقبلت أتحدث إلى هذا وذلك من أقاربه الأدين في خاصة أمره ، وما عساه قد داخل حياته ولا بس نفسه ، فأعياني أن أجد تفسيراً يطمئن إليه عقلى ، وبطرد مع ما أعرفه عنه ، فأنصرفت عن هذا وفي نفسى من الحيرة بمقدار ما أجده من الألم له ، والفجعية فيه ، واللوعة لمصابه ، وترجت على عهد كانت صداقتنا فيه كالندير الصافي تنعكس عليه أشعة السماء

وانيته أصيل يوم من الأيام في طريقى إلى صرناضى بظاهر المدينة ، وكنا نعتاده معاً من قبل . فاستصحبته فصحبني إليه ، حتى إذا غشينا كانت الشمس قد غربت بغمربها ، وطلع البدر من مشرقه . وصرناضنا هذا هو روضة على جانب طريق زراعى ، تقوم بها أشجار متشابكة الأغصان ، وتحفها شجيرات ملتفة الأفتان ، وتنتثر على أرضها أزهار مختلفة الألوان ، وقد جرى إلى جانبها ندير صاف يتألق في ضوء القمر وقد سطع علينا من نيمائه ، فاجتمع لهذه الروضة جمال الأرض وجمال السماء ، وكانت نسائمها تتأرجح بكريات الود القديم ، فاجتمعت لنا منها متعة الحس ومتعة الروح . فجلسنا على مقعد وضع هناك ، وقد تركنا أنفسنا للذكريات تتناجى وتتجاوب ، حتى غمرتنا

ولكني لم أدعه يكمل حديثه فقلت له :
— أيهن ؟ فمن أكثر

فنظر إلى نظرة فيها معاني الألم والتوسل وقال لي :
« ناشدتك الله دعني من هذا التهكم والتأنيب
وحسبي ما أشعر به في قلبي من لدغ كلذع الجمر ،
فإن روح هذا المكان قد لبست ضميري فنفخت
فيه الحياة ، ولا والله ما أحببت إلا هذه الفتاة التي
رأيتها ، والتي أنا محدثك عن أمرى معها :

لقد عرفتها في مبعة السن ، وأحببتها في مطالع
الشباب . ولست أذكر الأسباب التي وصلت بيني
وبينها ، وهيات لي سبيل حبها ؛ ولكني أذكر أنها
مازلت تكبر في عيني وتعظم ، وما زالت تمتد معانيها
وتتسع ملء الأفق ، حتى تألمت في رأي قلبي ،
وغمرتني بأشعتها الساحرة فأحسست كأن نفسي
مشتقة منها ، وكأن وجودي مندمج في وجودها .
وجعلت لا أراها بعد إلا معنى متسقاً من الجمال
والطهر والمعظمة ، يبعث في نفسي معاني الحب
والفضيلة والخضوع

وجعلت أدور في فلكها الساحر الجليل المتلألئ
وما شعرت قط بالضيق به والرغبة عنه والتفقت منه ،
إذ كان عالي الذي لا أعرف عالماً سواء ، والذي
اجتمعت لي فيه كل أسباب النعمة ومعاني اللذة
ومظاهر الكمال

ولقد كنت فتى تملأ الفتوة هروقي وتهز
أعصابي ، وكان جديراً بها أن تفعل بي فعلها الطبيعي ،
فتوجهني تلك الوجهة التي يتجهها الشبان ، وتهوى
بي ذلك المهوى الزاخر بشقى اللذائذ الجسمية ،
وتقذفني إلى تلك السياحة التي يحف بها شياطين
الانس والجن بوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول

غروراً . ولكني كنت محفوفاً بروحها الملائكية ،
محسوراً في فلكها السماوي ، مملوءاً بمعانيها الجميلة ،
ولذائذ حبها البري .

لقد كانت ملاك روحى ومساك فضيلتي وشمس
حياتي ، سواء في ذلك شهودها وغياها وجلوتها
وحجابها ، إذ كنت أحيى في شموري بها وإحساسى
بحبها . ولكني لا أذكر يوماً من أيام حبنا دغى
دون أن أجلس إليها ، وأتمتع بطلعتها ، وأملأ قلبي
بجمالها ونضرتها ، فكنت أرى هالة من النور تحيط
بوجهها ، وطالما من الفضل والشرف والجمال والكمال
يقوم حولها ، فكنت أنظر إليها نظرة حب وإجلال معاً
وكنت أقرأ معها أحياناً بعض كتب الأدب
فأشهد ما عرفت أستاذاً يشرح دقائق الفن كما كانت
تشرحها هي في نظرة أولمحة تحيط بالمعاني النفسية
البعيدة ، فتجلوها أمام عيني كأنما صورها مصور
صناع ملهم . يا لله ! لقد كانت تحدثني بالفاظها ،
حديثاً فيه متعة القلب والأذن ، وفيه جمال النغمة
واللحن ، وفيه الحبيبة بكل مظاهرها ومعانيها . أواه
أواه من ألم الذكرى وفجعة المصاب فيها !

لقد أبأها على القدر فرماني بذلك الشاب الذي
رأيتني إلى جوارها : ساقه إلى خطبتها ، وزينه لأعين
أهلها . فاني لجالس ذات يوم وإذا بها مقبلة علي ،
وفي عينيها آثار البكاء .

فجزعت وأخذتني اللاوعة ، وأقبلت عليها أسألها
فقصت على القصة ، وطلبت إلي أن أتقدم لطلب يدها
عساي بذلك أبعد الخطر الدائم وعرفت حين ذاك
أن ذلك الشاب موظف بوزارة الداخلية ، من أسرة
متوسطة الحال ، يتقاضى مرتباً لا يتجاوز خمسة
عشر جنيهاً . وقد رآها مرة في طريقه ، ثم ذكرت

الشهوة في مذاهبه ، بعد أن كانت محبوسة من حب
فتاتى في مكان صحيح .

وبلاء ! لقد كنت وجدت في حبها سيباً يصلنى
بالسما وما ترخر به من الملائكة ، فلما انبت السبب
هويت إلى الأرض أنمرض لنزغات الشياطين
والأبالسة .

لقد كنت من حبها في فلك سحرى جميل ،
أدور به أينما درت في حدود جاذبيتها تمسكنى أن
أهوى أو أنحرف ، فلما ذهبت تلك الجاذبية عنى
جعلت أنطوح هنا وهنا لا بمصمنى عاصم ولا بمنعنى
شئ .

كنت معها ملكاً فأصبحت بدونها شيطاناً
كان قلبى منها في محيط نورانى مشرق ،
فأصبح من بعدها في ظلمات بعضها فوق بعض .
وهنا أخذته الذكرى وبلغ به التأثير ، فلم يملك
نفسه من البكاء ، وجعل ينشج نشيجاً صراً ، وأنا
أحاول تهدئته والتخفيف عنه ، حتى سكنت عنه البكاء
فأخذت بيده ، وأخذنا طريقنا إلى المدينة ، وسرنا
في صمت ظاهر ، تنكسر من تحنه الخواطر ، وتقلب
فيه الصور والمانى ، وجعلت قصة حبه تتردد في
خاطرى مختلطة بقصة صداقته وعهود دوده . فذكرت
ذلك السر الذى كان يحاول كتمان ، وقد صدق فيه
حدسى : إنه سر الحب الذى أترع له كؤوسه في
عالم الملائكة المقربين ، ثم تركه يهوى بين المردة
والشياطين « وندمت أشد الندم على إغفالى هذا
الامر ، وإغضائى عن هذا السر ، وعدم احتيالى
لمعرفته ، فربما كان فى ملكى أن أعمل شيئاً أنجذه
قرباناً للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجملها قرينة ،
ولكن الله غالب على أمره » محمد طه الحامري

له فتقدم إلى أبيها — وهو رجل ساذج غفل —
وحوله حاشية كبيرة من هيئة الوظيفة ، وما يشه
الوهم من حولها ، وما يخلمه السامرة عليها ، من
الأضواء الساطعة والألوان الرائعة .

وتقدمت إلى الخطبة وأنا لا أكاد أشك في الغلبة
والظفر ، إذ كنت أحسبني معتصماً بأقوى الأسباب
في مثل هذه الأمور ، من مجد الأسرة واتساع الثروة
وشرف الاسم . وأما منافسى فما يملك إلا الوظيفة
وأهون بها . ولكن خاب ظنى ، فإن الوظيفة التى
طلعت على شتى نواحي الخير في مصر ، وهزمت
صفات الرجولة والشعم والإباء في نفوس الناس ،
قد أخذت بالموازين المعتبرة في تقدير الرجال ، فشالت
كفتى ، ورجحت كفة صاحبي ، فتعلل لى أهلها
بأن فلاناً سبقنى إلى خطبتها ، وما هى والله إلا الوظيفة
ومصيتها وسوء أثرها في أنظار الناس . فأنصرفت
وأنا أدانى قد أصبت في قلبى بما حطمه تحطياً وتركه
مشياً .

... وانتقلت صاحبتى إلى بيت زوجها ، ولم يلبث
أن سافر بها إلى مقر وظيفته ، فانقطع ما بيننا تماماً ،
ووجدت هى في بيتها وأمرتها ما يستأثر بروحها
ونشاطها النفسى ، وأما أنا فماذا لقيت ؟

لقيت شر ما يلقاه امرؤ مما يسمونه برد الفعل
لقد طوحت بى تلك الصدمة العنيفة إلى الجهة
المقابلة لما كنت فيه مما أحسبه أسى حالات الخير
والفضيلة ، فارتكست فيما ترانى فيه ، وتشكره على ،
من الخلاعة والتبطل ، والجري وراء كل بنى طموح ،
وكل طائفة صرية ، وانطلقت غريزتى الجنسية
في كل طريق يفسح الهوى من جوانبه ، وتزيد

حاجي بابا اصفهاني

للكاتب الشيخ الاجليسي جعفر مؤيد
بقلم الاستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثامن والثلاثون

بين الواجب والضمير

أتم للشاب الأرمني قصته وتركني بين أشد عوامل الدهشة من غرابة قصته والاحجاب بحسن صفاته . ثم أذنت له بالذهاب مع بعض جنودي لرؤية زوجته في المنزل الذي وضعناها فيه لكي تستريح ، وقلت في نفسي يستحيل أن تكون هذه القصة الطويلة التي قصها عليّ مخترعة كما لأنني قد رأيت بنفسي المرأة التي يتكلم عنها ووجودها أقوى دليل على صحة الرواية التي رواها . ولكن إذا تركتهما وعلم السردار ذلك فلا شك أنني سأفقد وظيفتي وربما فقدت أذني أيضاً . إن الرحمة لا تلائم مصلحتي مادمت أريد البقاء في هذه الوظيفة ؛ ولن أكون حكيماً كما يقولون عنى إذا لم أتبع حكمة لقمان الذي يقول فيها : « ما ينبغي للنمر أن يظهر بمظهر الحمار كيلا يجمع بين الشراسة وبين الخداع . فن كان يشبه النمر فليظهر بين الناس شرساً كطبيعته لأن ذلك أقرب إلى الفضيلة . وما ينبغي للحمار أن يظهر بمظهر النمر ، فان المالم يكون أشد قسوة عليه منه على سائر الحمار . فن يشبه الحمار فليظهر بين الناس حماراً ، فان ذلك أقرب أيضاً إلى الفضيلة »

بقيت متردداً فيها يجب على عمله نحو يوسف

هل أطلق سراحه أم أقوده إلى الأسر ؛
وبالتالي هل أكون غمراً أم خماراً

وبينما كنت أفكر في ذلك عاد يوسف الأرمني وأخبرني أن صحة زوجته تحسنت بعد أن استراحت في ذلك المنزل ، ولكن للضعف الناجي عن التزيف كان لا يزال مانعاً لها من الانتقال إلا إذا طاردها السردار فاضطرت إلى الفرار من وجهه ، وأنها أخبرته بقصتها منذ اختطفها الفارسان إلى أن وجدها يوسف

قالت : إن الذين اختطفوها ذهبوا بها في الحال إلى بيت السردار فأمر بوضعها في منزل الحرم بين جواريه وأجازها على اختطافها وإن السردار لما رأى ضعف بنيتها وهزال جسمها أهملها فجاءت بين الخاديمات للماديات فخدمت الله على ذلك . وكانت تتجنب الظهور بأى مظهر لكي تبقى هامة . وقد نجحت في ذلك أول الأمر ولكن سوء الحظ سلط عليها مجوزاً من جوارى القصر تظاهرت بوجدها وأفهمتها أنها تريد مساعدتها على استرداد حريتها

فلما أصغت صريم إليها واعترفت لها برغبتها في الفرار ظهر غدر المجوز ونقل الحديث إلى السردار

قالت صريم : « فلما سمع ذلك اغتاظ غيظاً شديداً وأمر باحضاري وأسمعي ما أكره سماعه من الوعيد والتأنيب وهددني بالموت إذا حاولت الفرار وأمرني بأن أبرهن على إخلاصي بالاستعداد لمقابلته في تلك الليلة فصممت على أن أهرب بمجرد جودتي بإلقاء نفسي من النافذة فاما أن أتمكن من النجاة وإما أن أتخلص من الحياة

ولما فتحت النافذة كنت أريد إلقاء نفسي منها
ولكنني رأيتك يا يوسف فحمدت الله

وكان بعض الجوارى قد جنن قبل ذلك بلحظة
فأمرني بالاستعداد لدخول الحمام فصرقتهن عنى بحيلة
وأغلت باب الغرفة قبل أن أفتح النافذة مصممة
على الاتحاق بك أو على الموت محاولة ذلك «

بعد أن أسمى يوسف تلك القصة التي روتها
له زوجته أظهر اهتماماً شديداً بمعرفة رأيي في أمره
وثوصل إلى أن أعده ببذل مساعدتي له ومنحه
صداقتي ، وكان جنودى قد عادوا في ذلك الوقت
من الأماكن التي كانوا مفرقين فيها وأعدوا جيادهم
وجوادى لاستئناف سيرنا ، وكان رأيي قد استقر بعد
تردد في شأن الأرمنى وزوجته فناديتهم وقلت له :

« بعد القصة التي سمعتها منك يا يوسف صار
محالاً عليّ أن أطلق سراحك لأنك قد اعترفت
بأخذ صبيدة من قصر السردار ، وذلك ذنب قد تعاقب
عليه بالموت ، وقد كان واجباً على ألا أمهلك وتلك
الصبيدة إلى الآن بل أبعث بك إلى أريقان ساعة
اعترفت لي بهذا الاعتراف . ولكن إذا قبلت
ما سأعرضه عليك فأنى لن أفعل هذا »

ثم أخبرته عن وظيفتي وعن المهمة التي أرسلت
لأدائها وعرضت عليه أن يرافقنا في تلك المهمة
فيكون دليلاً لنا في البلاد التي يسرها أكثر منا
وقلت : « إذا رأيت منك إخلاصاً في خدمتنا فاني
أعدك بأن أداقم عنك عند السردار وأتوسط عند
رئيسي وأحصل بأذن الله على أمر بإطلاق سراحك
وفي هذا الحين تبقى زوجتك بالمنزل الذي هي فيه
الآن حتى تعود إليها سالماً »

لما سمع يوسف قولي دنا مني فقبل يدي شاكرًا

ووافق على ما عرضته عليه ، فأذنته بأن يعود مرة
أخرى إلى زوجته ليودعها وليخبرها بما قلته له
فشكرني مرة أخرى وسار مع واحد من جنودى

الفصل التاسع والثلاثون

يوسف الأرمنى يبرهن على أنه أهل لتفهم ما جرى بابا
سرنا متجهين نحو الحدود القوزاقية ، وكان
يوسف خير دليل عرفناه لمعرفته بهذه الجهات
معرفة دقيقة أدهشتنا ولم يبد منه أى ميل لزيارة
قريته وقال لي إنه لن يستطيع الذهاب إلى تلك
القرية حتى ولو أمرته بذلك لأنه أنذر ألا يعود
إليها إلا مصحوباً بزوجه

لقد اتضح أن الخبر الذي بلغ مسمع السردار
من تقدم الجيش الرومى غير صحيح لأن الرومى
كانوا لا يزالون صراطين على شاطئ نهر يمباكي
وقد احتلوا قرية « جامملو » وتحصنوا في « قرقليسه »
وكنا قريبين من هذين المكانين وأردت أن أعرف
عدد الجيش الرومى فيهما وحالته الحربية فخطر لي
خاطر يتعلق بذلك ويوسف الأرمنى ، وقلت
في نفسي : « إن بقاءه على الحالة التي هو عليها
لا يشرفنا فاما أن نفقده وإما أن نحمله وعزمت
على إرساله ليتجسس على الجيش الرومى فان أدى
مهمته استحق العقوبة وإن ذهب ولم يعد عدنا
إلى القرية التي تركنا فيها زوجته وأخذناها إلى
السردار ونلنا مكافأته

ولما طلبت الأرمنى وقامته في الأمر أدرك
مقصدي وغابني بمثل سرعة البرق وقبل المهمة التي
عرضتها عليه ، وما هو إلا أن أذنت له حتى وضع
بنديته على ظهره وسار نحو القرية

بعد ذهابه قال أحد جنودى : « لقد ذهب ولن يعود »

فقلت له : « إن الرجل أرمى وقد كان يفعل ذلك لولا وجود زوجته فالأرمنيون لن يتركوا نساءهم مهما كانت الأسباب »

فقال جندى آخر : « هذا صحيح ولكنه مسيحي والروس مسيحيون كذلك ويبدو أن يجتمع بمضهم يعض ثم يعودون إلى المسلمين وأنا أراهن على جوادى هذا إن عدتم إلى رؤيته »

قال جندى ثالث أشيب الرأس قد جمدت وجهه السنون : « ما هذه المهارة ؟ إنك لا تملك الجواد حتى تراهن عليه فالجواد جواد للشاه »

فقال ذلك الجندى مابداً : « ولكنى أراهن عليه وما كان مملوكاً للشاه فهو مملوك لى »

أسكت الجنديين ورأيت عن كئيب مكاناً به حشائش تصلح لاطعام الخيل فأمرت الجنود بالاتجاه نحوه، ونزلنا عن الجياد وأقمنا الخيام وأعلنت رغبتى فى الإقامة بهذا المكان حتى يعود يوسف ثم أرسلت بعض جنودى ليحصلوا على كبش أو نمجة لنا كل فذهبوا وعادوا بكبش سمين ذبحناه وأوقدنا النار فنشويناه وأكلنا بشهوة قوية وأبقينا للغد ما زاد لدينا أظلم المساء ولم يأت يوسف ولكن لما استعدنا للنوم تاركين رجالنا من الحراسة الجياد سمعنا صوتاً من جهة بعيدة . وكان للقمر إذ ذاك بدرأ وكانت قد مضت ساعة بعد منتصف الليل ثم سمعنا الصوت مرة أخرى ، وكان فى هذه المرة أدنى إلينا فاستيقظنا وتكررت الأصوات فلم يبق لدينا شك فى أن القبل هو يوسف ثم جاء وكان فى حالة شديدة من التعب ولكنه مع ذلك كان قادراً على أن يسرد علينا قصته

قال إنه لما وصل إلى مدينة « حاملو » عرفه بعض الجنود الروسى الذين كانوا فى قريته الفارسية فأحسنوا استقباله وأخذوه إلى قائد الذى سأله عن الغرض من مجيئه فلم يجد خيراً من الإجابة بأنه جاء للبحث عن زوجته وقد كان له من النكبات التى حلت بقريته وشردت أهله ماجمله قادراً على الكلام دون أن يثير شبهة حول نفسه، ثم سمح له بالإقامة فى القلعة وتمكن بإبدائه ملاحظات يظهر فيها إخلاصه. وبسؤاله مع للتظاهر بمدم الاهتمام — تمكن بذلك من معرفة ما ذهب ليعرفه وليخبرنى به من عدد الجنود ومقدار السلاح وما يمكن معرفته عن خططهم فى الحرب

أمرت بتقديم الطعام إلى يوسف وأذنته بأن ينام ليسترخ وتأملت فيما سمعته فلم أجد فيه شبهة للكذب . وفى الصباح أمرت جنودى بالاستعداد للمودة نحو أريفان وجعلنا الطريق إليها من جهة أشتارك، وهناك علمنا بعض الشيء عن حركات السردار وقائد جنوده، وأذنت ليوسف أن يزور زوجته، فذهب وعاد فرحاً مسروراً وقال إنه وجدها على أحسن حالة وقد شفيت من جراحها وشكر لى تكرار إحسانى إليه

وكان السردار قد انتقل من أريفان إلى مقر البطيركية الأرمنية فتقدمت إليه وهى يوسف

الفصل الأربعون

عاجى بابا بدافع عن يوسف

يدعو الأرمنيون هذه المدينة « إيتشميازين » ويدعوها الإيرانيون والآراك « أوتش كليسة » أى الكنائس الثلاث ، وهى قرية كبيرة واقعة فى

المر وشكله قريباً من شكله
وعجل القول في وصفه أنى لم أر قط شيئاً له
ولم أتصور قبل رؤيته أن إنساناً يكون بهذه الخلقة
وكانت نظراته تدل على أنه لا يحترم قانوناً من قوانين
الأرض ولا السماء . وكان يكظم غيظه إذا شاء
ولكن إذا ثار غضبه فلا حد لقسوته وعنفه

على أنه مع هذه الصفات القبيحة كان ذا صفات
جملة محبوبة عند جميع مرؤوسيه ، فهو كثير
التبسط معهم بطلق لهم الحرية في كثير من الأمور،
وهو شديد الدكاء . وكان يتبع مع الشاه خطة
سياسية جملة محبوبة لديه موثقاً به . ومن
أخص صفاته أنه يخلص في حماية من يرام غلصين
في خدمته . وربما لم يكن في البلاد الفارسية من
ينافسه في شرب الخمر إلا صديقه النازا كشي باشي .
وقد دخلت أمام هذين الرئيسين ومضى ثلاثة من
أكبر أتباعي

فقال لي النازا كشي باشي ساعة رأي :
« مرحباً بك يا حاجي بابا ! أخبرنا كم روسياً قتل ؟
هل معك بعض رؤوسهم ؟ أرنأ ! »

قال لي السردار : « كم عدد الروسيين الذين
على الحدود ومتى تبدأ المواقع ؟ »

فأجبت بعد خطبة للتحية المعتادة التي يجب أن
يلقيها كل مرؤوس أمام رئيسه وقلت : « لقد فعلت
أيها السيدان كل ما كان في وسمى أن أفعله ، فقد
عرفت الجواب على كل سؤال أردتما أن تسألاه
وعندي الأدلة الكافية على أن خططنا في صعود »

قال السردار : « إن حسن الحظ شيء لا بأس
به وليكننا لا نعتد عليه بل كل اعتمادنا على سيوفنا »
ثم نظر إلى صديقه الذي قال : « نعم إن ضربة

وسط سهل خصب ترويه جداول متعددة، وبالقرب
منها جبل « أجرى داج » الذي يقدهه المسيحيون
عموماً والأرمنيون خصوصاً للسبب الذي أخبرني
به يوسف وهو أن سفينة نوح رست على هذا
الجبل عند ما انتهى الطوفان

وبطريك الأرمن في هذه المدينة مطلق النفوذ
على جميع الطائفة الأرمنية ، وهي تدعوه بلقب
« الخليفة » وهو لقب يطلقه المسلمون على أكبر
رئيس يجمع بين السلطين الدينية والدنيوية . ولكن
المسيحيين في آسيا لا يطلقونه إلا على البطريرك
الأرمني الذي تكاد تكون سلطته على أتباعه تعدل
سلطة الخلفاء في بغداد في الأزمنة السالفة

وجدنا جيوش السردار بالقرب من الكنيسة
وسمعت أحد ضباطه يقول : « نحن سنحرق هؤلاء
الكفار ونشرب ما في كنائسهم من النبيذ »
قلت له : « هل أنت مسلم وتتكلم عن شرب
النبيذ ؟ لقد أصبحت كافراً مثاهم »

قال لي الضابط : « إن السردار يشرب الخمر
كما يشربها الكفار ولا أعرف لماذا لا أخذو حذوه
في ذلك »

وقد ظهر لي بعد هذا الحديث أن جنود السردار
احتلت الكنيسة وأن القسس أظهروا رضام وبذلوا
مساعدهتهم مكرهين . وكان الخوف متسلطاً عليهم
من غضب الإيرانيين

وقد عرف القراء قبل الآن وصف « النازا كشي
باشي » الذي صار قائداً لجنود السردار، أما السردار
نفسه فكان وجهه أشد تجهماً منه حتى وصفه
شاعر الشاه بأن وجهه يشبه « أجرى داج » وهو
الجبل الذي كنا بالقرب منه . وكانت صفاته كصفات

السيف أصدق من اصطربلاب المتجم وإن جواداً
وسيفاً ومسدساً لأفضل عندي من الحظ الحسن «
قال السردار : « وماذا تقول في النبيذ الممتق ؟
إن حاجي بابا قد قام بمهمته خير قيام وزيد مكافأته
على ذلك بزجاجة من نبيذ الأرمن »

ثم قال لي : « من الذي يقود الجيوش الروسية ؟
وفي أي معسكراتهم للفرقة للفوزاقية ؟ وهل لديهم
مدافع كثيرة وأين مراكز قيادتهم العليا ؟ »

ثم نادى كاتبه اسماعيل خان وأمره بأن يدون
جوابي فقلت : « أقسم بنفس السردار وفداؤها
نفسى وأقسم بالخبر والملاح الذي أكلته مع النازا كشي
باشي أن الروس ليسوا شيئاً يعتمد به وهم إذا ماوزنوا
بالجيش الفارسي لا يساؤون الكلاب ، وأقسم لكم
بعد الذي رأيته بعيني أن فارسياً واحداً معه رمح
وسيف يستطيع أن يقتل بسهولة عشرة من الروس »

أظهر رئيسي سروراً شديداً وقال لي : « لقد
صدقت فراستى فيك يا أصفهاني فقد حققت تقى بك »
فقلت : « إن عدد الروس الذين على الحدود

قليل لا يتجاوز السبعمائة أو الثمانمائة وقد يبلغ الألف
أو الألفين ولكنه على كل حال لا يتجاوز ثلاثة
آلاف ولديهم عشرة أو عشرون أو ثلاثون مدفعاً ،
أما للفوزاق فهم أفراد قليلون ومن الممكن إخراجهم
من الجيش الرومى بدفع رشوة إليهم وهذه عادتهم
التي اشتهروا بها ويكفى أحدهم ثلاثون أو أربعون
أو خمسون طوماناً »

قال نازا كشي باشي : « ولماذا تذكر الفوزاق ؟
إن أحدهم على جواده لا يفضل الفرد على ظهر تيس »
قلت : « هذا هو وصفهم ؛ أما قائدهم فانهم يلقبونه
« بالميجور المجنون » وذلك لأنه لا يفر مطلقاً

ولا يسمح لجيشه بالتقهقر مهما كانت الظروف المحيطة
بهذا الجيش وهم يقولون إن في جيبيهم مصحف السردار »
فقال السردار : « إذن قلله هو القائد الذي
حاربه في العام السالف فإن هذا الوصف ينطبق عليه .
لقد أدهشني كل الدهشة بتصرفاته الغريبة وخططه
وقد سرق مني مصحفى في العام السالف واست أعرف
كيف وصل إليه . ولكن ذكرك هذه المسألة يدل
على أنك صادق يا حاجي بابا ، كم مدفعاً تقول إنه
لدى الجيش الرومى ؟ »

فقلت : « أربعة أو خمسة أو ستة »
قال الكاتب مراجعاً لي : « لقد قلت الآن كما هو
ثابت عندي إن عدد المدافع عشرون أو ثلاثون فأى
القولين هو الصحيح ؟ »

فصاح السردار : « أنكذب هنا ؟ »
وظهرت علام القوة والقسوة على عينيه وقال :
« أقسم برأسى أنه إذا اتضح كذبك في أية كلمة
قلتها فلن تغفر لك هذه الجريمة . إن ذقوننا لم تخلق
ليضحك الناس عليها »

قلت : « الحقيقة يا سيدي السردار أنني لم أذهب
بنفسى إلى مكان الجيش الرومى فأنا إنما أقول ما يعلق
بذهنى من كلام الرجل الذي أرسلته وهو موجود .
إن عظمة مولاي السردار قد حملت أحد الشبان
الأرمنيين على المخاطرة بحياته ظامساً في أن تمفوعنه »
قال السردار : « أعفوعنه ؟ هل في الدنيا أرمنى
يستحق المفو ؟ » فسردت عليه قصة الأرمنى من
أولها إلى آخرها وكنت أعتقد أن دفاعى عنه علناً
بهذه الكيفية يجعل من المستحيل على السردار أن
يماقيه بعد أن كفلت له المفو على شرط قام بوفائه
ولكن لما أتممت القصة لم أسمع من الوجودين غير

تفكر في ارتكاب التهم التي تنسبها إلينا . إننا من رعايا الشاه وأنت حامينا ونحن في أمن ودعة مستظلين بظلك فمن هو الرجل الذي تنسب إليه هذه التهمة ؟ »
قال السردار : « هذا هو » وأشار إلى يوسف ونظر إليه وقال : « قل لي هل اختطفت جاريتي أم لا ؟ »

قال يوسف : « إذا كنت قد أخذت غير زوجتي فاقولوني ، إن التي تقول إنها جاريتك هي صريم زوجتي وقد ألفت بنفسها من نافذة دارك حين رأني ، وكلانا من رعايا الشاه وأنت تعرف هل لك حق استرقاقنا أم ليس لك هذا الحق ؟ نعم نحن أرمنيون ولكننا آدميون ونحن من رعايا الحكومة الإيرانية وما حدث قط أن الشاه أكره أو أمر باكره امرأة متزوجة على أن تكون رقيقة لأنها مسيحية . والذي لا أشك فيه أنك حسبت لما أمرت بإدخالها إلى منزلك - أنها قوزاقية أسرت في الحرب . ولكن عليك متى علمت أنها من الرعايا ألا ترغم أنها من جواريك »

ازداد خوف الخليفة لما سمع اللجة التي يتكلم بها الشاب الأرمني فأسكنه بإشارة دالة على الغضب والحدة . ولكن السردار الذي اعتاد سماع هذه اللجة سر منها بدلا من أن يغضب ونظر إلى يوسف نظرة تدل على أنه نسي السبب الذي استدعاه من أجله .

وكان يوسف لا يزال يتكلم فأسكنه السردار بقوله : يكفي ، يكفي ، اذهب وخذ زوجتك . وبما أنك قمت لنا بخدمة فأسأبتك في خدمتي وأجملك من حرسى الخاص . اذهب الآن إلى رئيس الحرس ليعملك واجباتك . ويلبسك الثوب الرسمي ثم عد إلينا . وإذا حسن مسلكك في المستقبل فسأعفو عن غلطتك الماضية »

التفت بالشهادتين وصعد السردار في نظره وصوبه ولوى شفته للسفلى على أشكال متعددة . وأخيرا قال : « لقد قام هذا الأرمني بأعمال عجيبة »

ثم نادى الخادم فأمره بأن يحضر غليونه ، ولما صعد نفسين أو ثلاثة أنفاس أمر بإحضار الأرمني ورئيس الكنيسة « الخليفة » فجى يوسف الأرمني ، فالتفت إليه كل العميون وبدا الاعجاب برؤيته بعد أن سمعوا قصته ورأوا منه شابا قويا تبدو عليه كل علام الرجولة . وحدد السردار فيه نظرة وأبدى النازا كشي باشى علامات متعارفا عليها عند جميع الإيرانيين تدل على شدة الاعجاب

وجى بالخليفة وهو رجل طاعن في السن ولكن لا تزال بادية عليه علام للقوة .

وكان لا بسا ثيابا سوداء لأن هذا اللون هو الذي اختص به الأرمن . وكان معه ثلاثة من القسس

بعد أن وقف الخليفة دقيقتين أو ثلاثا أمام السردار دعى إلى الجلوس فجلس دون أن يجي باليدن كما هي العادة المتبعة في مثل هذه الحالة . ثم التفت إليه السردار وقال : « لقد أصبحنا نحن المسلمين أذل من الكلاب في إيران ، فالأرمن يعتدون على منازلنا ويختطفون نساءنا وجواربنا . قل لنا يا خليفة ما هذا ؟ هل هذا من عمل الله أم من عملك ؟ »
ازهج الخليفة من هذه المفاجأة التي لم يكن ينتظرها فبدا عليه الدهر . وتندي جبينه عرقا وقد علمته التجارب أن المفاجآت التي من هذا النوع تكون في العادة بداية لما هو أشد منها . وعزم على اتباع خطة المقاومة فقال : « ما هذه اللجة التي تكلمني بها ؟ إننا لا نسلم من أذاكم فضلا عن أن

يرتدى ثوباً رسمياً ، ويماني إلى جنبه سيفاً . وكان ثوبه أحمر اللون ذهبي الأزرار والحواشي ، وعلى صدره حزام من الكشمير فيه خنجره ومسدسه ، وعلى رأسه اللقاوق الجليل الذي يلبسه جنود الحرس وقد رجل بشعره الذي لم يكن هاتيكاً تحت غطاء رأسه القديم المصنوع من الجلد ، فأصبح لجماله وروعته كأنه إنسان آخر ، وقد جملته خصل الشعر المنسدلة على جبينه أشبه بالنساء منه بالرجال . وساعد على تقوية هذا الشبه ظهور أجزاء جسمه في ثوبه الضيق الجديد ، وكان وجهه يحمر خجلاً إذا أطال أي إنسان النظر إليه

شكرني يوسف في زيارته على المساعدات التي قدمتها إليه ، وعلى الوفاء وعذبي في الدفاع عنه . وقال لي إنه اعتقد لما بدأ السردار بالحديث التقدم أنه فقد زوجته ، وإنه لذلك أجاب جواب من يريد أن يقتل حتى لا يعيش بعد أن تؤخذ زوجته منه وقال إن نجاة زوجته ونجاة هما الشيطان الداعيان لسروره . أما تعيينه في هذه الوظيفة فليس بالشيء الذي يسره أو الذي يطيقه ، وإنه يريد العودة إلى العمل الذي اعتاده في الحقول أو الاشتغال بالتجارة أو بقاءه متبلداً في خدمة السردار دون أن يعمل عملاً ما ليس مما يتفق مع طباعه . وقال لي إنه لم يميل بالاستقالة ولم يرفض هذا العمل خشية غضبه ، ولأنه يرى الأذعان لكل شيء طالما كانت زوجته في مأمن . وقال إنه يفضل أن يعيش راعياً للخنازير في جبال جرجان ، وأن تكون زوجته معه على أن يعيش منها في القصور الفارسية وزوجته ممرضة للسي

لم يسمني عندما سمعت هذا من يوسف الأرمني

سجد يوسف عند قدميه وأعرب له عن الشكر على إحسانه وقبل طرف ثوبه ولكنه لم يعرف ماذا يقول ولم تتكون لديه فكرة بالقبول أو الرفض عن هذه الوظيفة التي عرضت عليه .

ودعني كل الحاضرين من مسئلك السردار مع يوسف لأنهم كانوا ينتظرون أن يأمر بقتله في الحال ، وهز للنازكشي باثي كتفيه ، وأخض « الخليفة » بأن عبثاً ثقيلاً رفع عن جاتقه واختفت نقاط اللرق التي كانت عالقة بجبينه وبدت على وجهه ابتسامة وهنا لكل السردار على حلمه وكرم أخلاقه وشبهوه بكسري أنوشروان .

وسرعان ما انتقل الخبر إلى المعسكر فلهج كل الجنود بمدح رئيسهم الرحيم . ولست أعرف ما هو الشعور الحقيقي الذي كان يشعر به السردار في هذه اللحظة ولكن كل الذين يعرفون أخلاقه يشقون بأن الرحمة لم تكن إحدى الدوافع التي تدفعه إلى أي عمل .

الفصل الحادي والأربعون

مهرب الإبرانيين مع الروم

كان « النازاكشي باثي » ، والسردار ينصتان إلى ما يقوله يوسف الأرمني عن مشاهداته في الجيش الرومي . فلما أتم قوله قررا القيام بالمهجوم في الحال وصدرت الأوامر للجيش بالتقدم نحو حاملوا ومشت المدفعية إلى الجبال وتبعها الفرسان والمشاة . ولا يفوتني أن أقول إن الأرمني زارني قبل أن يتحرك الجيش للقتال

ولم يمسد يوسف ذلك الفلاح الذي استصحبته في الطريق ، بل صار حارساً من حراس السردار

غير أن أطربه ، وإن كنت أتمنى أن يقع اختياره على رجل غيرى يجعله أميناً لسره لأن وقوع اختياره على سيجملنى مسئولا عنه إذا فر

في ذلك الوقت كان الجيش يتقدم إلى اشتارك ، واستأذن يوسف في الذهاب لرؤية زوجته . ولما وصلنا إلى الميدان ظهر فقدان الصبر بأجلى معانيه على السردار . فأتى أن يبق مع المشاة لأن حركاتهم أبطأ من فرقة الفرسان . وتولى قيادة الفرقة الأخيرة . ومن عادات الفارسيين أن يحتفروا المشاة في الجيش ولست أقول شيئاً من رئيسى النازا كثنى بانى . فقد ملأ الدنيا بادهانه حتى خال كل من سمعه أنه لم يبق إلا لحظات يصبح بعدها الجيش الروسى كله فى أسرها أو يقضى عليه ، وكان يريد أن يكون فى فرقة الفرسان مع السردار ، ولكنه اضطر إلى اللحاق بالمشاة كأمر رئيسه ، وكنت معه فى هذه الفرقة

وكان السردار يريد الوصول إلى حماملو فى ساعة الفجر لكي يفاجئ الروسين عند أبوابها وسرنا وراءه لكي تنجده إذا اضطروه إلى التقهقر

وكان وصولنا إلى النهر فى ساعة الشروق وكنا على وشك العبور عند ما صاح صوت عال ثلاث صيحات بانة لا نفهمها فوقتنا والتفتنا إلى الرئيس الذى صار وجهه أشد اصفراراً من أوجه الموتى قال بصوت خافت : « ما هذا ؟ ما الذى نفعله ؟ أشر على يا حاجى بابا : »

فقلت : « لأظن هنا أحداً من الأعداء ولكن ربما كان فى المكان غول مثل الفيلان التى يقولون إنها فى اشتارك »

وبعد لحظة سمعنا أصواتاً بربرية وسمعنا طلقاً

نارياً ، ورأينا على الشاطئ الآخر للنهر رجلين تدل ثيابهما على أنهما من جنود الروس . فلما رأى أن ليس موجوداً من الأعداء غير هذين عادت إلى وجهه دموبته وصاح : « اقلوها اقلوها ! هاتوا رأسيهما ! تقدموا ! »

فأتى بعض جنودنا بأنفسهم فى البحر شاهرين سيوفهم وثبت الجنديان الروسيان فى مكانهما ثباتاً أدهشنا وقتلا اثنين من جنودنا التى كانت تعبر النهر واضطر الباقون إلى التقهقر ولم يبد من أحد أى ميل إلى أن يحدو حدوهم ، وبعثا حوّل القائد بالوعد والوعيد وينذل المال أن يحمل أحداً على التقدم وأخيراً تقدم بنفسه وهو يصيح : « أنا سأذهب وحدى فلا يتبعنى أحد » ثم وقف وقال لى : « ألا تذهب فتأتى برأىي هذين الرجلين ؟ إننى أعطيك فى مقابل ذلك أى شىء تطلبه »

ثم حمس فى أذنى قائلاً : « إذهب فاني واثق بأملك تستطيع قتلهما »

وفى اللحظة التى كان يكتمنى فيها أصابه سهم من أحد الروسيين فعلا صخبه ونجته وبانت مخاوفه حد اليأس وأقسم أغلظ الإيمان أنه سيقتل كل من يخالف أمره وقال إيت الروس حقراء مهينون لا يستحقون أن يجيبن الفرس أمامهم هذا الجبن » وعند هذا ظهرت فرقة من الجنود الروسية وظهرت الفرقة التى يقودها السردار ، وكانت قد اصطلت ناراً حامية من الأعداء وضمت ضمتاً شديداً ، وبالرغم من أن عمل نازا كثنى بانى فى ذلك اليوم كان جديراً بأن يمنحه عن المفاخرة طول عمره فإنه كان لا يزال يتبعجج بادهانه

ثم وصلت رسالة من السردار يطلب فيها إرسال

حاجي بابا إليه فذهبت مع الرسول وكانت أول جملة سمعتها من السردار قوله : « أين يوسف الأرمني ؟ أين هو وأين زوجته ؟ » فخطر لي أنه قد هرب فأقسمت أنني لأعلم ولم تمد لي معرفة بحركاته، فأطال السردار من نظره إلى وحرك شففيه بأشكال مختلفة وأقسم أن يصب فوق رأسه جام انتقامه وأن ينتقم أيضاً من أهل قريته ومن كل إنسان له علاقة به وأقسم أنه إذا انضح أنني ساعدته على الفرار بأي حال من الأحوال فإنه سيوجه كل نفوذه ضدي ليخفي ظلي عن الأرض

وسمعت بعد ذلك أنه أرسل بعض رجاله إلى جافيشلو ليقبضوا على أبوي يوسف وأقاربه وكل من بينه وبين يوسف صلة من القرابة وأمرهم بأن يحرقوا كل ما تقع عليه العين من أمتعه ولكن الشاب الذكي كان يتوقع كل ذلك فاحتاط لوقوعه وسار هو وزوجته وأهله في أرض روسية قبل أن يعلم السردار بأنه ترك جيشه وقد قابلهم الروس بمقاولة حسنة وعرضوا عليهم ما خسروه وأقطعهم أرضاً واسعة

الفصل الثاني والأربعون

حاجي بابا لدى الشاه

عدت إلى رئيسي نازا كشي باشي فأخبرته بالوعيد الذي توعدني به السردار ولما كنت أعلم مقدار التعاسد بين جميع الرؤساء الإيرانيين فأنني لم أتردد في إخباره بأنني مستاء من اللجة التي كلمني بها لأنني مرؤوس لغيره وقد كان عليه أن يراعي ذلك لأنني لا أقبل هذه اللجة إلا من رئيسي

تأثر نازا كشي باشي تأثراً عظيماً بهذا القول

فأظهر غضبه وكانت كلماتي بمثابة الهواء الذي يهب على نار موقدة فيزيدها اتقاداً . وخشيت بأن السردار إن علم بعد ذلك بأمرى فيعطش بي فرأيت أن أختفي من الميدان واستأذنت رئيسي أن يسمح لي بالعودة إلى طهران فسر النازا كشي باشي من منحه هذه الأجازة لي لأن ذلك يفهم السردار أنه وحده صاحب السيطرة على أتباعه . وأمرني بتبليغ رسائل إلى رئيس الوزراء تدل على أنه قام بعمل هام في المعارك وأن غيره لم يبق بأى عمل وقال لي : « لقد حضرت المواقع بنفسك يا حاجي بابا وأنت قادر على وصفها ونحن لا نستطيع مع الأسف أن ندعي أننا انتصرنا لأنه ليس لدينا من رؤوس الأعداء ما نستطيع إرساله ولكننا مع ذلك لم نهزم ، السردار قائد حمار لأنه بدلاً من أن ينتظر وصول المشاة عرض فرقة الفرسان لخطر الهزيمة لهجومه بها وخدعها وهو لم يفعل غير أن نبه الأعداء إلى وجودنا فأعلتوا في وجوهنا أبواب المدينة واضطروه إلى التقهقر المزرى بكرامة الجيش الفارسي . ولو أنني كنت للفائد لأربتكم كيف ينبغي أن تسير الأمور . ولا تنس أن تقول لرئيس الوزراء إنني أول من جرح في الجيش لأنني كنت أجراً الجنود على التقدم وبعد أن سلمني خطاباً لرئيس الوزراء وعريضة للشاه أمرني بالذهاب . وذهبت فوجدت الشاه لا يزال في السليمانية على الرغم من أن الحريف كان على الأبواب ، وبمجرد وصولي قدمت نفسي إلى رئيس الوزراء وأعطيته الرسالتين فرحب بي وقال : « لقد كنت أنت أيضاً في حمامو وقد بلغتنا الأخبار من رسائل السردار ، أن الكفار لم يجرؤوا على رفع السيف في أوجه الفرسان الإيرانيين ومن هم الذين

فاستشهد الكاتب يديت شعر السعدى يقول فيه :
« إن الأ كذوبة التي منشؤها حسن النية لا تعد
أ كذوبة بتاتاً »

ثم قام الوزير فذهب إلى الشاه وتبعته في جملة
من تبعه من الخدم والأتباع ثم نظر إلى الكاتب وقال :
« أنا الآن في غنى عنك فلك أن تذهب وتستريح »

الفصل الثالث والأربعون

ماهى بابا يرى قصة فتعلم به نكبة

بعد أيام قليلة عاد الشاه وحرمه إلى طهران وكان
موكبهم في عودته من الهبة والجلال كما كان عند ذهابه
وعدت إلى عمل الأول مساعداً لرئيس الجلادين
و كنت مشغولاً بتعليم الجنود الجدد الدين حلوا محل
الدين أرسلوا إلى الحرب . وبمئت برسالة إلى طهران
أبلغهم فيها أوامر الشاه بأن يحملوا الراقصات
والغنيات على استعداد لمقابلة جلالتهم . وكان القصر
الذى فيه الغنيات والراقصات بمكان يبعد عن العاصمة
ثمانية أميال أو تسعة

ولما أبلغنى الشاه هذا الأمر لأرساله عدت
فذكرت زينب التى كدت أنساها وتجددت
مشاعرى التى كادت تنسى

كان قد انقضى على أول يوم تعرفت فيه بزينب
أكثر من سبعة أشهر . وعلى الرغم من أن
للقوم الذين عاشرتهم في خلال هذه المدة كانوا من
التوحش بحيث ينسى كل من يعيش في وسطهم
كل ما في نفسه من شعور نبيل — على الرغم من
ذلك فقد كان تأثرى شديداً عند ما ذكرتها وذكر
الحالة المزعجة التى لا بد أن تكون قد وصلت إليها .
وقلت في نفسى : « لقد صرت بي أثناء معرفتها عهود

يجرؤون على ذلك ؟ لقد علمت أن رئيسك جرح
في المعركة وقد برهن على أنه من أحسن خديم الشاه
ولا بد أن تكون جنودنا الآن على الشاطئ الآخر
من النهر

لم أكن أجيب على هذه الأقوال إلا بقولى :
« نعم ، نعم » أو « لا ، لا » ثم نادى كاتبه وأمره
بأن يصدر بياناً ينشر على الأقاليم والقرى ويعلن
فيه انتصار الجنود الإيرانية في جهات متعددة
خصوصاً في منطقة خراسان على جانبي النهر فنظر
إلى الكاتب وسألنى : « كم عدد جنود الأعداء ؟ »
قلت : « كثير جداً » ثم ترددت في تقدير
العدد قليلاً وقلت : « اكتب خمسين ألفاً »

فقال : « وكم عدد القتلى منهم ؟ »
فقال رئيس الوزراء : « اكتب عشرة آلاف
أو خمسة عشر ألفاً فإنه لا يليق بجيش الشاه أن يقتل
أقل من هذا العدد . هل تريد أن تجعل الشاه في نظر
الشعب والشعوب المجاورة أقل من رسم أو أفرسياب ؟
هل كتبت ؟ »

قال الكاتب : « لقد كتبت ما أمرتم دولتكم
به » ثم قرأ ما كتبه وهو : « إن الكفار من كلاب
موسكو طردوا الله من رحمة ، لم يجروا على التقدم
من جيشنا مع أن عددهم يربو على خمسين ألفاً وعددهم
لا يتجاوز بضعة آلاف وقد أمكننا الله منهم فقتلنا
في المواقع الأولى عدداً يتراوح بين عشرة آلاف
 وخمسة عشر ألفاً »

قال رئيس الوزارة : « بارك الله فيك ! هذه
كتابة حسنة وإذا كان الواقع يخالف ذلك فإن حسن
حفظ الشاه كفيل بأن يجعل عدد القتلى أكثر من
ذلك في أقرب وقت »

قال لي الطبيب : « ونجدني شديد الخوف من استدعائي لمعالجتها لأنني إن قلت إنها غير مريضة هلكت الفتاة وإن قلت إنها مريضة هلكت أنا وإني لأسف على إهدائها إليه وإني لألتم الساعة التي شرف فيها الشاه منزلي »

ذهب الطبيب بعد أن قال لي ذلك إلى منزله وعدت إلى خيمتي وأخذت أعزى نفسي بأن زينب مريضة وأن مرضها سيطول وستمنعها من مقابلة الشاه وأخذت أدعو الله أن يطيل مرضها ليطول أمد امتناعها عليه ، ثم أخذت أفكرى تتجه في كل اتجاه حتى حاولت في النهاية إقناع نفسي بفضل الزهد وضرورة للتصوف ، وما ذلك مني إلا حيلة الماجز وسلوة اليأس

وأخيراً أعلن سفر الشاه إلى طهران فاجتمع أهلها لتحيته واستقباله وكنت في ذلك الوقت شديد الرغبة في مقابلة الطبيب مع التظاهر بأن هذه المقابلة جاءت مصادفة حتى لا يحوم حولي ريبة ولا يسوء بظن ، ولقد تقابلت معه عند وصولنا إلى طهران ولكن كان ذلك لسوء حظي في وقت غير مناسب .

وتفصيل الخبر أنه أصدر لي الأمر في ذلك اليوم بالذهاب إلى الميدان لتبليغ رسالة إلى النازكشي باشي وفي الساعة التي تلقيت فيها هذا الأمر رأيت رئيس الأطباء خارجاً من حجرة الملك ، وقد بدت على وجهه علامات الغم والحزن الشديدين ، وأخبرني ظهراً فراقفته قليلاً وسألته عما به . فقال : « لقد جعلتني هذه اللعينة الكردية في أشد حالات البؤس والنكد . فإن الشاه غضب غضبة شديدة ، وأقسم أن يقتل كل رجل في داخل القصر أو خارجه ما دامت له علاقة به إذا لم تظهر هذه الفتاة »

مختلفة تماقب فيها الخوف والرجاء والأمل واليأس ولم يبق في عهد النزاع في حبها إلا أمد قصير ، ثم أجده نفسي أيام للقضاء المقدر ، فاما أن يتحقق الأمل وإما أن ترجح كفة اليأس

ولما جاء يوم السفر سبقت الموكب إلى القصر لأرى كل الاستعدادات التي أمر بها الشاه هل تمت وفق رغبته أم لا يزال بها شيء من النقص مفتقر إلى الإصلاح ؟

ولما وصلت إلى باب ذلك القصر نعمت من فيه من السيدات يتحدثن . وما كان أشد شوق في تلك الساعة إلى التحدث مع زينب أو إلى رؤيتها إن كان التحدث مستحيلاً

لكنني وجدت أن سؤالها عنها بنوع خاص سيثير الريبة وقد يكون فيه خطر على حياتها وعلى حياتي فاكتمت باستدعاء رئيس القصر وسؤاله عما فعله بالأوامر وأطلت حديثي معه مراجعاً في الجواب مناقشاً في التفاصيل لئلي أسمع في خلال هذه المدة صوت زينب ولكن عبثاً ذهبت هذه المحاولة فاني لم أسمع صوتها ولا اسمها

وفي أثناء هذه الوقفة جاء سيدي القديم ميرزا أحمد رئيس أطباء الشاه وفهمت أنه جاء بدعوة من أهل القصر لمعالجة بعض من فيه نخشيت أن تكون زينب هي المريضة . وقلت إنها لو كانت كذلك فهي هالكة لا محالة

لكن الطبيب استدعاني إلى ركن من الغرفة وهمس في أذني بأنه شديد الخوف من غضب الشاه لأن الفتاة الكردية التي أهداها إلى جلالته منذ سبعة أشهر لم تستعد لمقابلته عند عودته كما أمرها معتذرة بأنها مريضة

قلت متجاهلا : « من هي ؟ »

فقال : « هي زينب التي أهديتها إليه . وقال إنه سيقتل الوزراء أيضا إذا لم يعرفوا كيف كان اختفاؤها من قصره »

قلت له : « يظهر يا ميرزا أحمد إن الشاه يعتقد أن الفتاة تحبك » فاضطرب الرجل أيما اضطراب وقال : « أستغفر الله ! أرجوك ألا تعيد هذا القول فتحوم حولي شبهة قد تصل إلى سمع الشاه فينقلني إلى العالم الآخر . من الذي قال لك ذلك ؟ كيف علمت أنني أحب زينب ؟ »

قلت : « لقد سمعت كثيرا جدا عن حبك وإلا فما الذي دعاك وأنت جالينوس فارس ولقمان عصرك إلى تربية فتاة يزبديّة من عبدة الشيطان في منزلك ؟ ألسنت تعرف أن وجود فتاة مثلها يكفي لخراب بلد أو مملكة فضلا عن بيت مثل بيتك »

فقال لي رئيس الأطباء : « نعم لقد صدقت يا حاجي بابا » ثم هز رأسه بمنّة ويسرة وقال : « لقد كنت شديد الحماقة لما افترضت بسحر عينيها وإن عينيها لساحرتان »

قلت : « ما الذي يفعل الشاه إن وجدها ؟ » فقال : « ليفعل بها ما يشاء ! ليرسلها إلى جهنم إلى بيت الشيطان الذي تمبده ! إنني لا أفكر فيها ولكنني أفكر في نفسي » ثم نظر إلى نظرة حنو وقال : « أنت تعرف يا حاجي بابا أنني كنت دائما أحببك وقد آويتك في منزلي عند ما كنت بغير مأوى وارتفعت مكاتك بفضل مساعدتي وأريد منك أن تدل على عرفانك الجليل وأمامك الآن فرصة سانحة » ثم مسح لحيته بيديه وقال : « أنت تعرف ما أردت أن أقول »

قلت : « لا ، فاني لم أفهم شيئا » فقال : « سأفهمك إذن في كلمتين ، إنك لا تزال شابا فإذا قيل لك إنك أنت الذي أحب هذه الفتاة فإن هذا لا يضيع من اعتبارك وليست هذه الحالة كذلك فيما يتعلق بي »

قلت : « يضيع اعتباري ! إن المسألة تؤدي إلى ضياع الروح لا إلى ضياع الاعتبار . هل أنت مجنون ؟ لماذا تريد أن أموت وكيف تحتمل دمي ؟ إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني أعتقد أنك غير مذنب لأنك شديد الخوف من زوجتك ولكنني لن أقول إنني أنا المذنب »

وفي أثناء هذا الحديث أقبل نحوي خصي من خصيان الشاه وقال لي : « لقد أمر الشاه باستدعائك أنت وخمسة من النازا كشية وبأن يكون معهم تابوت ليقطعوا جثة بين يدي جلالته »

فقلت : « سأحضر في الحال » وكان مجيء الخصي في هذه اللحظة من حسن حظي لأن الطبيب تركني ثم تصيب من كل جسمي عرق بارد وأحسست أن عيني تحترقان وأنتني على وشك الانغماء وقلت في نفسي : ألا يكفي أن أكون أنا السبب في موتها حتى أطلب بأن أكون جلادها أيضا ؟ لماذا أدعى إلي هذه المهمة الشنيعة ألا أستطيع أن أهرب من هذا المنظر البشع ؟ لا أظن شيئا من ذلك في الامكان لأنه لا مفر مما قدر علي ولا مناص من أداء ما كلفت به ، ما أقبحك أيتها الدنيا ! ماذا يكون نصيبك في قلوب الناس لو اطلع كل منهم على حقيقته ؟

في هذا الوقت كنت أشعر أن قلبي ينوء تحت عبء ثقيل ، وجمت الرجال الذين سيتولون من تنفيذ العقوبة الوحشية ولم يكن أحد منهم يبالي لأنهم

لا شأن لهم وليس في نفوسهم مثل ما في نفسي من المطف

وكان الوقت إذ ذاك وقت الغروب وقد اختضبت السماء بلون دموي وترايل نور النهار . وكانت ليلة البدر ولكن السماء ملبدة بالغيوم

ولما أذن المؤذن لصلاة العشاء أحسست أن صوته يبعث الموت في نفسي لأن هذا الصوت كان نذيراً بموت الفتاة . وذهبت مسرعة إلى المكان المهود فوجدت أصحابي قد وصلوا إليه وهم جالسون بغير مبالاة على التابوت الذي ستدفن فيه زينب وقلت لهم : « هل انتهيت ؟ »

فقالوا : إنهم لم ينتهوا

وبعد ذلك ساد صمت رهيب وقد كنت أتعنى أن يكونوا قتلوها قبل مجيئي حتى لا أشهد هذا المنظر المنكر . أما وهو لم ينته فلا بد لي من رؤيته . وبعد قليل جاء رجلان من خدم القصر يقودان بينهما فتاة تصرخ بصوت مرعب كأنه صوت عشرين مجنوناً يضحكون في وقت واحد ، وكان الرجلان يجرانها بمنف وهي تقاوم وتأبى المسير

وكان صوتها يشتد كلما دنت منا فبدأ التأثير حتى على أوجه الجلادين الغلاظ القلوب ، أما أنا فذهلت ، ولو سئلت في هذه اللحظة عن شعوري لما استطعت وصفه أو تحديده وقد كنت بالرغم من ذهولي وشروود ذهني قادراً على رؤية ما يجري أمامي من الأمور

وأخيراً سمعت صرخة عالية تلاها صوت جسم يقع على الأرض وإذا نسيت شيئاً فيستحيل أن أنسى المرارة التي شعرت بها عند سماع هذا الصوت ثم رأيت جسم زينب ملق على الأرض في وسط

الدماء . وكانت لا تزال تنفّس وسمعت ألفاظاً تقولها ولكنني لم أفهم معناها ثم خفت صوتها وصاح أحد الخادمين الذين جاء بها : « هل ماتت ؟ »

فقال أحد الأوغاد الذين معي : « نعم »

قال ذلك الخادم : « إذن فضعوها في التابوت واذهبوا بها إلى الجحيم »

وقت فغمست مندبلي في دم زينب وقلت إنه أثر منها سبقي معي مادمت حياً . ووضع الأوغاد جثتها في التابوت وحملوها إلى المدفن ليدفنوها في قبر كان قد أعد لذلك من قبل ، ومشيت معهم بحركة آلية ورجلاي لا تقويان على حمل جسمي

وضعا التابوت على الأرض وأخرجنا منه الجنة وجلست على قبر قريب منه وأخذت ألاحظ ما يفعلون وقد رأيتهم وهم يضمون الجثة في القبر ثم يثبتون الأحجار في مدخله

ولما انتهوا نظروا إلى وقالوا : « لقد فرغنا » . فقلت : « اذهبوا الآن وسأبكم » . وظللت جالسا على القبر

واشتد ظلام الليل ، وكنت في ذلك الوقت أسمع الأصداء تتجاوب من ناحية الجبال ، وكانت رغبتني في المودة تقل كلما طالت مدة جلوسي بهذا المكان ، وذكرت حياتي الماضية عهداً بعيد عهد وأحس قلبي بخشوع ورهبة ، وزهدت الحياة التي أعالج الآن مرارتها كأشد ما رأيت في أدوار الحياة وأخيراً عزمت عزماً صادقاً أكيداً على أن أكون

درويشاً بالمعنى الصحيح لا كما يعيش الدراويش ظلت في هذا المكان حتى انبثق للفجر وأنا أدبر خطة لحياتي المقبلة ، واستقر رأيي في النهاية على أن أذهب سائراً على قدمي إلى أصفهان حيث

ولم تكن لدى رغبة في الكلام لما كنت أشعر به من الهم ولكن مسلك الرجل منى جملتي أنكم معه وأصنى إليه

سردت عليه قصتي منذ فارقتة وقد أعجبني منه ما كان يظهره من الاحترام الشديد لي حتى إذا وصلت إلى القول بأنني عينت مساعداً لرئيس الجلادين كاد الرجل يسجد أمامي لأن تجاربه دلته على وجوب الاحترام لكل من يشغل مركزاً كبيراً . ولما أخبرته أنني تركت هذا المنصب وتركت طهران ، شعرت بأن مركزي يسقط من عينه وقال لي إنني لا أساوي ثياب الشرف التي كنت ألبسها . وقال : « أهكنا يضحى إنسان بمحاضره ومستقبله من أجل امرأة ؟ »

ثم أطرق مدة طويلة قال لي بعدها : « إن سير الناس إلى السعادة غريب متفاوت ، فبعضهم يسير إليها من أخصر طريق ، والبعض يسير إليها من الطريق الذي لا يؤدي إلا إلى ضدها . والبعض يسير دون أن يسأل إلى أية جهة يؤدي طريقه ، والبعض إذا ما اقترب من غايته عاد من نفس الطريق الذي كان يسلكه زاهداً في الغاية مستخفاً بالمتاعب التي عاها في سبيل الوصول إليها » واستشهد بآيات لا فردوسي في هذا المعنى

وبينما نحن نتحدث إذ رأينا (خاناً) فقال لي الهروي « تعال وانس أحزانك . تعال منى فانا سنقضى ليلة لذيذة في هذا الخان وسأقص عليك أخباري أثناء وجودي في الآستانة »

كنت راغباً في تسليّة نفسي لملي أنسي همومي فقبلت اقتراحه ومشيت معه إلى ذلك البناء . وقد وجدنا فيه ناساً من جهات متعددة في فارس ، وبعد

أرني أهلي وأعيش معهم عيشة الزاهد المتصوف ، وقلت إن أبي أصبح في أخريات أيامه قاعلي أن أسفده بمودتي إليه وهو في سن الشيخوخة ، وأحتمل منه ما لا يطيق احتماله من أعباء الحياة وتكاليفها ورأيت أن بقائي في منصبتي أو في هذه المدينة أصبح مستحيلاً لأنه فوق طاقتي . ولو بقي في نفس الشعور الذي كنت أحس به هذه الليلة لصرت من أتقى أولياء الله وأكثرهم ورعاً

الفصل الرابع والأربعون

ما هي بابا يقابل صديقاً ليساعده ويمنع عنه الخطر
أخرجت من جيبى التنديل المصطبغ بدم زينب
وأخذت أفكر في مركزي الخفيف المرعب ثم وقفت أمام القبر وأقمت الصلاة . وقد أراحت هذه الصلاة صدري وجددت قواي فعزمت في الحال على مغادرة طهران وسلكت للطريق المؤدى إلى أصفهان وصلت إلى الطريق المؤدى إليها فلم أرقافة مسافرة فشيت إلى الصحراء وهناك وجدت رجلاً غريب الشكل والحالة يخاطب شيئاً أمامه على الأرض ، فدنوت منه ووجدته يكلم عمامته . ولما زدت اقتراباً منه وجدت أنني أعرفه وهو أحد الدراويش الثلاثة الذين تعرفت بهم في مشهد وهو الذي كانت صناعته القصص وإلقاءها في الجامع

ولما وقع نظره على عرفتني وأقبل نحو ليما تقنى وسألني عما كنت أفعله في هذه السنوات . وقال إنه مسرور برؤيتي . ولم يزل حديثنا يتقدم خطوة بخطوة حتى تذكرنا ما كان من أمره وأمرى وقال لي إنه ذاهب إلى الآستانة وإنه سيذهب منها إلى دلهي بعد أن يقضى فصلاً في أصفهان

فإنه آت من الأستانة وقال إنه رأى رجلاً أخذ يصفه بكل صفاتي لبوجه إليه اهتمام النازا كشيء وبعد أن أتم الوصف حتى لم يعد يتقضى إلا أن يذكر اسمي ، قال له : إن ذلك الرجل ذهب من طريق كذا ... وأخذ يضل النازا كشيء على أن يحذرنى فيما بعد من سلوك هذا الطريق

وقد كنت أطيق أى شيء سوى أن يظفر بي هذا الجلاد لأنه إنما جاء ليقبض على ؛ ومحال أن أجده في نفسه أو في نفس غيره من الجلادين شيئاً من الرحمة . وبعد أن ذهب ذلك الوغد وعاد الدرويش سأله عن المكان الذي يمكن أن أذهب إليه فلا يدركوننى فقال لى : اذهب إلى مدينة « قم » وستصل إليها في الصباح . ومتى وصلت إليها فاذهب إلى قبر السيدة فاطمة الزهراء فهناك ملجأ لا يصل إليك فيه أى إنسان، وإذا ضبطت خارج سورالدفن فلا أمل لك في النجاة »

قلت : « ولكن كيف آكل وأعيش في داخل المدفن ؟ »

فقال : « أترك لى ذلك فأنى سأعولك لأنى أعرف المكان وأعرف كثيرين فيه . وقد اضطررت مرة إلى الالتجاء إليه لأنى قدمت سماً لأحدى نساء الشاه لى تقتل به منافسة لها » وكان وصولى إلى المدفن قبل خمس دقائق من وصول الجلاد الذى جاء ليقبض على ولم أعش قط معيشة أرغد من عهدى في ذلك المدفن لأنى كنت لا أعمل أى عمل ، وكان زائرو المقبرة على كثرتهم يعطوننى كل شيء تميل نفسي إليه . والشىء الوحيد الذى تخشاه في هذه الحالة هو أن يصدر الشاه أمراً يمنع الناس من إعطائك طعاماً ، وبأن من يخالف ذلك يصبح مستحقاً

أن استرحنا من مشينا الطويل أكلنا أكلة شهية ثم طلبنا ترجيلتين وبدأ يقص على قصته التى وعد بها وكنت أحاول الاصغاء إليه ولكنى وجدت ذهنى شاردآ بى بعض ما يسمع ويفوته البعض ولاحظت أن سائر سامعيه كانوا منصتين أشد الانصات وقد أبدوا أعظم اهتمام؛ ودانى على ذلك أنى كلما تشيت في لجة الذكريات نهى عنى عنهم وعزمت على أن أستعيده هذه القصة في وقت آخر لكثرة ما فاتنى منها. وكنت أحسد أصدقائى السرورين على سرورهم وتقت إلى حلول الوقت الذى أكون فيه مثلهم

اتهى النهار عند ما انتهت للقصص التى كان يرويها وأشرق البدر وكانت السماء صافية لا شيء فيها من الغيوم التى كانت متلبدة في سماء الأمس . وبينما نحن جالسون إذا أقبل نحو الخان فارس يمدو على جواده

وكان من في الخان يدخنون في الغلايين ويتناقشون بهدوء . وكان خدمهم يتولون تهيشة الأسرة للنوم، وأما أنا فعمزمت على أن أنام على الأرض العارية وأضع تحت رأسى قطعة من الحجر ولكن لما وقع نظرى على الفارس المقبل تغير رأيى في ذلك كان هذا الفارس أحد النازا كشية الدين حضروا معى مقتل زينب وقد فهمت الغرض من مجيئه عند ما سمعته يقول لبواب الخان : « هل جاءكم أحد من طهران ؟ » وفهم الدرويش حقيقة الأمر بسرعة مذهشة لأنه كان على الدوام حاضر البديهة ولذلك أسرع إلى الباب ليتولى الإجابة على كل سؤال يوجه إلى البواب أو إلى غيره

وقد قال له إن كل من بالخان أتوا من جهات متعددة ولكنهم جميعاً ذاهبون إلى طهران إلا إياه

« إن هذا الجندي يهين المكان المقدس الذي لجأت إليه ويريد أن يأخذني بالقوة . فقولوا له هل تسمحون بذلك أم لا »

انضم الجميع إلى جانبي وقالوا ما سمعنا قط بمثل هذا من فارس، فانت لا تستطيع أخذه وإلا استثرت ضدك غضب الزهراء وعلماء الدين جميعاً؛ ولن ينجيك من غضبهم اتناؤك إلي للشاه أو لجوءك إلى حماية الشيطان »

فلم يعرف النازكشي بماذا يجيب وبقى هادئاً مدة ثم ألان صوته وراد أن يفاوضني في المبلغ الذي أدفعه إليه إذا تركني وعاد وحده . فلم أنكر عليه حقه في أن ينال ما يعوض عليه مشقة التعب لأنني ما كنت أفعل غير ذلك لو كنت في مكانه ولكنني أفهمته أنني لا أستطيع أن أدفع غير القليل لأنه يعرف الظروف التي غادرت فيها طهران . لكنه أمر علي أن أدله على المكان الذي تركت فيه مالي بطهران ليأخذه متى عاد فأبيت ذلك عليه وأمرته أن يذهب ويترك المحزونين في أحزانهم

لكن الحقيقة أن الرجل كان قد أخذ ما وصلت إليه يده من أمتعتي وثيابي وفراشي وأثاث منزلي وهو الذي أبلغ للشاه عني وتطوع لمطاردتي لكي أمكنه من الحصول على ما ظنني أملكه من مال مخبوء وكان قد لاحظ حالتي ساعة نفذ الحكم في الفتاة

وتوقع أن يحمل بي نكبة فيجعل علي في منصبي ولما رأى أن الأمر الذي معه ليس إلا قصاصة من الورق لأنه لا يستطيع اعتقال مادمته في ذلك الملجأ — لم يجد بداً من العودة إلى طهران ولكنه قبل أن يذهب أوصى حاكم المدينة بأن يشدد في مراقبتي وبأن يتفقدوني متى خرجت من الملجأ ويرسلني إلى طهران

غير اللطيف الشاه

« يتبع »

للأعدام، ولكن حالتك لا تدعو الشاه إلى إصدار مثل هذا الأمر الذي لا بلغاؤون إليه إلا في حالات خاصة شديدة الأهمية

قلت له : « أنا لست أنسى جميلك ، وربما عاد نجمي إلى الارتفاع فأريك أنني لست بمن يضيع الجليل عندهم ، وأنت تعرف حاجي بابا من زمن قديم وهو ليس من الذين يضمنون حسناتهم على راحة اليد ويخفون سيئاتهم تحت الأبط وأنا لا أزال كما عرفتنى في مشهد فبائع التبغ في تلك المدينة هو نفسه مساعد النازا كشي بانى » فماتني الدرويش وقال : « اذهب حيث شئت فإن الله معك »

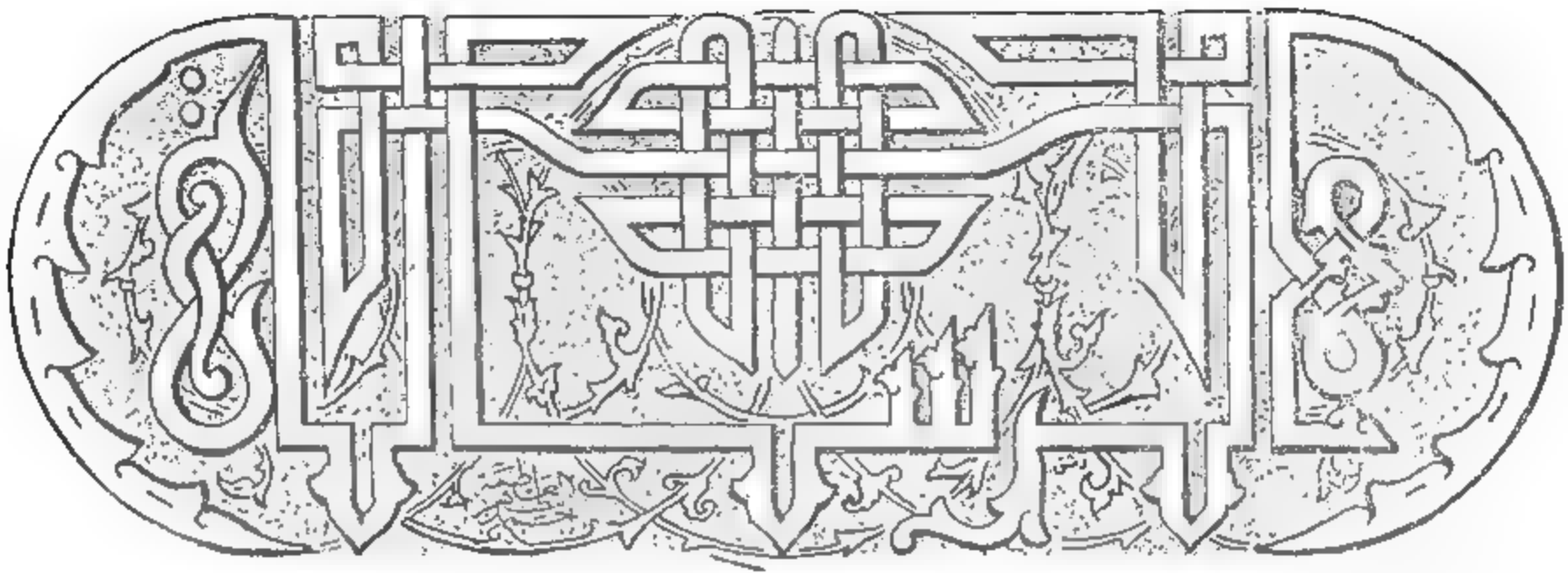
فسرت، ولما طلع الفجر رأيت على ضوئه قبة القبر؛ ولما صرت على مرمى السهم من مدينة قم رأيت ذلك للفارسي يمدو نحوها فلم أنظر يمينا ولا يساراً حتي وصلت إلى القبر الشريف فقبلت عتيته وحمدت الله وشهدت أن لا نبي بعد رسوله وصليت على الامام علي

وفي هذه اللحظة وصل النازكشي خباناً تحية فائرة وقال إن الشاه أمره بإحضاري من أى مكان يجدنني فيه . فقلت له إنني قد لجأت إلى هذا القبر ولن أفارقه باختياري . فإذا كان لديه أمر من الشاه بأن يفعل ما لا يتفق مع حرمة هذا المكان فليأخذني بالقوة .

قال لي : « وما الذي أفعله إذن يا حاجي بابا ؟ إن الأمر الذي صدر لي لا يتضمن استثناء وإذاعت دونك فربما قطع الشاه أذن بدلا منك »

قلت : « سيفعل ذلك إن شاء الله »

قال وقد استولى عليه الغضب : « تقول إن شاء الله ؟ إنني أكون سحاراً إذا لم أعد بك » ثم ارتفع صوتي وصوته فأقبل الدرويش القيمون في هذا المكان وسألونا عن السبب فقلت لهم :



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الْفَرِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ اسْكَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ الْتَطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الاشتراك الداخلي سنون قرناً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلدان العربية بنحسب ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك من سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرواية

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ - ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩

العدد ٥٠

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	المحتوى
١١٤	صلاة الفجر
١١٩	بين الحقل والمدرسة
١٣١	شجاعة امرأة
١٣٧	الابن
١٤٣	مجنون زاهد
١٤٩	يونس
١٥٥	حاجى بابا أصفهاني
...	أفصوصة عراقية
...	أفصوصة مصرية
...	للكاتب ل. غارمان
...	للكاتب الفرنسي بول بورجيه
...	أفصوصة مصرية
...	أفصوصة مصرية
...	للكاتب الانجليزى « جيمز مور »
...	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
...	بقلم الأستاذ درينى خشبة
...	بقلم الأديب ناجى الطنطاوى
...	بقلم الأديب كمال الحريرى
...	بقلم الأنسة جيسلة الملايلى
...	بقلم الأديب عبد الحليم المشيرى
...	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

قد احتواه هذا الواقع القبيح ،
وذكر ما كان بينه وبين هذه البنى
التي قدمت إليه فراشها ، وأحاطته
بذراعيها ، فأحس بالاشمئزاز ،
وذلل في عين نفسه وتضائل ..
ماذا فعلت بنفسى ؟ أهذه هى
مبادئ وأخلاق ؟ وبعد فإذا
أصنع الآن ؟

صلاة الجنتين

أقصوصة عراقية

بسم الأستاذ على الطنطاوى

وهم بايقاظ إيمانه واللجوء إلى ربه ، ولكنه
لم يستطع فقد ألقت المصيبة حجاباً على قلبه ، ورائت
الخطيئة عليه ، فأحس بالآلم يقطع في فؤاده ، فقام
إلى ثيابه يرتديها على عجل ليخرج من هذه الدار القذرة
التي أصاع فيها عفافه ، وخسر طمأنينة نفسه .
وفكر في الناس ، ألا يرونه ؟ ثم رأى أن لا بد له
من الخروج من هذه الدار التي يحس أنه فيها كمن
أتى في بركة قذرة ليموت فيها غرقاً ...

وألقى على المرأة نظرة أودعها كل ما فى نفسه
من كراهية واحتقار وبصق مشمئزاً وخرج هارباً .
ولكن كيف له بالمهرب من نفسه ، والفرار
من ضميره الذي يذيقه من التنقيغ والازدراء ما ليس
لخلق يحمل مثله طاقة ؟ وكان شارع الرشيد خالياً
مفقراً لإلّا من أعقاب السابلة ، من كل بائس أودع
لأنه لا يبقى بقلاً فى مثل هذه الساعة إلا البؤس
والرذيلة ، وكانت ليلة مجنونة ذات رياح تموى فى هذا
الليل مثل عواء الدئاب الجائعة يخاطبه أصوات آلاف
من النوم تنعب ممّا ، فتملأ أصواتها الفؤاد السليم
ذعراً ، فكيف بمثل فؤاد رجب أفندى المروع
الكليم ... وكانت الأمطار تسكن لحظة ثم تمود
فتنهطل ، تنصب انصباباً كأنما هى تريد إفراغ السحاب

... أفاق فى الساعة للى ألف ، ففرب يبصره
إلى الجدار حيث الساعة الكبيرة ، ليرى كم بقى
من الليل ، فلم يجد على الجدار ساعة ، وإنما وجد
صورة لامرأة عارية ، تبدو له على ضوء الصباح
للكيل كابية مظلمة عليها من الوحشة والقبح ستار ،
فغاف النظر إليها ، وأجال عينيه فى أرجاء الغرفة ،
فإذا هو منكراً لها ، لا يعرفها ولا عهد له بها ، وإذا
هو يرى إلى جانبه على السرير امرأة عارية مفتوحة
القم تغط غطيظاً منكراً ، وقد سالت الأصبغة
على وجهها واختلطت ، فتعود بالله من هذا الحلم
وألقى برأسه على الوسادة ، يفكر تفكيراً مبهماً
مختلطاً ، فما لبث أن عاد إلى المنام فرأى نفسه ملكاً
من ملوك الأساطير ، مضطجماً على سرير المصع
بالذهب ، المحلى بالياقوت والرجان ، والوصائف
فأغات على رأسه ، عاريات السوق ، باديات النحور
والصدور ، ينثرن عليه الورد ، ويضعن مفرقه
بالمسك والمنبر ، وأمامه المننون والمغنيات ، وإلى
جانبه فتاة جمع الله فيها ما تفرق من سمات الجمال ،
فلم يتألك أن أهوى على فيها بقيلة ...

... فأحس بها تدفمه عنها ، فنظر فإذا هو
مستيقن أن ما يراه حقيقة ثابتة ، وأن حلمه الجليل

الذنوب والله كريم غفار ، لو جاءه العبد بقرباب الأرض خطايا وجاء معها بالتوبة الصادقة بشروطها الثلاثة لجاءه الله بقرابها مغفرة ، والله غفور رحيم ...

وكان رجب أفندي في الخامسة والعشرين ، في السن التي تركب المرء فيها شياطين الشهوة ، وتزين له السبل إليها ، فلا ينفقه إذا خطا الخطوة الأولى عقل ولا تفكير ، ولا يقف إلا في آخر الطريق كالصخرة على شفر الوادي مابقيت مكانها فهي ثابتة مستقرة ، فإذا زحزحتها وقلبها قلبه واحدة هبطت إلى أعماق الوادي ... وكان رجب أفندي قد نشأ متديناً ، وكان شيخاً بعمة وحية يطلب العلم على المشايخ لم يدخل مدرسة نظامية ولم يختلط بشباب العصر ، فكانت العمة عصمة له من البلاء ، وسداً يحول بينه وبين (الأوتيلات) والمراقص والحانات ، وكانت نفسه كهذه العمة التي على رأسه صفاء وطهرًا وبياضاً ولكنه اضطر منذ أعوام إلى العمل في ديوان من دواوين الحكومة فنزع العمة مكرهاً ، وودعها آسفاً ودخل اللجة وهو جاهل بالسباحة ، ليس له بطبيعة الماء خبرة ، ولا بمسير الموج علم ، فحملته موجة فألقته بحيث ترى ... ولو أنه عرف طرق الشر لما سلكها ، ولو كان متزوجاً لما هوى ، ولو أحسن اختيار أصحابه لما انساق هذا المساق ، ولكنه كان جاهلاً بما وراء البار والمدرسة والسوق ، يستوى عنده في عالم الرذيلة جلوس في قهوة ، أو شهود رواية في سينما ، ومماقرة الخمر في الحانة ، ومجالسة البنى في الماخور . وكان عريباً ، ونفس المزب مهما اتقى وصلح كصندوق الديناميت لا يؤمن انفجاره إذا دنا له لب أو مسسته نار ، ونفس المزب

في دقيقة واحدة . والريح تضرب حباتها فتصرفها ذات اليمين وذات الشمال ، والبروق تسطع خلال ذلك تحطف الأبصار ، والرعد يدوى فتحس أن قد تقلقت بساكنها الأرض .

وضرب رجب أفندي بيده إلى جيبه فألفاه فارغاً وذكر أنه دفع مرتبه كله الذي قبضه أمس لهذه البنى ... فمظم عليه الأمر ، وبانغ من سخطه على نفسه أن ود لوعض يده بأسنانه ، أو قطع شعره بيده ، واستفزع ما أتى وفكر في أهله الذين لم ينب عنهم من قبل ، ولم يبت ليلة إلا معهم ، فكر في أمه التي يعلم أنها لا يغمض لها جفن ما دام نائماً عن الدار ، وأبيه للشيخ المسكين الذي لا يفكر إلا فيه ، ولا يبنى إلا بسعادته . ماذا يقول لهم ؟ ومن أين يروض عليهم مرتبه الشهرى الذي ينتظرونه ساعة بعد ساعة ، ليشتروا به الخبز ... أيقول لهم إنه وضمه كله في يد مومس ثمناً لليلة إثم وعار ؟

لا . الموت أهون من ذلك ! وفكر في الموت فعلاً : ماذا على إذا ألقيت بنفسى في دجلة فسترت فيها إثمى ... ولكن هذا الخاطر احمى من رأسه على عمل ، لأن رجب أفندي كان متديناً يعلم أن السلم لا يعمد أبداً إلى هذا الانهزام للشائن من غمرة الحياة وباب الفضيلة مفتوح أبداً ، والتوبة تنسل النفوس مهما تراكت عليها أضرار الآثام ... وهم بأن يستغفر الله ويدعوه ، ولكن الحياء من الله عقد لسانه ، أن يتوجه إليه ويسأله وهو غارق في حمأة الرذيلة إلى أذنيه ونسى أن الدعاء يكون أدنى إلى القبول كلما كان للعبد أقرب إلى الإضطرار ، وأن الندم على ماضى والمزم على الاقلاع عن الذنب فيما يأتي ، مع تركه والانصراف عنه دواء يشقى أكبر المذنبين من أشد

المسكين قد قرأ دواوين للشمر النزل ، وروايات الحب المذرى كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ، أو روميو آخر ...

وكان رجب أفندى يمرض في نفسه هذه القصة وهو يعيش متسللاً في ظلال الجدران ، في هذه الليلة العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك فسمع حديث شقاتها ... وبكى لبكاها ، كما كان يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم في الأشعار والروايات وصب بين يديها ما كان في جيبه من مال .. وكيف ندم وتنبه لإيمانه في نفسه . فمزم على ألا يراها من بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن الشاب المصري لا يليق به أن يفعل ذلك فماد مرة ثالثة ورابعة ، وهي دائماً في أبواب المثلة العاشقة للفريرة تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطعمه ، وتعرض عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ، ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها أبداً ، وذهب إلى مكتبه بمزجة جديدة ، وراحة بال وأدى عمله بنشاط ظاهر ، وصرت على ذلك أيام حسب فيها أن كل شيء قد انتهى ، وأن هذه السحابة قد انقشمت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه كتاباً منها فقراء وغضب وخرقه باضطراب عصبي ظاهر . وخرج يعيش إلى داره ، فأحس أن نفسه تنازعها الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت رغبته في زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً ورد على تحيتها باعراض ، فسألت: مالك أيها الحبيب؟ فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

يلهبها كل ما في السوق من متبرجات بسافرات ، وما على الشاطىء من عارين وعاريات ، وما في السينما والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأيان تأمن انفجار الديناميت ؟ . ثم جاءت طامة الطامات فالتف حول رجب أفندى نفر من زملائه تطوعوا لاغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً عنيفاً ورأوه قد ثار للثورة الكبرى لما أرادوه على دخول القهوة ، فعملوا أنه قد صف قوى نفسه كلها في هذه المركة الصغيرة ، ولم يبق لما وراءها شيئاً ، وأيقنوا أنهم لو غلبوه هذه المرة غداً منقاداً لهم طيعاً . فما زالوا به يراوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من يثق بهم على مسمع منه : هل في دخول القهوة ما بمس الدين أو المرض ، أفنوناً يا مسلمون ؟ . فيقولون : لا ... وإنما هي مضيق للوقت ، مفسدة للصحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافي الدين ، ولا تمتد في المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل القهوة ، فجلس مستحيماً يتصبب منه العرق ، ويظن أن كل ما في الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق للبقاء فخرج ، ولكن رجله علفت في الفخ ... واعتاد القهوات ، وسار إلى السينات ، وما في ذلك كله بأس ، ولكن رجب أفندى اعتقد أنه هوى وزل منذ دخل القهوة ، وأن للسد بينه وبين الرذائل كلها قد انهار ، فلم يقف في طريقه شيء ، وعرف ذلك أصحابه من عباد إبليس المخلصين ، فأنعموا لبعثهم على ذقنه ، ليستكملوا سرورهم بكال هذه الرواية ، فأخذوه إلى دار من تلك الدور التي تسمى (أوتيلات) أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور من شر المواخير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا به الفتاة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ، وكان

وذكر كيف أزمع الاتصال بها مرة واحدة ،
أو الاعراض عنها مرة واحدة واطراحها ونسيانها
وأنى له ذلك وهي لاتدع إلى إغرائه طريقاً إلا سلكته ،
إنه يراها كالأفنى البرقشة ، ويتصورها أحياناً حشرة
قدرة ولكنه يود مع ذلك لو قبض عليها فمصرها إليه
وعصرها وأكلها أكلًا ...

وذكر كيف كان الندم يذمر نفسه ، فيأوي
إلى غرفته يشتغل بالمطالمة ، ويقبل على كتب الرقائق
ويخرج إلى المقابر والمستشفيات ، يتمظ برؤية المرضى
والتفكير في الأموات ، حتى إذا أحس البرء قليلاً
جاء رفاق السوء بالمرض الفضال ... وذكر كيف
كان ينفق في كأس من الويسكي أو الشمبانيا ما يكفي
أسرته أسبوعاً كاملاً ، كل ذلك من أجل هذه الفتاة
التي انصل بها أخيراً ، فتكشفت له عن حشرة
حقيقية ، ييصق عند رؤيتها استمزازاً ...

وكان يفكر وهو يسير مسرعاً ، يريد أن يفر
من الناس حتى لا يراه أحد ، فلم يبع على نفسه
إلا وهو في ضاحية (الأعظمية) ...

قال لي وهو يحدثني حديثه :

... فلما بلغت سمعت المؤذن يعبد الله ويذكره
ذكر للسحر

ورأيت جارنا أبا صالح ، يمشى إلى المسجد وهو
يقول : لا إله إلا الله ، يقتلها من قرارة قلبه ،
فتواريت منه كيلاً يراني ، وجعلت أذكر أيام كنت
لا أعرف هذا السهر الذي جر على كل بلاء ، فكنت
أنام عقب المشاء ، ثم أفيق في السحر ، فأرافق
أبا صالح إلى المسجد ... فرأيت بيني وبينه أمداً بعيداً
وتعنت لي خطاياي وآثامي كلها ، لأن صوت المؤذن

وشمر بالارتياح ، وسره أنه استطاع أن يخاطبها
بمثل هذه اللجة ، وتوقع أن تجيبه بجفاء فيغضب
وبصارحها بالطبيعة . ولكنها ظلت صامتة ، وظل
هو مطرقاً ينظر جواب ما قال .. فطال عليه الأمر
فرفع بصره ليرى ما تصنع ، فالتفت نظراتهما وخيل
إليه أنه رأى في عينيها معنى الألم والتمب والاخلاض
بلوح له من خلال جفونها للناعسة ، وأهدابها للطويلة
فتضمضت ولان وخفق قلبه بشدة وأحس بالرغبة الملحة
في الاقتراب منها وعناقها ، ونهض ليدنو منها ولكنه
لم يجزؤ على ذلك فلبث قائماً . قالت : مالك ؟ فلم يجب ، فددت
إليه يدها لتجلسه ، فلما أحس بأصابعها بين أصابعه
اهتز جسمه كله ، وانتفض على نحو ما يصف الشعراء
والقصصيون ... وجلس إلى جانبها وألقى يده على
كتفها كأنما كان ذلك عفواً ، فشمر بلذة وسره
ما كان من جرأته ففكر في أن يلف يده حول عنقها
ولكنه خشي أن تغضب .. وأن ترى في ذلك تمديداً
على عفافها ، وذكر أن ماجدولين غضبت لما قبلها
ستيقن لأن هذه القبلة قد أفسدت الهوى العذرى ..
الذي كان بينهما ، ثم اشتدت رغبته في تطويقها
بذراعه ، فتردد حيناً ثم لف ذراعه حول عنقها ،
وأثم بما كان يفكر فيه فأسند رأسه إلى كتفها
كما شاهد الممثلين في السينا يفعلون ، فلم يبد عليها
شيء من الغضب فأوغل في الجراءة فأخذ يدها بيده
الأخرى ورفعها إلى فيه فس أناملها بشفتيه ...
ونظر ماذا تفعل ؟ فإذا هي قد أقت رأسها فوق رأسه
حتى لامست خصلات شعرها وجهه ، فالتبت النار
في أعصابه ومم بها فوثبت كالقطة .. وجعلت تشكو
إليه ما عليها من الدين ، فدفع إليها كل ما في جيبه ..
فلما احتوت المال يدها تخلصت منه فلم يدرك كيف
خرج إلى الشارع ...

سر الليل ، فأعاد الله إلى ما كان سلبنيه من الأنس وسعادة الروح بالتوجه إليه . ومراقبته . . . وله الحمد على ذلك

الآن عرفت جمال الدنيا ، لا كما يقول أصحابك الأدباء ، من أن المرء لا يعرف جمال الدنيا إلا بالحب وأن الحب لا يرى الدنيا جميلة إلا إذا أضاءتها عيننا من محب — فإذا غابت غاب جمالها — فأى كون هذا الذى تحتويه عيننا امرأة قد تكون بغيًا ؟

إننا نحتاج إلى مبشرين بالفضيلة ممن عرف الرذيلة وخبرها ، أما من دعا إلى الفضيلة لأنه لم يقدر عليها فهو شر من الشيطان ، لأنه إن قدر عليها انقلب داعراً خبيثاً فأضل معه من كان اهتدى بهديه ، والشيطان يدعو إلى الرذيلة على النور فلا يضل به إلا من أراد الضلالة ، وليست فضيلة العاجز إلا انتقاماً لنفسه من القادرين ، ولقد ترددت بين الحياتين : حياة يلذها الشبان ويأنسون بها وهى حياة الانطلاق من كل قيد ، والسى وراء اللذة ، والاستجابة إلى داعى الهوى ، وحياة لا تمجّب أكثر الشباب لأن لها غاية سامية ، ووزاءها حياة آخرة ، وفوقها إله قادر يعلم صاحبها أنه إن فاته حظه من لذة عاجلة فانية ، ناله من اللذة الآجلة الباقية ، فتأدبت بأدب القرآن فكنت أغض البصر ، وأتزه اللسان عن الفحش ، وأبتعد عن المفريات فقلت والحمد لله السعادة كلها !

قلت : أناذن لى بنشر حديثك ؟

قال : نعم ، ولهذا حدثتك به ولكن دع الأسماء لا تصرح بها . وكذلك فعلت !

على الطنطاوى

وجلال السحر قد نبتا في نفس الدخيرة الدينية ، فأدركت قيمة الاستقامة ، ولذة العفاف ، وعلمت أن هذه السعادة التى يحس بها المؤمن لا تعدلها لذائذ الجسم ، ومتع الحب ولا توازيها . . . وأدركت أن للصلة بالمرأة سراب خادع تراه من بعيد ، وتسمع وصف زلاله الصافي ، ومائه النخير ، فيبهجك الشوق إليه ، ولكنك إذا جئت لم تجده شيئاً . . . جرب هذه الصلة مرة تحس بهوانها وسخفها . . . لا . . . لا تجربها ، فإن من جرب المجرب حلت به الندامة ولا تقامر بدينك وشرفك لتعلم هذه الحقيقة بل ثق بما أقول لك . ولا تثر هذه النار في نفسك فانك لا تستطيع أن تطفئها . إنه لا يطفئها إلا أن تستمتع بكل جميل فى الكون ، وهيات . إنك إذا استطعته لا تقوم صحتك به ، ولا تدوم لك وأنت تنفق منها بلا وعى ولا حساب

لما أحسست بذلك أسرع إلى الحمام فتطهرت ، وخرجت أوثم المسجد تائباً ، وأحلف لك أنى لم أجاوز بابه حتى وجدت مثل ارتياح الفريق إذا خرج إلى الهواء ، أو المختنق إذا فتح له مجرى النفس ، وشعرت أنى أسمى وأرتفع ، وأن هذه الأغلال التى كانت تقيد روحي قد تحطمت وانكسرت ، وأن عبء الخطايا قد نزل عن كتفى ، ولما وقفت فى الصف وقلت : الله أكبر خرجت من دنيائى

وقرأ الامام : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله بغفر الذنوب جيماً » فجاء ذلك برداً على كبدى وسلاماً ، فصححت التوبة ، ورأيت أن أصل البلاء من رفاق السوء فهجرتهم جيماً ، وقطعت جبل ودم ، وتركت

نَيْزُ الْحَقِّقِ الْمَلِكِ نَسْرَةٍ

اقْصُوصَةٌ مِصْرِيَّةٌ
يَقْلُمُ الْأَسْتَاذُ دُرَيْنِي خَشَبَةً

— ليس غروراً ،

لكنك رجل لا تدري من
أمر الدنيا إلا الناف
والمحراث والساقية... إنك
مثل البهائم التي لا تعاشر
غيرها

— البهيمة التي تفيد

أحسن من الانسان الذي يضر !

— لعلك تمنى توفيقاً بهذا الكلام ...

— هو ذاك ... أنا لا أعنى أحداً سواه

— وفيهم ضحك توفيق ؟ هل كسر ذراعك

أم سطا على حقلك ؟

— لا هذا ولا ذاك .. لكنه أضاع من جهودنا

هذه السنوات الأربع ، وقد كلفتنا مائة جنيه على

الأقل يارقية !

— فداؤه كل ما نملك ... إن دخوله علينا

كل أجازة يبدلته وطربوشه — صانه الله وحرسه —

أحسن من ألف جنيه !

— طبعاً ... هذا هو الذي يفريك بذهابه

إلى المدرسة ... وقد كسر الزير منذ ثلاثة أشهر

وأنا لا أستطيع أن أشتري غيره إلى الآن ، وأولادنا

يمرضون من الجوع والبرد وتفضل ألا نشتري

لهم لحماً أو ثياباً ليذهب أخوم توفيق إلى المدرسة ،

فليت دخوله عليهم بالسترة التي نفختك هذه النفخة

كان يشفيهم أو يسد رمقهم

— أي جوع وأي مرض يا شيخ ؟ الصندوق

ولله الحمد ممتلئ بالعيش ، والقاعة ممتلئة بالحبوب ...

هل شكاك أحد منهم ؟ هل قال أحد إنه جوعان ؟

— لا ... لم يشك أحد ... لكنهم مع ذاك

— كلا ، بل لا بد من أن يذهب إلى المدرسة

— قلت لك إننا فقراء ، ولا قبل لنا بالنفقات

للطائلة التي يقتضيها التعليم

— نجوع ... نمري ... ولكن لا بد من ذهابه !

— ألا ترين يارقية أن نفقات التعليم تذهب

بنصف غلتنا كل عام ومع ذاك فولدك من الخياب ... ؟

— ولدي أنا ؟ توفيق من الخياب ؟ حماه الله

وحرسه !

— بل هو أخيب الخياب يارقية ، لقد رسب

هذا العام والعام الذي قبله ، وهو يمضي عامين في كل

فرقة ، ونفقات سنة واحدة كانت تشتري لنا جاموسة

أو بقرتين ... والتلاميذ ينالون الشهادة في أربعة

أعوام ، وما قدمضت ثمانية وتوفيق لما يزل في الحنة

الرابعة ، فالأربعة الأعوام التي رسب فيها كانت توفر

لنا ثمانى بقرات لو أننا ملكناها للملات لنا الدار

لبناً وزبدآ وجينآ ووقودآ ، وكنا نعيش في سعة ...

وكنا أصلحنا هذا الجدار الدائل ... وكنا اشترينا

حصنة على أبي زيدان وأدخلناها في دارنا فاستمت ... و..

— حسبك يا شيخ ... كفى تخريفاً ... إن

خرفاً واحداً مما تعلمه توفيق في المدرسة خير من

هذه المزبة ومن فيها ...

— هذا غرور يارقية

حظه ، أما ابننا فهو أخيب الخياب يارقية ... أنا والله لا أريد له إلا الخير ... يساعدي ... إني رجل مريض ، ولا أضمن أن أعيش له ... إني إذا مت اليوم فسيتقطع عن المدرسة برغمه ، ولا يجدمن معلمه عملاً ينفعه ... التعليم لأولاد الأغنياء والموسرين يارقية ... يكفي الفقير أن يتعلم الكتابة والقراءة والحساب وما ينفعه في صحته ودينه ...

— وهل كل الذين يذهبون إلى المدارس أغنياء ؟
— المجتهدون منهم يستحقون التعليم ... لكن الخياب أمثال السيد توفيق ، ينبغي أن يتعلموا في جهات أخرى

— وأى الجهات تقصد ؟
— ينخرطون في أعمال آبائهم
— ومن علمك هذا ؟
— الحياة يارقية .. الحياة الصارمة التي حيتها في ظل أبي

— زمن والدك قد مضى وانقضى ... نحن في زمان جديد

— زمانك الجديد هذا ، زمان مريض عليل ممثلي بالغرور ... كله زخارف ... إنك لا تريد أن يذهب توفيق إلى المدرسة إلا ليدخل عليك بالبدلة والطربوش ، وحتى لا يمشي حافياً ولا يلبس للبدلة ... وكى يكون يوماً من الأيام موظفاً مثل ابن أبي عوف ... يقبض المرتب أول كل شهر ، ويجوع آخر كل شهر ، وهو بالرغم من بذائه ووسامته يعيش عمره ذليلاً فقيراً ، إذا طرد من عمله أصبح من التبتلين للفارغين ، فهو يتسكع هنا ويتسكع هناك ، يحسد الناس ويحقد على الناس وينقم أول ما ينقم على من يحسن إليه .. هل نسيت عبد الخالق ابن الشيخ زفاني ؟ ...
— هذا حظه ...

لا يذوقون اللحم إلا مرة في كل شهر ... ودقيق الدرة قد أوهنهم وأنهم قوام ، وكلما رأيت الدم في بولهم وبرازهم ذكرت الدالة التي أودت بمحمود وقضت على كثيرين من أهل القرية

— أذكر الله يا شيخ ودع هذا التخريف
— لست أخرف يارقية ... لن يذهب توفيق إلى المدرسة بعد الآن ...

— وماذا يقول الناس ؟ نقضح أنفسنا بين أهل القرية ؟

— يقولون ما يشاءون ... ليس لأحد حساب عندنا !

— وماذا يصنع توفيق إن لم يذهب إلى المدرسة ؟

— ماذا يصنع ؟

— أجل ... ماذا يصنع ؟

— يساعدي !

— يساعدك ؟ يكون فلاحاً ؟

— ولماذا لا يكون فلاحاً ؟

— هذا مستحيل !

— لن يكون إلا فلاحاً ...

— نجوم السماء أقرب إليك مما تريد ... توفيق

لن يمشي حافياً ... توفيق لن يخلع البدلة ليلبس

البشت ... توفيق لن يلبس البدلة مكان الطربوش ...

توفيق لن يمسك المحراث بعد أن كان يمسك الفلم

— اطمئن ... فان يمشي توفيق حافياً ولن

يلبس البشت ولن يخلع الطربوش ... سيكون عروساً

كما تشتهين ، لكنه سيكون فلاحاً مع ذاك !

— لن يكون فلاحاً ...

— بل سيكون فلاحاً كما كان أبوه وكما كان جده

— بل سيكون موظفاً نظيفاً يقبض المرتب

أول كل شهر مثل ابن المعلم أبي عوف !

— ابن المعلم أبي عوف كان ولداً ذكياً وهذا

— لا . . . لم يكن هذا حظه . . . بل الغلطة غلطة أبيه

— وكيف أخطأ أبوه ؟

— لقد كان الشيخ زفاني أمير حداد في القرية . .
لقد كان يبيع كل يوم جمعة عشرين شرشرة وعشرين
فأساً غير السكاكين والمقصات ، وقد استطاع أن
يجمع ثروة عظيمة . . . سبعة أفدنة وثمانية عشر
فيراطاً يارقة من أحسن أراضي قريتنا . . . خرطة
الساحل كلها وأرض أبي طاقية . . أين ذهبت هذه
الجنة ؟ . . لقد بددها عبد الخالق . . .

— وما غلطة أبيه إذن ؟

— غلطته أنه لم يعلم ابنه صنعة

— لكنه علمه ما هو خير منها ؟

— وماذا علمه ؟

— لقد نال الشهادة والوظيفة .

— وانسلخ من طهارة الريف وغرق في زيف
المدن . . ولما استغنى عنه وعاد إلى القرية ، لم يستطع
أن ينزل إلى أرضها لأن أجنحة الغرور كانت تذهب
به بعيداً في سماء غير سماها ، فباع الأرض تقاريق
وأنفق كما كان ينفق في حياة الوظيفة حتى لم يبق
في يديه شيء . . . ولقد حاولت مرة أن أقنعه بفتح
دكان أبيه فـنـخر مني وقال : إنه لا يدري من صنعة
الحدادة كثيراً ولا قليلاً . . . ولم أكن أقصد أن
يعمل بيديه ، بل كنت أعني أنه يستطيع استخدام
أحد الصناع الساكنين من أهل البندر فيصنع له
وهو يبيع ويدير العمل ، لكنه اتخذ حديثاً هزواً
واستكثر أن يخلع سترته وينغمس في تراب الفحم
ودخان الكير وأن يمود سمعه دقات الأراذب
والسندان بمد ما تمودت أنغام المود والقانون
والسكان . . . قلت له : لكن الصنعة على قدرتها
أشرف من البطالة ، فتبسم وقال : إنه لم ييأس أن

يمود إلى الوظيفة ، وأخيراً استطاع أن ينزف إلى
أحد أعضاء بلدية منوف فعينه كناساً
— كناس ؟

— إي والله كناس يارقة ! بمائة وعشرين
قرشاً في الشهر

— مبالغ لا بأس به . . . إنه ثروة !

— لقد كان يشرب دخاناً بأكثر منه

— ومع هذا لا أحسب أن الفلاح يكسب
مائة وعشرين قرشاً مثلها في الشهر

— الفلاح مخلوق قنوع يارقة ، وهو إذا نجح
في زراعته وبارك له الله ربح أضعاف هذا المبالغ . . .
إن جاموسة واحدة يبارك الله له فيها تربحه ضعف
هذا المبلغ

— ومع ذاك فلن يكون توفيق فلاحاً

— بل سيكون توفيق فلاحاً

— إذن أترك لك المنزل

— وإلى أين ؟

— إلى أين

— وماذا تصنعين عند أبيك ؟

— ليس هذا شأنك

— إذا لم يكن شأني فيكون شأن من إذن ؟

— إذن يذهب توفيق إلى المدرسة ولا ينقطع

عن التعليم

— لن يذهب إلى المدرسة ولن ينقطع عن التعليم

— وكيف لا ينقطع عن التعليم وهو لن يذهب

إلى المدرسة !

— سيتعلم للفلاحة صنعة أبيه وصنعة جده

— هذا لن يكون

اختلف الزوجان اختلافاً شديداً ، وذهبت رقية
تشكو زوجها إلى أبيها وإلى أخواتها وإخوتها وجميع
(٢)

— أريد أن أعرف ، هل شكت لك رقية من ضيق في حياتها ؟
 — شكت أمر الشكوى ...
 — ومن أى شيء شكت ؟
 — من كل شيء
 — من كل شيء مثل ماذا ؟
 — من النار الخربة ومن الزير المكسور ومن بخلك ... ومن ...
 — بخل ؟
 — أجل ياسيد عبد الإله ... إنك تضن بشمن شربة ملح على ابنك عبد الفتاح ...
 — هذا هو الذي شكوت أمانته ... إن كل قرش يقع في أيدينا ندخره لمصروفات توفيق وبذل توفيق وطرايش توفيق ... إننا نجوع ياعم الشيخ رزق لنفراح بدخلة توفيق علينا بالبدلة والطربوش والحذاء الأصفر الفاتح ... أولادي كلهم يتبولون دماً لأننى أعجز عن إرسالهم للطبيب وهذا لأن أخام يا كل أرزاقهم ... هم ينصبون ويكدون وكل نصيبهم وكدم ذاهب عليه ... وهو مع هذا أخيب الخياب
 — كلام فارغ ... تخريف ... هل دخلت في علم الله يا شيخ ؟
 — ليس ضرورياً أن أدخل في علم الله لأعرف إن كان ولدى ينفع أولا ينفع ...
 — يا طاغى ؟
 — أستغفر الله أن أكون طاغياً ... لن ينجح توفيق في المدرسة ، ولو نجح فسوف يكون نجاحاً يشبه الخيبة
 — ولماذا ؟
 — سيكون مثل ابن أبي عوف
 — وماله ابن أبي عوف ؟

من تعرفهم ومن لا تعرفهم ، وراحت تهمة بالجهل وضيق الفهم وانقباض الكف ... ولبثت في منزل والدها أياماً طويلة وهي ترفض العودة إلى منزل الطاعة ، كما يتقعر رجال المحاكم حين يسمون منزل الرجل المتزوج .. وكما تردد الرجل على منزل أبيها يطلب أوبتها غلت في طلباتها فاشتترطت أن تشتري ثلاث بذلات لتوفيق ، وطربوشين لتوفيق ، وزوجين من الأحذية لتوفيق ، أحدهما أصفر فاتح ، والآخر أسود (بأسنك) وجلس الفلاح المسكين الشيخ عبد الإله يحاور صهره اللقي فيما ينبغي وما لا ينبغي من هذه المشكلات ... وكان الصهر كافر من الحرون ، كما أدلى عبد الإله بحجة ركب رأسه ، وأبي أن يصنى إليه ، وشرده بالحديث شروداً يكره الصدر ويذهب بأناة الحليم ... قال لزوج ابنته وهو يكلمه بكل جراحة في وجهه ، فتارة يغمض عيناً ، وتارة يقلص شفة ، وطوراً يفغر فاه ، وأطواراً ترسم الأسارير مستهزئة حول عينيه وملء جبينه ، وهو في ذلك كله يتصنع اللباقة والفهم ، وإن لم يكن عنده شيء من لباقة ولا فهم
 — أنا عارف يا عبد الإله ... أنا عارفك ...
 أنا عارف ...

— أنا اليوم كما كنت بالأمس يا سيدي
 — أبداً ... أبداً

— وماذا تغير من طبي ؟

— كل شيء ...

— كل شيء مثل ماذا ؟

— الوعود الحلوة التي كنت تعدنا بها في معاينة

رقية ذهبت كلها أدراج الرياح

— وأى هذه الوعود ذهب أدراج الرياح يا سيدي ؟

— كثير ... كثير ...

— أسوأ حال وألمن مآل !

— ولماذا ؟

— لأنه يشتغل كناساً في بلدة منوف

— كذاب !

— لست كذاباً

— هل رأيته ؟

— لم أره ، ولكني عرفت ؟

— لقد رأيته بمبنى مجلس أمام مكتب نغم .

— هذا صحيح ؟

— إذن كيف تدعى أنه يشتغل كناساً ؟

— لقد رجموه فقط ، فهو معين كناساً ولأنه

يحسن الكتابة أخذوه ليساعد للكتابة ...

— وهل أنت مهندس الكون يا شيخ عبد الله ؟

— لا ... لست أنا مهندس الكون ، ولكني

مهندس أسرتي فقط .

— وأين تعلمت هذه الفلسفة وأنت رجل ناف

ومحراث ؟

— ليس ضرورياً أن أعلمها في الأزهر الذي

لم ينفعك بصفة !

— اخرس يا قليل الأدب !

— لست قليل الأدب ، ولكني أقول الحق ..

— اخرس يا جاهل .

— لست جاهلاً فأنا أحسن للكتابة والقراءة

ولله الحمد ، وقد استفدت من الفلاحة أضعاف

ما استفدت أنت من الأزهر الذي قضيت فيه شبابك

فما أفدت مما حصلت فيه شيئاً ، ولولا ما ترك لك

أبوك ...

وهكذا انقلب الحوار فصار حواراً أفلاطونياً

عجيباً ... وهكذا تنقلب محاورات القرويين .. وقد

أخطأت رقية حين أثارت الماسفة في منزل زوجها

وحين جعلت أهلها قضاتها فيما كان ينبغي أن يكون

من شأنها وشأن زوجها فقط .

لقد كان الشيخ عبد الله رجلاً حصيفاً ينتفع

أكثر من غيره من أهل القرية بعبء الزمان ، وهو

إن أخطأ فملاقي إهاجة الشيخ زرق بتعبيره بتفاهة

ما أفاد من الأزهر إلا أنه كان على شيء من الحق

فما أراد أن يقول وإن يكن قد التوى عليه القصد

وفاته حسن التعبير ... وأهل الزوجة حق

حين يدسون أنوفهم فيما لا ينبغي أن يشاركو فيه

أصهارهم مما يمنهم وخدم ولا يعني أحداً سواهم ؛

وهم حين يشجعون بناتهم على معاندة زوجها ينقضون

بأيديهم الأئمة بنيان سمادتها وسعادة الأسرة

التي كان يجب أن تشيدها وتقيم عمادها ... وهذه

أولى وظائف الزوجة الصالحة ... لكنها وظيفة

لا تتم إلا للمرأة الكتوم التي لا يستخفها النزق

ولا يستهويها الطيش ، فتذيع من أسرار زوجها

ما كان ينبغي أن يكون سر بينهما لأنه سياسة حياتهما

لقد عير الشيخ زرق صهره عبد الله بأنه يجيع

ابنته وهي تهمة مفتراة ما في ذلك ريب ، وإن لم

تكن مفتراة فإن رقية هي التي قدفت بها في سمع

أبيها ... وقد افترتها في غير وعي ولنير حكمة الله

إلا لشهوة التشنيع على زوجها الذي ضاق ذرعاً

بنفقات تعليم ولده ، أخيب الخياب ، كما يطلق هو

دائماً عليه ، فهو يريد أن يقطعه عن المدرسة ليوفر

لأولاده أكلة من اللحم كل أسبوع على الأقل بدل

الأكلة الشهرية ، وليوفر لهم كذلك شيئاً من دقيق

القمح وشيئاً من القماش يقيمهم زمهرير البرد ، ثم

لكيلا يرضى على أحد منهم بشمن شربة من الملح

أوزجاجة من الفطيرة ، ثم لكي يضمن لولده مستقبلاً

عملياً فلا ترهقه الحياة ولا تفجأ بمطالبها بشنة حين

يرغم على حياطة الزرعة إرغاماً لم يأخذ له أهبة

ولا أعد له عدة . والزراعة فن وصران يصبحان

بعض الأيام غريزة في ساعدي الفلاح فمعا تضربان
بالفأس وتثيران الحرت كما يبنى قلم الشاعر بأهازيج
المهوى فوق القرطاس .

كانت هذه المواجهات تضرب في نفس عبدالاله
وكان كلما فكر في سلوك زوجته حزن وساوره الكمد ،
لأنها شغبت آلامه ، وخلقت له من المشكلة الواحدة
مشكلات ومشكلات ... وقد نسي كل شيء إلا
ما اقترت عليه من أمر تجويعها ، فكان يذكر ذلك
ويبكي في أحماقه دون أن يذرف دموعاً واحدة وهو
أحر البكاء وأوجع

كان يقطن الشاب المراهق توفيق أفندي عبدالاله
الطالب بالثانوية الكبرى ، في منزل صغير قذر من
منازل عطفة السلاح بحى المنشية

وكانت غرفته البسيطة الساذجة الرطبة مأوى
لأسراب البعوض وجيوش البراغيث والبق ...
لكنها بالرغم من هذا البلاء كانت جنته التي يقضى
فيها ليله وأكثر نهاره في أيام انقطاعه عن الدراسة
وما كان أكثر هذه الأيام

وايس عجيباً أن تكون هذه الباءة المثلثة
بأسراب البعوض وجيوش البق جنة التلميذ المراهق
توفيق أفندي عبدالاله ... فالحجرة على قذارتها لها
نافذة تشرف من بعيد على حدائق المنشية الناعمة
تحت أسوار القلعة ، وذلك منظر فجب يفتت الريش
في خيال شاب مثل توفيق ، ويجمل له أجنحة
فيرفرف في عوالم الشعر ، ويجمل حياته ضرباً من
الأحلام لا يفيق منها إلا على لذة بموضة أو عضة
ذكر من ذكران البق أو ياشق من بواشق البراغيث
وليس هذا المنظر وحده الذي جعل الغرفة جنة
لهذا الشاب ، بل هناك شيء آخر ... شيء إذا وجد
قلب كيان المرء وملك زمامه ، وسلبه له وتفكيره

لقد كانت أسرة فقيرة تعيش في إحدى حجرات
الطابق الثاني من ذاك المنزل ... وكانت الأسرة مكونة
من رجل عامل فقير ومن زوجة بائسة ، لهما طفلان
يافعان ، أما أحدهما فغلام في السنة الأولى الابتدائية
وأما الثانية فتفتاة في السابعة عشرة ، رسم الفقر حول
عينها تهاويل عجبية من السحر ، كانت تشر ظلالاً
من الفتنة فوق خديها ، وألواناً قرصية فوق شفيتها
وكانت ابتسامة واحدة من فمها الدقيق الرقيق تصير
يبؤس والديها أنها ، وتنسيهم ما هم فيه من عناء وضيق
وكانت هذه الابتسامة نفسها بلسا يشفى فؤاد
توفيق ، وطلسم يشيع بالنشوة في كيانه ، فهو لهذا
لم يكن يمدل بفرقة القدرة المكظوظة بالحشرات
من كل صنف قصرأ بأسره ، ولا مدينة من مرمم
يشيدها ملك الجن فيزخرها ويقم عمادها من فضة
وذهب ، ويجرى تحتها الأنهار من نخر ولبن وعسل
مصفى ، وينبت فيها من كل زوج بهيج

وأجل الحب وأخطره ما يكون في هذه السن
المبكرة ... فهو حب ينمر القلب ويشك النفس
ويؤرق العين ، ويجعل صاحبه طيفاً قلماً تصدمه
حقيقة الدنيا ، وقلماً يمتدح بما فيها من نضال ،
لأنه لا يفكر دائماً إلا في ملاك ، وهو يفتنى فيه
بقلبه وعينه وسممه وإدراكه ، ويهيه كل وقته لأنه
يعد نفسه كلها قرباناً لحبيبه ، وهو ينظر إليه كأنه
شيء مقدس علوى ، فهو يحسد ملاسته لأنها تلصق
دائماً بجسده الجميل المعتلى باللذة ، وهو يحسد
الأرض التي يختال فوقها لأنها تقبل قدميه دائماً
دائماً ... وهو يحسد الهواء الذي يملأ رئتيه لأنه
ينفذ إليهما من أنفه الأفتى الجميل ، ثم يخرج من
فه الحلو الطبوع بالقبل ... وهو يحسد الغرفة التي
يميش فيها لأنها في نظره أتمن من كنوز سليمان
لأنها تضم ثروة من الجمال تعدل ثروة أضافاً مضاعفة

فيسمونه حبا ، ثم يوردون له الخدود ويقعدون
القدود ، ويكحلون عيون الأرام بالسحر ، ويمهدون
له القلوب لينام فيها مطمئنا مستريحاً ناعم اللبال

وذهب توفيق إلى القاهرة ليصل حياته المدرسية
وأفأ إليه راغم ... ثم ليصل غرامه بالفتاة الناهد
المذراء الريانة

لقد كان توفيق يكره التعليم أشد الكره ...
وكان ينظر إلى الكتب كأنها سموم معبأة في قوادر
إذا ذاقها أذاقته المنايا أشكالا وألوانا ... وكان أكثر
الموم بضكا إليه دروس الجبر ... لقد كان يسميها
دروس الألفاظ والمعيات .. ولم يكن يدرى ما فائدة
اللوغز تم مثلا ... وكيف يستعمله في حل مشكلة
دودة القطن أو الندوة المسلية التي تصيب اللوز
أو عمل الجبن أو استخراج الزيت من اللابن ...
أو ما فائدة الجذر التكسيبي في علاج صدأ القمح
وكان يرى جيوش المعلمين تغزو القهوات
ودور اللو ، والسعيد من حصل منهم على عمل
بيضة جنهات يستر بها حاله ولا تموض شقاءه
للطويل في دور التعليم ، ولا نهض بالأمال للكبار
التي كان يملقها بمستقبله والناه

لقد كان يرى جيوش المعلمين المتعلمين يتسكمون
هنا ويتسكمون هناك ... وكان يقرأ في الصحف
غزواتهم للوزارات وأخبار اجتماعهم وهتافهم بزبد
وصياحهم بعمرو وإملاء إراداتهم على أولياء الأمور
حين يطالبونهم بخلق الوظائف لهم وتدير الأعمال
التي تناسبهم فكان يضيق ذرعا بمستقبله ويراه أحلك
من ظلام القبور

وكان له صديق أسعد حالا بالتعليم وأقل كراهية
للكتب ، وأكثر تفاؤلا بالمستقبل فجلسا مرة
يتجاذبان أطراف الحديث في حديقة المنشية ، وكان

ثم يشذ في حسده وينلو غلوا عجيبا حين يحسد
أم حبيبته وأباه وأهله الأدين لأنهم يكلمونه دائما
وهو يكلمهم فيملا آذانهم من سحره ، في حين
أنه ناء ما يستطيع أن يكلمه إلا بقدر ، وإلا في كل
فرصة منتزعة من عفو المصادفات

هذا هو الحب الجليل الخطر المهلك ... فهو جميل
لأنه ينمو في سن جميلة ... في زهرة الصبا وعمر
الأحلام ... عمر الفراغ والخيال المشبوب . الخيال
الذي لم تفسده حقيقة الحياة المرة المشوبة بمكر
المستولية

وهو خطر بل مهلك لأنه بوقظ الحيوان الذي
يشور ويتدفق في أصلاب الناس منذ آدم ... وهذا
الحيوان هو أضرى الحيوانات كلها وأشرها لاسيا
إذا استيقظ في هذه السن المبكرة ، وهو في الغالب
يستيقظ فيها ، فلم يصرفه المؤدبون والآباء في كياسة
ولطف بمختلف الوسائل التي يرسمها العلماء لمحاربتة
أو للتسامي به ... فهم يحاربونه بالكبت بالدين
والنخوف بجهنم أو التهويل بما يلحق الجسم من
تهدم من جرائه ... وهذه طرائق سلبية قد تضر
أحيانا وقد لا تجدى إلا قليلا ... ثم هم يتسامون
به فيصرفونه إلى الرياضة والفنون والدفاع عن الوطن
والمخاطرات من كل لون ... وهذه طرائق إيجابية
كثيرة الجدوى في تطايف حدته ، ولكنه مع ذاك
قد يشور بالوسيلتين فيحطم كل شيء ، كما حطم هذه
السنوات الثماني من حياة توفيق ، وكما حطم معها
أمل الشيخ عبد الاله ، وكما حطم صحة أبنائه بالتجويع
والعري ، وكما ذهب بأمله في شراء حصه أبي طاقية
وضمها إلى الدار ، وكما غل يد الرجل فلم يشتر
البقرات الثماني التي كان يرجو أن تملأ له منزله
سمنا وعسلا ...

هذا هو الحيوان الفتاك الذي ينازله الشراء

- للتلاميذ قد أجمعوا على الاضراب ذلك اليوم فلم يذهب
توفيق وصديقه إلى المدرسة
- وزارة ظالمة ووزراء لا يهمهم إلا أن يرقوا
في ثياب السمادة للفضفاضة ... كلما كان لهم قريب
أو محسوب خلّعوا له الوظيفة خلقاً ، فإذا طالبناهم
أن يحلوا أزمنا لوّوا أعناقهم وقالوا شباب قُنع
مستهترون ...
- وماذا ترى الوزارة صانعة يا توفيق ؟
- ماذا أراها صانعة ؟ ولماذا تقبلنا بمدارسها إذن ؟
- تقبلنا بمدارسها لأننا نطلب ذلك
- لكنها ولية الأمر فيجب أن تدبر لنا مستقبلاً
- وأى مستقبل تراها مدبرة لنا ؟
- لا تلاحق بالوظائف إلا الأكفاء المتخرجين
في مدارسها
- هبها فعلت ذلك فهل تكفي وظائفها جماهير
المتخرجين ؟
- لا غرو أنها تكفي !
- أنت تقول هذا وقد أثبتت الوقائع أن
استيعاب وظائف الحكومة لجيوش المتخرجين عبث
بل ضرب من المستحيل
- إذن فلماذا تقبلنا في مدارسها ؟
- تقبلنا لشدة إلحاحنا في ذلك .. لتهالك آبائنا
على مدارسها. وإذا أردت الحقيقة فأبؤنا هم المخطئون
- أبؤنا مخطئون ؟
- أجل ، وهم الجناة المستولون عن ضياع
مستقبلنا ...
- ماذا تقول يا حلیم ؟
- أقول إنهم يلحقوننا بالمدارس وهم لا يدرون
ماذا نصنع حين نتخرج فيها ... وإذا سألتهم أجابوك
هذا الجواب الضعيف التهافت : دع الأمر لله
فالمستقبل بيديه وهو يعلم الغيب وحده سبحانه !
- وهل المستقبل بيدك أنت ؟
- أنا لا أشك يا صديقي أن مستقبل كل
إنسان بيديه وبدي أبيه !!
- هذا كفر ...
- ليس هذا كفرًا كما توحى إليك تربيتنا
للفاسدة ... إن مستقبل الناس بأيديهم والقادر
بيد الله ... إسمع يا صديقي توفيق ... إن إقبال
الآباء بأبنائهم على مدارس التعليم النظري بهذه
الكثرة الهائلة هو نوبة من جنون التقليد ... إنهم
يندفعون مع التيار دون أن يفكروا في هول اللجة
التي تصفهم حين يقذفون فيها بفلاذات أكبادهم .
إنهم يرون ابن فلان من الناس قد حصل على وظيفة
بعد شق النفس ، ثم ما هو إلا أن بدا بينهم مختالاً
في بذلته مياساً تحت طربوشه حتى يحزن جنونهم ،
ويتمنون لأبنائهم مثل مراكزه إن لم يكن أسمى من
وظائفه ... فيسلكون السبيل نفسها التي سلك ...
فترى أبناء التجارين والحدادين والفلاحين والعتالين
والنقاشين يذهبون إلى المدارس أفواجا ، ثم
يتخرجون فيها أفواجا ، ثم يتكديسون بعد ذلك
في القهاوى ودور اللهو ، ولا يستحيون مع ذاك أن
يرهبوا ذويهم بمصرفاتهم الباهظة حتى يحين الحين
فيجد بعضهم عملاً تافهاً في ركن مصلحة من المصالح
ويسقى الآخرون وهم الأكثر شذاذاً في الطرق
عياً على أهلهم .. ما هذا ؟ أليس هذا جنونا يا صديقي ؟
- ... ؟ ...
- أليس كان الأليق بأكثر هؤلاء إن لم يكن
بهم جميعاً أن يسلكوا سبيل آبائهم ؟
- ... ؟ ...
- لماذا لا تتكلم ؟
- إنك بهذا تريد أن تقصر التعليم على أبناء
الأغنياء !

— الحكومة عليها واجب عظيم في ذلك ... ينبغي أن تحمي البلاد من سيل المهاجرين الأجانب الذين يذهبون بثلاثة أرباع الأعمال العامة فتجنب الشبان منافستهم الشديدة ومزاحمتهم غير المشروعة ... إن سبعة في المائة من خدم القهاوى الكبيرة والفنادق الراقية من الأجانب ... إن سبعة في المائة إن لم يكن تسعين ، من وظائف الشركات الكبيرة الأجنبية مقصورة على الأجانب

— إن رأس المال أجنبي يا صديقي فهذا حقهم — كلا ... إنه إن يكن رأس المال أجنبياً فإن الثمرة مصرية بحقة ... ولا تنس أن رأس المال الأجنبي يبدأ صغيراً ثم لا يلبث أن يتضاعف في بلادنا ... فلك أن تعد كالبذور الأجنبية نجلبها من الخارج ونزرعها فنبت محصولاً مصرياً — وما واجب الأغنياء إذن؟ أتمنى أنهم مكلفون بالاتفاق على الفقراء؟

— ما عنت هذا ، ولا يستطيع أحد أن يكلفهم به — وماذا عنت إذن؟

— عنت أن عليهم واجباً مقدساً إن لم يقوموا به استعقوا الزرابة .. ذلك أنهم يكسبون أموالهم فيها لا يجلب ثروة واسعة في هذا العصر ... إنهم جميعاً لا هم لهم إلا شراء الضياع واقتناء الدور والقصور ... فأموالهم بذلك ممثلة وإن جلبت ثلاثة أو أربعة في المائة ربحاً لها كل سنة — وماذا يصنعون يارعاك الله؟

— لو أن الفنى منهم فكر في إنشاء مصنع لصلح الحال ... على أننى أفضل أن تتحد كل جماعة منهم فتكون شركة تفتح ناحية من نواحي النشاط للبكر المعلقة في مصر ... يجب أن تتحرك أموالهم لأن المال وحده هو دم الاقتصاد الذى لا ينقد ، وإن

— كلا ... فما إلى هذا قصدت — وماذا تقصد إذن؟ — هنا عيب الحكومة ... — ألم أقل لك إنها وزارة مقصرة؟ — ليست هذه الوزارة هي المقصرة بالذات ، إذ هي غلطة جميع الوزارات — وما ذاك إذن؟

— لو اقتصد الآباء في إرسال أبنائهم إلى المدارس بعد المرحلة الضرورية منه — التعليم الابتدائي مثلاً ، أو الأولى إذا دعت الضرورة — كان واجب الحكومة أن تنتخب من أبناء الفقراء ، بعرف للنظر عن مهن آبائهم ، العدد الأكبر من نافعهم فتعلمهم على نفقتها ، فمن استمر منهم على نبوغه استمرت هي على الاتفاق عليه حتى يتم منهاجه ويصبح جندياً ممن يعملون في الصف الأول من صفوف الخدمة العامة ؛ ومن أهمل منهم ، أو تكشف عن غير ما كان يرجى منه ، انحرفت به الحكومة عن الطريق ، أو انحطت في وظيفة صغيرة مما يناسبه من الأعمال الصغيرة العامة ... فبمثل هذه السياسة خصوصاً إذا تولتها أيد حازمة ، كنت لا ترى هذه الجيوش من المعلمين الماطلين ، ثم كنا وفرنا للمهن الحرة فئة من الشباب الصالح يرتفع بها ، ولا يجعلها من الهوان بحيث يحتقرها الآباء . ومنها بطمئهم الآباء ... إن احتقار المهن الصغيرة قد أخرج مجترفيها عن دائرة الشرف ، وهذه هي علة الملل في أخلاقنا — وهل تظن أن هذه المهن من الرواج بحيث تكفل الخير للكثيرين؟

— إنى أثق أن أيا من هذه المهن تضمن للانسان حياة هادئة سعيدة خصوصاً إذا تضافت الحكومة والأغنياء في رفع شأنها — كيف تتضافر الحكومة والأغنياء؟

تكن اليد العاملة والدهن المفكر ما پورت - بلازم
هذا الدم ... أقسم لك لو تم هذا لما رأيت متعلماً
عاطلاً في مصر

— هذا صحيح يا حلیم ...

أفاد توفیق من حديث صديقه حلیم قائدة
جلیلة ... لقد رأى جانب العبت من حياة التعلیم ...
لقد وقر في ذهنه أن أباه كان على حق حين أراد منعه
من الذهاب إلى المدرسة ليتعلم الفلاحة ، وليندمج
في روح الحقل ، وليرث أباه وراثته صحيحة ، وراثته
الملك والفن والمهنة .

غير أن شبح الفتاة الناهد — لیلی —
تمثل له نغمره وصرف عنه طائف الحقيقة ، وأغرته
في بحر لجى من هواء المبرح ، وخياله المشبوب .

لقد كان الحيوان الخبيث الذى استيقظ بين
كتفيه يمدبه ، وبصور له الفتاة المثلثة الحسنة
تقلب بين ذراعيه ، وتلصق لحمها الوردى الساخن
بالحمة المتأجج ، وفوقهما الخمرى الفتان فه المشتعل
يقطف القبل ، وفي عينيها المهاوين عيناها الجائعتين
تسبحان في دنيا من المغائن والسحر .

هذا هو حيوان اللذة المدمر ... هذا هو الحيوان
الذى يقضى على نعمة الخير في نفس الانسان ...
هذا هو الشيطان المسلط على الروح الانسانية يشوه
جمالها ويصرفها عن نهج الهداية ، ويخرف لها
باللذة الأنيمة فتضل وتخزي .

كان يجلس في نافذة غرفته يذلل ليلي ساعات
وساعات حين لا تكون أمها في غرفتها .

وكان كلما لقياها على السلم أرسل نحيبة مخنوقة
تردها في حياء وفي خفر ، وهى تعلم ما تضر
جوانحه لها من حب ، وما ينطوى عليه قلبه من هيام
وكان إذا واثته الفرصة فصعدت ليلي تنشر

ملابس الأسرة فوق السطح ، تسال كالص ثم اختبأ
في ركن حتى تفرغ من عملها فيندفع نحوها في تأدب
وَوَلَه ، ثم يقف صامتاً وملء وجهه الشاحب
المرجف عواطف مكبوتة لا يستطيع أن يعبر عنها
إلا بدمعة أو دمتين ... فتفهم ليلي ... وبجزبه
بابتسامة رقيقة ... ثم تهبط بسرعة كالنزلة ...
فيتدحرج تحت قدميها قلبه وأنفاسه !

وصعدت مرة تلم الملابس فصمم على أن يشير
معهما خطته ، وأن يكون هذه المرة أكثر
إقداماً وجراً

لقد انتظرها حتى نزلت بحملها فوقف يحول
بينها وبين النزول إلى غرفتها .. ثم أخذ في حديث
خافت هكذا :

— ماذا يا توفيق ؟

— أحبك !

— عيب !

— وكيف يكون الحب عيباً ؟

— هذا لا يليق !

— لا بد أن أعرف !

— تعرف ماذا ؟

— إن كنت تحبيني !

— أرجوك دعنى !

— لا بد أن تتكلمى !

— هذا مستحيل !

— ماذا هو هذا المستحيل ؟

— أى تحت ... دعنى أرجوك !

— إذن نسجل حبنا بقبلة !

— مستحيل ، مستحيل !

وقبل أن تستطيع الافلات ، انقض على فيها
الشئ الجميل فسرق منه قبلة فاضحة ، ثم
مرقت كالسهم على السلم ، ودخل هو إلى غرفته

حاملة حملها ... فأخذ قلبه يخفق بشدة وفي عنف ...
وخيل له أنها بطيئة مع أنها في زعمه أرشق من
الظبي وأسرع من الظليم ... ثم هبط يمدو وانهض
على حملها فالتقطه من فوق رأسها ... فنظرت إليه
وتضاحكت ... وصعد الاثنان

ودخل توفيق إلى غرفته بكل الملابس !!
— هلمى ...

— مستحيل ... مستحيل !

— بل المستحيل أن تصمدى !

— يجب أن أصمد ... إن أمي عائدة الساعة ،

فماذا أقول لها ؟

— لن يجلسي إلا دقائق

— ليكن بعد أن أفرغ من عملي !

— إذن أصمد فأساعدك !

— كثر الله خيرك ... بل استرح أنت

حتى أزل !

— إذن أوصلك إلى السطح !

وتوالت على السلم ... وتوالت من خلفه ليل.

ثم وضع حملها ، وأهوى على فخا فطبع عليه القبلة

لثانية ... وكانت قبلة طويلة متبادلة ...

وعادت ليلي بعد دقائق كانت أطول من دهر

فتلقاها توفيق في ذراعيه وأجلسها على مقعد متوسط

ثم راحا يتناجيان

وكان حديثاً طويلاً شهيماً مرصعاً بالقبل ،

لم يوقظهما منه إلا انفتاح باب الغرفة السفلى ، فهبطت

ليلي بسرعة

ونسى توفيق كتبه ، وفرغ لجه

وصرت الأيام

وبدا الشعوب على وجه توفيق ، وكان قد

أفرط في استجلاب اللذة المصنوعة ، لأن ليلي كانت

أحرص على عرضها أشد مما حرص إبليس على

(٣)

والأرض تميد تحت قدميه ، ونشوة القبلة تسرى
كالجيا في فؤاده ، صرفة بأجنحة اللذة ، متأرجة
كالورد ، عذبة كالنسيم ، منددة كأنفاس الصباح !

ما أبدع القبلة الأولى من قبل الحب !!

إنها تفصل من حقيقة الحب بين حياتين ...

إنها تغال تدوى في ذكرى الماشق كما يدوى الأمل

والظفر ... إنها تلمع كالبرق في ظلمات يأسه ...

إنها كالمنارة في ظلام البحر اللجج

تطرح توفيق فوق سريره بتقلب كالسكران

لقد نسي كل ما قاله حليم !

إنما الحياة هنا ... في القاهرة ... الحياة الحب

والحب الحياة كما يقول شوقي وكما يغنى عبد الوهاب

ليبق توفيق في غرفته ... لتكن المدرسة حبيبة

إلى فؤاده لأنها تبقى إلى جانب حبيته ... ما أسراب

البعوض وجيوش البق والبراغيث في قبلة واحدة

يطبعها على فم ليلي ؟

لقد نال القبلة الأولى بالمنف ، فإذا يحول بينه

وبين القبلة التالية ؟ لا شيء ! أليس قد شرب

الكأس الأولى ؟

وجلس يرقب صمود ليلي بقلب مضطرب ،

وأعصاب فائرة ... وكان يعرف متى تصمد ، إذا أحس

بحركة الغسل في قاعة حبيته فيجلس بومه كله يرقب

لضاعدين والنازليين ...

وأطل فرأى أمها تخرج وتترك دنيا غرامه

بدون رقيب أو عزول ... ففرح واستبشر ، وتأكده

سيقع على منية أغلى وأقى ... لا قبلة ترك في القلب

لوعة وأشجاناً

وفكر في أن يخاطر ويذل إلى ليلي ليسعد

بنظرة منها مؤقتة تشفيه أو تكويه ... وكلاما عنده

سواء ...

لكنه ما كاد يفعل حتى رآها تبرز من غرفتها

ومضت أيام وأيام .
ثم تسلم يوماً ما خطابين عرف أولهما لأنه من
أييه فأحمله قليلاً ؛ وفض الثاني فلم يجد في رقبته
غير هذا للسطر :
«وداعاً يا صديقي فقد تزوجت وأنا سعيدة برجلي !»
واضطرب قليلاً ... وحاول أن يقرأ خاتم البريد
فلم يفلح ...
وفض الخطاب الأول فماله أن يقرأ من أييه أنه
مريض وأنه في خطر ، وأن لا بد من وجوده بجانبه
في ساعاته الأخيرة
وأفاق توفيق من حمله اللذيذ
وصدمته الحقيقة المرة
فعاد ليودع أباه ... وليحمل على عاتقه العبء
الثقيل الذي غنى لو كان حمله قبل اليوم ، ليكون له
أهلاً ...
دربني فتهبه

عصيان ربه حيناً أمره بالسجود لآدم . لقد رفضت
أن تسقط إلى الحضيض الذي أغراها توفيق بالتردى
فيه .. لكن الحيوان الدميم كان يعصف به ، ويرغمه
على إشباعه ، فكان المسكين يستسلم له بعد نزول ليلي
فيباشر العادة السرية مباشرة قتالة تستنزف ماء حياته
فلا تكاد تبقى منه شيئاً
وعاد يوماً من المدرسة فوجد غرفة ليلي خاوية
ماذا ؟ !
لقد ذهبت إلى حيث لا يدري !
وبات ليلة طويلة مؤرقة ... ونزل نصف الليل
يجوب الطرقات كالجنون . ثم عاد مع الفجر فصعد
إلى غرفته ، وعاد إلى غرفة ليلي بمصباحه وجانب
من فراشه ، وابث يتلوى كالمحموم حتى تنفس الصباح .
وابس ملابسه ، وهرول في الشوارع يبحث
وينشم ، ولكن بلا جدوى .

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي



عاملوه ... وعاملوا شركائهم شكبوا ... النصر ليهودكم

شجاعة امرأة

للصكايت ل. غارمات
بتكلم الأديب ناجي الطنطاوي

من بني جلدتها ، يدخل بسرعة
ويبثق الباب وراءه بدقة وحذر
فحدقت «ى» في وجهه وسألته
بصوت رن صدهاء في جوانب
الغرفة :

— ماذا تريد ؟ ألا تعلم أن
هذه غرفتي الخاصة وليست ندبا
مشاعا ؟

كان الداخل فتى يافعا جميل الطلعة برغم البسوس
المشثوم الذي شوه ملامحه ، وكان ينظر بعينيه المظلمتين
كالمتوه . ومارأته «ى» حتى ارتد فكرها إلى مناظر
القنص بواسطة الخيل ، وإلى العمل المسكين في الذابات
ثم قالت تحدث نفسها :

— إنه معرض للفح الشمس كما أظن
ولكن الرجل لم يدعها تتابع تفكيرها طويلا ،
بل فاجأها بقوله :
— إياك أن تبدي حرا .
وسحب خنجره من تحت منطفه وشهره في
وجهها قائلا :

— إننى يائس . لم يعد لى أدنى تردد في قتلك
فاستولى على «ى» تهبج نفسى مفاجئ اضطرب
له كل جسمها ، ولكنها جاهدت أن تكتمه وتجلدت
ما أمكنها التجلد

كانت «ى» ذات جمال ساحر ، وذات ملامح
متناسقة ، ويظهر أن سنهالم تجاوز الخامسة والعشرين
وممها بالغنى ذلك فإن نستطيع أن ندعى أنها تجاوزت
الثلاثين . كانت قائمتها متوسطة الطول ولكن الشجاعة
لا تقاس في نظرها بالسنيتمرات . وعادت فألقت
عليه سؤالا للمرة الثانية دون أن تم عضلة من عضلات

كانت الساعة تدق الثامنة ، في ناقوس السكرتارية
التي تقع في الجهة المقابلة للحديقة . وكانت الليلة
شديدة الحرارة والروحة الكهربائية تدور بسرعة
هائلة في الغرفة التي كانت «ى» ترتدى فيها ثيابها
استعدادا لتناول طعام العشاء

كانت منهمكة في زينتها الدقيقة ، ولكنها لا تزال
على اتصال بالحياة خارج الغرفة ، إذ أنها كانت تسمع
ضجيج الشارع ، وكانت دارها محاطة بحديقة صغيرة
ملأى بالزهور المحفوظة من أشعة الشمس طيلة العام ،
وكانت هذه الزهور حمراء بلون الدم تغطي الأرض
كلها . وكان يصلها من النافذة شذى نفحات
النباتات والورود مع النسيم الأريج ، والبيوت في
الشرق تكون عادة مفتوحة النوافذ لجميع الجهات
كانت «ى» تشاهد خيالها في صفحة المرأة
وتبتسم ، ولما أتمت زينتها ، سمعت صريحا ، فالتفتت
فاذا بباب غرفتها يفتح

غضبت «ى» لهذه المفاجأة ، وارتدت للوراء
قليلا كي توضح القادم وتمنعه ، وقد حسبته خادما ،
والخادم لا يسمح له أن يدخل بلا استئذان إلا مرة
واحدة للضرورة ، ولكن نددت منها صبيحة دهش
وذهل عند ما رأت رجلا أبيض البشرة لأسودها ،

وجهما عن الغم والكمد اللذين أصابا نفسها :

— ماذا تريد ؟

فأجاب الرجل بصوت منخفض مضطرب :

— مالا بالطبع

فأعرضت عنه بازدراء واستخفاف ، وقالت

في نفسها :

— ليس لي من وسيلة أحسن من رفع صوتي

أو أضغط هذا الزر الكهربائي فيتسابق الخدم نحوى

ويكونون طوع أمرى

ولكن الخبيث أدرك ما يجول بخاطرهما فصاح

بها في وحشية وفظاظة :

— ابقدى عن هذا الجرس !

فلم تتحرك « م » بل أجابته بهدوء :

— سيكون باستطاعتي أن أضغط على زر الجرس

دون أن تعلم بذلك ، ولكنى لن أفعل ، لأننى موقنة

أنك لست مالكا لشعورك الآن ، وستعود سريعا

إلى حالك الطبيعية

قالت ذلك ، وظهرت على وجهها ابتسامة صغيرة

كلما تهكم وهزه وسخرية

فتبدل لون وجه الرجل من التهييج والجنون

وصاح بها :

— أعطبنى المال حالا ، أسألك بالله

وصرت على وجهه سحابة مظلمة ، فلم تجب

« م » سؤاله رغم الاضطرابات الجنونية التى كانت

تثور في قلبها المتشنج ، بل اندفعت تقول له :

— إننى أعمل بلا انقطاع ولا توقف لكى أعيش

وأنا وحيدة في هذه البلدة . إننى أكتب قصصا

وزوايات لبعض المجلات الأوربية ، أفتباغ بك البلاهة

إلى اللان باننى سأقدم هذا المال الذى أحرزته بمسقة

ونصب لأول شخص زرى الهيبة سافل يطلبه منى ؟

إن كنت تتصور هذا فأنت مجنون ولا ريب .

واسمح لي أن أصارحك القول بأننى أحتقر الخضوع

لأوامر تعالى ، وعلى الأخص إذا كانت تعطى بحد

السيف !

فأجابها الرجل بصوت أكثر شراسة وقد

أحفظه كلامها :

— إننى أقول لك إن المال يلزمنى مهما كان

التمن ... !

وخطا نحوها خطوة ... ولكنها بقيت رابطة

الجأش وقالت له :

— أنا أهزأ بك وبطلبك ... ألا تصنع مثلى ؟

إننى نظمت حياتى تماما وأنا لست إلا امرأة ، والمرأة

أدنى من الرجل كما يزعمون ! أجل ، تستطيع أن

تضحك ، سأدعك تقترف جريمة دون أن أزل عند

تهديداتك ...

لقد قلت كل ما أريد أن أقوله ، والآن سألقى

إليك بالكلام الأخير :

— إذهب من هنا بسرعة أو أضغط زر الجرس !

فهجم عليها بقفزة واحدة ، ودفنها بعيدا عن

المنضدة ، وأمسك بها ملصقا جسمها بالجدار ،

وضحك ضحكا صامتا ... فداخل الفزع قلب المرأة :

— أنتقدين أنك قوية ؟ أنتشبهين بالرجال ؟

إنك أنت المجنونة لثقتك بهؤلاء الخدم الذين هم من

كافة الأجناس ! باستطاعتي الآن أن أذبحك ، وأن

أجزع عنقك أمام أعينهم ، وأؤكد لك أنهم لن يرفعوا

إصبعاً للدفاع عنك . سيتسللون صامحين وسينسحبون

كالأرانب حتى اللحظة التى ينتهى فيها كل شيء ...

فارتعشت « م » لهذه الألفاظ التى نطق بها

الرجل بوقاحة خفيفة ، وهاجت لتتخلص منه حتى

— وأنت ! إنك تتكلم كثيراً ، فاسمع هذه
الحكمة الغالية : « إن الكلب الذي يموى دائماً
لا يعض أبداً » قالت ذلك بلهجة هادئة رصينة
— لن أعتقد أبداً أنه من الصعب ذبح أى إنسان ،
فأجابته بهيـ :

لقد فهمت من كلامك المتتابع أن هذا هو
مشروعك الأول في الجريمة ! وبأسرع من لح
الطرف ، ضربته بجمع يدها على ذراعه بكل ما لديها
من قوة ، فأنفلتت المديّة من أصابعه المتشنجة
وتركته يشتم من جديد ، وأسرعت بخفة
ورشاقة فوضعت قدمها على المديّة الملقاة على الأرض .
وقالت له بلهجة صارمة :

— إذهب واجلس هناك قرب النافذة !
لقد تبدل الموقف ، ونرى المرأة الآن بدورها
تأق الأوامر
أطاع الرجل الأمر بضمت ، راضياً بكل شيء
فأنت وجلست تجاهه وقالت :

— أين تقطن ؟
فأجاب برغمه :
— أقطن حى « لوفيس ستريت »
— حقاً إن ذلك موافق جداً لرجل أبيض

البشرة !
فقال الرجل بوحشية :
— لا تهكئ من فضلك ، إننى قانع جداً بوجود
سقف يظلى
فأتمت « مى » كلامها دون أن تنبّه إلى غيظ
الرجل وقالت :

— ما اسمك ؟
— ماذا تفيدك معرفة اسمى ؟ هل لديك زغبة
في كتابه قصص الخجلة ؟

أفضى بها الأمر إلى أن عضت يده بقسوة ، فراح
الرجل يهدد ويتوعد دون أن يتراجع

ورفع المديّة بيده ليهوى بها على العنق النض
المرتبجف ذى البشرة البيضاء الناعمة ، فلمت المديّة
بنور مشؤوم ومست رأسها الحادة عنقها مساً خفيفاً
شمرت بأن قواها خارت ، وأن قلبها يتلوي
من الألم ، وأن أعصابها قد تشنجت ، ولكنها برغم
ذلك كله استطاعت بما لديها من شجاعة أن تحتفظ
بابتسامة على شفيتها الجافتين الراجفتين ، وراحت
في سرها تدعو الله وتطلب المونة منه

وعاد الرجل فصاح بها مهدداً وأطبقت شفها
على أسنانه البيضاء :

— أين تحبّين مالك ؟ إنها المرة الأخيرة التى
أسألك فيها
فرفعت إليه عينيها الواسعتين الزرقاوين وسألته
قائلة :

— لماذا تتردد فى إنزال الضربة للقاضية ؟
رجل أبيض البشرة يذبح امرأة من بنات جلده
فى هذه البلدة المتوحشة ؟ إننا نسمع بأمثال هذه
الوحشية عن الزوج ، ولكننا لا نسمع بمثلها أبداً
عن مواطنينا بيض البشرة

ولحت شعاعاً من الاضطراب بلوح فى عيني
الرجل المظلمتين ، فصمتت وأطرقت . فقال بلهجة
فيها شيء من التضرع والتوسل :

— لا تدعيني أصبح قاتلاً من أجل شيء حقير
تافه . أعطيني ما يمكنك إعطاؤه . مائتا روبية تكفينى
فضحكت « مى » وقالت :

— رغبتك فى أن لا تصبح قاتلاً جعلتك مضحكا
فأغمض الرجل عينيّه وقال :
— أرى الشئام سهلة عندك

— لا تخف وأجب على سؤالى

فقال بلمهجة شرسة :

— فرانسيز

فكرت للفتاة قليلاً ثم سألته برفق واضحة يدها على منكبيه :

— فرانسيز ، هل أنت محتاج حقاً للمال إلى هذه الدرجة ؟

فضحك بمرارة وقال مجيئاً :

— محتاج للمال ؟ ياله من تهكم مرير ! أنظنين أننى تهيأت لقتلك رغبة فى القيام بحركات رياضية أمرن بها جسدى ؟ إننى لاحظت لى إذ أن شجاعتك صدتنى . ولن تكون لى القوة الكافية لأجمل هذه المديّة الرهيبة تنفوس فى عنقك الجليل الذى تنتظر بهدوء

فضحكت لقوله . وإنها لتستطيع أن تضحك ملء شدقيها دون وجل ولا خوف ، إذ علمت أنها قد رجحت الممركة

— ألم تكن جاداً فى هذه الملاحظات القاسية التى أمضيتها بسكرات نفسية لا تحتمل ؟

— لا تضحكى ! لقد كنت مجنوناً ، وسأغلق عيني فى اللحظة التى تنفوس فيها المديّة فى عنق .

— هذا فظيع .

واضطربت « م » لذكرى الاضطراب السابق وقالت بعد صمت حزين :

— فرانسيز ، سأعطيك مالاً ، كم يلزمك ؟ فففر فرانسيز ووقف أمامها ناظراً إليها بيلامة وقال :

— لن أستطيع أبداً أن أقبل الآن . وأصبح صاحب اللون جداً .

فقهقهت ملء شدقيها ، وألقت بجسمها على كرسى قريب وصاحت قائلة :

إن فكرة البطولة تعود إلى بساطتها . منذ لحظة كنت تريد أن تقتلنى بلا رحمة ولا شفقة لتسرقنى ، والآن لا تستطيع أن تقبل شيئاً هو بنظرك أشبه بالصدقة ! حقاً إن الرجال لديهم أدب مسل . وضحكت وفى هذه الأثناء سمع طرق خفيف على الباب ، فدخلت « م » الرجل على مكان يستطيع أن يختبئ فيه ، ثم فتحت الباب .

— ماذا حدث يا أنكا لاتشلام ؟

فأجاب الخادم :

— القديس أبونا أنى ليراك

— حسن ، قل له ينتظرنى فى اللهو ، أنا قادمة الآن .

ولما اختفى الخادم ، أخرجت فرانسيز من مخبئه وقالت له :

— تعال مـى ، لقد دعوت الأب « دوران » هذا المساء لتناول طعام العشاء وتستطيع أن تأكل معنا فصاح الرجل وهو يشير إلى ثيابه الرثة ويديه الوسختين :

— كيف يكون هذا ؟

— سأدلك على غرفة الاستحمام ، ومن السهل عليك أن تستحم وتصبح لائقاً بالمقابلة . ثم انحنت والنقطة المديّة المطروحة على السجادة وقالت :

— سأحتفظ بهذا الضيف الثقيل كذكرى للحادث ، بعد أن أذكر أن امرأة وحيدة فى الحياة ليست أبداً فى أمان على نفسها ومالها

فتملكته الدهشة ولم يخرج جواباً وتبعها ، فتركته عند منضدة الزينة ، وكانت عالة أنها لم تنج من الخطر تماماً ، ولكنها كانت تدرك أنه يجب من أجل إنقاذه

أن تظهر له أنها ثابتة الجأش ، وبكل بساطة وسداجة ذهبت لتقابل ضيفها ومدعوها في البهو

كان الأب « دوران » ينتظر « م » بهدوء وصبر ، فأقبلت ترحب به وتكلمه في كل شيء دون أن تشير في حديثها إلى الحادث المضحك المبكي

وسمعت الفتاة بمد قليل صوت خطوات الرجل المترددة خارج الباب فهضت لاستقباله ، ولما تبعد عنه الضيق والحجل قدمته بلباقة إلى القس الكهل قائلة :
— السيد فرانسيز

وسار الثلاثة إلى غرفة الطعام حيث كان الخدم البرمانيون والهنود حفاة الأقدام يمشون بصمت ، وتزلق أقدامهم على البلاط الرخامي كالأشباح

وقد أزعج القس وجود هذا الشخص الثالث الغريب ، ولكنه لم يبد ذلك من نفسه ولم يشر إليه في كلامه ، وقد بدأ الحديث بين الثلاثة في موضوعات تافهة ثم تطور حتى أصبح ودياً وأغزر مادة حتى أنه شمل الفن والعلم والأدب والموسيقى ، واستأنس الرجل تماماً وراح يتكلم بحمد ، ويجاول أن يظهر بمظهر المثقف الربى تربية سامية ...

ولاحظت « م » أن الرجل يبذل جهداً عظيماً ليقمع شهوة الجوع التي قويت في نفسه ، فانفطر قلبها رحمة له وشفقة عليه وبدأ العامام

وبعد انتهاءهم منه ، عادوا للبهو كي يشربوا القهوة ، فاعتذرت « م » واستأذنتهما في الخروج برهة قصيرة ، وعادت إليهما سريعاً حاملة بيدها غلافاً قدمته إلى المعتدى بحذق قائلة :

— هاك ياسيدي المال الذي لك عندي ، وأرجو أن تجد هذا المبلغ كاملاً غير ناقص ، وأنا موقنة أن حكى سيكون صائباً على الكتب النفيسة التي بعثتها

فنهض فرانسيز وقد احمر خداه من الحجل ، وتناول المال من يدها وقبض عليه بيده اليمنى بحركة عصبية ، ولاحظ القس اضطرابه ، فقال له ليقطع حبل الصمت الثقيل الذي أعقب ذلك :

— يظهر لي أن الكتب التي بعثها للآنسة « م » قيمة وثمينة ، بل من الواجب أن تكون كذلك ، إذ أنه من الصعب الرضى بقراءة كتب من نوعها ثم أضاف قائلاً :

— أتقبل زيارتي لك في أحد الأيام المقبلة ؟ فتضايق فرانسيز واضطرب وأجابه قائلاً :
— أأ ... أخاف كثيراً ألا تستطيع أن تزورني حيث أعيش ... إنه حتى سي منعمور الذي ذكر في رائجون الحى الوضع ... إننى أخجل فقال له القس برفق واين :

— لا تخجل أيها الشاب ، لا يضيرنا المكان الذى تقطنه ما دمنا نعيش بحشمة وفضيلة ، على أنى أعترف أن رفقة السوء تفسد المرء ، فلماذا لا تترك هذا الحى ؟

فأجاب الشاب متجنباً نظرة « م » النافذة :
— إن ثروتى لا تساعدنى على ذلك وكان القس وافر الدكاء ، وذا إلمام واسع بطبائع البشر ، وسريع الفهم ، ففكر في نفسه وهو ينظر إلى الشاب نظرة ذات معنى ثم قال له :

— لقد أعجبتنى يا بنى ، وبما أن الآنسة « م » تتركك فلا حاجة لى بتوصية أخرى لتكون مقبولاً لدى . عندي مشروع أود أن أعرضه عليك ... إننى قد كبرت ، ولا أزال محتاجاً لرأس مفكر شاب يدير لى أعمالى ويتسلم حساباتى ، وفى دارى غرفة فارغة ، وأظنك ستقبل الحياة قربى إلى أن تجد عملاً أكثر كسباً ومنها ، ما رأيك فى ذلك ؟

— لماذا ؟ هل ذلك ضرورى يا بنى ؟ أليس من الأوفق والأحسن أن تصمت وتحفظ سرك فى صدرك لتبقى احترامنا لك على الأقل

فأحس الشاب بالدموع تبلل أجفانه وقال : أقسم لك بأنك لن تجد الوقت الذى تأسف فيه وتندم على عمالك النبيل هذا . إننى مدين للآنسة « عى » بأشياء كثيرة . إن من الواجب على أن أعترف إليها لأخطئ بمفوها ، إذ أننى أرغب فى أن أنال هذا المفو ولو كان الثمن إهانات عظمى . إنك لن تستطيع أن تشك فى وداعتها وصفاء قلبها

ف نظرت إليه « عى » وكانت ترى أمامها مستقبلاً باهراً . فضحكت كي تشجبه وقالت :

— إن الأب « دوران » صالح وتقى ، وأرجو أن تحمل له بين طيات قلبك الاحترام والحب اللذين يستحقهما . ويجب عليك قبل كل شيء أن تضرب صفحاً عن الماضى وأن تحاول نسيانه وتلقيه وراءك بعيداً .

— أعدك غلصاً يا سيدتى أن أفعل كل ما أستطيع لأنال تقدير مواطني ، ولن أنسى قط أنك خلصتني من نفسى وأنقذتني منها

وبعد دقائق معدودة ، ودعت « عى » الرجلين وعادت إلى البهو وهى مطرقة تفكر . ورفعت رأسها فرأت على منضدة صغيرة نحاسية ، غلافاً أبيض ، ولما رفعت يدها وفتحتته وجدت فيه المائتى الروبية التى قدمتها للشاب

فسارت إلى غرفتها وأدهشها أنها اكتشفت نفساً خساسة فى هذا الرجل الذى كاد يصبح قاتلاً وسقط جسمها فجأة على السرير وهى تلهث ، وشمرت إذ ذاك أنها أضعف وأوهن من طفل صغير

« دمشق » ناصى الطنطاوى

كانت « عى » تنظر إلى القس بفزع ، وقد داخل نفسها فجأة خوف عليه ، أفتسكت وتترك هذا الفصل من الفضيلة ونبل النفس يجرى إلى النهاية ؟ ... وقبل أن تفتح فمها تكلم الرجل ، فأصمت إليه وهى دهشة مأخوذة :

— لقد غمرت نفسى بلطفك وحنانك يا أبى ، ولكن ليس لى مال أدفعه للغرفة ، ليس عندي إلا ثمن الغذاء !

— لا تفكر فى هذا يا بنى ، فستعمل لى وسأبقى مديناً لك ، إنه ليمضى التفكير فى أنك مريض لحياة سيئة فاسدة . أليس لديك كلام آخر ؟

شعر الشاب أنه مشرف على ساحل من المروف لا حده ، لقد صادف فى يومه هذا كثيراً من أمثلة نبل النفس وصلاحها ، وبقيت آثارها تعمرف نفسه ، وتراءى له أن العالم كله يريد أن يحمله ما لا يطيق من الفضائل يححو بها السيئات التى ارتكبها ... وعم جسمه اضطراب شديد ، وصمد فى صدره شهيق باغ عنقه ، وبدافع نفسى قوي صاح بالنفس الهرم قائلاً :

— إننى لست جديراً بهذا للكرم العظيم ... اصغ إلى يا أبت . إن شرف نفسك ونبلها قد أورتانى عذاباً ، وأرى أن أحسن طريقة هى إطلاعك على حالى وحقيقى . إن الآنسة « عى » لم تقل لك شيئاً كما يبدو لى ، وأنت لم تعرف الحادث ، فن واجبى أن أسرد على مسامعك كل تاريخى الرهيب

فأقبلت عليه « عى » بوجهها وكانت راضية كل الرضى عن هذا القول الذى صدر من الشاب ، وأيقنت أنه جدير بالمال الذى وهبته إياه وقالت :

— إنه حق فى ذلك يا أبت

فقال القس :

الابن

للكاتب الفرنسي بول بورجيه
بقلم الأديب كمال الخيري

قطعت كل صلة تربطني بامرأة أخرى في هذه الحياة ، وأنت كامرأة في ريق شبابها واكتمال أنوثتها ، لك الحق بل يجب عليك أن تستأنفي حياة الزوجية السعيدة من جديد . وإذن فهل أستطيع أن آمل يا سيدتي أن تعتبريني الزوج المخلص الذي

سيكون من أشهى أحلامه أن يضحي راحته وحياته لأجلك ... إني أحبك ... يا سيدتي ، ولعلها المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي بنطق هذه الكلمة الجريئة على مسمع منك ... أما أنت يا سيدتي فليس عندك إلا كلمة واحدة تقولينها لي في هذه اللحظة ستكون هي الأولى والأخيرة . ولكن بحقك لا تلفظيها إلا بعد تأمل في عاقبتها ، فإن ما أجن لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استمجال واقتضاب . قالت مدام « ليجيه » وصوتها راجف وطرفها خاشع :

— أطلب مني استئنافاً لحياتي الزوجية معك ؟ ثم جد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت « بلا » أو « بنعم » ، وأخيراً جسرت فقالت :

ولكن حياتي لا يمكن ترميمها ولا استئنافاها . إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً واحداً : هو السهر على أولادي ، ولا أفهم إلا واجباً فرداً : هو واجبي نحو أبنائي الثلاثة .. قال الصديق الخاطب :

— أو لا تشمرين أني أحبهم هم أيضاً وأعزهم وأحنو عليهم كأبنهم صديقي الراحل ... ؟ ومن (٤)

استيقظت مدام « ليجيه » في صبيحة هذا اليوم قلقة بادية المموم والتفكير . فقد كان عليها أن تضع حداً لحياتها كأرملة في مستقبل العمر ، ولحياتها كأم ذات بنين ثلاثة . فلقد مضى على وفاة زوجها وهي إذ ذاك في الثالثة والثلاثين عامان كاملان . وكانت وفاته بملء ذات الجنب التي غالته وشيكا من دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة وعمل من قلوب الناس . ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هذا الصباح الذي تستفيق فيه مدام « ليجيه » حائرة مفكرة ، اجتراً « جورج فوكولت » صديق بعلها المرحوم وعمام مثله أمضى معه سني الجامعة ثم لزم زوجها في دائرته لزوم الشريك وفي بيته لزوم المصاحب ، اجتراً هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ ستة أسابيع :

— إني لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل عاطفة لم أستطع استكناهما ولا فهم طبيعتها إلا منذ اليوم الذي غادرنا فيه صديقي العزيز زوجك ، فأصبحت بوفاته حرة التصرف مالكة لزمام أمرك . وأظنك كنت تستشمرين مني هذا الصمت اللطاف وتحسين احتراي للراحل الفقيد وتقديرين رغابتي لك . فبسيك يا سيدتي « ومعدرة من اعترافي بهذه الحقيقة »

لممرى سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق
أبيهم وصفه ؟ وهل غيري يعرف ميول صديقه
وذوقه ومشربه في التربة والمسلك ؟ وإذن فهل
تسمحين يا سيدتي أن أشغل مكان الأب الراحل ؟
أترضين أن تكوني أمامي أمام الله والناس
قالت الأرملة في حيرة وتلدد :

— خلني الآن لشأني ... هلا جئتي الكلام
في هذا الموضوع .. ؟ إنه ليؤلني البحث فيه ويسبب
لي كثيراً من الشجن والشجو
لا أعرف شيئاً ، لا أفهم شيئاً ، لست بمستطيلة
أن ألمح في قرارة نفسي المظلمة عاطفة أستطيع منها
إجابتك على سؤالك لأنني أجهل نفسي ... ولكني
أعدك أن جوابي سيكون بعد قليل من الزمن ...
أما الآن فلا أستطيع ، أجل لا أستطيع .. فأجاب
جورج فوكولت :

— سأنتظر كلنك كما تشائين وأني تشائين .
إنك إلا تقولي « لا » هذه اللحظة فبحسبي ، لأن
ذلك معناه أنك قد تبصرين خلال سجوف المستقبل
الكلمة الحبيبة إلى قلبي وهي « نعم » . إن التردد
والتعير مؤلمان للقلب مزمعان للروح إذا لم يكن القلب
المنتظر في شرح شبابه . قال ذلك وأبان لها عن
طرف لته وقد طرزتها سنوه الأربعون بأسلاك
الشيب للبيضاء . فأحست المرأة الأرملة وهي تتأمل
وخطات الشيب في رأسه ، وتنظر إلى أثر للتأنيب
الصامت من عينيه السوداوين : أن موسيو جورج
إنما يقبس سمادته في هذه الدنيا بمقياس ما بقي له
من سنين فيها ، وكأن نظره كانت تقول لها : إن
ما يطويه الشباب اللاهي من متع ومباهج لن ينشرها
كفن الشيب مهما يمتد ويصف ثوبه . ثم يستأنف
حديثه ويقول :

— إنه إحسان منك علي أي حال أن تحددي
لقلبي الشهيد موعداً للجواب كي أغادرك وأنا أقول
لنفسى من يوم لآخر ستوافيني نعمة جوابها في
يوم كذا .. « كآرين » ، أيتها المزيزة ، اختاري بنفسك
اليوم الموعود وعيني تاريخه ، وليكن القرب والبعد
علي ما يوافق رغبتك وهواك ... أما أنا فساأعاهدك
الآن عهداً لا أتحنت فيه ولا أتحرف إلا أخوض
في ذكر هذا الموضوع الذي سيكون برغم هذا هو
شغلي الشاغل وهي الناصب .. فحددي بميثك موعد
جوابك . وهنا تحمت مدام « ليجيه » بصوت
محتبس ولمجة ضارعة : سيكون ذلك حين ينتهي
أجل حدادي على زوجي الراحل ، وبما أنك تدعي
حبي فأرجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك
بوعدي أنا . والآن أرجو ألا تلج علي في هذا
للشأن فقد كفاني ما كفاني ...

ثم يقول لها ، وهو يود أن يوضح بالوقت المعين
كل شك وغموض يمكن أن يمتور موعده المرجى :
وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع في الرابع عشر
من نيسان ؟ فأجابت على هذا بإعلاء من رأسها ثم
انمقد بينهما جو من الصمت ...

لقد خالت يد الموت زوجها الحبيب في الرابع
عشر من إبريل أي منذ اثنين وعشرين شهراً سافت
قبل هذا اليوم الذي تجالس فيه مدام « ليجيه »
خطيبها المسيو جورج . كل ذلك جال بذهن
« مدام ليجيه » وذهن الخاطب الصديق الذي شعر
بثقل كمانه على نفس الزوجة بعد أن عين لها الموعد
المضروب ...

أن يستأنف المزمع حياته دون أن يموج بذكرى
أحبته الراحلين عن الدنيا في ذلك وبالأحسرة إساءة

إلى ذكراهم الفائرة ومعهودم الماشية ، وإذن فن
ينب عن الوجود تمت معه ذكراه وتنعدم ثم
تبتلمه هوة المدم إلى غير رجعة ، والمفتاه .

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة
دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن
تتردد ذكراه على رأس الخاطب ومدام « ليجه »
فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية
المتعاقبة ...

ويجد المسيو جورج من اللطف والأدب
الابرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع
الستة . ثم يرى من الطرف واللكياسة أن ينادر (باريس)
حين اقتراب اليوم المضروب يوم ١٦ نيسان . أما مدام
« ليجه » فقد أخذت تنهياً لهذا اليوم وهو
ذكرى يوم وفاة زوجها . وقد أحييت هذه الذكرى في
ذلك اليوم في شئ من البرود وعدم المبالاة لم تخرج بهما
أثارة من حنان ولا بقية من فجيرة وحسرة . وفي اليوم
الثالث عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها
خطاباً يندبها فيه بزيارته من اللند عند الظهر ، فأقبلت
على الرسالة تقرأها مرة ومرة ثم بدرت منها بادرة
غريبة عجبت لها هي نفسها ... وذلك حين رفعت
رسالته إلى فها وقبلت سطورها وفي ظنها أنها إنما
تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور ..
وأخذت تردد: نعم ... نعم ... سيكون جوابي ..
نعم . وإذن فقيم استيقاظها صبيحة هذا اليوم مضطربة
حيرى كما أسلفنا ؟ ... ما الذي حدث خلال هذه
الفترة القصيرة . بين تقبيلها رسالة جورج نهار
الأمس فرحة نشوى وبين الساعة التي ترتفق فيها
وسادة سريرها الوثيرة يبدو عليها سهوم وتفكير ؟

ما الذي طرأ عليها ياترى فبدل عزمها ؟ ... وأقبلت
الخادم في هذه اللحظة فهصرت أستار الغرفة عن
النوافذ وللشبايك فطفت على جوها موجة من نور
لألاء ضاحك غمر المكان كله ؛ وكان في شارع « فانو »
تشرف نوافذه وشرفاته على بستان القنصلية المنسوية
الغلابيل البانج . ولعت زرقة السماء من خلال النوافذ
ونفذ تنريد المصافير إلى السامع شجياً موسيقياً
شمرت معه مدام « ليجه » أن ثوب الجدة الذي
تضيفه الطبيعة على جسمها يتفق والموقف الجديد الذي
تقفه هي من حياتها الجديدة هذا اليوم ... حتى أن
للثوب المزركش الذي حملته الخادم منذ لحظة كان
يعريها بأخيلة وخطرات جد حافلة باللذة والسعادة ...
ومع ذلك فلم يتقطب جبينها ويريد وجهها كلما
نظرت إلى عقرب الساعة ينتقل من مكانه ؟ ! ما لها
تقف حالة ساهمة بدل أن تنشط وتفرح ؟ ... أتراها
تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف
مجهول ؟ ! ...

حين تكلمت مدام ليجه عن واجباتها نحو
أولادها لم تقل كل شئ للصديق الخاطب ، لم تعترف
له أن ولدها البكر « شارل » ما فقء منذ شهور
مدعاة تخوفها . أبداً لم يتبادل الابن مع أمه
كلمة عن « جورج فوكولت » خاطبها الرقيب ،
وكان هذا الأخير لا يميز هذا الغلام لليافع في الخاطبة
والحوار عن أخيه الصغير « رنيه » وأخته الصغيرة
« هيلين » اللذين كان يكلمهما بضيفة الافراد دون
كلفة . ولكن إذا شغمت سنو الطفل « رنيه »
الخمس وأعوام الطفلة « هيلين » العشرة - لهذه الصيفة
الافراية يبدى فيها صديق أبيهما حبه وتدلله لها ،

ويا للأسف كان يزيد ألها ويضاعف شجوها ...
أجل إن جورج محق في قوله . فواجب على
معاودة حياتي الزوجية ، وأنا بهذا لأنا لا شيئاً من
زوجي البيت ولا أسوؤه في كرامته . كذلك لأفئات
على أولادى الأجيال الذين تركنى لهم ، لأن جورج
سيحبهم وسيحزنو عليهم . والصغيران يحسان بهذا
ويقدرانه في سداجة وطهارة . أما شارل ولدى
الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر .
آه لشد ما يحب أباه هذا الصغير ! إنه لينمو
ويتفتح للحياة يوماً بعد يوم كأنما تتعهد نماءه معجزة
من السماء

هو الأول في صفه في مدرسة «سانت لويس»
وإنه يترقى بين رفاقه وزملائه بصورة غريبة سريعة
كأنما وطن نفسه على أن يسد الفراغ الذى تركه
أبوه من بعده ، إن لم يكن قد قام في نفسه أكثر
من هذا : أن يكون خليفة أبيه في البيت ورب
الأسرة التى كان يحلم أن يكون حامياً وراعياً .
فيا للقسوة والكران ! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم
أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب !

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة
وأفكار المرأة ما زالت تضطرب في ساحة ذهنها
جيئة وذهوباً . وفيما هي منصرفة إلى زينيتها وترجيل
شعرها وتطبيق حلبيها وأقراطها ، إذا طرقات على
باب الغرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتمش
نفسها لأن هذه خطوات ابنها الذى كانت تعتبر
نفسها أمامه كجريم أمام قاضيه . وفي الحق لقد كان
الداخل «شارل» الذى توقف على الباب لحظة
كالأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه . قالت له الأم
مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثراً فجائياً بطبع وجهه

فان الستة عشر عاماً التى يجتازها للسلام المراهق
«شارل» كانت تقيم بينه وبين «جورج» الخاطب
جواً مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الالفه والمطف
وعدم الكلفة الانقباض والنفرة . ومع هذا فقد كان
الخاطب الواغل ينضى عن هذا ويتجاهل ، بل لقد أخذ
في الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الغلام ويبتنى
الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه العابس الضامت
وتلاحظ مدام «ليجييه» ذلك السلوك المحبب
الجداب الذى يامل به الخاطب ولدها البكر فتتعبط به
وتشرح له

ولكن رغم كل هذا كانت تترقب من ابنها
رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابها وتنبأ لها
منذ أيام

من هنا كانت حيرتها وقلقها في هذه الصبيحة
الباسمة من نيسان التى كان عليها فيها أن تقول كلمتها
الأخيرة في رفض يد «جورج» أو قبولها . ولهذا
وحده هي تدير في ذهنها الصورة المستحبة الملائمة
التي يمكنها بها أن تفجأ ولدها دون أن تؤذيه
أو تسوؤه في عزة نفسه ، فكانت تردد :

— كان على أن أنبئه بذلك وأسير غوز رضاه
أو رفضه منذ ستة أسابيع ... غير أنى لم أستطع
ذلك لأنى أجدنى أمامه مرتبكة مشلولة الإرادة كاني
بمحضرة أبيه الراحل . فيالله كم يشبهه حتى كأنه صورته
لثانية ! وعلى كل حال فان جورج أحسن في
تحيته إليه وترضيه ... وذكرا اسم جورج هكذا
مراراً ، دل المرأة على أنها تنطوي له على حب
وميل ...

نعم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من المواطن
والبول غير متكاملة ولا متكونة . ولكن ذلك

أخذت تحتل مكانها يوماً بعد يوم من قلبها
وفي صباح هذا اليوم في وثبة طافرة من وثبات
الارادة للفرزية أصرت مدام ليجيه الخادم فقالت :
— لويس، لاتنسى في هذا الغداء مقعد المرحوم
زوجي على المائدة ، بل عليك أن تضي مكانه مقعداً
لجورج فوكولت ...

وحان وقت الغداء واتخذت المائدة أمكنتها
حول المائدة، ولكن « شارل » الصغير ما كاد يرى
المائدة والكرسي الجديد بدل كرسي أبيه المتوفى
حتى حلق في وجه أمه وقد امتنع وجهه وانفسف
لونه أولاً ثم احمر واشتمل بالدم المائتسب . ونظرت إليه
الأم برعب وهيبة ، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي
أيضاً . ولكن في تلك اللحظة ارضية الحرجة
جري أمر زاد في اضطراب مدام ليجيه وارتبا كما
ثم حيرها ، ولكنه في الوقت نفسه أجرى المسألة
في مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام « ليجيه » .

فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كي تجلس إلى
المائدة إذا « بشارل » ولدها ياق عليها نظرة تفيض
بالحنان والشكر ثم تخضل عيناه بالدمع الذي لم يكن
منبهه الحلق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان
منها والشكر لها ... ولكن عن أي شيء صدر هذا
الامتنان ؟ انجم مما صورده له وهمه دون أن يتظان
بالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة
والدهشة التي بدت على وجه أمه ، ولا نظرات
الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم ، فقرر في ذهنه أن
أمه إنما تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديداً
لظنونه السابقة في وفاتها لأبيه ، لهذا احتل مقعد
أبيه أو الكرسي الذي وُضع للخاطب « جورج
فوكولت » محل كرسي أبيه ، وقبله يخفق من الفرح

بطابع الألم : ما لك يا بني ؟ فأجابها الغلام : لا شيء
لا شيء ، إني مشدود متعجب فقط ... لقد
ألفت أن أدرك دائماً في ثياب الحداد . ولكن
ولكن ... صحيح أن حدادنا على أبي قد انتهى ؟
فألفت « مدام ليجيه » على المرأة الكبيرة أمامها نظرة
غير عامدة فاذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق
تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها اللذهبي ،
ولكن يناقض ذلك كل المناقضة زى ولدها المدرسي
الأسود الفارق كله في حلة من حداد ، ويرتجف
صوت الأم حين تهم باجابه ولدها ثم تنجدها لباقتها
فتغير مجرى الحديث وتقول :

— ولكن ... قل لي ... لملك مسرور من
أستاذك هذا الصباح ؟ ثم ... ثم كيف حال كتابتك
في الانشاء ، أظنها أعجبتك ؟ ثم ناجت نفسها :
— سأبث لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة
خصوصاً وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت
متسع للغداء والافضاء إليه بالأمر ...

على رغم أن المحامي المتوفى موسيو « ليجيه » قد
خلف لمائته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير
ثروة لا بأس بها ، فإن مدام « ليجيه » لم تخالف
شيئاً مما ألفتة سابقاً من تدبير واقتصاد في الانفاق
على المنزل . ولما كانت مدام ليجيه لا تستقبل في
مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتنون إلى الزوج
بصلات القربى والمودة ، فإن الاهداد لا كرى البيت
لم يكن ايجملهم جهداً أو مشقة . ولكن أنى لها
بملء كرمي زوجها بشخص خاطبها جورج في
حفلة الغداء أي عذر ستعذر به لو لدها ؟ كيف تحل
بهذه العادة التي يقدها ابنها ويعجدها ، والتي باتت
تبهظ روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب

طافعين : تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية
حسنة ، وآخر هادئ عميق من عطف أم رؤوم ،
إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعى ابنها الذى
كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق ..
لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بمد ثوان
يطلب الاذن لموسيو جورج الخاطب الجديد، فأبدي
ابنها « شارل » حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب
من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه
الحركة فقالت فى كبرياء ممزوجة بالأم :
— إبقى مكانك يا « شارل » ثم التفتت إلى
الخادم وهي تقول :

— قل لموسيو « جورج فوكولت » إنه من
الاستحيل على مواجهته هذه الساعة وسأكتب له
جوابى كتابة ...

وحين انفردت بابنها راحت تمنقه فى لفحة
وابتهاج ثم قالت : أبدأ لن أتزوج يا شارل العزيز .
أبدأ لن أثقل عليك بأب يؤلم نفسك ويخرج قلبك .
لن أَرْضَى أن تتألم أنت كي أسمع أنا . إنك حسبي
من دنياى يا بنى وأظن أنى حسبك أيضاً
كمال الحبرى

الأم فترتر

للساعر الفيلسوف جوتة الاولمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمتد بحق من آثار للفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ومنها ١٥ قرشاً

والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين ...
وانتهى النداء وخلا السكان « بشارل » وبأمه فغم
« شارل » أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح
يقول لها وقد أرخى لعبائه اللسان حتى بللت وجهه
الأم المسكينة الحائرة :

— آه، شكراً لك ألف مرة يا أماء. فقالت أمه

فى حيرة :

— ولكن لم هذا الشكر يا بنى ؟ فقاطعتها

دون أن يترك لها الفرصة لتابعة حديثها :

— أشكرك لأنك أحللتنى محل أبى على مائدة

الطعام فى اليوم الذى تخلمين عنك فيه ثوب الحداد .

إنك لا تدري أى جميل أسديته إلى وملأت به قلبى

الحزين .. آه .. ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة .

لقد كنت منذ زمن أشك ، بل أخاف من تصرفاتك

فاغفرى لى الآن هذه الشكوك والظنون . نعم

كنت أخشى أن تسنح لك فى يوم ما فكرة الزواج

لأنك ما تزالين صبية . ولقد أبصرت ثلاث أمهات

من أمهات رفقائى فى المدرسة يتزوجن ويسلمن

أبناءهن لأب ثان غريب عنهم . ولكنك أجلسنى

تجاهك منذ لحظة على مقعد أبى المرحوم فأدركت

أنك تريدن أن تقول لى : املاً محل أهلك يا بنى

فقد آن لك أن تشغله وتواجه أخذك وأخاك

العزيزين وأمك التى تحبك ، ولكن إن أشغل مكان

أبى ذلك الأب الذى الطبيب ، فذلك ما ليس فى وسى

ولكن أعاهدك أنت أبذل له جهدى . وهنا

تمثل لمدام « ليجيه » أنها كانت ستعظم قلب ابنها

النبيل لو أنها انقادت لهواها الذى بدأت تشعر به

نحو « شارل »

وفى هذه اللحظة وبينما كانت « مدام ليجيه »

تضطرب بين الماضى والحاضر ، وترجع بين تيارين

أختها وهي تتجمل للقائه صديقاتها
وصوب محباتها : أى ذكرى صريحة
يحملها ذاك اليوم الحزين ؟

— يا أختاه : لا بد أن
أجل رأسك بتاج من الفل
الطبيبي أو صيت بعمله ، سأخرج
لأحضره وأعود به توأ ...

هكذا قالت لأختها وهي صادقة كل الصدق ..
خرجت على أمل أن تعود ...

واليوم الأحد وعمل الورود منلق . لقد نسيت
ذلك ولم تذكره إلا عند ما بلغت مكانه ...
وداعمتها خواطره المحزنة وصعب عليها أن تعود
إلى أختها بغير الفل ...

ودون عمد تابعت الخطى حائرة لا تدري ماذا
هي قاعة ... وسارت في الطريق لا تلوى على شيء
حتى أحست بنسيم مطر يجتاز جنبات نفسها
فيجبرها بالطمأنينة ، وتنهت فاذا بها في طريق خال
من السكان والمارة على جانبيه زرع الشتاء الأخضر
في غير زى الربيع الناضر

وطاب لها السير فلم ترتد ، وظلت تمشى حتى
استرعى نظرها شجرة كثيفة يتدلى من أغصانها ثمر
الحناء ، فأسرعت الخطا لتجمع منه ما تستغيض به
عن الفل ...

وما كادت تقترب من الشجرة حتى لمحت رجلاً
لم تشك في أنه عابر طريق ؛ اقترب من الأرض واتخذ
جذع الشجرة خدناً اعتمد عليه برأسه في شبه
استسلام الوسنان ؛ تصور ثيابه الرثة يا يمانية من
بؤس وشقاء ، ويحكي وجهه الشاحب أقصوصة

مجنون زاهك

يَقْلَمُ الْآنَسَةَ جَمِيلَةَ الْعَلَايَةِ إِلَى
” مَهْدَاهُ إِلَى صَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَسَّاسِ ”

ليس أحب إلى النفس من الخلوة عند ما يفيض
بالإنسان حزنه أو أساه ...

لما لم يكن في وسع « هلا » أن تشارك أختها
فرحة عيد ميلادها لتجهم نفسها وتلبد غيوم ذهنها ..
إنها تحب أختها وتميل إلى الطرب أيضاً وتفرح
لسرة القريب والفریب ، ولكن ذاك اليوم يذكرها
بأساة عاطفية رسمت حروفها النارية في سويداء قلبها
البكر ...

ميلاد أختها ، وموت قلبها ، يجتمعان في يوم
واحد . فاذا عساها أن تفعل ؟ ...

أنتكاف البشر وليس في مقدورها أن تحبس
دموعها في ذاك اليوم على الأخضر ...

حاولت جهدها أن تبدد الكآبة بتكاف البشر
قلم تستطع ، وضاعت بهواجسها حتى خيل إليها
أن مجرد النظر إليها يدر الدموع من العينين ...

إذن لماذا تكون آفة ميلاد أختها السعيد وهي
تريد أن تكون بهجته وباعث مسرته ؟ ..

كل شيء دحو إليها يحمل طابع الأمل في ذلك اليوم ،
حتى الموسيقى تبلغ مسميها كترتيلة الجنائز

أوه ... لشد ما يفرعها مرأى ظواهر المرح
والانشراح والطرب في البيت ، ولشد ما تنزعها رؤية

الآلام والحرقان ويشيع من عينيه بريق الدهول ..
أى منظر صرّوع ! منظر الرجل القوي الذى
يمجّز عن التمتع بالحياة كما يتمتع بها كل رجل ،
لا عن مرض أو عاهة ، بل عن يأس وقنوط
مرض الجسم يداوى ... أما مرض النفس
فلا دواء له ، يظل بصاحبه حتى يميته ...

ولا شك أن هذا الرجل مصاب بمرض نفسه
إذ لا تبدو عليه ظواهر علل البدن

تقدمت منه الفتاة حتى واجهته بدافع الشفقة ...
مدت إليه يدها بيضمة دربهات ظناً منها أن من يقنع
بالجلوس فى هذا الخلاء المقفر لا شك أنه يماف
التوصل إلى الناس ويستنكر الاستجداء

ولم يكدها بلح حركة يدها والنقود حتى ضحك
بصوت جنونى هازأ رأسه فى إياه ناظراً إليها فى غيظ
كأن بينها وبينه حقداً قديماً أو كأنها هتكت كرامته
وجرحت رجولته

وكانت نظره كافية لرد الفتاة إلى الصمت
والخجل على أنها وقفت قبالة حائرة مذهولة لا تدرى
ماذا تقول وماذا تفعل ، وقد تنبه شعورها الرحيم
فاجترأت وتقدمت منه قائلة : سيدى ، ما ضرك
لو سمحت لى بمساعدتك ؟ أراك فى حاجة إلى المساعدة
فرفع الرجل رأسه فى كبرياء ونظر إليها عملاقاً
ثم قال بلهجة جافة : حتى هنا الشيطان يتبعنى ... ؟
ويحى ... ثم أن " كالوجيع وشد شعر رأسه المشعث
بيد مرتعشة عمومة ، وييده الأخرى أشار إليها قائلاً :
— إذهي أيتها الشيطانة !

فريعت الفتاة ، ولكنها غلبت الخوف قائلة :
— هون عليك يا سيدى

ولكنه لم يكده يستمع إليها حتى انتصب وراح
يمدو كالمتموه مردداً : ظننت هذا الخلاء لا يأويه
شياطين الانس !

وظلت هي فى موقفها تتأمله وهو يجرى كالمجنون
يتلفت خلفه كالمذعور ، حائرة بين ما تريد أن تفعله
من أجله ، وبين ما تخافه منه :
— أى شيطان يعنى يا ترى ؟ ... أراها فتاة
حياته ... ؟

ثم هرولت خلفه تناديه : يا سيدى ، يا سيدى
لم تكن هيئته تحمل على ذلك النداء المحترم ،
ولكن هيئة الرجل ووقاره أ كسباء سمة أجل من
جمال الزى وروعة المندام

ووقف فظفته هدأ ، ولما بلغتته اقترب منها باسمها
بسمة عريضة ، ثم رفع يده على غير ارتقاب
ولطمها على خدها ، وبأيد الأخرى جذبها من شعرها
فى قسوة جنونية وطوح بها بعيداً فارتجت على
الأرض كالطائر المذبوح تنن بصوت متهدج ثم
انقطعت أنفاسها . إنما لم يطل بها الاغماء حيث مال
عليها بنيتها ، أو لعله شاء أن يتأكد إن كانت حية
أو ميتة ...

ولما تنهت نظرت إليه بعينين دامعتين وغمغمت :
— ماذا جنيت ... ؟

وكان صوتها سهم صوب إلى صدره فقبض
عليها بكنا يديه فى قسوة وهو يتمم : أما زلت حية ؟
وأزعجها الشرر المتطاير من عينيه الغاضبتين
فقال بصوت رقيق :

— ولماذا تريد موتى ؟ ما ذنبى ؟
— فقال بصوت مرتعش فأثر يفيض بلهب
قلبه : شيطانة ...
فتكافت بسمة وهي تقول : هدى روعك
وساعحك الله ...

كانت لمحجتها لطيفة مليئة بالحنان ونظراتها كافية
لبعث الطمانينة فى نفسه ، لكنه أطرق برأسه فى صمت
الداهل

فتقدمت إليه في عناء لأن الصدمة آلتها وصح
عزمها على أن تسيره وتلاطفه حتى يطمئن إليها ويقص
عليها حكايته ...

قالت :

— يا سيدي ، إن كنت في حاجة إلى ابنة
فها أنا ذى ، وإن كنت في حاجة إلى أخت فلك منى
هذه الأخت ... خذ منى ما ينقصك من حنان ورعاية
وحسبك .

قالت ذلك بهجة موزونة حارة انسكبت من معين
صاف ... كل كلمة فيها من قوة الصدق ما يزرى بكل
جبار عتيد

ونظرت إليه وشعاع نظراتها يصور أجمل ما يتمناه
الرجل من حب وحنين !

ولكنه غض الطرف مليا وهو يمض شفثيه
كأنه يعاني ألما ممضا في نفسه، ثم وقف وانقض عليها
كما يفعل الأسد المصور بفريسته وشد شعرها وهو
يلفه على يده ناظرا إليها في ثورة وجنون، ثم جذبها
في عنف وصدم رأسها بجذع الشجرة فسال الدم منه .
ولم يكد يلح الدم يسيل حتى ضحك متقهقرا في
جنون، ثم أقبل على الدم بغمه بسب منه كأنه أشهى
غذاء يرتجيه وهي من هول الصدمة ساكنة سكون
الأموات وقد ارتسم على شفثيها اصفرار الموت
وأُسبلت جفونها في استسلام الفناء

ثم تركها وارتقى على الأرض يبكي كالأطفال،
فانثبته ومالت عليه حانية متناسية ألما وما ألم بها
قائلة بصوت خفيض متقطع : إن كان قتلى يريحك
ويعيد إليك صفاء نفسك وهدوء بالك فأقدم عليه غير
هباب ، فليست حياتي ذات قيمة في ناظري

وسحبت يده في لطف وساعدته حتى اعتدل
في جلسته ...

في هذه اللحظة أحست الفتاة أنها خلقت من
أجل ذلك الرجل فنسيت الوجود وعادت تقول في
شبه همس :

قلبي يحدثني أنك بليت بنذر امرأة أو عل
الموت اختطفها منك

فالتفت إليها في هدوء واستمع إليها في لهفة، ولما
صمتت قال : أما لا أنقم على المرأة غدرها ... لأن
الرجل هو ، لدى يبت في صدرها بذور الشك بسوء
تصرفاته أحيانا ...

إنما أنقم على الحياة لأنها تقضي على الحب بالموت
في قلب بيننا يحويه في القلب الآخر ... كأنه يخرج
من هنا ليدخل هناك ...

ثم ضحك بغير صوت مردها : أنقذى نفسك
وعجلي بالذهاب ... فاني أشم رائحة أنفاسها منك،
ولو طال مكثك بجانبى فلا بد من قتلك ... دون
عمد ... أنا الآن هادى يافتاة وأعتذر إليك عما بدر
منى ، فسامحني وأتركيني

كان يقول ذلك وهو يجاهد في نفسه مصابين:
مصاب الماضي الألم ومصاب الحاضر الذي يغريه على
التعلق به وليس في مقدوره أن يجاوبه بالمزاء

وكان كلماته خلاصة ما تشتهي المرأة من حب
سبها بمهارة في قلبها فأكسبته حرارة ولهفة، فقالت:
لن أتحدث إليك بلساني يا سيدي ، إنما أرجوك أن
تنظر إلى عيني ... أنظر طويلا وأقرأ دخيلة صدرى
ولا شك أنك ستفهم ما أعنيه

فاحمر وجهه وارتعشت شفثاه وحول وجهه
بمبدأ ثم عاد ونظر إلى وجهها متممداً ألا ينظر
في عينيها وهو يقول : آه من الميتين ... بهما
سمعت ومنهما شقيت ...

فقاطعته : ولم لا تكون شقيت بهما ومنهما تسمدا؟
فهز رأسه مرتاباً وتهد ثم أطرق، فقهرت أن
(٥)

فتاته ذات تأثير ساحر بمينها، فترقت به وقالت ..
يخيل إلى أنك لجأت إلى هذا المكان النائي
تحت تأثير أمر جليل. ألا تفتح لي صدرك على ذلك
برقه عنك؟ فقال : وما الفائدة .. انتهى كل شيء ..
انتهى كل شيء ...

فقاطعت : ولكنك رجل

قال : وهل تحارب المرأة إلا الرجولة ؟

قالت : تعصف بالضعيف وتستسلم للقيوي

قال : وهي جاهلة لا تفرق بين الضعف والقوة

قالت : لأن الرياء والكذب يشوهان حقائق

الوجود ...

وهنا لازمه الوجوم ولم يتكلم ولحت جسمه
يمر كأن قشيرة الحصى ملكته فمطقت عليه وهمت
في لطف : أظنك تشعر ببرد شديد ... وخلعت
مطفها ثم ألقته على كتفيه فلم يمانع ، ونظر إليها
في هدوء وتمتم : من أنت يا فتاة ؟ قالت وهي تمر على
شفره المشمت بيدها للناعمة في حنان : بهثنى الله
إليك لأسمدك . فلم يتكلم ، وتساقطت مدامه كالندى
الصافي فأكسبت خده الشاحب حمرة الشفق المتوهج
فأبشمت قائلة : ألا تشر بالحياة تسرى في شرايينك ؟
ألا تحس بخفقة القلب الحنى بمحرك كيائك ؟

فدب يده في بطء كأنه يتهيب لسها، لكنه يريد
أن يتحقق من أنه يخاطب إنساناً ثم قال منمها : أيمكن
أن تكوني امرأة حقاً ؟

أيمكن أن يكون بين شياطين النساء امرأة
واحدة تحمل قلب ملاك ؟

أيمكن أن يكون ذاك الصوت الموسيقي لحن
قلب صادق ؟

ثم صرخ ملتاعاً : رباه ... لم تسمداً بالحب

وتشقيناه ؟ ثم أشاح بوجهه مدمماً : لا، لا يمكن
أبداً ... أنا حالم لا محالة ... ثم عاوده للضحك
الجنوني ووضع رأسه بين ركبتيه ليخفي مدامه
ويخرس تنهاته

فرقت رأسه بيديها محاولة أن تجذب نظره
بمينها قائلة : ليتني أعرف أين فتاتك لأسمى إليها.
فصرخ في وجهها : كفى عن الهذيان، لقد ماتت ..
فشمقت قائلة : رحما الله .. ولماذا تقتل نفسك
مادامت ذهبت عنك على الرغم منها، إذن أنا أشد منك
قوة وأكثر إرادة ... في اليوم الذي قيدت نفسي
بالرجل الذي ظننت أنه مثل الأعلى تبين لي أنه يلهو
بغيري، ولقد نبذته نبد النواة واستطعت أن أتناساه.
ثم تكلفت ضحكة وأعقبت : خل عنك الحياة بين
يأس ورجاء ... فأجمل ضوء الرجاء قبلة ناظريك دائماً.
فصمت مفكراً فيما قالته يحلل مرماه ومغزاه
ولقد استطاعت الفتاة بمجازيتها ولباقها أن
تحوله من الركود المطلق إلى الأمل الحلو المرتقب ،
وأيقن أن الله أراد به خيراً فأرسل إليه ملاك الرحمة
في كيان هذه الفتاة ...

ومال برأسه على كتفها في شبه إغفاء ، وغاب
بخياله عن الوجود ...

وهدأت الفتاة راجية أن يعاوده البشر والأمل ،
وراحت تتأمل وجهه الشاحب الحزين . ثم انتقلت
ببصرها إلى صدره ، وهو يملو وينخفض كأنه ضاق
بأنفاسه

ولحت طرف ورقة تبدو من وراء ثيابه فلكها
الشيطان ، ومدت يدها في حذر تسحب الورقة ...
أوراق صفراء تثبت عدد السنين الخوالي .
قد تبلغ أربع سنوات ، ولقد اكتسح الزمن

أن روى انسرحت من الكثافة الحاجية في عالم
الحسن واستشفت الحقيقة في عالم الغيب المجهول
غير المدرك أو الملموس. ألا ترى متى أن الحياة
أقرب إلى الخلود منها إلى الفناء إذا لازم الحب
عمرها الحافل بالأمانى الحسان .

ألا يحتمل أن يكون الخلود هو هذه الساعات
الحبيبة المليئة بنشوة الحب الطهور ؟
لقد كونت الطبيعة الانسان ثمرة للحب، فهو إذن
بالمادة والروح من عناصر الحب ... خلق به ومنه وله .
فالروح الذي يلهب وحده بكهرباء الحب يدرك
بالفرزة عناصر وجوده ثم مستلزمات الوجود وفهم
الحب، والشعور بالحاجة إليه كنتم للحياة هو الباعث
على تنبه الماطفة إلى حد الاحتراق . إذن بلغت الآن
إدراك الحقيقة وبدأت أفهم نظرية صحيحة لها
أساسها العلمي .

الحب من عناصر الحياة إذا لم نجزم قطعاً بأنه
ذات الحياة .
ولكل حياة مظهر للدلالة على وجودها،
كذلك الحب يدل على وجوده بتنبيه الماطفة وفورتها،
يملاً الفؤاد كما تملأ الكهرباء الجو ... يكون بغير
حصر حتى يحصر، وبدون نتيجة عملية إيجابية
حتى يركز فيتوجه للعمل الايجابي والانتاج .
فأنا قبلاً كان حبي موزعاً لأننى لم أصادف نقطة
الارتكاز ... فلما وجدت لها عدت لا أملك هبة قلبي
ولم أقدمه طوعاً .. بل انتزع منى انتزاعاً .

وهأنذا أشر أن الماطفة تسير عقل جنباً إلى
جنب من ذلك تعرف أن العقل لا يخالف القلب إلا إذا
كان الحب وليد المومس والجنون والكذب والنفاق؛
أما إذا كان الحب وليد الايمان الأكيد والميل
الصحيح والشعور الصادق فلا سبيل للعقل غير
مشاركة القلب في وجدانه بتفكيره .

الراحل لون الجذ الزاهى ، ولم يبق من الحروف غير
ظلمها . ولما تأكدت من غفوة : راحت تحاول قراءة
الرسالة فإذا بها :

يا ظائرى

بودى لو أكتب بغير مداد

أستمع بيد الأزل المجهولة على تسجيل عواطفى
للنورانية ... ولكن أين المين التى تتبين هذه
الحروف الخفية ، وتذكر ما وراء نفسى الغامضة
حتى أنت ؟ أيمكن أن تفهم سرماى ؟
إنى أشك . رغم ما بيننا من تفاهم وطيد ...
صرت من الأعماق بصرخ فى أعماق مجلجلا
كالرعد : أريدك تفهمنى كما أنا

وحسبى ...

قد تقول : كيف لا أفهمك وأنا أحبك ؟
وأنا أقول : قد تكون فهمتى كما يفهم كل
رجل امرأة .

وأنا أريد أن تفهم روحك روحى ، ويدرك
قلبك معنى قلبي .

فاذا نظرت إليك دون كلام فهمت حكاية نفسى
ونشيد روحى وأغاني قلبي فتفهم حقيقة حبي ، ذلك
الحب الذى يشبه البخار الذى رفمته الحرارة من
البحر الأجاج فانهمر ماء حلوا على قمم الجبال ، وجرى
أنهارا فى الوديان ثم عاد إلى البحر حيث كان ...

ثم أستودع الله ما انفصل عني لغير عودة —
أستودع قلبي الطليق لأستقبل قلبي المقيد ، وأستودع
أحلام المذراء لأستقبل مسئولية المرأة ، وأستودع
كل القلوب الهائجة حوالى لأستقبل قلباً واحداً
أعز من الحياة على .

تسألنى : هل أحبك ؟

وجوابي : أنا أعرف إنى حبة لله ، وأن ذاك
الحب الجليل يتجسم فيك وحدك ، حتى أحسبت

فنحن نحب الله بقلوبنا ، ونفكر فيه بقولنا ،
وكذلك الحال إذا حدث التفاهم بين شخصين
والآن ليس في مقدوري بعد الآن مخالفة قانون
الجزائية .

وجميع قوانين الطبيعة صحيحة خالدة مهما اختلفت
المظاهر وتنوعت الظروف والأجواء
إذن لا تتمجّل الظروف فكل شيء حينه ،
فالجنين وضع عندا كتاله ، والثمرة تسقط عن الشجرة
بعد تمام النضج

وحبي لن واجهك إلا بعد أن تثبت أركانك .
الآن آمنت . الحب كالقدر أعمي
وطلب المثل الأعلى في الحب أمنية من الأمنيات
والقدر يلعب دوره حتى في المواطن ، فقد يتركز
الحب في غير ما يتمناه الانسان برغبته وبمقله ومصالحته
فيخضع لسلطانه المستبد

أنا لا أرجو ولا أؤمل ، وليس لي هدف حسي ؛
إنما أعيش بالروح في عالم الروح ، نشدتي روحية
ومسراتي وآلامي باطنية منفصلة عن الحواس جميعها
والتخيل هو ارتقاء الفكر عن العالم المحسوس
وعالم الخيال ، هو عالم الحقيقة لمن يرتقى عقله عن طباق
العقل المحبوس ، فإذا تخيلت فلنفسى ، وإذا ناجيت
فكأننى أناجى روى لأن طيف ألبني صورة ممثلة
لي ... أراها فى وأرانى فيها ولا يمنع للتخيل مانع
مادى ، وليس لعالم الخيال حد ... كذلك لا تجول
دون الروحانية الحوائل الوصفية . ولعل من أعجب
المعجب أن تتحاب قبل أن تتعارف كما يحدث دائماً
بين الناس ، ولماذا ؟ لأن الكهرباء التى تضىء
مصباحك الروحى هى التى تضىء مصباحى !

ولأن القوة المجهولة التى تحرك الخيال للتخيل

هى التى حرّكت الناحيتين للمعل وللأجواء المتماثل ،
كما تحرك الكهرباء قطارات الترام على شتى الخطوط .
إذن ليس في مقدوري مطلقاً أن أحاول مقاومة
الطبيعة لأننى لا أملك القوة على مخالفة للناموس ،
وأرى العاطفة تسيّرهما وحدة الوجود في السبيل
الرسوم لها من الأزل بقوة المحرك العام مصدر
الحركة والسكون

لطالما حاولت أن أخفى هواي

وها هى ذى الطبيعة تغلبنى أخيراً وتقهرنى . كنت
أتحصن دائماً بكبريائى ، وقائى أن الطبيعة أقوى من
الكبرياء ، إذ الكبرياء تغذيها المادة وتهديها
أما العاطفة فتغذيها للفرية أو ناموس الكون
ثم تطلقها في غير هدى

وأنا عند ما أصارحك بهواي أكون صادقة ،
إذ ليست عاطفتي وثبة عن طيش ولا قفزة عن رعونة
ولا وسيلة لتحقيق أمل

إنما هي يسميها الفكر المحدود مصادفة ، ويقرر
العلم أنها لازمة الاستقرار فلها قيمتها المعنوية في
حياتى وحياتك « هلا »

لا تدري الفتاة كيف قرأت الرسالة حتى النهاية .
فقدت حواسها ولم تنبه إلا على صوت صرختها
المدوية عند ما قرأت اسم « هلا »

يا لله ... خطها وأسلوبها واسمها ... وذاك
البائس حبيبها النادر . صرخت ..

فتنبه النائم ونظر إليها مشدوهاً فاذا بها ترتمش
وبين أصابعها الأوراق الدابة ...

قال الرجل في اضطراب : ماذا بك ؟ فتمنمت :
هو أنت ؟ ثم غابت عن الوجود

صبيحة العاصف

(النصورة)

ماضى ابنها ، الماضى الذى أورثها
السهاد والآلام والمهانة ، وتفتيق
فجأة لتسأل ربها :

— لم يا رب جعلت ابنى
كذلك ؟

وتهز رأسها فى أسى وحسرة
وتجيش الدموع فى عينيها . ثم
تعود للمرة الثالثة لترقب الطريق

فى أمل وشوق وخوف منتظرة عودة ابنها ...

كان ابنها (يونس) هذا فى سن الشباب جيل
على الشر منذ نعومة أظافره ، فهو لا يكف عن
السطو على منازل من يعرفهم ومن لا يعرفهم ليسرق
أغن ما فيها . وهو لا يصادق غير اللصوص
والأشرار . وهو يعامل أمه دائماً بملظة المجرم الذى
لا قلب له . وأمه لا يسمعها إلا أن تبتهل إلى الله فى
صلواتها أن يقوم أخلاقه ويهديه سواء السبيل ...
ولكن هيات ...

ومنذ ستة أشهر سطا على دار أحد أعيان القرية
التي يعيش فيها يريد سرقة ما بها فقبض عليه وسبق
إلى العمدة ، ومن العمدة إلى المحكمة ، ومن المحكمة
إلى السجن ليقتضى فيه ستة أشهر جزاء له على
ما اقترف !

وها هي ذى الستة الأشهر قد مضت وسيعود الليلة
من السجن . وها هي ذى أمه تنتظر عودته فى أمل
وشوق وخوف ...

وانتصف الليل ، والأم لما تزل واقفة تطل من
النافذة على الطريق . وكان للصمت سائداً فلا حركة
ولا نامة . وفجأة دوى فى سكون الليل المدلهم صوت
أقدام آتية نحو الدار ، أقدام ثقيلة كأقدام يونس

يونس

أَقْصُوصُ مُصْرِئَةٍ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ عَبْدِ الْحَكِيمِ الْعَشِيرِيِّ

فرغت الأم المجوز من صلاة المشاء وطوت
« السجادة » فى لآى ، ثم سارت صوب نافذة
صغيرة بالزرفة ففتحتها ووقفت ترقب منها فى أمل
وشوق وخوف ، الطريق الطويل المتشح بالسواد الذى
بدا أمام عينيها ، وهب على وجهها هواء الليل البارد
فسرت فى جسدها الضاوى قشمية شديدة ؛ ورغم
استمرار ذلك الهواء البارد فى المبوب على وجهها
فإنها لم تتحول عن النافذة ، بل ظلت واقفة كما هي
ترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف ، وكلما تنامى
إلى أذنيها صوت أقدام تقترب من الدار التي تسكنها
تزايدت دقات قلبها وهتفت فى صوت خافت ملؤه
الفرح والأمل والتساؤل :

— ترى هل قدم ابنى يونس ؟ ...

وترى وجه صاحب الأقدام التي سمعتها فلا تجده
ابنها فيمتلئ قلبها كآبة وبؤساً وترفع رأسها إلى السماء
تسأل نجومها فى ضراعة :

— هل يعود ابنى الليلة ؟ ؟

ولكن النجوم لا تجيب . فتعود ثانية لترقب
الطريق فى أمل وشوق وخوف ...

ويشرد بصرها قليلاً وهي تستعيد فى ذهنها
وجه ابنها يونس . ويبدو الوجه ومن وراءه يبدو

— إني جئت هنا لأكل يا امرأة ، لا لأسمع هذا الكلام الذي هو كالسم . فإذا لم تصمتي فاني سأذهب من هنا . وأدع لك طعامك ...

ووضعت الأم خدها على يدها وصمتت . وراح يونس يلثم ما بقي من طعامه بنهم . فلما أتى على ما أمامه من الطعام شرب كوباً كبيراً من الماء ثم تجشأ ومسح فيه في كفه . ونهض فبارح الغرفة ... وهزت الأم رأسها في حزن ، وضربت كفاً بكف ، وقالت بعد أن تنهدت :

— يا لسوء حظي مع هذا الابن ...
وقامت فجمعت بقايا طعام ابنها وألقها لقطة بحيلة كانت ناعمة في ركن الغرفة . ثم ذهبت في أثر ابنها ...
ووجدته مضطجماً على فراش نومه وقد غطى وجهه يديه فوقفت تنظر إليه وهي تبتهل إلى الله في سرها أن يرشده إلى طريق الصواب . ثم ذهبت بعد هنية إلى فراش آخر كان بالقرب من فراش ابنها فألقت بجسدها عليه في إعياء ، وحاولت أن تنام

وفي اليوم التالي عاد يونس إلى أصدقائه اللصوص ، فتلقوه في ترحاب واشتياق . وراح من جديد يدبر جرائم السطو على المنازل لسرقة ما بها ...

كانت هذه طبيعة فيه ، وما نفقت دعوات أمه ولا نفع السجن في تخليصه من طبيعته هذه ...
وفي ذلك اليوم أيضاً عادت أمه إلى الابتهال إلى الله في صلواتها أن يذهب بابنها عن الطريق الذي يسير فيه إلى الطريق السوي . ولكن هيهات ...

وفي اليوم الذي أعقب ذلك اليوم ، دخل يونس على أمه وهو بنى بنمض (المواويل) الريفية والسرور يشيع في وجهه . وعلى غير عادته راح يجادشها بلطف

ابنها . وخفق قلبها وحلفت في الطريق يبصر كله انتباه واهتمام . وبدأ أمامها جسد رجل ، وأفلتت من فيها صرخة كلما فرح وطرب ، فقد كان ابنها صاحب ذلك الجسد

وتركت النافذة وذهبت مسرعة لتفتح لابنها باب الدار . ودخل يونس من الباب فصاحت في سعادة وهي تفتح له ذراعها :

— يونس . ابني . حبيبي !
ولكنه سار في طريقه دون أن يلتفت إليها فلحقت به وهي تضيح حائقة :

— ما هكذا يقابل الابن أمه بعد غيبة سنة أشهر أيها الابن لنا كره الجميل ..
فالتفت إليها قائلاً في خشونة :

— ما هذا وقت عتاب . إني متعب وجائع . وأشفقت عليه فلم تستمر في عتابها له مع قوة رغبتها في ذلك . وأخذت بيده بعد أن قبلت خده نحو غرفة صغيره مضادة بالدار وهي تقول :

— هنا دجاجة « محمرة » (وملوخية) أعددتها لك . أدخل وسوف أذهب لأحضرك الخبز ..
ودخل الغرفة . وذهبت لتحضر له الخبز ، وسرعان ما عادت به إليه . وجلس يلثم طعامه وجلست بالقرب منه تسأله :

— وكيف وجدت الحياة في السجن ؟
فرد عليها في خشوته التي لا تفارقه :

— جعيم . ولكنه أفضل من الحياة هنا على كل حال .
— وهل الحياة هنا لا تمجيك أيها الابن المذنب أنتكر نعمة ربك ؟

فصرخ في غضب وفيه بنمض بالطعام ...

ورقة ، فمجيبت لذلك وسألته :

— لم أرك على هذا للسرور قبل الآن ،

فما السبب يا ترى ؟

فقال بغمه على أذنها يهمس فيها :

— لقد سرقت ليلة أمس مالاً كثيراً ...

ولم يدر بما فعلت أحد ...

فصاحت فيه غاضبة :

— سرقت .. سرقت أيها الابن المذنب المخطيء ..

فقال لها وهو يهدىء من غضبها :

— لا ترفى صوتك هكذا . يقولون إن الجدران

أذا ما مثلنا ...

فلم تسمع كلامه واستمرت في صياحها :

— إنى لا أطيق أعمالك هذه ... فتى تفكر

في .. في أمك المعجوز يا يونس .. يجب أن تعرف

أنى في حاجة إلى الراحة ... أجل إلى الراحة يا ...

فلم يقف ليسمع من كلام أمه أكثر مما سمع ،

إذ تسلسل من أمامها مسرعاً وهو يقول :

— إنى ذاهب . فإ أحب أن يتسم الجوال الجليل

الذى أعيش الساعة فيه ...

وسمعت الأم بعد قليل صوت باب الدار وهو

يفتح ثم وهو يفتق فمرفت أن ابنها قد بارح المنزل ..

وارتمت على أحد المقاعد وهى تمجس دموعها

التي أوشكت أن تتحدر ...

وتصنعت خمسة أشهر لم تتغير فيها حياة يونس

وأمه ، فهو لا يكف عن السطو على المنازل وعن

مصاحبة اللصوص والأشرار ، وهى لا تكف عن

وعظه وإرشاده إلى طريق الخير وعن التضرع إلى

الله في صلواتها أن يساعدها على ذلك . ثم أتى اليوم

الذى عرف فيه يونس الحب ، فابتدأت حياته تتغير

وتبدل ، وبحكم صلة حياة أمه بحياته فقد تغيرت هى

أيضاً وتبدلت

كان عجيباً أن يعرف يونس الحب . وهو الرجل

الشرير الذى لا قلب له . ولكن من الذى استطاع

أن ينظر فى عيني « عالية » دون أن يضاب بداء

الحب ! أو من استطاع أن يرى بسماها دون أن

يحس بروحه قد امتزجت بروحها ؟

وعالية هذه فتاة قروية ، فى جسدها استقامة

قائمة ، وفى عينيها دمع مفر ، وفى بسمتها سحر

فتاك ، وفى ضحكتها للناعمة وكلامها الرقيق حلاوة

الشهد ، رآها يونس ذات يوم فى السوق الصغيرة

التي تقام بالقرية كل أسبوع ، فلم يدر لم وقف كالشده

بمخلق فى وجهها وهو الذى ما كان يستوقفه جمال

فتاة من قبل مهما كان هذا الجمال ؟

وفطنت عالية إليه فرمته بنظرة أحس وهو

يتلقاها بماطفة جديدة تنشأ فى قلبه ، وأفاق ليجد

نفسه قد أحب ، قد أحب عالية

وبرغم ضخامة جسده وعظم قوته ، فإنه عند

ما رجع إلى منزله فى ذلك اليوم كان يشمر بضمف

كبير أمام تلك الماطفة الجديدة التي طرقت قلبه

وتلقته أمه المعجوز على الباب ، فأدهمها أن

تجده ساهما مطرق الرأس

فقال له فى حنان : ما خطبك ؟

فهتف بلا وعى وبغير تريث : الحب ... الحب

يا أمى ...

وكانت هذه هى المرة الأولى منذ زمان طويل

التي يدعوها فيها بـ « يا أمى » . فقد تعودت أن

تسمعه دائماً يدعوها بـ « يا امرأة » . ومرت فى

ولم يتم كلامه . فصاحت به تحضه على إتمام ما يريد أن يقوله

— لأنك تحب . أليس كذلك ؟

فلم يجب . ولكنه نهض بسرعة وعاد إلى غرفة نومه ثم أتى يجسده على فراشه وفعل وجهه بذراعيه وفي أثره عادت الأم المسكينة ، وجلست بجوار فراشه ثم وضعت يدها على رأسه وتمت مخاطبه : — لم تخبيء عني ما في قلبك يا حبيبي ؟ أأنت أمك ... !!

فلم تقرب ...

وفي صباح اليوم التالي اجتمع يونس بأصحابه اللصوص ، وعلى غير عهدهم به وجدوه راغباً عن التفكير في جرائم السرقة ، كثير الاطراق ، خفيض الصوت عندما يتكلم . فحسبوه مريضاً ولكنهم ما دروا أنه قد أحب ...

وقبل أن ينفض اجتماعهم راح يونس يصف لهم فتاة عالية ويسأل هل يعرفها أحدهم . وكان وصفه لها دقيقاً جديداً حتى أن ثلاثة من أصحابه هؤلاء أجابوه سريعاً بأنهم يعرفون الفتاة التي يصفها ، واقترب منه أحد الثلاثة فأخبره باسمها واسم والدها والمكان الذي به منزلها . ثم رفع إليه بصره يسأله في ابتسام :

— هل وقعت ؟ ...

ولكن النظرة الفاسية التي صوبها يونس إليه جعلته يصمت ويترك رأسه إلى الأرض . ثم انفرط عقد اجتماعهم

وبعد هنيهة كان يونس في طريقه إلى المنزل الذي تقيم فيه عالية . وبجأة وجد نفسه أمام عالية .

أعماق نفسها لذلك . وودت لو تطلب منه أن يبيد على مسميها مرة أخرى كلمة « يا أي » هذه . ولكن كان هناك شيء أهم من ذلك تريد أن تستوضح أمره من ابنها ، ألا وهو ذلك « الحب » الذي نطق به . فقالت له : ماذا تقصد ؟

وكأنما هيا له عقله أنه قد باح بشيء لم يكن من الواجب أن يوح به ، فقد سار في طريقه وهو يهضم : لا شيء ... لا شيء ...

ولكن أمه لم تكن من الجهل بحيث تصدقه . فذهبت تحاول اقتناص سره من صدره بمختلف الجليل والأساليب . ولكنه صمت وزاد تمادياً في صمته فترك الكثير من أسئلة ألقها عليه ، محاولة أن تستدرجه إلى الذي تريد ، بلا جواب ..

وعندما آوى إلى فراشه كانت عينا عالية تملآن غرفته . وعبثاً حاول أن يبعدهما عنه ...

وانتصف الليل والكري لم يطرق له جفناً . فترك فراشه وبارح غرفة نومه إلى غرفة أخرى راح يشغل نفسه فيها ببعض الأعمال حتى لا يفكر في عالية ... ولكن بلا طائل ... ولحقت به أمه وقد أحست بأنه ليس في فراش نومه ، فوجدته على حالته هذه

سألته : ألم تنم ؟

قال : لا ..

جلست بجواره وربت يدها على ظهره قائلة :

— لم ؟

— انتابني الأرق .

فسألته وهي ترفع إليه بصرها .

— ولم انتابك الأرق ؟

— لأنني ... لأنني ...

ورفع رأسه في يأس وحيرة وقال لأمه التي
كانت تنظر إليه في إشفاق :
— غداً بعد أن أرى ما سيتم في ذلك الموضوع
أجيب على سؤالك ...

وذهب يونس في الغد ليطلب يد فتاته من
والدها ... وتمنت له أمه من أعماق قلبها التوفيق
فيما هو ذاهب إليه . فقد كانت متأكدة أنه
لو تزوج فستبتمد به الحياة الزوجية عن حياة
الاجرام ، ويصبح يونس كما أراده وكما استظل تريده
ابناً صالحاً لا يزجها بشيء ... ولكن . ولكن وقع
ما هجس بصدر الأم وابنها فلم يقبل والد عاليه
أن يزوجه من ابنته ، وزاد على ذلك أن أخبره أنها
مخطوبة إلى أحد أقربائها ...

وخرج يونس من دار والد حبيته وقد أظلمت
الحياة في عينيه . ماذا يفعل الآن ؟

وفي طريقه أبصر بعالية ، ووقف يفكر ...
يجب أن يقابلها ... يجب أن يودعها . يجب أن
يقول لها إنه لن يعيش طويلاً وقد فقدتها ...

وذهب إليها ، ولكن عالية رآته قبل أن يقترب
منها ، فابتعدت عنه . كانت قد عرفت بالأمس أن
ذلك الشاب الطويل للقامة ، الواسع الصدر ، المغم
قوة وفتوة ، الذي عرفته في الأيام الأخيرة ليس
إلا يونس اللص !

وصرخ يونس وهو يراها تبعد عنه :

— عالية ...

فالتفتت إليه خائفة ، وحدجته بنظرة هائلة
كلها ازدراء واحتقار ، ثم استمرت في سيرها
مرفوعة الرأس لا تلتفت إليه !

(٩)

ووقف في هذه المرة أيضاً يحملق في وجهها . وابتسمت
وقد عرفت : وحجبت فمها بطرف خمارها في
استحياء والبسمة لا تزال عليه . ثم سارت في
طريقها ...

وود لو يقفها ليروح لها بحبه ولكنه لم يستطع
وما استطاع إلا تشييعها ببصره إلى حيث اختفت
ثم عاد إلى منزله في خطى وثيدة ...
وحدث في ذلك اليوم ما حدث بالأمس ...

وثقت الأم المجوز أن ابنها قد أحب . ولكن
من هي الفتاة التي أحبها ... ذلك ما راحت تحاول
بطريقتها الخاصة ، وبيت العيون وراء ابنها أن تعرفه
وقد عرفت ...

وفي أحد الأيام أطلقت الأم ابنها على ما عرفت
وسألته :

— هل تنكر شيئاً مما ذكرت ... ؟

فأجاب : لا ...

قالت : وعلام نويت ؟

قال : سأطلب يد عالية من والدها غداً ...

وغمرت الأم سعادة . عظيمة وكيف لا تسر
وابنها يعزم على الزواج . وعادت تسأله في خوف :

— ولكن هل تظن أن والدها يقبل طلبك ؟

قال : سوف أبذل كل ما في ونسي حتى

يقبله ...

قالت : وإذا لم يقبله ... ؟

فأطرق برأسه ، وقد أدرك أمراً محيراً . أجل

إذا لم يوافق والد عاليه على أن يزوجه ابنته فماذا

يفعل ؟ ... إن والدها يعرف أنه لص فربما

لا يقبل طلبه ... ؟

وأحس كأن سلاحاً حاداً أشبه ما يكون بالسكين قد أغمد في صميم قلبه ... وفرت دمة من عينه وسقطت على خده ، فمسحها بأصبعه الخشن وعاد ليتابع سيره وفي أعماقه شيء يئن ...

وبعد أيام أربعة سرت في مجالس رجال القرية الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم إشاعة مضمونها أن « يونس » مستعد لتخليص من له عدو من عدوه مقابل عشرة جنينيات . أجل عشرة فحسب ... ولو كانت مهمته هذه حياته ...

واتصل أحد هؤلاء الرجال الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم بيونس ، وبعد أن تأكد من صدق الإشاعة التي وصلته اتفق معه على أن يخلصه من عدوه وأعطاه العشرة الجنينيات التي يريدونها كل هذا حدث وأم يونس لا تدري . ولو كانت تدري اباعت حياتها لتتخذ ابنها قبل أن يبيع هو حياته بتلك الجنينيات المشرة !

وذهب يونس بعد أن ملأ بطنه خمراً ليقوم بمهمته غير خائف ولا وجل ، فاعادت حياته بذات قيمة لديه بعد أن فشل في حبه . ولم يفكر في أمه المسكينة وهو مندفع في طريقه المظلم الذي لا يعرف إلى أين يوصله ، وإن كان يعرف أنه لن يوصله إلى نهاية حسنة ، اللهم إلا أنه أودع عند أحد أصدقائه بضمة جنينيات من الجنينيات المشرة وأوصاه أن يعطيها لأمه إذا قبض عليه لتعيش منها ...

وفي صباح اليوم التالي كانت الأم واقفة أمام منزلها تسأل المارة عن يونس ابنها إذ أنه لم يمد إلى المنزل ليلة أمس ، عندما تقدم أحد أقربائها

ليخبرها أنه عائد لتوه من عند عمدة القرية وأن ابنها مقبوض عليه هناك بتهمة قتل رجل من القرية ... وتلفت الأم ذلك النبأ ذاهلة . ثم صرخت في صوت عال :

— ابني يونس قبض عليه بتهمة قتل رجل ..؟

ابني يونس ... حبيبى يونس ... وذهبت إلى دار العمدة لتحقيق الأمر . فعادت والجنون أقرب إليها من جبل الوريد . إن ابنها قد قتل حقاً أحد رجال القرية والعمدة يقول لها إنه قد يحكم عليه بالاعدام شنقاً ...

وتمر الأيام والشيطان يضحك على الضحيتين الرخيستين : الأم وابنها .

... في صباح يوم دخلت إحدى نساء القرية على تلك الأم المسكينة لتخبرها أن ابنها قد حكم عليه بالاعدام شنقاً ، وأن ذلك الحكم سينفذ فيه في الغد . فوجدتها نائمة على غير عاداتها في الأيام الأخيرة . وكانت تحلم ، إذ سمعتها تقول :

— هل برئت يا ابني ؟ هل أطلقوا سراحك يا حبيبى وغدت إلى أمك المعجوزة ؟ حسن ، تعال إلى صدرى أيها الابن اللقي .. تعال إلى صدر أمك التي أوشكت أن تنجن عندما علمت بأنك لا تعود إليها . تعال يا حبيبى . تعال ...

وضنطت الأم النائمة بذراعيها على صدرها وكأنها تضم إليه ابنها حقاً . وعادت المرأة التي أنت لتخبرها أن ابنها حكم عليه بالاعدام شنقاً من حيث أنت . وعلى خديها بضع قطرات من الدموع حاولت أن تحبسها في عينيها فلم تستطع !

هــبـ الطليم محمد العشري

يقضى أيامه ولياليه عاملاً لا خروته. وأكثر
من فيها من الناس مصابون بالهزال من قيام
الليل والزهد في الطعام؛ وقلما وجدت فيها
رجلاً ضاحك السن أو مبتسم العين أو مورد
الخددين. ومن أجل ذلك يجب عليك أن
تظهر الحزن والاكتئاب لتبدو عليك هيئة

الصالح الورع»

قلت: «وآية فائدة يا صاحبي الدرويش من كل
هذا؟ إنني مسلم ويجب على أداء الفروض ولكن
إقامتي في هذا المكان لا تستلزم كل ما تقول لأنه
قلما رأي أحد فيه أو اهتم بوجودي إنسان»

نقال: «إذا أنت لم تتبع ما قلته لك فلتستعد
للرجم بالطوب أو الموت جوعاً، فالدرويش الدين
حولك لا يعرفون الوسط من الأمور ولا يتساججون
في أقل شيء، فإذا ارتابوا في مسلكك أقل رتبة
فإنهم لا يتأخرون طرفة عين عن جملك عبرة لغيرك؛
وإذا بدا لهم أن عصيانك ناشئ عن ضعف في الاعتقاد
فلا تنتظر منهم شيئاً غير أن يمزقوا جلدك كل ممزق.
ولم لك لا تعرف يا حاجي بابا أن هذه مدينة ميرزا
أبي للقاسم أكبر الأحياء من زعماء الدين، ولم لك
لا تعرف أن هذا الرجل إن نارت ثارت معه مئات
الآلاف من أتباعه الذين لا يسألونه برهاناً على ما يقول
فهو أقوى من الشاه وأكثر نفوذاً

هذا هو الرجل ولكنه طيب القلب كريم
الأخلاق ولا أعرف فيه عيباً سوى أنه يقتل رجلاً
كل من يعتقد أنه ضعيف الإيمان»

لما سمعت ذلك من الدرويش وعدته أن أؤدي
فروض الدين. وكنت أعد المناجاة على هذه الفروض

حاجي بابا إصيهاني

للكاتب الإنجليزي "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والأربعون

قصة غريبة

ما كنت أنجو من طلعة النازا كشي حتى سمعت
صوت صاحبي الدرويش الذي أقبل في هذه الساعة
إلى المدينة معلناً قدومه بأداء للشهادتين بأعلى صوته
وبعد قليل رأيته يدخل المدفن باحثاً عني. ولما رأيته
اتجهج وحمد الله على وصولي إلى هذا المكان سالماً قبل
أن يصل إليه النازا كشي ووعدني بأن يقيم معي مدة
قصيرة. ووقع اختياري وإياه على خلوة من الغرف
الكثيرة المبنية حول القبر وكان معي عشرون طوماناً
من الذهب وبعض النقود الفضية، وأرسلته ليشتري
لي بعض الحاجات الضرورية كصبر لأرض هذه
الغرفة وزير يحفظ فيه الماء.

وقد فاجأني هذا الدرويش مفاجأة لم أكن
أنتظرها إذ سألتني: «أخبرني أولاً قبل أن أقيم
معك هل تقيم الصلاة وهل تصوم، أم أنت لا تزال
كما كنت في مشهد؟»

قلت: «لماذا تسألني هذا السؤال وماذا يمينك
إن كنت أصلي أو لا أصلي؟»

قال: «إن ذلك لا يهمني كثيراً ولكنه يهمني
أنت لأن هذه المدينة «مدينة قم» من أكثر المدن
تمسكاً بالدين فلا تجد فيها إلا تقياً من أبناء النبي

من أكبر المشقات . ولكن لما مضت أيام قليلة اعتدتها فلم أعد أرى فيها شيئاً من الصموبة فلم أحمل أداها في أوقاتها . وكنت أرفع صوتي حتى يسمعه كل مقبل من بعيد لزيارة المقبرة . وما كان أكثر الزائرين لها من مختلف الطبقات !

ولقد حذقت صناعة التكايح فصرت أجمل وجهي كأوجه الأتقياء والزهادين عبوساً وتقطيعاً . وقد شهد لي صاحبي الدرويش بالحدق في ذلك على أنه هو معدوم النظير في ذلك

ولقد أذيع سرياً أن في المدفن ولياً من أولياء الله . ولولا أنه هارب من مظلة ولاجيء إلى هذا القبر لكان إماماً للناس . وأذيع عني أنني مظلوم مضطهد وأن مقامي في هذا الملجأ لا يدل إلا على ظلم الحكام الذين يخصصون الأتقياء الزهادين باضطهادهم . وتعرفت في أقرب وقت على أكثر أهل المدينة وقد اتفقت كلمتهم على أنه ليس في المدينة أكثر تبعداً مني . ولما طال العهد صار بعضهم يستشيرني في أموره فأشير عليه . ودلهم التجارب على أنني حكيم أصيل الرأي

ولم تكن معيشتي وصاحبي لتكاف أحداً شيئاً من المال لأن الزائرين وخصوصاً النساء منهم كانوا يقدمون إلينا ما نحن في حاجة إليه من خبز وفاكهة وعسل ، وكنت أجزي على ذلك بالشكر وبأحجية أكتبها بيدي في بعض الأحيان ، وعلى الرغم من قلة التكاليف التي تكبدنا إياها هذه الحياة فإنها حياة مظلمة لاضطرارنا في أكثر الأحيان إلى قضاء الساعات الطوال دون أن تتحرك شفتنا أحداً بحرف ، ومن أجل ذلك كنت أشججه على أن يقص علي أخباره ويروي لي قصصه . ومن بينها القصة التي لم أكن

مصنياً إليه وهو يرويها في الخان . ولقد سررت من هذه القصة كثيراً وأحسب القاري سيسر منها كذلك ، وسواء صدق ظني أو لم يصدق فلا شك أن القاري بود أن يعرف بماذا كان يتسلل الدراويش في سجونهم المختارة

انقصه

السلطان التركي الحاضر ملقب بين الإيرانيين بلقب « خون خور » أي شارب الدماء ، والإيرانيون في المادة يطلقون هذا اللقب على كل حاكم تركي . ولما تولى هذا السلطان أصر على إلغاء كثير من العادات والتقاليد التي نشرها الكفار الذين تطرقوا إلى الوظائف في عهد سلفه ، ورأى أن من واجبه إعادة الأمور إلى حالة البساطة التي كانت عليها قبل ذلك السلف ، فسن للحكومة نظاماً تركياً بحسب

وكان في جملة التقاليد القديمة التي أحياها سنة التسكر والتجسس على الرعايا . وكان شديد الحرص على أن يكون تنكره متقناً وعلى أن يخفى سره عن أخص أتباعه ، وكانت الثورة تكاد أن تنشب في ذلك الوقت لكثرة ما كانت تبديه الجماهير من التذمر ، فأراد السلطان أن يتعرف بنفسه حالة الجماهير وأمر بصنع ثياب له يستحيل أن يعرف وهو مرتديها .

وكان من عاداته أن يكاف بصنمها خياطين مختلفين في بلاد مختلفة وفي أوقات مختلفة . وفي الوقت نفسه أرسل خصيه الأمين واسمه المنصوري ليجت

له عن خياط غير مشهور

فذهب المنصوري إلى السوق ورأى خياطاً في حانوت ضيق يضع على غيبه منظاراً وليس في حانوته ثياب كثيرة ، فقال المنصوري : « هذا هو بيتي لأنه يثير شك ليس من المشهورين »

ولما ذهب الخصى عاد الخياط إلى عمله وأخذ يفكر في هذه الصفقة ثم قام فجأة فأغلق حانوته وذهب إلى منزله ليخبر زوجته

وكانت هذه الزوجة واسمها «دلفريب» محدودة الظهر مثله ، وقد دهشت عندما رآته يعود إلى المنزل قبل مواعده العادى ومعه طبق من الشواء الساخن يتصاعد منه الدخان وآخر من السكاج وقرطاس من المنب

أ كلا وشربا القهوة وأخبرها بالحديث وتركها ماأخذه من المال . ولما كاد الليل ينتصف ذهب إلى حانوته ليقابل المنصوري وسمح له بأن يمصب عينيه ويقوده حتى وصلا إلى باب الحرم في قصر السلطان فدخلوا . ولم يزل الخصى يقود الخياط حتى وصل به إلى حجرة السلطان ولم يكن بها من النور غير مصباح ضئيل على الرف ، ولكن أاثها الفاخر كان يلم عليها

أمر الخياط بالجلوس على كرسي ذهبي فوق سجادة لم ير ولم يتخيل مثلها ، ثم جىء له بثوب من ثياب الدراويش وطلب إليه أن يتأمل فيه ويقول في كم من الزمن يستطيع أن يخيط ثوبا مثله . وتركه الخصى آمرا إياه بأن يطوى الثوب كما كان يمد أن ينتهى من فحصه ويضعه في المنديل الذى كان فيه

وبعد أن قام الخياط بذلك الفحص ناظرا في كل جزء من الثوب طواه ووضع في المنديل . ولم يكده يفعل ذلك حتى دخل الغرفة رجل مهيب الطلعة فأخذ المنديل وخرج دون أن ينطق بحرف تاركا الخياط وحده وقد ساورته الأفكار من هذه المناظر التى يراها . ثم فتح باب آخر من هذه الحجرة فدخل رجل في ثياب ثمينة ومعه ثوب مطوى

حياء المنصوري فرفع بصره إليه ، ولمس رآه في ثياب جميلة عاد إلى عمله في صمت دون أن يرد التحية لأنه اعتقد أنها غير موجهة إليه ، ولكن لما أعاد الخصى للتحية أبقن الرجل أنه هو الذى بها فطرح أعماله جانبا وهم بأن يقف على قدميه ولكن المنصوري أمره بالجلوس وسأله عن اسمه فقال : « اسمى خادمك عبد الله وشهرتى بابا دول »

قال المنصوري : « وهل أنت خياط ؟ » فقال : « نعم صناعتى خياط ومؤذن في المسجد الصغير بسوق السمك »

قال : « اسمع يا بابا دول — إن لدى صفقة كبيرة الأهمية فهل تقبلها ؟ »

فقال الخياط : « وهل أنا مجنون حتى أرفضها ؟ قل لي ما هي »

— « تكلم بهدوء وفكر فيما أقوله لك . هل تقبل أن أربط عصاة على عينيك وأخذك إلى مكان لا تعرفه لتؤدي عملا تأخذ عليه أجرا كبيرا ؟ » — هذا شيء آخر غير الذى عرضته على أولا .

إن الأوقات شديدة الحرج والرؤوس تتطاير الآن عن أجسادها بنير حساب ولا يبعد أن يقطع رأس خياط مثل كما تقطع رؤوس الوزراء والباشوات في هذا الزمن . ولكن ادفع لي مقدما ثمنا عاليا وأنا أخيط لك ثوبا يصلح لا بليس فلا يعرفه فيه أحد إن تنكر »

قال المنصوري : « هذه هي بقيتى ، وهذا هو المال » ووضع في يده كيسا من النقود الذهبية فأخذه وقال : « لقد قبلت فقل لي ماذا تريد واعتمد على » ثم تم الاتفاق بينهما على أن يأتي الخصى في منتصف الليل فيأخذه بعد أن يربط عينيه حيث يشاء

في (شال) من الكشمير وحياء هذا الرجل الخياط تحية
للعبد الخاشع للسيد المهيب ثم قبل الأرض بين يديه
وترك الثوب وذهب

فقال الخياط في نفسه : « لا شك في أن صاحب
المنزل من أكبر الباشوات ولله صدر أعظم ،
ولو كنت أقدر الرهبة التي أشعر بها الآن لما قبلت
هذه الصفقة مهما كان ربحي منها . ومن الذي يدرى
نتيجة وجودي في هذا المكان بين المظالم الذين
يظهر أنهم خرس لأنهم يذهبون ويأتون ولا ينطق
أحدهم بحرف . لقد كنت أرجو أن يقل انحنائهم
أمامي ويكثر كلامهم لي . لقد سمعت أن امرأة ألقيت
في البحر منذ أيام . ومن يدرى لعلها كانت خياطة
بمثل هذا المنزل ولعل نصيبي سيكون مثل نصيبها
لما وصل الخياط في مناجاته نفسه إلى هذا الحد
دخل الحجرة المنصوري فأخذ الثوب الثاني الذي
كان الخياط قد انتهى من خصه وعصب عينيه ، وعادا
من نفس الطريق الذي جاء به منه بعد أن أعطاه سلة
مغلقة . وكان الخياط رجلا حنكته التجارب فلم يسأل
سؤالا ولم يستفسر عن شيء . ولما طلب إليه الخصى
أن يحدد موعداً يفرغ فيه من خياطة الثوبين وعده
بإنجازهما بعد ثلاثة أيام ، فقبل الخصى وأعطاه عشرة
جنيحات

ولما رفع الرباط عن عينيه أمام حانوته وفارق
المنصوري حمد الله وذهب مسرعاً إلى منزله ليشر
زوجته التي كانت منتظرة بصبر نافذ بأن الصفقة
تستحق أن تسمى صفقة رابحة . وكان وصوله إلى
منزله بعد ساعتين من منتصف الليل فهنأته لمودته
سالماً وقالت إنها استطالت مدة غيابه وتلفت بشراء
بالابتسام وبتكرار الحمد لله . وطلبت إليه أن يصف

ما رآه وأن يخبرها عما في السلة
فقال دعينا الآن من ذكر ذلك ولنذهب لكي ننام
قالت : « كلا بل أخبرني أولاً ماذا رأيت
والأقاني لن أستطيع النوم »

وأخذت السلة ففتحتها وهي تأمل أن تجد فيها
هدية ثمينة من بيت العظيم الذي تعاقد معه على هذه
الصفقة ولكن ما كان أشد انزعاجها وهلمها هي
والزوج المسكين عند ما وجدوا في السلة رأساً مقطوعاً
قالت الزوجة : « ما هذه الداهية التي حلت
فوق رؤوسنا ؟ هل أتيت برأس قبيل لتصنع منه ثوباً ؟ »
فصاح المسكين : « لعنة الله على أمه وعلى أبيه .
لقد خدعني هذا الخصى اللعين ! ليتني طاوعت قلبي
فقد حدثني بالشر لما كلمني الخصى عن ربط عيني
وعن المكان المجهول . ولست أعرف الطريق إلى
المنزل الذي قادني إليه . وإلا لذهبت إليه في الحال
وأعدت رأس للقتيل . إنني لست أعرف ماذا أفعل
أو ماذا أقول وأخشى أن يكون عندنا بعد لحظة مائة
من الشرطة فنكلف بدفع الدية أو تعلق لنا
المشقة أو نرى في البحر . أشيرى على يا دلفريب .
أشيرى على يا عزيزتي ! »

قالت الزوجة : « علينا أن نتخلص من هذا
الرأس قبل كل شيء ولست أتحب هذه اللهمة من غيرنا
فلنبحث عن أي إنسان يحملها عنا »

فقال الزوج : « ولكن الفجر قد اقترب وإن
تأخرنا قليلاً يفوت الوقت الذي نستطيع أن نعمل
فيه أي عمل فلننظر في أمرنا الآن »

قالت الزوجة : « لقد خطر لي خاطر في هذه
اللحظة ، إن جارنا حسن الخباز يوقد فرنه الآن وبعد
ساعة يتبدى في إنضاج الخبز وإنضاج ما لديه من

سيئون . لقد أرسل إلينا بعض الكفار رأس إنسان
لنشويه ولكن بحمد الله لم تقع في هذه الخطيئة
ولا تزال نستطيع العمل في هذا القرن ونحن
صراحو الضمير . ولكن إذا عرف أنه كان عندنا
رأس لنشويه فمن الذي يرسل إلينا خبره بعد ذلك ؟
إنني أخشى إن يشهر هذا الخبر فنموت جوعاً لأن
الناس سيقولون إننا تعودنا طبخ الرؤوس الآدمية ؟
وإذا اتفق أن وجد في رغيف شعرة فأنهم سيقولون
إنها من لحية إنسان »

وكان محمود شاباً يبالغ العشرين من العمر وقد
أخذ عن أبيه الهدوء وسلامة الأعصاب وزاد عنه
أنه كان ذكياً ميالاً للفكاهة ؛ وبدلاً من أن يزعج
من هذا الحادث عدة فكاهة عظيمة وضحك ضحكة
عالية من الأسنان البارزة والسنين المحمقتين في الرأس
الموضوع في « الحلة » وقال : « نعال نجياً هذا
الرأس في حانوت « خير علي » الحلاق الذي أماننا
عند ما يفتحه الآن . إنني أستطيع أن أفعل ذلك
دون أن يراني أي إنسان فأذن لي بذلك قبل أن
يتنشر النور »

وافق الأب فسار بخفة الطائر ووضع الرأس
على كرسي الحلاقة كأنه رأس أحد « الزبائن »
وعاد ابن الخباز إلى مخبره لينظر ماذا يفعل الحلاق
الضعيف البصر بهذا الرأس عند ما يراه

وكان « خير علي » في ذلك الوقت يكتسب الطريق
فلما عاد إلى حانوته الضيق المظلم أخذ يدور فيه لمسح
المراة والكراسي فوقع نظره فجأة على هذا الرأس
وظن أن أحد زبائنه جاء ليحلق فقال : « السلام
عليكم يا أخي . لا تؤاخذني لأنني لم أرك ساعة حضرت
وقد جئت مبكراً جداً ومع ذلك فأرى رأسك

الأطعمة الكثيرة الموضوعة في الأواني المتشابهة .
وإذا وضعنا هذا الرأس في « حلة » وأرسلناها
إليه فانه سيشويهها في الأنية كالمادة ويتركها بين
مئيلاتها من الأواني حتى يأتي من يسأل عنها وليس
يعرف أحد من كل آنية من هذه الأواني لأن صاحب
كل آنية يأتي كالمادة فيستدل عليها »

فأعجب الزوج برأى زوجته وتغذ ما أشارت به
وبعد دقائق كان الرأس في « حلة » منطاة
بين سائر « الحلل » الموضوعة أمام باب الموقد وأغلق
الزوجان عليهما باب المنزل وناما

وكانت الزوجة مسرورة بامتلاكها للشال
الكشمير الذي كان رأس القاتل ملفوفاً به في
داخل السلة

وكان حسن الخباز وابنه محمود يشعلان النار
في الموقد بسرعة، وبالرغم من أنهما هما في هذا العمل
فان محموداً وقف فجأة ونبه أباه إلى عواء غريب لكلب
بالقرب من الموقد وقال له إن هذا العواء يدل على
حدوث أمر غير عادي »

فقال الخباز : « لا شيء من ذلك يا محمود
فدعنا نستمر على عملنا »

لكن النباح لم ينقطع ودخل الكلب فأخذ
يشم الاناء الذي جاء به الخياط ثم يثب على الخباز
ويعود إلى شم الاناء ، فارتاب الخباز ورفق الغطاء
عن هذا الاناء برفق . ولست في حاجة إلى أن أصف
مقدار الرعب الذي اعتراه عند ما رأى فيه رأس
إنسان يحماق إليه بعينيه ولكن الرجل كان قوي
الأعصاب فلم يتركه يسقط من يده كأكثر الناس
في مثل هذه الحالة بل وضعه كما كان ونادى ابنه
وقال : « إن الدنيا سيئة يا محمود وفيها كثيرون

لزيارة حانوته إذا ما رآه أحد ولمله خشى ألا يكون هذا السبب كافياً فناداه وأمره بأن يرسل إليه طبقاً من الشواء ليفطر به

وبعد أن أوقد بنى النار وجد وهو يكنس الحانوت ذلك الرأس وكان بنى يونانياً أصيلاً كثير المكر قوى الحذر عالياً بضروب الخداع والمخائلة يتملق من هم أعلى منه ويظلم من هم دونه. وكان يكره العثمانيين كراهية الموت ولكنه مع ذلك يتملق أصغرهم قدراً وأضالهم منزلة

ولما أمسك بذلك الرأس بين يديه عرف أنه رأس رجل مسلم فقال : « ليتنى أجد كل رؤوس المسلمين مثل هذه الرأس فأصنع منها أحسن شواء فى الوجود . ليتنى لا يبقى فى الآستانة رجل على قيد الحياة . وليت النسور تتغذى بأجسامهم وليت كل يونان يصادفه من حسن الحظ مثل الذى صادفنى اليوم »

ثم أتى بالرأس وركله برجله ولكنه عاد فتذكر ورقه فى الحال وقال : « لو وجد هذا الرأس هنا لوقعت النكبة على رأسى لأن كل الناس لن يستقدوا إلا أنى قتلت تركياً » ووقف مدة طويلة عاج فيها أشد ضرب من الحيرة وقال فى نفسه : « لقد تذكرت ! إن الحى اليهودى خير مكان لهذا الرأس فان اليهود هم الذين يعرفون وخدم ما الذى ينبغي عمله بهذه الرؤوس »

ثم وضع الرأس تحت ثوبه ومشى إلى الحى اليهودى فوجد على بابه جسم رجل يهودى مقطوعاً رأسه وموضوعاً بين رجله وقد جرت العادة فى تركيا عند ما يقطع رأس رجل مسلم أن يضع الرأس تحت ذراعه تكريماً له . أما اليهود والنصارى فتوضع

معلقاً وأراك قد نزلت عما منك قبل أن آتى ، ألا تخاف أن تصاب بالبرد ؟ »

ثم سكت لحظة وعاد فقال : « يظهر أن صاحبنا أصم فإنه لم يجبنى بحرف ومع أننى نصف أعمى فأنى سأخلق له »

ثم أخذ طسته النحاسى وأعد الصابون والموسى ومشى نحو الرأس ولطست فى يد والموسى فى اليد الأخرى ، ولم يكد يضع يده على ذلك الرأس للبارد حتى عاد بحركة عصبية كأنما لمست يداه النار وقال : « ما شأنك يا أخى ؟ إن جسمك بارد كأنه قطعة من الثلج »

ولكنه لما مسه للمرة الثانية سقط الرأس على الأرض فوثب الحلاق السكين صائحاً : « أمان ! أمان ! إذا كنت أنت للشيطان نخذ حانوتى وما فيه ودع لى حياتى وأعفى من الحلاقة لك »

ولكن مضت لحظات لم يحدث فيها حادث فاعتقد أن الشيطان لا يد له فى هذا الأمر . ودنا من الرأس فرفعه من شمعه وقال : « ما الذى جاء بك إلى هذا المكان ؟ هل تريد أن تفضحنى ؟ إننى نصف أعمى ، ولكننى أعرف ما ينبغي على أن أفعله . إننى سأذهب بك إلى حيث لا تضرين أحداً لجارى اليونانى « بنى الكبابجى » يفرح بك ليصنع منك « كباباً » لزبائنه الكفار »

ثم أخذ الرأس منطلى بمندبل فى يد والغلليون فى اليد الأخرى . ومشى إلى مطعم جاره اليونانى ووضع فى ركن منه دون أن يراه أحد لأن الصباح كان لا يزال فى أوائله وأصحاب الحوانيت لا يزالون يستعدون ولما بدأوا أعمالهم

ثم أشمل غليونه من موقد بنى وجعل ذلك علة

رؤوسهم بعد قطعها بين أرجلهم تحفيراً لهم
ولما كان الطريق خالياً فقد أسرع بنى فوضع
رأس المسلم تحت ذراع اليهودى وعاد مسرعاً إلى حانوته
أما قصة اليهودى المقتول فإنه اتهم باختطاف ولد
مسلم وهذه تهمة توجه كثيراً إلى اليهود في تركيا
وفي إيران، وقد عوقب اليهودى بالقتل وبأن ترك
جثته في الطريق ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من اليهود
أو اليونان القيمين بالقرب من هذا الحى على الدنو
منها ، فظلوا منتظرين أن يأمر الحاكم المسلم بدفنها
أو بإحراقها أو بأن يفعل بها ما يشاء . ومن أجل
ذلك تمكن بنى من أداء مهمته التى تقدم ذكرها دون
أن يراه أحد

ولكن لما اعتلى ضوء النهار شاع أن اليهود
قتلوا رجلاً مسلماً ووضعوا رأسه مع رأس اليهودى
انتقاماً ، وشاعت إشاعات أخرى متناقضة ، وازدحم
الناس حول الجثة . وقيل إن الله أظهر معجزة إذ ظهر
للإهودى رأسان ، وقيل إنه كان مسلماً فى السر
ويهودياً فى العلانية وإنه كان بريئاً من التهمة التى
وجهت إليه ولذلك ظهرت هذه المعجزة

ولكن اليهود كانوا فى أشد الحيرة والارتباك
لوقوع هذا الحادث ، وكان رؤساؤهم الدينيون
يروحون ويغدون أمام هذه الجثة ويمقدون جلسات
للبحث فيما يدفع عنهم شر هذه النكبة

وبينما كان الناس يشاهدون هذا المنظر المنكر
ويردد كل منهم ما سمعه من الإشاعات إذ صاح أحد
الجنود : « هذا الرأس هو رأس قائدنا فلان رحمه
الله . فتعرف إليه سائر الجنود وعرفوه ، وهاج
غضبهم ، وسرعان ما انصل الخبز بكل جنود الفرقة
لأنهم لم يكونوا يعلمون أن قائدهم الذى يحبونه قد

مات . وشاعت بينهم إشاعات مختلفة من سبب ذلك
ولكن كلهم جميعاً كانت متفقة على أن هذه الالهانة
التي لحقت بهم لا يمحوها غير الدم ، وقيل إن الوزير
هو الذى قتله وأتى برأسه فى هذا المكان لنقع
للشبهة على الجنود . وقيل إن أحد السفراء الأجانب
هو الذى فعل ذلك . وأقسم الجنود برأس عثمان
وبسيف عمر أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل أياً كان
وقبل أن نصف النتائج توجه نظر القارىء
إلى الحالة التى كان عليها اليهود فى ذلك الوقت
وإلى محاولتهم الاختفاء والفرار من غضب الأتراك ،
ونوجهه كذلك إلى منظر الجنود التركية وهم
تسير مسلحة فى الطرقات مقسمة أغلظ الإيمان
أن تنتقم باحثة عن نصب فوق رأسه جام الانتقام .
ولكى تصور هذا المنظر يجب أن نعرف أن المدينة
كانت على ازدهارها الشديد ضيقة الطرقات وكان
أهلها جميعاً لا يتكلمون فى حديث غير هذا
ولا يهتمون بشيء سواه وكانهم يتوقع حدوث
نكبة لا تخطر لأحد يبال

فى نفس الليلة التى دعى فيها الخياط إلى قصر
السلطان صدر أمر سرى بقتل قائد الفرسان وقد
كان ينسب إليه أنه رأس حركة التمرد التى قامت
أخيراً بين الجنود

ولما كان السلطان شديد الغيظ من هذا القائد
فقد أمر بأن يعرض عليه الرأس ساعة قطعه لجاء
به الجلاد إلى الغرفة فى الساعة التى كان فيها الخياط
جالساً على الكرسي الذهبى ينتظر الثوب الذى سيخيط
مثله ولأن الغرفة لم تكن مضاءة بالنور الكافى ولأن
الجلاد وغيره من الحاشية كانوا يخشون من النظر
إلى وجه السلطان — فقد وضع الرأس ملفوفاً

تحت قدمي الخياط على اعتبار أنه السلطان . ثم
أخطأ الخصى فوضعه في السلة بدلا من الهدية التي
كان يجب تقديمها وقدمت تلك الهدية إلى السلطان
بدلا من رأس القنائد

لما عرف السلطان أن الهدية هي التي قدمت إليه
بدلا من الرأس كان الخصى والخياط في طريقهما
إلى الحانوت

غضب السلطان وانتظر عودة المنصوري فلما عاد
أمره بالذهاب في الحال ليأني بالرأس الذي أخذه
الخياط وتوعدده بالموت إذا لم يمد به ، فذهب وهو
يكد ويجن لأنه يعرف حانوت الخياط ولكنه لا يعرف
منزله . وأخذ يدور في الطرقات لعله يرى رجلا
فيسأله عنه ومضت ساعة قبل أن يتذكر قول الخياط
إنه مؤذن في المسجد الصغير في سوق السمك

فلما تذكر هذه الكلمة جري مسرعا إلى ذلك
المسجد وكان قد اقترب وقت الأذان فانتظر وهو
مفقود الصبر تحت باب المسجد . ولم يمض وقت
طويل حتى رأى رجلا يقبل نحو المسجد فظن أنه
الخياط ، وبعد دقائق تبين أنه لم يكن مخطئا في ظنه
ولما وقع نظر الخياط على المنصوري ترك الواجب
الديني الذي جاء ليؤديه في المسجد وهو الأذان
وجري كالمجنون راغبا في الفرار . ولكن المنصوري
أدركه واستوقفه برفق أطمع الخياط فقال : « هل
أنت إنسان ؟ كيف تعامل مسكينا مثل هذه المعاملة
مالدي أسألك به حتى تعطيني رأس رجل مقتول ؟ »
قال المنصوري : « تمهل أيها الصديق فاني
لم أرد بك سوءا وإنما وقعت غلطة يراد الآن
إصلاحها »

فقال الخياط وهو يرتعش : غلطة ؟ تقول غلطة ؟

أنضحك على ذقن بيضاء مثل ذقني وتفهمني أنني
أت لأخيط ثوبا ثم تعطيني رأس رجل مقتول ؟
إن البيت الذي قدمتني إليه بيت جماعة من اللصوص
للسفاكي الدماء »

فوضع الخصى يده على فم الخياط وقال : « اسكت
فانك لا تعرف عمن تتكلم »

قال الخياط : « أيا كان هذا الذي تتكلم عنه
فانه كاذب كافر يستحق اللعنة »

فقال الخصى : « أهكذا تتكلم عن ظل الله
على الأرض يا أحمق ؟ قل لي ماذا فعلت برأس اللقتيل
هاته وإلا قطعت رأسك بدلا منه »

لما علم الخياط حقيقة الأمر فتح فاه كالأبله
وقال : « أمان ، أمان ! لم أكن أعرف هذه الحقيقة
تعال معي إلى المنزل فأنت تسمدني بتشريفيه وترفع
رأسي إلى السماء »

فقال المنصوري : « لا أستطيع التأخر فالأمر
يدعو إلى شدة الاستعجال فقل لي أين رأس قائد
الفرسان »

وكان الخياط يسمع هذا اللقب ويذكر ما فعلته
زوجته فاصطكت أسنانه واضطربت ركبته وقال :
« ما أوقعتني في ذلك غير القسمة وليس للانسان
أى مهرب منها »

ثم سكت . وانتظر الخصى كي ينطق بشيء فلما
لم يفعل . قال الخصى :

— « هل أحرقتة ؟ »

— « كلا »

— « هل رميته في البحر ؟ »

— « كلا »

— « إذن فأستحلفك باسم النبي أن تخبرني

ماذا فعلت به ؟ هل أكلته ؟

— « كلا »

— « هل هو موجود الآن في منزلك ؟ »

— « كلا »

— « هل هو مخبوء في بيت آخر ؟ »

— « كلا »

فاشتد غضب الخصى وأمسك بلحية الخياط

وصاح : « إذن فأخبرني ما الذي فعلت به ؟ »

فقال الخياط وهو يكاد يختنق لاحتباس الدموع

في صدره : « إنه في الفرن — إن الفرن يشويه الآن »

دهش الخصى وقال : يشويه ! لماذا ؟ هل تريد

أن تأكله ؟ »

فقال الخياط : « كلا ولقد أخبرتك بالحقيقة

فماذا تريد ؟ إنه الآن في الفرن والفرن يشويه »

ثم أخبره بالأمر على حقيقته

فقال المنصوري : « أرني حانوت الخباز . من

الذي يظن أن رأس قائد الفرسان يرسل إلى الفرن

ليشوي ؟ لا إله إلا الله »

ومشى الرجلان إلى حانوت الخباز وكان إذ ذاك

يخرج الخبز ناضجاً من الموقد، ولما علم غرضهم ما لم يتردد

في إخبارهما بالحقيقة . وذهب الثلاثة (المنصوري

والخياط والخباز) إلى حانوت الحلاق فسأله عما

فعل برأس القتيل فتردد مدة ثم أقسم أنه كان يظن

الأمر حيلة من إبليس وأن ذلك برر ما فعله من تركها

في مطعم اليوناني للكافر الذي لا بد أن يكون قدمها

لأخوانه الكفار في جملة ما قدمه إليهم من الشواء

فاستماذ الثلاثة بالله من غضبه وضموا إليهم

الحلاق ومشوا إلى مطعم بني اليوناني

انزعج المسكين عند ما رأى أربعة من المسلمين

يدخلون حانوته في وقت واحد وشمر بأن حاجتهم

ليست إلى الطعام بل إلى أمر آخر . ولما سأله عن

رأس القتيل أنكر أنه رآه أو علم شيئاً عنه فأراه

الحلاق الركن الذي تركه فيه

وأقسم بالقرآن أنه صادق وتولى المنصوري

همة المحقق في القضية

وفي هذا الحين سمع الخصى ما كان الناس

يتحدثون به من وجود رأس ثان لجثة اليهودي

القتيل . وسمع من جهة أخرى أن الفرسان هاجموا

في المدينة وأن لهذا الهياج علاقة بوجود الرأس الثاني

فذهب مع الخياط والخباز والحلاق إلى المكان

الذي فيه جثة اليهودي وهناك وجدوا الجثة التي

كانوا يبحثون عنها

وكان بني اليوناني مشتتمراً بما سيصيبه فلم يضيع

الوقت سدى بل جمع أمواله وهرب من المدينة

ولما رأى الخصى الرأس قال : « أين اليوناني ؟

يجب أن يكون معنا ولنذهب جميعاً إلى السلطان »

فقال الحلاق : « لا بد أنه هرب لأنه هو الذي

منح لليهودي رأسه الثاني »

وكان المنصوري يحمل الرأس ولكنه لما رأى

كثرة الجنود حوله ووجدهم يقسمون أن ينتقموا

من المستول أياً كان أحجم عن ذلك وأخذ شهوده

معه وذهب إلى السلطان . ولما أخبر المنصوري السلطان

عما حدث اضطرب السلطان لأن الحركة التي

بدت من الجنود قد يتسع نطاقها فيصبح من

الاستحيل إخمادها وقد يؤدي ذلك إلى خله أو قتله

فظل مدة طويلة في بحالة من الشك وأخذ يقتل

شاربيه ويكرر بصوت خافت لفظة : « الله ! » ثم

الفصل السادس والأربعون

ماهى بابا يصير رلياً مع أولياء الله
أخيراً سمع ميرزا أبو القاسم ما تناقله الناس
عن صلاحى وتقواى فعزم على مقابلتى عند ما يزور
القبر الذى أنا لاجئ إليه .

ولقد كنت خائفاً من هذه الزيارة خوفاً شديداً
لأنه سيتضح منها جهلى الشديد . وقلت فى نفسى
إن زعيماً دينياً مثل أبى القاسم لا بد أن يكون على
جانب كبير من العلم ولا بد أن يمتحن فيه رجلاً
مثل ذاعت شهرته ولم تتضح بمدى حقيقته

ولم أكن أعرف من أمر دينى سوى أن كل
من لا يؤمن بالنبي محمد وبأن عمه على فهو من حطب
جهنم ، وأنه لن يدخل الجنة غير المسلمين ، وأن
فريقاً كبيراً من المسلمين سيدخلون جهنم أيضاً
لأنهم فضلوا أبا بكر وعمر وعثمان على الامام على ،
وأن الأتراك جميعاً لن يدخلوا الجنة ولكنهم ليسوا
بنجسين مثل اليهود والنصارى

وكنت أعلم أيضاً أنه لا يجوز شرب الخمر ولا
أكل الخنزير وأنه يجب أن يعلى المرء خمس مرات
فى اليوم ويجب أن يتوضأ قبل كل صلاة

ومنذ اللحظة التى سمعت فيها بأن ميرزا أبا القاسم
سيزورنى ، أخذت أستميد فى ذهنى ما تعلمته من
أمر الدين شأن الطالب الذى قرب وقت امتحانه
وبينما أنا كذلك إذ أقبل على صاحبى الدرويش
وأخبرته عن سبب اشتغالى فنظر إلى وقال : « هل
عشت فى الدنيا هذا العمر ولم تعرف إلى الآن أنه
لا يمكن أداء أى عمل إلا بالوقاحة ؟ هل نسبت
للقصص التى كنت أزويها لك مع صاحبى الدرويش
صفر فى مشهد ؟ »

أمر باستدعاء الصدر الأعظم وشيخ الاسلام وقد
انزعج الرجلان عند ما دعيا فى هذه الساعة المبكرة
فجاءا وهما يرتجفان ولكن لما أخبرهما السلطان عن
سبب استدعائهما عاد إليهما الهدوء والاطمئنان
وبعد أن تداولا مدة قرراً أن يحال الخياط
والخباز والحلاق إلى المحاكمة بتهمة التآمر على حياة
القائد وأخذ رأسه ليشوى ويحلق ويصنع منه شواء
وأن يطلب الحكم عليهم بدفع الدية . وأصدر شيخ
الاسلام أمراً بأهدار دم اليونانى لأنه رابع التآمرين
وقد هرب وهو مسيحي لا تقبل منه الدية عن مسلم
وبعد أن تداول السلطان والصدر الأعظم تقرر
أن يعين خلف المقتول من الدين يرضى عنهم الجنود
وأن يقام مأتم عظيم للقائد المقتول

وقد دفع السلطان للثلاثة التهمين الدية سراً
فدفعوها وعوضهم تمويضاً حسناً عما تسبب لهم
من المتاعب . وتمت الجنازة وتمين خلف للقائد وعاد
الهدوء إلى المدينة والجنود . وبذلك نفذ كل ما تم
الاتفاق عليه إلا قتل اليونانى فانهم لم يمتثلوا له
على أثر «

هذه هى القصة التى قصها على الدرويش ولكنى
اختصرتها خصوصاً فى الجزء الذى أخذ فيه الخصى
يروى على السلطان ما عرفه عن أمر الجنة . ولو سردت
هذه القصة كما سمعتها من الدرويش لجاءت طويلة
جداً يحتاج تدوينها إلى سفر كامل . وفن القصص
يقضى بأن تكون القصة مختصرة بقدر الامكان وإلا
تفقد إمتاع القاري بسبب الإيجاز

ومن أجل ذلك قال لى الدرويش إنه يستطيع
أن يقص هذه القصة فى شهر دون أن ينتهى منها
لأن مادتها تنسج لذلك

وبطلب رجلاً فأطال نظره إلى وسادت فترة صمت عميق ثم قال : أصبح أنك جئت إلى هذا المكان لا جئاً خشية أن يحمل بك العقاب ؟ إنني وأصحابي قد ودعنا الدنيا وودعنا نفالنا من ذلك فضولاً ، ولكنني أردت أن أعرض عليك خدمتي إن كنت في حاجة إليها لأن رسول الله قال حديثاً شريفاً أوصى فيه المبصر بأن يمد مساعدته إلى الأعمى وأوصى الغني بأن يساعد الفقير .

فتشجعت وقلت قصتي بعد أن حورت فيها حتى حسبن السامعون شهيداً من الشهداء وقال أبو القاسم : « متى كان الأمر كذلك فاني بأذن الله سأكون الوسيلة التي ترتفع بها مظلمتك وسيزور الشاه هذا القبر قبل نهاية هذا الشهر وهو لا يرد لي كلمة فسأطلب إليه أن ينفو عنك ويرد العدل معك إلى نصابه »

قلت : « إن تراب قدميك كن لعيني وإني نخطي » لا أستحق هذه الرعاية من مقامك المقدس . ولكن الذي تفعله من أجلني يتفق مع رفعتك لا مع اتضاعى ومع طهارتك لا مع خطيئتي . ويظهر أن أبا القاسم طرب من هذا المدح الذي كأنه جزافاً فقال : « كلانك وقصتك ندلان على أنك واحد منا يا حاجي بابا . والأتقياء يعرف بعضهم بعضاً كما يتعارف طائفة من الكفار يطلقون على أنفسهم اسم « الماسونية »

هنا صاح الطلبة إعجاباً بعلم الزعيم : « الله أكبر لا إله إلا الله » واستمر الزعيم يخاطبني فقال : « من هذا الدرويش الذي معك ؟ لقد سمعت أنه يقول عنك وعن نفسه إنكما جسدان لها روح واحدة » فلم أعرف بماذا أجيب وترددت بين

قلت له : « إنني لم أنس حرفاً مما قلتونه لأنني جلدت في ذلك العهد وليس في الدنيا شيء يقوى الداكرة ويشحذ الدهن مثل عصا الجلال . ولكنني الآن لست ممرضاً لها بل للرجم بالأحجار فقل لي يا درويش ما الذي أفعل ؟ »

فقال : « إذا كنت لا تستطيع أن تتبعجج بالملم وترتكن إليه الوقاحة في الجدل فما عليك إلا أن تلزم الصمت فلا تجيب . ومن الذي يستطيع أن يعرف مع صمتك أنك حمار ؟ إنني أكاد أخدغ فيك أيضاً إذا أنت لم تتكلم »

قلت : « فليكن ما تشير به يا درويش ... الله كريم »

ثم أطرفت وتذكرت قصة من قصص السعدى ضمنها ذكر ما ينبغي على الدراويش أن يعرفوه فتشجعت وعزمت على اتباع ما أوصى به السعدى في هذه القصة .

ولم تمض إلا مدة وجيزة ثم جاء أبو القاسم ومعه تلاميذه فأقاموا للصلاة في حن المدفن ولما أحسست بمجيئهم وقفت أصلي في خلوتي ولما انتهت الصلاة خرجت فرأيتهم جالسا بين تلاميذه فجلست معهم ورأيتهم ينظرون إليه نظرة تقديس فالزمت نفسي أن أنظر إليه تلك النظرة . وبدأ باقي درسه ونحن جميعاً منصتون إليه . وفي وسط الدرس دعاني إلى الاقتراب من مجلسه والجلوس على طرف سجاده كالخاصة من المقربين إليه ففعلت بعد أن قبلت طرف ثوبه في خضوع ورهبة فقال لي : « مرحباً بك ؟ لقد سمعنا كثيراً عنك وإن شاء الله بارك في خطوانك . زد دنواً مني »

فأجبت على ثنائه على باستغفار الله من ذنوبي

الاعتراف بصداقته وبين إنكارها لأنى لم أتبين شعورهم نحوه . ثم قلت بعد تفكير قليل : « إنه رجل فقير وقد سمحت له بالإقامة معى وهو أدى لى خدمة يسيرة فلم أنسها له »

قال أحد الطلبة الجالسين بجنبى : « لا تنس نفسك فإن هؤلاء الدراويش فيهم اللص والوغد ومرتكب كل جريمة »

فقال أبو القاسم وقد وضع يديه على خاصرتيه ، وتلك علامة يعرفها تلاميذه فيه إذا أراد أن يتكلم : « نعم إن هؤلاء الدراويش سواء كانوا من أتباع نور على الشامى أو من الدهبيين أو من اللتة شبنديين فإنهم جميعاً من المناققين الذين لا يستحقون غير الموت ، وأكثرهم يصلون بغير وضوء رياء للناس ويتظاهرون بالصيام فى رمضان وهو مفطر . وفيهم من يجاهر بأنه ما دامت العبدة بالقلوب فلا داعى للأمر التعبدية ويكفى الرء إيمانه ، وفيهم من يؤمن باقرآن ولكنه يكفر بالأحاديث ولا يتبع ما أمر به النبي . وفيهم من يصبح بلفظة الجلالة حتى يخرج الزبد من شذقيه أو يصبح بصوت منكر ويمد ذلك من الدين . ومنهم من ينزع عنه الثياب ويمشى عارياً حافياً ويزعم أن ذلك تمسك لله مع أن للنبي والصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك . وأصبح جماعة فيهم الصوفية فإنهم أبعد للناس عن رسول الله وإنما يشبه الله إنساناً يقتدي به للناس فلمنة الله عليهم » فقال تلاميذه : « آمين »

واستمر يقول : لمنة الله على الشيخ المطار وعلى جلال الدين الرومى . فقال تلاميذه : آمين ونظر إلى تلاميذه ليروا تأثير هذا القول فى نفسى وقد كنت أكثر حذراً منهم فلم يروا على وجهى

علامة للاشمئزاز أو الدهشة ولا للسرور أيضاً لأنه لو بدا ذلك لعل على أننى كنت أجهل ما سمعته . وأخذ الشيخ يلحن الصوفية متحمساً حتى خلت أنه لا يتردد فى قتل أحدهم لو كان حاضراً فى هذا المجلس

ولما انتهت خطبة الشيخ استأذنته وتركت مجلسه عائداً إلى خلوتى . ولما قابلت صاحبى الدراويش بعد ذلك أعدت عليه ما سمعته خصوصاً عن الدراويش وقلت له إن الشيخ لا يبعد أن يرجعه

فقال : « إنه وتلاميذه أولى بالرجم لأنهم سفاكو دماء وليس يهمنى شئ من الخلاف بين السنية والصوفية وأهل الشيعة مادمت أقيم الصلوات الخمس ؛ ومع ذلك فأنى سأترك لهم مدينتهم العاصرة بالرياء المجردة من كل شئ سواء ولن أعود إليها طول الحياة »

وإنى لأعترف بأنى لم آسف لما أخبرني به الدراويش من عزمه على ترك المدينة ووددت أن أقدم فأضع عصاه فى يده وجرا به فوق ظهره وأشيعه إلى الباب مودعاً ولم يطل عهد هذه الأمنية فانه فعل ذلك من تلقاء نفسه فى اليوم التالى فأركالى الخلوة . وقلت فى نفسى ساعة ذهب : « اذهب لا أرجعك الله من وغد طروب ، أنت فى رؤسك أوفر حظاً من الأغنياء مادمت قائماً بالسير إلى حيث تحملك قدماك كالدين أراهم أرقاء لآلف مطلب يتبعون أتباعهم حرصاً على الجاه »

الفصل السابع والأربعون

الدراويش يسرون هاجى بابا

لم يكن يشغل ذهنى فى ذلك الوقت غير الوغد الذى وعدنى به أبو القاسم بأن يستصدر أمرى للمفو عني من الشاه . وقلت فى نفسى ما دمت أرجو أن يدافع عني فلا بد من إرسال هدية إليه حتى يذكرنى

لأن الابن لا يكاد يذكر أباه في هذه البلاد حتى يرسل إليه هدية

وكنت حزيناً على المال القليل الذي جئت به إلى هذا المكان فدفعته بركن قريب من الباب حتى أصير في حاجة إليه فلما ذكرت الهدية ذكرت المال فقامت إلى ذلك الركن لأتفقده . ولا يسأل القارىء عن مقدار دهشتي وجزمي وغضبي لما وجدت المال مفقوداً كله . وكنت اللعنات على رأس الدرويش الذي كان معي في هذه الخلوة لأنه لا يمكن أن تصل إلى هذا المال يد غير يده . ودعوت الله بأن تصير حياته مرة مرارة حزني لأني ما كنت أطمع في شيء أحب إلى من فك أسرى . ولكن ذلك أصبح عديم الجدوى بغير المال . وماذا يمكنني أن أفعل إن ردت إليّ حريتي وليس معي قوت يومى سوى أن أصير شحاذاً ؟ واشتد جزمي من الموت جوعاً فذلك من شر ضروب الموت

ولما كان اليأس بطبيعته خير علاج للحزن فقد أنساني يأسى من ضياع حزني على موت زينب، ثم أنساني حزني من الاضطراب إلى لزوم هذا السجن الاختياري ونسيت في النهاية حزني على خسارة المال . وبلغت في شدة اليأس في النهاية حداً احتقرت معه الحياة حتى أنه لو وصل إلى يدي سم في هذا الحين لما تأخرت عن تناوله

وفي ذلك الوقت زارني الطالب الذي كان قد حذرني من الدرويش فشكوت إليه أسرى ووجدت لعمري فرجاً من بث هذه الشكوى إليه فقال لي : « لا تحزن يا أخى فانت تعرف أن الله يبذل الصالحين من عباده ليتبين الصابر من الجزوع فلماذا تترك الجزوع يتمكن منك ؟ إن مالك قد ذهب ولكن

نفسك لم تزل باقية فاحمد الله لأن الحياة بعد كل شيء ليست بالنعمة الرخيصة »

قلت في نفسي : ما هذه التعزية الباردة ؟ إنني أعلم أن الحياة ليست بالنعمة الرخيصة ولكن هل ترد هذه المعرفة مالى الذي سلبه الدرويش ؟ وطلبت إلى هذا صاحب أن يبايع أسرى إلى أبي القاسم ويستدر إليه عن تأخرى في إرسال هدية إليه ، لأن ذلك لم يكن في وسعي ففارقني واعدأ إياي بأن ينقل إليه ما سمحه منى

وفي نفس ذلك اليوم علمت أن الشاه وصل إلى مدينة « قم » وفرش المدفن بأفخر السجاجيد بعد أن كنس وغسلت أرضه بالماء ، وكنت في ذلك اليوم على أشد حالات القلق لأن الساعة التي يتقرر فيها مستقبلى قد دنت ، ولأن أمد غيبتى عن طهران قد طال وأصبحت حياتى في هذا المكان مملوءة ، وكنت أجهل مقدار ما يشعر به الشاه نحوى من البغض ، وكنت في ساعة أظن أن الشاه لن يكتفى بشيء أقل من قطع رأسى . وكنت في حين آخر أندفع في سبيل الفرور فأرى أن الشاه لا يستطيع أن يأمر بقتلى لأن لى سنداً قوياً من ميرزا أبي القاسم

ولما دخل الشاه هذا المدفن أظهرت نفسى لحاشيته وسلمت عليهم فردوا سلاماً طامناً قلبى لذلك كل الاطمئنان . وأخبرنى أصحابى بكل ما حدث بالقصر بعد غيابى عنه . وعلى الرغم من أنى كنت أليت على نفسى أن أتزهد وألا أعيا بشيء في الحياة فقد كنت أجيد دوافع الرغبة قوية في نفسى لسماع هذه الأخبار

وأخبرونى أن رئيس الجلادين عاد بعد المواع التي دارت مع الروس وأحضر معه رأس رجل

ورأس امرأة فقبل الشاه منه هذه الهدية ورضى عنه واستتابه عن شرب الخمر

وأخبروني أن أمراحي لزينب قد اشتهر وصار حديثا للناس، وأن سيدي القديم ميرزا أحمد وجد جفوة من الشاه فاستمر يرسل إليه الهدايا لعله يجد لديه عطفًا، وأن غضب الشاه لفقدان الجارية الكردية قد قل كثيرا لأن رئيس الجلادين أهدى إليه جارية أخرى وأنه افتن بها. ووصفها بأنها أجمل جارية رأها من عهد « طاووس » التي كانت تضرب بجمالها الأمثال.

وكان الشاه مقيما في خيامه خارج المدينة. ولست أريد وصف استقباله لأنه لم يراع فيه الآبهة التي تراعى في غير هذا المقام. أما والفرص من هذا السفر هو زيارة قبر فاطمة الزهراء فقد ظهر الشاه بمظهر اللقي الورع الزاهد في مظاهر الحياة. وكانت سياسته تقضى على الدوام بمسألة رجال الدين لأنه لم يكن يجمل قوة نفوذهم على أذهان الشعب، ولم يكن من الفرور بحيث يتصور أن قوة جنوده تستطيع التغلب على الشعب إن ثار

وكان أول شيء فعله عند ما وصل إلى (قم) أن ذهب على قدميه إلى منزل ميرزا أبي القاسم فزاره فيه ومشى كذلك في طرقات المدينة وأرسل نذورا كثيرة إلى قبر فاطمة الزهراء

وكان الشاه يوم وصوله إلى المدفن مرتديا ثيابا سوداء وحوله رجال الدين في مثل هذه الثياب. وكان مجردا من كل حلية اعتاد أن يتحلل بها من قبل حتى خنجره

وكان ميرزا أبو القاسم يمشي وراءه بخطوة أو خطوتين. وكان يتكلم والشاه يمني إليه. ولما صر من أماني سجدت وقلت: « أنا في حماية

ملك الملوك سيد العالم. أنا أطلب الرحمة باسم فاطمة الزهراء ».

فنظر الشاه إلى أبي القاسم وقال: « من هذا؟ » فقال أبو القاسم: « هو لاجيء إلى قبر فاطمة وهو ينتظر أن يفي عنه وفقا للعادة التي جرت عليها هذه البلاد مع اللاجئين إلى القبور المقدسة. وهو ونحن جميعا فداك يا جلالة الشاه ومهما أمرت فأصرك نافذ »

قال لي الشاه: « من أنت وماذا فعلت حتى لجأت إلى هذا المكان؟ »

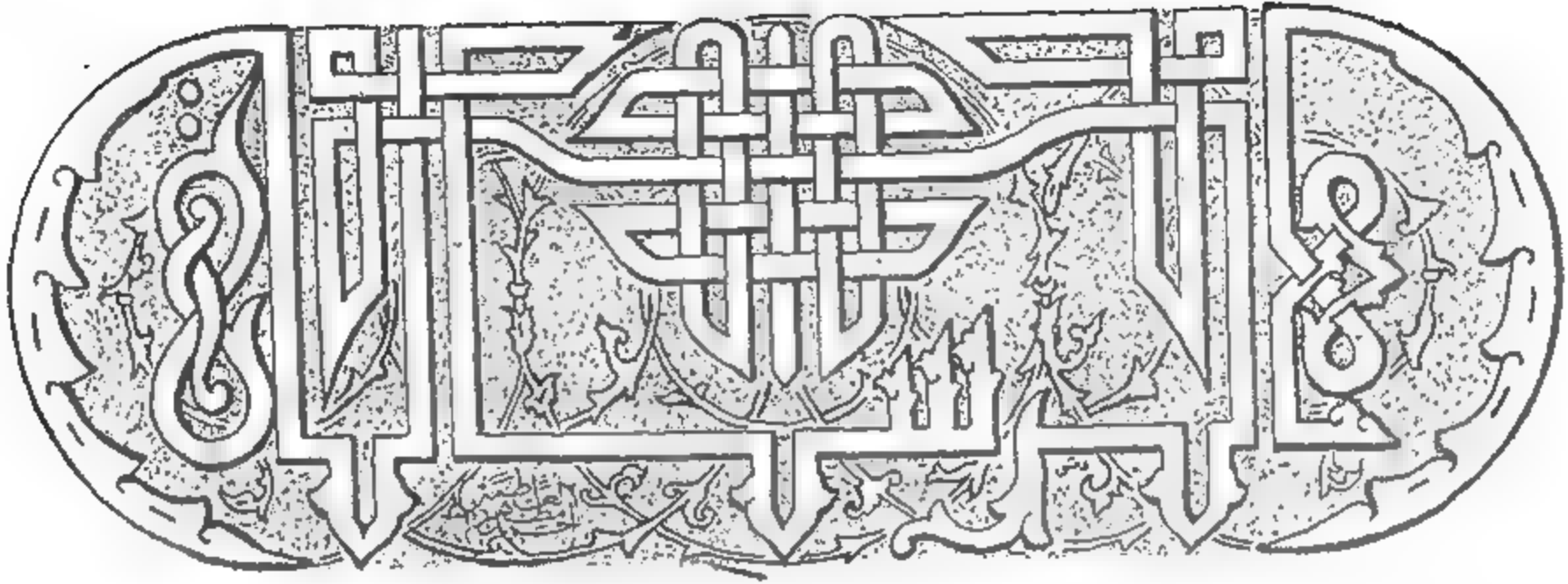
فقلت: « جعلني الله فداك. أنا كنت مساعدا لرئيس الجلادين واسمي حاجي بابا وقد جعلني أعدائي مجرما في نظر مولاي الشاه. ولكنني في الحقيقة بريء... »

فنظر إلى الشاه نظرة طويلة ثم أطرق لحظة وقال: « إذن فأنت حاجي بابا! سواء كنت أنت المسئول أو رئيس أطباء فإن النتيجة واحدة وهي أن كرامة الشاه قد استهين بها »

ثم نظر إلى أبي القاسم وقال: « بماذا تشير في أمر هذا؟ إن الشاه فقد جارية من جواريه ولها دية يجب أن تؤدي عندها حتى للروس واليهود فكيف نضيع دية جاريتي بين الطبيب وبين مساعدي الجلاد » قال أبو القاسم: « حكم الشرع في ذلك أن تدفع الدية إلا إذا نزل عنها ولي الدم وأنت يا مولاي ولي الدم فلك أن تمفو. وأجدر بك وأنت في مقام الملك أن تقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم فتمفو والمفو أفضل »

فقال الشاه: « فليكن كما أشرت » ثم التفت إلي وقال: « لقد عفوت عنك ولكن لا تترن وجهك بعد الآن. اذهب من هنا »

« يتبع » عبد اللطيف الشار



مكتبة الادب الرفيع والثقافة العالية
تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبّر بإخلاص عن روح النهضة المصرية
الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
الرسالة تصوّر مظاهر العبقرية للأمم العربية
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية
الرسالة تحيّي في النشء أساليب البلاغة العربية
الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق
الجديد ، وسجل الآداب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي سنون قرناً ، والمخارجى ما يساوى جنيهاً مصرياً ، وللبطاقة العربية بخمسة ٢٠٪

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الوزارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
طابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرواية

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتأنيخ

نصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٠ المحرم سنة ١٣٥٧ - أول مارس سنة ١٩٣٩

العدد ٥١

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة		
١٧٠	الكرة	أفصوصة مصرية ...
١٧٩	كابتن شانون	للكاتب الانجليزى آرثر كوفان دويل
١٨٧	انتحار	للكاتب الفرنسى جورج مورفير
١٩٠	الرجل الخفى	للكاتب القصصى جلبرت كيث تشسترتن
٢٠٣	ذكرى امرأة	أفصوصة مصرية ...
٢٠٩	حاجى بابا أصفهانى	للكاتب الانجليزى « جيمز موير »
		بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
		بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة ...
		بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد
		بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
		بقلم الأديب عبد الحليم المشيرى
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

السكر

أَقْصُوصُة مِصْرِيَّة
بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

انفراده بوالده في اليوم الثاني
وسأله بلهجة تنم على الحنق
والانكار:

« لماذا أجبرتني على العودة
ولما أتم تعليمي ؟ »

فتهد الرجل حزينا أسيفا
لأنه لم يسمع هذه اللهجة الوقة
منذ أربع سنين ، ولكنه لم

يغضب لأنه كان أعلم الناس بمن يخاطبه ، ولم يرد أن
يستعذب الصدام ، فتشاغل بالنظر إلى بعض الأوراق
الموضوعة على مكتبه ، وضاعف عدم اكترائه من حقن
الشاب فاستطرد يسأله بحدة :

— لماذا أجبرتني على العودة ؟ .. ولماذا هددتني
إذا لم أصدع بأمرك بمنع النقود عني ؟

ولم يجد الرجل بدا من القول ، فقال بهدوء :

— لأنني لا أريد أن تضيع أموال في حانات

باريس !

فتظاهر الشاب بالدهشة وتساءل :

— ومن قال لك إن أموالك تضيع في حانات

باريس ؟

فخدجه الرجل بنظرة قاحصة وقال :

— جميع الذين سافروا لزيارة معرض باريس
هذا العام تشرفوا بمشاهدتك وأنت تراقص الفاجرات
وترنح عملا !

فقال حمدي بغضب :

— يؤسفني أن أقول إن معلوماتك كاذبة !

ولم يغضب الأب لأن الحوادث علمته أن يعامل

في مثل ذلك اليوم يحق للفرح . كيف لا وكان
يوم عودة النجل المحروس من أوروبا بعد غياب
أربع سنين ذهبت في طلب العلم ؟ ... واحتفلت
أسرة الحلبي بالمواد الحيد احتفالا جمع أشتاتها المبعثرة
في أحياء القاهرة ، فسام فيه الأعمام والمهات
والأخوال والخالات ، وتبودلت فيه التهاني ودارت
أحاديث الأشواق والني ... ولكن — علم الله —
لم يكن حمدي الحلبي مسرورا ألبته ، بل لا تنلو إذا
قلنا إنه كان غاضبا مجنونا مغيطا ، لا يرغب في أن يرى
وجها من الوجوه التي تحييه بالابتسام والكلام ،
ويؤذيه غاية الإيذاء أن يضطر إلى مجاملتهم بالحديث
تارة وبالضحك تارة أخرى . ولعل النجبة الوحيدة
التي صدرت عن فؤاده كانت تلك التي حيا بها أمه ،
أما أبوه فكان يتمتع بأكبر قسط من سخطه أو كان
على الأسح اللعة الحقيقية لحنقه وتبرمه ، ولذلك كان
يرمقه بنظرات تنطوي على الحقد لم يخف سرماها
على الرجل الرزين وإن خفيت من أعين الحاضرين
ولذلك لم يدم بينهما الوداد — وهو ما يوجبه
اللقاء بمد البعاد — طويلا ، وانتهز حمدي فرصة

ابنه معاملة الأطفال أو المجانين وقنع بأن هز كتفيه استهانة وقال :

— انتهى الأمر وفشلت التجربة

فصاح الشاب به غاضباً محتاجاً :

— لا تقل فشلت ... إنك تهدم مستقبل يديك .

فلم يعبأ الرجل بنضبه وقال بصوت أسيف :

أنت يا حدى مثال اللطيش والنزق ، والحق أنى

فى أحيان كثيرة أخالك مجنوناً أو ممتوهاً ... أتذكر

حياة تلمذتك الأولى المتعبة ؟ ... كنت آتشد طفلاً

حدثاً ، ولكن ما كنت ترى ليلاً إلا فى الحانات ،

والمواخير ، وكنت بين أصحابك جواداً كريماً تجود

عليهم بما تملك يدك ، أما أهلك الأقربون فكنت لهم

سوط عذاب فلم يسلم من أذاك منهم أحد لا إخوتك

ولا أمك ولا أبوك ، ومهما يكن فقد نجحت

فى البكالوريا بعد مر المحاولات وكانت معجزة

لا أدرى كيف حدثت ، ولكنك منيت بفشل قاهر

بعد ذلك فى كلية الحقوق حتى تخرج منهما أقرانك

وأنت ما تزال فى السنة الأولى ، واكتشفت على حين

فجأة أن مستقبلك فى فرنسا لا فى مصر . . . وألححت

على فى السفر لنيل أجازة الحقوق ، ويسلم الله أنى

ما وثقت بعودك قط ولكنى إزاء محاولتك الانتحار

وتضرع والدتك وافقت منلوباً على أمرى على السفر

وقلت لنفسى : فلا أجرب هذه المرة أيضاً لعل حسن

الخط يخيب تقديرى ولكن وأسفاه صدق تقديرى

وخاب حظى ...

فزاع بصر الشاب وقال محتجاً :

— أنت تسمى بى اللحن هذه المرة بغير وجه حق .

— كلا ياسيدى ، أنا أعلم كل شىء على حقيقته

وسأبين ذلك بالدليل القاطع إنك سافرت

للتحق بكلية الحقوق والتحققت بها فعلا فى بادىء

الأمر ثم تحولت فجأة إلى كلية الآداب فلماذا

فعلت هذا ؟ ... أرجو ألا تسارع إلى تكذيبى

فالذى أخبرنا بذلك صديق أخيك همام الدكتور

فهم وهو كما تعلم كان زميلك فى كلية الحقوق

وقد عاد هذا العام بعد أن قال الدكتوراه فقل

لماذا فعلت هذا ؟

وغلب الشاب على أمره ، وبدت على وجهه

الحيرة ، ودل مظهره حيناً على أنه يغالب الضحك ،

وقال : « رب إنسان لا يعرف حقيقة مبوله إلا بعد

التجربة ، وهذا ما حدث لى بالضبط ، فقد نظمت

قصيدة أول عهدي بياريس فى وصف للسین نالت

إعجاب أصدقائى جميعاً ، فحملنى إعجابهم على التحول

إلى كلية الآداب ... فما الذى يفضيك فى هذا ؟ »

فهز الرجل رأسه هازئاً وقال :

— أنت لا يمكن أن تعرف لنفسك ميلاً ، لأنك

متعدد البيول ، متقلب الأهواء ، هذه هى الحقيقة

التي تملتها من حياتك النثرية . ألا تذكر — وأنت

طالب ثانوى — أنك كنت صادق النية على الالتحاق

بالقسم العلمى ؟ ... وكانت أعز آمالك أن تصبح

طبيباً فيما بعد .. ولكن حدث أن شملت محامياً بلقى

خطاباً فى مجتمع عام فتغيرت آمالك دفعة واحدة

والتحققت بالقسم الأدبى وأبيت إلا أن تصبح محامياً ...

ومع ذلك فهذا لا يعني كثيراً بقدر ما يعني أن
تنجح في أي فرع من فروع الحياة ... فلم تثار
على دراسة الآداب ما دمت اكتشفت في باطنك
شاعرية مجيدة ... ؟

فقال الشاب بحماس مصطنع :

— إني أثار يا أبي ... ولولا أنك قطعت على
طريق ...

ولكنه قاطعه قائلاً :

— كلا ... كلا ... لقد ثبت لدى أنك انقطعت
انقطاعاً كلياً عن الجامعة منذ عام أو أكثر ...
فقال بحدة :

— هذا كذب ...

— بل هذا ما قاله لي جميع من أوصيتهم
بالاستعلام عنك من زائري ممرض باريس ، وهو
ما يؤكده الدكتور فهم وإن شئت واجهتك به ...
لقد فشلت التجربة الأخيرة ...

وكانت المسألة بالنسبة إلى الأب لا تعني سوى
فشل تجربة نهائية ، أما بالنسبة إلى حمدي فكانت
مسألة حياة أو موت ، أو هكذا صورها له خياله
المجنون . ولم يكن الذي يترع بنفسه إلى باريس أنه
ودع بها آمالاً مخوفة بالمخاطر ، أو مستقبلاً يرجو
أن يتممه بالجد والثابرة . ولكن الحق أنه ترك بها
قلبه المفتون ، وجهه المضطرب ، وجتته المفقودة ،
ودنيا أحلامه ، وصرت جنونه ؛ حتى وكأنه ترك
بها عالماً طليقاً لا يخضع لقانون طبيعي أو تقليد
إنساني ...

وحمدى هذا إنسان غريب ، وربما أدى تمرينه
خير أداء أن تقول إنه جهاز عصبي حساس تتحكم
فيه غرائز ومواطف طليقة من أي عقل أو إرادة .
أو أن تقول — إذا أردنا أن نرضى علماء النفس —
إن عاطفته تسخر عقله وإرادته ، وكأنه عربة
ينطلق بها جواد جامع ومقعد السائق منها خال ،
فهو دائماً منفعل ومتأثر إما لحزن أو لفرح كيفما
تهب الرياح ، ولن تظهر في حياته بنظام مما يوصى به
العقل ، أو بعمل أو إنتاج مما تحده الإرادة ؛ وإنما
تزدحم المواطف والأحاسيس في وجدانه كما تزدحم
الأخيلة الشاردة في رأس الحالم دون أن تترك أدنى
أثر ، ومن هنا جاء تناقضه وتقلبه اللذان جعلاه منه
مخلوقاً مضحكاً يستدر الرثاء في كل حين ، فكان
يتوهج انتباهه أحياناً عن ذكاء وقاد تخاله نبوغاً
وموهبة ، ثم لا يلبث أن ينطق "شعاده" ويظلم نوره
فتظنه عنها وبلاهة ، وكان يتدفع في أوقات كثيرة
إلى العمل بهمة تبشر بالنجاح وسرعان ما ينقلب
قبيل موعد الامتحان مزعزع الثقة مفرق العزيمة
فيفر من صرامة الواقع إلى لذة الأحلام في الحانات
ومواطن الريب ، وربما بلغت به الحماسة حد الثورة
والتمرد ، فيقوم المظاهرات ، ويرى رجال البوليس
بالحجارة ، ويحطم المصابيح وعربات الترام فيمد
بحق من زعماء الطلبة ، ولكن إذا حدثته عن ثورته
بمد يوم أو يومين هزى بك وب نفسه وبمبادئ
الوطنية والأخلاق جميعاً ؛ ومن هنا أيضاً تمددت
مشروعاته وتنوعت مقترحاته وتوزعت الأحلام ، فتارة

يعد المدة لإنشاء ناد رياضي كبير ، وتارة يعمل فكره لإخراج مجلة أسبوعية ، وثالثة يدعو إلى تكوين جمعية تهذيب الأخلاق أو تشجيع التجارة الوطنية ، وربما خطأ الخطوات الأولى لتأليف كتاب أو كتابة مقالة ، ولكنه لا يثابر على شيء ولا يثبت على حال

على أنه كان شخصاً محبوباً ، يتمناه عارفوه ويشقون محضه لخفة روحه وحضور نكته وغرابة أطواره ولكنه كان مع أصدقائه كما هو في حياته مثال القلب والجنون ، فقد يلزمهم أياماً وأسابيع ثم يهجرهم هجراً طويلاً بلا أسف كأنه يمدم بمضقاته أو أهوائه أو مشروعاته ، ولكن ندر أن يجد عليه صديق لأنه في رأيهم جميعاً الطفل الطائش الذي لا تثريب عليه مهما قال أو فعل ، ولأنه الإنسان الطيب الذي لا يملق بقلبه مكر أو خبت أو سوء نية ، ومع هذه الطيبة البالغة والظرف النادر فقد حاول الانتحار مرة وضرب أباه بالكرسي في مرة أخرى وبهذه النفس الغريبة سافر إلى باريس طلباً للعلم الذي يثس منه في القاهرة ! وكان جاداً فيما اعتزم لأنه كان يود لو يختم حياته الدراسية ختاماً مشرفاً ، والتحق بكلية الحقوق بديجون وهو يتوقد حماسة ونشاطاً ، وزار باريس يوماً وشاهد السين فهاجت قريحته ونظم أبياتاً شعرية في وصفه كانت أول ما نظم في حياته من شعر ، وما كانت صادقة الوزن ولا ذات جمال أو رواء ولكن أثنى عليها — لعله — جميع من سمعها من أقرانه ، وأطربه للثناء

أما طرب وسأل نفسه في حيرة ألا يجوز أن يكون شاعراً بالفطرة ؟ ثم أجاب نفسه قائلاً : بلى إنه لشاعر وإن مستقبله الحق لفي الأدب والفن لا في القانون. وتحول بلا أدنى تردد إلى كلية الآداب بالسربون وانتقل من ديجون إلى باريس ، وأقبل على دراسته الجديدة بمثل ما أقبل على دراسته الأولى من الحماسة والمزم واستمع إلى المحاضرات بشغف عجيب ، وما زال مثابراً مجتهداً حتى اليوم للسعيد الذي التقى فيه بمرجريت ، الفتاة الريفية الحسنة ، التي جاءت باريس لزيارة أختها . فكان حب ، لأن عاداته المستبدة أن يحب كل امرأة يلقاها في طريقه ولكنه كان على أية حال أول غرام له في باريس فكان له في قلبه لحن جميل جديد ، واستبقى الفتاة في باريس ، وعاشرها على شريعة الهوى وسنة الطبيعة ونسى بها الدنيا والدين والشعر والآمال وأخذت حياة باريس تنمكس على روحه — خلل عيني مرجريت للساجيتين — جنوناً وقتونا وهياماً وإباحية. ولما كانت الفتاة فقيرة بائسة فقد آمن بالشيوعية ولم يحاول قط فهمها أو دراستها ولكنها استقرت في قلبه ثورة على الأغنياء — ناسياً أو متناسياً أنه واحد منهم — وكفراً بالله وبرسوله وازدراء للأخلاق والفضائل . واستسلم للغرام بين أحضان حبيبته وعاش حالاً كافراً مجنوناً حتى بقتة أبوه برسالة حازمة خيره فيها بين العودة حالاً إلى مصر أو الموت جوعاً في باريس ، وجن جنونه وثار وغضب ولمن وهدد وتوعد ، ولكن شيئاً من هذا لم يجذبه نقماً . واضطر في النهاية إلى

ولكن الرجل كان ثابتاً كالجبل ، قاسياً كالصخرة ،
وقال له بحزم :

— لا تعد إلى هذا الحديث مرة أخرى !
وانفجر حمدي غاضباً وتلبسته حالة جنون غير
غريبة عنه وصاح بأبيه :

— لماذا تعرض سبيل نجاحي بقسوتك ؟ ...
لماذا تريد أن تستدثني لأرادتك العمياء ؟ .. أنا أعلم
بالسبب الذي يجعلك تستهين بآمالى ومستقبلى ...
هو حرصك المقيت على مالك الذى لا يمد ولا يحمى ..
أنت رجل شحيح بخيل يقتل فيك حب المال الأبوة ..
ووجع الوالد وأخذ ، وانتفض قلبه غضباً ولكن
لم يمد على وجهه أثر مما يتقد في نفسه ، وقنع بأن
قال بهدوء ساخراً :

— يا لها من فراسة !
— أنسخر منى ؟ ... يلد لك أن تهزأ بي في
بأسائى ! .. حسن ، سأعرف كيف أنتقم منك ...
سأنتحر ... نعم سأنتحر وسترى ...

فقال الرجل بهدوء غريب :
— افعل ما بدا لك
فنظر إليه بعين عنق مغيظ وقال :
— أيهون عليك موتى من أجل بضعة جنيهات ؟
فقال الرجل :

— نعم ...
هل يعنى الرجل ما يقول ؟ ... هل أشقى منه
على اليأس حقاً ؟ .. أما هو فلم يهدد بالانتحار هذه
المرة وهو يعنى ما يقول لأن للحياة عنده قيمة جديدة
لم تكن لها من قبل ... كيف لا وفيها مرجريت

هجر عشه السعيد وهو يعنى نفسه وحبيته يعود
قريب ... ووجد نفسه أخيراً فى القاهرة وفى البيت
للقديم الذى رأى فيه الدنيا أول ما رأى . وعاد إلى
جو التقاليد والدين والهدوء واستقر فى المملكة
الصغيرة التى يتولاها أبوه ويحكم ... وأحس بضيق
وسقم .. كيف يرضى بالقاهرة بعد باريس .. كيف
يطمئن إلى الظلام بعد النور ؟ ... كيف يخلو إلى
برودة الوحشة بعد حرارة الحب ؟ .. كيف يروض
نفسه على الظلم والدين والتقاليد بعد أن ذاق جنون
الحرية والاحاد والاباحية ... ؟

وما هو ذا والده يعرف الحقيقة من أفواه الميون
التي بثها حوله فى باريس وبصر على أن التجربة
فشلت ، ويقسم ألا عودة إلى فرنسا بعد اليوم ...
فما العمل ؟ ... هل يتناسى مرجريت ؟ ... هذا
مستحيل ، بل هذا جور لن يسكت عليه أبداً

ولاح له أن يدعوها إلى مصر ، وفعل كذب
إليها يقترح عليها الحضور ، ووافقت الفتاة ولكن
برز لها عائق من ناحية السلطات التى أبت
عليها دخول مصر ولجأ فى يأسه إلى آخر وسيلة
فأراد أن ينفذ عليها ولكن ذلك لم ينفعه شيئاً
ونصح له رئيس (فلم الباسا بورتات) بالمدول من نيته
وسوأها له ...

وسقط فى شرك القنوط وتلفت يمنة ويسرة فلم
يجد سوى والده ، لماذا لا يسيد عليه الكرة ؟ عسى أن
يلين له بعد شدة ويرضخ بعد عناء ، وفأتمحه فى مسأله
مرة أخرى وتضرع إليه وتوسل ووعده ومناه ،

ذلك الورق الساحر الذي يسيطر على المصائر
ويتحكم في الأقدار ، وتعلق به آمال الانسانية ،
ما أحراه أن يطير به إلى القلب الذي يخفق له على
سيف البحر الأقصى وبلغ به أبواب جنته المفقودة
ومنية أحلامه : باريس ... يا محباً ... أجمعه ومفتاح
سعادته بيت واحد ... ؟ أنكون سعادة قريبة منه
إلى هذا الحد ولا يستطيع لها طلباً ؟ ... ولكن
كيف السبيل إليها ؟ ...

وكانت خواطره من قبيل الهذيان ولكنه ألقى
سؤاله الأخير بشمور من يمين ما يقول ، ومن يجد
في الأمر جدّاً : نعم كيف السبيل إلى الأوراق
الساحرة ... ؟

هل يماود الرجاء والتوسل ؟ ... أم يستعين
بوالدته ؟ ... وبدأ له اليأس خلف هذين الرأيين
فعدل عنهما وهو يتهد حسرة وألماً ...

لماذا لا يستولى على المال بنفسه ؟ ... ينتظر في
حجرته حتى يصعد أبوه إلى غدعه ، ويهبط في حذر
إلى حجرة المكتب ويمالج بابها ويفتش أدراجها ،
ولكن ما العمل إذا وضع الرجل ماله في حافظته ؟
تعتقد ولا شك المسألة وتتوافر الصعوبات ولكن
لا يستحيل ابتناء الوسيلة إلى غايته ، إن والده يعلق
ثيابه على مشجب قريب من الباب ، فإذا فتح الباب
في سكون استطاع أن يبلغ بيده جيوب البذلة
والمطف وأنها يبحث فيها عن ضالته ...

وتحفر لتنفيذ أفكاره فوضع الطربوش على رأسه
وأطفا المصباح ، ولبت ينتظر في الظلام سمود أيه

الجنية ؟ ... ولكن ما بال أيه يقف حجر عثرة
في سبيل سعادته ؟ ... ياله من رجل كرهه ! ...
أيجوز أن يحيا شيخ كبير ليشق بحياته شاب
يافع مثله ؟ ... ولم لا يذهب ويخلى السبيل لغيره ؟ ...
إنه أب يكره ابنه فينبغي أن يكرهه ابنه كذلك ...
هذا هو العدل ...

ولم ينتحر ولم يشرع في الانتحار ، وقنع
بالتسكع في عماد الدين وبمراسلة مرجريت ، وبانتظار
ما يأتي به الغد غير مستسلم كل الاستسلام إلى اليأس .
وفي مرة — وكان انقضى على عوده شهر
وأيام — قابل أخاه هام في عماد الدين وعلم منه أنه
ذاهب لصرف سك لوالده بمبلغ خمسمائة جنيه ...

وابتسم حمدي ساخراً وتهند من قلب مكوم ...
لو عهد إليه الرجل بصرف هذا المبلغ لكشف عنه
الكرب في دقائق معدودات ، ولكنه لا يثق به
ولن يثق به أبداً ... خمسمائة جنيه ! ... ياله من
مبلغ ... ترى لماذا سحب الرجل البخيل ؟ ... إن
عاده أن يضع في المصرف لا أن يسحب منه ، فلماذا
غير عاده على كبر ... ؟ هل خرف ... ؟

وعند المساء عاد إلى البيت ، وكان أبوه في حجرة
مكتبه بالطابق الأول ، غارقاً في بذلته ومطفئه ،
ومكباً على الأوراق المبسوطة أمامه ، فألقى عليه
نظرة سريعة وصعد إلى حجرته ... وخلع طربوشه
وجلس على حافة فراشه يستريح

لا ريب أن والده تسلم الخمسمائة الجنيه ، وأنها
الآن تسكن مكاناً في حافظته أو في درج مكتبه ...

وشاع في أطرافه الاضطراب والقلق وأنهك رأسه هوس الجزع ، ولكن لم يداخله أدنى تردد لأنه من طبعه إذا اندفع أن يندفع بلا ترو ولا تدبر ، ومضى يبرر نيته لنفسه فيقول ما من بأس في أن يستولى على بعض مال أبيه ما دام له حق ثابت في هذا المال ، وما له لا يلجأ إلى الحيلة أو القوة إذا كان أبوه يمترض سبيل سعادته بالقسوة والعدوان ؟ ! وطال انتظاره في الظلام ، وجمل يقترب كل دقيقة من الباب ويلصق أذنيه بثقبه بتسمع وينصت ، ثم يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً ...

ثم سمع وقع أقدام آتية من نهاية الردهة الخارجية فأرهف أذنيه وكنم أنفاسه ، هي أقدام والده بلا ريب ، وما هو ذا باب مخدعه يفتح ثم يغلاق ، ما بقي إلا الانتظار جيناً ريثما ينام الرجل ، وكانت ضربات قلبه تشتد وتضطرب ، كلما تقدم به الوقت ودنا من تحقيق عزيمته الآثمة

وسمع الباب يفتح مرة ثانية ويغلاق ، ووصل إلى أذنيه الرهفتين وقع أقدام خفيفة لم يستطع تبين وجهتها ، فقلب جبينه متحيراً ... ترى هل غادر أبوه الحجرة لحاجة ؟ ... أم هي أقدام غيره ؟ ... ينبغي أن ينتظر وقتاً آخر وإن كان الانتظار قاسياً مرعباً ... ولكنه لن يتردد عن غايته ، سيهبط إلى المكتبة ويفتشها وإذا لم يفرز منها بطائل فسيقتحم مخدع أبيه ... ولكن ما عسى أن يفعل إذا تنبه النائم على حركته وهب يدافع عن أعز شيء في حياته ؟ ينبغي أن يكون صارماً هو الآخر في الدفاع

عن سعادته ... سيقول له : أنا أريد مالاً ولا بد من الحصول على المال فأياك أن تمترض سبيل ! وإذا تغلب في الرجل حب المال على حب الحياة فسيكون قاسياً مجرمًا ، لقد ضربه مرة بالكرسي في حالة غضب ولن يحجم عن ضربه مرة أخرى ولو احتاج الأمر إلى صرعه ... وطال الصمت والسكون ، وجثم سلطان النوم على البيت ، فأدار الأكرة وفتح الباب بهدوء وانسل خارجاً يسير على أطراف أصابعه وبالغ في الحذر وهو يجتاز بحجرة والده ، وهبط السلم في تهييب ، فلما أن انتهى إلى الطابق الأول تنفس الصعداء وسار باطمئنان لأن هذا الطابق يخلو في الليل ، ولما اقترب من باب حجرة المكتب رأى لدهشته النور يشع من أعلى بابها ، فاستولى عليه الارتعاج وهم بالعودة ... والظاهر أنه أحدث حركة لأنه سمع صوتاً يعرفه حق المعرفة يسأل من داخل الحجرة قائلاً بقوة :

— من في الخارج ؟

فتوقف عن الحركة وخائنه حيلته فرد بسرعة : « أنا حمدي ... » فقال الرجل « تعال .. أدخل .. » وعض شفته من القهر وتقدم إلى الباب يائساً وفتحه ودخل ، ورأى والده جالساً خلف مكتبه متدثراً بعباءة المصنوعة من وبر الجمل ومخفياً رأسه إلى أذنيه في (الطاقة) فلم أن والده قد صعد إلى مخدعه ليغير ثيابه وأنه عاد ثانية ليستأنف عمله إلى هذه الساعة المتأخرة ... كم ذا يتمب المال ذويه ! .. ونظر إليه الرجل بعينه الدابلتين وسأله وهو يتشأب :

— لملك راجع الآن من السهرة ؟

فقال حمدي باقتضاب :

« نعم ... »

فسأله بلهجة تنم على للسخرية :

« سكران كالعادة ... ؟ »

فقال :

« كلا ... »

واعتدل الرجل في جلسته وقال بهدوء ورزاة :

« جئت في وقتك يا حمدي ، لأن عندي أخبار

تهمك ، وما يهمك يهمنى بطبيعة الحال وإن كان

ظنك غير هذا ، اقرب منى واصنع إلى ... أنظن

يا حمدي أنى أبغضك وأسى إلى هدم مستقبلك ؟ ...

أو أنى أوتر مالى حقاً على حياتك ؟ ... بئس

الظن ... أنت طائش يا حمدي ولا تدري ما يفعله

ولما يضررك ، وكنت دائماً مثال الطيش والرعونة ..

فأجبرنى شذوذك على اليأس منك ، وما أنت ذا ترى

أن أخويك اللذين يصفرانك يسيران في طريقهما

بنجاح فأحدهما مهندس وسيكون الآخر غداً طبيباً ،

وأما أنت ... ماذا أنت ؟ ... لا تدري لنفسك

مستقراً ولا مستقبلاً ، ومع هذا هل تظن أنى تفضت

يذى منك ؟ ... قل أن يستطيع ذلك أب مثلى ...

والآن فاسمع ... قابلى أمس للسنيور دافنس وكيل

شركة الجير لبعض الأعمال فانهزت للفرصة وحدثته

عنك وأكدت له إلامك التمام باللغة الفرنسية

ورجوت منه أن يلحقك بوظيفة محترمة في الشركة ،

ولم يخيب الرجل رجائى ووعدنى بتعيينك في وظيفة

راتب قدره عشرة جنيهات في البدء ولكنه اشترط على

أن أودع تأميناً للشركة بمبلغ خمسمائة جنيه كضمان

فوافقت وسحبت من رصيدي المبلغ المطلوب وهو في

حافظى الآن ينتظر موافقتك .. فما رأيك يا بطل ؟ »

رأيه !

كيف يفكر في رأيه الآن ؟ إنه يفكر طويلاً

ويديم التفكير في الظنون السوداء التى ظنّها بالرجل

البائس الجالس إلى جانبه ، ويتذكر صنوف الأذى

التي بيّتها له في الظلام منذ حين قصير .. ثم يذكّر

ما كان يفعله الرجل — في أثناء ذلك — من أجله

وغمرته نوبة عاطفية من النوبات التي يتعرض

لها وجدانه كل يوم عشرين مرة ، ووخزه ضميره

وخزاً أليماً ، وغلبه للتأثر فأجهش وبكى كالأطفال

وانتحب انتحاباً شديداً وهو يخفى وجهه بيديه من

عيني أبيه أو يخفى صورة والده عن عينيه

وابتسم الوالد في حنان ، وربت يده على كتفه

وقال له :

« بس يا رجل ... بس ... أنت طفل بمد كل

شيء ... لم تكن يا حمدي شريراً قط ... أنا أعلم

ذلك ... بس ... بس ... كفك دمعك واصعد

إلى حجرتك واشبع نوماً لتستمد للكفاح الجديد

في ميدان العمل ... هيا يا رجل ... هيا ... »

ولم يستطع أن يقول شيئاً ، ولكنه أمسك بيد

أبيه ولثمها بشفتيه المبلتين وغادر المكان ... وارتقى

في حجرتة على الكنبه في إعياء ، ولم يجد من نفسه

رغبة في النوم ، فجمد في جلسته كالتمثال وتاهت

نظرة عينيه في أفق بعيد ثم أخذت عواطفه تسكن

وثأرتة تهبداً وجدانه يسود إلى حاله الطبيعية ...

حتى صار انفعاله ذكرى ...

لقد فتح له أبوه باب الأمل والعمل ، وحاول

أن يجد له حياته ومستقبله ، وسيكون من النصد

موظفًا في الشركة الإيطالية ... فباله من تغير عجيب
لم يجر له على بال !

وذكر في حزن كيف أضاع على نفسه فرصة
ذهبية في فرنسا ، فلو أنه استمر في دراسة الحقوق
لكان يربح منه الآن محام مقتدر أو وكيل نيابة
« قد الدنيا » ولأمكن أن يقف مع أخويه على قدم
المساواة ... وهما يكن من أمره فالواجب أن
يشكر الله كثيراً ...

ومرجريت ! .. نعم ومرجريت !
أيها القارئ ، وددت لو أستطيع أن أختم
القصة عند هذه النهاية لأرضي عواطف الخير
في قلبك ولكن أرجو أن تذكر دائماً أن المؤلف
الحقيقي للقصة هي أعصاب حمدي نفسه ...

لقد ارتجف قلبه لذكر مرجريت ، إنه يحبها جداً
لم يحبه امرأة من قبل ... وهي تبادله حباً بحب
وعطفاً بمطف ، ولولا تشدد الحكومة لكنت الآن
بين يديه ناعمة البال هائجة الفؤاد فوالأسف !

كيف يرميها بخبر توظيفه وإقامته بمصر ؟ ...
وما عسى أن تفعل الجملة البائسة ؟ ..

ويخيل إليه وهو يفكر في أمرها أنه يراها رؤبة
اللين بقامتها النعيفة وقدها الرقيق وشعرها الذهبي
وعينيها الزرقاوين . وتوهم أنه يسمع صوتها ذا اللثة
الطرية ... وذكر جلستها المزينة حيث كانت تقعد
على (الديوان) ويستلقى هو على ظهره واضماً رأسه
على حجرها ويروحان في مناغاة رقيقة ويدها تبت
بشعره ... كم هي لطيفة جذابة ... فكيف يزهد
في هذه السعادة !؟

وتهد من الأعماق حزينا واستسلم لخواطره
الفائضة ... وكان كلما أوغل في التفكير كبرت عليه
حرقة الفراق وهاله البعاد ...

وتحول بصره دون أن يدري ناحية حجرة
أيه ... وتساءل : « ... ما المانع ... !؟ »

واندفع وجدانه في هذا المجرى الجديد بمنف
كأنه نهر قائن فتح الخزان لتياره الفاص ... فعاد
قلبه يذوق بمنف ... وارتجفت أوصاله ... وتحفز
مرة أخرى ...

الساعة تدور في الواحدة بعد منتصف الليل ...
وأبوه ملازم لمكتبه كما غادره ... فما المانع ... ؟

الروءة ... والضمير ... والبر ... لا تساوى
شيئاً إلى جانب السعادة المنتظرة ...

وانتفض واقفاً وأطفاً الصباح ، وفتح الباب ،
وانسل خارجاً ، وسار إلى مخدع والده وفتح الباب
بمخدر بالغ ودخل ، وقتشت يده بسرعة في جيوب
البذلة حتى عثرت على الحافظة المنتفخة ، وسلب
الأوراق الساحرة ثم ردها إلى موضعها وخرج
وأغلق الباب ، وقطع الردهة في خفة ، وانتظر لحظة
ينتصت للسمع عند مبتدأ السلم ، ثم خلع حذاءه
ونزل واجتاز الردهة ماراً بحجرة المكتب وهو يكم
أنفاسه ويكاد يتفرق أشتاتاً من الخوف ، ثم وجد
نفسه أخيراً في الطريق الخالي ، فوضم قدميه في
الحذاء على عجل ، وتنفس تنفساً عميقاً يملأ صدره
المنظرم بالهواء الرطب البارد ...

وسار في طريقه بخطى مضطربة لا يلوى على
شيء يجب محفوظ

انتظروا عدد الرسالة الممتاز

في صباح ١٣ مارس

بخطاب شكر وثناء وأشادت
بوطنيته وعرضت عليه وساما
فاعتذر في رقة وظرف وهو مخاطب
شخصا من أكبر ذوى النفوذ
في البلاد

وإن الذى يعرف طبيعة هولز
وفرط حياته وركونه إلى الخجل
والانزواء لا يدهش من نزوله عن

حقه في الشهرة وبعد الصيت وكان يقول لي دائما :
« إياك والوقوف بملتقى الأشعة التي تظهرك للناس ،
فإنهم لا يلبثون أن يكشفوك ويعروك فتبدو كما بدا
آدم في فردوس النعيم ... »

إنه لرجل عجيب حقا : كانت المؤامرة من محض
ابتكار عدونا الألد وعدو الوطن بروفيسور موريادتي
هل كان انجليزيا ؟ هل كان إيرلنديا ؟ هل كان روسيا
ثائرا أم محض فوضوى متبميا بمذاهبه البيضاء عندنا
إلى ذلك للثائر المتفاني باكونيت ، أو صديقه
كودپوتكين ؟ لقد كانت مذاهب هذين الرجلين
لا تزال شائمة في إنجلترا والناس عليها جد مقبلين
لمجرد جدتها وطرافتها ولا سيما الفقراء منهم والمحاييج
والموزين . لقد كانت حياتهم لا تطلق ولا سيما في
الشتاء . غير أن الذين كانوا يفكرون في غزو إنجلترا
كانوا أقوياء وأغنياء وكانوا على أتم نظام وأحكمه
وأدقه ، حتى بدأوا بتسجيل قوائم بأسماء الذين
يملون إليهم ويتحفزون لتمضيدهم ثم بدأوا يرسمون
خطة نادرة المثال ثم وقع اختيارهم على موريادتي .
فكان هولز يقول لي وهو يحتقن بآيرة اللورفين .
وهو منكر لم أكن أملك أن أدفعه يدي فاكثفت
بالإشارة دون التصريح :

كايت شيشانوف
والعصابة ذات الرؤوس الحمراء
للكاتب الانجليزى سيراثر كونا دويل
بسم الأستاذ محمد لطفي جمعة

كتب دكتور وطن مسجل حوادث شرلوك
هولز وأخبره قال :

كان شرلوك هولز متعبا منهوك القوى بعد
أن عدنا من سياحتنا في جنوب فرنسا . إن البعض
يطلقون على هذا القسم من فرنسا اسم شاطي الذهب
أو ريفيرا تدليلا وتجميلا ولكنني لا أحب التبرج
في أسماء البلاد . فإن للبلاد المتبرج يعود كالمرأة المدللة
كأحدى تلك الراقصات الأندلسيات اللواتي بدقن
بأيديهن فوارغ الحمار ليحدثن صخباً بصم الأذن .
وكان مستر هولز يسميه أبداً جنوب فرنسا ويلمته
في قلبه ولسانه . أى نم ، لأن هذا القسم من العالم
لم يحو سوى المغاني والملاهي والمفاصد كملعب القمار
ومعاهد اليسر ، ويمجالي الترف ومظاهر الاستمتاع
قلت : عاد مستر هولز متعباً منهوك القوى .

وكذلك مسز وطن (زوجتي) فقد كاد يحف
لبنها فيحرم طفلي العزيز رضاع لبن أمه وهو
خير ما يعطى الأطفال في عامهم الأول ، ولكن
هولز قد استعاد نشاطه بسرعة فائقة كمادته . وكان
النصر الذي أحرزه على أعداء الوطن بالاستيلاء على
خرائط القدر ووثائق الخيانة قد أنمشه وجدد همته
وقواها . وقد بعثت إليه وزارة الشؤون الخارجية

إن العقل الوحيد الذى لم أستطع أن أهزمه أو أتغلب عليه هو عقل ذلك الرجل للقدير . لو كان يتفق بعض قوته فى الخير ، إذن لأفاد العالم . ولكنه جدد خبيث ، مخلوق للشر يتلقاه ويلوكة ويمجته ويتغذى عليه ويميش به . فقلت له : لقد أملت يوماً إلى لقاء تم بينكما فكيف كان ذلك . فقال : إنها قصة قديمة . كان موريارتى فى أول مدارج حياته الاجرامية وكنت أنا كذلك لا أزال طالباً بالطب فقرأت يوماً فى الصحف أنباء إلقاء القنابل على المباني . والاعتداء المنكر على قصر المدل فى دبلن واغتيال لورد كونيغريف فى بستان المنقاء (فينيكس بارك) فهالنى الأمر ولكنه لم يسترع انتباهى كثيراً لأننى كنت أرى أنهم على حق فى طلب حرمتهم ... ولكننى ما أقررت قط الطرق غير المشروعة ولا الوسائل المباشرة . وقد أبغضت الروس الذين لم يجدوا عملاً أجدى عليهم من تقتيل ملوكهم وأسرانهم واغتيال الأعيان والنبلاء بدلاً من تثقيب رجالهم ... لا عليك يا وطنى من نظرياتى فأننى لأحب أن أكرر عليك . شاهد الحديث أننى لمحت يوماً فى الصحف اسم كابتن شانون فقرأت وصفه ورأيت فعلاً صورته . ولا أدري كيف حصل عليها رجال الشرطة فى سكوتلانديارد ... لقد كان فى خدمتهم رجل شديد الكفاية بأقدار الإرادة اسمه اشندن . كان عماد قسم المخابرات السرية فى الشدائد والمخاطر . وكان دائب للسفر فى الخارج لأنه قابض على خيوط الأسرار الثمينة . فلملحه هو الذى نجح فى الحصول على صورته وإن كان فشل فى اقتناء آثاره لتعدد أسفاره وندرة ما يقيم فى لندن ، وهى على الأغلب

مستقر هذا المجرم الخطير .

ولكن نفسى حدثتني بأن الشخص الذى لقيه اشندن لا بد أن يكون متنكراً وأن الصورة بلا أدنى ريب مفتعلة ومصطنعة . وإلا فكيف يحدث أنها بعد طبعها ونشرها بالملايين لا يهتدى إلى صاحبها رجل واحد من الخاصة أو العامة أو رجال البوليس ... بيد أننى فى أحد الأيام كنت على ظهر مركبة تجرها الجياد فصعد إلى الطابق الأعلى الذى كنت أحتل أحد مقاعده رجل قصير عريض الأكتاف تمتنع الوجه كبير الدماغ كأن رأسه لضخامته واستدارته القبة السماء على قبر ضئيل . فرشقتى بنظرة حادة كادت تحترقنى ، ولكننى صمدت لنظرته ولم أشعره باهتمامى بمقدمه ، فاطمأن إلى اطمئنان القنابل والتمالب وجلس بجانبى لأنه لم يكن له مقعد خال غير الذى بجوارى . فأحسست بتيار قوى كالذى ينبعث من أهل الشر والمجرمين وهو يحدث شعور بنضاء ونفور لا يعرف مداها إلا الذى أحسهما ، وكانت السحنة المجاورة لى تشبه للصورة شهماً شديداً فى عرض الجبين وحدة السينين وضخامة الرأس ، ولكن الرجل كان ملتجياً والصورة تمثله حليفاً وهل من الصعب استطلاع اللحن والشوارب فى وقت أصبحت الشمور المستمارة أبسط ما ينال ويستعمل للتخفى واتتحال الشخصيات . إنما شئء باطن وصوت قوى وجداني كان يناديني بأنه هو الرجل الذى تبحث عنه الشرطة وتقتنى أثره سكوتلانديارد بل بريطانيا بأسرها ، ولقد طالما ندمت على أننى لم أقبض عليه

فقلت هولمز : ولو كان مسلحاً ؟

قال : ولو كان مسلحاً ، فأنى أنا أيضاً مسلح بمسدس من الوزن الثقيل وكنت كذلك دائماً لأننى أشعر بأحراس يزيدون على العشرة كلما أحسست مسدسي يميني ، لا عليك

غير أننى خشيت أن أكون غلطاً . فأصبح سخرية العالم ، وبفر الطير المقصود من قفصه في الوقت المناسب لفراره ، وبينما كانت هذه الأفكار تجول في خاطري ورأسي بنى كالرجل والمواطن والانفعالات تتنازعني وتشدني يميناً وشمالاً ابتدرني الوغد بصوت أجش وهو أيضاً مصطنع وقال :

— هل أنت أيها الشاب خال من العمل . إن كنت كذلك ، فإن لى عملاً يليق بك ، وظيفة مربحة كتابة على الآلة من الرابعة إلى السابعة وتشرب الشاي وتأكل الكمك وتقبض ستين شلناً في نهاية الأسبوع ، ولكن عفواً ، لملك تعمل فيذهب سؤالي هدرأ

فتصنعت للبساطة ما أمكننى وقلت :

— محسوبك يا سيدى طالب طب

فابتسم عن أسنان صفراء كالماج وأنياب معددة كأنياب الضواري وفم ضخيم يسع حدود فرس وقال :

— إلى السعد ! إلى السعد ! طالب طب ماشاء الله

كان . شاب عالم ينتظره مستقبل عظيم . ولكن يمكنك أن تريح هذه الشلنات الستين في سهولة إذا لم يمترض وقت دراستك فرصة تدريبك فهيا فكر ، وإليك عنوان واسمى . وأخرج من جيبه محفظة بها بطاقات ، وناولني واحدة باسمه

مستر هامبشير در فالواليس

تاجر متنقل ووسيط أعمال

هادلورث جاردنز ٨٣ بلا كيبورى ستريت

ثم ألقى على نظرة منكرة تنطوي على التهديد والبغضاء والأمل في القبض على « نقي الخلق

وقد شعرت بحماسة شديدة لاقتفاء أثره وتعقب خطواته بدلاً من أن أوافيه إلى بيته الذى قد ينصب لى فيه فخاً . ولم يكن لى سوى وسيلة واحدة وهي أن أسبق هذا الوغد إلى العنوان الذى حددته في هادلورث جاردنز ٨٣ بلا كيبورى ستريت ، ولم أكن بمقدورى أن أتمكن من امتلاك وسائل التخفى والتزيى . غير أن للظروف كانت مواتية فقد وجدت نفسى في اكسفورد ستريت . أتذكره يا وطن ؟

قلت لمستر هولمز : كيف لا أعرفه ؟

قال : لو لم يكن يشفع في تذكرنا إياه إلا وصفه في كتاب دى كوينسى الخالد لكفانا مذكراً فقلت : ونذيراً .

فتجههم وجه هولمز ودمدم وتمم وا كفهر جبينه وانبتقت من عينيه أشعة قوية كالشرر الذى يقذف من عيني الفهود والنمرة التى تدافع عن أشبالها وقال : ألم أنبهك إلى أن تقديم النصيح فى مثل هذه السن غير جائز . ولعلها عادة تورث الأحقاد عند غيرى ...

وقد أدرك أننى ألح إلى تماطى المورفين الذى صار له عادة وكنت أخشى منه على صحته البدنية والمقلية ..

وبعد أن اعتذرت وفسرت لمستر هولمز أن

قصدي ينصب على دي كوينسي مؤلف كتاب
ذكريات « مزدرد الأفيون » الذي طالما نأح وأعول
في صفحات كتابه على ماري تلك الفتاة الحبيبة
التي ظهرت كالسراب في صحراء الحياة ، ثم اختفت
بسرعة الأشباح لدى اختفائها .

« آه ما أفسى قلبك يا ا . كسفورد ستريت هل
قلبك قد من ضجر ؟ »

وبعد هنية عاد إلى هولز هذوؤه فقال :

— في ا . كسفورد ستريت وجلت نفسي حبال
« سالون حلاقة » لدرنيكوتر وشبرلان وهما من أشهر
عترفي صناعة الماكياج في بريطانيا المظلمى وكان
لهما صيت ذائع منذ أتقنا إخراج رؤوس الثور
الفرنسية في رواية الزهرة القرمزية .. وهنا ضحك
هولز وقال :

صحيح أن هذه الرؤوس جميعها سقطت قبل
أن يسدل الستار على الفصل الأخير من تلك الرواية
ولكن ليس الدنـب ذنب درنيكوتر وشبرلان .. لقد
كانت هذه الرؤوس حصاد الجيولتين . فدفت باب
« الصالون » ورجوت عامل الشمور المصطنعة أن
يمطيني شعراً أحمر ولحية شعراء قلبستهما وتقدت
للمامل عن ما أخذت وأسـرعت إلى محطة ميتروبوليتان
الوودية إلى محطة كاركنويل جاردنز ومنها يأخذ
السافر سمته إلى هادلورث جاردنز .

وكان في نيتي أن أسبق الرجل الذي اتحل
اسم هامبشير درفالواليس إلى المكان الذي عينه
قبل أن يتمكن من نصب فخ .

وكنـت بمد أن أتخذت هذه الصورة الجديدة

أقدم رجلا وأؤخر أخرى ...

لم يتم هولز حديثه حتى استأذنت علينا مديرة
المزل وقالت إن سيداً يريد لقاء مستر هولز . .
وإنه لشخص عجيب حقاً فبينما شمـره أشقر كأشعة
للمشمس المحرقة إذا عيناه سوداوان كفحم نيو كاسيل
فقال هولز : وهل هو ملتح أم حليق ؟

فضربت مسر تيرز صدرها بيدها وقالت :
أذكرني يا مستر هولز ، إن له لحية كشجرة جاي
فاوكس !

ثم خرجت وعادت وقد أشخصت رجلاً أشقر
تقشـم الأبدان لدى رؤية حرته ، وترتعد الفرائص
من أثر نظـرته . فأجلسه مستر هولز حياه وتشاغل
عنه قليلا . وأنتم حديثه مى قائلاً :

— كنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى خشية
أن يكون مشروعى خيالاً ولا أصل إلى غايى التي
تحررت بلوغها وتمنيت النجاح قريباً لها . على الرغم
من أننى أتقنت هذا التـخفى الذى لم يتقنه أيضاً حضرة
المفتش جيمستون الذى شرفنا بزيارته ذون أن يحمل
إلينا بطاقة بتوصية من رئيسه فرانكفيل

فانتفض ضيفنا ورفع عن رأسه تلك (الطاقة)
الشعرية المصطنعة ، وابـتسم ابتسامة هريضة وقال :

— لقد أحسنت يا مستر هولز . أنا جيمستون
من سكوتلانديارد . وقد جئت لاستشيرك فقد ثبت
لنا أن التآمرين الذين يلقون بالقنابل ويدسون
الآلات الجهنمية^(١) في المباني يؤلفون جمية من
ذوى الرؤوس الحمر . فاضطرت أن أتخذ هذه

(١) في الأصل Infernal machines

— الحق بيدك يا مستر هولز ولكنى لا أملك
أن أغير هذا الزى الآن لأنى مقيد فى الديوان بهذا
الوصف إلى آخر الأسبوع ولم يبق بيننا وبين نهايته
سوى يوم ونصف يوم .

ثم نهض ليستأذن فى الانصراف فقال له هولز
وهو يودعه : قد يكون حنف الفنى فى ساعات
معدودة ...

ولكن جيمستون الذى عاد وجهه كالبرقالة
الاسبانية ورأسه كشال مجوز الجنوب ، لشدة
صفرتين الضاربة إلى الحمرة ، لم يفهم هذه الإشارة
وسارع إلى الخروج

وبعد برهة قصيرة نهض مستر هولز وأشار على
بمرافقته إلى الطريق فلما بلغنا آخر بيكر ستريت من
ناحية الجنوب انحدرنا إلى النفق الأرضى الذى يؤدى
إلى محطة بيكرلو ستريت ولما بلغنا آخر النفق ركبنا
القطار الذى يصل بنا إلى محطة ترافلجار سكوير .
وكان للقطار يصل إلى تلك المحطة فى فترة من الزمن
لا تزيد على عشرين دقيقة . فلما وصلنا إلى المحطة
وجدنا زحاما شديدا من رجال الشرطة والمستظلمين
وخليط المسافرين . وسرعان ما وصل هولز إلى وسط
المهمة ثم عاد ممتنع الوجه متفعلا وأخذ يبدى
ليخرجنى من المحطة فلم أجروا على سؤاله عما رأى .
وسرنا صامتين مسافة ليست بالقصيرة ثم عدنا أدراجنا
بإشارة من هولز إلى المكان الذى كنا فيه فكانت
الشرطة تمكنت من تفريق المتجمهرين حول الجنة ...
نعم كانت الجنة . ولم تكن سوى جثة المفتش جيمستون
نفسه . نعم جيمستون الذى أنذره هولز بالموت بأيدى

الصورة . لا تمكن من متابعتهم والاختلاط بهم .
ولكنى علمت أنهم غيروا هذا الزى وأن زعيمهم
كابتن شانون قد أقسم أن يعزى علينا نحن رجال
سكوتلانديارد فردا فردا

فنظر هولز إلى هذا المفتش جيمستون نظرة
دهش وقال له : ومن أين لك أن زعيمهم هذا
الكابتن شانون الذى أنذركم بالفناء ؟ إعلم أن كابتن
شانون هذا ليس إلا ... ولكن قبل أن أقول لك ،
أيمكنك أن تدلى على عنوان ذلك الرجل أو ما ظننه
مقرآ له ؟

فاعتدل المفتش جيمس فى مجلسه وقد بدا رجلا
عاديا بمد أن خاع غشاء الشعر المصطنع وأخرج
من جيبه كناشة صغيرة وقلب فى صفحاتها ثم قال :
— إنه يسكن بيتا فى هادلورث جاردنز فى
بلا كبرى ستريت

فضحك هولز ونظر إلى وقال :
— يظهر أن كابتن شانون جار عزيز لمستر
هامبشير درفالواليس

ولكن كلام هولز كان بمثابة اللغز باقى على
مسمع من هذا الضابط السليم النية فلم يفطن إلى
مقصد هولز وهو يريد أن يقول إن شانون وهامبشير
ليسا سوى اسمين لشخص واحد

وأخيرا نظر إلى المفتش جيمس وقال له : من
الخير أن تعود إلى حالتك الطبيعية مادامت تلك الطغمة
قد بدلت من استخفافها وغيرت ، فبقاؤك على هذه
الصورة يشكوكهم إذا لقيك واحد منهم ، خصوصا
بعد أن أنذروكم بالقضاء عليكم . فقال جيمس :

هذه المصيبة الخطيرة ذات الرؤوس الحمراء .

فلما دنا مستر هولز من الجثة رأى أن نصف اللحية الشقراء مزروع عن وجه الرجل وقد دُمغت وجنته بحرفين G. I الجيم والآي . وكان القاتل مطبقاً يده على ورقة بيضاء فتناولها هولز . وقد أذن له الأحراس ، وهم يعرفون قدره ويعلمون مكانه الرقيقة في الفن الذي احترقوه حين أنه لا يزال فيه هاوياً .

ثم انحنى مستر هولز على وجه مفتش الشرطة القاتل وهو بنم النظر في الحرفين النقوشين على وجنته وعند ما حضرت زوجة المقتول وابنته وولده الصغير وأخذ هذا الأخير يعول : دادى^(١) ، كنت ألمح دمة تجول مترددة في جفون مستر هولز ولكنها لم تغلق من مآق هذا الرجل المجيب ، وكان أول عمله بعد أن نهض محاولته تمزيق تلك الشابة الترملة ومداعبة اليتيم الصغير ، ثم أخذنى جانباً وقال لى : هل حذرت مدلول هذين الحرفين G. I فقلت : أبداً ولعله اسم القاتل أو الجمعية التى تضمه بين أعضائها . فهز هولز رأسه أسفاً . وإتنا لكذلك وإذا بصوت انفجار عظيم لم يسمع مثله من قبل وقد تلتته أصوات صغرى واستغاثات ودوى وصراخ وأجراس وقد كان هذا الانفجار قريباً منا بحيث خيل إلينا أن محطة الميترو بوليتان التى نحن بها سوف تدك دكا وتزول من الوجود ونحن معها . وقد أصاب المال والجنود والمسافرين الداهيين والواصلين من الدهر ما لا يمكن وصفه . غير أن

هولز كان الرجل الوحيد الثابت الجأش .

وقد أخذ يبدى بمدان استولى على الورقة التى كان القاتل مطبقاً يده عليها . وقادنى إلى سرداب يؤدى إلى مصنع صغير ملحق بتلك المحطة وهناك وجدنا المال فى هرج ومرج فقد وصل إليهم أثر الانفجار حتى أن أقذاح الشاى التى كانوا ملأوها وأعدوها للشراب حتى اهتزت ثم انقلبت وأفرغت ما فيها . فلم يشمرهم هولز بشيء من الدهر الذى انتشر على سطح الأرض فى طبقة أعلى من الطبقة التى يعيشون فيها تحت مجرى نهر التيمز بأربعين متراً . غير أنه رجاى أن يدلونا على أقرب طريق للصعود فقادنا رئيسهم إلى المصعد الكهربائى وكان الأول من نوعه فقد ارتقى بنا فى خمس دقائق إلى ترافلجار سكوير وكان للناس يتجمعون ويتفرقون ويتهايمسون قارة وقارة يتبادلون الكلام بأصوات مرتفعة .

فقلت لهولز : ما بال القوم هكذا

فقال : اشتر لنا صحيفة . فعملت برأيه وعدت بعدد من جريدة « ويلي لايار » . فقال لى هولز : ألم تعلم تفسير حرفى G. I إنهما رمز لجرين إيرين أى إيرلاندا الخضراء فالقاتل تابع لجمعية الفوضويين الأيرلنديين . وهذا المنشور الذى كان القاتل مطبقاً يده عليه فيه بيان للناس . ولكن افتح لنا الجريدة . فإذا فيها :

سلسلة من الاعتداءات

الفاجعة فى عاصمة

الامبراطورية البريطانية

(١) تدليل للفظ والد عند الانجليز

الاييرلنديون ينسفون المباني

ويعرضون سلامة البلاد للخطر

دخلت البلاد الانجليزية في الشهرين الاخيرين في أزمة سياسية لم تقع في مثلها منذ سنين بل منذ قرون ، فافضنا كما افاضت جرائد العالم المتحضر بأخبار المنازعة الهائلة التي يخشى أن تنتهي بحروب داخلية نعتى مشكلة ايرلاندا ورغبتها في الاستقلال التام في تلك اللحظة من بنا رجل أشقر يسير مسرعاً ويترك وراءه أوراقاً مطبوعة كما لو أنها وقعت منه عفواً دون أن يقصد إلى توزيعها بين الناس فلمت عيننا هولز وجري بسرعة النزول والناس من حوله يتفرقون كأنهم يفسحون له الطريق دون أن يملوا غايته . فبعثته بنظري أولاً ثم بساقى وقدمى حتى كدت أدركه فاذا معركة حامية على باب تشارنج كروس ستيشن أقرب محطات السكة الحديدية إلى ميدان طرف النار ولم تكن تلك المعركة سوى نزال عنيف بين هولز والرجل الأشقر الذي كان قد أشهر مسدساً . ولكن هولز أتى بحركة صراع يائسة من نوع الجيو جيتسو التي كان يتقنها . ونزع سلاح الرجل ثم سلمه يداً بيد إلى نفر من رجال البوليس الذين هرعوا إلى مكان الحادث ، وناول أحداً الشرطين بطاقته وانقلت إلى وقادني بضع خطوات ثم قفزنا في عربة من طراز هانسوم كاب ميممين شطر هايد پارك فترجلنا عند ماربل آرش وقال لي هولز :

يجب علينا أن نبتعد عن منزلنا بضع ساعات فان هذه المصابة قد عرفتنا . وتوجهنا نواً إلى كوين آتر ما نشئز ، فدخلنا في بهو الشاي الذي ينتسب إلى

شركة ليونز ثم قدم هولز إلى ورقة القليل فاذا بها منشور إيرلندي جاء فيه :

جرين ادين

السواد الأعظم من الشعب الايرلندي ساقى الأصل يرجع نسبه إلى أوائل من توطنوا القارة الأوربية . ونحن وسكان مقاطعة بريتانيا الفرنسية (التي ينتمى إليها اريستيد بريان برميير ^(١)) جمهورية فرنسا) المثلون الباقون لذلك الجيش ، ونحن أصحاب خيال وعصبية وعنجهية وجاهلية . وفيينا ميل طبيعي للبطش والحرب .

يدلك أيها القاريء الانجليزي على ذلك أن أعظم القواد في جيسوشم إيرلنديون ومنهم ولنجتون ونلسون وكتشتر وروبرتس وفرنش ، وليس أسهل لدينا من أن نفقأ عيني خصمنا لأقل سبب وقد نلنا شهرة من هذا القبيل لاسيما في الولايات المتحدة حيث نهاجر كل عام زرافات فراراً من الجوع والفقر ، والجوع والفقر هما البليتان اللتان جلبتهما علينا انجلترا للفتنة المتعمدة التي بأكل أهلها خمس مرات في اليوم الواحد في حين أننا لا نجد قوت وجبة واحدة . إننا في حالة يرثى لها من الفقر نحن سكان مونستر ولينستر وكونوت ونحن في غاية البؤس ، وما تاريخ بلادنا منذ فتحها قبل سبعمائة عام سوى ثورات ومذابح متوالية . لقد كان أجدادكم يذبحون أجدادنا ويطردونهم إلى الجبال والقفار ويتملكون أراضيهم ويحلون محلهم أناساً من بني جنسهم ودينهم . فنحن لا ننسى معركة

(١) رئيس وزارة

وبعد أن شربنا الشاي نهضنا وقصدنا إلى شارع
كنجزواي الذي يتفرع على ريجنت ستريت وسرنا
كـمـض الناس لانتـفـت نـظـر أحـد إلينا غير أننا لم نـكـد
نخطو بضع خطوات حتى سمعنا بأعة الصحف ينادون
بأرفع الأصوات :

« فرار المجرم في حادث القنابل المفرقة بعد
القبض عليه . ذهول رجال البوليس . توزيع
منشورات مثيرة للخواطر . اقرأ آخر أنباء المعصاة
المجرأ »

فـنـظـرت إلى هولمز مستفسراً ، فقال لي :

— لقد انتصرنا وانهمزم سكوتلانديارد !

محمد لطفي جمعة

بوين التي فاز فيها الملك المنتصب الظالم ويليام أوف
أورانج علينا . إن يوم الستر الذي ينعش ذكرى
هذه المعركة ينعشنا نحن أيضاً ويدفعنا إلى
الانتقام . لقد عانينا من تفاقم ما عانينا ولم يبق
لدينا إلا الانفجار الذي يعقب للضغط فاستمدوا الحرب
شعواء في عقرداركم ، أو اعترفوا بحرية إيرلاندا .
إن النزاع الهائل للقائم اليوم في لندن لن ينتهي
بدون أن ننال ثمرة جهادنا الطويل »

الامضاء

G. I

فدهشت من زكاة هواز وذكائه وتواضعه ،
فانه لم يتسم ولم يتكلم ولم يفتخر بوسوله إلى هذه
الحقيقة قبل أن يصل إليها أي رجل آخر في عاصمة
بريطانيا العظمى

هدايا الرسالة

من دفع اشتراك الرسالة على حسب الشروط التي نشرناها كان له الحق فيما يأتي :

الكتب المخفضة :

يشترى من إدارة الرسالة الكتب الآتية بالثمن المخفض

قرش صاغ	قرش صاغ	كتاب الفصول والفتايات
٢٠	بدلاً من ٣٠	التصوف الاسلامي
٣٠	بدلاً من ٤٠	تاريخ الأدب العربي
١٣	بدلاً من ٢٠	النقد التعبلي
٥	بدلاً من ١٥	في أصول الأدب
٥	بدلاً من ١٥	رفائيل
٦	بدلاً من ١٢	آلام فرتر
٦	بدلاً من ١٥	حياة الرافي
١٠	بدلاً من ٢٠	

قرش صاغ	قرش صاغ	مجموعة السنة الواحدة من الرسالة
٦٠	بدلاً من ٧٠	مجلة في جزأين
٢٠	بدلاً من ٣٥	مجموعة السنة الواحدة من الرواية
٢٠	بدلاً من ٣٥	مجلة في جزأين

الكتب المجانية :

كتاب سياسة الغد لمريت بك بطرس غالي
رسالة المنبر لفلـكـس فارس
هكذا أغنى لمحمد حسن اسماعيل
قصة الأميرة الجميلة للعلايل

— أجرة البريد في الداخل أو في الخارج على المشترك —

انتحار

للكاتب الفرنسي جورج مورفير
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

ما أملك . وأفتت من نوى ذات
صباح كيلا أجد من سوى
اثني عشر فرنكا مع أنى مدين
لصاحب المنزل الذى أقيم فيه
بخمسة عشر فرنكا ؛ لذلك
اختبرت مسدسى فالفينه يخر
بست رصاصات قواطل كانت فى ظنى
كافية لتمزيق رأس فارغ كراسى

وفتحت نافذتى . كان « صباحى الأخير »
رائعاً جميلاً فالسواء زرقاء صافية والأمواج خضراء
هادئة والنسيم يسبق بشذى زهر البرتقال والبنفسج
وغادرت المنزل إلى الشاطئ لأملاً صدرى
المنفعل بهذا النسيم النقي الفواح ... بيد أنى كررت
عائداً بعد أن سرت قليلاً ، إذ أحسست جوعاً
شديداً ، وفى أثناء عودتى ابتعت صحيفة سان رومانو
الحلية ، وهى صحيفة مثيرة ، مجللة بالسواد كأنها
رسالة حزينة

ورحت أقلب صفحاتها إبان الطعام فاسترعى
نظرى عنوان « انتحارات الأسبوع » فجال بخاطرى
دون أدنى انفعال : « هنا سيمون خبر موتى
أنا الآخر بعد أيام قلائل » بل وددت لو أشكر
سلفاً حرر هذا الباب الذى سيمون نهي فى هذه
الصحيفة .

وعلقت عيناي بخبر انفراد بعلامة الصليب فى
صدره فقرأت فيه « وجدت بالأمس جثة جوسو
جا كوبسن — أمريكى الجنس — معلقة فى إحدى
اللتخيل الذى ينمو على الشرفة — وقد وجد فى
جيبه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك — طبعاً »
جوسو جا كوبسن ؟ إنى أعرفه . بل لقد

سان رومانو ! كم هو بلد جميل رائع ! فيه
يدرك الانسان المعنى الذى تنطوى عليه كلمات فلوير :
هنالك بقاء فى العالم بود المرء لجمالها وروعها لو يضمها
إلى صدره ضمة الوجد والحنين ... بيد أنى
سان رومانو وا أسفاه تشبه أيضاً ثمرة لذة قواحة
لا يجسر امرؤ على تذوقها مخافة الموت الذى يقطر
من عصيرها

ولسوء الحظ لا تستطيع مناظرها الساحرة
الخلابة أن تدخل السرور والبهجة على قلوب الناس
فى جنبات المدينة تقابلك الوجوه الداهلة والملامح
اليائسة والعيون الحيرة الأسفة ... وفى كل مكان
منها تطالملك كلمات السخط والتبرم : أليتنى وضمت
على رقم ١٧ ... آه ! هذا الأحمر الملون ، لقد كسب
عشر صرات متولوية ، وبالرغم من ذلك وضمت على
الأسود .

ولم يكن فى البلد كله من باقى أدنى التفاتة
إلى المناظر الساحرة الأخاذة التى تنبت فيه . كانت
الأرض عديم « روليت » ضخمة ، والسماة صفحة
كتب عليها أرقام ٣٠ و ٤٠ و ٥٠

وقد كنت أنا أيضاً ضحية هذا البلد الخطير ؛
إذ خسرت مبلغاً لم يكن جد كبير غير أنه كان كل

— بروية وإيمان — خطة السير في انتحار يهود
على برج وفيير

وفي مساء هذا اليوم بعينه ذهبت إلى الكازينو
مرتدياً أجمل أثواب وقد أبنت للملأ أني جئت أجازف
بآخر ما بقي لي .. وأني سأموت هماً وغماً إن لم أرح
وطارت المائة فرنك ... فبدأ على الانزعاج في
بأدي الأمر ... ثم انقلبت أتأمل فاضباً حنوقاً ...
وأخيراً بدوت كالذاهل المأخوذ

ورثي لحالي شاب قامت بيني وبينه معرفة ،
وسألني ما الخبر فأنبأته بنبرات حزينة يائسة أني
أفلس ، فأخذ يواسيني ويخفف عني ثم قال :
— لا تيأس فما زلت تملك نفقات السفر إلى
وطنك . إن الكازينو — في هذه الحال —
يتطوع بـ ... قساطته ييأس قائلاً :

— إن السفر الذي أزمعه لا يحتاج إلى « تذكرة »
فنظر إلى مشدوها وقال :

— لا أحسبك جاداً في هذا القول ... أمل
ألا تكون قد جنت

فظلت صامتاً ، ثم أدبرت له ظهرى ورحلت
أجبل بصرى ذاهلاً في أرجاء المكان بضع دقائق ..
وقد لمحت أصحاب « الكازينو » يراقبونني من طرف
خفي . وانفرط عقد اللاعبين في الساعة الحادية
عشرة ، فقفوت أثر الخارجين بوجه يحمل علامة
الدهول واليأس والتفكير

وكانت الليلة رائحة جميلة والقمر بدرأ باقى بأشمته
الفضية الناعمة على الأرض للشجراء والبحر الأزرق
للساكن . وبلغ سمى أصوات كان حنون ينوح نوح
عاشقة يائسة . وجمعت وجهي — وقد أجمت أمرى —
حرساً قريباً من الكازينو ، بقمة هادئة تمدد بحق

خسرنا كل نقودنا جنباً إلى جنب . وبالأمر القريب
حينما خسر آخر فلس معه رأيتني يتمهد في عنف
وحسرة ، ثم أمسك بيدي وهزها بحرارة ونظر
إلى بحزن ثم ابتسم وقال بصوت خفيض « لقد
دمرت ... دمرت تماماً ... وداعاً يا صديقي ... »
ومن ثم ذهب فشنق نفسه

إذن ، كيف أمكن أن يموتوا في جيبه على
ثلاثة آلاف فرنك ... وماذا تعني بحق الشيطان
هذه الكلمة « طبعاً »

ولاح لي فبس كشف لي الأمر وأبان الطريق ..
يا لي من غي ! كيف لم أفطن إلى ذلك من قبل ...
لقد دس — ولا ريب — أصحاب الكازينو هذا
المال في جيبه لتضليل الناس وحملهم على الاعتقاد أن
انتحاره لا يرجع ألبتة إلى خسارته بل إلى أسباب
شخصية ودوافع نفسية

وعلى ضوء هذا الاكتشاف المفجأى رحلت
أفكر لكم بآثرى يدسون في جيبى إذا حزمت أمرى
وانتحرت على مقربة من الكازينو ؟ لقد خسرت
بقدر ما خسر جاكوبسن : .. وسربت إلى رأسي
فكرة بأسرع مما كان مقدراً أن تسرب الرصاصة
ثم واصلت تناول الطعام بقلب ثابت أو يكاد
يكون ثابتاً ، وذهبت بعدئذ إلى صاحب الفندق
وأكدت له أني سأدفع له حسابه في المساء ثم أضفت :
— هذا إذا بقيت حياً ...

— إنا نثق فيك كل الثقة يا سيدي
— إذن فأفرضني مائة فرنك حتى المساء ...
إني أنتظر وصول مال من باريس
— بكل سرور يا سيدي

وقضيت سحابة النهار على الشاطئ حيث وضعت

أصلح مكان لتمثيل الدور الذي أزمعته ؛ وكان ثمة تمثال
من الرخام لغانية من غواني البحر بدا كأنه يتسم
وأنا أوشك أن أقوم بدوري

ودوت فجأة طلقثان ناريتان ، وسقطت على أحد
المقاعد في وضع مهمل وانتظرت . واقتربت مني أصوات
وسقطت على عيني المسبكتين ظلال القبيلين

— يا إلهي ! إنه هو ...

— يا للسكين ! لقد قفى على نفسه برصاصتين مما
وسمت بعد ذلك أحد أصحاب الكازينو يقول :
— هلم ... أسرع قبل أن يرانا أحد . تبأ له
من شيطان ! أما وجد غير هذا المكان !

ثم انحنى فوقي فشمرت كأنما اندس شيء في جيبى
هنالك ارتعدت قليلا ... وتأوت صرتين ،
ثم فتحت عيني ببطء شديد ، ونهضت من مضجعي
بناية وحرص ناظراً في تساؤل وعجب إلى الجمع الحاشد
حولى . وفي عدم اكتراث محين أخذت قبعتي
والسدس الذي كان مازال يلغظ الدخان من فوهته
وانتصبت واقفاً

وكان المحتشدون ينظرون إلى كأنى حيوان غريب
الخلقة وقد امتزجت نظراتهم بالمعجب والاستفهام ...
وقلت في غضب :

— عجبا لكم يا قوم ! ألا يستطيع المرء قتل نفسه
بعيداً عن فضول الناس ؟ لم نسمع بمثله هذا والله
واقترب مني أحد أصحاب الكازينو ينتفض من
شدة الغضب وقال في تلعثم واضطراب :

— سيدى الفاضل ... أرجو ... هل ...
إذا ... ماذا تقصده بهذه المهزلة ؟ سأقودك إلى البوليس
لتعكيرك الأمن

— لتعكيرى الأمن ؟ قول ظريف سيندو
ولا صراء حديث الموسم

قلت ذلك ثم أوليت الجمع ظهري واتخذت سبيلى
ضاحكاً من هؤلاء الناس الذين اجتمعوا بدافع الفضول
وحب الاستطلاع

وعدت إلى الفندق فسدت ديونى من الآلاف
للثلاثة التي أخذتها مقابل قيامى بدور الانتحار . وقد
بذلت إدارة الكازينو أقصى الجهود لاستعادة المال ؛
ولكنى لم أكن قد فكرت قط في إعادته ، إذ اعتبرت
أن هذا المال من حقي ، وأيقنت فضلاً عن ذلك أن
ثلاثة آلاف فرنك لا تبدو ثمناً كبيراً لاتعاري

وقد عمدت إلى إغاظتهم بيقائى في سان رومانو
بضعة أيام آخر أعيش عيشة الترف والبذخ ثم رحلت
بمدها إلى باريس ... وقد سمعت أن المبلغ الذى دُرس
في جيبى قد رُد إلى الكازينو أضعافاً مضاعفة .

محمد عبد الفتاح محمد

رفائيل لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم
أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
التمن ١٢ قرشاً

الرجل الخفي

للكاتب الفصيح جابر كيث تشستر
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

جذابة لأنظار الشباب ممن تجاوزوا
هذه السن الصغيرة ، فقد وقف
أمام الحانوت فتى لا تقل سنه
عن الرابعة والعشرين ، يحدق
بنظره فيما وراء الزجاج ، وقد
بدا الحانوت ، في نظره هو أيضاً ،
قطعة من الجبال النارية تخطف
الابصار ، وقد لا تكون الشكولاتة

وحدها هي التي استرعت أنظار الفتى وإن لم يكن
هو على أي حال ممن يفضون هذا النوع من الحلوى .
كان الفتى طويل القامة جسيماً ، أحمر الشعر ،
تبدو على وجهه دلائل الحزم ، ودبيع الخلق وكان
يتأبط حافظة رمادية كبيرة تضم بين دفتيها عدداً
من الصور الفحشية ، التي كان يبيعها للتأخرين
بأثمان لا يهمنه أن تكون غالية أو رخيصة ، وذلك
منذ أن حرمه عمه (وكان من أسراء البحر) ميراثه
لخلاف بين رأييهما في النظرية الاشتراكية ، وكان
الفتى ، واسمه جون تيربل أنجوس ، قد أتى محاضرة
في هذا الموضوع

انتهت وقفة الفتى أمام الحانوت بدخوله واجتيازه
للقسم الخارجي المروضة فيه الحلوى ، إلى الغرفة
الخلفية التي جعلت مطما تقدم فيه أنواع الفطائر ،
رافعاً قبسته تحية للفتاة المشتغلة بتلبية مطالب رواد
الحانوت ، وكانت فتاة سمراء رشيدة متيقظة ترتدي
ثوباً أسود مرتفع اللياقة ، سريرة الحركة سوداء
المينين ، وبعد الفترة التي تعقب دخول الزائر عادة
لحقت الفتاة بالفتى لتتلقى أوامره

وكان طلبه من الطلبات المادية إذ قال :

— أرجو أن تجيئي بكعكة صغيرة وفنجان

من القهوة السوداء

في ساعة المسق ، وقد رطب الجو ومال لون
الوجود إلى الزرقة القاتمة ، بدا حانوت الحلواني ،
القائم على ملقى شارعين متقاطعين في بلدة « كامدن
تون » كأنه شعلة سيجارة وهاجة ، أو بمبارة أدق
في الوصف ، كأنه رأس عود من أعواد الألباب
النارية ، فقد كانت مصابيح مختلفة الألوان مشبك
بعضها في بعض ، تنكسر أشعتها على كثير من
المرائي ، وتماوج على كثير من الكمك والحلوى
الملونة بألوان الذهب وغيره من الألوان البهيجة ،
وفي هذه الواجهة الزجاجية الوهاجة تلتصق أنوف
كثيرين ممن تبهرم الألوان الزاهية ، فقد كانت
قطع الشكولاتة ملفوفة في ورق ملون بالأحمر والذهبي
والأخضر إلى آخر هذه الألوان المدنية التي تفضل ،
في نظر الصغار ، قطع الشكولاتة نفسها . أما كعكة
الزفاف الكبيرة البيضاء فكانت منظرها كافياً
لأن يرسم للمين صورة من القطب الشمال وقد استحال
إلى مادة مما يأكل الناس . وكانت هذه المجموعة
من المغريات التي انتظمت ألوان قوس قزح كافية
لأن تجذب إلى واجهة الحانوت كل أطفال
الحى المجاور من سن العاشرة إلى الثانية عشرة .
على أن هذه النقطة من ملقى الشارعين كانت كذلك

الترتيب الدقيق وضع الكمكة الكبيرة البيضاء التي
كانت زينة الواجهة

فقلت الفتاة مضطربة :

— أى شيء هذا الذى تفعل ؟

فأجاب :

— أعمل الواجب يا عزيزتى لورا

فصاحت الفتاة به :

— بالله قف لحظة ولا تخاطبى بمثل هذه اللجة

إنى أود أن أعرف معنى هذا كله ؟

— هي وليمة احتفاء يا مس هوب

فأشارت الفتاة إلى الكمكة الكبرى وقالت وقد

نقد صبرها :

— وما هذه ؟

فأجاب الفتى :

— هي كمكة الزفاف يا مسز أنجوس

فأخذت الفتاة الكمكة وأعادتها إلى مكانها في شيء

من الانفعال ثم عادت فأسندت مرفقها الجليل إلى

المائدة ونظرت إلى الفتى نظرة إن تجردت من معاني

البغض فقد جمعت بعض معاني النفيظ وقالت :

— إنك لم تترك لى وقتاً للتفكير

فأجاب :

— أنا لست ذلك النفى الذى يترك لك الوقت

للتفكير : وهذه هي عقيدتى المسيحية

وكانت الفتاة لا تزال محدقة في وجهه وعلى فمها

ابتسامة انطوت وراءها معاني الجسد ، فقالت في

صراحة :

— قبل أن تمضى لحظة أخرى في مثل هذا

السخف يجب أن أخبرك في اختصار عن شيء

يتصل بشخصى

ولم تكذ الفتاة تلتفت لتأخذ طريقها إلى حيث
تمحضر له ما طلب حتى أضاف إلى جملته السابقة قوله :

— كذلك أريد أن تقبلين زوجاً

فجمدت الفتاة فجأة في مكانها وقالت :

— هذا مزاح لا أسيفه

فرفع الفتى الأجر الشرعيني الرماديتين وقد

بدا فيهما من معاني الجسد والفرح ما لم يكن متظراً

وقال :

— إنى أقصد ما أقول صدقاً وحقاً ، وأنا جاد

في قولى مثل جدى في طلب الكمكة وما أطلبه غال

غلاء الكمكة ، فانى أدفع له ثمناً ؛ ثم هو عسير المضم

مثل الكمكة أيضاً وهو إلى جانب ذلك موجه . . .

لم تحول الفتاة السمرء عينيها لحظة عن الفتى

في أثناء حديثه ولكن لاح عليها كأنها تفحصه فحصاً

دقيقاً تتجلى فيه معاني الأسى ، وما انتهت من هذا

الفحص حتى جلست على كرسي بالقرب منه

فقال أنجوس وهو شارد الفكر :

— ألا ترين أن من الفسوة أكل هذه الكمكات

الصغيرة ؟ أليس من المحتمل أن تنمو فتصبح بمد

حين كمكات كبيرة ؟ لقد اعتزمت الامتناع عن هذا

النوع من الرياضة حتى تزوج

وقفت الفتاة وانجبت إلى الواجهة الموضوعة

فيها الحلوى وقد بدا عليها أنها منهمكة في تفكير

عميق ولكنه غير كره . فلما عادت إلى حيث للفتى

وقد ظهر عليها أنها اعتزمت أمراً ، راعها أن وجدته

ينظم فوق المائدة ، في كثير من العناية ، مواد عديدة

أخرجها من وأنجمة الحانوت ، بينها هرم كبير من

الحلوى الملونة ، وكثير من أطباق السندوتش ،

وأغلى للفطائر المصنوعة بالفا كمة . وفي وسط ذلك

بأجاب أنجوس في لهجة الجد :

— يسرنى أن أسمع ما تقولين ، فقد تقولين كذلك في الوقت المناسب شيئاً عن شخصى أنا ...

فأجابت الفتاة :

— بالله احفظ لسانك وأصغ إلى فليس فيما أقول ما ينجلى ، بل وإنه ليس بالأسر الذي آسف له على وجه أخص ولكن ما قولك في أسر ليس هو من عملى ولكنه الكابوس الذي يلازمى ؟

فقال الفتى جاداً :

— في هذه الحال أقترح أن تعيدى الكعكة

إلى هذه المائدة

فالت الفتاة في إلحاح :

— يجب أول كل شيء أن تصبى إلى قصتى .

وليكن أول ما أرويهِ لك أن أبى كان يملك الفندق المسمى « بالسمة الحمراء » في لودبرى وقد تمودت أن ألبى طلبات العملاء في المشرب

فقال الفتى :

— لقد كنت دائماً أعجب لماذا أشعر بروح

مسيحي يرفرف على هذا الجانوت وحده

فصت الفتاة في حديثها تقول :

— ولودبرى قرية صغيرة هادئة خاملة في

المقاطعات الشرقية ، وكان العملاء الوحيدون الذين يقدون على فندق « السمة الحمراء » هم التجار التجولون ، أما من عداهم فأبشع من يمكن أن ترى من الناس ، وفي اعتقادى أنك لم تر قط أحداً من هذا الصنف من المخلوقات ، فهم رجال ضئال الأجسام معربدون لهم من الدخول ما يمكنهم من أن يعيشوا بين احتساء الخمر والراهنه على الخيل مرتدين أحقر الملابس التى تعد في الواقع أحسن ما يليق بهم .

وحق هؤلاء لم يكونوا كثيرى التردد على فندقنا ولكن كان بينهم اثنان عاديان في كل ناحية من نواحي الحياة .

كانا يعيشان على ما ليهما من مال وكانا كسولين كسلا يضايق الذى يماشرهما ، وقد تمودا أن يرتديا من الملابس أكثر مما تدعو إليه الحاجة . على أنى كنت أرى لحال ذينك الرجلين ، إذ كنت أميل إلى الاعتقاد بأنهما لا يأويان إلى مشربنا الصغير الخالى إلا لأن كلا منهما مصاب بنوع من التشوه يضحك منه الأجلاف من الناس . على أن استمال كلمة « تشوه » في وصفهما قد يكون فيه شيء من التجاوز وقد تكون كلمة « شذوذ » أقرب إلى وصف حالهما ، فقد كان أحدهما صغير الجسم صفراً مدهشاً بكاد يكون قزماً أو غلي الأفل « ركبياً » من أصغر « ركية » الخيل أجساماً . ولو أن منظره لا يتفق في قليل أو كثير مع منظر « الركب » ، كان مستدير الرأس أسود الشعر معنياً بقص لحيته الكثنة السوداء ، ذا عينين تشبهان في بريقهما عيون الطيور يحمل في جيبه كثيراً من النقود ويملق بصدره سلسلة ساعة كبيرة من الذهب ، ولم يحضر مرة إلا مرتدياً أنفراً ما يستطيع أن يرتدى من ملابس ، على أنه لم يكن بالرجل الأبله وإن يكن كسولاً إلى أقصى حدود الكسل ، ولكنه كان من ناحية أخرى بارعاً في كثير من الأمور التى لا فائدة منها ، أكثرها ألعاب بهلوانية ، كأن يحمل خمسة عشر عوداً من الكبريت يشتمل أحدهما من الآخر على التوالي على غرار الألعاب النارية ، أو يقطع ثمرة الموز أو ما يشبهها على مثال العروس الراقصة التى يلعب بها الأطفال ، وكان اسم هذا الفتى إيزيدوزا نمت ، وإنى لا أزال

أتمثل صورته وهو مقبل على الخزانة محركا في يده
خمس سجاجات على مثال ابن آوى في قفزاته

« أما الشخص الآخر فكان أكثر هدوءاً
كما كان أقرب إلى الرجل للمادى من صاحبه ،
ولكنه قد أزعجني بطريقة ما أكثر مما أزعجني اسم
الضئيل المسكين . كان مفرطاً في طول قامته نحيف
الجسم ، خفيف الشعر ، أفنى الأنف لحد يسترعى
النظر ، وكان من المحتمل أن يبدو حسن المنظر في
عين من يراه لولا ما في عينيه من حول لم أراو أسمع
بمثله في إنسان سواء ، فهو إذا نظر إليك مباشرة
لم تعرف أين أنت واقف ولا عبء بالنقطة التي يكون
محدقاً فيها . وأظن أن هذا اللبيب كان يؤلم ذلك
الفتى إلى حد ما . ولما كان اسم يمرض علينا ألعابه
المختلفة لم يكن هذا الفتى ، واسمه جيمس ولكن ، يقدر
على شيء غير أن يزرع غرفة المشرب جيئة وذهاباً
أو يخرج إلى الخلاء فيطيل المشي لنير قصد معين .
وفي اعتقادي أن اسم أيضاً كان يشعر بما في ضالة
جسمه من عيب ولكنه كان دائماً يخفى ذلك اللبيب
بخفة ورشاقة ، لهذا كان من أكبر بواعث اضطرابي
وحيرتي أن تقدم لي الاثنان في وقت واحد طالبين
يدى للزواج

والحق أنني قد أحبتهما ولا أزال منذ ذلك الحين
أعد ذلك نوعاً من الحماقة ، ولكن كان هذان
الرجلان على أي حال صديقين لي ، ولقد أزعجني
أن يتسرب إلي ظنهما أنني أرفض الزواج منهما
لشدة قبحهما . لذلك أردت للتخلص منهما بطريق
لا تؤذي شعورهما فقلت إنني قد اعترمت ألا أتزوج
إلا من رجل يكون قد شق طريقه في الحياة بمجهوده
فن المبادئ التي أدين بها ألا أعيش من مال موروث

من النير كاللادى يعيشان منه . وبعد يومين من
هذا الحديث بدأت المتاعب تتوالى ، فقد كان أول
ما سمعته أن الفتيين قد غادرا القرية ليشتقا طريقهما
في الحياة كما لو كان الأمر قصة خرافية
ومن ذلك التاريخ حتى هذه الساعة لم أر
أحدهما . ولكنني تافيت خطابين من الرجل الصغير
الجسم المسمى اسم ، والحق أنهما كانا خطابين
شائقين إلى مدى بعيد
فسألها أنجوس :

— ألم تسمى قط شيئاً عن الرجل الآخر ؟
فترددت الفتاة لحظة ثم قالت :

— كلا، فانه لم يكتب إلي قط ... وكان الخطاب
الأول من اسم قاصراً على قوله إنه خرج من القرية
مع « ولكن » ماشيين على الأقدام في طريقهما إلى
لندن ، ولكن « ولكن » كان سريع الخطى صبوراً
على المشي فلم يستطع هو أن يجاريه وسقط متعباً
جلس في جانب الطريق يستريح حيث التقطته فرقة
من المهرجين الذين يفرضون ألعابهم على أنظار
الجمهور ، فكان صغر جسمه الذي يجعله أقرب إلى
الأقزام ومهارته في الألعاب البهلوانية الخفيفة سبباً
في حله بين الفرقة محل المنايا حتى لقد أرسل بعد
قليل إلى الأكواريوم لمرض بعض الألعاب التي
نسيها . وهذا هو كل ما احتوى عليه خطابه الأول .
أما الخطاب الثاني فكان أشد تشويقاً وإثارة من
الأول ، وقد تلقته في الأسبوع الماضي فقط
جرح الفتى المسمى أنجوس ما بقي في فنجان
القهوة ونظر إلى الفتاة بعينين تجلت فيهما معاني
الوداعة والصبر ، وما استأنفت حديثها حتى اقتر
نفرها عن ابتسامه خفيفة وقد قالت :

— أظنك قد قرأت في كل مكان أعد للصق الاعلانات هذه الجملة «خدمة اسمت الصامته» والإفانت الانسان الوحيد الذي لم يقرأها . على أننى لا أعرف نوع هذه الخدمة ، وكل ما أستطيع أن أفهمه هو أنها اختراع أشبه باختراع الساعة يؤدي جميع الخدمات البيتية بطريق آلية فتلا «اضغط الزر يأتك الساق الذي لا يشرب أبداً» و «اليد تحضر إليك عشر خدمات لا يغازان أبداً» هذا بعض ما نشر في الاعلانات فلا بد من أن تكون قد قرأته . على أنه مهما يكن من أمر هذه الآلات فإنها قد جمعت ثروة طائلة لذلك القزم اسمت الذي عرفته في لودبرس وما أستطيع إلا أن أشعر بالسرور لنجاح هذا الفتى السكين ولكن الذى يزعمنى الازعاج كله هو أن يعود اسمت إلى هنا ليقول لى إنه قد شق طريقه في الحياة وإنه لقد فعل

فكرر أنجوس سؤاله وقد بدا عليه نوع من الهدوء المجيب :

— والرجل الآخر ؟

فهمت لورا هوب فجأة واقعة على قدميها وقالت :
— إننى لأظنك ساحراً يا سيدى . الحق أنك لى صواب ، فاني لم أر في حياتى سطرأ واحداً من خط الرجل الآخر وليست عندى أية فكرة ولو غامضة عن كنهه ومكان وجوده ، ولكن هو وحده الذى أخافه ، فهو الذى يمترض طريقى دائماً ، هو الذى يكاد يذهب بعقلي ، بل في الحق إننى لأظنه قد ذهب بعقلي فعلاً ، لأننى أشعر به حيث لا يمكن أن يكون ولقد سمعت صوته حيث لا يمكن أن يكون قد تكلم فقال الفتى وقد بدا عليه أثر الانشراح :

— حسن يا عزيزتى ، إنه لو كان هو الشيطان

نفسه فقد قضى عليه الآن نهائياً بعد أن تحدثت بأمره إلى شخص ثالث ، فان الانسان ليكاد يحزن إذا هو عاش منعزلاً عن الناس ، ولكن أنتذكرين الوقت الذى خيل إليك فيه أنك شمعت بوجود صاحبنا الأحول وسمعت صوته ؟
فقال الفتاة في غير تردد :

— لقد سمعت ضحك جيمس ولكن واضحاً كما أسمع حديثك الآن ؛ ولم يكن هناك من أحد - وارى فقد كنت واقفة خارج الحانوت على الناصية أستطيع أن أرى للشارعين في وقت واحد ، ولقد نسيت كيف ضحك ولو أن ضحكته كانت غريبة مثل حوله ولم يخطر ذكرك على بالى حوالى عام كامل ، ولكن ما لا شك فيه أننى شمعت بوجوده بعد ثوان من تسلى الخطاب الأول الذى جاءني من منافسه فسألها أنجوس وقد بدا اهتمامه بحديثها :

— هل حملت خياله مرة على الكلام أو للصراخ أو أى شيء من هذا القبيل ؟

فارتجفت لورا فجأة ثم قالت بصوت غير مضطرب :
— نعم إننى لم أكداً أنتهي من قراءة الخطاب الذى جاءني من ايزيدور اسميت والذى أعلن فيه نجاحه حتى سمعت ولكن يقول « وعلى الرغم من ذلك لن ينالك » وكان كلامه واضحاً كما لو كان جالساً معي في الغرفة ... وهذا أمر مروع وإنه ليخيل إلى أننى قد جئنت

فقال الفتى :

لو أنك كنت حقيقة مجنونة لفكرت في أنك لا بد أن تكونى عاقلة . ولكن يلوح لى من غير شك أن هناك شيئاً عجيباً حول هذا السيد الخفى عن الأعين ، ورأسان خير من رأس واحد فلو سمعت لى أن آتى

بكلمة الزفاف مرة أخرى من الواجهة ...

وبينا الفتى يتكلم سمع في الخارج صوت معدنى رفيع ثم صوت محرك سيارة تجرى في سرعة شيطانية حتى إذا وصلت إلى باب الحانوت وقفت واندفع منها كالسهم فتى ضئيل الجسم على رأسه قبعة عالية لامعة فوقف في وسط القسم الخارجى

فقطع أنجوس حديثه وخرج إلى حيث وقف القادم ووقف منه وجهاً لوجه . فكانت نظرة واحدة كافية لأن تشمره بأن هذا القادم الجديد رجل ملك للفرام عنانه ، وقد عرف فيه أنجوس ذلك الشاب ايزيدور اسمت الذى وصفته له لورا من قبل . هذا هو اسمت الذى جمع من صناعة الساقى الذى لا يشرب والجارية التى لا تفازل ملايين الجنيهات . هذا هو ايزيدور اسمت الذى يصنع المرائس من قشر الموز وأعواد الكبريت . وقف الرجلان لحظة ينظر أحدهما إلى الآخر نظرة الكرم الباردة الغريبة التى تم عن روح المنافسة

على أن مستر اسمت لم يشر قط إلى موضع المنافسة بينه وبين الرجل الواقف أمامه ولكنه قال في شئ من البساطة المزوجة بالحدة :

— هل رأيت مس هوب ذلك الشئ المصق على الزجاج ؟

فكرر أنجوس قول الرجل في لهجة الاستفهام — على الزجاج ؟

فقال المليونير الصغير الجسم

— الوقت لا يتسع لشرح أمور آخر فهنا سخرية

حقاء تستدعى التحقيق

وأشار الرجل بمصاه إلى زجاج الواجهة التى أخرج أنجوس من لحظة أكثر محتوياتها فاذا بشريط

طويل من الورق ملصق على ذلك الزجاج ، فدهش أنجوس لذلك فاما من شك في أن هذه الورقة لم تكن منذ لحظة موجودة حيث هى الآن ، وخرج إلى الشارع وراء المليونير النشط وفحص شريط الورق فوجد طوله يبلغ حوالى ياردة ونصف الياردة وقد دهن بالصمغ وألصق بالزجاج بعناية تامة ، وقد كتب عليه بخط مشوه : « إذا تزوجت من اسمت فسيموت » فدا أنجوس رأسه الأحمر الكبير داخل الحانوت وصاح :

— لورا . . . إنك لست مجنونة

فقال اسمت في شئ من الخشونة :

— هذا خط ذلك الرجل « ويلكن » ، إنى لم أراه منذ سنوات ولكنه مازال يضايقنى ، ففى الخمسة عشر يوماً الماضية وجدت فى مسكنى خمسة خطابات تهديد منه وصلت إلى البيت بطريق خفية . ولقد أقسم البواب أنه لم ير إنساناً ممن يمكن أن توجه إليه أية شبهة قد دخل البيت . ثم هذا هو يلصق على زجاج الحانوت هذا النوع من التهديد الملقى بينا القوم الذين فى الداخل . . .

فقال أنجوس فى تواضع :

— صدقت ! بينا القوم الذين فى الداخل كانوا يشربون الشاي . الحق ياسيدى أننى معجب بأسلوبك فى معالجة الأمور بمثل هذه الصراحة . ويمكننا أن نتكلم فى المسائل الأخرى فيما بعد . أما الآن فإن الرجل الذى ألصق هذه الورقة لا يمكن أن يكون قد أبتعد كثيراً عن هذه النقطة فاني أؤكد لك أن هذه الورقة لم تكن حيث هى الآن عند ما جئت إلى الواجهة منذ عشر أو خمس عشرة دقيقة على الأكثر . غير أننى أرى من ناحية أخرى أنه

والحق أن هؤلاء الخدم الصامتين ليعضون حاجاتك بأسرع مما يقضيها الخدم الأحياء لو أنك عرفت أى زر تضغط . على أنى لا أنكر أنه كما لهذه الأدوات مميزات فإن لها أخطاءها أيضاً .
فسأله أنجوس :

— حقاً ؟ أهناك ما لا تستطيع أن تعمله ؟

فأجاب اسميث فى هدوء :

— نعم فإنها لا تستطيع أن تخبرنى من الذى

ترك لى هذه الخطابات التهديدية فى بيتى

كانت سيارة الرجل صغيرة وسريعة مثله وهى كأدوات الخدمة من صناعته ، تقطعت بهما فى دقائق قليلة مسافات بعيدة فى ذلك الركن من إنجلترا الذى يشبه فى جمال مناظره الطبيعية ناحية ايدنبرج .

وأخيراً وصلا إلى هملايا مانسوتز ولا تزال فى الوجود بقية من نور النهار ، وما اجتازت السيارة المنحني حتى رأى الرجلان فى إحدى ناحيتي الطريق رجلاً يبيع البندق وفى الناحية الأخرى جندياً من جنود البوايس ، وكان هذان كل من وجد فى هذه الساعة على مقربة من بيت اسميث ، وكان شخصاهما ساعة للفسق أشبه فى نظر أنجوس بشبهين من أشباح التاريخ ...

وقفت السيارة فجأة أمام البيت ، واندفع منها صاحبها يسأل ساعياً طويلاً القامة يرتدى ملابس رسمية براقة ، وبواباً يلبس قميصاً قصيراً الإكمام عما إذا كانا قد رأيا أحداً يدخل إلى الدار أو أن شيئاً غير عادى قد حدث فى أثناء غيابه . فأكد له الرجلان أن لا أحد دخل البيت وأن لا شيء حدث منذ رآهما آخر مرة . فدخل هو وأنجوس إلى البيت واستقلا المصعد الذى اندفع بهما صاعداً فى سرعة البرق إلى الطابق الرابع

أبعد من أن نستطيع اللحاق به لأننا لا نعرف الاتجاه الذى سار فيه . وإذا قبلت نصيحتي يامستر انميث فاني أنصح لك بأن تعهد بهذا الأمر إلى رجل إخصائى فى تقصى الأخبار واني أفضل أن يكون رجلاً خاصاً على أن يكون من ارجال الرسميين ، واني أعرف رجلاً ماهراً جداً فى هذه المهنة لا يبعد مسكنه عن هنا أكثر من مسافة خمس دقائق فى سيارتك واسمه « فلامبو » وعلى الرغم من أنه كان فى شبابه محوطاً بكثير من الشكوك فإنه الآن رجل شريف جد أمين وآراؤه تساوى المال الكثير ، ومقره فى لا كنو مانسوتز هامبستد .

فقال ارجل الصغير الجسم وقد تقوس حاجبيه الأسود :

— هذا غريب فاني أنا نفسي ساكن فى همالايا مانسوتز بمد المنحنى . ولملك تتكرم بمراققتي ، فسأذهب إلى بيتى لأعداد هذه المستندات المعجبية التى جاءتني منه ولكن بينما تذهب أنت لاحتضار صاحبك البوايس السرى الخاص .

فقال أنجوس فى كثير من الأدب :

— أحسنت ، فكلما أسرعت كان ذلك خيراً وحيا الرجلان الفتاة ثم استقلا السيارة ، فما كادت تجتاز منحني الشارع حتى رأى أنجوس اعلاناً كبيراً من « خدمة اسميث للصامته » وفيه صورة عروس كبيرة من الحديد من غير رأس تحمل فى يديها وعاء كبيراً وقد كتب عليها « الطاهية التى لا تقضب أبداً » .

فقال الرجل المنحنى ضاحكاً :

— إننى أستعمل هذه المخترعات فى بيتى للاعلان من ناحية وللخدمة الحقيقية من الناحية الأخرى .

وقال اسميث لصاحبه :

— أرجو أن تتفضل بالدخول والانتظار لحظة حتى أحضر لك خطابات ويلكن، وبمذ ذلك تذهب إلى الناحية الأخرى من الطريق فتدعو صاحبك وضغط اسميث زراً غتفياً في الجدار فانفتح باب مسكنه من تلقاء نفسه ، وبتفتح الباب على ردهة صغيرة كل ما فيها من الأثاث صفان من الأشخاص الميكانيكية واقفين على الجانبين أشبه بنماذج الخناطين ، وهي مثلها بلا رؤوس وإن كانت بارزة الصدور مملوءة الأكثاف ، ولكل منها خطافان يملآن عمل الأيدي والسواعد في حل الصواني ، وما كاد الباب يفتح حتى رأى اسميث في يد أحد هذه الأشخاص ورقة بيضاء مكتوبة بالخبر الأحمر لم يكن مدادها قد جف بعد . فاختطفها الرجل وناولها لأنجوس وكان هذا هو نص ما كتب فيها : « إذا أنت رأيته اليوم فسأقتلك »

وسكت الرجلان لحظة ثم قال إيزيدور اسميث :

— أتشرب قليلاً من الوسكي قاني أشعر أن

بي حاجة إلى القليل منه .

فأجاب أنجوس في شيء من الكآبة :

— شكراً ، ولكنني أفضل أن أرى فلامبو

فهذه المسألة تزداد جساماً فلا أذهب لأحضره في الحال

فقال الآخر وعليه من مظاهر الانشراح ما يدعو

إلى الإعجاب :

— أحسنت فلتحضره إلى هنا بأسرع ما تستطيع

ولكن لم يكده أنجوس يقفل الباب الخارجي

وراءه حتى رأى اسميث قد ضغط أحد الأزرار

فتحرك إحدى الجوارى الميكانيكية وتقدمت حاملة

صينية فوقها معدات الشراب . فشمع أنجوس بشيء

من الخوف على الرجل الصغير أن يترك وحيداً بين هذه الدى الميكانيكية التي دبت فيها الحياة على أثر إغلاق الباب

ولم يهبط أنجوس ست درجات من درجات

السلم حتى وجد البواب منهمكاً في بعض العمل

فأوصاه وهو يناوله قطعة من النقود بأن يبق في مكانه

إلى أن يعود وأن يرقب أي أجنبي يصعد السلم ،

حتى إذا خرج من باب المارة أوصى الساعي الواقف

أمام الباب بمثل هذه الوصية ، ومنه علم أن ليس

للبنية باب خافي ، ولم يكتف بذلك بل دعا رجل

البوليس الذي يمر في الشارع وطلب منه أن يرقب

مدخل البيت إلى أن يعود ، وترك رجل البوليس

إلى بائع البندق فسأله كم من الوقت يعتزم البقاء حيث

هو ، وكان الرجل قد رفع ياقته مستعداً للذهاب لأنه

يتوقع أن يتساقط الثلج . ولكن أنجوس رجاء أن

يبق في مكانه وأن يأكل كل مامعه من البندق وقال إنه

سيمطيه جنباً متى عاد على أن يرقب المدخل وبخبره

إن كان قد دخل البنية أي رجل أو امرأة أو طفل .

فلما انتهى من إعداد هذه التحوطات سار

مسيحياً بعمله فائلاً نظرة أخيرة إلى الحصن الذي

أحاطه بهذا الجدار المحكم وقال يحدث نفسه :

— لقد أحطت البنية بحلقة قوية ولا يمكن

أن يكون هؤلاء الأربعة جميعاً من شركاء مستر

ويلكن

كان مسكن مستر فلامبو في الطابق الأول من

بنية لا كنو مانسوتز ، وكان بسيط الرياش ، فلما وصل

إليه أنجوس تلقاه صاحب الدار في غرفة فيها بضعة

مقاعد وكل زينتها أنواع من السيوف والقطع

الأثرية الشرقية ، وكان يجالس فيها في هذه الساعة

قسيس كاثوليكي كان وجوده في هذا المكان في نظر
أنجوس في غير موضعه

فقال فلامبو :

— هذا صديق الأب برون ولكم وددت أن
تقابله . الجو جميل الليلة ولكنه بارد قليلاً بالنسبة
لرجل مثل من أهل الجنوب
جلس أنجوس على أحد الكراسي الشرقية
وهو يقول :

— نعم الجو جميل وأظن أنه سيستمر محمواً

ولكن القسيس أجاب في هدوء :

— لا ، فقد بدأ الثلج يتساقط

وفعلًا كانت قطع الثلج الذي تنبأ بائع البندق
ب سقوطها قد بدأت تصدم زجاج الشباك وتلتصق به
فقال أنجوس :

— الحق أني أتيت في مهمة خطيرة تدعو إلى
الاسراع . والأمر ، يا فلامبو ، أنه على مسافة مرمى
الحجر من بيتك رجل أشد ما يكون حاجة إلى
مساعدتك ، فهو ملاحق ومهدد بمذو غير ظاهر
وشق لم يستطع أحد أن يراه

ولما بدأ يروي قصة اسميث وويلكن وعلاقة
لورا بهما والضحكة المزججة ، وفي الجملة تفصيل
ما سمعه ، بدأ الاهتمام الشديد على فلامبو في حين
جلس للقس كقطعة من الأثاث لاعلاقة لها بالحديث .
فلما وصل أنجوس إلى التحدث عن قطعة الورق التي
وجدت ملصقة على واجهة الحانوت ثم فلامبو واقفاً
وكأنه قد ملأ الغرفة بكتفيه المريضين وقال :

إذا كان لا يضايقك أن تروي لي بقية القصة
في أقصر طريق يوصل إلى بيت هذا الرجل كان
ذلك خيراً ، فانه ينجيل إلى أن ليس لدينا متسع من

الوقت نضيمه في الحديث هنا

فوقف أنجوس وهو يقول :

— يسرني ذلك وإن كنت الآن مطمئناً على
صاحبي فقد أوقفت أربعة رجال لمراقبة المدخل
الوحيد المؤدي إلى مسكنه

نخرج الرجلان إلى الطريق يتبعهما القسيس
الضئيل الجسم كالكب الأمين يتبع صاحبه ، وكان
كل ما قاله أثناء الطريق وقاله في أسلوب مرح هو :

— ما أسرع ما يتراكم الثلج على الأرض !

وقبل أن يصل الرجال الثلاثة إلى الشارع
الواقعة فيه البناية كان أنجوس قد انتهى من سرد

قصته ، فلما وصل إلى قريب من البيت تطلع يبحث
عن الرجال الأربعة الذين عهد إليهم بالمراقبة ، حتى
إذا وجدهم حيث تركهم بدأ بسؤال بائع البندق الذي
أقسم مؤكداً قبل أن يتسلم الجنيه وبمد أن تسلمه
أنه لم ير أي زائر قد دخل البيت ، وكان رجل
البوليس أشد من البائع توكيداً ، وقد قال إنه تمود
معرفة اللصوص من كل نوع لا يخدعه تخفيهم
وراء الملابس الثمالية والقبعات العالية ، فهو لا يقتصر

في تعرف المشبوهين بما يبدو من أعمالهم التي توجه
الشبهة إليهم ، وهكذا وكدا أنه لم يدخل البيت أي
إنسان ... أما الساعي ذو الملابس للبراقة فقد كان
لا يزال واقفاً عند مدخل الباب يتنسم ابتسامته
المريضة ، وكان توكيده أشد من صاحبيه فقد قال :

— إن لي الحق في أن أسأل أي إنسان دوقاً

كان أو كنياساً ، ماذا يريد من دخوله هذه البناية ،
وإني لأقسم أنه لم يحضر منذ خروج هذا السيد

أي إنسان يستدعي الأمر سؤاله

وكان الأب برون واقفاً لا يكثر أحد لوجوده

فلما سمع هذه الكلمات تدخل في الموضوع ، فقال في لهجة فيها شيء من التهكم :

— إذن لم يصعد أحد الدرج ولم يهبطه منذ بدأ الثلج في السقوط ؟ ولقد بدأ على ما أذكر ونحن في بيت فلامبو

فقال الرجل الرسمي وهو يضعك ضحكة ذى النفوذ :

— لا يا سيدي ، لم يأت أحد قط إلى هنا ، وكن واثقاً من قولي هذا

فقال القسيس وقد نظر إلى الأرض بسنين تشبهان عيون السمك :

— إذن إنى لأعجب ، ما هذا ؟

فنظر الجميع إلى حيث ينظر القسيس فنلفظ فلامبو بلفظة شديدة مشيراً إشارة فرنسية ، فقد كان هناك بالفعل على الأرض وسط المدخل وبين ساقى هذا الساعى الكبير الجسم آثار أقدام غبراء فوق الثلج الأبيض

فصاح أنجوس عن غير قصد :

— إلهي ... الرجل الخفي !

ودون أن ينطق بكلمة أخرى اندفع ساعداً الدرج يتبعه فلامبو ، أما الأب برون فقد بقي واقفاً حيث هو ينظر إلى الشارع المغطى بالثلج وكأنه قد أهمل شأن الطريدة

وكاد فلامبو يكسر الباب بكتفه القوي ولكن الفتى الاسكتلندي تحسس بيده إطار الباب حتى هتر على الزر الخفي فضمنه فبدأ الباب يفتح على مهل وكان المدخل والردهة على حالهما لولا أن اثنتين من الهدى الحديدية قد تحركتا من مكانهما لقضاء بعض الأعمال على ما يظهر ، وكانت الشمة قد بدأت تخيم داخل الدار لولا بقية من شعاع الشمس الغاربة ،

وهناك وسط الهدى حيث وجدت قطعة الورقة رأي أنجوس على الأرض بقعة حمراء كأنها بقعة مداد انسكبت من دواة ولكنها لم تكن من المداد فصاح فلامبو في لهجة جمت بين الغضب وبين الألفاظ للفرنسوية قائلاً :

— جنابة قتل !

ثم انطرح على الأرض قاحصاً وبمد فترة كان الرجلان يفتشان كل نقطة في البيت ليتمثرا على إيزيدور اسميث حياً أو ميتاً فلم يجدا له أثراً ، ثم تقابلا وجهاً لوجه بعد البحث الدقيق ، فقال فلامبو متكهما بالفرنسية من شدة تأثره :

— يا صاحبي ... إن القاتل لم يخنف وحده ولكنه أخفى القاتل أيضاً

فنظر أنجوس حوله في الغرفة المظلمة وأحس برعشة خفيفة داخل نفسه ، فقد كانت إحدى الهدى واقفة بحيث يسقط ظلها على نقطة الدم وكانت ساعدها مرفوعة قليلاً ، فخطر له أن تكون هذه الساعدي التي أصابت اسميث فقتلته وهكذا تكون المادة قد تارت وقد قتلت هذه المخلوقات الآلية خالقها ولكن حتى في هذه الحالة يترسنا هذا السؤال للطبيعي : « ماذا فعلت هذه الهدى بقتيلها ؟ »

فالتقى الوم الخفيف في أذنه هذه الجلة في لهجة الاحتفهام :

— أكلته ؟

فساخت نفسه لمجرد التفكير في أن جسماً بشرياً يتلاشى ويهضم في جوف هذه الآلات الميكانيكية واسترد أنجوس ثباته بشيء من المجهود النفسي وقال يخاطب فلامبو :

— نحن الآن أمام أمر واقع ، لقد تبخر الرجل

المسكين كما تبخر السحب ولم يترك وراءه غير بقعة حمراء على الأرض . وهذا أمر لا يتصل بعالمتنا الدينوى .

فقال فلامبو :

— هناك شيء واحد يجب عمله فسواء أكان الأمر متعلقاً بهذه الدنيا أم بالآخرة، لا بد لي من أن أنزل فأتكلم مع صديق .

ونزل الرجلان فورا بالبواب الذى كان لا يزال منهما كما فى عمله وقد أكد لهما مرة أخرى أنه لم يدع أي متطفل يدخل إلى الدار ، ثم وصلا إلى السامى فى الملابس اللامعة فوجداه حيث تركاه وقد كرر توكيده أن إنساناً لم يدخل البيت ، وكذلك وجدوا بائع البندق الذى كرر هو أيضاً مثل هذا التوكيد ولكن عندما بحثا عن الحارس الرابع رجل البوليس لم يجداه فصاح أنجوس فى حال عصبية :

— أين رجل البوليس ؟

فقال الأب برون :

— عفوا فقد أرسلته للبحث فى أمر وجدته يستحق البحث والاستقصاء .

فقال أنجوس فى لهجة قاطمة :

— حسن ولكننا أشد ما نكون حاجة إلى عودته فإن صاحبنا المسكين لم يقتل فقط ولكنه قد اختفى وزال كل أثر له .

فسأل النفس :

— وكيف كان ذلك ؟

فقال فلامبو بمد قليل من التردد :

— إننى لأعتقد يا أبى أن الأمر أدخل فى باب اختصاصك منه فى باب اختصاصى . فإن البيت لم يدخله صديق ولا عدو وعلى الرغم من ذلك قد

سرق اسميث كما لو تكون المفاربت قد اختطفته ، فأنما لم يكن هذا أمراً خارقاً للطبيعة فأنى ...

وقطع الحديث وصول رجل البوليس فى ملابسه الزرقاء جارياً يلهث حتى وقف أمام الأب برون وقال :

— صدقت يا سيدى فأنهم وجدوا جثة المسكين مستر اسميث ملقاة هناك فى القناة

فلطم أنجوس رأسه بيده لكمة شديدة وسأل :

— هل جرى إلى القناة وانتحر غرقاً ؟

فقال رجل البوليس :

— إننى أقسم أنه لم ينزل من البيت ثم هو لم يفرق نفسه أيضاً ولكنه مات مقتولاً بطعنة بالغة فوق القلب

فقال فلامبو فى صوت خشن :

— ومع ذلك لم تر إنساناً يدخل البيت ؟

فقال الراهب :

— فلنمش قليلاً فى الطريق .

فلما وصلوا إلى الجانب الآخر من الطريق قال

النفس :

— ما أشد غباوتى ، لقد نسيت أن أسأل رجل

البوليس إذا كانوا قد وجدوا كيساً رمادى اللون

فسأل أنجوس متدهشاً :

— ولماذا يجدون الكيس الرمادى اللون ؟

فقال الأب بروك :

لأنه إذا كان الكيس من لون آخر فيجب أن

تبدأ القضية من جديد . أما إذا كان الكيس رمادياً

فقد انتهت القضية

فقال أنجوس وفى لهجته تهكم صادر عن اعتقاد

— يسرنى أن أسمع هذا الكلام ، فإن للقضية

فيا يتصل بملئى لم تبدأ بمد

فقال فلامبو فى سداجة متناهية كسداجة الطفل :

— يجب أن نخبرنا بكل شيء

كان الرجال الثلاثة يسرون بخطى تزداد سرعتها عن غير قصد حتى قطعوا مسافة غير قليلة على الجانب الآخر من الطريق . وكان الأب برون يتقدمهم صامتاً وقد بدا عليه شيء من الوجوم . وأخيراً قال في غموض يسترعي النظر :

— الحق أني أخشى أن تظنوا الأمر جد ممل فنحن دائماً نبدأ من الطرف الخامض في الموضوع ، وإنك لن تستطيعا بدء هذه القصة من ناحية أخرى « ألم تلاحظا قط هذا الأمر — إن الناس لا يجيبون أبداً عما يسألهم الانسان عنه ؟ إنهم دائماً يجيبون بما تقصد أنت أو بما يتوهمون أنك تقصده . ولنفرض أن سيدة سألت سيدة أخرى تسكن بيتاً من بيوت الريف : « هل يقيم أحد معك ؟ » فإن للسيدة لن تجيب : « نعم ، إن مي في البيت الساقى وثلاثة من الرجال وخادم من النساء » إلى غير ذلك على الرغم من أن الخادمة قد تكون في هذه اللحظة واقفة في الغرفة والساق قد يكون واقفاً وراء كرسيها . ولكنها تقول : « لا يوجد مي أحد في البيت » وقصدها « أحد » فمن تعني أيها السائل . ولكن افرض أنت طبيباً موكلاً باتخاذ بعض الاجراءات الصحية سألها : « من يقيم في هذا البيت ؟ » عندئذ تتذكر السيدة الساقى والخدم جميعاً لا تنسى منهم أحداً . واللغة كلها تسير على هذا النمط ، فإليك ان تحظى على سؤال توجهه لأي إنسان بجواب يتفق مع حرفة هذا السؤال حتى وإن كان الجواب صادقاً ، فهؤلاء الرجال الأربعة الأمناء عند ما قالوا إنه لم يدخل البناية إنسان ما لم يقصدوا في الواقع مطلق إنسان ، ولكنهم قصدوا « الانسان » الذي يمكن

أن يشتبهوا في أنه « الانسان » الذي تبحثان عنه فما من شك في أن إنساناً قد دخل البناية وقد خرج منها ولكنهم لم يلاحظوه

فسأل أنجوس رافماً حاجبيه الجراوين :

— رجل خفي ؟

فأجاب الأب برون :

— خفي معنوياً

وبعد دقيقة أو دقيقتين استأنف القس كلامه

في نفس اللجة المتواضعة فقال :

— إن الانسان يحكم الطبيعة لا يستطيع أن

يفكر في مثل هذا الرجل إلا إذا فكر فيه فعلاً .

وهذا هو مبحث مهارته . ولكنني استنطعت أن أفكر

فيه من خلال أمرين أو ثلاثة أمور صغيرة في القصة

التي رواها لنا مستر أنجوس : الأول ما قاله من أن

ذلك الرجل ويلكن تمود أن يسير مسافات طويلة ،

والثاني الورقة التي ألصقت على واجهة الخانوت ،

وبأني بعد ذلك المسألان اللتان ذكرتهما السيدة

الصغيرة واللذان لا يمكن أن تكونا حقيقتين

وهنا بدت من مستر أنجوس حركة فجائية فقال

القسيس وهو مستمر في حديثه :

— أرجو ألا يضايقك كلامي ، فقد اعتقدت

هي أنهما حقيقتان ولكنهما لا يمكن أن تكونا

حقيقتين ، فمن المستحيل أن يكون الانسان وحيداً

في الطريق قبل أن يصله خطاب ما يضيع ثوان ،

ولا يمكن أن تكون وحيدة في الشارع في اللحظة

التي بدأت تقرأ فيها الخطاب ، فلا بد أن يكون على

مقربة منها إنسان ما ، وهذا الانسان لابد أن يكون

خفياً معنوياً

فسأله أنجوس :

— ولماذا لا بد أن يكون هناك إنسان على مقربة منها ؟

فقال الأب برون :

— لأنه فيما عدا الحمام الزاجل لا بد أن يكون إنسان قد أحضر لها الخطاب

فسأل فلامبو وقد بدا عليه النشاط :

— أتريد حقاً أن تقول إن ويلكن هو الذي حمل خطاب منافسه إلى خطيبته ؟

فأجاب الراهب :

— نعم لقد حمل ويلكن خطاب منافسه إلى خطيبته وكما ترى لا بد أن يكون قد فعل

فصاح فلامبو :

— إننى لا أستطيع أن أتحمّل أكثر من هذا ، فمن هو هذا الإنسان ؟ وما هو منظره ؟ وكيف يكون تكوين الرجل الخلق معنوياً ؟

فأجاب القسيس على الفور وفي لهجة للتوكيد :

— إنه يرتدى ملابس أنيقة تجمع ألوانها بين الأحمر والأزرق والذهبي ، وفي هذا اللباس الجذاب

بل والخادع دخل الرجل هميلا مانسوز أمام ثمانية

أعين ترقبه ، وقتل اسميت وهو ثابت مطمئن ثم عاد

إلى الشارع يحمل القليل بين ساعديه ...

فوقف أنجوس جامداً وقال :

— أيها السيد المحترم ، هل جنت أم أنا الذي جن ؟

فقال الأب برون :

— إنك لست بمجنون ، ولكنك لست شديد الملاحظة ، لأنك مثلاً لم تر إنساناً مثل هذا ...

وخطا القسيس ثلاث خطوات واسعة للامام

فوضع يده على كتف رجل من سعاة البريد الماديين

مرا إلى جانبهم تحت ظلال الأشجار دون أن ينتبهوا إليه

واستمر الراهب يقول وهو منهمك في التفكير — إن الإنسان لا يتنبه عادة إلى سعاة البريد ، على الرغم من أن لهم عواطف كغيرهم من الناس ومن أن في مقدورهم أن يحملوا أكياساً كبيرة لا يصعب أن يختفي داخلها جسم إنسان صغير الحجم وبذل أن يتلفت ساعي البريد تلفتاً طبيعياً مال ووقع على الأرض مرتطفاً بسور الحديقة . وكان رجلاً نحيلاً خفيف شعر اللحية عادي النظر ، ولكنه حين أدار وجهاً غمره الجزع أخذ الرجال الثلاثة بما في غيبه من حول شيطاني مروع

عاد فلامبو إلى مسكنه حيث ينهك بين سيوفه وأبسطة القرصية وقطه المعجمي منجزاً ما لديه من أعمال ، وعاد جون ترنبول أنجوس إلى فتاة الحانوت التي بذل أقصى جهده في التلطف لها . أما الأب برون فقد مشى عدة ساعات ساعداً تلك التلال المنطاة بالثلج تحت نجوم الليل في محبة قاتل ، ولن يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث ...

عبد الحميد محمد

أغلب المؤلفات
الاستاذ الشايب
والكتاب
الاستاذ الصالح
مكتبة الزرقاء شارع الفلكي لا بلدي
مكتبة الصبية الشهيرة

ذِكْرُ الْمَرْأَةِ

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّة
بقلم الأديب عبد الحكيم العشيري

وشمرت وهذه الذكريات
تتري على غيلتي بشعور مبهم
مختلط... شعور من يعود فجأة
وبلا إنذار إلي ماضيه، ليحيا في
بعض أيامه مرة ثانية، ويزيل
تراب النسيان عما سلف من
حوادثه.

كانت تلك المرأة يوم عرفتها

في الأربعين من عمرها، وإن كانت تبدو في الخمسين،
ذات جسد متهدم، ووجه ذابل تظهر في أضعافه
آثار جمال تولى، وكان أعجب ما فيها بسمه وهبتها
لها الطبيعة، بسمه ذاهلة حائرة لم تكن تختفي عن
شفيتها إلا قليلاً، وعيون ضيقة زاوية تفصح أعماقها
عن الداء الرهيب الذي ورتته هذه المرأة عن أسرتها،
وداء الجنون والعته.

ولم يكن لها زوج، كلاب كان لها هذا الزوج
وتوفي بعد أعوام قليلة من معاشرته لها، ولكن
كانت لها ابنة، ابنة في سن العشرين أو تزيد حلت
ضيقة على المارستان منذ بلغت سن الثانية عشرة.

وكان أكبر ما أدهشني مما عرفتته عن هذه
المرأة، أنها تشرب الخمر، وتضع منزلها كل مدة ما
تحت تصرف رجل تجتذبه إليها بما لها ليعاشرها فيه
معاشرة الزوج لزوجته دون أن تربطهما رابطة زواج
شرعي. حتى إذا شبع من معاشرته نبذته ليأتي
دور رجل غيره...

وكانما خلق الله هذه المرأة مجموعة من المتناقضات
والمجانب، وكانما وضع فيها أشنع صفات مخلوقاته،
وأقذر غرائز المرأة وأخلاقها، وأشد طباعها.
وكنت في تلك الأثناء التي عرفتها فيها أسمع

ما أحسبني كنت أذكرها بعد ذلك للنسيان
الطويل، لو لم أسمع في تلك القرية النائية من قرى
مصر، وفي تلك الأمسية الساجية من أمسيات
الريف النارق أبداً في الهدوء، هذا الرجل الريني
وهو يغنى في صوت حزين (الموال) الشهور المنتشر
بين جل أهل الريف الذي مطلعته:

« يا عم ياللي بلا خال تعال اعملك خالي »

« واحط قلبي الملان على قلبك الخالي »

لقد كان ذلك (الموال) وهذا الرجل يغنيه
بعيد إلى ذهني ضروبا من الذكريات متباينة مختلطة،
إذ كان يرتبط بشيء نسيته منذ زمن بعيد، بقصة
امرأة عجيبه ماتت كنت أسممها تغنيه حينما كانت
تعيش...

لم يكن الصوت القديم، صوت تلك المرأة
وهي تغنى ذلك (الموال)، قد بقي منه في أذني
سوى أثره المافي، ورغم ذلك فقد جدد صوت
الرجل الريني وهو يردد ويرجع (مواله). فمدت
أسممه من جديد بكل ما كان فيه، بنبراته الباكية
الكثيرة، وأنغامه المضطربة الناعمة، وكان كلما تجدد
في أذني جدد معه ذكريات تلك الحقة من حياتي
التي عشتها وهذه المرأة تعيش وأراها وأسمع عنها.

عن طيشها وتصرفاتها وأعمالها قصصاً غريبة .
وأرى من هذا الطيش وهذه التصرفات والأعمال
أيضاً الشيء الكثير الغريب ...

قيل لى ذات يوم إنها شربت زجاجة خمر من
زجاجات الخمر الرخيصة التى يبيعها « ديمترى »
فى دكانه الصغير بالقرية التى كنت أعيش بها وتعيش
بها ، فلما ذهبت الخمر بوعيا انطلقت فى دروب
القرية وطرقاتها سكرى تفوح من فيها رائحة الخمر ،
وراحت تصبح بصوت ثمل وهى تضحك ضحكات
فارغة عالية مدوية :

— هكذا يجب أن تكون الحياة: خمر وطرب..
ثم ذهبت تسب من كانوا فى طريقها من الناس ،
فاجتمع حولها الصبية وظفقوا يقذفونها بالطوب ،
ويعمرونها بالتراب ، حتى لم تعد تحتل عيهم
فسقطت على الأرض تصبح بكلام غير مفهوم ،
ولم يرحمها الصبية عند هذا الحد بل ازداد تشكيلهم
بها ، حتى نحدث حركتها واستكانت فى رقبتها
على الأرض تنظر إليهم بعين ابتدأت تى وتفهم
وتتألم ...

ولم تستطع للمود إلى بيتها فى ذلك اليوم
إلا بمساعدة بعض الناس ...

ورأيت أنا بعينى مناظر كثيرة لهذه المرأة وهى
تهان على هذه الصورة عقب شربها للخمر وتسلط
شيطان الخمر على عقلها .

وكأنما لم يكفها ما أصابها من جنون ورائى ،
فأصيت أيضاً بجنون الخمر وهو شر جنون .

ولا أعرف لم لم تنقل هذه السكينة إلى المارستان
ولم للسبب فى ذلك هو بعدها عن عيون من فى
استطاعتهم نقلها إليه ، وعدم وصول أخبارها إلى

أولى الشأن فى هذا الشأن .

وقابلت هذه المرأة يوماً ، فرحت أنصحها بترك
الخمر وهجر الطيش ، فنظرت إلى بعينين نفدت
نظرتهم إلى أعماق وقالت ساخرة :

— عشنا لنرى أولادنا ينصحوننا ، يا صغبرى
المريز احتفظ لنفسك بهذه النصائح اللذالية . وظلت
على طيشها وجنونها بل تبادت فيهما .

وفى ذات مساء شهدت وهى تتخلص من رجل
كان يماشرها وتماشره فلتته ، كانت تقول له وهو
جالس القرفصاء فى ركن من أركان إحدى غرف
منزلها الصغير ، وعلى وجهه دلائل الخوف ، وفى
عينيه وميض الشقاء المقبل الذى سيمود إليه بمد
أن استمتع بحلاوة الحياة ونعيمها وراحتها بجوار
هذه المرأة .

— فى صباح الغد يجب أن تجمع ثيابك باطنلى
الفر ، وتذهب إلى حياتك التى انتزعتك منها مدة ما
فلن أستطيع أن آويك أكثر من ذلك ...

فتلقى كلماتها ساكناً وهو ينظر إليها نظرة
المحروم ، أو المطرود من دار حلاوة ليس له حق المعارضة
فى طرده منها

وعادت المرأة تقول وقد شاعت فى وجهها فرحة:

— وسوف آتى فى القريب برجل آخر من
نوع آخر أبوه مكانك ...

وظهر على الرجل أنه يكاد يبكى ، ولكنه تماسك
واستطاع أن يبدد ما ظهر عليه ..

وهكذا تخلصت من رجل ممن تتخذه أزواجاً
أو بالمعنى الصحيح أشباه أزواج ..

وبعد أيام قيل لى إنها اتخذت زوجاً جديداً ،
وقد رأيته ... وكان فتى ما يزال أخضر الشارب ،

مديد القامة في امتلاء ، على كثير من الوسامة وإن كانت تقاطيع وجهه تنبئ بنفس شريرة أئيمة وتنبعت أخبار حياتها مع هذا الفتى مدة ما ، ثم شغلتنى شواغل الحياة عن ذلك بضعة أشهر قيل لي بعدها إنها تركته وإنها تبحث لها عن رجل آخر جديد ، ويشاء الله أن يوقمها في الحب فتنسى البحث عن هذا الرجل ...

ولم أصدق في أول الأمر أنها وقعت في شرك الحب ، ولكن الدلائل على ذلك كانت كثيرة فصدقت. ولقد يكون غريباً أن تحب امرأة كذلك ، والواقع أنى لا أزال أعجب من هذا إلى الآن ...

ومن أحببت ؟.. أحببت ضابط (نقطة) القرية الذى طالما أتى بها في سجن « المركز » والذى طالما أمر عسكره بجلدها لانطلاقها في الطرقات سكرى. لكأنما لم تدع هذه المرأة شيئاً غريباً شاذاً دون أن تأخذ منه بقسط

وبدأت أهتم بالمرأة وبأخبار حبها ، وكثيراً ما كان يرسم في مخيلتي قلب امرأة في الأربعين من عمرها وقد عادت تجرى فيه دماء الحياة والشباب والحب بمد أن شاخ وهم ، فأقول لنفسى إن الله قادر على كل شيء يحى المظالم وهو رميم وانقضت على هذا الحب تسعة أسابيع ، وزرت ضابط « نقطة » القرية ، وكانت لي به معرفة ازدادت أخيراً ، ورأيت أن أتحدث معه في أمر تلك المرأة المعجبية التى تحبه ، فقلت له :

— هل أتاك نبأ تلك المرأة التى تحبك ؟
ففهم على الفور أى امرأة أعنى ، وتبسم وهو يقول :
— طبعاً . ولكنى أعجب كيف أحببتى هذه المرأة المجنونة ...

قلت : أوافق أنها تحبك ؟
قال : هذا ما يبدو لي ...
قلت : وماذا ترى في ذلك ؟
قال : لا شيء . لقد قلت لك إنها امرأة مجنونة . ثم سمعت لحظة وأردف ضاحكاً :
— دعنى أحدثك عن حادث عجيب ، أو قل مضحك جرى لي معها منذ أيام ...
قلت على الفور : هات ما عندك . أسرع فراح يحدثنى :

— كنت مضطجماً على أريكة في إحدى غرف منزلى لأستريح بعد أن قضيت يوماً كله عمل وكد وجأه انفتح باب الغرفة ، ودخلت على تلك المرأة تترنح ثملة ورائحة الخمر تنبعث من فمها ، وحينما رأتنى اندفعت تجرى إلى ، ومالت على تدني من فى جبينها المنض الكريه وهى تنغم في صوت لاهت ثمل مثلها :
« هيا قبلى أيها الحبيب ، على جبينى هنا ، فانى أخاف أن تأنف من تقبيل فى فى الذى لوثنه الخمر هيا فقد تشاجرت بسبب هذه القبلة مع الشرطى الذى يقوم على خدمتك ، حينما أراد منى من القدوم إليك ، واضطرت في آخر الأمر إلى حبسه في « المطبخ » وإغلاق بابه عليه بالفتاح ، هيا ولا تدعنى أنتظر فإن قواى تتلاشى من التعب الذى سببه لي هذا الشرطى العنيد »

وكانت رائحة الخمر المنبعثة من فمها تضابق أنفاسى وكان جبينها بنضونه وقذارة شكله يثير فى نفسى الاشتزاز ؛ فاستجمعت قواى ودفعتها بيدي بيدا عنى ، ودفعتها دفعة قوية أسقطتها على الأرض كما تسقط القطعة الكبيرة من الخشب ، وارتطم رأسها بالبلاط فخيل إلى أنه تحطم ، وسمعت صرخة خفيفة

— ابنتي ماتت .. أوه! لقد كدت أنسى هذه
البنت المسكينة ...

وسقطت قطرة من دموعها بين شفتيها فمسحتها
بأصبعها في سهوم وشروود ، ثم تكافت الابتسام
وهي تقول :

— ولكن لاداعي للحزن ... فكلنا سنموت.
وكنت مع بضعة نفر من أهل القرية التفتوا
حولها قد عمنا الوجوم والصمت ، فنظرت إلينا
وهي تضحك في اضطراب وأردفت قائلة :

— لماذا صمتكم ووجومكم هذا ؟! هيا عودوا
إلى حالتكم التي كنتم عليها قبل الآن « فرشوا » .
ابتسموا ، أيؤلكم منظر أم ماتت ابنتها ؟! ...

وظفقت تضحك فحككات كأنها العويل والنواح
فلما وجدتنا لم نغير من حالنا انقطعت عن الضحك
فجأة ونظرت إلينا في دهش ، ثم في ابتئاس ، ثم
في ... ثم نظرت إلينا نظرة لم أفهم لها معنى ،
وتركتنا في خطوة متعثرة دافئة وجهها بين راحتها
تنتحب ... !

محال أن تربل يد النسيان من ذهني هذه اللحظات
ومحال أن تسلبني منظر تلك المرأة فيها^(١) محال
ومن ذلك اليوم ابتدأت أسمع تلك المرأة وهي
تغني ذلك الموال الذي يقول مطلعته :

« يا عم ياللى بلا خال تعال اعملك خالى »

« واحط قلبى الملان على قلبك الخالى »

وكانت تشرب الخمر حتى تتأبل سكرآ ، وتنتالق
في طرقات القرية تغنيه بصوت مضطرب ينص
بالحزن والبكاء ، وكان الصبية ينطلقون خلفها في
كثير من الأحيان يرمونها بالطوب ، ويحتفنون

(١) أعني منظرها في تلك اللحظات

انسابت من بين شفتيها كأنها عويل مخنوق ، ثم ...
ثم نهضت وتركت الأريكة والغضب يأخذ منى كل
ماخذ ، قرأتها تنظر إلى في عتاب رحيم وتقول :
« في سبيلك أيها الحبيب » ولم تافظ بغير هذه
الكلمات ، وخرجت فأطلقت للشرطي المسجون
في « المطبخ » وطلبت منه أن يذهب فيحملها ويأق
بها خارج المنزل . وقد كان

وصمت الضابط وهو يخرج من علية دخائه
دخينة وضما بين شفتيه وتتم :
— لقد قلت لك إن هذه المرأة مجنونة ...

وأشعل الدخينة وراح يدخنها في صمت ،
واستأذنته في مبارحته ، ثم انطلقت إلى الطريق
وأنا أشعر بقلبي قد امتلأ شجنا

ولم تفارق خيلتي في ذلك اليوم وليله ، صورة
امرأة في الأربعين سكرى ملقاة على أرض إحدى
غرف منزل تنظر في عتاب رحيم للرجل الذي أهانها
بالقائه لها هكذا على أرض الغرفة ... الرجل الذي
تجبه ولا يحبها ، وتهتف قائلة له « في سبيل حبك
أيها الحبيب ! »

وكانت الأيام تمضي وأنا أقرب عن كئيب تلك
المرأة العجيبة واهتمامي بأمرها يتضاعف ويتضاعف
في كل يوم وفي كل ساعة ، وكنت معها ذات يوم
عندما أتاهما نبأ موت ابنتها نزيهة البيارستان ، أبدأ
لن أنسى ما بدا على وجهها وما لاح في عينيها وقتذاك ،
لقد لاحت في عينيها نظرة حائرة نائمة ، وبدت على
وجهها جهامة وانقباضة وتفكير ، وظلت على ذلك
بضع دقائق ، ثم تندت عيناها بالدموع وتهتفت
في خفوت :

— لقد خيل إلي في نومي أنه آت ليودني ...
ألا ما أقساه من حبيب ...

وتلألأت في عينها دمة ...

وبعد لحظة التفتت إلى تسألني :

— هل قابلت ضابط « النقطة » منذ قريب ؟
قلت : أجل ...

فسألني في إصرار وهي تكاد تذوب شوقاً ولهفة :
— وكيف حاله ؟

قلت : كما هو ...

فأغمضت عينيها وظهر عليها أنها تستعيد شيئاً
حلواً ، ثم عادت ففتحتهما والتفتت إلى قائلة :

— هل رأيت في هذه الدنيا امرأة أشق مني ؟
فنظرت إليها طويلاً ... ولكنني لم أجبها ...
وتصرمت أيام . وفوجئت بخبر يقول إن ضابط
« نقطة » قريباً سينقل بعد يوم إلى « نقطة » أخرى

في البعيد ، وكانت صحة صريضي قد ساءت وتدهورت
فحاولت بكل ما وسعني أن أمنع هذا الخبر من الوصول
إلى أذنها حتى لا يصيبها بشر جديد ، ولكن رجلاً
من عادوها تدفعهم الشفقة أوجب الاستطلاع أوصله
إليها دون أن أعلم ، فلما اختلت بي بعد ذلك وكنا
في الصباح قالت لي وضوتها يرتمش :

— سوف أذهب في المساء لأودع ضابط
« النقطة » فقد علمت أنه سينقل إلى بلد آخر غير
هذا البلد . فهل تستطيع مرافقتي إلى منزله ...

قلت وأنا أعجب لها في نفسي وأخني عجي

— إنك الآن في أسوأ حالات المرض ، فلا
ينبغي أن تكافئ نفسك مشقة ...

— وهل تحسبني أستطيع تركه يذهب دون
أن أودعه ؟

للتراب يلقونه عليها ، وكثيراً ما أنقذها الناس ولموم
يكاد يقضى عليها ...

مسكينة ... لقد كانت تعيش بقلب جريح ،
وعقل مجنون ... كانت فريسة لحب يائس وجنون
أليم ، وحزن تملكها بعد موت ابنتها . وعبثاً حاولت
أن تجد ذلك الرجل الذي لا « خال » له لتضع على
قلبه « الخالي » قلبها المملوء بالآلام والأشجان !

وانتابت البائسة في يوم من الأيام حتى شديدة
نحرت على فراشها تمنى آلام هذه الحى فوق
ما تمنى من آلام قلبها وعقلها ، والتفتت حولها
تبحث عن من يقوم على خدمتها في محنتها الأخيرة هذه
فلم تجد أحداً سواي ، كان كل الناس قد هربوا منها
إلا إياي ، فلقد كنت أعطف عليها وأرثي لها فلم أشأ
أن أتركها تقاسي ألم المرض وحدها ؛ ونظرت إلى
وهي تقول :

— ولكني أسأت إليك من قبل يا سيدي
فقلت : ما فات مات ...

وكانت لي صلة بطبيب يقيم في « المركز » الذي
تبعه قريبنا فاستقدمته ليشرف على علاجها ، وأثر
في المرأة هذا اللطف والاهتمام ، فراحت تدعوني
بالسمادة وراحة اللبال وطول العمر

وقد خف جنونها في أيام هذا المرض ، ولكنها
في أحيان كثيرة كانت تحن إلى الخمر فلا أستطيع
منعها من شربها ، وفي ذات مرة أخذتها سنة من
النوم وأنا بجوارها ، فسمعتها تهتف باسم ضابط
« نقطة » القرية ، وأثر في ذلك فاستعبرت وأنا أرنو
إلى وجهها للشاحب وأهز رأسي في أسي وإشفاق
ولما استيقظت نظرت حولها في دهشة وتبسمت
في كآبة وهي تتمم :

— سوف آتي به إلى هنا فتودعينه وأنت على فراشك ...
فم وجهها الفرح وصاحت وهي لا تصدق ما أقوله :
— أو يقبل المجيء إلى هنا ؟
فطأ ثباتها ... وأكدت لها أنني سأحمله على الحضور إليها ، وذهبت فرجوت الضابط أن يأتي من إليها ، وقد رق لها قلبه بمد أن وصفت له حالها ، فأجاب رجائي وراقني إليها
وحينما دخل عليها كادت المسكينة تموت من الفرح ، واغترورت عينها بالدموع وهي تنظر إليه غير مصدقة أنه هو حقاً ...
ورق لها قلب الضابط أكثر ، فأنحنى عليها بضع على جبينها قبله ... القبلة التي أهانها من قبل حينما طلبتها منه ، وأمسكت المرأة بيده تفضظ على أناملها في عصبية وهي تصبح
— أنت ... أنت ...
وبعد حديث ووداع دام بضع دقائق غادرها الضابط ، وقد بدت على شفيتها وهي تشبه إلى الباب يصرها السكبل بسمة فيها حزن ووداع وبكاء والتفتت إلى تقول بمد أن ذهب :
— إنني لأصدق. يخيل إلى أنني كنت في حلم ...
وفي اليوم التالي سافر ضابط « النقطة » إلى البلاد البعيد الذي نقل إليه ، وبعد أيام من سفره ماتت المرأة المريضة للسكيرة المجنونة التي أحبته فلم تسعد بحبها إلا امرأة واحدة ، فودعت بموتها امرأة محببة ، صرت بجباتي كما يمر بخيال النائم حلم عجيب !
عبد العظيم محمود العشري

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي

عاماره ... وعاملوا شرفاء ... تكثروا ... التبصر ليهودكم

حاجي بابا أصفرهاني

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

وأقمت صلاة الشكر، وقلت في نفسي : إن
أبى سيرانى بعد قليل وسيعرف أن ابنه
لا يزال على قيد الحياة ، ونذرت لسيدنا
على نذراً بأنى إن وصلت ، فوجدت أهلى
بخير فسأذبح ذبيحة وأدعو إليها الفقراء
وكان خفوق قلبى لا يزال يملو ويزداد

كلما اقتربت من حانوت أبى . وسرت في الطريق
التي كانت لا تزال كمهدا وكانت معرفتى بها لا تزال
حاضرة في الذهن حتى وجدت نفسى بين حانوت
أبى وبين الخان

وكان باب الحانوت مغلقاً، وجعلنى الخوف من
سماع جواب سى "أحجم عن السؤال عن أبى، ولكن
لما ملكت روعى تذكرت أن اليوم يوم جمعة وأنه
لا يبعد أن يكون أبى قد جعل الصلاح دينه في
أخريات أيامه فترك العمل في أيام الجمعة . وبعد
قليل فتح باب الخان ورأيت صاحبى البواب يسير
محاذياً للحائط وقد احدودب ظهره وصار يياض
لحيته ورأسه ناصعاً، ولكننى عرفت من أنفه الأتى
الذى أستطيع تمييزه بسهولة من بين ألف من
الأنوف فحيته التحية المعتادة، فرد على دون أن ينظر
إلى وجهى

فناديته باسمه وقلت : « ألا تعرفنى يا على ؟ »
فنظر إلى وقال : « إن الخان أياها الصديق معرض
للدنيا ، فى كل يوم أرى عشرات من الوجوه
ولا أستطيع ذا كرتى أن تمىها كلها »

قلت : « لا بد أن تكون متذكراً حاجى بابا
الذى كان يخلق لك في الزمان القديم »، فقال البواب
« لا إله إلا الله ! أنت حاجى بابا ! لقد خلا مكانك
منك مدة طويلة فهل رجعت في النهاية ؟ الحمد لله

الفصل الثامن والأربعون

مضى بابا يعود الى بيت أبيه في أصفهانه

لم أنتظر سماع كلمة أخرى وخرجت في الحال
من مدينة قم ، وكان في جيبى دراهمات قليلة تكفى
لشراء القوت في أثناء الطريق . ولقد كان بوى
أن أبى في مدينة قم حيا وأن أنضم إلى تلاميذ
ميرزا أبى القاسم ؛ ولكن دفعنى إلى العودة نحو
وطنى طول شوقى إلى أبى واعتقادتى أن ما رأيته
من الكروب والمصائب إنما يرجع إلى عقوبته وقلت
في نفسي : « أنا لو كنت ابناً باراً لما أهملت أبى
في أصفهان وتركته في ضعف الشيخوخة مضطراً
إلى مراوطة حرفة الخلاقة لكي يكتسب القوت »

ولم أزل أسير حتى بدت لى أصفهان عن بعد،
تحقق قلبى وانشغل فكرى بتصور الحالة التى سأجد
عليها أسرتى ، وتساءلت : هل أجد معلمى لا يزال
على قيد الحياة ؟ وهل جارنا البديل الذى كنت أشتري
منه الحلوى لا يزال مقيماً في حانوته ؟ وهل صاحبى
بواب الخان لا يزال جالساً أمام الباب الذى اعتاد
الجلوس عنده طول ليله وطول نهاره ؟ وهل إذا
رأيت سيدى زيارتى مع التركمانيين لهذا الخان
وسرقتنا منه ما وصلت إليه أيدينا ؟

ولما صرت قريباً من باب أصفهان وقفت خاشعاً

لقد أذن لكربلائي حسن بأن يرى ابنه قبل أن يموت
قلت : « ماذا تقول ؟ أين أبي الآن ؟ لماذا تذكر
الموت ؟ »

فقال : « لقد شاخ أبوك وهو الآن على فراش
الموت فلا تضيع وقتك سدى واذهب في الحال
لملك تدركه قبل أن تفارقه الحياة ... »

واستمر البواب يتكلم ولكنني لم أفهم حتى
أسمع بقية كلامه بل ذهبت تواء إلى المنزل فوجدت
بالقرب من بابه شيخين يتسكمان فلم أسترح لرؤيتهما
لأنني عرفت أنهما من رسل الشؤم

ودخلت المنزل فوجدت فيه رجلا كثيرين
قد أحاطوا برجل نائم فنظرت إليه وقد عرفت أنه أبي
ولم يعرفني أحد من الموجودين ولكن أحدهم
لم يعترضني لأن المدة جرت في هذه البلاد على أن
يدخل غرفة المحتضر من يشاء من معارفه دون
استئذان ، ووجدت في طرفي الغرفة رجلين أحدهما
الطبيب والآخر معلم للسابق ، وكان المعلم يعزى أبي
بهذه الكلمات : « لا تيأس فقد عمد الله في أجلك
حتى ترى ابنك حاجي بابا ولكن الحزم يقضى بأن
تكتب وصيتك وتعين اسم وارثك »

فتهدأ أبي وقال بصوت خافت : « لقد عفى
ابني ولم يفكر في أمري فهو غير جدير بأن أجعله
وارثي »

فكان أثر هذه الكلمة شديداً علي ولم أستطع
مع سماعها إلا أن أعلن وجودي فقلت : « إن حاجي بابا
هنا وقد جئت يا أبي لتدعولي فلا ترفض » ثم ركمت
بجانب الفراش وأخذت يده قبلتها وبكيت ، وكان
لما بدا مني تأثير قوي على جميع الموجودين وبدأ القلق

على وجه البعض ولكن الدهشة كانت بادية على
أوجه الجميع

وفتح أبي عينيه اللتين كانتا مغمضتين وقد ومض
فيهما برق السرور وظهرت عليه الرغبة الشديدة
في رؤيتي وأمسك يدي والتفت إلي وقال : « الحمد
لله ! » ثم قال : هل كان حسناً منك أن تتركني كل
هذا الأمد ؟ أما كان يحسن أن تأتي قبل الآن ؟
وكان بود أن يستمر في عتابه ، ولكن الانفعال
الذي أحدثته هذه المفاجأة كان أكبر من أن تحمله
صحته الضعيفة فخارت قواه وارتدى رأسه على الوسادة
وقال لي معلني : « اسكت يا حاجي بابا ! لا تقل شيئاً
حتى يفيق لأنه يريد أن يكتب الوصية »

وقال شاب كانت عيناه تنظران إلى نظرة شديدة
المدارة : « نعم ، وعلياً أن تتحقق هل هذا هو
حاجي بابا أم لا »

وقد تبينت أن هذا الشاب هو أخو زوجة أبي
وكان بطمع أن يوصي أبي له بجزء كبير من تركته
كما كان معلم بطمع في مثل ذلك وقد تحققت أيضاً
فيما بعد أن أكثر الموجودين كانوا يطمعون في أن
يوصى لهم أبي بأجزاء من تركته ، وأن مجيئي كان
نكبة عليهم لأنهم حرموا جميعاً مما كانوا يطمعون
فيه . ولولا أن المعلم شهد بأنني حاجي بابا لاجتمعت
كلمة الباقيين على طردى من هذا المجلس ولقد زال كل
شك في حقيقتي عند ما فتح الباب بعد قليل ودخلت
منه أي لأنها لما سمعت خبر مجيئي لم تستطع البقاء
في حجابها وراء الستور ودخلت الغرفة مبسوطة
الذراعين لتعانقني وقد نسيت أن تضع على وجهها
نقاباً وصاحت : « أين ابني ؟ أين أنت يا حاجي بابا ؟ »
فلما أظهرت نفسها لما ارتعت على وبكت بصوت

مرت بي في الحياة ، وكنت جالساً منفرداً في ركن من الغرفة أبكي بكاء صامتاً لا كالبكاء المتكلف الذي يبكيه الباقون . وجاءني أحد الجيران فقال إن التقاليد تقضى بأن أمزق ثيابي لأدل بذلك على أني ابن بار فقلت له : « ألا يمكن أن أؤدى واجب البر وأحتفظ بالثوب الذي لا أملك غيره ؟ »

وقال لي أيضاً إنه يجب علي أن أترك رأسي عارياً وقدى حافيتين حتى يتم الدفن فوافقت على ذلك . وعلمت فيما بعد أن هذه الواقعة أكسبني سيرة حسنة في موطني ، وكان حزن أمي عنيفاً فقد قطعت شعرها ومزقت ثيابها وكانت صرخاتها عالية تشق عنان السماء

وأخذ معلمى ييدى وقال لي ليعزبنى : « لقد مات أبوك ولكن ليس الموت غاية كل شيء ؟ لقد مات ولكن هل خلد إنسان قبله حتى كنت تطمع في أن يخلد ؟ إنك قد حللت في الدنيا محله . فأد ما كان يؤديه من الأعمال للصالحه . وأيقن أنه الآن بين حوريتين من حور الجنة يشرب اللبن والمسل الالهيين فهل هذا هو ييكيك ؟ أنظر إلى النسم التي من الله عليه بها واحمده فقد كان من المحتمل أن يموت كافراً ولكنه بحمد الله مات مؤمناً . وقد كان من المحتمل أن يولد تركياً ولكن الله من عليه بأن جملة إيرانياً . وقد كان من المحتمل أن ينشأ سنياً ولكن رحمة الله قضت أن يمشي شيعياً . »

واستمر يعزبنى على هذا المنوال حتى سلّمت فتركني ليحدث غيرى ، وجمي رجال لم أر في الحياة أقدر منهم لينسلو أبي قبل دفنه . واستشاروني هل يستأجرون عدداً من حملة الأعلام والشارات ليسيرو أمام الجنازة كمادة الوجهاء أم يجعلونها بسيطة

عال ونظقت بكل كلمة رقيقة أملتها عليها الذاكرة في الحين . ونظرت إلى من للفرع إلى القدم نظرة محب مشتاق — لا ، بل نظرة أم ، لأن المواطن التي أبدتها لا تظهر إلا من الأمهات

وفي هذا الحين كان الطبيب يحاول أن ينبه أبي من الإغماء وأبدى أبي علامة سيئة لم يجسر الطبيب معها على إعطائه الدواء قبل أن تمر ساعتان وبعد ساعتين أعطى الدواء وبدلاً من أن يقوم فيملي وصية كما كان الكل ينتظر ، فإنه فقد النطق والحركة . ولما فحصوه وجدوه قد مات ، فقال المعلم : « أوصل إليك باسم الله أن تفيق فاننا نريد أن نكتب الوصية »

وكان صوته وهو يقول ذلك أشبه الأصوات بالبكاء . وقام فمز رأسه ولكن بنير جدوى لأن الحياة قد فارقت . وبلوا قطعة من القطن فمصروها في فمه وأداروه نحو القبلة . ثم أخذ معلمى يرتل آيات من القرآن ، ووضع منديلاً تحت رأس أبي وربط فوق رأسه ، ثم ربط إبهامى قدميه معاً ونطق بجميع الموجودين بالشهادتين . وبعد ذلك اجتمع النساء حول الجثة وأخذن في البكاء والنحيب ، وفي الوقت نفسه أخذ اثنان من حفظة القرآن يرتلان سورة من القرآن

ولما سمع البكاء في المنازل المجاورة هرع كل نساها إلى منزلنا لأن أبي كان محبوباً من أهل جيرته وقد حضر المأتم والجنازة من الرجال ومن النساء أكثر من العدد الذي يحضر عادة في مأتم أى خان أوميرزا

وعلى الرغم من كثرة المزين فقد كنت أنا الحزين الوحيد لأن موته ذكرني بكل الحوادث المؤلمة التي

كالفقراء؛ فأحلتهم إلى معلى ليحجب بالنيابة عني. وكان جوابه أن أبي كان من البروفين في المدينة الذين اتسعت شهرتهم، وأنه لذلك يجب أن يدفن كما يدفن سائر الوجهاء. فجيء بعدد كثير من هؤلاء وساروا بأعلامهم أمام للنمش الذي تطوع كثيرون لحمله على أعناقهم فدلوا بذلك على أن أبي كان محبوباً. وكانت الجنازة كلما تقدمت مسافة في الطريق انضم إليها فريق من الناس حتى إذا ما وصلنا إلى المدفن كان عدد الشيعين لا يستهان به.

وبعد أن أقيمت الصلاة جرت عملية الدفن وجلس حول القبر اثنا عشر قارئاً للقرآن فتلوا آيات معينة ثم قرئت الفاتحة ثم ودعنى الشيعون على أن يقابلوني فيما بعد بالمنزل.

ولما صرت وحدي سألت نفسي : « هل النذر الذي نذرت عند باب المدينة أصبح واجب الأداء أم صرت في حل منه ؟ »

ولما لم أهتم إلى جواب عزمت على أن أستشير ولما عدت إلى المنزل وجدت كثيرين في انتظارى. وكان وقت العشاء قد حان ورأيت أن واجب البتة في نظر أهل المدينة يقضى بأن أفق عن سخاء، فلم أجد بداً من الوفاء بالنذر فأصرت بأن تذبح ذبيحة وبأن يقدم الطعام إلى كل من في المنزل من المزين واستأجرت ثلاثة من حفظة القرآن ليقرأوا واحد منهم ما تيسر منه في الغرفة التي مات أبي فيها وليقرأ الآخرون عند القبر.

وبعد أيام لا أعرف عددها جاء أناس كثيرون فجلسوا في أكبر غرفة بالمنزل على شكل دائرة وكان في يد كل منهم جزء من القرآن وأخذ كل منهم يقرأ بصوت عال سورة غير التي يقرؤها الآخر

وكانت قراءتهم في وقت واحد وبذلك تمت قراءة المصحف كله في وقت قصير.

وعلى أثر ذلك ذهبت أمي وكثيرون من النساء إلى القبر وأخذن معهن مقادير من الفاكهة وأنواعاً الطمام وفرن ذلك على الفقراء ثم عدن إلى المنزل فأثحت بأعلى أصواتهن.

وبعد أيام أخرى خلعت أمي حزنها وارتدت ثياباً بيضاء وصبغت شعرها ويديها بالحناء وبذلك انتهت كل إجراءات الموت وتركتم وشأني لأدبر تركه أبي ولأفكر في مستقبل.

الفصل التاسع والأربعون

ماجى بابا يصبح وارثاً لتركه غير مرمودة

مات أبى ولم يترك وصية فكنت وارثه بغير منازع وكان من الطبيعي أن يسرف في ذى الدين كانوا يطعمون في أن تنتقل إليهم التركة بالوصية وأن يتهموني بالاسراف وبأننى عاق وبأنى غير متدين وبأنى جواب آفاق

ولما كان في عزى ألا أقيم في أصفهان فقد نظرت إليهم نظرة احتقار ولم أهتم بأى قول يقولونه ولما قابلت أمى على انفراد دار هذا الحديث :

قلت : « أخبرينى يا أمى — فانه لا ينبغي أن يكون بيتنا سر — عما تركه أبى فقد كان يحبك ولا يمكن أن يكون أخفى شيئاً عنك »

فقلت باضطراب واشمزاز : « وماذا تريد من تركته ؟ » فاستأنفت قولى متظاهراً بأنى لم أسمع جوابها وقلت : « تعرفين أن الوارث ملزم في الشرع والقانون بأن يسدد ديون مورثه وتعرفين أن نفقات الجنازة لم تدفع بعد . وأنا الآن مجرد من المال كالיום

المسجد بين حلقة من تلاميذه. ولما رأني طردت تلاميذه.
وقال : إن خطواتي إليه خطوات سميدة وإنه يسر
بأن يقدم لي كل خدمة أريدها
قلت : « لا تصحك على بهذه الكلمات . لقد
كنت أنتظر من القدر الذي حرمني من أبي أن
يمنحني ما أستحقه من ميراثه »

فرجع المعلم عيني إلى السماء وقال : « الله كريم
هكذا يا بني حال الدنيا وعلى العاقل الحكيم أن يسد
عيني عن كل المطامع الدنيوية فلا يتطلع إلى شيء
من تراتها للفاني »

فقلت : « من أي عهد أصبحت صوفيا حتى
تكلم بهذه اللمجة ؟ إنني أستطيع أيضا أن أقول
مثل هذا القول ، ولكن أماننا أمورا جدية »

وطلبت إليه أن يخبرني عما تركه أبي
فتنحج وتظاهر بالجد والوقار وأقسم أغلظ
الآيمان أنه لا يعرف إلا ما سمعه من أبي ، وأن أبي
قال له إن أبي مات ولم يترك شيئا من المال

وجت مدة طويلة ثم أبدت دهشتي مما سمعته
لأن أبي كان رجلا متدينا وكان يملك بغير شك
مقدارا وافرا من المال . ويبدو أن يكون قد أقرضه
بالربا . وتذكرت قصة تدل على استحالة ذلك ، وهذه
القصة هي أن عثمان أغا أراد أن يقترض منه بالربا
فذهب أبي إلى أحد العلماء وسأله هل يبيح الدين
ذلك ، فتلا عليه العالم آية من القرآن تحرم التعامل
بالربا قطعا وقال لي أبي بعد ذلك إنه لن يقترض ولن
يقترض ما دام حيا ، وأوصاني بأن أكون مثله
في ذلك

تركت المسجد يائسا من الحصول على المعلومات
التي كنت أريدها وذهبت إلى خانوت أبي فجلست

التي ولدتني فيه ولا بد لي من الحصول على المال.
والأفاني أفتضح ويهان اسم أبي ويتمكن من أعدائي
وقد اشتهر أبي بأنه غني ويجب محافظة على سمعته
ألا يظهر عكس ذلك على أثر وفاته فأخبرني يا أبي
كم ترك من المال وكم عليه من الديون ومن هم دائنوه
وهل له مدينون »

قالت أمي : « الله ! الله ! ما هذا الكلام الذي
تقوله يا حاجي بابا ؟ لقد مات أبوك فقيرا ولم يترك
مالا ولا عقارا وقد كنا لا نأكل غير الخبز الجاف
إلا في الأيام التي يكثر فيها زائرو هذه المدينة من
التجار فانه كان يأتي بطبق من الأرز وآخر من
الكباب . أما فيما عدا ذلك فان معيشتنا لم تختلف
شيئا عن معيشة الشحاذين فما هو المال الذي تسألني
عنه ؟ هذا هو المنزل أمامك فأبحث فيه ما شئت وهذا
هو خانوت أبيك فانظر ما الذي فيه ! لقد كان
وصولك في وقت مناسب فافتح خانوت أبيك واستمر
في صناعته وإن شاء الله جمع لك من الثروة ما ترجوه »
فقلت : « هذا الذي أسمعه يا أبي شديد الغرابة
فإن أبي ظل يكتسب أكثر من خمسين عاما ويستحيل
ألا يكون قد وفر شيئا في خلال هذه المدة . وأريد
الآن أن تقسم ذلك الربح »

قالت في شيء من الاحتياج : « تقسم ؟ هل
تهم أمك يا حاجي بابا بأنها سرقت منك أو من أبيك
شيئا . إذهب وسل أصدقاء أبيك . إسأل معلمك
فهو يعرف إن كان أبوك ترك شيئا أم لا »

فقلت : « إن المعلم لو كان يعرف لما ألح قبل
موت أبي في كتابة الوصية . ومع ذلك فاني سأقوله
وأسأله »

وذهبت فوجدته جالسا في ركن من أركان

رأيت كثيرين من التجار استدلوا على أموالهم المفقودة بهذه الطريقة ولست أعرف حادثة لم يستطع المنجمون الوصول فيها إلى مال مفقود إلا حادثة اعتداء التركمان على الخان ، ولقد جلبت على هذه الحادثة ويلات عظيمة لأن بعض الناس اتهموني بأنني كنت شريكاً لهم لأنني أنا الذي فتحت الباب للصوص وقلت إن فيهم صديقاً لي اسمه مثل اسمك يا حاجي بابا »

ولقد كان من حسن حظي أن هذا البواب ضيف للبصر فلت شبهة في نفسه محل اليقين في أمر هذه الحادثة ووعدني بأن يرسل إليّ أعظم منجم في أصفهان وقال لي في وصفه إنه يخرج قطعة الذهب من تحت أطباق الأرض

الفصل الخمسون

هاجي بابا والنجم

في صباح اليوم التالي جاء رجل إلى غرفتي قصير القامة هزيل الجسم أحذب الظهر كبير الرأس لم أر عينين أشد سطوعاً من عينيه فعرفت أنه النجم . وكان عليه ثوب من ثياب الدراويش . وقد بدأ بسؤال عن كل شيء حدث لي خصوصاً بعد عودتي إلى أصفهان وكان يدقق في البحث عن التفاصيل ويسأل عن كل رجل له معرفة بآبي :

ولما كانت أمي في ذلك الوقت متغيباً في الحمام فلم أخبرها بمد ذلك عن مجيء النجم ولكنني رجوتها أن تدعو في اليوم التالي كل أهل ليتغدوا عندنا ...

ولما اجتمعوا في المنزل سلمت عليهم وقلت لهم إنني أريد الاستشهاد بهم على ما تركه أبي فنظر بعضهم إلى بعض وبدلاً من أن يشتركوا مع أمي

به وفكرت في الوسيلة التي أحصل بها على رزقي في المستقبل وعزمت قبل كل شيء على ألا أقيم في أصفهان وفكرت في الذهاب إلى طهران لأنها خير بلد يعيش فيه رجل مثلي . وقام بنفسى اعتقاد أنه من المستحيل أن تكون أمي ومعلمي صادقين فيما زعماء من موت أبي مفلساً . فبدأ لي أن أحتمل معهما إلى القاضى

وبينا أنا أفكر في هذه الأمور إذ رأيت صاحبي بواب الخان ، ولما وقع نظره على أقبل نحوي وعزاني ولما رأى شدة انقباضى وشروء ذهني قال لي : « لماذا تحتمل كل هذا الهمة ؟ إن أباك قد مات ولكنه تركك في سن تستطيع معها العمل وأنت وريثه ولم يكن رحمه الله فقيراً »

قلت : « نعم إننى وريثه ولكننى لم أجد شيئاً أثره فيه إلا هذه اللطسوت النحاسية والمواسى وإلا البيت المبنى بالطوب النقي »

فقال : « ولكن أين ماله يا حاجي بابا ؟ لقد اشتهر أبوك بأن لديه مالا كثيراً . وكل إنسان في المدينة يعلم أنه ما كان يمر يوم واحد على أيك دون أن يزيد على المدخر عنده من المال مقداراً آخر »

قلت : « هذا صحيح . لكن أية فائدة لي من هذا القول ما دامت أمي تنكره ومعلمي يشهد لها ؟ إنه لم يعد أمامي غير أن أذهب للقاضى »

فقال البواب : « تذهب للقاضى ؟ معاذ الله أن تذهب للقاضى ! لا تذهب إليه فانك لن تستفيد منه شيئاً وهو لا يهب المدل ولكنه يبيعه بالثقال »

قلت : « وما الذى أفعل ؟ » فقال : « اذهب إلى النجمين فانهم يرشدون عن كل مال ضائع وقد

قال النجم : « لا تتعجل بمعرفته ولا تثب هذه الوثبة فان الله سيظهر الحقيقة على يدي » ثم دار بنظره فينا مرة أخرى وقال : « هل تريدون أن أن تعرفوا الحقيقة ؟ » قلنا : « نعم »
وعند ذلك نادى تلميذه وأخذ منه كيساً كان معه فأخرج منه ملء اليد من الأرز وقال : « سأعطى كلامكم بعض هذا الأرز فامضوه . أما السارق فلن يستطيع مضغه »

ودار على كل واحد فوضع في فيه مقداراً منه فمضوه وهم يضحكون لأن أكثرهم كان يمد الأمل فكاهة . ولم يعطى بطبيعة الحال مثل ما أعطى غيري لأنه لم تقع على شبهة وأنا الذي أشكو

وحاولت أي أن تخرج من هذه التجربة بانضمامها إلى جاني وتظاهرها بالسرور لظهور حقي ولكن النجم أبى عليها ذلك ووضع في فيها مقداراً من الأرز وفي لحظة كانت الأنواء مشتتة بالمضغ وكان النجم يقرأ في هذه الأثناء . وبعد لحظة أخرى كان الكل قد فرغوا من المضغ إلا المعلم وأى فانهما لم يستطيعاه وقال المعلم : « لماذا تعطيني هذا الحمى وأنا رجل هرم ضيف الأسنان ؟ إنه يستحيل علي أن أنجح في هذه التجربة »

وقالت أي مثل هذا القول وزادت عليه : « ما هذه الألاعيب الصيانية ؟ هل رأيتم قبل الآن ولداً يعامل أمه ومعلمه مثل هذه المعاملة ؟ إنه يهملنا بالسرقة ولعله هو اللص »

فقال النجم : « لم يقل أحد عنك إنك لسان ولكنك تقولان ذلك وليس الفرض فضيحة أحد وإن كان في وصى أن أقيم كل برهان على السارق . وفي وصى أن أجعل لسانه يمتدح عليه ببركة خادم

في التكم أظهروا استعدادهم لمساعدتي في الوصول إلى الحقيقة . وفي هذا الوقت جاء النجم بناء على اتفاق سابق معه وجاء معه أحد تلاميذه .

أطال النجم نظره في وجه كل واحد من الموجودين ثم اجلس تلميذه أمامه وأملى عليه آيات من القرآن وهذه الآيات تتضمن الوعيد لمن يأكل أموال اليتامى بالباطل ثم جاء بفنجان فيه قليل من الزيت ووضع في كف التلميذ وظل يتلو آيات ويقول كلاماً بمضغه مفهوم والبعض غير مفهوم . ونظر إلى سائر الموجودين وقال : « ستظهر في هذا الفنجان صورة المكان الذي فيه أموال كربلائي حسن وصورة الشخص الذي لا يريد إظهار هذه الأموال » .

فنظر بعضهم إلى بعض ، وبعد قليل نظر إلى الفنجان وقال : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! لقد ظهرت الحقيقة فاتبعوني »

ثم مشى فتبعناه فدخل غرفة أخرى وحاولت سيدة أن تمنعه فزجرها ونظرت إلى هذه السيدة فاذا هي أي .

قال : « من ذا الذي يستطيع أن يمنع خادم الآية ؟ إنني لا أسير بقوتي ولكن بقوة هذا الخادم »

ومشى على الرغم منها ونحن وراءه حتى وصل إلى ركن من الغرفة فأزاح عنه الحصر . وظهر لنا جيماً أن الأرض تحته قد جفرت حديثاً فرفع التراب عنها وأخرج منها قدرأ مملوءة بالذهب وقال : « هذا بعض ما تركه كربلائي حسن من المال .

أما باقيه فقد سرق » وتفرس في وجوهنا جيماً فقال أحدها : « لقد وجدت المسروق فأين هو السارق ؟ »

الآية وسافراً الآن قسماً وأذهب، وفي الصباح سأتى وتأتون جميعاً فإن وجدنا في هذا الركن في مكان المال الذي وجدناه لليوم بقية الأموال التي تركها كربلائي حسن فإن ورثته سيقسمونها بالعدل كما أمر الله في كتابه وإلا فإن خادم الآية سيساعدني على إظهار السارق وعلى إقامة الأدلة القاطعة ضده « وفي هذا الحين ذهب النجم وتفرق المدعوون ليمودوا في الصباح

الفصل الحادى والخمسون

نتائج أعمال الدرويش

كان من نتائج الأعمال التي قام بها الدرويش أن حامت في نفسى شبهة مؤلة ضد أى وضد معلمى ولكننى كنت أشك في القول الذى أبداه النجم . وفي الصباح التالى جاء النجم ومعه تلميذه وعدد من الذين حضروا حفلة الأمس . ولم يأت معلمى وخرجت أى من المنزل مدعية أنها مضطرة إلى ذلك لتزور بعض المرضى .

وقال النجم : « سترى إن كانت الجن قد جاءت بالمال أم لا ؟ » وأخذ يحفر في الأرض فأخرج منها كيساً مملوءاً بالذهب فسلمه إلى وقال : « الحمد لله على وجود مالك ولا تنس إعطائى ما أستحقه »

واجتمع الناس حولي ليروا ما بداخل الكيس الذى وجدته مختموماً بالجمع الأحمر بخاتم أبى وعددنا ما فيه فإذا هو خمسمائة ريال فدفعت إلى النجم منها خمسين وأقسمت أننى لو كنت غنياً لأعطيته أكثر من هذا

شكرنى النجم وأبدى رضى واقتناعاً ولكننى لم أكن مسروراً لاعتقادي أن الذى حصلت عليه

لم يكن إلا جزءاً يسيراً من تركه أبى وأن التركة لم تزل مسروقة وقلت ذلك لصاحبى البواب وأخبرته بأنى لا أزال عازماً على رفع أمرى إلى القاضى . فقال لى البواب : « اسمع أيها الصديق نصيحة رجل حنكته الأيام والتجارب . اقنع بالمال الذى وصلت إليه يدك واحمد الله على ذلك واعتقد أنك إذا رفعت أمرك إلى القضاء فإنك ستخسر الأربعمائة والخمسين ريالاً وسيخسر خصومك مثل هذا القدر ثم لا يحل الخلاف بينكم . ألم تسمع المثل السائر : « إن كل إنسان قد خلقت أسنانه من الملح إلا القاضى فإن أسنانه مخلوقة من السكر »

وبعد مناقشة مع البواب عزمتم على أن أتبع نصيحته لأن رفع قضية ضد أى ومعلمى سيزيد من شتماته أعدائى ويقلل من المظف على وربما آل الأمر إلى أن يرجئى الناس بالأحجار وليس من المنتظر بعد ذلك أن أكسب القضية وعزمتم على أن أغادر أصفهان فلا أعود إلا إذا عدت إليها ذا سلطة ونفوذ فوافقنى البواب على فكرة الرحيل وشجعنى على تنفيذه . ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أن الرجل كان ذا غرض من نصيحته لأن له ابناً حلاقاً اشتغل بعد سفرى من المدينة مساعداً لأبى في مكاني . وكان هذا البواب يريد أن أخرج ليشتغل بدلاً منى في حات أبى . واقترح على أن أبيع الحانوت بكل ما فيه فوافقته على ذلك وبعث الحانوت . أما منزل أبى فلم أرد بيعه . وبالرغم من شدة تأثرى من المسلك الذى سلكته أى منى فقد عزمتم على تركه لها بكل ما فيه من الأثاث

وكان الثمن الذى قبضته من البواب هو خمسمائة قرش فارسى فبلغت جملة ما منى مائة طومان وعشرة طومان

خبايا بعضها في ثيابي واللبعض في سرج بفلة
جديدة اشتريتها

وعزمت على أن أقطع عن حياة «صاحب شمشير»
(صاحب سيف) التي كنت أعيشها قبل أن أنكب
وأسافر إلى «قم» واخترت أن أقضى بقية حياتي
(صاحب قلم)

و كنت إلى هذا المهد أعلق إلى جانبي سيفاً وأضع
في خزامي مسدساً وخنجرًا وألبس على رأسي غطاء
ضيقاً وأترك شعري منسدلاً حول رأسي إلى ما تحت
الأذنين فعزمت على تغيير ذلك كله ، وعلى أن أضع
في خزامي ملفاً من الأوراق وقلماً ودواة بدلاً من
الخنجر والمسدس ، وعلى أن ألف رأسي بشال من
الكشمير ، وعلى أن أمشي مطرق الرأس بخطوات
غير قوية ولا سريعة . وعزمت على أن أتكلم على
مهمل وأن أظهر بمظهر الوفاق والحكمة وقلت في نفسي
إنني على قلة معرفتي أحسن للصمت في موضعه فإذا
ما لقيت رجلاً من العلماء سكت واستغفرت من
حديثه ، وإذا لقيت جاهلاً كنت أتكلم المنطوق .
وقلت في نفسي إنني أعرف القراءة والكتابة وخطي
جميل فإذا كتبت نسخة من المصحف الشريف كان
ذلك شهادة لي بالعلم والمعرفة لا يمكن أن يدحضها
أى اتهام

وفكرت في الطريق الذي أسلكه عند خروجي
من المدينة فلم أجده خيراً من مدينة «قم» لأن
بها ميرزا أبا القاسم وهو أحسن من أعتمد على
مساعدته في هذا المهد الجديد ، وكان مقصدي أن
يوصي على أحد أصحابه من الكبراء فيتخذني كاتباً
أو تلميذاً له

ولما وصل بي التفكير إلى ذكر أبي القاسم

رأيت أن أشتري له هدية تدل على أنني شاكر لفضله ،
وفكرت في نوع الهدية فوجدت أليق ما يهدي إليه
سجادة صغيرة فارسية يقيم عليها الصلاة حين يأتيهم
به المصلون ويجلس عليها في وسط تلاميذه

واشتريت هذه السجادة واستعددت للسفر ،
ولكنني ذكرت أن نفقات الجنازة لم تدفع ، وحدثني
نفسى بأن أهرب من المدينة دون أن أدفنها لينال
مغلي وأى هذا الشرف ، ولكن شعوري الجليل
تغلب على هذه الفكرة فدفعت هذه النفقات قبل
أن أسافر وقلت إن هذا أليق بي ولكيلا أعرض
اسم أبي بعد الموت للمنة لللاعنين

الفصل الثاني والخمسون

مهاجى بابا يصير قاتلاً لرجل من رجال القانون

ودعت أوى وأنا غير آسف على السفر ولم تظهر
مى نحوى أى شيء يدل على الشعور بالأسف فقد
كانت تدبر خطة لمستقبلها كما دبرت خطة مستقبل
وكان كلانا يرى أن البعد خير وسيلة

ركبت بغلتي عند انبلاج الصباح وكنت أسير
مبطناً وأنا في القرى التي أصر بها ، وفي اليوم التاسع
رأيت قبة المشهد الفاطمي وبعد أن تركت بغلتي
بمربط الخيل في خان المدينة وذهبت إلى بيت أبي القاسم
وكان بابه مفتوحاً لكل طارق فخلعت نعلي وتركته
عند باب الغرفة الأولى ، وتركت بجانبه السجادة التي
اشتريتها ودخلت تلك الغرفة فوجدت في صدرها
أبا القاسم نحيته وجلست قرب الباب

وقد عرفني ساعة رأيته ورحب بي وأدنى مجلسي
وسألني عن قصتي بعد ذهابي من مدينة قم وقال لي
إنه مهتم بأمرى فشكرته وسردت عليه القصة

ولما رأيت أن تنكرى تام وأن أهل المدينة ان يعرفوني مشيت في أسواقها مطمئناً فلم أجد أحداً يعرفني وسألت عن بيت الملا فسهل علي الاستدلال عليه لأنه رجل مشهور . وما كدت أن أصل إلى هذا المنزل حتى غدت فتذكرت أننا في آخر النهار وأن الألق ان أمام هذه الليلة في خان وأذهب إليه في الصباح . وقد كنت حريصاً على اتباع ما تقضى به اللياقة في معاملة هذا الرجل لأمال عنده الخطوة في حياتي المقبلة .

وذهبت إلى الخان فاسترحت من وعشاء السفر . وفي الصباح دخلت الحمام ومسحت ثيابي وصبغت لحيتي ويدي وقدمي جرياً على عوائد الفارسيين ، وذهبت إلى الملا وأنا أقول إن من كان مظهره كظهري في هذا اليوم فهو جدير بأن تقضى حوائجه . وكان بيت الملا واقعاً بين المسجد وبين سوق الجبال في طريق قريب من القصر الملكي . وكان شكل المنزل من الخارج دالاً على الحقارة ولكن حديقته الصغيرة كانت منسقة تنسيقاً حسناً . ولما دخلت المنزل وجدته نظيفاً ورأيت غرفة الانتظار مفروشة بأثاث لا يدل على الثروة ولكنه لا يدل على الفقر وفيه رجل حسبته الملا ولكنني عرفت بعد قليل أنه واحد من أتباعه

حيث أنه وجلس ولم أكن قد عرفتني ولكنني عرفت على أن أشترك معه في الحديث ليمر أنني أكبر من خادم وحاول هذا التابع أن يعرف أمري فألقى علي أسئلة كثيرة غريبة ، قال :

— « يظهر أنك وصلت قريباً إلى طهران »

— « نعم »

— « يظهر أنك تريد الإقامة هنا »

وشرحت له ما أجده في نفسي من الميل إلى الدين ورجاله وأني أتمنى أن أكون في المستقبل واحداً منهم ففكر لحظة ثم قال : « لقد تسلمت في صباح اليوم خطاباً من « ملا » (عالم) في طهران يطلب إلى فيه أن أبحث له عن كاتب يكون لديه استعداد ليصير مالكا « ملا » في المستقبل وأخبرني أن هذا الرجل هو « الملا نادان » نفق قاي عند ما سمعت ذلك وقلت له إنني أحب أن يرسل ممي خطاباً إليه ورجوته في ذلك فكتب خطاباً وطواه وسلمه إلى ، وقال : « اذهب بغير توان وسلم هذا الخطاب إلى الملا نادان وستجد عنده ما تريده »

نفق قاي وقبلت يد اليرزا وطلبت إليه أن يتفضل علي بقبول هديتي وهي سجادة للصلاة وقلت إن سبب إهدائها إليه هو رغبتني في أن يذكرني بدعوة سالحة بعد الصلاة ، فدعاني وشكرني وقال لي : إنه لولا هذا السبب لتأثر من قبول الهدية لأنه لا ينتظر هدايا الناس . وأوصاني بأن أتمسك بالدين ظاهره وباطنه وأن أكره الصوفيين ، وقدمت له الهدية فأخذها مبيداً الشكر والدعاء وبلغ من تعجلي أمر السفر أنني لم أنتظر حتى أتمكن من زيارة أصدقائي في « قم » أو من زيارة القبرة التي كنت لاجئاً إليها في أيام محنتي

ولما ذهبت إلى طهران تجنبت الباب الذي يستلزم دخولي منه المرور على قبر زينب . وصرت من باب آخر . وحمدت الله إذ لم يعرفني الحرس الذين كانوا تحت رياستي عند ما كنت مساعداً لرئيس الجلادين وقلت في نفسي إنهم معذرون إذ لم يعرفوني لأن الهيئة العسكرية التي كنت عليها وأنا في ذلك المنصب غير الهيئة المتواضعة التي أظمر بها الآن

— « لم يستقر رأيي إلي الآن »

فأطرق لحظة ثم قال : « إن إقامة المرء وحده متعبة حتى ولو كانت إلى أجل قصير فإذا كانت لك حاجة فاني أؤديها »

فقلت : « زاد الله فضلك فان حاجتي عند الملا »
قال : « أخبرني بها فلا فرق بيننا وإذا شئت فاني أسهل عليك أمرها عنده . وعندنا كل ما تريد بكل ثمن »

فقلت : « إنني لست تاجراً »

قال : « أنا لم أعن أنك تاجر ولكنك غريب عن هذه المدينة وقد تمكنت فيها عاماً أو شهراً أو أسبوعاً فلدنيا كل ما تريده في هذه المدة »

فزادت دهشتي من اللغة التي يتكلم بها هذا الرجل ولم أفهم ما يعنيه . وفي هذه اللحظة دخل « الملا نادان » . وكان هذا الملا في سن الأربعين وهو معتدل القامة وسيم للطلعة حسن اللبس وعلى الرغم من أن قامته كانت أشبه بقامة رجال السيف منها بقامة رجال العلم فقد كان يعوزها للعلامم الهالة على الشجاعة . وكانت أجلى صفة تظهر على وجهه هي المكر

دنوت منه وحييته وقدمت إليه خطاب أبي القاسم فأخذه وقرأه . ولكنه لم يقل حرفاً عما فيه ثم أخذ يسألني عن صحة مرسل الخطاب وعن أحواله فصرت أجيبه متظاهراً بأنني كنت وإياه على اتصال وثيق ثم أمرني بأن أجلس ورحب بي وقال : إنه يأسف لأنه لم يكرمني على العادة الإيرانية بتقديم غليونه لي وقال إنه لا يدخن وإنه يستنكر عادة التدخين ويرى لرجال الدين أن يتعففوا عن هذا النوع من الترف . وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن

شرب الخمر وإن التدخين ليس من المسكرات ولكنه قد يخدر في بعض الأحيان فهو عنده في حكم الخمر المحرمة . ثم أخذ يتحدث عن نفسه ويمدد فضائله حتى حسبت أن حياتي في هذا المنزل ستكون قاصرة على استماع البهاة والمفاخرة وأنا لن أتعلم ما كنت أريد تعلمه من الدين .

الفصل الثالث والخمسون

المرو ناداه ببرير فمطه للمصروف على الأضراس

ولمساعد الناس

لما انصرف الشيخ الذي كان جالساً معنا في هذه الغرفة أخرج الملا كتاب أبي القاسم من جيبه وأعاد قراءته وقال : إنه يحترم هذه التوصية وسألني عن مؤهلاتي فأجبت بما أقنعه وأرضاه وقال لي : « لقد كنت أبحث عن رجل تتوافر فيه صفاتك فلم أتمكن من العثور عليه إلا الآن . وقد كان هذا الرجل الذي انصرف منذ لحظة يؤدي لي بعض الخدمات ولكنني أبحث عن من يرى مصالحى كأنها مصالحه وأريد من يأكل مني الخبز صامتاً ولا يطمع أن ينال أكثر مما يستحق »

فقلت : للملا إنني بلوت الحياة ورأيت كثيراً من الحوادث وإنه لم تمر بي حادثة لم أستفد منها وإنه سيجد مني خادماً مطيعاً وإنني أريد أن أكون مسلماً كما ينبغي أن يكون المسلم

قال الملا : « مادام الأمر كذلك فساء كون نصيرك لأنه لا صفة أحب عندي من صحة الاسلام . وليس في الناس من يصلي أكثر مني مواظباً على صلاته وليس في ثيابي شيء من الحرير أو الذهب ولست أنام إلا وأنا متوضئ ولست

أدخن ولا أشرب النبيذ ولا ألعب الورق ولا لعبة
الشطرنج وأنا أكثر من الصيام ولم أقطع قط عن
صلاة الجمعة »

وقد امتدحت كل هذه الصفات وتخلقت بها
أمامه في الأيام التالية فسر منى حتى كاد سروره في
يعدل سروره بنفسه وقال لي إنه لم يتزوج وإن ذلك
لا يعد مكرمة لأن النبي عليه السلام قد تزوج وإنه
إنما امتنع عن الزواج ليتوافر لديه الوقت للعبادة
واستغناء عن سنة الزواج بمساعدة الآخرين على
أن يتزوجوا

قلت له : « أرجو ألا تترك أمراً من أمور الدين
إلا علمتني لأنني في جهل بالدين كالكفار والأتراك »
فقال : « سأعلمك كل شيء تريد أن تتعلمه .

وأمر إليك أن الشاه وهو أتي الأتقياء شكاً إلى رئيس
العلماء « ملا باشي » من فساد الأخلاق وسريان
روح الفسوق والطفيان وكافه أن يستأصل هذه
الصفات ولكن (ملا باشي) رجل حمار لا يعرف شيئاً
فطلب إلى أن أجيب الشاه عن أسباب الفساد للساري
في هذا الزمن وعن وسائل علاجه . وقد دلفي النظر
إلى أمور الناس على أن من العيوب السائدة في هذا
المصر كثرة الطلاق فما يكاد الرجل يقيم مع زوجته
عاماً أو عامين حتى يطلقها ورأيت من جهة أخرى
كثرة الزنا والفسق فرأيت خير وسيلة هي أن أحصى
الطلقات وأزوجهن للزنا والفساق وبذلك يستقيم
الناس »

ولما أخبرت الملا باشي بهذا الرأي سر كل
السرور وأمر باستئجار منازل صغيرة يسكن بها
عدد عظيم من الطلقات، وصار يقد زواجهن على
كل خاطب ويأخذ على ذلك أجراً ، فكثر أمواله

ولم يقاسمني مع أنني صاحب الرأي في ذلك، ومن أجل
ذلك رأيت أن أفعل مثله وأنا أحق منه بالانفراد
لأنني صاحب الاقتراح ولكنني أرى أيضاً أن يكون
ما أفعله سراً وإلا استعان على بنفوزه لدى الشاه
ونفاني من المدينة »

كنت أصنى إلى ما يقوله الملا وأصعد فيه
نظري وأصوبه وأنا متعجب من فكرته . وقام
بنفسى الشك في أن يكون عمله هذا منطبقاً على
الشرع الذي يزعم أنه يحميه . وتمجيت أيضاً من
قول أبي القاسم عن هذا الرجل إنه طيب . وبدأ
لي أن الوصف الصادق الوحيد الذي يستحق أن
يوصف به هو الخبث الشديد . على أنني ظلت أطرى
أفكاره .

واستمر يقول : « وعندي الآن ثلاث من
النساء بمنزل صغير مجاور لهذا المنزل وأريد
استخدامك في البحث عن أزواج لمن ، فأذهب إلى
كل خان بالمدينة ولا حظ للتجار والغرباء وتلطف في
محدثهم عن الزواج وقل لهم إن شروطنا أخف من
شروط الملا باشي ، وسأعطيك أجراً على ذلك بنسبة
البلاغ الذي تحصل عليه . وسيأتي يوم تكون فيه
ملا مثلي وتتفرد أنت بهذا العمل وبكل ما في منزلي
من مال وأثاث لأنه لا وارث لي ، ومتى كان عندي
ضيوف فأد في منزلي واجب الخادم وإذا ما أنصرف
الضيوف فاجلس منى كما يجلس الصديق إلى صديقه
وسأهد إليك ييمض أعمال كناية »

لما فرغ الملا من كلامه لزم الصمت ليعرف بماذا
أجيب ولما رأيته واجماً أدرك مبلغ ترددي فترك لي
مهلة دقائق للتفكير . ولقد كنت أنتظر أن أكون
في حيلتي الجديدة زاهداً في حطام الدنيا ما كفاً على

ولما رأيتني وضعت على أوجهم البراقع، فسلمت عليهن وأخبرتهن عن مهمتي وطلبت إليهن أن يرفعن البراقع حتى أراهن لأن مهمتي تستلزم ذلك. فحينئذ أحسن تحية وقلن إنهن يأملن الخير على قدومي وأسرعن اثنتان منهن إلى رفع النقاب فرأيت خدوداً قدودعت البياض والحمرة من عهد قديم ورأيت عظام الوجنت بارزة ورأيت عدداً من المنضون والتجاعيد. أما الثالثة فإنها لم ترفع نقابها. قلت للسيدتين: « ما شاء الله ! هذا الجبال جدير بأن يحملكما من زوجات «فرهد» نفسه. لا تعطيلنا النظر إلى حتى لا أفقتن. ما أجل هذه السيون ! ما أحلى هذه الشفاء ! لكن لماذا لم ترفع هذه السيدة نقابها؟ — وأشارت إلى السيدة الثالثة — لعلها تراني غير جدير بأن أتمتع بشمس هذا الحسن » فقالت صاحبتهما لها: « ما هذا الحياء ؟ افعل كما فعلنا وإلا أصبحنا مضنة في أفواه الناس »

فرفعت المرأة نقابها. وما كان أشد انزعاجي ودهشتي عند ما رأيت أنها زوجة ميرزا أحمد رئيس الأطباء

صحت قائلاً: « لا إله إلا الله ! ما هذا ؟ هل أنت بك الجن إلى هذا المكان ؟ »

فقالت لي بلهجة المتحسر اليأس: « نعم يا حامي بابا، إن القدر عجيب ولكنك أنت يا قاتل زوجي كيف أصبحت عالماً من العلماء ؟ »

قلت: « هل قتل زوجك إذن ؟ ولكن لماذا تكلميني بهذه اللهجة ولماذا ترعمين أنني قتله ؟ لقد كان زوجك سيدي في وقت من الأوقات وأنا شديد الحزن على فقدته

خبريني ماذا حدث له فإني أدور في عالم من الجهالة »

الصلاة والصوم عاملاً مجدداً للدار الآخرة فوجدت الأمر على عكس ما كنت أنتظر فإن كل طريقة خبرتها للارتزاق أعف عندي وأشرف من التي يدعوني إلى ضراوتها واحتقرت نفسي لاضطراري إلى قبول ما يمرضه علي. لكنني مع ذلك قبلت للعمل معه وفقاً لشروطه وقال لي إنه سيعود إلى الكلام معي عن هذا الأمر في فرصة أخرى وإنه سيذهب الآن ليقابل شيخ العلماء ثم عاد إلى أسلوبه اللازم في المفاخرة فقال إنه يحتقر مظاهر الدنيا وإنه لذلك لا يستبقى بمنزله من الخدم إلا ما تقضى به الضرورة وليس عنده بالنزل من الخدم غير طبّاخ وسائس ووصيف وبواب. وليس عنده من الركائب غير حمار أبيض وقال لي إنه سيشتري بغلاً في المستقبل القريب لأن ركوب البغال أدل على الوجهة من ركوب الحمار. وقد انتهزت هذه الفرصة فأخبرته أن عندي بغلاً لطيفاً وبعد أن تفاوضنا في ثمنه بته إليه وقال إنه سيستبقى الحمار لركوبه فكان ذلك أول زيج ريجته من اللا

الفصل الرابع والخمسون

حامي بابا وسيط في الزواج

أمرني الملا بأن أقدم نفسي إلى الطاقات اللواتي يتفق عليهن وأوصاني بدراسة صفاتهن حتى أستطيع التكلم عنهن مع الرجال وأن أتحرى منهن عن أعمارهن والبلدان التي ولدن فيها وعن مؤهلاتهن وبعد أن فعلت ذلك ذهبت إلى السوق فاشتريت ثوباً من ثياب العلماء « ملا »

وكان هؤلاء النساء جالسات على حصير ممزق وهن في ثياب رثة ولكنهن كن مولعات بالتدخين.

فقلت : « لماذا تدعى الجهل يا حاجي بابا ؟ ألا تعلم أنك السبب في فرار زينب وأن فرارها كان سبباً في غضب الشاه عليه وتنف لحيته وأن ذلك كان سبباً في إلحاق الخزي به وأن خزيه أدى إلى موته حسرة » قلت : « ما هذه التهمة التي تهمني بها ؟ لو كان زوجك مات بتخمة فهل كنت تهين الفلاح الذي زرع الأرض بأنه قتله ؟ »

ثم طالت بيننا المناقشة وعادت المرأة فذكرت أن طول مناقشتها لي ليست في مصالحتها وأنها في حاجة إلى مرضاتي . وقد تبين لي بالرغم مما تبديه الآن من الحب زوجها الأول وحزنها عليه أنها كانت تكرهه أشد من الكراهية العادية وأنها حمت الله على موته

ولسكي أنعم الهزلة التي جئت من أجلها بدأت بأرملة الطبيب فسألتها عن مؤهلاتها الزوجية حتى إذا وجدت لها زوجاً استطعت أن أتحدث معه عنها فقلت لي : « تعلم أنني كنت في وقت من الأوقات من جواري للشاه ، وكان جلالته يفضلني على زوجته وعلى سائر الجواري اللواتي كن يخفن مني وترجف قلوبهن لدى ذكر اسمي . ولكن من الذي يأمن صولة الأقدار ؟ لقد كنت معززة مكرومة في القصر حتى شاء جلالته إكرام رئيس أطبائه فأهداني إليه . ولا تسلم عما قاسيته من الآلام عند ما انتقلت إلى منزله وتغيرت أحوال المعيشة أمامي تغيراً ما كنت أقدره . ولست أريد أن أعيد عليك قصة زينب فأنت تعرفها . ولكنني حاولت أن أسترده عطف الشاه بعد ما مات زوجي فوجدت أذنيه مسدودتين واضطرت بعد المز والرفاهية وإطمئنان البال إلى البحث عن زوج آخر »

ثم أخذت تبكي وأخذت أعزبها عن سوء حظها وأؤكد لها الوعد بأنني سأبحث لها عن زوج ملائم ...

فقلت : أنت ترى أنني لا أزال جميلة وأن عهد شبابي لم ينقض . أنظر إلى عيني هل انطفأ وميض الحسن فيهما ؟ أنظر إلى جبينى الناصع وإلى خصرى النحيل . فأخذت أحلق فيها كما أرادت ولكن بدلا من أن أرى شباباً وجمالاً رأيت قبحاً وتشوهاً وعددت موقفي هذا منها بمثابة انتقام إلهي لسوء معاملتها لزينب

ثم حدثتني السيدتان الأخريان عن تاريخ حياتهما فقلت إحداها إنها زوجة صانع مات. وقالت الثانية إن زوجها كان جندياً فهرب خوفاً من غضب الشاه وانضم إلى الروسيين وإن القاضي طلقها منه لهذا السبب. وقد حاولتا أيضاً إقناعي بأنهما صغيرتان جميلتان فتظاهرت أنني مقتنع بذلك وقالت لي إحداها : « تذكر أنني لم أ تجاوز الثامنة عشرة وتذكر حاجي المقرونين اللذين يظهران كأنهما حاجب واحد » فوعدها بأن أتذكر. ثم خرجت من عندهن. فلما ابتعدت عزيت نفسي عن رؤية أوجههن القبيحة بأن ضحكت ضحكة عالية .

الفصل الخامس والخمسون

مهاجى بابا يزاول عمله الجديد

بعد أن أدبت هذا الجزء من واجباتي ذهبت إلى خان من أكثر خانات المدينة ازدحاماً لى أرى فيه رجلاً من الذين أبحث عنهم وفى أثناء الطريق وجدت زحاماً عظيماً مقبلاً من جهة باب من أبواب المدينة . وسألت فعلمت

على هذه الحال فوطن النفس على أن يقضى بقية العمر كأنه جل من الجلال التي يرعاها . ثم ظهر سني من التركانيين آمن به كل هؤلاء السذج لابتدائه أموراً عجبية بهرت عقولهم للبسيطة فتسلط عليهم وقوى نفوذه . وكان هذا المشعوذ كثير الصلاح أو متظاهراً بكثرة الصلاح فمرض عليه عثمان أغا نفسه وأقنعه بأنه سني وأنه من نسل الأشراف فأمر بإطلاق سراحه

وذهب عثمان إلى بخارى ، ولمرفته السابقة بالتجارة استطاع أن يجمع ثروة في مدة غير طويلة ، واشترى بضائع من بخارى وجاء بها إلى إيران فباعها وهو الآن في طريقه إلى الآستانة ليبيع بها بضائع من بخارى وسمرقند وقارس ، وفي عزمه أن يذهب إلى الآستانة فيبنداد وهي بلده الأصلية

وأخبرني أن مدة إقامته في طهران قد تمتد إلى الربيع لكي يسافر منها مع القافلة ولكي يرفه عن نفسه في هذه العاصمة بعد أن طالع حياة الخشونة في أسر التركان ، ولما وجدت ميته إلى الترفيه عن نفسه كما يقول وكنت أعلم من معاشرته السابقة شدة ميته إلى النساء اقترحت عليه أن يتزوج إحدى المطلقات اللواتي أبحث لمن عن الزواج . ولقد كان موافقاً بديماً وأما أسى في أن أزوج أرملة سيدي المتوفى من سيدي الذي لا يزال على قيد الحياة ، وإنما اخترت تلك الزوجة لعثمان أغا لأنها أضخم المطلقات الثلاث جسماً ولقد وصفتها له فأعجبه الوصف وقبل الصفقة اعتماداً على قولي

ذهبت بعد ذلك لأبشر الملا نادان بنجاحي وقصصت عليه قصتي مع هذا الصديق في الأسر فأصغى إليها باهتمام . وقال لي إنني سأكون وكيل

أن قافلة جاءت اليوم من مدينة مشهد حيث كان يقام مولد الامام علي الرضا ، فأخذت أنظر إلى وجه كل رجل من القادمين وأنقرس فيه لعله يكون من يبقني أو لعل أجد بعض الأصدقاء الذين عرفتهم في تلك المدينة ، وأثنى كان عهدي بها طويلاً فان ذاكرتي القوية أتت كل وجه رأيت فيها . ولما كدت أياس من رؤية صديق رأيت رجلاً ذا أنف خالق خلقة خاصة وظهر منحني يشبه الحدية فتعلقت نظراتي به وقلت في نفسي هذا رجل أعرفه . وكان يشبه عثمان أغا الذي أخذني في أسر التركان ، ولكن عثمان يجب أن يكون قد مات فن عسى أن يكون هذا ؟ أما أن يكون غير ذي علاقة بعثمان فذلك غير محتمل فإن لم يكن هو فأخوه أو شيطانه . ودنوت منه فرأيت على وجهه انقباضاً وزاد ذلك من شكي لأن الانقباض أظهر خلة في صاحبي عثمان . ثم تكلم فسمعت ذلك الصوت الذي ألفتته أذناي ، وقد كانت الجملة التي نطق بها هي التي سمعتها ألف مرة وهي : « أرجو أن تخبرني عن سمر الجلود في الآستانة »

وكان هذا السؤال موجهاً إلى تاجر معه ، فلم أنتظر جوابه بل قلت : « سيدي ! أأنت عثمان أغا ؟ » ثم عرفته بنفسه فلم يكذب يصدق أنني حاجي بابا الذي كان معه في الأسر

وبعد أن تذكرنا حوادث الماضي مدة ما أخذ كلانا ينهي الآخر ، ثم روى لي ما حدث له بعد أن تركته وقال لي إنه لم يكن له عمل في أسر التركان غير رعي الجبال ، وإنه تلبه هناك فلم يتألم من الأسر ولا يفكر في النجاة ، وإنه لم يكن يتألم إلا من أسر واحد هو غلام حصله على التبغ ومضت عليه سنوات

فلم أجده جواباً على سؤاله أليق من القول بأن
زوجته كانت في وقت من الأوقات نواردة القصر
الملكي وأن الزواج قسمة ورزق

قال : « نعم قسمة ورزق ولكن هذا القول
يا حاجي بابا يصلح جواباً على كل نكبة . ولست
ألومك على أنني تزوجت فهذه قسمة كما تقول وإنما
ألومك على أنك وصفتها بأنها صبية وهي عجوز .
ولقد خشيت بعد أن سمعت هذا القول أن
يطلقها ويطلبنا بما دفعه ولكن يظهر أن عقله غلب
عليه فتذكر أن مثله - في مثل سنه - لا يستطيع أن
يتزوج من صغيرة جميلة .

ونقل زوجته معه إلى الخان وظهر لي من قرائن
متعددة أنه لم يكن مسروراً منها ومن بين هذه
القرائن أنه دخل قبلها غرفته في ذلك الخان وقال
لها إنها تستطيع أن تتبعه إذا شاءت .

« يتبع » عبر اللطيف النشار

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جهنم الزطاني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعنها ١٥ قرشاً

الزوجة، وعلى الزوج أن يستحضر ويكلاً عنه في عقد
الزواج . وأمل على شروط الزواج . وطلب مبلغاً
كبيراً من المال في مقابل وساطتنا هذه

ثم ذهبت إلى السيدة لأسمع منها كلمة للقبول
بتوكيلي ولأبشرها بمجادة هذا الزوج النقي . وقد
كان سرورها شديداً عند ما أخبرتها وبدا الحسد
على وجه صاحبها . كما تبيئت على وجهها كل علامة
الزهر لأنها عدت هذا النجاح السريع راجعاً
إلى جمالها

وذهبت إلى عثمان أغا ولشد ما كانت دهشتي
عند ما وجدته يتعليب بالمسك وقد اغتسل وصبغ
لحيته بلون أسود ويديه بالحناء الذهبية . وطلبت
إليه أن يرافقني إلى بيت اللانادان فشى وهو يتكلف
مشية جديدة . ولا شك في أن منظره في ذلك اليوم
كان كمنظره قبل عشرة أعوام

وكان الخاطر الذي يحول بفكري ساعة انمقد
مجلس الزواج هو ما سألقاه من الويل إذا لم تمجبه
الزوجة . وتذكرت الخمسين « ووكات » التي كنت
أخذتها من ماله في مدة الأسر
وتذكرت كذلك سابق إحسانه إلى فاستكبرت
أن يعتقد أنني أسأت إليه

وأخيراً تزوجا . وذهبت للتهنئة فقال لي : « لقد
أنفمتني يا حاجي بابا أن المروس صبية، فقل لي كيف
وجدت في جسمها مع حداثة سنّها هذه النضون
والتجاعيد التي قلما وجد أكثر منها في جسم أي
جمل من الجمال ؟ »



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

برلن الاشتراك عن سنة

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
حاجين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

نصدر مؤقنا فى أول كل شهر وفى نصف

السنة الثالثة

٢٤ المحرم سنة ١٣٥٧ - ١٥ مارس سنة ١٩٣٩

العدد ٥٢

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
٢٢٦	وحدانية الحب أقصوصة مصرية بقلم الأستاذ درينى خشبة ...
٢٣٩	صداقة الحب للكاتب الفرنسى هنري بوردو بقلم الأستاذ ناجى الطنطاوى ...
٢٤٩	أكان يجب أن أخبرها عن الانجليزية بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
٢٦٦	حاجى بابا أصفهانى للكاتب الانجليزى « جيمز مور » بقلم الأستاذ عبد الطيف النشار

— أنت تنال في تقدير هذا
السكان يا فؤاد
— لست أغالى... ألا تعترف
من بأنه حاكم بأمره ؟
— هو ذاك ... لكنه في
الوقت نفسه يجعل الانسان ...
أو يجعل القلب ... كالفراس ،
فهو يطير به على كل زهرة ، ويرف

وَحَلَّ النَّبِيُّ فِي الْحَبِّ
أَقْصَوْصَ هَذِهِ مِصْرِيَّة
بِقَلَمِ الْأَمْتِ تَذَدْرِخُ خَشَبَةٍ

به في كل بستان
— إن الفرّاش يفعل ذلك من أجل صالحه ،
ولستنا ماديّين في الحب يا صديقي !
— هذا هو غرور الانسان ...
— ليس غروراً ... فقد كرّمنا الله خلق حبنا
من نور ... من كهرياء !
— وهذه فلسفة أيضاً !
— ليست فلسفة ، بل هذا هو الواقع !
— كل هذا تقوله عاطفتك المشوبة ، ولو حكمت
فيه عقلك لتبخر كله وعرفت حقيقة الحب وما هيته !
— يجب ألا تكون علاقة بين الحب والعقل ...
إن العقل شيء قبيح جداً ... إنه يثلف كل شيء !
إنه يشوه الجمال ويمسحه ...
— يجب أن نفهم أولاً هذه المسئلة : هل نحن
في الحب نشبه الفرّاش أولاً فنشبهه !
— قلت لك إن الفرّاش ينتقل من زهرة
إلى زهرة ليمتص الرحيق الحلو .
— والقلب ! ألا ينتقل من حبيب إلى حبيب
إلى حبيب ليرشف الثور الحلو ، ويقطف القبل
من ورد الحدود ؟ !
— هذا هو الفسق ، ليس هذا حباً ؟

— والله يا صديقي أنا لا أدري كيف يفهم الحياة
هذا الشاب ! إنه أكثر ما يكون ساهم غائر المبين ،
له نظرات عميقة ممثلة نافذة لست أعرف كيف
أفسرها ولا أدري كنهها
— هذه حال المحبين يا عزيزي ... ألا يجب
صبري ؟
— لا أظن أنه يجب كما نفهم نحن الحب
— ماذا تمنى ؟
— أعني أنه لم يهب قلبه فتاة بيمينها
— هذا لا يهم
— وكيف ؟
— قد يجب الانسان فتاتين وقد يجب ثلاثاً
وقد يجب أكثر من ذلك
— وماذا يكون هذا النوع من الحب ؟
— يكون مثل كل أنواع الحب !
— أكبر ظني أنه يكون حباً حيوانياً
— ولماذا يكون الحب التعدد حيوانياً ؟
— لأن الحب كائن أرستقراطي مستبد ، لا يرى
أن يشركه شيء في صولته ، ولا أن يحكم معه أحد
في دولته ... إنه حاكم بأمره يا عزيزي ... إنه
دكتاتور ! إنه يقصر مسلط على جميع الثرائر يا عزيزي !

وأنهن جميعاً قد غزوين فؤادك ... هذا بشرط أن تكون أنت فتى فينان الشباب دفاق الدم فوار الماطفة وأن تكون فتياتك غيداً أماليد ذوات سحر وخفة — إذن أنت تخلق ظروفًا خاصة تبرز بتوفرها التمدد في الحب ...

— يا صديقي ، الحب استجابات للظروف التي تحيط بالقلب في فترة ما من الزمن .
— أراك قد أطلت في تحليل فلسفتك الجديدة ، ولست أدري ما علاقة ذلك كله بصبري وما يمروه من وجوم وشروود ذهن !

— علاقة ذلك بصبري أننى أوكد لك أنه يجب !
— وكيف وهو متزوج !؟
— أوكد لك أنه يجب ولو أنه متزوج !
— إنه متزوج من الفتاة نفسها التي كان يهواها بل يبسدها !

— ليس يمنع هذا من أنه صبا إلى غير زوجته !
— وكيف يصبر إلى غيرها وقد وهبها حياته وتفكيره وجهاده !

— فى سؤالك عود إلى حديثنا السالف ... وصديقك صبرى يؤدى وظيفة الفراش فى رشف الرحيق من الأزهار ، وهو قد انتقل من روضة إلى روضة ، وأؤكد لك أنه سيتنقل إلى أخرى ، وسيظل هذا حاله حتى يخذ جسمه ، وتنطق جذوة شبابه ، ويفيق إلى الحقيقة ...

— وأية حقيقة يا غالب !

— حقيقة الحياة !

— وما حقيقة الحياة بمد هذه الجولات التي يصورها لك خيالك فى عوالم الحب ؟
— لا أستطيع أن أذكر لك ... ستعرف كل

— وما الحب إذن !

— الحب أن يفنى الحب فى الحبيب ، أن يؤثره بكل شيء ... ألا يشرك معه أحداً فى قلبه !

— بل الحب الأثرة !

— وكيف يكون الحب أثرة ؟

— الأثرة : الأناية !

— ما سألتك عن معنى الأثرة لتقول إنها

الأناية ... كيف يكون الحب أثرة !؟

— يكون الحب أثرة لأنه يجعلنا أنانيين ... فهو يجعلنا نتوهم أن الحبيب هو لنا فقط وليس لأحد سوانا ، فإذا رأيناه ينظر إلى شيء أو يعنى مع شخص آخر ولو كان هذا الشخص من محارمه ، ثرنا وتولانا الغضب ، فإذا حدث أنه غاب عنا بعد ذلك تسلمتنا الشكوك واقتربتنا للغيرة وترادفت فى رؤوسنا حينذاك كلمات كثيرة حفظناها من أنايتنا المريضة ... فمن ذاك كلمات الرقيب والمذول والمجر والخصام ... وقد تذكر البكاء فنبكى ، والدموع فنسفع الدمع الفزير ، وقد لا تقوى على البكاء فنبتى ساهمين مفكرين مشردى اللب عميقى النظرات كما رأيت صديقك صبرى ...

— وكيف يجب من تكون هذه حاله غير حبيبه ؟

— يجب غيره لأنه لا اختيار لأحد فى توجيه

قلبه ... هينان تقمان على منظر حسن فيتأثر القلب ويرقص ويضطرب ويمشق إذا كان هذا المنظر فتاة حلوة ريانة ... هذا كل شيء !

— عجباً !

— أى عجب !؟ أنت أول من يكفر بالوحدانية

فى الحب إذا واثتلك الفرصة للخلوة بأكثر من فتاة جميلة فى يوم واحد فتراك قد ملت إليهن جميعاً ،

شيء، ولكن من سجل الحوادث، فهل بنا تتجسس أخبار البطل ...

— أى بطل؟

— البطل الذى تماربنى فيه.

— صبرى؟

— أجل ... صبرى ... صبرى

كان غالب أفندى عبد الرؤوف صادق الفراسة فيما ذهب إليه من تحليل وجوم هذا الشاب المعجب، صبرى أفندى نجيب . فلقد أحب صبرى زوجته حباً جماً قبل أن يصل أسبابها بأسبابه . ولقد كان يهواها ويبسدها كما زعم فؤاد فى حديثه الطويل الجميل مع الأستاذ غالب . وكانت قصة غرامهما درامة رائمة فياضة بالدموع جارية للمبرات، فيها ألم وفيها عذاب، وفيها من تباريح الحب ما غمر قلبيهما وصهرهما وظهرهما، وفيها أقسام غليظة وعهود وثيقة أن يكون أحدهما للآخر وألا يشرك أحد منهما بصاحبه مادامت الأرض والسماء

وكان صبرى فتى جميل الحيا وافر الثروة أنيق الهندام يحب الغناء، مشغوقاً بالموسيقى ... وكانت له ضيعة فى ضواحي الزقازيق تانى له بقلة عظيمة، وكان يحب منزله الرني الشرف من ناحية للشرق على حديقة متوسطة أقام فيها كرمًا وارف الظلال يقسمها أربعة أقسام تلتقى عند عريش جميل كان صبرى معجباً به، فكان يجلس تحته يبنى أو يداعب عوده، أو ينظم أغاريد المصرية الصافية ثم يلحنها، أو يقرأ فى ديوان، أو يتلو قصة، وشذا الورد وعبق الأزهار، والحديقة كلها، بل الدنيا جميعاً تتأرجح من حوله، فتكون بين يديه لحنا من أعذب

الألحان، أو روضة من جنات رضوان أما من ناحية الجنوب فكان المنزل مشرقاً على الحقول الممتلئة بالحياة المنبسطة تحت رحمة الله، تؤتى أكلها فى لين ويسر، فتعلاً الأهرام كما تعلاً الجيوب، وتفيض على الناس خيرات وبركات أما من ناحية الشمال، فكانت تتدفق مياه التربة القديمة الخالدة تحت أشجار الجيز والنبق، وفي ظلال النخيل الباسق، وكانت تحدث خراباً ما كان أحلاه وما كان أشجاءه، لأنه غناء الطبيعة ونشيد الخلود

هنا كان يقيم صبرى ... يبنى وينظم ويقرأ، ويتحد بالسكون الرائع الهادى، ويسرى فى الليالى المقمرة نفحة جميلة ذات جرس فى أجواز الفضاء، ويستيقظ مع الشمس ملاكاً تقياً، يرف فوق عروش الشفق، ويتطرح فى ظلال الدوح فيتأمل فى قدرة الله العلى، ويملاً قلبه من جمال ما صنعت يداه ثم يقضى أمثاله مع مغرب الشمس منعنياً فوق عوده يستودعه أسرارده ويبوح له بمكنون قلبه ...

ما أجل الريف المصرى وما أحسن انسجامه! هنا كل شيء فطرى، فلا مجازفات ولا مخاطرات ... قناعة ونفس مرسل على سجيته ... فلماذا آثر صبرى للساذج القانع أن يذهب إلى القاهرة؟! ماذا فى القاهرة أجل مما هو هنا فى تلك الضاحية الفطرية الرائمة؟! إن القاهرة كالقول الذى لا يفتأ يكسر عن أنيابه يفترس السجاياء ويطعن الجبال ... إنها مأوى الأبالسة ومرتع الشياطين وملب الجنة، وإن تكن أكثر بلدان الله مساجد وكنائس وبيعاً ... كل ما فى القاهرة مصنوع .. ليس فيها شيء لم تنفق على تطريته الألوف والألوف .. إنها حى من أحياء

تلك القلوب الرطبة بما حباها الله من رشاقة وخفة وجمال

لم تكن سنية من هؤلاء الراقصات اللاتي يتجرن بأجسامهن فيجعلن أثماناً للنظرة والابتسامة والكلمة والجلسة والربنة بأطراف الأصابع ثم السهرة بما يكون فيها من نصيب أوفى للشيطان ، فتكون القبلة بشمن قدره كذا، والضممة بسمرورنه كيت، والرقصة العارية المجردة بكذا من القروش المدودات ...

لا... لم تمارس سنية هذه التجارة القذرة وإن تكن بحكم الصنعة تعرفها ، وكانت على استمداد لممارستها لو لم يدخل صبرى افندى نجيب في حياتها فجأة ، فكان دخوله فيها كالنور الذي يقشع الظلام ويبدده ، ويحل للبشر والايانس محل النجوم الذي هو مصدر جميع الشرور

لقد كانت سنية تسبح في حفلة الرقازيق الساحرة في فيض من ضوء البرتقال في خفة ورشاقة وتثن ، وكان جسمها الناضج الخصب الممتلئ بالشهوات يروح فوق السرح ويحيى في حركات مضبوطة مترنة ، وكانت تخذها العارية اللساء الناعمة تنقبض وتسترسل وتلف كاللوب فوق قدم صغيرة حافية لها أصابع دقيقة أنيقة وعقب جميل مستدير ، كان عامل النور الخبيث يسلط عليها ذوباً من الضوء الأبيض الناصع فيجملها كزهرة الزنبق للفضة المنضوحة بخمرة اللؤلؤ

وكان ذراعاً سنية تستدقان عند الكفين ، وتلتفان عند الساعدين ، وتبرزان قليلاً عند الكوعين ، ثم تمتلئان عند المضد ، فكانتا بذلك أجل ذراعين تقع عليهما عين شاعر وموسيق مثل صبرى ...

وكانت الفتاة تحمل إحداها في رفق وهودة فوق صدرها الناهد ، فتغطى ثدياً وتكشف آخر

جهنم انتقل من سواء الجحيم ليكون فتنة هذه الدنيا والناس يتهافتون عليه لكثرة ما فيه من المفريات .. الملاعب ... المراقص ... المساهر ... الخانات ... دور القو ... تفاح الشباب ... مصائد اللذات ... المواخير ... أوه لهذه المواخير !

أحس صبرى ظمناً شديداً إلى القاهرة : لقد انتشرت الأبالسة تبحث عنه حتى وجدته يصلي بريئاً ساذجاً في صومعة الريف ، فنفتت في قلبه الرغبة .. ووسوست إليه بضرورة التخيير ... لقد ضحكت عليه وصرخت في صدره بأن الحياة التي يحياها حياة خاملة منشابهة تميت للنفس وتزهق للمواطف ، وتكبت الروح ... والشاب الذي له مثل شباب صبرى وقريمته ومزاجه لا يخلق به أن يحيا سجيناً هكذا لا بد أن يؤدي رسالته في محيط شاسع واسع يختلط بتغير كل ساعة ولا يبقى على سنة واحدة أكثر من يوم ...

ما هذا الريف الساكن الساكن الهادي الصامت الذي لا تحس له ركزاً ولا تكاد تسمع له همساً ؟ ما أبشع أصوات البقر والجاموس والحجر والأوز والبطة والكلاب الريفية وقطاط القرية !

ما أبشع أسراب الدباب تحط على كل شيء وتمر كل شيء ، وما أقسى لدغات البعوض !

هكذا ألحت الأبالسة على قاب صبرى ، وهكذا بفضت إليه هذا الريف البار الذي لا يؤدي أحداً ولا يلحق الضرر بأحد ، ثم حسنت إليه القاهرة الساحرة المريدة التي لا تكاد تنام ...

وهكذا اتوى صبرى أن يتبع الفتاة القاهرية الرائعة التي رآها في الرقازيق ترقص في ليلة ساحرة مع إحدى الفرق الجواله ، والتي استطاعت أن تسحر

وهنا كان موضع فتنتها وسحرها ... وليس بدرى
الخيال أى للتدين أو فرقتة وأكبر نصيباً من الجاذبية:
المكتشوفة ، أم المختبئة تحت الكف للثيرة النداء ؟
أما ابتسامات سنية ونظرات سنية فكانت خير
رأس مالها فى دولة الجمال . فلقد كانت تغتر عن فم
حلو خلاب لم تعالجه إلا بقليل جداً من أحمر الورد
فاذا تبسم بدت ثناياها العذاب الرطاب ، وتضاحك
خداهها فتازلا الأفواه للظامئة بالقبل

أما عينها فكانتا نفاذتين أخاذتين ، لما شك
عجيب فى سويداءات القلوب ... فاذا لم يسلم الرأى
بنفسه ، غرق منها فى لجنتين من السحر ، فلم بدر
لنفسه قراراً ولم يفز بنجاة

هذه سنية ... هذه هي الفتاة التى شقت فؤاد
صبرى شقاً عنيفاً فاستقرت فيه غير راحة ... هذه
هي الفتاة التى غيرت مجرى حياة الشاعر الهادى
الساكن فجعلتها عريضة صاحبة مضطربة كالثورة .
تطلب كل شئ ، وتشتهى كل شئ ، ولا تقنع بشئ ،
ولا تسكن إلى شئ

لقد كان صبرى ينكر الجمال المصرى حتى رأى
سنية قائم به ، وعرف أن الخير موجود بوفرة فى
كنانة الله ، وأن الجمال المصنوع فى شركات السينما
هو زيف وبهرج لا يمدل الجمال الطبع فى هذا
الوادى القديم المقدس

ولقد كانت سنية تحفة من آيات النيل طبعت
على غرارها تحف كثيرة فادرة ، لكنها وأسفاً تختبئ
فى مباءات الفقر وتهمل فى الأزقة والطرقات ،
ويندر أن يكتشفها قلب عاشق أو خيال فنان إلا
فى مرقص أو ملهى أو مأخور ، بعد أن تشوهمها
يد اللعب ، أو تمزق عفافها يد الدنس ، أو تبذلها
الأغراض والشهوات ...

لقد كانت سنية تقف فى مفرق للطريق عند
ما ساق إليها القضاء صبرى ، وكانت موشكة أن
تردى فى الهاوية التى ابتلمت الألوف من أشباهها ،
لولا أن أشرق فى ليلاها هذا الكوكب الدرى فجذبها
إليه ليصنع منها قديسة !!

— بل الحياة فى الريف أجمل وأكثر بهجة ...
إنك واهمة يا أختاه ... إن حديقتي ستسحرك
بأزهار البرتقال والنارج والحوخ والشمش ...
وستطيرين إلى دوى النحل ... لا تخافى ، فنحن
هادى ودبيع لا يؤذى أحبابه ، لقد تقف النحلة على
يدى فتقبلها كأنها تعرف من أنا !!

— كل هذا جميل وساحر ، وأنا أحب الريف
كما لا يحبه أهله

— كما لا يحبه أهله ؟

— أجل ...

— وكيف يا سنية ؟

— إنهم من طول ما امتزجوا به يودون لو
تخلصوا منه

— وإلى أين يذهبون ؟

— إلى المدن الساحرة ... المدن الكذابة !

— إلى هذا الحد لا تحبين المدن !

— أنا لا أحب المدن لأنها ترهقنى - -

— وكيف ترهقك وكل من فيها صرعى هوالك !

— هذا هو الذى يضجرتنى ... إن الناس

يهاجوننى بشهواتهم وكل منهم يريدنى لنفسه وإلى
الآن لا أدرى لمن أكون

— لأحسنهم طبعا !

— ليس فيهم أحسن وأردأ ... كلهم أبناء

- آدم ، والخطيئة تجري في أصلابهم بالوراثة
- إنك تظنين بالناس الظنون يا سنية !
- ليس هذا مجرد ظن يا عزيزي ... لقد درستهم وخبرتهم مكنوناتهم ... أبداً لن أنسى ما تمرغ الشباب تحت قدي لأنيلهم إحدى ثمراتي ، فلما كنت أستدرجهم وأقترح عليهم سبيل الرحمن ، كانوا يمزفون ويمزفون مني كأن طاعون !
- وى ! !
- هذا حق ... لقد كانوا يفرون حتى لا يصيبهم طاعوني ... لقد كانت شهوتهم تنطق فجأة عند ما أذكر لهم الزواج ...
- ولماذا كانوا يرفضون ؟ !
- كانوا يرفضون لأنني راقصة ... ومن حق الناس على الراقصة أن ينالوها بأيسر ثمن ... ليس للراقصة أن ترتفع إلى الأفق العلوى الذى يحيا فيه جميع الناس ... إنها مخلوق وضع ، فكيف تحسب نفسها من مملكتهم !
- هذه مبالغة يا سنية !
- ليست مبالغة .. إن الناس يزدروننا ويذموننا أننا تجردنا من فضائلنا حين اضطررنا للموز إلى هذه الحرفة ... ولبت شمري ماذا كنا نصنع ؟
- لهذا قلت لك إن الريف جميل !
- ماذا تمنى ؟
- أنت تفهمين كل ما أعنى !
- أنمنى أن أنزل عليك ضيفاً ؟
- حاشا لله يا سنية !
- إذن لماذا تمنى ؟
- ألا تحسبن يا سنية أن كلا منا كان يفتقد الآخر من عهد بعيد ؟
- أخشى أن تكون حبيباً جديداً !
- ليكن ما تظنين !
- لكنى لا أحب لك أن تكون فى قائمة الآخرين !
- لن أكون فى قائمتهم إن شاء الله !
- هذه إذن تكون تفضية عجيبة !
- ولماذا تكون تفضية ؟
- قبل أن أفسر لك ما أريد أود أن تصارحنى !
- وبماذا أصارحك ؟
- لماذا تريدنى عندك فى الريف !
- لتكونى أجمل زهرة فى بستانى !
- خيال شاعر لا يستطيع أن يفربنى !
- ليس ما أقول من خيال للشعراء يا سنية ، ماذا تريدن أن أقول لك ؟
- أنت تعرف ماذا ينبغي أن تقول ، ولكن ... لا تكن شاعراً أرجوك !
- أتكلمين الشعر ؟
- أكره الشعر الذى يكذب به قائلوه على سامعيه !
- وأي شعر تحبين إذن ؟
- وأي شعر ترى أن يحب المذارى ؟
- الشعر الذى تنسله الدموع !
- قد يكون هذا أ كذب الشعر !
- الشعر الذى يحس الانسان حرارته !
- قد تكون الحرارة طبيعية فى قلب الانسان فيتأثر بأى أنواع الشعر ويحسبه حاراً !
- الشعر الصادق الحى إذن !
- قد يكون الشعر صادقاً حياً فى حين يكون صاحبه لا صادقاً ولا حياً
- وكيف ؟ أليس الشعر هو الشاعر ؟

- ليس في كل الأحيان ، فقد يكون الشمر
صناعة ومع ذلك تكون فيه حرارة وصدق وحياة
— فإذا كان شمري حقاً !
— أي !
— أي أنه ليس صناعة يزجها اللسان
ويزخرفها القلم !
— إذن فلماذا تريدني أن أكون عندك
في الريف ؟
— لتكوني لي وحدي فقد أصبحت لا غناء
لي عنك ولا حياة بدونك !
— أهذا هو الشمر غير المصنوع ؟ !
— إي وحقك يا سنية !
— لشد ما أنتم أنانيون يا عشاق !
— لست أنانياً ... ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— لا أريد أن تقع عين عليك فتسمتع بجمالك
بعد اليوم !
— إغراق في الشمر مرة أخرى !
— لست مغرقاً في شمر كما تظنين !
— أنت تراوغني ، وأوشك أن أضيق بك كما
ضقت بالآخرين !
— معاذ الله أن أراوغك يا سنية ، أرفض
أن تكوني لي ؟
— لست أرفض ولكن بأي سبيل ؟
— بأي سبيل كيف !
— هل تسألني ؟
— لا أفهم !
— لأنك تراوغني كما كان يفعل الآخرون !
— وماذا كانوا يفعلون ؟
- لقد ذكرت لك كل شيء
— آه ... فهمت !
— فهمت ماذا ؟
— لقد كانوا يريدون بعض ثمارك بأيسر ثمن !
— هو ذلك !
— وتحسبن أنني أصنع كما كانوا يصنعون !
— وماذا تصنع غير ذلك !
— كلا يا عزيز ... يا حبيب ... كلا يا سنية !
— لماذا ترتبك هكذا ؟ !
— أرتبك لأنك ترفضين أن يكون كل
ما أملك لك !
— إذن فاسمها مني ... أنا أرفض أن يكون
كل ما تملك لي .
— ولماذا ؟ أليس العيش مع شخص واحد
خيراً منه مع كثيرين !
— إذن أنت لم تفهمي ، ومن الخطر أن
تركن إلي ...
— من الخطر أن أركن إليك ؟ ولماذا ؟
— لأنني راقصة .
— وما في ذلك من الخطر لي ؟
— سأحطم حياتك ... سأجمل سمادتك
ألقاضاً ... لن تنظم بيتاً واحداً من الشمر بعد أن
أدخل منزلك الربي ... لن تغني ... لن تشكو
إلى عودك ... هل سمعت ؟ !
— أنت واهمة يا سنية !
— لست واهمة ، ولكنك الآن في فيض من
عواطفك فلا تستطيع أن تفهم ... ثق أنك سوف
تكون أشقى الأشقياء إذا آويتني في عشك الربي
الجميل ... فأنا أنصحك ...

- تنصحيني بماذا ؟
 — بأن تبعد عني ما استطعت ، فأنا خطر عليك
 — أرانا قد ابتعدنا كثيراً يا سنية ... لقد
 أسأت فهمي
 — كلا ، لقد فهمتك جيداً ... ألسنت تريدني
 لك وحدك ؟
 — بلى ، أريدك لي وحدي ، فما في ذلك مما
 أملك ؟
 — لم يؤلمني شيء ، بل إنه قد سرنى أن أفهمك
 كما فهمت الباقين ، فلقد كان كل منهم يريدني له
 وحده ... مثلك تماماً !
 — لكنك ذكرت أنهم كانوا يهربون منك !
 — كانوا يهربون مني كما يحاول أن تهرب أنت
 الآن !
 — وكيف أهرب منك وأنا أحاول أن أذو
 منك أكثر من كل لحظة دنوت فيها منك ؟
 — إذن أجب عما أسألك دون أن تلتوى هكذا :
 كيف تريدني أن يضمني منزلك الريفي إذا رحلت
 معك إليه ؟ أأكون فيه حبيبة ؟
 — تكونين فيه أئمن من حبيبة ؟
 — أأكون ماذا إذن ؟
 — تكونين مالكة متصرفة !
 — أى أنك تنزل لي من بيتك ؟
 — ولم لا أفضل ؟
 — بمقد مسجل ؟
 — بأية طريقة تحبين !
 — وماذا أملكه لأنفق على هذا البيت ؟
 — ضيعة واسعة !
 — تكون لي ؟
- تكون لك تتصرفين فيها كما تشائين !
 — ثم يكون بيتنا بعد ذلك ما أمر الله أن يكون
 بين كل امرأة يتصل بها رجل ؟
 — ... ؟ ...
 — لماذا لا تجيب إذن ؟
 — ... ؟ ...
 — ألم أقل لك إنك لا تفضل أحداً من أبناء
 آدم !
 — إنك تربكيني يا سنية !
 — ولماذا أربكك ؟ ألا تطلب منك ما يطلب
 الله من الرجال للنساء ؟
 — أنا لا أمانع فيما تطلبين ...
 — إذن لقد اتفقنا
 — ولكن لي شرط
 — وما ذلك إذن ؟
 — أن تكتفي بخطاب أكتبه إليك !
 — وشاهدين !
 — لك هذا ...
 — وما يخيفك من الطريق الذي يسلكه جميع
 الناس !
 — ليس يخيفني شيء !
 — عجيب أمرك والله ! إذن نسلكه نحن أيضاً
 ما دام لا ضير عليك فيه !
 — لكن ...
 — لكن ماذا ؟
 — لا شيء !
 — بل أنت تخشى أشياء كثيرة ؟
 — أشياء كثيرة مثل ماذا ؟
 — حتى ما تخشى منه تريدني أن أقوله لك !

أرأيت إلى هذا الحوار الطويل ؟ أرأيت كيف كان الفتى صبرى مثل كل الناس فى مغازلة هذه الراقصة اللبريئة ؟ لقد أرادها كما أرادها غيره ، ولما استمعصت عليه بهذه الوسيلة عرض وسيلة أخرى ... لقد أراد أن يقنصها بالمال ، لكنها أبى وصارحته أنها ترفضه ، فلم يجد بداً من أن يتفادها كما تريد ؛ وهو بذلك قد مسح حبه ومزق جماله وشوه للماطفة الكريمة التى سرت بين قلبه وقلب سنية ، ولو أنه كان قد أجاب صبيحة حبيته ولبي نداءها دون هذه المراقيل التى أقامها بينهما لكان أسعد حالاً مما انتهى إليه أمره

على كل حال لقد تزوجها وذهب بها إلى منزله الريفى الجميل ، ولقد سعد بها سعادة كانت تمتلئ أحلامه ...

وكانت سنية تنشد هذه الحياة الزوجية الهادئة البعيدة من المراقص والملاعب والحانات ودور اللهو ؛ ولم تكن مثل كل الراقصات تطرب لكلمات الثناء الكاذب التى يبعثرها العشاق حول أذنيها كي يخدعوها ... لقد كانت تعرف الباعث على هذه الكلمات ، فكانت ترددها فى صميمها ، وتحترق أصحابها ، وإن لم تبد لهم مكنون نفسها ، فكانت تجزيهم بإبتسامة فاترة لا تنال فيها ، ثم تمضى فى سبيلها تاركة فى كل قلب لوعة وفى كل نفس حسرات ؛ وكانت لذلك تصلى لله أن يرزقها هذه الحياة الطيبة الوداعة ، وأن ينقذها من السيون الجائمة ، والنفوس السائمة ، والشهوات الوضيعة التى تنطق بالدرام فى البؤر والواخير .. فلما فازت بها هدأت واطمأنت ونسيت لصبرى هذا الالتواء الذى كان يضعه بينه وبينها أول الأمر ، ثم عاهدت نفسها لتجملن بيته جنة ، ولتملأه غناء والحانا

— لا وحقك ، ولكن قولى لي ...
— هذا أمر يسير جداً ... أنت تخشى أن يعرف للناس أنك قد تزوجت راقصة ؟ أليس كذلك ؟
— ما هذا الذى تقولين يا سنية ؟
— بل هذا هو الذى يخيفك ... وأنا لذلك أرفضك !

— هذه قسوة شديدة لا أحتملها !
— قلبك ليس شجاعاً ، فهو لا يحتمل كثيراً
— سأبرهن لك أنك فهمتني خطأ
— وكيف تبرهن على ذلك ؟
— سأطلب يدك إلى أبيك !

— أبى !
— أجل !
— وهل تعرف أبى ؟
— أسأل عنه !
— تسأل من ؟
— أسألك أنت
— خير لك أن تسأل غيرى فقد أ كذبتك !
— لا تستطيعين !
— ولماذا لا أستطيع !
— لأن من كان له مثل لسانك لا يكذب !
— إذن ...
— إذن ماذا ؟
— لقد مات أبى !
— فأنت يتيمة إذن ؟
— أجل ، ولذلك نشأت راقصة
— إذن هلى ...
— إلى أين ؟
— إلى للقاضى ...

ومن زوجته ، وقد علم الناس أنها كانت راقصة ، وقد تحدثوا بذلك طويلاً ، وتحدث به أصدقاء صبرى وفي مقدمتهم غالب أفندي عبد الرؤوف صديقه الأخر ، ولا شك في أن صديقه الأخر هو الذى أذاع هذا الخبر . وإن يكن قد أذاعه مثنياً مادحاً لا ذاماً ولا قادحاً .. لكن النية معروفة على كل حال .. لقد أراد غالب أفندي أن يقول للناس إن صبرى أفندي نجيب صاحب هذا المنزل الجميل المنزل متزوج راقصة ، وسيفهم للناس أن كلمة متزوج هذه كلمة (تجوزية) فهم يقولونها ويريدون أن يقولوا إنه يؤوى في بيته راقصة ... والناس في الريف وفي المدن الصغيرة لا هم لهم إلا التحدث في شئون غيرهم الخاصة ، يساعدهم على ذلك فراغهم الكثير وعدم اتصال أشغالهم ... والانسان متكلم شغشاق بطبعه ، لا يستطيع أن يخزن لسانه إلا على قلق ، وهو إذا لقي إنساناً آخر جمل يفكر في ألف حديث يقوم بينه وبينه ، فإذا ضاقت به الأحاديث أرسل أى حديث والسلام ... فما يبالي أن يكون هذا الحديث غيبة وهو عادة لا يقصد الغيبة ، إنما هو يقع فيها وهو لا يدري ؛ ومن الناس من يقع في الغيبة وهو متعمد لأن كثرة وقوعه فيها غير عامد قد مهد لوقوعه فيها عامداً ، فهو يلقى الحادث الصغير فما يلبث أن يحوكم له الأطراف ، وينمز له بالمين والأنف وسائر أجزاء الوجه حتى تستقر في روع السامع منه أشياء ليست من الحق ، وليس فيها من الحق شيء ...

هكذا يعيش الناس في الريف وفي كثير من المدن الصغيرة ... وقد سمع صبرى حديث الشاين فأحس لساعته أن سحابة تنعقد في سماء سمادته ،

ومضت شهور والالاف مطمئن إلى إلفه ، سعيد به سمادة لا تشوبها شائبة ، ولا يكدرها مكدر ثم جلس صبرى مرة في ظل شجرة عارضة فوق دواره فسمع شاين يتناجيان خلف الجدار فيقول أحدهما والآخر يجيبه :

— كلا يا سيدى ... لقد جاء بها من مصر .. وكل الناس يقولون إنها راقصة !
— يا شيخ اتق الله، صبرى بك يتزوج راقصة؟
— والله لقد سمعت هذا من فم لا يكذب
— وممن سمعته يا صادق ؟
— من أعز أصدقاء صبرى بك ... من غالب أفندي عبد الرؤوف

— وما دخل غالب أفندي عبد الرؤوف في أن يتزوج صبرى بك راقصة أو غير راقصة ... الرجل حر ، وهو الذى اختار لنفسه ، ورب راقصة خير من نساء قريتنا جميعاً !

— مهما يكن الأمر فغالب أفندي يقول إن صبرى بك سعيد جداً بزوجه وهى خير له من أى زوجة أخرى .

— ولماذا ؟ لماذا يقول غالب أفندي هذا الكلام !
— قلت لك إن غالب أفندي لم يخطيء في حق صديقه ...

— مجرد ذكر الزوجة للتي لا شأن لأحد بها خطأ يا صديق ، هكذا غلبنا هذا الريف الذى نميش فيه !
— هذه مخاللة يراغب .. الحمد لله غالب أفندي رجل يحب صبرى بك ويخلص له ، وقد مدح زوجته مدحاً طيباً وأثنى عليها ثناء صادقاً .

إذن فقد كان الناس يتحدثون عن صبرى أفندي

— ما دمت لم ألق أحداً فكيف أسمع كلاماً ؟

— أوه ! صحيح ... أنا غبية

— عفواً ...

— هل أغنى لك ؟

— أكون سعيداً لو فعلت

— وعليك أن تأخذ للمود يا عزيزى

— لا أقدر

— إذن أقوم بالقناء والموسيقى مما ... هل

تقترح شمرأ فأغنيه ؟

— ليس فى رأسى كلمة واحدة فأقولها

— وأختار أنا مقطوعة من كلامك

ثم تناولت سنية عود زوجها فرجعت بصوتها

عليه ، فما راعها إلا أن ترى دمة تغالب عين صبرى

ثم تنطلق على خذه حارة ساخنة ، فألقت بالمود ناحية

وقالت له :

— ماذا ؟ أنت تبكى ؟

— لا ... أبداً

— وما هذه الدموع إذن ؟

— إنها نتيجة ما برأسى من ألم الصداق

— لا ... لقد سمعتها تقول شيئاً !

— الدموع تتكلم ؟ هذا هو الشعر الذى كنت

تصيبنى به

— وهذا هو الشعر الصادق الذى لم تستطع

أن تضرب لى عليه مثلاً !

— غنى غنى

— لن أغنى حتى تذكر لى ما يبكيك

— عجيب والله ! أغنى أنا !

ثم تناول المود فأمر أنامله على أوتاره فذهبت

تغنى للشرقة رنيناً وأبيناً ... وغنى غناء موحجاً باكياً

فقال له سنية :

وأن كاسامرة المذاق ترتفع إلى شفثيه ، وينسكب منها شيء فى فمه

وانقلب صبرى إلى منزله مفكراً مقطب الجبين

ساعماً ، فلما لقينه سنية لم تبال عبوسه وتقطيعه ،

بل راحت تلف ذراعها حول عنقه ، وتسלט عينيها

الرائعتين فى عينيها السادرتين ، ثم تقمر فمه الرئجف

بالقبل ...

يبد أن قبلها لم تسحره هذه المرة ، وظل صبرى

فاتراً كالأدى سرى فى كيانه هم ، أو فاجأته نازلة ...

فقال له وقال لها :

— ماذا ؟ هل ضاع كيس نقودك ؟

— لا ... أبداً ...

— هل خطف طفل طربوشك ؟

— ها هو ذا طربوشى

— هل حذفتك فلاحه بقشاة ؟

— ... ؟ ...

— مالك مقطباً هكذا ؟ ماذا حدث إذن ؟

— لا شيء ...

— أصرىض أنت ؟ أتحس تعباً فى رأسك ؟

— قليلاً

— إذن خذ هذا للقرص المسكن

ثم أذابت له القرص فى قليل من الماء ومدت

إليه الكوب بيدها اللقناة الرائعة فتناوله وشرب ،

ثم تطرح على السرير أمام سنية

— أين كنت يا صبرى ؟

— كنت فى النوار

— هل لقيت أحداً ثمة ؟

— ما لقيت أحداً اليوم

— هل سمعت كلاماً ؟

— هذا للفناء ترجان دموك ... ألا تذكر
لى يا صبرى لماذا كنت تبكى ؟

— لم أكن أبكى ، وما كذبتك يا سنية !

وفتت بهجة المنزل بعد ذاك ، ثم مضى شهر
وصبرى لا ييوح لزوجه بشيء مما يؤله ... ثم
أصبحت فلم تجده معها ... فبحثت عنه فلم تمر عليه
بالقرية ...

هنا ... قام طائف من الشك في قلب الفتاة ...
فقد غربت الشمس وصبرى لما يمد إلى منزله ...
أين ذهب يا ترى ؟

وخطر لها أن تقصد إلى منزل غالب أفندى
عبد الرؤوف لتسأل عن بعلمها ... لكنها لم تجد الرجل
نمة ، ولقيتها زوجة غالب أفندى فأكرمت لقاءها ،
وكان الأستاذ غالب يتحدث إلى زوجته بدافع
الفضول الرقيق عن صبرى أفندى وعن زوجة
صبرى أفندى ، فلما عرفت ربة الدار فم أقبلت سنية
وكان الوجد والقلق باديين على وجهها حزرت أنها
ناقمة على صبرى وعلى الزمان الذى ربط جبالها بحباله
فقلت :

— لا أدري يا أختاه ماذا سرك من أمر هذا
الرجل حتى رضيت زوجاً لك ؟

وهنا عرفت سنية كيف تستغل سذاجة هذه
الرقيقة فدت لها في الحديث قائلة :

— هذا نصيبى يا سيدتى !
— مسكينة ، إن صبرى رجل غنى وهو لهذا

لا عمل له إلا ضرب المود والفناء والسفر بين مصر
والقازيق ... ألم تعلمى الخبر الجديد ؟

— أى خبر ؟

— لقد ضحكت عليه بنت من بنات مصر وربما
ذهب ليتزوجها !

— ومن قال لك هذا ؟

— البلد كلها تقول ذلك !

— كل البلد ؟

— كل البلد ... بلدنا لا تخفى عليها خافية ولا
ينام فيها بيت قبل أن يعلم أخبار جميع البيوت !

— هذا عجيب ... لكن صبرى لم يخبرنى بشيء
من ذلك !

— وهل قال لأحد إنه سيتزوجك قبل أن
يفعل ؟

— وماذا يقول للناس عنى يا ترى ؟

— كل خير ... كل خير يا أختاه

وجاءت للقهوة فرشفت سنية رشقة ونهضت
مودعة شاكرة ، ثم انطلقت إلى منزلها وبها من

الهم والقلق أضاع ما كان يقيم صبرى ويقعده منها
ترى أين ذهب صبرى ؟! أحقيقة ذهب ليتزوج ؟

ولم لا يكون هذا وقد لبث هذا الشهر واجماً ساعماً
حتى لحظ للكل ذلك ، وحتى لحظه غالب نفسه

ودليل هذا ذلك الحديث الطويل عن الحب والمحبين
بينه وبين فؤاد !

لقد راهن غالب صديقه فؤاد على هذا ... لقد
راهنه على أن خبه لهذه الزوجة اراقصة أن بطول

أمد ، لأنه حب طارىء دخل قلبه من فوق المسرح
وتحت فيض من الأنواء ، وبين ثنى الأذرع وتلوى

الأنفاز ، وهز الردف وتكوير الأثناء ... ثم إرسال
الابتسامات المصنوعة التى تزيد في جاذبية الرقص

وإغلاء البضاعة ...
هكذا زعم غالب ، وهكذا حكم على وحدانية

الحب بالفساد ، فيأترى : أين ذهب صبرى !

لقد ظل شهرا بتمامه عابسا متوجعهما لا يندسط ولا يفرج عن نفسه وعن أهل منزله ... وكان يصنى إلى غناء سنية في فتور وتكاثف ، ولم يكن يبادلها هذا الانشراح الذى كان طبيعة فيه ... فأين مضى ياترى ؟

ومكثت سنية أياماً ثلاثة وهي لا تدري أيا ن مضى ولا أيا ن يجيء ولا أين تلقاه فتنهض من فورها لتمضى إليه .

وكانت كالذى ينتظر الحكم عليه من قاضيه ، فلم تكن تذوق الكرى طوال هذه الأيام الثلاثة ... بل كانت تفكر أفكاراً سوداً كقطع الليل ... وممت بالانتحار مراراً ، لكنها لم تؤثر أن تموت قبل أن تعرف

إنها لم تخطئ قط في هذا المنزل ... بل بالعكس لقد صيرته جنة وارفة الظلال ، وحاطته بالطهر ، لأنها عاشت حياتها نقية طاهرة ... لقد ملأته غناء وموسيقى وبهجة ... لقد مثلت دور الأنثى كما تمثله حور الجنان ... ماذا كان يطلب منها صبرى غير هذا ؟

ووقف قطار الصباح في محطة القرية ونزل منه صبرى ومعه فتاة ناهد هيفاء ممشوقة اللقد ، يفيض بردها شباباً ويهتز جسمها الريان خصباً ... ولقيه غالب فحياء ثم سلم عليه مصافحاً ، وهتف به بالفرنسية قائلاً : « عسى أن تكون قد وفقت هذه المرة يا صبرى ! » فتبسم صبرى ابتسامة حميدة وقال لصاحبه : « إن شاء الله ... لقد وفقت يا صاحبي ! » وكانت هذه آخر كلمة وجهها صبرى إلى غالب مدى الحياة !

وذهب النقى إلى منزله فلقبته سنية موهونة

عظيمة كاسفة ، فلما رأت الفتاة الجميلة الرائعة إلى جانبه ، ذهلت ، وسكنت برهة ثم قالت له : « أهذه هى ؟ » فقال صبرى : « هذه من ؟ » فسالت دمة ساخنة على خد زوجته وقالت : « زوجتك الجديدة » فأمرع صبرى إلى زوجته فأخذها في ذراعيه مداعباً وقال : « أجل ياسنية ! هذه ابنة أخى يا أعز الناس على هلى هلى .. أعدى الحقائق قلن نعيش هنا بهدا » وكانما أفاقت سنية من حلم ، فنظرت إلى زوجها وقالت له :

— لن نعيش هنا ؟

— أجل ... ولا يوماً واحداً

— هذا محال !

— بل هذا واجب ... لقد استأجرت منزلاً جديلاً في الزمالك ...

— ولماذا يا ...

— لأنى لا أريد أن أحرم من الجنة التى ما دخلتها إلا معك !

— ما ذا تقول يا صبرى ؟

— ألا تفهمين ؟ إنك كنز عظيم ياسنية ولن يضيع كنزى من يدي .

— ولماذا تهجر الريف ... إلى أحبه ...

— أما أنا فلقد ضقت به

وعاشا في الزمالك للساحرة عامين كاملين ... لكن سنية علمت زوجها كيف لا يكثر بالناس ... وما زالت تلح عليه فى العود إلى الريف حتى رضى كارهاً ...

ووقف ابنهما كامل الجليل فى حديقة المنب مأخوذاً بسحر الريف وهو يهتف بوالده ويقول : « بابا . بابا ... حلوة يا بابا ! »

دسبى مشبه

وخلاصة ما ذكرته أن رجلا يدعى
بيير فالري ، وكان مستخدماً لدى
شركة البترول ، نزل من القطار
الذي يخرج من محطة سان لازار
في الساعة ٢٠ والدقيقة ٢ قاصداً
بوا كولومب التي يصاه في الساعة
٢٠ والدقيقة ١١ ، وقصد في الحال

مدير المحطة وأخبره أن في عربة القطار التي كان
فيها ، رجلاً قتل نفسه أمامه برصاصة وجهها إلى قلبه ،
وكان الرجلان وحيدين لا ثالث لهما ، ولم يسمع من
في العربات المجاورة شيئاً .

وبدا لمدير المحطة أن إيضاحات هذا الشاهد
الوحيد مختلفة ، وواقعه في اجتهاده هذا الشرطي
الذي دماه في الحال ، فقرر إبقاءه وحجزه ، بعد
أخذ اسمه وعنوانه .

كانت سممة بيير فالري حسنة في بوا كولومب ،
وكان محترماً بين مواطنيه ، وعلى الأخص في هذا
الطريق ، إذ كان يركب القطار كل صباح من باريس ،
ويعود إليها مساء به ، ولكن الاتهامات القوية وجهت
إليه منذ يوم القبض عليه ، واكتشفت مأساة حقيقية
كاملة أفضت منجمه : هجرته امرأته في العام السابق
لتميش — في شارع مجاور لشارعه — مع فيرناند
بوبري هذا الذي مات تلك الوتة المحزنة الفاجعة ،
والذي كان صديقاً حميلاً للعائلة . وبقى بيير فالري قاطناً

في مسكنه مع ابنة له صغيرة لم تبلغ ثمانية أعوام من
عمرها ، وكانت أمها تأتي كل صباح لتراها وتمود
ثانية بانتظام ودقة ، فارتبطت البنت بأمها وعشيق
أمها برابط معنوي وثيق . ولا ريب أن الأب مل هذه
الحياة غير الطبيعية ، ووجد نفسه في القطار وجهاً

صداقة الحب

للكاتب هنري بوردو عضو المجمع العلمي الفرنسي
يقيم الأستاذ ناجي الطنطاوي

خاطب مسيو هير ، قاضي تحقيق الجنايات
كاتبه مسيو موتون قائلاً :

— ماذا تقول ؟ أجرة عاطفية أخرى ؟
ألا فليعلموا أن زمن الصفع والمفوق قد انقضى .
وها إن القضاء — وخاصة في برتانية الكبرى —
بدأوا يحكمون على المحبين القاتلين بالوت شنقاً ،
لن يبقى لدينا شيء اسمه جريمة عاطفية . هل أنت
مستعد ؟ إنني سأمر بإدخال التهم ، ولكن قل لي
هل وكل محامياً ؟

— نعم ياسيدي القاضي .

— لا ضير ، إننا نستطيع استجوابه بهدوء ،
لأن هؤلاء السادة الذين يحامون ويدافعون بمقدون
الاستجوابات بصورة رهيبة .

— إن التهم ياسيدي ، يدعى أنه ليس جانياً .
— شيء طبيعي ، وماذا تنتظر منه غير ذلك ؟
— وبؤكد أيضاً أن القضية هي انتحار
وليست بجريرة .

— انتحار ؟ فكر قليلاً ، إن العمل الطبيعي
والمشاهد دائماً هو أن الزوج يقتل الماشق ، فكيف
نصدق أن الماشق هو الذي قتل نفسه وبحضور
الزوج أيضاً ؟ لقد شغل هذا الخبر الغريب الصحافة ،
وأنت على وصفه وتسجيله تحت عناوين ضخمة ،

لوجه أمام عاشق امرأته بطريق الصدفة ، عائدًا في ذلك المساء إلى باريس ولم يركب القطار الذي كان من عادته أن يركبه . لقد كان مصممًا على الانتقام حتى اللحظة الأخيرة . ولقد ثبت أن السدس الذي وجد عند قدمي الضحية كان ملكًا له ، وسلم نفسه دون أن يبدي مقاومة

ورجا أن تؤخذ ابنته إلى أمها أثناء غيابها بقلة اكتراث ظاهرة ، وكان يردد في هذه الأثناء بصوت هادئ : إن هذه القضية انتحار وليست بجريمة ، ولكن لم يبد عليه أنه مقتنع بهذا الادعاء الخيالي ... ودعى للمثول أمام قاضي تحقيق الجنايات

رأى القاضي أمامه رجلًا صغيرًا متواضعًا ، ذابل النضارة ، لا يتجاوز الأربعين من سني حياته ذابرة وهيئة تدعوان إلى الاتهام ، ولم يك في وجهه غشون مميزة ، بل كانت تبدو عليه أمارات الكآبة والحزن ، وكانت عيناه غائرتين ذابلتين ، تشبهان عيني الجددي الذي ينتظر طلقة البندقية مودبة بحياته

قد يكون من الممكن أن يقال إن أمارات الحزن هذه قد ولدها فزع من القضاء وأله النفس الذي كان يكابده ، لو لم تكن متلائمة مع طبيعة وجهه ، ولكن ظهر للقاضي أن هذه الأمارات طبيعية في وجهه لا يمكن أن تزول منه ، وأيد اعتقاده هذا أن التهم كان يجب على الأسئلة الأولى بكلماتي نعم أو لا بانفعال وتهيج ، ولقد أقر للقاضي بكل الأمور التي سأله عنها : الخيانة وهجر امرأته ، واقتسام الطفلة ، وامتلاك السدس ... ولكنه بعد هذا كله أنكر الجريمة !

فلم يتألك القاضي نفسه أن صاح به :

— إذن هل لك أن تقص علينا كيف كان الأمر

— آه يا سيدي القاضي ، ما جدوى ذلك ؟ إنك لن تصدقني ، وأنا لا يسوؤني أن أدان — إن كنت بريئًا كما تدعي ، فإن إدانتك تسوؤك كثيرًا ، وإن كنت جانيًا أمكن أن يكون في جنابك ظروف مخففة

ولما صمت ولم يجب أردف القاضي قائلاً :

— وإن لك مع ذلك ابنة ، فإن كنت بريئًا لا ترضى أبدًا أن تترك لها اسمًا ملوثًا مطلقًا فتمم التهم قائلاً :

— آه لم أفكر في هذا

وكان هذا الجواب وحده حافزًا للقاضي لأن يلاحظ أمارات الوجه البائس المخدول ، واعتقد أنه ليس بمحضرة مجرم . وأبدى القاضي الذي قضى حياته في هذا العمل حتى أصبح محنكا في تحقيق الجرائم مهارة في ملاحظة الملامح ، وقراءة الدلائل الوجهية والجسمية ، وعاود الكرة بلطف ورقة :

— تكلم بلا خوف ولا غضب ، وها نحن ذان مصفيان لك

— سأتكلم يا سيدي إذا كنت تمدني أن ... وبدأت من القاضي حركة اعتراض . إنه لا يستطيع أن يتكفل بشيء ولا أن يرتبط بوعد مع متهم — ... ألا تذيب شيئًا مما أحدثك به ،

وألانكتب منه شيئًا ، وإن لم تقبل ذلك فلن أنكلم — إنك تعلم جيدًا أن خادمتك يجب أن تسجل وأن من واجبي أن أعرف تفاصيلها إن كان في الأمر جريمة ، أما إذا كانت القضية انتحارًا كما تدعي فسيكون اعترافك مقبولًا ولن يصدر أي حكم عليك وكل ما في الأمر أننا يجب أن نطمئن وجداننا اطمئنانًا مطلقًا

للقاضى والكاتب اللذين كانا يتبادلان من حين لآخر نظرات مقرونة بالكاء، وكان الاصغاء إليه يشجعه. كان يتكلم كأنه جالس وحده يناجى نفسه أو كأنه يرفع ستور الماضى أمام ناظره، وكان يقاطعه أحياناً قاضى التحقيق عندما يعمى كثيراً فى التفاصيل

— أجل يا سيدي للقاضى، لقد كنا مسرورين نحن الثلاثة جداً

— أنتم الثلاثة ؟

— نعم اسرأتى وأنا وهذا المدعو فرناند بوبرى . كانت اسرأتى بائنة ورود ، وكنت أسراً أمام دكانها كل يوم فى طريقى إلى المحطة . وفى كل سبت كنت أشتري لها وردة أو قرنفلة أو باقة صغيرة من البنفسج أو غيره حسب الفصول ، ولكنى لن أطيل فى هذا تركت دكانها وبقيت فى الدار تقوم بالأعمال المنزلية ، وكنت أعمل دائماً لأستطيع أن أقوم بأودها وأود ابنتنا الصغيرة . وكان فرناند رفيقى وصديقى يعمل فى شركة الكهرباء بينما كنت أعمل أنا فى شركة البترول . كان أكثر ثقافة منى وقد جاب بعض البلاد وزارها ، وكان ذا منطق عذب ، وكثيراً ما كان يتناول طعام الغداء عندى ، وكان بلاطف وبداعب جنيفيف الصغيرة . لم تكن اسرأتى فى بادى الأمر تنظر إليه بارتياح ، وكانت ترى أن صداقتى أوثق مما يجب أن تكون ، ثم أصبحت بعد حين تعسدل فى حكمها عليه وتابن ، وكنا متفاهمين تماماً . وفى بعض أيام الأحاد كان يخرج بنا إلى الريف للنزهة . وفى بعضها الآخر كنا نبقى فى الدار نتسلى بلعب الورق شتاء وبالكرة صيفاً ولم نكن نذهب إلى المقهى

لم يكن يداخلنى الشك فى أمر زوجتى إذ كنت

وإذا كانت القضية خلاف ما تدعى ، وتضافرت الأدلة على ذلك ، تصبح حادثتك مرافعات وترسل إلى محكمة الجنايات الفاصلة ، وهناك سنسأل بحضور السادة المحلفين من قبل رئيس المحكمة ، وحتى آخر لحظة يسمح لك بإعادة إيضاحاتك ، والايضاحات التى تفوه بها يوم الجلسة الكبرى هى وحدها التى تعتمد عليها المحكمة . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك وأنت تدرك ولا شك الفائدة الكبرى التى تسديها لنا بتخليصنا من إتمام العمل بدقة ونصب

كان التهم يصنى بصموبة وارتباك إلى هذه المحاضرة التى ألقىت عليه بصوت عذب تبدو فيه الرأفة والشفقة . وكان الشيء الوحيد الذى كدر صفو نفسه ومس شفاف قلبه هو التفكير فى مستقبل ابنته ، وقاض هذا التفكير على لسانه إذ قال فى نفسه :

— من أجلها ، نعم من أجلها !

— من أجلها ؟ من هى ؟

— من أجل جنيفيف

— جنيفيف ؟

— ابنتى . إنها ضيفة لا تحتل للضرب ولا تستحقه . أما أنا فقد ربيت على الجلد . وهذه الأشياء التى يسمونها الحياة والموت لا نهمنى كثيراً . ينبغى أن أذكر فى مستقبل ابنتى ، وأرى من الواجب أن تتمكن من الزواج برجل شريف لا يثلم شرف أبها ولا سيرته .

وقال بعد فترة صمت قصيرة : ولا سيرة أمها أيضاً

— هلم إذن وتكلم من أجلها

وبدا التهم يسرد قصته مضطرباً متلعثماً ، ثم ما لبث أن تشجع وأصبح إلغاؤه سهلاً هادئاً . كان يبدو عليه أنه لا يميز أدنى للتفات إلى مستمعيه :

لديه دائماً كلام بقوله أكثر منى . كان يضع رباطات
عنق جميلة زاهية ، وكان في وجهه عينا تشكمان ،
أما أماطياً فلم أكن إلا إياى . إن الذى كنت
أفضله به كان معنى لا يرى ، كنت أفضله بالشمو
والاحساس ، وليس لى اتهام أوجهه إليه

— ليس لديك اتهام ؟ لقد فضحتنا أتما الاثنان
— بالرغم منا يا سيدى ودون أن نريد . لم أعرف
صديقاً ورفيقاً أخاص من فرناند ، إنه كان على
استعداد لالقاء نفسه بالنار فى سبيلى ، وكما وقمت
فى ضيق كان يتقذى ويخلصنى منه . ولما كنت مصاباً
بالخناق ، قبل زواجى ، مصاباً لدرجة الموت ، كان
يسهر على ولا يخاف من المدوى . أوه ! لقد كنت
وائقاً أنه لم يكن يريد أن يتعبنى ويؤلى ، والدليل
على ذلك أنه مات .

وسكت للمرة الثانية ... ثم تابع حديثه دون
أن ينبه لوجوب متابته :

— ولكن ، لقد لحقنى منه قليل من التعب .
لقد بدأت أشك فى بعض الأشياء . لم تكن امرأتى
المسكينة ممثلة على الكذب ، ولما كانت تبغ
ورودها ، كان الناس يروون لها قصصاً واقعية مسلية
فكانت تضحك دون أن تبغى لها اهتماماً . لقد
عرفت مريباً أننى لست كسائر الرجال ، فلم تكن
تضحك لى أبداً ، كانت تبدو عتشة عندما كنت
أقف أمام دكانها . لقد كانت فتاة عاقلة ومفكرة ،
وبعد زواجنا كانت مؤنسة لى ، تضحك منى وتغنى
أثناء قياسها بالأعمال المنزلية ، وكنت أسمع غناءها
عندما أعود من عملى ، فكانت تؤرث فى قلبى نار
الحب ، ولكنها بعد حين لم تعد تغنى قط ، فسألها
عن سبب ذلك فأجابتنى قائلة : « لا أدرى » .

وائقاً من حسن سلوكها ، وهى نفسها لم تكن تشك
فى ذلك . إننى لا أنهما يا سيدى القاضى ولا أتهما
أيضاً . كانت هنالك أشياء تحدث بالرغم منا لم تكن
نرضاها ولا نريدها ، كانت هذه الأشياء تمر وتلو
بعضها بعضاً ، وكان مرورها يحدث فى حياتنا بدلاً
أشبه ما يكون بالاهتزاز الأرضى البطيء

— ولكن ما هى هذه الأشياء التى حدثت ؟
— لم يكن بينى وبين امرأتى خلاف ولا شجار .
كانت تعانقنى مودعة كل صباح عندما أم بالدهاب ،
وكل مساء عندما أعود إلى الدار ، آسفة صباحاً ،
مبهجة مساء ، ولم يكن ذلك مهزلة مقصودة . لم
نكن نشعر بحاجة لأن نتبادل كلمات المودة ، إذ
كانت المودة متصلة فى أعماق نفسينا ، وكنا نشعر
بها دون أن نظهرها ، ثم كانت هنالك البنت الصغيرة
التي تربطنا ونجمع بيننا .

لم يكن للبنت إلا الأب والأم ، وكان يجب أن
نفكر فيها دائماً ، ولكننا كنا نطوى نفسينا على
أفكار وآمال أخرى ، والنساء على ما يبدو لى بضمون
آمالاً وأحلاماً أكثر من الرجال .. أما خاصة لم أكن
أحلم أبداً ، ولم أكن أغنى شيئاً ، ولم أكن أفكر
فى شيء ، إذ كان تفكيرى منصرفاً إلى زوجتى وابنتى
وهو هو تفكيرى فى نفسى ، إذ كانا جزءاً منى . وأتما
تدركان ذلك بالطبع

ثم سكت كأن جملته الأخيرة أخرقته فى خضم
الذكريات

فسأله القاضى قائلاً :

— ثم ماذا ؟

— قلت لك إنه كان ذا منطق حلو عذب ،
وكان يتقن التعبير عن مشاعره أكثر منى ، وكان

فأبدي الكاتب حركة اعتراض وشك في صحة القصة ، ولكن التهم لم يمر اعتراضه أذنا صاغية وأتم حديثه :

— لقد حاولا أن يختليا ، ولم يكن هذا بالصعب كثيرا ، إذ أنني كنت أذهب إلى عمل كل يوم ، ولم يكن فرناند مقيدا بالعمل مثل فلقد كان يصلح هنا وهناك بعض الآلات الكهربائية ، كان يذهب إلى باريس وبعض نواحيها ويعود منها . إنه لمن الخيف أن يصبح المرء غيورا . طالما حاولت أن أعلم شيئا من أمرهما ولكني لم أستطع ذلك ويا للأسف واكتفيت بالتصور والتخيل . كنت أستيقظ في جوف الليل أحيانا ، وأصغى لرفير امرأتى . ويلاه أكانت تسمع ما أفكر فيه وهي في نومها ؟ لقد كانت تستيقظ فجأة وتأخذ بيدي وتسالني قائلة : « ماذا بك يا صاحبي ؟ » فكنت أجيبها كما كانت يجيبني من قبل قائلا : « أنا ؟ لا شيء » أو أقول مثلها : « لا أدرى » وعدت للدار في إحدى الأمسي ، فوجدت زوجتي حزينة ، ولما اقتربت منها رأيتها غارقة في التفكير لدرجة أنها لم تشعر بوجودي فوضعت يدي على منكبها وقلت لها : « فيم تفكرين ؟ » فأجابت : « أنا ؟ لا شيء » وعاجلتها بقولي : « إنك تفكرين فيه أليس كذلك ؟ » فما كان منها إلا أن سمعت زفرة حارة ولم تجب ، وقلت لها وأنا أأم أن احتويها بين ذراعي : « إني سأحبك يا عزيزتي ، إنه لن يمود قط ، وسيعرف كل شيء » فقالت ببساطة : « لقد تأخرت كثيرا » ولم أكد أسمع هذا الجواب حتى عرفت كل شيء ، وتركت ذراعي تهبطان بتراخ ولم أضربها ولم أطردها . فما راعني إلا أن رأيتها ترتدى ثيابها وتهم بفتح الباب فسالتها : « إلى أين

وظننت إذ ذاك أن ما أسكتها هو عدم ولادة طفل آخر لنا ، ولكني كنت مخطئا في هذا الظن إذ ظهر لي أنها كانت تحتشم عندما كان يزورنا فرناند ، وكانت تبدو عليها أمامه كل أمارات للتعبطة والسرور فذكرت حالها وهيئتها عند ابتداء معرفتي لها ، وأفزعني الشبه بين الحالين ، وبدأت أتعذب وأنا لم هل كانت تحب سواي ؟ أكانت تحب صديق الذي يوشك أن يكون أخي ؟ لقد سمعت على طرد هذه الفكرة من رأسي ، إذ وجدتها مخيفة وفظيعة . إن اتهاى لهما معناه شتمهما وإهانتهما . كلاهما كان عزيزا على أثيري لذي ؛ أما هي فن أجلى وأجل طفلتنا ودارنا وحياتنا خارج الدار ، من أجل للتعاون وتبادل الثقة ... ولكن لا ، لم يكن هذا فظيما كما تصورت ، وما أرى هل نحن دائما مصادر أعمالنا وأصحابها الحقيقيون ؟

— أما في الأفكار فاستطيع أن أجيبك بالنفي إذ لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن بعض الناس غمائون حتى الفضاة أنفسهم ، أما في الأعمال فليس الأمر كذلك ، إذ نحن دائما أصحاب أفعالنا والمستولون عنها

— دائما ؟ هل نحن نراقب أنفسنا في كل حين يا سيدي للقاضي ؟ إننا لا نرى غيرنا إلا عند ما نريد أن نراه ، إذن نحن ننسى أحيانا . إننا لا نرى إلا ما نحب ، ويختفي ما وراء ذلك عن أبصارنا ، يختفي عنها كل ما يضايقنا ويؤلنا ، ولما فقد خفيت عن أعينهما كأنني لم أكن موجودا . إنهما لم يفكرا في وجودي ولم يتنبها له إلا بعد لآي ، ولقد أخطأ في تنبهما إذ جلبا لنفسيهما الضيق والألم ، لأن عذاب الذي ولدها لي كان في الحقيقة عذابا لهما

تذهبين؟ « فأجابتنى : « إلى أين تريد أن أذهب؟ »
فقلت : « إليه » فهزت رأسها وقالت : « نعم إليه »
فقلت : « حسن ، إذهبي »

ولما بلغت عتبة الباب التفتت وقالت بهدوء :
« وجنفييف ؟ » فقلت : « كان يجب أن تفكرى
فيها من قبل » قالت : « هل تريد أن تحتفظ بها؟ »
قلت : « إنها لى » قالت : « ولكنها لا تزال صغيرة »
قلت : « ستمتد الحياة بجاني » قالت : « هل تدعى
أراها ؟ » قلت : « كلا » فرفت يديها كالبنائسة ،
ثم خرجت باكية ولم أرها بعد ذلك الحين

— وابنتك ؟ هل كانت تراها ؟

— كانت جنفييف تذكرها ، فكنت أقول لها
إن أمها سافرت في رحلة طويلة ، وكنت مضطراً
لأن أقول لها إنها ممتود . ولما كنت أذهب إلى
المصنع طول النهار ، عهدت بها إلى امرأة كانت
تدير مدرسة داخلية في بوا كولومب ، ولكن للصغيرة
كانت تمأند وترفض أن تبقى هناك ، وعلمت بعدئذ
أن أمها كانت تأخذها كل صباح بعد ذهابي وتعيدها
كل مساء قبل عودتي . لقد عرفت ذلك ولكنى لم أقل
شيئاً . ماذا تريدنى أن أفعل يا سيدى القاضى ؟
ماذا تريد ؟

فصدرت من القاضى وكاتبه حركة ظاهرها
الاستحسان والنصوب ، وللهما كانا يقصدان بها
موافقة التهم موقفاً ليستطيع أن يتم حديثه ويتكلم
عن الجريمة التى هى بيت القصيد . وصمت بير فالرى
كأنه تمب . فسأله القاضى :

— منذ كم هجرتك امرأتك ؟

— منذ عام على ما أذكر ، ولكن هذه الدة
كانت تبدو لى كأنها عشرة أعوام . لم يتبدل شيء

بعد . كنت لا أزال أركب القطار فى الذهاب
والإياب ، ولكن لم تمد لى عزيمة ورغبة فى العمل .
كنت أعمل كآلة للصماء . وفى المساء كنت أرى
جنفييف الصغيرة وكنت أستطيع أن أدلها وأفرحها
بفضل أجرى التى كنت أألفها من عملى . لقد كانت
لبقة فى أحاديثها معى وتتضابق أحياناً لحديثى . أظن
أن الأطفال عقلاء أكثر مما نعتقد يا سيدى القاضى .
إنها لم تكن تجرؤ على أن تحدثنى عما فعلته فى يومها
سوى دروسها وواجباتها . لقد كانت تعتقد أنها
لا يجدر بها أن تذكر أمها ولا الرجل الآخر أبداً .
ولكنها مع ذلك سألتنى قائلة : أمن الممكن أن يكون
للمرء والدتان ؟ ثم أجابت من تلقاء نفسها : أما أنا ،
فأظن ذلك غير ممكن

لقد كان لها أيضاً أب هنا وأب هناك ، أب
فى النهار وأب فى الليل ، ولكن لم يكن لها ، ولن
يمكن أن يكون ، إلا أم واحدة . ومنذ تلك اللحظة
أصبحت لا أفكر إلا فى الانتحار لأترك المكان فارغاً
للرجل الآخر . لم أستطع إرجاع البنات لأمها ،
أما كان يجب على أن أردنها إليها ؟

— كان باستطاعتك أن تطالب امتلاك البنات
وابقائها عندك ، مع بضع زيارات تقوم بها الأم فى
أيام محددة معينة

— صدقت يا سيدى القاضى : هذا هو العمل
الذى لم أكن أستطيع القيام به . لم أكن أريد
ذلك لزوجتى ولا لصديقى ، لقد كنت المجرم الأول .
لا ينبغي أن نسي إلى أحد ، وخاصة إلى المرأة الغاضلة .
لم أكن أعلم يومئذ أن كلا منهما يلوم الآخر ويخطئه .
إن الرجال يعتقدون دائماً أن نساءهم بأجمعهن لهم .
أما النساء — وبما إخالك تعرفهن جيداً — فانهن

يملك من العطف والحنان ما لا مزيد عليه ويظهرن ذلك لك كل يوم ، ولكنهن ينسينه عند ما يتزوجن . لقد تأملت لها كثيراً وتأملت له أيضاً . لقد كنت أعجب به طويلاً . لقد كان في نظري مخلوقاً سامياً سلبني أعز ما أملك وسحق بذلك العمل قلبي

— لقد كنت تمقتبه ، هذا واضح

— آه ، كلا يا سيدي للقاضي

— ألم تكن تبهضه ؟ ألم تكن تريد أن تنتقم لنفسك ؟

— آه ، كلا . أنتقم ؟ هل كان يجب الانتقام ؟ لم يرد هو ، ولم ترد هي ، أن يحصل ما حصل . لقد نحبا ، هذا كل ما في الأمر . وكنت أنا وثقاً من أنهما يرثيان لي وبثألمان من أجلي . فلم يبق لي إذ ذاك إلا دواء واحد ممكن ، ألا وهو الموت

— ولذلك سمعت على إقرار الجريمة

— الجريمة ؟ أية جريمة ؟ الموت ؟ لقد كنت مجزماً ولا ريب بتفضيلي الموت ، ولهذا الغرض اشتريت المسدس

فتبادل القاضي وكاتبه النظرات ، وقال له الكاتب بصوت خافت : ألا يجب التسجيل الآن ؟ فأجابه القاضي قائلاً : دعه يتم كلامه . إذا رأنا نضطرب ، توقف ولم يتكلم . وسأستجوبه عند ما ينتهي من سرد قصته . ثم قال بصوت مرتفع :

— إذن اشتريت المسدس الذي يفيدك في

إقتراب الجريمة

— اشتريته يا سيدي للقاضي . لم يكن من السهل

على تصور الموت . إن توجيه المرء الرصاص نحو صدره يتطلب كثيراً من الشجاعة ، ولم أكن مع الأسف وافر الشجاعة إلى هذا الحد ، رغم أنني اشتركت

في الحرب كسائر الناس . إن المرء يكون أكثر شجاعة عند ما يرى نفسه محاطاً بأصدقائه ، وأنا وحدي في داري لم أكن أستطيع العزم على الانتحار ، ولقد كنت متألماً جداً لعدم إرادتي الحياة . لقد كان كل شيء يسير في نظري على ما يرام ، جرمين ...

— جرمين ؟

— أجل ، جرمين امرأتى تزوجت فرناند ، واستطاع أن يعيش في وضع النهار مع جنيفيف ، وعندئذ أصبح للصغيرة أب وأم ، أما الأب الآخر فقد اختفى ، وأظنها نسيت ولم تعد تفكر فيه . لقد كان أباً حزيناً لا يصلح لشيء . كنت أحدث نفسي بهذا كله ومع ذلك فلم أعزم على شيء .

— إذن ما دمت لم تستطع أن توجه سلاحك نحو جسمك ، فقد وجهته نحو خصمك .

— مهلاً يا سيدي القاضي . نعم كان يجب علي أن أقتل نفسي ، وهكذا تخلصت من المذاب الأليم . — قد بلغنا إذن اليوم للفاصل .

— أجل بلغناه يا سيدي القاضي . كان يعرف

فرناند عادتي وواجبات عملي وقطاري الصباح والمساء اللذين كنت أركبهما . ولقد نظم حياته علي خلاف هذا الشكل فكان يتجنب مقابلتي ما وسعني التجنب ، ولم أصادفه في الطريق أبداً ، لا في بوا كولومب ولا في باريز . لقد كنت واثقاً من أنه لم يكن بالناقل أبداً من الأمر الذي عرمت عليه . وفي مساء اليوم الذي وقع فيه الحادث ، أجبرت علي البقاء في المصنع بعد انتهاء وقت عملي لغياب أحد رفاقي ووجوب بقائي في العمل عوضاً عنه ، وهكذا امتد عملي ساعتين أخريين ، واضطرت لركوب قطار الساعة ٨ والدقيقة ٢ الذي

لم يكن من عادتي ركوبه . وفي اللحظة الأخيرة التي سبقت سير القطار ، دخل رجل العربة التي كنت فيها وحدي . لقد كان هو بيته . وقف واجماً مبهوتاً لما وقع بصره على ، ولم يجرؤ على الجلوس ولا على الحركة .

سار القطار ووجدت الفرصة سانحة للنخلص من حياتي ، فنهضت من مكاني متجهاً نحو النافذة واقتربت منه وأخرجت المسدس من جيبى ورأيت مقبلاً نحوه فالتمز الباب ولم يده حراكاً ، ولم يخفهِ سلاحى . ترى هل كان يعلم أنني لم أرد قتله ؟ قلت له غاطباً :

— لقد جلبت لى كثيراً من الألم والشقاء ، أتوسل إليك أن ترحمنى . إن السكالب التي تموى كثيراً تراح من حياتها

ومددت إليه يدي بالمسدس ، فأخذه وتأمله هنيهة ، ثم ... فجأة ... وجه الفوهة نحو قلبه وأطلق النار ...

يا إلهي ، ماذا فعل ؟ لقد أدان نفسه وحكم عليها ياسيدي للقاضي . ولكن أنا ، أقسم لك ، لم أفكر في أن أحكم عليه . لم أكن أشعر بنبضه كما ذكرت لقد كنت بائساً شقيماً ، إنني لم أتهمهما ياسيدي للقاضي ، ولم تكن تلك غلطتهما بل غلطة مشاعرهما التي قادتهما برغمهما

كنت جائئاً أمامه ، وتناولت بذراعي جسمه الحار ، وكان الدم يسيل منه يبطء ، ومع ذلك فإن عروقه لم تكن تنبض قط . لقد مات . كانت عيناه مفتوحتين وكان ينظر إلى بهما بآلم وحزن . لقد كنا متحايين كثيراً . كنا صديقين وزميلين وأخوين لم أكن أذكر نفسي إلا من خلال حبنا . لقد بكيت

إذ ذاك كالطفل . آه ، لو كنت أوفر شجاعة ، أنا الذي كان يجب أن يموت لاهو ، كان يجب أن يحيا ويسعد في حياته ، دون أن آخذ منه أو أعطيه شيئاً فتبادل للقاضي وكاتبه النظرات . لقد طمان الحادث نفسيهما . لم يكونا يستطيعان أن يشعرا بأقل ريب في صحة الرواية . إن ظروف انتحار فرناند وأسبابه كانت واضحة لا تدع مكاناً لافتراض وقوع جريمة ، ولقد نجح بير فالري بلا ريب وأصبح حراً قال له القاضي بصوت متزن واضح :

— لقد عدل صديقك ، كان يجب عليه أن يحترم صداقتك . والآن لم يبق على إلا أن أطلقك . ثم قال مردفاً :

— انظر ، لن يطول الأمد . لدينا بعض الاجراءات القانونية التي لا بد من القيام بها وأمر بأن يقاد المتهم الذي أصبح شاهداً بسيطاً ولما بقي القاضي وحده مع كاتبه ، طلب منه قائمة أسماء الشاهدين الأخر الذين دعوا : رئيس القطار ، مستخدمو القطار ، محافظ بوا كولومب ، وقد أتى بهذا الأخير ليصف سيرة المتهم الشخصية ، ثم مدام بير فالري . فأمر بأن يسرح كل هؤلاء إذ ظهر له أنه لا يمكن معرفة شيء منهم ، وبأن يؤتى بـ مدام فالري . فأجاب الكاتب :

— إنها لا تعلم شيئاً عن الحادث فقال له القاضي :

— أرغب في رؤيتها .

فدعيت المرأة . إننا لا نستطيع في غالب الأحيان أن نفهم حب غيرنا على حقيقته ، إن أية امرأة محبوبة حتى الجنون أو حتى الجريمة ، تبدو لنا خالية من الجمال أو من الغرور . هذه هي حال أكثر

— لماذا خدعته ؟
 فقامت بحركة غامضة معناها : هل أعلم ؟
 — كيف أغراك هذا المدعو فرناند ؟
 — آه سيدى ، إنه لم يغرنى
 — ألسنت أنت التى قدمت نفسك إليه ؟
 — ولكننى يا سيدى لست امرأة فاسدة ، لقد
 كنت دائماً حبيبة السيرة ، ولم أتهم قبل زواجى
 بشيء
 — هل كنت تحبين زوجك ؟
 — بلا ريب ، كنت أحبه
 ثم أردف القاضى قائلاً بصوت خافت :
 — والرجل الآخر ، هل كنت تحبينه أيضاً ؟
 فتهتت إذ ذاك وقالت :
 — كنت أحبه حتى العبادة
 — فانت ترين جيداً أنه أغراك
 — كلا يا سيدى للقاضى ، كنا نعيش معاً .
 أقسم لك أنه لم يكن لدى فكرة سيئة . لقد نظر كل
 منا إلى الآخر فى أحد الأيام . آه لا أدري كيف
 أقول . لقد نظر كل منا للآخر ، كأننا لم ير أحداً
 الآخر قبل ذلك اليوم . وتم منذ ذلك اليوم كل شيء .
 لقد عرفنا جيداً أننا لن نستطيع المقاومة ، إنه عمل
 سىء ، ونحن نعرف ذلك ولكن الحب كان أقوى منا
 — وما قد رأيت إلام قادماً ذلك
 — لقد قادنا إلى الموت . إننى واثقة من أنه
 يتألم من أجل ... من أجل زوجى ، كان يتألم أكثر
 منى ، وكنت آمل أن يزول ألمه على مر الزمن ،
 والآن قد انتهى كل شيء
 — كلا يا سيدتى ، لم ينته كل شيء ، باستطاعتك

زائرات المحاكم اللوانى يبعثن الدهشة فى النفوس .
 والجاهير المنشدة فى المحاكم لا تستطيع أن تقف
 على سر فتنهن وسحرهن ، ربما استطاع هؤلاء أن
 يقفوا على هذا السر إذا تأملوه من جيداً ، ولكن
 ليس بينهم من يجد الوقت الكافى لذلك . لم تكن
 جرمين جميلة ، كانت صغيرة ، دقيقة الأعضاء ، ذابلة
 الوجه ، بلوح أنها لم تتجاوز الثلاثين من عمرها .
 كانت منطبعة الملامح ، ذات شعر أشقر كامد ، يبدو
 عليه شيء من الجمال ، ووجنتين ناعمتين ، وفم صغير
 لطيف ، وعينين زرقاوين ساحرتين ، مستكرتين
 قليلاً لأنهما مفرورتان بماء شفاف ، ولقد كانت
 تحاول عبثاً كتم الفزع الذى أصابها وإخفائه .
 ماذا يراد منها ؟ أية أسئلة ستأتى عليها ؟ إن هذا الرجل
 الجالس وراء المنضدة ، يبدو عليه العبوسة والصرامة
 والحزم

قال القاضى موضحاً بعد فترة صمت استطاع أن
 يسمع فيها ضربات قلب المرأة المسكينة المرتعدة :
 سيدتى : هل تعلمين أن زوجك متهم بقتل
 حبيبك ؟

فاعتزنت المرأة مستعيدة شجاعتها وقالت :

— ليس هذا صحيحاً ؟

— ماذا تقولين إذن ؟

— لو أراد قتلنا لفضل ذلك حينما خرجت
 من داره . إنه لا يفكر فى الاساءة إلينا ، إنه طيب
 القلب جداً

— ولكن طيبة القلب لها حدود تقف عندها
 — هذا فى غيره ، أما هو فلا . إنه لم يضربنى
 لما رأى سلوكى . لقد تألم مثلنا ، وتركنى أعاود رؤية
 الصغيرة

الآن تدارك خطئك والتكفير عن ذنبك

فرفمت رأسها المنخفض منتظرة ما يحدث

— نعم ، إنك أم

— جنيفيف

— يجدر بك أن تفكرى فى ابنتك وزوجك

أيضاً ، لماذا لا تسلكين الطريق المؤدية إلى دارك ؟

وتأمل الكاتب فى هذه اللحظة ، وجه القاضى

بدهشة منتظراً خاتمة هذه الرواية . وكانت المرأة

صامتة ذاهلة تنظر بسميتها إلى الأفق البعيد ، وتفكر

فى هذا الاقتراح الجديد الذى سمعته ثم تمتمت قائلة :

— سيتردنى زوجى

— هل أنت واثقة من ذلك ؟ لقد قات منذ

لحظة إنه طيب القلب جداً

— آه يا سيدى القاضى ، يفصل بيننا البيت

— إن زوجك لم يقف متفرجاً ، لقد ذرف

عليه الدمع منذ دقيقة لا أكثر

— كان يبكي عليه ؟

— هل تودين معرفة ذلك والتحقق منه ؟

— آه يا سيدى ، إننى لم أراه منذ اليوم ...

— منذ هجرك إياه ... إننى سأدعوه الآن

— كلا ، كلا ، لا أريد ، يفصل بيننا البيت

— إن البيت يقرب بينك وبين زوجك ، أؤكد

لك . لقد قتل نفسه من أجله ، ومن أجل الألم الذى

سببه له

ودعا القاضى التهم أو بالأحرى الشاهد . فوجد

بيير فالرى نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام زوجته ، ولم

يجزؤ أحد الزوجين على الكلام إذ كانا يتبادلان

النظرات بخوف وخجل .

فانبرى القاضى قائلاً :

— بيير فالرى ، إن امرأتك قد ندمت . وإذا

طلبت منك المودة للحياة الزوجية السالفة ، بمد هذا

الحادث المفجع ، فهل تقبل ؟ وهل ترضى بأن

تسامحها وتمفو عنها ؟

فأجاب السكين :

— أسامحها ؟ إننى دائماً مسامح لها

— هل تأخذها معك ؟

— نعم ، إذا أرادت

وأردف قائلاً مثلها :

— ولكن يفرق بيننا البيت

فقال القاضى موضحاً :

— أجل ، إنه مات ليصلح بينكما ، ولم يمت

دون مقابل . لقد قات لها قبل لحظة : فكري فى الطفلة

التي ليس لها إلا الأب والأم

فتقدم بيير فالرى خطوة للأمام واقترب من

امرأته وقال لها :

— هلى مى

ثم النفث نحو القاضى قائلاً :

— أأست منهما ؟

— كلا يا صاحبي ، أنت حر

ولما خرج الرجل والمرأة ، أمسك كل منهما

بيد الآخر ، التفت مسيو هبير نحو كاتبه قائلاً :

— لقد اشتغلنا جيداً فى هذا الصباح ، هات

العمل التالى ...

ناهى الطنطارى

« دمشق »

مستقبلي في الصورة التي تلاعني
ولقد تمودت أن أفضي أيام
عطلة الصيف في مزرعة خالي وهي
مزرعة وضع فوق بابها الخارجي
رمز يدل على أنها ليست من
المزارع العادية ولكنها منحلة
كبللي التي تنتج ألطف أنواع
العسل في العالم

أَكَانَ حَبِيبُ خَبْرِكَا

(قصة من تحت جائزة مائتي جنيه) عن الإنجليزية
بسم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« لقد أحبا حب اليأس ، وكان
في مقدوره أن يفوز بها لو أنه قال
الحقيقة : حقيقة أمر الرجل الذي اختارته
زوجاً لها »

كنت و « سالي » و « بارني » رفاق طفولة
وصبا، نعيش في بلدة صغيرة من بلدان التعدين في شمال
إنجلترا، يحتوى بيوتنا شارع واحد، وتلعب جماعة
في الخلاء الخرب وراء بيت « بارني » ونذهب معاً
إلى المدرسة . فلما بلغنا سن المراهقة لم يكن أحداً
يفترق عن صاحبيه

وكان « بارني » المخاطر بطبيعته ينتظر اليوم
الذي يستطيع فيه أن يقتني خطوات أيه فيعمل مثله
في الماچم ، وكانما بين طبيعته وبين عناصر الخطر
جاذبية لا تنقطع . أما أنا فكان أسرى على خلاف
ذلك ، أشمر دائماً بعجل شديد إلى ضوء الشمس
وإلى الفضاء الفسيح ، يكفي مجرد التفكير في المال
داخل الكهوف المظلمة النائرة في جوف الأرض
لأن يمت الرغبة إلى أعماق نفسي

فكان من المقطوع به أن حياة العمل في مناجم
الفحم ليست هي الحياة التي أصلح لها ، وكان على
خالي « باتريك » أخى أبنى الأعزب أن يشكل

وفي هذه المزرعة كان يرى الانسان في أية ساعة
من ساعات اليوم خالي « بات » منهمكا في العمل
وسط صفوف عديدة من خلايا النحل وعلى عيابه معالم
الحماسة واللذة التي ترى عادة على وجوه هؤلاء الذين
يجبون أعمالهم . فهو يعيش بين محله ويدرس طبائمه
وحركاته ويفر من أشد الزهور جاذبية له . فكان من
الطبيعي أن يسر خالي وبفرح كلما رأى مني اهتماماً
بعمله ورغبة فيه ، ولقد كان يقول لي حينئذ :

— ليس هناك يا ولدي من عمل ألطف ولا أصح
من العمل في مملكة النحل ، فإذا أردت أن تقتني
خطواتي فاني أخذك في وصيتي بهذه المزرعة فانه
ليسمدني أن أعلم أن نحلي سيصبح من بعدى وديمة
بين يدي من يقدره ويحبه كما أحبه أنا

ولقد كان خالي يعقب هذا الحديث بتعليمي كل
ما يعرفه من أمر هذه المخلوقات الصغيرة كثيرة
الحركة شديدة الطنين ، وكان يصبرني بالوسائل التي
أصرف بها العسل في الأسواق بأكبر ربح مستطاع ،
ولقد قدم لي من المؤلفات كل ما كتب في موضوع
النحل ، وكان أنفس ما أهداني في أحد أعياد الميلاد
كتاب « حياة النحل » لمؤلفه « ماترنك »

أما « بارني » فكان شديد الاستغفاف بمطامير

وكان يقول لي في كثير من الاذراء والتحقير :
— ويك يا «ويل» ليس هذا من عمل الرجال ،

فهيلا احتذيت حذوى لتصبح رجلا قوى البنية
متين العضل ، فقد اعتزمت أن أشتغل متى كبرت
في المناجم فلا تلبث عضلاتي أن تصبح مثل عضلات
دنيس شلتون ، على أنني أستطيع الآن أن أصرع
أى وفد في هذا الشارع ، فتعال أرك قوة ضرباتي
وكان بارني يقب هذه الكلمات بالتقدم نحوى
قابضاً يده مهدداً ، فأتراجع إلى الوراء لأننى أكره
القتال والشغب ، وكانت «سالى» هى حاميتى
المتحمسة ، فعلى الرغم من إعجابها كالطفلة الصغيرة
بتحرش «بارنى» كانت تقف بينى وبينه بجسمها
الصغير وشعرها الأسود المتموج وعينها الزرقاوين
فتحول دون اعتدائه وتصبح به وهى تضرب
الأرض بقدمها :

— دع «ويل» لا تمرض له ، واعلم أننى
لا أريد أن تكون مثل «دنيس شلتون» فكل
إنسان يعرف أنه ليس إلا عربيداً مشاغباً
فكان «بارنى» ينجعل من كلماتها ويستندر بأنه
لم يقصد إلى أكثر من المازحة على صورة ما

على هذا نشأنا منذ عهد الطفولة حتى إذا باغ
بنا الزمن نهاية الحلقة الثانية أصبح «بارنى» فتى
طويل القامة عربض الأكتاف أسود الشعر أسمر
الجلد خبيث النظرات مستهتراً بالفتيات . أما أنا
فكنت ترابى الشعر نحيف الجسم خجولاً متحفظاً
شديد الميل إلى حياة الريف الهادئة مبغضاً حياة
المدن الصاخبة

ونمت «سالى» شابة باهدأ وكانت أجمل فتاة
يبيض بحبها قلب الرجل ويمت بروحها فى رأسه

الدم ساخناً ، فلا عجب إذا نشأت أنا وبارنى على
حب رفيقة طفولتنا الصغيرة متنافسين ، فى مودة ،
على مصاحبتها للسارة

ولم يكن فى نيتى قط أن أقضى أى وقت طال
أم قصر ، فى تجربة للعمل بالمناجم ، فلما مات والدى
على أثر بلوغى سن الرشد طلب إلى خالى «بات»
أن أحجبه إلى مزرعته ، ولكنى اعتذرت من عدم
إجابة طلبه بأننى أود أن أقضى فترة قصيرة فى تجربة
للمعمل فى المناجم قبل أن أغادر موطنى ، فلمعت
فى عين خالى النفاذة نظيرة الذى فهم ما وراء هذا
الاعتذار ، وقد قال :

— إنك لا تريد تجربة العمل فى المناجم يا بنى
ولكنك تريد تجربة الوسيلة التى بها تفوز بقلب
«سالى»

ثم استأنف حديثه فى بشاشة ولطف فقال :
— حسن يا بنى ، إنها فتاة جميلة تستحق التنب
ولكن لك فيها منافساً وبارنى فتى لطيف وله طريق
ناجحة فى كسب قلوب الفتيات

وعلى أثر ذلك اتفقت مع والدة «سالى» على
السكن فى بيتها وذهبت للعمل فى المناجم المظلمة ،
ولكن الأحلام للبراقة التى تغمر قلبى أنستى ظلمة
تلك المغاور فلم أبال بها . فلما رآنى «بارنى» هناك
لأول مرة نظر إلى نظرة غريبة وقال :

— لقد ظننت أنك قد عقدت عزمك على أن
تركز مستقبلك حول خلايا النحل ؟
فرددت عليه :

— وهل مما يخالف القانون أن يثير الإنسان
رأيه ؟

فقال وعلى فمه ابتسامة عابسة :

— إنك لم تغير رأيك يا « ويل » فالحقيقة أنك وجدت قليلا من العسل هنا فسألته متحديا :

— وإذا كنت قد وجدت فماذا في هذا ؟

— فحقد بارني في عيني وابتسم ثم قال :

— اسمع يا « ويل » لقد كنا أنت وأما دائما صديقين مخلصين ، وأنا أود أن تستمر هذه الصداقة بيننا ، ولكن يجب أن تفهم فاني أعرف أنك تحب « سالي » ، فليكن ، ولكنني أنا أيضا أحبها ، وسأبذل كل ما يسهمه جهدي وقوتي في سبيل الفوز بها ، وإن أنتهى عنها إشاراً لك أو لأى رجل آخر على نفسه

فقلت وقد مدت يدي فتناولها بارني مصالحاً :

— وهذا هو شأني أنا أيضاً

فقال بارني :

— أرجو أن يفوز بها خير الرجلين كما أرجو ألا يقسو شعور أحدنا على صاحبه !

كانت حياتنا بعد ذلك معركة بين « بارني » وبينى إن تكن قاسية في مظهرها فقد كانت سليمة الطوية في جوهرها . على أن موقف المسكينة « سالي » بيننا قد أصبح موقفاً غاية في الدقة ، فقد كان ما في نفسها من الود لسكينا متعادلا ، وكانت تبغض أن ترد لأحدنا طلباً إذا هو دعاها للخروج معه

ووقف رفاقنا في الهجوم على طبيعة ما بيننا من تنافس ، وسمعت أن بعضهم قد تراءى على أيتا يفوز بالفتاة

وعلى الرغم مما كان بين « بارني » وبينى من تنافس في الذرام بقيت روابط الصداقة بيننا قوية لا يؤثر فيها مؤثر من حقد أو ضغينة . كنا نعمل

في المنجم أحدنا إلى جانب الآخر ، فإذا انتهينا من عمل اليوم الشاق عدنا إلى دارينا مترافقين ، ولكننا لم نكن نشير قط بكلمة إلى الفتاة التي أحببناها كلانا حباً مبرحاً . ولقد كنت أعلم من أمر « بارني » أنه لن يتردد في مقابلة أى إنسان يسمى بأهون كلمات الاساءة ، وأنا من ناحيتي كنت أضع « بارني » من نفسي موضع الأخ الشقيق ، ولكننا في طبيعتنا كنا مختلفين اختلاف النهار والليل

كان « بارني » مغرمًا بالحياة المرحية ولم يكن لميتنع أن يشرب خمرًا من حين إلى حين ، وكانت كثيرة تلك الليالي التي قضاها في حانة « الأسد الأحمر » أبهج حانات المقاطعة

تعود « بارني » الاكثار من زيارة حانة « الأسد الأحمر » ولم تكن هذه الزيارات لمجرد إطفاء شهوته من الخمر ولكنه كان يتمتع نفسه بقضاء بعض الوقت في صحبة « تس » فتاة الحانة ذهبية الشعر ، ولكنه بعد أن بدأ يتودد إلى « سالي » هجر « تس » وحانة الأسد الأحمر ، وقد أكبرت منه هذا التصرف الحكيم . فلقد عرفت أن جميع الرجال على التقريب قد سلكوا الطريق المذموم وقتاماً ، ولكن كان جيلاً منه أنه الآن سار في الطريق المستقيمة الضيقة

على أنني لم ألبث أن تلقت الصدمة التي بددت كل أحلامي وضمضت جميع آمالي . ففي صباح أحد أيام الأحاد لم أكد أعود مع « سالي » إلى دارها بعد أداء الصلاة الأولى وأقف معها برهة على عتبة الباب نستنشق النسيم اللطيف حتى مر بنا « بارني » في طريقه إلى الكنيسة لأداء الصلاة الثانية ، فلوح لنا بكفه في الهواء واستمر في سيره ، فلما تلفت إلى

سالى رأيت عينيها تتبسمان قوامه الطويل وهما تشمان
يريق لطيف وعلى فيها ابتسامة وديمة . فأخست
كأن نفسى قد احتبس في حلقى وكأن قلبى قد تحول
صخرأ بثقل صدرى

وقلت في كثير من التلطف :

— إذن هذه هي الحقيقة يا « سالى » ؟

فنظرت إلى جائلة وقد ارتسمت الشفقة في أعماق
عينيها الزرقاوين وهى تهز رأسها وتقول :

— يؤلى يا « ويل » أن أقول أن ليس في العالم
إنسان آخر أوده وأحترمه كما أودك واحترمك ،
ولكن ...

فأعمت عبارتها بقول :

— ولكنك تحبين بارنى

فهزت رأسها مرة أخرى وقالت في صوت
لا يكاد يسمع :

— أظن أننى كنت دائماً أحب « بارنى »

فتناولت يدها وضغطتها بين يدي وقالت :

— لقد فهمت يا « سالى » فهو رجل لطيف
وسبكون لك زوجاً صالحاً ، وإنى لأتمنى لكما جيئاً
كل ما في الدنيا من سعادة
فقال :

— شكراً لك يا « ويل » وإنى ...

ولكنها لم تستطع أن تتم جلتها فضغطت يدي
وجرت داخلة إلى البيت ؛ ولم ألبث أن أسرع
أنا الآخر في الدخول ولكنى شعرت بأن ساقى قد
أصابها من الثقل ما أصاب قلبى

وفي اليوم التالى بدأ التوتر بين (بارنى) وبينى
في أثناء العمل ، ولم يكن لدى أحدهما الكثير مما يفضى
به إلى صاحبه ، ولو أن « بارنى » كان مابين فترة

وأخرى يسلك حلقه ليقول شيئاً ولكنه كان بعد
التفكير يفضل السكوت فلا تخرج الكلمات من
بين شفثيه . ولقد كنت أنا أول من فض هذا
السكوت فقلت متصمماً الانشراح :

— أظننى يا « بارنى » سأغادر هذا النجم بعد
قليل فلم يبق لى هنا ما أحرص عليه

فقال صاحبي في صوت أجش :

— إني لأسف لذلك يا « ويل » والذى أرجوه
ألا يقسو شمورك نحوى

فضحكت ضحكة مقتضبة وقلت :

— لك أن تثق أن شمورى نحوك ان يتغير ،
فان « سالى » تحبك وهذا هو كل ما في الأمر ،
تغير الرجلين هو الذى فاز يا « بارنى » ولا كن
أنا أول من يهتك

— أشكر لك من أعماق قلبي هذا الشعور
للكريم فانت خير صديق عرفته ؛ وإنه ليؤانى أن ينتهى
الأمر إلى هذه النتيجة

— لتنس ذلك قللم الخير فيما حدث

اتفق الخطيبان على أن يمقدا الزواج في الشهر
المقبل ، ووعدت بعد شيء من التردد أن أبقى
بالبلدة إلى أن تنتهى حفلة الزفاف . على أننى بعد
أن ضاعت جميع آمالى قد أصبحت راغباً في أن أترك
النجم في أسرع ما أستطيع من الوقت . وكان خالى
« بات » قد كتب إلى يقول إن صحته تسمير في طريق
الانحدار وإنه أشد ما يكون حاجة إلى المساعدة
للماجلة . ولكن « سالى » ألحت على أن أبقى
إلى يوم زواجها ، فلم يسمنى إلا قبول رجاها . ولكن
اغتبطت في السنوات التى أعقبت تلك الأيام بقبول
ذلك الرجاء

وألقها متدهورة على الأرض، وبدون أن أفوه بكلمة أخرى التفت إلى « بارنى » الذى كان ينظر إلينا نظرة بلهاء فتأبطت ساعده فى شدة

وتخيرات الطرقات المظلمة وقده مسرعاً إلى البيت، وهناك أرقده فى فراشه فهمهم بضغ كلمات جمعت بين الشكر والتبرم، ولم يلبث أن استغرق فى النوم قبل أن أخلع نعليه ووقفت لحظة أنظر إليه وقد اضطرب رأسى بالانفعالات المختلطة

إذن هذا هو الرجل الذى سيتزوج من الفتاة التى أحببتها ! أيمكن بمد كل هذا أن يسمدما ؟ وماذا تكون الحال إذا تكرر مثل هذا الحادث بمد زواجهما ؟ ومن الجائر جداً أن يتكرر ! أيجب أن تقف « سالى » على ما حدث ؟ وإذا عرفت، ألا تفسخ الخطبة لشعورها بما فى عمل خطيبها من إهانة لها وتحقير ؟

دار رأسى بهذه الأسئلة وبكثير غيرها، فأغمضت عيني وتمثلت « سالى » فيما تنتهى إليه حالها فى السنوات المقبلة، وهى تماثر « بارنى » وترقبه إذ يعود كل ليلة إلى البيت سكران، تتألم لعلها أن هناك نساء غيرها يشغلن مكاناً من قلبه ؟ ومن المحتمل أن تكون حياتهما إذ ذاك حياة قبر مدقع

لم تكن الصورة التى تمثلها صورة مبهجة ففتحت عيني ونظرت إلى الرجل النائم، وساءت نفسى : أيجب أن أخبر « سالى » بما رأيت ؟ ألا يكون فى ذلك منجاة لها من آلام المستقبل ؟

وسمعت « بارنى » يهمهم فى نومه : « ياك من صديق طيب القلب يا ويل ». فحلت هذه الكلمات عقدة لسانى وقضت على موقف التردد . فقلت وأنا أشمر بالتخاذل مكرراً عبارته :

تركت عملى فى المنجم قبل يوم الزفاف بأسبوع واحد . وذهبت « سالى » إلى أبرشية أوكلاند لزور عممتها ولتبتاع جهاز المرس، ومضى يومان لم أر فيها « بارنى »

وبعد يوم قضيته فى إعداد متاعى للسفر اعتزمت أن أترى ماشياً فقادتنى قدمائى عن غير قصد إلى الطريق التى تمر مباشرة وراء حانة الأسد الأحمر . وحمل الجوى إلى أذنى ضجة نزل الحانة ونحكاتهم، ثم فتح الباب الخافى وخرجت منه امرأة تسند رجلاً يسير إلى جانبها مترنماً غملاً . فوقفت فجأة وقد تولانى الدهول والغضب لأن الرجل لم يكن غير « بارنى » وكانت رفيقته « تس » فتاة الحانة للطروب . ووقع نظرى عليهما تجذب وجهه إلى وجهها ثم التفت شفاهما فى قبلة طويلة ملتهبة

ثارت نفسى لهذا المشهد فخطوت نحوهما وأنا لا أكد أدرك ما أفعل ودفعت المرأة جانباً فى كثير من الخشونة

فقبض « بارنى » كفه كما لو كان معتزماً أن يضربنى وقال فى لفظ متناقل :

— ماذا تعنى بمملك هذا ؟

فأجيبته فى لهجة الأمر :

— صه وهيا إلى البيت قبل أن يراك أحد ويخبر « سالى »

فلوت « تس » أصابعها فى شكل وقع وهزت يدها فى وجهى وهى تقول :

— هذا « لسالى » أما أنت أيها الشاب فاهم بشؤنك الخاصة . وأما « بارنى » فسيق مى

وهاجتنى حركة الفتاة فنسيت قانون اللياقة فى معاملة النساء ولكنها أصابت فيها المدهون

النجم أوشك ما فيه من الفحم أن يستنفد ، فكان من جراء ذلك أن دفن بعض عمال ذلك القسم أحياء ، وأن حبل بين البعض الآخر وبين طريق الخلاص .

وكانت النسوة يبكين متوسلات إلى الرجال أن ينقذوا أقاربهن ، وكان الرجال قد شرعوا بالفعل بؤافون من أنفسهم جماعات إنقاذ بإرشاد « بيل هاننج » أحد رؤساء المال ، وكان الرجل يعرفني أنا وبارني منذ كنا طفلين ، ومنه علمت أن صديقي بين الشكويين وقال الرجل أن ليس هناك من يعرف ما أصاب المال فقد يكونون أحياء وقد لا يكونون ، وعلى كل حال يفرض أنهم أحياء فهناك خطر اختناقهم بالغاز فيجب أن نعمل مسرعين لانقاذهم .

ودون أن أنسى بنت شقة انضمت إلى إحدى الجماعات المتطوعة للانقاذ وعملت معهم بأقصى ما في مقدوري من جهد ، وكنا جميعاً متجهمين نعمل صامتين نسأل الله ألا يذهب مجهودنا عبثاً .

قضينا في العمل ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يكن يتقطع فيها العمل إلا لحظات تنامها غراراً ، وكنا كلما توغلنا في النجم أقمنا عمداً ومساند خشبية حدوث انهيار جديد وكنا نعمل صامتين ، فلم يكن لأحد منا ما يقوله وقد عرف كل مهمته . وما أنسى هذه الساعات الأخيرة التي قضيتها في النجم مع هؤلاء الأبطال الصامتين الذين أقفلت أفواههم ونطقت جباههم بما ارتسم عليها من أمارات المزم والجهد الجبار .

وكان الانسان يسمع ما بين فترة وأخرى أحد الرجال يصيح « هيلو » « هيلو » عسى أن تصل أصواتنا إلى هؤلاء الساكنين الذين انطبق عليهم

« نعم ، يالك من صديق طيب القلب يا وبل ... إنك لرفيق الشموه يا وبل » فقد كنت أعلم أن ما بيني وبين بارني من ولاء وصداقة سيبقى سره بآمن في صدري . وانصرفت بعد أن أحكت عليه اللغطاء .

وجدت « سالي » في البيت عند عودتي فلم أقف معها إلا ربنا رددت تحيتها وأخبرتها أن بارني بخير إلا من تعب للعمل الذي ألزمه الرقاد مبكراً ، ثم صعدت إلى مسكني حيث قضيت ليلة مشردة النوم لم أخاطب بارني بعد تلك الليلة ، ففي اليوم التالي بينما كانت « سالي » تربي ما اشترت من أبرشية أوكلاندا استعداداً للمرس اخترقت سكون الصباح ولولة جددت لها قلوب كل أم وكل زوجة وكل حبيبة في البلدة ، فقد كانت رنتها منبثة عن وقوع كارثة في النجم ، فقبضت « سالي » على ساعدي وقد هرب كل أثر للدم من وجهها فأصبح يشبه وجوه الأموات . وقالت في جزع : « بارني ... إني لأشعر بأن فاجعة قد أصابت بارني » . وكأنما قد سمرت قدماي في الأرض فوقفت عملاقاً فيها بعيني حتى شعرت بيديها تدقان صدري وقد أصابتها نوبة عصبية فصرخت بي :

— لا تقف هكذا ناظراً إلى يا « وبل » ... إني لأشعر بأن مكروهاً قد نزل ببارني ... فهلا تفضلت فعملت شيئاً ...

فاندفعت من البيت واندججت في الجوع التي كانت مسرعة في طريق النجم .

وكان كل إنسان يتساءل : ماذا حدث ؟ ولكن لم يكن أحد يدري شيئاً ، حتى إذا وصلنا إلى النجم علمت أن انفجاراً حدث فسد المدخل إلى قسم من

المنجم فيقوى ذلك في نفوسهم الأمل في الحياة .
ولكن أصواتنا كانت تذهب هباء في جوف هذه
المقبرة الخيفة .

وكان أشق شيء على نفسي أن أرى وجه
« سالى » الحزين وهو تسألنى كلما خرجت من
المنجم عن نتيجة بحثنا ، فكانت كلمات التشجيع
والمزاء التى أرددها عليها لا تصادف منها غير أذنين
صماويين ، وهى جالسة تشخص في الفضاء كالماخوذ
تتحرك شفاتها في صمت مبتهلة إلى الله .

وأشرق صباح اليوم الرابع صافياً وضاء .
وكان اليوم الذى حددنا قد زواج بارنى وسالى ، ولكنى
كنت أعلم أن هذا الزواج لن يكون ، فقد اقتربنا
من البقعة التى كان يشتغل فيها هؤلاء النساء حين
انفجار المنجم ، ولم يكن هناك أى أثر للحياة في تلك
البقعة المشؤومة ، فما شككنا ، وإن لم يصرح أحدنا
بما شعرنا به ، في أن الموت قد حصد جميعاً .

وصلنا آخر الأمر إلى الرجال وكانوا سبعة عشر
وجدناهم قد سحقوا سحقاً فقد أصابهم الضربة
القاضية قاسية عنيفة . فبالها من ساعات هول تلك
التي أخذنا ننقلهم فيها الواحد بعد الآخر إلى خارج
المنجم ، فكانت قلوبنا وأقدامنا تتناقل كلما اقتربنا
من مدخله . وبالمهول اللحظة التى وقع نظرى فيها
على بارنى فتمثلته في رقده التى تركته عليها في آخر
ليلة رأيت فيها ، وكأني أسمع كلماته الأخيرة : « يالك
من صديق طيب القلب ياويل » . ما أفسى القدر
وما أتمس هذين المحبين اللذين أصابهما بهذه الضربة
القاتلة ! لقد كدت أختنق حزناً في ذلك الموقف
الرهيب ...

دفنا موتانا وأقمنا عليهم صلاة جامعة في الكنيسة

حتى إذا انتهينا من توديعهم الوداع الأخير ، شرعت
أعد عدتى لمبادرة البلد قاصداً إلى مزرعة عمى .
فقد أصبحت بعد ذلك الحادث أشد رغبة في الابتعاد
عن المنجم ، وقد يبدو غريباً أنني لم أشعر بشيء من
الآمل في الحصول على « سالى » بعد أن نزل القضاء
بخطيها « بارنى » ولكن لا غرابة في ذلك فقد
عرفت من أخلاق « سالى » ما أقننى بأنها من
النوع الذى لا يجب غير مرة واحدة ، فالوقت وحده
هو الذى يخفف من آلام قلبها ، فما كان ليخطر لي
على بال أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه عندما
ذهبت إليها لأودعها .

وجدتها جالسة بجوار النافذة تنظر إلى الفضاء
الذى كانت هى وبارنى وأنا نقضى فيه ساعات لمو
ومرح تحدثونا للسعادة وعذب الأمانى ، فلما رأتنى
نظرت عند دخولى وقد ارتسمت على شفيتها
ابتسامة قارة .

فلما أدنيت أحد الكراسى إلى جانبها وجلست
عليه قالت منهدة :

— أظنك جئت لتلقى إلى بكلمة الوداع ؟

أجبت :

— نعم قانى لأشعر أن ليس هناك من شيء

أستطيع أن أعمله الآن

فقلت في كثير من الرقة :

— إنى لأحسدك ، وما أشد رغبتي في أن

أبتعد أما أيضاً من هذا المكان . ثم أود لو أستطيع

الذهاب فلا أعود أبداً . إنك ذاهب لتعيش حيث

النور والهواء وحرارة الشمس . أما أنا فسأبقى هنا

حيث لا يوجد غير الكريات السوداء

وهنا غص صوتها فلم تستطع المضي في حديثها

وانهمرت الدموع مطلقاً من عينيها ، فطوقت
كفها بإصبعي مواسياً وقالت :

— تشجى يا « سالى » وإنى لأعلم مبلغ ألمك
من خسارتك الفادحة ولكن اجتهدى فى أن تتمزى
فنظرت إلى زمينين مدمورتين بالدموع وقالت
فى ثان :

— أأظلمك يا « ويل » على سر لا تعلمه ؟
إنى لأعلم ألمك صديق وفى غمض وأن حكك على
لنى يكون قاسياً . وإنى لشديدة الحيرة والاضطراب
فنظرت إليها فى دهشة ، أسائل نفسي : ترى
إلى أية غاية ترى ؟

ومضت فى حديثها تقول :

— إن حزنى على « بارنى » ليس إلا نصف
السبب فيما أشعر به من حيرة واضطراب ، فبعد
سبعة أشهر سأصبح أمًا . وهذا هو السبب الذى
حملنى أنا وبارنى على أن نستعجل يوم زفافنا فنعدده
بعد أيام قلائل من إعلان خطبتنا . أما الآن ...
فانى لا أجد حتى الاسم الذى أسمي به طفلى . أواه
يا « ويل » ... ماذا عسانى أفعل ؟

إذا قلت إننى شعرت عند سماع كلمات « سالى »
كأننى قد صممت ، كنت متلفظاً فى التعبير .
فما كنت لأحلم بأن أسمع ذلك الذى سمعت ، ولم يكن
فى مقدورى أن أسدقه لأول وهلة !

على أننى أجهدت نفسي فى امتلاك مواطنى ،
فقد كانت الفكرة التى طفت على غيرها فى رأسى
هى أن « سالى » واقعة فى حرج شديد وأنها أشد
ما تكون حاجة إلى أن أعينها فى شدتها . ومن
الغريب أننى فى تلك اللحظة لم أشعر فى قلبى بشيء من
الضيق أو الحقد على « بارنى » ، فقد كان شعورى

كله منحصرأ فى الشفقة الشديدة والرغبة فى المساعدة.
وإذا كانت سالى من الطراز الذى لا يحب إلا مرة
واحدة فأنا أيضاً من ذلك الطراز ، وعلى الرغم من
كل ما حدث كنت أعيدها . وهذا هو السبب فى
أننى عندما كنت أزرع أرض الغرفة ذهاباً وجيئة
فى صمت كانت فكرة واحدة مستولية على رأسى .
لقد أبدت « سالى » رغبتها فى أن تترك البلدة ،
وإنه ليسرنى أن آخذها منى بأى ثمن كان . إذن
لقد وضح كل شيء وضوح ضوء النهار ، فركمت
إلى جانبها وأفضيت بكل ما خطر لى ، قائلاً فى لهجة
الجد والتحمس :

— اصغ إلى يا « سالى » ! إنك لن تستطعى
البقاء هنا لمواجهة مخزسات الناس فلتقبل مساعدتى
— وكيف ؟

— تزوجى منى

فشقت « سالى » وابتمدت غنى وقد بدت
عليها الدهشة ولكنى اندفعت أقول فى غير ترو :

— إننى لأعلم ما لا بد أن تشعري به حيال هذا
المرض . ولكن ألا ترين يا عزيزتى أن هذه هى
الوسيلة الوحيدة ، فأنت زوجة لى تستطيعين أن
تصحبينى إلى الزرعة دون أن يكون هنا ما يدعو
إلى علم أحد بأمر الطفل . ألا ترين أن هذا هو الشيء
الوحيد المقبول الذى يمكن عمله ؟ وما أشك فى أنه
لو تيسر أن يعلم بارنى بهذا الأمر لاستطاع أن
يدرك معناه

— أتقدم على هذه التضحية من أجل ، عالمًا بأننى
لن أستطيع أن أقدم لك شيئاً مقابلها ، عالمًا
كذلك أن لا أمل فى شيء على الإطلاق ؟ ثم أنت
ترغب فوق ذلك فى أن تطلق اسمك على ابن رجل
غيرك ؟

فأجبت :

— ليس فيما أفعل توضحية على الإطلاق ، فأننا سنشارك في إنشاء بيت يأوي كلاً منا ، وما أطلب شيئاً غير ذلك ، فإذا شعرت يوماً ما بأن في قلبك شيئاً من المطف على فساشر عندئذ بأنني قد كوفت بمائة ضعف لما فعلت

فلم تستطع « سالي » أن تتكلم وأدارت وجهها عني ولكنني أدركت أنني قد نجحت فيما رسمت إليه وشعرت أنني في هذه اللحظة الحرجة كنت أسعد مني في أي وقت مضى من حياتي

وبعد أسابيع قليلة وصلت و « سالي » إلى مزرعة خالي بات الذي امتلأ قلبه فرحاً باسطحاني عروسي ممي ، وقد بذل منذ اللحظة الأولى كل ما في جهده ليشرها بأنني في بيتها ، وأخيراً عندما أصبحت حالة الحمل أكثر وضوحاً عني في أسلوب رقيق بأن يخفف عنها عبء العمل في البيت . وكان إذا لاحظ مرة أن العلاقات بيني وبين زوجي غير طبيعية تجنب في حكمة أن يقول شيئاً يتم عما لاحظته وإني لوائق أن « سالي » لم تندم قط على قبولها الزواج مني ، فقد أحبت المزرعة ، وكان يبدو عليها بعض الأحيان أنها تشمر بكثير من السعادة ، ولو أنها أصبحت نادرة الابتسام . ولقد كان شاقاً على نفسي أن أكون قريباً منها محباً لها ومع ذلك لا أجروأبدأ على أن أمسها . ولكنني صبرت مؤملاً ألا يمد جداً اليوم الذي تقبل علي فيه عن رغبة ورضا

وقلت في نفسي : إن الحال لا بد أن تتغير بعد أن تضع جنينها ، وستمود حياتها سيرتها الطبيعية يوم يصبح لها ولد محبه وتسهر على العناية به ، فستمود عندئذ تدريجاً أن تقبل علي أنا أيضاً ولما شمرنا أنا وخالي بأن عمل البيت قد أصبح

كثيراً علي « سالي » ، بعد أن تقدمت حالها ، استأجرنا فتاة من أهل القرية لتساعد في المطبخ وفي الأعمال البيتية الأخرى ، وقد برهنت هذه الفتاة واسمها مارجري جاميسون أنها تساوي ثقلها ذهباً ، وكانت فتاة وضاعة الجبين جذابة ، محبة للعمل أنيسة بيت وجودها في البيت روح البهجة والانشراح وقد توطدت روابط الصداقة بينها وبين سالي

وفي ذات صباح وجدت مارجري في المطبخ يبدو عليها أثر الحيرة والاضطراب ، فلما سألتها عن سبب ما بها أجابت :

إن الذي يشغلني هو أمر امرأتك ، فانه يبدو عليها أنها في حال غير طبيعية . إنها لا تتكلم أبداً عن الطفل المنتظر . فعني مجلس شاخصة إلى الفضاء كأنها تحلم ، وقد قالت لي أمس : « مارجري ، أتتقين هنا بعد ذهابي لتعني بأمر ويل ؟ إنني لأرجو منك أن تفعل ذلك »

فقات في خشونة :

— كلام فارغ ، إنها غير مالكة نفسها ، فهذا أول طفل لها ، وكل ما هناك أنها خائفة وعلى الرغم من كلامي هذا شعرت بشيء من القلق والاضطراب

ولد الطفل في ليلة قارسة للبرد من ليالي الشتاء وإذا أحست « سالي » بالآلام الأولى ساعدتها مارجري في الايواء إلى فراشها ومضيت أدعو الطبيب وكانت ليلة هول وجزع . فمذ اللحظة التي وصل فيها الطبيب أحسست بتوتر غير طبيعي يعلو جو البيت ، فقد كانت مارجري تروح ونجيء صفراء مقفلة الشفتين ، بينما كان الطبيب يؤدي مهمته وقد ارتسم للقلق على جبينه واضحاً

وبعد فترة كأنها الأبد نزل الطبيب إلى غرفة

واسم « بارنى » على شفيتها

وقفت كالحالم منحني الرأس عند ما غيبوا نمش
« سالى » فى القبر غير مستطيع أن أصدق أنها
قد ذهبت حقاً . على أن الحقيقة لم تلبث أن صدمتني
بقوتها المريعة عندما وصلت البيت عائداً من جنازتها ،
فقد كنت جالساً وحدى فى الغرفة الأمامية غارقاً
فى الذكريات الحزينة إذ أيقظنى من غيوبة بكاء
ضعيف ... الطفل ... وكان الحزن قد أنشأ وجوده
فى هذا العالم ، فشيت متندباً ونظرت إلى ذلك المخلوق
الأحمر الوجه الذى تركته أمه فى رعايتى . إنه ابن
بارنى ! كيف أستطيع أن أشرح أو أصف الانفعال
الذى تملك نفسى حين نظرت إلى الوليد الذى يبكى ؟
لقد تجسست البغضاء كلها والحزن الكمين فى نفسى
فتجسست كرهاً مطلق المنان نحو ذلك الطفل . لقد
حظى أبوه بالفتاة التى أحببتها وغانها ، ثم هى قد
دفعت حياتها ثمناً لاخراج ابنه إلى عالم الوجود

وبكى الطفل مرة أخرى ، فأنحيت عليه وقلت
فى خشونة : « أنت ، إنها من أجلك ماتت ، وما ينتظر
منى مقابل ذلك إلا أن أقتلك ! ها ! ها ! يا لها من
مهزلة ! حقاً إنى أبغضك ، أيها الطفل الباكي
الحقير ! » ولم تلبث ثورة الغضب والحزن التى أقعدتني
كل عامل من عوامل العقل أن أحالتنى رجلاً مجنوناً
تغلا قلبه شهوة الجريمة . سأنتقم من القدر بقتل
المخلوق البرئ الذى كان السبب فى كل هذا المصائب
وانجهمت يداى فى بطء إلى رأس الطفل وأطبقت
أصابعى على عنقه ، وبدأت أضغط ذلك العنق الصغير
متأنياً وأنا أضحك ضحكا وحشياً كلما ازدادت عينا
للضحية إجحاضاً .. ابن بارنى ! أبظن أنه يستطيع أن
يتفلى ؟ سأريه ! أن « ويل للصديق للطبيب القلب »
لن يكون الأضحوكة مرة أخرى

للطعام حيث كنت جالساً أنا وخالى بات منتظرين
فلما رأيته سألته فى حال عصبية :

— أهناك شىء غير سار يا دكتور ؟

فهز رأسه كثيراً وقال :

— أخشى أن يكون ذلك يا « ويل » إننا
نعمل كل شىء ممكن ، ولكن امرأتك تسلك سلوكاً
غريباً ، فلا هي مكترثة بأن تعيش أو تموت ولا هي
تساعدنا فى أداء مهمتنا بأية صورة من صور المساعدة
وهى أحياناً تهذى وتكرر الهتاف باسم بارنى

ثم جاءت مارجرى فدعت الطبيب الذى خرج
وتركنى وخالى ينظر أحداً إلى الآخر فى صمت
مشبع بروح الجزع . ولم تلبث أن سمعنا بكاء رقيقاً
ينبئ عن قدوم مخلوق جديد إلى عالم الكفاح الذى
نعيش فيه

وفى مطلع النهار كنت ناعساً فوق كرسي
إذ أيقظنى نقرة خفيفة على كتفى فرأيت مارجرى
واقفة أمامى تقول هامسة :

— يريد الطبيب أن تسرع فى الذهاب إليه

فاندفعت ساعداً السلم فى سكون وهناك لقبنى
الطبيب على باب غرفة سالى ، وقال يحذرنى :

— اجتهد فى أن تكون هادئاً متجلداً

فحسبت أول الأمر أن سالى نائمة ، ولكنى
رأيت جفניה يهتران ثم يفتحان ، ثم التفتت
— وعلى لها ابتسامة رقيقة — إلى المخلوق الصغير
الذى ضمته فى ساعدها ملفوفاً ، وبدأت تتكلم
فأنحيت لأسمع صوتها الخافت فقالت :

— ويل ... عزيزى ويل ... إننى تاركة طفلى

فى رعايتك ، وسيجيئ اليوم الذى يكبر فيه ويعيش
ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة ، فليبارك الله
عليك وليحفظك كما جئنا

وانطبق جفناها فى بطء ، وبمدد دقائق قليلة ماتت

أيقظني من هذه الثورة الجنونية وقع خطوة على عتبة الباب وخلعت أصابعي من عنق الطفل بجفلا إجمال المجرمين عندما دخلت مارجرى الحجرة، وإذا لم تلاحظ شيئاً غير عادي ذهبت إلى فراش الطفل وحملته على ساعدها . وقالت :

— إنه جائع ... مسكين هذا الطفل اليتيم من أمه ، أخشى أن نكون قد أهملناه !

فلم أجب على قولها بشيء ، وقد أخذت أسترده قواي العقلية ، وبدأت أشعر بالمرق البارد يتدفق من جميع مسام جسمي . واستولي علىّ إذ ذاك الشعور بالشكر وعرفان الجليل لما رجرى فقد أنقذتني من أن أصبح قاتلاً للخلق ضيف برى . يجب أن أستجمع قواي ! فترنحت خارجاً من الحجرة أشعر بالهواء البارد يصدم جبهي

فلما خلوت إلى نفسي في حجرتي ذلك المساء لمنت ما بدا من حماقتي ، فما كان للطفل بالملوم على موت « سالي » ولكنني أنا الملوم

لقد قال الطبيب إنها ماتت لأنها لم تكن راغبة في الحياة ، وأنا وحدي الذي أعرف السبب في ذلك . كنت أعلم أن قلبها قد دفن مع بارني . لقد كانت تعتقد أنه محبها الصادق الأمين ، ولم يكن هناك من يعلم غير ذلك سواي . وكان في مقدوري أن أقضي على حبها له بوضع كلمات . فلماذا كنت ما علمته من أمر بارني والفتاة « تيس » ؟ لم يكن لهذا التكم من سبب غير خوف من أن أجرحها وأن أصور نفسي في عينيها إنساناً دينياً . لقد أطبقت شفتي وتركت الفتاة التي أحبتها تصعب محباً خائفاً إلى العالم الآخر . كانت هذه هي الأفكار التي مررت بحياتي بضعة أشهر بعد موت « سالي »

وإجابة لطلب خالي بات سمينا الطفل « باتريك » وعلى الرغم من أنني لم أهتم بأمر ذلك المخلوق الصغير

فانه لم يكن مهماً . فقد كانت مارجرى تعبده ، وقسم خالي وقته بين فقير النحل وبين الطفل الذي سمي باسمه . وإذا لاحظنا أن سلوكي حيال « ابني » كان غريباً فانهما لم يكونا يحدثنني بما لاحظاه . وبعض الوقت بدأت آلف وجود الطفل في البيت كما آلف وجود عصفور غريز من عصافير الكناري ، مخلوق يطعمه الانسان ويأويه وينسب به ، ولكنني لم أشعر في قلبي نحوه بأي أثر لماظفة الحب

ولما أتم الطفل « بات » السنة الأولى من عمره أصيب خالي بصدمة ألزمته الفراش ستة أشهر ، كنت خلالها شديد الإعجاب بما رجرى لما أبدت من صبر وعطف في أداء واجباتها ، إذ كانت تمرض الرجل المريض وتعتني بالطفل الذي كثرت حركته حريصة كل الحرص على نظافة كل شيء في البيت ، مؤدية في الوقت نفسه عمل للطاقي والخائط أيضاً . وكنت من جانبي أعمل كل ما أستطيع لمساعدتها ، وقد علمتني أن أزداد كل يوم احتراماً لها وإعجاباً بها . لقد كانت الأم والطاهية ومديرة البيت والمرضة ، فلو شادت لتفاضت أضاف الأجر الضئيل الذي كنا تقدمه لها ، ومع ذلك لم تكن لتشكو من شيء وطراً على في الوقت نفسه شيء من التغير ، فإذا كنت أمضى في أداء عملي في هدوء منابر لما كنت عليه من قبل ، فلم يكن السبب في ذلك الحزن الذي كمن في نفسي ، ولكن انحصار تفكيري كله في عملي . فقد شق الزمن جرح نفسي ، ولم تمد « سالي » غير ذكرى محبوبة تسكن أعماق قلبي . على أنني كنت أشعر دائماً أن شبح « بارني » يلازمني دائماً في شخص ابنه الذي صار كلما تقدمت به الأيام يقترب شبهه من شبه أبيه ، فكانت له تقاسيمه وعيناه السوداوان الراقستان وشعره الجمعد ولم أعرف قط إذا كان خالي قد أدرك الحقيقة

عدت بذنا كرتي إلى الثمانية عشر شهراً الماضية التي عانيت فيها مارجرى بتربية الطفل وبتمريض خالي . فساءلت نفسي : تراها كانت تفعل كل ذلك مقابل الأجر الضئيل الذي كانت تتقاضاه منا ؟ أم كانت تشمر هي أيضاً بأنها قد أصبحت أحد العناصر الأصلية في ذلك البيت ؟

أيمكن أن تكون قد شمعت بشيء من العطف على رب البيت الفاتر للشعور الصامت الذي كان يروح ويجي مشغولاً عن كل شيء غير مكترث لأحد ؟ تذكرت بعض حركات صغيرة يمكن أن تدل على هذا الذي افترضت ، وهنا شمعت كأن شرارة ملتهبة قد سرت في مجموع كياني ، فكان من الأمور للسارة أن أشمر بأني موضع اهتمام إنسان ما وما جرى على وجه أخمص ، فقد تمودت أن أنظر إليها نظرة الصداقة الحارة . ولم يكن هناك من يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تملأه في بيتي . إذن يجب ألا تفاديه وفتت إلى جانب مارجرى وهي ترقد الطفل مساء في سريرته ونظرت إليه وهو يرضع . وعلى حين فجأة طوقت مارجرى بساعدي وضممتها إلى صدري وقلت :

— إنك يا مارجرى لن تتركي مخلوقين عاجزين تحت رحمة الأقدار ؟ ألا ترين أننا أشد ما نكون حاجة إليك ؟

فقالت وقد دهشت لحركة التودد التي بدت مني على غير انتظار :

— ولكن ماذا عساني أفعل ؟

قلت :

— اصغ إلى يا مارجرى ! إنني لا أنظر إلى امرأة أخرى في العالم نظري إليك . وإنني لأعلم أن هذا الأمر مفاجئ ، ولكن أنتظين أنك تمنين بأمرى

أم لم يدركها فيما يتصل بنسبة هذا للخلام ، فقد كان رجلاً ما كراً لا يتكلم كثيراً ولا يوح بما يعلم . وقد مات بعد ستة أشهر من مرضه . وعدت يوماً إلى البيت بعد موته بأسبوعين فوجدت مارجرى تبكي . فسألها في لهفة :

— ما الذي يبكيك يا مارجرى وأى سوء حدث ؟ فقالت متأللة :

— إن هناك دائماً أناساً متطفلين ينهزون للفرص للخوض في أعراض غيرهم ، ولما كان خالك على قيد الحياة يعيش معنا لم يكن هناك ما يشير تطفل أمثال هؤلاء للناس . أما اليوم وقد مات ، فقد شرعوا يتحدثون في أمرنا ويقولون إنه من غير لائق أن أعيش معك وأنا فتاة شابة تحت سقف واحد وليس معنا ثالث ، لهذا أرى من الحكمة أن أغادر هذا البيت حتى أقطع السبيل على المتطفلين فقلت صرّاعاً :

— ولكن الطفل ! إن به حاجة لمن يربي بأمره ، وأنت الأم الوحيدة التي تفتحت عيناه على وجهها . إنك لا تستطيعين أن تتركينا يا مارجرى وما نحن بقادرين على أن نعيش ببيدين عنك فزفرت الفتاة وقالت وهي تسرع بالدخول إلى غرفتها :

— إنه ليكسر قلبي أن أفعل ذلك ، فقد كنت عطوفاً على ، وأنا أحب « بات » الصغير كما لو أحببت ابني الذي من لحي ودي

شمعت عند سماع هذه للكلمات بشيء من الاعياء يستولي على نفسي ، فلم يخطر لي من قبل قط أن مارجرى يمكن أن تتركنا ، فقد كنت أنظر إليها منذ الساعة التي دخلت فيها بيتنا ، على أنها عنصر من العناصر الأصلية فيه ، وكان ذلك كان أمراً مسلماً به ، فلما سمعت كلماتها الأخيرة

لحد أن تقبليني زوجاً لك ؟ أنا أنا فسابذل جهدي
في سبيل إسعادك

فلم تنطق الفتاة بكلمة ولكنها هزت رأسها هزة
الرضا وقد فاضت عينها بالدموع ، فأنحنيت وطبعت
على شفتيها القبلة التي لم أطعمها على شفتي امرأة
غير أمي

لقد عرضت الزواج على مارجرى في ساعة انفعال
ولكنني لم أندم على ذلك قط ، فقد كانت صديقة
مخلصة ، ورفيقاً فرحاً مؤنساً ، وقد تمردت على الزمن
أن أحبها حباً قوياً

وكان « بات » كلما كبر أصبح من المستحيل
أن أتجاهله ، لقد كان طفلاً نشيطاً محتاجاً إلى الملاحظة
الستمرة ، إذ كان ميالاً للعبث بكل ما يصادفه ، فلم
ألبث أن لاحظت أنه لا بد من مراقبته خشية أن
يؤذي نفسه ، ولم يكن من طبعي أن أهمل عامداً أداء
واجبي ، وما دامت الأقدار قد ألفت إلى أمر العناية
بهذا المخلوق فقد وجب علي أن أحبه من كل خطر
يتعرض له

وبدا على الطفل أنه يحبني حباً شديداً ، فكان
يتبعني أين تنقلت في البيت وكان يتعلق بي ويقبلني ،
وكان حسنه ولطفه جذابين لا يملك الإنسان نفسه
من التأثير بهما ، وكان يدعوني بلفظة « أبي » وما كان
ليستطيع أن يدعوني بغير ذلك

وما بلغ « بات » السنة الثالثة من عمره حتى
رزقت مارجرى بطفل هو ابني من لحمي ومن دمي ،
وما أستطيع أن أصف الشعور الذي استولى على نفسي
حين حملت المخلوق الصغير الجديد على ساعدي ، فقد
تجمع الحب والمطف الذان حرمتهما « بات » وقاضا
دفعة واحدة على القادم الجديد

على أن روح المدل الذي كنت أتشد في أخذه

نفسى به قد حملني على أن أقسم في الحال وأنا أحمل
ابني على ساعدي أنني مهما بلغ حبي لهذا الطفل ما بلغ
قلبي أميزه بمجمل أحرم منه « بات »

ولقد وفيت بهذا القسم في أدق حدود الوفاء ،
وخصصت قسماً من دخلي لتربيتهما وتعليمهما ، وكان
على كل منهما أن يؤدي واجباته المدرسية ، وإذا
لاحظت أن « فرانك » كان ميالاً إلى الكسل ،
أمرت « بات » في شدة ألا يساعده في أداء واجباته
عنه ، وكان للطفل ميالاً بطبيعته الخيرة إلى إسداء
هذه المساعدة لأخيه ...

ولما شب الطفلان أحزنتني أن ألاحظ للفارق
الكبير بين أخلاق أحدهما وبين أخلاق الآخر . فقد
كان « بات » دائماً يأساً سميداً ، وكان كريماً
طموحاً غير أنه كان على استمداد للمراك لأقل سبب ،
وكان يسلك حيال فرانك ، مسلك المحامي الذي
يدافع عنه غير سامح لإنسان أن يمس به بسوء .

وكان ابني على العكس من ذلك فمولا ميالاً
إلى الأنانية ، فكان يستغل طيبة « بات » لمصلحته
كلما أراد ذلك . وإذا كانت الأمور تسير سيرها
الطبيعي كانت شخصيته تتميز بمجازية شديدة ، وكان
فوق ذلك متميزاً بذكاء عقله وقوة إدراكه وهما
أمران كانا يبشران بمستقبل عظيم .

وكان مما ضابقتني بعض الشيء أن فرانك
لم يكن يكثر قط بقفير النحل ، وكان « بات » هو
الذي يبنى بها ويحفظ كل ما كنت أعلمه من شئونها
وكنت كذلك أتضيق حين أذكر أن « فرانك »
قد يرتفع شأنه في الوجود ، وأن « بات » قد يقنع
بالحياة في المزرعة على مثال ما فعلت . على أن هذا
هو ما كنت أرجوه على كل حال ، فإن السنين وإن
كانت قد خفت ما كنت أشعر به من البعض نحو

الطفل الغريب الذي حملني مسؤولية أنا غير مرحب بها، فانها لم تقض على هذا البغض للقضاء التام، فكنت أتمنى أن يتم كل شيء طيب لابني.

وكان « بات » أدق إدراكاً من أن يفوت عليه ما في مسلكي من تميز ولكن لم يكن ذلك ليتذكر في قلبه الصغير أي أثر غير طيب، ومن الغريب أن تكون مارجري هي التي لم يبد من ناحيتها أي نوع من أنواع التفريق بين الغلامين، فقد كانت تحب الولد الكبير الجليل الطيب القلب الذي تستعد أنه ابني حبها ابنها على حد سواء.

وكانت « بات » متقدماً على « فرانك » في المدرسة عندما ماتت مارجري، وقد شعرنا جميعاً بالخسارة التي أصابتنا بفقدان عطفها وعنايتها وكان « بات » أشدنا حزناً وتأثراً. فكانت هي الشخص الوحيد الذي كان يفضي إليه بما في نفسه ويركن إلى عطفه. وكان « بات » يدرس الصحافة ويقول إنه سيؤلف يوماً كتاباً يحملنا جميعاً على أن نفخر به، وكانت مارجري هي وحدها التي تشجعه، أما أنا فكنت أهرأ بفكرته فما كنت لأتصور أن ذلك الطفل الرقيق الكبير الجسم يصلح لأن يجلس يوماً فيضمن أفكاره وآراءه كتاباً يقرأه الناس، ولما ماتت مارجري انقطع حديث « بات » بآماله ومطامعه.

أما فرانك فكان يطمع في النفوذ وفي الثروة. كان مفرماً بالمسائل المالية، فكان كل مساء يدرس الصحيفة الاقتصادية التي تنشرها الجريدة، غير ملتفت إلى شيء إلا أن هذا النوع من الأبهم قد ارتفع وذلك النوع قد تدهور، وكان يدرس الأسباب التي تؤثر في السوق مفاخرأ بأنه يستطيع أن يتنبأ بما سيقع من ارتفاع أو هبوط، وكان كلامه مفرطاً حملني على أن أستخدم بعض أموال في سوق

الأسهم، وزادني الربح طمعاً فاستخدمت فيها جميع أموالى وكان ذلك سبباً في أن تعرفت بمستر بالدوين مدير البنك المحلي، وكان الرجل ممن يهتمون بتربية النحل فكان يزورنى ويرقب ما يجري في القفير. فتوطدت بينى وبينه روابط الصداقة، حتى إذا ترك « فرانك » المدرسة عهد إليه بوظيفة كاتب في البنك فتساء ابني بذلك هجياً. وكان يقول لى عن عقيدة: إن بعض كبار رجالنا كانوا في أول نشأتهم كتاباً في المصارف

وكان بات إذ ذاك يعمل مخبراً في الجريدة المحلية وكان الأجر الذي يتقاضاه ضئيلاً، ولكنه كان قنوعاً به، وكان يكفى لمعيشته، وكان يمضى أوقات فراغه في كتابة قصص لم يوفق قط في بيعها، فكان كل ما يرسله منها يرد إليه ثانية، وكنت أنا و« فرانك » نهزأ منه لاضاعته وقته في ذلك العبث. وقال له فرانك في سخرية:

— ألا تهبط أيها القروي الكبير الجسم إلى الأرض؟ ألا تعرف الوقت الذي أصابتك فيه الهزيمة؟ وكان « بات » يتسم من هذا الكلام غير مكترث ويقول إن روما لم تبني في يوم واحد، ثم يمضى في الكتابة

ولم يمض إلا قليل حتى ذهبت أنا وفرانك أكبر دهشة في حياتنا، فإن إحدى قصص « بات » لم ترد إليه بل جاءه بدلها « شيك » بمبلغ من المال مصحوباً بكلمة تشجيع من محرر إحدى المجلات الواسعة الانتشار. ولقد كانت هذه هي الفرصة التي يستطيع أن يقول فيها: « لقد قلت لكم ذلك » ولكن لم يقل شيئاً وأظن أن سكرة الفرح أنسته أن يتكلم، فثنى وهلى فيه ابتسامة عريضة راضياً بحظه في الحياة، وتوالت الشيكات بعد ذلك

خطابتي عن مكان وجودي ، ولكني أرجو أن تجد في قلبك مكاناً للمفوضية . وما أخشى على صحتك وحياتك لأنني واثق من أن « بات » المميز سيسهر عليك ويبنى بأمرك . وقد أستطيع أن أعود يوماً ما ، وإلى أن أتمكن من ذلك سأبقى ... ولله الحب (فرانك)

صمغتي هذا الخطاب جلست أنظر إلى الفضاء . إن هذا لا يمكن أن يكون صدقاً ، ابني فرانك اصبر لن بعضي زمن طويل حتى يقبض عليه كالوحش الضاري لا بد أن يكون هناك خطأ ما . ولكن لا . هذا كتابه وهذا خطه . أصبح لصاً ؟ ابني الذي أملت منه الكثير وهو الآن هارب يبحث عن مكان يأوي إليه حتى لا تقع عليه عين القانون

فكرت في الأيام التي كان فيها طفلاً وساءلت نفسي : أنصرت في تربيتي ؟ ألم أعلمه تعلماً حسناً ؟ ألم ألقنه مبادئ الأمانة ؟ سألت نفسي هذه الأسئلة ورددت عليها إيجاباً

إذن أين موضع الخطأ ؟ إنه في أعماق نفسي ، لقد أخطأت حين اعتمدت على نصائحه وعملت برأيه . لقد رأيت أرحم الكثير بأبداع القليل ، فتغلغل الشره إلى نفسه ، وأراد أن يكون إنساناً ذا شأن . والمال يزود الإنسان بالقوة . لقد رأى كفى تقبض على مبالغ كبيرة من المال فأراد أن يحذو حذوي ويجمع المال لنفسه .

وإذ وصلت إلى هذا التعليل أخفيت رأسي حزناً وطراً واعتمدت رأسي يدي وبكيت في صوت مرتفع ..

ولم أشعر بأن « بات » قد دخل الغرفة حتى أحسست بساعده يطوق كتفي ، ونظرت فرأيت يرمقي في عطف وحنان . وقد قال في كثير من التلطف :

وأصبح بات غموراً بمكاته وبثروته التي تنمو على الاستمرار .

وبدأ الناس يتحدثون بأمر الفتى المؤلف ، ويهتفون بابني للنايفة ، وأخيراً أدركت أن ليس هناك من يعرف حقيقة نسبه ، فلم أر ما يحول بيني وبين الاشتراك معهم في الحديث

ولم يحض عامان على اشتغال فرانك حتى حلت بالبنك كارثة مفاجئة ضاعت فيها أموال أرباحاً وأصلاً كما ضاعت أموال غيري ، على أن هذه الكارثة على شدتها كانت أخف هولاً من الكارثة التي لحقتها بعد ثلاثة أسابيع والتي فاجأتني في خطاب مكتوب على عجل بخط فرانك وفيه يقول :

والذي المميز

عند ما تقرأ هذا الخطاب أكون قد بدت أميلاً عديدة عن الوطن . ولقد لاحظت أنت عند ما كنت في البيت في نهاية الأسبوع أنني كنت كثيرًا ، وقد نقيت ما أبدت لي من ملاحظة إذ لم تكن أعصابي لتحتمل مواجهتك بالحقيقة ، فأخبرك بأن ابنك ضرور ولص

وإنك لتعلم أنني كنت أشتغل بدفاتر البنك فترة من الزمن ، فلما وقعت الكارثة استولى على اليأس فكنت أرى أحلامي تتلاشى وما اقتصدت من المال يضيع هباء ، فلم أر أماناً غير سبيل واحد للخروج من ذلك المأزق ، فأخذت من أموال البنك مبلغ أربعة مائة جنيه معتمداً بطبيعة الحال أن أردوها . ولكن هذا المبلغ ضاع هو أيضاً ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يطلع فيه مديرو البنك على ما حدث ، لذلك أنا أغادر البلاد قبل أن يكشف أمرى . وسأبدأ حياتي من جديد في أي مكان أستطيع العمل فيه ، وأمل أن أتمكن يوماً من رد المبلغ الذي مرقته . ولا أكتب إليك بعد الآن خوفاً من أنسب تم

— إنه لأمر قاس يا أبى ، ولكن هون عليك
ولا تبتئس

فسألته فى صوت عال :

— أعرفت ما حدث ؟

— نعم فقد بعث إلى فرنك بخطاب

فسألته وقد شمعت بشيء من الارتياح لوجود
من يشاطرن الأمى :

— وماذا عسانا نعمل ؟

فأجاب :

— لقد عملت كل ما يمكن أن يعمل فما قرأت
خطاب فرنك حتى أسرعرت إلى البنك ومحدثت مع
مستر بالدوين ، وحولت حسابى إلى البنك . ولما كان
مالى يزيد كثيراً على القدر المطلوب ، وافق مستر
بالدوين رعاية لك أن يترك الأمر يجرى هدوء ويبقى
سراً مكتوماً

فقلت :

— أنت دفعت مالك الذى جنيته بمملك لتتخذ

اسم فرنك ؟

فأجاب الفتى :

— إنه اسمنا جميعاً

فلفت نظرى عنه صامتاً ، فقد ازدوجت الكلمات
فى فى ، وغص بها جلقى فلم يخرج من بين شففى .
لقد أردت أن أقول له إن الاسم الذى دنس ليس اسمه
ثم إذا بى كأني أسمع صوتاً من الماضى يهمس
فى أذنى ، وكان صوت « سالى » تكرر للكلمات
التي قالها من قبل ، عند ما نظرت بعينين تفيضان
بالدمع إلى طفلها الوليد وقالت : « سيأتى اليوم الذى
يكبر فيه ويعيش ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة »

لقد استولى على شمعور لا أستطيع وصفه ،
فغريب أن تصح نبوءتها بعد هذه السنوات الطويلة ،

وأن يدب رنينها فى أذنى ، وأغرب من ذلك أنه
خيل إلى أن الواقف إلى جانبي هى سالى نفسها ،
تعمل لا يتقاز اسمى كما أتقذت اسمها فيما مضى ، فكان
عرضا منها لا أستطيع رفضه . ولكن « بات »
لن يعرف ماذا قصدت حين قلت : « شكراً لك
يا سالى »

مضت ست سنوات على هرب فرانك ، وعلى
الرغم من أننى لم يصلني كلمة منه فأننى أشعر أنه بخير
وأننى لأرجو أن يعود يوماً ، ولكننى لست وحيداً
فإن حياتى أمتع وأكثر اهتماماً مما كانت فى أى
وقت مضى من جراء النقام والمودة اللذين توطدا
بين « بات » وبينى

تزوج « بات » بعد ذهاب فرانك بوقت قليل
محضراً زوجها الجميلة إلى المزرعة كما أحضرت أنا أمه
من قبل ، ولا يزال دائماً على الكتابة مقسماً وقته بين
الآلة الكاتبة وبين قفير النحل

وقد رأيته منذ أيام — وأنا جالس فى الشرفة —
وهو يجمع الزهر الأزرق الذى تحبه النحل . وكانت
ابنته الصغيرة مارجرى سالى جالسة على ركبتى .
وقد غمزنى شمعور بالرضا والقناعة عند ما ضممتها
إلى صدرى فنظرت إلى ورائى أتبسم وقد سألتنى :
— لماذا تبسم يا جدى ؟

فأجبته بكلام فارغ ، إذ كيف أستطيع أن
أقول للطفلة إننى عند ما رأيت « بات » تصورت أن
الأيام قد دارت إلى الوراء وإننى أرى سالى وبارنى
يتسلمان لى

أ كان الأمر كله خرافة شيخ مضطرب ،
أم ترانى قد سمعت حقاً « بارنى » وهو يقول :

« يالك من صديق طيب القلب يا ويل قلبجرك
الله خيراً »
غير الحمير حمري

حَاجِي يَا إِصْبَهَانِي

لِلْكَاتِبَةِ الْأَنْجَلِيَّةِ "جِيز مَوِر"
بِقَلَمِ الْأَمِينِ أَدْعَبِ اللَّطِيفِ النَّسَارِ

في طهران سواء منهم المسلمون والنصارى
واليهود وأقيمت الصلاة ولم ينزل المطر ،
ولكن الملا نادان لم ييأس بل وقف بين
الناس خطيباً فقال : « أليس أمامنا شيء
نعمله يا أهل إيران لكشف البلاء عن
الأرض المصابة بالجذب ؟ لقد ظهر مثل
ظهور الشمس أن الله غاضب علينا لأن فينا من
استنزلت خطاياهم نقمة الله علينا ، وهؤلاء هم الكفرة
الذين يستبيحون شرب الخمر جهرة ويرتكبون
المنكرات في كل مكان ، فلنذهب إلى حاناتهم ولنحطم
كؤوسهم وقتانهم لعلنا ننال بذلك رضى الله »

عند ذلك ثارت في الناس حية الدين ووضع
الملا نادان نفسه على رأس الجوع ومشوا إلى الحى
الأرمنى في المدينة . فلما رأى أهله هذه الجوع الناصبة
لم يعرفوا ماذا يفعلون فبعضهم أوصد الباب دونه
وبعض هرب والبعض تجدد في مكانه . ولكن
الجميع أدركوا نية المقبلين . وبعد قليل تحول النظر
إلى مذبحه عامة

ودخل الملا نادان يتبعه الأشداء من رجاله بيوت
الزعماء من الأرمن فأخذ يبحث مجدداً عن الخمر
ولما كان الأرمن كالمسلمين يحبون نساءهم فاني
أترك خيال القاري تصور الحالة التي نشأت عن دخول
هذه الجوع الهائلة للمنازل وتكسيرها أبواب النساء
وتفتيشهن خوفاً من أن تكون بعض زججات الخمر
مخبوءة في ثيابهن

ووجدت هذه الجوع ما لم تكن تنتظره ،
وما هو عندهم شر من الخمر ، وهو الكتب
القدسة والصلبان وصور المسيح والمذراء معلقة
(٩)

الفصل السادس والخمسون

مطامع مه نادانه

عرفت لما زادت صلتى بملا نادان أنه شديد الجشع
كبير المطامع وأن غرضه الأول هو أن يصبح شيخ
العلماء في العاصمة الفارسية وأنه لم يترك وسيلة لتحقيق
هذه الغاية إلا اتبعها . وكان من وظائفه المتعددة
التدريس في المدرسة الملكية . وكان يكثر من الدسائس
والايقاع بين خاصة الشاه سراً ويتولى في الجهر حل
ما بينهم من الخلاف ليشتهر بالكياسة والحزم . وكان
في الأعياد والمواسم التي يجتمع فيها العلماء عند الشاه
يقدم نفسه على سائر إخوانه بالظهور في الصف الأول
ويرفع صوته المنكر في الدعاء لجلالته ويتكلم بالنيابة عنهم
انقضى فصل الشتاء وبدأت باكورة الربيع وجاءت
الأخبار بأن الأمطار كانت قليلة في جنوب إيران
وأنها مهددة بالمجاعة ، فأمر الشاه بإقامة الصلاة العامة
وتولى شيخ العلماء تنفيذ هذا الأمر فلم تفت الملا نادان
هذه الفرصة لينتفع منها . وكان لا يجهل النفوذ
الذي استفاده بين الشعب فأرسل دعوة إلى العامة من
أهل المدينة ليتبعوه إلى مكان خال في الضواحي حيث
يقام صلاة عامة . ووصل خبر هذه الدعوة إلى الشاه
فأمر كل أهل المدينة باتباعه فكان ذلك نصراً مبيناً
له . وفي اليوم الذي تمهد لهذه الصلاة خرج كل من

أخذت على عاتقك أن تقتل رعيتي ؟ من الذى منحك هذه السلطة ؟ هل صرت نبياً ؟ هل تريد أن تكون ملكاً ؟ قل لى ما الذى فعلته ؟ »

وجم هذا الثمار الذى لم تكن تنوزه الألفاظ كلما أراد أن يتكلم، ثم تمم بكلمات تافهة عن الكفار وعن شرب الخمر وعن نزول الأمطار . وكان فى خلال هذه المدة مفقود الحركة كأنه تمثال

فقال للشاه للملابشى : « أفهمت شيئاً مما يقول ؟ خبرنى ما الذى يمتنيه إن كنت قد فهمت ؟ » فقال الملاباشى : « جعلنى الله فداك يا جلالة الشاه، إنه يقول إنه أراد الخير لرعيته التى منع عنها الله المطر بسبب الخمر التى يشربها الكفار فى طهران » فقال للشاه : « إذن فأنت تقتل جزءاً من الرعية لتصلح جزءاً منها يا ملا نادان . وهل أنت قد حلت محل فى هذه العاصمة التى تريد إصلاحها ؟ أى حلم هذا الذى كنت تجلم به ؟ »

ثم رفع رأسه منادياً جنوده : « تعالوا هنا فزقوا عجماء هذا الملا وجيته وانتفوا لحيته واربطوا يديه خلف ظهره وأركبوه حماراً جاعلين ظهره إلى رأس الحمار، وصروا به فى أسواق المدينة ثم اطرده منها . وليكن معه تلميذه هذا » وأشار إلى . فحمدت الله لأن الشاه لم يعرف أننى صاحب زينب ، وكان حظى أحسن من حظ أستاذى لأن لحيتى بقيت لى وبقي لى احتراى

أما لحية الملا فأنها تنفت كما ينتف الطباخ رأس الدجاجة ثم صفوه وأركبوه أقدر حمار رأوه فى الطريق ومشوا به الهوينى ، وكنت أمشى وراءه ، ولما وصلنا إلى باب من أبواب المدينة أنزلوا الملا الكبير الطامع عن ظهر حماره وطرده وطرودنى معه وكان

على الحوائط فأخذوا يحطمون ما نصل أيديهم إليه ، وقويت فى نفوسهم شهوة التخطيم فلم يتركوا شيئاً من الأثاث والرياش . ولو استمروا على ذلك مدة لحطموا المنازل كلها أو أحرقوها ولما تركوا أرمنياً على قيد الحياة

ولكن رسولاً من قبل الشاه حضر فى هذه الأثناء مع رئيس من رؤساء الأرمن فأبلغ الجمهور أن جلالتهم غاضب وأنه يأمر الجوع بأن تمود إلى رشدتها فتراجعت الجوع ولا تسلم عن شعور الملا نادان فى هذه الساعة فقد نظر إلى الجمهور ثم إلى نظرات لعله لم ينظر مثلها رجل ذو لحية فى العالم كله لأنها كانت دالة على الطفولة والبلاهة ، ثم أمره رسول الملك بأن يذهب معه إلى جلالتهم . وصاح بضوت يشبه للبكاء : « وما الذى فعلته بحق رسول الله ؟ أليس أعداء الدين جديرين بأن تظهر منهم المدينة ؟ »

ذهبنا إلى قصر الشاه فوجدنا رئيس الوزراء والملاباشى ينتظراننا فى غرفة رئيس الجلادين وقال رئيس الوزراء للملا نادان : « ماذا فعلت يا ملا ؟ هل جنت ؟ هل نسيت أن فى طهران ملكاً له ولاية الأمر ؟ »

ثم أشار إلى رئيس الجلادين وقال : « خذما إلى الشاه فانه ينتظرهما » . فقادنا ونحن إلى الموت أقرب منا إلى الحياة فثقلنا بين يدي جلالتهم وكان يقتل شاربيه كمادته عند ما يشتد غضبه

وطأطأ رئيس الجلادين حتى كادت رأسه تصل إلى الأرض وقال مشيراً إلى الملا ثم إلى : « هذا هو الملا نادان وهذا خادمه »

فنظر للشاه إلى الملا وقال : « من أى عهد

المطر لم يكن ممنوعاً إلا ربما يحل هذا المقاب بوغدين
من شر أوغاد المدينة فما كدنا نخرج من بابها حتى
هطل وسق البردة من أهلها كما سقى الأرمنيين

الفصل السابع والخمسون

هابى بابا بنجر بأعجوبة

قلت لصاحبي لما لم يبق معنا أحد غيرنا: «إني
مدين لك بهذه السعادة يا ملا نادان، ولو كنت أعلم
أن هذه هي نتيجة التوصية التي أخذتها من ميرزا
أبي القاسم لما كنت أسى إلى التشرف برؤية وجهك
ما الذي كان يضرك لو لم تنزل الأمطار، وما الذي
كان يعينك إن شرب الأرمنيون الخمر أو لم يشربوها»
ثم رأيت حالة الملا محزنة لا تسمح بأن أزيد في
تعميقه فسكت. ومشينا وكلانا صامت إلى أقرب
قرية هرجنا عليها فاسترحنا في خان هناك. ولما
تحدثنا عرف كلانا أننا لن نستريح حتى نعرف ماذا
كان من أمر ممتلكاتنا في المدينة فقد كان له عقار
ومنفول ونساء، وكانت لي ثياب وبغلة ومال.
واتفق رأينا على أن أعود إلى طهران. فدخلتها في
المساء وذهبت توأ إلى بيت الملا فدلني أول نظرة
إليه على أنه لم تعد به بقية تصلح أن تقتنى

وكان أول إنسان رأيته في المنزل هو رسول
للشاه الذي استدعانا إلى القصر. وكان هذا الرسول
في هذا الوقت يخرج من المنزل ويركب بغلتي ويسير
بها وعليها ثيابي ومالي

ملأ هذا المنظر قلبي حزناً وكنت شديد الخوف
من أن يستكشف أمرى إنسان فأسرعت بالذهاب
وأنا لا أعرف إلى أين تقودني رجلاي ولم أزل أسير
على غير هدى حتى وجدت نفسي أمام حمام فدخلت

دون أن يراني أحد لأن المكان كان مظلماً ورأيت
أن الحظ قد ودعني في هذه المرة الوداع الأخير،
واستعدت في ذاكرتي حياتي الماضية فقلت: إني
ما كدت أذوق لذة الحب حتى صار الملك منافساً لي،
وما كدت أسلو الحب حتى قتل الملك حبيبتي وطردني
من وظيفتي. وما كدت أرث حتى اتضح أن مورثي
لم يترك ثروة. وما كدت ألقا إلى رجل كبير من
العلماء لأحتجى عنده حتى طردت وإياه من المدينة
وكنت أعتقد أن الحمام خال في هذا الوقت،
ولكن لسوء حظي وجدت رجلاً يسير فيه على
مقربة مني وكان لا يزال في الحمام بصيص من النور
يتخلل الزجاج الملون، فمرفت أن هذا الرجل هو
الملا باشي نفسه

مر ولم يلتفت إلى فحمدت الله ودخل أمامي
المنطس الساخن، وبعد دقائق سمعت وقوع جسم في
الماء، فمشيت على أطراف الأنامل حتى دخلت إلى
المنطس فوجدت الملا باشي غريقاً فيه. وأيقنت
بالهلاك لأنني سأتهم ولا محالة بأنني قاتله فالتفت كلهم
بمرفون أنني تلميذ الملا نادان ويعرفون أنه أشد
خصومه خصوصاً بعد نكبته

وكنت في هذه اللحظة عارياً لأنني لما رأيت
الملا باشي يدخل المنطس خلعت ثيابي ودخلت منطساً
آخر، وقبل أن أعود لأتم الاستحمام أو لألبس
ثيابي جاء تابع من أتباع الملا باشي وحسبني سيده
فأخذ يدلك جسمي؛ ولما كانت قامتي كقامة الملا باشي
وكان تابعه ضئيف البصر فانه لم يميزني. ولما انتهى
الاستحمام لبست ثياب شيخ العلماء وتصنعت مشيته
ومشيت مع التابع إلى منزله. وكان من أصعب
الأشياء أن أستمع في التمثيل إلى نهايته لأنه من

على من يطل من زجاج النافذة الملون أن يدرك أنني
لست بالملا بائس

ولما انتهيت من ذلك خطر لي أنه قد يمكن الوصول
إلى أمور أخرى غير ما كنت أظن أولاً وعزمت على
أن أبحث في جيوب الرجل وأخض الأوراق التي
في حزامه فربما وجدت ما أستفيد به في حياتي المقبلة.
وقد وجدت في الجيب الأيمن خطاين ومسبحة
وأختاماً ، وفي الجيب الأيسر دواة ومراة صغيرة
ومشطاً . وأما ساعته فكانت محفوظة مع كيس تقود
في جيب صغير تحت الابط الأيمن وبدأت بحثي في
كيس النقود فوجدت به خمس قطع ذهبية وقطعتين
فضيتين ، وكانت الساعة من الذهب ، وأما الدواة فكانت
منقوشة نقشاً بديعاً ووجدت بها مبرة وأقلاماً
ومقصاً

نظرت إلى هذه الأشياء وغيرها نظرة المالك
لأنني عزمت على أن أسير في طريق إلى النهاية وبذلك
وضعت كل شيء منها في مكانه ثم بدأت أخض الخطاين
فوجدت أحدهما من غير توقيع وفيه ما يلي :

أخي للميز

(وهنا قلت لنفسي هذا الخطاب من أحد
الأصدقاء) ، ثم قرأت « إنكم تعلمون شدة احتراي
للكوكب المتألق في جبين الدهر وظل نبينا الكريم ،
وكل الذي أرى إليه أن يزداد حي وبقوى على مر
الأيام . لقد أرسلت إليكم ست بطيخات انتقيتها
من بطيخ أصفهان مما لا يوجد نظيره كل يوم . وأرجوكم
أن تأذنوا لي بشرب النبيذ لأن الأطباء أكدوا لي
أنني إن لم أشربه فلن أقوى على مقاتلة أعداء الدين
واستئصال شائتهم »

قلت في نفسي : « هذا ولا ريب من رئيس

الحتم أن يعرف السيدات أنني لست إياه ، وكنت
قد عرفت أنه قليل الكلام وأن بينه وبين زوجته
شجاراً مستمراً لأنه شديد الغيرة

وكنت قد أئزمت نفسي الصمت منذ وجدت
نفسي مضطراً إلى الظهور بمظهره . ودخلت المنزل
عجازاً مستعداً للقاء أسوأ النتائج ، وكان أول شيء
حدث عند دخولي الباب أن تقدمني للبواب فصاح
بالأرقاء في داخل المنزل أن يحضروا النور فأحضروه
عبدان ومشيت فسمعت أصوات النساء ، ثم أضيت
غرفة استطعت أن أرى من نافذتها سيدتين وخشيت
أن يقودني العبدان إليها . ولكن حسن حظي
واعتياد الخدم معرفة الحالة التي كان عليها شيخ
العلماء عند ما يخاضم زوجته قد حمل العبدان
عند ما رأيتني منصرفاً عن دخول هذه الغرفة — إلى
المدول عنها إلى الخلوة حمدت الله وانتظرت أن
يقودني حسن الحظ إلى التخلص من العبدان دون
أن أعرف . وكأنا إلى هذه اللحظة يسيران أمامي ،
فأخذت الشمعة من أحدهما وأشرت إلى الآخر
بيدي أن يذهب ، فذهب بشمعه وبقى الآخر في الظلام
وذهب العبدان منزحجين

وكنت إذ ذاك كالملق بين السماء والأرض
أفكر في حظي الذي ساعدني على ارتكاب أوقع
حالة من حالات التنكر فأمر كل السرور وأفكر
لحظة أخرى في مصيري بمد أن خطوت هذه
الخطوة فأحزن كل الحزن

الفصل الثامن والخمسون

قيمة الحادثة السالفة

ولما انفردت في الخلوة أسرعت إلى بابها فأوصدته
ووضعت المصباح في ركن بعيد فأصبح من المستحيل

خدمات وهي أن تعبرني جواباً لأمر يدعو إلى المعجزة
وسأرده كما أخذته حين تنتهي حاجتي إليه «
ووقمت هذا الخطاب بخاتم «المرحوم» وعزمت
على أن أذهب به بنفسى في الصباح التالي . ورددت
على الخطاب الأول بما يلي :

عزيزى عبد الكريم

تسلمنا خطابك واطمئنا على ما تضمنه، ويحمل
إليك ردنا هذا من ثقب به وهو حاجى بابا فاعطه
ما عندك من نقود . أما الأمور الأخرى فسنكتب
إليك عنها قريباً . وفى أثناء ذلك استمر على ما أنت
فيه من أعمال السوط فى ظهور الطغاة أعانك الله «
وبعد أن انتهيت من كتابة ما تقدم انتظرت
إلى وقت مناسب لأهرب من المكان الذى كنت
فى شدة الخوف من أن يعرفني أحد فيه فينتهى
أمرى إلى نهاية مرعبة . وبعد منتصف الليل كنت
أستعد للخروج من الخلوة فى سكون تام فشعرت
بأن يداً تهز الباب ؛ ولست أستطيع وصف ما نالنى
من رعب فإن ذلك فوق مقدورى .

توقعت أن أرى على الأقل « الداروجا » كبير
الشرطة مع ضباطه يدخلون ويمتقلوننى وانتظرت
للنتيجة فى وجل غير أنى سمعت صوتاً نسائياً يهمس
بالفاظ حال ارتباكى دون فهمها .

ومهما يكن للعرض من تلك الزيارة فما كان
عندى غير جواب واحد وهو زارة شديدة تدل
على أن المقيم فى الخلوة لا يقبل بحال من الأحوال
أن تقلق راحته ؛ ولبثت زمناً حتى كان الصمت
والسكون قد شحلا الدار فتسللت فى هدأة إلى الباب
الخارجى وفتحته بسهولة وجريت فى الخلاء وتحينت
بالفرص المناسبة للسير فى الطريق متجنباً رؤية الشرطة

الجلادين إذ من غيره فى إيران يستطيع أن يعبر فى
هذه الكميات القليلة عن تعلقه وعن عشقه للخمر
وعن خيالاته ؟ سأستفيد من هذا الخطاب فلا أنظر
فى الكتاب الآخر «

ثم فتحت الخطاب الثانى وقرأت فيه ما يلى : —
سيدى وأستاذى

إن العبد الخاضع الذى يعمل لنصرة الحق
يتشرف بأن يخبركم أنه بعد جهاد طويل استطاع
أن يجمع من فلاحى الضيعة مائة طومان غير الخمسين
حرامين للفلال، وأن الرجل المسعى حسين على لم يستطع
أو لم يرض أن يدفع شيئاً رغم جلوده مرتين . وعلى
ذلك أخذت بقرتيه حتى يجهد نفسه ما استطاع
فلو أرسلتم أحد الأتباع إلى خادمكم سلمت إليه مائة
الطومان «

ثم انتهى الخطاب بالألفاظ المتادة من وضع
إلى سيد رفيع ، وكان موقفاً بخاتم صغير منقوش
عليه « عبد الكريم » وهو اسم كاتب الخطاب
قلت لنفسى : « هل يسمدنى الحظ فأجد
عبد الكريم وأعرف مكان الضيعة التى كتب منها
هذا الخطاب ؟ »

تركت هذا الأمر قليلاً لأفكر فيها يمكن أن أصنع
بخطاب التازا كشيء بائس . وبعد تفكير قليل كتبت
هذا الخطاب :

« أخى :

تلقينا كتابك وفهمنا ما به ولا يشك أحد فيما
يجب عمله ضناً بصحتك وأنت حامى الاسلام وسيف
الله فاشرب ما أردت من النبيذ وقاتل أعداء الدين
نصرك الله عليهم وليجزل الله لك الثواب
واسمح بتقديم خدمة أخرى غير ما قدمت من

وأخذ نور الفجر يظهر وبدأت الحوانيت تفتح أبوابها ، فاجتهدت وأنا أسير بملابس الملا باشى ألا تبدو منى بادرة ثم عن حقيقتى أو تدعو إلى الشك فى أمرى . وتم لى ما أردت بنفقة قليلة فى حانوت ملابس قديمة . وقد حاذرت أن أخرج بشيء من الأشياء الثمينة التى وقعت فى يدى

وقصدت بعد ذلك إلى دار النازا كشى باشى وقدمت خطابى إلى خادم أجهله قائلاً له : إن الملا باشى يطلب جواداً سريعاً لأنه يريد مغادرة المدينة فى عمل هام . ومن حسن حظى أخبرت أن صاحب النار فى مسكن الحرم وأنه سيرسل رده كتابة . ولكنه أمر فى نفس الوقت بإحضار جواد من جياده إلى ولقد سررت من رؤية الجواد العظيم وم يخرجونه من مربطه وعليه سرج موشى بالذهب وفى عنقه سلسلة ذهبية . وكانت تعرونى رعشة من الفرح كلما تصورت أن كل ما أراه سيصير ملكاً لى . ولكن كان يربى أن سعادة كهذه يستحيل أن تستمر طويلاً

وتملكى الخوف من استكشاف أمرى إذا تأخرت فأمرعت إلى خارج المدينة على ظهر الجواد . وفى زمن يسير تجاوزت أبوابها

وابتعدت فى الخلوات ولم أزل أسير إلى الأمام دون أن أقف أو أنظر إلى الخلف حتى وجدت نفسى بين الوهاد التى خلفها مجرى نهر الكرج . وهناك ترجلت لأستريح

تذكرت أنى سمعت أن ضيعة الملا باشى تقع على طريق همدان فوليت وجهى إلى تلك الناحية . ولكن الحق أقول إنى حين وقعت لأستريح شعرت بالرهبة تدب فى نفسى من ذلك الانقلاب العجيب

الذى طرأ علىّ حتى لقد شعرت بما يشعر به المظل من حافة الهاوية يدفعه دافع مبهم إلى إلقاء نفسه فيها . وبصعوبة شديدة استطعت أن أمنع نفسى من الرجوع وتقديم نفسى إلى القضاء وقات فى نفسى : « لست إلا لصاً لا أكثر ولا أقل ، ولو قبض علىّ لمزق جسمى على آلة التمزيب ولكن من الذى سبب هذا ؟ »

الحق أنى لست المألوم إذا كان القدر أراد بى هذه الحالة . إنى لم أسع إلى قتل الملا باشى ولكنه إذا كان قد قدر عليه أن يتلفظ النفس الأخير أماى وإذا كنت أنا — أردت أم لم أرد — سأتحمل عاقبة موته فإن من الواضح الجلى أن القدر أراد أن أمثله وأقوم مقامه . وما دمت محقاً فى كل ما أعمل فى دورى هذا فإن ملابس الملا باشى تعد ملابسى ودراهمه دراهمى . وكل ما كتبت باسمه حق وعدل » وقد أنمشتنى هذه النتائج فركبت جوادى وتقدمت إلى أقرب قرية لأستعلم عن ضيعة شيخ العلماء وعما إذا كان يقطن فى تلك الأنحاء رجل اسمه عبد الكريم

وكأنما كانت العناية تلحظنى والخط يلازمى ، فأنى وجدت أن القرية التالية ، والتى لا تبعد إلا مسافة قصيرة هى مقصدى ، وأن عبد الكريم هو شيخ فيها يقوم لسبده القليل بجباية المال وجمع المحصول .

قلت فى نفسى : « إنه شيخ ، إذن يجب أن أغير أسلوب الخطاب وأن أخاطبه بما يستحق من الألقاب »

وسرعان ما جلست على الأرض وأخرجت الفواة من جيبى وأخذت قطعة من الورق الذى فى

حزاي وكتبت الخطاب كما أريد من جديد . ثم تقدمت في مهمتي مصمما على اختيار أقرب الطرق إلى الاستيلاء على مائة الطومان

الفصل التاسع والخمسون

مباشرة هاجم بابا ، مائة الطومان ناداه وأعماله

أخذت أظهر يظهر يليق بشكل الجواد الذي امتطيته حين وصلت إلى « سيراباد » وهذا هو اسم القرية التي ذكرتها . ودخلتها وعلى مظاهر السلطة والجاه حتى كان الفلاحون يحنون رؤوسهم في خشية وخضوع إذا رأوني

وحين ترجلت أعطيت زمام الجواد لأحد الوقوف وقلت : « أين عبد الكريم ؟ »

وفي لحظة أخذ كل واحد من الموجودين يجري للبحث عنه إلى أن جاء ، فقلت بعد السلام المعتاد : « لقد حضرت من قبل الملا باشي لأمر لا ينبغي عن فهمك »

ثم سلمته الخطاب . وكان لعبد الكريم عين شرراء لم يعجبني شكلها خصوصا وقد ظل طوال الوقت يرمقني باحظ منها

وتنفست للضئناء حين قرأ الخطاب وقال لي : « إن المال موجود ولكن يجب أن تأخذ راحتك . تفضل بالدخول »

تظاهرت بشدة الاستمجال ولم أرد أن أبقى معرضا لمصنبيه الناريتين ، غير أنني قبلت أن أتناول بعض الفاكهة والابن مخافة أن أثير شبهة

قال لي وكنت قد فتحت فمي لأتناول قطعة من البطيخ : « إنني لا أذكر أنني رأيتك في دار الأستاذ مع أنني أعرف كل فرد من أتباعه معرفة تامة »

فأجبتته وقد كدت أن أختنق من سؤاله : « كلا فاني لست من أتباعه ولكنني تابع لرئيس الجلادين . ويظهر على ما أعتقد أن بينه وبين الملا باشي بعض الأعمال المألوبة » وبذلك أخذت كل شبهة في ضمير مضيق ، وقضيت على كل ظن جال مخيلته . وكان لكل من الجواد والسرجه المذهب واللجام المنقوش اللامع أثره في توكيد قولي . وبعد أن تسلمت مائة الطومان ووضعتها في صدري امتطيت الجواد وتظاهرت بالرجوع إلى المدينة وأنا أكاد أطيح سرورا ، غير أنني بعد أن غبت عن النظر أدبرت رأس الجواد إلى الخلاء وجعلت أنخس جنبه راكضا دون أن أقف حتى تصيب الزبد الأبيض على جسم الجواد وتساقط المرق عن جبينه

صممت على الذهاب إلى كرمانشاه وهناك أبيع الجواد والسرجه واللجام وأواصل سيرى إلى بغداد فأكون هادئا مطمئنا .

وبعد أن سرت نحو خمسة فراسخ من طريق رأيت شخصا غريبا يسير أمامي بخطى سريعة رافعا صوته بالغناء . وكان يلبس ثوبا خفيفا وعلى رأسه عمامة وقد لف ذقنه بمنديل ، وفي قدميه خف ، ولم يكن يبدو عليه أنه من قطاع الطريق . ولما اقتربت منه ظننت أنني رأيته من قبل . وكان الرجل طويلا متمدل القامة عريض الكتفين نحيفا . ولقد حسبته لولا غناؤه الملا نادان ، إذ لم يخطر ببال قط أن رجلا له ما للملا من الوقار يمكن أن يحط من قدر نفسه بذلك الغناء . ودنوت منه رويدا رويدا حتى رأيته عن كثب ولم يكن قد رأى بعد فمرفت أنه هو بنير شك . ووقفت جوادي لأندب فيما إذا كان حسنا أن أريه نفسي . وكان من القسوة أن أخطئه ولكنني

من جهة أخرى رأيت أنني إذا أريته نفسي اضطررت إلى مرافقة من لا رغبة لي في مرافقته . ولو عرفني ورآني أتجنبه فمن المحتمل أن يتهمني بسرقة أمواله في طهران . واثن نجوت منه الآن فاني سأظل أخافه كما لو كان بيننا عداوة .

وكنا نقرب من قرية يجب أن نبني فيها فلم أجد بداً من التسليم لأن جوادى كان في حاجة إلى العناية والراحة إذ لا يزال أمامه مسافات طويلة يقطعها، فلم يكن في الاستطاعة أن أحمله فوق طائته واخترت أمراً وسطاً فقلت إن عرفني الملا نادان كلفته وإن لم يعرفني تجاهلته . وأسهرت فلما قاربته التفت ونظر إلى من الفرع إلى القدم فلم يظهر عليه أنه عرفني ، بل لعله خاف أن أكون قاطع طريق فتوسل إلى أن أرحمه ولم أستطع أن أقاوم شعورى إزاء هذا الاسترحام فانتظرت فترة لعله يقول كلمة أخرى ولكنه ظل صامتا ، واشتدت علام خوفه فأخذت أضحك ضحكا عالياً لم يكن له مبرر إذ لا يصلح الضحك جواباً على الفناء

دهش الملا نادان وتحير في أمرى غير أنه حين بدأت أتكلم زال كل شك عنده وأسرع إلى فرحا مسروراً وقال : « أهذا أنت يا حاجى بابا ؟ من أى سماء هبطت ؟ ما هذا الزى البديع وما هذا الجواد الكريم وما هذا الذهب وهذه الخلى ؟ هل صاحبت الجن أو هام بك الحظ أم اختارك السم ؟ »

ظلت أضحك مسروراً بهذه النعوت وظل يقول : « كيف استطعت بهذه السرعة أن تستبدل بينك هذا الجواد ؟ ألا تعرف ماذا فعلوا بممتلكاتى ؟ ألم تستبق لي سحارى على الأقل ؟ لقد أنهكتى السير على الأقدام . حدثنى ! قل كل شيء بحق النبى »

وهنا لاحظت أنني إن لم أقل له ما يهدي من روعه فقد يتهمنى بالاستيلاء على ممتلكاته وتبديدها حتى ظهرت بهذا المظهر الأنيق الذى أثار دهشته فوعده بأن أقص عليه كل شيء ، ولكننى رجوته ألا يدع في نفسه سبيلاً إلى الشك لأن ما سأقوله له قد يبلغ من الغرابة ما يجعله يظن أنني اختلقته لأرويه فقط . ووصلنا إلى القرية وأخذنا مضاجعنا في الخان ولما كان كل من له مثل مالى من المظهر الوجيه لا يلبث أن يستلفت شكله الأنظار فقد وقف في خدمتى صاحب الخان ، وأعد لنا عشاء طيباً . وفي هذه الأثناء قصصت حوادثى على رفيقى ولم أخف عنه شيئاً من دقائقها ، وقد كاد يذهب السرور والانشراح بعقله حين علم أنني ابتعت أبهى ووجاهتى على نفقة عدوه القديم الملا باشى

جلسنا تتجاذب أطراف الحديث بملء الثقة والانشراح ، والبائسون يسرهم ويخفف عنهم تبادل الأحاديث ، وقد لاحظت لأول مرة أنني لم أكن قد عرفت من كنه صاحبى ما كنت أخال أنني أعرفه . وقلت : « لاشك أنه كان في مظهرك ما خدمنى مدة وجودى معك ، إذ كيف يمكن لرزين متكبر أن يكون لطيفاً أنيساً كما أنت اليوم ؟ » فأجابنى : إيه يا حاجى بابا ! الدهر قلب والأيام لا تدوم وإن حياتى ليست على وتيرة واحدة بل هى فى انخفاضها وارتفاعها تشبه تلك الأكرالتى يلبس بها المشمودون فى أسواقنا فى عيد النيروز والتى تظل ساعدة هابطة بين السماء وبين الأرض . وإننى لسوء حظى لست واحداً من أولئك الذين يسرون على قاعدة : « لانفرش بساطك على أرض مبتلة »

قلت له : « قص على إذن حوادث حياتك ،

فليس أحسن من القصص في إضفاء الوقت وأرجو أن تكون قد عرفت حقيقتي الآن فلا تبخل على بثقتك »

فأجابني : « لن تسمع من تاريخ حياتي إلا ما هو عادي مألوف في حياة كثير من الأتاجم الذين يصبحون وهم أسراء ويمسون وهم ساءليك، ولكن مادمت راغباً في معرفة ذلك التاريخ فسأقصه عليك »

ثم بدأ يروي ما يأتي :

« أنا من أهالي همدان وقد كان والدي شيخاً عظيماً ذا سمعة وفضل حتى لقد أمّل أن يكون مجتهداً في إيران، ولكن منافسيه ومخالفيه في بعض المعتقدات خيَّبوا لسوء الحظ أطماعه وفوتوا عليه غرضه فألقوا حزباً ضده سلبه ما كان يسمي إليه من رفاة ورق. وكان أظهر ماني طباع أبي كرهه للمعتمدين والسنين على وجه العموم. ولقد قيل إن أحد أجدادي أوجد الكراهية والحقد على السنين بشكل لم يكن معروفاً قبله ببدعة بسيطة أحدثها في تلقين أطفال الشيعة، فشب هؤلاء العصبة وأول ما يشمرون به كره المعمرين »

وهنا قال لي الملا نادان مفسراً تلك البدعة : « أنت تذكر بلا شك أن الطفل في حال تعلمه إذا أراد من أستاذه قضاء أمر شفع رجاءه بلعنة عمر. وتذكر أنك لم تنس طول أيامك كما لم أنس أن تقرر اسم عمر بكل خبيث من الأشياء وأنت قد كررت هذه اللعنة التي تلقيتها أيام صغرك مرة على الأقل في كل يوم »

وقد صادقت على قوله فأخذ يقول :

« وقد امتد كره أبي لاتباع عمر حتى عم جميع

النافقين من يهود ونصارى ووثنيين يبدون النار والأصنام — كل هؤلاء شملهم كرهنا وأصبحت تلك الماطفة التي كانت يدعيها في سبيل شهرته وأطاعه شعوراً قوياً ثابتاً لا يقوى عليه أي شعور أو إحساس. وقد شبت عائلته وأنا بينها على عقيدته وتشربت مبداء حتى تغفل في نفسها وسرى في عروقها.

وقد تفانينا في هذا المبدأ حتى صرنا حرباً على الكافرين وأصبحنا من دعاة الشيعة ورافعي لواها. وإذا علمت ذلك لم يدهشك الدور الذي لعبته في تحطيم دنان التليذ الأرمنية في طهران. وليست هذه الورطة هي الوحيدة فيما جرنني إليه دفاعي عن الشيعة وغيرتي عليها. فقد أذكر أنني كنت طالباً صغيراً في همدان من مدة طويلة وأحدثت هياجاً شديداً، وذلك لأن مبعوثاً من قبل والي بغداد وكان يسير مع أتباعه في طرقات مدينتنا بعد أن قام بها نحو ثلاثة أيام وكان يقصد مجلس الشاه. وكنت متمسكاً بإبدي والدي وتعاليمه توافاً إلى تطبيقها عملياً، فجمعت عصبة من الشباب المتحمس وجعلت أخطبهم حتى أوقدت كامن شعورهم وحركت حماسهم. وصممنا على إقامة احتفال يليق بمبادئنا وعزمنا على مهاجمة ضيوفنا الأتراك وعلى مضارحتهم بحقدنا على عمر ولعننا له، ثم ندعومهم إلى مشاركتنا في عقيدتنا العلوية

ولم تكن ترى ذلك المبعوث سليمان افندي إلا عدواً للشيعة وشخصاً سنياً دون أن تفكر فيما يجب للمبعوثين من احترام

ففي يوم من الأيام كان سليمان افندي خارجاً
(٧)

من داره لزيارة حاكم همدان فجمعنا أنفسنا وحيثنا
بضيحاتنا العالية : « لعنة الله على عمر » فأغضبت
هذه النداءات أتباعه وقابلوها بالضرب فنهال قذف
الأحجار من أتباعي وانتقل الأمر إلى معركة هائلة.
وقد أُلقيت حمالة مبعوث الباشا عن رأسه وبُصق
على لحيتيه ومزقت ملابسه من الخلف . وإن هياجاً
كهذا لا يمكن أن يمر بسلام ، فقد كان المبعوث
يتحرق من الغضب وأخذ يهدد بإرسال الرسل إلى
الشاه . وكان على وشك الرجوع إلى سيده لولا أن
حاكم البلدة خاف عاقبة غضبه وأراد تسكين ثأرته
فوعده بالترضية التامة وبأن يقدم مثيري ذلك الهياج
إليه في أقرب وقت «

ولقد هزأت في أول الأمر من وعيد الأتراك
وتهديدهم معتمداً على ما لوالدى من المكانة في المدينة
وجعلت أشمخ بأننى كبراً ، ولكن الحاكم كان يتوقع
الطرد من وظيفته إذا بلغ الخبر إلى طهران . ولم يكن
يهمه أن يكون على عليه السلام خليفة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم أو يكون الخليفة أباً بكر أو عمر
أو عثمان فأمر بالقبض على وعلى اثنين من رفاق
وجي بنا أمام الأتراك الحانتين

وإن نسيت فلن أنسى ما كان يجول بنفسى من
الخواطر والمؤثرات حيناً أصبحت وجهاً لوجه أمام
هؤلاء الذين يفلل صدري بالحقد والوجدة عليهم ، ولم
يلدن على كل حال وقع الشياطين التي أخذوا يمدبوني
بها ولكننى تأوّهت وتألّت وكاد صدري ينفجر من
الغيظ والاحتقار.

كان هؤلاء الممانيون على أنهم الاستعداد لاجبتنا

على كرهنا بكرم وسخاء ولم يدعوا الفرصة تمر دون
أن يظهروا لنا هذه العاطفة . لكن ذلك لم يمنع أننى
جلدت وأصحابى حتى ورمت قدماى ، وكان عزائونا
الوحيد أن عاطفة الكره كانت تزداد وتتقد في صدورنا
وبذلك رضى الرجل التركى وأطلق سراحنا . وقد أخذت
هذه الحادثة حيتى بضمة أعوام بالرغم من أن تعاليم
أبى كانت لا تزال تنمو بنفسى

فلما بلغت الخامسة والعشرين وظهرت لى لحة
جميلة ذهبت إلى أصفهان راغباً فى تهذيب نفسى
ورياضتها بمصاحبة العلماء ، ولكى أزيد علمى بالمجادلة
والمناظرة . وقد تحقق معظم رغائى فى أصفهان ونات
شهرة وصيتاً لا بأس بهما ولم يكن ينقصنى غير فرصة
واحدة توجهنى وجهة خاصة . ولم تلبث الفرصة
أن حانت كما يظهر مما يلى :

« أقام للفرنجية فى أصفهان من زمن غير بعيد
دوراً للتجارة ؛ وقد كان الشاه يحميهم ويقدم لهم
المساعدات فأباح لهم العبادة ، وإقامة الكنائس
وإحضار القسس لها . وأشد من ذلك وأدعى لهدم
الدين أنه سمح لهم بدق الأجراس دعوة للصلاة .
وكان لهؤلاء للفرنجية رئيس عظيم كاخليفة عندنا
يلقبونه بالبابا . ومن وظيفة هذا البابا نشر الدعوة
الدينية فى أنحاء السكونة . ولذلك أقام بعض
« دراويشه » وقسسه فى أصفهان نفسها وفى « جولفا »
بين الأرمنيين ، وبني أديرة . وقد هجرت معظم
الأديرة وأهملت بفضل ما أبدىناه من الكراهية لها ،
غير أن واحداً منها وظيفته بثت للتعاليم المسيحية
ظل قائماً فأخذت على عاتق مع بعض المشايخ

المتحمسين أن تقوم بتخريبه غير مبالين بأراء الحكومة التي كانت ترحب بالمسيحيين لمعلمهم على زيادة ثروة البلاد بمناجرهم . وقد خدم ذلك الدير درويشان كان أحدهما ذا خبرة واسعة بالعالم داهية لا يقاس به إبليس في مكره وخبثه .

وكان طويل القامة نحيفاً قوى البنية حسن الهندام له عينان تبرقان بريقاً عجيباً وصوت يشبه صوت الرعد لا تفوته فرصة في مناقشة أعظم علمائنا وأغزرهم معرفة في مسائل الدين . وكان لا يجبن عن التصريح بأن نبينا العظيم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم كان رئيساً لطائفة من البشر فحسب . بل كان يقول بقلب لا يهاب الموت إنه كان ساحراً وبالاختصار كان ذلك الدرويش الخبيث يسبح في بحر من الضلالات ولم يكتف بالكلام بل ألف كتاباً جعل يقيم فيه الحجج على دعواه الباطلة وآرائه الجنونية ، وعهد لسوء الحظ بالرد على ما جاء بذلك الكتاب إلى عالم من علمائنا لم يكن لديه مقدرة كافية على ذلك فأخرج كتاباً لا يقنع ولا يطاق غلة ولا يروي ظمأ . بل أساء إلى الاسلام بدل أن يعمل على إظهار فضله وعلى تبيان حكمته وعظمته

وكانت أصفهان تموج بهذه الأخبار حين وصلت إليها فعرضت على القوم أن يرسلوا دعوة إلى الدرويش الفرنجي لمقابلة مشايخ البلدة وجهاً لوجه في يوم معين في المدرسة الجديدة للمناقشة في الدين قائماً أن يسلم هو بالحجة والبرهان ، وإما أن يتنصر المشايخ إذا انتصر هو عليهم — عرضت ذلك الأمر لأنني كنت أتميز شوقاً إلى إظهار مواهب

وبلوغ ما أستحقه من الرقعة وعلو الشأن وقد قبل الدعوة ذلك الدرويش جال وضولها إليه وكنا قد اعترنا فيما بين أنفسنا أنه يجب اقتلاع الشوكة من جانب الاسلام والاندح هذا البلاء في إيران وأن ديننا يجب أن يظل سائداً ومعتقداتنا صحيحة ولا نترك للأفاظ الجوفاء والأصوات المنكرة سبيلاً للحط من إيماننا . ولا يكون ذلك إلا بالتكاتف والتماضد

وعلى الأثر أرسلنا دعوة سرية إلى كل معلم وكل ملتح للحضور في اليوم المعين فكان اجتماعهم لانظير له يشعر بالقوة التي لا تقاوم والعزم الذي لا يناضل وامتلأت المدرسة بالحضور من المشايخ وغيرهم ممن حضر من الأهالي لرؤية المنتصر من الفريقين فنصت رحبائها بهم ، فكنت تري عمامة تلوها عمامة في صفوف متكاثفة ورؤوساً تلور رؤوس في جموع متراسة . وقد جاء الدرويش الفرنجي بمفرده لا مساعد له ولا رفيق معه وأخذ ينظر إلى هذه الجموع بوجل وظهر عليه التأثر منها

وقد انتخب شيخان أو ثلاثة للمناظرة التي ستحدث وكنت أنا على رأسهم وأجاسنا في صدر المكان وكنا قد أعدنا أسئلة ليحجب عليها الدرويش . وعلى مقتضى إجابته يكون تصرفنا

أما هو فقد ظهر أنه لم يتسلح بغير لسانه وجلس أمامنا وعليه مظاهر الخوف الشديد مما رآه على وجوه الحاضرين من علائم المداوة والكره الشديدين . وقبل أن تترك له سبيلاً إلى التأمل بدأنا في أسئلتنا

قال واحد منا : « هل تعتقد أن الله جل شأنه
تشكل بشكل آدمي ؟ »

وقال آخر : « وهل تعتقد أن الله ثلاثة في فرد ؟ »
وقال ثالث : « هل أنت مقتنع بأن ما سيمتوه
بالروح القدس نزل على الأرض في صورة عمامة ؟ »
وقد أقيمت عليه هذه الأسئلة متوالية وبسرعة
فلم يعرف على أيها يرد حتى استجمع كل قواه ورباطة
جأشه وأجاب :

إذا كان غرضكم قتل فافعلوا ما تشاءون ولكن
لن يفيدكم قتل شيئا . وأما إذا كان غرضكم
المنظرة فإن مهاجتي بهذه الجوع للتأثير في نفسي
ليبدل على وضعكم للماطفة في موضع الدليل والبرهان،
وسيعلم العالم أني قهرتكم جميعا »

ولما رأيت أن قوله ذو أثر على سامعيه وأنا
قد نفشل في غرضنا صرخت في الحاضرين قائلا :
« أيها المسلمون ! أيها المسلمون ! إن ديننا أهين !
إن الكافر يريد تفسير عقائدنا ! الانتقام ! الانتقام »
وكان لكلماتي أثرها السريع ، فارتفع ألف
صوت . قال بعضها : « اقبضوا عليه ! » وصرخ
الآخرون : « اقتلوه » وتلاطمت الجوع كالبحر
الزاهر فحاول الدرويش أن يجلده مهربا حين رأى
الخطر محدقا به . وقد ساعده شيخ أخذه به رافة
إذ خلع عباءته وألقاها على كتفي الدرويش »

وفي الوقت الذي كادت تصل فيه أيدي الثوار
إليه تسرب من وسط الجماهير وتمكن من الخروج
والوصول إلى منزل أحد الأرمنيين في أمان
وقد تنبظنا نحن المشايخ من إفلات الفريسة

فسرنا في جمعنا إلى منزل الحاكم بقبضنا عدد لا يحصى
من الأهالي . وقد أحدثنا هياجا عظيما

وكان الحاكم رجلا مسلما متدينا فأملنا أن
ينضم إلينا من غير تردد . وقد اتهمنا الدرويش
بابتداع عقيدة فاسدة ونشرها ومحاولة إفساد عقائدنا
وقلنا للبحاكم : « إن الرجل يسب نبينا ويرميه
بالخداع والكذب فنطلب تسليمه إلينا »

وقد ارتبك الحاكم فيما يجب عمله لأنه يعلم الخطر
الذي ينجم عن تدخله في شئون الأوربيين ، ومن
جهة أخرى فإنه لم يكن يقدر أن يرد عنا أو يشيننا
عن غرضنا بالقوة فقال لنا : « لماذا دعوتكم الدرويش
إلى مجادلتيكم إن كنتم لا تودون الاستماع إلى أقواله ؟
إن لم يكن عندكم ما تجادلونه به فإن القوة لا تنفعكم،
بل الأمر على النقيض إذا أنها تضر الدين، ولكن إذا
كان لديكم من الحجج والأدلة فوق ما لديه ولم يستطع
الاجابة على أسئلتكم فإنه يكون كافرا زنديقا ويجب
قتله في شرعنا

فلما وجدنا أننا فشلنا ثانية رجعنا والرغبة في
الانتقام تقوى في صدورنا . وإنني أعتقد اعتقادا
لا ريب فيه أنه لو صادفنا الدرويش في تلك اللحظة
لمزقنا جسمه إربا ولقطعنا بدنه تقطيعا . ولكنه كان
يحذرننا . وسممنا بمدئذ أنه ترك المدينة سرا . وبذلك
تم لنا ما حاولنا إذ مضى زمن طويل قبل أن نرى
وجهه في المدينة، ولقد نبه شأني في هذه المسألة وظهرت
حميتي وحماستي في الدين في ظروف أخرى حتى لقد
صرت ممن يشار إليهم بالبنان . ولكنني لم أريج من
كل ذلك شيئا فشعرت أن خير ما أفعل هو أن أبحث

شأن وخاصة في عين الشعب . وعددت رضا الشعب أول ما يطلبه الرجل الطموح . ولكنك عرفت ما هي مساعدة الشعب إذا تعارضت مع إرادة ملك مستبد فأنى أضمت نفسي لأنى اعتمدت على نفوذى في ذلك للشعب وأنا اليوم كما ترانى بائس أريد العودة إلى بلدتى الأولى كما خرجت منها لا أملك ثروى تغير «

الفصل الستون

تراير ماخى بابا والحر ناراه

عندما فرغ الملا نادان من سرد قصته اجتهدت في إقناعه بأن الإرادة التي خدمته في الجزء الأول من حياته والتي قضت بخيئته وفشله بعد ذلك ستخدمه بلا شك فتبعه حتى يسترجع مكائته وقلت له : « لقد رأينا كلانا الأمور في إيران كثيرة الانقلاب لا تظل على حالة واحدة ، وما دامت الحوادث تتوقف على إرادة رجل واحد فقد يأمر باحضارك كما أمر بإبعادك ، وإن للمصائب رد فعل يدلها مسرة ونجاحاً . ألم تر الحداد كيف يخمد لهيب تنوره المتوقد ويحل الدخان محل اللهب إذا هو ألقى عليه شيئاً من الماء فيظهر كأنه خبا . ولكن أقل حركة في المنفاخ تميز النار إلى الظهور أعظم حرارة مما كانت وأكثراً نقاداً »

فأجاب رفيق : « هذا ما كنت أفكر فيه وأعزى نفسي به حين صادفتنى في الطريق أغنى ، فان الشاه قد يكون - مرضاة للتجار المسيحيين واستمالة لهم - قد تظاهر باقامة العدل وأداء الواجب فعاينى ولكنه في سريرة نفسه يقدرنى ويمتزم إنصافى وإنصاف رافى لواء الدين وعندئذ تتجه فكرته إلى عجة الشعب

عن مكان أعتز فيه على مركز يسد أطامى . وفلا غيرت وجهتى إلى هذا السبيل فذهبت إلى « قسم » وفى نيتى أن أستميل المجتهد ميرزا أبى القاسم وهو رجل تفيدنى شهرته فوق ما تفيدنى صلاة عشرة أعوام وصومها ، وقد نجحت كل للتجاح فان الشهرة التي كسبتها من كراهة النافقين واللسى في أذام جعلت المجتهد يستقبلنى بالبشر والايناس ويحملنى من أحب تلاميذه إليه ، وقد أخذت عنه مبادئه ضد الصوفية وعملت بها بحمية لم يكن بقدرها فلم يمض زمن طويل حتى التمت منه أن يوصى بى لدى مجلس العلماء في طهران ولدى رجال الدولة الرسميين ، فأظهر أسفه لقراق ولكنه قبل طلبى وبعد ذلك بقليل عينت عضواً في مجلس العلماء . وأعترف أنى لم أكن سعيداً لحظ فى المجلس كما كنت أنتظر على الرغم من أنى لست أقل من الباقيين قيمة . »

وكان منافسى فى التقدم كثيرون وقد تدرجوا فى شئون الحياة أكثر مما تدرجت . وحاكيهم فى تعظيم رجال الحكومة وتوقيرهم . وأبيح لى الجلوس فى مجلس الحكم العالى وبذلك صرت ممن يحظون برعاية رئيس الوزراء وكبير الأمناء ورئيس الجلادين وغيرهم فكنت أظهر فى مجالسهم ومجتمعاتهم ، ولكننى لم أكن مع ذلك إلا شيخاً فقيراً . وقد انتظرت فرصة سانحة أدخل بها إلى بيت المال وشملتى رئيس الوزراء بنظره فى بادى الأمر لأنى كنت أبكيته فى حفلة لذكرى مقتل الحسين رضى الله عنه وكان قد أقام تلك الحفلة فى قصره وجعلت أنشد فيها وأذكر بحالة أترت فيه وفى جميع الموجودين ، ومن تلك اللحظة بدأ يرتفع

يا عزيزي لست أرغب في البقاء ولن أشعر بالأمن إلا إذ وصلت إلى الحدود التركية . وأرجو أن أصل إليها بعد بضعة أيام »

وعرضت عليه بعد ذلك جزءاً مما سلبته لأمنع عن نفسي غائلة لسانه وليكنم سرى وقد قبل مني عشرة طومانات وترك لي خمسة وتسعين ، وقال : إن ما أخذه يكنى . ووعد برده عند الميسرة

ولكنه بعد أن أخذ عشرة الطومانات رجاً ثانياً أن أصبحه إلى همدان وأخذ يبين لي الخطر الذي بنجم عن القبض على قبل أن أفارق بلاد الشام .

وقال : « في اللحظة التي يشيع فيها قتل الملا باشي والتي يعلم فيها الحاكم بضياع جواده سيرسل الخبر خلفك للبحث عنك والقبض عليك ولك من شخصيتك ما يسهل عليهم هذه المهمة ، فالأفضل أن تختبئ عندى ريثما ينقضى أمر هذه الحادثة وبعد ذلك تستطيع أن تواصل سيرك في أمان وسنجهد في تضليل من يسأل عنك . وإن لوالدى ضيعة سنقيم بها بلا خوف ونجمل جوادك ومتاعك في مكان لا يثير الشبهة . وحمدان ليست بعيدة فانتا إن بدأنا السير في منتصف الليل وصلنا إليها في الصباح ، وفي استطاعتنا أن نفعل ذلك بأن نركب جوادك سوياً . وتذكر يا صديقي أن الحدود التركية بعيدة ولو عجز جوادك عن إصالك كان هذا أدعى إلى القبض عليك »

وقد أثرت كلماته هذه في أفكاري إذ كان ينطق عن صواب . وكنت أجهل تمام الجهل هذه الناحية من إيران وأدركت أنه لا يكفي أن ألتزم بالطرق الجبلية بل يجب أن أعرف طرقاً غير مطروقة وقد أدركت

وتقديره إياي . ثم إن لدى فكرة أخرى وهي أنني أرغب في خلع بردة المشايخ والعلماء وأن أكون تاجراً ولكنني سأتابع خطى السابقة وأعتمد على الحظ

ولدى فرصة للظهور بمظهر الشهيد وذلك أجدى على من كل ما أملك حتى جوادى ومنقولاتي وحمارى الأبيض وكل شيء حتى المطلقات

فقلت له : « إذن ماذا اعترمت صنعه ؟ هل في نيتك أن تصاحبني إلى بغداد أو تبقى في إيران قريباً للحوادث وانتظاراً للفرص ؟ »

فقال : « من رأي أن أواصل سيرى إلى همدان بلدى الأصلية حيث أجد والدى الذى لا يزال حياً محترماً موقراً فأحاول بوساطته دخول العاصمة ثانية واسترجاع مركزى الذى سلب منى . وأما أنت فأى طريق تسلك ؟ إننى سأحتاج إن شاء الله حين أسترجع ما فقدت إلى خبرتك وذكاك لكى نستأنف مشروع المطلقات . فالأولى لك أن تبقى في همدان منى وأن تتبعني فيما أرسمه من سبل المييش »

فأجيبته : « إننى يا صاحبي بكل ما يبدو على من مظاهر الثراء والنعمة أشد منك تنفاسة وأكثر شقاء ، فإن الحوادث تولت على غير ما أحب وأنت ترانى اليوم قد صرت لصاً . ويعلم الله أن ذلك على غير رغبتى وسأتم السير في الطريق الذى رسمه لى القدر الذى ألبسنى لباس شيخ العلماء وأغناني بماله وأركبني جواداً إلحاًكم ، هذا القدر يا صاحبي يدعوني إلى مفارقة الوطن إذ لا أستطيع البقاء به فأكون عرضة لمعرفة أمرى وقتلى والتمثيل بى على أبواب المدينة . كلا

مناسب وأدفع الثمن إليك »
 أزجني هذا الاقتراح الذي أبداه الملا لأنني
 أيقنت أن وراء ما يطلبه من الثقة به لأودع عنده
 حاجاتي غرضاً آخر غير ما عبرت عنه ألفاظه ،
 ولكنني أحسست في نفس الوقت صدق ما قال
 إذ من المستحيل أن أظل في القرية عشرة أيام
 أو أسبوعين بملايسي الفاخرة وجوادي الكريم
 دون أن أثير ظنون القوم فأدركت أنني أصبحت
 حقاً في قبضة الملا غير أن في السير على ما رسمه
 الملا اشتراكاً له في الجريمة إذ يصبح من المستحيل
 عليه أن يخونني دون أن يوقع نفسه مي . ولكن
 تصور أن نازا كشياً استدل على الجواد فأى مصير
 يكون مصيرنا ؟ إنهم يقبضون علينا سوياً

فأجبنى الملا : « دع أمورك لله فهو قادر ،
 وفوق ذلك فانتا سرنا بسرعة عظيمة ، وقبل أن
 يصل أى ضابط إلى همدان سأكون قد وصلت إلى
 دار أبي وأحدث ما أردت من تأثير . وسيكون من
 السهل على إذن أن أخفي الجواد بما عليه وأنا المستول
 عما يحدث »

لم أجد ما أقوله بمد ذلك فخلعنا ملايسنا وتبادلناها
 فأخذ هو قفطان الملا بائى وجيبته وحزامه الكشمير
 وعباءته المصنوعة من الجوخ الأزرق وأخذت
 أنا ملايسه القديمة التي تمزقت على بدنه يوم طرده
 من طهران . وكذلك أعطيته عمامتي وقد لففت
 عليها شال الملا بائى الذي لا أزال محتفظاً به ،
 وأخذت منه عمامته ولم أستبق مي غير كيس النقود

أن رجلاً عاجلاً إلى الحدود ليس من السهولة بالدرجة
 التي كنت أتصورها . ولئن كان في عزم الملا خيانتى
 فإن ذلك ميسور له هربت أم بقيت فانبعت مشورته ؛
 وقد ظهر لي أن أسلم الرأيين هو أن أبقى بالملا ولا أسي
 به للظن فقبلت أن أذهب معه . وفي منتصف الليل
 رحلنا وقد استرجع الغذاء والراحة ما ضاع من قوائنا
 فصرنا على مقربة من همدان قبل بزوغ الشمس ، ثم
 علونا ربوة تشرف على المدينة لتندبر موقفنا ونفكر فيما
 يجب عمله فأشار نادان بأصبغه إلى قرية على مسافة فرسخ
 وقال : « هذه هي القرية التي يجب أن نقيم فيها حتى
 ينسى الناس مقتل شيخ العلماء . ولكنك لا تستطيع
 دخول القرية بهذه الجبة الأنيقة وعلى مثل هذا الجواد
 الكريم من غير أن تثير الشبهة وتوقع الظنون .
 والرأى عندي أن نتبادل ملابسنا وأن تعطيني جوادك
 وبهذه الوسيلة تظهر في القرية كأنك من أتباع والدي
 وأحتفظ أنا بشخصيتي إذ أراجع إلى دار أبي في
 زي أنيق وثياب فاخرة . وبهذا للترتيب نضمن
 غرضنا ونخدم مصلحتنا المشتركة فتنجوا أنت من شر
 إمارة الشبهات وأنجوا أنا من شر زي الزرى . وفوق
 ذلك فإن قصتي المخجلة لا تلبث أن يسمع بها أفراد
 عائلتي فتكون مدعاة إلى خجلهم والخط من قدرهم ؛
 غير أنني أعرف من هذه البلاد أنها لا تأبه إلا للمظاهر
 الخارجية ، فمضى رأيتي أهلها أرجع إليهم راكباً
 جواداً كريماً وفي يدي لجام مذهب ويحتمى مرج
 موشى وفي حزامي شال من كشمير فإن منزلة عائلتي
 ومنزلي تبقيان كما هما . وبعد أن أستعمل هذه
 الأشياء بضعة أيام فلن أعدم الوسيلة لبيعها بثمان

من السماء إذ كيف يستقبل زجل حسن الظلمة من
غير حزام ولا عباءة تستر ظهره وفي قدمه خف
وعلى رأسه عمامة ممزقة ؟

وبعد تردد طويل عزمته على أن أدعى أنى تاجر
وأن أزعج أن جماعة الكرد هجموا على ونهبوا
ما كان ممي ثم أظهروا عرض يدعو إلى إقامة بالقرية
حتى يبعث الملا إلى بخبر يجملى قادراً على تحديد
مدة الإقامة في بخي . ولقد نجحت في كل ذلك نجاحاً
تاماً فإن الله كان قد وهب أهل القرية — لحسن
حظي — نصيباً وافراً من الغناء وسقم الفهم، فصدقوا
روايتي وقبلوني بينهم ، ولم أجد من نصفاً غير اضطراري
إلى تجريب ما كانت تصفه لي من الدواء امرأة عجوز
أحضرها للقوم لما جئني وهي طبيبة القرية

عبد اللطيف النشار

(يتبع)

الذي وجدته في ثياب الملا بائس وساعته وخاتمه
وما بقي من المال . وسمحت للملا نادان باستعمال الدواء
والمرآة والمشط ، ووضع الملا نادان بعد ذلك لفائف
الورق في حزامه واعتدل وامتلأ صهوة الجواد
فظهر في شكل الملا بائس نفسه حتى لقد دهشت من
شدة الشبه بينهما

وافترقنا على أحسن حال من الود ووعدني بأن
يوافيني بأخباره في القريب وأعلمني بكل ما يتعلق
بقرية والده تاركاً لفطنتي وذكائي أن أخترع قصة
تناسبني والوساوس تساورني من وحدتي في هذا
العالم وعدم وثوق بما يأتي به الغد وشكوكي في حالي
الحاضرة

سرت إلى القرية مرتبكا أنساءل كيف أقدم
نفسي إلى سكانها وقد كنت في الحقيقة كن هبط

شركة مصر

لصناعة وتجارة الزيوت

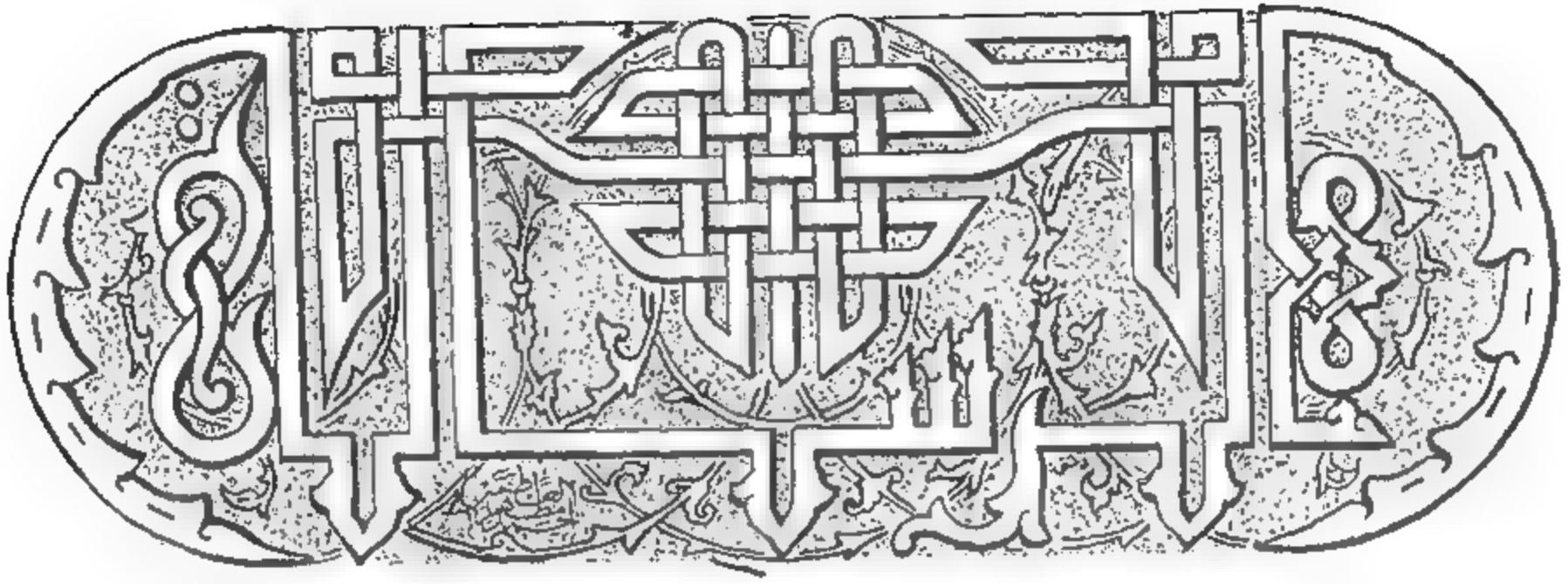
إحدى مؤسسات بنك مصر

تنتج أجود زيوت الطعام

الملك — الممتاز — المصري

أطلبوها منه :

مكتب بيع الزيت شارع الأزهر ، تليفون ٥٤٠٢٠ ومن جميع البقالين



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النِّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النِّشَاءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ الْتَطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ، وَسِجِلُّ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الْمَشْرِقِ الْأَعْلَى سِتُونِ قُرْشًا، وَالْخَارِجِيُّ مَا بَسَادَى جَنِينًا مِصْرِيًّا، وَلِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَصْمِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتاريخ

نصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١١ صفر سنة ١٣٥٧ - أول إبريل سنة ١٩٣٩

العدد ٥٣

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة		
٢٨٢	يفظة المومياة	أقصصة مصرية
٢٩١	لماذا أبغضت زوجي	عن الانجليزية
٣٠٩	المال	للقصص التشيكي كارل كايك
٣٢٠	يوم الوداع	أقصصة مصرية
٣٢٦	حاجي، بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي « جيمز مور »
	بقلم الأستاذ نجيب محفوظ	
	بقلم الأستاذ عبد الحميد حدى	
	بقلم الأستاذ ابراهيم حسين العقاد	
	بقلم الأديب عبد الحليم المشيرى	
	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار	

يَقْظُ الْمَوْمِيَاءُ

أَقْصَصُ وَصَّةٍ مُصْرِئَةٍ
بِقَتْلِ الْأَسْتَاذِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ

الذى خفق فيه قلب مصر خفقة
الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المنفور
له محمود باشا الأرنؤوطى في قصره
المظيم بصعيد مصر ، وأذكر أننى
وجدت عنده جماعة من الأصدقاء
الذين كانوا يترددون عليه كلما
أسعدتهم الظروف ، منهم السيوسارو

ناظر مدرسة الفنون الجميلة العليا ، والدكتور بيرطبيب
الأمراض العقلية ، واحتوانا جميعاً (صالونه) الأنيق
البديع الحافل بآيات الفن الجليل من لوحات وتماثيل
كانها احتشدت في تلك البقعة المتيقة لتؤدى تحية
البقريّة الحديثة إلى ذكرى عبقرية الفراعين الخالدة
الشأوية تحت أطلال الوادى ، يتوهج نورها خلل
ظلمات السنين مثل سنا للنجوم المتألقة في السماء
السارى في تضاعيف الليل البهيم ...

وكان المنفور له من أغنى أغنياء المصريين
وأوسعهم ثقافة وأسمى خلقاً ، وقد قال عنه مرة
صديقنا الأستاذ لامبير إنه ثلاث شخصيات تقمصت
زجلاً ، فهو تركى الجنس مصرى الوطن فرنسى القلب
والعقل ، قأدي تعريفه أنهم أداء . والحق أنه كان
أكبر صديق لفرنسا في الشرق ، وكان يعدها وطنه
الثانى ، وكانت أسعد أيامه تلك التى يميشها تحت
شماها ، واتخذ أصدقاءه جميعاً من أبنائها سواء منهم
من يمش على ضفاف النيل أو فى جنات السين .
وكنت أخال نفسى وأنا فى (صالونه) أنى انتقلت فجأة
إلى قلب باريس ، فالأثاث فرنسى والجالسون فرنسيون
ولغة الكلام فرنسية والطعام فرنسى ، وإن كثيراً
من الفرنسيين المثقفين لا يعرفونه إلا كهاو فذ من

أجد حرجاً كبيراً فى رواية هذه القصة ، لأن
بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعاً ؛
ولو كان مردها إلى الخيال ما تخرجت ولكنها وقعت
فى عالم الحقيقة ، وكانت نخبتها رجل من رجال
مصر الأفاض المروفين فى الأوساط السياسية
والارستقراطية ، وراويتها الذى أنقل عنه أستاذ
كبير بالجامعة ، لا يجوز أن يرتقى الشك إلى عقله
أو خلقه ، ولم يعرف عنه قط ميل إلى الأوهام
والخرافات ، ولكنى — والحق يقال — لا أدرى
كيف أصدقها فضلاً عن أن أحمل الآخرين على تصديقها ؛
وليس ذلك لندرة المعجزات فى عصرنا ، فما لاجدال
فيه أن عصرنا عصر المعجزات والحوارق ، ولكن
للقلاء فى أيامنا هذه لا يقبلون أمراً بنير تمليل ،
كما أنه لا يستغنى شئ على إيمانهم مع التمليل
المقول . وإنى حيال قصة محيية لها من دواعى
التصديق راوية حكيم وشواهد ملموسة ، ولكن
التمليل العلمى ما يزال يتأبى عليها ، فهلا أعذر على
شمورى بالحرج فى تقديمها ؟

ومهما يكن من أمر فاليك ما رواء جناب
البروفسير دريان « أستاذ الآثار المصرية القديمة »
بجامعة فؤاد الأول ، قال : فى ذلك اليوم الأسيف

هواة للفنون الجميلة أو كشاعر يقرض الشعر الوجداني
الجميل بالفرنسية ، أما أنا فقد عرفت — إلى هذا —
حبا لفرنسا متمعبا لثقافتها وداعية لسياستها ...
أخذت مجلسي في ذلك اليوم إلى جانب الباشا
وكان السيوسارو يقول وهو يتأمل بعينه الواستين
الجاحظتين تمثالا نصفيا برززيا لا نشتين :

— إن قصرك هذا يا صاحب السعادة يحتاج
إلى تشيير طفيف لكي يصير متحفًا كاملا

وقال الدكتور بيير مؤمنا على كلامه وهو يتخلل
لحيته بأنامله :

— صدقت فهو معرض دائم لجميع البعريات
والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفنانين الفرنسيين
فقال الباشا :

— الفضل في ذلك يرجع إلى ذوق المعتدل
الذي يساوي بين النزعات المختلفة ويعدل بين أهواء
المدارس ، ويهوى تذوق الجمال سواء أكان
بديعه براكتيليس أو رافائيل أو سيزان . مع استثناء
البدع الحديثة المتطرفة ...

فقلت ، ناظرا بطرف خفي إلى السيوسارو وكان
يحاول دائما أن أداعبه :

— لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هذا
الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت
عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا ...

فضحك السيوسارو وقال موجها الخطاب إلي :
— بل لعلها تستغني عن ناظر المدرسة الفرنسي
أيضا ...

ولكن الباشا قال جادا :

— إطمئن يا عزيزي سارو ، فانه إذا قدر على
هذا المتحف أن يترك الصيد فيستخذ طريقه رأسا
إلى باريس

فنظرنا إليه جميعا نظرة استفهام ودهشة وكأننا
لا نصدق آذانتنا ، فالواقع أن مجموعة الباشا الفنية
كانت تقدر بعثات الألوف من الجنيهات وقد تسربت
جميعها إلى جيوب الفرنسيين ، فكان غريبا أن
يفكر في إهدائها إلى فرنسا ؟ وكان يحق لنا أن
نفرح ونبهج ولكن لم أتمالك من أن أسأله متمجبا :
— أحقا ما تقول يا أكلنس ؟

فقال الباشا يهدوء :

— نعم يا صديقي دريان ... ولم لا ... ؟

فقال السيوسارو :

— ياله من حظ سعيد حقيق باغتباطنا هو
الفرنسيين ، ولكني أقول لسعادتك مخلصا إنني أخشى
أن يسبب لك متاعب كثيرة ...

وقلت للباشا مؤمنا على رأي السيوسارو :

— نعم يا باشا هذا ما أعتقد أنا أيضا

فردد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحظت
فيهما نظرة ساخرة وسألنا متجاهلا :

— وله ... ؟

فقلت بلا تردد :

— ستجد الصحافة في ذلك موضوعا أي

موضوعا

وقال الدكتور بيير :

— وما من شك في أن الصحافة الوطنية عدو

لك قديم ... وهل نسيت يا صاحب المال حملاتها
المرصنة عليك واتهاماتها إياك بأنك تبتر أموال

للفلاح في فرنسا بلا حساب !

فصاح الباشا بانكار :

— أموال للفلاح !

فبادر الدكتور يقول معتذرا :

— معذرة يا باشا ... هذا قولهم !

فهز سعادته منكبيه استهانة وزم شفثيه احتقاراً وقال وهو يثبت نظارته الذهبية على عينيه :

— أنا لا آبه لهذه الأصوات المنكرة الوضيعة ، وما دام ضميري الفنى لا يرتاح لابقاء هذه الآيات وسط هذا الشعب الحيوانى فلن تقبر هنا أبداً

وكنيت أعرف رأى صديقى الباشا عن المصريين واحتقاره لهم . ومما يحكى فى هذا الصدد أنه تقدم له منذ عام طبيب مصرى نابغة حاصل على رتبة البكوية طالباً يد ابنته فطرده شر طرد لأنه فلاح ابن فلاح . على أنى — مع موافقتى على كثير من التهم التى يكيلها الباشا لبني وطنه — لم أكن أتبعه فى رأيه إلى النهاية ، ولذا قلت له : سعادتك شديد النقد

فقهقه الباشا ضاحكاً وقال :

— أنت يا عزيزى دريان رجل وهبت حياتك الثمينة للماضى البعيد ، وربما لاحت لك فى غياهبه لع عبقرية خلقتها القدماء لا تفتأ توظف غطفك وحنينك على أحفادهم ولكن شتان ما بين الفراعين والفلاحين ، لا يجوز أن تنسى يا صديقى أن المصريين شعب قول ...

فضحكك وقلت له :

— عفواً يا صاحب السعادة ، ألا تعلم أن السير ما كنزى أستاذ آداب اللغة الانجليزية بكلية الآداب صرح أخيراً بأنه أصبح يفضل القول على البودنج ؟ فضحكك الباشا ، وضحك الحاضرون جميعاً وقال سعادته :

— أنت تفهم ما أعنى ولكنك تحب المزاح ، المصريون حيوانات أليفة طبعها الدل ، وخلعها للتذل ، وقد عاشوا عبيداً على فئات موائد الحاكمين

منذ آلاف السنين ، ومثل هؤلاء لا يحق لهم أن يأسفوا على إهداء هذا المتحف إلى باريس ... فقال المسيو سارو :

— نحن لا نتكلم عما يحق أولاً يحق ، ولكن عن الواقع والواقع أنهم سياسفون (ثم قال بامهجة ذات مغزى) وستأسف معهم محاقتهم ... « ولكن لم يبد هل الباشا أدنى اكتراث ، وكان بطبعه يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف المفتلة ، وربما كان لأصله التركي دخل كبير فى تشبته بأرائه وعناده واحتقاره للمصريين . ولم يرد أن نسترسل فى ذاك الحديث فأغلق بلباقته النادرة باباً ، وانشغلنا ساعة باحتساء القهوة للفرنسية اللذيذة التى لم أذق مثلاً فى مصر ، ثم نظر الباشا إلى باهتمام وقال :

— ألا تعلم يا مسيو دريان أنى بدأت أنا فسك فى اكتشاف الكنوز ؟

فنظرت إليه مستفهماً وسألته :

— ماذا تعنى يا أ كسلنس ؟

فضحكك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر من نافذة الصالون

— على بعد أذرع منا تجرى عملية حفر جليلة الشأن فى حديقة قصرى !

فبدا علينا الاهتمام جميعاً ، وتوقعت سماع خبر منير ، وكان لسكامة حفر تأثير خاص فى نفسى ، لأنى قضيت شطراً كبيراً من عمرى — قبل أن أشتغل فى الجامعة — أحفر وأتقب فى أرض مصر اللثنية الساحرة

وقال الباشا وهو ما يزال يتسم :

— أرجو ألا تسخروا منى يا سادة ، فقد فملت

— أحقاً ما تقول يا سيدي الأستاذ ؟

قلت :

— نعم يا باشا ، لقد دلتني يوماً شيخ مثل الشيخ جاد الله على بقعة من الأرض في وادي الملوك وقال لي : إنه استدل بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها ، ففصرنا فيها بماولنا ولم نلبث أياماً حتى اكتشفنا مقبرة قننا ... وهذا ولا يشك من عبقریات المصادقات

فضحك الدكتور بير وقال متهاكاً :

— ولماذا تمل ذلك بالمصادقات فتجعد فضل العلم للقديم ؟ ... ألا يجوز أن الفراعنة يورثون أحفادهم أسرارهم الخفية كما يورثونهم سحتهم وكثيراً من تقاليدهم ؟

ومضينا نتفكك بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره أحاديث كثيرة ، ومضى الوقت لذيذاً ممتناً ، وعند الأصيل استأذن الضيوف في الانصراف ، وأما أنا فأعلنت عن رغبتني في مشاهدة عملية الحفر التي يجريها الشيخ جاد الله ، وغادرنا جميعاً الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى الباب الخارجي لتوديع الأصدقاء ، ولم نكد نقطع خطوات حتى وصلت إلى مسامنا ضجة عظيمة واعترضت طريقنا جماعة من الخدم رأيناهم يحسكون بتلايب صميدى ويوسمونه ضرباً ولصاً ، ثم ساقوه بشدة إلى سعادة الباشا وقال له أحدهم :

— يا صاحب السعادة ضبطنا هذا اللص وهو يسرق طعام يمينش

و كنت أعرف يمينش حق المعرفة ، فهو كاب الباشا المميز وآثر مخلوقات الله بقلبه بعد زوجه وأولاده ، وهو يمينش في قصر الباشا منما مكرماً ، يقوم على خدمته خدم وحشم ، ويكشف عليه طبيب

ما كان يفعله الملوك الأقدمون مع السحرة والشعوذين ولا أدري كيف رضخت وأذعنت ؛ ولكن لا داعي للأسف قليل من الخرافة يريح العقل للكلف بالحقائق والعلوم. وعجل الحكاية أنه جاء قصرى منذ يومين رجل معروف في هذا البلد يدعى الشيخ جاد الله ، يحترمه العامة ويقدمونه ، وكم ذا بمصر من المقدسين ، وألح في طلبى وأذنت له وأنا أعجب لشأنه ، وحياني الرجل على طريقته وبشرنى بأنه استدل بعلمه الروحاني وبكتبه القديمة على وجود كنز ثمين في باطن حديقتي ، وطلب إلى بتوسل أن آذن له في الكشف عنه تحت إشرافى ، ومناني بالذهب واللاآلى في مقابل أن أعده بالخولان ، وضقت به وهمت بطرده ولكنه خرع إلى وتوسل حتى استعبر وقال لي : لا تهزأ بعلم الله ولا تستهن بعباده المقربين. فضحكت طويلاً ، ثم خطر لي خاطر سريع فقات لنفسي لماذا لا أجارى الرجل في وهمه وأسأره على اعتقاده ؟ لن أخسر شيئاً وسأفوز حتماً بنوع من التسلية ، وقد فعلت يا أصدقائى ، وأذنت للرجل ، وأنا أنظاها بالجد ، وما هو ذا يحفر في حديقتي ويماونه في عمله الشاق اثنان من خدي المؤمنين ، فما رأيكم ؟

قال ذلك الباشا وضحك عالياً، فضحك الجميع ، أما أنا ففكرت في الذاكرة إلى الماضى إلى حادثة مشابهة فقلت : « طيبى أنكم لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد الله ، ولا أنا أستطيع أن أؤمن به والأسفاه ، ولكنى لا أستطيع كذلك أن أنسى أنى اكتشفت قبر السكاهن قننا بفضل خرافة كهذه ! »

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألنى الباشا :

الآربة في المقاطف ويلقونها جانباً ، وكان الشيخ جادا ، تلمع عيناه ويريق حاد يدل على العزم والأمل ، وتنبعث في ساعديه النحيلين قوة غير طبيعية ، كأنه يدنو حقاً من هدفه الذي هداه إلى سبيله عمله الإلهي ، فتمثل لي في شخصه المعجيب الإنسان بنشاطه ، وإيمانه وأوهامه ، والحق أننا نخلق لأنفسنا آلهة وأوهاماً ولكننا نؤمن بها إيماناً عجمياً ، فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية في البداعة والجمال ، ألم يخلق أجداد الشيخ جاد الله — الذي يذكرني وجهه بتمثال الكاتب المعروف — الحضارة الأولى للإنسان ؟ .. ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفي بطنها على السواء ؟ ... أو لم يستوحوا في عملهم وتفكيرهم أوزوريس وآمون ؟ ... وما أوزوريس وآمون ؟ . لا شيء في الغالب ... أما حضارتهم فكانت شيئاً وأي شيء ... بل هي أم حضارتنا الراهنة ...

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن ، أما الباشا فيبتسم ابتسامة ساخرة ، وأما أنا فاستغرق في أحلامي ، وكلانا لا يدري بما يجيشه له القدر تحت آكام ذلك التراب ، وكان العمل يبدو عقياً فتجمل الباشا واقترح على أن نجلس في الفراندا فاتبعت صامتاً ، ولكننا لم نكد نصعد السلم الأولى حتى لحق بنا الشيخ جاد الله عدواً وصاح بقمه الثرم :

« مولاي ... مولاي ... تمال انظر ... »

فالتفتنا إليه بحركة أنوماتيكية ، وكان قلبي يخفق خفقاناً غريباً على أثر نداء الشيخ وذكرني بشبيهه له قديم كان يفصل في حياتي بين الفشل والنجاح واليأس والأمل ، وهبطنا السلم دون إبطاء لأن الرجل كان قد عاد أدراجه ، وتبعناه وكلانا يغالب رغبة في المدو ...

ييطرى مرة كل شهر ، ويقدم له كل يوم لحم وعظام وابن وثريد ، ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصاعيدة على غداء ييميش ... وكان السارق صعيدياً قحاً ، يتميز بالسحنة المصرية المتينة ، ويسدو على هيئته الرثة البؤس والفقر ، وقد حدجه الباشا بنظرة قاسية وقال له بصنف :

— كيف سولت لك نفسك انتهاك حرمة بيتي ؟ فقال الرجل بتوسل وهو يلهث من أثر الجهد الذي بذله في مقاومة الخدم :

كنت جائعاً يا صاحب السعادة ورأيت اللحم المسلوق مبعثراً على الحشائش فخانتني قوتي ولم أكن ذقت اللحم منذ عيد الأضحى ! فالتفت الباشا إلى وقال هازئاً :

— رأيت للفرق بين باتسنا وباتسكم ؟ ... إن باتسكم دفعه الجوع إلى سرقة رغيف ، أما باتسنا فالرغيف ليس عسيراً عليه ، ولكنه لا يرضى إلا باللحم المسلوق

— ثم التفت مرة أخرى إلى السارق ورفع عصاه وضربه على كتفه بشدة وصاح بالخدم :

— خذوه إلى الخفير ...

ونضحك الدكتور بير وهو يسلم وقال للباشا :

— ماذا تفعل غداً إذا شتم الصاعيدة رائحة الذهب المكس في كنز الشيخ جاد الله ؟

فقال الباشا فوراً :

— سأحيطه بسياج من الخفراء كخط ماجينو . وعدنا — أنا والباشا — وتبعته صامتاً إلى حيث يشتغل الشيخ جاد الله الذي يشك أن يصير أثرياً عظيماً ، وكان الرجل منهمكاً في عمله هو ومعاوناه ، يضربون الأرض بفؤوسهم ويرفمون

فماد الشيخ يقول :

— فتح الكنز عمل عسير ، فهذا الباب لا يطيع
ويرضخ إلا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق فيها
حتى مطلع الفجر ... هل أنتم مطهرون ؟
وتأثريا قواله الخادمان ونظرا إلى مولاها بارتباك
لأنهما اعتددا أنهما على وشك المثل في حضرة القوة
الخفية ، ولم يكن في الوقت ميسر للتطهر والقراءة
فقلت للشيخ بحزم :

— إننا لم نبلغ هذا الباب بقراءة فيذهب أن
نقتحمه بمثل ما اقتحمنا الذي قبله ...
وهم الشيخ أن يمترض ولكن لم يجده اعتراضه
وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقني شرراً ، واستأنفوا
المعمل من جديد ، وتيقظت غريزتي فعملت معهم ،
حتى أزيحت المقبة الكؤود ، ووجدنا أمامنا منفذاً
إلى مئوى حوز الأبدى ...

وكنت خيراً بتلك الأعمال ، فأمرتهم أن
يتريثوا في أما كنهم وقتاً قصيراً ربّما يتجدد الهواء ،
وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعاً ، وكان
الباشا صامتاً ذاهلاً كمن هو في حلم عجيب ، وكان الخادمان
ينظران بيمينين ساهمتين إلى الرجل الذي يؤمنان به ،
وكان الشيخ يحملني تبعاً ما قد يحدث لاستهانتني
برأيه ، أما أنا فكنت أحلم بما عسى أن يقع عليه
بصري ، وساءلت نفسي ترى هل من المستطاع أن
أفوز بتحفة أثرية أزين بها عقد متحفنا الخالد في
باريس ... ؟

ثم دخلت ، ودخل خافي الأرنؤوطى باشا ثم
الشيخ جاد الله ، وآثر الخادمان أن يلبثا في الدهليز
الخارجي فلما اختفى عنهما نور الصباح وأظلم المكان
اندفعا إلى الداخل وانكشبا في ركن ، وكانت حجرة
تابوت كما يدل مظهرها ، وقد شاهدت أمثالها صرحت

ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزون صخرة
كبيرة ، مساحتها متر مربع على وجه التقريب ،
قدنوا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة في مثل
اتساعها ، فنظرت إلى الباشا ، ونظر إلى بيمينين
تنطلقان بالدهشة والدهول ، ثم نظرنا إلى داخل
الفوهة فرأينا سلماً قصيراً ينتهي إلى دهليز يتجه
إلى الداخل موازياً لسطح الأرض ، وكانت الشمس
تؤذن بالغيب فقلت للباشا « إيلنا بمصباح » فأرسل
الباشا أحد الخادمين لأحضار مصباح ، وعاد الرجل
بالمصباح فأمرته أن يتقدمنا ، ولكنه تردد وانكش
فهممت بأخذه منه ، ولكن كان الشيخ جاد الله
أسرع مني إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من
القرآن وتماويز غريبة ثم نزل بقدمين ثابتتين قبيحتيه
وتبعني الخادمان المضطربان ...

ووجدنا أنفسنا في دهليز مستطيل لا يتجاوز
طوله عشرة أمتار ، ويملو سقفه عن هامتنا بمدة
أشبار ، وكانت أرضه متربة أما جدرانها فن الجرانيت
وتقدمنا جميعاً في خطوات بطيئة حتى اعترض
سبيلنا باب حجري يأخذ على المفتحين طريقهم ،
ولم يكن منظره غريباً على ولا الرموز المحفورة
في وسطه ، فجري بصري عليها ثم التفت إلى الباشا
وقلت بصوت متهدج :

— لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة
أثرية ... فما هنا يرقد القائد حوز من عظام الأسرة
الثامنة عشرة

ولكن الشيخ جاد الله قال بمنف وغضب :

— بل وراء هذا الباب كنز ... هكذا يقول

الكتاب الذي لا يكذب

فهزئت كتفي قائلاً : « سمع كيف شئت ،

الهم أن نفتحه ... »

— رأيت مصفوراً يرف بجناحيه فوق التابوت
فالتفتنا إلى التابوت ولكننا لم نر شيئاً وكان من
اللبث أن نسأل الخادمين فقلت للشيخ :
— دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله
ثم ضحكت وقلت للباشا بالفرنسية :
— عسى أن يكون المصفور روح الميت (كا)
جاء لزيارته معنا ...

ثم عدت إلى مظالمة الصناديق والجدران التي
تحدث قلبي بلمحة صامتة لا يعيها سوى ، ولكني لم
أستطع للتأمل بتاتاً لأناسمنا الخادمين يصيحان بدمر :
— يا عبادة الباشا !

فالتفتنا إليهما بسرعة وقد امتلأت غيظاً وحنقاً
ولكنني شاهدتهما في حالة غريبة من الرعب ، وقد
التصق كل منهما بصاحبه ، واتسمت عيناها وجفوننا
وأرسلنا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت ،
وتصلب الشيخ جاد الله في وقفته ويده قابضة على
المصباح وعيناها لا تتحولان عن نفس الهدف ...
فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبي ... فرأيت
غطاءه مرفوعاً والومياء ممدودة أمامنا في لغائفها ...
ما هذا ... كيف فتح التابوت ؟ ... هل أثر
في إقامتي الطويلة في الشرق فندت عيني تتأثر إلى
هذا الحد المضحك بأوهامه وسعره ؟ ...

ولكن أي سحر هناك ؟ ... إني أرى الومياء
أمامي ، ولست الوحيد الذي يراها ، فها هو ذا الباشا
قد تحول إلى تمثال ، وهام الرجال الثلاثة يكادون
يموتون من فرط الملح والدهر ... فأى وهم هذا ؟
والحق أنني أحس بالخجل كلما اضطررتي للظروف
إلى سرد ما حدث بمد ذلك ، لأنني أحدث في المادة
أناساً عقلاء مثقفين درسوا تيلور وليني برول ودركيم
ولكن ما حيلتي ؟ ... إن ديكارت نفسه لو كان

عديدة ، وكان التابوت موضوعاً في مكانه وعلى غطاءه
صورة ذهبية لصاحبه وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل
بالحجم الطبيعي أحدها الرجل - من المرجح أنه حور
نفسه - والآخر لامرأة يستدل من وضعها إلى جانبه
أنها زوجته ، وأمامها تمثال صغير لثلام ، وفي الناحية
المقابلة وضعت صناديق مقلقة وآنية ملونة ومقاعد
ومناضد وعدد حربية ، وكانت الجدران ملأى
بالرسوم والنقوش والرموز ...

ألقيت نظرة سريعة مفعمة بالروعة على ذلك العالم
البعوث ولكن الباشا لم يدعني لتأملاتي فقال لي ولم
أكن أعلم أنها آخر أقواله في هذه الدنيا :
— الأوفى يا أستاذ دريان أن نباغ الأمر إلى
الحكومة في الحال ...

فأحسست بخيبة أمل وقلت :

— انتظر قليلاً يا باشا ريثما ألقى نظرة مجلى ...
ودنوت من الصناديق والآثاث والباشا يسير
إلى يميني ومضيت أخفصها بعين خبيرة مشوقة ،
ونفسي محدثني بفتحها ومشاهدة ما بداخلها ، وكنت
أومن بأنها تحوى طعاماً وثياباً وحلياً ولكن أنى
لمثل أن يملك إرادته حبال تلك الخلفات الجليلة التي
تستعوز على منبض التأثير من قلبي ووجداني ...
ثم لا تنس التابوت والتماثيل والومياء ... إلها من
مفاتيح ...

وقطع على تأملاتي أن سمعت صوت الشيخ
جاد الله القبيح وهو يهتف « هس » فالتفت إليه
منزجاً منضجاً لأن أقل حمسة آتت كانت تثير أعصابي
ولكن الشيخ قال لي بيلاهة « مصفور ! »
فأنهرته قائلاً :

— أي مصفور يا شيخ ... أهذا وقت هزل ؟
فقال الرجل :

في مكاني تلك الساعة ما أتته الشجاعة على الهزم
بحواسه ...

ماذا رأيت ؟

رأيت المومياة تتحرك وتقع في للتأبوت في
حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو الثقيل بالنوم
فضلا عن البعوث من عالم الأموات ، ثم قفزت قفزة
غاية في الرشاقة وانتصبت قبالتنا أمام للتأبوت ...
و كنت موليا ظهري الخادمين والشيخ جاد الله
فلم أر ما حل بهم ولكن ارتماش للنور الذي يضي
الحجرة دل على كهرة اليد التي تمسك به ، و كنت
في حالة يتمنذر وصفها ، وأعترف بأن مفاصل تفككت
من الرعب الذي لا يوصف ، وذهرت ذعرألم أحس
بمثله في حياتي على الإطلاق ، ولا تكاد تذكر إلى
جانبه أهوال الأيام الشديدة التي قضيتها في الجهة
الشرقية ومعركة المارن ...

يا للمعجب ! ... ألم تكن حيال مومياة ؟ ...
أو حيال جثة ردت إليها الحياة بطريقة خفية ؟ ...
أو أمام قائد مصري كان يرتجف هولاً وخشوعاً
إذا اجتاز عقبة القصر الفرعوني ؟ ... ولكن هل
كان من الممكن أن يخالج نفسي في تلك الساعة فكر
من هذه الأفكار ؟ ... بل هب أنه خالجه فهل كان
يستطيع أن يهدي من رعبها شيئاً ؟ ... فزعت
فزعا قاتلا ... على أن عيني استطاعت أن تريا
كما استطاعت ذاكرتي أن تحفظ ما رأت حينئذ ..
ولم أجد أمامي مومياة بل رجلا حيا كامل
الرجولة والحياة ، وكانت هيئته تذكر بتلك الصور
التي ترى بكثرة على جدران المعابد ، فكان يرتدي
ثوبا أبيض ووزرة قصيرة وينطى رأسه الكبير
بقلنسوة أنيقة ، ويحلى صدره للعريض بدياشين
كثيرة زاهية وكان سهيلاً رهيباً متعالياً ، ولكني
بالرغم من جلاله خيل إلى أنني رأيته من قبل وذكرت

بالفعل الصعدي الذي ساقه الخدم إلى الباشا وأتهموه
بسرقه غذاء الكلب ييميش ، كان شهما غريباً
ولكنه اقتصر على الطول واللون والقصبات دون
الروح والحياة ، ولولا ما كان يبدى المائل أمامي من
التبل والتعالي لربما خالجتني شكوك ...

وكان يحدج الباشا بنظرة قاسية لا يحولها عنه
كأنه لا يرى سواء ...

ماذا أقول يا سادة ؟ ... لقد سمعته يتكلم ...
أي والله لقد تكلم حور بعد أن صمت ثلاثة آلاف
من السنين ، وتكلم بتلك اللغة القديمة التي طواها
الموت منذ آلاف السنين .. وسوف أنسى كل شيء
في دنياي قبل أن أنسى كلمة واحدة مما نطق به
لسانه ...

قال لصديقي الباشا السي الحظ بصوت لم أسمع
مثله جلالة لأنني لم أتشرف بعد بمخاطبة الملوك

— ألا تعرفني أيها العبد ... ؟ لماذا لا تجثو
ساجداً بين يدي ... ؟

ولم أسمع للباشا صوتاً ولا استطاع بصري أن
يتحول إليه ، ولكني سمعت العظيم ذا الصوت العظيم
يقول مرة أخرى :

— لم أشعر بقهر أسر الموت إلا حين شاهدت
روحي هذه المعجائب التي تحدث في الدنيا وأنا مقيد
بأصفاد الأبدية لا أستطيع حراكاً ، ولم أقدر أن
أذهب إليك لأن حياتي انتهت كما قضى أوزوريس ...
ولكنك سميت إلى بقدميك ... وإني لأعجب كيف
سولت لك نفسك هذا الفعل الأحمق ... أبلغ بك
البطر الجنون ... ؟ ألا تحمد الآلهة أن حالت بيني
وبينك بالموت ... ؟ ماذا جئت تفعل أيها العبد ... ؟
ألم يقنصك أن تنهب أبنائي فأتيت تنهب قبري ... ؟
تكلم أيها العبد ...

ولكن أنني للمسكين أن يتكلم ... إنه لا يفقه

بنته كَأَنِّي أَتَقَى ضَرْبَةَ قَاتِلَةٍ لَا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ تَقَعُ
عَلَى رَأْسِي ، وَحَمَلْتِ فِي الظَّلَامِ وَأَنَا أَتَنْفُسُ فَرَقًا
وَذَعْرًا ، ثُمَّ خَارَتْ قَوَايَ ، وَشَاءَ حَظِّي الْحَسَنُ أَنْ
أَقْدُ شَمُورِي وَأَغْيِبَ عَنِ الْعَالَمِينَ ...

سَادَتِي ... إِنَّهُ لَتَأْتِي عَلَى أَوْقَاتٍ يَصِيبُنِي فِيهَا
ذَهُولٌ وَتَحَاصُرُنِي شَكُوكٌ فَأَسْأَلُ نَفْسِي مَرْتَابًا : هَلْ
كَانَ حَقًّا مَا رَأَيْتَ أَمْ كَانَ وَهْمًا ؟ ... وَرَبَّمَا مَلَتْ
أَحْيَانًا إِلَى تَكْذِيبِ نَفْسِي ، وَلَكِنِّي كَمَا أُمِيلُ إِلَى
الشَّكِّ تَصْدُمُنِي حَقَائِقُ لَا قَبْلَ لِي بِهَا ... فَمَا قَوْلُكُمْ
مِثْلًا فِي شَهَادَةِ الشَّيْخِ جَادِ اللَّهِ وَهُوَ حَيٌّ يَرْزُقُ
وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِيدَ لَكُمْ مَا حَكَيْتُمْ ؟ ... وَمَا قَوْلُكُمْ
فِي جَنُودِ الْخَادِمِينَ التَّعْسِينَ ... وَمَقْبَرَةِ حُورٍ ...
وَالْقَصْرِ الْمَهْجُورِ ؟ ... بَلْ مَا قَوْلُكُمْ فِي حَادِثَةِ مَوْتِ
الْمَغْفُورِ لَهُ مُحَمَّدٍ بَاشَا الْأَرْنَؤُوطِيِّ الَّتِي مَا يَزَالُ يَذْكُرُهَا
جَمِيعُ قُرَاءِ الصُّحُفِ وَيَمَجِّبُونَ لَهَا أَشَدَّ الْمَجْـبِـبِ ... ؟
يَجِيبُ مَحْفُوظٌ

شَيْئًا ... وَلَا يَبْدِي حِرَاكًا ... لَقَدْ دَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي
الْمُومِيَاءِ ... وَفَارَقَتْ قَلْبَ الْبَاشَا الْحَيِّ

أَمَّا الْمُومِيَاءُ فَعَادَتْ تَقُولُ :

مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟ ... أَلَسْتُ حُورًا ؟ ... أَلَسْتُ
عَبْدِي شَنِقُ ؟ ... أَلَا تَذْكُرُ أَنِّي جِئْتُ بِكَ مِنَ الشَّامِ
فِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ الْظَافِرَةِ ؟ ... أَتُجَاهِلُنِي
أَيُّهَا الْمَبْدُ ؟ ... إِنْ جَلَدَكَ الْأَبْيَضُ الَّذِي يَرْمِزُ إِلَى
الْعِبُودِيَّةِ يَفْضَحُكَ مَهْمَا تَنَكَّرْتَ .. مَا هَذِهِ الْمَلَابِسُ
الْمُضْحَكَةُ الَّتِي تَرْتَدِيهَا ؟ .. وَمَا هَذِهِ الْأَهْبَةُ الْكَاذِبَةُ
الَّتِي تَحْتَقِي وَرَاءَهَا ؟

وظَنَ حُورٌ أَنَّ الْبَاشَا لَا يَرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَاتْفَخَتْ
أُودَاجُهُ وَتَقَطَّبَ جَبِينُهُ وَصَاحَ غَاضِبًا :

— مَا الَّذِي دَهَاكَ ؟ مَا الَّذِي دَهَى الْأَرْضَ فَجَعَلَ
أَعْرَاسَهَا أَذَلَّةً وَأَذَلَّهَا أَعْزَةً ، وَخَفَضَ لِلْسَادَةِ عِبِيدًا
وَرَفَعَ لِلْعِبِيدِ سَادَةً ؟ كَيْفَ تَمْلِكُ أَيُّهَا الْمَبْدُ هَذَا الْقَصْرَ
وَيَعْمَلُ أَبْنَائِي فِيهِ خُدَمًا ؟ أَيْنَ النِّقَالِيدُ الْمُنَوَّارَةُ
وَالْقَوَانِينُ الْمُقَدَّسَةُ ؟ مَا هَذَا الْمَبْثُ ؟

وَاشْتَدَّ الْغَضَبُ بِحُورٍ فَاسْتَحَالَتَ عَيْنَاهُ جَرَّتَيْنِ
يَتَطَّارُ مِنْهُمَا الشَّرُّ وَصَاحَ بِصَوْتٍ كَالرَّعْدِ :

« كَيْفَ تَتَجَاسَرُ عَلَى ابْنِي أَيُّهَا الْمَبْدُ ؟ لَقَدْ سَمِعْتَهُ
الَّذِلَّ بِقِسَاوَةِ دَلَّتْ عَلَى الْعِبُودِيَّةِ الَّتِي تَنْضَحُ بِهَا نَفْسُكَ
ضَرْبَتَهُ بِمِصَاكٍ لِأَنَّهُ جَائِعٌ وَدَفَعَتْ إِخْوَتَهُ إِلَى ضَرْبِهِ
أَيُّجُوحُ فِي مَنْصَرِ أَبْنَائِهَا ؟ الْوَيْلُ لَكَ أَيُّهَا الْمَبْدُ ...
وَلَمْ يَكِدْ يَتِمُّ كَلَامُهُ حَتَّى تَقْدَمَ نَحْوُ الْبَاشَا مُزْجِرًا
كَأَسَدٍ مُصَوَّرٍ بِهِمْ بِفَرِيستِهِ

وَلَكِنِ الْبَاشَا التَّمَسَّ لَمْ يَنْتَظِرْهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ
فَقَدَ قُوَّةَ الْإِحْتِمَالِ ، فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ لَا حِرَاكَ بِهِ
وَكَانَ تَهْدِيدُ حُورٍ قَدْ أَشَاعَ فِي الْحَجَرَةِ رَجَبًا جَدِيدًا
أَتَى عَلَى الْبَقِيَّةِ لِلْبَاقِيَةِ مِنَ التَّمَاكُ فِي النُّفُوسِ ،
فَمَا لَبِثَ الشَّيْخُ جَادُ اللَّهِ أَنْ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ وَسَقَطَ
مَعَهُ الْمَصْبَاحُ فَانْطَفَأَ نُورُهُ وَسَادَ الظَّلَامُ ، وَانْكَمَشَتْ

صدر كتاب

قَاتِلَةُ الْإِيَّامِ

بمحرّره من القصص المصري الحديث

تأليف

عبد اللطيف السيد

يُباع بخمسة قروش بجميع المكتبات بالعالم العربي
وبمكتبة النهضة المصرية

مَا إِذَا ابْغَضَ زَوْجِي

عن الانجليز
بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدي

وكانت سوزان ابنتنا
الكبرى على المكس من أختها
بليدة ماذجة كأماها ، فكانت
هي وأماها على خير ما يكون
للصديقان تبادلًا للمواطف
وتسلطت امرأتى على ماريانا
وظنت أن من واجبها أن تسهر
على مراقبتها مراقبة دقيقة .

وما بلغت الفتاة الثامنة عشرة من سننها حتى أصبحت
جذابة اللامع فتاة ، وكانت دأمة التحدث من
الذهاب إلى المدينة والسعي للحصول على عمل
في المسرح ، وكان طبيعياً أن ترفض أمها
كل فكرة من هذا القبيل ، فقد كانت تعتقد اعتقاداً
راسخاً أن الفتاة إذا دهنت وجهها وشفتيها بالأصباغ
فقد انحدرت في طريق الفساد ، ولم يكن في مقدور
أية قوة أن تنزع من رأس امرأتى هذه الآراء
العتيقة التي تدل على ضيق العقل

كان من أثر هذه الحالة أن نشأت بينى وبين
ماريانا رابطة غريبة ، فقد ذكرتنى على وجه ما
بأخت لى أصغر منى سنًا ، هزبت منذ سنوات
لتلتحق بفرقة من الراقصات . فقد كان لماريانا مثل
طبيبة أختى القلقه ومثل لطفها على العمل وراء
أنوار السارح

على أن ابنتى كانت فتاة مستقيمة الخلق وكانت
مراقبة أمها لها أمراً مضيقاً لا تدعو إليه حاجة ، وكان
في البلدة الصغيرة التي نعيش فيها من بلاد الولايات
المتحدة مصانع كبيرة للصفيح ، فكانت امرأتى
تلج على ماريانا في أن تسي إلى عمل في أحد هذه
المصانع ، ولكن ماريانا لم تخلق لتعيش عيشة العزلة
في المصانع ، وإنما كانت لها في الحياة وجهات أخرى .

« كان مستعداً لأن يضحي بحياته ليحول دون
زواج هذا الرجل من ابنته المحبوبة ، ولكن هذا
الزواج قد وقع فإذا يستطيع الآن أن يفعل ؟ »

كنت طوال حياتى الزوجية على ما أذكر زوجاً
لين الجانب مطيعاً لامراته ، وكانت زوجى امرأة
طيبة القلب ولكن من النوع المتصلب المتحكم ،
فكانت دائماً تستسلم لعوامل الغضب والثورة ،
وكنت أتركها في استسلامها إلى أن تهدأ نفسها
وإذا أحسست بأن غريزة الغضب والثورة ستتحرك
في نفسى رثيت لحال امرأتى وكبحت جماح هذه
الغريزة . كنت أذكر أنها لم تألف غير العمل للشاق
منذ طفولتها ، إذ كانت نشأتها في مزرعة لا تؤلف
فيها الحياة الناعمة . ولم يكن أى اعتراض من جانبي
على النمط الذى تجرى عليه شؤوننا البيتية ليؤدى
إلا إلى زيادة متاعب كل فرد من أفراد البيت

على أننى — مع ذلك — كنت أستنكر أسلوبها
في معاملة ابنتنا الصغرى ماريانا ، وماريانا فتاة صغيرة
جميلة قوية الحيوية ، وقد خيل إلى على صورة ما أن
أماها تتأذى من ملاحظها الجميلة ، لأننى لم أجد تعليلاً
آخر للأسلوب السيئ الذى كانت تعامل الأم به
ابنتها ...

و كنت كلما أحضرت جريدة المساء إلى البيت استعارت ابنتي مني قلم الحبر و كتبت في أثناء الليل عدة خطابات نجيب فيها على ما تقرأه من الاعلانات من الوظائف الخالية ، وكانت تدس هذه الخطابات في جيبى دون أن تشمرأها بشيء ، لأضعها بنفسى في صندوق البريد في الصباح .

وكان انتصار سوزان لأمرها وعطاني على ماريانا منشأ نزاع صامت مشؤوم بين أفراد العائلة . ولم يكن يسمح لأحد من الشبان بدخول البيت لزيارة الفتاة . وقد عارضت في ذلك وبخاصة منذ أصبحت ماريانا تلك الفتاة اللطيفة الراحبة في حياة المجتمع . ولكن ماريانا لم تلبث ذات مساء أن أراحت بالى من هذه الناحية . فقد طوقتني بساعديها ضاحكة وقالت : إن أمها تجهد نفسها في منع شبان البلدة من غشيان دارنا ، ولكن ماريانا كانت تتطلع إلى شاب من طراز كلارك جابل أو وليام باول ، ومن الصعب جداً أن يوجد هذا الطراز بين شبان البلدة ، فليس في الجهد الذى تبذله الأم من هذه الناحية ما تكثرث له الفتاة في كثير أو قليل . فشاركت ماريانا الضحك ، ولم نستطع إلا أن نتفكه بأمر ذلك للنشاط الذى تبذله الأم عبثاً لطرد الفتيان من طريق ابنتنا .

ومن حسن الحظ أننى كنت أتنيب أكثر النهار عن البيت فقد كنت أملك « جراجا » ومحطة بترين صغيرة على الطريق الرئيسى ، فكنت إذا عدت مساء إلى البيت متعباً قرأت جريدة المساء ، وقطعت فترة من الوقت في لعب (الداما) مع ماريانا أو أصغيت إلى الراديو .

و كانت ماريانا ترجونى دائماً أن أحضر لها عند عودتى إلى البيت بعض المجلات السينمائية ، فكنت أبتاع لها ما أجده عند بائع الصحف الذى أمر به في طريقى وأدس لها ما أحضرت تحت صحيفة المساء ، وكانت هى بدورها تحمل هذه المجلات سرراً إلى غرفتها حيث تقرأها بعيداً عن أعين الرقباء ، ولو أن امرأتى عرفت مرة أننى أنا الذى أحضر هذه المجلات بنفسى لجلعت حياتى عذاباً لا يطاق ، فلقد كانت تصر دائماً على القول بأن المجلات السخيفة التى تمر عليها أحياناً في غرفة الفتاة هى التى قلبت رأسها . على أننى كنت أعمل كل ما أستطيع لأرفه حياة ماريانا ولكن مهمتى لم تكن سهلة في هذا الجو المداوى الذى كانت تخلقه أمها وأختها .

وفي ذات مساء تالقننى ماريانا عند عودتى مبتهجة طروباً وأخبرتني أنها تسلمت رداً على أحد خطاباتنا التى أجابت فيها على بعض الاعلانات عن الوظائف الخالية ، وفي هذا الرد يمرض عليها معهد للتصوير الفوتوغرافى في المدينة عملاً تتقاضى عليه أجراً ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه في الأسبوع ، على أن تتقدم قبل ذلك إلى إدارة المعهد لاثبات كفايتها للنهوض بهذا العمل . وقد هيأتى عند ما شمت أقوال ماريانا وشهدت ابتهاجها أن روح الفتاة محلقة في السماء العليا ، وعلى الرغم من أننى كنت متعباً في تلك الليلة ، اعتربت أن أقف وقفة شديدة مدافماً عن ماريانا إذا عارضت أمها في قبولها هذا المركز ، لقد كنت أتطلع إلى مستقبل لماريانا خير من هذا ، وكان في مقدورى أن أفهم لماذا كانت ترغب في منادرة البيت والذهاب إلى المدينة .

وبالفعل عارضت امرأتى فى قبول ماريانا المركز المروض عليها ، ونشبت بيننا مشادة عنيفة بعد العشاء ، ولكننى ذكرت المرأة الطيبة بأنها كانت تلح على ماريانا فى أن تسمى إلى عمل فى أحد مصانع الصفيح حيث لا يزيد أعلى أجر للعامل غير المدرب على جنهين فى الأسبوع ، إذن لماذا تمارض فى أن تتولى الفتاة عملاً محترماً تتقاضى عليه ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه فى الأسبوع ؟ فأصابته هذه الملاحظة الهدف الذى رمت إليه ، وبعد كثير من المناقشة رجحت ماريانا المركة ، ولقد ارتفعت لذلك ارتياحاً شديداً لأننى لم أكن أتوقع أى مستقبل حسن للفتاة إذا هى بقيت حبيسة فى بلدتنا الموراء

وكانت لى ابنة عم أرملة مجوز تسكن المدينة فانفقت معها على أن تقيم ماريانا عندها فلا تحضر إلى البلدة إلا فى نهايات الأسابيع

لم تحب ابنة عمى « نيل » امرأتى قط ، وكانت تقول عنها إنها ضيقة العقل بليدة . لذلك ساء امرأتى ألا تكون العلاقة بينها وبين « نيل » حسنة ، وألا تستطيع أن تعرف ما تعمله ماريانا فى أثناء الليل فى المدينة الواسعة الأرجاء . ولكننى كنت مراقباً كل شئ امرتاحاً إلى التقارير التى تيجئنى من ابنة عمى وكأما تدل على أن ماريانا سعيدة بحياتها الجديدة وأن لا شائبة على الإطلاق فى سلوكها

وحضرت ماريانا ذات مساء على عادتها فى نهاية كل أسبوع ، وأخبرتنا أنها ستصحب معها يوم الأحد المقبل ، صديقاً اسمه روى تردواى للغداء معنا . ومن سوء الحظ أن الفتاة أعلنت هذا الخبر فى لحظة غير ملائمة . فقد حدث بعد الظهر أن أمها كانت تخرج

وعاء من الفرن فحرقته ساعدها ، فكانت حالتها النفسية فى هذه اللحظة أسوأ ما تكون

فما سمعت الخبر حتى هاجت وصاحت فى غضب قائلة : إنه لا يجوز لماريانا أن تخالط شبان المدينة ، وأنها لا تسمح لها بأن تحضر أحداً منهم إلى البيت . وكنت أود أن أتصر لماريانا لولا أن لاحظت أن أمها كانت فى حكم المريضة ، فاعتزمت أن أرجى انتصارى لها إلى فرصة أنسب من الفرصة الحاضرة . والشئ الذى لا يستطيع الإنسان فهمه حقاً هو أن تمارض امرأتى فى مقابلة الشبان الذين تعجب بهم ماريانا . فلقد كنت أنا راغباً أشد الرغبة فى مقابلتهم والتحدث معهم ، فن الطبيعى أن فتاة لها جمال ماريانا لا بد أن تكون موضع إعجاب كثيرين من شبان المدينة . ولما كانت الفتاة قوية الإرادة متصلة فإن أسلوب والفتى فى معاملتها قد يضطرها إلى سلوك الطريق الخطأ فى التمتع بمباهج الحياة ، وهذا هو الذى كنت أخشاه ، وكنت دائم القلق من ناحيته على أننى لزممت الصمت فى تلك الليلة عندما أمرت امرأتى ماريانا بالألا تصاحب هؤلاء المفاسرين من شبان المدينة ، وقد خيل إلى أن مثل هذا الأمر يكفى لمنع ماريانا من عمل ما تريد

وبعد بضعة ليال من ذلك الحديث أصبت بمحادث أزعجنى ، فقد بقيت فى عمل بمحطة البنزين إلى ما بعد الوقت الذى كنت أأنهى فيه من العمل عادة ، وما أطفأت الأنوار وشرعت أوصد الباب حتى وصلت إحدى السيارات فى طلب البنزين ، وبينما أنا أفرغ البنزين فى خزان المربة أقبلت سيارة صغيرة خضراء من النوع المكشوف ووقفت بجانب السيارة الأولى ،

وخرج منها شاب من الأشقياء فاندفع نحو عميلي مهدداً وأمره بأن يمطيه حافظة تقوده ، فأطاع العميل الأمر ظناً منه أن الشقي يحمل مسدساً ، ولكنني حين تلفت أستطلع الأمر تبين أن الشيء الذي يحمله الشقي في يده لم يكن مسدساً كما أراد أن يوم ولكنه مفتاح انجليزي ، واستطعت كذلك أن أتبين وجهه على ضوء مصباح الطريق ، فأسرعت بالهجوم عليه ولكن كان الهجوم متأخراً ، فقد ضربني على صدغي ضربة شديدة أفقدتني توازني فسقطت مترنحاً ، واندفع الجاني واثباً إلى سيارته الخضراء ؛ ولما نهضت من سقطتي وجدت عميلي قد سلم الشقي محفظته وفيها مائة من الجنيهات

وكان طبيعياً أن أغضب وأنضيق مما حدث لأنه وقع أمام متجري ، ولكن العميل الذي ظهر أنه رجل ظريف هداً من غضبي وقال إنه لا ذنب لي فيها حدث ، وكان الرجل تاجراً يمر بهذه الطريق مرة واحدة كل ثلاثة أشهر ولكنني لم أراه قط قبل ذلك المساء ، وتكلمنا كلاماً بالتلفون من الجراج فأبلغنا البوليس خبر السرقة

وقال عميلي إنه رأى جيداً وجه الشقي وإنه يستطيع أن يعرف ذلك الأنف الدقيق اللدب في أية ناحية من نواحي المالم

ولقد ضحكت عندما سمعت ذلك لأنني قد اشتغلت أيام شبابي بأعمال البوليس السري لحساب إحدى الوكالات في شيكاغو ، وكان أعظم ميزاني عندها قدرتي على تذكر الوجوه وتعرفها ، فقلت لعميلي إنني أنا أيضاً موهوب من هذه الناحية ، وإنني رأيت وجه الشقي وسأعرفه إذا ساعدني الحظ بمقابلته مرة أخرى ،

وبعد هذه الحادثة القصيرة انصرف العميل ولم يكن بد من أن أدعو أحد الأطباء ليضمده لي مكان الإصابة ، ولكي لا أزعج امرأتي وسوزان عند عودتي إلى المنزل معصوب الرأس ، أخبرتني أنني أصبت نفسي بالهاتر الحديدي لأحدى المجلات في أثناء نزحي له ، وقد قبلنا مني هذا الكلام ، على أنني تأملت ألماً شديدة من أثر الضربة وشمرت بالهدوء. ولما كان اليوم نهاية الأسبوع فقد فضلت عدم الذهاب إلى العمل والالتزام الراحة ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ماريانا في المساء ، وكنت أنشوق إلى رؤيتها فقد شمرت بوحشة لنيابها ، وكان كل شيء ثقيلًا مملًا في غير وجودها

ولكنني عندما قابلت ماريانا في محطة سكة الحديد لاحظت تغيراً في خلقها ، فلم تكن على عادتها ، فقد ألقت منها أن تجيئني في حماسة وألا ينقطع حديثها في الطريق بما كانت تعمله طوال الأسبوع في المدينة أما في هذا اليوم فقد وجدتني صامتة صمتاً بيم عن مأساة خفية فاضطربت لذلك نفسي ، على أنها لم تلبث آخر الأمر أن أفضت إلي بأن لديها أمراً تريد أن تحدثني به ، وأعقبت ذلك بقولها إنها تحت تأثير حال عصبية قد تزوجت من روى تريد أوى أسس ذلك اليوم فقط

وغنى عن البيان أن هذا الخبر قد أزججني فقد وقع ما خشيت أن يقع نتيجة لتصلب أمها ، فقد أدى هذا للتصلب بماريانا إلى أن تتولى أمرها بنفسها فنذ أسبوع واحد كانت ماريانا ترجو أن يسمح لها باسطحاب روى تريد أوى إلى البيت ، فعارضت أمها في ذلك ، فهل أخطأت التصرف بصفتي والها ؟

أكان يجب على الرغم من مرض امرأتى أن أناصر ماريانا وأمر على وجوب استصحابها الفتى الذى اختارته معها إلى البيت؟ الحق أننى اضطربت وشمرت بالنماسة وتحيرت فيما أقوله لابتى رداً على هذا النبأ الذى فاجأتنى به

وسألت ماريانا كيف عرفت روى تريدواى فقالت : إنه من أهل انديانا وأنها قابلته فى حفلة كوكتيل وأنها ما كادت تراه حتى عقدت بينهما أواصر الصداقة فى الحال ، وهى واثقة من أنها تحبه حباً شديداً ، على أنها إذا كانت مخطئة فى تقدير عواطفها فإن هناك شيئاً واحداً لا يتطرق إليه للشك ذلك أنه هو مجنون فى حبها وقد طلب منها فى رجاء شديد أن تقبل الزواج منه

وقالت فى وصف حبيبها إنه فتى رشيق عصرى الآراء جميل الملامح جداً ، وإنه سمسار أوراق مالية ناجح فى عمله ، ووكدت لى أننى سأحبه وسأزداد حباً له كلما ازدادت معرفة به ، وقد وعدوها روى بأن يقضيا شهر العسل فى سياحة إلى هاواى . ولولا خوفها الشديد من إبلاغ خبر الزواج إلى أمها لما شابت سعادتها العظيمة شائبة ما . ولقد كانت تتطلع إلى هذه السياحة البحرية تطلع الأطفال إلى النشء المحبوب لأنها لم تركب البحر مرة فى حياتها

لم يكن أمانى حين سمعت هذا الكلام إلا أن أبذل أقصى ما أستطيع من جهد لأوجه الأمور خير وجهة مستطاعة . وبعد المشاء أخذت على عاتق أن أستعين بكل ما فى مقدورى من لباقة وكياسة على نقل خبر زواج ماريانا إلى أمها . وكان من المستحيل ألا تنشب بينى وبينها معركة حامية من جراء ذلك ،

على أننى كنت متأهباً لخوض هذه المعركة . وقد قالت امرأتى إن الغلطة هى غلطتى أنا لأننى أنا الذى سمحت لماريانا بالذهاب إلى المدينة ، وهى هى التى قد تزوجت من رجل لم تره الأسرة قط قبل هذا الزواج . ولكنى لأول مرة طرحت ما كنت أجدأ إليه من مجاملة امرأتى حرصاً على عدم جرح شعورها ، ولتها فى لمحة نادرة عنيفة ملقياً عليها مسؤولية هذا الزواج المفاجئ

ذكرت امرأتى برفضها بحبي روى تريدواى إلى بيتنا عند ما اقترحت ماريانا ذلك ، وذكرتها بالرقابة اللبهاء التى كانت تفرضها باستمرار على الفتاة وقلت لها إن رد الفعل الفجائى الذى ظهرت به ماريانا لم يكن إلا أمراً طبيعياً تحت تأثير هذه الظروف

كانت مفاجأتى امرأتى بهذا الكلام سيئاً فى أن تعود إلى نفسها ، فاعترفت بالفعل بأنها ربما كانت قد أخطأت ، وقد رجونا كلانا فى حرارة أن تكون ماريانا قد وقفت فى اختيارها وأن يكون زواجها سعيداً ، فإن الناية التى كان يرى إليها كل منا هى سعادة ابنته

ولأول مرة تنهت زوجتى إلى أن ماريانا قد أصبحت شابة نامية لا طفلة صغيرة فبدأت تعاملها بشيء من التقدير والاحترام ، وحتى سوزان مالت إلى تغيير أسلوب معاملتها لأختها . وهكذا لم تنته إذاعة خبر زواج ماريانا إلى النتيجة البسيطة التى خشيت أنا وهى أن تنتهى إليها . وتم الاتفاق بيننا جميعاً على أن تحزم العروس حقائبها المدة لرحلة هاواى وتنتظر فى البيت ، وأن يحضر زوجها روى تريدواى ليأخذ الحقائب بنفسه ، وبذلك يتمكن أفراد الأسرة من مقابلته . وكتبت ماريانا إلى روى مؤكدة

له أنه سيقابل مقابلة حارة ، وأخبرته بما تم الاتفاق عليه من قضاء الليل معنا قبل السفر في رحلة شهر المسمل ...

وتكلمت في الوقت نفسه مع ابنة عمي تليفونيا فسألته عما تملحه من أمر روى ولكنها أجابتنى بأنها لم تره قط . وقالت إنه تكلم كثيراً مع ماريانا تليفونيا ، وإنها تعرف أن ماريانا كانت تخرج مع رجل اسمه روى ولكنها لم تفكر قط في أن الأمر بينهما جد ، لذلك كانت دهشتها شديدة عندما أخبرتها بزواج ماريانا ، ولكنها لم تدهش حين أخبرتها كيف كان هذا الزواج مفاجئاً لأنها تذكرت أنها قضت أغلب أيام الأسبوع على شاطئ البحر

وانهمكت ماريانا في تجهيز معدات السفر منتظرة قدوم روى

ومن الطبيعي أننا جميعاً كنا متطلعين إلى رؤية سمسار الأوراق المالية للشاب ، وقد أعدت له امرأتى غداء حسناً ، وكانت ماريانا مبتهجة تهلل بشراً . ولأول مرة لم تمارض الأم في مظاهر ابتهاج ابنتها وإن يكن قد بدا عليها أثر الصدمة التي أصابتهما من عدم إفضاء ابنتها إليها بأمر زواجهما قبل وقوعه

لم يخطر لامرأتى قط على بال أن ماريانا كانت تعلم أن أمها ستعارض في زواجهما من أى إنسان حتى لو جاءت معلنة أنها ستزوج من رئيس الجمهورية ولو أن هذه الأم كانت من النوع العادل الذى يحسن التفاهم لأخبرتها الفتاة بما اعتزمت

تركت ماريانا وأما في عملهما وقصدت إلى مكتب البريد فلما عدت إلى البيت وجدت أن روى تريدواي قد حضر في أثناء غيابي

لما دخلت غرفة الجلوس كان زوى تريدواي

مولياً ظهره نحوى فاستطعت أن أرى رجلاً طويلاً للقامة عريضاً كثافاً ، يلبس رداءً رمادياً ، ضاحكاً كثيراً من الحديث مع ماريانا . وما رأيت ماريانا مقبلاً حتى حينئذ وقالت منشرحة تقدمنى إلى روى الذى التفت ناحيتى :

« هذا أبى ! »

وخيل إلى عند ما وقع نظر الفتى على رأسى المصوب أننى قد رأيت في عينيه نظرة خاصة ، فقد ضاقت فتحتها وبدا فيهما معنى الانزعاج ، وصاغنى الفتى هازاً في شيء من التلقى يدي التى بقيت ممدودة له لحظة قبل أن يراها .

واعتقدت ماريانا أن سلوك زوجها الغريب ليس له من سبب إلا أن رأسى كان لا يزال مصوباً فأمسكت بذراعه في عطف شديد وقالت :

« لقد جرح أبى رأسه إذ صدمه بإطار عجلة إحدى السيارات في الجراج في أثناء نزجه »

فقدم روى بضع كلمات فيها بعض التنالم لهذا الحادث ، وفي طرفة عين بدا لى أن في هيئة الفتى شيئاً غير غريب عنى . فرد الفعل المصعب الذى بدا عليه حين رأى الحركة التى هز بها رأسه لينظر من النافذة كمن يفكر في الحرب ، كل ذلك أحدث شيئاً من التوتر في الغرفة ، ثم تلك الغنة في صوته التى ذكرتني بفتنة الصبيحة التى سمعتها منذ بضع ليال عند ما اقتربت من شاب شق يحمل في يده مفتاحاً إنجليزياً ، أيمكن أن تكون هذه هي الحقيقة ؟ لقد كانت الفكرة حوشية غير قابلة للتصديق ، ولكن عند ما أدار روى تريدواي وجهه إلى الشباك ورأيت صفحة خده ورأيت تلك

الدقن وذلك الأنف الدقيق اللذين رأيتهما لحظة طائرة على الضوء الأحمر ارتجفت ركبتي . لقد كان الشبه بين صورتى الشخصين أخاذاً ، فهل يمكن أن تكون ماريانا بحيلة غريبة من حيل الحظ قد تزوجت من ذلك اللص الشقي الذى سرق للتاجر على باب جراجي ، والذي ضربني تلك الضربة الشريرة بالمفتاح الانجليزي ؟ لقد وقمت في حيرة شديدة !

لم يلاحظ تريدواي أنني شككت في أمره ، فقد كان الوقت الذى وقع فيه الحادث ظلاماً وكان ضوء الطريق الذى رأيت عليه وجهه لحظة سريعة ضوءاً ضئيلاً ، ثم هو لا يعرف شيئاً عن قدرتي على تذكر الوجوه . ولكن كان ظاهراً أن هذه المقابلة المفاجئة في بيتي قد هزت أعصابه ، حتى أنه عند ما نظر من الشباك إلى الخارج وقد دس يديه في جيبه لم يسمع صوت ماريانا إذ كلمته إلا بعد أن كررت ما قالته مرتين ، الأمر الذى دل على أنه كان شديد الانهماك في التفكير . ولم ألبث أن نظرت من النافذة لأرى إذا كان قد حضر في نفس العربة الخضراء المكشوفة التى رأيتها من قبل ، ولكنني وجدت بدلها عربة سوداء مقفلة لا تزال جديدة . فمن الجائز أن أكون قد أخطأت في ظنوني . ومن المحتمل أن يكون الشبه بين الشخصين شديداً جداً ولكنهما ليسا برجل واحد

ولكن لماذا سلك الرجل ذلك السلوك الغريب منذ رآني ؟ من المحتمل أن يكون ذلك أيضاً من نيات خيالي ، ولقد دعوت الله فعلاً أن أكون قد أخطأت فيما توهمت . على أنه إذا كانت ابنتي قد تزوجت من لص شقي فاني أود أن أعرف ذلك ، وكانت ماريانا قد ذهبت إلى غرفة أخرى لتحضر

غطاء جديداً لمائدة الطعام ، وكانت سوزان قد ذهبت إلى غرفة الجلوس لتتحدث مع تريدواي ، ودخلت أنا مصادفة إلى الغرفة التى كانت فيها ماريانا ورأيتها مشغولة في عد الفوط

وما رأي ابنتي حتى سألتني وفي عينيها وميض الحب ؟

— كيف وجدته يا أبي ؟

وكانت وهي تاتي هذا السؤال صورة مجمعة من صور السعادة ، وكان من المستحيل أن تحلم بالأفكار الفظيعة التى كانت تملأ رأسي في تلك اللحظة ، ولا بالخوف المزعج الذى استولى على نفسي وكان صوتي أجوف كأنه آت من أميال بعيدة عند ما أجبتها :

— أظنه شاباً ظريفاً

فاسمعت مني هذه الكلمات حتى طوقتني بساعديها وقبلتني ، وكنت لا أزال أدعو الله أن أكون قد أخطأت في تصوراتي ، وقلت وقد نظرت من النافذة — إن عربة زوجك هذه الصغيرة جميلة

فقلت ماريانا :

— أليست غاية في الجمال حقاً يا أبي ؟ لقد ابتاعها روى أمس ليجمع منها مفاجأة سارة لي فقد تحطمت سيارته الخضراء المكشوفة !

لقد كانت هذه الكلمات الثلاث : « سيارته الخضراء المكشوفة » كافية ؛ لقد قاومت في عنف صدمة الشلل الذى كان خليفاً أن يصيبني عند سماع هذه الكلمات ، وقد اقتنمت الآن اقتناعاً لا سبيل إلى التشكك فيه ، بأن تريدواي واللص الشقي ليسا إلا شخصاً واحداً

فإذا أنا فاعل ؟ أأحطم حلم سعادة ابنتي بأن

وسال منه الدم ، ولكن الصداق لم يكن من الجرح
إنما كان من التفكير ، وما كان لي أن أنام في غرفتي
متألماً

وكما سمعت صوت أسرتي وهم يتحدثون على
المائدة ازداد اضطرابي وساءلت نفسي : أم يطعمون
الآن مع لص شقي ؟ وقد سمعت أكثر من مرة
ضحكة تريدواي المصيبة وهي تخرق الجو واصلة إلى
أذني تذكرني بتلك الصبيحة المزيجية وتلك الضحكة
التهكمية اللتين سمعتهما ليلة ضربني بالمفتاح الانجليزي
على صدغي قبل أن يهرب بسرقة ، ولم ألبث أن
ركزت في رأسي ما حدث ليلة السرقة ، وهنا ظهر
لي واضحاً شخص تريدواي وبخاصة أنه كان يملك
عربة خضراء . صحيح أن هناك سيارات خضراء
كثيرة ولكن كل هذه الاتفاقات بين الشخصين
لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة

وبعد الغداء حضرت ماريانا إلى غرفتي
مستفسرة عن حالي وأخبرتني أنها ساعدة إلى غرفتها
حيث تلحق بها سوزان لمساعدتها في إعداد حقائبها
فكرت أن روي سيكون وحده في غرفة الجلوس
إذ لا بد أن تشتغل امرأتى بفصل أدوات الطعام في
المطبخ ، إذن جاءت للفرصة . فقلت لماريانا : إنني
أشمر بتحسين في حالي وإنني لذلك سألحق بزوجها
فأحدث معه بعض الوقت . فطلبت مني وهي ضاحكة
أن أسرع لألحق به قبل أن ينصرف لأنه كان يقول
إنه سيخرج لابتلاع كمية من السجائر

كان هذا كافياً لتوكيد شكوكي ، فقد كان الفتى
يرسم خطة الهرب ، ولمل تنبيهي عن الغداء معهم
قد أقلق نفسه : إذن لن أتركه يذهب ، وبدل أن
أقصد إلى غرفة الجلوس اندفعت إلى خارج الدار

أبث في رأسها الشك من ناحية ذلك الرجل ؟ لقد
أصبح الرجل زوجها وانتهى الأمر ، وإذا ظهر
فيها بعد أني مخطئ في ظنوني فهل يمكن أن تنفرد لي
يوماً ما أقوله لها الآن ؟ اضطرب تفكيري وأنا أحاول
حل هذا الاشكال ولكنني فضلت أن ألتجأ كعادتي
إلى الصبر وأن أتحمك في وقتي فلا أتسرع

وكان من المستحيل عليّ وقد اضطرب شعوري
هذا الاضطراب أن أجلس معهم على مائدة الغداء ،
فأخبرت ماريانا أنني أشمر بشيء من الصداق لكثرة
حركتي منذ وقع لي حادث الإصابة ، وأنني سأوى
إلى غرفتي طلباً للراحة ، وأقنعتها بأنني لن أصالح
لجالسهم وأنا أشمر بذلك الألم . وأنني على كل حال
لن أستطيع أن أطعم بنير فنجان من عصير الطماطم
ووعدها بأنني إذا تحسنت حالي بعد الطعام فسألحق
بهم وأؤكد معرفتي بزوجها . فقبلت ماريانا عذري
كما قبله الآخرون ، وانصرفت إلى غرفتي لأفكر
فيها أفمل

إذا لم أكن مخطئاً في أمر هذا الرجل فيجب
أن أسرع في العمل ، وليس يحتاج الأمر لأكثر
من أن أبلغ البوليس خبره فيقبض عليه وفي الوقت
نفسه يفسخ زواج ماريانا

ولكن للفضيحة التي تنشأ من ذلك التصرف
ثم لنفرض أنني كنت مخطئاً في ظني ألا يجوز أن
يقبض عليّ بتهمة البلاغ للكاذب ، وبأنني تسببت
في القبض على رجل بري وبغير ذلك من التهم ؟
إذن يجب الاحتراس والحذر . ولو أنني استطعت
أن أخلو بالرجل بضع لحظات لأمكنني أن أستقر
على خير الطريق التي يجب أن أتبعها في أمره ،
لقد كان رأسي مصدعاً حقاً كما لو كان الجرح قد فتح

ينظر إلى ولكنه جلس عابساً كأنه يتحداني أن
أستمر في حديثي ، ولم يكن ممثلاً بارعاً فأى
إنسان غيري كان يستطيع أن يفضح أمره من
موقفه ، وقد شجنى ما رأيته منه على أن أواجهه
بهذه الكلمات :

— ولقد كنت أنت أيها الشاب حاضراً
للسرقة ، وتعرف كل ما يتصل بأمرها
فوثب الفتى واقفاً صارخاً صرخة شريرة مزعجة
شبيهة بالصرخة التي شهدتها ليلة الحادث ، والتوت
شفته العليا للتواء الشرف فكانت أشبه بشفة حيوان
يموى . ولقد أدرك أنه فضح نفسه بتصرفه فلم يبق
هناك قائدة في الإنكار

وشعرت عندما ألقى على نظرة خاطفة أنني
قد أصبت بجنون فظيع وخيل إلى أنني سأثب عليه
فأخنقه حتى أقضي عليه انتقاماً أولاً من الجرح الذي
أصابني به ، وفوق ذلك تهوره في الزواج من ابنتي
الصغيرة . ولكنني بمجهود فوق القدرة البشرية
ملكيت عواطفى ، فلما لاحظت الفتى هدوئى وتبين أنني
لن ألبأ لشيء من العنف زال عنه هو أيضاً المظهر
الشرير الذي بدا عليه عندما سألنى في صوت مضطرب :
ماذا اغترمت أن أفعل

فقلت له : إن أسهل الطرق أسمى هي أن أبلغ
البوليس خبره . وهنا شهدت في غرفة الجلوس منظرأ
غريباً ، فتريدواى اللص الوحشى انقلب حملاً وديماً
يتوسل إلى كما يفعل الطفل الصغير ، فقل إنه هو
أيضاً يحب ماريانا وإنه يجب أن نفكر في أمرها ،
فلقد أراد أن يسعدها ، فقد أحبا حباً لم يشمر بمثله
من قبل لآى مخلوق ، وإنه كان خالياً من العمل الثابت
وكان مصدر رزقه المراهنة على الخيل ، وكانت ماريانا

آملاً أن يكون قد ترك مفاتيح السيارة فيها ، ولقد
كان من حسن الحظ أن تحقق رجائى ، فلم أتردد
في أخذ المفاتيح ودسها في جيبى ثم دخلت إلى غرفة
الجلوس . وكان تريدواى عند دخولى على أهبة أخذ
قبضته المعلقة على الشجيب . فسألته كأنى لا أعلم شيئاً
عن عزمه :

— أخرج أنت ؟
فلم يرفع قط نظره إلى وهو يجيب على سؤالى
مدمداً بضع كلمات تفيد أنه ذاهب ليلتاع علبة
سجائر . فقلت له :

— إنك تستطيع أن تخاطب مخزن السجائر
تليفونيا فيرسل لك ما تريد
وأظن أنني تبذرت رعشة عصبية في صوته عند
ما أجابنى بأن ذهابه شخصياً قد يكون أسرع من
الكلام بالتليفون . فقلت متطوعاً :

— إذن سأذهب معك
وكانت اللبحة اللطيفة التي نطقت بها هذه
الكلمات كانت صاعقة قد انقضت عليه ، فبدل أن
يخبرنى بأنه يسره أن أحبه تردد واضطرب ، وعقد
لسانه فلم يتكلم . وعندئذ توكدت أنه هو نفسه
الرص الذي ضربنى ، فقلت آمراً :

— إجلس ولا تسرع
فجلس واضماً قبضته على ركبته بينما أصابه تيبث
بها في حال عصبية ، فقلت له في غير موارد :

— إنك تعلم أن هذه الإصابة التي في رأسى
ليست من إطار حجلة ، ولكننى لم أرد أن أزعج أسرئى
فاخترعت هذا السبب ، والواقع أنني أصبت بضربة
من مفتاح أنجليزى

وهنا بدأ الفتى يتحرك حركات عصبية ، ولم

تعتقد أنه سمسار أوراق مالية

وبعد أيام من خطبته ابنتي اعتزم في أن يجتهد في ربح مبالغ كبيرة من المال فوضع كل ما عنده من النقود على جواد كان من المؤكد أنه سيربح ولكن الجواد خسر وبذلك أفلس الفتى واستولى عليه اليأس وكره أن يخبر ماريانا بأنه خالي الوفاض وتحير فيها يفعل ، وكان جالساً في أحد المقاهي بطعم بمض الزاد إذ دخل رجل لا يعرفه وجلس على المائدة المجاورة له

ويقول تريدواي إنه رأي الرجل وهو يدفع الحساب للخادم قد أخرج رزمة كبيرة من الأوراق المالية ثم عاد فدفسها في حافظة نقوده ، فقرر الفتى أن يتبعه دون أن يرسم في رأسه خطة معينة

وكان تريدواي ، على ما وري ، قد استولى عليه اليأس لحاجته الشديدة إلى المال بعد الخسارة التي حلت به ، فتبعته سيارته الخضراء سيارته الرجل الآخر لمسافة عدة أميال ، ولم يدفعه إلى هذه الملاحقة الجنونية السخيفة غير عامل اليأس وحده ، ولم يكن يدرى كيف يستطيع أن يتزح حافظة النقود من صاحبها ولم يكن كذلك مسلحاً . وكان عقله يعود إليه ما بين لحظة وأخرى فقرر أن يرجع عن هذه المطاردة . ولكنه حين رأى السيارة الأخرى تغيب عن عينيه دفنته الحاجة الملحة من جديد إلى استئصال اندفاعه الأحمق ، على أنه لم يلبث أن انتهى آخر الأمر إلى الاقتناع بأنه مقدم على مغامرة شديدة الخطر ، فعدل عن مواصلة المطاردة ووقف لبيتاع علبه من السجائر ويشرب شيئاً خفيفاً

ولما رأى أن السيارة التي كان يلاحقها قد غابت في الأفق تهدت تهدد الارتفاع ، وزال من نفسه في

تلك اللحظة عامل الاغراء الجنوني . ولكنه حين استأنف السير في الطريق الرئيسي غير قاصد إلى مكان معين رأى من جديد السيارة التي كان يلاحقها وقد وقفت أمام جراجي

هنا استولى عليه عامل الاغراء مرة أخرى ، ورأى أن الفرصة قد هيأت له نفسها ، وكان الطريق خالياً ، وقد اعتقد أن سبب وقوف السيارة خلل أصاب إحدى عجلاتها ، ولم يخطر له أنه كان يتزود بحاجته من البنزين ، ولما كنت على وشك إغلاق المحل عند وصول عميلي فقد أطفأت جميع الأنوار ، ولما كنت أعرف موضع خزان البنزين في السيارة ، فقد كنت أفرغ فيه البنزين في الظلام ولذلك لم يرني تريدواي عند ما هاجم العميل وإلا فانه لو علم أنه هناك شخصاً آخر لما أقدم على مجازفته الخطرة . وهذا هو الذي يفسر الرعب الذي فاجأه عند ما رآني مقبلاً عليه على غير انتظار ، وهذا هو السر أيضاً في أنه عاجزاً بشك الضربة للقاسية عن غير عمد لأنه كان يفكر في الهرب أسرع ما يستطيع . هذه هي قصة الفتى في تفاصيلها رواها لي في بساطة وإخلاص

وطيبي أنني قد تبينت أن الرجل الذي أمانى ليس باللعن اليائس ولكنه شاب أحمق أغرته الظروف بالأمم ، وقد استطاع أن يقنعني في أثناء سرد قصته بأن مركز اليأس الذي وجد فيه نفسه لم يكن له من سبب إلا أنه لم يرد أن يحزن ماريانا التي كان قد وعدها بأن يقابلها في اليوم التالي بدار البلدية لمقد زواجهما . استعرضت كل ما حدثني به الفتى ورأيت أن الأمر يتصل بابنتي وماترنو إليه من سمادة المستقبل فلت إلى التسامح والمعطف

على أنني وجدتني قد وقعت في الحيرة وقد

وأن هذه الناحية الخيرية لا تلبث أن تظهر إذا عرف الإنسان طريق الوصول إليها ، وأن فتاة طيبة مثل ماريانا تستطيع أن تحمل زوجها على أن يسلك سبيل الاستقامة فلا يحيد عنها .

وتحت تأثير هذه العواطف تقدمت الفتى باقتراح ملخصه أننى ، وكل يوم يمر تتقدم بى السن خطوة إلى الشيخوخة ، يحسن أن أستمع بمساعدة لى فى الجراج ، فليكن هو مساعدى ، وإذا برهن على كفايته للعمل اتخذته شريكا ، وفى يوم ما يصبح الجراج ملكا له ، وعرضت أن أقرضه مائة جنيه لقضاء رحلة شهر العسل إلى هاافانا إذا وعد بالاستقامة وبقبول العمل مئى فى الجراج ، فما سمع الفتى هذا الاقتراح حتى غمر السرور نفسه . وإننى بتهيئة هذه الفرصة له إنما أبرهن على أننى أميز بين الرجال ، واتفقنا على نسيان أمر السرقة فلا يذكرها أحدهما بعد الآن وتصافحنا على هذا العهد .

أحسست كأننى ساصرى طبيب القلب وشعرت بعد أن أتممت هذا الاتفاق بالهزة التى يشعر بها المصلح الذى ينقذ الأرواح من الآثم . وبدأ لى أن ما فعلته هو أحكم ما يمكن أن يعمل . فأننى عند ما فكرت لأول مرة أن هذا الفتى لص يجب أن أرسل به إلى السجن أرشدنى التفكير التزن إلى أننى لن أجنى شيئا من وراء ذلك ، ولكن ستكون نتيجة سلوك هذه السبيل جلب الحزن والشقاء لابنتى . كذلك فكرت فى حالة امرأتى للشاذة وفى طبيعة سوزان وفيما أعرفه من كبرياء ماريانا فأدركت أن الفتاة لن تعيش إذا صنعت لأمتها وأختها فرصة تذكيها بالزيجة الفاسدة التى عقدتها من وراء ظهرهما ،

واجهتنى مشكلة صعبة الحل ، فقد ألقى الفتى بأمره بين يدى ، وأصبحت سعادة الفتاة التى نجحنا نحن الاثنين معلقة على الخطوة التى سأخطوها بعد ذلك لقد كانت عقيدتى فى الطبيعة البشرية ثابتة دائما لذلك اعتزمت أن أعالج الأمر كله بنفسى ، فقلت لتريدواى إنه يجب عليه أول كل شيء أن يسلمنى الحافظة التى اغتصبها من الناجر حتى إذا عاد الرجل إلى أعدتها له وقلت إن اللص قد شعر بتأنيب ضميره فأرسلها إلى فى البريد دون أن يذكر اسمه

فلم يتردد تريدواى فى تسليمى الحافظة قائلا : إنه أنفق مما فيها أربعة جنيهات ، فوعده بأن أعوضها من مالى ، ثم قال الفتى فى لهجة الحزين المتألم إنه الآن لا يملك المال الذى يمينه على اصطحاب ماريانا إلى هاافانا فى رحلة شهر العسل وهى الرحلة التى تتطلع إليها الفتاة فى لهفة وشوق .

فسألته : ولكن ماذا بعد هاافانا ؟ وكيف اعتزم أن يعيش إذا ما انتهت رحلة شهر العسل ؟ فأجاب فى استخفاف بأنه يستطيع دائما أن يحصل على رزقه من طريق المراهنة على الخيل ، وليس من شك فى أنه حين يصل إلى هاافانا سيلعب على السباق فى حذر واحتياط وسيجنى بذلك بعض المال .

ولكن لم أحجب ذلك فليست هذه هى الحياة التى تناسب ابنتى الصغيرة ، ورأيت أنه لا بد من عمل شيء ما . لقد ظهر على الفتى أنه جاد فى قوله وأنه قد تاب من ذنبه الذى دفعه لليأس إلى ارتكابه ، وكان ذلك واضحاً فى حديثه وسلوكه المتواضع . وظننت أننى إذا هيات له فرصة حقيقية للعمل المفيد ، فقد يصبح رجلا صالحاً فى الحياة ، وإننى أعتقد اعتقاداً ثابتاً أن هناك بعض الخير حتى فى نفوس شر الرجال

لذلك لم أتردد في حل الاشكال الذى واجهنى على الصورة التى حللته بها

وبعد لحظات من هذا الاتفاق كنت أنا وروى نشرب ممّا كأسين من الجمعة وقد ساد نفسينا روح الصداقة المتبادلة ، فلما دخلت ماريانا علينا للفرقة خبرتها بأن روى سيعمل معنا في الجراج بعد عودتهما من رحلة شهر المسمل ، فأمن روى على كلامى منتبهاً ، ولم تعارض ابنتى في هذا الاتفاق ومن حسن الحظ أن روى كان قد أخبر ماريانا قبل يومين أنه اختلف مع أصحاب بيت الأوراق المالية الذى يعمل فيه وأنه فقد مركزه في ذلك البيت ، أخبرها بذلك ليعدها بقبول اشتغاله بعد عودتهما من الرحلة بالمرأنة على الخيل ، ولم تخبرنا ماريانا بهذا الخبر لأنها خشيت أن تمرض أمها على إنفاقهما المال في رحلة بحرية في الوقت الذى أصبح فيه زوجها عاطلاً من العمل

على أن ماريانا — على كل حال — لم تهتم بفقدان زوجها عمله في ذلك البيت السالى ولم تقم لذلك الحادث كبير وزن ، لأنها كانت شديدة الثقة بروى وبقدرته على أن يجد لنفسه عملاً جديداً على أثر عودتهما من الرحلة . فلما عرضت عليها الاتفاق الذى تم بينى وبينه قبلت ذلك بارتياح ولكنها اشترطت شرطاً واحداً هو أن تقيم هى وزوجها في بيت خاص بهما

صرت بعد ذلك بضعة أسابيع مرآ سريماً ، لم أقسم في أثناءها من ماريانا غير تذكرة بريد واحدة وخطاب مكتوب على مجل ، علمت منهما أنها كانت مسرورة من رحلتها إلى هافانا وأنها تقضى فيها على ما يظهر أياماً طيبة ، ولم تقل عن زوجها إلا القليل

جداً إذ قالت إنه في صحة جيدة وإنه يرسل تحياته واحتراماته للأسرة

وعاد للمروسان إلى البيت مساء أحد أيام السبت ، وإذا كانت ماريانا قد نعمت بأيام طيبة كما قالت في خطابها فإن نظراتها تكذبان هذا القول ، فقد ظهرت تحت المينين دائرتان سوداوان ، وبدأ عليها كأنها كانت تعاني آلاماً نفسية شديدة . وقد تصنعت السرور والانشراح فخدعت مظاهرها أمها وأختها ولكنها لم تخدعنى مطلقاً وقد أدركت أنها تخفى في نفسها أمراً لا تبوح به على أننى لم أحاول أن أسألها شيئاً .

وتأخر روى في النوم صباح الأحد وانفردت بماريانا على مائدة الفطور إذ كانت سوزان وأمها قد ذهبتا إلى الكنيسة ، ولم تتكلم ماريانا كثيراً في أثناء الطعام ، ثم تناولت جريدة يوم الأحد وبدأت أنظر إلى محتوياتها

وعلى حين فجأة سألتنى ماريانا هذا السؤال :
— أظن يا أبى أن الرجل الذى ينش في لعب الورق بعد لصا ؟

أدهشنى هذا السؤال ولكننى أجبت عليه في لهجة قاطمة :

— الرجل الذى ينش في أية لعبة من الألعاب لص ما في ذلك ريب

فلم ترد ابنتى شيئاً على ما قالته ، ولكنها اكتفت بأن تنظر إلى الفضاء نظراً تائهاً ، على أننى أحسست بأننى سأسمع أمراً غير سار ، فسألت ماريانا عرضاً :

— ومن هو الشخص الذى تعرفين أنه ينش في لعب الورق ؟

ولكن ابنتي كانت واثقة من أن زوجها قد غشني بالفعل في الورق ، وكذلك كنت أنا واثقة من ذلك ، وقد اضطربت ماريانا اضطراباً شديداً لذلك الحادث الذي عكر عليها صفاء شهر العسل ، ومن الطبيعي أنني تأذيت من سماع ذلك الخبر لأنه كان مقررأ أن يبدأ روى عمله في الجراج يوم الاثنين المقبل ، فإذا كان الرجل لصاً حقاً فإن الأمر سيكون مشكلاً لم يعض على عمل روى في الجراج غير أسبوعين حتى أدركت أنني قد أخطأت في عدم إرساله به إلى السجن عند ما كشفت أنه لص . فلقده ولدت الفتى لصاً يجري دم الجريمة في عروقه ، فقد وجدته يفس الزيت فيعطى عملائي زيتاً رخيصاً بثمن مرتفع ، كذلك كان يفس في بيع البنزين إذ يتقاضى من العميل ثمن عشرة جالونات ولا يعطيهم غير ثمانية ولكن الضربة الأخيرة كانت عند ما غير عجلة إحدى للسيارات ثم أخفى بعض الأدوات الرئيسية الخاصة بالسيارة ، حتى إذا سار العميل بسيارته قليلاً وكنت قد كشفت السرقة جريت وراءه وصحت به أن يعود لأنه قد نسي بعض أدواته

فنظر الرجل إلى روى نظرة قاسية وقال :
— أظن أنك أخبرتي أيها الشاب أنك قد وضعت جميع أدواتي في مكانها من مؤخر للسيارة فقدم روى بكلمات تفيد أنه قد نسي ، وسار الرجل متبرماً بعد أن شكر لي
أما أنا فكنت واثقة من أن روى كان يقصد مامداً أن يسرق هذه الأدوات . ورأيت أن الأمر قد وصل إلى حد يتطلب أن أتحدث معه ، فأخبرته بأنني قد لاحظت ما كان يفعله ، وقلت له : إنني عشت طوال عمري رجلاً أميناً وإنني معترم أن أسلك

فلم تجب لأول وهلة . ثم أقبلت نحوى فجلست على ساعد الكرسي الذي كنت جالسا عليه وخبرتنى بتجربة محزنة مرت بها . فقد كان روى يلعب الورق مع بعض الرفاق في الباخرة كل مساء وفي ذات ليلة كان واقفاً على ظهر الباخرة مائلاً على الحاجز ينظر إلى الماء وكانت ماريانا جالسة على أحد للكراسي فوقف إلى جانبها سيدتان لا تعرفان أن روى زوجها وجري بينهما الحديث ، فقالت إحدهما وهي تشير إلى روى :

— أترين هذا الرجل الواقف هناك المرتدى ملابس النيل الأبيض ؟ لقد قال زوجي إنهم طردوه الليلة الفائتة من على منضدة اللعب لأنهم ضبطوه وهو يفس

فعلت حمرة الخجل وجه ماريانا عند ما سمعت ذلك الحديث وشعرت بأنها قد أهينت وحقرت ، وكان شراً من ذلك أنها وثقت من صدق ما تحدثت به السيدتان ، لأن روى عاد في الليلة التي ذكرتاها إلى غرفتهما مبكراً على غير عادته ، وبدأ يحرق عدداً كبيراً من أوراق اللعب على شمة مشملة ، فلما سأله عن السبب فيما يفعل أجاب بأنه لم تعد به من حاجة إلى هذه الأوراق بعد الآن . ولم يقل شيئاً عن طرده من غرفة اللعب

ثم قالت ماريانا :

— فلما سمعت حديث السيدتين أدركت أن روى كان يحرق بعض (الآسات) الزائدة التي كان يدهسها في حزم الورق التي غش فيها

وأخبرت ماريانا زوجها بما سمعت فلم يزد على أن ضحك وقال لها : أن لا تهتم بما سمعت فإن رفاقه في اللعب قد هاجهم أن حظه كان موافياً

مسالك الأمانة إلى نهاية أيام حياتي ، واتهمته بأنه
كان يريد سرقة هذه الأدوات

فهاج للفتى هياجاً شديداً وصاح هازئاً بأمانتي
قائلاً إنها هي السبب في أن أعمالي لم تتقدم تقدماً
كبيراً . وقال أيضاً إنه كره حياته في الجراج وأنه
قد اعتزم العودة إلى المدينة متى توافر له شيء من
المال يستعين به على ذلك . فذكرته بوعده الذي تماقدا
عليه ، وقلت له إنه يستطيع أن يذهب إلى المدينة
إذا أراد ولكنه لا يستطيع أن يأخذ ماريانا معه .
وهنا تجدد هياجه في صورة وحشية شريرة وتحداني
أن أمنع ذهاب ابنتي معه إذا استطعت قائلاً إنها امرأته
وأنه ينصحني بأن أهتم بشؤوني الخاصة ، وترك
المكان في وسط المركبة قاصداً إلى البيت للعشاء

ومن حسن الحظ أنني كنت أعلم مما سمته من
ماريانا عن سوء خلق زوجها في الأسابيع الأخيرة
أنني مستطيع أن أقنعها في سهولة بالألا تذهب معه
إلى المدينة . ولقد علمت منها أنها في الواقع لم تحببه
قط حباً حقيقياً فسررت لذلك سروراً شديداً .

وظهرت لي أنها كانت قد أخذت بمظاهره الجذابة ،
ولما كان المساء لا يمتزج بالزيت فقد أدركت ماريانا
حتى قبل أن تكشف ما كشفت من عدم أمانته ،
أن هناك هوة واسعة تفصل بينهما ، وأنهما ليسا من
فصيلة واحدة . فلقد نشأت ماريانا في بيئة متشددة
ضيقة التفكير ولكنها كانت أمينة شريفة بطبيعتها .
أما روى فكان شاباً عديم الخلق ظهرت قائصه
حتى في الأمور للتواضع كالنش في ورق اللعب . وقد
كان من أثر هذا التفاوت بين الزوجين أن انصرفت

نفس ابنتي عن الرجل الذي ساقته الأقدار إلى طريقها...
وإذ علمت ذلك كله ازدردت غداً مسرعاً وعدت
إلى الجراج حيث تركت روى في هياج شديد ولست
أدري ماذا يمكن أن يفعل

ولما عدت إلى الجراج وجدت أمامه سيارة
عليها لوحة من لوحات ولاية بنسلفانيا ، وتبينت
أنها سيارة للتاجر الذي سرقت حافظة نقوده أمام
عيني ، فسرت لذلك لأنني أستطيع الآن أن أرد
له الحافظة . ولكنني عندما خطوت إلى الداخل رأيت
مشهداً غير عادي في انتظارى ، فقد كان للتاجر
شاهراً مسدسه على روى متحدثاً في الوقت نفسه
تليفونيا مع مركز البوليس . فما أن توسطت الجراج
حتى أمرني الرجل أن أرفع ساعدي وأن أقف إلى
جانب روى . وكانت لهجته قوية ثابتة ، وكان طبيعياً
أن أشعر بأنني قد صممت ، فقلت له إن حافظة نقوده
معي وإنني أريد أن أرد لها إليه

فقال للتاجر في تهجم :

— ليس نعمة ما يدعوك إلى التسرع ، فاني

سأخذها من يد البوليس .

فاعتزمت على هذا الكلام وقلت له : إنه مخطيء
فيما تصوره وإنني مستعد للإيضاح . ولكنه ضحك وقال :

— لقد ضمت من الإيضاحات ما يكفي

لهذا المساء .

فالتفت إلى روى تريدواي ، فرأيت على وجهه
أمارة ارتياح غريبة ورأيت شفته ملتويتين التواء
إجرامياً في ابتسامة صفراء . ولم يقل الشئ كلمة
واحدة في صالحني على الرغم من علمه ببراءتي ، بل

من مشادة قبل ذهاب إلى البيت للغداء . ولكن ما حيلتى وقد وقعت في هذا المأزق الحرج !

وجضر البوليس واعتقلنا نحن الاثنين !

وكان اعتراف روى في مركز البوليس كافياً لاثامى اتهاماً شاملاً بالاشتراك معه في الجريمة اشتراكاً تاماً ، فقد روى قصة شيطانية وصف فيها طريق تدبيرنا خطة الجريمة قائلاً : إنه أعطاني الحافظة على أثر ابتعاد للتاجر بسيارته عن نظرنا

ومن حسن الحظ أن رئيس البوليس كان رفيقاً ماسونياً في المحفل الذى أتمى إليه ، وقد اشم رائحة السكيد في اعتراف روى تريدواى . وكان الرجل يعرفني منذ سنوات عديدة ويعلم أنني رجل شريف مستقيم ، وقد اعتقد أن تريدواى يكذب في اعترافه ولكن كيف السبيل إلى إثبات ذلك ؟ فهو حيال شكوى التاجر واعتراف تريدواى الذى يهمنى فيه مضطرب لأن يقينى في الاعتقال إلى أن تثبت الوقائع التى تبرر الافراج عني . وبدأ البوليس في الحال التحريات عن حياة تريدواى فظهر أنه قبض عليه عدة مرات في مدن مختلفة بتهمة تزوير أوامر صرف من بعض البنوك ، وأنه كذلك اتهم في كثير من السرقات ، وهو فوق ذلك متزوج بامرأة تقيم في نبراسكا وقد هجرها منذ سنوات . إذن زواجه من ابنتي باطل بطبيعته ثم هو جريمة يعاقب عليها

أما ملف سوابقي فكان نظيفاً ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن بد من أن أبقى سجيناً حتى يتم التحقيق وتقدم للقضاء . وقد رويت لرئيس البوليس كل ما حدث علي حقيقته وأظن أنه قد تبين خطر

لقد كان على المكس من ذلك منتبهاً باشراكى في تهمة .

ولم يحول التاجر مسدسه عنا لحظة واحدة ، بل بقى مصوبه نحونا حتى انتهى من حديثه التليفوني مع البوليس ثم تلفت إلى وقال :

— لقد كانت لعبة محكمة جميلة ، ولم يخطر لي قط على بال أنكما أعدتكماها معاً ، على الرغم من أنني لم أكن رجلاً غيبياً ، ولكن من حسن الحظ أن الجريمة التى وقعت على مكنتي من الحصول على رخصة بحمل المسدس ، ولقد أخبرتك من قبل أنني لا أنسى أبداً الوجوه التى أراها مرة ، فلم يقع نظري على هذا الرجل حتى تذكرت كل ما حدث

فقلت في شيء من الضعف :

— إنك مخفي يا سيدى قانا لم تكن لي يد فيها حدث

فقال الرجل في هدوء :

— الآن سأقول : واحد

وهنا تلفت إلى تريدواى وقلت :

— قل له الحقيقة فأنك تعلم أن لا يد لي في السرقة فخدجني روى بنظرة خبيثة وقال في لهجة المداء والتحدى :

— لا فائدة في أن تنكر أننا كنا متفقين يا أبى فليس الرجل أباه ولا غيباً

وهنا شمعت بدوار شديد يستولى على حواسي فهكذا كان أسلوب ذلك اللص الشقي في مكافأتي على إحسانى إليه وشفقتى عليه ! لقد أشركني في تهمة . إذن كان هذا هو انتقامه مني لما كان يبتلى

للقول الحق ولكنها ابتسمت ابتسامة أشبه بالفرح وقالت :

— إنه لا يعرف مقدار بنفسي له ، فقد لثمت الهدوء في حياتي معه ولم أشتبك معه قط في نزاع ، فأنا أعرف كيف أنزع الحقيقة منه ، وها أنا ذى ذاهبة لأفعل ذلك

وبهذه الكلمات تركتني ماريانا أسائل نفسي كيف تستطيع حمل ذلك الشرير على الاعتراف بالحق وأنا أقل هنا ما حدث بعد ذلك عن لسان رئيس البوليس واثنين من المفتشين فيظهر أن ماريانا قد ذهبت مباشرة إلى الرئيس وارن فأخبرته أنها تريد مقابلة روى تريدواى لتحصل منه على اعتراف يجلى الحقيقة في موقف أيها . فأجابها الرئيس بأنها تتعرض لمهمة شاقة لأن تريدواى متشبث بأقواله وليس في مقدور أحد أن يزحزحه عنها .

ووكد الرئيس لماريانا أنه عارف بأنها مظلوم في هذا الاتهام وأن محامياً ماهراً يستطيع أن يظهر الحقيقة أمام القضاء . ولكنها رجته في أن يسمح لها بالمقابلة وأن يسمح لاثنتين من رجال البوليس بالوقوف في سجن مجاور لسجن روى ليسمعا ما يجري بينها وبينه من حديث . فوافق الرئيس على طلبها وهو قليل الرجاء في نجاح مهمتها ، لأنه بالطبع لم يدرك أحد مبلغ مهارة ابنتي وحذقها ، فان قراءتها لجميع صحف السبيل التي كنت أحضرها لها لم تذهب عبثاً ، ثم هي كانت دائماً راغبة في أن تلتحق بالسرور ولما دخلت ماريانا على روى في سجنه وجدته جامداً منموماً ، ولكنها لم تلبث أن أنعمته في مهارة

مركزي في الاتهام على أنه عجب من وضي كل ما وضعت من ثقة في لص ، ومن رأيه أنني أستحق الوقوع في هذا المأزق لأنني لم أسلم تريدواى للبوليس في الحال عند ما عرفت أنه لص

ومن الطبيعي أن تجزع سوزان واصراتي عند ما اتصل بهما خبر سجنني ولم يفكرا إلا في المار الذي يلحق بهما من جراء ذلك وأن تكونا متحقتين من بطلان التهمة الموجهة إلي ، وبدأتا تحملان ماريانا مسؤولية كل ما حدث ، فزواجهما من تريدواى ، ولكتني تدخلت في الأمر بحزم وطلبت منهما ألا تزيدا في متاعب ماريانا بمثل هذا اللوم

وجاءت ماريانا لزيارتي في سجن المقاطعة وكان قلبها يشق حزنًا على ما أصابني ، وقد رويت لها كل ما حدث ، فانقلب فتورها نحو تريدواى إلى بغضاء شديدة حين عرفت كيف جعد جميل وتنكر لاحساني وشفقتي عليه ، وقالت إنها مسرورة لملها أن لذلك اللص اللشق امرأة على قيد الحياة فان ذلك يجعل زواجه منها باطلا بطبيعته دون حاجة للالتجاء إلى نضاي الطلاق المتعبة

وطلبت من ماريانا أن تتصل بمحام كبير للدفاع عنى لخطر الاتهام الموجه إلى وللظروف الخاصة المحيطة بالقضية من جراء اعتراف تريدواى ولكنها رفعت رأسها عالياً وقالت في لهجة حازمة :

— ليست بك يا أبى من حاجة إلى محام وسيطلقون سراحك قبل المحاكمة فسأحمل أنا ذلك اللص على الاعتراف بالحقيقة

فمكنت لها أن لا أمل هناك في حمل روى على

الفرصة التي تطلعت إليها في رحلة هافانا ، فأية مخلوقة
أكون أنا إذا لم أقف إلى جانبك بعد أن علمت بذلك ؟
على أنه إن كان هناك ما يحزنني قليلا فهو أن أبي
قد اشترك معك في هذه المغامرة ، لقد كنت أود
أن تكون أنت وحدك الذي عرضت نفسك للخطر
في سبيل إرضائي وإسعادى

وما سمع تريدواى هذه الكلمات حتى اندفع في
غير وعى إلى الشرك ، فقد قال على مسمع من رجل
البوليس الواقفين في السجن المجاور لسجنه يسجلان
أقواله :

— أصنى إلى يا ماريانا . إننى قد تشاجرت مع
أيك حين أراد أن يفرق بيننا ، لذلك أشركته في
الهمة مى ، ولكن الواقع أنه لم يشترك مى في السرقة
قد غارت هذه المغامرة وحدى ، ولكننى أريد
الانتقام منه . لذلك سأتركه يشاركنى العقاب

ودفعه للغرور إلى البهاة بمغامرته في سبيل
إرضائها ثم قال :

— وموضع الفكاهة في هذه القصة أننى لم
أكن أحمل مسدسا عندما هاجت الرجل ، ولم يكن
في يدي غير مفتاح انجليزى ، وقد اضطررت أن
أضرب به أباك على صدغه ، على أنه بقى في يدي عند
ما هربت ولا يزال عندى إلى الآن

كان ذلك كافيا ، فلم ينته تريدواى من هذه
الكلمات حتى دخل رجلا البوليس إلى سجنه
فطوقاه . ثم التفتا إلى ماريانا وقالا :

— لقد أحسنت كل الاحسان أيتها السيدة
الصغيرة

ومفهوم بالطبع أن تريدواى لم يكذبين النور

تامة إذ طوقته بساعديها وأخبرته أنها آسفة لعدم
استطاعتها زيارته قبل هذا الوقت ، فقد حبستها أمها
في غرفتها منذ اليوم الذى قبض فيه عليه وعلى أبيها .
والحق أن روى كان شديد الحاجة إلى من يحوطه
بشيء من العطف وقد سقته ماريانا جرعة وافية
من عطفها وحنانها .

ثم بدأت الفتاة تلعب دورها ، ومن حسن الحظ
أن روى لم يكن قد عرف بأن البوليس قد تحرر
عن سوابقه ، وأن ماريانا قد علمت بأن له زوجة
شرعية على قيد الحياة . وكان الفصل الأول الذى
مثلته إظهارها الغضب على ، فقالت إنها عاركتنى
عرا كما شديدا لأننى رفضت أن أسمح لها بمرافقته إلى
المدينة بعد تركه عمله في الجراج . ثم أردفت
ذلك بهذه الكلمات :

— كأنه يستطيع أن يفصلنا أحدهما عن الآخر ،
وبودى أن أرى ذلك المخلوق الذى يستطيع أن يفرق
بيننا . لقد قلت لأبى إننى مستعدة أن أذهب مع زوجى
إلى أى مكان يريد الذهاب إليه ، قلت إن روى هو
زوجى الذى أحبه ومحبنى وإنى واثقة أن ليس في
الوجود من أحد يمكنه التفريق بيننا

وابتلع غرور تريدواى كل هذا الملق ، ثم مضت
ماريانا تنفذ بقية خطتها ، وكان روى قد تأثر تأثرا
شديدا بأخلاصها وولائها له فقال إنها ملاك في وقوفها
إلى جانبه

فقال ماريانا قالبة أوراقها الأخيرة :

— ولم لا أقف إلى جانبك ؟ ألم تعرض نفسك
للخطر بارتكاب جريمة السرقة حتى لا تقطع على

الذي مثله ماريانا ويرى نفسه قد اندفع في بلاهة إلى الشرك الذي نصبت له ، حتى هاج وثاز داخل السجن رامياً ماريانا بكل ما في القاموس من ألفاظ للسباب مكرراً : خائنة خائنة ..

لقد كان ما حدث لماريانا محنة وتجربة من تجارب القدر ولكنها خرجت منها ظافرة . وقد أفرج عني في الحال بعد هذا الاعتراف الجديد الذي سجله أحد رجلى البوليس وشهد عليه زميله

وروى تريبواى يقضى الآن مدة الحكم الذي صدر عليه في سجن الولاية . على أننى بعد الذي حدث لم أفقه ثقتى في الطبيعة البشرية ، ولا أزال مستمداً لأن أهمى فرصة الإصلاح لأى إنسان ،

ولكنى قد أدركت شيئاً آخر هو أن من المستحيل إصلاح مجرم متعود الاجرام مثل روى تريبواى

أما فيما يتصل بماريانا فأنى واثق من أن بعض المخرجين لا بد أن يكون فى حاجة إلى مثلها ، فقد برهنت على كفايتها النادرة فى تمثيل المأساة ، وقد وفرت على نفقات المحامى الكبير ووقتى عار الوقوف أمام المحكمة . وإنى لأتساءل غالباً : أليست ابنتى أرق طبيعة من أن تحتمل التجربة التى مرت بها فى الحياة وإذا لم أكن أنا بمبد كل الذى حدث قد أصبت فى عدم إخبارى ماريانا بما عرفته من أمر زوجها قبل سفرهما فى رحلة شهر العسل !

عبد الحميد حمدي .

بنك مصر

انعقدت الجمعية العمومية العادية لمساهمي بنك مصر بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٩٣٩ بدار البنك بالقاهرة . وبعد التصديق على تقرير مجلس الادارة لسنة ١٩٣٨ اعتمدت الحسابات عن السنة المذكورة . ووافقت على صرف مبلغ اثنين وثلاثين قرشاً أرباحاً لكل سهم مقابل تقديم الكوبون رقم ١٨ ابتداء من يوم الاثنين ١٧ ابريل سنة ١٩٣٩ إلى مركز البنك الرئيسي بالقاهرة أو فروعه بالأقاليم .

وبما أن الكوبون المشار إليه هو آخر كوبون ملصق بالأسهم فترجو حضرات من يحفظون لديهم أية كمية من أسهم البنك أن يقدموها لمركز البنك الرئيسي بالقاهرة ابتداء من يوم ٣ مايو سنة ١٩٣٩ لالصاق كعوب جديدة بكوبونات أخرى .

وستحجز من قيمة الكوبون ضريبة الحكومة بواقع ٠.٧٪ مضافاً إليها خمسة مليات عن السهم الواحد نظير إلصاق الكعوب الجديدة .

عضو مجلس الادارة المنتخب

محمد طلعت حرب

الملاك

للقصصى التشيكى كارل كابل
بقلم الاستاذ ابراهيم حسين العقاد

وراح يذرع حجرة جيئة
وذهوباً والتقاء يسود نفسه لفساد
برنامج أعدده لقضاء ليلته... لقد
أراد أن يقضيها مضجعا على المقعد
الطويل والكتاب في يده وضوء
المصباح الهزيل يداخل نفسه
بروح من الهدوء والاستقرار...
يا للمجب ! لطالما يرم بهذه

الضجعة وكرهما في نفسه ولكن... لآى سبب
تراه قد أحبها الآن ؟ ! أى سر غامض جعل هذا
الاحساس يسوده فيحب وحدته ويفضلها على كل
شئ وبخاصة في هذه الليلة التى وصلته فيها البرقية
التى أمسك بها في يده وهو تحت سلطان الفكرة
الجديدة الطارئة فقلبتة دعوتة من طفولته القديمة
وسرعان ما كان يمزقها إرباً ؟ !

ما أمرع ما يغيرنا الزمن . وما أقصرها فترات
تلك التى يجعلنا فيها تتحول من حال إلى أحوال !
لقد تغير إحساس الشاب عند ما كان ينتظر في ذلك
الجو الرطب مقدم الفاطرة التى تأخرت عن موعد
وصولها ... ساد إحساس من الأمل والرثاء إذ كان
كل ما حواليه يوحى بالفاقة والفقر والبؤس ... تلك
أشياء ليسها مجسمة في وجوه أولئك المنتظرين هباء
أو القادمين وقد مستهم الضراء وعبث الكلال
بأجسادهم الهزيلة المرهقة

ووسط زحام جوع القادمين استطاع أن يتعرف
كيان شقيقته الضامر وأن يلمح وجهها الشاحب
وعينيها الشاردتين وهى تميز متهالكة تجر وراءها
حقيرة كبيرة، جعله مراًها يستقد أن شيئاً ما قد دم
شقيقته المزيزة

غلبه الهاء ثائية وهو يتناول غداءه وأحس
برأسه يكاد ينفجر فأسنده إلى راحة يده في الوقت
الذى انسحبت فيه مديرة البيت رائية له وقد آثرت
تركه مضجعا على المقعد الطويل ناعماً — كما خيل
لها — براحة كانت في الواقع عذاباً كابد المسكين
قسوته . فقلبه غير منتظم الضربات ومسدته قد
استعالت في ثقلها حجراً ، وشمز وقد خارت منه
القوى برغبة في النوم ولكن ... آه ! لو أن الكري
واتاه وكل السهاد عينيه !

وصرت ساعة عادت بمدى مديرة البيت تدق
بأبه لتمطيه برقية فضا مسرعاً وقرأ :

٤٠ — ٧ × ١٠ — ١٩ أصل الليلة

« روزا »

أية ليلة تراها هذه الليلة ؟ ! تلك كانت الفكرة
التى شغلته والتى وقف حيالها في حيرة والبرقية
في يده محاولاً أن يفسر طلاس أرقامها ؛ وبعد جهد
استطاع أن يفهم أن شقيقته المتزوجة روزا ستصل
في قطار الليل وعليه أن ينتظرها قريباً حضرت
لشراء بعض حاجاتها ولكن ... لمن الله تقيصة
للتسرع في خلق النساء ! إذ حرزته دون مبرر بعض
راحة كان ينشدها

أرغم على سماعها خاصة بطريقة الزوج المعيشية وكيف يتناول الطعام ويقابل بالشر ما تسديه زوجته إليه من الخير، وإذلالها الدائم وتحقيرها والمشاكرات التي تنسب بينهما في وحشية ! وأحس المسكين بموجات من الاشفاق تطني عليه تغيل إليه معها أنه من الذين أن يتحمل كل هذا دون أن يحتج أو يحرك ساكنا

ونظر من خلال أساء إلى تلك الشابة المسكينة المهذبة التي غلبها الضنى وأذوى عودها المم وهي التي ما عرفت الخنوع ولا رضيت المهانة وعاشت مدلة محبوبة ثورية ذات كبرياء وأنفة ... هذه الفتاة التي كانت تناقش ولا تخضع لرأي ، والتي كانت عينها تتوهجان يريق لamac يعبر عن الداء ... المسكينة ! تجلس الآن وقد جرفتها سيول الحزن وقاضت مداها منها وتهديج صوتها الطروب حتى كانت تتكلم بصعوبة لم تحتلها أعصاب جورج الذي صاح يريد إسكانها وهو يغالب أحاسيسه الرائية :

— كفى ... إننى أعرف كل شيء

وخارت قوى المسكين ولم يستطع إتمام حديثه في الوقت الذي زاد فيه نشيج روزا وهي تقول :

— لا تقل هذا ... إننى ضالة في هذه الحياة ، وليس لى في هذه الدنيا سواك

واتسع المجال للبكاء فعلا صوتها وهي تقص مأساتها وما حدث لها وصوتها يتلون مع رهبة الحوادث وقسوتها ... وفجأة توقفت عن البكاء وسألت شقيقها :

— وأنت جوزج ... كيف حالك ؟

— بالنسبة إلى أعترف لك أنى لا أستطيع

واستقل الشقيقان عربة أسرعت بهما إلى البيت دون أن ينسى خلال الطريق أن يمرض عليها البيت في فندق يستأجر لها إحدى حجراته إمعاناً في توفير راحتها ولكنها لم تجبه إلا بسيل من الدموع علفت بعض قطراته بأهدابها فأمسك يدها الضامرة بيديه وراح في حنان يربت عليها . ولكن كانت سعادته عظيمة عندما اكتسى وجه المسكينة بإبتسامة مشرقة وهي تنظر إليه نظرة الممتنة الشاكرة ولكن سرعان ما تغير كل هذا عند ما وصلا المنزل وجلست روزا على المقعد الطويل تحوطها الوسائد ... كانت بادية الرجفة شاردة النظرات ناريها مرتسنة للشفتين مما روع شقيقها فأقبل عليها مستفسراً طالباً منها أن تكون في حديثها أكثر هدوءاً خشية أن تمزق مسكينة الليل وهي تكلمه في عصبية قاتلة :

— أقول لك إنى فررت ... هربت من زوجى ... آه ! لو أنه كان في وسعك أن تتصور مدى آلام تقال كنت أنوء تحتها ولكن لا ... إنك لن تستطيع أن تصدق كم كان يكرهنى ... أخى ... لقد فررت ... هربت من بيت الزوجية وأتيتك طالبة نصيحتك وإرشادك ...

وانفجرت المسكينة تبكي بدموع غزيرة بينما تجهم وجه شقيقها جورج ، وراح يخطو داخل الحجرة في عصبية ثائرة تصور خلالها حياة أخته مع زوج لا خلاق له يعتمد تقريهما وإهانتها أمام الخدم ... لا يعرف غير ملاهيه وملاذه يجول فيها ويصول ثم يقتر وينزل يده إلى عنقه إذا ما طالبت زوجته المسكينة ببعض ضروريات الحياة ... أية قصة تراها تلك التي

الشكوى ولكن .. بالنسبة لك .. هل تنوين المودة إليه ثانية ؟ !

— أنا .. ! محال ... هذا مستحيل لن يحدث بل إن أثر الموت على ذلك ... آه ! لو أنه كان في وسعك أن تتصور أى حياة كنت أحييها !

— حسن ... ولكن انتظري ... في هذه الحالة ما الذى تنوين عمله ؟

لقد فكرت في هذا قبلا ... سأقوم بمهمة التدريس أو ألتحق بأى عمل ما ... لا تعجب فان الزمن كفيل باقناعك أنى مستطيمة النجاح في عملى وبأنى سأكون سعيدة إذ أريح قوتى بنفسى ... لست أطلب إلا نصيحتك وتشجيعك .. أما مسكنى فسأجده سريماً فى أى مكان ولكن فكرى قليلا .. ونهضت من مكانها فى عصبية وراحت تذرع الحجرة إلى جانب جورج وهى تمحده قائلة :

— إن المنقولات القديمة التى تركها أبوانا ستكون من نصيبى ... لا تنظر إلى هكذا حتى أتم عديبى ... لست أريد شيئاً ولكنى أريد أن أعيش فى هدوء وسلام غير عابثة بكونى فقيرة ، لأن أقل شئ ساجد فيه كفائى ما دمت سعيدة عن ذلك الجو ... إن العمل هو غايى وإليه أصبو ... سأغنى فقد مر زمن طويل لم تردد فيه شفتائى أى لحن .. بجورجى ... آه لو تعلم !

— تطرفين أبواب العمل ! ! إننى فى شك من تحقيق ذلك بل إنى أؤكد لك أنك لست مستطيمة هذا لأنه شئ لم تمتدده نفسك ... ستجدين العمل سهلاً ... صعباً جداً يا روزى

— كلا ... أنت لا تعرف كيف كنت أعيش ... أى آلام كابدت حزازتها وأى تقريع كان يوقر أذنى ويضنى جسدى من أجل اللقمة التى كنت أتبلغ بها أو الكساء الذى كان يسترنى ... لا أستطيع أن أعمل ! ! كلا أنا واثقة من قدرتى على العمل وسترى بنفسك كيف سأخطو بنجاح وكيف سأكون سعيدة فى حياة أتخيلها مظلة بالهدوء والأمن ... سأجدراحة النفس فى كسرة جافة أمسك بها رمقى وهدوء الضمير فى مكان خشن آوى إليه ... شجعتنى بكلمة ... قل إنه باستطاعتى أن أصبح إحدى النساء اللاتى يعملن ويجاهدن من أجل العيش ... وحتى لو ما كستنى الظروف سألتحق بأحد المصانع .. ها أنت ذا ترى أنى عدوت للأمر عدته تماماً ... أيتها السموات الرجيمة ! ! أى أمل براق هذا الذى جميلته يداخل نفوساً عظيمة ! ! لقد أحس جورج بالحجل يحمله إذ كان ينظر إلى العمل نظرة غريبة حورتها هذه الفتاة المشبوبة الحماس ... هاهى ذى تمودأعواماً إلى الوراء .. إلى أيام طفولتها .. إنها لا بد مصيبة كل نجاح ... بل كيف يقدر لن لها مثل هذا الروح أن تلقى الفشل ؟ ! واستطردت روزا ثانية تقول :

— سأغامر وإنك لترانى مقدمة على هذه المغامرة ... لن أقبل مساعدة من مخلوق وسيكون فى وسعى أن أريح وأن أزين مائدة طعامى ببعض الأزهير ... وحتى هذه الأزهير إن عز على نيلها سأكتفى بأن أراها وأن أجتاز الطرقات ... أية أحاسيس طاغية غمرتني بالهدوء عندما ما استقر رأيى

على الحرب ... الفرار من ذلك الجحيم الذى كنت أعيش فيه، وما أبعد الفرق بينه وبين حياة بدأت الآن أراها طالما احتلت خيالى وتفكيرى ... كم أنا سعيدة!! — أيتها المجنونة الصغيرة، إنه ليس بالأمور السهل ما تفكرين فيه ... سنفكر سوياً ولكن ... عليك أن تريحي الآن جسدك المرهق على ألا تتحدثى فى هذا الأمر وأتركينى إلى وحدتى فلدى بعض أفكار . وحتى إذا ما طالعنا الصبح الجديد بأضوائه صارحتك برأى فى الأمر الذى تنتوين ... اذهبي الآن لتناهى .

كان من اللعب إقناع روزا باحتلال فراش أخيها إذ سمعت على قضاء ليلتها نائمة على المقعد الطويل وهى فى كامل ملابسها، الأمر الذى لم يجد جورج معه إلا موافقتها، فدفرها بكل ما لديه من غطاء دقء ثم أطفأ المصباح، فساد الهدوء المسكن إلا من تهذبات صدرها التى كانت كمن تستصرخ للسياة مطالبة بالرحمة . وفى دعة فتح جورج النافذة لتعمر الحجرة نسمات هذه اليلة الهادئة من ليالى أكتوبر وقد صفت للسماء وراحت النجوم تلمع على صفحتها ... وجرت به الذكريات إلى الماضى أشواطاً بعيدة ... تذكر ليلة ما وهما صغيران : هو وروزا ، وقد وقفا مثلاًصقين إلى جانب النافذة فى إحدى الليالى الباردة يرقبان للشهب وهى تنتقل من بروجها وقد جعل جسد روزا يهتز إثر عبث رياح الليل به ... إن صوتها للساذج الحنون ما زال يتردد فى سمعه وهى تهمس قائلة :

« عند ما يهوى نجم سأتمنى على الله أن يجعلنى

ولها وأن يشد أزرى لأقوم بعمل عظيم » . كان الأب فى تلك الليلة غارقاً فى نوم عميق بينما كان الأخ يستشعر المظلمة فى نفسه فضم الصغيرة إليه ليحميها فى صدره إذ كانت ترتعد من برد الليل وهى أحلامها ... وهوى نجم من السماء إلى الحديقة وعلا صوت الصغيرة روزا تقول « جورج ... » وأجابها أن نم وهو يفكر فى نفسه فى ذلك العمل العظيم الذى تتمنى للقيام به ... أيتها المخلوقة المسكينة النعسة ... أى عمل جليل هذا الذى تحملين به ؟ إنك إذ تحملين بالمجد تنبذين الراحة وتحملين كتفك الرقيقتين من الأثقال والهموم ما لا قبل لهما بحمله .. نم إنك لست بالقاذرة على شيء وحتى لو أردت أنت تمدى يدك لصرعى البؤس لجرتك أيديهم إلى الهاوية .. وسمع وهو فى وقفته تلك همس الصغيرة وهى تناديه ثانية : « جورج » قالتف إليها قائلاً : « أنسى إلى ... لقد فكرت فى الأمر فلم أجد من الأعمال ما يليق بك ... إن هناك أعمالاً كثيرة ، ولكنك لست مصيبة منها الربح الذى تبغين . »

وأجابته وهى فى هدوء :

— سأرضى بالقليل

— كلا ... انتظري لحظة . لأنك لا تعرفين معنى قولك .. ها أنت ذى ترين أنى سعيد بعملى قانع بمرتبى ، بل وفى وسى أيضاً أن أحصل على عمل آخر « بعد الظاهر » ولكنى لا أريد لأنى لا أعرف أى عمل سأمارس ولما أعرض عليك بمضى المال

— أى مال تمنى ؟

— سأتنازل لك من نصيبى فى أرباح تركه

والذى ... إنه مبالغ تحصيلين منه على إيراد سنوى
بمبلغ خمسة آلاف جنيه .

وهبت الفتاة صارخة :

— هذا مستحيل

— أوه ! لا تصرخى ... إنها الأرباح فقط
فإذا لم تريد بها فبوسمك عدم صرفها

— وأى شيء سيتبقى لك أنت بعد ذلك ؟

— لا تهتمى بهذا ... كثيراً ما غلبنى الخجل
على أمرى من العمل « بعد الظاهر » ... والآن ...
هذا المال يضايقنى وجوده فهل تريدبته أم لا ؟

واقتربت الشابة من شقيقها ثم طوقت عنقه
بذراعيها وقربت من وجهه وجهها المندى بالدموع
وقالت والفرح غالبا :

— جورج ... لقد قبالت ما عرضته على وهو
شيء ما فكرت فيه ... أقسم لك أنى لم أكن أنتظر
منك أى مساعدة ولكن ما دمت أنت تريد ...

— دعى هذا الآن فليست له الأهمية التى
تظنين ... إن هذا المال يا روزا ليس بذى الأهمية
بالنسبة إلى ... يجب على الرجل أن يعمل ... إلا أنى
أعود لأسألك : وماذا عسى أن يصنع رجل واحد ؟
إن الطوائف والتجوال مهما طال به أمرهما فانه
لا بد عائد مرة أخرى إلى نفسه ... إنه لأشبه
ما يكون بإنسان تحوطه المرايا من كل جهة بحيث
لن يرى إلا صورة التى تنطق بالوحدة ... آه أيتها
العزيزة لو أنك تعرفين المعنى الحقيقى من كل هذا ؟
لا . لا يا روزا ، لن أجعلك تتصورين كل هذا الهول
بل أرى أنه من واجبي أن أعترف لك بأنى سعيد

بمقدمك ... أنظرى إلى السماء الصافية رصمتها لآلى
النجوم الدرية ... ألا يبعد صراخا إلى خيالك ذكرى
ليلة وقفنا فيها صغيرين إلى جانب نافذة بيتنا نرقب
النجوم وهي تهوى ؟

وحولت وجهها عنه وقد عرته صفرة رهيبة ،
ونظر إليها فروعه ذلك البريق الخفيف الذى انقادت
به عينها وسممها تقول :

— كلا ... لست أذكر شيئا مما تقول ، بل
لا أعرف للآن أى شيء يجعل هذه الذكرى حبيبة
إلى نفسك !

وغلبته الفرحة وهو يقترب منها سعيداً وقد
جمل عمر براحة يده على شعرها الأملس وهو يقول :

— دعى الآن حديث المال ... ما كان أبرك
عند ما فكرت فى الحضور إلى هنا ... أيتها السموات
كم أأأسيد لأن النافذة انشقت من بين المرايا
المديدة ... هل تتصورين هذا ؟ لم أكن أهتم بنير
نفسى حتى لقد برمت بها ... أتذكرين ؟ أتراك
تذكرين ليلة تساقطت للنجوم فيها ... ما عساها
كانت أمنيتك التى أردت ؟ وهذه الليلة ... أية
أمنية تجول بخاطرك لو هوى نجم .. أى شيء
تطلبين ؟

— شيء لى ... لا ... وأطلب شيئاً لك ...
حادث تتمناه ، أطلب من السماء أن تحققه لك

— ليست لى مطالب ولا رغبات ، وإنى
أشكر الله على ذلك يا روزا .. والآن .. هل فكرت
فى شيء ؟ انتظرى حتى اللغد فاستاجر لك مسكناً
يشرف على مناظر بهجة ... إنك لن ترى من هنا
(٥)

عينها على ثقب في البساط ونظرت إلى جورج فجري
دم الخجل في عروقه وهي تسأله :

— وإذا روزا هنا ؟ لقد تركت بيت زوجها
لأنه كما تقول يعتمد إهانتها ... قد يصح وقوع هذا
ولكن ... لا بد لكل شيء من سبب ... لقد كان
زوجها ملء الحق في كل شيء فعله ... إن روزا ...
لست أدري بم اسمها ... إنها ليست بالصالحة لكي
تكون زوجة ... لا أولاد لها ولا عمل ولذا لا تراها
تهم إلا ... بنفسها ... إنها مبذرة جعلت المسكين
زوجها يفرق في الدين ثم تركته ... ألم تلاحظ
نوبها ؟

— لا ...

— إنك لا تعرف كم يساوي ... إنها تشتري
القراء بالآلاف الجنيهات لتبيعه ببعض المئات كي تشتري
بها أحذية ثم تخفي قوائم المطالبة بالدفع فتصلهم
الانذارات ... ألم يصلك نبأ هذا ؟

— كلا . فالك تعلمين أنه لا صلة تربطني بزوجها
— إنه مخلوق عجيب ... يشور عند ما تترك
نوبه دون إصلاح وتتفنن هي في زينتها حتى تبدو
كأحدى الدوقات ... تغشى المجتمعات وتصاحب
الرجال و ...

— كفى ...

— ربما تكون قد أفتنتك بأنها ستقوم بتدبير
شئون منزلك فخطئك تترك مسكنك إلى آخره أكثر
بسة ... إنها ليست في حاجة إلى كل هذا لأنها
أحضرت معها إلى هنا ... ضابطها ... لقد صدر
أمر بنقله إلى براغ ولهذا هربت من بيت زوجها

سوى فناء البيت ، ولكم يحز في النفس ألا تنعم
دواماً برؤية السماء وما على صفحاتها من نجوم لامعات
وغادر الحجرة وقد غمرته أحاسيس غريبة بين
صور باسمة للمستقبل وسادة مواتية ، ثم عاد إليها
ثانية فأتى روزا وقد داعب الوسن جفניה وهي تنظر
ناحيته قريرة هادئة ، فراح في نشوة من غبطته
يتصفح الصحف لعله واجد فيها مسكناً جديداً
يرضيها ... وهكذا ظل حتى طالعه الصباح وهو
بأفكاره جد قرير ...

وبدأ جورج حياة جديدة وانتقل إلى مسكن
جديد واعتاد أن يؤدي الكثير من الأعمال الإضافية
التي أرهقته بادي ذي بدء ولكنه اضطر إلى احتمالها
إذ كان يسمع صوتاً داخلياً يقول له : « تحمل لأنك
لا تمش لنفسك فقط بل من أجل غيرك » . حقاً
لقد كانت تلك حياة جديدة بالنسبة إليه ...

وحل على جورج في يوم من الأيام ضيف جديد
كان أخته الأخرى تيلدا المتزوجة من أحد أصحاب
المعامل القريبة من المدينة والذي لم يصب في عمله
نجاحاً كبيراً . وقد اعتادت كلما حضرت إلى براغ
أن ترور جورج فتقص عليه من سيرتها وسيرة
أبنائها الثلاثة الصغار الشيء الكثير حتى لكان
العالم قد أقفر ممن فيه إلا أطفالها ... ولكن زيارتها
هذه كانت غريبة روعته ، فدفق قلبه هلماً ورهبة ،
إلا أن الهدوء داخله سريعاً عندما علم أن الأولاد
الثلاثة بخير ، وأن العمل يسير من سيئ إلى أسوأ
وأنها حضرت إلى المدينة لتبحث عن يقبل أن
يشتره ... ونظرت حولها نظرة غريبة ثم استقرت

وحضرت إلى هنا مع عشيّةها ... إنها دون شك
لم تخبرك بشئ من هذا

— تيلدا ... إنك تكذّبين

— حقق بنفسك هذا الأمر ... إنك طيب
القلب ولولا حبّي لك ما صارحتك ... إن روزا لم
تهتم بك في يوم من الأيام حتى إنها قالت عنك إنك ...
— كفى ... اذهبي ... اذهبي أتوسل إليك
واتركيني أنعم بهدوء. أتطلبه

— سأذهب ولكن ... إن المكان هنا قدر
وجدير بك أن تبحث عن آخر أكثر ملاءمة لك ...
إنك لترى الظلمة تسوده ... هل أرسل لك ...
— لا ... لست أريد شيئاً

— حسن ... أنا ذاهبة ... إلى اللقاء يا جورج ...
واعتورت الرعدة بدنه المحموم وجف حلقومه
وحاول دون طائل أن يؤدي أي عمل فلم يجد سوى
أن يحطم القلم ويمزق بعض الأوراق، ثم غادر مسكنه
ذاهباً إلى البيت الذي اتخذ من أحد أقسامه مسكناً
لشقيقته روزا، ولكن مدبرته أخبرت جورج أن
السيدة الصغيرة قد خرجت منذ الصباح ولم تعد وإن
كان لديه خبر فستحمله لها، ولكن الشاب الثائر
تركها دون كلمة وعاد يجر نفسه كمن يحمل على كتفيه
أثقل الأحمال حتى وصل مسكنه فوجد باباً وجلس
إلى نضده محاولاً أن يعمل ولكن الساعات مرت
دون أن يفرغ من الصحيفة التي أمامه كما أن الليل
خيم دون أن يفكر وهو في جلسته أن يوقد الصباح.
وأخيراً دق الجرس دقات مرحة ولم تمض لحظات
حتى كانت روزا أمامه تبسم في حنان وهي تسأله :

— نأتم أنت يا جورجى ؟ كيف ... ما أكثر
ظلمة هذا المكان ... أين أنت ؟
— كنت مشغولاً ...

— أنصت إلى ... لقد فكرت أن آتيك هنا
مباشرة ولكن فكرت في أنك ربما لم تعد إلى البيت
— لماذا ... وأين تظنني أكون ؟ أظن
أنك أنت لم تكوني في بيتك

— أي مكان تظنني كنت فيه ؟ ما أجل مسكنك
هذا وما أشد فرحى لأنى معك ... تعال ... تعال
واجلس إلى جانبي ... إنني سعيدة ...

وأسند وجهه إلى فرائها الذي تندى برطوبة
الخريف وقال يحدث نفسه « لعلها ذهبت إلى مكان ما
فما شأنى أنا بذلك ؟ » ، ولكن ذلك لم يكن دامياً
ليدخل الهدوء نفسه إذ جعل قلبه يدق مرثعاً
فأخاف روزا وقالت له :

— ما الذي حدث ؟
— لا شيء ... لقد زارتنى اليوم تيلدا ...
— تيلدا ... وتحدثت عني ؟ ما الذي نقلته
إليك ؟ تعال ... تكلم ... إنها ولا بد سببت لك ...
ما الذي قالته ؟

— لا شيء قلت لك ... بعض أخبار صغيرة
وانفجرت الشابة باكياً موهة وهي تقول :
— المحلقة القذرة التي ما أحست طوال حياتها
نحوي إلا بالغيرة. وماذا عساي فاعلة إزاء هذه الظروف
التي تناسبني المدا ... إنها ولا بد قد أتت عند
ما عرفت ما فعلته من أجل وما قدمته لي من المال،
وإنى أقسم لك أن لو كانت هي وزوجها في مجبوحة من

الرزق ما فكرت في طرق بابك أو التحدث عنك
كانسان تربطك بها وشيعة الرحم... إنها تريد كل
شيء لها... لأولادها... هؤلاء الملايين الصغار...
— لا تطرق لهذا الحديث بابا وكفى عن ذكر
هؤلاء جميعاً ...

— بلى، إنها تريد أن تفسد على كل شيء وأن
تطمح حياتي بل إنها لم تكذب تعلم بما أصبته هنا من
هدوء بال وراحة حتى أنت تنفص على عيشي ...
صارحني ... هل صدقت ما قالته لك ؟

— كلا ...

— أنا لم أكن أطلب من شيء سوى أن
أستثمر حربي ... أوليس من حق أن أنشد
السمادة ؟ ما أردت شيئاً ولكن نلت بعض ما كنت
أبني وها هي ذي قد أتت ...

— لا تهتمى بذلك .

وقام من مكانه ثم ذهب إلى المصباح فأوقده
وعاد بطيل النظر إليها وهي مطرقة الوجه وشفاتها
ترتعدان ... ما أجملها وأبدع هذا الثوب من
الشباب الفاتن يزيدا روعة ! كانت في رداء قشيب
وقفازين صغيرين أفصحا عن محاسن يديها وجوارب
حريرية ... كانت مضطربة الأعصاب فتركت يدها
المرتبعة تمسك بخيوط القميد الكبير ... ونهد
ثم قال لها :

— هل تسمعين ... إن لدى بعض أعمال
تتطلب الانجاز .

— حسن ...

وقامت من مكانها وقد تجسست في هيئة تمثال

خائف مشبك الذراعين على صدره وهي تنظر إلى شقيقتها
التي رفع إليها وجهه، ثم تتمم ألا تجزعي وعاد
ثانية ليواصل عمله . وكان العمل المستمر هو سلوكاته
الوحيدة في غده إذ ظل منكبا على أوراقه من مطلع
النهار إلى غروب الشمس عند ما أتته ثانية روزا وإذا
نهض ليتبينها طلبت منه في حمس أن يستمر في عمله
لأنها ستجلس قبالة ... وحاول جورج أن ينفذ
طلبها دون جدوى إذ كان يحس أن عينها النافذتين
المتلثنتين بشئ الأحاسيس والمواطف ما انفكتا
تنظران إليه وتديعان التطلع إلى وجهه ... ونجاة
سمعها تقول :

— لم تأت اليوم لبارتي وقد انتظرت مقدمك
دون أن أبارح البيت ؟

ووضع جانبا القلم ثم التفت إليها ... كانت
في ملابس سوداء وشيقة وقد اكتسى وجهها صفرة
وشحوبا ... وأجاب :

— يخيل إلى أن الجو أكثر برودة هذه الليلة
— لا شك أنك تعرف ما آل إليه حال تيلدا .
إن زوجها رجل ساذج تفره الظواهر ولذا لم يعرف
كيف ينظم أعماله فسأت ... كان له عميل سرقة
وغررة بالأمان فسأت المراقبة ... إنه على شفا
الافلاس، وها هم أولاء مقبلون على مصير غامض وقد
كان جديراً به أن يفكر قبل تورطه في مصير أولاده
— لا أعرف عن هذا أي شيء ...

وسكنت روزا على مضض ولكنها لم نياس ثانية
من مهاجته وآثرت أن ترى آخر سهم في جعبتها
فقالت متممة :

— ولما ساء حال زوج شقيقتي تيلدا إلى هذا الحد لجأ إلى زوجي ملتصقاً به ولكنه رفض إذ كيف يبقى وزوجته على مال وقد كان لهما منه ثلثائة ألف أضاعها

— وهل هناك من سر جمالك تصارحيني بما قلت ؟

— رغبة مني في أن أجعلك تقف على الحقيقة لأنك طيب القلب وتحب مساعدة الآخرين ... هذا لطف منك

لم يحول عينيه عنها وهي في مكانها وقلبه يدق مضطرباً بين جنبيه ... لكم كان في شوق إلى سماع كلمة حنان منها تصارحه فيها بأنها تود أن تبحث عن عمل ولا تمشي عالة على الآخرين . تقوم بخدمته المنزلية ... تترك مسكنها الفخم إلى آخر ولكنها لم تفعل بل راحت تطيل النظر إلى النافذة ثم بدأت حديثاً آخر

وفي اليوم التالي تلقى جورج من شقيقته تيلدا الرسالة التالية :

عزيزي جورج :

لكم أسفت إذ تركتك في مثل حالتك ولكنها الظروف ... هي أيضاً ما حدا بي إلى الكتابة ثانية إليك لأصارحك أنه قد سادت حالنا ولن تستقيم إلا بعد أن ندفع خمسين ألفاً نحن زعيان بأنها لا بد عائدة ، لأن المستقبل لصناعتنا وبوسى أنا وزوجي أن نعطيك اللسان الكافي للتسديد في ظرف عامين لو أنك دفعت ديننا وأنقذتنا من هاوية الفقر ...

إنني أعرف فيك طيبة القلب وهي التي ستدفعك إلى مساعدتنا وإلساءت العاقبة وعضنا الدهر بنابه

فيتشرد الأطفال ويصبح أكبرهم شارل الذي يحلم بالمستقبل شحاذاً منبوذاً ... وأنا واثقة أنك ستحضر لانقاذنا وأنتك سوف تحب الأطفال

لك حبي أنا ... أختك النعمة : (تيلدا)
حاشية : — « أما ما قلته لك من روزا وأكدت أنت لي كذبه فأخبرك أن زوجي سوف يحضر إلى براغ ومعه حجج دامغة تثبت صدق ادعائاتي ... إن روزا لا تستحق حديقك وعطفك لأنها لطخت بالمار هاماننا ؛ ونخير لها أن تعود إلى زوجها، وإنه لصافح عنها كي تترك لأولادى الصغار لقمة العيش التي بها يتبلغون »

أي ضيق هذا الذي يحسه ... إنه من البعث أن يستمر في عمله على هذه الصورة من الارتباك الذهني، وإنه نخير له أن يهاجر مسكنه إلى الخارج عساه يستطيع أن يروح عن نفسه ... واعتزم الذهاب لزيارة روزا ... وصل إلى مسكنها ولكنه لم يكدهم يقدم على دق بابها حتى سمع من الضمير صوتاً نهائياً فمادأدراجته متلصصاً، وإذا هو في الطريق أبصر شابة تنشج بالفراء متعلقة بذراع أحد الضباط فحث الخطي خلفهما كما شق تعبت الفيرة به ، ولكنه لم يجد لها روزا ... كانت فتاة أخرى فائنة متبرجة فيهم شطر مسكنه ولم يكدهم يلججه حتى ألقي روزا المسكينة مستلقية على المقعد الطويل غارقة في بحر من مدامها وبمقربة منها سقطت رسالة تيلدا التي تركها جورج عند مفادته المسكن ... وأحست بمقدم أخيها فقالت له متوسلة بصوت خنقت الدموع نبراته :

— يا شقيقي المسكين ... أرايت هذه المخلوقة

للعنسة التي تريد أن تسرقك علانية؟ لا تعطها شيئاً ولا تصدق كلمة مما قالته ... إنك لا تعرف أى نوع من النساء هي ... ألم تر إلى تهمة كيف نصبها كذباً على؟ ما الذي فعلته لها؟ ما أروع هذه الأفكار ... إنها لا تريد شيئاً سوى المال وعن طريق سلبك . مالك تمتدت الاساءة إلى ...

— إنها أم لأطفال باروزا .

— تلك هي ذريمتها الأبدية ... لطالما سرقتنا وما كانت لهم سوى المال .. تزوجت من أجل المال . ألا تذكر أن أمانيا وهي طفلة كانت تنحصر في تخيلها الغنى واليسار ..؟ إنها مخلوقة شرسة ، فهل لك أن تدلني على ذلك الشيطان الذي تقمصها ؟؟ إنها تريد الآن أن تسرقني فهل أنت يا جورج معطيها هذه الفرصة ؟؟ هل ستتخلص مني ؟؟ خير لي أن ألقى الموت غرقاً من أن أعود ثانية

وكان جورج يسميها وهو معنى الرأس ... أجل .. إن هذه الفتاة تقاتل من أجل كل شيء ... تقاتل تيلدا .. بل تقاتله هو نفسه إن حاول أن يسلبها شيئاً ... المال ... ودوت في أذنيه هذه الكلمة وجبلته بنصت مرة أخرى إلى روزا وهي تقول :

— لقد كان منعك إياي المال أشبه الأشياء بالمعجزات ... إنك أنت الذي وهبني هذا المال وكان جديراً بك ألا تنبهه مادام التفكير في استرداده كان يراود خيالك

— إنه مالي ... ملكي الخاص وإنني سأفكر في هذا الأمر

تلك كانت أول مرة يهين فيها روزا فلمت حينها يريق من الكراهية ولكن صرامته البادية

أسكتتها فأحنت رأسها وانصرفت

وفي اليوم التالي طرق باب زائر ... كان زوج تيلدا الضخم الجثة الذي يشبه الكلب في ملامحه .. ولقيه جورج متجهماً ولم يتم احتراماً لمقدمه كي يتركه واقفاً ثم سأله في لهجة آمرة :

— ما الذي تريده ؟؟

وروع الحديث المفاجئ للضيف القادم فأرجم عليه وقال :

— أنا ... أنا ... إن تيلدا هي التي أرسلت هذه الأوراق التي طلبتها أنت ...

— أنا ما طلبت شيئاً

— لقد كتبت تيلدا إليك أيها الأخ وشرحت ظروفنا ... فإن كنت تريد مشاركتنا العمل ، وإنني أؤكد لك أن المستقبل ...

وفي هذه اللحظة انفرج الباب في ببطء وأظلت روزا التي روعها أن ترى زوج تيلدا ... وقال جورج لها :

— ماذا حدث ؟

— جورج ...

— لدى أعمال وزائر كثيرين ... هل تسمعين ؟؟ وفي رهبة قدم زوج تيلدا الرسائل وهو يقول :

— وهذه يا سيدي هي الرسائل التي كتبها لنا زوجها وبض أوراق أخرى ...

وتهاكت العنسة وأمسكت بالباب إذ خانتها القوى في الوقت الذي ضمت فيه شقيقها يطلب من اللقادم أن يعطيه الرسائل ، فلما أخذها لم يكلف نفسه عناء تصفحها بل أعطاها أخته وهو يقول :

— خذي هذه ... واسمحي لي أن أقول لك

الفصول والغايات

معجزة الشاعر اللاتب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته،
وفي أسلوبه، وفي معانيه. وهو الذي قال فيه
ناقذو أبي العلاء إنه عارض به القرآن. ظل
طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة.

صححة وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زحاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة
وينباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لا مرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة «الرسالة»

الثنى ١٢ قرشاً

لا تذهبي إلى المصرف من أجل المال لأن ذهابك
لا فائدة فيه... والآن يا سيدي ما هي مهمتك ؟

— المسألة تنحصر في... رأس المال...

— اصغ إلى يا سيدي... لست أراك كما تدمي
رجل أعمال

— سأعمل جهدي و...

— كيف أستطيع أن أوليك ثقتي وتكون
أميناً في نظري ؟

— أعدك بذلك... إن لدينا أطفالاً...

— كفى... يمكنك أن تأتيني بمد عام

— بمد عام !

— وداعاً يا سيدي...

ومادت الأرض تحت قدمي الشمس وغشت عينيه
سحابة من الكدر واستدار مفادراً الحجره وهو يقول
— وداعاً و... شكراً لك

.....

وأحس جورج هدوء الوحدة وساده ضعف
حبيب فقام يرب الأوراق المبعثرة على النضد ثم نادى
مديرة البيت التي ما إن أتت حتى كان قد نسي
ما اعتزم قوله لها.. وأرادت السيدة أن تمود ولكنها
نمت صوته

— قف... إذا أنت اليوم... أو في الغد...
أو في يوم من الأيام شقيقتي روزا فقولي لها إني
مستكف و... إني لا أستطيع أن أقابل أحداً...

وخرجت السيدة وشملته الوحدة ثانية فاستاق
على المقعد الطويل وهو ينظر إلى منكبوت بدأ نسيجه
في ركن الحجره الواقع فوق رأسه

إبراهيم حسين العقاد

الفتاة — (ناثرة) تخاف ...
 أتكررها للمرة الثانية ؟ إنى لا أفهمك ،
 لقد تغيرت كثيراً يا صاحبي
 الفتى — يؤسفنى هذا أيضاً و ...
 الفتاة — ويجب أن تصمت إذا كنت
 تريد أن تجعل كل كلامك على هذه
 الوتيرة ...



الفتى — (فى حيرة) لو عرفت ما بي لما قلت
 هذا الكلام ، ولما ثرت هذه الثورة ...
 الفتاة — (تتكلف الهدوء) وما بك يا عزيزى ...؟
 الفتى — إنى خائف ...
 الفتاة — (فى صوت منغل) قلت لك تكلم كلاماً
 مفهوماً . إنك تخزع قلبى ...
 الفتى — يؤسفنى هذا أيضاً ... و ...
 الفتاة — (فى صوت منغل أيضاً) أف منك !
 إنك تغيرت كثيراً جداً ...
 الفتى — (فى حيرة) قد أكون تغيرت حقاً ،
 ولكن يجب أن تهذبى من ثأرتك بعض الشيء ،
 إن ما بي فيه الكفاية ...
 الفتاة — وماذا بك ؟ ليتك تحبب هذه المرة ..
 الفتى — (فى مزه وهو يستجمع قوته) أجل
 سأجيب ... إنى ... إنى ... إنى ...
 الفتاة — إنك .. إنك .. إنك ، إنك ماذا ؟
 لقد أصبح من الواجب عليك أن تصمت ...
 الفتى — لقد كنت أود هذا ، لولا أنه من
 الضروري أن أتكم ...
 الفتاة — بخسن . تشدد يا عزيزى هذه المرة
 أيضاً وحاول أن تتكلم ...

وفى وثاة فى سن الشباب يسيران جنباً إلى
 جنب فى شارع مقرر موحش ، وفى يوم من أيام
 الشتاء التى تحمل معنى الشتاء ،
 * * *

الفتاة — كم هو قبيح هذا اليوم ! جو رطب
 مشبع بالضباب ، سماء ملبسة بالنيوم تنبئ بخطر
 قريب ، صمت ووحشة ، ترى لماذا استدعيتنى فى مثل
 هذا اليوم يا حبيبى !

الفتى — حسبتك أحسست ...
 الفتاة — (فى خوف وهي تلتفت إليه) ماذا تقصد ؟
 الفتى — (يهم بان يتكلم ثم يتردد ويطلق فيه ثانية)
 الفتاة — لماذا لم تحب ؟
 الفتى — إنى خائف ...
 الفتاة — مم ... ؟
 الفتى — عليك ... على قلبك ...
 الفتاة — (فى حدة) إنى لا أفهم كلامك ،
 ليس هكذا كنت تكلمنى ...
 الفتى — يؤسفنى هذا ... ولكن يجب أن
 تمذرينى . فانى ... فانى ...
 الفتاة — قل ما ستقول ... إنى لا أرتاح لهذا
 للتردد ...
 الفتى — ولكنى خائف ...

الفتاة — (ساخرة ضاحكة) هل تستطيع القبلة إخراجها ؟

الفتى — بل هي تمنعها أكثر من الخروج

الفتاة — (متصنعة الجدة) يا لها من كلمة !

الفتى — نعم ، يا لها من كلمة . إنها الحد الفاصل بين حياتين ، بين قلبين .. بين ..

الفتاة — (مالة) اصمت . اصمت . إنك تؤذي

الفتى — ألم أقل لك ...

الفتاة — بل تكلم ... قل كلمتك ...

الفتى — لا ...

الفتاة — (تنظر إليه في خوف)

الفتى — الود ...

الفتاة — (تنظر إليه في خوف)

الفتى — الوداع . أشهد أن لا إله إلا الله ، هذه هي الكلمة التي استدعيتك لأقولها لك ...

الفتاة — (تنظر إليه في دهش ورعب)

الفتى — (في حزن) ألم أقل لك . ألم أقل لك الذنب ذنبك ...

الفتاة — إن . إنى لا أفهمك ...

الفتى — وهذا ما اعتقدته ، ولكن حاول ، حاول أن تفهمنى ...

الفتاة — سأحاول ... وضع حرامك ...

الفتى — إذن سأكرر كلمتي أترينى أستطيع ؟ والفتاة — ...

الفتى — ولكن يجب أن أستطيع (يتسدد) استدعيتك لأودعك ...

الفتاة — (كأنها تحلم) استدعيتنى لتودعنى ... (٦)

الفتى — (في مزيم وهو يستجمع قوته) أجل سأتكلم هذه المرة ، إنى ... إنى استدعيتك لأقول لك ... لأقول لك ... لأقول لك ...

الفتاة — (يرافو) . لقد زدت على كلامك السابق ثلاث كلمات ، حاول أيضاً حاول بقوة ... الفتى — إنى استدعيتك لأقول لك كلمة واحدة

الفتاة — وما هي أيها الحبيب ... ؟

الفتى — هي ... هي ... إنى خائف ...

الفتاة — خائف .. خائف .. يا صاحبي يجب أن تزع عنك هذا الخوف ...

الفتى — يخيل إلى أنى لا أستطيع ذلك

الفتاة — بل تستطيعه بقليل من المزم . هيا .. هيا قل كلمتك ...

الفتى — (يتلع ريقه ويحاول أن يزع عنه خوفه) الفتاة — كن قوياً ...

الفتى — كلمنى هي ... « يتردد »

الفتاة — كن قوياً تشجع ...

الفتى — هي ... (يتردد) .

الفتاة — (حافة) إن صبرى فرغ .. بودى لو أصفمك ...

الفتى — (في جد وهو يقدم لها خده) أوه هذا قليل والله أصفى ...

الفتاة — (ضاحكة) إنك بطل ...

الفتى — تكذبين . فأنا والله أضعف خلق الله اليوم ...

الفتاة — دع هذا . ما هي كلمتك ...

الفتى — أجل كلمنى . يا الله ... لو أتمكن من إخراجها منى ...

نفسك ... والحقيقة أن الجو لا يزال على برودة ...
الفتاة — على أي حال ... يجب أن تخبرني بكل
شيء الآن وعلى أنا تحمل ثبمة ما يحدث إذا طال
مسيرنا ...

الفتى — ولكن يا عزيزتي ...
الفتاة — « مقاطعة » اسمع كلامي ...
الفتى — حسن . سأخبرك بكل شيء ...
« يردد »

الفتاة — قل . قل . لا تكن بطيئاً هكذا في
إخراج الكلام من فمك ...
الفتى — الحق أن الأمر يؤلني . ولكن ما حيلتي
سأقول . سأقول كل شيء فاسمعي .

الفتاة — إني منصتة إليك بكليتي ...
الفتى — إن لي ابنة عم تحبني حباً لا غاية بعده ،
كنت أحبها قبل أن أعرفك وأعدتها زوجتي المقبلة
وتعدني زوجها المقبل . هذه ابنة العم هي السبب
في أني سأودعك اليوم . قولي لم . لأنها كادت
تقتل نفسها حينما علمت أني متصل بك . كانت
سئسبب السم لو لم نلقها في اللحظة الأخيرة .
إنها مسكينة هذه الفتاة ، وبدأن خلصناها من الموت
التفتت إلى تقول في صوت كله إصرار « لملك عرفت
الآن كم أحبك .. فملك أن تعرف أيضاً أني سأعود
ما كنت أريد أن أفعله بنفسى إذا لم تقطع علاقتك
بتلك الفتاة التي شغلتك عني » . تخفت يا عزيزتي .
خفت عليها من الموت فقد وجدتني لا أزال أحبها ..
أجل وعلى الرغم من أني أحبك . وقلت في نفسي
إن قتل قلب ليس كقتل نفس ، وعزمت — وكلي

استدعيتني ل... (تقطع كلامها وتلفت إليه جادة) هل
تعني أننا منفترق ... ؟

الفتى — هو ذاك ...
(صمت)

الفتاة — (بعد قليل) يخيل إلى أني لست معك
حقيقية . فهل تراني أحلم ...
الفتى — بل أنت ممي ...
الفتاة — إذن فأنت تهذي ، تسخر ...
الفتى — ولا هذا ...

الفتاة — ولكن كلامك ...
الفتى — ولكن كلامي يدعو للشك . هذا
ما أوافقك عليه ...
(صمت)

الفتى — (بعد بضع دقائق) هل كنت تحبينني
يا عزيزتي ؟

الفتاة — (غضباً وهي تكاد تبكي) ألم تعرف ذلك
بعد ؟ أتتداسي الماضي ... يا لخطي الماثر !
الفتى — لا تقضيني . اعذريني . إني غطيت .
ولكن ... ولكن ...
(يصمت و تصمت)

الفتاة — « بد هنية » ولماذا تودعين
يا عزيزي ... ؟

الفتى — هذا أمر يحتاج إلى شرح طويل ...
وأخاف عليك من برودة الجو إذا طال بنا السير وأنا
أشرحه لك ...

الفتاة — لا تخف . فاني أحس الآن حرارة
في الجو ، يخيل إلى أن برودة زالت ...
الفتى — « مفهولا » هذا كلامي الأليم في

ألم وحزن وأسف — على قتل القلب الذي ستجيا
بموته هذه النفس البائسة .

الفتاة — ولذلك استدعيتني ؟

الفتى — أجل ...

الفتاة — (تضعك في تكلف والدمع ينحدر من
عينها على خديها) واخترت هذا للشارع المقفر
الذي لا يكاد يرى فيه رجل من رجال الشرطة ،
أو حتى بعض الناس ؟

الفتى — لقد يكون . ولكنى على كل حال لن
أخاف من القبض على متلبساً بجريمتي ...

الفتاة — يا لك من مجرم شجاع ...

الفتى — ليس هذا وقت هذه السخرية .

خبريني هل تعرفين عني .. ؟

الفتاة — لا أدري . ربما ...

الفتى — هذا مؤلم . كنت أطمع في عفوك ...

الفتاة — سأحاول أن أعفو عنك . فقط بمد
أن تقوم بجريمتك ... « صمت »

الفتاة — (بعد قليل عائدة إل سخريتها) ولكن
خبرني أى سلاح ستستعمله في قتل قلبي المسكين .
إنني أفضل للبندقة لأنها تقتل بسرعة فلا يتألم
المقتول بها إلا مرة واحدة ...

الفتى — ما زلت على سخريتك . ترى هل
تقدرين موقفك الآن ؟

الفتاة — (تفيق قليلا قليلا وتنظر إليه نظرة من أخطاء)

إنني آسفة لقد خيل إلي أني أستطيع الترفيه عن
نفسينا بهذا الكلام .. (صمت)

الفتاة — (بعد قليل) وإذن سنفترق حقا . ؟

الفتى — ألم تصدق بعد كل هذا ... (صمت)
الفتى — (يقطع الصمت) إن أيام الحب تمر
دائما كالأحلام ، وما أكثر من يشقون بالحب بعد
أن تمر أيامه هذه التي كالأحلام ...

الفتاة — ...

الفتى — لقد فكرت حينما استدعيتك اليوم
في حينما الكبير الذي سيموت ، فكنت أعجب هل
يمكن أن يموت حقا وهو في ريعه ...

الفتاة — ...

الفتى — وفكرت أيضا في قلبك الذي سيقفل ...
فمجيبت هل يمكن أن يقتل قلب يحيا بحياتين ...
حياة الحب ... وحياته هو ؟

الفتاة —

الفتى — وفكرت أخيراً في أمر هذه الدنيا ،
التي تأبى أن تبقى للسعيد سمادته بينما يكون في أشد
الحاجة إليها . فرحت ألينها وألينا

الفتاة —

الفتى — وحينما انتهيت من تفكيرى ثرت على
نفسى لأنها كانت السبب الأول في كل هذا
الفتاة —

الفتى — وطعمت في عفرانك . ولكن يظهر
أننى لن أناله ...

الفتاة — (تفارق الصمت) ولم لا تناله ؟ إنك
جبر فيها تفعل . سوف أغفر لك يا صاحبي ... بل
ليغفر لك الله ...

الفتى — (بفرح) الآن أنا سعيد . وسوف
أقوم بما استدعيتك من أجله . ولكن دعينا أولا

نميش لحظة في جو حبنا ... لحظة أخيرة ...

الفتاة — كلا ...

الفتى — عجيب . ولكن لا يجب أن نفترق هكذا . على الأقل يجب أن أقبلك ...

الفتاة — كلا لن تقبلني (تستدرك) بل قبلني عشر قبلات على ذكرها تساعدني على الحياة عشر سنوات

الفتى — وبعد عشر السنوات ؟

الفتاة — أوه، سأشكر الله لو استطعت أن أعيش عشر سنوات ...

الفتى — إنك تزعميني . بل سيطول بك العمر أكثر باذن الله ... وهاتي الآن فك ...

الفتاة — كلا ليس بهذه السرعة . يجب أن نجلس أولاً في مكان بعيد عن الميون إذا كانت هناك عيون ، لا تنس أننا في شارع ...

الفتى — حسن . بعد خطوات سنصل إلى حديقة صغيرة على جانب الشارع يمكننا أن نجلس بين أشجارها فلا يرانا أحد ...

(يوسمان الخطي نحو المدينة والصمت يسودها)

الفتى — (بعد أن جلس بجوار الفتاة على أحد المقاعد الخفية عن الأنظار بالحديقة التي تصدها) : والآن هل يمكنك أن تتفضلي باعطائي فك ؟

الفتاة — (باسمه وهي تحرب منه فيها) بالطبع

ها هو ذا يا عزيزي ... فلتطبع عليه عشر قبلات كاملة طويلة ...

الفتى — (وهو يهم بتقبلها) ولنفس كل شيء الساعة

الفتاة — (ضاحكة) ولكن حذار أن تنهز هذه الفرصة فتقتل قلبي

الفتى — (في استعطاف) أرجوك ، دعي هذا الآن وإلا أفسدت جو هذه اللحظة (يقبلها)

الفتى — (بعد أن قبلها عشر قبلات) انتهت القبلات العشر ... (يريد أن يبعد فمه عن فمها فتثبت برقبته وتدق فمها من فمه ثانية)

الفتاة — قباني أيضاً . اعطاني على العشر قبلة (يتسم) أو نصف قبلة إذا كانت القبلة كثيرة (يقبلها) الفتى — (وهو يستدل في جلسته بعد أن قبلها) ، والآن ...

الفتاة — أ ... أقتل قلبي ...

الفتى — (يستمر في قول ما كان سيقوله) والآن دعينا نستعد شيئاً من ذكريات حبنا

الفتاة — (تصمت في تفكير ثم يتسم وهي تقالب دموعها) حسن . هل تذكر يوم كنا نسير بجوار إحدى الترع للصغيرة بقرية (النصارية) وأنت تقرأ لي شمرأ مشوراً قلت لي إنني أنا التي أوحيت به إليك ، فلما أخذت منك الحفاصة مأخذها وأنت تتلوه ذات قدمك فسقطت في التربة ، وطارت الورقة التي كتبت فيها شمرك في الهواء

الفتى — أوه، أذكر هذا جيداً ، ولقد خاصمتك يوم لأنني عند ما خرجت من ماء التربة ظلت تضحكين على طول الطريق ...

الفتاة — وهل تذكر يوم جذبتني من أنفي لتقبلني قبلة . قلت لي يوماً إنها ستكون : « فتجاً جديداً في عالم القبلات »

الفتى — أذكر هذا تماماً ...

الفتاة — وهل تذكر يوم (فرستى) فى أذنى بشدة جعلتنى أصرخ من الألم حينما طلبت منك أن تعطينى درساً فى قواعد اللغة العربية . فلم ألقه مما تقول شيئاً ...

الفتى — أجل أجل . وأعتقد الآن أنى كنت قاسياً على أذنك يومذاك . فلقد احترت من أثر (القرصة)

الفتاة — وهل تذكرت يوم مثلت مى دور الزوج ، ومثلت معك دور الزوجة (تمست هنية وهى تبسم فى تحسر وخين) حينما كنت تأمرنى أن أفضل كذا ، أو أترك كذا ، فإذا رفضت اتخذت هيئة الزوج الغضبان على زوجته وهددتنى بالضرب أو الطلاق

الفتى — (يبسم فى تحسر ولا يجيب)

الفتاة — (تهم بأن تستمر فى ذكرياتها ثم تتردد فجأة) بحسبك هذه الذكريات ، هيا اقتل قلبى الآن
الفتى — (يتأهب) حسن . (يقب) . الوداع .
الفتاة — (صارخة فى ضراعة) كلا . . . كلا . . .
انتظر ...

الفتى — لقد طال الانتظار يا عزيزتى ...

الفتاة — لحظة أخرى ...

الفتى — كلا . . . ولنفترق ونحن على أحسن ما نكون من الصفاء . . . إذا كان ما بيننا الآن صفاء ... وداعاً ...

الفتاة — آه ... قلبى ...

الفتى — قتيل ؟ أليس كذلك ؟ حسن . الذنب ذنبك فأنت التى طلبت الإسراع فى قتله (يتلطم ريقه)

ولكن يجب أن تمرق أن قلبى هو الآخر قتل .
أو كما هو الواقع قتلت منه قطعة ، والرصاصة التى قتلت قلبك وقتلت تلك القطعة من قلبى واحدة ...
(للمرة الثالثة) الوداع . سوف تذكرينى بخير . أليس كذلك ؟ كلا ، بل انسينى ...

الفتاة — (فى غير وعى وهى تضم إلى صدرها اليد التى قبلها وبصرها تائه) وداعاً . . . وداعاً يا حبيبى .
(تردد للمرة الثانية وهى ذاهلة سائمة) . يا حبيبى .

(الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

(يتقدم إليها ويتناول يدها ليقبها)

الفتاة — (تمنعه من تقبيل يدها) بل انتظر حتى أقف لأودعك بدورى ...

الفتى — لا . إنك لن تستطيعى الوقوف وما زال الثقب الذى أحدثته فى قلبك الرصاصة التى أطلقتها عليه ينبثق منه الدم . ودعيني وأنت جالسة
الفتاة — (دهشة وكاشتها أفادت من غيبوبة) إذن سنفترق !

الفتى — (مندهناً) إلى الآن لم تصدق ؟ صيحاً !
الفتاة — (سائمة ذاهلة وهى تمطيه يدها) حسن قبل يدى . (يقبل يدها)

الفتى — وداعاً ...

الفتاة — (فى غير وعى وهى تضم إلى صدرها اليد التى قبلها وبصرها تائه) وداعاً . . . وداعاً يا حبيبى (تردد للمرة الثانية وهى ذاهلة سائمة) ... يا حبيبى ... (الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

الفتى — كلا (يا حبيبى) لا تقولى يا حبيبى

الفتاة — (وهى تبسم والدمع على خديها يتلأأ)

وأنت أيضاً يا حبيبى لا تقل يا حبيبى !

عبد الحليم محمود العسبرى

حَاجِي بَابَا أَصْبَهَانِي

لِلْكَاتِبِ الْإِنْجِلِيْزِيِّ "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عَبْدِ اللطيف النَّشَار

الفصل الحادى والستون

عقوبة حاجى بابا تقع على نادره

أقمت في غيبى عشرة أيام طوال متعبة دون أن يصلنى خبر عن ملا نادان وقد خشيت أن يكون حظه المار قد لازمه أو أن الأمور لم تجرى فى المجرى الذى كان ينتظره . ولم يكن بين همدان والقرية التى أنا فيها اتصال كبير . وقد بدأت أياأس من رؤية جوادى وما عليه من سرج ثمين وبئست كذلك من رؤية ملابسى ، إلى أن حدث فى مساء أحد الأيام أن فلاحاً كان قد ذهب أخيراً إلى همدان ليستغل فى الحقول وعاد منها عابساً ، وألقت كلماته التى رواها بصيصاً من النور على غاوى فقد قال : إن قلنا عظيماً حدث لقدوم نازاكشى وقبضه على ابن صاحب الضيعة وأخذ الجواد وحمله أسيره إلى العاصمة منهما إياه بقتل شيخ العلماء فى طهران . وإننى أترك للقارى الحكيم على ما شمرت به عند سماعى هذه القصة فقد أدركت السر فى صمت الملا نادان . ورغم أنى شمرت بأن لا خوف على فى ذلك الوقت فأنى كنت أشك فى دوام هذا للشعور وأعلنت فى القرية أننى استرجعت كامل صحى واستأذنت مضيئى وأسرعت إلى همدان لأتحقق مما رواه لى الفلاح

وكان والملا نادان معروفاً فى المدينة فلم يصعب على أن أهتدى إلى داره وقد أحجمت عن دخول

الدار والاستفهام عما تم فى أمر نادان ، ولكننى ذهبت إلى حلاق مجاور للدار لترضين الأول أنى أردت أن أقصر شعر رأسى ووجهى ، والثانى وثوق أنه هو الذى يمكن أن يروى لى حقيقة ما حدث بمخافته . وقد صدق ظنى فأنى وجدت الحلاق ثاراً ، ولم أكد أسأله عن أخبار اليوم قائلاً له إننى أجهل تلك القصة المجهية التى حدثت أخيراً والتى يتحدث عنها القوم بله الدهشة حتى تراجع خطواتى إلى الوراء متمججاً وقال : « من أين أتيت إذن حتى خفيت عليك قصة ذلك الأبله الملا نادان ؟ إنه لم يكتف بقتل شيخ العلماء حتى لبس ثيابه ولم يكفه كل ذلك حتى سرق جواداً من أكرم جواد الحاكم ، ياله من نذل خسيس بأ كل المال الحرام ! »

فرجوت من محدثى أن يقص على كل تفاصيل القصة التى تظاهرت بجهلها جهلاً تاماً فسررد لى ما باتى من غير انتظار لتكرار السؤال :

« منذ ثمانية أيام تقريباً جاء هذا الملا إلى بيت أبيه راكباً جواداً مطهماً ولا بساً حلة تليق بمقام من المظاه أو قائد من القواد ، وليس برجل من رجال الدين فقد كان عليه شيلان من أجود الأنواع وكان يشبه حقيقة شيخ العلماء . وأحدث ظهوره بهذه الحلة الأنيقة وهذا الشكل البديع تأثيراً عريباً إذمن مدة وجيزة قبل حضوره كان قد شاع عنه أنه أنى بعمل أغضب الشاه فطرد من طهران طرداً قبيحاً

وقد ترجل عن جواده فى تيه وعجب ، وحين سئل عن طرده من العاصمة لم بأبه للأمر كثيراً وقال : إنه أخبر بصفة سرية أن غضب الشاه عايه وقتى وأنه للتقليل من وقته أهدى إليه هذا الجواد

الأمور التي رواها لي الحلاق وحزنت حزناً شديداً على فقدي للجواد والملابس الثمالية ولكنني حمدت الله على سلامتي حين فكرت في أنني لن أسأل عن حوادثي الأخيرة إذا قطع رأس الملا نادان، وشمرت أنني لا أزال في حفظ الثمينة وصفاء الحظ بينما قدر على الملا أن يكون شقيقاً منكوداً، وإلا فلماذا استبدلنا ملابسنا؟ ولماذا أخذ جوادى في وقت لم أجد فيه بداً من الخضوع لما طلبه مني؟

ولكن شعورى بأن الملا سينال عقاب ما لم يمن بدلا منى جعلنى أحس ولو مؤقتاً بالخطر ما دمت في إيران. ولذلك صممت على أن أتابع خطى الأولى وأن أترك إيران دون إبطاء؛ وعزيت نفسى عن فقدان الجواد والملابس بما بقى لي من المال وهو الخطة والتسعون طوماناً. وهذا المبلغ كاف لما أحتاج إليه الآن. وبعد ذلك تذكرت أن الله قادر على كل شيء فأملت في المستقبل. وقد يما كانت هذه الثقة بالله تزيه وسلواناً لكثير من التمساء أمثال وشمرت أنها ستقبنى ما حبيت من مصائب خفية

الفصل الثانى والستون

ماجى بابا سمع بقية قصة المام فبرز

عزمت على أن أزرع ثوب المشايخ إذ لم ينلنى منه خير وتزيت بزى التجار ولحقت بقافلة كانت ذاهبة إلى كرمان شاه وانفقت مع رئيسها على استئجار بغل هزيل مقابل أجر تافه. ولما لم يكن لدى من البضائع غير ما أحمله على ظهري فقد اقتنمت به. ووصلنا إلى كرمان شاه في اليوم السابع من رحيلنا وهنا كان لابد لي من البحث عن قافلة أخرى. ولما سألت قبل لي إن ذلك يستدعى شهراً من الزمن

وصدق كل إنسان روايته واستقبل في منزل أبيه بالاجلال والاحترام؛ ولكن لسوء حظه أنه كان في اليوم التالي يتأهب لركوب الجواد وإذا بنازا كشي يدخل المنزل وكان قد وصل من طهران ثم أخذ ينظر إلى الجواد ويفحص اللجام والسرّج المذهبين ثم استفهم عن اسم صاحب الجواد فأخبروه أنه الملا نادان

قال منضياً: «الملا نادان! من هذا السكّاب الذى تقولون عنه؟ إن هذا جواد سيدى الحاكم ومن يقول بغير ذلك فقد كذب سواء كان ملا أو غير ملا»

وفي تلك اللحظة حاول الملا أن يختبئ عن أنظار النازا كشي وهو أحد الدين أجلونا عن العاصمة يوم عاره وفضيحتته، وكان في لبس ملابس شيخ العلماء وعمامته ما أظهر أمام عينيه فظاعة جرمه. ولحته عين للضابط فصاح بأعلى صوته: «اقبضوا عليه! أزهقوا روحه! إنه هو نفس الرجل! أقسم برأس على أن هذا قاتل شيخ العلماء»

وكان النازا كشي في تلك اللحظة قد ترجل وقبض على الملا بمساعدة أتباعه والحضور الذين أدركوا أنه يعمل تنفيذاً لأوامر الحكومة وقد أخذ الملا يبرى نفسه بالقسم يتلو القسم على أنه لم يقتل ولم يسرق وأنه مستعد أن يحلف على المصحف الشريف أنه برىء

وقص الحلاق ما دار بين الملا وبين النازا كشي بصدق وأمانة، وكانت النتيجة أن أخذ الأخير الملا معه إلى طهران رغم توسلاته وتوسلات والده ورجاء أصدقائه ومساعدتهم. وقد شمرت بما لم يشمر به إنسان من الحسرة والحزن على ما ألم بصاحبي من

نقلها إلى كربلاء ، وقال لي قائد القافلة وكان رجلاً كثير الكلام زكي القلب كمادة رجال القوافل من أمثاله

« يظهر لي أنك غريب وإلا لما سألت عن أمر معروف مشهور. إننا نحمل أشياء عزيزة إلى كربلاء » فأجبتني : « نعم إنني غريب قادم من جهة بعيدة ولا علم لي بشيء مما تقول فحدثني بالله ماذا تنقلون إلى كربلاء »

فقال محدثي : « ما هذا ؟ ألم يصل إلى ملكك شيء عن مقتل الملا باثني ؟ أما سمعت كيف فارق الحياة في الحمام وكيف ظهر شبحه بعد ذلك ممتطياً جواداً ثم ظهر في منزل الحرم وكيف أن ذلك الشبح اختفى على جواد من جياد الحاكم ؟ أين كنت تعيش أثناء وقوع هذه الحوادث ؟ »

قال ذلك وهو يشير بيديه ويهز كتفيه أرعبني ما قاله الرجل فتظاهرت بالجهل وطلبت إليه أن يشق غليلي عن تلك الأمور التي تحدث عنها ، فأجابني إلى ما طلبت بحالة لولا أنني كنت متورطاً في نفس تلك الحوادث لأثارت عجبى ودهشقى ، قال : « ثق أولاً أنني أقص عليك أموراً حقيقية لا مجال للريب في صحتها لأنني كنت في مكان وقوعها في الوقت الذي وقعت فيه. ذهب شيخ العلماء في مساء أحد الأيام بعد أن أدى فريضة المغرب إلى الحمام ثم رجع إلى داره محاطاً بأتباعه ودخل إلى خلوة لينام تلك الليلة في جناح الحرم

ولست في حاجة إلى إخبارك بأن معظم حمامات إيران تفتح أبوابها للنساء أول النهار إلى ساعة معينة منه وبعد ذلك يخص للرجال في صباح اليوم التالي لليوم الذي استعمر فيه

لأن اللصوص الأكراد يغرون على الحدود فلا تقدم قافلة على اجتيازها إلا إذا كان عدد أفرادها كبيراً ولكن قيل لي إن قافلة من الحجاج قامت قبل وصولنا بيوم واحد إلى كربلاء وأنه يمكنني بقليل من الجهد أن ألحق بها قبل أن تصل إلى المنطقة التي يهددها الأكراد فلم أتردد في اختياري ، ولحقت بالقافلة بعد ما خبأت مالي في حزامي ولم يكن معي غير عصا غليظة ...

وفي مساء اليوم الثالث وبعد أن أنهك التعب قواي رأيت عن بعد نيراناً يتصاعد دخانها فشرحت صدري رؤيتها وقصدت إليها وتبينت حين اقتربت منها بغالا وماشية ترمي في السهل المنبسط فأدركت أنني لم أكن مخطئاً حين حسبت للقافلة قرينة

وشاهدت حين اقتربت من الوهاد التي تكدست فيها الأحمال خيمة صغيرة بيضاء منصوبة في ناحية غير بعيدة وقد دلتني شكايها على وجود حجاج من ذوى السكاة بين أفراد القافلة وأنهم يصحبون نساءهم لأنني رأيت هودجاً على مقربة من الخيمة فتقدمت من رئيس القافلة كأحد الحجاج ، ورأيت منه استعداداً تاماً لأعطائي بغلاً يحملني في سفري وأردت ألا يتنبه أحد لوجودي نظراً لحالتي للميثة التي كنت فيها غير أن الخمسة والتسعين قطعة ذهبية التي في حزامي جعلتني لا أستطيع حبس خيالي وكظم زهوى كمادة مواطني الإيرانيين وشاهدت بين الأحمال على مقربة من مكان أكياساً عديدة نخطت على أجسام مستطيلة منتشرة على الأرض أزواجاً بشكل يدل على أنها كانت محمولة على ظهور الرجال . ولما كان منظرها لم تألفه عيناى فقد سألت عنها فقبل لي إن بالأكياس جثثاً يراد

الملا باثى ذهبت زوجته بين أتباعها وعبيدها إلى نفس الحمام، وكان ذهابها عند شروق الشمس وكانت هي ومن معها أول من دخل الحمام في ذلك اليوم

ولشدة احترام أتباعها لها لم تستطع إحداهن أن تتقدمها إلى منطس الماء الساخن، وكان لا ينير قبو الحمام غير شمع الفجر، فنزلت زوج الملا باثى إلى المنطس في ظلام دامس، فتخيل رعبها وخوفها حين تقدمت خطواتين في الماء فوقعت يدها على جسم من اللحم عائم

ولم تستطع السيدة إلا أن تصرخ صرخة حادة وإلا أن تسرع إلى الخروج من الماء ثم أغشى عليها من فرط ما نالها من الرعب

وتخيل ذعر الخادومات مما حدث فقد كانت كل واحدة منهن تتقدم وفي يدها مصباح لتري السبب في رعب سيدتهن ثم لا تلبث أن تصرخ صرخة وترتد مذعورة صرعية إلى الوراء، ولم تتحقق واحدة منهن ذلك الجسم العائم في الماء، وأخيراً تشجعت رئيسة الخادومات للمجوز ونظرت متجولة إلى المنطس. ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أن الجسم العائم جثة رجل ثم تبص ذلك صرخات عديدة وصياح حاد أعاد رشاد زوج الملا إليها وجعلها تشارك خادوماتها، ولكنهن لم يعرفن الجثة التي انتفخت وتغير لونها ثم جرى بمصباح ونظرن إلى وجه الجثة فصرخن جميعاً: « إنه الملا باثى ! إنه الملا باثى » وعادت السيدة إلى إغمائها وبدأ الرقيقات في صراخهن، واختلط حابلهن بالنابل حتى ظن من رآهن أنهن في يوم القيامة. غير أن إحدى الخادومات قالت في وسط ذلك الصراخ والمويل الذي اشترك فيه جميع النسوة: لا يمكن أن يكون هذا سيدنا

فقد رأيت ببني رأسي يعود من الحمام سالماً وأصلحت له الفراش وأنا على يقين أنه نام بعد ذلك فيه. وليس من الممكن أن يكون نائماً في فراشه في نفس الوقت الذي يكون فيه ميتاً في هذا الحمام. كلا ! هذا إنسان غيره بلا رب »

وقد زادت هذه الملاحظة من رعب النسوة وذعرهن من ذى قبل لأنهن تصورن أن من رآه الخادمة كان بلا شك عفريت الملا باثى

وكانت زوج الملا قد عادت إلى رشدها فقالت مشيرة إلى وجه الجثة: « أنظروا إلى هذا الخلدش الذي أحدثته في وجهه بالأمس فقط »

وقالت إحدى الخادومات: « وهذا مكان خصلة للشعر التي اقتلعتها من ذقنه »

وسيت هذه الذكرى اللذيذة انهمال الدموع من عيني السيدة الأرملة فلم يوقفها إلا تأكيد الخادومات بأن الملا باثى لا يزال على قيد الحياة. وقالت لها خادمة: « من إذن الذي أوصد الباب من الداخل وأمرني بالانصراف؟ ومن الذي سمعنا غطيظه؟ »

وقد اقتنعت الخادمة بصحة قولها فلبست ملابسها وأسرعت إلى الخارج لتري سيدها نائماً في حجرته دون شك ولا ريب

وهنا قالت إحدى الخادومات مشيرة إلى الجثة: « ولكن إذا كان سيدي نائماً في منزله فلمن هذه الجثة التي تراها »

فقال أخرى: « يجب أن يكون هذا عفريت سيدي إذ لا يقل أن يكون الإنسان ذا بدنين يمشي بواحد ويموت بالآخر »

وقالت ثالثة ذات صوت أجش: « هذا عفريت »

مدمش لا يتصوره العقل»

وكان قد دخل الحمام في ذلك الوقت نسوة أخريات للاستحمام . وبينما كان نسوة شيخ العلماء يفكرن في أمر سيدهن ويفرضن الفروض إذ بالجارية التي كانت قد ذهبت للتحقق من وجود الملابش في منزله قد عادت وأخبرتني بأنها لم تجده ولم تجد غير آثار نومه على الفراش فتعالت للصراخات وارتفع صوت المويل ، ونما الخبر إلى خارج الحمام فتجمع حوله عدد كبير وطلبوا السماح بدخول المكان . وقبل أن يتمكن النساء من لبس ملابسهن وستر أجسادهن المارية امتلأ الحمام بالرجال ولم يحدث قط أن حماماً في طهران اختلط فيه الرجال بالنساء كما حدث ذلك اليوم

وكان المنظر عجيباً من نسوة يندبن ويكيبن ، وأخريات يصرخن ويلطمن ويبحرن فزعات من رؤية الرجال لمن وهن عاريات . ثم جاء أقارب المرحوم وأصدقاءه ومعهم المفاسلون الذين أخذوا الجثة إلى مكان آخر فنسلوها وحنطوها وأعدوها للسفر إلى كربلاء حيث تدفن فيها كما تقر من ذي قبل . وأبدت زوج القتل رغبتها في مرافقة الجثة . واستأجر القوم بنالاً لهذه المهمة . ففي هذه الخيمة التي تراها هناك زوجة للقتيل مع جواربها ، وأما الجثة فهي بين تلك الأكياس . وأما الجثث الأخرى التي تراها فهي بجثث من ماتوا في طهران وفي البلدان التي مرزانياها أثناء السفر . وقد جرى بها لتدفن في كربلاء في كرامة شيخ العلماء إذ قد يشفع فيها يوم القيامة ليدخل أصحابها الجنة »

وهنا سكت محدث وكنت قد ألهم لسان الخوف الذي استول على أثناء سرد القصة فلم أنكم ،

وفكرت في أنني قد أردت الخلاص من خطر دام فألقيت بنفسى في ذلك الخطر ، إذ قد يعرفني خادم من خدم شيخ العلماء . ومنهم من كان بينى وبينه معرفة وصحبة فيستكشف أحرى ويظهر تنكرى وأردت أن أعرف هل لاحظ القوم ملابش التي كنت تركتها في ركن من أركان الحمام ، فقلت لرئيس القافلة : « ماذا تم بعد إخراج الجثة من الحمام ؟ »

فأجابني : « لست أذكر ما حدث ، على أنني أله أن الروايات اختلفت وأن الاشاعات تمددت وأن كل رجل كان له رأى يخالف رأى الآخر ، فقال للبعض : إن شيخ العلماء بعد أن قتل غرقاً رؤى في خلوة وبعد ذلك نام في فراشه . وقال البعض : إنه ظهر في الصباح التالي في منزل رئيس الجلادين وذهب محتطاً جواداً من خيرة جياده . وقد أظهر رئيس الجلادين نفسه ورقة عليها خاتم الملباش وفيها إذن بشرب النبيذ . وبالاختصار فإن اختلاف الراويات وتمدها جملاً المرء لا يعرف أيها يصدق ، غير أن القوم ارتبكوا وتحيروا في تعليل خروج الملباش حيّاً من الحمام (وبذلك شهد جميع خدمه وشهد صاحب الحمام) ثم وجدوه بعد ذلك في المنطس غريقاً ، وكما ازداد الناس في البحث وأكثروا من التعليل زادت حيرتهم وكثر ارتباكهم إلى أن استكشف أمر ألقى على تلك للظلمات قبساً من الضياء إذ وجدوا بعض الملابس الممزقة في ركن مظلم من أركان الحمام ، واستدلوا في غير عشاء على صاحب تلك الملابس وهو شيخ مأفون يدعى حاجى بابا كان تابكاً للامدادان عدو شيخ العلماء اللدود والذي اشتهر بأثرة الشغب والهباج .

كنت أحسد كل ذي سحنة منكرة وملايين خلقه وهيئة رثة لخوفي أن يكون حسن طلعتي سبياً في اتجاه الأنظار إلى . وقد خفت الاقتراب من خدام السيدة زوجة المرجوم خوفاً شديداً فيكنت أدير وجهي إذا ما نظروا إلي الجهة التي كنت فيها وذلك رغم شوقي إلى أن أعرف هل فيهم أحد من بشارقي .

ومر اليوم الأول من رحيلنا دون حدوث أمر فوضت رأسي على وسادة من الأمتعة التي كنا نحملها ونمت الليل كله نوماً هادئاً . وكذلك مر اليوم الثاني وحلني اعتقادي بحسن حظي على أن أبحث عن رفقاء في المسير أفضل من سائقي البغال والجمالين وأخذت أحادث أسقفاً أرمنياً وأتبسط معه حتى جعلته يشعر بواجب الشكر والامتنان لرجل مسلم يميزه شيئاً من اهتمامه . ومر في هذه الأثناء بجانبني أحد الخدم الملاعين فوجف قلبي خوفاً من أن يعرف حقيقتي . ولو أن الملا باثنى نفسه ظهر في هذا الحين لما كان التزامي من رؤيته أكثر من التزامي عند ما رأيت هذا الخادم . وأدبرت وجهي إلى جهة أخرى غير أن الرجل مر ولم يتنبه لوجودي وأعادت هذه الحادثة إلى نفسي الحذر الذي كدت أنجنيه فمزمت على أن أرجع إلى موقعي الأول بين البغالين وتركت الأسقف يفكر في شئونه

وكنا سنمر في اليوم التالي بالجهة غير المأمونة التي تقيم فيها عصابات الأكراد، وسيكون كل فرد في شافل من خوفه على نفسه عن أن يفكر في . ومن اجتازنا تلك الجهة أصبحنا في أرض غير أرض إيران . ويمكنني إذا عرف أمرى أن ألتجأ إلى حامية الأتراك

وجاء ذلك اليوم الخفيف : اليوم الذي لن أنساه

ولما علموا ذلك صاح كل واحد من الموجودين : « حاجي بابا هو القاتل ! لا ريب في أنه هو الذي قتل العالم الأكبر ويجب أن ينال القاتل جزاءه » . وأخذ جميع سكان المدينة يبعثون من حاجي بابا وقد قال كثيرون إن نادان هو القاتل .

وأرسلت الرسل للبحث عن نادان وحاجي بابا وإحضارهما إلى طهران حين أو ميتين ، ولست أرجو أكثر من أن أصادف واحداً منهما فأنا لك مكافأة تعادل أجرة جميع هذه البغال المسافرة إلى كربلاء » أترك لكم جميعاً أن تتصوروا ما كنت أشعر به عند سماعي ذلك الحديث إذا علمتم أنني لم أنمود مقابلة الخطوب والكاره بقلب جري وأنني ظالماً فضلت سرعة قدي وخفتي في الفرار على أية وسيلة أخرى من وسائل الأمن والسلامة . ولكنني أدركت أن التفتقر في موقعي الحاضر لا يجديني نفعاً بل هو شر من الثبات والتقدم إذ لم يبق بيني وبين حدود إيران غير مسافة قليلة أصير بعدها في أرض حكومة أخرى فمزمت على أن أخفي نفسي ما استطعت وأن أسير في طريق يحذر من يعلم أنه يحاط بالخطر من كل ناحية

الفصل الثالث والستون

هاجى بابا يستكشف أمره ويقبض عليه
غير أنه حسن مظهره يمكنه من التخلص

تابت للقافلة سيرها في الصباح التالي . ولكني أتجنب الأنظار اخترت أن أسير بين البغالين والجمالين وتقدمتنا زوجة شيخ العلماء في هودجها وبمها أتباعها ومن خلفهم الجمال التي تحمل الجثث وبعد ذلك باقي القافلة من بنغال محملة تسير في خط متعرج طويل في طريق كربلاء

طول عمرى والذى سأظل أذكره ما دمت أذكر شيئاً من حوادثي . وذلك أن القافلة مشيت مشية عسكرية وشهر كل من كان معه سلاح سلاحه . وذكروني ذلك النظر بمنظر آخر يشبهه وقد قصصته في جزء آخر من هذا الكتاب حينما كنت في حجة عثمان أغا ولاقينا جملة التركمان . وما أشبه خوفى ورعبى في هذه الحادثة بخوفى ورعبى في تلك . وإني أصدقكم القول أن الزمن لم يغير من عزيمتى ولم يبق أعصاب ولم يسكن فؤادى

سارت القافلة في نظام وعلى استعداد لكل طارىء تحت قيادة جاويز وتقدمها الدليل فكون هو وأتباع زوجة الملا باشي ما يشبه طليعة الجيش وأما أنا فقد كان لخوفى على نفسى أكثر من سبب واحد . ولذلك اختلطت برجال القافلة وحدث الله على أن ليس منى من المتاع غير المال الذى أحمله في حزامى

وكنائس في سكون تام فلم يكن يسمع إلا صوت أجراس القافلة . وسبعت في بحر من الخيال وجعلت أفكر فيما سأفعل بالحمة والتسمين طوماناً عند ما أصل إلى بغداد إذ حانت النفقة منى فرأيت دليل القافلة قادماً إلى بصحبه أجمى حسن المندام وقد أشار الدليل بيده نحوى وقال لرفيقه : « هذا هو الرجل نفسه »

فقلت لنفسى : « ورأس على لقد قلب الحظ لي ظهر المجن وتنكر لي القدر بعد أن سافقاني » .

نظرت إلى رفيق الدليل ولم ألبث أن تبينت فيه شخص عبد الكريم الذى استوليت منه على مائة الطومان في قرية سيراباد بواسطة الخطاب الذى كتبته وبصمت عليه بخاتم المرحوم الملا باشي .

وكنت على وشك الترحم على نفسى غير أن الدليل خفف من جزمى وقال : « لقد كنت آخر رجل التحق بالقافلة وقد تستطيع إخبارنا عن المكان الذى يظن أن اللص على خان موجود فيه على الحدود » فأجيبته قلقاً مضطرباً ، بيد أنى جعلت أطيل للنظر إلى عبد الكريم وكذلك أخذ هو يتحدث في بسنيه اللتين ترسلان النظر حاداً نفاذاً فكادت تنخلع أضلأى ويثب فؤادى من الرعب .

وظل عبد الكريم ينظر إلى كمن كان يشك في أمر بينهما كنت أحاول للفرار من أمامه . غير أنه لم يلبث أن استجمع أمره وصاح : « وجدته ! وجدته ! إنه هو بسينه ! إنه الرجل الذى ضحك على ذقنى وسلب مائة الطومان » .

ثم وجه الخطاب إلى الواقفين حولنا وقال : « إن كنتم تريدون لصاً فما كم هو اللص . اقبضوا عليه بحق النبى الكريم ! »

فبدأت أحتج احتجاجاً شديداً وأنكر التهمة التى ينسبها إلى عبد الكريم وكان من المحتمل أن أجمع في إقناع الواقفين حولى بأننى اتهمت ظالماً وعدواناً وأننى برىء لولا أن جاء لسوء حظى في تلك اللحظة المأذون للشرعى وعرفنى لأول وهلة وناداني باسمى فافتضح أمرى واتهمت بقتل شيخ العلماء وشملت هذه الحادثة كل من كان في القافلة وأحدثت لفظاً شديداً وجلبة وضوضاء حتى نسي الخوف من قطاع الطرق إلا كراد إلى حين ، وأقبل على كل فرد في القافلة ينظر إلى سحتى ويحدث في وجهى . قبض على وربطت يداى إلى ظهري وأوشكت أن أسحب على وجهى فأعرض أمام زوجة شيخ

للملأ وإذا بالحظ يساعدي والقدر يهدي لي سبيل الخلاص

سمعت نفاة صرخة عظيمة دوت عن بعد ،
ورأيت كوكبة من الفرسان تنعذر إلينا من جانب
للجل المجاور فأدركت وأنا أبتهل فرحاً أن هؤلاء
الفرسان هم الأكراذ الذين ألقوا الرعب في القلوب
وخشيتهم القوافل

سرى الخوف والدهر في القافلة كلها وحل فيها
الاضطراب والارتباك فلم تستطع المقاومة ، إذ كان
يموزها الاقدام والقوة فهرب راكبو الدواب وخاف
البغالون على بنالهم فقطعوا حبال الأحمال وتركوها
منتشرة في السهل في متناول يد اللصوص ونحت
رحمتهم ، وكذلك أتى ما كان على ظهور الجبال من
الجلث فكانت ترى مبثرة في كل مكان وقد لاحظت
أن الكيس الذي فيه جثة الملا باشي سقط في نهر
هناك وكأنما القدر لم يكتف بإغراق شيخ الملأ
حتى أغرق جثته . وبالاختصار فقد عمت الفوضى
في القافلة وانتشر الهياج وبذلك انفردت بنفسى
فخلت ونانى بسهولة ولاحظت أن الأكراذ وجهوا
جل اهتمامهم إلى الهودج ومن حوله من الأنباع
لأنهم توقعوا أن يجدوا به من هو خليف بالأسر من
ذوى المكانة ، وصرى وأتلج صدرى أن أجد من
كانوا منذ لحظة يسيرة يدبرون لي وسائل الخراب
والدمار وينظرون إلى كمن قضى عليه أصبحوا هم
أنفسهم في نفس الحالة التي اختارونها لي وحل بهم
الخطب الذي كنت فيه والمصاب الذي نجوت منه

ولقد ذهب تهديد أتباع الأرملة ووعيدم سدى
ولم تجد مقاومتهم ولم يمنع مهاجمهم غلاظ الأكباد
من تحجى القلوب ، مانع عن السلب والنهب وأمر

من ينتظرون له فدية . وعلمت أن نجم حياتى قد عاد
إلى تألقه وإشراقه ، لأن من يملك متاعاً أو بلبس
ثياباً ثم على نعمة وبراء قصد إليه اللصوص ،
أما أنا وبنتي الحقيير فكنا في حالة لا تسترعى أنظارهم
ولا تستدعى أى اهتمام ، فسرت بلا مشقة ولا عناء
في طريقى إلى مقصدي وليس دونى طائق إذ لم يكن
لي بين الجلث المنتشرة هنا وهناك قريب أو صاحب
أدفع عنه فدية ، وكنت حراً كالهواء طليقاً كاللأ ،
فتابعت طريقى حتى تخلصت من تلك الأخطار
ونجوت من المصائب التي كانت تحيط بي بمسجزة هي
أشبه بالسحر قائلاً : « بارك الله في قدر يرعاني وحظ
يخدمنى وتوفيق ليس بعمه من توفيق »

الفصل الرابع والستون

الوصول إلى بفراد . مقابلة حاجى بابا لسيده الأول
اتجاه نظره للنجارة

تركت أرملة الملا باشي وعبيدها وأتباعها بين
أيدى الأكراذ وأسرعت في طريقى لألوى على
شئ محاذراً أن يحدث أحداً بعد الذى حدث أخيراً
بل اتبعت في سبرى خطة لا تسترعى الأنظار ولا تثير
الاهتمام

رأيت في طريقى بعض من أفلتوا من الأكراذ
ولكنهم لم يعتمدوا عن مكان الحادثة كثيراً إذ كان
لكل منهم بشية في القافلة فحاموا حولها رجاء التمكن
من متاع أو مساعدة صديق

وكنت أنا الوحيد الذي لا ناقة له في القافلة
ولا جل فبعد أن سرت فرسخين أو ثلاثة أمنت
للمطريق الذى لم يشاركنى فيه أحد وصرى بخاطرى
حوادث حياتى كلها واستعرضت أمام مخيلتى

ما شاهدت وما قاسيت وانتهيت إلى النتيجة الآتية:
قلت في نفسي : « مادم بخدمتي الحظ
ويساعدني القدر فلا أسعين إلى مطامعي ولأجرب
وراء أغراضى ورجوت أن يكون فشلي الأخير
مقدمة لتحقيق آمالي وإدراك ما أطمع فيه من نعمة
وثرء »

وقلت : « في حزامي خمسة وتسعون طوماناً
وطريق للعمل مفتوح أمامي فلو أن الملا نادان تقطع
جسمه على آلة التعذيب وأرملة شيخ الملأ قبض
عليها الأكراد وقتلوا فساداً بمنى من المعجب
في مشيتي ولتبه في مسيري كأحسن رجل في
إيران ؟ »

وأخيراً رأيت قباب بغداد ومبانيها ثم وصلت
إليها فدخلتها غريباً جاهلاً أحياءها، وكنت أعلم أنني
أستطيع العثور على خان في كل بقعة من المدينة
ولكنني تركت البغل يقودني حيث شاء

وكان البغل على دراية تامة بطرق المدينة
وشوارعها فوصل بي إلى خان كبير لاشك أنه كان
معتاداً أن يبيت فيه في رحلات القوافل . وعند
اجتياز عتبة الخان نهق بضع نهقات منتظراً سماع
الجواب من رفاقه في اصطبل الخان

وكنت أشعر بضيق وانقباض صدرى، وزاد في
اغتيابى وسعادتي، إن صح أن يسمي ما كنت أشعر
به سعادة أنني أبصرت جماعة من مواطني في رجة
الدار، ولم ألبث أن أدركت أن الخان مكان تلاميهم
جملت أخفف عن نفسي بقولي إن مظهرى

لا يدعو إلى الالتفات ولا يجلب النظر وكم كانت
خبيثتى حين ظهر أن الأمر على عكس ما ظننت
إذا ما كدت أترجل حتى وجهت إلى آلاف من

الأسئلة فقد كان قوم ينتظرون للقافلة من آونة لأخرى
وكان التجار ينتظرون وصول بضائهم بفارغ الصبر
وظن الجميع أن في إمكان الإفشاء إليهم بما بودون
أجبت إجابات تناسب المقام غير أنني عزمت
على أن أترك قوماً فضوليين لا يفرغون من أسئلتهم
كهؤلاء القوم وأن أرحل عنهم إلى مكان آخر
أختفي فيه

وعلى ذلك تركت بغلي تحت رحمة الأقدار معللاً
لنفس بأن صاحبه لا يلبث أن يحضر ويأخذه ويمت
ناحية أخرى من نواحي المدينة

بدأت باتعام تنكري ففرت قلنسوتي المصنوعة
من جلد النعم بما يضمه أهل المدينة على رؤوسهم
وهو كيس طويل أحمر اللون من قماش يتدلى أعلاه
إلى الظهر . وربطته على رأسي بقطعة ملونة من الحرير
وابتعت ثوباً قديماً من الثياب التي يلبسها الأتراك
عادة . ولما لبسته فوق قفطاني ظهرت كالمثانيين سواء
بسواء ثم أكملت هندامى بمخداتين لونهما أحمر

وبعد ذلك فكرت في أن أقدم نفسي إلى عائلة
سيدي القديم عثمان أغا لأنني بواسطتها أستطيع
أن أتصل بمعارف في المدينة وأن أقدم في ميدان
التجارة

وانطلقت في المدينة أسير في أسواقها لأسأل
عن ضالتي وكنت أقف على كل بائع جلد إذ كنت
أذكر أن صاحبي منرم بتجارة الجلود، وذكرت أيضاً
كل ما كان يقصه على أثناء رحلاتنا حتى تصورت
أنني أصل إلى باب داره من غير سؤال

وأخيراً انتهت حيرتى هذه بأن وقفت أمام
حانوت كبير من حوانيت البخاريين وسألت أصحابه
عما إذا كانوا يعرفون شيئاً من رجل اسمه عثمان أغا

من بغداد ، فسمعت صوتاً تعرفه أذنأى حق المعرفة
يجيبني : « من يريدني ؟ أنا عثمان أغا » .

وتصور أيها القارئ مقدار سرورى ودهشتى
فقد كان التكلم هو نفس عثمان أغا ذلك الشيخ
الهرم ... دهشت غاية الدهشة من مقابلتى إياه كما
دهشت سابقاً من رؤيتى له فى طهران ، وكذلك
دهش هو من مقابلتى وتقصصت عليه من حكاياتى
مارأيت أن أقصه عليه ضروريا وروى لى هو الآخر
حديثه الآتى :

ترك عثمان أغا طهران وفى عزمه مواصلة السير
إلى الأستانة لجمعها مركزاً لتجارته ولكنه سمع أن
أخطاراً عظيمة تهدد المسافرين بين أريقان وأرضروم
إذ لا يسلم المار فى تلك الجهة من السرقة ففكر فى
زيارة بغداد ووصل إليها وهى موطنه الأصل بعد
غيابه عدة أعوام ، وقد وجد أن ابنه قد كبر وبلغ
مبلغ الرجال بعد أن أقام مآتم والده للضائع واتخذ
فى الأسرة مركزه بين والده وأخته . ولكنه بعد
أن رجع والده لم يظهر أى امتعاض بل امتثل كسالم
صحيح الاسلام للآية القرآنية الشريفة التى تحض
على البر بالوالدين وتوجب ألا يقول لهما أف ولا ينهرهما
ويقول لهما قولاً كريماً

ثم أضاف محدثى إلى ذلك أنه وجد زوجته حية
برزق وابنته فى سن يؤهلها للزواج ، وبعد أن انتهى
الرجل من سرد حوادثه على اللفت ونظر إلى نظرة
شراء لم أعهد لها فيه من قبل وقال لى : « يا حاجى بابا
قل لى بحق نبينا محمد ما الذى دفعتك إلى تزويجى
من تلك للشيطانة الخبيثة فى طهران ؟ هل أردت
أن تجعلنى أنسى متاعى وهوى أم أجدها بين
ذراعى تلك المعجوز القبيحة ؟ وحق ما بيننا من ألفه
قديمة وصداقة متينة لقد كانت أيامى معها أنسى
وأخس من الأيام التى قضيتها فى أسر التركان !

هل يلقى بك أن تعامل صديقاً قديماً هذه المعاملة ؟
فا كدت له أننى لم أكن أسى إلا إلى سمادته ،
ولم يكن فى الأمر غاية أخرى ، وأننى حسبت أن
تلك السيدة التى كانت جارية للشاه ذات جمال ومحاسن
تسببها إلى آخر أيامها ، واعتقدت أنها بذلك فوق
ما يمتنى رجل مثلك قضى أعواماً عديدة فى رفقة الجمال .
فصاح صاحبي : « جمال ! أتقول الجمال ؟ إن
تلك الجمال لو قورنت بالشيطانة التى أتيتنى بها لكانت
مثل اللائكة . لبتك زوجتى من ناقة بدلا منها ،
فقد كان فى مكنة ذلك الحيوان النفس أن يكون
هادئاً فى عشرين ساعداً فى مصاحبتي ، وأن يتركنى
أذهب حيث أشاء ، وأفضل ما أريد . بيد أن تلك
الحية الخبيثة لم تجد ما يقطع وقتها من غير الترم
بأنها أسعدتني وشرفتني . لأنها كانت تقود الشاه
من ذقنه وتضطره إلى إجابة رغائبها بخفة روحها
ورشاقة قدما ودلالها وغنجها . وكان لا يمضى الشاه
أمرأ إذا داعبته بلطمة خفيفة »

ثم قال محدثى وقد لطم خده بيده : « أمان !
أمان ! إننى أكاد أشعر بوقع تلك اللطحات الآن »
وأخيراً اقتنع الرجل بأنه لم يكن لى دافع إلى
تزوجها منه غير الرغبة فى إسعاد . ثم دعانى إلى
ضيافته ، وأن اتخذ مقامى فى بيته مدة إقامتى فى بغداد
فقبلت منه ذلك سروراً بلا تردد

حدثت هذه المناقشة بينى وبين عثمان أغا فى
الحجرة الخلفية من حات التاجر البخارى ، وقد
سقانى عثمان أغا مقداراً وافراً من القهوة التى كان
يستحضرها من شرب جاره ، وبعد انتهاء الحديث
عرض على الذهاب إلى حات ولده فى نفس السوق
بعد بضعة حوانيت

وكان اسم ابنه سليمان ، وكان سليمان هذا فى

أخصص وقتي وأقصر جهدي في المستقبل على الحصول على عيش ناعم بواسطة التجارة . وقلت كذلك إن كثيراً من الناس أدر كوا للثني وجمعوا أموالاً طائلة رغم ابتدائهم بحالة أصغر من التي أريد أن أبتدي بها ووافقني عثمان أغا وولده على هذا الرأي ، وعند ما انتهينا من أمر الثروة التي سأجمعها قال عثمان أغا بيت الشعر الذي وعاه أثناء رحلته وهو :

« يسقط الماء من بين الصخور نقطة فنقطة حتى يصير في النهاية بحراً » .

وحين وصلنا إلى هذه النتيجة أخذنا وجهتنا عثمان أغا ونجده وأنا إلى المنزل الذي كان يقع على مسافة غير بعيدة من السوق .

« يتبع » عبد اللطيف النشار

أثناء غياب أبيه قد تزيا بزى للتجار ، وعاش عيشة طيبة ، جالساً طول يومه — عدا أوقات الصلاة — على مصطبة دكانه ، ومن حوله بضاعة مرسومة رسماً بديعاً على رفوف مكرزة على الحوائط وكان سميناً قصير اللقامة يشبه أباه أتم الشبه وحين علم أنني حاجي بابا رحب بي وهش في وجهي ونزع غليونه الذي كان يدخن فيه من فمه وناولني إياه

وقد رجوت أن أتمتع بعيش رغد ومقام طيب في بغداد في صحبة هؤلاء القوم الأخيار ولكي لا أظهر بمظهر المالة عليهم أخبرتهم بأن لدى خمسة وتسعين طوماناً واستشرتهم في أنجمع وسيلة أتبعها لأربح منها في التجارة وقلت لهم إنني قد نعتت من حياة التجارب وكثرة الطواف وإنني عزمت على أن

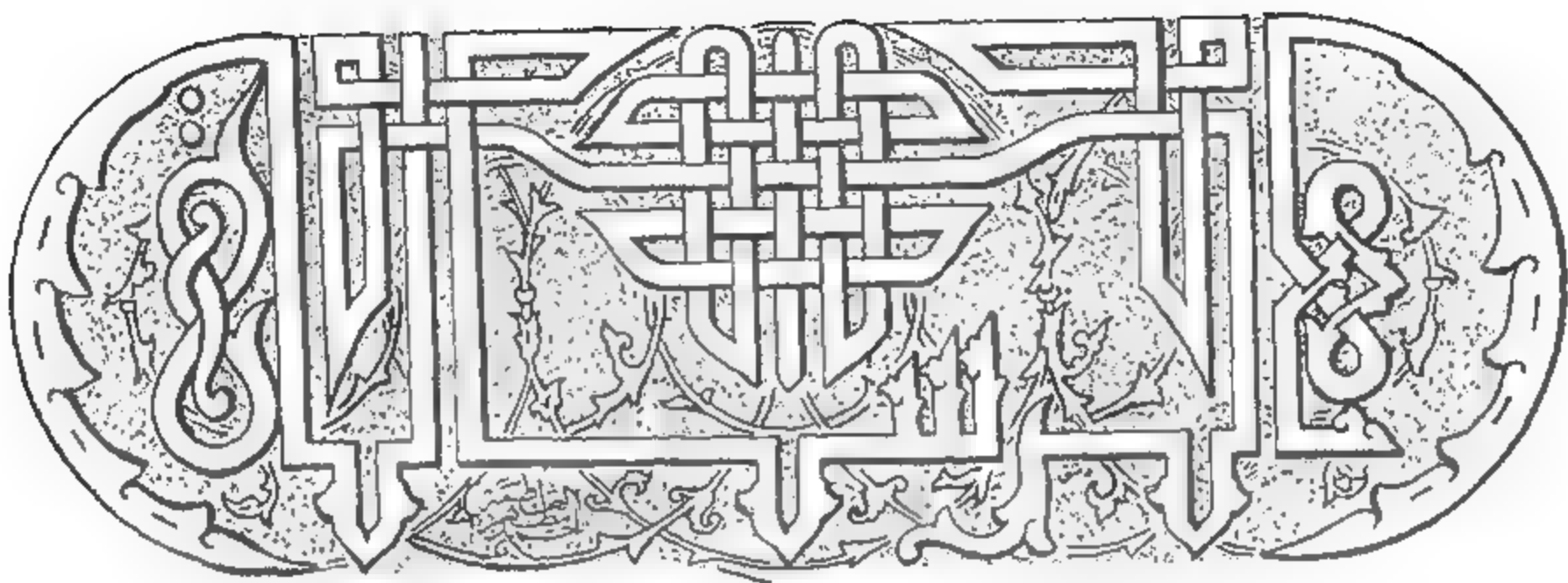
بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي

عاملوه . وعاملوا شركائهم . تكبروا .. النصر ليهودكم



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الْفَرِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ الْتَطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُّ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفَ عَامَّةٍ

الناشران: الأستاذان قريش، والحاجي ماساري جنيها بمصر، وللإدارة العربية بمصر ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستول.
احمد حسن الزيات

بمهل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

نصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٥ صفر سنة ١٣٥٧ — ١٥ إبريل سنة ١٩٣٩

العدد ٥٤

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة		
٣٣٨	انضمام	أنصوصة مصرية ...
٣٤٩	صندوق النذور	أنصوصة مصرية ...
٣٥٦	المارد الذى يحب نفسه	لكاتب الانجليزى أوسكار وايلد
٣٥٩	تعب القلب	عن الانجليزية ...
٣٧٠	عذرية	أنصوصة مصرية ...
٣٢٦	حاجى بابا أصفهانى	لكاتب الانجليزى « جيمز مور »
	بقلم الأستاذ محمود الحنيف ...	
	بقلم الأستاذ درينى خشة ...	
	بقلم الأستاذ غفرى شهاب السعيدى	
	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...	
	بقلم الأستاذ عبد الفتى على حسين	
	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار	

ونظرت إليه نظرة صارمة فيها
الزجر والاستخفاف والغضب ، وفيها
كذلك التهديد بأنها لم تعد تطيق منه
هذه الحال التي جعلت عيشهما نكدًا
على نكد ؛ وفهم الرجل مغاى نظرتها
فأطرق يخشى أن ينطق فزيده كلماتها
ضييقاً على ما به من ضيق

من صور الريف انفتحا أقصوصة منضمة للأستاذ محمود الخفيف

وكانت امرأته في الخامسة والأربعين من عمرها
لا تزال تحتفظ بقسط كبير من جمالها السابق ، فما
يزال في وجهها بقية من ملاحظته وصباحته ، وما زال
يحمل جسدها نصيباً من سالف نعومته وطراوته ،
وعيناها الواسعتان اللامعتان ما يزال يختلج فيهما
قبس من ذلك الإغراء ، ثم من ذلك السلطان الذي
طالما تحكمت به في فتیان القرية أيام الشباب والحب ،
ذلك السلطان الذي أذعن له عثمان وبرهن على إذعانه
بما أنفق في سبيله من مال حصل عليه ثمناً لفدان
من أجود أرضه باعه في غير تردد ولا إبطاء
وانتهرت زوجها قائلة :

— فيم هذا النعم كله يا رجل ؟ دائماً تجلب لنا
النكد من غير سبب ... ماذا جرى ؟ في هذه السن
تسمع كلام الكاذبين ؟
— لا شيء ... لا شيء ... الحر شديد ... أنا
أشكو الحر ... أنا تعبان

ووصلت في تلك الساعة إلى الدار ابنتهما نبوية
تسحب البقرة والجاموسة ، فرفع إليها أبوها بصره
وفي عينيه مثل ما يكون في عين نمر غاضب يكاد يتميز
من غضبه ، ولكنه عاد فأطرق مسرعاً خشية أن
تقع عليه عينا امرأته ، وإنه ليحاول أن يخفي ما تركه
في جسده مرأى ابنته من رجشة بلغت حد الانتفاض

جلس أمام داره وقد غربت الشمس وأخذت
تتلاقى في سماء القرية ظلال المساء ، وتشيع في زرقة
الأفق حمرة الشفق ، كما أخذت تنسم أنفاس الليل
فتستروحها الأنفس الضائقة التي كاد يزهقها حر
النهار ...

ودار الشيخ عثمان بوجهه يستقبل النسمات
الوانية التي كانت تنساب إليه متقطعة من ذلك الفضاء
الذي يمتد أمام بصره من موضعه إلى حيث تنبسط
الحقول البعيدة ، وكان ذلك القروي الشيخ يفتح
صدره لتلك النسمات وينشق منها ملء رئتيه ، وكان
يبدو من تبرد وجهه وقلقه وما يختلج في عينيه
الذابلتين أنه يلتمس فيها فضلاً عن طراوتها روحاً
لنفسه من همومه التي بات يؤوده حملها

كان الشيخ عثمان يدلف للسنتين ، ولكنه كان
يبدو مما يثقل فؤاده من هم كانه أربى على الثمانين !
فقد اخترم ذلك الهم جسده أكثر مما اخترمته
السنون ، وتزايدت في وجهه التجاعيد حتى ليعجب
الناظر إلى ذلك الوجه كيف كان خلوا منها في يوم ما !
ودنت منه امرأته فسمعتة يتهد تهداً عميقاً ،
ويئن أنيناً لا يكاد يطلقه حتى يكتمه مستسلماً تارة ،
ربما ضائقة بالحياة تارة أخرى ؛ ولما ألفاها إلى جانبه
تظاهرا أنه إنما يشكو الحر

تكتمه عني ولكنك تقول إنك تثق بذلك الرجل ،
فإن كان ما جاءك به لا يصدق فاطلب إليه أن يحلف
بيمين الله »

ومضى الشيخ عثمان منصرفاً إلى داره وكانما
خفف ما أشار به عليه الإمام بعض آلامه ، فهو
في سيره خفيف الخطى ، لا يتوكأ كثيراً على عصاه
كما كان يفعل في ذهابه إلى المسجد أو كما كان يفعل
منذ نفي إليه ما كدره وأحزنه

أسفر الصبح وأفاق الناس من نومهم ولما بيد
وجه الشمس ، وعاد الشيخ عثمان من المسجد ، فلما كاد
يصل إلى عتبة داره حتى كانت ابنته خلفه قد عادت
في سرب من صاحباتها يحملن من التربة جرارهن
ويسرن بها خفيفات في وجوههن بشر ونور من بشر
الصباح ونوره ، وفي وجهها دونهن كدرة وشحوب
لم تقو على إخفاءهما

وأسند أبوها عصاه إلى جدار الدار ، ومد يده
تحت إبطه فأخرج شيئاً ملففاً بورق ؛ وفض الورق
فتبينت بنته مصحفاً صغير الحجم عرفته لأنه شبيه
بمصحف أخيه مصطفى الذي طالما شدد عليها ألا تمسه
إذا هي فتحت صندوقه ؛ ولقد دق قلب الفتاة دقاً
عنيفاً حتى لقد سمعت أمها تلك الدقات وهي تعاونها
على وضع جرتها فوق المصطبة ، ذلك أنها ظنت أن
أباها ما جاء بهذا المصحف إلا لتقسم هي به .

ولكن الرجل كان يدور بعينه بين الفينة والفينة
نحو مدخل حارة من الحارات القريبة ينتظر مقدم
شخص يريد ، ونظر بعد هنيهة نظرة تمشت على أثرها
صفرة في وجهه السنون المتغضن ، فها هو ذا حسن
يسير نحوه .

ودخلت نبوية فعلقت الماشية ، وألقت بعض
الماء في أواني الطير لتجدها ملأى إذا أصبح الصبح ،
ثم ذهبت تهيب الطعام لأخويها فقد عادا من الحقل
وجلسا ينتظران بالباب

غص بمسجد القرية قبيل العشاء بأهلها من كل
ناحية ، وما كان موعد الصلاة حتى كان الناس
في ذلك المسجد الكبير صفوفاً خلف صفوف من النبر
إلى البابين الكبيرين ، وقد نهضوا على تكبير الإمام
يقيم الصلاة في صوت رنان يسمع واضحاً في أركان
المسجد كأنما يحمله مكبر صوتي ، وركع الناس وسجدوا
ثم سلموا وخرجوا من صلاتهم يريدون دورهم
إلا الشيخ عثمان فقد سار مسرعاً نحو المحراب حتى
جاء الإمام فدنا منه وسلم ثم تناول يده فلقمها على كبره
وسأله : « يا سيدنا الشيخ كيف تتبين ؟ سمعت
في الصلاة ما أفهم منه إنه يجب علينا أن نتبين
إن جاءنا ... »

وأجاب الإمام « إن جاءكم فاسق بنياً فتبينوا
أى انظروا في هذا النبأ أهو نبأ صحيح أم كاذب »
— ولكن كيف أتبين ؟ أخبرني رجل بشيء
لم يره غيره فكيف تكون البينة ؟

— وهذا الرجل هل تثق به ؟

— نعم إنما هذا شيء لا يصدق وإن كان ليأكل
الهم بعده قلبي

قالها الرجل والدموع تنحدر من محجريه فتجزي
في أخايد وجهه ، وكان في ذلك الوجه لوعة وجزع
لم يمالك الإمام لها دمة فتندت عيناه ولكنه ابتدر
الرجل قائلاً :

« على أى حال لست أفهم ذلك الشيء الذي

— السلام عليكم يا عم الشيخ عثمان ، ما هذا ؟
هل نويت أن تصبح فقيها ؟

— عليكم السلام . اجلس يا حسن أنا عاوزك .
لا ، قم بنا إلى داخل الدار .

ودخل حسن الدار وراءه ، ونظر الرجل فلم يجد
أحدًا قريبه وأنصت فسمع صوت امرأته في الحظيرة
فأدرك أنها وابنتها مشغولتان في حلب الماشية فمол
على انتهاء الفرصة ، وأخذ يد حسن قائلًا :

« هات يدك ، ضعها على هذا المصحف ، قل
أحلف بكتاب الله ... »

وجذب حسن يده متعجبًا وقاطعه قائلًا : « فيم
هذا ؟ ماذا جرى يا عم عثمان ؟ »

— احلف على المصحف أن ما قلته لي بخصوص
أحمد والبنت صحيح ؟

— أحلف أنها تحبه وتتودد إليه وأنه يتودد
إليها ويعطيها أشياء يشتريها لها من ماله .

— إذن أنت الآن يا بني تغير ما سبق أن قلته .
يا بني هذا حرام لا يرضى الله . تهتم بنتًا في عرضها ؟
حرام عليك ، حرام على كل من له ولاية ... أهكذا
يا بني تحرمي النوم وتسخر من ذقتي ؟ دا أنا أكبر
من أيك ، منك لله .

— ما هذا ؟ قلت لك أحلف أنه ...

— هل تحلف على ما سبق أن ذكرته ؟

— لا أحلف على شيء نسيتته .

— لا لا يا حسن ، الله يجازيك بذنبك ، يا بني

كني ما جرى ، من اليوم لا تدخل داري وكل
واحد منه لله .

— أنا يا عم عثمان أدخل دارك من اليوم أو من
البارحة ؟ أنا أدخل دارك منذ سنين حصل مني إيه ؟

— كني كني يا بني .. أهنتني في شرفي وأهمنتني
في عرضي ... الحمد لله أنك كاذب وإلا فهو العالم
ماذا كان يحدث لها أولى .

لاحظ الناس أن الشيخ عثمانًا يطلق باب داره
عليه بعد الغروب ، وأنه هو وابنيه يستروحون نسيم
المساء على السطح بدل مدخل الدار ، وعجب الجيران
أن أصبحوا يرون حسنًا يدير وجهه مفضبًا كلما مرَّ
بتلك الدار ، وأنه لا يلقى التحية على الشيخ عثمان
إذا صادفه في الطريق . وكذلك عجب الجيران أنهم
لم يعودوا يرون أحمد يجلس لدى الباب مع مصطفى
وعبد الصمد وقلما كان يتخلف ليلة في الصيف
عن ذلك ...

وظل هذا شأن الشيخ عثمان وأهل داره إلى
أن كانت ليلة قمرًا يهب فيها النسيم غير وان ولا متقطع ،
فكأنما جنب المكان لدى مدخل الدار الشيخ عثمان
جذبًا حينما وصل من المسجد فجلس وفي نفسه
ألا يطيل ، ولكنه لم يكد يجلس حتى مر به الشيخ
مبروك فسلم وجلس ، وماهى إلا برهة حتى مر الشيخ
عبد المطلب ، فجلس ثم مر من بعدهما الشيخ عمر
وإثنان غيره من الجيران فمن هم دون هؤلاء سنا
وهما الليثي وعبد الفتاح فجلسوا جميعًا حول الشيخ
عثمان وسأله الشيخ مبروك قائلًا :

يا شيخ عثمان إيه حكاية الخلاف بينك وبين حسن
أبو سالم ؟

— لا ، مسألة بسيطة ، لا خلاف ولا غيره
وتجههم وجه الشيخ عثمان وأحست نفسه الضيق
فلا بد أن الجيران قد نجي إليهم سبب القطيعة بينه
وبين حسن ، ولعل فيهم من يفهم الأمر على غير

هذا أن يهمل جانب هؤلاء أو يفرط في صحبتهم .
ولقد خشي الناس كذلك على الشيخ عثمان أن
يمسه شيء من غضب حسن ؛ ولكن الشيخ عثمان
نفسه كان لا يعبأ بذلك . وكثيراً ما كان يقول لمن
يجاوره في هذا الأمر إن كل شيء عنده يهون
في سبيل محافظته على شرفه ، وإن الأمر كله بيد الله ؛
ثم يتمم في يقين قائلاً : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب .
الله لنا »

ولقد أحسن الشيخ عثمان صنماً بأن أشار على
أحمد كذلك ألا يدخل داره ؛ وإن كانت امرأته قد
خالفته في ذلك وجادلته فيه جدالاً شديداً ، لأنها
كانت تحب أن يكون هذا الشاب زوجاً لابنتها وإنها
لتعلم ما بينهما ... ولكن الرجل أصر ولم يعبأ هذه
المرّة بإرادة امرأته مهما يترتب على ذلك العصيان
وكأنه أراد أن يثبت لها سلطانه ولو مرة ...

ما كانت نبوية لتقدر أن تتسلى عن صاحبها ،
وكذلك ما كان يقدر أن يتسلى هو عنها ، وهيهات
لقلبين يربط بينهما الحب أن يفرق بينهما إلا الموت ؛
لذلك كانا يتلمسان السبل للبقاء وهما أشد ما يكونان
خوفاً وحذراً أن تراهما عين فيصل خبرهما إلى أبيها
أو إلى حسن فتكون الكارثة

كانت نبوية في العشرين من عمرها كالزهرة
في ريمان الربيع اكتمل نفاؤها وتمت روعتها
وتوافى لها من معاني السحر والفتنة ما تمنى لو كان
لهن بعضه الكثيرات من فتيات القرية ؛ ترى الأعين
في وجهها الصبوح ملامح أمها وترى في عينيها ذلك
الإغراء الذي أخذ يتلاشى في عين الأم ، والذي
يأمر ويتحكم اليوم وينبث من مقلتي الفتاة كما
تنبث السهام

وجهه كما هي العادة في كل الإشاعات ، أو لعل فيهم
من يصدق ما افتراه حسن على أحمد من حديث ،
والأمر بالهم يميرون الأمر هذا الاهتمام فيسألوا ؟
وراح الشيخ عثمان يتهد تهدداً عميقاً ويعقب
كل مرة من تهدده بقوله : « يا الله يا لطيف ... »
وما درى أنه بذلك إنما يزيد هؤلاء المتسائلين شكاً
ويستثير فضولهم . ولكنه لم يكن يستطيع كتمان همه

تنكر الفتیان أحدهما للآخر يريد أن يثار منه
لنفسه ؛ أما حسن فقد كان يضرر السوء لأحمد
منذ عرفا نبوية ، ذلك أنه كان يعتقد أنه يغريها بألفاظه
المسولة ووعوده الخلابية ، ولكنه كان يداريه حتى
لا يصل إلى الناس أمر خلافهما ؛ وأما أحمد فقد كان
يمقت حسناً لأنه يخشى أن يأخذ الفتاة من أبيها
قسراً بما كان له من بطش لا يجمله أحد في القرية
لم يكن من إعلان الخصام بد بعد أن طرد حسن
من بيت الشيخ عثمان فليس في رأيه من أوغر صدر
هذا الشيخ حنفاً عليه إلا أحمد . وبات من يعلم نبأها
مشفقين أن ينال أحمد من بطش خصمه ما لا قبل
له به . ومنذا الذي يستطيع أن يفلت من هذا الفتى
إذا اعتزم الكيد والانتقام ؟ ليس في المفتين في القرية
والمتنمرين من يدانيه في إشعال الحرائق وتسميم
الماشية ، وقيادة الأشرار إلى إتلاف الزرع . وليس
في المجرمين من يفوقه في سعة الحيلة وإحكام الجريمة
والقدرة على الإفلات من سطوة القانون

علي أن أحمد على الرغم من ذلك كان مطمئناً
بعض الاطمئنان ، ذلك أن وشائج النسب قد ربطت
بينه وبين كثير من أسر القرية على نحو غريب ،
وفي عصبية حسن نفسه بعض ذوى قرباه ولا يستطيع

ولقد نشأت نبوية مدللة يحنو عليها أبوها كأنه
لم يرزق من البنات والبنين غيرها ، وتوليها أمها
حنان الأم ومحبة الأم كأعظم ما يكون الحنان والحب ،
ثم ترى فيها صورة منها فيحملها شعورها أن مرد
هذا الجمال إلى جمالها هي على العجب والزهو ، وتستشعر
نفسها الغبطة والسرور أنها بابنتها تحيا اليوم في ماضيها ؛
فلئن كان لها أمس السلطان والدلال بما وهبت من
جمال فإن لها اليوم الفخر والزهو بما أنجب ذلك الجمال
وما كانت تختلف نبوية عن أمها في اعتدال
قوامها ودقة خصرها وبضاضة جسمها ، ولكنها
كانت تختلف عنها في لون بشرتها فكانت شديدة
البياض إلى حد غير مألوف في قرى مصر ، يتجلى
لك ذلك البياض على طبيعته إذا شممت عن ساعديها
أو إذا كشفت عن ساقها ، أما وجهها ونحرها فقد
طبعت شمس الريف عليهما لون الورد الأحمر حتى
لتحسب أن عليهما طلاء وما مسهما الطلاء يوماً ...
وإذا انحسر منديلها إلى أعلى قليلاً عن جبينها المستدير
السمح ، رأيت في موضعه من البياض فوق هذه
الحمرة ما يشبه الغرة تسيل فوق جبين مهرة جميلة ...
أما ضفائرها الذهبية فما يدرك مبلغ سحرها إلا تلك
القلوب التي طالما هفت إليها وأحست كأنها علقت بها ؛
قلوب الشباب في أنحاء القرية ، وقلوب الشابات
التي كانت تحس لديها مع الإعجاب معاني الحسد
والغيرة والتمنى

تصرمت الأيام وانقضى الصيف ولم يعد يرى
أهل القرية حسناً ولا أحمد يساعدان الشيخ عثمان
في حقله كما كان يفعل كلاهما من قبل ، كذلك لم يعد
يراهما الناس عند داره كما تعودوا أن يروها ...

وتجنب كل من الفتيين مجلس الآخر وكره لقاءه
حتى ما تقع عين أحدهما على الآخر إلا وفيها من
معاني البغض وأمارات الشر ما يندب بالويل والخطر
وانطوت الأيام على هذا الحال ونعم الشيخ عثمان
زمنًا بهدوء البال وحلت في وجهه محل القطوب
والعبوس بسمة الرضا والدعة والاطمئنان ، فلقد
استراح من بواعث الخوف ودواعي الهم وأسباب
القلق والقال

وظل أحمد يتلمس السبل للقاء فتاته دون أن يعلم
بذلك أحد إلا أمها واثنيتين من صاحباتها ، إلى أن
كان ذات صباح من أصباح (هاتور) وقد بعث
الريبع في إقباله الحياة في كل ناحية من نواحي
الحقول ، وأوحت إلى النفوس براعمه الوليدة معاني
الأمل والبعث والقوة ، وحدثت أزهاره قلوب
الفتيان والصبايا أحاديث الهوى والسحر والجمال ،
وألهمت شواذى الفصون من طيره المحبين سر المرح
والخفة والانتشاء ، وذكرتهم العشاش المأهولة أن
هذا هو زمان الوصل والمناجاة والألفة والبناء

في هذا الصباح خرجت نبوية تسبق الطير قاصدة
إلى التربة لتتلأ جرتها وسارت وحدها وإن نفسها
لتفيض بمعاني الحبور والجذل والنشوة كأن هامساً
يهمس في سمعها بأحاديث المنى ويشرها بما طال
انتظارها إياه من نعيم وسكن ؛ وكانت ترى في هذه
البكرة أروع ما تكون جمالاً وفتنة ، وأعذب ما تبدو
رشاقة وملاحة ودلالاً ، وقد اتسق جمالها في جمال
السكون من حولها حتى ما يعرف على وجه التحديد
أسرت إليها من الربيع الفتنة والحسن ، أم ألفت هي
محاسنها ومفاتها في محاسن الربيع ومفاته فأضافها
إلى معانيه وزاد بها في مسراته ومباهجه ؟

خالطت لفحات الصيف شيئاً فشيئاً أنفاس
الريبع الرخية ، ونضجت سنابل القمح وراحت
عيدانها الذهبية توحى بمنظرها وخشختها إلى
المزارعين أغاني الحصاد ورنين المناجل وسحر المشايا
والبكر وروعة القمر في تلك الليالي التي تشيع البهجة
في النفوس وتحيي الزهاء في القلوب ، وتبني كثيراً
من الشبان والشواب بتحقيق الآمال المنشودة
وحلول الأيام الموعودة .

وعاد مجلس الشيخ عثمان سيرته الأولى أمام داره
عقب صلاة العشاء كل ليلة حافلاً بأهل الناحية من
الشيوخ والشباب . أما الشيوخ فقد أحبوا عشرته
وأولعوا بحديثه ؛ وأما الشباب فقد توثقت بينهم
وبين ولديه أواصر المودة . ولكن السر الحقيقي
في اجتماعهم حول داره لا يكاد يخفى على أحد ، فلقد
كان كل من هؤلاء الشبان يعني نفسه أن تكون له
نبوية ، ولولا ما كانوا يخشونه من بطش حسن
لراحوا جميعاً يتنافسون في طلب يدها

وطال الحديث ذات ليلة وتشعب ، فمن ذكريات
قديمة يستعرضها هؤلاء الشيوخ عن حياتهم في القرية ،
إلى الكلام فيما وعوه عن آبائهم من أحداث
« كالعلمية » في عهد سعيد و « هوجة » عرابي
ومنهم من شهدا ، إلى غير ذلك مما طوته الأيام ؛
وكان الشبان ينصتون إلى حديث الشيوخ في اهتمام ،
فإذا تكلم أحد الشيوخ ناعياً على شباب اليوم أحوالهم
تهامس الشباب ساخرين أو تنامزوا بالأحداق ،
وقد منعهم احترامهم لهؤلاء الشيوخ أن يردوا عليهم
بما يخالف آراءهم

وانفض السامر والشيخ عثمان يرد على المسلمين
تحية الإسلام ودخل ابناه الدار ، وبينما كان هو يهيم

وصلت إلى التربة وكانت غير بعيدة فوقفت إلى
جانب شجرة من أشجار التوت قد رد عليها الريح
رداءها جديداً رائع الخضرة فأمسكت جذع الشجرة
يسراها ووضعت رجلها اليمنى على حجر في الماء قرب
الشاطئ ثم أدلت جرتها حتى امتلأت وهي تنصت
إلى ضحكات الماء في فوهتها ثم جذبتها بكلتا يديها
فأخرجتها وأسندتها إلى الشجرة وأصلحت حويتها
فوق رأسها ودارت بعينها تبحث عن فتاة قادمة
أو غلام أو رجل يعينها على حملها . ولكن عينيها
الجليتين لم تقعا إلا على حقول الفول الداكنة وحقول
القمح التي أخذت تمشي صفرة النضج في خضرتها ،
فجلست على حافة التربة تنتظر ، ثم بدا لها فكشفت
عن ساقها وأخذت تلقى عليهما الماء وتغسل عقبها
كأنما تأبى أن يعلق التراب بهذا المرمر الناصع الذي
تدل به وتزهي

ورفعت عينيها ولكنها لم تكد تلتفت حتى التفت
تأنك العينان بعيني أحمد وألفت نفسها بين زراعيه
القويتين فأنعت وغالبت ، ولكن أنى لها أن تدفع هذا
الهيام أو أن تكبح هذا الشوق ؟ وراح هو كالجنون
يلقى على ثغرها قبلاً مختلفة الطول ، فمشرة متقطعة
في زمن واحدة ، وواحدة متصلة في زمن عشرين ! .
وذهلّت عن نفسها برهة ثم أفاقت فعادت تدفعه
وقد دب الخوف إلى قلبها أن تراها عين ، ونهض
على رغبته ونهضت فتناولت حويتها وأعانها على حمل
جرتها وجرى إلى حيث كان بين شجيرات الفول ،
وسارت هي نحو القرية ينتفض جسدها انتفاضاً .
وتتنازع محياها الأبلج صفرة المفاجأة وحمرة النسوة ،
وتختلج على شفثها بسمات الرضا حيناً وسمات الخوف
والقلق أحياناً

ما يحسه من مرض ، وهي تحاول أن تسرى عنه حتى نام أو تظاهرا أنه نام .

وتراحت في رأسه الوسوس والأوهام حتى صار مخبولا أو كالمجنون ، وكان يطلب إلى الله ضارعا أن يريحه بالموت أو أن يصيب ابنته بكارثة من غرق أو حريق أو علة تؤدي بحياتها ... ثم تزعمه تلك الأفكار فينتفض جسده ويتصبب عرقه ، وتكاد ترهق روحه .

وأخذته سنة فرأى فيما يراه النائم أنه صعد فوق مشنقة والجلاد يوشك أن يضع الحبل في عنقه ، وبنته على مقربة منه وهو يتوسل إليها أن تعفيه فلا تجيب ؛ وظل على هذا الحال برهة ، ثم تقدم الجلاد فهم به ليشنقه ، ولكنه أفاق قبل أن يموت على تلك الصورة !

وراح يسأل نفسه أهى مظلومة ؟ وإنه ليرجو الله أن تكون كذلك ، ويسأله أن يبين له الحقيقة ... ولكن الشك لا يلبث أن يستولى على نفسه فيحس كأن نارا حامية تتمشى في جسده كله حتى ليهب واقفا ثم يهذى كأن به جنة .

ونامت الدار فلا تسمع فيها حركة إلا ما تأتيه الماشية في حظيرتها من حركات وأصوات ، وكانت نبوية تنام وحدها على سطح الدار تتوسد حضيرا وتلتحف بملاء خفيفة ، وكانت في تلك الليلة تقط في نوم هادئ ووجهها إلى السماء يقابل ملك الليل فيكون من وجهيهما قران أحدهما حالم في نعاسه ، والآخر حالم في سهده

ونهض الشيخ عثمان فشى في فناء الدار كأنه شبح من أشباح الليل لا يسمع لوقع أقدامه أى صوت كأنه لا يطأ بهما الأرض ، ودخل حظيرة الماشية

بالدخول استوقفه شبح يقرب منه فنظر. فإذا هو حسن ، فأربد وجه الشيخ عثمان وأخذته ربكة اهترت لها أوصاله ، وأخرج حسن مصحفاً من جيبه فناوله إياه ثم وضع يده عليه وراح يقسم على ما رآه بعينه وهو مختبئ بين شجيرات الفول قائلا إنه إنما سكت هذه المدة لأنه كان يجتهد أن يتحرى مبلغ الصحة في إشاعة علمها ولكنه لا يستطيع أن ينطق بفحواها . ولم يجب الشيخ عثمان بكلمة ودخل داره يجر رجله جراً وإنه ليكاد يهدم من الضعف . ولم يقرب النوم من جفنيه طول ليله ولم تفارقه الوسوس لحظة ؛ وإنه ليوشك مما بلغ به من الضيق أن يلفظ النفس الأخير كلما صورت له هواجسه ما عسى أن تكون خوى تلك الإشاعة التي أشار حسن إليها

وعجب الناس أن رأوا الشيخ عثمان في اليوم التالي يكاد يسقط من الإعياء ، وما لهم أن يذبل وجهه وتنطق غيناه ، وقد كان ينهم بالأمس موفور الرح بادی العافية ، وراح هو يوم السائل أنه إنما يشكو مرضا في صدره هو سبب ما هو فيه .

وصبر حتى جنة الليل فذهب كعادته إلى المسجد . ولما صلى العشاء ذهب إلى حيث كان يجلس الإمام فدنا منه وسلم ثم سأله هل يكون جزاء القاتل جهنم مهما كانت دوافع ارتكاب الجريمة ؟ وكيف يساق إلى جهنم من يقتل حفاظاً عن نفسه أو دفاعاً عن عرضه ؟ وأجابه الشيخ إجابات زادت حيرة على حيرته . فانصرف وفي نفسه شك من كل ما يقول به ذلك الإمام ...

فعاد من المسجد فشرب بعض الماء وعافت نفسه الطعام فأوى إلى مضجعه مبكراً شاكياً إلى زوجه

يعوض علينا ربنا في عقلك . خلاص بقيت زى اللعبة .
 في أيدي العيال . انزل . الله ينتقم من اللي كان السبب »
 وانهمرت دموعها ساخنة على خديها فتمسحها
 بكفيها ، وجرو زوجها فالتفت إليها قائلاً :
 « الله ينتقم منك أنت ومن بنتك ... يا رب عجل
 بالموت ... ما ذنبي يا ربى حتى أصاب بهذه الفضيحة
 التي تعلق بشيبتى ... الله يصيبك بالعجز والعمى
 يا نبوية يا بنتى ... أنا برئء منك إلى يوم الدين »
 ولما نزلت إلى فناء الدار أخذت الأم تنتحب
 وزوجها صامت لا يجيب ؛ ثم قالت وهي تشفق من
 فرط الدمع : « سأخذ ابنتى وترك لك الدار لتستريح »
 ووقفت هذه الكلمات في نفس ذلك الشيخ
 وقعاً أليماً ، فهو لا يطيق أن تبعد زوجه عن الدار
 ساعة ، ولحبت هي أثر كلماتها في نفسه فاستطردت :
 « حكاية عيال من أولها إلى آخرها ... وإذا كنت
 تريد أن تطمئن على شرف ابنتك ففي الصباح تقسم
 لك على المصحف وأمرنا الله »
 — أى نعم أريد أن تقسم على كتاب الله أنها
 ما فرطت في عرضها

— يا رجل ، استغفر الله ! هل يصح الكلام ده
 على ابنتك ؟

— أقسم لى حسن على المصحف أنه ...
 — أعرف هذا كله ... وما قيمة يمين واحد
 فاجر زى ده ... يا رجل افهم ، واحد ما يخفشنى من
 ربنا يقوم يخاف من المصحف ؟
 — وهل أنت تنكرين أن ابنتك تحب أحمد
 وأحمد يحبها ؟

— وإيه يعنى ... داشىء يحصل بين كل
 شابة وشاب

فأخذ منها شيئاً ، ثم صعد على السلم إلى حيث تنام
 ابنته ، وجلس إلى جانبها في رفق ، وقد ارتعش جسمه
 وجد ريقه ، ثم مد يده المروقة فوضعها على بطنها
 وراح يتحسسها في هوادة ، ووسوس له الشيطان أن
 فى بطن ابنته علو ألا يكون فى بطن الأ Bakar ، فارتفع
 الدم إلى وجهه وهانت الدنيا فى نظره ثم عقد النية
 على تنفيذ ما اعتزم ، وواتته وقتئذ جرأة عجيبة حتى
 ما يفكر فى شىء ... وغشيت القمر فى تلك اللحظة
 سحابة فكأنما راح يتوارى من سوء ما يرى ، وتناول
 الشيخ عثمان الحبل الذى أحضره معه وقد أعده على
 شكل منحنى ليشد طرفها حول عنق ابنته ورفع
 يسراه رأسها من فوق الوسادة . وبينما هو يتأهب لوضع
 عنقها فى المنحنى أفاقت مدعورة وقد خرج القمر
 من خلف السحابة بغتة فوقعت عيناها على وجه أبيها
 وعلى الحبل فى يده فصرخت صرخة دوت فى السطح
 وشاعت فى فناء الدار ، ولطمها أبوها لطمة قوية على
 وجهها وقد سقط الحبل من يده ثم أمسك عنقها
 وشد عليه بكلتا يديه وصاح بها : « يا فاجرة »

وهرعت الأم إلى السطح وقد ألقى فى روعها
 ما حدث وأقبلت على زوجها فدفعته فى عنف فألقته
 على ظهره وراحت تكييل له الشتائم ، ثم أخذت بنتها
 بين ذراعيها وراحت تهددها وهي من فرط ذعرها
 فى غيبوبة شديدة يعلو صدرها ويهبط ، ويدق قلبها دقاً
 متوالياً ينذر بالخطر حتى لقد كادت تصرخ الأم
 لولا أن خشيت أن توقف الجيران ...

ولما ذهب عن ابنتها الروح وضعت رأسها على
 الوسادة وألقت على جسدها ملاءتها ، ثم جذبت بعلمها
 من يده فطاوعها ومشت تجره حتى السلم فدفعته دفعة
 كادت تلقيه على وجهه وهي تقول له : « انزل يا رجل

— عال قوی! شیء يحصل بين كل شابة وشاب؟
— اسم الله على عقلك، هوه ما حصلشى بينى وبينك؟ افكر يا رجل اللى عملته علشان تأخذنى.
وهو أنا يومها فرطت لك فى عرضى؟ يا راجل حرام عليك دانت من اللى بيصلوا الفجر، والبنت على كل حال تطلع لأمرها

ولاحظت المرأة شيئاً من الاطمئنان يخالط نفس الرجل لهذه العبارة، فأقبلت عليه وأخذت بيده وقالت: «قم يا شيخ بكره تستريح فيستحلف لك ابنتك على كلام الله»

وذهب الرجل إلى فراشه وصعدت الأم إلى الصطح فوجدت ابنتها ما تزال تبكى، فما زالت بها حتى اطمأنت ثم رقدت إلى جوارها حتى أصبح الصبح

وثق الشيخ عثمان من براءة ابنته فصحت عزيمته على أثر ذلك أن يزوج نبوية من أحمد فى أقرب فرصة ولتكن فى موسم القمح هذا. وسرعان ما ذاع هذا النبأ فعرفه جميع أهل القرية... وجزع من كانوا يمتنون أنفسهم بنيل يدها من الشبان، وأشفق كثيرون على أحمد من كيد جسن حتى لقد أخذ بعضهم يؤكد أن هذا الزواج لن يتم وفى جسد حسن عرق ينبض. ونصح بعض من أشفقوا للشيخ عثمان أن يرجع عن هذا قرفض فى شدة ما عرفوا عنه مثلها من قبل، وعاد يتمم بتلك الآية التى كان يتعمل بها أبداً «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»

وفرحت الفتاة فرحة جابت مضاعفة بعد ما كانت فيه من بلاء وغم، أما أحمد فقد أصبح من فرط ما سره هذا النبأ فى شبه ذهول يتقبل تهاني أقرانه فتقع كلماتهم على قلبه برداً وسلاماً، وكأنما هو يحبهم

جميعاً حباً لم تستشعره نفسه من قبل؛ وما كدر عليه صفوه ما تحدث به الناس عما عسى أن يفعل حسن، فلقد ملك الفرح عليه شعوره حتى صار لا يفكر إلا فيما هو مقبل عليه، ولكن حدث أن جرى بينه وبين سليمان أحد لداته حديث ذات يوم فاستطال ذلك عليه وآله حتى لم يطق أحمد صبراً فتهدده وتوعده؛ ولولا أن تدخل بعض الشبان فباعدوا بينهما لعظم شرهما وتفاقم أمرهما..

أما حسن فقد تظاهر بعدم المبالاة لا يشير إلى هذا النبأ فى أحاديثه ولا يلتفت إلى أحاديث رفاقه عنه، فإذا حدثه أحدهم عنه حمل محذته فى دهاء على أن يصدق أنه لا يحفل به وأنه انصرف عن تلك الفتاة ولو أن له فيها رغبة ما وقف فى سبيله أحد

وفى ذات ليلة روع أهل القرية بمنظر النار على بعد تجرى فى حقل من حقول القمح، وقد صعد النسوة على أسطح الدور ينظرن ويتبين الجهة وكل تحسب النار فى حقلها أو حقل قريب لها ويعلم صراخها، وجرى الفتيان والرجال نحو الحقول ولكن أنى لهم أن يدركوا شيئاً وقد كانت النار تجرى فى ذلك المشيم فى سرعة هائلة مروعة؟ وعاد الناس بعد قليل يعلنون أن النار لم تترك فى قمح سليمان عوداً واحداً... ولم تنحصر الشبهة أول الأمر فى أحد فما كان يسمع على ألسنة الناس إلا قولهم: «ربنا يعوض عليه» أو قولهم: «ربنا يؤذى أولاد الحرام». ووجد رجال الشرطة من معاينة الحقل عدداً من الكرات القماشية المحشوة بالبارود وتترات الصودا والكبريت، تلك الكرات التى اخترعها الفلاحون ليجاروا بها زرع الفصير فى التجديد! وإنهم ليجعلون لها فتية لا يفمن

يقفوا فلا يتبعوه ، وتوسل إليهم أحمد أن يفعلوا ، وكانت أمه وأختاه يبكين بكاء يفتت الأكباد كأنما كان يساق فتاهن إلى الموت ، وهذا هو آخر عهدهن به ولم ينقطع دعاؤهن أن ينتقم الله ممن ظلمه .

واقرب أحمد من دار الشيخ عثمان فذق قلبه ووهى جلده ومشى يجر رجله ، ومر بالدار فلم يلتفت إليها كأنه لا يعرفها فلقد كره أن تقع عينه على نبوية وهو هكذا مغلول اليدين يساق على رغبته إلى حيث يساق المجرمون .

وسار أحمد يتبعه الشرطى على جواده فى الطريق المؤدية إلى الحقول ليسلكها إلى طريق الماصحة ، وقد اشتدت حرارة الشمس حتى كانت لفحاتها فى الوجوه كأنها السنة من اللهب ! وكان أحمد مطرقاً فى مشيه يقاسى نارين : نار الشمس فى وجهه ، ونار الغيظ فى صدره ... ورفع عينه وقد اقترب من شجرة عند منعطف الطريق ، ولم يكذ ينمطف حتى وجد نفسه أمام نبوية ! فاقت ثغره عن ابتسامة ما لبثت أن انطلقت فيما شاع فى وجهه من شحوب وكدره ؛ فلقد رأى فتاته تحاول حبس دموعها فلا تقوى فتجهش وتشهق وتئن أنه مكتومة نفذت إلى أعماق قلبه ، وحاولت الكلام فلم تنفجر شفاتها ، وحاول هو أن ينطق فاستمصى عليه الكلام كأنما انمقد لسانه . وأخذت الشرطى الشفقة فاغرورقت عيناه ودار بوجهه ليدع لها حرية الكلام ولكنها ظلا جامدين . ثم إن الفتاة تقدمت فدست فى جيب الفتى بمض دريهمات وألصقت صدرها بصدره فراح يغالب الحديد فى يديه على غير وعى منه ، والتفت نحو الشرطى فلما وجده لا يراه قبل فتاته بين عينيه ... وانطلق بعد ذلك فى سبيله ، ووقفت هى إلى جانب

فى الزيت ، ومتى مست النار ذلك الفتيل سرت فيه على مهل حتى تمس تلك المواد فتنبعث النار وتشب ، وفى تلك الآونة يكون ملقى الكرة فى هدفها قد بعد تمام البعد عن مكان ذلك الهدف ...

وسرعان ماجرى اسم أحمد على ألسنة أهل القرية وأخذ الناس يتهامون بالتهام ، وما لبث سليمان أن اتهمه فى غير تردد ، وقام الشرطة بتفتيش داره فوجدوا فيها بعض الكرات وكان قماشها من نفس قماش تلك الكرات التى وجدت متناثرة قرب الحقل كما كان حشو هذه كحشو تلك لا تفرق عنها فى شيء وتقدم بعض الشبان فشهدوا بما يثبت الجريمة على المسكين ولم يغن عنه إنكاره ودفاعه ... وصدق الكثيرون من الناس أنه هو المجرم ، وإن كانوا ليعجبون لذلك أشد العجب فما عهدوا عليه شيئاً من هذا ، وما كان الشر من طبعه أبداً ... أما القليلون فقد كانوا يتسمون لهذا ابتسامة الألم والسخرية ، وفى عيونهم أمارات الخبث التى تنطق بأنهم يعلمون كل شيء ولكنهم على عادة أهل القرى فى مثل تلك المواقف لا يستطيعون أن يفصحوا عن شيء وإلا لحقهم هم أيضاً مثل ما لحق هذا البائس من كيد وغدر ، وما أيسر أن تدس الكرات أو غير الكرات فى أية دار من الدور !

فرغ المحقق فى مركز الشرطة من تحقيقه ، ووضع الحديد فى يدي أحمد وسار مغلولاً أمام شرطى على جواده يسوقه إلى عاصمة المديرية ، وكان الوقت بعد الظهر بساعة ، وقد حبس القبط الناس فى دورهم فلا يرى أحد فى دروب القرية ، كأنما كان الوقت منتصف الليل ؛ وأمر الشرطى أهل التهم أن

الشجرة تشيعه بنظراتها في جزع يتقاصر عن وصفه
أى كلام

مضت أيام كان لا حديث لأهل القرية فيها
إلا ذلك الحادث ، وبات الناس يرجون أن يقف
الأمر عند هذا فلا ينال الشيخ عثمان من بطش
ذلك الغادر الفاجر حسن ما يجعل به إلى القبر .
ودخل أحمد السجن ليقضى فيه ستة أشهر طويلة ،
وتلقت نبوية ذلك النبأ في صمت كان في الواقع صمت
اليأس ، وظلت على صمتها هذا يتمشى السقم في بدنها
وينشى الحزن وجهها فيلبس جمالها روعة على روعة
ويترك على محياها طابع الشكوى الدائمة والضراعة
وحصد الناس قمحهم وامتلات البيادر والأهراء
وسعد من سعد من الفتيان والصبايا إلا نبوية فقد
حيل بينها وبين ما اشتتت نفسها ، وحل محل الأمل
في قلبها الضراعة والمسكنة والمذلة . وجعل الشيخ
عثمان يصبر نفسه وأصبح لا يختم صلاته إلا بطلب
الانتقام من الله ، على أنه ما تسرب إلى قلبه خوف
بعد ما حل بأحمد ، حتى لقد دهش الناس من بسالته
وثباته على رأيه وإصراره على أن يزوج ابنته من
ساحبها مهما حدث وهو في تلك السن

ولم يمض شهر حتى وقع في القرية حادث تلقاه
أهلها بمزيج من الدهشة والرعدة والاعتبار ، وكان
جانب العبرة فيه أقوى تلك الجوانب ، يخالط أتعس
القرويين إزاء شعور الراحة والغبطة والاطمئنان ، فبينما
كان حسن في طريقه إلى حقله ذات صباح رأى
غلاماً يسحب دابتين ربط حبل إحداهما بحبل الأخرى
فأسرعت الدابتان لأمرهما وجذبتا الغلام فتقدم حسن
لنجدته وأمسك بالحبل المتصل من وسطه واتجهت

إحدى الدابتين إلى اليمين والأخرى إلى الشمال فكان من
الحبل مخنقة دارت بعنقه ، والدابتان تتمعنان في الابتعاد
إحداهما عن الأخرى وتجريان معاً إلى الأمام في وقت
واحد فتجبران هذا الذي علق بينهما ... وما هي
إلا لحظات حتى كان جثة هامدة وقد كسرت ذراعه
عند مفصل الكتف !

وهكذا كانت المخنقة من نصيب هذا الفتى ،
وقد كانت بسبب ما اقترى ودس ستدور حول عنق
آخر ضعيف هين لا يستحق إلا أن يدور حوله عقد
العرس

الخصيف

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقتة ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمد حسن زحاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

وكانت الهامة الكبيرة البارزة
الملتفة بالكشمير الثمين تلتقي في
القلوب رهبة، وكانت عينا محمد أفندي
عبد الغفور لا تيمان عنها . لكنه
كان يتسم أو يخفى ابتسامة خبيثة
ضايقت صديقه الشيخ علي عبد الواحد
الجالس إلى جانبه يتمم بأدعية خافتة

صندوق النذور

اقصص مصرية
بقلم الأستاذ دميخيل خشبة

وصلوات طيبات ..

وكان اليوم يوم جمعة، وكان الوقت ضحى، وكان
زائر المقام الكريم قد أخذوا يقبلون أفراداً أفراداً،
أو أزواجاً أزواجاً، أو جماعات جماعات، لكن
الرحام كان نادراً وخفيفاً على كل حال، لأنه لا يكون
على أشده إلا بعد أداء صلاة الجمعة حين يقبل الناس
متراحمين متدافعين لنيل البركات والتماس النفحات
وأقبلت فتاة تاهد ذات جمال وذات رواء تثب
كالحمالة فوق السجاد السميد، فجملت تطوف بالضريح
سبعاً وكما أتمت مرة وقفت عند صندوق النذور
فدست فيه قطعة كبيرة من النقد كان يسمع رنينها
في الداخل حين تدفع أخواتها في الصندوق لتحتل
مكانها بينها ... فلما أتمت الفتاة طوافها وقفت عند
رأس الشيخ الذي تحسبه قاراً تحت الهامة الكبيرة
الخضراء، ثم راحت تتمم وتهمهم، ثم تسر وتغمغم،
ثم وقفت لحظة ساكتة صامته، ثم انحدرت من
عينها دمة تفرقت فوق خديها الجليلين الأسيلين،
وشهقت شهقة عميقة حارة ثم انصرفت ذاهلة
أو كالذاهلة ...

وقد دعر قلب محمد أفندي عبد الغفور عند ما لمح

كان مقام العارف بالله رضى الله عنه وأرضاه
هادئاً ساكناً فيه روعة وفيه جلال وفيه خشوع .
وكانت القبة السامقة الشاهقة تمكس فوقه أخيلة
رفافة يزيد بها البلور الملون، والقاشاني المجيب،
وألواح الرخام والمرمر والبليزنت، وقاراً فوق وقار،
وجلالة فوق جلالة، ونوراً دنيوياً فوق ما يفيض
عليها من نور الآخرة، وسناء التقوى، ولألاء المثوبة
ووضاء الرضى ...

وكان أراج المسك يعبق في أرجائها، وريحان
التقى يملأ بشذاه أجواءها، وكانت شبابيك الضريح
النحاسي تلمع وتزهى وتبتسم، والثريات من فوقها
تتألق وإن لم تكن مضاءة، ويبض النعام المعلق فوق
الضريح يروح مرة ويحيى مرة، وما هزته ريح،
ولا حركته ... وكانت السفينة المعلقة بين بيض
النعام تهتز قليلاً فتكون كأنها فوق موج رفيق بها
حذب عليها يهددها في أمن ودعة إلى بر السلام .
أما الضريح فكان مكسواً بغطاء أخضر زيتوني
نقشت عليه آيات من القرآن الكريم خيطة فيه
بخيوط من حرير وعملت بصنعة دقيقة باهرة برزت
فيها سلوك الذهب والقضة فجملت تتألق وتمكس
بريقاً هادئاً خفيفاً .

- الفتاة ، وعند مشهدها تخطر ريانة فينانة بارعة المحاسن
 جمة الفاتن ، فلما تنبه إليه صديقه على ، وهو يوشك
 أن يلتهم الفتاة بعينيه الجائعتين اعتدل في جلسته ،
 وترك أدعيته وصلواته وقال له ، ثم قال محمد له :
 - إتق الله يا محمد فأنت هنا في حرم حرام
 ومكان مقدس ... غض من طرفك يا صديقي وانظر
 أمامك !
- أنظر أمامي لأرى ماذا ؟
 - لترى هذا الضريح يكاد ينشق فيلتهمك !
 - يا حفيظ ! وكيف ينشق يا أخانا الشيخ على ؟
 - لقد رأيت يتحرك تأففاً من فعلك !
 - يتحرك تأففاً من فعلى ؟ وماذا فعلت ؟
 - لقد كنت تهيم ببصرك في إثر الفتاة !
 - وكيف لا أفعل وقدماها جميلتان ناصعتان
 كأنهما خلقتا من مرمر يتدفق فيه دم ؟
 - ما هذا الكلام يا أخى ؟ إتق الله يا شيخ ...
 أنت هنا في مكان طاهر له حرمة وله قداسته !
 - لكن الجلال الذى زار هذا المكان الآن
 أفتك بالنفس وبالقلب وأشد تأثيراً فيهما من قدسية
 هذا المكان !
- استنحى يا شيخ ! تأدب في حديثك هنا !
 - هذه لهجة شديدة يا شيخ على فهذب
 حديثك قليلاً !
- أقسم لك لقد شهدت الضريح يتحرك
 تبرماً بك !
- الضريح يتحرك ؟
 - أجل ... ولا شك في أنك قد رأيت !
- وكيف يتحرك الضريح ، ولماذا ؟
 - ماذا أقول لك وأنت رجل رقيق العقيدة
 ضعيف الإيمان !
- ولماذا كنت عندك رقيق العقيدة يا شيخ
 على ؟
 - لأنك تنكر ما وقع أمامك الآن من كرامة
 هذا الشيخ المبارك !
- أية كرامة يا صديقي ؟
 - اهتزاز الضريح من السخط عليك
 والضيق بك ؟
 - أنا لم أر الضريح يهتز ... إنك واهم ...
 لقد تركت الخيال يستولى على نفسك والوهم يفشى
 ناظريك
 - إتق الله يا شيخ ... أسكت ... أسكت
 وإتق الله !
 - أنا أشد لله تقوى منك ... ما هذا الذى
 تقول ؟
 - بل إبليس أشد لله تقوى منك يا عزيزى ...
 إنه لو رأى الفتاة التى خلبتك لما حاول أن يأكلها
 مثلك !
- وأنت ؟ ألم تصب إليها عمرك الله ؟
 - إحصاً ... لأننى أعرف منك بقداسة هذا
 المقام الكريم ... أنظر !
- أنظر ماذا يا شيخ على ؟
 - بيض النعام !
 - ماله ؟
 - إنه يهتز !
 - وما ذاك يا عم ؟

- هذه علامة سخط الشيخ !
 — أى شيخ ؟
 — سيدى شمس الدين ... سيد العارفين بالله !
 — سيدنا شمس الدين ساخط ؟
 — إنه ساخط لا شك !
 — وفيه يتسخط أو لا يتسخط ؟
 — ساخط عليك
 — وماذا بينه وبين بيض النعام ؟
 — بينهما سر !
 — بينهما سر ؟ ماذا تقول ؟
 — أجل ...
 — وكيف ؟
 — نعلم أنه إذا غضب غضباً هيناً اهتز البيض ،
 فإذا غضب أكثر اهتزت هذه الثريات ، فإذا اشتد
 غضبه اهتز الضريح ، فإذا حنق وامتلاً غيظاً رأيت
 هذه السفينة تهتز وتملأ وتهبط وتروح جيئة وذهاباً
 كأنها فوق سطح اليم المضطرب !
 — يا حفيظ !
 — هل تسخر ؟
 — كلا ... لست أسخر
 — بل أنت رجل لا عقيدة لك ولا أدب عندك !
 — عوّذ إلى العقيدة والأدب ...
 — أنصحك يا محمد أفندى !
 — وبم تنصّبني ؟
 — قم فتوضأ وصل ركعتين لله عسى أن يغفر
 لك الشيخ ؟
 — وهل يملك الشيخ أن يغفر أولاً يغفر ؟
 — يا شيخ ! إني الله يا مسلم !
 — من منا يجب أن يتق الله ؟ أنا ؟ أم أنت ؟
 — بل أنا !.. عجيب والله !.. بل أنا يا سيد محمد
 فلا تحزن !.. أنا لأننى لا أستجيب من النظر إلى
 ما حرم الله وأفعل هذا المنكر فى مقام سيد العارفين
 بالله ... !
 — على كل حال أنا لم أكفر بالله مثلك !
 — إخساً قاتلك الله .. أنا أكفر بالله !
 لا بارك الله فيك !
 — وكيف تشكر ذلك وقد جعلت لله شركاء ؟
 — أنا ! غفرانك اللهم !
 — أجل أنت ! ألم تقل إنه يجب أن أتوضأ
 وأصل عسى أن يغفر لي هذا الشيخ الذى اتخذتم
 ضريحه وثناً ؟
 — نحن اتخذنا ضريح العارف بالله وثناً ؟
 — أجل ...
 — نحن ؟ المسلمين الصليين !
 — أجل ... إنكم اتخذتم منه ما هو شر من
 الوثن !
 — ماذا تقول يا محمد ؟ وهنا تقول هذا الكلام ؟
 — أقوله هنا لأنه منكر ؟
 — قاتلكم الله يا شباب ! مقام سيدى شمس
 الدين منكر ؟ أى كفر هذا ؟
 — يا لهذه الهامة ويا لهذا الكشمير ! ماذا
 يكون الوثن إن لم يكن هذا الضريح وثناً ؟ !
 — ثم ماذا أيضاً ؟ !
 — ثم هذا البيض الملق الذى يفيض على

وأراد محمد أفندي أن يتخذ من هذا الأمر دعابة
فنهض ويعمم شطر الشيخ على ، ولما وجده يصلي
تبسم ثم قال له : « عجبت لكم كيف تتخذون من
مقابر موتاكم مساجد وقد نهاكم النبي صلى الله عليه
وسلم عن ذلك ... أليس هذا منكراً ؟! ... »

وسمع الشيخ هذا الكلام ولكنه كبر تكبيرة
ثم ركع ، ثم قام ، ثم أهوى إلى الأرض ، ثم ظل
ساجداً سجوداً طويلاً خاشعاً

ثم تلفت محمد أفندي فلمح الفتاة ... بعينها ...
الفتاة الجميلة الأسوانة جالسة في رهط من أترابها
في الركن الغربي من أركان المقام ، فأثر أن يجلس
حيث هو ليطالع القمر السافر الذي يحيل مقبرة
العارف بالله جنة وارفة من جنان الحب ... لكنه
ما كاد يفعل حتى رأى شيخ المسجد يقف حياله ،
ويتفرس فيه ، ثم يمد يده فيقبض على ذراعه ،
ويدعوه إلى خلوة معه ... وما كاد يستقر بهما المقام
في خلوة الشيخ حتى يدوى المؤذن بأذان الظهر ،
فتردد في جنبات المسجد الكلمتان العظيمتان اللتان
فتح الله بهما للإسلام فتحه المبين « الله أكبر ...
الله أكبر ... »

وتنهي الصلاة ...

ويلتفت الشيخ إلى محمد أفندي ويطلب إليه ألا
ينصرف لأنه سيريه من آيات العارف بالله عجبا ...
ثم يقصد وإياه إلى مقام شمس الدين ، فإيلفانه
إلا بعد جهد وبعد طول عناء ، لأن الزحام يبلغ
أشدّه عقب الصلاة حينما يتدافع الناس نحو الضريح
ليطوفوا به ، وليتمسوا من بركات الولي الكريم ،
ولتشملهم نفعاته ...

عقولكم شعبذات ، ماذا هو ؟ !

— ألا تقصر يا محمد أفندي ؟

— حدثني عن تلك السفينة ؟ أسفينة نوح هي ؟!

— أنت أعقل من الدولة إذن ، وأهدى ممن
وضع هذه الآثار ؟!

— الدولة لم تعلق هذه الآفات ، وليس من
وضعها بمن هدى الله !

— أليست الدولة هي التي شيدت هذا المقام
الشاهق ؟

— بلى ، لقد شيدته الدولة التي كانت تفكر
كتفكيركم !

— واليوم ؟ أليست الدولة هي التي تتولى صيانتها ؟

— كل هذا منكر سيندله الله !

— ولماذا تبقى عليه الدولة ما دام منكراً ؟!

— تبقيه لأنها تخشى الرعاع ، ولن نكون بخير
حتى يأتينا الله بدولة تهدينا السبيل ولا تخشى
في محاربة الأوثان لومة لأثم !

— السلام عليك إذن ... هداك الله أيها الأخ .

إن كلامك شيء لا يطاق ... مسكين ! ... أي بلاد
سيحل بك ... اليوم أو غداً ... ومن يدري ؟ فلمله
يحل بك الساعة ... قاتل الله المدنية وقاتل الله شباب
المصر !

ونهض الشيخ على وحمل معه خُفيّه ، ثم
ذهب إلى ناحية أخرى قصيّة في المقام واستقبل
القبلة وكبر ، ثم راح يصلي لله ركعات يحو بها
الرجس الأثيم الذي علق بأذنيه من حديث محمد
أفندي غبذة الغفور

ودخل الشيخ ... ووقف محمد أفندي عبد الغفور
إلى جانبه ... وجعل رئيس المسجد يتم بصلوات
ودعوات ، وجعل الناس يتدافعون نحو صندوق
النذور يدسون فيه قروشهم

وكانت سيدة وقور تجلس عند الصندوق ، فاراح
الناس إلا أن تقف فجأة وتأخذ مقصاً صغيراً
ثم تتناول غداًرها الذهبية فنقطع كل (محمودية)
وتدمسها في ثقب الصندوق وتصنع هذا سبع مرات
ثم تجلس قليلاً ، ثم تعود فتقف وتعمل المقص
في غداًرها ... فعلت ذلك سبع مرات ، ورئيس
المسجد واقف يتم ويَعُوذ ، ثم يُسَبِّحُ ويحوقل ،
وهو بين هذا وذاك يتفصد جبينه بالمرق فيدع
جَبَّاه تترقق فوق وجهه المشرق المنير ...

ثم يتدافع الناس فجأة فيفسحون طريقاً لرجل
فقير أشعث الشعر خلق الثياب عارى القدمين نابي
الهيئة ، قد علق في ذراعيه حلقاً ثقيلاً من حديد ،
وجعل في رجليه سلاسل وأغلالاً ، وأغرب من كل
ذلك وأعجب جعله في شفثيه قفلاً ثقيلاً من فولاذ ،
وفي يمينه سيفاً مفلولاً من خشب له غمد زري
كثيب ...

وقف هذا الفقير حيال ضريح الولي ، ثم أخرج
مفتاحاً قدسه في القفل المتدلى من شفثيه ، وكواه
فانفتح ، وسلك اللسان الطويل من ثقبين كبيرين
في شفثيه ، وراح يصلي صلاة خافتة أول الأمر ،
ثم جعل ينغمس مرة ويهمهم أخرى ، ثم راح يمصف
بصوته ويقصف ، ويجلجل كالرعد ، ويقول :

يا سيدي يا شمس الدين ... مَدَدْ

يا سيد العارفين بالله ... مَدَدْ
مَدَدْ ، مَدَدْ يا نور العين ، مَدَدْ
يا أبا الكرامات يا ولي الله مَدَدْ !
يا ساري في الليل مَدَدْ ، مَدَدْ !
يا كاشف أسرار الناس ، مَدَدْ !
خذ بيدي يا شمس الدين ، مَدَدْ !
هز الهلال يا زين ، مَدَدْ !
أنت المقصود يا زين ، مَدَدْ !
مَدَدْ ... مَدَدْ ... مَدَدْ ...

في القلب شجون ، وشجونه فنون ... مَدَدْ !
حبك يضنيه ، وهواك دواء ... مَدَدْ !
عرش الرحمن ، لك فيه إيوان ، مَدَدْ !
... الخ

وكان الرجل ينشد هذه الهتافات في صوت
متهدج ، وفي لساننا الدارج ، ثم يزنها وزناً سليماً
مستقيماً مع أنها ليست شِعْراً

ووجم الناس ... ووقفوا لا ينبس أحد منهم
بكلمة ... ووقف السيد محمد عبد الغفور مسبوهاً
مشدوهاً ... فقد خلبه ذلك الإخلاص الحلو الذي
كان يتدفق من فم الرجل فيحل برّداً في قلوب
الناس ، ويستولي على مشاعرهم ... فلما قال الرجل :

— الشك حرام ... مَدَدْ ... مَدَدْ !

— عبد الغفور ... اسمه محمد ... مَدَدْ مَدَدْ !

— يا رب اهديه ... مَدَدْ مَدَدْ !

— يا شمس الدين .. إشفيه إشفيه .. مَدَدْ مَدَدْ !

شعر محمد أفندي بفيض من الشعور المعجيب
يسرى بارداً في دمه ، وأحس كأنما الأرض تسوخ

تحت قدميه ... وخيل له أن القبة ترقص مع الرجل وتهبط وتعلو وتروح ذات اليمين وذات الشمال . . ثم نظر إلى الناس فوجدهم جميعاً يرقصون على نغمات الشيخ ، وينغمسون بهتافاته

ثم هلّل رئيس المسجد فجأة وكبر ... فسكت الرجل الفقير وصمت الناس ، ووقف الهواء وأمسك الحاضرون أنفاسهم ... ورفع الرئيس يديه نحو المئمة الكبيرة المكورة ، فاهتز بيض النعام ورجفت الثريات ، وتأرجحت السفينة يمنة ويسرة ، ثم مضت لحظات على هذا الحال ... ثم اشتد الصمت وظل الناس مأخوذين بروعة المشهد العجيب ... لكنهم هلّلوا في صوت واحد وكبروا ، حينما لمحوا المئمة الكبيرة الهائلة تهتز وتتحرك ، ثم يتحرك الضريح كله حركة هينة لينة لكنها ملحوظة لأنها حدثت مرتين أو ثلاثاً . . ثم خرجت أصوات جميلة من داخل الضريح تقول :

« الله ... الله ... لا إله إلا الله ! »

فما كادوا يسمعونها حتى تدافعوا بالجنوب والمناكب نحو صندوق الندور . . . وكان عجيباً أن يسبقهم الرجل الفقير فينثر فوقه كثيراً من الريالات المصرية الكبيرة كان الخادم يجمعها ثم يقذف بها في الصندوق كما يقذف القروش والملايم والبرائر وأنصاف البرائر وأخماسها ... وحاولت السيدة التي كانت تقطع الذهب من غداثرها أن تدس في الصندوق إحدى (محمودياتها) ، لكن الخادم (رجاءها) أن تستأنى حتى يفرغ الزوار ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تدس (محموديتين) ، وكانت فرحة يطفح البشر

من وجناتها وهي تصنع ذلك ...

وخلا المقام من الزائرين إلا قليلاً .
ثم بشر محمد أفندي بيد تقبض على ذراعه من خلف ، وسمع صوتاً يقول :
— ألا تستغفر يا محمد أفندي !
والتفت محمد أفندي فبصر بالشيخ على عبد الواحد فدار الحديث بينهما ، واشترك فيه رئيس المسجد :
— أستغفر الله يا شيخ على !
— ألا تلمس الصفح من سيدي شمس الدين ؟
— بلى ... ألمس منه الصفح بعد أن شهدت بعيني وسمعت بأذني !

ثم قال رئيس المسجد :

— حقاً ! لقد أتلقت المدنية قلوب شبابنا ، وأضعفت ثقتهم بأولياء الله ... ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...

فقال محمد أفندي وهو يستعبر :

— أجل ... لكننا معذورون ... فتأله إن هذا أول يوم أرى فيهم كرامة لولي ، وتأله لا يكون خادماً بعد اليوم لسيدي شمس الدين ... وتأله لأحملني إلى مقامه تحفياً وآيات من الآيات ...

ودعا له الشيخ الفقير ، ثم أخذ قفله فجعله في شفتيه ، وذهب يجلس بسلاسله ، ويضرب في الهواء بسيفه الخشبي .

ونظر محمد أفندي في الركن المبارك حيث جلست الفتاة في رهط من أهلها ، وكان فيهم رجل شيخ كبير ، فاستأذن رئيس المسجد في أن يمضي معه إلى الرجل ، فلما لقياه سأله محمد أفندي إذا كان هو

هذه الجمعة فلأت الصندوق وهديت الضال وزوجت فتاة ... فماذا صنعت أنت الجمعة السالفة ؟
فقال له صاحبه : « حقاً إنك لشيطان ! ...
لكن الذى ساعدك هذه المرة هو الشيخ
أبو السلاسل ! » فقال الأول : « لقد لقنه الرئيس
دوره فأداه على خير وجه ... لشدة ما كنت أفرع
أن يضيع أحد الريالات ! »

ولم يكن الخادمان يريان محمد افندى وهما يتناجيان
هكذا ... فلما ربت على كتف أحدهما وأبصرابه ...
فزعا فزعاً هو أقرب إلى الخجل والحياء
لكن محمد افندى عبد الغفور كان أشد استحياءً
على كل حال ... ومع ذلك فقد تزوج الفتاة ، لأنها
وقعت من قلبه موقعاً عظيماً ...

درينى غريب

والد الفتاة . فقال الرجل : « نعم يا بك ! » . فقال له
محمد افندى : « وابنتك هذه متزوجة ؟ » . فقال
الشيخ : « كلا يا بك ... سهل الله لها » . فقال له
محمد افندى : « فهل تزوجنى إياها وأنا لها كفـ
وهؤلاء شهودى ؟ » . فقال الرجل : « أنظرني
أياماً يا بنى ! » .

فقال محمد : « وأرجو أن أنال القبول إن شاء
الله » فقال الرجل : « القبول إن شاء الله »
ثم جرف نفسه إلى الشيخ وعرفه ، وقرأ
الجميع الفاتحة ...

وما كاد يخطو محمد وصيد الضريح حتى سمع
خادماً خبيثاً من خدم المسجد يقهقه ويقول لصاحبه :
هل رأيت ؟ أنا أم أنت ؟ ... لقد دخلت الضريح

صدر كتاب

قافلة الأيام

مجموعه من القصص المصري الحديث

تأليف

عبد اللطيف السيد

يباع بخمسة فروش بجميع المكتبات بالعالم العربى
وبمكتبة النهضة المصرية

آلام فرتر

للتأمر الفيلسوف جون الاولمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعنا ١٥ قرشا

إدراكه كل إنسان ؛ ولست أسمح
لأحد غيري باللعب فيه أبداً !
ثم قام فصنع له جداراً رفيعاً سور
به بستانه ، ورفع لوحة كتب عليها
هذا الإعلان :

سَيُجْزَى المخالفون
بنس الجزء

المارد الذي يحب نفسه

للكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد
بقلم الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

فيا له من مارد لا يؤثر أحداً بالحرب سواء !
ولم يبق حينذاك للأطفال الساكنين ملعب
يرتمون فيه . لقد حاولوا أن يتخذوا لهم من الشارع
ملعباً ، ولكنهم زهدوا فيه حين وجدوه مليئاً بالأتربة
والأحجار ، وظلوا كذلك يحومون حول الجدر
الرفيعة — حين ينتهون من دروسهم — لاجئين
بجمال ذلك البستان الذى وراء تلك الأسوار ، وبأيام
سعادتهم التى انتهت ، يقولون :

— ألا ما كان أسعدنا هناك !

ثم قدم الربيع وانتشرت بمقدمه الأزهار
والأطيار فى كل ناحية على الأرض غير بستان هذا
المارد اللئيم الذى لم يبرحه الشتاء . إن الأطيار
لم يعمها أن تغرد فيه حين غاب عنه الأطفال ؛ وإن
الأشجار قد أنسيَت أن تورق أو تزهر ...
ولقد أخرجت إحدى الأزهار الجميلة صرة رأسها من
بين الأعشاب فهالها وأحزنها أن ترى لوحة الإعلان
تمنع الصغار من غشيان البستان ، وانسلت هاربة
لتستأنف نومها العميق الذى كانت مستغرقة فيه .
ولم يكن فى العالم أحد قد استولى السرور عليه غير
« الثلج » و « الجليد » اللذين قالوا فى نفسيهما :
— إن الربيع قد أنسى هذا البستان ،

كان الأطفال قد اعتادوا دخول بستان المارد
واللعب فيه حين يمودون من المدرسة عصر كل يوم .
وكان بستاناً واسعاً ، رقيق الحواشى ، قد اكتست
أرضه بالعشب الأخضر الطرى ، وانتشرت فى أرجائه
الأزهار الجميلة كأنها النجوم . وكانت فيه اثنتا عشرة
شجرة من أشجار الخوخ التى تتفتح فى الربيع عن
أزهار رقيقة زاهية الألوان كأنها اللآلى ، تتحول
فى الخريف إلى ثمار يانعة سائغة . وكانت الأطيار
فيه تعلى غصون الشجر وتغرد فى عذوبة تصرف
الأطفال عن ألعابهم وتستوقفهم مأخوذين ،
فلا يملكون أن يعبروا عن نشوتهم بغير هذا القول :

— ألا ما أسعدنا فى هذا المكان !

غير أن المارد عاد يوماً من زيارة أحد أصدقائه
القبيلان ، بعد أن لبث معه سبع سنين ، أنهى
فى خلالها كل ما أراد أن يحدثه به — فإن محادثته
كانت محدودة تنتهى ولا شك — عاد العملاق إلى
قضبه قرأى الصغار يلعبون ويمرحون فى البستان !
فصرخ فيهم بصوت خشن غليظ قائلاً :

— ماذا تصنعون هنا ؟

فانطلق الأطفال من فورهم هارين ! ثم استأنف
المارد صراخه قائلاً :

— إنما هذا البستان ملكى ، وذلك ما يستطيع

— ما أخسب إلا أن الربيع قد جاء أخيراً .
وقفز من فراشه ، فإذا رأى !
إنه لمنظر جد جميل !
أولئك هم الأطفال الصغار ، قد دخلوا البستان
من خلال ثقب صغير وجدوه في أحد الجدران واعتلوا
الأغصان وبقوا هنالك جالسين . وقد ابتهج الشجر
بمقدمهم فأورق ، وماس على رؤوسهم في حب وحنان ،
وكان الطير يشدو حيناً ويطير حيناً في جذل وابتهاج ،
والزهر ينمو إلى ذلك بسام الثغور من بين الأعشاب
— إنه حقاً لمنظر بهيج !

ولكن الشتاء لما يبرح تلك الراوية القصية التي
وقف فيها أصغر الأطفال يعول طوراً ، ويطوف
بما حوله طوراً آخر ، والشجرة المسكينة التي بقربه
ما تزال شاتية .. إن ذلك الطفل لم يتمكن من الوصول
إلى العن لصفه ؛ وكانت الريح الشمالية تعصف حوله ،
والشجرة تمنحني له ما استطاعت وتدعوه قائلة :
— تسلق أيها الصبي الصغير ... ولكنه ما يقدر
على شيء من هذا !

... وأدركت المارد عليه الشفقة حين رآه فقال :
— ألا ما كان أشد إثارة لنفسي ! لقد عرفت
الآن سبب انقطاع الربيع عن المحي إلى هنا ..
سأذهب إلى ذلك الطفل فأضمه على الشجرة ، ثم أنشئ
على الجدار فأهدمه وأجعل من بستانى هذا ملعباً
وفقاً على الأطفال حتى الأبد ... واشتد أسفه على
ما كان بدر منه

ثم إن المارد نزل وفتح بابه في هدوء وسار
في بستانه ؛ ولكن ما إن رآه الأطفال حتى أوغلوا
هرباً ، وعاد الشتاء إلى البستان من جديد ؛ ولكن
صديقاً واحداً منهم لم يهرب ، ذلك هو الصغير الذي
ملأت عينيه الدموع لما رأى المارد قادماً إليه
وتسلل المارد إلى الطفل ورفع بلطف فأجلسه

ولذلك فإننا سنحيا هنا طوال العام !
وكذلك طنى « الثلج » على الأعشاب وأسبل
عليها طرف زدائه السابغ ، وانتشر « الجليد » على
الأشجار فكساها حلة من الفضة ازدانت بها ؛ ثم
إنهما أمرا ربح الشمال أن تبقى معهما فلبت أمرهما ،
وجاءت ملتفة بالفراء تصفر طوال النهار خلال
البستان والمداخن ، فرحة بهذا المكان البهيج
ثم إنهم قرروا دعوة « البرد » فزل وأنشأ
يتحدر كل يوم ثلاث ساعات بشدة حتى يكسر
بلاط القصر ، فإذا تم منه هذا أمعن هماً حول
البستان يطوف بأقصى ما أوتيته من سرعة ! لقد
كان برداً عجيباً أغبر ، وكانت أنفاسه يعضاء كالثلج !
وقد جلس المارد اللثيم ذات يوم في الشباك المطل
على البستان الأجرد الشاتي ، وقال يحاور نفسه :
— ما أقدر أن أفهم سبب تأخر الشتاء حتى
الآن ! وما أظن إلا أن تغيراً قد طرأ على الجو .

ولكن الشتاء لم يأت ، ولا جاء بعده صيف
ولا خريف ... بل إن الخريف نفسه جاء وأنضج
الثمار في كل بستان إلا في بستان هذا المارد الذي
كان يعرفه الخريف لثيماً لا يحب أحداً غير نفسه !
وإن المارد لمضطجع ذات صباح في فراشه
إذ سمع أنغاماً شجية تطرق أذنيه خيل إليه لعذوبتها
أنها من فرقة موسيقى الملك حين كانت تجتاز في
الطريق ، ولم تكن تلك الأنغام العجبية غير صدح
طائر صغير كان يشدو على بعد من نافذته . لأنه ما كان
سمع من أمد بعيد شدو طائر ، فظن أن ما طرق أذنيه
أعذب ما في العالم من ضروب الألحان !

ثم إن البرد وقف تهتانه من حوله ، وريح الشمال
قطعت هزيرها ، وجاءت المارد من النافذة نفحة
من أريج عبق جميل : فقال المارد في نفسه :

الجميلة . ولكن أجمل منها في نظري هؤلاء الصغار
وفي صباح يوم شات .. وقد أصبح الشتاء
الآن لا يفزع المارد ، فها هو الآن عنده غير إغفاءة
قصيرة لا يلبث الربيع بعدها أن ينهض بأزهاره
وتهاويله . في صباح ذلك اليوم ، بينما كان المارد
يرتدى ثيابه إذ بصر بشيء هاله ، فكذب نظره وكذب
نفسه... إنه منظر مدهش عجيب ! أفي الإمكان هذا ؟
شجرة حالية بالنور الجميل في تلك الزاوية القصية
وتحتها طفله الصغير الذي أحبه واقفاً ؟

هرول المارد نازلاً يستخفه الفرح ، وجاز أرجاء
الحديقة مسرعاً حتى جاء إلى الطفل ؛ وما كاد أن
يقرب منه ويراها حتى طأ غضبه وارتد وجهه ،
وسأله قائلاً حين بصر بأثار مسمارين على يديه ومثلهما
على رجليه :

— من ذا الذي تجرأ فجرحك ؟ قل من ذا الذي
تجرأ عليك ففعل ؟

فأجابه الطفل الصغير :

— كلا . ما تلك بجروح حقيقية . إنها
جروح الحب !

وهنا استولت على قلب المارد الرهبة والخشوع
نفر ساجداً أمام قدمي طفله وسأله قائلاً :

— من أنت إذا ؟

فأجابه الطفل باسمًا : أنا الصبي الذي سمحت لي
مرة باللعب في بستانك هذا ، جئت لأخذك معي إلى
بستاني الذي هو الفردوس

وحينما جاء الأطفال عصر ذلك اليوم كما دأبتهم
وجدوا المارد ميتاً في مكانه تحت تلك الشجرة ، وقد
نثرت على جثمانه الأزهار والنور الأبيض الجميل

« بغداد » فخرى شهاب السبيعي

على الشجرة فما كان أسرعها حين أوقفت وازدهرت ،
وما كان أسرع الأطياف حين تساقطت عليها مفردة
حائمة حول الصبي الصغير الذي كان يحولها عنه إلى
عنق المارد مسروراً . ثم انحنى الطفل على المارد قبله ،
فلما رأى أصحابه ذلك أمنوا المارد وعادوا وعاد معهم
الربيع ، فقال المارد يخاطبهم :

— إنه بستانكم أيها الصغار الآن . ثم تناول
ممولاً كبيراً فهدم به الجدر القائمة حول البستان .
فكان الناس إذا مروا به في طريقهم إلى السوق
في منتصف النهار رأوا المارد يلعب الأطفال في أجمل
بستان تقع العين عليه !

وظل دأب الأطفال كذلك ، يلعبون طوال
النهار ، حتى إذا أمسى المساء وخيم الليل ، جاؤوا
إلى المارد فخيوه وانصرفوا ...

وقد سأله المارد مرة عن صديقهم الصغير الذي
كان رفعه على الشجرة ، فأجابوه بأنهم لا يدرون
عن أمره شيئاً ، فإنه ذهب ولم يعد ... إنهم لم يروه
من قبل ، ولا رأوه من بعد ، ولا يعرفون أين
يسكن . لشدة ما حزن المارد على ذلك الطفل الصغير
الذي قبله !

بقى الأطفال على هذا : يختلفون إلى البستان
عصر كل يوم بعد انتهاء دروسهم ، فيلعبون مع
صديقهم المارد ... غير أن الطفل الصغير وحده كان
المتخلف من بينهم أبداً . ولكم كان المارد يشتاقه
ويحبه ، ويتحدث عنه ويتمنى أن لوراه .

ومضت على ذلك السنون تتبعها السنون ، فشاخ
المارد وعجز عن مشاركة صغاره اللعب . فكان يجلس
على مقعد وثير ليتفرج عليهم هائناً مغتبطاً . وكان
يقول في نفسه :

— إن في هذا البستان لكثيراً من الأزهار

تعب القلب

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

الدكتور جون سيمور إحدى مريضاته؟
أجابت حنا في لهجة الجد :

— لأنه زارها صباح اليوم ،
ولست حالتك الصحية بداعية إلى
زيارة ثانية

— ولكنني مريضة بقدمي . قهقري

تظنين أن الطبيب لا يحضر إلا لزيارة
مريض محتضر ؟ إن هذا هو السخف يا عزيزتي !
والآن هاتي علبة الزينة ، وسأريك في الحال لماذا
يهم الدكتور جون هذا الاهتمام بمريضته ؟
فأجفلت حنا وقالت منكرة :

— علبة الزينة ؟ ولكن لا يجوز أن تصبني
وجحك ولو الآن على الأقل
— ولماذا ؟

— لأن الطبيب قد يخدع بلون الصبغ عن
لونك الطبيعي .

فغمزت فيث بعينها لمرضتها وقالت :
— إن طبيبي لن يخدع ، وعلى كل حال لقد
تحسنت صحتي ، وليس بي ما أشكو منه . والحق أنني
لا أدري لماذا يقضي عليّ بأن أزم الفراش هذا
الوقت الطويل . إنني لأرى أن المسألة كلها مؤامرة !
فقالت حنا متلطفة :

— يجب أن تتحملي فترة أخرى قصيرة .
— واما لا تلجئي إلى هذا الأسلوب الذي
يخاطب به الرضى يا أخت حنا ! ولتعطني المشط إذا
كنت لا تسمحين بأحر الشفاء . ولتعلمي أن الرجل
العزيز إنما يحضر ليراني لا ليزور المريضة رقم ٩٩
فنظرت حنا في سكوت إلى جسم مريضتها الجميلة
الرشيقة . فرأيتها جذابة في مرضها كما هي جذابة

« إذا كان الطبيب شابا شديدا الجاذبية فانه خلق
بأن يجد كل مريضة يزورها مصابة بتعب القلب »

صاحت المريضة الشابة الراقدة على السرير في
لهجة ساخرة :

— أيتها الأخت حنا ! يا أخت حنا ! من عساك
ترين من الشباك ؟

فتلفت حنا مبتعدة عن الشباك وقد التهب
خداها بحمرة الخجل ، فلقد أصبح عادة لها أن تقف
في الشباك مترقبة كلما دنا موعد ساعي البريد
وسارت الممرضة حتى دنت من مريضتها فانحنت
عليها ناظرة إلى وجهها الجميل الشاحب ، وقالت عن
غير قصد :

— لا أرى أحداً غير الدكتور سيمور ، وما
أظنه قادماً إلى هنا
فضحكت فيث ميرتون ضحكة خفيفة مستهترة ،
وقالت :

— ولم لا ؟ لم لا يحضر إلى هنا يا أخت حنا ؟
فأجابت حنا منبهة المريضة في شيء من الرقة :
— أنا لست أختاً إن أنا إلا ممرضة عادية .

— ولكنك تقطين وقت فراغك كله في رقب
إنسان ما أو شيء ما ، إذن يجب أن تكوني الأخت
حنا . ثم أحب أن أعرف لماذا لا ينبغي أن يزور

في صحتها حين تجرى من مكان إلى مكان مع أصدقائها
الرحين . فلا عجب إذا رأى الدكتور جون سيمور
أن الضرورة تقضى بزيارتها .

وحبست حنا في صدرها زفرة كادت تخونها ،
إذ من المؤلم أن يرى الإنسان سعادة غيره من الناس
وقصص غرامهم ، في حين لا يشعر هو بالسعادة ،
ولا ينعم بقصة غرامه أو على الأقل في حين تتجه
سعادته وقصة غرامه اتجاهًا خاطئًا .

فقد مضى عليها الآن أكثر من خمسة عشر
يومًا منذ تسلمت آخر رسالة جاءتها من روبن ، فليس
بعيداً أن تكون صحيحة تلك الإشاعات التي اتصلت
بها عن العلاقة بينه وبين الفتاة روت . فكيف
السبيل إلى التأكد من الحقيقة ؟! فهذا الشك
الفظيع هو الذي كاد يقتلها .

وابتسمت فيث لمرضتها بعد أن أصلحت
شعرها وقالت :

— أنظري الآن يا أخت حنا ! هل ترينى
أعجب من يرانى ؟

فأومأت حنا برأسها إعزاءً إيجابية وقالت :

— إياك لفتانة ياسيدتى .

فقلت فيث وفي عينها معنى الخبث :

— هذه هى الفكرة ، فقد أعد المسرح ونحن
الآن فى انتظار دخول البطل

وفي هذه اللحظة سمع نقر على الباب ففتحته
حنا وتحت مفسحة الطريق للدكتور جون سيمور
وكان الطبيب شاباً طويل القامة ، أسمر اللون ،
تبدو على فيه إمارة الجد وفي عينيه معنى الإنسانية ،
وكانت حنا ترتاح لمنظره .

فمدت « فيث » للطبيب يدها البيضاء النحيلة

وقالت :

— مرحى يا دكتور جون ! هل جئت لتوقع
ورقة الوفاة ؟

فوقف الطبيب أمام السرير وانحنى ينظر إلى
المریضة وقال :

— أظن أننى أستطيع أن أرجى ذلك إلى ما بعد
يوم أو يومين

ثم وجه الطبيب الحديث إلى المريضة وقال :

— سأغير الدواء للمس ميرتون يا حفرة المريضة .
ولوت فيث وجهها وقالت :

— إنك تحسن لو مرضت بالدواء نوعاً يقرب
طعمه من طعم الكريز ...

— هذا الطلب يذكرنى بأن أقول لك إنه بعد
شفائك يجب أن تستمرى فترة من الزمن منقطعة
عن الكوكيتيل والتدخين والسهر الطويل

فقطبت فيث وجهها وقالت :

— ليس لأحد من الرجال أن يتدخل على هذه
الصورة فى شؤونى الخاصة فإن الحياة تفقد مباحها
فى نظرى يا دكتور إذا أنا كلفت نفسى كل ما تسألنى
أن أكلفها من حرمان ! وإنه ليكمل بى عند ذلك
أن أشرق حداثى فى الحال

فلم يجب الطبيب على هذا الكلام ولكنه أمسك
بالمصم النحيل بين أصابعه ونظر إلى مريضته نظرة
الجد . وانتهزت المريضة حنا هذه الفرصة لتنظر
إلى صفحة وجهه نظرة المختبر الدقيق . وما من شك
فى أن الطبيب كان جميل الوجه ، فلا عجب إذا أحبته
مريضاته وأغرم به ، ولا عجب إذا أرادت فيث
ميرتون أن تتجمل وتتخذ من أسباب الزينة ما يزيد لها
فتنة وجاذبية استعداداً للقاءه

وحدثت المريضة نفسها وهى تنظر إلى المريضة
وطبيبها بأنهما إذا تزوج أحدهما من الآخر كانت



الرغم من أنه يعلم كما تعلم فيث وكما تعلم حنا أن حالة مريضته لا تدعو إلى القلق . بل هي على العكس من ذلك قد وصلت إلى مرحلة النقاهة . ولكنه استمر جالساً وأطال الجلوس

وقالت فيث على أثر انصراف الطبيب تخاطب الممرضة :

— أتذكرين ما قلته لك ؟ هل هناك من رجل يبدى من دلائل الحب العميق أكثر ...

فقطعت الممرضة على مريضتها الحديث بقولها . — لقد حانت الساعة التي يجب أن تنأهي فيها

للنوم ...

فغابت فيث وقالت :

— لا تكوني هكذا كالقط المشاكس !

ألا أستطيع أن أحدث عن الدكتور جون إذا أنا أردت ذلك ؟ يجب أن تعترفي بأنه جميل إلى حد مروع .

فصاحت حنا في حدة :

— إنه لأجل جداً من أن يكون طبيياً

(١)

زيجتهما صفقة رابحة ، فإن أموال فيث تساعد طبيياً قروياً مثله على الهوض بعمله الضئيل وتوسيع دائرته ، وحزم الدكتور جون كفيل بأن يكبح جماح هذه الفتاة المرحلة الفارغة الرأس التي ظنت أن خير ما في الحياة هو اللهو والبيت . فإن الأضداد تستطيع دائماً أن تحسن العمل إذا سارت جنباً إلى جنب واستمر الدكتور جون جالساً وقتاً طويلاً على

فقلت فيث منهمكة :

— أحسب أنني كنت أتقدم في طريق الشفاء بأسرع مما تقدمت لو أنه كان ذالحية وخطها الشيب يسير متكئا على العصا ! حسن ! إنني لن أفعل ذلك، وسأتلک في طريق الشفاء وسأكون مريضة تسترعى اهتمام طبيبها مادام يريد هو ذلك . غيباً ، إن الرجل المسكين لا بد أن يكون معذوراً في إطالة قبضه على يدي ! ألم تلاحظي أنه اختبر سرعة نبضي ثلاث مرات هذه الليلة ؟

بلى ، لقد لاحظت حنا ذلك

وألفت فيث رأسها على الوسائد مسترخياً وقالت وهي تنظر إلى حنا :

لقد كنت أخشى أن يصبح هذا المرض عبثاً يثقل على حملي ، ولكنني أرى الآن أنني لا أبالي به مثقال ذرة ، ففي حضرة طبيب جميل يحمل قلبه على كفه ، ووجود الطف وأرق ممرضة في العالم ، لا أجد موضعاً للشكوى على الإطلاق

فتأثرت حنا تأثراً فجائياً وانحنت على مريضتها فقبلتها ، فقد كان في تكوين فيث شيء يجذب إليها الناس ، وكانت على بينة من شعور الدكتور جون ، كما كانت تعلم أن الحب هو أحسن علاج في الوجود ، وقد أحدث العجائب في مرض فيث . وعما قريب تصبح في غير حاجة إلى ممرضة

وساءلت حنا نفسها بعد أن طافت هذه الأفكار برأسها :

وماذا عسى أن يحدث لي عندئذ ؟ أأبحث عن مريضة أخرى أسهر عليها أم تراني أتزوج من روبن ؟ لقد كانت الفتاة منذ سنتين على استعداد للزواج من روبن ، وقد أنهت — في مخيلتها — كل غرزة في جهاز العرس ، كما رتبت في عناية أثاث كل غرفة من غرف بيتها الخيالي

غير أن « روبن » كان دائماً الاعتذار . فهو مرة غير مطمئن إلى البقاء في العمل الذي يشغله ، ومرة لا يجد بيتاً يستأجره ، وتارة يقول إن الوقت صعب والمال شحيح ، وطوراً يقول : خير أن يتزوج الإنسان في سعة من أن يتسرع ثم يندم ساعة لا ينفع الندم !

فلم يكن أمام حنا إلا أن تستمر في التمريض بينما « روبن » مستمر في الاعتذار

وما تشك الفتاة في أن خطيبها يحبها ، لقد كانت من ذلك جد واثقة وكل هذه الإشاعات التي أثرت حول علاقته بالفتاة « روث » لا تستند إلى أساس من الحقيقة ، فإن هي إلا تقولات بليدة سخيفة يختلقها أناس بلداء سخفاء . وقد اعتزمت الفتاة ألا تصدقها وألا تصنى إلى مروجيها

صاحت المريضة تدعو الأخت حنا مكررة النداء وكانت حنا واقفة في مرقبها من الشباك تنظر إلى الطريق على عادتها . وكان ساعي البريد قد اعتاد في الأيام الأخيرة أن يبطيء في الحضور ، بينما اعتاد الدكتور جون أن يكر في مواعيد زيارته . ورأت حنا عربة الطبيب العتيقة ذات المقعدين تقف أمام مدخل الباب ، فردت على نداء المريضة :

— ها هو ذا قد أقبل يا عزيزتي

فصاحت المريضة :

— أسرعى بالمرآة إليّ ، فإنني لا كاد أشبه

الغراب !

كان من العادة أن تعفى حنا من العمل ساعتين كل يوم بعد الظهر ، وأن تنسحب نصف يوم كل أسبوع ، وكانت الخادم تحمل محلها لدى المريضة في أثناء راحتها أو غيابها ، فلما عادت في أحد الأيام بعد عطلة نصف اليوم ، وجدت سيارة الدكتور جون واقفة أمام الباب ، فصعدت السلم مسرعة خشية أن تكون

روبن ! فهو لا يزال يحبها ، أما الفتاة روث فلا تشغل
أية ناحية من نواحي تفكيره

قضت حنا غلاف الخطاب في لهفة فلم تجده
خطاباً طويلاً ، ولكن الإنشاء لم يكن من مواضع
قوة « روبن » وجلة واحدة تكفى لكشف غرضه
من الكتابة ... وهذا ما جاء في الخطاب :

« في نفسى شيء أريد أن أسر به إليك ،
ولكننى لا أعرف كيف أصيغه كتابة . فهل لك
أن تقابلينى حيث تشائين في يوم عطلتك من الأسبوع
المقبل ؟ على أننى أنتهز هذه الفرصة لأبلغك أننى
قد تحسن مركزى على غير انتظار ، فقد دعانى
الشيخ تشارلتون يوم أمس إلى مكتبه وأخبرنى أننى
قد ارتقيت إلى مركز شريك أصغر ، فما رأيك
في ذلك ؟ »

لقد أدركت حنا معنى هذا الذى قرأته ، وليس
معناه إلا أن أيام عملها ممرضة ولياليها المضطربة
قد أوشكت على نهايتها . قروبين يريد أن يتحدث
معهما في المستقبل وما يجب أن يعدا له . ولقد حال
الحجل بينه وبين أن يكتب ما يريد أن يقول ،
ولكنهما حين يجتمعان ... وهما التهبت وجتا حنا
بجمرة الانفعال السعيد ...

ولما عادت حنا إلى غرفة المريضة فاجأتها هذه
بقولها في لهجة الناقد الدقيق :

— إنك أيتها الأخت حنا أجل جداً من أن
تكونى ممرضة

فأخرج وجه حنا حياء ومضت فيقول في لهجة
التأنيب اللطيف :

— ويجب أن تزوجى

فلم تستطع حنا أن تجيب على هذا الكلام
بأكثر من قولها :

مريضتها قد ساءت حالها على حين فجأة ، ولكنها
اطمأنت حين سمعت صوت الدكتور جون الحنون
يصل إلى أذنيها من خلال الباب نصف المفتوح ،
وهو يقول :

— إننا لن نتناقش في ذلك مرة أخرى إذا
كان الأمر يضايقك ، وما أريد منك في هذه اللحظة
أن تقضى برأى في الموضوع ، فالوقت لا يزال متسعاً
أمامنا ، وما زلت أنا شاباً ؛ ولا يزال في مقدورى
أن أكيف مستقبلى على ما أريد ، ولكنك تستطيعين
أن تساعدينى إذا أنت أردت ، وإنى لمحتاج إلى إنسانة
مثلك .

وما سمعت حنا هذه الكلمات حتى انصرفت تسير
على أطراف أصابعها ، فلم يكن مثل هذا الحديث
بالذى يقصد به إلى أن تسمعه ، واستمر الطبيب بعد
ذلك عشر دقائق في حضرة المريضة ، ثم انصرف ،
وارتدت حنا ملابس التمريض وذهبت إلى مكانها
في غرفة فيث ، وكانت فيث لأول مرة مستلقية ساكنة
هادئة يبدو عليها الانهماك في التفكير ، فقالت الممرضة :

— آسفة لأننى كنت في الخارج عند ما حضر

الطبيب

فقدمت « فيث » :

— لا بأس في ذلك ؛ فقد كان لدينا ما يحسن

أن نتناقش فيه منفردين

واتجهت حنا إلى الشباك وأطلت منه فرأت
سيارة الطبيب قد بدأت تتحرك في الوقت الذى
وصل فيه ساعى البريد على دراجته . فطارت الفتاة
إلى الدرج تهبط عليه في سرعة البرق وقد اشتد نبض
قلبها ، وهى تقول في نفسها : هذه المرة ... بالتوكيد
هذه المرة ...

وسلمها الساعى خطاباً وكان من روبن ! فحدقت
فيه كأنها لا تصدق عينها فيما تريان . إذن لم ينسها

— قد أتزوج يوماً ما . وقد يكون هذا اليوم قريباً ...

الزواج ! هو الحلم الذي يشغل رأس حنا ! إنها لترنو إلى اليوم الذي يصبح لها فيه بيت خاص بها ، إلى اليوم الذي تستطيع أن تنفق فيه المال ، وتبتاع الملابس ، وتعنى بحديقته ، لا يقلق نومها صوت الجرس الذي يدق في منتصف الليل ، وأنات المرضى المتوجعين ، والواجبات التي تصدع الرؤوس . اليوم الذي تتحرر فيه من قيد مواعيد قياس الحرارة ، ومن إعداد قناني الماء الساخن ، حرة في أن تعيش كما يجب أن تعيش ، حرة أن تمتع نفسها بما تصبو إلى التمتع به .

وترقية روبن التي أنبأها خبرها هي الوسيلة إلى تحقيق هذا الحلم السعيد ، لأنها تمكنهما من الزواج بعد هذا الانتظار الطويل .

وبعد أسبوع قابلت حنا خطيبها روبن في مقهى الظير الأزرق في كلثون ، فلما مدت إليه يدها مصافحة ضغط أصابعها ضغطاً مؤلماً وهو يصيح :

— مرحى ، يا حنا !

فلمعت عينا الفتاة وهي تقول :

— إنه لمن السعادة أن أراك ثانية يا روبن ؟

فرد الفتى على هذه التحية بقوله :

— ألا تشعرين بحاجة إلى فنجان من الشاي ؟

فضحكت حنا وقالت :

— هل عرفت في حياتك ممرضة لا تحتاج

إلى الشاي ؟

وجلس الاثنان على مائدة في أحد الأركان .

وشرعت حنا تفرغ له الشاي في فنجانه ، غير ناسية أنه يضع دائماً ثلاث قطع من السكر في الفنجان الواحد ، وأنه يحب الشاي القوي ، وشمرت بأن

صب الشاي لروبين أشد إثارة للنفس من صب قطرات الدواء للمجائر المصابات بالروماتزم . وعمّا قريب ستكثر من مشاركة روبن مجلس الشاي .

ونظرت حنا إلى صديقها بعين مستحيية وقالت :

— لقد كان عظيماً نبأ ترقيةك يا روبن !

فتناول روبن طبقاً فيه نوع من الفطير وقدمه إلى حنا وهو يجيب على قولها السابق بمباراة مضطربة إذ يقول :

— آه ... آه ... نعم ... ألك في شيء من هذا الفطير ؟

فقال الفتاة :

— أنسيت يا روبن أنني لا أستطيع أن أطمع هذا النوع من الفطير ، إنني أفضل قطعة من الخبز العادي المحمر

ومضى الفتى يتحدث في شؤون مختلفة كالأشرطة السينمائية التي شهدتها والروايات التمثيلية التي حضرها والكتب التي قرأها . فأصغت حنا لهذا الحديث متجولة كما لو كانت تصنى إلى حديث مريض مشاكس ولكنها لم تلبث أن تنهت إلى أن روبن ليس بمريض ممن تسهر عليهم . فسألته :

— متى تبدأ يا روبن عمالك الجديد شريكاً أصغر ؟ فبدأ على الفتى شيء من الحيرة وقال :

— المتعب في الموضوع يا حنا ... هو ...

هو أنني لن أشتغل هنا بعد الآن ، فقد قررت الشركة إرسالى إلى نيويورك

فصفت الفتاة طرباً وصاحت :

— مرحى ! لقد كنت أصبو دائماً إلى الحياة في أميركا . ألا ترى يا روبن أن الحياة هناك ستكون مثيرة لمواطني ؟

ولكن روبن لم يجب على هذا الكلام ، وسادت

— هل يضايقك أن أستمير هذه التسمية من
الس ميرتون ؟ فقد كانت هي التي تناديك هذا النداء
أم تربني خطأ ؟

فأجابت حنا وهي تجلس إلى جانبه :

— نعم يا دكتور هي التي تناديني بهذا النداء
فحرك الطبيب العربة وهو يقول :

— هذا حسن جدا ... وعلى فكرة لقد كنت
أراك دائماً تطلين من الشباك على الطريق ...

فمضت حنا شفها ، وقالت في نفسها : إنه لن
يراهنا في الشباك بعد الآن ، فلم تعد بها من حاجة
إلى الترقب ، ولم يعد أمر ساعي البريد ليهما في كثير
أو قليل

وجرى الحديث بين حنا والطبيب في أثناء الطريق
على المريضة فقال الطبيب :

— ستغادر مسس ميرتون الفراش بعد قليل ،
وقد لاحظت أن لهؤلاء الفتيات الحديثات تكويناً
عجيباً . وهي في الواقع أصبحت في غير حاجة إلى
ممرضة

فقلت حنا في شيء من المكر :

— ولا إلى طبيب أيضاً !

فقطب الطبيب جبينه وقال :

— ولكن لا بد لي من أن أزورها بضع مرات
أخرى فالأمر كما ترين ...

ثم حبس الطبيب الكلام في فمه وعاد فقال :

— آسف فقد كدت أفشي لك سرّاً ، وقد

طلبت مني فيث أن أحتفظ به لنفسى إلى حين

فلم تقل حنا شيئاً ، فقد كانت على علم بما يرى
إليه ، فليس من المفروض أن يقع الأطباء في غرام
مرضاهم ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يملك
نفسه دون الوقوع في حب فيث ؟ وفيث نفسها

الجو فترة سكون طويل عميق غامض انزعجت له
نفس حنا ، فلم تلبث أن نظرت إلى وجه روبن وقد
علته حمرة الحجل ، فأدركت الحقيقة على حين فجأة
وسأله في هدوء :

— إذن كان صدقاً ما شاع عن العلاقة بينك
وبين روث يا روبن ؟

فهمز روبن رأسه إيجاباً وقال :

— أخشى أن يكون ما شاع صحيحاً ، ولقد
كنت أحاول منذ جلسنا هنا أن أخبرك ولكنني
كنت أجب من ...

فقطعت حنا عليه الحديث قائلة ، وقد ملكت
عواطفها :

— ولا شك في أنك تكون أجبن من ذلك
إذا أنت تزوجت من امرأة لم تحبها . وإني لأستطيع
أن أحتمل هذه الصدمة يا روبن ؛ وأتمنى لكما
السعادة في الحياة

إنها لمهزلة أن تجلس حنا في ذلك المقهى تصب
الشاي لروبن متذكراً ما يحبه وما لا يحبه من قوة
الشاي وقطع السكر ، وعجبت إذا كانت روث تعلم
أيضاً بهذا الاجتماع وما يجري فيه

لم تدمع عين حنا من أثر الصدمة التي أصابها
ولم تعتب على صاحبها ، واقتصرت على أن صاغت
مودعة ، وانصرفت تمشي الهوينا في شارع هاي
استريت ، بينما عاد روبن مسرعاً إلى محطة سكة الحديد
ووقفت سيارة الدكتور جون على حين فجأة إلى
جانب حنا فقال الطبيب :

— هل أستطيع أن أوصلك أيتها الأخت حنا ؟
فوثبت حنا إلى العربة وكانت هذه هي أول مرة
يدعوها فيها الدكتور جون بعبارة « الأخت حنا »
وضحك الطبيب لما بدا من إجفال الفتاة وقال :

كانت تداعبه في خلاعة حتى في حضرة حنا نفسها !
ووقف الطبيب سيارته أمام البيت وقال :

— لن أدخل الآن ولكن أرجو يا حضرة
المرضة أن تتصلي بي إذا احتجت إلى .

فقالت حنا مبتسمة :

— سأفعل يا دكتور

فقال الطبيب :

— وعلى فكرة ! أيتها الأخت حنا ...

ثم تردد لحظة عاد بعدها يقول :

— أرجو متى انتهت مهمتك في هذا البيت أن

تحضري لزيارتي فسأجد لك عملاً عند مريض آخر
فأجابت في هدوء :

— أشكرك يا دكتور .

وقالت الفتاة في نفسها وهي تصعد السلم :

« مريض آخر ! لقد تعبت من الرضى والسهر عليهم
إني لأصبو إلى النعيم والخيال والحب ، وكل شيء
مثل الذى تنعم به فيث ! »

وكانت فيث الآن في دور النقاهة ، فهي تجلس
وتنتقل من غرفة إلى أخرى وتخرج قليلاً إلى الشرفة .
وأدركت حنا أن أيامها في ذلك البيت قد قاربت النهاية
فلا بد لها من أن تغادره قريباً وأن تبحث عن عمل
آخر .

وبعد قليل كانت فيث في الحديقة تقود سيارتها
وتستقبل أصدقاءها ؛ وكانت حنا تحزم حقيبتها
استعداداً للرحيل .

ولم تكن الفتاة راغبة في ترك ذلك البيت الذى
كانت تنعم فيه بشيء من الراحة والسعادة على الرغم
من جناية روبن ... وستشعر بعد رحيلها بوحشة
لا يبعدها عن فيث وما يحيط بها من مظاهر المرح

والأنس ، ولحرمانها الصداقة الوفية التى بدت من
جانب الدكتور جون

فكرت الفتاة فيما عسى أن يكون المستقبل مخيباً
لها ، فقد تجد عملاً عند مريض آخر وقد يكون
شيخاً مضطرب الأعصاب ، يتعبها بطلباته فلا تقف
لها قدم عن الحركة طوال الليل والنهار ... فهي غير
راغبة في مغادرة هذا البيت

شفيت فيث ، وجاءت ساعة الوداع فعانقت
مرضتها وهي تقول :

— سأشعر بوحشة للأخت حنا ! ولا بد لي من
أن أتزوج سريعاً ، وسيكون لي كثير من الأطفال
وسأعيدك إلى بيتي مرة أخرى يا عزيزتي
فابتسمت حنا وقالت :

— أرجو أن تزوجى منه قريباً ، وإني لوائية
من أنك تستطيعين أن تحيطيه بأجل مظاهر السعادة

فحملت فيث بنظرها في حنا وقالت :

— أتزوج منه ؟ من هو الذى تقصدين ؟

فحملت حنا بدورها في فيث وقالت :

— أقصد بالطبع الدكتور جون !

فضحكت فيث ضحكا عالياً متصلاً وقالت :

— هل جننت يا عزيزتي ؟

فجلست حنا مندهشة وقالت :

— ولكنكم متحابان !

فهزت فيث رأسها وقالت :

— يجوز أن يكون قد أحبنى ، ولكنى ما زلت
طليقة القلب ، ولا شك فى أننى أعترف بأنه مليح
صفحة الوجه ، وله شعر متماوج جذاب ولكننى أطلب
من الزواج شيئاً أكثر من ذلك ، وأخشى أن يكون
ذوقى منصرفاً إلى البحوث البخارية والسيارات
والطائرات وما إلى ذلك ، وإنه ليحزننى يا عزيزتي

ألا أستطيع أن أمثل لك الرواية الغرامية التي تخيلتها
فنظرت إليها حنا نظرة قاسية وقالت :

— إذن كان يجب ألا تشجعيه

فنظرت إليها فيث بدورها مندهشة وقالت
— أشجعه ؟

— وقالت حنا وقد شعرت بصدمة من
تصرف فيث :

— نعم ... لقد كنت تحاولين أن تظهرى
في أحسن صورة كلما زارك

— ولكن ما أظنك يا عزيزتى كنت تريدين
أن أظهر كما حدى المجازات المقدمات ، والحق أن المرض
ليصبح حملاً ثقيلاً لا يطاق إذا لم يستطع الإنسان
أن يداعب طبيبه قليلاً

جزعت حنا لهذا الموقف وأدركت أن فيث
لم تكن إلا عابثة . ولكن ماذا يكون وقع هذا
الامر في نفس الطبيب ؟ إنه أكبر جداً من
أن ينظر إلى الحب هذه النظرة الطائرة . لقد حضر
في ذلك المساء ليرى فيث فلما صاحبت حنا إلى غرفتها
قال :

— أريد أن أرى المس ميرتون على انفراد في امر
خاص فإن كان ذلك لا يضايقك فأرجو ...

فاكتفت حنا بهذه الإشارة ومضت ، ولكن
صوت المتحدثين كان يصل إلى أذنيها غامضاً . وأخيراً
فتح الباب وسمعت صوت الطبيب يقول في صوت
مرتفع ولهجة غاضبة :

— ولكن لماذا شجعتنى هذا التشجيع كله
إذا كنت لا تقصدين إلى تحقيق ما وعدت به ؟
إني غاضب منك أشد الغضب يا فيث !

فأجابت فيث في طلاقة :

— إنك تحمل كل شيء يا دكتور جون على

محمل الجد . ولا بد أنني كنت في ذلك المساء جد بلهاء
عند ما أجبته « بئس » ولكننى على كل حال لم أعن
ما قلت

فلم يزد الطبيب على قوله : « صحيح » وكان
صوته غاضباً وقد خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه
في عنف ثم اندفع إلى الدرج يهبط عليه مسرعاً .
فلحقت به حنا مسرعة فأدركته في الردهة وأمسكت
بساعدته وقالت :

— أوه ... دكتور ، أرجوك العفو إذا كنت
قد سمعت شيئاً من حديثكما فقد كان صوتكما عالياً ،
ولكننى أرجوك ألا تسيء الظن بفيث ، وتذكر أنها
كانت مريضة فلم تكن مالكة أعصابها ، وسيأتى
اليوم الذى تدرك فيه الحقيقة ، وأنا أيضاً أعرف
صدمة الفشل في الحب ... فأرجوك ...

وقطع الحديث صوت فيث وهى تنادى :

— الأخت حنا ! الأخت حنا !

فأسرعت حنا في الصعود وهى تقول :

— ها أنا ذى حاضرة يا عزيزتى

ووقف الدكتور جون لحظة ينظر إلى الفتاة
الصاعدة السلم وقد بدت عليه أمارات الدهشة
ولآخر صرعه سمعت حنا صوت فيث يناديها في
لهجة التهمك ضاحكة :

— أيتها الأخت حنا ! يا أخت حنا ! من عساك
ترين من الشياك ؟ هذا ساعى البريد يموذ إلينا والدكتور
جون يذهب !

فتلفت حنا مجفلة وهى ترى من غير الطبيعى أن
الطبيب يغادر البيت على هذه الصورة . وقد أنساها
التفكير في الطبيب وما أصابه أمر ساعى البريد الذى

— كنت أظن أن هناك مسألة شاب وخطبة
فأجابت حنا في ثبات :

— لقد كان ذلك ، ولكن لا وجود لهذا
الشاب في نظري بعد الآن ، ولقد مهد لي فرصة
جديدة للعودة إلى ماضى ، ولكننى أفضل أن أجد
عملاً آخر

فقال الدكتور جون في هدوء :

— أريد أن أعرف منك يا حنا ماذا كنت
تظنين على وجه الدقة ، فيما يتصل بالعلاقة بينى وبين
مس ميرتون ؟

فاخمر وجه حنا وقالت له متلعثمة ...

— ولكن ... ألم تكونا ... أنت ... وهى ...
فهز الطبيب رأسه وقال :

— لقد كنت جد مخطئة في ظنك . فالأمر كله
أننى كنت أحاول إغراءها بأن تنزل عن شيء من
مالها الكثير الذى تبعثره في الهواء لبناء مستشفى
قروى . وقد وعدتنى بذلك ثم أخلفت الوعد

فتنهبت حنا وقالت في دهشة :

— أوه ...

فخدق الطبيب في الفتاة وقال :

— ولكن ما الذى حملك على أن تظنى غير ذلك ؟
فأجابت حنا في لهجة الجد :

— لقد كنت أنت تعلم وكنت أنا أعلم أن حالة
المريضة لم تكن تدعو إلى أن تزورها مرتين في اليوم
فابتسم الطبيب وقال :

— ولكننى لم أكن أحضر لزيارتها ، إنما
كنت أحضر لأننى لم أكن لأستطيع الانقطاع
طويلاً عن رؤية الأخت جينا الصغيرة وهى تنظر
من الشباك وديعة فتاة

وصل في ذلك الوقت ، إلى أن جاءت الخادم بكتاب
جاء به هذا الساعى

إنه خطاب من روبن ... فضت حنا غلافه
وقرأت فيه ما يأتى :

« عزيزتى حنا ...

أرجو أن تغفري لى ا فقد كنت أبله سخيفاً ،
فأنا أعلم الآن أنها أنت وأنت فقط ، لقد هزئت روث
بفكرة الذهاب إلى نيويورك ، وفسخت خطبتنا ،
فهل تتفضلين بمقابلتى مرة أخرى يا حنا ، ناسية
الماضى مفتقرة لى ذنبى ؟ حبيبك (روبن)
وما انتهت حنا من قراءة الخطاب حتى سألتها
فيث عرضاً :

— أخبار طيبة يا ممرضتى ؟

فعلت الحمرة الشديدة وجه حنا وقالت :

— لا أدرى ... على أنى أظن أن الوقت قد
حان لذهابى

وهبطت الفتاة إلى الطابق الأول وطلبت من
« كارثر » أن يحمل متاعها في السيارة إلى محطة
سكة الحديد وخرجت إلى الطريق ماشية

وكانت الساعة ساعة العمل في عيادة الدكتور
جون سيمور ، لذلك اضطرت أن تنتظر حتى ينتهى
من عمله . حتى إذا دخلت عليه الغرفة نظر إليها
منعماً وقال :

— خير ؟ أرجو ألا تكونى مريضة ؟

فجلست الفتاة أمام الطبيب وقالت :

— لقد قلت لى منذ أيام يا دكتور جون إنك
مستعد أن تجد لى عملاً إذا أنا احتجت إلى ذلك .
والآن جئتك أطلب العمل

فنظر الطبيب إليها نظراً مستقيماً وقال :

نخففت حنا نظرها وقالت :

— أوه ... عجيباً !

فمضى الطبيب يقول :

— وكانت ترقب على ما أظن مجيء ساعي البريد

يحمل لها رسالة من حبيبها

فقلت حنا :

— نعم كان ذلك أول الأمر . ولكنها لم تكن

في الأيام الأخيرة تهتم بأمر ساعي البريد حضر أو لم

يحضر . وعند ما انصرف الدكتور جون من البيت

هذا المساء ... أحست هي ... هي ...

ثم رفعت الفتاة رأسها ومضت تقول :

— لقد نسيت ما جئت من أجله ، فأنا إنما

جئت أطلب منك العمل الذي وعدتني به ، فأين

هو هذا العمل يا دكتور ؟

فتظاهر الطبيب بأنه يفحص بعض الأوراق

على المكتب وقال :

— آه ... نعم ... إنها حالة محزنة حقاً .. حالة

شاب في مقتبل الحياة ، أمامه مستقبل حسن يبشر

بالنجاح ، وبكل شيء طيب ، ولكنه يشكو من

تعب القلب ، وكان يظن أن مرضه غير قابل للشفاء .

ولكنك إذا توليت أمره يا عزيزتي حنا ...

فسألته حنا في هدوء :

— وما اسم هذا الشاب ؟

أجاب الطبيب :

— جون سيمور

عبد الحميد محمدى

التأمين ضمان المستقبل

أمنوا على أموالكم وأرواحكم

لدى :

(شركة مصر لعموم التأمينات)

تحافظوا على مقتنياتكم ضد :

والنقل بأنواعه

كوارث الحريق

وأخطار السيارات

— هل السيدة موجودة ؟

الخادم — أية سيدة ؟

الآنسة — ...

الخادم — من حضرتك ؟

الآنسة — ...

فتردد الرجل برهة ثم تركها وخف

إلى الداخل فتاب حيناً ثم عاد فدعاها

إلى الدخول . ومشى أمامها على طنفسة بنفسجية في ردهة صقيلة تكاد جوائظها تضيء ولو لم يضئها مصباح ، وأدخلها حجرة رحبية يشيع فيها ضياء هادئ وردي اللون جميل ، وجلست الآنسة ففاصت في نخل وحرير

وخرج الخادم موصداً الباب وراءه . وبعد حين سمعت الآنسة وقع أقدام مسرعة ، وفتح الخادم الباب إلى أقصى اتساعه ووقف ممسكاً به في احترام . وخطرت إلى الحجرة ربة القصر ، سيدة نصف في العمر ، قد ضمت الحسن من أطرافه مجلوبه وغير مجلوبه ، جمعت الأنوثة الكاملة الناضجة والعقل الراجح المثقف ، في عينيها سيال حنان ، وفي فمها كنز محبة ، يتقدمها أريج كأنه نفح من جنات الخلود

جلست السيدة والآنسة متقابلتين . قالت السيدة بعد سكوت : « خيراً يا عزيزتي ؟ ! » قالت الآنسة في تكرار وعثار « علمت أنكم ... يا سيدتي ... بحاجة إلى فتاة متعلمة لتربية الأطفال ... فجئت ... أطلب الخدمة ... فنظرت إليها السيدة في دهشة وقالت : « من أنباك هذا ؟ ! » قالت الآنسة في ارتباك ظاهر : « ... عرفته ... »

كان للسيدة أطفال قامت على تربيتهم إلى اليوم بنفسها دون استعانة بمربيات ، فقد ارتأت ألا تمهد

عذرا

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ عبد المغنى على حسين

في أحد الأحياء الترفية بمدينة القاهرة ، وفي طريق أفقرت من المارة في ليلة من ليالي الشتاء ، مشت آنسة نحيفة العود ، شاحبة اللون ، تلبس على عينيها عوينات وتحمل يمينها حقيبة ثياب ، يبدو عليها الإعياء الشديد ، وتنظر أمامها في شبه ذهول ووقفت الآنسة فجأة والتفتت نحو مبنى أنيق من طابقين ومشت إلى باب سوره بخطى وثيدة ومدت يداً نحيلة فمالجت الباب الحديدي فطاوعها وافتتح ، وأسفر عن روضة بديعة التنسيق . مشت الآنسة إلى درج من الرخام الأملس ، على جانبيه صفان من أصص الرياحين . وتوقفت حائرة وهمت أن تعود ثم عدلت ، ومضت ترقى الدرج في بطء شديد كأنما تبحر بقدميها طن حديد ، ووقفت أمام باب نغم عريض قد من أثنى البلور وازدان بإطارات لجينية . ومدت يداً مرتجفة إلى ضاغطة عاحية فستها فاز الجرس وتلا الأزيز وقع أقدام خفيفة ، ثم انفتح الباب وأطل منه خادم نوبى في قفطانه الناصع ، وحزامه القاني ، وخفه المقوف

تفرس الخادم في الطارقة المجهولة ووقف برهة صامتاً وأريج على الآنسة فوقفت هي أيضاً صامته ثم تملكك نفسها وقالت :

إلى غيرها بأول واجباتها وأسمى وظائفها . ولكن حدث أن دعيت للاشتراك في جمعيات نسوية فلبت داعي الجهاد في ميدان النفع العام . ولم يكن ذلك في البدء ليشتغلها عن أطفالها ، أو يستنفد من وقتها إلا يسيراً . ولكن نشاطها الاجتماعي نما وتشعب ، وصار يشغل من وقتها بضع ساعات في أكثر الأيام تضطر فيها إلى ترك بنيتها في رعاية خدامات جاهلات . لذلك رغبت في استخدام مربية متعلمة تنتقيها بعناية وتشرف على عملها ما استطاعت .

أما موضع الدهشة فهو أن هذه الرغبة لم تخبر بيالها إلا يوم أمس ، ولا يعلم بها أحد سوى قريبها الذي لم تفتحها فيها إلا ليلة أمس ، ولم يتفقا بعد على التنفيذ . فمن أين جاء الفتاة علمها ؟! كررت السيدة على الأنسة السؤال ، ولجت الأنسة في الارتباك .

قالت السيدة : « اسمحي لي ... برهة ... » ثم غادرت الحجرة ، ودخلت على قريبها في حجرة مكتبه ، وهو مكب على أوراق يستعرضها ، فقد كان مديراً لشركة هندسية وزعيماً اقتصادياً كبيراً .

قالت : « عزيزي ! ... هل أعلنت عن حاجتنا إلى مربية ؟ » قال : « لا » قالت : « ألم تخاطب أحداً في هذا الشأن ؟ » قال : « لا » قالت : « شيء غريب ! ! » قال : « ماذا ؟ ! ! » فروت له حديث الفتاة .

فتبسم البك وقال : « لا بد أنك حدثت أحداً في هذا الأمر ولا تذكرين » فهزت رأسها بالنفي المؤكد ، وكان البك يعرف أن قرينته تمنى دائماً ما تقول .

قال البك : « لعل الأنسة طرقت بابنا مصادفة للسؤال عن عمل » قالت : « إنها لم تسأل ... »

بل تقول إنها تعرف ... ! » قال البك : « أدخلني على هذه الزائرة إذا سمحت » فأرسلت في استدعائها . وأقبلت الفتاة وجلة صفراء ، فحياها البك متلطفاً ودعاها للجلوس . ثم قال بصوته الجهوري : « من قال لك أننا بحاجة إلى مربية ؟ » قالت الأنسة : « هذا يا سيدي يحتاج إلى شرح ، وأنا متعبة جداً الآن ، وستعرفون ذلك مني بعد استخدامي » فنظر إليها البك بارتياح . قال : « أتعرفين أحداً من خدم هذا المنزل ؟ » قالت : « لا » فنظر إليها بارتياح أشد . وسكت قليلاً ثم قال : « هل سبق أن اشتغلت مربية ؟ » قالت : « لا » قال : « أتعرفين أحداً يمكن أن يعرفك إلينا ؟ » قالت : « لا » قال : « اسمي يا آنسة ! لا يمكننا أن نستخدم شخصاً لا نعرفه ، ولم يقدمه إلينا شخص معروف أو جهة معروفة .. متأسف ! » ودار بكرسيه ليواجه أوراقه

فنهضت الفتاة واقفة ، واضطربت عينها ، وبعثت نحو الباب . ثم توقفت وقالت : « أيمكنني ياسادتي أن أبيت هنا الليلة ؟ » فنظر البك محزباً ثم قال : « أليس لك مسكن ؟ » . قالت : « لقد طردني أخي » وأجهشت بالبكاء . قال البك : « من هو أخوك ؟ » فلم تجب . قال : « أليس معك نقود ؟ » فلم تجب . فأخرج من جيبه نقوداً ومد يده قائلاً : « خذي هذه واقضي الليلة في فندق ... و ... تعالى إلى في الندي ، وأنا أنظر في أمرك » . فأبت الفتاة أن تأخذ النقود وغادرت الحجرة

عندئذ نادى سيدة الدار قائلة : « إدريس ؟ » ، فجاء الخادم النوبي . قالت : « لا تدع الزائرة تخرج ... أدخلها حجرة الاستقبال ... أغلق الباب » . ثم التفتت إلى قريبها وقالت : « ماهذه القسوة يا عزيزي !

فتاة ضعيفة ، نحيلة الجسم ، رقيقة الثياب ، مشردة في هذه الليلة الباردة ، تهيب بنا أن تؤويها ، فندفع بها إلى الشارع ولدينا سعة لميت عشر مثلاً ؟ » قال قربنها : « مهلاً يا عزيزتى ! ألا ترين فى أمر هذه الفتاة ما يدعو إلى الريبة ؟ نحن لا نعرف من أمرها شيئاً أبته ، وهى تأبى أن تقول أى شىء عن أمرها ، وكل احتمال بشأنها جائز عندى . وحتى لو صدق ما قالت من أن أخاها طردها فأكبر الظن أنها أنت أمراً إذاً حمل أخاها على طردها فى هذه الساعة من الليل »

قالت : « قد يكون شىء من ذلك . ولكن ألا يجوز أن الفتاة سليمة النية ؟ »

قال : « هذا جائز أيضاً . ولنا قدمت إليها تقوداً لناوى إلى فندق ، ودعوتها للعود فى الغد لأتصرف أمرها فى فسحة النهار » . قالت : « قلبى يحدثنى أن هذه الفتاة تستأهل العطف . إن لى حاسة سادسة تمكننى من الحكم على الأشخاص حكماً صحيحاً دون استدلال منطقى » . فتبسم البك وقال : « أنا يا عزيزتى لا أعرف شيئاً عن هذه الحاسة السادسة ، وليس لى إلا خمس حواس فقط بعضها فى غاية البلاهة وليس لما جزم مثلى إلا التعويل على المنطق والمقول . أنا لا أرتاح مطلقاً لميت هذه الفتاة هنا الليلة »

وفى هذه اللحظة انبعث من الردهة صوت رضى ثم طرق باب الحجرة بلهفة ، وفتحته الخادم إدريس قبل أن يؤذن له ، وصاح : « النجدة يا سيدتى ... ! الزائرة سقطت فى الردهة مغشياً عليها »

فنهض السيدان وخفا إلى الردهة . ومشى إدريس فى إثرهما يقول : « دعوتها إلى حجرة الاستقبال فأبى ، وظلت واقفة ، ثم سقطت هكذا »

جشت السيدة بجوار الأنسة تقلب فيها وتجنس نبضها ، ووقف البك لا يفعل شيئاً . بل لقد خطر له أن الأمر كله رواية مدبرة وهبذا فصل منها . قال إدريس : هل أدعو الإسعاف يا سيدى الباشا ؟ . و (الباشا) هو اللقب الذى اعتاد إدريس أن يمنحه لسيدة . فلم يجبه سيدة بشىء ، وأشارت إليه سيدة أن احملها ، ونقلوها إلى حجرة نوم ، وطفقت السيدة تسعفها بما فى مقدورها دون أن تفتق

قال إدريس : « هل أدعو الإسعاف يا سيدتى الهانم » . قالت سيدة : « لا... بل استدع الدكتور فلان ... بالتليفون ... أسرع ... »

وحضر الطبيب ، فلما فحص المريضة هن رأسه فى يأس ، ثم طفق يعالجها بالحقن والأشربة المقيمة والمنهات والتدليك وقتاً طويلاً دون أن تفتق . قال الطبيب : « لا أملك ياسادتى أن أمكث أكثر من ذلك ، ولكن أرى المريضة بحاجة إلى عملية فنية متواصلة مما لا يتيسر إلا فى مستشفى ، وحيث أنها زائرة مجهولة لكم فالأرى عندى أن تنقل إلى قصر العيني بواسطة الإسعاف »

فتقدم إدريس ليلتقى الأمر باستدعاء الإسعاف . ولكن الطبيب مضى يقول « غير أنى أصارحكم القول بأن تقلها شديد الخطر على حياتها . والحل الآخر هو أن أذهب أنا ، وأبعث إليكم بمرضة مزودة بما يلزم من التعليلات والأدوية فتسهر عليها حتى الصباح » قالت السيدة : « ليكن ذلك يادكتور » وذهب الطبيب ، وجاءت الممرضة .

وهم السيدان بالذهاب إلى الفراش فقالت الممرضة « أرجو يا سيدتى الهانم أن يكون أحد الخدم على مقربة منى طول الليل ، فقد أحْتَاج بعض أشياء » قالت

الهانم : إدريس ! اسهر مع السيدة إلى الصباح ،
وناولها ما قد يلزم » ثم انصرفت .

ومضى إدريس مهموماً ، فجاء بكرسيه الخشبي
ووضعه على باب الحجرة ، وهو يزجر بلهجته النوبية
قائلاً : « ليلة طويلة بتاعتو . جاي منين البلاوى دى »
وأصبح الصباح فبادرت ربة الدار بالسؤال عن
الريضة . قالت الممرضة : « إنها كما هي ، ولكنها
تنهت بضع دقائق أثناء الليل ، فأردت أن أحادثها
فلم أجد ما أقول إلا السؤال عن اسمها ، فقالت إن
اسمها عذرية ، وهو اسم لم أسمع به قبل اليوم ياسيدتى
الهانم » .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع بمحجرة الريضة
ربا الدار ، والطبيب . قال الطبيب : « إني متحير
في مرض هذه الأنسة ، وأرى عرضها على فلان باشا
وأسمى نطاسيا مشهوراً ، وأستاذاً كبيراً . فوافقت
ربة الدار على استدعاء الباشا ، وأصرت عليه .

وجاء الباشا ، فلما فحص المريضة قال « هبوط
عام ، ولكنه ليس خطيراً ، وسأصف لها دواءً أعتقد
أنه سيشفيها » وبينما هو يكتب الدواء رنا إلى الأنسة
وقال : « لقد رأيت هذه السحنة مرة ، ولكنى
لا أذكر متى ولا أين » وأتم وصف الدواء ، ثم سأل
عن اسم الريضة فقالوا : « عذرية » قال رب الدار
« اسم غريب يا سعادة الباشا » قال الباشا : « نعم
غريب ، ولكن الأغرب منه أنى سمعته مرة ورأيت
هذه السحنة مرة ، ولكنى لا أذكر متى ولا أين »
وظفقى بفرك جبهته مكرراً « متى ؟ أين ؟ » .
ثم قال « لا أذكر » ونهض مستأذناً في الخروج .

ورجاء رب الدار أن يتناول القهوة ، وكان
الخادم قادماً بها ، ثم جلسا يحتسيانها ويتحدثان في
شئون عامة .

ونجاة وضع الباشا قدحه في الطبق قائلاً :
« تذكرت ... تذكرت تماماً ... أتعرف يا سيدى
البك فلاناً الأديب الشاعر الذى توفى منذ بضع
سنين ؟ ... جاء إلى عيادتي ذلك الرجل الفاضل رحمة
الله عليه ، منذ نحو عشرة أعوام ومعه ابنة له في نحو
الخامسة عشرة ، وقال إنها مصابة بمرض عصبي ،
ففحصتها ، فلم أجذبها مرضاً عصبياً ، بل وجدت
ضعفاً عاماً فقط ، وعالجتها حتى شفيت ، وكان اسم
الفتاة عذرية ، وهى هذه بعينها ، فقط كانت تلبس
على عينيها عوينات » فأشار رب الدار إلى عويناتها
وكانت على نضد بجوار الفراش

وتعجب الجميع من هذه المصادفة

قال البك : « وما الذى حمل أباهما على الظن بأن
مرضها عصبي ؟ » قال الباشا : « سألته في ذلك ،
فقال إنها تذهل أحياناً ، ثم يبدو كأنها حجب الغيب
تكشفت أمامها ، فتقول مثلاً : إن فلاناً قريبنا في
مكان كذا يعمل كيت وكيت ، أو ترشدنا إلى شيء
نبحث عنه ، أو تنصحننا في بعض الأمور » قال :
« فطأنت الزجل وأفهمته أن مرضها قد زال ،
أما هذه الحال فلا خوف منها وهى طبيعية »

قال البك مندهشاً : « ... طبيعية ! »

قال الباشا : « نعم . هى خاصة نفسية معروفة ،
تتجلى واضحة في بعض حالات النوم المغنطيسى ،
وتنشأ ذاتية عند بعض الناس ، ويمكن إرهافها
بالتصوف ، وقد عرفت في كل العصور ، وبلغت
أوجها في الأنبياء »

قال البك : « اغفر تطفلى يا باشا ولكنى بحاجة
إلى زيادة إيضاح »

قال الباشا : « أنت تعرف يا سيدى البك أن
ماندركه بحواسنا الخمس وبالأجهزة العلمية التى اخترعت

في مدى قرنين أو ثلاثة ، لا بعد قطرة في محيط هذا الوجود ، فاعلم ياسيدى أن في الناس شواذ يستطيعون الحس ببعض ما لا ندركه بالحواس ولا بالأجهزة العلمية المعروفة حتى الآن ، كأنما وهب هؤلاء الناس حاسة سادسة أو امتداداً في حواسهم الخمس »

قال البك : « إن قولاً كهذا من عالم كبير مثلك ياسيدى الباشا يفتح الباب واسعاً أمام الدجالين والشعوذين » قال الباشا : « إنى أقرك على هذا مع الأسف الشديد ، فادعاء هذه الخواص للتغريب بالجمهور أمر ميسور ، والذين يرتزقون من هذا السبيل في مجموعهم محتالون أدعياء ، ولا حيلة إلا أن يبطش بهم القانون بلا استثناء » قال البك : « ألا ترى أن الأولى إنكار هذه الخواص كلية لقطع السبيل على الدجالين ؟ » قال الباشا : « قد يكون ذلك ولكن الحقائق الثابتة لا تنكر ، ثم إن إنكارها لحماية الناس من الدجل قد يجر إلى ما هو شر من الدجل فهو يهدد للهزم بكرامات الأولياء واعتبارها خزعبلات ، ثم إلى إنكار النبوة نفسها واعتبارها دجلاً ، ثم إلى الإلحاد المطلق »

قال الباشا ذلك ونهض مستأذناً ، وودعه رب الدار إلى سيارته بالتجلة

تماثلت المريضة للشفاء بسرعة بفضل دواء الباشا وتولت مهمتها في المنزل كريمة ، وأنس أهل البيت فيها الذكاء وسمو الخلق والتقوى ، فازدادوا اطمئناناً إليها يوماً بعد يوم

قال البك ذات يوم لقرينته : « ألم ترو لك الآنسة شيئاً من ماضى حياتها ؟ » قالت السيدة : « لم أفتحها في ذلك فقد يكون فيه ما يؤلمها » فاستدعاها البك وقال : « نحن لم نعهد عليك سوءاً فما الذى أغضب أخاك عليك ؟ » فأطرقت الفتاة قائلة : « عفا الله عن

أخى » ومضت تقول : « لما توفى أبواى كنت في مرحلة التلميم الثانوى ، وكان أخى قد نال شهادة عالية وألحق بوظيفة حكومية هامة ، ولم يترك والداى أى مال ، فانقطعت عن الدرس ، وعشت من مال أخى في منزله . ثم وسوس الشيطان لأخى فبدأ يستغل سلطة وظيفته في الحصول على منافع مادية ، وأحسست إحساساً خفياً بأن الرزق غير نقي ، وكان والدى منذ وفاته يتمثل لى في بعض غفواتى وأشاهده مشاهدة أشد وضوحاً من مشاهدات اليقظة ، وجاءنى أبى يوماً فقال : « نبهى أخاك إلى سوء المصير الذى ينحدر إليه . إنه سيفلت من بطش القانون في حياته الدنيا ، وهذا من سوء حظك ، فالويل الذى ينتظره في أخراه لا يوصف »

قالت : « فأبلغت ذلك لأخى حرصاً على صالحه ولكنه غضب ، وحقد على حقدٍ شديداً ، وتغيرت معاملته لى . إلى أن كان فجر اليوم الذى جئتكم فيه فتمثل لى أبى وأخذ بيدى ، وقال : « تعالى معى » ثم أحسست أننا ننقل ، وإذا بنا نخلق في أجواء منعشة ، وأنوار بهيجة ، ونشرف على رياض ناضرة وأنهار صافية ، ومساكن طيبة ، ومشاهد لا تصور جمالها ريشة أى فنان ، ولا تتساقى إليها أحلام أى شاعر ، وثمة رجال ونساء كلهم في ميمة الصبا ، وعلى أقصى غاية الجمال . قال أبى : « هنا الفردوس ، وإلى هنا يأتى كل من قضى حياته الدنيا عاملاً لإسماد البشر ، ساعياً بنفسه وبهم إلى التسامى . إنى أقيم هنا يا ابنتى ، وما كنت أحلم أن جهودى المتواضعة تستحق عشر معشار هذا الأجر » قلت : « يا أبى هذا العالم حقيقى محسوس ، وهو موجود في سماء الوجود ، فما بالناس على الأرض ننظر فلا نراه ؟ » قال : « إنه في الأثير . إن كل أشياء هذا الكون

حالا أفضل من حاله فيا لطول حسرتة وعذابه وبعد :
الشقة التي تنتظره حتى يصعد إلى أرض النعيم »

وأشار إلى ناحية وقال : « أنظري ! هنا يقبع
الذين كانوا يرتشون ، يخونون الأمانة ويفسدون
الخلق ، ويمطون الحقوق لغير أربابها ويفوتونها على
أصحابها . وأشار إلى أحدهم فرأيتة يلطم خده ، ويمزق
جلده ويقطع شعره ويكي بدمع سخين ويندب قائلاً :
« ويلى ! ويلى ! والله لو أوتيت ملء الأرض ذهباً
لاقتديت نفسى به ولو ساعة واحدة مما أنا فيه »

ثم أخذ ييدى وأحسست أننا نصعد ، وإذا بي في
حجرتى ، قال أبى : سأتركك الآن على أن تصفى لأخيك
ما رأيت . إن كلامك قد لا يفيدك ولكن افعلى ...

ثم اختفى وعدت إلى نفسى

قالت الأنسة : فانتظرت حتى عاد أخى في المساء
وقصصت عليه ما رأيت . فعبس وبسر ، ومن على
إعالتى وإطعامى ، وأقسم عيماً غليظة ألا أمكث
في منزله بعد ذلك لحظة واحدة . فجمعت ملابسى
وخرجت حائرة لا أعرف أين أذهب . وإذا بهاتف
يقول : أنظري أمامك ، فنظرت فرأيت هالة من
النور ، قال الهاتف : تتبعى هذا النور ، فتبعته حتى
صرت أمام هذا المنزل ، وافتقدت النور فوجدته
على باب سور الحديقة ، ثم سمعت الهاتف يقول :
« ادخلي هنا فهم بحاجة إلى مربية أطفال »

وسكنت الأنسة ثم أطرقت وعيناها تدمعان
منعت الشهور والسنون والأنسة كأنها فرد
من أفراد الأسرة وأحبها كافة من المنزل ، حتى
أن إدريس نفسه بدأ يشعر نحوها بحب واحترام
خالصين . ولم يعد يسميها « البلاوى » بل تعلم
أن يقول « السيدة عذرية »

عبر المفق على مسيرى

حتى المساء التي تحسونها إنما هو موج في الأثير ،
ولكنكم لا تحسون إلا صنفاً واحداً من الموج
وهو المادة

ثم أخذ ييدى . وأحسست أننا نهوى في سرعة
وإذا بنا على أرض جرداء لا نبت فيها ولا شجر ،
مظلمة الأجواء ، فيها أكوخ عاطلة من كل زينة
ورجال ونساء عليهم سباب الفقر والقنوط ، قال أبى :
« نحن بالقرب من سطح الأرض ، وإلى هنا يأتى
الذين لم يهتموا في حياتهم الدنيا بغير نفوسهم ،
ولم يصب العالم منهم خيراً ولا شراً . إن جواسمهم
الروحية ميتة ، وكيانهم الروحي كثيف » قلت :
« وهل يظنون هكذا ؟ » قال : « نعم . إلا من بدأ
يشعر بما فوت على نفسه من فرص فيمضه الندم
وتحرقه الحسرة ، وهذا العذاب يوقظ من خواسه
الروحية ، وينقص من كثافته ، فيرتفع في بقاء
وعناء إلى عالم النور »

ثم أخذ ييدى ، وأحسست أننا نهبط ، ولكن
في صعوبة وبطء ، فقد كان الجو كثيفاً قائماً وازداد
الجو كثافة وقنماً ، وصار حاراً كريهاً خائفاً لا يطاق
قال أبى : « أنعمى النظر » فإذا بي أرى أشباحاً
مروعة ، ليس فيها من الصورة الآدمية إلا أثراً ،
وجوه شوهاء وأطراف طويلة وعيون جاحظة وأجسام
من ظلام ، فيها التبعج حتى التكورز والأعجف
حتى المظالم . قال أبى : « هنا الذين اجترحوا
السيئات قد رسبوا إلى الحضيض ، وحشدوا معاً
ينهمش بعضهم بعضاً ، ويسخر بعضهم من بعض ،
ويوسوس بعضهم إلى بعض وإلى من شاكلتهم
من أهل الدنيا . أكثرهم لا يؤمن بالله ، ويعتقد
أن ليس في الوجود إلا هذا الذى هو فيه . أما من
أخس منهم بخبيته وبواره ، وأدرك أن في الوجود

وشاركنا في المأدبة تاجر جلد دعاه
عثمان أغا للحضور ، وكان قد عرفه
في رحلاته في بخارى . ودار الحديث في
الشئون التجارية التي كنت أجهلها ولذلك
لم أشترك فيه إلا ما ندر ، فرغم إرادتي
الشديدة في التحدث مع الرجل عن تلك
الشئون اكتفيت بأن أنصت إلى كل ما يقال ،
وجلست أسمع مناقشة في التجارة تدور بينهما
وقد حذراني من الاتجار في الجلد وشجعاني على شراء
الفلاين للتبغ لأن سوقها في ارتفاع ولأنه لا ينتظر
هبوط أسعارها

انتهت الوليمة وذهب الضيف وقد شغلني ما سمعت
حتى لم أعد أفكر إلا في الفلاين وفي الاتجار بها .
وجلست طول اليوم في ركن هناك أحسب كم غليوناً
تبتاعها طوماناتي وكم أربح من بيعها في الآستانة .
وحين وصلت بخيالي إلى تلك الثروة التي ستهبط عليّ
من تجارة الفلاين قلت في نفسي : « ما أربحه منها
أبتاع به تيناً من أزمير وأذهب به إلى أوزبا ، وهناك
أبيعه بأثمان باهظة أحصل منها على ربح وافر ، ثم
أشتري طرايش أحملها إلى القاهرة وأبيعهما هناك
فيجتمع لديّ مال كثير أضعه في أكياس وأذهب به
إلى الحبشة فأشتري منها عبيداً وإماء أبيعهم بأثمان
غالية في اليمن ومنها أشتري بنات وأعود به إلى إيران
فأنازل ربحاً كثيراً ثم أستريح في موطني الأصلي إلى
أن أتمكن من شراء منصب من مناصب الدولة
قد ينتهي بي مع الزمن إلى رئاسة الدولة في حكومة
ملك الملوك

وحين وثبتت أموري على هذه الكيفية شرعت
في تجارتني بعزيمة ونشاط ، وبعد أن تخيرت أحسن

خاتمة بابنا الصبي الثاني

للكاتب الإنجليزي جيمز مور
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والستون

تجارة الفلاين . حب ابنة عثمان أغا

كان منزل عثمان أغا يقع في حارة ضيقة تتصل
بالشارع الموصل إلى سوق من أكبر الأسواق
في المدينة، ورأيت أمام باب المنزل كثيلاً من القاذورات
عليه عدد من الدجاج وبعده كثيب آخر عليه كلاب
صغيرة تحرسها أمها، وكان عواء هذه الأجراء خليقاً
بأن يمنع الطمانينة والهدوء عن النفس، وبين هذين
الكثيبين باب منزل عثمان أغا الذي دخلنا منه ،
وكان المنزل بناء صغيراً يحتوي على حجرات قدرة
لا أثر للنظافة فيها ولا يتم شكلها عن نعمة وثناء .
ولم يكن لديّ من المتاع غير سجادة صغيرة فانتقلت
من الخان الذي نزلت فيه إلى منزل الأغا، وجعلت
مقامي في ركن من أركان حجرته الخاصة ووضع
هو فراشه بجانبه ونام بجواري

ولكي يحتفل بي عثمان أغا ذبح لي كبشاً وسواء
وأحضر لي صحناً من الأرز وأضاف إلى ذلك بلحاً
وجبناً وبصلًا، وقد جهزت ذلك الطعام زوجته نفسها
وابنتها تساعدان جارية ليس في المنزل سواها من
الخدم؛ ولم أكن إلى تلك اللحظة قد رأيت واحدة
منهن إذ وصلنا إلى المنزل في الظلام . ولم يكن من
حسن الخلق أن أسأل عثمان عنهن إلا بقدر ما يسمح
هو بإخباري

ورغم ما أصبت به في وجهي من التشويه فقد رأيت أنني أصبحت فتنة في نظر « ديلارام » وفي قلبها . و « ديلارام » الجميلة هذه هي ابنة عثمان أغا التي لم تترك وسيلة إلا اتبعتها لتفهمني شعورها بخوي . وكانت هي وأمها على دراية تامة بعلاج هذا المرض الذي أصبت به ، فأخذتا تعنيان بي وتعرضاني وكأنما كانت قرحتي وحب ديلارام لي . كأنما كان الأمران على موعد فقد ظهرا معاً وتقدما معاً . وفي الوقت الذي بلغ فيه مرضي أشده بلغ حب ديلارام درجة لا تطاق . والحق أقول إن عدوى ذلك الحب لم تصبني إذ كانت فانتني صورة صحيحة من والدها وكنت لا أستطيع أن أميز وجه أحدهما من وجه البعير . وكنت كلما نظرت إلى وجه « فانتني » انقبض صدري وتدافعت إلى غيظتي الأفكار السوداء . ولذلك تلقيت خبر اجتماع القافلة للذهاب إلى القسطنطينية بسرور وانسراح . وجمعت غلاييني وربطتها ودفعت أثمانها واشترت ملابس السفر . وكم كان سروري حين أعلن أن القافلة ستتحرك عند أول فرصة . مسكينة تلك الفتاة ديلارام ! لقد جعلت تنظر إلى خدي المصاب نظرة يأس ، وما كاد يذهب الورم عن خدي وفك آخر الأربطة عنه حتى حسبت أنها فككت كل قيد كان يمنعها من الابتهاج والسرور

الفصل السادس والستون

في طريق القسطنطينية

بدأت القافلة مسيرها في طريق القسطنطينية في صباح يوم من أيام الربيع وجلست فوق حمل من أحمالي وسائرها حولي ، وكنت أنظر إلى القافلة نظرة ارتياح وأصفي إلى أجراس البغال كما لو كنت أصفي إلى نغمات المزمار

الطرق وأفضل الوسائل تعاقدت مع خطاب على أن يذهب إلى جبال « لور » وهناك يجد غابات من شجر يصنع منه الغلايين فيتخير منها أصلحها ثم يعود إلى بغداد حيث تجهز وتصنع لها المباسم وتصدر إلى تركيا وعلى هذا النظام مرت ولكن في أثناء انتظارى رجوع الخطاب أصبت بمرض لا يسلم منه المقيم في بغداد فضلاً عن الغريب الزائر ، وانتهى بي ذلك المرض إلى قرحة حين تجف ترك ورائها أثراً خبيثاً في الجلد يطلقون عليه اسم « أخت بغداد »

وكانت قرحتي في وسط الخد الأيمن فوق نهاية شعر اللحية . وهناك تركت أثرها الخبيث بعد أن نحتت جزءاً من الشعر وتركت بقعة قبيحة الشكل زرية المنظر . وتجمعت تلك البلوى بصبر وجلد رغم ما كنت أشعر به أحياناً من الضغينة على القدر والحقد على الحظ لاختيار ذلك المكان من وجهي وكان لها أن يختاراً من جسمي أي مكان آخر . ثم تهدت وقلت لنفسي : « فليكن ما أراد الله ؛ فلو خير كل حجر لا اختار أن يكون ماساً ، ولو استشير كل رجل في مكان قرحته لما رأيت وجهاً قبيحاً في بغداد »

ثم عزيت نفسي قليلاً بأن وجه عثمان أغا لا يمدله وجه في الدمامة والقبح رغم أن قرحته لم تصبه في وجهه . وقد سر عثمان أغا من مصيبتى بدلاً من أن يعزيني ويشاركني في الألم فقد قال لي : « إذا لم يصبك في حياتك يا حاجي بابا غير هذه القرحة في وجهك فعدّها نعمة من الله . نعم لقد شوّهت نصف الوجه ولكن النصف الآخر بقي سليماً بحمد الله »

فقلت في نفسي : « بش هذا الرجل ! إن قبيح الصورة لا يطبق رؤية الحسن كما لا يطبق خيار الناس أشرارهم »

موطنى الأصلي فإذا بي أرى ما لا عداد له مما يضل النظر فيه . ولئن كانت أصفهان نصف الدنيا فهذه المدينة هي الدنيا بأجمعها ! وأين من هذه المباني الفخمة مباني أصفهان ؟ هنا مبان مقامة على ساحل متعرج جميل وهي تطل على الماء الأزرق الزجاج ، وهناك مبان أحاطت بها الجبال الجرداء

ولا تساع المدينة وجمالها ووقوعها على ضفاف البحر تظهر كأنها منعكسة على سطح مرآة فيتضاعف اتساعها ويكثر رونقها وجمالها . ولئن أردت وصف كل ما في المدينة من جمال يسحر النظر ويغلب اللب فليست بمنته أبداً ... آلاف من القوارب المختلفة الأشكال والأحجام تسبح على سطح الماء ، وبوارج لسارياتها شكل الغابة ملأت ذلك المرفأ الجميل وجعلت للميناء شكلاً رهيباً

قلت لواحد ممن كانوا حولي : « والله هذه جنة قليتي لا أفارقها ! » ... غير أنني ما فكرت فيمن بأيديهم هذه الجنة ولا في العداوة التي بين قومي وبينهم ؛ ولما فكرت في ذلك ذكرت أنهم قوم لا تصلح لحام مكانس لأبناء وطني ، وشعرت بتزلي العظيم وبوضي من قدر نفسي باختلاطي وإقامتي مع هؤلاء القوم . وخرجت من تأملاتي بتعزية واحدة تعزيت بها ، وهي أن هؤلاء القوم الذين أراد الله أن يتمتعوا بتلك الجنة ويمرحوا في جنباتها في هذه الدنيا لهم يوم رهيب تصطك منه الفرائص وتنخلع من هول القلوب وهو آت لا ريب فيه

بعد أن انتهينا من الأعمال التي لا بد منها في الجرك ركبت أنا وأصحابي زورقاً أقلنا من أسكوتاري إلى دار السعادة ونزلنا بمناجرتنا وأمتعنا في خان يؤمه تجار إيران واقع في الجزء المتوسط من

وكان فرائي معقوداً إلى سرجي وقد حسبت نفسي تاجراً عظيم القدر مغبوط الحال . وراقني في رحلتي عثمان أغا وصاحبه تاجر الجلود البخاري الذي تشرفت ببقاءه في الوليمة وتاجر أو تاجران من تجار بغداد . ورأيت فضلاً عن هؤلاء كثيراً من مواطني من بلاد مختلفة يقصدون إلى الآستانة في أعمال تجارية وفيهم من كنت أعرفه من قبل

وكانت قصتي مع المرحوم شيخ العلماء قد نسيت تماماً ؛ وقد جعلتني ملابسي التي اخترتها لهذا السفر والمرض الذي أصاب خدي أظهر بمظهر أهل بغداد حتى لم أعد أخشى كثيراً أن ينم شكلي على أنني إيراني . ولا أريد أن أتعب القاري بوصف مسهب لما حدث أثناء مسيرنا في تركيا وهو يتلخص في خوفنا من اللصوص وتزعنا مع البغالين ونزلنا في الخانات . ويكفي أن أقول إننا وصلنا إلى مقصدنا في سلام ، غير أنني لا أستطيع إخفاء شعوري عند مشاهدتي للآستانة

إنني كما يراني أصفهاني كنت معتاداً أن أحسب بلدي الأصلية خير بلاد العالم وأرقاها فلم يخطر ببال قط ولا دار بخدي أن بلدة أخرى يمكن أن توازن بها حتى لقد كنت أضحك مستهزئاً ممن يصف عاصمة أرضروم بما يفوق بلدي حسناً . ولكن أية دهشة استولت على وأي ذهول شملني حين رأيت لأول مرة تلك المدينة الضخمة

كنت أحسب أن مسجد أصفهان الشاهاني المبني في الميدان الأكبر أضخم مباني العالم وأحسنها فإذا بي أرى هناك مائة مسجد أعظم وأفخر مما كنت أحسب وكل مسجد يفوق الآخر حسناً وبهاء لم أكن أظن أن مكاناً أوسع وأرحب من

عن صداقة الأتراك؛ ولكن مواطني من الإيرانيين كانوا فضوليين وكانوا يشعرون بالإهانة عند أقل إغراض عنهم فلم يلبثوا حتى عرفوا من أنا ومن كنت . ثم جعلوا ينظرون إلي نظرة لا تنطوي على شيء من الاحترام . وعلى أية حال فقد اجتهدت أن أعيش على وفاق معهم ، وتركوني أسلم من شرم ما دمت لا أنازعهم في أي شأن من شئون التجارة وكنت أعلن عن نفسي في محال اللهو العامة أنني من أغنياء بغداد وقد أكد قولي وألبسه ثوباً من الصحة أثر العلة التي انتابتني والتي كنت أعدها مصيبة عظمى قبل أن أجني بسببها الريح

ولم أجد أسهل من غش الأتراك وخداعهم بالمظاهر الخارجية ، وحاكيهم في سكونهم ووقارهم وفي سلوكهم الهادي الرصين حتى وفي مشيتهم البطيئة وألفاظهم المرتبة ؛ وقد رجوت أن أتقن كل ذلك في وقت قصير حتى إذا ما تم لي ذلك اندمجت فيهم وكنت أكثر من ذكر الله بصوت خافت ضعيف ومن عد السبحة حتى كنت أستقبل في المقهى الذي كنت أرتاده بكل احترام وتعظيم

وكان صاحب المقهى يصنع قهوتي بيده ويصحبها بحركة فنية ولم ينس مرة أن يرحب بي ويلقيني بلقب أغا . وقد بلغ من نفوذى على القوم وعظم قدرى في نفوسهم أنه إذا حدثت مناقشة حادة أو جدال عنيف في المقهى عن الخيل أو الكلاب أو السلاح أو التبغ (وهي الأشياء التي تدور حولها مناقشاتهم) كان يشار إلي بالبنان ويكنى أن تلفظ شفتاي كلمة « نعم » أو « لا » لكي أنهى الجدل فيعود الحديث إلى ما كان عليه

المدينة وعلى مقربة من أسواقها ، وقد شعرت أنني ضئيل لا قيمة لي عند ما فكرت في أنني لست إلا فرداً واحداً بين تلك الجموع الهائلة التي تنساب في طرق المدينة ليل نهار من غير انقطاع ، وحين شاهدت النفائس الغالية تملأ المخازن ، والملابس الفاخرة يرتديها كل ساكن ، والنبلاء والأغوات على صهوات الجياد المطهمة لا ينقطع لهم مرور ولا يقف لهم تيار ، وتهدت محدثاً نفسي : « أين من عظمة القسطنطينية وجلالها وأبهتها وغناها فقر إيران المدقع وفاقها الشاملة ؟ »

ثم استأجرت مع عثمان أغا حجرة في الخان الذي أودعنا فيه بضائعنا وجعلت أثناء النهار أفرش غلاييني على أحد الأرصفة ، ولجودة بضائتي ورخص أثمانى أخذت أبيع كميات وافرة وأحصل منها على ربح عظيم ، وجعلت لما رأيت المال يعود إلي جيبي ثانية أمتع نفسي بملاذ لم تكن تخاطر لي على بال من قبل : جعلت نفسي بملابس أكثر حسناً وهنداماً وابتعت شُبُكاً جميلاً وتحزمت بشال له ألوان زاهية

واشتريت كيساً حريراً للتبغ ولبست حذاء أصفر لامعاً وحملت خنجرأ له بريق يخطف الأبصار كنت محاطاً بكل ما يدعو إلى الإنفاق ويغري بالتبذير ، وبدأت أنظر إلى ما في الحياة من نباهج وملاذ — نظرة التعلق المشغوف؛ وكان بالمدينة محال كثيرة أستطيع أن أظهر فيها أمام الجماهير بشكلى الأنيق ولم أحجم عن ارتياد المقاهى الفاخرة بالناس أجلس على دكة عالية وأتكى على وسائد ناعمة وأدخن في غليونى وأرتشف القهوة كأحد أفراد الطبقة العليا وقد علمتني الحوادث وما قاسيت في إيران أن أحذر أبناء جلدتى وأتجنبهم فتجنبتهم وجعلت أبحث

الفصل الخامس والستون

حادثة هاجي بابا مع أرملة الأمير

ظللت أعيش كما وصفت مدة من الزمن إلى أن لاحظت في ثلاث ليال متوالية حوالى الغروب أثناء خروجي من المقهى أن امرأة عجوزاً تقف في ركن من زقاق ضيق تجاه المقهى وتحقق في وجهي وتظهر عليها الرغبة في محادثتي، وكانت بين كل آونة وأخرى تنظر إلى نوافذ المنزل الذي اتخذت بأسفله المكان الذي تقف فيه ثم تدعى بعد ذلك أمر في طريقى . لم أعرها شيئاً من الاهتمام أول مرة فإن وقوف سيدة عجوز في ركن من أركان زقاق صغير ليس بالأمر الذي يدعو إلى الاهتمام أو الملاحظة، ولكنني دهشت في المرة الثانية وانتبهت إلى نفسي، وأثارت المرة الثالثة عجبى وريبتي، وصمت في رابع ليلة إن أنا وجدتها في مكانها أن أعرف مقصدها . وعلى ذلك لبست آخر ملابسى معتقداً أن جمال طلعتى وحسن حظى كفيلاً، بوقايتى ثم خرجت من المقهى ومشيت متمهلاً مختلاً إلى جهة تلك السيدة الغريبة، وكنت على وشك لقاءها إذ فتحت نافذة من نوافذ المنزل فجأة ورأيت وجهاً نسائياً ساحراً أمام ناظرى وكان آية في الجمال والحسن وفي يد صاحبه وردة أدنتها من وجهى ووضعها على فؤادها ثم ألقها إلى وأغلقت النافذة بسرعة مدهشة حتى لقد ظننت أن ما حدث كان خيلاً ظهر ثم اختفى

ظللت واقفاً فاتحاً فى ناظراً إلى النافذة حتى شعرت بيد العجوز تجذبني من كى وقد التقطت الوردة وناولتها لى قالت لي قاتفت إليها وقلت لها : « ما هذا بالله عليك ! أمن الإنس ذلك الوجه الصبيح أم من الجن ؟ »

فأجابتنى تلك العجوز : « ألا تزال غمراً فلا تعرف معنى إلقاء هذه الوردة إليك ؟ إن لك ذقناً طويلة ولست غلاماً ؛ ويظهر أنك سافرت كثيراً وتغربت ولكنك إن كنت لا تعرف ماذا تقصد السيدة من إلقاء ورده إليك فقد سافرت بلا نتيجة ولم يعلمك الاغتراب والتجارب شيئاً »

فقلت لها : « بلى، إننى أعرف أنها تريد القرب وتعنى المحبة والائتلاف وتشير إلى أن رأسينا يجب أن ترفعهما وسادة واحدة : تعلمت هذا من أسفارى وتجاربى ولكن الأسفار والتجارب علمتنى فوق ذلك أن أمثال هاتيك الحوادث لها مالها من خطر وضرر وأن رأسينا قد تقطعان بدل رفعهما على وسادة واحدة »

فقلت محدثتى متأثرة منفعلة : « لا تخف شيئاً . أقسم لك بحرمة نبينا الكريم إنه لا خوف عليك ولا ضرر . إننا قوم عظام وقد تفوتك ثروة إذا لم تقبل ما أعرضه عليك . هل وصل بك الحق والغبابة أن تخشى الأوهام وتخاف الظلال ؟ إن خوفك لا أساس له »

فقلت لها : « حدثيني من هذه السيدة التى رأيتهما وماذا يجب أن أصنع ؟ » فأجابتنى : « لا تتعجل كثيراً . لا يمكن أن يتم أمر فى هذه الليلة وعليك بالصبر فإن الوقت والمكان غير ملائمين . قابلنى غداً وقت الظهر عند مقبرة أيوب وستعرف كل ماود معرفته . سأكون جالسة على قبر أول أمير على يمينك ويمكنك أن تميزنى عن سائر النساء بشال أحمر تراه على كتفى الأيسر فاذهب الآن والله معك ! »

وافترقنا على ذلك فرجعت إلى حجرتى فى الخان أفكر فيما حدث ولم أشك فى أن خيراً ينتظرنى، غير

أننى كنت أسمع عن غيرة الأزواج الأتراك قصصاً عجيبية وخفت أن أصير ضحية غيرة شديدة وأن يقتلنى زوج على مذبح غضبه ، ثم توالى على مخيلتى ذكرى كل حب عاثر ، وحادثة كل غرام ضائع ، فذكرت زينب وبرحها ، ومريم ويوسفها ، وديلارام وقرحتها ، فغفقت كل رغبة كانت عندى فى مجارة عواطفى ، وخفت أن تكون النتيجة شؤماً على .

غير أن دم الشباب كان لا يزال يجرى فى عروقى فعزمت على أن أقبل كل ما تطلبه . وفى ظهر اليوم المعين ذهبت إلى مقبرة أيوب وبحشت عن أول قبر لأمير فرأيت ، ولهذا القبر شاهد عليه عمامة خضراء . ووجدت هناك المعجوز بوشاحها الأحمر ، وتجنبت معها الطريق العام واتخذنا مجلسنا فى ظل شجرة عالية فى جانب المقبرة ، وهناك جلسنا وأماننا منظر الميناء البديع وبدأنا نتحدث فى موضوعنا . بدأت السيدة بشكرى على احتفاظى بميعادها ثم أخذت تؤكد لى أن ما مستعرضه على لا خوف منه . وكان للسيدة حكمة المعجائز ومكرهن . وأخذت تكلمنى بحب ودهاء دون أن تقترب كثيراً من موضوعها وصرحت لى بميلها لى ورغبتها فى قضاء الأوقات معى .

وكنت أخشى أن يضيع معظم كسبى من الغلايين فلم أتركها تسترسل كثيراً وأوقفتها عند ذلك الحد ، وطلبت إليها أن تخبرنى عن قصة الغادة الجميلة التى رأيتها فى النافذة فحدثتني الحديث الآتى قالت : « إن السيدة التى رأيتها والتى أخدمها هى ابنة أحد التجار فى حلب . وكان لأبيها خلفه ولدان ، ومات الوالد من زمن ليس بالبعيد فخلفه فى تجارته ولداه وهما الآن تاجران لها ثروة طائلة ، ويقعان فى نفس هذه المدينة .

وتزوجت سيدتى واسمها « شكرليب » أى « معسولة الفم » من أمير هرم واسع الثروة ، وكان أبى أن يكون له أكثر من زوجة واحدة لأنه عرف من تجاربه أن بيته لا تحمل فيه الراحة ، ولا تزوره السعادة إن هو سمح لنفسه بالإكثار من الزوجات معتمداً على إباحة دينه جواز التعدد .

وكان مغرمًا بالسكون والراحة العائلية ، وظن أنه باقترانه من فتاة صغيرة السن يستطيع أن يعودها طباعه ويمرنها على ميوله فلا تعارض له رغبة ، ولا تمصى له أمراً . ونجح فيما أراد إذ لم يخلق الله من هى أرق طبعاً ، وألين جانباً من سيدتى . ولكن أمراً واحداً ظل منشأ الاختلاف ومصدر النزاع بينهما فلم يكن فى استطاعة الزوجين أن يتفقا عليه . وكان ذلك الأمر من العوامل التى أدت إلى موت الأمير فيما بعد .

وكانت سيدتى تحب الفطائر المحشوة بالزبد ، ويحبها الأمير محشوة بالجبن فظلاً خمس سنوات يتشاحنان على مائدة الإفطار كل يوم إلى أن حدث منذ ستة شهور أن الأمير الهرم تناول كثيراً من الفطائر المحشوة بالجبن والتى يحبها فأصيب بتخمة ومات على الأثر تاركاً لزوجته حسب الشريعة المحمدية ربع أملاكه من عقار ومنقول وعبيد وغير ذلك

وقد رغب فى سيدتى الكثيرون لشبابها الفاضل وجمالها الفتان وثروتها الطائلة ، ولكنها أوتيت ذكاء وحكمة نادرين فى مثل سنّها من النساء فلم تقبل أن ترتبط بمقد جديد وآلت على نفسها أن تصبر حتى تتاح لها فرصة الزواج من رجل تحبه حباً حقيقياً ولا يكون الدافع له ثروتها أو مركزها ولوقوع منزلها أمام مقهى من أعظم المقاهى

في المدينة أخذت تراقب من يرتادها من الزوار .
ولست في حاجة إلى إخبارك أنها رأتك أجمل من
وطئت قدماء المقهى ، ورأت فيك الرجل الذي كانت
تعلم به »

ثم قالت المجوز بعد ذلك : « وأخي هو صاحب
المقهى فطلبت إليه أن يستعلم عنك ويعرف من أنت
وما شخصيتك . وقد أطربت سيدتي إجاباته واجتهدا
بعد ذلك أن نلفت نظرك إلينا وأن نتعرف عليك
إن أمكن ، وأنت تعلم كيف كلل مسعانا بالنجاح .
ولك أن تحكم الآن هل تراني قدمت لك خدمة
عظمى أم لم أقدم »

وقد شعرت بأني كمن أفرج عنه بعد الحكم
عليه بالموت إذ لم أكن أتصور في أول حديثي مع
تلك المجوز أننا سنصل إلى هذه النتيجة . واختفى
من أمام ناظري ما كنت أتخيله وأخشاه من عجائب
وأسرار ومن تسلق للحوائط وقفز من النوافذ ومن
مؤامرات تركية وخناجر ودماء . وحل محل ذلك
كله تصور الثروة والراحة من عناء وكد . ورأيت
باب السعادة مفتوحاً أمامي على مصراعيه

لم أتردد ولم أحجم بل قلت لها : إنني سأكون
لسيدتها محباً متفانياً في الحب إلى الأبد واستعملت
كل ما وهبني الله من كلام معمول ، وقول خلاب
وأقسمت لها أنني سأجزل لها العطاء مكافأة على
خدمتي

فقال المجوز : « إن أمراً واحداً طلبت مني
سيدتي أن أستوثق منه قبل أن ترضى بك وتقبلك
وهو مركز أسرتك وقيمة ثروتك إذ يجب أن تدرك
أن أخويها وأقرباءها متكبرون فإذا ما أقدمت على
زيجة لا تليق بمركزها كان ذلك مدعاة لمعاملتها بكل

قسوة وخشونة وسبيكاً في إساءة زوجها إن لم يكن
في ضياعه »

ولم أكن مستعداً لمثل هذا السؤال . ولكن
سرعة البديهة التي أدركت بها مقدار ما ينتظرني من
جاء وثروة كانت عوني في الإجابة من غير تردد ، وقلت :
أسرتي ! أتقولين عائلتي ؟ من في العالم لا يعرف حاجي بابا ؟
سلوا إن شئتم من أول حدود اليمن إلى آخر حدود
العراق ومن بحار الهند إلى شواطئ قزوين فستجدون
اسم حاجي بابا أشهر من نار على علم

فقلت : « ولكن من يكون أبوك ؟ »
قلت بعد أن سكنت برهة : « أبي ! أأبي تعنين ؟
لقد كان أبي صاحب سطوة وجاء عظيمين وكم من
رؤوس خضعت للإشارة من أصبعه وكم من رجال
أحت أمامه رؤوسها وسحبها من ذقونها وفعل بها
ما لم يفعله رئيس الوهابيين »

وكنت في أثناء قولي هذا قد وجدت من الوقت
ما يكفي لخلق قصة مناسبة في مخيلتي وظللت أقول
للسيدة ما يدعشها فأطالت التحديق في وجهي ، وقلت :
« إن كانت سيدتك تريد دماً نبيلاً وأصلاً كريماً
ومنتبهاً فاضلاً فإلي يجب أن تتجه نظراتها ، وإلى يجب
أن يكون مصيرها . إنها وإخوتها مهما بلغ من أصرهم
فلن يفوقوني حسباً ولا نسباً . كان جدي المنصوري
من بطن نجد في جزيرة العرب وقد أقامه الشاه اسماعيل
شاه العجم العظيم مع قبيلة في جهة من أخصب مراعي
العراق فأقام فيها منذ ذلك الحين

وكان جدي لأبي يدعى خاطر بن خور بن أسب
ابن المدين من قبيلة قريش وهو شريف من سلالة
النبي عليه الصلاة والسلام »

فصاحت المرأة : « ماشاء الله ! كفى ! كفى !

قطعتين ذهبيتين أخذتهما بغير اعتراض . ثم تركتني في تأملاتي وسارت .

الفصل الثامن والستون

نواجع حاجي بابا من شكر لبيب

لم أبق في موضعي تحت شجرة الصفصاف كثيراً إذ كان يجب أن أؤدي جملة أعمال قبل أن يحين موعد التلاقي ، وعدت لألبس لباساً يدل على النعمة وينم على الثروة والجاه ، ولأحمل كيس دراهم مملوءاً ، ولأظهر بمظهر يليق بمركزى الجديد . وفوق ذلك فقد سررت أن أجمل شخصي ما استطعت بأن أذهب إلى الحمام فأغتسل ثم أتعطر وأتطيب ، وجعلت أثناء مسيرى أحدث نفسي مسروراً : « إيه يا حاجي بابا ! لقد برهنت هذه المرة على ما بين العاقل والنبي من فروق ... لقد أحسنت وأجبت يا ابن المنصوري ويا ريب قريش ! »

وصلت إلى الخان وأنا أسبح في لجة من الأفكار وبحر من الآمال . رأيت الشيخ عثمان أغا جالساً في ركن من أركان الحجرة يعد ما ربحه من بضائمه ، ورأيت في الركن الآخر غلاييني وقد وازنت بين هذه التوافه وبين ما يجول بخاطري من عظيم الآمال حتى ظهر على تأثير هذه الموازنة وشمرت بكبرياء وعظمة لم أشعر بمثلهما من قبل . ولست أدري إن كان عثمان أغا قد لاحظ شيئاً من ذلك ، ولكنه ذعر حين طلبت منه أن يعطيني بغير إهمال خمسين قطعة ذهبية على أن أودع بضائمي رهينة لديه ضماناً لماله

قال لي : « ما هذا الذي تطلبه يا بني ؟ ماذا تريد أن تفعل بمثل هذا المبلغ الكبير وبمثل هذه السرعة ؟ هل جنت أم أصبحت من ضحايا الميسر ؟ »

إن كنت أنت من وصفت فسيدتي لا تطمع في المزيد؛ ولئن كانت ثروتك تتناسب مع شريف أصلك فليس لنا بعد ذلك أي قول »

فأجبتها : « أما من جهة ثروتي فإنني لا أخفر بما لدى من مال عيني وثروة مجموعة فأى تاجر لديه مال أو ثروة من نقد ؟ لكن مال التاجر في بضائمه المنتشرة في كثير من بقاع العالم والتي لا تلبث حتى تعود بربح عظيم . إن حراثي وبضائمي الأخرى من قطيفة وديباج في طريقهما إلى خراسان وسأستحضر بدلاً منها جلوداً من بخاري وعملائي اليوم في مشهد بما معهم من ذهب وعطر لشراء شيلان الكشمير وأحجار الهندالتيينة . وفي استراخان يستبدلون بالسمور وأنواع الزجاج بضائمي الهندية أما بضائمي في حلب فسترد إليّ بدلها طيالس وشيلان على أنني لا أحدد ثروتي ولا أحصيها ولو أردت ذلك لكنت كمن يريد عد حبات القمح في الزرعة . وإنما قولي لسيدتك في غير مبالغة إن الرجل الذي وقع عليه اختيارك لو جمع ثروته لأذهلك وأذهل أسرتك مقدارها »

فقالت المرأة : « حمداً لله وشكراً ! هذا ما كنا نتمنى ولم يبق إلا أن أجمعكما معاً فلا تنس أن تكون في ركن من الرقاق عند ما يخيم ظلام الليل حتى أقدمك بكل حيلة وحذر إليها . وإذا زقت في عينها لم يخل حائل بين زواجكما وسعادتكما . ولم يبق إلا أن أنصح لك نصيحة وهي أن تحب الفطائر المحشوة بالزبد وأن تبدى نفورك من المحشوة بالجبن وأما فيما يتعلق بأي موضوع آخر غير هذا فسيدتي لا تعلق أهمية ولا تبدى اعتراضاً »

ثم سلمت عليّ متأذنة بالذهاب فوضعت في يديها

فأجبتة : « غفر الله ذنوبي ! لست مجنوناً ولا مقاصراً ولا يزال عقلي مهيأ وقد أقبلت على الدنيا بعد إدبارها ، فأعطني المال أولاً وسأقص عليك خبري بعد ذلك »

ولم يتردد الرجل طويلاً في إجابتي إلى رغبتى إذ كان يعلم قيمة بضاعتى ويعلم أن الصفقة رابحة ، فأخرج المال وعد خمسين قطعة ناولها لى ، فأخذتها وتركته وخرجت فاشتريت ملابس فى غاية الواجهة وأسهرت إلى الحمام فاغتسلت وأتممت كل ما كنت أريد من زينة وحسن زى وخرجت كأحد الأغنياء . وكان فى أثناء ذلك قد حل ميعاد المقابلة فسرت بقلب يخفق وينبض إلى المكان المعين ، ووجدت العجوز فى الانتظار . وبعد أن نظرت حولها لترى هل من أحد يلاحظنا تقدمتني إلى باب فى مكان مخفى فى المنزل ودخلت فدخلت وراءها ، وسررت من السكون والهدوء الشاملين للمنزل إذ كنت أنظر إلى نفسى كأنى صاحب المنزل ، وسيد من فيه .

ذهبنا إلى الجناح المخصص للسيدات وكان حذرنا واحتراسنا كما لو كان الأمير لا يزال حياً يرزق . دخلنا من الباب إلى ردهة كبيرة فيها نافورة ماء . ثم صعدنا سلماً خشبياً فرأينا فى نهايته ستاراً متعدد الألوان وتخطينا الستار إلى حجرة أخرى لم أر فيها من المنقولات غير أحذية نسائية وغير مصباح معلق تركتني قائدتى فى هذه الحجرة ، وذهبت تخبر سيدتها بقدمى ثم سمعت أصواتاً عديدة من الحجرات المجاورة فظننتها لصاحبات تلك الأحذية . وأخيراً فتح باب فى طرف الحجرة — وكان بالحجرة أربعة أبواب غيره — وأشير على أن أتقدم .

أخذ قلبي يخفق فى عنف ، وأنا أتقدم إلى ذلك

الباب . وأردت أن أظهر فى شكل الرجل الوقور فلففت نفسى بأطراف عباءتى ودخلت حجرة يضيئها مصباح واحد يلتقى نوره على ما بها من متاع .

وكان بالحجرة إيوان عليه غطاء من أطلس ثمين لامع أزرق اللون ، ورأيت فى زاوية منه بقرب النافذة من أتيت لرؤيتها .

لم أتمكن من رؤية شيء منها غير عيينين سوداوين ظهرتا كأنهما تضيئان فى سماء حياتى . وأشارت إلى يديها أن أجلس ، فأيت احتراماً لها ، ولكنى حين وجدت أن الإياء لا يجدى خلعت نعلى وتربعت على البساط وأدخلت يدي فى أكمام رداى وتكلفت حياءً وخجلاً لأزال إلى اليوم أضحك حين أذكرها .

جلسنا متقابلين بضع دقائق لم نتحدث فى غير المألوف من ترحيب وتسليم ، وبعد ذلك أمرت السيدة خادمتها عائشة (وكان هذا هو اسم التى قادتني إلى المنزل) أن تترك الغرفة وتخرج ثم تظاهرت بالليل تريد أخذ صروحها المصنوعة من ريش الطاووس وكانت على الوسادة فسقط نقابها ورأت عيناى أجمل وجه خلقه الله وكانت حركتها هذه دليلاً على انعدام الكلفة فأخذت أنظر إلى معبودتى نظرة هائم مدله مظهرأ لها شدة إخلاصى وإعجابى بجمالها وشوق وهيامى بها حتى لا أجعلها تتردد لحظة واحدة فى الاعتراف بركة مؤادى ونبل شعورى ودقة فهمى وسلامة ذوقى ، ولم تمالك أرملة الأمير من أن ترى فى الرجل الذى تتمناه فى أحلامها ، وعلمت أننى أرضيتها ونلت ثقتها حين ائتمنتنى على أسرارها وأطلعتنى على دخائل نفسها وقالت : « إننى فى مركز حرج وحال مرتبكة فقد فعلت عيون الحساد فعلها فى حياتى وأنت تعلم أن زوجى أسبغ الله عليه رحمته

وغفرانه ترك لي مالا كثيرا فأصبحت بإضافته إلى مالي الخاص على درجة من الغنى تحرك الأطماع وسببت لي ثروتي الطائلة متاعب وآلاما كادت تذهب بعقلي

ادعى كل من أقربائي حقوقا لا أصل لها وطلب كل من يمت إليّ بصلة طلبات كأنني أنا جزء من بيت المال وكان ثروتي ثروة عامة . وأظهر أخواي أفكارا خاصة ورغبات معينة في اختيار زوج لي كأنما الزوج الذي أختاره يجب أن يوافق مزاجيهما قبل مزاجي، ويجب أن يرتاحا إليهما دون نظر إلى عواطف وميولي، وكان لزوجي ابن أخ من رجال القانون وقد ادعى أن التقاليد القديمة تخول لقريب الميت حقا على زوجته وأن في استطاعة ذلك القريب أن يظهر رغبته في التمسك بحقه ليلقى عيادته على أرملة قريبه المتوفى وادعى قريب آخر أن لا حق لي في كل ما ورثت وما أملكه الآن وهددني بأخذ ثروتي . فساورتني الهموم والمتاعب ولم أجد في ظروف التي ذكرتها لك من ينقذني ويمد لي يد المساعدة غير زوج أختاره أنا وقد أرسلك القدر إلىّ فالحمد لله على ذلك » ثم أعلمتني بكل ما أعدت لمعد زواجنا العاجل

وأشارت في حديثها إلى رجل من رجال الشرع اختارته لكتابة الوثائق وقالت : إن الرجل موجود بالمنزل وعلى استعداد لإتمام العقد فشعرت باضطراب عنيف إذ لم أكن أنتظر مثل ذلك الانتقال من حالي التي كنت فيها إلى سماء العز والغنى ؟ غير أنني لم أنس أن أظهر لها الحب الكامن في صدري وقلت لها : إن حبي سيكون أبديا وإن عاطفتي لا تزول ما بقي في عرق ينبض وفؤاد يخفق ، ولم أقل عن نياتي ومقاصدي إلا كل ما تطرب له ويرقص فؤادها لدى

سماعه . ولقد خافت التأخير فأمرعت ببدء خدمتها العجوز عائشة وأمرتها أن تقودني إلى المأذون الذي حدثتني عنه والذي كان ينتظر أوامرها في مكان آخر من المنزل . ورأيت مع الرجل إنسانا آخر أحضره معه ليكون الوكيل عني في العقد . وقال لي المأذون الشرعي إن ذلك واجب من جانب الرجل كما هو لازم من جانب المرأة ثم عرض بسجل العقود وكان قد قيد فيه ما تملكه العروس من مال وضياع ومتاع وطلب إليّ أن أخبره بما يقيد ليضيفه إلى ما كتب

وهنا أخذت وذعرت، غير أنني لم أجد خيرا من أن أجيبه بمثل الذي أجبت به عائشة من قبل فقلت : « إن التاجر لا يستطيع تحديد ثروته المتفرقة في مختلف الجهات وشتى البلدان بضاعة ومتاجر إلا أنني أهب كل ما أملك لزوجتي فزواجنا أبدي لا افتراق بعده ولا طلاق »

قالت العروس : هذا حسن غير أننا نريد ذكر شيء محدد فقل لنا ما تملكه هنا في دار السعادة على سبيل المثال . إنك لم تحضر طبعا إلى هذه المدينة إلا لأعمال هامة فاذكر لنا ثروتك التي تحت يدك وذلك يكفي مؤقتا

فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت : « ليكن ذلك ! فليكن ما تريدن ! اصبري قليلا » ثم سكت كأنني أحسب ما ممي من بضائع . وبعد لحظة قلت في ثبات وجراءة : « إنني أعطى زوجتي عشرين كيسا من الذهب وعشر حقائب من الثياب »

ودار بعد ذلك حديث بين أرملة الأمير وبين المأذون . وبعد مفاوضة قصيرة انتهى الأمر برضاء وقبول وبصمنا جميعا على وثيقتي الزواج والهبة بعد (٧)

أن انتهى المأذون من خطبة الزواج. وبذلك تم العقد على حسب الشريعة وهنأني الحضور وشكرت لهم ولم أنس أن أكا في الشيخ وابنه وأن أعطى الخدم وأرسلت مبلغاً ليقسم على المقيمين بالقصر جميعاً. وبدلاً من أن أرجع إلى عمان أغا وأنام على وسادة من غلايين دخلت إلى مكان الحرم تحف بي مظاهر العظمة والجلال وأحس كافي رجل آخر غير الذي تعرفه أيها القاري

الفصل التاسع والستون

من تاجر غلايين إلى أغا عظيم
منابعه من شخصته المستعارة

سرعان ما أدركت أن أماري طريقاً وعرّاً وأنتى مقابل عقبات كثيرة. ولقد قيل إن فيلسوفاً صينياً قال مرة: إن عملية الأكل لو اقتصر على ما يحدث بين الفم وطبق الطعام لكانت أسهل العمليات وأطيبها، ولكن هناك المعدة وأجهزة الهضم بل هناك بقية أعضاء الجسم كله وهي التي تحكم إن كانت عملية الأكل طيبة أم خبيثة

وكذلك الحال في الزواج فلو اقتصر الأمر فيه على ما بين الرجل والمرأة لكان الخطب ولكن هناك الروابط العائلية وعلاقات القرابة تقرر سعادة الزواج أو شقاءه وراحة المروضين أو تعاستهما

أخذت عروسي الفتاة بعد زواجنا تحدثني أياماً متوالية وليالي طوالاً بأنفه الأحاديث وأخبئها عن أفراد أسرتها وتنازعهم وغيرتهم وبفضهم وعن كل ما يشعرون به نحوها من شر وما يريدونه لها من أذى حتى ظننت أنني إنما دخلت وكرثمايين وعش عقارب ولقد فضلت زوجتي أن تستعمل نهاية الاحتياط

في إخبار أخويها بزواجنا وقالت: إن الزواج وإن كان شرعياً إلا أن دوامه متوقف على إرادتهما إذ هما من أغنياء التجار ولهما نفوذ كبير في المدينة فيجب ألا تدخر جهداً في مرضاتهما

وكانت عروسي قد رأت أن تخطو خطوة في سبيل غرضها في حذر وانتباه، فأعلنت أن في عزمها أن تتزوج من أكبر تجار بغداد غني وجاهاً، ولكنها لم تقل إن الزواج قد تم

وكان إشهار زواجنا يستدعي أن نولم ولية ندعو إليها كل أفراد أسرتهما، وببذل عن سعة لتكون الولاية أخيراً الولائم، ولكي يقتنع أهلها بأنها لم تلق بنفسها بين أحضان حقير أو محتال

وقد وجدت مني ملبياً لرغباتها مطيعاً لأوامرها وسرت بسنوح فرصة سريعة يذيع فيها أمر ثروتي وبدأت في استحضار سرب من الخدم كل منهم له عمل خاص ولقب يناسبه. واستبدلت بقصبات التدخين التي أحضرها الأمير المرحوم قصبات أخرى أحسن منها وأغلى ثمناً وأحدث طرازاً. وكذلك أحضرت طفاً جديداً للقهوة بديع الصنع غالي الثمن بعض قطعه موشى بالذهب والبعض الآخر مطعم بالمعاج وفيه طبق أو اثنان طمها بالأحجار الكريمة لاستعمال خاصة

ثم اخترت من أحذية الأمير ما راق في نظري وكان الأمير مغرمًا بانتقاء فاخر الملابس وغالبها من عبايات وقفاطين وفراء تصلح للملوك، وقد أخبرتني زوجتي أن تلك الملابس من آثار عائلة الأمير ومخلفاتها الثمينة فلم أحجم عن اتخاذها لنفسى ووجدت قبل أن يحين يوم الولاية من الوقت ما يكفي لإعداد ما يليق بأغا من أعظم الأغوات. وإني أعتقد رغم كوني

أخوى زوجتى عاملاتى بلطف ورقة ورجبا بنى قائلين :
إننى زدت أسرتهما شرفاً ونخاراً باقتراى من شقيقتهما
ولاشتغالهما بالتجارة تحول مجرى الحديث إلى الشئون
التجارية فاجتهدت أن أدخل فى زوعهما أننى تاجر
عظيم ، وأن تجارتي منشرة فى أنحاء المعمورة .
فتدقت فى الحديث تدفق الماء على أهما أخذا يسألان
عن تجارة بغداد ، وعن المتاجر فى جزيرة العرب ،
والهند ، والصين ، وأخذا يطلبان إيضاحاً دقيقاً عن
الحاصلات ، وأحوال السوق فأسرعت إلى اقتضاب
الحديث ، وتحويل وجهته إلى المعلومات العامة .
وأجبت إجابات لا تفيد شيئاً وحين انتهيت شعرت
بأنه لا يزال ينقصنى شيء ، وهو أن يرى عثمان أغا
ما أنا فيه من سعادة ، وأن أخبره بأمر زواجى ،
وأدعوه إلى الوليمة .

ولكن هل أنا سعيد حقاً ؟ هل أنا صاحب
هذه الثروة الطائلة ؟ إننى أشعر بأنى أمثل دوراً
لا حقيقة له . وهنا خفت أن يفتضح أمرى وتظهر
حقيقتى ولم أجرؤ على الثقة حتى ولا بعثمان أغا لثروته
ولعلمه بحقيقة حالى

وصممت على ألا تكون لى به ولا بأى إنسان
من مواطنى علاقة ما ولو إلى أجل موقت إلى أن
أشعر بأنى فى أمان وأنى قد ثبتت أقدامى فى مركزى
الجديد فلا أخاف الاقتضاح

الفصل السبعون

نزاع الزوجهين

انقضت الوليمة على أحسن حال وأحسب أننى
نجحت فى إقناع الضيوف بأنى نفس الرجل الذى
زعمت أننى هو وأن شخصيتى حقيقية لا ريب

ابن حلاق أن ليس لأحد من الشكل والأخلاق
وحسن التصرف ما يؤهله لإتقان دورى هذا الجديد
خيراً منى ، ويجب أن أذكر أننى قبل ذلك الاحتفال
العظيم لم أنس أن أزور أفراد عائلتى الجديدة كما يقضى
الواجب . .

كنت أحسب لتلك الزيارة ألف حساب متخوفاً
من نتيجة مقابلاتى أفراد الأسرة ولكننى حين سرت
فى شوارع المدينة راكباً جواداً من جواد الرحوم
يحيط بى جمع غفير من الخدم والحشم ذهب عنى
الخوف وشعرت بالطمانينة والانشراح . وإن من ينظر
إلى الجموع السائرة وهى تفسح لى الطريق وتطلع
إلى ثم تضع أيديها على صدورهما عند مرورى ، وإن
من يرى جوادى وهو يضرب الأرض بمخافه
ويتبختر فى مشيته نخوراً بمن يحمل على ظهره ، وإن
من يتنعم بما كنت أنعم به من جلسة على ظهر جواد
كريم بينما يعيش الآخرون على أقدامهم - كل من
يرى ويشعر بما كنت فيه ولا يأخذه الدهول ويملكه
العجب فليس آدمياً

ويجب أن أضيف هنا أننى حين خرجت فى شكلى
المتقدم وقمت عيناى على بعض مواطنى وأبناء بلدتى
« الأعراء » ممن رافقونى فى القافلة من بغداد وكانوا
فى أسمال بالية وحال زرية وكأنما كان ظهورهم أمانى
فى شوارع المدينة باعثاً على ذكر ما أنعم الله على
وشكر ما أعطانى

ولم أعرف إن كانوا قد تبينوا حقيقتى أم جهلوا
أمرى فإننى أدت وجهى وسرت مجتهداً أن أخفى
ملاحنى فى ظل عمامتى الكبيرة ولحيتى الطويلة
وكانت نتيجة زيارتى فوق ما كنت أنصور ،
ولست أعرف ماذا كان شعور أصهارى غير أن

في صدقها ، ومن ثم بدأت أطمئن على نفسي وأخذت
شبح الخوف يغيب عن عيني فأنصرفت إلى اللذات
والتعرف على أصحاب الله وإخوان السرور وأن
ألبس أنعم الثياب ، وكان منزلي موضوع الأحاديث
ومطعم الأنظار في المدينة ، ولست أستطيع أن
أنكر أنني كنت أزداد كل يوم شعوراً بأني مدين
بكل ما أملك لزوجتي وآلني ذلك الشعور ونفص
على عيشتي ، وقد أدركت أن ستقوم بيننا منازعات
عديدة على موضوعات أخرى غير فطائر الزبد وفطائر
الجبين حتى لقد قلت في نفسي : « ما كان أحسن
حظ الأمير الشيخ ! لقد استطاع أن يعيش مع هذه
الزوجة ثم لم يختلف معها إلا على أمر واحد مع أننا
نختلف على كل أمر حتى لست أجد ما لسانا نختلف
عليه »

و كنت قد علت نفسي بأمنية غريبة وهي أن
أظهر أمام مواطني في الخان الذي يقيمون فيه
بشكلي وأبهتي . وأن أمتع نفسي بما يظهر على عثمان
أغا عند رؤيتي من الدهول والارتباك ؛ فلما رأيت
أن لا خطر عليّ وأنني أصبحت آمناً مطمئناً لم أرد أن
أقاوم تلك الرغبة فلبست أحسن ثيابي وامتطيت خير
جيادي وسار حولي كل خدي وأتباعي وسرت
في ذلك الموكب في أكثر ساعات النهار حركة إلى
الخان الذي كنت قد أقمت فيه باسم تاجر غلايين
أول نجيتي إلى الآستانة

لم يعرفني حينما تخطيت باب الخان أحد بل اجتهد
الكل في خدمتي واحترام ظانين أنهم سيجدون
مني شارباً لكل ما لديهم من البضائع ، وجاء خدي
ببساط ثمين من أنفاس الأبسطة وأغلاها وفرشوه
لأجلس عليه . وناولوني كذلك شيبكاً غالي الثمن

أدخن فيه فجلست وسألت عن عثمان أفا جاء الرجل
وجلس على طرف بساطي بكل خشوع واحترام
دون أن يعرفني أو يخال . وأخذت أكله في غير
اهتمام مدة ما . وقد لاحظت أنه كان ينظر إلى نظرة
المتشكك ثم صاح : « بحق النبي الكريم ألسنت
حاجي بابا ؟ »

قال ذلك بعد أن عجز عن ضبط نفسه وإخفاء
ما كان يدور بخلد

وضحكت كثيراً من منظر الرجل ومن قوله ثم
تعارفنا وقصصت عليه مجمل أمري وكيف تحولت
الخمسون قطعة ذهبية التي اقترضتها منه إلى تلك
الثروة التي يرى علاماتها بعينه

ولا حظت أن عثمان أفا لم يتأثر من انتقال
الفجائي إلى ما كنت فيه من نعمة وثناء ولم يحركه
منظري وقصتي كثيراً إذ كان له عقل فيلسوف قليل
الاهتمام . غير أنني لاحظت أن مواطني حينما علموا
أن لا بس تلك الهامة الكبيرة والثياب الغالية
وراكب ذلك الجواد وصاحب هؤلاء الخدم إنما هو
حاجي بابا الذي كان بائع سلع مثلهم لم يستطيعوا كظم
غيطهم ولا إخفاء حسدهم فأدركت ولكن أخيراً
جداً أنني أخطأت خطأ جسيماً في ظهوري بذلك
المظهر أمام أبناء بلدي وأردت أن أنسحب في سكون
من غير جلبة أو ضوضاء وإذا بأحدهم يقول :

« ماشاء الله ! أهذا حاجي بابا ابن الحلاق الأصفهاني !
دنس الله قبر أبيه وفضح أمه ! »

وقال آخر :

« أجدت وأحسنيت يا ابن الأعجام ! لقد هنئت
من ذقون الأتراك فليمت الله إليك من يهزأ بك ،
ويسخر منك »

وقال ثالث :

« أنظروا إلى عمالته الكبيرة ، وسراويله الطويلة ، وغليونه الثمين . والله إن أباه لم يرمثل هذه الأشياء حتى ولا في أحلامه » .

وظل آل بلدى يوجهون إلى الكثير من هذا التقريظ إلى أن استجتمت كل ما أملك من عظمة ووقار بعد الذى كان ، وقت من مجلسى فامتطيت جوادى ، وتركهم يشيعوننى بالنكات المريرة والضحكات المزرية والسخر والاحتكار .

حنقت أول الأمر عليهم ثم حنقت على نفسى بعد ذلك حنقا شديداً . وقلت : « لقد جوزيت يا حاجى بابا جزاء عادلاً ! وحق رأس أليك كربلائى حسن الحلاق لقد كوفئت على رعونتك ، وغبائك ! هل يجرؤ يوماً كلب أن يعشى بين ذئب مفترسة ؟ هل قدر غي من أغبياء المدن أن يسير بين وحوش العرب بدون أن يسرقوه أو ينهبوه .

قد يصير حاجى بابا عاقلاً حازماً فى يوم من الأيام ولكن يجب أن يذوق مرّ العذاب ويتجرع كؤوس الألم قبل أن يصل إلى تلك الغاية

ثم قبضت على لحيتى بيدي وتأوت قائلاً : « ماذا أفادتني هذه اللحية وماذا أكسبتنى شعراتها الطويلة ! لقد أصاب من قال : إن المرء لا يسره أبداً أن يرى ابن وطنه فى ارتفاع وارتقاء اللهم إلا إذا كان مرتفعاً إلى المشنقة ! »

وبقيت أحدث نفسى بأمثال هذه الخيالات إلى أن وصلت إلى منزلى وهناك دخلت إلى محل الحرم محاولاً أن أجد الراحة من عناء اليوم ومتاعبه غير أنى لم أصب ما أردت فإن زوجتى زادت فى كربي وبلائى كأنما كانت تدفعها الشياطين وتحرضها أبالسة الجحيم إلى مضايقتى

طلبت إلى أن أقدم لها حالاً كل المبلغ الذى ذكرته فى وثيقة زواجى . وظلت تلح فى طلبها وتردده بحالة لم أحمّلها مع ما كنت فيه من غيظ وضيق صدر بسبب ما حدث بينى وبين أبناء بلدى ولم أشعر إلا وقد انفجرت انفجاراً شديداً وجعلت أهذى هذياناً مريباً مصحوباً بالإشارات العنيفة وأمطرت أبناء بلدى وزوجتى وأبلاً من اللعنات والشتائم القبيحة والسباب البذى حتى غدوت أنا الذى كنت وديماً لطيفاً أكثر شراسة من الوحوش الضواري

ذهلت زوجتى مما أبديته وتفوهت به وتراجعت قليلاً إلى أن وقفت ومن ورائها خدماً وعبيداً وأتباعها تتقدمهم عائشة منتظرة فرصة تستطيع فيها الكلام

وأخيراً تكلمت وتكلمت حتى بدا ثغرها أصغر من أن يسع كل ماتفوهت به من ألفاظ وما خرج من فمها من كلام

ولم يمنع عائشة ومن معها من الخدم والأتباع ما كانت تقوله سيدتهم من الكلام فتكلمن حتى كأنما هبت فى الحجرة عاصفة من ألفاظ عنيفة وشتائم متوالية كلها موجهة إلى

كنت أرغب فى المقاومة غير أنى لم أستطع فقد كانت الحجرة كأنها ساحة ضجيج وسوق شتائم وصراخ وضائق الحجرة عن أن نسمعنا جميعاً . وكنت أول من فكر فى التقهقر والهرب فانسحبت من مسكن الحرم بين اللعنات والسباب والضجيج والتدافع والتلاطم وعلى رأس الجميع زوجتى العزيزة فكانت هذه المخلوقات اللطيفة أشبه بالشياطين منها بالخور التى وعد الله بها عباده المتقين فى الفردوس المنشود .

أويت إلى حجرتي منهوك القوى مضضع العزم
خائر النفس مما حدث في يوم من أرزاء وخطوب
وأوصدت باب حجرتي وجلست فيها وأنا أشعر بأني
أتمس مخلوق دب على الأرض رغم ما يحيط بي من
عز وأبهة ورغم أني صاحب كل هذه الرياش والنفائس
وجعلت أندب سوء حظي متوقفاً ما يجيء به القدر .
وشمرت بما يشعر به المسجون من الظنون والريب
وكان من الواضح أني لو حاولت أن أخفف من بلوأي
باختلاق أكاذيب جديدة فإن آخرتي ستكون شر
آخرة ومصيرى أقبح مصير

ثم قلت لنفسي في ألم وحيرة : « رحم الله أياماً
كنت فيها حراً طليقاً فلو كنت لم أرتبط بمقود
وأختام لتركت زوجتي تفعل ما تستطيع دون أن
أحفل بما تفعل ، ولكنني الآن تقيدت بكتابات
رسمية عليها توقيمي وسأظل أمام العالم كذوباً محتالاً
الفصل الحادي والسبعون

ماجى بابا يستكشف أمر احتياله ويفقر زوجه

بت ليلتي قلقاً مسهداً لازمني فيها الأرق فلم تذق
عيناي الكرى حتى سمعت المؤذنين يعلنون انقضاء
الليل وبزوغ الفجر ويدعون الناس إلى الصلاة .
وكان استيقاظي إذ ذاك قبل أن تمر ساعة واحدة
على اغتماض عيني ، على صوت ضجة غير عادية في
رجبات المنزل . وأخبرني أحد خدمي أن أختي
زوجتي قد حضر إلى المنزل يصحبه قوم آخرون .
فأصابني رعشة شديدة أفقدتني كل ما كان لدى
من عزيمة وقدرة . وقام في ذهني خمسون خاطراً
كل منها يزيد على الآخر أهمية وخطورة ، وبدأت
أشعر بأصابع قدمي قد أصابها خدر شديد فلم تقو
السنون التي مضت على إضاعته ، وذكرت في تلك

اللحظة الدرس الذي تعلمته في مشهد
ثم فكرت في حالتي قائلاً : « ولكن أليست
شكرليب زوجتي رغم كل ما حدث ؟ إنها زوجتي
شرعاً مهما يكن ما حدث أو ما سوف يحدث ، ولئن
كنت قد بالغت قليلاً في مقدار ثروتي فإنني لم أفعل
لذلك غير الذي يفعله كل أبناء آدم »

ثم التفت إلى خادمي وقلت له : « بحق النبي دع
القوم يأتون إلى هنا وأحضر لنا القهوة والغلايين »
رفع الخدم فراشي ونظفوا حجرتي ودخل الزوار
واحداً بعد الآخر في صف طويل وجلسوا على إيواني
وهم أخو زوجتي وأخو زوجها الأول وابنه ورجل
آخر متجههم الطلعة شرس المنظر لم أكن قد رأيته
من قبل

جلس هؤلاء ورأيت غيرهم سرباً من الخدم
والأتباع وقوفاً في آخر الحجرة وبينهم رجلان بشما
الشكل قد تسلحا بالمصى الغليظة ووقفوا أمام الخدم
ينظران إلى نظرات تنطوي على الشر ولا تدل على
صفاء ولا خير . اجتهدت أن أكون ساكناً رزيناً
والأأ أظهر بمظهر الخائف ما استطعت وتظاهرت
بالبشر والارتياح لتلك الزيارة ورحبت بالزوار فلم يكن
جوابهم على ما أبديت غير تممة لم أفقه لها معنى

أمرت بإحضار القهوة والغلايين ورجوت
أن أعلم السبب في تشريفي فقلت لشقيق زوجتي
الأكبر : « أسعد الله صباحك يا عزيزي . هل
أستطيع أن أؤدي لك أية خدمة في هذا الوقت المبكر
من النهار ؟ ليس عليك إلا أن تأمر فقطاع »

فقال بعد أن لزم الصمت برهة : « حاجي بابا !
أنظر إلى ! هل تظننا حيوانات لا تفقه ولا تنفع ؟
هل تعد نفسك رجل اليوم فلا قرين لك ولا نظير
فتضحك من ذقوننا وتبث بكرامتنا ما شئت وشاء
لك عقلك ؟ »

فأجبتة بقول : « ما هذا الذي تقوله يا سيدى
الآغا ؟ إننى لا أدعى أى دعوى ولست إلا رجلاً
وضيعاً لا يزن قبضة من التراب »

فقال أخوه الثانى فى حماس وحدة : « أيها الرجل
كيف تزعم أنك لا تدعى الدعاوى المراض ؟ ما الذى
صنعت به بنا إذن ؟ هل حسبنا أغناماً حتى نتحمل
مشقة الحجى من بغداد إلى هنا لى تسخر منا ؟ »
فصحت متألماً : « يا الله ! يا الله ! ما هذا ياسادى ؟
لماذا تتحدثون بهذه اللهجة المرة ؟ ماذا صنعت حتى
أستحق منكم كل هذا ؟ تكلموا بحق السباء
وأصدقونى ! »

فقال عم زوجتى وهو يهز رأسه ولحيته البيضاء :
« ما أخبثك يا حاجى بابا ! ما ألام طبعك !
لقد صاغك الله يوم صاغك من خبث ورياء فظننت
أن خبثك يجوز علينا ورياءك ينطلى على عقولنا .
كلا كلا ! إن ذلك لن يكون »
فقلت له : « ولكن بحقك يا عماء ماذا جنيت ؟
تكلم ! »

فقال ابن عم زوجتى : « ماذا جنيت ؟ أتقول
ماذا جنيت ؟ إنك قد كذبت وسرقت وتزوجت
امراً بعد أن خدعتها . ألا يرضيك كل هذا ؟ أنك
لا تستحي ولا ماء فى وجهك . هل تظن أنك لم تأت
أمراً ؟ »

وهنا قال صهرى الأكبر : « ربما ظننت أنك
أكسبتنا شرفاً عظيماً وأن ابن حلاق أصفهانى
قد تواضع فرضى بالزواج من ابنة أبرة من أغنى
أسر الآستانة ! »

وقال آخر : « ربما خطر ببالك أو صور لك
الوهم أن بائع قصباب التدخين تاجر عظيم يستحق
أن يعقد له على شقيقتى »
وقال عمهما ساخراً : « نحمد الله ونشكر

فضله ! إن حاجى بابا تاجر لا نظير له فإن حرايره
وديباجه فى الطريق إلى بخارى لتستبدل بها جلود ،
وإن شيلانه فى طريقها إلينا من كشمير وإن سفنه
قد حجبت سطح البحار ما بين الصين وبوشهر ! »
وقال ابنه متمماً : « ونسبه وأصله ! هل قلت
إنك ابن حلاق ؟ حاشا لله ! اللهم رحمتك وغفرانك
فإن نسبه ينتهى إلى قريش وليس هو من قريش
فقط بل هو شريف من العترة النبوية . من ذا الذى
يوازى أسرة المنصورى ؟ »

وكنت قد لاحظت أن العاصفة على وشك
الهبوب فجعلت أكرر : « ولكن لماذا كل هذا ؟
إن كنتم تريدون قتلى فافعلوا يا قوم ولا تنزعوا
جلدى قيراطاً قيراطاً بقارص كلامكم »

فقال الرجل المتجهم الوجه العبوس الطلعة بمد
أن ظل صامتاً أثناء كل هذه الأحاديث : « أنا أتولى
إخبارك عما ترى وتسمع أيها الكافر المنافق . إنك
خسيس نذل لا تستحق أن تعيش فإن لم تترك
ادعاءك ومظاهرك الكاذبة وتترك زوجتك وهذا
المنزل وكل ما يحتويه بنير إبطاء فأنت ترى هذين
الرجلين (وأشار إلى المتشردين الواقفين أمام الخدم
بالعصى الفليضة) وهما ينزعان روحك من جسدك
النجس كما تنزع بقايا التبغ من الغليون . لقد
أخبرتكم بما سيكون وتركت لك الخيار فاختر لنفسك
ما يحلو »

وكأنما أثرت ألفاظه فى جميع الموجودين فأطلقوا
لأنفسهم العنان وصبوا على اللعنات والشتائم دون
مبالاة ولا احترام . وظللت صامتاً فى تلك العاصفة
الثائرة لم أنبس بينت شفة ووجدت من صمتى فرصة
للتفكير .

رأيت أن أتبين ماذا تكون نتيجة المقاومة فقلت
لصاحب الوجه العبوس : « ولكن من أنت حتى

« نعم نعم بحق النبي ! أتركوه يذهب إلى سبيله .
بالله عليكم أريحونا من طلعتة »

صدرت هذه الكلمات وآلاف من قبيلها عن
ناحية الباب فظرت إلى جهة الصوت من مسكن
الحرم فرأيت عند بابه زوجتي على رأس جماعة من
النساء كأنما أحضرت لتشهد ضدي ولتبدى رغبتها
في الانفصال عني

وأخذ النسوة يصرخن ويلعنن ناقات نادبات
كأنما لبستن روح عفريت وكأنني كنت رجساً من
عمل الشيطان ويجب تنظيف المنزل منه
وجدت نفسي وحيداً غريباً في بلدة لا مساعد
لي فيها ولا معين ، ورأيت أن لا حيلة لي أمام قوة
عظيمة لا أستطيع الوقوف أمامها فتجلدت قليلاً
وقت من موضعي وأنا أقول :

« إن كانت هذه هي رغبتكم فليكن ما تريدون
إني غير راغب في شكرليب ولا في مالها ولا في أخويها
ولا في عمها ولا في أي شيء مما يملكون ما داموا
جميعاً لا يرغبون في ، غير أنني أقول اليوم إنهم عاملوني
معاملة لا يعاملها مسلم لأخيه ، ولو أنني كنت كلباً
بين جماعة من الكفار لعوملت بأحسن مما أعامل به
الآن . وفي يقيني واعتقادي أن العذاب الذي سيناله
من أساءوا إلى النبي سيناله يوم القيامة من أساءوا
إلي واضطهدوني »

.. ووقفت في وسط الحجرة بين الموجودين وقد
تشجعت وتحمست بسبب ما ألقينه عليهم من الكلمات
وخلمت جميع ما كان علي من الملابس التي اشتريتها
أو أخذتها من مال زوجتي ورميت بذلك على الأرض
في احتقار وعزة نفس كأنما هي وباء يخشى منه
ثم طلبت جبة قديمة كانت لي ووضعتها على كتفي
وانطلقت إلى الخارج وأنا ألعن كل من تركت

عبد اللطيف الشاعر

(ينبع)

تجزؤ على دخول بيتي ومعاملتي كما يعامل الكلب
الأجرب ؟ إن هؤلاء أصهاري ، وهم في منزلهم ،
وأهلاً بهم ومرحباً ، ولكن أنت ماذا تكون
قرابتك من زوجتي ؟ لست بأبيها ، ولا بأخيها ،
ولا عمها فماذا تصنع هنا ؟ إني لم أتزوج ابنتك
أو أختك فماذا يهمك ؟ »

وكان أثناء حديثي بحتم غيظاً وغضباً ، ونظر إلى
كما ينظر الأسد إلى فريسة بهم بالمهجوم عليها . وقال
وصوته يتمثل فيه الغضب والحنق : « إن أردت
أن تعلم من أنا فسل الذين أتوا بي إلى هنا . إني
ورجالي نعمل بأمر الحكومة وسلطة القانون ، فإن
قاومت كان الأمر وبالاً عليك وخسرانا » .

فأدركت أن الرجل وأتباعه من رجال الشرطة
فقلت وقد خفضت من لهجتي وألنت من ألفاظي :
« ولكنك إن أردت أن تفرق بيني وبين زوجتي
التي تزوجت بها على كتاب الله وسنة رسوله فارك
لي فرصة أستشير فيها رجال الشرع إذ كل مسلم
تحميه نصوص القرآن الشريف وأظنك لا تأبى على
استعمال هذا الحق . وفوق ذلك فإن زوجتي لم تبد
رغبتها حتى الآن في الانفصال أو قبول ما تعرضه
علي أنت ... إنها هي التي بحثت غني ولم أكن
الباحث عنها ورضيت بي بعللاً وأحبنتي دون أن تفكر
في أي أمر مادي مما تشيرون إليه . وحين قلت أن
أقترن بها لم أكن أعلم من أمرها شيئاً ولم أكن
أعلق أية أهمية على غناها أو مركز أسرتها . لقد
كانت إرادة الله السابقة هي التي جمعتنا وأنتم مسلمون
فهل تعارضون تلك الإرادة ؟ »

فقال أكبر أصهاري سناً : « لا تجهد نفسك
في الكلام عن إرادة شكرليب ورغبتها فإنها تتمنى
الانفصال أكثر مما تتمناه نحن »

وسمعت في هذه اللحظة جملة أصوات تصيح :



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الوزارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١١ ربيع أول سنة ١٣٥٨ — أول مايو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٥

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
٣٩٤	هذا القرن أنصوبة مصرية بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
٤٠٣	لم يرغب أحد في وجودي عن الانجليزية بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
٤١٥	زئير الصين للآلة منيرة سيم شاه بقلم الأديب ابراهيم ت. ج. ما
٤٢٢	الحب أقوى من الموت للكاتب الروسى ديمترى ميرىجكوفسكى
٤٣٣	حاجى بابا أصفهانى للكاتب الانجليزى « جيمز مور » بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

جسمه الدقيق صورة صليب
متساوى الأطراف على وجه
التقريب ...

ولم ير السائق بداً من إيقاظ
سيده فقال بصوت خافت :
— سعادة الباشا ... سعادة

الباشا ...

فلم يبعث نداؤه فيهما أى أثر للحياة ، فرفع
الرجل صوته قائلاً :

— سعادة الباشا ...

واستطاع نداؤه في هذه المرة أن يوقظه فتحرك
رأسه ، واضطرب شاربه كأنه جناحاً نسر يخفقان ،
وقال بلسان ثقيل متلثم :

— من ... ؟

— وصلنا يا صاحب السعادة ...

— وماذا تريد ؟

— عفواً يا صاحب السعادة ... تفضل بالنزول

لتصعد إلى مخدعك

ففتح الباشا عينيه المحمرتين وكأن النور اللطيف
الذى ينير المكان آذاها ، فأغمضهما بسرعة وتحسس
بيده ذراع زوجه العارى كأنه قرينة مملوءة بالمياه وقال
بصوته الثقيل :

— يا هانم ... زينب هانم ...

فشهقت المرأة شهقة قوية لو أصاب ثيارها الباشا
لابتلعته ، وقالت بتبرم وسخط :

— من ... ؟

— وصلنا ...

— وماذا تريد يا باشا ؟

— تفضلى لتصعد إلى مخدعنا

هَذَا الْفَرْزُ

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ

انتصف الليل ؛ وخيم السكون ، وشمل الصمت
الدور والطرق ، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة
كأنها تؤنس وحشة الأشجار الغروسة في الأفاريز
وقد مزق السكون الأمن بوق سيارة أتت
مسرعة من مبتدأ شارع العباس ، ثم وقفت أمام
الباب الحديدى المعلق لقيلاً آية في الأناقة والجمال ،
ونفخ السائق في البوق مرات ، نخرج البواب من
كوخه الخشبي وفتح الباب ، واندفعت السيارة إلى
داخل الحديقة التى لا يبدو منها إلا أشباح الأشجار
ودارت دورة غير كاملة ، وصعدت منحدرًا ثم وقفت
أمام الباب الداخلى للقصر ، وزل السائق مسرعاً
وضغط على مفتاح كهربائى على كشب من الباب
فأضاء مصباح وأرسل نوراً أزرق هادئاً ، ثم فتح
باب السيارة ووقف كالتمثال ...

وانتظر لحظات وثوانى ودقائق ، ثم أخذه العجب
فأرسل ناظره إلى داخل السيارة ، فرأى الباشا
وزوجه مستغرقين فى نوم ثقيل ، وكانت السيدة ملقمة
برأسها إلى الركن ، وجسمها الضخم الهائل ممدداً ،
يسدو فى الفستان اللامع اللتصق به ، كفرس
البحر ، وكان الباشا مسنداً رأسه إلى كتفها بحسبه
من رآه لضالة جسمه ونحافته وقصر قامته — غلاماً
صغيراً . لولا شاربه الغليظ الطويل الذى يرسم مع

— أصعد ١؟ ... أنا لا أستطيع أن أتحرك
فكيف لي بالصعود !

— ما العمل ... هل تقضى الليل في السيارة ؟

— ولم لا ؟ ... المقعد وثير لين كالفرش ،
وهذه ضجة مريحة فما معنى التعب ؟

فقال الباشا للسائق وهو ما يزال منغمض الجفنين :

— يا حسن ... إذهب أنت .. سننام ها هنا
فارتبك السائق وقال بتحرج :

— العفو يا صاحب السعادة ... هذا غير طبيعي .

وسيرى البواب في الصباح ويرى الخدم ...

فأثنى الباشا إلى زوجه قائلاً :

— يا هانم هذا غير طبيعي وسيرى البواب في

الصباح ويرى الخدم !

— من الذى يكلمك ؟

— السائق

— أف ... لاتضايقنى ... ماذايهما من البواب

أو الخدم أو السائق ؟

فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة :

— أف ... لاتضايقنى ... ماذايهما من البواب

أو الخدم أو السائق ؟

فسكت الرجل ولكن لم تطاوعه نفسه على

الذهاب فوقف ينتظر ، أما الباشا فأخرج منديله
وجفف عرقه ، وقال وهو يفك ربطة عنقه :

— الدنيا شديدة الحرارة ...

فاعتدلت المرأة في جلستها ، ولم تلبث أن صاحت :

— يا لطيف !

— مالك ... ؟

— المقعد يمد بي كفى فى أرجوحة !

وأرادت أن تمسك بشيء ، فوقمت يدها

المتخبطة على شارب الباشا ، فتألم الرجل ونزع
شاربه من كفها وهو يقول ضاحكاً :

— دعى شاربي ... هل تحسينه جبل

الأرجوحة ؟

— أنا فى غاية التعب

— شربت كثيراً يا زينب هانم ... شربت

أكثر مما ينبغى لك !

— وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك ؟

الكل كان يشرب رجالاً ونساء ... أنت نفسك
شربت كثيراً يا باشا

— أنا متعود على الشراب يا هانم ... أنا

أستطيع أن أشرب جانة كاملة فى ليلة واحدة !

— ومع هذا لم تهلك أعصابك الليلة ...

وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك ، بل وضحكت
منى أنا يا ناقص !

— كيف ذلك ؟ ... هذا مستحيل

— مستحيل ! ... ألا تذكر ساعة خروجنا

من البوفيه ؟ ... كنت تسير ورأى فنظرت إلينا

عديلة هانم تلك المرأة الوحقة وقالت : « كان الله فى

عون إبراهيم باشا فهو زوج ومروض » وضحك
جميع المدعوين وضحكت أنت أيضاً !

— أنا لا أذكر هذا !

— طبعاً لأنك لم تكن فى وعيك ، ومع ذلك

فأنت تزعم أنك تستطيع أن تشرب جانة فى ليلة

واحدة ... أليس كذلك ؟ ولكنى انتقمت منك

فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذلك مباشرة
— وكيف كان ذلك ؟

— كان جماعة من الحاضرين يتمجبون لنحافة
قدك فاعتذر الأمير الالى فتحى بك عن صغر حجمك
بقوله « إن شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النمو »
فضحكت مع الضاحكات والضاحكين ... وواحدة
بواحدة

— ياله من ضابط وقع !
— أنت المستول عن جعلنا أضحوكة في كل
مكان ... لماذا لا تقص شاربك ؟
— أقص شاربى ؟ ... هل جنت يا هانم ؟ !
— وما وجه الجنون في هذا ؟ ... إنه حمل
ثقيل على جسمك الرقيق

— لا يكون الرجل رجلاً بجسمه !
— أيمكن أن يكون رجلاً بشاربه ؟
— معلوم ! أنظرى إلى مثلك ، فانت امرأة
ولك جسم فيل .. ولكن هل توجد امرأة بشارب ؟
— الحق أقول لك إنى همت مرة بقص شاربك
في أثناء نومك ... لولا الخوف

— وما الذى أخافك ؟
— أشفت من أن يصبح زواجنا لاغياً
— وله ؟ هل أنت زوجى أنا أم زوج شاربى ؟
— الحقيقة أنك بغير هذا الشارب تغدو غلاماً
لما يبلغ السن القانونية للزواج !

— هذا هذر سكارى والأولى بك أن تنحى
جسمك الهائل ، فضخامته الشاذة هي المدعاة الحقيقية
إلى السخرية ... ألم ترى صديقاتك الليلة ؟ .. كلهن

نحيفات اللحم إلا راضية هانم وهي على كل حال لا تزن
نصف وزنك ...

— أنت المستول عن وزنى
— أنا !
— نعم ... لأنك كنت دائماً تؤكد لي أنك
تحب اللحم العجالي والبقرى ... وأنتك تحتقر الوزن
(الهايف) ! ... وها أنت ذا تملص من تبعاتك
كما كنت تفعل وأنت وزير !

— ما شاء الله !.. هذا قول أعدائى السياسيين ،
وأرى أنى أجحد فى بيتى كما جحدت من قبل فى ميدان
السياسة الملعون وأنى خسرت الدنيا جميعاً
— بل ربحت شيئاً مؤكداً ...
— وما هو ؟

— أنك صاحب مقام رفيع !
— يا هانم أنت فى سكر كالحشاشين ، والحق
أنك تستأهلين رتبة ولكنى لا أدرى أى رتبة
تناسبك ... فلا فكر قليلاً ... ما رأيك فى لقب
الصدر الأعظم ؟ !

... وهنا قطع حديث الزوجين طرق عفيف
على باب القصر الخارجى ، وشق الصمت المخيم صوت
منكر يصيح :

— يا بواب ... يا عم محمد ...
فسكت الزوجان دهشة واعتدلاً قليلاً فى جلستهما
وأرهما السمع ، وخف السائق مسرعاً إلى الباب
ليرى ما هنالك ...

كان الشرطى المكلف بالحراسة الليلية يسير

— سفر لا يقبل التأجيل
أو ليس للقصر باب ؟
— لم أجد وقتاً لا يقاط البواب
— يا مغيث ... هذا حقاً عصر السرعة ...
وليس يبعد أن أرى غداً من يقفز من نافذة الطابق
الثالث أو الرابع لأنه ليس لديه متسع من الوقت
يهبط فيه السلم عوفيت يا سيدي عوفيت ...
— أراك لا تصدقني يا حضرة الشاويش ...
أوكد لك أنني من أهل القصر ... غير أنني استسملت
أن أقفز على هذا السور القصير
— معلوم ... معلوم ... ليس الذنب ذنبك ...
ولكنه ذنب من يحتم تعليم الألعاب الرياضية
والتدريب العسكري ... على أنني أجد نفسي مضطراً
إلى تأخيرك يوماً أو عدة أيام وربما عدة أشهر
قال ذلك ودفعه أمامه .. ولكن الشاب ألصق
قدميه بالأرض وقال بتوسل :
— لست لصاً ... لست لصاً والله ... أنا من
أهل القصر
— إذا كان ما تقواه حقاً فما عليك إلا أن تدخل
القصر ثانية فأصدقك
— حسن ... أترك ذراعي وستري ...
— أدخل البيت من بابه ... تعال
وساقه إلى باب القصر وطرقه ، وهو ينادي
البواب ...
وأتى السائق على صوتة مسرعاً وأيقظ البواب
فقام الرجل ساخطاً وفتح الباب ، وأحذف ظهور
الشرطي والشاب المقبوض عليه دهشتها ، ونظرا

المهويني في شارع العباس ، ولما بلغ قصر الباشا
سار بجذائه وعرج ملازماً للسور إلى شارع الإلهامي
وانتبه من سهوة إلى حركة في أعلى السور فنظر إلى
مصدرها فرأى رجلاً يقفز من الحائط ويسقط على
بعد ذراع منه ، وقد تولاه الذعر لظهور الشرطي
المفاجئ فتسمرت قدماه بالأرض .. وأسرع الحارس
إليه وقبض على ذراعه بقسوة وهو يصيح به :

— يا ابن الملعون ! أتحسب البلد بلا حكومة ؟
وكان المقبوض عليه أفندياً ، أنيق الملبس ،
كشف نور المصباح الخافت في وجهه عن ملامح
وديمة ونظرة أدنى إلى الرقة والجبن منها إلى الشر
أو التحدي ، ففحصه الشرطي بنظرة شديدة وهو
يتحسس جيوبه وقال له متهاكماً :

— إخالك لم تسرق سوى هذه البذلة !
فقال الشاب وهو يلهث من الإضطراب والخوف :
— أتركني يا حضرة الشاويش أنا لست لصاً
كما تتوهم

— عفارم عليك ... فمن تكون يا مولانا ؟
— أقسم بالله العظيم أنني لست لصاً ... ولم أسرق
في حياتي قط وهاك جيوبتي قتشها كما تشاء

— آه ... هل كنت في القصر زائراً إذا ؟
— أنا ... أنا من أهل القصر

— فهمت يا سيدي فهمت ... أنت ابن الباشا
بلا شك وما قفزك من السور إلا رياضة بدنية كنت
تقوم بها في هذه الساعة المتأخرة من الليل !

— بل أردت أن أخرج بسرعة
— وما الذي يدعوك إلى الخروج بعد منتصف
الليل ؟

إليهما متسائلين ، فقال الشرطي :

— قبضت على هذا الشاب وهو يقفز من سور القصر ، فادعى أنه من أهل الدار فهل تعرفانه ؟
فأضاء البواب المصباح الكهربائي ، ونظر السائق إلى وجه الشاب الشاحب وقال مسرعاً :

— هذه هي المرة الأولى التي تقع عليه عيناي ...
وسأل البواب الشرطي :

— هل وجدت معه شيئاً ؟

— سيفتش في القسم

وفي تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح في سكون الليل :

— يا حسن . من عندك ؟

فهرع السائق إلى الباشا ، وطمع الشرطي في سماع كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشاب أمامه وتبع السائق ، وقال حسن لسيدته :

— قبضوا يا صاحب السعادة على لص يقفز من سور القصر .

فقام الباشا واقفاً وغادر السيارة ، وهو يقول :

— كيف ؟ دي لولو كانت في البيت وحدها

وهرع نحو الباب الداخلي وتبعته زوجته في تمثر

ظاهراً وكان الباشا يصيح : لولو .. لولو !

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة في لباس النوم الأبيض الشفاف ، أشرقت في الظلماء كالشمس ناشرة في الجو عطراً يفعل بالأعصاب فعل الموسيقى العذبة . فصاح الوالدان :

— الحمد لله .. هل أنت بخير يا لولو ؟

فأجابته بصوت له في الأذن وقع كالعطر

في الأنف :

— نعم ياماما ... ماذا حدث ؟

فقال الباشا :

— قبضوا على لص يقفز من سور القصر .

نخفق قلب الفتاة وقالت بصوت متهدج :

— لص !

— ألم تسمى حركة ؟

— كلا ...

— الحمد لله ...

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللص والشرطي والسائق والبواب وتبعته زوجته ولولو ، ورأت الفتاة وجه القبوض عليه على ضوء المصباح الهادي فاشتد خفقان قلبها ، وزاغت عيناها ، وخفضت بصرها ذاهلة مضطربة ...

وقال الشرطي :

— يدعى هذا المجرم أنه من أهل البيت يا صاحب السعادة

فأنعمت زينب هانم النظر في وجه الشاب بعينين أطفأت النور نورهما وقالت :

— كذب ... هذا لص جرىء

ولكن ساورها شك في صحة بصرها فالت إلى زوجها وسألته بصوت خافت :

— أليس كذلك يا باشا ؟

فنظر الباشا إلى الشاب بعينين ذاهلتين كعيني زوجته وقال :

— بلى ... بلى ... هذا لص ولا شك

ثم مال على أذن لولو وسألها :

— أليس كذلك يا لولو ؟

ولم تجب الفتاة أو على الأصح لم تسمع السؤال . فسأل الباشا السائق :

إصلاحه بالمهروب فوقعت في يدي الشرطي .. لست
لصاً ... قتشوني فلن تعثروا على شيء

— وماذا شربت ؟

وكان السائق في حالة سيئة من الغيظ والجنون
فقال :

— هذا لص كذاب يا صاحب السعادة وينبغي
أن نسوقه في الحال إلى القسم

ولكن الباشا انهره قائلاً : لا تقاطع التحقيق
وسأل الشاب وهو يهز رأسه بدهاء :

— ماذا شربت ؟

— ويسكي يا صاحب السعادة

فسأله زينب هانم :

— بالصودا ؟

— نعم يا سيدتي

فالت المرأة على أذن زوجها وهمست :

— معذور ...

فرد عليها قائلاً بصوت خافت :

— نعم ... الويسكي بالصودا شراب ملعون

ثم ذنا من الشاب وهو يقول : دعنا نفتشك
أولاً ... فاستسلم الشاب إليه ، ودس الباشا يديه

في جيوبه ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها ،
ولكن الشاب لم يمكنه منها ، وأثارت مقاومته

شكوك الحاضرين ، فقبض الشرطي على يديه بقسوة
وأخذ الباشا الحافظة ، وكانت لحقت به زوجته وابنته ،

وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة من ذات الجنيه ،
وعدة بطاقات وصورة صغيرة ، ولاحت منه نظرة

عارضة إلى الصورة ، فأيقظت انتباهه وشحذت بصره

— هل تعرف هذا الشاب يا حسن ... ؟ هل
هو من أهلنا ؟

وكان السائق حسن يختلس من لولو نظرات
ملتهبة ويراقبها بارتياح ، فقال بانفعال :

— هذا لص مجرم يا صاحب السعادة

فقال الباشا للشاب بلسان متلعثم ثقيل :

— كيف تسول لك نفسك ادعاء قرابتي ؟

— لست لصاً يا صاحب السعادة

— فماذا كنت تفعل هنا ؟

— لا أدري يا صاحب السعادة

— ما شاء الله ... هل سقطت من طائرة في

حدیقتی ؟

— كلا يا سعادة الباشا ... ولكنني وجدت

نفسی بفتة في الحديقة ... لا أدري كيف ساقتني
قدماي إلى هنا !!

فقال الشرطي :

— ستجد نفسك بفتة في السجن إن شاء الله

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطي وقال له بمنف :

— يا عسكري ... لا تقطع على التحقيق ...

فقال الشرطي بسرعة :

— حاضر يا أفندم

وسأل الباشا الشاب :

— كيف تدخل إلى الحديقة وأنت لا تدري ؟

— أنا آسف يا صاحب السعادة ، كنت سكران

وقادتني قدماي إلى هنا من غير أن يراني أحد ونمت
على الحشائش بضع ساعات ، ثم استيقظت في حالة

أدنى إلى الوعي والانتباه ، فأدركت خطئي ، وحاولت

— لا أقبل منك كلاماً يأسفني ، لقد قضت
سفاهتك على أسباب رزقك في هذا البيت. يا عسكري
دع هذا الشاب لي الآن، وخذ هذا الوقح خارجاً ...
وصنع الشرطي بما أمر، وخلا المكان إلا من
الباشا وزوجته والشاب .

قال الباشا للشاب بلهجة تم على التهديد والوعيد
— ألا تعرف من أنا ؟

— أعرف طبعاً يا صاحب السعادة ...

— فكيف إذا تسول لك نفسك انتهاك حرمة
بيتي ؟

— أنا غايي شريفة يا صاحب السعادة ...

— وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل ؟
وسألتها السيدة :

— ما صناعتك ؟

— موظف ...

— هذا يعني أنك صعلوك ...

— صعلوك !

— نعم ... إن الكاتب الحقير الذي لا يجد
له وظيفة تشرفه يطبع على بطاقته كلمة موظف وهي
لا تعني في الواقع إلا أنه كاتب حقير ... أليس
كذلك ؟ ...

— ... !

— في أي وزارة ؟

— المساحة ...

— ما شاء الله !.. وما هي مؤهلاتك ؟

— ... !

— ما هي مؤهلاتك .. أجبني ؟ !

فنظر إليها بإيمان فرأى صورة لولو ، لولو بذاتها ،
هل يصدق عينيه ؟ ... أم أنها الخمر ؟ ... ونظر إلى
زوجه يستعين بعينها فرأى بهما دهشة وإنكاراً ،
والتفت إلى لولو فرآها تنسحب بخفة وتعود إلى القصر
تسير بخطوات مترنة متتدة غير مبالية بشيء ...

وسمع الشرطي يسأل بصوته الغليظ :

هل وجدت بها مسروقات يا صاحب السعادة ؟
فرد محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى
صاحبها وهو يقول بلسانه المتلثم :

— كلا ... ما بها يخصه دون غيره ...

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت
عيناه الحادثان أن تريا ، فارتد إلى حالة جنونية من
الغضب والغليظ وقال لسيدته بصوت متهدج :

— إن عدم العثور على شيء معه لا يعرته بحال
وهو ولا شك قد حاول السرقة فلم يفلح .

فقال الباشا :

— سأتحقق مما إذا كان سكران ...

وبال على فم الشاب يشمه ثم قال :

— الآن حصص الحق ... هذا الشاب سكران
بغير شك ...

فكاد السائق يجن. وقال بغضب :

— العفو يا صاحب السعادة ، العادة أن الإنسان
إذا كان شارباً لا يشم الخمر في أفواه الآخرين !

فانتفخ الباشا غضباً ، وقتل شاربه بنطرسه
وصاح بالسائق :

— إنه شارب يا كلب !

— العفو يا صاحب السعادة ... أنا أعني ...

فوقعت في غرام صعلوك متشرد ممن يسمونهم
بالموسيقين !

— لا تتكلم عن صهرك بمثل هذه الألفاظ ،
فليس هو الآن بالصعلوك ولا بالتشرد ، ولكنه
مفتش موسيقى محترم بوزارة المعارف !

— أنا الذي عينته في هذه الوظيفة التي هو غير
أهل لها بحال ... أنا الذي خلقتة

— اخلق هذا أيضاً من أجل لولو
ولكنه غير قابل للخلق ... لقد كان الأول
مغنياً فاستطعت أن أصنع منه مفتشاً للموسيقى وإن
كان لا يفقه شيئاً في الموسيقى ، ولكن ما عسى
أن أصنع بهذا وكل مؤهلاته البكالوريا ؟ ... الأوفق
أن نطرده !

— ليت ذلك كان ممكناً ! ... ولكنك تعلم
أن لولو عنيدة صلبة الإرادة ، فلنوار سواتنا ونضع
منه شيئاً ...

— مهما فعلت فلن يكون أكثر من كاتب
— حنانيك يا باشا ، هل شح الزمان حتى
تزوج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (وزير
لاحق إن شاء الله) من كاتب ؟ !

— وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة
مثل لولو ؟

— دع أحاديث الغضب جانباً ، وقل لي ألا يمكن
إلحاقه بأي وظيفة في مفوضية أو قنصلية ؟

— مفوضية أو قنصلية ! .. أهذا كلام يقال
على واحد كل مؤهلاته البكالوريا ؟

— أف .. أنا أعلم جيداً أنك متعب ومهما

— البكالوريا ...

— بس يا خبر أسود .. وماهيتك ؟

— ... !

— وماهيتك .. أتوسل إليك أن تجيبني !

— ستة جنيهات !

— عال .. ولماذا تحب ابنة باشا ؟

— سيدتي ..

— لماذا لم تحب ابنة كلب من طبقتك ؟

وتهد الباشا من قلب مكلوم وقال للشاب :

— تفضل مع السلامة : ..

وصعد الزوجان إلى مخدعهما وقد نال التعب
منهما كل منال فارتقى الباشا على « الشيزلنج »
واستلقت السيدة على الفراش وكانا واجبين
حزينين ...

وتهد الباشا وقال لها :

— أيعجبك هذا ؟

— أنت دائماً تلقى على تبعة كل شيء ..

— أنا رجل ينوء منكباه بعبء ثقيل سواء
في الوزارة أو مجلس الشيوخ أو الشركات ، فأت
وحدك المسئولة عن فساد أخلاق بناتك !

— لا تتكلم يا سيدي عن بناتي بهذه اللغة
التي لا أقبلها بحال ... إني أعلم أنهم أشرف النساء
جميعاً !

— إذا أنت ترضين عن هذه الأفعال

الشائنة ؟ ...

الآتين أن مأساة الأخت الكبرى تتكرر؟ تلك
الفتاة البائسة التي أردت أن أزوجه من طيب كبير

بكلمات لا تنفى وقد قال له :
 — أنت مخطئ يا حسن ... لماذا تتداخل
 فيما لا يعنيك ؟
 فقال محتدًا :
 — أهذا رجل ؟
 — وما الذى يفضيك أنت ؟ ... إنها ابنته
 لا ابنتك !
 ثم غمز بعينه وتساءل :
 — أم هنالك سبب آخر لهذا الغضب ؟ ... أهو
 غضب أم غيرة يا شيطان ؟!
 فلما لم يرد عليه الجواب قال له وهو يودعه :
 — معلش يا حسن ... فالحق أن الباشا لم يعرف
 ربى غير شفيه !
 يجب محفوظ

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جوتة البرلماني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

— ❦ —

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونحنها ١٥ قرشا

يكن من أمر فينبنى ألا تكون درجته أقل من
 السادسة وألا تقل ماهيته عن خمسة عشر جنيتها ...
 وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أى واحد منهم
 سكرتيراً له ..

— ليس الأمر سهلاً يا هانم كما يبدو لك
 فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيات والاستثناءات
 — وهل يرضى الصحف أن تزوج ابنة واحد
 باشا من كاتب بستة جنهات ؟
 — إن للصحافة هموماً لا تدع لها وقتاً للتفكير
 فى مسألة زواج لولو !

— وإن مستقبل لولو لفوق الصحافة وهمومها
 فينبنى أن تخلق هذا الشاب من جديد ...
 — هل كتب على أن أخلق كل يوم شاباً
 من جديد ؟

— أرجو أن تذكر أنك كنت موظفاً بائساً
 حين تزوجتك وأنه لولا المغفور له والدى ...
 — إن أباك لم يخلقنى ولكنه أتاح الظروف
 المناسبة لعظمى الكامنة !

— مه .. لولا أبى لكنت الآن موظفاً بالدرجة
 السابعة على أكثر تقدير ؟
 — أبهذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك
 القذر ؟

— معلش يا باشا، إنهن ورثن عنى ذاك الذوق
 الذى حملنى فيما مضى على الزواج منك !

وكان السائق هائجاً غاضباً ، يلعن ويتوعد ،
 والشرطى يهدى روعه ويمزيه عن « قطع عيشه »

لمرغاب خلد في جودى

الى أن
عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

المشوهة من عمل السنوات
العديدة، بقطعة الصوف الزرقاء
المطروحة على ركبتى وقد بلغت
في ذلك اليوم السادسة والسبعين
من عمري فالיום هو عيد
ميلادى ولكن أحدا لم يذكر
ذلك ولم يشعر به، لا ابنى هارى
الذى أعيش الآن معه ولا امرأته
الينور الذكية الجميلة ولا ولداها.

قضيت اليوم كله أدعب أملاً حياً حزيناً في أن
يتذكر أحدهم فيحضر إلى ويقبلني ويقول لي :
« عيد سعيد يا عزيزتى ! ». ولكن لم يكن هذا
الأمل إلا حماقة، فقد كانوا جميعاً مشغولين بشئونهم
الخاصة . لذلك نسينى هارى والينور وحفيداى ،
وكذلك نسينى أبنائى الآخرون : توم وهو محام
في برمنجهم ، وآلان الطبيب في نورثامبتون وجورج
الذى كان يحرر جريدة في مدلاندرز ، وجين التى
تعيش في لندن وتكتب لإحدى المجلات النسائية
مقالات تتقاضى عليها أجوراً عالية وقد قضيت عندها
جزءاً من شتاء العام الماضى

ولكن لا بأس ! فأنا امرأة شبيخة وأبنائى
جميعاً جد مشغولين ولهم من نجاحهم في الحياة ما يلهيهم
عن الاهتمام بأمر عجوز مثلى . ولم يعرفوا بعد الشقاء
الذى يشعر به الإنسان عند ما يشيخ ويرى الحياة
تمر به مندفعة وتتركه وراءها . إنهم لا ينتظر منهم
أن يدركوا ما فى الشيخوخة من قسوة ووحدة .
يا لهول ما فى الشيخوخة من وحشة وخوف !

لقد كان كل شيء قبل ثلاث سنوات ، مخالفاً
فيما يتصل بحياتى لما هو كائن اليوم ، إذ كان زوجى
جون لا يزال على قيد الحياة فلم أكن أبالي بالشيخوخة

« هل هناك مأساة أعظم من أن يكون
الإنسان غير مرغوب في وجوده ؟ هنا قصة مشيرة
عن امرأة واجهت هذه المشكلة وما زالت تواجهها
إلى أن ... »

جلست إلى جانب شباك غرفتى الوحيدة التى
فيها أنام وفيها أجلس ، فى خط رفيع من شعاع
الشمس المائلة إلى الغروب ، وقد طرحت على ركبتى
قطعة القماش التى كنت أحيكها

ونظرت بعينين كليتين إلى الجدران العارية
القائمة على الجانب الآخر من الطريق ، وهى كل
ما يمكن أن تقع عليه العين من شباك غرفتى ونحن
الآن فى شهر مايو من فصل الربيع وقد تفتحت
الزهور وعطر شذاها الجو

وقد مضى على الآن ثلاث سنوات لم تقع عيني
فى خلالها على زهر الخزامى الجميل ، وهو يستقبل
الربيع باسم جذاباً ، ولا شممت شذى الليلق المنعش
للصدور . مضى ثلاث سنوات على اليوم الذى مات
فيه زوجى جون ، فاضطرتني موته لأن أعيش متنقلة
بين بيوت أبنائى ثلاث سنوات طويلة جوفاء قضيتها
وحيدة فى عزلة عن الناس !

جلست إلى جانب الشباك تعبت أصابعى الخشنة .

تنزل بي وهو إلى جانبي . لقد كان حبه وقربه مني يملآن نفسي شجاعة ويحيطان حياتي بالهدوء والسعادة والآن قد ترك جون هذا المسالم وتركني وحيدة تكتنفي الحيرة والخوف في عالم هو في عيني شديد الاتساع والحدأة وسرعة الحركة

ولقد عزاني عما أنا فيه أن جون لا يستطيع أن يعلم الحقيقة ، فلقد كان واثقاً من أنني سأكون هنية وفي خير بعد ذهابه . لقد قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

— سيعني بك الأولاد يا ماري ولن تكوني وحيدة يا عزيزتي ، سيحبك أبناءنا ويرفهمون حياتك نعم ، فبعد أن انتهى كل شيء وبعد أن رأيت جون يوضع في مقبره الأبدى بمقبرة البلدة الصغيرة أخذت أبناءى معهم . فأقمت أول الأمر مع آلان ثم مع توم ، وبعد توم أخذتني جين فقضيت معها فترة من الزمن وأنا الآن مقيمة مع هاري . لقد أدى الجميع واجبهم ، ولكن يبدو لي على صورة ما أنهم أصبحوا لا يشبهون أبناءى الذين من لحمى ودى . فهم يعاملوننى كأننى غريبة في بيوتهم ، غريبة لا تتصل بهم ولكن يجب أن يتحملوا عبثها

لقد أزعجنى ذلك وشعرت في أعماق قلبي بشيء صغير جازع يصيح بهم طالباً الحب والراحة والتفاهم ويرجوهم أن يفتطمعوا من حياتهم الملوثة حركة فترة وجيزة يقولون لي فيها لهم لا يزالون يحبوننى ويحتاجون إلى ويرغبون في وجودى إلى جانبهم ، كما أحبونى واحتاجوا إلى ورغبوا في وجودى عند ما كانوا أطفالاً

ولكننى لم أنطق قط بهذه الصيحة الدفينة ،

فقد علمتنى هذه السنوات الثلاث ألا أقول شيئاً وأن أبتعد عن طريقهم . لقد كان لهم من مشاغلهم وضيق وقتهم وشدة ملهم ما يحماني بعاطفة الأمومة على أن أتمس لهم في أعماق قلبي العذر من عدم إقبالهم على

كانوا يتبرمون بطراز ملابسى ، كانوا يكرهون القماش المطبوع الذى أخيط منه الملابس ، والمزهر الأبيض الذى كنت ألبسه فوق ثوبي . فابتاعوا لي رداء من الحرير الأسود لبسته إرضاء لهم ، ولكننى كنت أشعر أننى فيه غريبة غير مرتاحة ، أشعر بالوحشة إلى جلايبي القطنية القديمة الطراز

كذلك كانوا يتبرمون بأسئلتى إذا خطر لي أن أسألهم سؤالاً ، ولقد سمعت لندا امرأة «آلان» تقول في كثير من الضجر :

— إن أمانا متعبة تشبه الأطفال في أسئلتها ذكرت هذا كله في جلستى هذه فسرى الجزع إلى نفسي

وذكرت أن جين انتهرتنى مرة إذ قالت غاضبة : — إنك تثيرين أعصابى يا أمى بكثرة كلامك على أمور قد مضت . ألا يمكن أن تفهم ابنتى أن الماضى هو كل ما أملك في الحياة ؟ لقد سرت نظرة التأذى على وجهى عند سماع هذه الكلمات وامتلات عيناى الكيلتان بالدموع البطيئة ولكن جين لم تلحظ شيئاً من ذلك

لقد تبين لي الآن أننى كنت دائماً عقبة في طريقهم ، كلما حاولت المساعدة في بعض الأعمال المنزلية ، وما كنت أقصد بذلك إلا أن أجعل لنفسي بينهم فائدة وأن أملأ فراغ ساعات أياى الطويلة

الفارغة . كنت أود أن أذهب إلى المطبخ فأسوى من حين إلى حين بعض الفطائر ، كما كنت أحب أن أصلح ملابس أحفادي أو أنظف غرفة الجلوس ولكني لم أكبد أقدم على عمل من هذه الأعمال لأول مرة حتى عبست النيور وقالت وهي تلوى رأسها :

— إنني أفضل أن تترك ذلك للخادم

وطلبت مني لنذا ألا أتدخل في شؤون بيتها قائلة في صراحة :

— إنه (بيتي) كما تعلمين وأنا أفضل أن أرتبه على الطريق التي أراها

وشعرت من جراء عدة أمور صغيرة كهذه أنني قد جرحت وأنني لم أكن في بيوت أبنائي إلا غريبة طفيلية . وهكذا تعلمت أن أكتف ساعدي وأن ألزم غرفتي وإن كنت أشعر فيها بالوحدة والفراغ

وحدث مرة في بيت آلان ولنذا أن كان هناك بعض الضيوف لتناول الشاي ، فلبست ردائي الجديد الأسود ، وجعدت شعري الأبيض الرقيق ، وشبكت بفيقتي بدبوس رأسه من حجر الأمايست كان زوجي جون أهدانيه في الذكرى الثانية لزوجنا ، ثم نظرت إلى المرأة الناقد لأرى إن كان في منظري ما يدعو إلى النفور ، ومهرت بلطف بكفي على ردائي وعلى شعري ، ثم هبطت السلم إلى غرفة الاستقبال حيث كان الضيوف جلوساً ، على أنني عند ما وصلت إلى الباب وقفت لحظة مترددة

وأحسست في وفتي بارتياف يدي من التأثير العصبي كما أحسست بقلبي ينبض بشدة . ترى أكان في منظري ما يدعو إلى الاشمزاز ؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال غير مطمئنة إلى الجواب . وسألت نفسي

أيضاً : ترى ترحب لنذا بقدومي ؟ وهل تبتسم عند ما أقبل عليها وتقدمني لضيوفها ؟ من يدرى ، ولعلها أيضاً تسمح لي بمساعدتها في تقديم الشاي والفطائر الصغيرة . لقد كنت أرجو من أعماق قلبي المهجور أن تسمح لي بأن أجالس المدعوين

فتحت الباب في استحياء ودخلت ، فتلفت لنذا وإذا رأتني قطبت جبينها علامة عدم الارتياح لوجودي . ثم قالت في جفاء :

— لقد حسبتك ستبقين في غرفتك فأجبت :

— لقد أتيت لقضاء فترة وجيزة يا لنذا وكانت عيناى وأنا أتكلم تتوسلان إليها في أن تسمح لي بالبقاء وأن تشفق على فتهدت لنذا تنهد المقهور وأشارت إلى كرسي في ركن بعيد من أركان الغرفة فجلست عليه في هدوء وأخبات يدي المرتجفتين في حجرى حتى لا يلاحظ الضيوف اضطرابي .

وتكلم النسوة في أمور لا أعلم من أمرها شيئاً وتجاهلن محاولاتي للتواضعة التي كانت تم عن رغبتى في الاشتراك في الحديث ، فشعرت بأنني قد زجرت وأننى وحيدة لا موضع لي في ذلك المكان . لذلك وقفت في الحال ، وتركت الغرفة في سكون ، مقفلة ورأتى الباب في بطاء ، ثم تسربت إلى غرفتي فترعت ثوبي الأسود ، وفككت دبوس الأمايست ، وبقيت فترة طويلة ممسكة هذه الهدية الزوجية العزيزة في يدي النحيلة المرتجفة ، بينما سالت الدموع على وجنتي المجدتين .

ولم ألبث أن قلت لنفسي :

— إننى لشيخة حمقاء إذ أبكى :

لم يبق من أثر لأشعة الشمس حيث جلست على الكرسي الواطى فى غرفتى ، ولم تلبث عتمة الفسق أن ملأت الجو ، على أننى ما زلت جالسة فى مكانى مطبقة جفنى مطلقة لفكرى العنان يسبح فى ذكريات الماضى السعيد الغامض .

عاد الخيال إلى مزرعتنا الصغيرة فى كورنيش ، تلك المزرعة التى لا تنفك عواطفى تحن إليها كلما شعرت بالفراغ الذى يكتنفنى وسط المدينة الآهلة فارتسمت أمام عيني صورة العريشة والحقول والبيت الأبيض الخشن المنظر الذى ولد فيه أبنائى الخمسة وشبوا ، ورأيت غرفة النوم الكبيرة وقد بهت ورق جدرانها ورأيت السرير الخشبى الكبير المزخرف الذى كنت أعانى عليه آلام الوضع كلما أخرجت أحد هؤلاء إلى عالم الوجود .

رأيت نفسى بعين الماضى شابة صغيرة رشيدة سريعة الحركة لا عجوزاً بطيئة كما أنا الآن ، ورأيتنى منتقلة فى خفة من مكان إلى مكان أجز عمل البيت وأربى الصغار . رأيتنى أغسل الملابس والآنية ، منحنية على الوعاء متعبة شاحبة ، مشغولة فى الحديقة فى أشعة شمس الصيف الحارة ، معدة نار الشتاء بيدى خشبهما وشققهما الصقيع ، معنية بتغذية الأطفال وتطعيمهم وتنشئتهم على الصدق ومعرفة الحقائق ، مجتهدة فى إفهامهم معنى الشرف والصبر والكرم ، ولا أذكر أننى أهملت فى ناحية من هذه النواحي ، وإنى لأسمعهم الآن كما كنت أسمعهم أطفالاً يرتلون صلاتهم كل مساء .

إنى لأذكر كيف كنت أنا وجون تقتصد وتقتصر على نفسينا لنستطيع أن نبتاع للأطفال أحذية جديدة ولتسدد لهم نفقات التعليم فى المدارس ، ولتكنهم من أداء مدة التمرين للمهن التى أعدتهم لها دراساتهم وإنى لأسمع جون وهو يكرر قوله :

— إن أبنائنا هؤلاء يمارى ليستحقون كل هذا العناء والتعب فسيأتى يوم نفخر بهم فيه ، وسيكونون مبعث رفاقتنا فى شيخوختنا .

ولقد صدقت زوجى حينذاك ، وتطلعت إلى الزمن الذى يصبح فيه أبنائى رجالاً ونساء ناجحين فى الحياة يؤلفون بيوتاً هنية سعيدة تزورها أنا وجون ، فنجد فيها أحفاداً لنا أعزهم وأدلم وأهز مراجيعهم لأنيمهم

مرت بى هذه الذكريات وأنا جالسة فى مكانى ساعة الفسق فابتسمت ، فإن أبنائنا لم يدعوني وأبائهم لزيارتهم إلا نادراً ، وبعد أن غادرونا الواحد بعد الآخر بقينا نحن الاثنين فى مزرعتنا زوجين شيخين وخيدين منسيين

أما الأحفاد ، فقد كانوا فى الحق أطفالاً من الطراز الحديث فلم يسمح لى بأن أدلم أو أهزهم ، بل إننى حتى لم أرقط « آن » ابنة جورج ، فقد كانت فى المدرسة التى ألحقها بها أبوها فى سويسرا ، عندما مات جون ، ولم تحضر جنازة جدها

نظرت إلى يدي الجافتين المشوهتين المبسوطتين على ركبتى ، وذكرت كيف كانت هاتان اليدان تتسابقان فى سرور فى سبيل العناية بالأطفال ، فأصبحنا الآن عديمى الفائدة شيختين مشوهتين لا يرغب فيهما أحد .

وفي هذا اليوم يوم ذكرى ميلادى هيات لى :
الحاقة أنهم سيحضرون إلى مهنئين معبرين عن حبهم
لى وعطفهم على !!

أحنيت رأسى فى بطء وأطبقت جفنى
وفى صباح اليوم التالى بكرت فى الهبوط إلى
الطابق الأول لأستطيع الاجتماع بهارى وحده ، فلما
وجدته فى غرفة الطعام ابتسمت ابتسامة مرتجفة
وقد جهدت فى تملك أعصابى والتزود بالشجاعة ،
وقلت وقد بدا فى صوتى الرفيع أثر الاضطراب على
الرغم منى :

— لقد كنت أفكر فى أمرى يا بنى وقد
وجدت أن بى حاجة إلى تغيير الهواء ، وإننى لأحب
أن أبقى هنا معك أنت والينور ، ولكنى أرى أن
أسافر الآن إلى جورج ، فهل لك أن تكتب إليه
لتخبره بأننى ذاهبة إليه فى الحال ؟

لم يكدهارى يسمع هذه الكلمات حتى بدا أثر
الارتياح على وجهه ، فوخز ذلك نفسى ، وآلمنى أن
أرى ابنى أيضاً مسروراً للتخلص منى .

فرد جورج فى شىء من التذمر يقول إنه مستعد
لاستقبالى إذا كان من الضرورى أن أذهب . فأجابته
الينور برسالة تلغرافية إن ذلك من الضرورى جدا .
وهكذا أعددت حقيبتى العتيقة وأر كيتى هارى القطار
وقبلنى قبلة وداع عاجلة معتذراً بأنه مضطر أن
يسرع فى الذهاب لإرتباطه بوعده هام يتصل بأعماله ؛
على أننى لم أكبد أشعر بما فى عمله من إهمال لشأنى ،
لأننى بعد أن علمت أن ليس بين أبنائى من يرغب
فى وجودى لم يبق ما هو أشد من ذلك لإيلاماً لنفسى .

وبينا أنا غارقة فى هذه الأحلام إذا صوت الينور
الحاد يخترق غشاء رأسى ويقطع على أحلامى ، متسرباً
خلال باب غرفتى نصف المفتوح ، كانت مقبلة من
الردهة ، وكان كعبا حذائها العاليان يقرعان الأرض
بشدة تبعث فى الجوصدى عالياً ، يسير هارى إلى جانبها
فى خطوات بطيئة ثقيلة ... سمعتها تقول له :

— أقول لك إن صبرى قد فرغ يا هارى !
ويجب أن تبعدها عن هذا البيت ، إنها تتدخل لحد
بعيد فى ترتيباتى الاجتماعية

سألت نفسى متجيرة : ترى من هى التى تريد
الينور إبعادها عن هذا البيت ؟ أمى الخادم الجديدة
أم لعلها الطاهية ؟

ثم سمعت صوت هارى بطيئاً تبدو فيه الحيرة
وهو يقول :

— ولكنها أمى يا الينور ، صحيح أنها عجوز
كالأطفال ومتعبة قليلاً ، وأنا أيضاً لأحب بقاءها
هنا ولكن ماذا أستطيع أن أعمل ؟
فقلت الينور فى حدة :

— يجب أن تعمل شيئاً ، ويحسن أن ترسلها
إلى جورج ، فإنه لم يتحمل قط نصيبه من هذا العبء
وليس يهمنى أين ترسلها ولكن يجب أن تبعدها عن
هنا فى أسرع وقت

سمعت صوت إقفال باب غرفتهما وجلست فى
الظلام مصنوقة لا أستطيع حراكاً .

لقد كنت أنا التى بدور الحديث حولى ! أنا التى
يراد إبعادها عن البيت ! أنا « العجوز كالأطفال
المتعبة قليلاً » كما قال هارى

فقد أصبح قلبي كسيراً يذمى كما يذمى كل قلب عجوز كسير ...

كان كل ما أملكه هو أن أحاول الترفيه عن نفسي بأن جورج يعيش في بلدة صغيرة على مقربة من المزرعة التي أحبتها وتموت حياتها وفي ذلك بعض الغراء . غير أنني كنت أضرب كلما ذكرت أنني ذاهبة إليه غير مرغوب في وجودي .

زلت من القطار فوقفت على إفريز المحطة دائخة متعبة من الرحلة غريبة بين الناس حائرة فيما أفعل ثم سمعت ورأى خطوات تجرى بسرعة ؛ وشعرت بيد تمسك بساعدي في لطف وسمعت صوتاً يقول :
— هل أنت جدتي ؟

فتلفت فرأيت أماً فتاة طويلة رشيقة بنية الشعر مرسلته لها عينان واسعتان صافيتان ، تبدو على فيها العذوبة والرزانة . فقلت :

— نعم أظن أنني لا بد أن أكون جدتك فظوقتني بساعديها الفتيتين القويتين وقبلتني قبله حارة ، هي أول قبلة حقيقية تمتعت بها منذ ثلاث سنوات . وقالت :
— أنا « آن »

وقادتني حفيدتي إلى سيارتها الصغيرة الزرقاء فساعدتني في الصمود إليها ، حتى إذا أدارت المحرك ابتسمت لي وقالت :

— حقاً إنني لسعيدة يا جدتي بقدمك !
وقمت هذه الكلمات من نفس موقع الغذاء من نفس الكلب الجائع ، وكالكلب الجائع اختطف هذه الكلمات متلهفة : لقد وجدت أخيراً من يسعد

بوجودي إلى جانبه ! وجدت من يرى أنه محتاج إلى لقد كان ذلك معجزة ! كان إجابة لصلواتي ودعائي . فأطبقت عيني المتعبتين لأخفي الدموع التي غمرتهما فجأة ، والإنسان إذا كبر كانت دموع الفرح أسرع إلى عينيه من دموع الألم والبكاء .

وكانت « روث » امرأة جورج تنتظرني في البيت ، ولم أكن قد رأيتهما غير بضع مرات منذ زواجهما من ابني ، وأذكر أنها كبيرة الجسم شقراء معتدة بنفسها زرقاء العينين قاسيتهما مرتفعة الصوت . ولقد رأيتهما الآن قد تغيرت قليلاً ، إذ أصبحت أقل نشاطاً مما كانت وأشد تحكماً ، ولكن صوتها كان كما عهدته مرتفعاً ، وكذلك كانت عيناها على عهدي بهما قاسيتين

رحبت بي امرأة ابني في فتور وقبلتني قبله باردة وإني لأظن أن « روث » من هؤلاء النسوة اللواتي يحسبن أن الشيوخ من الأدميين كالخيل التي أتلفها العمل الشاق يجب قتلها متى أصبحت عذيمة النفع « نظرت إلى « آن » نظرة تفيض بالجزع والرعب ، فابتسمت لي ابتسامة تبعث الاطمئنان إلى النفس الحائرة وقالت :

— لقد غادر أبي البلدة اليوم لحضور اجتماع سياسي ، وسيمود إلى هنا صباح الغد ، فهاهي إلى غرفتك المجاورة لفرقتي ، وسأفك لك حقيبتك لأنني أعلم أنك متعبة يا جدتي

ثم تأبطت ساعدي ومضت بي وشعرت وأنا أصعد معها السلم متباطئة بعاطفة الشكر تغمرني وقلت في نفسي : « مهما حدث الآن

فإننى سأجد «آن» إلى جانبي

لقد صدق ما توقعته ، ففي الأشهر التي تلت ذلك اليوم ، كانت «آن» هي المستعدة دائماً للدفاع عني في حماسة وغيرة ، وهي التي كانت تنمر أيام بضوء الشمس وبالسعادة ... كانت تجيب على أسئلتى المتواضعة وتحديثي بأخبار أصدقائها وما يهتم به من الشئون ... كانت تعرض على مسائلها طلباً لنصيحتي ، كانت تعاملني على أنني إنسانة حية ، لا على أنني عبء ثقيل عديم الفائدة ، فكنت أقابل هذه المعاملة بأرق ما أستطيع من مظاهر الشكر وعرفان الجليل

ولولا «آن» لسكانت حياتي في بيت جورج كثيبة موحشة كما كانت في بيوت أبنائي الآخرين . ولم يكن في تصرفات جورج ما يدل صراحة على عدم شفقتة ، وكل ما هنالك أنه لم يكن ليهم بي على نوع ما . فقد كان كل هم محضوراً في الصحافة والسياسة

وكان اهتمام «روث» منصرفاً إلى عملها الاجتماعي وإلى تذيير زيجة طيبة «لآن» ، ولم ألبث أن أدركت أن «روث» إنما قصدت «بالزيجة الطيبة» أن تزوج «آن» من ستيوارت با كستون ابن أحد مديري البنوك

وكنت قد التقيت بهذا الفتى على أثر وصولي إلى بيت جورج . وإذا كنت تعودت ملاحظة وجوه الناس منذ خمسين سنة وأكسبتني التجربة صدق الحكم على أخلاقهم الكامنة وراء مظاهرهم ، فقد دققت في وجه ذلك الفتى القصير النحيل ثقيل الحركة التي رأت فيه «روث» الزوج الصالح لابنتها ،

نظرت إلى عينيه الصغيرتين الزرقاوين الماكزتين ، وإلى فمه الرفيق الضعيف الذي يدل على القسوة فلم أحجب ما رأيت ، لقد كان وجهه مجرداً من أمارات القوة والشفقة وكرم النفس ، وهذا هو الرجل الذي تخيرته «روث» ليكون زوجاً لابنتها !

شعرت عند ما رأيت هذا الفتى برعشة الخوف تسرى في نفسي ، ورجوت ألا تكون «آن» قد أحبته ، فقد كنت أشفق عليها من ذلك الحب لغلى بأن الشباب متلف إلى الخيال تعميه في سهولة الهالة التي تحيط بالثروة والمركز العالي

ثم قابلت «كن ادامن» فلم تلبث أن تلاشت جميع مخاوفي فيما يتصل باستيوارت با كستون وعلاقته «بآن» ، ففي مساء يوم من أيام شهر يونية بينما كنت جالسة في الحديقة أقبلت «آن» ومعها فتى طويل القامة قدمته لي بقولها :

— هذا هو «كن» يا جدتي

قالت هذه الجملة في صوت متهدج ، فنظرت إلى الفتى نظرة حادة عند ما تناول يدي المجددة وأنحنى عليها مقبلاً

كان «كن» ذا عينين واسمتين رماديتين ضاحكتين ، في وجهه الأسمر بساطة ، شعره أسود سميك ، فمه واسع سار . ابتسامته شيء ذكرني بزوجي جون وقد أخيبته حباً شديداً لأول مرة وقع نظري عليه . وكان رداؤه قديماً رثاً وكان هو النحيل الجسم ، وعلى الرغم من ذلك قلت في نفسي : «هذا هو الرجل الذي يليق بآن» ولكن هذا إذا أمكن أن تحبه الفتاة

« آن » من مقابلته في أى مكان آخر . وكان ستيوارت باكتون يزور البيت كل ليلة على التقريب وكان الجميع ، ما عداى وأن ، يقابلونه بالترحيب القلبي الحار

وفي مساء يوم من الأيام خرجت لأتباع بعض الحاجات فلقيني « كن » في الطريق ، فرأيت أنه قد ازداد نحولاً وشحوباً عما كان من قبل ، وقد استوقفني إذ رأيته وقال :

— خبريني يا مسز مارتن ماذا عسانا نستطيع أن نفعل « آن » وأنا ؟ إنني أحبها جداً شديداً وأبواها لا يسمحان لى بأن أراها . وإنى لأعلم أننى غير كفء لها لأننى رجل فقير ، ولكن سيأتى يوم أولف فيه كتاباً يعود على بالريح ، وعندئذ أستطيع أن أقدم لها كل ما تحتاج إليه ، وإلى أن يجىء هذا اليوم أعطيها كل ما فى نفسى من الحب

فابتسمت لما فى حديثه المتحمس من لهجة جادة وقلت :

— إنى أظن أن حبك كاف « لأن » فلا تفقد الأمل يا « كن » فسينتهى الأمر نهاية طيبة على وجه من الوجوه

واجتهدت أن أساعد « آن » بتبنيها « روث » إلى عدم ارتكاز بنفسها « كن » على أساس معقول ، ولكننى بذلك قد زدت الأمر سوءاً . فقد أجابتنى فى جفاء :

— أرجو أن تهتمى بشؤونك الخاصة ، وكفى تدخل فى شؤون « آن » فإن ما تسببه لى من المتاعب كاف بدون تدخلك

ثم رأيت « آن » تنظر إلى « كن » نظرات ملتهبة ، ورأيتها تبسم له ابتسامة حيية مضطربة ، فعلت كما لو كانت هى التى خبرتنى بأنها تحبه من أعماق قلبها حباً يدوم إلى الأبد

ولكن الأمر عند أم « آن » كان على العكس من ذلك ، فقد كانت تبغض « كن أدامر » بغضاً قاتلاً لا يرتكز على سبب معقول . فقد قالت لى مرة فى لهجة غاضبة :

— إنه رجل أفاق لى يصلح لها بحال، فإنه لا يحصل حتى على مرتب محترم ! والحق أننى لا أدرى أى شيء فيه يعجب « آن » !

فنظرت إلى « روث » فى دهشة ، فقد أعلم جيد العلم ما الذى يعجب « آن » من « كن » فقد أعجب بمنزلة من زوجى جون ، فيه الطيبة والبهجة والقوة والشرف والرفقة فى معاملة المرأة التى يحبها ، وهذه هى الخلال التى تحمل الفتاة على أن تعمل وتحمل المتاعب من أجل رجلها وتشعر فى الوقت نفسه بأنها تلقى الجزاء الذى يعوض عليها المشقة والتعب .

لنى تكون لى « كن » يوماً ما مثل ثروة « ستيوارت باكتون » ولكن الحياة مع « كن » ستكون أغنى من نواح أخرى ، نواح عظيمة هامة كالضحك والحب والسلام والمؤانسة

ولكن « روث » لا تستطيع أن تفهم ذلك ، فقد كانت مصممة على أن تتزوج « آن » المال والثروة ومعنى ذلك أن تتزوج من ستيوارت باكتون . فلم تسمح لى « كن » بوضع قدمه فى البيت وأمنعت

وسمعت روث بعد ذلك تتحدث مع جورج في أمرى فتقول في لهجة الغضب :

— إذا كنت لا تريد أن تزوج ابنتك من هذا الأفاق المفلس فيجب أن ترسل هذه العجوز إلى أحد إخوتك ، فإننى لا أريد بقاءها فى بيتى ! وفى هذه الليلة نفسها نشأ بينها وبين « آن » شجار عنيف ، حتى إذا انتهى تسلفت « آن » إلى غرفتى ، وكان جسمها يضطرب لشدة انفعالها ، وكانت تبكى بكاء شديداً وركعت فى الظلام إلى جانب سريرى فوضعت يدي فى لطف على شعرها الأحمر المجعد ، وقد قالت لى هامة :

— ماذا أعمل يا جدتى ؟ إنهم لا يريدون أن أرى « كن » وأنا أحبه حباً شديداً ! وسيرغمنى أمى وأبى على الزواج من ستيوارت ، ويقولان الآن إنك سترحلين من هذا البيت ؟

فربت على وجنتها المبللة بالدموع وقلت :
— إسمى يا عزيزتى ! قد أكون مضطرة لمغادرة هذا البيت إذا هما طلبا ذلك منى ، ولكنهما لا يستطيعان أن يرغماك على الزواج من إنسان لا تحبينه .

— سيفعلان ! نعم أعرف أنهما سيفعلان ذلك ! إنك لا تعرفين كيف يتصرفان إذا هما اتفقا على أمر ، وتشبثا به فإن أمى ستجعل حياتى كلها شقاء إلى أن أتزوج من ستيوارت ، ولكننى أبغضه .

فنظرت إلى خط من ضوء القمر على نهاية سريرى ، ثم قلت فى تأن :

— إننى عندما كنت فى مثل سنك يا « آن » أحببت شاباً كما تحبين أنت « كن » فهربت معه ، وتزوجت منه بعيداً عن أهلى ، ولم أندم على ذلك

قط . لقد كنا فقيرين ، كما ستكونان أنت و « كن » فى أول الأمر ، ولكننا كنا سعيدين . إنكما صغيران وفى نفسيكما شجاعة ، ويجب أحكما الآخر ، فلا تسمحا لأى شئ بأن يحطم حبكما .

فرفعت الفتاة رأسها ، ورأيت الدموع تنحدر على وجنتها ، وقد بدا فى عينيها بريق لطيف ، وقالت هامة :

— شكراً لك يا جدتى ، فانى الآن أعرف ما يجب أن أفعل ، وسأهرب الليلة مع « كن » فباركينا يا عزيزتى .

فضممتها إلى صدرى وقبلتها ، ثم تناولت مفتاحاً من فوق مائدة إلى جوارى ، وكنت قد وضعت عليه استعداداً لما توقعت أن سيكون ، ثم وضعت فى يدها وقلت :

— هذا مفتاح بيتنا القديم فى المزرعة ، والمزرعة فى كورنوال على مسافة خمسة أميال من ليسكيد ، وستجدنيها على خريطة الطريق ، والدار لا يسكنها الآن أحد ، فتستطيعان أن تقصداها وتعيشا فيها إلى أن يجد « كن » ما هو خير منها ، وعلى الأقل إلى أن يؤلف الكتب التى ستجعل منه رجلاً ذائع الصيت

وهنا ابتسمت لنفسى فى الظلام ثم أتممت حديثى فى رقة :

— وليبارك الله لكما يا عزيزتى . ثم هممت من فراشى فلبست ردائى الصوف ، وتسلفت أنا وآن إلى الممر الخارجى ، ثم مررنا متلصحين فى الظلام بباب الغرفة التى يرقد فيها جورج وروث ، وهبطنا بعد ذلك السلم إلى ردهة الطابق

الأرضي حيث آلة التليفون ، فأضاعت « آن » مصباحاً كهربائياً في الجدار

وتينما وقفت عند قاعدة السلم أرقب وأنصت لأية حركة تبدو أدارت آن رقم تليفون « كن » ، وفي هذه اللحظة سمعنا صوت تشقق لوح من الخشب فوق رأسينا ، فنظرت كل منا إلى الأخرى جاحظتين فماذا نفعل إذا كان جورج أوروث قد سمع حركتنا وجاء يستطلع الخبر ؟ ! ومضت لحظة سكون مخيفة ثم إذا كل شيء في البيت نائم في هدوء

وبخافة جمعت آن نفسها على آلة التليفون التي حملها في يدها وسمعتها تقول مستفهمة في صوت خافت :

— « كن » ؟ أنا « آن » أريد أن أقول لك إنك كنت على حق حين قلت إننا يجب أن نهرب ، وسنهرب الليلة ونزوجه أسرع ما يمكن ! نعم سنهرب في اللحظة التي تصل فيها إلى ... نعم ! نعم ! أنا أقصد ما أقول ... إني أحبك يا عزيزي !

وإني لأستطيع أن أتصور النشوة والجدل اللذين غمرا « كن » عند سماع هذه الكلمات

وأعادت « آن » سماعة التليفون مكانها في هدوء وعانقتني بكل ما فيها من قوة ، وكانت عيناها تبرقان من شدة الانفعال ، وقالت :

— شبكي أصابعك من أجلنا يا جدتي إلى أن نبتعد عن هذا المكان

وعندنا فصعدنا السلم متلصصين ، وساعدت « آن » في سرعة صامتة في إعداد حقيبتها ، ثم حملنا الحقيبة إلى الطابق الأرضي ، وفتحت « آن » رتاج الباب بأصابع مرتجفة ، ولم تكد تخطو إلى العتبة حتى وثب

« كن » فعانقها في شدة كأنه يخشى أن تفلت من بين يديه وهو لن يسمح بذلك أبداً

وابتسمت وأنا واقفة في ضوء الردهة الضئيل متذكرة الماضي — لقد كان ساعدا جون فتيين قويتين كساعدي « كن » وكان قلبي ينبض شوقاً وعيناي تشعان يريق الأحلام السعيدة شأن عيني « آن » في هذه الساعة

وقبلاني قبلة الوداع ثم جريا ممسكا أحدهما بيد الآخر إلى حيث كانت سيارة « كن » العتيقة في الانتظار عند الباب الخارجي

وأقفلت الباب وأوصدت رتاجه ، وأطفأت مصباح الردهة الضئيل ، ثم تسلمت في هدوء إلى غرفتي ، ولم ألبث أن نمت نوماً عميقاً هادئاً ، وأنا لا أزال أشعر بعذوبة قبلة آن على وجنتي المجددة العجوز ، عالمة بأن هذين الصغيرين يسرعان في الظلام في طريق الحرية ، ولم أعد أبالي بما قد يصيبني بعد أن مهنت « لأن » الطريق إلى السعادة

وبعد أيام قليلة تسلمت تلغرافاً جاء فيه :

— لقد تزوجنا ونحن سعيدان ونحب الزرعة والحياة فيها ، شكراً لك يا جدتي وتقبلي حبنا وكانت الرسالة موقعة في كبرياء باسمي « آن وكن آدامز »

وعندئذ هبت الزوبعة ، فهبت روث هذياناً جنونياً ونطق جورج بعبارات شديدة لا تقبل الغفران . وحلني كلاهما مسئولية هرب « آن » وزواجها وقالوا لهما لن يغفرا لي ذلك أبداً ، وقد نقصا على حياتي في الأسابيع القليلة التي تلت ذلك الحادث ، رافضين أن يبادلاني الحديث إلا إذا دعت

وقد قال في لهجة منفعة :

— لقد وجدنا معدن الصفيح في الحقل الجنوبي .
وجدنا معدن الصفيح ، فهل تفهمين معني ذلك ؟
ستصبحين غنية يا جدتي ! فاحضري في الحال
تركت سماعة التليفون فوجدتني أنا أيضاً اضطرب
انفعالاً ، وحضر جورج وروث إلى الردهة ونظرا
إلى محققين وتساءلا :
— ماذا هناك ؟
فأجبت :

— لقد أخبرني « كن » الآن أنهم قد وجدوا
معدن الصفيح في المزرعة
فنظر جورج مبهوراً وقال :
— الصفيح ! ... مرحي مرحي يا أمي إنك
ستصبحين غنية
واندفعت « روث » نحوي فطوقتني بساعديها
وصاحت :

— يا للعجب ! لا تفكري في مغادرة هذا البيت
أيتها الأم العزيزة ! يجب أن تفكي رباط حقيبتك
في الحال ! وإنك لتستطيعين أن تنتقلي إلى غرفتنا
فهي أحسن غرفة في البيت . وسيذهب جورج
إلى المزرعة ويتولى الإشراف على العمل بنفسه ،
ألا تذهب يا جورج ؟ والآن يجب أن تكلي إليه
كل شيء

ولكنني ابتعدت عن روث وقلت في فتور :
— لا ، وشكراً لك فإن « كن » و « آن »
في انتظارى وسأذهب إليهما ، فالزرعة مزرعتي
والصفيح صفيحي وسأولى الأمر بنفسى
فبدا الحزن على روث وقالت :

لذلك ضرورة ملحة ، فأشعراني بذلك أنني ازددت
عن أي وقت مضى بأننى غريبة في بيوت أبنائى
وكتبت آخر الأمر خطاباً إلى ابنتى جين أسألها
فيه في تواضع إذا كنت أستطيع أن أزورها ،
فأجابتني بأنه يستحيل عليها أن تقبلنى في دارها قبل
انتهاء فصل الصيف

وكانت خطابات « آن » هى الشعاع الوحيد
الذى يضيء ظلام حياتى . حتى إذا جاء شهر أغسطس
تلقيت منها خطاباً تقول فيه :

« إحزمى حقيبتك يا عزيزتى واحضري إلى
المزرعة . إننا هنا سعيدان كل السعادة ونشعر بالحاجة
الشديدة إلى وجودك معنا . فكل بيت يحتاج إلى
جدة ترعاه ! و « كن » يشتغل بالفلاحة في النهار
وفي الليل ينكب على تأليف كتبه . وهو راغب أشد
الرغبة في حضورك . ويمكنك أن تخبرى بقية العائلة
أن ليس بأحد منهم من حاجة في إيوائك فانت لنا
دون غيرنا ! لقد مهدت طريق السعادة « لكن »
ولى فنحن نحبك من أعماق قلوبنا »

قرأت هذه الكلمات العذبة من خلال الدموع
التي ملأت عيني ، ففاض قلبي بشعور عظيم من
الراحة والرضا . فقد أيقنت أن الحياة لن تكون
بعد اليوم حرباً على ، فقد وجدت من يحبني ويحتاج
إلى وجودي معه ، وقد أصبحت ملكاً لأناس
يحبوننى . إننى لن أكون وحيدة بعد اليوم وستصبح
الحياة عذبة سعيدة

وفي ساعة مبكرة من الصباح قبل بضعة أيام
من الموعد الذى حددته للسفر إلى المزرعة تكلم
« كن » معى تليفونياً ، وكان صوته يهتز انفعالاً ،

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الكاتب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طرقتة ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقذو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زكي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
وبيع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لا مرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

— ولكنك لا تستطيعين أن تذهبي ، بل يجب

أن تبقى هنا معنا يا عزيزتي وهذا البيت يتك ...
ونحن ... نحن محتاجون لوجودك معنا ...

فابتسمت في نفسي .. فصحيح أن روث محتاجة
الآن إلى وجودي معها ، فقد أصبحت شبيخة غنية
بعد أن كنت عجوزاً مفلسة . هذه هي أخلاق روث
كذلك كان أبنائي الآخرون على شاكله جورج
وروث ، فلم يكذب توم وآلان يسمعان الخبر حتى
حضرا إليّ ، وقد حملا دعوتين ملحتين من
زوجتيهما الماهرتين ترجوان فيهما أن أعيش معهما
وكذلك أرسلت لي جين تلغرافاً تسألني فيه أن أذهب
في الحال إلى لندن ، ويظهر أن وجودي قد أصبح
خفيفاً عليها فلن يقلق راحتها في شيء .

وجاءني أيضاً تلغراف من هاري وإلينور يؤكدان
فيه أن الوقت مناسب جداً لعودتي إليهما ، فابتسمت
مرة أخرى ابتسامتي الخفيفة . وقلت في نفسي :

— إنهم جميعاً يفكرون في أنني ساموت بعد
قليل ، ويتطلعون إلى الثروة التي سأتركها .

كان هذا شأنهم جميعاً ما عدا « آن » و « كن »
فهما اللذان احتاجا إلىّ عند ما لم أكن إلا جدة .
لم أزد على أن كنت شبيخة ضئيلة الجسم متواضعة
حنونا أحبتهما من كل قلبي .

فالآن سأذهب إليهما ، وستكون الثروة التي
يدرها عليّ منجم الصفيح ثروتهما بالغاً ما بلغ مقدارها .
لقد كان الله رحيماً كريماً يواسي القلوب الكليمة
بأسلوبه الحكيم ، لقد أفاض تعالى نعمته على عبادة
الحائرين صغاراً وشيوخاً ... نعم لقد كان الله كريماً
رحيماً ...

عبد الحميد عمري

منيرة سيم شاه محررة « مجلة البكّة
الاسلامية » . وقد وصفت فيها المؤلفّة
مقهداً صغيراً من معاهد مقاومة
السكان المدنيين المسلمين في الصين
للمعتدين . والقصة المفصلة في هذه
المسرحية حقيقة واقعة ، فهي جديرة
لاذن باهتمام القراء

الزمانه : أول أيام سقوط
تسيننج في يد اليابانيين (٤ ابريل
سنة ١٩٣٨)
المكانه : في الجامع الأكبر بمدينة
تسيننج . ولاية ساتونج بالصين

نعيير الصين

مسرحية في فصل واحد

للآنسة منيرة سيم شاه
بقلم الأديب إبراهيم ت. ج. ما

نوطنة للمترجم

صحت الشعوب من سيئاتها العميق على دوى المدافم في البلاد
التمدنة الجديدة ، ولم تشذ عن هذه القاعدة بلاد الصين
التي يبلغ عدد سكانها ٤٥٠ مليون نفس منهم ٥٠ مليوناً
من المسلمين . لقد عرفت الصين المدنية منذ أقدم العصور ،
حيثما كانت سائر الشعوب غارقة في ظلمات الوحشية ، وحملت
مصابيح الحضارة فأضاءت الطريق للأمم بواسطة فلسفتها
السلمية . وأخيراً درجت بخطى سريعة في سبيل التقدم
والنهضة منذ اتحادها في سنة ١٩٢٦ فبرهنت للأمم الصديقة
أنها تستطيع النسيج على منوالها والسير على مثالها والحياة معها
على أحسن ما يرام من الوفاق والوئام

لكن هذه النهضة المباركة التي نالت إعجاب الأمم والشعوب
لم ترق لبلد كانت تربطه بالصين صلات الأخاء والجوار ،
بل كان أول من ورث عنها المدنية والحضارة . فقد اعتقد
هذا البلد أن تقدم الصين سيكون خطراً عليه . إلا أنه أخطأ
كل الخطأ ، لأن الشعوب المقيمة في الجمهورية الوسطى ليست
من سلالة جنكيز خان أو تيمورلنك

وفي ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ بدأ الهجوم على هذا الشعب
الآمن السالم ، إذ هجم أعداؤه دون مبرر معقول على بلاده
المستقلة مبتدئين باحتلال قنطرة لوكو (المعروفة عند الأوروبيين
باسم قنطرة ماركوبولو)

كم تحمل الشعب الصيني من صنوف الاهانات والاعتداءات ،
وأخيراً عبل صبره وهو الشعب الذي اشتهر في التاريخ
بتحمل المكاره دون أن يشكو . درج الصينيون
على حب السلام ، مما جعلهم يتفرون من تسوية الأمور
بالسيف والنار . أما الآن فقد غيرت صروف القادير طباعهم
فأصبحوا شعباً مجاهداً ، مولماً بالحروب ، شجاعاً مدافماً عن
نفسه ، فقال بذلك إعجاب العالم وتقديره

وفيا بلى مسرحية قصيرة في فصل واحد ، بقلم الآنسة

الاشخاص : الشيوخ : —

الامام وانج (في الصين يسكن الامام عادة في الجامع
ويتولى عدا الشؤون الدينية الجزء الأكبر من شؤون بني
دينه وهو شيخ بلحية طويلة)

للؤذن ما : رجل مسن بلحية طويلة

الوجيه يانج : رجل مسن بلحية طويلة

أشخاص أصغر منهم سناً : —

الوجيه لي

المرأة أ

الشبان : —

سينجتان يانج (ابنة الوجهه يانج)

أنشيانج يانج (ابن الوجهه يانج)

الرجل آ

المجموع : —

اثنا عشر رجلاً وامرأة لاجئون في الجامع

اثنا عشر جندياً يابانياً

المشهر : وجهة قاعة كبرى . نظيفة جداً . آية في

خفامة البناء . حوائطها مدهونة باللون الأخضر ومزينة
بتقوش باللغة العربية على شكل أهلة يضاء . وإلى جانبي
القاعة بابان . وبجوار الباب الأيسر لوحة مزينة بالرسوم
والخطوط العربية . وقد علفت في هذا المكث لاخفاء
مخرج مغلّق

وفي القاعة منبر ولوحات صغيرة محلاة بالخطوط العربية ،
وأرضها مفروشة بالأبسطه الثمينة ، من صناعة سينتياج ،
والقاعة منقسمة قسمين بحاجز خشبي متقل (بارافان)

رفع الصوت : صوت مطر يسمع من الخارج ، فيحدث
ارتباضا في النفس ، وجو ساكن محزن في الجزء الأمامي
من القاعة يشمر بقرب وقوع كارثة فادحة . الامام وانج
يسير ذهاباً وإياباً مضطرب الأعصاب . ويتهدد حيناً بعد حين

نهنا عميقا مداعبا لحيته بحركة عصبية . والوجيهان وانج ولي جالسان على قاعدتين في حالة وجوم ، وبقليان بين وقت ووقت ينظرهما على الامام وانج . ثم لا يلبث أن ينقطع صوت المطر ويتغلب عليه دوي المدافع الرشاشة .

الامام وانج — (يقف فجأة) اسمعوا . لقد دخل اليابانيون المدينة

الوجيه يانج — (مرتعداً) آه !

الوجيه لي — (رافعا يديه الى السماء) اللهم إليك نسلم أمورنا ، لقد قطعنا سنة لا تسمح لنا بحمل السلاح ، للدفاع عن المسجد ، وعن حياة الآلاف من إخواننا . اللهم نسألك معونتك (ثم أطرق برأسه بينما أخذت أصوات المدافع الرشاشة والبنادق تردد وضوحاً)

الامام وانج — (واقفاً أمام الجدران ، وقد وضع يده على جبهته كأنه أدرك شيئاً) كلا . إن الله لا يحب الجبناء وبرغم تقدمنا في السن ، يجب علينا أن نسير إلى الأمام ونواجه الحوادث ، حتى ننفذ الآلاف من إخواننا . لنقل لليابانيين إن هذا هو المسجد فيتمتعين منحنا امتيازات وحمايتنا . (المؤذن يدخل من الباب الأيسر بخطى سريعة ثابتة وهو يرتدي جلباباً أسود)

المؤذن ما — أصبت يا سيدي الإمام وسأذهب معك لمفاوضة هؤلاء اليابانيين ، والإسراع خير من الانتظار ، لأن مئات من الناس أسلموا لنا أرواحهم فأويناهم في المسجد فهل يمكن أن يظلوا إلى ما شاء الله في الظلام . (اقتربت طلقات الرصاص . وسمع من خلف اللوحة التي تخفي باب الخروج طرقات قوية متوالية)

الامام وانج — (مشيراً إلى اللوحة ومخاطباً ما) كيف الحال هناك ؟

المؤذن ما — (أخرج مفتاحاً من جيبه) الحالة حسنة ، والباب مغلق بالمفتاح ؛ لكن الظلام جالك وعددهم كبير

الامام وانج — (مخاطباً يانج ولي وهو يتهدد)

ما رأيكم في أن نذهب لمقابلة اليابانيين
الوجيه لي — أظن أن هذا هو الحل الوحيد ، سنفهمهم أننا رجال مثلهم ، وأنه يجب أن يكون عندهم شيء من الرحمة (استؤنفت الطرقات بشدة خلف اللوحة وساد الوجوم في القاعة)

من خلف اللوحة (صوت رجل) : أيها المؤذن ما !
افتح الباب ودعنا نخرج . إننا لا نستطيع البقاء مختبئين في هذا المكان . نريد الخروج . إن الحالة لا تطاق هنا

المؤذن ما — (مقترباً من اللوحة) إلزموا الهدوء قليلاً ، تحملوا الظلام بضبر . ألا تعلمون أن اليابانيين قوم لا رحمة في قلوبهم ؟

من خلف اللوحة (صوت امرأة) : دعنا نخرج . نريد أن نحدثك في أمر مهم

الوجيه يانج — (متجهاً نحو اللوحة) : منجنتان !
بنيتي منجنتان ! إن اليابانيين هنا . إنهم في الشوارع المجاورة . أصغى قليلاً إلى دوي المدافع الرشاشة والبنادق (تسمع أصوات المدافع) . إبقى في مكانك ولا تتحركي . إصبري قليلاً في الظلام . فقد ينفذ حياتك وحياة أخيك وزملائك من الهلاك المحقق

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : سمعنا كل شيء يا أبتاه ، لكنني لا أستطيع تحمل الظلام أكثر من ذلك ... يا للعار ! وا خجلناه من الشباب الصيني !

من خلف اللوحة — (صوت رجل) : احترس من الذهاب للقاء اليابانيين أيها المؤذن ما . إنهم أناس لا رحمة في قلوبهم . إنهم شياطين لا يتحدثون عن العدل ولا يدركون له معنى . فإذا ذهبت فلن تعود بالفشل فحسب ، بل تعرض حياتك للهلاك المحقق . ألم يأتك خبر ما ارتكبهوه من المذابح في البلاد

الإمام وأنج — على أنه لو نزل بنا مكروه لما
أسفنا على ذلك أمام خالقنا وبني ديننا .

المؤذن ما — هذا صحيح يا سيدي الإمام .
سنبذل أقصى جهودنا لمحدثهم ، وإن أخفقنا فنسوى
الأمور بهذه (مديراً إلى قبضة يده — الجميع يضحكون
بصوت عال)

من خلف اللوحة (صوت رجل) : علام عولتم
هل تواجهون اليابانيين ؟ إنه جنون . ستلاقون
حتفكم جميعاً . دعونا نخرج ، فمن واجب الشباب
أن يذهب لتسوية الحساب مع العدو . (صوت امرأة) :
لا . لا . أتوسل إليكم . لا تذهبوا . إذا وعدتم
يقتاتكم كفقنا عن المطالبة بالخروج ، ولزمنا الهدوء
ولم نضايقكم (صوت تهد)

الوجيه يأنج — وهو كذلك . الزموا السكينة
فالشيوخ لن يخطروا بحياتهم (بصوت خات) ومع
هذا .. من خلف اللوحة (صوت رجل) : لا حرية
بلا قوة .

(صوت امرأة) : إذا لم نعتصم بالقوة ، فلن
يأتينا العدل من السماء .

الوجيه يأنج — (بصوت مرتعج) : هل نذهب
لناق حثفنا بظلفنا : كلا ..

الإمام وأنج — (بصوت متهدج) : لم يبق لنا
إلا هذه البارقة من الأمل .

الوجيه يأنج — إهدأوا يا أولادى سنفتح لكم
من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : حقاً .
ما أسعدنا : إذا ستبقون هنا معنا .

الوجيه يأنج — نعم يا أولادى
من خلف اللوحة (صوت رجل) : هيا بنا لنخبر

الآخرين يا منجتان . إنه لنبدأ عظيم (وقم أقدام ونشيد
وطني حاسى ... المقاومة . المقاومة ... اقتراب يوم
(٤)

التي فتحوها ؟ ألا تدري أنهم يجهلون المبادئ
الإنسانية ولا يفهمون إلا فلسفة الدم ؟ ... إنهم
وحوش ضارية يفترسون بني الإنسان ...

الوجيه يأنج — (مقاطعاً) : حسن جداً ، كلنا
نعرف اليابانيين على حقيقتهم . فالزموا السكينة انتظاراً
لقرارنا ...

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : يا أبتاه
قل للمؤذن (ما) إننى لا أستطيع الانتظاراً أكثر من
ذلك ، أريد الخروج بل أفضل الموت على البقاء هنا .
إن اليابانيين بين يدينا . أريد الدفاع عن نفسى
والهجوم عليهم باسم أمتى ودينى وشرفى . أنت تعلم
أننى كنت دائماً سريعة التأثر قليلة الصبر ، فهل
يرضيك أن أختنق هنا حية ؟ ... أبتاه ... أبتاه ...
دعنى أخرج ... (صوت رجل) : ماذا تنتظر هنا ،
الموت أم الحياة ؟

الوجيه يأنج — وا حشرناه ... ولكن ...
(منجها إلى المؤذن في حرة عصبية) إفتح الباب ودع
أولادى يخرجون . لا مانع لدى ما داموا يريدون
التضحية بحياتهم في سبيل الأمة والدين . بل إنه
لشرف عظيم .

الإمام وأنج — (اجتذب إليه الوجه يأنج وممس
في أذنه) لا تتسرع في الأمر . واعلم أن اليابانيين
لا يرحمون الشباب ، فالأفضل أن نذهب نحن ونحدثهم
بهدهوء ، لن ينزلوا بنا أى عقاب ، أو كد لك ذلك .
(ظل الوجه يأنج صامتاً واكتفى بالإيماء برأسه ثم تبع الإمام)

الوجيه لى — أنظر إلى لحانا الطويلة . إنهم لن
يلحقوا بنا أى أذى ، وسيحترمون بلا شك الرجال
المتقدمين في السن ، أو يتسامحون معهم على الأقل .
ومع ذلك فهل هم يهتموننا أحياء وياكلوننا لحماً وعظماً ؟

جريح . وقد بدا أصفر سنا برغم الدماء الخضب بها جسمه .
بينهم ابتسامة مرة . وينسى جرحه . فيحاول النهوض ،
ولكنه يسقط مغشياً عليه . صمت دقيقة بين على المسرح ، ثم
تسمع أصوات الطلقات على مسافة بعيدة للدلالة على أن الهدوء
لا وجود له تحت الأحذية الحديدية التي تغطى بها جيوش
الامبراطورية اليابانية أرض الأعداء)

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : أخى .
أتظن أن مصاباً حل بأيتنا ؟

— (صوت رجل) : إفهمى جيداً يا منجتان .
إن مئات الألوف يذبحون بسيف اليابانيين الماضية
فن ذا الذى يضمن أنه لن يحدث شيء لأبى ولنا
أيضاً ؟ لقد أمرنا الله عز وجل أن نصد هجمات العدو .
فلماذا نبقى مختبئين هنا . إن هذا الجبن يؤلم نفسى .
أكاد أجن من شدة الأسى . وأتساءل : لماذا لجأنا
إلى هذا المكان ؟ يا للعار ! ألا يفتح لنا المؤذن ما
هذا الباب لنخرج ؟ ... نعم يا أختاه ، لقد أصبت
في قولك . إن اليابانيين بين أيدينا . فيجب أن نلقى
عليهم درساً قاسياً ، احتراماً للأمة والدين ولأنفسنا
— (صوت امرأة) : نعم يا أخى ، لقد فهمت
ولو كان أبى ... فيجب أن أفكر فى بنى وطنى
الذين يتألمون .. لا .. لست مريضة .. (ترفع الباب)
افتح لنا . أيها المؤذن ما ... نريد أن نخرج لنقتل
اليابانيين (طرقات قوية جداً)

الوجيه لى — (يستيقظ ويئن أينما مؤلماً) آه !
آه ! إني أتألم .. أتألم المأ شديداً . (تكب الطرقات)
آه ! آه ! يا لهول المصاب !

من خلف اللوحة (صوت رجل) : أسمعين ؟
ترى من هذا ؟

— (صوت امرأة) : من أنت ؟ هل أنت أبى ؟
من أنت ؟ أجيب !

الوجيه لى — أنا ... أنا ... لى ...

من خلف اللوحة — هو الم لى . ماذا حدث
لك ؟ أين الآخرون ؟

الاتصار والمجد ... ثم يبتعد صوت النشيد) ... (أما
الأشخاص الظاهرون على المسرح فيلزمون الصمت ... ثم
يضرب المؤذن ما الأرض بقدمه متحمساً غاضباً)

المؤذن ما — لقد آن أوان الاستشهاد يا إخوانى
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه . الدم
فالدّم هو الطريق الوحيد للحياة الأبدية الخالدة ،
أليس من واجبنا أن نشيد صرح السلام فى هذا العالم
الفارق فى الدماء ؟ لقد نشدنا الحق فوجدناه . أنظر ،
إنه شاخص أمامنا . الله أكبر . الله أكبر .
(ارتسم السرور على جميع الوجوه)

الإمام وأنج — (وقد رفع الأربعة أيديهم مبسوطة
إلى السماء أمام صدورهم) الحمد لله رب العالمين الرحمن
الرحيم . اللهم سدد خطوات جميع محبي السلام ، آمين .
(ثم يخرجون من المسرح وتسمع خطواتهم من خلف اللوحة)
من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : أبتاه .

(صوت رجل) : أيها الإمام وأنج . (صوت امرأة) .
أيها المؤذن ما . (تسمع طرقات شديدة خلف اللوحة ثم
تخف الطرقات شيئاً فشيئاً . ونجأة تسمع طلقات نارية
على مسافة قريبة من المسجد . وتليها ضحكات عالية وحشية)
(صوت امرأة) : آه إني أشعر بضيق فى صدرى .
قلبي يحدثني بأن الكارثة على وشك (صوت جسم يسقط)
(صوت رجل) : منجتان . استيقظى . استيقظى
انهمضى (ولع أقدام وأصوات كثيرة متضاربة) شكراً
ياسيدأتى وسادتى . لقد تحسنت صحتها الآن بعد أن
أغنى عليها فزعاً من أصوات الطلقات النارية .

(صوت امرأة) : هل تعلم يا إنشياج أن أبى
وزملاءه ذهبوا للملاقة اليابانيين ؟ ترى هل أصيب أبى
ورجال الدين بمكروه ؟

(صوت رجل) : لا . لا أظن ذلك . انهمضى
عينيك واستريحى قليلاً يا منجتان

(تخف الصرخات وكذلك طلقات النار وبعود صوت
الطرق . يدخل من الباب الأيمن رجل زاحف على بطنه مخيف
الشكل مبللة ثيابه بالماء والدماء . هو الوجه لى . ويظهر أنه

— (صوت امرأة مضطرب) : إني خائفة يا أخى ..
خائفة جداً

الوجيه لي — إنهم ... إنهم ... آه ! آه !
ما أشد آلامي !

من خلف اللوحة — (صوت رجل) : سنأتى
إليك فى الحال يا عم لي ... إننا على استعداد ...
(ركلات أقدام قوية على الباب الذى تخفيه اللوحة ، حتى
كادت تسقط من شدتها)

الوجيه لي — تمالكوا قليلاً .. لا يوجد شىء هنا
(لكن ركلات الأقدام على الباب تشدد فيصبح صوت الشيخ
غير مسموع) لا .. لا شىء ... إن الذين يريدون
السلام راقدون الآن فى سلام ... لا تخرجوا
(يزحف على الأرض متناسياً آلامه للبرحة) أنا ...
لم أصب بشىء ... لكننى أخشى عليكم ! وأخيراً
تسقط اللوحة من شدة الضربات وتخرج جوع من الرجال
والنساء كالسيل الجارف بعد كسر الباب . وقد بدا على
وجوههم الهول والفرع وأثر السجن الطويل . وتظهر فتاة
« فى المقدمة » . ثم تملكهم الدهشة عند ما يرون الوجه لي
غارقاً فى دماؤه)

منجتنان يانج — (تقترب بسرعة) عمى (لي)
انشياج يانج — (يبعث مع أخته) الدم يسيل
من جبهته (يبعث فى موضع آخر) لا ... لا شىء
فى موضع آخر (يزق قبضه ويبطيه أخته) خذى
ضمدي الجرح هنا

منجتنان يانج — (تضمد جرح لي) إنه لفخر
عظيم أن تسقط جريحاً يا عماء ... والآخرون ؟
(ترتعد) وأبى ...

انشياج يانج — (يرفع لي ويسنده إلى صدره) عماء
الوجيه لي — (عيناه مغمضتان) يفتحهما قليلاً
وينظر إلى الشبان) أما أنتم ... أما أنتم ... فاخرجوا
من هنا (مشيراً إلى الباب الأيمن)

الرجل أ — نعم (يضم قبضة يده بشدة) سنخرج
لنهزم أولئك اليابانيين الشياطين

الوجيه لي — هيا . إذهبوا ... إذهبوا ...
(تبدو على شفاهه ابتسامة صرة وحركة تدل على محاولة
إخفاء الألم) هيا ... إذهبوا ... إن الذين أحبوكم
راقدون فى ركن الشارع الغربى . أنقلوا إلى هنا
هؤلاء الشيوخ الأجلاء (يفضض عينيه) اللهم اشلهم
ببركتك واجعل جنة النعيم مأواهم !

الرجل أ — باسم الله وباسم الدم الذى ورثناه
عن أجدادنا ، لن نخاف شيئاً وسنكافح إلى النهاية .
هيا بنا . هيا بنا ...

الجموع — هيا بنا . هيا بنا (اختفت الجموع
من المسرح ، وقد حاولت منجتنان يانج أن تنهض لتلحق
بهم ، ولكن الوجه لي منها)
الوجيه لي — لا . لا . إبقى معى ، إننى فى حاجة
إليك . إبقى معى قليلاً !

منجتنان يانج — أمرك يا عماء (تنظر إلى لي الذى
كان يبدو عليه ما يدل على رغبته فى الكلام ، بيد أنه صمت)
انشياج يانج — ننقلهم إلى هنا (مخاطباً لي)
إذن فأبى والآخرون جرحوا أيضاً وحالتهم خطيرة
جداً ، ولا يستطيعون السير على أقدامهم (منجتنان
يانج تمدق فى أخيهما)

الوجيه لي — لا .. نعم .. إنهم .. (تدمع عيناه)
منجتنان يانج — عماء . إنهم ...

الوجيه لي — (مضطرباً) ستعلمون ذلك فيما بعد
(ممسكاً بيد انشياج يانج) يا ولداه لم نشأ الاستماع إلى
نصيحتك ، فكانت النتيجة أن الإمام وانج والمؤذن
ما ووالدك كلهم ...

انشياج يانج — (محدقاً فى لي بهدوء تام وقد
امتنع وجهه ...)

منجتنان يانج — (مضطربة) ماذا ؟ كلهم
يا عماء ؟ ماذا حدث لهم ؟

الوجيه لي — أصنى يا بنيتى . لقد اعتقدنا أن
إخفاءكم فى ركن مظلم من المسجد ليس بالوسيلة

المثل لا تقاذ حياتكم . وكنا نعلم حق العلم أيضاً أن لا جدوى من التحدث في العدل والإنصاف مع اليابانيين . ومع هذا فلم نتردد في الالتجاء إلى محاولة أخيرة ، عسى أن نجد في قلوب أولئك القوم شيئاً من الشفقة والرحمة . نعم إننا أدركنا ما في نصائحكم من سداد الرأي ، لكننا ظننا أن اليابانيين سيحترمون سننا المتقدمة ولحانا الطويلة ... وأنهم ... أنهم ... فهل هناك من يتصور أن الشيوخ الكبار لا يمكن أن ينجوا من برائن هذه الذئاب الضارية ؟ نعم . واأسفاه . هذه هي الحقيقة المؤلة . لقد ذهبنا برغم ذلك . كانت الطرقات مقفرة كأنها قبور موحشة ، أو ميدان الوغى غداة الواقعة . خرجنا إلى الشارع . سمعنا أزيز ... زرز ... (وأشار إلى الجهة الغربية بصوت خفته العبرات ... طي حين تبدو منجنان ينج في أشد حالات الاضطراب) وأصاب رصاصة .. أصابت .. أصابت ... أباك ...

منجنان ينج — لكنه لم يمت .. أليس كذلك ؟
الوجيه لي — مات ... واأسفاه
منجنان ينج — آه . آواه . واحسرتاه عليك يا أبي (بكاء) واأبتاه تقسم بالله العلي العظيم أننا سننتقم لك (يستمر الوجه لي في الأنين من شدة الألم ... وتكف منجنان ينج عن البكاء شيئاً فشيئاً)

انشياج ينج — سنذكر إلى الأبد عدونا اللدود يا شقيقتي . أسمعيني ما أقول ؟
منجنان ينج — (تستأنف البكاء)

انشياج ينج — خبرنا يا عمي (مخاطبا الوجه لي) ماذا حدث للامام وانج والمؤذن ما ؟ هل قتلوا أيضاً بأيدي أولئك الشياطين . (منجنان ينج مطرقة الرأس تستمع باهتمام)

الوجيه لي — لقد أصيبوا جميعاً لسوء الحظ . أصيبوا بطلقات الرصاص وقتلوا لساعتهم وجرحوا أيضاً ثم سقطت إلى جانبهم . لم أعرف هل كنت

مبلاً بالماء أم بالدم ، وفي بادى الأمر كنا معاً وحاولنا النهوض ، ولكن جهودنا ذهبت سدى . كان بعضنا يصرخ من شدة الألم ، وبعضنا يئن ويذكر اسم الله ... وبعد دقائق قليلة سكثوا ... وأصبحوا لا يتحركون . ثم سمعت ديبب أحذية حديدية صرت بجوارنا تتخللها ضحكات سخرية . حاولت أن أقف فاستطعت ، وبعد جهد جهيد اقتربت من زملائي ومسست أجسامهم فوجدتها باردة كالثلج . نعم . لقد رقدوا في سلام . .

انشياج ينج — حسن ! سنرد إلى أعدائنا تلك الطلقات النارية ، سننتقم ، سننتقم (ضحك مرموئم ، الوجه لي — (مخاطبا منجنان ينج) إني متألم لمصابك ، ويكاد قلبي يتفتت من شدة الأسف . لكن صبراً جميلاً . فقد كان أبوك وزميلاه رجالاً صالحين في هذه الحياة الدنيا . واستشهدوا في سبيل أمتهم . وهم الآن في جنات الخلد حيث ينعمون بالجزاء الحق ورضا العلي العظيم . (يسود السكون المسرح ويتخلله اتعاب متتابع ينج . تبتعد أصوات الطلقات النارية ويدخل رجال يحملون ثلاث جثث مضرجة بالدماء ، تجشوء تنانج ينج وتبكي)
انشياج ينج — (يترك الوجه لي وينهض) :
أبتاه . يا أيها الإمام . يا أيها المؤذن أقسم بالله أنني سأخذ بشاركم (يحاول الخروج فيمسك بثيابه الوجه لي) كلاً . يجب أن أذهب (يمنعه الوجه لي مرة أخرى) سأواجه الموت للانتقام . من أولئك اليابانيين الملعونين . إن وجهي يحمر خجلاً أمام بني وطني . على أن الوقت مازال متسعاً للانتقام (بكاء)

الوجيه لي — (يكف عيراته) هيا انقلوا جثث المتوفين إلى غرفة الأموات (رجال يحملون الجثث ويخرجون من باب آخر . مخاطبا انشياج ينج) ساعدني على النهوض ، لأنني أريد الاضطجاع على سرير لأسترخ (انشياج ينج يساعده على النهوض ... مخاطبا

ضحكا عاليا ... تنهقر متبجان يانج قليلا نحو الباب الأيسر)
ها ... ها ... لا تهربي منا يا آنسة (تحضر المرأة
الأخرى منضدة فيجلس عليها الجنود اليابانيون ويقذفون
بقناتهم على متبجان يانج . قهرّب من الباب الأيسر وتفر
المرأة الأخرى من الباب الأيمن ويركض الجنود للاحقتهم .
تسمع من خلف الأبواب أصوات : أمسكوا بهم .. أمسكوا
بهم . وبعد لحظات يظهر الجنود الستة موقفة أيديهم وأرجلهم
ويسبقهم على المسرح أنشيانج يانج ومتبجان يانج وفي يد كل
منهما بندقية يابانية

أنشيانج يانج — (يبحث في جيوب الجنود ويتزج
منها المدسات وأكياس الرصاص . ثم يثر على حلي ثمينة
وغيرها من النفائس التي تزين بها السيدات) لا تخافوا ،
سنرد إليكم هذا الرصاص في الحال (ضحك سخريه)
الرجل أ — لنذهب بهم داخل الحجرة ليروا
الذين اغتالوهم وليؤدوا ثمن ما جنت يداهم

أنشيانج يانج — سنقضى على جميع الذين يأتون
إلى هنا باحثين عن الهلاك !

الجوع — لن يخرجوا من هذا المأزق (يقذفون
بالجنود نحو الباب الأيسر . ثم تسمع ست طلقات نارية ...
وتعود الطرقات على الباب الأيمن . فتفتح المرأة نفسها ويظهر
على المسرح ستة جنود يابانيون آخرون . تستدرجهم متبجان
يانج إلى الباب الأيسر ، وتخرج بهم موثقى اليدين والقدمين .
ثم يقذف الجنود الستة إلى الباب الأيمن خلف المسرح ...
وأخيراً يعود الجميع وقد حمل كل منهم بندقية يابانية)

أنشيانج يانج — الآن وقد أصبح لكل منا
بندقية يابانية سنرد لهم رصاصهم (ثم يصطف الرجال ثلاثة
ثلاثة ويخرجون من المسرح وهم ينفدون النشيد الآتي :)
هل تسمعون دوى مدافع الأعداء التي تخرب
حقولنا ومنازلنا ؟

هل تسمعون أزيز الطائرات التي تلقى بقنابلها
فتحرق مدننا والآلهة ؟

فلننهض ! فلننهض !

سنكافح الى آخر قطرة من دمنا لحماية وطننا
العزیز !

☆ ☆ ☆

متبجان يانج : ضعى القفل في الباب (الوحى لى يسير
ببطء متكئا على كتف أنشيانج يانج . وتضع متبجان القفل
في الباب)

متبجان يانج — (واقفة بجوار الباب تنظر إلى الدم
المختضبة به الأرض) : الدم ... الدم ... هذا دم أبى ...
هذا دم بنى وطنى ... لقد سقطت مدينة تسنينج
في يد الأعداء . لقد هزمت جيوشنا القوية ... هذا
هو اليوم الأول الذى أصبحنا فيه بلا أهل ولا أب .
اغتيال الإمام وزملاؤه . أين بنى وطنى ؟ هل هربوا
أم قتلهم العدو ؟ ... هذا هو اليوم الذى دخل فيه
اليابانيون بلادنا . ترون ماذا سيحدث بعد هذا ؟
إلى أى مصير نحن مسوقون ؟ هل سنعيش إلى الأبد
عبيداً أذلاء ؟ اللهم ارحم عبادك . لقد سئمت الحياة ،
ولا أقبل الدل (ينخفض صوتها ... ثم يرتفع فجأة) :
كلا . أريد أن أقم ... أريد أن أقم ... أريد أن
أثار لأبى ولبنى وطنى . نعم . نعم . لقد قررت هذا
(تختفى من الباب الأيسر ... ثم يسمع ديب أحذية حديدية
من الباب الأيمن يتخلله ضحكات عالية)

متبجان يانج — (فى يدها سكين مطبخ) الانتقام
الانتقام (تتقدم من الباب الأيمن فتسمع طرقات وضحكات
وصراخ من الأعداء) آه (دهشت ثم وقفت وفكرت
وفكرت وفهمت كل شيء ... عادت أدراجها واصططحت
بمها امرأة أخرى .. طرقات بقبضة البدأ أولاً ، وبليها
طرقات بفوهة البنادق)

متبجان يانج — من الطارق ؟

من خلف الباب — ها ها ها (ضحكات عالية)
إفتحوا يا آنسات . إفتحوا لنا الباب ، نحن عشاقكن
متبجان يانج — (تضحك ضحكة فاترة) : هيه .
(ثم تجرى إلى الباب ، وتغمغم بعض كلمات بصوت منخفض
ثم تخرج وتشير إلى المرأة الأخرى بفتح الباب) : إفتحى
الباب .

المرأة — (تفتح الباب يظهر على المسرح ستة جنود
يابانيون سكارى) : آه ... (ثم تنهقر عدة خطوات)
الجنود اليابانيون — (يرون متبجان يانج فيضعكون

من أحسن القصص

الحب أقوى من الموت

للكاتبة الروسية ديمتري ميريجكوفسكى
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

نصريف بالقصة

كان ديمتري . س . ميريجكوفسكى أحد كتاب الروس الحديثين الذين كتبوا فيما وراء بلادهم ، وربما فعل هذا لأنه كان أقل عصبية من زملائه الروسين . ولا رأى أن أدب بلاده آيل إلى الانحطاط والتفكك ، لفت نظر الكتاب إلى الرمزية الفرنسية كوسيلة لانعاش الأدب وإحيائه ، وبلغ لهم إلى الأسلوب الحزن الكئيب الذى يصورون به آراءهم وأحاسيسهم نحو حياة هذا الوقت ، وقد أحس شعر الخلفات القديمة ، ولذة ما فى القصص التاريخية من تفاصيل غريبة وتساوير دقيقة تناسب عبقريته ولبوغه ، وما هو ذا يقدم لنا فى قوة وبراعة « الحب أقوى من الموت » ، ومرجع هذه القصة إلى الأصل الايطالى لقصة جنيرفا كما ظهرت فى : « The Novellae Do - menico Manni » من آثار القرن الثامن عشر الفلورنسى . وقد عهد ميريجكوفسكى إلى كتابة القصة من جديد معتمداً على أسلوبه الخاص المترجم

كانت أسرة « المري » السالفة — من أهالى فلورنسا — فى قديم الزمن تتجر فى نوعين من التجارة مختلفين ، فقد راح البعض منهم يقصد « سانت أنتوني » حاض القضاين ، على حين اتخذ الآخرون شعاراً رسم عليه صورة تحمل إذ كانوا يتجرون فى الصوف

وقد احترف الاخوان جيوفانى وماتيو المري — كأسلافهم الأولين — هاتين التجارتين ، قامتهن جيوفانى تجارة اللحوم فى مكان السوق القديم The Marcato Vecchio واتخذ ماتيو مصنعا لفزل الصوف فى « آرنو » ، وكان الناس يتقاطرون على محل جزارة جيوفانى ، لا لأنهم يجدون لديه

أحسن اللحوم من خنزير طازج وعجل طرى وأوز سمين فحسب ، ولكن لأنهم — إلى هذا — يحبون صاحب المتجر لطبائه المرحه البهيجة ولسانه الحلو المعسول

وما من أحد يستطيع أن يتبادل النكات المرحه ويأق الملح الطريفة على السابله ، أو الجيران ، أو المشترين فى حذق ومهارة كما كان يفعل ألقى القصاب ، وما من أحد كان يقدر أن يتحدث بمثل تلك الزلاقة والإلام عن الأحداث السياسية للشعب

الفلورنسى أو عن تاريخ سلاطين آل عثمان أو عن مؤتمرات ملوك الفرنسيس

وما كان يسوء مزاح القصاب وهزله من الناس إلا قليلاً ؛ وكان يطبق عليهم المثل « إن المزاح لا يسوء الجار الطيب ، وإن اللسان لحاد مرهف فى المزاح كالوسى » وكان أخوه ماتيو — تاجر الصوف — على خلق مختلف : كان حاد الدهن فى دهاء ومكر ، سياسى الطباع ، صموتا عبوسا ، وقد اطرده نجاح أعماله أكثر من جيوفانى المهمل المهدار ، وكان له شركبان ينادران — كل سنة — ميناء « ليفورتو » محلين بالصوف إلى ثغر القسطنطينية . كان وثابا طبعاً وحاساً سلك فى سبيل إعاء ثروته سلوك

السبيل إلى منصب فى الدولة كبير ، وقد انخرط فى سلك الطبقات الراقية والجامع الأرستقراطية أو « الناس السمان » كما كان يطلق عليهم آنئذ

وكان الراتب الذى أفرد له لأرملة أخيه كل شهر جد ضئيل ؛ حتى أنها قاست أسباب الحرمان والفاقة لاسيما وهى ليست وحيدة ، إذ كان لها ابنة صغيرة عزيزة محبوبة اسمها جنيرفا . وما كان أحد من طلاب الزواج فى ذلك الوقت يقبل على العذارى اللواتى بدون صداق ، كما هو الحال الآن . بيد أن اليأس لم يتسرب إلى قلب مونا أرسولا المؤمنة الوذعة إذ أخذت تصلى بحرارة وإخلاص لكل قديس الله ورسله خصوصاً « سانت أنتونى » حامي النصارى فى الدنيا والآخرة . كان أملها قوياً فى أن الله - نصير الأرامل واليتامى - حتماً سيرسل إلى ابنتها التى لا تملك بائنة ، زوجاً صالحاً ثرياً

وكان ثمة سبب آخر يبشرها بقرب تحقيق ذلك الأمل ، هو جمال جنيرفا وسحرها . حتى أنه لما يصعب تصديقه أن جيوفانى البدين المهدار ينبجس تلك الابنة الطرية الفينانة . وكانت جنيرفا دائماً ترتدى ثوباً أسود فضفاضاً وتضع حول عنقها الطويل الجميل قلادة من اللؤلؤ تتوسطها ياقوتة أثرية صفراء ، وتربط رأسها بمصاية من الموشلين تصل حتى منتصف جبينها شقافة حتى أن المرء ليرى خلالها خصللات شعرها الذهبى الباهت ؛ وكان وجه جنيرفا هو وجه العذراء التى صورتها ريشة الرسام قبلي لبي ، العذراء الطاهرة التى تبنت للقديس برنارد فى الصحراء ، وبأصابع كالشمع قلبت صفحات كتابه ...

كانت شفتاها اللتان كشفتى الطفل ، ونظراتها الهادئة الحزينة وحاجباها الخفيفان العاليان ، كان كل أولئك يحمل أقصى معانى البراءة والطهر . ومع أنها كانت ندية كالزهرة شابة كالربيع إلا أن منظرها كان يدل على ضعفها وقصر عمرها كما لو كانت لم تخلق للحياة

فى فلورنسا . وقد أمل أن يسمو بأسرة المرء إلى أعلى مرتبة اجتماعية . بل ربما يرى اسمه محلقاً على أجنحة شهرة خالدة وصيت باق ، ومضى ينصح لأخيه أن يهجر مهنة الجزارة لأنها مهنة ليست راقية وأن يضم أمواله إلى رأس مال ماتيو ، بيد أن جيوفانى أبى أن يأخذ بنصيحته إذ كان يخشى أخاه بقدر ما يجب بمقدرته ، وراح يقول لنفسه دون تصريح « لسان معسول وقلب خؤون »

وفى يوم قانظ عاد جيوفانى إلى مثواه من دكانه تبعاً مكدوداً ، ومن ثم أترع بطنه بعشاء ثقيل كعادته وجرع كما كبيراً من خمر مثلوجة ؛ فأصابته فجأة سكتة قلبية ، إذ كان بدين الجسم فى إفراط ، غليظ العنق فى قصر . قضى نحبه ليلاً دون أن يجد الفرصة لإشهاد أحد أو كتابة وصية . فسلمت مونا أرسولا أرملة - وهى امرأة طيبة القلب فى سذاجة وبلاهة - مقاليد تجارة زوجها إلى أخيه ماتيو الذى عرف كيف يخدعها بدهائه وكلماته المعسولة ؛ إذ استطاع أن يقنع المرأة الساذجة أن زوجها قد ترك « دفاتر حساباته » مضطربة نتيجة إهماله وتقصيره وأنه مات وهو على شفا الإفلاس وأنها إذا أرادت أن تنقذ البقية الباقية فعليها أن تفلق دكان اللحوم فى السوق القديم . وقد تناقلت أقاويل السوء أن ماتيو الداهية قد خدع الأرملة دون رحمة ليدير برأس مال جيوفانى مصانع الصوف تحقيقاً لرغبته القديمة . على كل ، شىء واحد كان واضحاً جلياً ، هو أن أعمال ماتيو قد تقدمت تقدماً كبيراً منذ ذلك الحين ، وبدلاً من مركبين اثنين مضى الآن يرسل إلى القسطنطينية خمسة أو ستة مشحونة بأنواع الصوف التوسكانى . وسرعان ما أضحى صاحب أكبر مصنع للصوف فى فلورنسا

وعند ما كانت ابنة القصاب تتخذ سبيلها إلى الكنيسة في هدوء واحتشام بأعين مسبلة وبكتاب الصلوات في يديها كان الشبان السريعون إلى ولية أو رحلة صيد يوقفون خيلهم ويملأ وجوههم توأ أمارات الاهتمام ، ويختق هزلهم وخمكاتهم ويمضون يتبعون جنيرفا الجميلة أبصارهم

وعند ما سمع العم ماتيو كلمات المديح والإطراء تنصب انصباباً حول أخلاق ابنة أخيه الفاضلة ، حزم أمره على أن يزوجها من فرنسكو ديلا جولانتي أحد سكرتيري الجمهورية وكان رجلاً شيخاً ، ولكنه كان محترماً من الجميع يرتبط بصلات وطيدة مع عظماء المدينة المبرزين في ذلك الحين ، وكان فرنسكو أحد تلاميذ المدرسة اللاتينية الكبار ، وقد دأب على أن يكتب تقاريره ومضبوطاته بالأسلوب الفلسفي الذي كان لليقي وسالتوست ، وكان بطبعه عبوساً متجهماً ؛ بيد أنه كان أميناً (كرومانى قديم) لا يحمل سلوكه منفذاً للوم والتعنيف ، وكان وجهه كوجه أحد أعضاء « السناتو » أيام الجمهورية ، وقد عرف كيف يرتدى عباءة موظفي فلورنسا الطويلة الحمراء القائمة كأنها «روب» روماني حقيقى «Areal Roman Toga» وكان يحب اللغات القديمة جداً جداً حتى أنه حينما كانت اللغة الإغريقية شائعة في توسكانيا وحينما جاء المعلم البيزنطى « عمانوئيل كرىزو لوراس » من القسطنطينية يحاضر في قواعد اللغة الإغريقية في الاستديو (اسم الجامعة آنذاك) لم يستنكف أجولانتي بالرغم من سنه المتوسطة ومركزه كسكرتير في الجمهورية الفلورنسية أن يجلس جنباً إلى جنب مع الصبية الصغار على المقاعد المدرسية ، وقد أتقن اللغة الإغريقية حتى استطاع أن يقرأ النسخ الأصلية

لفلسفة أرسطو ومحاورات أفلاطون . على الجملة لم يكن يأمل تاجر الصوف (وهو الداهية الطموح) في شخص ينتسب إليه أكثر نفعا وأسمى مركزاً من هذا . وقد تعهد ماتيو أن يهب ابنة أخيه بائنة كبيرة على شرط أن يرتبط اسم أجولانتي باسم ألى

وقد صادف ذلك طبعاً هوى في فؤاد فرنسكو ؛ غير أن جنيرفا مضت تمهل عمها وتؤجل موعد الزفاف من سنة لسنة ، وحينما سألتها عمها حزم أمرها أعلنته بأن ثمة رجلاً آخر تحبه أكثر من أجولانتي . وبالرغم من خوف مونا أرسولا ودهشتها ، فقد صرحت باسم أنتونيو روندنيللى المثال الشاب الذى يقوم مصنعها في أحد الشوارع الضيقة في «بونت فيكيو» وقد تعرف أنتونيو بجنيرفا في بيت أمها منذ أشهر قلائل . فقد استأذن أن يصنع تمثالاً من الشمع لرأس الفتاة الصغيرة ابتغاء بث جمال جنيرفا في صورة بارزة للشهيدة المقدسة باربارة أوصاه بها راهب ترى يثوى في إحدى ضواحي المدينة . ولم تشأ مونا أرسولا أن ترفض للمثال الشاب طلباً كهذا لوجه الدين . وإبان العمل وقّع المثال في حب نموذجها الجميلة ، ثم تلاقيا في المحافل الشعبية والمجتمعات الشتوية حيث كثيراً ما كانت تدعى جنيرفا بحرارة وإلحاح ، إذ كان جمالها من أقوى أسباب الترحيب بها في كل حفل أو وليمة

ولما أن جهرت مونا أرسولا - مع إبداء أسفها واعتذارها - إلى ماتيو بأن جنيرفا لها خطيب آخر تحبه ، وحينما ذكرت اسم أنتونيو روندنيللى ، تمالك نفسه وكبح جماح غضبه المتضرم وسدد إلى مونا أرسولا نظرات وادعة وقال في لين وهدوء :

— لو لم أسمع ياسيدتى ما قلته الآن بأذنى

عنها . يقدها أكثر مما يبارك صور القديسين ،
والرسل الخالدة .. وقد حدثني بعضهم أنه ،
وتلاميذه يشرّحون الجثث التي يبتاعها من حراس
المستشفى بأهبط الأثمان ليدرس عليها خفايا الجسد
البشرى من أعصاب وعضلات ادعاء التثبث من فنه
والتضلع فيه ؛ ولكنه في الحقيقة يفعل كل هذا
إرضاء لمساعدته وناصحه ، عدو مخلصنا القديم ، الشيطان
الذى يوصى إليه بالشموعة السوداء . لقد أغوى ذلك
الضال بنتك الطاهرة واجتذب قلبها برقته الزائفة ،
وسحره الجهنمي وأساليبه الشيطانية »

بمثل هذا الحديث مضى ماتيو يخيف مونا أرسولا
ليحملها على الاعتقاد أنه على حق . ولما أن أنبات
ابنتها أنها في حالة رفضها الاقتراح بفرانسكو
ديلاجولانتى سيكف عمها حتماً عن إعطائهما راتبهما
الشهرى . أترع الحزن واليأس قلب الفتاة ؛ بيد أنها
رضخت لحظها وجمعت أمرها على إطاعة عمها

وفي أثناء تلك السنة انقضت على فلورنسا رزية
فادحة ، مصيبة تنبأ بها المنجمون من قبل ، لأن
كوكب المريخ دنا منه كوكبا زحل والقرب دنوا
كبيراً . كان عدد كبير من تجار الشرق قد أقبلوا
يحملون بين طيات أقمشهم الهندية ميكروبات الطاعون
وتقدمت المواقب الرهيبة في الطرقات يرددون
المزامير حاملين صور جميع القديسين ، وسُنَّتْ
القوانين تحرم تفريغ القمامات في المدينة وحرم على
المدابغ والمذابح تصريف فضلاتها في « آرنو »

وضرب نطاق حول المرضى خشية اختلاطهم بالأصحاء
وخوفاً من التعرض لعقاب الغرامة أو السجن بل
الموت أحياناً ، حرص الناس ألا يتركوا في بيوتهم
أولئك الذين ماتوا أثناء الليل إلى شروق الشمس
(٥)

لما كنت أصدق أبداً أن امرأة حكيمة فاضلة مثلك
تعتبر شاباً أرعن قليل الاختبار مثل هذا أدنى اهتمام .
لست أدري كيف يحدث مثل ذلك في هذه الأيام ؛
ولكن في عصرنا لم يكن للبنت أى رأى وليس لها
أن تلفظ أى كلمة في اختيار زوجها . في كل شيء
كن يطمئن آباءهن ، وأولياء أمورهن . تبصرى قليلاً
في الأمر . من هذا أنتونيو التى شرفته ابنة أخى
باختيارها ؟ . أيمكن أن تكونى غير عالة أن المثالين
والشعراء والممثلين والمطربين الجوايين إنهم إلا أناس
لا يملكون ما يفعلون غير هذا ، ولا يصلحون البنت
لأعمال مثمرة مفيدة ؟ . إنهم أخف الناس عقولاً ،
وأكثرهم وهماً وخيالاً في هذه الدنيا الواسعة . إنهم
سكIRON بوهيميون ، كسالى ملحدون ، مترفون
مبذرون لأموالهم وأموال غيرهم . أما عن أنتونيو ،
فلا إخالك لم تسمى بكل ما تعرفه فلورنسا عنه .
وسأذكر لك ببساطة إحدى ميزاته . تلك السلة
المعلقة بجبل في دكانه ، في تلك السلة يضع أنتونيو
كل انال الذى ينزع دون حصد ولا عذ . وكل من
يرغب ، سواء أكان تلميذاً له أم أحداً من معارفه ،
في استطاعته أن يأتى وينزل السلة دون أن يعلم صاحبها
أو يستأذنه ، ويأخذ ما يشاء من المال ، نحاس أو فضة
أو ذهب . فهل تحسبن يا سيدتى أنى أضع مالى
ـ البائنة التى وعدت ابنتك ـ في يد مثل ذلك المعتوه ؟
« وليس هذا كل ما في الأمر . ألا تعلمين
أن أنتونيو ينطوى على إلحاد خفى وإباحية مستبدة
غرسهما الشيطان في قلبه ، فجعله لا يذهب إلى الكنيسة
ويسخر بالسر المقدس ولا يعتقد في الله . لقد أنبأنى
بعض الأخيار أنه يعبث تلك التماثيل والأوثان الرخامية
التي تمثل الآلهة والأرباب ، والتي ابتدى يكشف

حتى ولو كان سبب الموت أدواء أخرى
وانبت لذلك مفتشون يحرسون خلال الطرقات
والسبل قارعين الأبواب سائلين عن مرضى في البيوت
أو موتى . بل قد يفتشون البيت بأنفسهم إذا ساورتهم
الشكوك والريب . وكانت ترى هنا وهناك العربات
الملطخة بالقار بين دخان المشاعل يحف بها رجال في
ثياب سود صامتين ملثمين يحملون الخطاطيف التي
يلتقطون بها ضحايا الطاعون ويلقون بها في العربات
اتقاء مسها . وكان ثمة إشاعات أن هؤلاء الطغاة
العتاة الذين يطلق عليهم الناس لقب « الشياطين
السود » كانوا يلتقطون الأجساد التي ما زال بها
رمق كيلا يعودوا إلى المكان عينه مرة ثانية

وظل الطاعون الذي انتشر في أواخر الصيف ،
منتشراً حتى وقت متأخر من الخريف ، بل حتى
فصل الشتاء الذي أقبل مبكراً هذه السنة ، ولم يحج
آثاره ولم يقتل جراثيمه . وهرع أغنياء فلورنسا
الذين لا تربطهم مهام قوية بالمدينة إلى بيوتهم الريفية
حيث الجو طاهر نقي من جراثيم الطاعون

وخوفاً من أن تغير جنيرفا رأيها . تعجل العم
ماتيو يوم الزفاف بحجة أن مونا أرسولا وبنتها يجب
أن تبرح المدينة بأسرع ما يمكن ، وأن فرنسكو
ديلاجولانتى قد عرض أن يأخذ جنيرفا وأمها إلى
جوسقه الجليل عند سفح « مونت ألبانو »

كانت هذه رغبة ماتيو ، وقد تحققت ، إذ تم
الاتفاق على أن تكون ليلة العرس بعد أيام قلائل .
فأقيمت الحفلة دون جلبة ولا ضوضاء كما كان سائداً
في تلك الأيام الحزينة . وفي ليلة العرس وقفت جنيرفا
كالخيال ممتعة شاحبة يملو قسبات وجهها هدوء
رهيب . بيد أن عمها أمل أن تزول تلك الأوهام ،

أوهام الشباب عقب الزفاف . وأن فرنسكو سيعرف
كيف يكتسب حب عروسه الصغيرة

ولكن آماله لم تكن لتتحقق . فعند ما غادرت
العروس الصغيرة الكنيسة ودخلت بيت زوجها
بدأت تحس دواراً . وبغاة سقطت على الأرض كأنها
ماتت . وبلغ ظن الكل أولاً أنها في غشية وحاولوا
أن يثيخوا إليها رشدها ؛ بيد أن عينيها ظلتا مسبلتين
وأخذ تنفسها يضعف ووجها وسائر بدنهما يتحولان
إلى صفرة الموت ، وسرت البرودة في أطرافها . وجاء
طبيب بعد بضع ساعات (في ذلك الحين كان الناس
يستدعون الأطباء رغماً عنهم وفي طي الخفاء كيلا
يتسرب في المدينة خبر وجود مريض بالطاعون في
البيت) ؛ ولكنه عند ما أدنى صرأة من فم جنيرفا
السلوبة الحياة لم يبد عليها أي أثر لأخف نفس

هنالك اعتقد الجميع والحسرة تملأ نفوسهم
والحزن يخيم على رؤسهم أن جنيرفا قد ماتت حقاً
ولفظ الجيران أن الله قد صب جام عقابه على ألمرى
لإقامته الزفاف في مثل ذلك الوقت غير اللائق . وأن
عروس فرنسكو الصغيرة نالها الطاعون فماتت عقب
عودتها من الكنيسة . وقد انتشرت هذه الاشاعات
سريماً لأن أهل الفتاة كانوا في خوف من زيارة
« الشياطين السود » لذلك كتموا خبر غشية الفتاة
وموتها حتى اللحظة الأخيرة . ولكن عندما أقبل
المساء أتى المفتشون الذين وقفوا على دقائق الحال من
الجيران وطلبوا إلى أهل الميت أن يسلموهم جثة
جنيرفا أو يدفنها توجاً ؛ بيد أنهم حينما أخذوا
« رشوة » جسيمة ، قبلوا أن يتركوا الجثة في بيت
فرنسكو حتى مساء اليوم التالي .

لم يبق أحد من الأهل في صرية من موت جنيرفا

وقد حدث بمض الاضطراب في أخريات الحفل حينما حمل النعش من الكتدرائية إلى الرمس لتوديعها بالقبلة الأخيرة . إذ شق رجل شاحب الوجه في عباءة حريرية طريقه إلى الفتاة المسجاة ، ورفع عن وجهها غطاءه ، وبدأ يحدق فيها بنظرات ثابتة . فطلب إليه أن يتنحى ويبتعد ، وأخبر أنه عار عليه — وهو غريب — أن يدنو من جنيرفا ، ولما يتركها أهلها بعد . فلما سمع الرجل المتتبع أنه وُصف بالغريب ، وأن ماتييو وفرنسكو قد نُعتَا بالأهل ، ابتسم في سرارة وقبّل الفتاة الميتة في ثغرها وأعاد الغطاء على وجهها ، ثم ابتعد عن الجمع دون أن ينبس . فدار الهمس بين المحتشدين ، وأشاروا إليه مردين اسم انتونيو دي روندنيللى ، الرجل الذى أحبته جنيرفا ، والذى ماتت في سبيل حبه .

واختفت بقايا الشفق وانتهت الجنازة ، وبدأ الجمع فى الانصراف . فرغبت مونا أرسولا فى قضاء الليل بجانب النعش ، فعارضها العم ماتييو . إذ أنها بلغت من الحزن مبلغاً كان يخشى على حياتها من قسوته . فقط بقى الأخ ماريانو — وهو راهب دومنيكانى — بجوار القبر ليقرا الصلوات على الميت وتقضت بضع ساعات . وفى هدوء الليل الشامل لم يكن يُسمع سوى صوت الراهب ودقات الساعة من أعلى برج « جيوتو » من حين لحين . وأحس الأخ ماريانو بعد منتصف الليل بظلمة شديدة . فسحب زجاجة من الخمر فى عنف وأمال رأسه إلى الوراء ، وتناول بضع جرعات قليلة بسرور ولذة . ثم خيل إليه أنه سمع زفرة ، فأرهف السمع فبلغت سمعيه زفرة أخرى . وفى تلك المرة بدا له كأن غطاء وجه الفتاة قد اهتز وارتعش . فتملكه رعب شديد بعث

إلا صريتها المعجوز التى يرميها الجميع بالجهل والغباء . فتوسلت إليهم فى بكاء مؤلم ألا يدفنوا جنيرفا مؤكدة أن الطبيب مخطئ . فإن جنيرفا لم تمت ، بل أنها فى نوم عميق . وأقسمت أنها حينما وضعت يدها على قلب عزيزتها (أحست أن القلب يخفق فى ضعف ، فى ضعف ، بل أضعف من رفيف جناح فراشة)

وتصرم اليوم ولم تُبد جنيرفا أى دليل على حياتها فطويت فى أكفانها ووضعت فى نعشها ، ثم حملت إلى الكتدرائية . وكان القبر الجاف الخشن مرصوفة أرضه بالآجر التوسكانى ، جاثما بين بابى الكنيسة فى إحدى ساحات الجبانة تحت ظل أشجار السرو الشماء العالية ، بين قبور أشرف فلورنسا وأعيانها . وقد دفع ماتييو فى ذلك القبر عنكاً باهظاً . ولكن المال أخذ من البائنة التى كانت ستدفعها جنيرفا . وكانت عملية الدفن يحف بها المهابة والوقار . إذ أضيئت الشموع وأعطى كل فقير — لذكرى جنيرفا — كيلاً من زيت الزيتون مقابل نصف « صولدو »^(١) . وبالرغم من برودة الجو وهول الطاعون كان فى الجنازة جمع غفير . ولم يستطع البعض — حتى الغرباء منهم — حبس دموعهم حينما سمعوا قصة موت العروس الصغيرة ، وراحوا يتمتمون بجملة بترارك الحلوة

« يبدو الموت جميلاً على وجهها الجميل » .

وقد ألقى فرنسكو على قبرها رثاء مقتبساً ليس من اللاتينية فحسب ، بل من الإغريقية لأفلاطون وهو ميسرس ، وقد كان ذلك حدثاً جديداً فى هذه الأيام ، أخذ بالباب جميع المنصتين إليه حتى أولئك الذين لا يفهمون الإغريقية .

في هيكله الرجفة . ولما كان قليل الاختبار في مثل تلك الأمور ، ويعلم جيداً أنه حتى من خبروا هذه الحالات تطفئ على أذهانهم خيالات وأوهام ، حين ينفردون بجثة أثناء الليل . فقد عوّل على ألاّ يلقى بالآ إلى الأمر ، ورسم علامة الصليب ثم مضى يردد الصلاة بصوت جهورى طنان .

وانقطع صوت الراهب فجأة ، وتصلب مكانه ، وثبتت عيناه الجاحظتان على وجه الفتاة الميتة ، لم تكن هذه المرة زفرة ، بل أنين أتى من بين شفثيها . ولم يبق لدى الأخ ماريانو أدنى شك بعد ذلك ، إذ رأى صدر الفتاة يعلو ويهبط يبطء ، فهز الغطاء الشفاف الذى على وجهها ، كانت تنفس ، فرسم علامة الصليب وهو يرتعد من الرأس إلى القدم . ثم اندفع نحو الباب ، وقفز فصار خارج القبر . ولما استعاد نفسه بفعل الهواء البارد حمل ما حدث على الوهم والتخيل وعاد إلى الباب مستميداً بالعذراء ، ونظر إلى جوف المقبرة ؛ فانفجرت من بين شفثيه صرخة مفزعة . كانت الفتاة الميتة قد استوت جالسة في نعشها بعينين مفتوحتين ، فأسرع الأخ ماريانو يمدو عبر الجبانة دون أن يلتفت خلفه . ثم عبر ساحة سان جيوفانى ثم طريق « ريكاسولى » . فقط كان يُسمع وقع (صنّده) الخشبى على الشارع المرصوف المغطى بالثلج في سكون الليل الرهيب .

وعندما أفاقت جنيرفا المري من نومها ، أو من غيبوبتها التى تشبه الموت ، راحت تفحص نعشها بعينين يشع منهما الخجل ، وانبت فيهما الرعب حينما أدركت أنها دفنت حية . وبقوة يائسة قامت من نعشها وأحكمت أكفانها حول جسدها . ثم اتجهت إلى الباب الذى تركه الراهب مفتوحاً ، وخرجت إلى

الجبانة . ثم إلى الساحة أمام البكتدرائية . وكانت أشعة القمر تنساب من بين السحب السريعة التى كانت الرياح تمزقها شراً ممزق ، وبدأ برج « جيوتو » الرخامى في ضوء القمر منتصباً في ضلابة وشم . وكانت أفكار جنيرفا مرتبكة مضطربة ورأسها يتمايل ويترنح وقد خيل إليها أنها والبرج سيحملان إلى السحب المغمورة بضوء القمر . لم تدرك تماماً إذا ما كانت حية أو ميتة ، إذا ما كان هذا حلمًا أم يقظة .

وسارت على غير هدًى في شوارع مقفرة ساكنة . واسترعى بصرها بيت تعرفه ، فتوثقت ثم سارت إليه وطرقت الباب ، كان يت عمها ماتيو وبالرغم من هذه الساعة المتأخرة ، لم يكن تاجر الصوف قد آوى إلى فراشه . كان في انتظار رسول من القسطنطينية إثر إخطار أتاب . وقد كانت بضع إشاعات قد بلغت العم ماتيو تدور حول غرق سفن كثيرة على مقربة من ساحل « ليفورتو » وخشى أن تكون سفينتاها ضمنها ، وأحس وهو في انتظار رسوله بالجوع . فأمر خادمه « نينسيا » . — وهى فتاة جميلة ذات شعر أحمر وثنايا بيض سواحر — أن تجهز له ديكاً محمراً . وكان العم ماتيو غريباً عجوزاً وفي تلك الليلة كان يجلس في المطبخ بجوار النيران حيث كان البرد شديداً في بقية الحجرات . وكانت نينسيا تجهز الديك بوجه مورد وذراعين بمشتمرين : وكان لهيب النار ينعكس على الخبز البراق والأباريق للمسولة والصحون التى استوت على الرفوف . وقال ماتيو وهو يرهف السمع :

— نينسيا . أما سمعت شيئاً ؟

— إنها الريح . سوف لا أذهب . لقد أرسلتنى

إلى الخارج ثلاث مرات .

— وما ذلك بريح . امرؤ يطرق الباب . إنه الرسول . إذهي وافتحي الباب حالا .

فبدأت نينسيا المكتنزة تنزل الدرج الخشبي في تراخ وكسل بينما وقف العم ماتييو على رأس السلم ممسكاً بمصباح ينير لها السيل . وسألت الخادم

— من هناك ؟ ... فأجاب صوت خافت من وراء الباب :

— إنه ... إنه أنا جنيرفا ألرى ... فتمتمت الخادم في ذهن :

— يسوع .. يسو ...

وابتدأت ساقها ترتعدان ، ولتتقذ نفسها من السقوط تشبثت بسيج السلم ...

واصفر وجه ماتييو وسقط المصباح من يده . وتوصلت جنيرفا قائلة :

— نينسيا . نينسيا . افتحي الباب . أسرعى . دعيني أدق نفسي . إننى مقرورة أنبئى عمى أنه أنا وبالرغم من بدانة الخادم ، اندفعت نحو السلم تجرى عليه صاعدة حتى سمع للدرج صرير تحت قدميها :

— هو ذا رسولك الذى تنتظر . لقد أنبأتك أنه خير لك أن تذهب وتنام كمسيحي مؤمن ... أوه ! أوه ! يطرق ثانية ... أسمع ؟ إن الروح المسكين يئن ويتألم . كم هو مؤلم أئينه . آه يا إلهي ! أنقذنا وارحمنا نحن المذنبين صل من أجلنا أى قديسنا لورنس ... فقال ماتييو في تردد :

— اسمعى يا نينسيا . سأذهب لأرى ماذا هناك من يدري ... ربما ... فصرخت نينسيا وهى تشبك يديها :

— ماذا ستفعل أيضاً ... فكر فيه فقط ... يا للرجل الشجاع ! أو هل تظن أنى أدعك تذهب ؟

إنك ترتعد كما لو كنت ذاهباً إلى الآخرة ... هيه ؟ ليس ثمة فائدة من ذهابك . إبق هنا واحمد الله أن لم يحدث لنا أسوأ من هذا

وأخذت نينسيا زجاجة ملأى بالماء المقدس ورشت منها على الباب الخارجى وعلى أرض البيت والسلم والمطبخ ، وعلى ماتييو نفسه ... وأطاع الخادم ولم يُخَيِّب رجاءها ، زعماء منه أنها أكثر معرفة فى التصرف مع الأرواح . واستحلفت نينسيا الروح بصوت مرتفع قائلة :

— أيها الروح المبارك . إذهب بربك .. الموقى للموقى جعل الله مثواك دار الحق

فلما أن سمعت جنيرفا أنها خوطبت كأنها ميتة أدركت أنه ليس ثمة داع لبقائها هنا ، فهضت من جلستها على مدخل البيت حيث كانت قد سقطت إعياء ، وضربت فى الطريق تبحث عن مأوى

سارت بقدميها التجمدتين فى تم وإرهاق حتى وصلت إلى الشارع المجاور حيث يقوم منزل فرنسكو ديلاً جولانتي

كان سكرتير جمهورية فلورنسا فى هذا الوقت يكتب رسالة فلسفية باللاتينية إلى صديق له فى ميلانو يدعى ميشيو ديللو برتى كان مولماً هو أيضاً بالملاحم القديمة . كانت رسالته فى اللاهوت عنوانها :

« خطاب لذكرى الروح التى ارتبطت برابطة الموت ، روح زوجتى الحبيبة ، جنيرفا ألرى » . ومضى فرنسكو يقارن بين مذهب أرسطو ومذهب أفلاطون ، مُفَنِّداً وجهة نظر توماس أكويناس الذى يجزم بأن فلسفة أرسطو تتفق وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية من ناحية الجنة والنار ، بينما راح فرنسكو يدلل فى براءة ومنطق سليم أن أرسطو

كان في الخفاء شاكاً ملحداً وأن « أفلاطون »
المعجب الكبير بالآلهة هو الذي كان يتمشى مع تعاليم
الكنيسة المسيحية

وكان مصباحه الزيتي المثبت على مكتبه إلى جانب
غدد كبير من الأدراج ، وأقسام الورق والخبر ،
والأقلام ، يحترق في لهب هادئ لطيف . وكان
المصباح عبارة عن تمثال صغير « لتريتون^(١) » يعانق
إحدى غواني البحر ، وهذا يدل على ولع فرنسكو
طوال حياته باقتناء التحف التي على هيئة النماذج
القديمة وكان على المكتب أيضاً تماثيل من ذهب
تمثل رقص كيوييد ، وملائكة تحمل أكاليل من
زهور الجنة ينعكس بريقها على صفحات القراطيس
الناعمة كالحرير ، الصلبة كالعاج .

وكان فرنسكو يهتم بتحليل نقطة لاهوتية
من مذهب تقمص الأرواح . ويُلمَّح في حذق ،
ومهارة إلى مذهب « البيثاجوريان^(٢) » الذي يحرم
أكل البقول زعماء أنها تحتوي على أرواح الأولين -
عند ما سمع فجأة طرقة على الباب . فقطب حاجبيه ،
إذ كان لا يطيق أى إزعاج إبّان عمله . على أية ، فقد
ذهب إلى النافذة وفتحها ، ثم أطل منها إلى الشارع
وعلى ضوء القمر الشاحب رأى جيزفا ملتفة
في أكفانها .

ففسى فرنسكو أفلاطون وارسطاليس وأغلق
النافذة في سرعة حتى أن جيزفا لم تستطع أن تنبس
بكلمة واحدة . ثم ابتداء يردد صلاة العذراء ، ويرسم
علامة الصليب في رعب هائل مثل نينسيا ؛ بيد أنه

(١) تریتون : نصف إله ، أحد نأغى البوق من أتباع
نبتون إله البحار .

(٢) بيثاجوراس : فيلسوف إغريقى قديم عاش سنة
٥٢٢ ق م .

تمالك نفسه سريعاً . وخجل للرب الذي ران
على قلبه حينما تذكر ما قاله بلوتونيس الأسكندري ،
وبروكلس عن ظهور الموتى ، تمالك نفسه توا وأطل
من النافذة وقال في صوت ثابت :

— إذهب سواء أ كنت روحاً سماوياً أم روحاً
أرضياً . إذهب إلى حيث كنت لأنك تحاول عبثاً
أن تخيف ذلك الذى استنار عقله بالفلسفة الحققة .
قد تستطيع أن تخدع عيني الظاهرتين ؛ ولكن عبثاً
تحاول خداع عيني عقلي وإدراكي . إذهب بسلام .
الموتى للموتى . . .

ثم أغلق النافذة جامعا أمره ألا يفتحها ثانية
حتى ولو أقبلت فرقة بأكملها من الخيالات والأطياف
البائسة تقرر الباب .

فشرعت جنيفاً تضرب في السير . ولما كانت
على مقربة من السوق القديم فقد ألقت نفسها عند
مأوى أمها .

كانت مونا أرسولا جاثية أمام الصليب وبجوارها
وقف الراهب جيا كومو شاحب الوجه ضعيفاً واهناً
من أثر الصيام . فرفعت عينيها الجزعتين إليه وقالت :
— ماذا أصنع يا أبت ؟ ساعدنى . لا أحس
صبراً ولا خضوعاً . ولا أشعر فى نفسى برغبة إلى
الصلاة . يبدو أن الله خذلنى ، واجتوانى وهجرنى ،
وقضى على روحى بالهلاك . فقال الراهب يحتمها على
الصبر :

— أطيعى الله فى كل شئ حتى النهاية .
لا تذمرى . هدى من صوت جسدك المتمرد . فإن
حبك المحض لا يبتك إن هو إلا حب جسدى
لا روحى . ليس الحزن لأن جسدها مات . بل الحزن
لأنها مثلت أمام الله ولما تتب توبة صادقة . خطيئة

وهمت الأم مرة ثانية ومدت ذراعها نحو ابنتها
بيد أن الراهب ، في شحوب كاللوتى ، وقف حائلاً
بينهما ...

فسقطت جنيرفا على الأرض وأحست البرد يكاد
يقتلها . وعقدت يديها حول ركبتيها ونكست رأسها
ثم عقدت النية ألا تقوم ثانية ولا تتحرك حتى
تموت ... ومضت تفكر « ليس للموتى أن يعودوا
إلى الأحياء » ثم ذكرت أنتونيو فقالت في نفسها :
« أيمحتمل أن ينبذنى أيضاً ؟ » ... لقد فكرت فيه
من قبل ؛ ولكنها شعرت بالحجل يطنى عليها ،
إذ أنها لم تشأ أن تذهب إليه ليلاً بمفردها وهي
ذات بعل ... ولكنها الآن ميتة أمام الأحياء

واختفى القمر ، واكتست الجبال بالثلج ،
وانتصبت شاحبة أمام الصبح السافر . ومن مجلسها
في مدخل بيت أمها وقفت جنيرفا ، ثم اتجهت إلى
بيت غريب بعد إذ ضاقت بها بيوت الأهل والأقارب
وكان أنتونيو قد قضى الليل كله في صنع تمثال
من الشمع لجنيرفا . لم ينتبه إلى مرور الوقت وكيف
تسرب الضوء البارد ، ضوء صباح الشتاء الأزرق ،
إلى الغرفة من خلال النافذة . وكان يساعده في عمله
تلميذه المقرب بارتولينو وهو شاب فى السابعة عشرة
من عمره ذو شعر ناعم ووجه كوجوه الفتيات
وكان وجه المثال هادئاً . خيل إليه أنه يعيد
الحياة إلى المائتة ويهبها بقاء جديداً . وبدت الجفون
كأنها ستهتز وتنفث ، والصدر كأنه سيملو ويهبط
وكان الدم الحار يتدفق فى عروقها الجميلة
وانتهى من عمله ؛ وبينما كان يحاول أن يرسم
على شفتي تمثال جنيرفا ابتسامة طاهرة ، إذ سمع
طرقاً على الباب . فقال دون أن يترك عمله :

— بارتولينو ! افتح الباب

فذهب التلميذ إلى الباب وسأل :

كبرى وذنب عظيم . وفى تلك اللحظة سمع طرق
على الباب :

— أمى . أمى . افتحى سريعاً . إنه أنا . دعبنى
أدخل . أسرعى
— جنيرفا !

قالتها مونا أرسولا فى دهشة عنيفة وهمت
بالاندفاع نحو بنتها . ولكن الراهب تصدى لها :

— أين تذهبين ؟ إن ابنتك الآن فى قبرها
ميتة ... ولن تقوم حتى يوم الحساب . إن هذا
إلا الروح الشريرة نخدعك بصوت ابنتك . بصوت
جسدك ودمك . توبى وصلى . صلى قبل أن يفوت
الأوان وتولى الفرصة . صلى من أجل نفسك وروح
جنيرفا الخاطئة . هذا ما ينتقذكما من الخسران المبين
— أمى . ألا تسمعين ، ألا تعرفين صوتى ؟
إنه أنا . إنى على قيد الحياة ... لست ميتة !

— دعنى أذهب إليها ، أى أبى . دعنى
— اذهبي . ولتعلمى أنك بذلك لا تعرضين
نفسك للهلاك فحسب ، بل روح جنيرفا أيضاً ...
عليك لعنة الله فى الدنيا والآخرة

وامتلاً وجه القس بآيات البغض الشديد وتوجهت
عيناه يريق من النار غريب ، مما جعل مونا أرسولا
تقف خائفة وجلّة . ثم شبكت يديها وجشت تحت
قدميه تصلى

فاتجه الراهب جيا كومت نحو الباب ورسم إشارة
الصليب وقال :

— باسم الأب والإبن والروح القدس ...
أستحلفك بدم المسيح الذى صلب أن تحتنى ... أن
تذهبي أيتها الملعونة . إنها أرض مقدسة . أى إلهى
لا تقدنا إلى الغواية والضلال بل خلصنا من السوء
والوبال ...

— أمى ... أمى ... رحمة نى ... إنى أموت

— من هناك ؟

فأجابه صوت كصوت نسيم المساء لا يكاد يسمع :

— أنا جنيرفا أرى

قفز بارتولينو إلى أقصى مكان في الغرفة شاحباً
مرتعداً ، وراح يهمهم وهو يرسم علامة الصليب :
« الميتة ... ! »

يسد أن أنتونيو عرف صوت حبيبته فاندفع
إلى بارتولينو وخطف منه المفتاح خطفاً فعاجله التلميذ
قائلاً وأسنانها تصطك :

— فكر في نفسك يا أنتونيو . ماذا أنت صانع ؟
فأسرع أنتونيو نحو الباب وفتحه ؛ فالتفت جنيرفا
ملقاة على عتبته كأنها جثة هامدة ، وقد تجمد الطل
على خصلات شعرها الناعم ، ولكنه لم يحس أى
خوف إذ كان قلبه مفعماً بحنو شديد . انحنى فوقها
تتناثر كلمات الحب من فيه . ثم حملها وعاد إلى مثواه .
أرقدها على بضع وسائد وغطاها بأحسن غطاء
لديه ، ثم بعث بارتولينو إلى السيدة المعجوز التي
استأجر منها غرفة عمله . ثم أوقد ناراً في الموقد وأدفاً
عليها بعض الخمر وسقاها منه قطرات . فتنفست بعد
ذلك في راحة وسهولة وهي وإن كانت لم تستطع
الكلام ، إلا أنها فتحت عينيها . فامتأ قلب أنتونيو
بالفرح ، وقال لها وهو يذرع الغرفة غدوا ورواحا :
— ستقبل المرأة حالاً ، لقد دبرت بكل شيء .
فقط اغفري لي تلك الفوضى التي ترين ياسيديتي جنيرفا
وأزل أنتونيو السلة خجلان حيران وأخرج
منها بعض المال ناوله بارتولينو وأخبره أن يسرع
إلى السوق ليشتري لحماً وخبزاً وخضراً لطعام الإفطار .
ولما أقبلت المرأة المعجوز ، أمرها أن تهيب حساء
فروج ساخن

وأسرع التلميذ إلى السوق بأسرع ما في مكنه ،
بينما ذهبت المعجوز تذبح فروجاً وبقى أنتونيو مع جنيرفا

وحده . فنادته ، فلما جثا بجوارها حدثته بكل ما مر بها
من حوادث ، ثم عقببت قائلة :

— أوه يا عزيزي ! أنت وحدك الذي لم تخف
حينما جئت ميتة . أنت وحدك الذي يحبني حباً صادقاً
فسألها أنتونيو : هل أستاذى أهلك ؟ عمك ،
وأهلك ، أو زوجك ؟

— ليس لي أهل . ليس لي زوج ولا عم ولا أم .
إنهم جميعاً غرباء إلا ليالك . إنني ميتة في نظرهم ...
ولكنني على قيد الحياة في نظرك أنت ... وأنا لك .
وبدأت أشعة الشمس الأولى تنصب في الحجرة
فتبسمت له جنيرفا . وكان لون الحياة ينفذ إلى خديها
كلما ترجلت الشمس . وجرى الدم حاراً في عروقها
وحينما انحنى أنتونيو عليها ، وضمها إليه وقبلها
في ثغرها ، أحست كأن الشمس تعيد إليها الحياة ،
وتهبها حياة أخرى خالدة . وهمست تقول له :
— أنتونيو ! تبارك الموت الذي علمنا الحب .
تبارك الحب . إنه أقوى من الموت .

محمد عبد الفتاح محمد

صدر كتاب

قافلة الأيام

بمجموعة من القصص المصرية الحديثة

تأليف

عبد اللطيف إكيد

يباع بخمسة قروش بجميع المكتبات بالعالم العربي
وبمكتبة النهضة المصرية

حَاجِي بَابَا إِيصِفْهُ بَانِي

لِلْكَاتِبِ الْأَنْجَلِيَّيْ جِهْرَمُورْ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ عَبْدِ الْلطِيفِ النَّشَارِ

الفصل الثاني والسبعون

مادة في الطريق - حاجي بابا يمر
في نصيرة عثمان أغا تعزية وسلاوا

خرجت من المنزل لا ألوي على شيء وأسرعت
في مشيتي وظللت مدة لا أشعر بشيء ولا أسمع حتى
ولا وقع قدمي إذ كنت مشوش الأفكار مهموماً
محزوناً أحس باللوعة تكاد تمزق صدري وبالأسي
يوشك أن يفتت كبدي . وحين وقع نظري على البحر
جعلت أقول : « إن من الحكمة أن ألقى بنفسى فيه »
غير أنى أثناء اجتيازي ميداناً فسيحاً من ميادين المدينة
رأيت حادثاً كان له رغم تفاهته أثر عظيم في نفسى
إلى حد أنه غير مجرى أفكارى وأنقذنى من الانتحار
وقفت أشاهد معركة من معارك الكلاب
مما يكثر وقوعه في شوارع الأستانة فتسلل كلب
إلى حظيرة جماعة من الكلاب واعتدى على حقوقها
بأن سرق قطعة عظم ونجس بها . وتبع ذلك عواء
شديد ونباح وانطلقت الكلاب جميعاً وكادوا يصلون
إليه . وهنا تصادف أن قابل الكلب السارق بعض
رفاقه فطلب منهم المعونة ورجع بهم إلى مهاجرة
مطارديه وبذلك بدأت المعركة

وقد خطر لى خاطر أثناء وقوفى أشهد هذا المنظر
فقلت : « يارب ما أعظم قدرتك وأحكم إرادتك

وما أقل عقل من يندم على شيء أنت أردته
وقدرته ! يارب لقد شئت قدرتك أن أمر
من هنا لأتعلم درساً ولأعلم الطريق الذى
يجب اتباعه . إن المعونة والمساعدة في متناول
الذى يطلبها . ذلك هو الدرس ، وإنى لتبعمه
إن شاء الله رغم أن الكلب هو الذى
علمنيه . نعم يجب أن نعجب من حكمة تآنى بها
الحيوانات ويفوت الأدب إدراكها ، فلن أدع اليأس
يتسلط على وسأبحث عن صديق أجد العزاء والسلاوان
في تجاربه كما رأيت هذا الكلب يفعل الآن
واتجهت خطواتى إلى حيث كان صديق الأمين
ومرشدى وناصحى الشيخ عثمان أغا فهو على الرغم
من كونه تركياً كان يعاملنى كما لو كان مواطناً لى
ومشاركاً لى فى عقيدتى

استقبلنى فى سكون وهدأة كمادته ، وحين قصصت
عليه بلاوى صمد نفساً طويلاً من غليونه الذى لا يفارقه
وتنهت قائلاً : « الله كريم ! » ثم قال لى : « اعلم
يا صديق أنك حين حضرت إلينا بكل ما عليك من
مظاهر النعمة ودلائل الثراء والغنى ورآك مواطناً
كذلك تنبأت لك منذ تلك اللحظة بضربة تصيبك
ومصيبة تحل بك ... إنك لا تزال صغيراً ولم تحمل
على كتفك من الأعوام الطويلة والتجارب القاسية
مثل الذى أحمل ، فأنت لا تدرك أثر النعمة الحادثة
فى نفوس الأشقياء الناكيد ... أ كنت تتصور
أن قوماً من طبقتك فى الحياة يرزحون تحت ما يعانونه
من العمل المتواصل والكد العنيف لا يعتمدون
فى رزقهم إلا على قسبة تبغ يبيعونها أو كيس تبغ
شيرازى يتجرون فيه ، أ كنت تحسبهم يطبقون
أن يروا زميلاً عليه من مظاهر الغنى ما لم يتصوروه

فقلت له : « قد يكون حقاً ما ظننت ، وقد يكون الأمر قد انتهى ونفذ السهم وليس لنا غير السكون والصبر ؛ غير أنني مسلم يا صديقي أعتقد في عدل الله ولم أسمع قط أن امرأة طردت زوجها من بيتها وإن كان العكس كثير الشيوع . ولست أعلم ولا أستطيع أن أعلم بأي حق تقبلني هذه السيدة زوجاً ثم لا تليث أن تطردني من منزلها في هيئة تحجل الكلاب . إنها امرأة خبيثة سرها أن تعاشرنى في الصباح ثم تهجرني في المساء »

إن في المدينة قضاة وشيوخ إسلام كما هي الحال في كل بلد إسلامي فلماذا لا أرفع مظمتي إليهم ؟ إنهم يقبضون مرتباتهم لإقامة العدل ورد المظالم فكيف يجلسون مطمئنين إذا سمحوا بمثل مظمتي ولم يردوا العدل إلى نصابه ؟ إنني باحث بإذن الله عن حق »

فقال صديقي عثمان أغا : « هل جنت يا حاجي بابا حتى تطلب مقاضاة أرملة أمير من أعظم أمراء الإسلام ، بينما يحميها أخواها وها تاجران من أغنى تجار الآستانة ؟ أين عشت كل حياتك حتى لا تعلم أن الذهب والمال هما الحق والعدل ؟ إنك لو ظهرت أمام المحكمة تطالب بحقوقك ومعك ما شئت من حجج وبراهين ووقف أمامك صهرك بماله وجاهه ، هل تشك في أن الحق يكون في جانبه ؟ »

فقلت متأوهاً : « إرحمني يا أرحم الراحمين ! هل ضاع العدل وفقد الناس الدم ؟ بلئس عالماً هذا شأنه ! إنني لا أستطيع أن أنزل عن حقوق وسأطالب بها » وجعلت من يأسى وحسرتى أبكى بكاء مرأاً وأنتحب نحيماً شديداً وجلست من يأسى وحسرتى أبكى وأنتحب ونزعت بعض شعرات من لحيتي فحاول عثمان أغا أن يهدي من زوعي وبسكني من هياجني

في أحلامهم أو يتخيلاه طول أيامهم ؟ إنك لو كنت تفوقهم حذقاً أو تبزهم مقدرة وعزماً ثم ظهرت أمامهم بلباس أحسن من لباسهم وحال أنعم من حالهم ، أو رأوك تمتطي الجياد وقد اعتادوا ركوب الخيل لهان الأمر ولما أوغرت صدورهم وأثرت حزازات نفوسهم . ولكن الذي أوقد نيران الحسد وأشعل لهيب الضغينة ظهورك بملابسك الأنيقة وجليونك المذهب وجوادك المطهين بين خدمك وحشمك وما كنت فيه من عظمة وكبرياء وعجب وخيلاء . وإن ذلك كله كان مفاجأة لم يسبقها امتياز لك عليهم ولا تدرج في التفاوت بينك وبينهم فأذلتهم بذلك وحطمت عزائمهم فلم يحتملوا الأمر وحقدوا عليك ووطدوا العزم على إرجاعك - إن أمكنهم - إلى حالتك الأولى ، فمن الجلي أنهم هم الذين أسروا إلى أصهارك أنك لست بالتاجر البغدادي ولكنك ابن حلاق في أصفهان وأنك بائع سلع حقيرة

ولم يشك أصهارك في صدقهم بسبب الريبة التي كانت تحوم حولك ولتلاعبك في عقد الزواج وحيرتك في تحديد ثروتك . ومن الواضح أيضاً أن أصهارك أدركوا كذبك فيما ادعيت من شرف الأصل وكرم المنبت وسعة الثروة ، فمن متاجر في بخارى إلى مزركب تسبح في بحار الصين . ولو كنت ظهرت أولاً في غير جلبة ولا ضوضاء بمظهرك الحقيقي لكنت نصحت لك وحذرتك من الظهور أمام أبناء بلدك بشيء يدل على النعمة أو ينم على الغنى . ولكن الأمر انتهى ووقع المقدور ولا حيلة لنا اليوم فيما حدث . وكل ما أوصيك به الآن أن تتعلم من ماضيك ما ينفعك في مستقبلك »

وبعد أن انتهى الرجل من حديثه عاد إلى غليونه

ولما تكلمت معهم أدركوا أنني واحد منهم رغم ملابسي التركية ، ووعدوني أن يدخلوني إلى سيدم من غير عناء .

غير أنني كنت أريد قبل أن أدخل إلى السفير أن أعلم شيئاً من طباعه وأحواله حتى أستطيع أن أظهر أمامه بالشكل الذي يريد ، وأحادثه باللغة التي يحب .

لذلك تحدثت مع أحد الأتباع من غير حذر أو مواربة عن كل ما أستفهم عنه ، وكانت نتيجة حديثي أنني علمت أن السفير اسمه فيروز ، وقد ولد في شيراز من أبوين محترمين ، ولو أنهما ليسا من عليّة القوم خلا أمه التي كانت شقيقة وزير قديم ذي سطوة وجاه ، والذي كان السبب في ارتقاء الشاه إلى العرش .

وتزوج السفير من ابنة خاله الوزير المذكور ، وساعده ذلك الزواج أن ينال مركزاً في الحكومة وكان قبل ذلك قد مارس عدة شؤون جعلته يزور كثيراً من الممالك ، ونتج عن ذلك أن اختاره الشاه وزيراً لشؤنه الخارجية .

ثم قال : « إنه رجل ذكي القلب سريع الخاطر جبار العقل سريع الغضب غير أنه مع غضبه كثير التسامح ولو أنه حين يغضب لا يسلم المرء من شدته وقد وهبه الله ملكة الخطابة والتأثير ، وبها استطاع أن ينجو في مركزه من أية ورطة يقوده إليها مركزه وحدة طبيعه ، وهو يماثل خدمه وحاشيته بالحلم والرفقة أحياناً وأحياناً بالشدّة والقسوة فيسمح لهم في بعض الأحيان أن يقولوا ما يشاؤون في حضرته ، وفي البعض الآخر لا يجرؤ أحد أن يقترب منه ، ولكنه يقلب عليه التبسط في الحديث

فأخذ يذكّرني بحياتي الماضية وبحوادثنا وما شاهدناه أثناء سجننا لدى التركمان وقال لي : « إن الله قادر وحليم وكل ما يصيبنا في حياتنا فهو مكتوب مقدر فليس لنا إلا الرضوخ لما قدر علينا »

نخطر لي خاطر جديد وقلت : « ولكنني إراني فكيف أقبل ظمأ من تركي ؟ إننا أمة عظيمة لها تاريخها وعظمتها من عهد جنكيز خان وتيمور خان ونادر خان الذين رفعوا شأننا وأذاعوا فضلنا بين العالمين ، والذين قتلوا رجال الترك ونهبوا ديارهم أينما وجدوهم . سأسى إلى سفيرنا وأقص عليه الأمر . فإن كان رجلاً شهماً رد لي حقوق من مقتصبها . نعم . نعم . إن السفير سيرد زوجي إليّ . ما أحسن هذا الخاطر وأطيبه ! ثم سنرى من يستطيع أخذها مني ثانياً » .

وكنيت قد تشبعت بهذا الخاطر ، وامتلأت به نفسي حتى لم أقف لأسمع ما يقول عثمان أغا في الموضوع وانطلقت ممتلئاً نشاطاً وإقداماً أسى إلى ممثل ملكنا الأعظم الذي كان لحسن الحظ قد وصل قريباً في شأن من شئون الدولة مع الباب العالي .

الفصل الثالث والسبعون

عشره على صديق - بعض أعيان ميرزا فيروز

علمت أن السفير يقطن في حي اسكوتاري . فیممت ذلك الحى ، وجعلت أرتب أفكارى وأنظم خواطرى لأقدم للسفير مظلة جديدة بالاهتمام . وبعد أن نزلت من القارب سألت عن منزل السفير . فلما وصلت إليه رأيت حديقة حافلة بالأتباع والخدم ، وقد ذكروني بموطنى الذى يختلف كثيراً عن البلاد التركية بما بدا لي من ملاحظهم وسرعة حركتهم .

والرقة واللين وحب المزاح .

ذلك هو الرجل الذي قادوني إليه . وقد رأيته جالساً في أحد أركان الغرفة كمادة أهل إيران ، وبسبب جلوسه لم أعرف أطويل هو أم قصير ... غير أن وجهه كان من أجل الوجوه ، وهو عريض الكتفين ، عريض الصدر ، أفتى الأنف ، واسع العينين مثاليهما ، جميل الفم جذاب ، له لحية يحسده الراؤون عليها . وكان مثلاً للجمال الفارسي ، وبعد أن تبادلنا السلام قال لي : « هل أنت إيراني ؟ » فقلت : « نعم » .

قال : « إذن لم تتزيا بالزى المماني ؟ إن لنا بحمد الله ملكاً ودولة لا يخجل من الانتماء إليهما أي إنسان » .

فأجبت : « لقد قلت حقاً . ولما لبست ثياب الأتراك وتشبهت بهم صرت أحقر من كلب ورأيت أيام بؤس لا توصف ، وتفتت كبدي أسى حيث اختلطت بهؤلاء القوم الملاحين ، وليس لي من حام غير الله وغيرك » .

فقال لي : « وكيف ذلك ؟ تكلم ! هل نال أحداً أصفهانين ، إذ يظهر من لهجتك أنك أصفهاني ، ضرر أو أذى من تركي ؟ عجيب هذا والله ! إننا ما حضرنا إلى هنا ، وما قطعنا كل هذه المسافات الشاسعة إلا لنذيقهم العذاب لا لكي يمدبونا » .

قصصت عليه كل أمري منذ البدء إلى النهاية وكنت كلما تقدمت في الرواية ازداد هو إقبالاً على وانسراحاً بحديثي إلى أن وصلت إلى قصة زواجي فأخذ يضحك ضحكا عالياً متواصلاً من الرواية التي رويتها عن زوجتي ، وقد سره ما أخبرته به من أمر الوليمة التي أقمتها والاحترام الذي قوبلت به وأبهتي

وعظمتي اللتين ظهرت بهما ، وكنت كلما ذكرت شيئاً من خديعتي لمجول الأتراك (كما كان يسميهم السفير) وغشى لهم زاد سروره وانسراحه وكثر ضحكه وأخذ يقاطعني بقوله : « بارك الله فيك يا أصفهاني ! بارك الله في ذكائك أيها الفيلس ! والله لو كنت في مكانك ما صنعت خيراً مما تصنع »

ولكنني حين قصصت عليه ما فعله مواطني من حسد وضمينتهم وما تم أخيراً في منزلي ، والشتائم التي انتهت علي من النسوة وأقارب زوجتي . وحين مثلت له حالتي حين خرجت من المنزل رأيته بدل أن يظهر الشفقة والأسى لما نالني أخذ يضحك ويتمايل من شدة الضحك وقد احمر وجهه وانتفخت عروق جبهته ولم يلبث أن استلقى على وسادته من تأثير الضحك الشديد

فقلت له : « أتوصل إليك ياسيدي أن تفكر في مركزي الحاضر . لقد كنت أنام على فراش من ورد فأصبحت لا أجدي ما أتوسده . وكنت أمتطي خير الجياد فأصبحت أعني أن يكون لي حمار حقير

إنني حين أتصور ما كان لي من ثروة وغنى ، من ثياب فاخرة وخدم وحشم وحمامات من رخام وغلايين وفناجين وكل ما يمكن أن يشتهي المرء ، ثم أرى نفسي اليوم لا أملك ما أتباع به ؛ حين أتصور ذلك أعاني حسرة أية حسرة ! وأكابد لوعة أية لوعة ! إن هذه الذكريات لتثير كل شعور في نفسي إلا السرور ، وتحدث كل شيء بنفسى إلا الضحك مهما يكن تأثيرها في نفسك »

فصاح السفير ضاحكاً : « إن هؤلاء الأتراك معانيه وإنني أتخيلهم الآن باحاطم الطويلة ورؤوسهم الصلحاء ، وقد انطلت عليهم رواية الإيراني الخبيث وأكاذيبه . ولولا أن أبلغهم الأمر فارسيون من

كثير الهم والتفكير، فأمالى من حيث الحياة الناعمة والعيش الطيب قد ذهبت أدراج الرياح ورأيت نفسى مضطراً إلى الكد والنصب لأحصل على ما يقوم بأمورى

وأخيراً قلت لنفسى : « لئن فقدت المنزل فقد عثرت على صديق وليس من العقل أن أرفض حمايته ولا شك أن العناية التى حفظتنى والقدر الذى سدد خطواتى سيتمهداننى فى مستقبلى وقد أصل يوماً من الأيام إذا شاءت المقادير إلى حالة لا أقلق معها على الحياة »

وصممت على التقرب من السفير ، وسرنى أن رأيت أن البشاشة التى أظهرها عند أول مقابلة قد زادت ، وكثر عطفه علىّ مع توالى الأيام . وقد استفاد السفير منى إذ جعلنى أستطلع له الأخبار ، وأودى له خدمات حكومية ، وأخرى خاصة بمهمته التى جاء من أجلها .

وشغلنى عن البحث فى مستقبلى الاهتمام بالحوادث العامة ، والأمور الخارجية ، وكنت لا أعرف عن الأمم من قبل غير أمتى وأمة الترك ، وأسماء بعض الأمم الأخرى مثل الصين والهند والأفغان والتاتار والكرد . وكنت أعرف العرب كذلك ، وأعرف من الأفريقيين بعض أجناس كنت أراهم يخدمون فى منازلنا .

وعرفت من الفرنج الروسين (إذا كان هذا هو اسمهم) وقد كنا كثيراً ما نرى بعض رجالهم فى إيران . وسمعت عن الإنكليز والفرنسيين .

فلما دخلت إلى الأستانة دهشت إذ سمعت بوجود أجناس أخرى من الفرنج غير الثلاثة الأجناس التى ذكرتها ، ولكننى كنت مشغولاً بأمورى الخاصة

جنسه لظلموا فى عمايتهم ولما خامرهم شك ولا رية . ثم قال لى : ماذا أستطيع أن أعمل ؟ لست والدك ولا عمك لآتدخل فى أمر زواجك ، وأقنع أهل زوجتك ، ولست قاضياً ولا مفتياً لأفصل فى موضوعك .

فأجبت : « نعم . لست واحداً ممن ذكرت غير أنك حاميّ هنا ونصيرى ، وأنت تمثل ظل الله على الأرض فلا تتخلّ عني ولا تسمح باضطهاد يصيب مسكيناً غريباً مثلى »

فقال لى : « هل ترغب فى استرجاع زوجتك على أن تظل عرضة للقتل فى كل لحظة ؟ ماذا يفيدك الغنى والثروة والجاه والسطوة إذا وجدوك قتيلاً فى صبيحة اليوم الذى تستردها فيه ؟ كلا ! كلا ! كن عاقلاً وأصغ إلى قولى واستمع لنصحى . ألق كل ما عليك من ملابس الأتراك وارجع كما كنت فارسياً . فإذا ما استعدت شكلك الأول فكرت فى أمرك ، وفيما يجب أن أعمل من أجلك . لقد أطربتنى قصتك وأعجبنى ذكاؤك وفطنتك وصدقنى أن فى الحياة ما يفوق النوم على فراش من ورد ، والتدخين طول اليوم فى قسبة تبغ أو ركوب جواد ضخم فالبت هنا وإذا اشتقت يوماً إلى اللهو والضحك أحضرتك لتقص علىّ قصتك ثانياً » .

وعند ذلك قمت فقبلت أطراف ثيابه شاكرًا فضله . وتراجعت غير عالم بما يكون من أمرى فى حالتى هذه .

الفصل الرابع والسبعون

هابى بابا بمورد تقة السفير

لقد قيل إن الحاجة لجواد يمدو براكه فيصل إلى ما لا يصل إليه الجواد السابق . وكنت قلقاً

فلم ألتفت كثيراً إلى ما يختص بهذه الأجناس .
فلما انضمت إلى أتباع السفير ، وضرت في
معيته سمعت عن أشياء لم تكن تخاطر بيالي من قبل .
وسر السفير إذ علم أنني أسعى إلى مرضاته ، وانتهى
أمره بأن منحني ثقته التامة .

ففي صباح أحد الأيام بعد أن تسلم رسائله
الرسمية ، أرسل في طلبي وقال : إنه يريد محادثتي
على انفراد في أمر هام . وأمر كل من كان موجوداً
بالانصراف وأجلسني . ثم قال لي بصوت منخفض :
« يا حاجي بابا . إنني أريد أن أحادثك . فإن القوم
الذين تتكون منهم معيتي لا يفقهون ما أريد . وهم
فارسيون أذكاء إلا أنهم لا يدركون من شئون
الدولة شيئاً ، ويمطلون الأعمال التي حضرت من
أجلها أكثر مما يساعدوني على إنجازها . غير أنني
والحمد لله قد وجدت فيك الرجل الذي أطلب . فأنت
فوق هؤلاء الرجال خبرة ودراية ، وقد رأيت من
العالم وحوادثه وتجاريه فوق ما رأوا ، ويمكن
الاستفادة بك . إنك تستطيع أن تضحك من
الدقون ، وتستخرج لباب الأمور من غير أن تلمس
ظواهرها . وأنا في احتياج إلى رجل مثلك . فإن
أخلصت لي وللشاه ملك الملوك كان ذلك سبباً في
رفعنا سوياً ، وفي ارتقائنا وعظمتنا » .

فقلت له : « إنني وما أملك من قوة ونشاط
رهن إشارتك . فما أنا غير عبدك وخادمك ، وليس
على سيدي السفير إلا أن يأمر فيطاع أمره على الرأس
والعين » .

فقال السفير : « قد يكون وصل إلى سمك مما
تداوله الألسن أن مهمتي التي قد جئت من أجلها
هي شراء الرقيق للشاه من نسوة بارعات في الرقص

والعزف على آلات الطرب وغير ذلك من الشئون
المنزلية ، وأن اشترى للحزم الملكي حرائر ورياشاً
وبذائع وطفافس ... لقد أشعبنا ذلك لتضليل الجمهور
وإخفاء غرضنا الحقيقي ، فلم يرسلني الشاه لأمثال
هذه السخافات بل حضرت في غرض أهم وأشرف
مما ذكرت . حضرت في مهمة فوق ما تتصور .
ولا ينتخب الشاه مثلها إلا الذكي الحصيف ، وقد وقع
اختياره عليّ فأرهدف سمك لما أقول . منذ بضعة
أشهر وصل إلى طهران عاصمة إيران سفير من أوروبا
قال : إن الذي أوفده هو امبراطور اسمه نابليون
بونابرت شاه الفرنسيين . وقال إنه يحمل رسالة وهدايا
للالشاه وتحدث ذلك السفير كثيراً عن قوة الامبراطور
وأعماله وصفاته ، وأكد رغبة سيده في عقد محالفة
مع الشاه . وقال السفير : إن لديه من التعليمات
ما يخوله عقد المحالفة ، وظهر في كلامه وحركاته
بمظهر عظيم حقاً ، وصرح بأن باقي الأمم الأوربية
أى أمم الفرنج ليست إلا مواطليّ لقدمه لا تستحق
منه أى اعتبار ووعدنا السفير بأن يتخلى لنا الروس
عما فتحوه في جرجان ، وأن يعيد إلى الشاه تفليس
وغيرها من المدن التي كانت للفرس في الزمن الماضي
وقال إنه سيفتح الهند ويطرد منها الانكليز ، وأنه
يهبنا كل ما نطلبه ونصبو إليه نفوسنا .

وقد كنا سمعنا عن الفرنسيين أنهم يجيدون غزل
الأنفشة وبضع صناعات أخرى غير أننا لم نكن نعلم
أن في استطاعتهم تنفيذ ما كان يدعيه ذلك السفير .
وسمنا فوق ذلك شيئاً من أخبار هجومهم على مصر
إذ ارتفعت على أثر ذلك الهجوم أثمان البن والحناء .
وذكر أحد العظماء سفيراً فرنسياً من قبل ملك فرنسا
لويس ولكن أجداً منا لم يعلم أن ذلك البونابرت

عرشي ويقبل على أهل الشمال والجنوب وسكان الغرب والشرق ويقدمون إلى الهدايا والنفائس ، لأسمح لهم بالمقاتلة تحت قدمي فليتقدم منهم من يتقدم وليفد على منهم من يفد فآله معنا .

وعند ما تركت باب الشاه كانت فارس تنتظر قدوم سفير إنكليزي . والخطابات التي تسلمتها الآن تنبئ بأخبار طلبه السماح له بالمقاتلة والمحاربات الدائرة بهذا الشأن غير أن الشاه لا يستطيع البت في الأمر قبل أن تصله أخباري لأنه حين علم أن في الآستانة كل الأجناس الأوربية وأن لكل أمة سفيراً فيها رأى جلالته بما له من الحكمة وسداد الرأي أن يعثني إلى هنا لأحصل له على المعلومات التي نحن في حاجة إليها حتى يزول من فارس كل ريب يتعلق بالفرنسيين والإنكليز وحتى أعلم إذا تمكنت حقيقة ما قالوه عن أنفسهم .

وقد رأيت يا حاجي بابا أنني رجل واحد هنا والعمل الذي كلفت به يحتاج إلى أكثر من خمسين رجلاً فالفرنج أمم مختلفة وأجناس لا عداد لها كما لاحظت هنا من تباين اللغات واختلاف السحن واللهجات، وقد أخبرتك أن رجال حاشيتي لاخبر فيهم ولا منفعة منهم في مثل أبحاثي فوقع اختيارى عليك . وها نذا أنتظر نتاج مجهودك وثمرة أبحاثك ويجب أن تتعرف على بعض هؤلاء الكفار . ولعرفتك باللغة التركية تستطيع أن تستعلم منهم عن كثير ممن نود . وسأنتقل لك نسخة من تعليمات الشاه في هذا الصدد ويجب أن تحفي هذه التعليمات في أبعد مكان من عقلك غير أنك تسير على مقتضاها فاذهب الآن إلى أن أستحضر لك هذه الأوامر واجلس في مكان منفرد وفكر طويلاً فيما يجب أن تتبعه من الطرق وتتخذ من الوسائل .

قد صار ملكاً على فرنسا . وعلمنا من تجار الأرمن الذين طافوا بلاد العالم بوجود رجل بهذا الاسم وبأنه مثير هياج ومسبب شغب وقلق . وقد قبل الشاه بسبب ما علمه من هؤلاء التجار وبسبب ظروف أخرى أن يسمح للسفير بالثول بين يديه . غير أن أحداً من الناس لم يستطع أن يعرف إن كانت الرسائل التي أحضرها ذلك السفير مكتوبة بخط يمكن تفسيره أو لا يمكن وأن ما قاله السفير كان حقاً أو باطلاً، فأعيا الأمر وزراءنا كبريم وصغيرهم ولم يستطع الشاه أن يدرك شيئاً رغم علمه الواسع بكل ما تقع عليه أشعة الشمس وإذا استثنينا « الخواجة عبيد » الأرمني الذي كان قد وصل إلى مرسيليا وهي بلدة في فرنسا وظل فيها سجيناً أربعين يوماً ، وإذا استثنينا كذلك « تاسيس » القس الفرنسي الذي تلقى العلم مع الدراويش في جهة من جهات تلك الممالك المجهولة . إذا استثنينا هذين الرجلين لم نجد يباب الشاه من يستطيع إرشادنا أو يلقى على ظلمات عقولنا شيئاً من النور أو يستطيع على الأقل أن يخبرنا إذا كان هذا البونابرت وسفيره محتالين أو صادقين ؟ وهل جاءنا السفير لينهب بلادنا أو ليرفع من شأننا ؟ ثم لم تطل حيرتنا فإن الإنكليز الذين كانوا يتجرون بين الهند وإيران ويقطن بعضهم في « بوشير » حين علموا بمجيء ذلك السفير أرسلوا إلينا الرسل والرسائل وبمثوا بعامل منهم يحثنا على عدم السماح لذلك السفير بالتقرب منا وحاولوا كثيراً أن يمنموا تقدمه ونجاحه حتى أدركنا أننا نستطيع الاستفادة كثيراً من هذا النزاع بين الإنكليز والفرنسيين

وقد قال الشاه : « وعزتي وتاجي إن العناية الإلهية هي التي أحدثت ما حدث . إنني أجلس على

وبعد ذلك أمرني بالانصراف فتركته وخرجت
وقد فتح أمامي طريق جديد من طرق الحياة

الفصل الخامس والسبعون

ميرود مايجي بابا في الحياة العامة ونفعه لمحدومه

خرجت بعد أن أعطاني السفير صورة من تعليمات
الشاه وعمت مقبرة مجاورة لآتولها على انفراد بهدأة
وسكون وقد أقيت الورقة ملفوفة في طيات عمامتي،
ولأن هذا العمل كان أول عمل لي في الحياة العامة
فقد ظلت محتوياتها منقوشة في ذهني بآبئة في غيظتي
وكان أول أبحاث السفير متجهاً إلى معرفة
حقيقة تلك الملكة التي تسمى الفرنجستان وهل
ملكها الذي يلقبونه في فارس بشاه الفرنج موجود
حقاً وأين عاصمته إن كانت له عاصمة؟

وكان السفير فوق ذلك يريد أن يستعلم عن عدد
قبائل الفرنجستان وهل هم ينقسمون إلى سكان مدن
وسكان صحراء كما هي الحال في إيران ومن هم رؤساء
قبائلهم وكيف يحكمونهم ثم يستعلم بعد ذلك عن
فرنسا وعن اتساع أنحائها وهل هي قبيلة من قبائل
الفرنج أو مملكة مستقلة ومن هو ذلك البونابرت
الذي يلقب نفسه امبراطور تلك المملكة؟ وأمر
السفير أن يوجه كثيراً من التفاته إلى معرفة حقيقة
هؤلاء الإنكليز الذين يعرفونهم في فارس بأفستهم
العريضة وساعاتهم وخناجرهم، ويعرف من أي طبقة
من طبقات الكفرهم؟ وهل يقيمون طول العام
في جزيرة من غير أن يكون لهم مصيف ولا مشى
وهل يعيش معظمهم في المراكب ويقتصرون في
قوتهم على الأسماك؟ وإن كان هذا هو أمرهم فكيف
استطاعوا الاستيلاء على الهند. ثم يبدل جهده في

كشف مسألة حيرت ألباب الفارسيين وشوشة
عقولهم وهي كيف أن انكلترا ولوندرأ قد اختلطتا
واشتبكتا فهل انكلترا جزء من لوندرا أم لوندرا
جزء من انكلترا؟

ثم أمر السفير أن يستعلم فوق ذلك عن حقيقة
الإمبراطورية ومن أو ما هي وكيف وجدت العلاقة
بينهما وبين انكلترا وهل الإمبراطورية امرأة عجوز
كما يتردد على بعض الألسنة أم تتكون من جملة عجائز؟
وهل ما يروى عن عدم قابليتها للفناء مثل (لأما التبت)
خرافة أم حقيقة؟ ثم يستكشف حقيقة بعض أمور
غامضة خاصة بالحكومة الإنكليزية ونظمها

ومن مهمة السفير أيضاً معرفة بعض أبناء الدنيا
الجديدة. وأخيراً أمر السفير أن يكتب تاريخاً عاماً
عن الفرنجستان وعن أحسن الوسائل المؤدية إلى
تنفيرهم من شرب الخمر وأكل الخنزير وإلى اعتناقهم
دين الإسلام

وبعد أن قرأت هذه التعليمات وفكرت ملياً
رأيت أن خير من يجيب عليها هو كاتب في خدمة
(الريس افندي) كنت قد تعرفت به إبان الزمن
القصير الذي كنت فيه أتيق المظهر

وكنت أعرف المقهى الذي اعتاد أن يجلس فيه
والساعة التي يذهب فيها وكان من عادته ألا يكتر
من الحديث ولا يسترسل في الكلام غير أنني رجوت
أن تشرح نفسه ويحدثني عما يراه في هذه المسألة
إذا ما شرب قهوته ودخن غليونه كما كان يحدث من
إقباله علي بالحديث في بعض الأحيان

ولما اقتنعت بهذه الفكرة أخبرتها السفير الذي
سرمها واغبط إلى حد أنه عزأها إلى نفسه وقال لي:
« ألم أخبرك بهذا؟ ألم أقل لك إنك ذكي القلب

عديدة لكل منها اسم خاص وحاكم وهذه القبائل رغم ذلك تكون أمة واحدة »

فقال : « لك أن تقول أمة واحدة إذا أردت وقد تكون هذه هي الحقيقة إذ كلهم يخلقون ذقونهم ويرسلون شعورهم ويلبسون القبعات على رؤوسهم ، وكلهم يرتدى الملابس الضيقة ويأكل لحم الخنزير ويشرب النبيذ ولا يؤمن برسول الله . غير أن من الواضح أن لهم ملوكاً كثيرين ، ألا ترى هؤلاء السفراء المديدن الذين يتوافدون على الباب العالي ؟ إنهم لا عداد لهم حتى لا يسع المرء أن يحصيهم »

فقلت له : « تكلم ! تكلم بحق رسول الله ! وسأكتب ما تقول . أشهد الله أنك رجل واسع الاطلاع غزير العلم »

فسرح الرجل شعر لحيته وأخذ يقتل شاربيه ويستجمع أفكاره ليحصى أمم الفرنجستان ، بينما كنت مشتغلاً بإخراج الدواة من حزامي والاعتدال أمامه استعداداً للكتابة

وبدأ الرجل حديثه بقوله : « ولكن لماذا تشغل نفسك بهذا الأمر ؟ إنهم جميعاً ملاعين من منبت نجس ومخرج دنى ، ويوم القيامة سيصلون ناراً حامية »

ثم قال وهو يحصى على أصابعه : « أولاً هناك النمساويون جيراننا وهم قوم كثير والتدخين يرسلون إلينا الأقمشة والصلب والزجاج ، ويحكمهم شاه من أعرق عائلات الكفر وأقدمها وله ممثل عندنا نطمعه ونكسوه . ثم هناك طائفة المسكوب وهم أمة قذرة لعينة مملكتهم كثيرة الاتساع حتى قيل إن لها طرفاً تغطيه الثلوج الدائمة والطرف الآخر نار القيظ الملتهبة . إنهم أعداء ألداء لنا وقد طالب حاربناهم

حاضر البديهة . اعترف إذن بأن لي بصيرة نفاذة ونظراً ثاقباً ، وأنه يجب أن يكون المرء متوقد الذكاء والفتنة ليقرأ أقدار الرجال ويميز الكنايات ! لولاى لما اتجهت أنظارنا إلى هذا الكاتب ولما فكرنا فيه . سيخبرنا ذلك الكاتب بكل شيء ويساعدنا على انتشار الإسلام في جميع أنحاء الكون »

ثم أخبرني السفير بأن في إمكاني أن أعد ذلك الكاتب بالهدايا إذا وجدت صعوبة في الاستعلام منه وإن استمعى على الكاتب أمر فله أن يستفهم عنه من نفس الرئيس افتدى

وذهبت في الوقت المناسب إلى المقهى فوجدت الكاتب هناك ودنوت منه منظرأ البشاشة والترحاب والود ثم دعوت الساقى وطلبت أن يحضر لنا فتجانين من القهوة اللذيذة التي يصنعها من البن اليمنى . وجلست أمام الكاتب وقد تصادف أنه أخرج ساعته فوجدت الفرصة ملائمة للبدء في مأموريته . وقلت : « هل هذه الساعة من الفرنجستان ؟ »

قال : « هذا صحيح فليس في العالم من يستطيع عمل الساعات غير الأوربيين »

قلت : « عجباً ! يظهر أنهم قوم غير عاديين » فقال : « أجل غير أنهم كفار »

فقلت وقد أخرجت الغليون من فمي وناولته إياه : « بالله عليك يا صاحبي أن تخبرني بشيء عن هؤلاء الفرنج . هل الفرنج مملكة عظيمة ؟ أين يقيم ملكهم ؟ »

فأجابني : « ماذا تقول يا صديقي ؟ أتقول مملكة عظيمة ؟ نعم ممالك كبيرة لا يخكمها ملك واحد بل ملوك كثيرون »

فقلت : « ولكننى سمعت أن الفرنج قبائل

صارخين بأعلى أصواتنا «الله أكبر» في سبيل الله !
ويحكم الرجال والنساء على حد سواء . ولكنهم
يماثلوننا في قتل حكامهم والثورة على ولاية أمورهم .
ثم يجيء بعد هؤلاء من طوائف الكفر طائفة
البروسيين وليس غير الله يعلم لماذا يرسلون إلينا سفيراً
لا حاجة لنا به ولا منفعة؛ فإننا أبعد من أن نهتم بمثل
ذلك الحقير؛ غير أن الباب العالي مفتوح على مصراعيه
يلججه النجس والحقير كما يدخل منه المؤمن الوقور
فتشمل الجميع عنايته

ثم ماذا أقول بعد ذلك بحق رسول الله ؟ توجد
طائفتان أخريان من طوائف الكفر تسكنان في شمال
العالم وتقيان في آخر حدود الأرض ، وهما طائفتا
الدانمركيين والسويديين وهؤلاء قبائل صغيرة رجالها
قصار القامة لا يذكرون بين الرجال رغم ما قيل من
أن شاه الدانمركيين من أكثر ملوك الفرنجستان
اطمئناناً على ملكه وراحة في عيشه لا يزعمه مزعج
ولا يخيفه منازع ينما شاه السويدي مشهور بالحماقة
والجنون فقد أثار مرة في أوروبا حرباً شعواء لم ينظر
فيها إلى البلاد التي يحاربها بل كانت الحرب غاية
ومقصده ، وقد أدى به جنونه وساقته حماقته
إلى اختراق حدودنا التركية . فأسرناه كما يؤسر
الوعل الشارد .

وكانت هذه الحادثة سبباً في معرفتنا تلك الأمة .
ولولا ذلك لكنا ظللنا إلى ما شاء الله لا نعلم من أمر
هذه الأمة حتى ولا وجودها .

وسأذكر لك قوماً آخرين يقال لهم أمة الفلنك ،
وهم كفار أغبياء يقال الظل باردو الطبع ينظر إليهم
الفرنج كما تنظر نحن إلى الأوربيين لا يفكرون
إلا في جمع المال ، ولا يطمعون إلا في الثروة والفنى

وهؤلاء يرسلون إلينا سفيراً خاملاً يقوم بشئون
تجارتهم وتصريف صادراتهم من جبن وزبد وسمك
محفوظ . غير أن حكومتهم قضى عليها ظهور بونابرت
وبونابرت هذا رجل في مقدمة الرجال حليق بأن
نضعه في صف نادر شاه الفارسي وسليمان القانوني
التركي دون أن نخجل أو نحط من قدر أنفسنا .
وهنا لن أتمالك أن قاطعت الكاتب وقلت حين
سمعت اسم بونابرت : « بونابرت » . هذا هو اسم
الرجل الذي أريد معرفة شيء عنه فقد سمعت أنه كافر
لا نظير له مقدم شجاع ، وأرجو أن أسمع منك
شيئاً عنه »

فقال صاحبي : « هل تظني أستطيع أن أحصى
أخباره ؟ لقد كان جندياً بسيطاً من عهد قريب ،
وهو اليوم سلطان أمة عظيمة ، وهو الذي وضع
لبلاده قانونها ، وحاول جهد استطاعته أن يقضى علينا
بإستيلائه على مصر فأرسل جيوشاً جرارة لفتحها .
غير أنه نسي سيوف المجاهدين وقتال المؤمنين فاضطره
المصريون إلى العودة بعد أن خوف بضمة مماليك ،
وأرغم الأعراب إلى الالتجاء للصحراء »

فسألت الكاتب : « ألا يوجد بين الكفار
قبيلة اسمها الانكليز ؟ لقد قيل إنهم أقل القبائل
عدداً وإنهم يقيمون في جزيرة ، ويصنعون الآلات
الحادة » .

فقال بحياء : « أجل ذلك صحيح ، وقد حظى
الانكليز منذ قرون بما لم يحظ به غيرهم من أمم
الفرنج لدى الباب العالي فنالوا ودهم ، وهم قوم
بحريون لهم أسطول كبير ، ولا يماثلهم أحد في صناعة
الساعات ، ونسيج الأقمشة »

فقلت له : « وماذا تعلم من أمر حكومتهم ؟

ألا تتكون من شيء آخر غير الشاه ؟

فأجابني : « كيف يمكنني أو يمكنك أن تفهم عقلية هؤلاء القوم المجانين ؟ لست أنكر أن لهم شاهاً ولو أنه من المضحك أن ندعوه بالشاه إذ لا ينطبق عليه هذا الاسم فهم يطعمونه ويكسونه ويسكنونه في القصور الشواهي وبقرون له مرتباً سنوياً ويحيطونه بكل مظاهر العظمة وأبهة العرش بل ويلقبونه أضخم الألقاب وأعظم الأسماء سخريه منهم لأن الأغا البسيط من أغواتنا يملك من النفوذ أكثر مما يملكه هذا الشاه الانكليزي الذي بلغ من ضعفه أنه لا يستطيع حتى جلد أحد وزرائه مهما كانت جنايته . بينما يستطيع الأغا عندنا إذا أراد أن يصلم آذان نصف المدينة ولا يجازي بغير التشجيع والكفاة . ولهم محال مملوءة بالمجانين المحق مجتمعون فيها للجدل السخيف والتطاحن والترشق بالألفاظ إذا قال فريق منهم عن شيء هذا أبيض اللون قال الآخر لا بل هو أسود ، ويشيرون ضجة عظيمة من مناقشات وردود وخطابات حول أية مسألة عادية يكفي أن يقطع فيها بالرأي أي مفت عندنا فتفرض على قطر بأسره . وجملة القول فإن أمراً واحداً لا يمكن أن يقرر في تلك المملكة دون أن يثير الشعب تلك الضجة الحقاء والمناقشات الجوفاء مهما بلغ من تفاهة هذا الأمر كقطع رأس أغا ثائر أو مثل ذلك من الأمور البسيطة . إن الله جلت قدرته وعظمته قد أعطى العقل لبعض الأمم وحجبه عن البعض الآخر ، وليس لنا إلا أن نخضع لما أراد وعلينا أن نشكره تعالى على أننا لم نخلق بين هؤلاء

الانكليز المجانين ، وعلى أنه أوجدنا في أمة راقية رزينة ندخن غلاييننا مطمئين آمنين على ضفاف البوسفور

فقلت : « ما أغرب ما تقص علي وما أعجبه ! لو لم أكن قد سمعت منك هذه الأمور لما صدقت منها حرفاً واحداً ؛ غير أن شيئاً واحداً بقي وهو مسألة الهند فكيف استطاع الانكليز أن يحكموها مع أن حكامهم نساء عجائز »

فأجابني : « لا يدهشني والله أي أمر أسمعه عن هؤلاء القوم فليس لهم عقول . ولكن لم يصل إلى علمي أن الهند تحت حكمهم . قد يكون ذلك وقد لا يكون والله وحده يعلم . وكم للمجانين من أفعال شاذة وأمور غريبة »

فقلت بعد برهة ضمت : « والآن هل قصصت علي كل ما تعلم أم لا يزال عندك علم بكفار آخرين ؟ قل لي بحق الصداقة إذ من كان يعلم أن في الدنيا الغريبة التركيب والتكوين أمما بهذا الشكل ! »

فقال بعد أن فكر قليلاً : « أجل لقد نسيت أن أذكر أمتين أو ثلاث أمم ، غير أن ما نسيت أن أذكره غير جدير بالحديث . هناك غير ما ذكرت الأسبانيون والبرتغاليون والإيطاليون وهؤلاء أقوام يتغذون بالخنازير ويعبدون الأصنام وليس لهم أية قيمة حتى بين الفريج . وقد وصل علمنا إلى أولام بسبب تقوهم القضية المتداولة بيننا ، ويفد من الثانية بعض اليهود ، وتبعث الثالثة إلينا دراويش يدفعون مبالغ طائلة لبناء الأديرة ودق الأجراس . ويجب أن أذكر لك شيئاً عن البابا خليفة الفريج فهو يقيم

في إيطاليا ولا يني عن السى في نشر دينه ، غير أننا لا نهتم به وقد توقفنا إلى هداية كثير من تابعيه وهذا لا يمنع من العذاب الذي يصيبهم على ما قدمت أيديهم قبل اعتناقهم الإسلام ديناً »

فقلت لصاحبي : « لم يبق غير سؤال واحد ليس لي بعده سؤال وشكراً لك على ما قدمت ، هل تذكر لي شيئاً عن الدنيا الجديدة فقد سمعت أخباراً متناقضة حيرت عقلي . كيف وصل الناس إليها أمن تحت الأرض أم بأية وسيلة ؟ »

فقال الكاتب : « ليس بيننا وبين من ذكرت علاقات كثيرة ، ولذلك لا أستطيع أن أقص عليك كثيراً من أخبارهم غير أن المرء يستطيع الوصول إلى الدنيا الجديدة على سفينة إذ رأينا هنا كثيراً من سفن الدنيا الجديدة وكلهم نصارى ضالون »

ثم تابع حديثه مشهداً : « كلهم نصارى مثل سكان الدنيا القديمة وسيكون مقامهم في جهنم وبئس المصير . هذه إرادة الله وحكمته »

ورأيت بعد ذلك أن الكاتب بدأ يتذمر ويتضجر فلم أسأله عن شيء آخر ، وكنا قد مضى علينا وقت طويل ونحن نتحدث فلم أطلب قهوة ولم أَدْخُنْ وافترقنا بعد أن تواعدنا على المقابلة ثانياً

الفصل السادس والسبعون

مباحي بابا يكتب تاريخ أوروبا

ورجع مع السفير إلى أبراهام

عدت إلى السفير فرحاً طروباً بما مى من الأخبار وبنجاحي في أول مهمة كلفت بها في حياتي السياسية

وقد سر السفير من التقرير الذي قدمته إليه مما قصه على الكاتب . وظل السفير بمد ذلك مدة إقامتي في الأستانة يرسلني يومياً في شئون أخرى واستعلامات شتى إلى أن حسبنا سوياً أن في استطاعتنا بما لدينا من المعلومات أن نكتب تاريخ أوروبا الذي كلفه مليكة بكتابته عند عودته . فأخذت أشتغل بجهد في وضع ذلك التاريخ وبعد أن فرغت من كتابة مسودته عرضتها على السفير لتنقيحها وتصحيحها لتوافق أغراض الشاه فنقحها وزاد فيها ما رآه لازماً وحذف منها ما يجب حذفه ، وحين انتهى منها سلمت إلى كاتب نقلها بخط جميل فأخرجها مجلداً قىماً مرتباً ترتيباً بديعاً ووضعها في كيس من الحرير قال السفير إنه حري بيد الشاه ، واعتقد السفير أنه أتم مأموريته التي جاء من أجلها وأعلن أنه سيأخذني معه إلى إيران بل زاد على ذلك أنني سأستمر في خدمة الحكومة بعد رجوعنا إلى طهران ، وقال إن رجلاً له مثل هذه الدراية والخبرة الواسعة بأحوال القربجستان سوف ينفعنا نفعاً كبيراً في معاملة السفراء الموجودين في إيران »

ولم أكن أتمنى فوق ما عرضه على السفير إذ أن سوء المعاملة التي لقيتها من الترك جعلتني أكره الإقامة بينهم فلم أعد أرى في مدينتهم ما يجعلها في عيني ، وكنت كلما ذكرت شكرليب على صدرى بالغيظ والحقد الشديدين

وكان قد مضى زمن طويل على حادثتي مع شيخ العلماء في طهران ، وكنت قد علمت أن الملا نادان قد مرق جسده على آلة التعذيب وأن أرملة شيخ العلماء التي تركتها بين أيدي قطاع الطريق لم ترجع

التي لا نهاية لها . وكان الذى يسميهم فى احترامهم هذا وتمظيمهم لا يخطر بباله أننى نفس الرجل الذى ضحكوا منه وشهروا به منذ أقل من شهرين بل يعتقد أننى رجل بلغ من سلطانه وقوته أن حياتهم أو موتهم يتوقفان على إشارة من بنانه

غير أننى لما استأذنت من عثمان أعالم ألاحظ عليه أى تغيير ، ودلنى كلامه على أن عاطفته نحو ابن حلاق أصفهان هى هى لم يطرأ عليها أى تبدل وقال بلهجتة العادية حين اقترقنا : « إذهب يا بنى ، إننى سأصلى وأبتهل إلى الله أن ينيلك ما تصبو إليه نفسك من رفعة ونجاح ، وأن يسدد الله خطواتك أينما ذهبت وفى أية حالة — سجيناً عند التركان ، أو عالماً من العلماء ، أو بائع غلايين ، أو أعا تركياً أو سفيراً فارسياً — كن ما شئت وسأدعو الله لك فى صلاتى »

وترك السفير اسكوتارى بعد أن انتهى من حفلات الوداع ، واستأذن الحكومة فى الرحيل ، وصحبه كثير من الفارسيين فى مسيره وظلوا معه نحو فرسخ ثم استأذنوه فى العودة

وكانت رحلتنا هادئة لم يحصل فيها ما يستحق الذكر من يوم أن بدأنا المسير إلى يوم دخولنا فارس وسمعنا فى « أريفان » أخباراً مبهمة غير واضحة غما يشغل بال القوم وعمما يحدث فى البلاد إلى أن وصلنا إلى تبريز التى يحكمها عباس ميرزا فعلمنا أهم المسائل التى تشغل بال القوم وأهمها التشاحن بين السفيرين الفرنسى والإنكليزى وسماح الشاه لأولها بالمثل بين يديه وعدم استطاعة الثانى المثل أمام جلالته بعد وسمعنا أخباراً عدة عما يبذله السفيران من الجهد

قط إلى فارس فاستنتجت من كل ذلك أن فى مقدورى أن أعود إلى الظهور فى فارس دون خوف

وقلت فى نفسى : « وإذا عرفت وظهرت حقيقتى فمن الذى يجرو أن يمسنى بأذى وأنا فى حماية رجال الحكومة ذوى النفوذ والجاه ؟ لقد استرد رئيس الجلادين جواده ومتاعه عند القبض على الملا نادان ، وأغلب الظن أن الشيخ عبد الكريم قد لقي ما لقيته سيدته أرملة الملا باشى إذ لم يسمع عنه أى خبر فلست أخشى أن يعود إلى مطالبتى بالمائة الطومان ، وأى شيء أخشاه بعد ذلك من العودة إلى طهران ؟ »

لم أر ما يجب على أن أخشاه إذ يكفى أن يعلم القوم أننى فى خدمة الشاه لأسير مطمئناً فى تيه وعجب واختيال فى كل أنحاء البلاد الفارسية مهما يكن من ذنوبى ، وشجعت عزيمتى هذه الأفكار فأخذت أجهز نفسى للرحيل مع السفير . غير أننى عقدت النية على أن أزور قبل رحيلى الخان الذى فيه أبناء وطنى لأتمكن من الظهور أمامهم بمظهر ذى النفوذ والسلطان بعد ما لقيت من الخزي والعار فى حادثتى الأخيرة

وقد تعبت فى إقناعهم بأننى من موظفى السفارة ثم لم أخش بعد ذلك أن يهزأوا بى ويشخروا منى إذ لم يكدهم يستقر فى عقولهم أننى من أتباع السفير المقربين حتى كنت محل عنايتهم واحترامهم ، وكانت الكلمات التى يوجهونها لى لا تقل عن : « إذا تفضلت » أو « إذا قبلت مكارمكم » أو « نرجو من مكارم حضرتكم » ، وغير ذلك من كلمات التبجيل والاحترام التى لا تنقطع وخطابات التعميم والإجلال

لكم طريقاً في أرضنا أو نعاذى أصدقاءنا القدماء :
الانكليز .

وقال سفير الانكليز من جهة أخرى : « ليس
للفرنسيين أى غرض في المجئ إلى فارس إلا مضايقتنا
ومنازعتنا فريد ألا تقبلوهم في فارس » .

فقال الشاه : « كيف تريد أن نفعل ما تأباه
قوانين الضيافة ؟ إن أبواب قصرنا مفتوحة لكل
قاصد »

فقال السفير الانكليزى : « ولكن يجب أن
تتخيروا صداقة أحداً وعداء الآخر ، فإما أن تستمروا
أصدقاء لنا فتطردوا السفير الفرنسى وإما أن تقبلوه
فتكونوا أعداءنا »

فأجاب الشاه : « ولم نعاذى الناس لنسركم ؟
إننا نريد أن نكون أصدقاء الجميع » .

فقال السفير : « ولكن في استطاعتنا مساعدتكم
على نمو قوتكم وإعطائكم ما يلزمكم من المال »

فأجاب الشاه : « عافاك الله ! هذه مسألة أخرى
فأخبرنى ما قدر المال الذى تدفعونه فينتهى كل أمر ؟ »

كانت هذه هى الحال عند وصولنا إلى تبريز . ولما
كان وصول متبوعى السفير إلى طهران منتظراً بفارغ

صبر فلم تترث في سيرنا ولم نلبث كثيراً عند الأمير
عباس بل أسرعنا في السير . ووصلنا إلى مقر السلطان

في صباح أحد الأيام فشاهدنا في طريقنا صفّاً طويلاً
من الفرسان معهم أمتعتهم ولا حظنا أنهم ليسوا

فارسين وقد تبينا عند الاقتراب منهم أنهم من الفرنج
وكان يصحبهم ضابط فارسى من قبل الشاه

أخبرنا أن هؤلاء هم رجال السفارة الفرنسية راجعين
إلى بلادهم بعد أن أرسل إليهم الشاه خطاباً رقيقاً

في الوصول إلى أغراضهما ، وقد وصل التعجب
والاندهاش من الفارسين مبلغهما عند رؤيتهما
النصارى يتركون بلادهم متحملين كثيراً من المشقة
والتعب ليتشاحنوا ويتنابدوا أمام شعب كامل يحتقرهم
ويتمنى لهم الهلاك والموت العاجل .

أخذ السفير الفرنسى لى يحصل على مطالبه
يذكر ملكه وعظمة مملكته وسيادتها في جميع أنحاء
أوروبا وعدد الجيوش الجرارة التى يمكن أن ينزلها
امبراطوره إلى الميدان ، وقد أجابه الشاه عن كل
ذلك بما يأتى :

« قد يكون ما قلت صحيحاً ، ولكن مالنا نحن
ولقوتكم وعظمتكم ، وأية علاقة بين فرنسا وبين
إيران ؟ أى غرض لكم تسعون إلى تحقيقه ؟ »

فقال السفير : « غرضنا أن نفتح الهند ونخرجها
من يد الانكليز ، ونرجو أن تسمحوا لنا بطريق
نمر منه في بلادكم » .

فقال الشاه : « وماذا نستفيد نحن ؟ قد تكون
رغبتكم في الهند قوية ، ولكن أى شأن لنا في هذا
ولم نسمح لجيوشكم بالمرور من أرضنا ؟ لا رغبة لنا
في ذلك » .

فأجاب السفير : « صبراً . فسنتفتح لكم جرجان
ونملككم تفليس ، ونحميكم من اعتداء الروس على
أرضكم في المستقبل ! » .

فقال الشاه : « هذه مسألة أخرى فحين تبرهنون
لنا على صدق أقوالكم ، ونرى نتيجة أعمالكم ،

ونسلمع أنه لم يبق روسى على جوانب القوزاق تتعاقد
معكم ، ولكن قبل ذلك الوقت لا نستطيع أن نفتح

في فهم كلمة واحدة مما يרטنون به . وكل ما حسبت
نفسى قادراً على تذكره أو رسمه ثلاثة ألفاظ سمعهم
يكررونها ، ويعيدونها كثيراً في حديثهم . وهى
« سفير » و « باريس » و « الأمبراطور » .

وخطر ببالى أن هؤلاء الفرنسيين لن يغيروا
شيئاً من مرحهم أو ضحكهم ومجونهم يوم تحتويهم
نار جهنم في الدار الآخرة ، وأن حالهم فيها ستكون
مثل حالهم التى رأيناها عليها في مقر السلطنة . وافترقنا
في الصباح التالى فصاروا ضاحكين صاخبين في طريقهم
وسرنا نفكر خائفين مما عسى أن يستقبلنا به الشاه
ملك الملوك

الفصل السابع والسبعون

وصف الاحتفال باستقبال سفير الفرنجستان

استقبل رئيسى ميرزا فيروز في قصر الشاه
بالخفاوة والإكرام ، وسر الشاه من الإجابات الخافرة
التى كان يتلقاها من سفيره على أسئلته المتعددة
الخاصة بشئون أوربا فأظهر السفير بذلك أنه خليق
بمركزه جدير بعناية مولاه وأن أحداً غيره لم يكن
ليقوم بما قام به في المهمة التى انتخب لها

كان لا يتوانى لحظة في الإجابة على أسئلة الشاه
ولا يتلعثم ولا يتلجلج ولم يبد عليه الجهل ولا وقفت
أمامه عثرة ولم ينطق أمام الشاه بكلمة « لا أعرف »
قط فقد كان يعلم أن هذه الكلمة مما لا تحتمله آذان
الملوك

وكان يرسل الكلمات في رصانة ورزانة وثبات
وبيعث القول قوياً مقنعاً حتى لا يمكن أن يخطر

يرجوم فيه مغادرة البلاد . وأخبرنا ذلك الضابط
أن السفير الإنكليزى وأتباعه سيحلون محل الفرنسيين
قريباً . وأسنتجنا مما رأينا مجمل سير الأمور في
حكومة إيران وأن الشاه أيدى الله بنصر من عنده
قد استفاد من النزاع والشحناء بين الفرنسيين
والإنكليز . وقد دهش السفير الذى أصحبه من تلك
النتيجة ومن البت في الأمر بهذه السرعة وعدم
انتظار الشاه له مع ما يحمل من أخبار أوربا ، ولكن
سرعان ما فسر هذا تأثير المال الذى لا تقف أمامه
عقبة مهما عظم شأنها

سنحت لنا هذه الفرصة لملاحظة الفرنسيين
الذين سمعنا عنهم كثيراً في الأيام الأخيرة . ولم يعدم
السفير الفارسمى وسيلة يتعرف بها بالسفير الفرنسى .
وانتظرنا أن نجد الفرنسيين منقبضى الصدور
منحلى المزجة بسبب طردهم من حضرة الشاه ولكن
دهشتنا كانت عظيمة حين رأينا الأمر على تقيض
ما ظننا . لم تر إيران قبل هؤلاء القوم قوماً أكثر
مجوناً ولا عبثاً ولا جنوناً فقد كانوا يرقصون ويغنون
ويضحكون طول اليوم ، وكانوا يتحدثون جميعاً
في وقت واحد بأصوات تختلف في العلو والارتفاع
من غير فارق في المراتب إذ يظهر أنهم جميعاً من طبقة
واحدة في نهاية الانحطاط .

وكانوا يدوسون أبسطتنا بغير احترام مما أثار
مواطننا وحرك نفوسنا . وإذا كنت أحسب نفسى
ذا خبرة واسعة بأحوال الفرنجة لما قاسيته في الاستعلام
عنهم فقد حاولت أن أعرف إن كان يوجد تشابه
أو مشابهة بين لغتنا وبين لغتهم ، غير أننى لم أجد

على بال سامعيه خاطرة شك في قوله، وإن من أصنى إليه وهو يتكلم عن أوربا ليخال أن السفير إنما ولد ونشأ وترى بينهم

سبق السفير وحرصى على أن أظهر دونه علماً ومنزلة فكنت بين عاملين عامل الخوف من الظهور بمظهر الجاهل ومحاذرتى أن أظهر بمظهر العالم

وشاع بين القوم أن السفير استخدمنى في تصيد أخبار الأوربيين وفي كتابة تاريخ أوربا فقلت شهرة في معرفة العالم والعلم بأحوال الناس، ولم يكن لى مثل ما للسفير من قوة الحجج والقدرة على الإقناع غير أننى عزمت على أن أعمل ما فى وسى فى الإجابة على الأسئلة التى تلقى على بسرعة رغم خوفى من

وعلى أية حال فقد نظر إلينا الفارسيون أبناء وطننا كما ينظرون إلى أصحاب المعجزات إذ لم يكن بينهم من يستطيع تقض ما نقول. وذكرنى ذلك بحكمة رددتها الألسن وهى: «إن أى صوت يظهر كأنه النعمة اللذيذة فى بلاد البكم، ولو كان الصوت صوت حمار»

(يتبع) عبد اللطيف التشار

شركة مصر للملاحة البحرية

شركة مساهمة مصرية

خط رطاب فاخر وسريع بين الاسكندرية - جنوى - مرسيلا وبالعكس

أسعار الصيف ابتداء من ١٥ مايو إلى ٣١ أكتوبر سواء للسفر من مصر أو من أوربا

(من الاسكندرية إلى جنوى أو مرسيلا أو بالعكس)

الباحرة النيل - الباخرة كوتر

جك

١٦

—

١٠

—

٥

٣

جك

١٧

١٢

—

٩

—

—

درجة أولى

درجة ثانية

درجة ثانية : مخفضة (سياحة)

» ثالثة : (خصوصية)

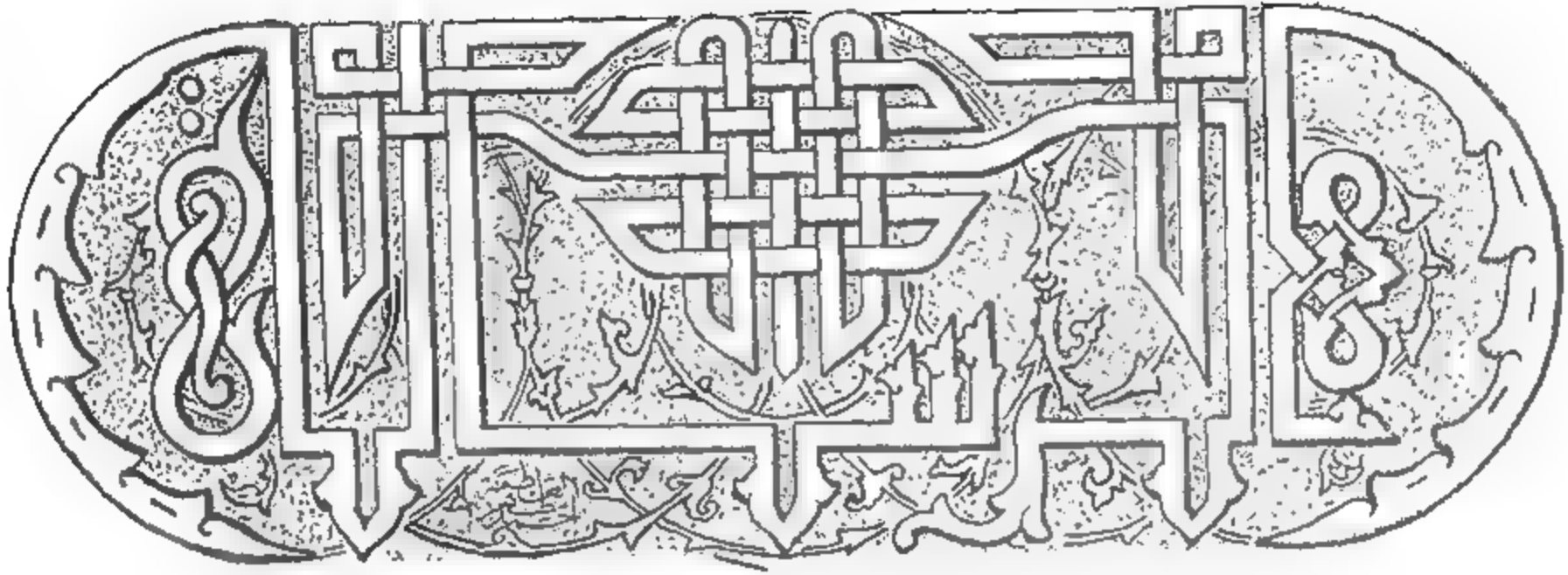
درجة رابعة

كوبرته

ويمنح للذين يستخرجون تذاكر الذهاب والاياب ما خصم ٢٠٪ على قيمة تذكرة الاياب .

والأجور المبينة أعلاه بالعملة الانجليزية تحصل بواقع ١/٢ ٩٢ قرشا للجنيه الانجليزي .

مواعيد السفر من الاسكندرية :		الباحرة النيل	
٢٢ يونيو	الباحرة كوتر	٤ مايو	الباحرة النيل
» ٢٩	» النيل	» ١٨	» »
٦ يولي	» كوتر	» ١ يونيو	» »
» ١٣	» النيل	» ٨	» كوتر
» ٢٠	» كوتر	» ١٥ يونيو	» النيل
» ٢٧	» النيل		



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالْثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجِلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُّ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الدُّسْتُرَانِ الْأَعْلَى سِتْرَانِ قُرْشَا ، وَالْخَارِجِيُّ مَا يَسَارَى جَنِينَا مِصْرِيَا ، وَلِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَخْصَمِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للقصص والبرائح

نصدر مؤقثاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٥ ربيع أول سنة ١٣٥٨ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٦

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة		
٤٥٠	الذي أحبته أمي ...	عن الانجليزية ...
٤٦٥	سر السنونو ...	أقصصة مصرية ...
٤٧٢	البعث ...	لكاتب الفرنسي جى دى موباسان
٤٧٦	الراعية ...	قصة مسرحية في فصل واحد ...
٤٨٢	عندما افتتح الباب ...	للكاتبة الانجليزية ساره جرانر
٤٨٨	فراق ...	للكاتبة مارك صوفال وجورج مونتيك
٤٩٦	حاجى بابا أصفهاني ...	للكاتب الانجليزى « جيمز مور »
	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...	
	بقلم الأستاذ درينى خشبة ...	
	بقلم الأديب عادل الجمال ...	
	بقلم الأنسة جميلة الملايلى ...	
	بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد	
	بقلم الأستاذ ناجى الطنطاوى ...	
	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار	

الحياة ويرفها علينا ، فإذا
أحس منا أقل رغبة في شيء
من الترف والكاليات أسرع
بتحقيق رغبتنا ، حريصاً على
أن نعيش في مستوى عال من
الحياة

الحب الذي أحببته أمي

قصة استحققت جائزة مائتي جنيه
عن الانجليز
بقلم الأستاذ عبد الحميد خمدي

ولعل شعورنا نحو هذا

الأب الكريم كان أقرب إلى الاحترام منه إلى المحبة،
فلقد كنت أنا وأمي في جسم الأسرة كالمضوين
الآلين وكان أبي هو الرأس المدبر الناجح فيما يعمل.
فلما قتل في حادث تضادم في سكة الحديد — وكان
في الثالثة والأربعين من عمره — شعرنا بالخسارة
التي أصابتنا شعور البحارة بالخسارة التي تصيبهم
بموت ربان السفينة ، وازدادت الرابطة بيني وبينها
توتقاً في سبيل المضي في الحياة بغير قائد

ولم يكن في حياتنا ما يشغلنا من الناحية المادية
فقد ترك لنا أبي وثيقة تأمين على الحياة بمبلغ كبير ،
فقضيت في حياتي المدرسية على ما كنت في حياته .
وقضت ظروف التعليم بأن تنتقل من البلدة الصغيرة
التي ولدت فيها بمقاطعة وورشسترشير إلى مدينة
كبيرة من مدن ميدلاند حيث التحقت بالجامعة ،
ولما كنا غريبين في تلك المدينة فقد كان الكثيرون
ممن يروننا يحسبون أننا أخوان ، وكان البعض
يتسمون لنا ابتسامات لا تخلو من معنى التساؤل
عن نوع العلاقة التي بيني وبين السيدة التي
ترافقني على الدوام . ولقد كنا نترك هؤلاء
التسائلين يتيهون طويلاً في خيرتهم قبل أن نطلعهم
على الحقيقة

« هل يستطيع أن يفهم يوماً ما كان يشغل
قلب أمه وزوجها ، تلك الأم الجميلة التي لا يمكن
أن يتم منظرها عن غير فتاة عذراء لم تدخل
بعد دور الأمومة ؟ »

لا أستطيع أن أذكر الوقت الذي بدأت فيه
العلاقة بيني وبين أمي تتشكل في صورة صداقة
بين رفيقين متقاربين في السن . وحتى في حياة أبي
— وقد كنت في الثانية عشرة عند موته — كان
سلوكي مع أمي سلوك الأخ مع أخته . ولعل السبب
في هذه العلاقة غير العادية بين أم وابنها أن أمي
تزوجت وهي فتاة صغيرة من رجل يكبرها بأربعة
عشر عاماً ، ولم تكن سنها يوم ولدتني تتجاوز
السابعة عشرة . وحين شبت وبدأت أتعرف ما يدور
حولى في العالم الذي خرجت إليه ، أخذت أدرك
أن متاعبي ومشاعلي الصبغانية من الأمور التي يمكن
التفاهم عليها وحلها مع أمي الشابة الرقيقة الشعور
بأسهل مما يمكن ذلك مع أبي الكهل الذي تلزمه
طبيعة الكهولة نوعاً من العبوس الجدى

وما أقصد بذلك إلى أن أقول إن أبي كان رجلاً
عسير المعاشرة فالأمر على العكس من ذلك ، فلقد
كان يسند على الدوام كل ما في جهده ليسهل لنا

كانت هذه الغلظة العامة في تقدير العلاقة التي بينى وبين أمي من أكبر بواعث تسليتها ، فكانت تشعر دائماً بروح الشباب والمرح ، وكان ذلك مما يقوى رغبتها في الحرص على جمال شبابها ، أما فيما يتصل بشخصي ، فقد كان انهماكي في تكوين نفسي يحملني على التفكير فيما سأضطلع به في المستقبل حين أصبح رب أسرة ، وكنت أشعر بشيء من الكبرياء والفخر حين يراني الناس في صحبة «أختي» الجميلة ...

وحدث في ذات ليلة عند ما خرجنا آخر الليل من حفلة ساهرة كنا من حضورها أن دنا أحد الضيوف من أمي وقال لها إنه قد سره أن يلتقي بزوجها. فارتبكت لحظة — عند سماع كلماته — ولكنها لم تلبث أن أدركت أنه كان يقصدني بما يقول ، ولم تلبث أن تبادلنا الابتسام ، وفي أثناء عودتنا إلى البيت ضحكنا لهذا الحادث من أعماق قلوبنا

وقلت لأمي مازحاً :

— لقد بدأت أشعر بالإهانة في أن يحسبني الناس زوج سيدة مجوز مثلك !

فردت عليّ بدورها برد لعل لم أتبين معناه على حقيقته قالت :

— وما ظنك بشعوري حين أراي مضطرة لأن أسلك سلوك تلميذة بلهاء ؟

نعم . لقد ازددنا ارتباطاً وتلازماً على مر السنين . كنا نحضر الحفلات معاً ، وكنا شريكين بأسباب اللهو والمرح ، وكنا نرحب مشتركين بأصدقائنا ، وفي الجملة ننعم بجميع مباهج الحياة على صورة

ناذرة بين الأمهات والأبناء

وكان يحدث أحياناً أن أرافق شباناً من سنى في بعض الجولات ، وأن تخرج أمي وحدها لبعض الأغراض الاجتماعية ، ولكن لم يكن أحدنا يسأل الآخر عما عمله أو عن الأشخاص الذين التقى بهم فلم تكن تمت من حاجة إلى مثل هذا السؤال . فقد كنا صريحين في أن يفضل كل منا في بعض الظروف ما يلائم ذوقه من الترتيبات التي تتصل بإجتماعه ببعض الأصدقاء أو المعارف

وإني لأذكر جيد الذكر مناقشة جدية نشأت بيني وبين أمي على مائدة العشاء على أثر عبارات تفوهت بها عن مركزنا الاجتماعي إذ قلت :

— أحسبك تعلمين يا أمي أنه يجب أن نعمل شيئاً في هذا الموضوع . فسألتني :

— أي موضوع تعني ؟

فاحتبست الكلمات لحظة في حلق ثم قلت :

— لقد سألت اليوم إحدى الفتيات أن تخرج معي مساء يوم السبت المقبل ، فرفضت طلبي دون أن تبدى أول الأمر سبباً لهذا الرفض ، ولكنني حين ألححت عليها في تعرف السبب أجابتني صراحة بأنها لن تشبك نفسها بأي رجل متزوج ! ولقد اقتضاني الأمر نصف ساعة لإقناعها بأن السيدة الجميلة التي يراني الناس معها أحياناً ليست امرأتاً فلم تجب أمي بشيء على هذا الكلام ولكن بذت على وجهها نظرة غريبة

وبعد لحظات قالت أمي ، وقد انتقلنا من غرفة المائدة إلى غرفة الجلوس :

قط في أن تحيطى نفسك ببعض الأصدقاء ؟
قالت :

— ولكنك تعرف يا « تيمى » أن لى أصدقاء
وأهم كثيرين ... وأننى ...
فقاطعتها بقولى :

— أقصد أصدقاء من الرجال ! فإنك ما زلت
صغيرة وفيك من الجاذبية ما يلقى أى رجل على قدميك
ولا يزال أمامك نصف حياتك تنعمين به ، ويستطيع
بعض الرجال أن يهيب لك حياة بالغة السعادة حقاً .
إذا أنت سمحت له بذلك

فضحكت أوى ضحكة غير متزنة وقالت :
— دع عنك هذا البله يا « تيم » إذ أية حاجة
تدعونى لأن أطلب الزواج مرة ثانية ؟
قالت :

— ألا تريدن أن يكون لك بيت خاص ؟
ألا تحبين أن يكون إلى جانبك رجل يحمل المتاعب
المالية عن كتفك ؟ وإنك لتعلمين أننى لن أفيدك
أبدأ من هذه الناحية ، فما أنا إلا طفل كبير مدلل
لا فائدة منه ... وأنت المسئولة عن ذلك !

وطالت المناقشة بيننا عنيفة مشبعة بروح المحبة
ولكننا لم ننته إلى نتيجة ، فحُت بزجاجة من النبيذ
المعتق الذى تحتفظ به عادة لبعض الظروف الخاصة ،
وشربت نخب الاستقلال الجديد الذى لم يعترف أحد
منا بأننا محتاجان إليه

وبقيت أوى لحظة بعد هذا الحديث مشغولة البال
وقد ظهر لى أن المناقشة أقلقته قليلاً . وبدأ لى أننى
عرفت السبب فى ذلك . فلقد قضينا عدة أعوام

— لم يا « تيم » لا تكثر من اصطحاب
الفتيات ؟

فضحكت وقلت :

— ولم أكثر من ذلك ولم يبق فى الوجود
فتيات من ذوات العقول ، فكل ما تستطيع الفتيات
أن تعمله الآن هو صبغ الوجوه وارتداء الثياب ،
واحتساء الكوكتيل بغير حساب ، وهذا هو السبب
الذى يحملنى على أن أفضل الخروج معك يا أوى فلقد
جمعت كل شئ : الجمال والذكاء
فقلت أوى :

— إننى جادة يا « تيم » فيما أقول ، فهذا هو
الوقت الذى تبدأ تنظر فيه إلى الأمام ، فبعد قليل
ستحصل على إجازاتك العلمية ، وستجد لك مركزاً
تشغله ، ثم تشعر بحاجتك إلى الاستقرار ، والأيام
الطيبة التى قضيناها ولا تزال نقضيها معا هى من
الأوقات السعيدة حقاً ، ولكنى أحسبك تعلم أنها
لن تدوم إلى الأبد ، لأننا كلينا يا بنى نكبر مع الزمن
وأنا الآن فى السادسة والثلاثين

فقلت مازحاً :

— طفل فى الغاية !

ولكنها قالت ملححة وقد بدت عليها سمات الجد :
— إن عليك أن ترسم خطتك فى حياتك
الشخصية ، وأنا أريد منك أن تكثر من الخروج
وأن تقابل أناساً من سنك وأن تتعرف بأهل
عصرك ..

فقلت أناقشها :

— فليكن ، ولكن ماذا تفعلين أنت ؟ ألم تفكرى

وكنّت أسائل نفسي : ترى ما شأن هذا الرجل أو ذاك ، وهل يمكن أن تكون أُمّي قد أحبّت واحداً من هؤلاء الأصدقاء ؟ وهل يمكن أن يصبح هذا الذي أحبّته زوجاً لها صالحاً وأباً لي طيباً ؟ على أُنّى كنت أشعر بأن في كل منهم نقصاً في نوع ما . ويبدو لي أن رأى أُمّي في هؤلاء الأصدقاء كان متيقفاً مع رأيي فيهم . فقد كنت أرى على وجهها بعض الأحيان إشارات واضحة ثم عن نفس منكسرة يغالبها اليأس ، كأنما قد روعتها سرعة مرور الزمن وهي وحيدة لا شريك لها في الحياة . وأردت في يوم من الأيام أن أستعيد فترة من فترات مرحنا الماضي قبلتها في شوق وقلت :

— لا فائدة يا أُمّي في هذه الحياة الجديدة . فما أستطيع أن آلف هؤلاء الفتيات اللواتي أخرج معهن . فما أجد فيهن من الفطنة والذكاء ما يحببني في عشرتهن

فابتسمت ابتسامة المستفهم وقالت :

— أي شيء تشكو الآن يا تيمى ؟

— لقد خرجت مرة أخرى ليلة أمس مع جوديت كارتر فقطعنا مرحلة في السيارة ، ثم وقفنا حيث أكلنا قطعتين من الساندوتش وشربنا فنجانيتين من القهوة ، وبعد ذلك استأنفنا السير . فما فعلت في أثناء ذلك غير أن لعبت العواطف بنفسها على حين فجأة ، فبدأت بقولها إننى شاب مذهش ، ثم انتهت بأن خطبتني إلى نفسي بالفعل ، أليس عجيباً أمر هؤلاء الفتيات ؟ !

فصحبت أُمّي ضحكة بدا فيها أثر التصنع وقالت

متلازمين في معزل عن الناس وكناراضيين بحياتنا . أما الآن وهذا العالم الخارجى حولنا منتظر أن يدعونا لنفسه منفردين وأن يسلبكنا في حياة الأمر الواقع فإن الخوف قد بدأ يستولى على أُمّي ، وكذلك شعرت أنا بالقلق من التغير الذي يتعارض مع أسلوب حياتنا ومن ذلك المساء سارت حياتنا على نمطها الأول مع فارق أُنّى بدأت أزيد من اختلاطى بالفتيات والفتيان من سنى ، وأن أُمّي أخذت تكثر من دعوة الأصدقاء إلى بيتنا بدل أن كانت تكثر من الخروج . كذلك أكرّث أنا من الخروج في غير صخبها ، ولكننى كنت في كل مرة أخرج فيها من غيرها أزداد شعوراً بعدم الاستقرار في نفسي . ولم يكن في مقدورى أن أتصور ما هو طارىء على من تغير ؛ وكنّت آخِر في أمرى في لحظات غريبة فأنا الآن إذا نظرت إلى الماضي أرى أنه لم يكن من الأمور العادية المألوفة . إن الحياة تتحدانى بما في نفسي من رغبة ملحة في العمل ، وبما فيها هي من مغريات مطالبتها وقضاياها الكبيرة . فما أنا بعد بالصبي ولكننى قد أصبحت رجلاً وبدأت أدرك إدراكاً تاماً ما على من المسؤوليات

كذلك أصبحت أُمّي تظهر اهتماماً متزايداً برجال مختلفين ممن كانوا يأتون إلى بيتنا ليصحبوها إلى الخارج أو ليقضوا بعض الوقت في التسامر معها ، ولقد أحببت أنا أكثرهم ، وكنّت أتحدث معهم وأسأجلهم فيما يتصل بلعبة الكريكت أو حفلات بطولة الملاكمة المقبلة أو الحوادث الجارية . وكنّت في كل مرة أشعر بوجود أُمّي وبأهمية هذه الزيارات

— يخيّل إلى أنك قد أكثرت من الاجتماع
بجوديت أم تراني مخطئة ؟

— بل أظن الأمر كما ترين . فإني أجتمع بها
مرتين في الأسبوع ولكن ليس يبتنا شيء جدى
— قد يكون ذلك من ناحيتك ؛ ولكن لعل
الأمر في نظرها أكبر مما توهمته أنت يا تيم . فإن
المرأة لا تخرج مع الرجل مرتين في الأسبوع فترة
من الزمن دون أن تحمل الأمر بينه وبينها على حمل
الجد ؛ وجوديت فتاة قد عثرت على الرجل الصالح
في رأيها ؛ فأى شيء أقرب إلى الطبيعي من أن تبدأ
تحلم بالبيت ، بالسعادة الدائمة ؟

فأجفلت عن سماع هذا الكلام ، وشعرت على
حين فجأة بالحيرة والقلق يستوليان على نفسي وحاولت
أن أضحك من كلام أمي فقلت :

— كلام فارغ يا أمي ! إنك لا تستطيعين أن
تتخلصي مني بمثل هذه السهولة ، فأنت وأنا ملتصق
أحدنا بالآخر ويجب أن نستغل ذلك على خير الوجوه
وهنا روعت مرة أخرى بما بدا على وجه أمي
من أثر الاضطراب النفسى والشعور باليأس والوحدة
فهل يمكن أن تكون قد وقفت في لحظة من لحظات
الانفعال من أحد الرجال مثل موقف جوديت مني ؟
لقد خطر لي هذا السؤال فتمنيت أن تكون هي أيضاً
قد وقعت على الرجل الصالح في رأيها !

نظرت إلى أمي نظرة الناقد الدقيق فرأيت كما
رأيت في ظروف عديدة أنها حقاً جد جذابة . والحق
أنها لم تبد يوماً في نظري كامرأة جاوزت الخامسة
والعشرين من عمرها . كان شعرها غزيراً لونه نحاسي

يضرب إلى السواد ، غضة المحيا لا تكاد العين تقع
في وجهها على أثر خط من خطوط الزمن ، ولم أملك
أن ساءلت نفسي إن كانت جوديت ستبدو حين تبلغ
السادسة والثلاثين في مثل جمال أمي ونضارتها ؟
ثم دخل في حياتنا عنصر جديد ، ذلك هو
ميخائيل رديج

ومن اللحظة الأولى بدت لي عدة أمور : الأول
أن ميك — وقد بدأت أدعوه بهذا الاسم الصغير
في ثالث مرة لزيارته يبتنا — كان رجلاً محبوباً للدرجة
غير عادية . والثاني الأسلوب الذى انتهجته أمي في
معاملة هذا الرجل الطويل الحلي الهادى الصوت .
فقد ظهر عليها في اللحظة الأولى التى دخل فيها ميك
الغرفة ، أنها قد دخلت في حياة جديدة وأن شرارة
جديدة قد سرت إلى نفسها

تعرفت أمي بميخائيل في أحد الاجتماعات ،
واشتد ميل أحدهما إلى الآخر عندما تبينا أن بينهما
ميلاً متبادلاً إلى الشغف ، وعلى وجه أخص شعر أحد
شعرائنا الحديثين . وأحضر ميخائيل في إحدى زيارته
كتاباً قدمه هدية لأمي فوطد ذلك دعائم الصداقة
بينهما ...

أصبح ميك بعد ذلك زائراً لبيتنا مواظباً ،
وأصبحنا جميعاً نتطلع إلى المساء معاً ، وإلى تبادل
الأحاديث وإلى الترويض جماعة في سيارته

ومضت فترة من الوقت قبل أن أسمح لنفسي
بالاعتقاد بأن بين أمي وبين ميك حباً متبادلاً ،
وحتى بعد أن اعتقدت وجود ذلك الحب لم يكن في
مقدورى أن أحلل المركز تحليلاً دقيقاً . فقد كانت

— هلم يا ولدى « تيم » ستصبح ولك أب جديد
فأرايك في ذلك ؟

ولكن هذا اليوم لم يأت ، وصرت الأيام ثم
لحقت بها الأسابيع وتبعها الأشهر ، وشعرت بأن
في الجو توترا غير طبيعي ، ولم أستطع كشف السر
في ذلك ، واستمر ميك جاعلاً من بيتنا مركزه
الرئيسي ، أما فيما يتصل بجميع المظاهر الخارجية
فقد تقدم حبه أمي في طريق جديدة ، وقد بدأ يظهر
في عينه ما ينم عن التخاذل والتعب ، كذلك بدا لي
أن أمي تروح تحت عبء نفسى ثقيل فقد أصبحت
تستسلم على غير عادتها للانفعال أحياناً ، وعلى الرغم
من أنها كانت تسرع فتعتذر من انفعالها ، فإني
كنت ألحظ أن هناك شيئاً غير طبيعى .

واستقر رأيي في يوم من الأيام على أن أكشف
الحقيقة وقد وجدت أمي مشغولة بكى الملابس فجلست
على مقربة منها وأشعلت سيجارة ثم قلت :

— متى تزوجين من « ميك » يا أمي ؟

وقد حاولت أن أبدو في صورة من خطر له هذا
السؤال عرضاً .

ولم تدهش أمي لسؤالي ولم ترد على أن ابتسمت
وقالت :

— لست أدري يا تيم ، فإن ميك يقول : إنه
لا يربح من المال ما يكفي لحياة الزوجية . فقد أصابه
سوء الحظ في السنوات الأخيرة وتأبى عليه كرامته
النفسية أن أمد له يد المساعدة !

إذن ، لقد تكلمنا معاً في موضوع الزواج ،
وإذن كنت مصيباً فيما ظننته ، فشعرت في آن واحد

أمي حتى ذاك تبدو متعالية فوق شؤون الحب وتنظر
إليها نظرها إلى هنات من أعمال الفتيات الصغيرات
لا من أعمال أمهات هن أولاد في سن التاسعة عشرة
على أننى احتفظت بأرائى في نفسى واعتزمت
أن أترك الأمور تسير في مجراها الطبيعى ، فمهما يكن
من أمر ، وسواء أتزوج أمي من ميك أم لم تزوج
منه فليس ذلك من شأنى . وصحیح أن هذا الزواج
سيترك شيئاً من الأثر في حياتى ، ولكن لما لم أكن
أظن في الرجل إلا كل خير فقد شعرت بأننى لن
ألبث أن آلف التغير الجديد في حياتنا .

وعلى كل حال كان من الحسن أن أشهد حياة
جديدة وأن أرى شعاع النبضة يبدو من عيني أمي ،
ولقد شكرت للأقدار أن هيات لها قطرة من السعادة
ورجوت ألا تندم يوماً على اختيارها

ومشت قصة الغرام سريعة الخطى ، فكانت نادرة
تلك الليلة التى لا تجتمع فيها أمي بميخائيل ، فكانا
دائماً يخرجان معاً في السيارة ويزوران أصدقاءهما معاً
أيضاً ، وكانا أحياناً يختلفان إلى دور التمثيل أو إلى
الحفلات الموسيقية . أما أنا فقد تركت لمريانى التى
لاءمتنى إذ بدأت أزداد اهتماماً وتعلقاً بمجوديت كارتر
فقد كانت فتاة ماهرة نشطة ، لم تعبت الخلاعة
بأخلاقها ، ووجدت أننى أستطيع بقضاء سهرة معها
أن أنعم بخير مما كنت أتصور أننى مستطيع أن
أنعم به .

وكما صرت الأيام ازدادت تعجباً لتأخر النتيجة
التي كنت أتوقعها ، فقد كنت كلما عدت إلى البيت
ووجدت أمي مع صديقها انتظرت أن أسمع منها قولها :

بالسرور وبالأسف وقلت :

— وعلى فكرة أيمكن أن تقول لي بم يشتغل ميك ، فإني لم أعرف قط شيئاً يتصل بعمله في الحياة .
أجابت أمي :

— إنه يشتغل مركز كاتب في أحد المصانع الكبيرة بالمدينة ، فقد أضاع كل ماله وخسر عمله السابق ، فاضطر أن يقبل هذا المركز ليستعين به على الحياة .

ميك — كاتب صغير !

لم يكن الأمر أمر المركز الذي يشغله الرجل . ولكن ما كان يبدو على ميك من مظاهر الثقة الهادئة وحسن الجرثومة كان ينم عن كفايته وعن استعداداته لأن يكون الأمر المطاع ... ولقد كانت يخيل لي أنه على أقل تقدير من السامرة أو المديرين المالين ...

وبدأ ميك يكثر من شرب الدخان ولست أدري إذا كان الباعث على ذلك رغبته في أن ينسي ما أخذ يحيم على مجتمعنا الثلاثي من العبوس والوجوم ، أو إن كان هناك باعث آخر لا أعرفه . وكل ما أعرفه أنه أصبح الآن يأتي إلى البيت مسلحاً بقنينة من الوسكي ، كان يخلط به أنواعاً أخرى من المسكرات كذلك بدأت أمي تشرب الخمر من حين إلى حين وقد أقلقني ذلك ، وإذا كنت عصرياً في كل شيء حتى فيما يتصل بالخمر ، فإني لم أكن أعارض في شرب كأس من النكوكيتيل في بعض الظروف ، ولكن أمي كانت دائماً محافظة في كل شيء ، تكتفي بتعريف مثل تجريبية من الحياة هنا وهناك : أما الآن

فقد بدا لي أن هناك نوعاً من الضجر الغريب يشغل نفسها ، كما لو أن هناك حاجة ملحة تدفعها مرغمة في الطريق التي تسلكها .

ولاحظت في إحدى الليالي — بعد انصراف ميك — أن خطوات أمي لم تكن على ما عهدتها من الثبات والاتزان ، ولم ألبث أن صمقت إذ تبينت أنها كانت منتشية من الخمر ، فاستولى الغضب فجأة على نفسي . ثم بدأت أقول :

— ألا تظنين يا أمي أنك قد اندفعت أخيراً في طريق الحياة اندفاعاً قد يكون شديداً بعض الشيء ؟

— فأزاحتني من طريقها وغطت عينيها بكفيها وقالت :

— إذهب إلى فراشك يا تيم واركض وحدي ولكني أصرت على موقفي وقلت :

— يخيل لي أن ميك الذي يرى أن موقفه المالي السيء لا يسمح له بالزواج ، ينفق في الوقت نفسه مالاً كثيراً في ابتياع الخمر

ولأول مرة في حياتي رأيت أمي تنضب غضباً حقيقياً ، فاقتربت مني ووقفت إلى جانب كرسي ، وكانت عيناها تبرقان غير مستقرتين وقالت :

أريد منك يا تيم ألا تقول مرة أخرى مثل هذا الكلام . فإني أملك وأنا ... على كل حال إن ما نعمله هو من شئوننا الخاصة ، وأريد منك ألا تتدخل في أمرنا .

كانت هذه هي المعركة الأولى بين أمي وبينى ، فأخذت كل منا لحظة في وجه الآخر ، ثم تلفتت .

من الأثاث المبعثر، وكانت آلة الراديو تذيع في أعلى درجاتها نغمات موسيقى «جاز» من النوع الواطى، وكان الجو مشبعاً برائحة الوسكى ودخان السجائر وكان ميك وأى مشغولين أحدهما بالآخر، وكانا يتبادلان الضحكات الفاترة المشتهرة فلم يشعرنا بدخولى

وشمرت بدافع جنونى يدفعنى إلى الوثوب على الرجل والقبض على عنقه، واستولى على الخوف من الانفعالات الشديدة التى بدأت تغلى فى صدرى وتقدمت إلى آلة الراديو فوقفت حركتها، ومضت لحظة لم يصل فيها أثر السكون الذى طرأ على الغرفة إلى عقليهما اللذين غيبتهما الخمر، ولكن يظهر أنهما قد تنبها على حين فجأة إلى أن الراديو لا يمكن أن يكون قد سكت من تلقاء نفسه، فالتفتا وأحدقا فى وجهى

وأظن أن أى لم تدرك فى الثوانى الأولى القليلة لشدة ذهولها، الخطر الحقيقى لحضورى فى ذلك الوقت. فجلست فى مكانها وقد التصق شعرها بكل ناحية من وجهها، ونظرت إلى نظرة بلهاء. ولم أستطع أن أنظر إليها فحشرت نظرى فى ميك، وما رأيت عينيه المحمرتين ووجهه الملهب حتى انقلب شعور الغضب والعنف الذى استولى على إلى احتقار واشمئزاز! أياكون ميك الذى وثقت به واعتقدت فيه أخلاق السادة هو المجرم الذى يرتكب هذا!

على أن مخيلتى لم تلبث أن طمسها ثورة مفاجئة فتقدمت خطوة نحوه، ولكننى مع ذلك لم أمسه (II)

واتجهت إلى السلم فصعدتها، وإذا شمعت بثقل فى قلبى وجزعت فجأة من شيء لم أستطع أن أتبينه، فقد أويت إلى فراشى وحاولت أن أنام، ولكن النوم لم يعرف طريقه تلك الليلة إلى جفونى

وبعد ليال من هذا الحادث خرجت مع جوديت فى سيارتى، وسألته أين تريد أن نذهب، فأجابت بأنها لا تفضل مكاناً على آخر، فقلت وأنا أشعر بشيء من الانقباض:

— لست أشعر برغبة فى الذهاب إلى السينما، فهل توافقين على أن نتجول بعض الوقت فى السيارة؟

فوافقت الفتاة على رأيى

استقر فى نفسى أن العمل بهذا الاقتراح هو خير الوسائل لتخلصى من التفكير فى أمور معينة، فقلت لجوديت:

أظن أنه يحسن بنا أن نعود إلى البيت لآتى بصديرى من الصوف فإن سرعة السيارة تزيد شعورنا بشدة البرد

وأدركت السيارة فى طريق البيت حتى إذا وصلنا أمام الباب الخارجى وثبت من مقعدى تاركاً جوديت فى انتظارى وأخرجت مفتاحى الخاص وفتحت الباب، وتذكرت أن أى وميك لا بد أن يكونا فى هذا الوقت لا يزالان فى البيت ... فاتجهت إلى غرفة الجلوس ...

وما أحسب أن المنظر الذى وقعت عليه عيناي سيفارق مخيلتى ما حيت، فقد كانت الغرفة مجموعة



بيدي . لقد كنت أكبر منه جسماً وأقوى عضلاً
غير أنني رأيتني غير مستطيع أن أمد إليه يداً بالأذى
فابتعدت عنه كما يبتعد الإنسان عن الأفعى

ووجدتني بعد ذلك أمحرك كاللعبة المرنة التي
تحركها يد اللاعب بخيط متصل بأجزائها ، فإذا يدي
تبحث عن أحد أدراج الكتب ففتحته وأخرجت
منه مسدساً كان لأبي ، فحركت مفتاح الأمان ،
وصوبت فوهة المسدس إلى ميك . ، وقلت في نفمة
جامدة :

أبدأ من هذه الغرفة حياً

عندئذ صاحت أمي صيحة وحشية يائسة ردت
إلى رأسي كل ما أطاره المنظر من ضوآب . ولم تلبث
أن وثبت من مكانها فوقفت حائلة بيني وبين ميك .
وقد تجسم الرعب في عينيها وأخذ أثر الخمر يتلاشى
مسرعاً ، وقالت :

— تيمى ! تيمى ! لا تطلق النار ! تيمى إنك
لا تدري ما أنت فاعل !

كنت في هذه اللحظة أرتجف من قمة رأسي
إلى إخمص قدمي ، وأحسست بجسمي كله يهزه

— ميك ... قف بعيداً فسأقتلك !

ولكنه جلس في مكانه مترنحاً محاولاً أن يلتقي
نظره بنظري ، وقد أخذ خطر المركز يتبين له في بطاء
فرفع يداً مضطربة وقال :

— لا تطلق النار يا تيمى ! وضع جانباً هذا
المسدس قبل أن ينطلق !
فقلت :

— إنه سينطلق ، فقف وانتقل إلى هذه
الناحية ولا تحاول أن تبتعد عنها ، فإنك لن تخرج

الغضب الذى ملكنى هنا عنيفاً . وشعرت بثقل شديد فى معدتى . وفجأة رأيتى مندفعاً اندفاع اليأس لإنهاء هذا الموقف أسرع ما أستطيع

وخرجت الكلمات من بين أسناني المتقلصة بطيئة قتالة

أهتمت الرجل — أهتمته بكل ما استطاع عقل الشاب أن يتصوره ، فايض وجه الرجل من قسوة التهم وحقارتها ، ولكن لم يبد فى عينيه أى أثر للخوف . وكأني به وهو يبحث عن الكلمات التى قد تعيد إلى هذا الموقف الجنونى شيئاً من الهدوء والسكون ، ولكنه لم يهتد إلى هذه الكلمات وسألتنى أى فى صوت ضعيف متهدج :

- ماذا أنت فاعل يا تيم ؟

فلم أنظر إليها ولكننى أجبت على سؤالها ، وقد جززت على أسناني وصوبت مسدسى وقلت :

- سأقتل ميك

فقال ميك فى صوت هادى هدهو غريباً :

- لا ، يا تيم ! إنك لن تقتلنى قبل أن تصنى

إلى لحظة

قلت غاضباً :

لن يكون فيما يمكن أن تقول ما ينبجيك

فاستمر فى حديثه كأنه لم يسمعنى وقال :

- إني أحب أمك يا تيم ! أحببتها منذ اللحظة

الأولى التى رأيتها فيها ، وأعتقد أنها هى أيضاً تحبني ، وقد اعترمت أن أتزوج منها ، ولكن الناحية المالية هى التى جعلت هذا الزواج حتى الآن مستحيلاً

وليس لدى يا تيم ما أعتذر به مما حدث الليلة ، وإني متفق معك فى أننى أخطأت ، وأفهم جيداً كيف يبدو الأمر فى نظرك ، وكل ما أستطيع قوله هو أننى آسف لرؤيتك لنا فى هذا الموقف ، ولست أتمس لنفسى العذر من استسلامي للضعف ، ولكننى ضعفت أول الأمر فى مقاومة الخمر فلما خضعت لها زادتني ضعفاً على ضعف

فقاطعته فى عنف قائلاً :

- أسرع وأوجز يا ميك فلم يبق أمامك فى الحياة غير لحظات فتهد الرجل تنهداً طويلاً وقال :

- إن ما قلته يا تيم ، عن أمك منذ لحظة صدق كله ، ولا يزال صدقاً ، فى كل الوقت الذى عرفتها فيه لم أسمع منها كلمة نائية ولم أشهد منها عملاً حقيراً ، ويجب أن تثق بأن هذا هو شأنها الحق - سواء أصدقت مثل ذلك فيما يتصل بشخصى أم لم تصدق ، ولكن اسمح لى يا تيم أن أسألك سؤالاً واحداً ، فقد حدث أنك شربت شيئاً من الخمر ، وما من شك فى أن الخمر قد أثر فى رأسك أحياناً ، كذلك لا بد أن تكون قد شربت الخمر مع بعض الفتيات ، فهلا توافقنى إذا قلت إنه قد يسهل أحياناً حين ينتشى الإنسان بالشراب ، أن يندفع غير مدرك إلى الشطط فى تصرفاته ؟

ما سمعت هذه الكلمات حتى شعرت فجأة بشيء من الضعف والدوار يستولى على . فأغمضت عيني وأسندت يدي إلى المائدة لأحفظ توازنى . ثم فتحت

— ما هذا يا تيمى ؟ لقد بدأت أظن أنك
إنما تنسج الصديري نسجاً ، ولكنك مع ذلك
لم تأت به !

ولكنها لم تكذب ترى وجهى حتى قطعت حديثها
ونظرت إلى نظرة استفهام فقلت :

- هل يضايقك يا جوديت أن أوصلك إلى
بيتك مباشرة ؟ لقد حدث شيء لا أستطيع الآن
شرحه .

ولاشك في أنها لاحظت ما أنا فيه من اضطراب
فقد أجابتنى في صوت خافت :

— فليكن ما تريد يا تيمى .
بقيت أسبوعاً كأننى فى حلم مرعج ، أحاول
ما استطعت أن أصرف عن مخيلتى ذلك المنظر الذى وقع
عليه نظرى فى تلك الليلة المشؤومة . ولم أحاول قط
أن أتصل بأى ، واستأجرت غرفة فى أحد الفنادق ،
ولم أقرب مرة من البيت

وفى نهاية الأسبوع وجدتني قد أصبحت هيكلاً
محطاً مضطرب الأعصاب ، أقضي الليالى فى أرق
فلا تتذوق عيناى طعم المنام ، وفى النهار لا تفارقني
صورة ذلك المنظر الشنيع . واجتهدت أن أختلط
بالناس لأنسى ، فكانوا يتلقوننى فى بشاشة وترحيب
ويسألوننى عن أُمى . وأخذت شيئاً فشيئاً أتعود
الحياة الجافة ، وقد خيل إلى أنه من المستحيل أن أجد
فى الحياة لذة بعد الآن

واستقر عزمى آخر الأمر على أن أهرج البلد ،
وصممت أن أبحث عن عمل وأن يكون عملاً شاقاً

عيني مرة أخرى ونظرت إلى ميك ... ميك الذى
كان واقفاً أمامى مستقيماً أبيض الوجه . ومع ذلك
كان شعور الاحتقار يملأ قلبى ، وما من شك
فى أن ميك قد لحظ ذلك فى عيني فغمز بعينه وهو
يدمدم :

— والآن إذا كنت لا تزال يا تيمى منصماً على
قتلى فاضغط هذا الزناد واقض أمرك !

فحدقت فى الرجل ، وشعرت فجأة بأن جميع
أعصاب التوتر ترتخى فى كل ناحية من نواحي جسمى
وبعد أن كان كل همى أن أقتل أصبح كل ما أطلبه
الآن أن أهرب . أردت أن أندفع خارجاً من الغرفة
فلا يقع نظرى بعد ذلك عليها ، ولا على الشخصين
الذين فيها . أردت أن أستبدل برائحة الوردى ،
والدخان المطبق فى جو الغرفة نسيم الليل الرطب النقي
فى الخلاء .

فالتفت إلى أُمى وقلت :

- ليكن ما تريدن ، ولتندفعا فى طريقكما
على ما تشهيان وسواء أتزوجكما أم لم تزوجا فإن
الأمر عندى سواء . ولكن لا تنتظرن أن تريننى
مرة أخرى ما حيت ! لا تحاولن أن تبحن عني ،
فلننى لم أربى من حاجة لأن أنظر إلى أى منكما
بعد الآن !

ثم التفت وخرجت من الغرفة فشعرت بنسيم
الليل كنفحة من نفحات العطر الزكى ، وقصدت
إلى السيارة فتلقتنى جوديت بضحكة قصيرة مريحة
وقالت :

لا تخلص من الحال التمسعة التي أخذت تكتنفني
واتصلت تليفونيا بالبيت معتزماً أن أغير صوئي
إذا تصادف أن ردت على أمي ، ولكن مضت فترة
لم أتلق جواباً على الدق المتواصل فعلت أن ليس من
أحد في البيت ، فأسرعت إلى سيارتي ومضيت بها
إلى هناك ، منتهزاً فرصة غياب أمي لأنني لم أكن
أريد أن ألتقي بها ، وقد اعترمت أن أنفذ تهديدي
بقطع كل علاقة بيني وبينها

وجدت البيت على الحالة نفسها التي تركته عليها
فشعرت لحظة بالحنين إلى الدار ، فلقد كانت هذه
داري ، وهذا هو مربى الذي ألقته ، فما الذي أصاب
السعادة التي نعمنا بها حيناً ؟!

تسللت إلى غرفتي وبدأت أحزم حقائبي ،
حتى إذا انتهيت من عملي وأصبحت على استعداد
لمغادرة البيت فتح الباب ودخلت أمي تحمل على
ساعديها كثيراً من أنواع البقالة . فلم تكدراني
حتى وقفت فجأة وحقق أحداً في الآخر . ولم تلبث
أن طرحت أحمالها وقذفت بنفسها علىّ وهي تزفر
زفيراً هستيرياً وتصيح :

— تيمى ! تيمى ! أين كنت ، لقد بحثت عنك
في كل مكان . آه يا تيم لقد خيل إلى أن نهاية العالم
قد حلت بنا

لم أدر ما أقول ، ولكنني أحسست أن عزيمتي
أخذت تتلاشى . فن العجيب أنني شعرت بشيء
من السعادة إذ وجدتني مرة أخرى على مقربة من
والدتي ، وأحس ساعديها يطوقان عنقي . ولم أستطع

أن أفكر إلا في أننا قد اجتمعنا معاً مرة أخرى ،
وفي أنني لسبب سخيف قد أعددت حقبة ملأى
بامتعتي كما لو كنت ذاهباً إلى سياحة طويلة ،
أو ما يشبه ذلك :
وقلت مدمماً :

— لقد ... لقد كنت أعزم الذهاب

فتنهت وتعلقت بي وقالت :

— لا تذهب يا تيم ! فسيكون كل شيء على
ما تحب . لقد انتهيت من ميك وهجرته . وقد قلت له
إنني إذا خيرت بينه وبينك فإنني أختارك . وها أنا ذى
لم أره من ذلك اليوم

وحاولت أن أستعين بجميع الأسباب التي
تمكنتني من التمسك بعزى الأول ، ولكن كل
ما استطعت أن أحس به هو الشفقة على هذه المرأة
التي هي أمي . لقد كانت تتعذب عذاباً شديداً وهي
تتوسل إلى الشخص الوحيد الباقي لها في الحياة ليغفر
لها ويسامحها . فكان كل ما قلته :

— لا بأس ، سننسى ! سننسى كل شيء ،
ولن نذكر اسمه بعد ذلك أبداً !

وخيل إلى أن الأمر سيصبح بعد ذلك سهلاً .
ظننت أننا باتفاقنا على أن نخرج ميك من محيط
حياتنا مستطيعان أن نستأنف سعادتنا الماضية .

ولكن لم يكن ذلك إلا وهماً لم يتحقق
فلم أستطع أن أنسى . فقد كنت إذا جلسنا
إلى المائدة أو تمددنا في غرفة الجلوس أختلس النظر
إلى أمي من حين إلى حين فأراها محدقة بي تقابل

بيدها ، وحاولت أن يكون صوتي رقيقاً مداعباً وأنا أقول :

— يا أمي ! إن بنيك الصغير تيمى سيضرب الصخر برأسه إذا لم تعودى إلى مداعبته
فقلت :

— حسن يا تيمى ، وسأجتهد ، سأجتهد ..
ثم اختنق صوتها . فنظرت إليها متألمة وقلت :
— ما هذا يا أمي ؟
فقلت :

— لا شيء يا تيم ، كل ما هناك أنني كنت
تعيمة شقية ، وإني لسرورة أن أراك في البيت
بت تلك الليلة يقظان أفكر وقد غمر اليأس
نفسى إذ تبينت أنه على الرغم من المظاهر التي تبدو
على حياتنا فإن شيئاً غريباً قد أصابنا ولن نكون
أبداً كما كنا من قبل أما وولداً . فهناك دائماً
ذلك الرمز ، ذلك الشيء الذى لم نستطع أن ننساه ،
هذا الشيء سيظل علينا دائماً هائلاً بنا يشمرنا
بالتماسة والشقاء

وفي يوم من أيام الآحاد بقيت وحدى في البيت
واستقلت أمي السيارة لزيارة بعض صديقاتها وقالت :
إنها لن تعود إلا متأخرة

فلما وجدت نفسى وحيداً خطر لى أن أتجول
في غرف البيت لغير غاية معينة ، ثم شرعت أقرأ
الصحيفة اليومية فلم أترك فيها سطوراً لم أقرأه .
ولما انتهيت منها اضطجعت ودخنت عدة سجائر
مجتهداً في أن أجد طريقاً للخلاص من الموقف الذى
بتنا فيه

نظرتى بابتسامة حزينة أقابلها بابتسامة متكلفة ،
ولكن كان كل منا يعرف ما يفكر فيه الآخر ،
لقد كانت ذكرى مزججة تلك التى تلازمنا في كل
مكان : أم مدنسة في نظر ابنها ! أوجد شيء يستطيع
أن يطمس معالم هذه المأساة ؟ !

لقد أجهدت رأسى في البحث عن الوسائل التى
أستطيع بها أن ألين ذلك التوتر الذى أصاب حياتنا
فابثمت لها كثيراً من الهدايا ولكن الهدايا
لم تكن غطاء للفقران الذى لم أستطع أن أسبله عليها
وحاولت أن أدخل في حديثنا الملح والنكات على
ما تعودنا قبل أن تفارقنا السعادة ، ولكنها كلها
كانت تبدو مبتذلة جوفاء . وأخذت أعصابنا تزداد
كل يوم تضعف ، وعلى الرغم من أننا كنا نحاول
أن تكون لهجاتنا هادئة لا يتخللها شيء من الغضب
والانفعال فقد كنا نشعر أن لا بد من نهاية لهذه الحال
غير الطبيعية .

عدت ليلة إلى البيت فوجدت أمي تنظر من
النافذة جامدة ، وكانت الغرفة مظلمة . فلما أدت
مفتاح الكهرباء رأيت عينيها محمرتين كما لو كانت
تبكى ...

وأحسست طوفاناً من الندم يغمرنى وتمثل أمام
عيني رمز الأسف والحسرة يحول بين أمي وبينى ،
وكان يسخر منا في موقفنا العاجز ، وليس في يدينا
ما نستطيع أن نعمله للتخلص من برائته .

كان يبدو على أمي الانكسار والضعف والشعور
بالعزلة المؤلمة فلم أتمالك أن ركبت إلى جانبها وأمسكت

ولم أتمالك نفسي من التفكير فيما رأيت من إهمال أمي في ارتداء ملابسها وهي تستعد للخروج ، ولا في المظهر الحزين الذي بدا عليها وهي تجتاز عتبة الباب

ولم يلبث نظري القلق أن وقع على كتاب فوق المائدة ، وكنت قد رأيته عدة مرات من قبل ولكن لم أفتحه قط ، أما في هذه الليلة ففتحته ، ونظرت متكاسلاً إلى غلافه ، لقد كان ديواناً من دواوين الشعر ، وهو الديوان الذي أهداه ميك إلى أمي ، منذ زمن طويل ، وقرأت في الورقة البيضاء التي تلي الغلاف هذه الكلمات : « تحيات إلى صديق جديد من ميخائيل دوج » ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى عشرة أشهر مضت

حدثت في الاسم مندهشاً كيف لم يعد يؤثر في نفسي ، ترى هل ضعفت ذاكرتي ؟ كم تراني دخلت في دور الجمود وعدم الاكتراث ؟

قلبت صفحات الديوان فوق وقع نظري على كثير من الأبيات التي رسمت تحتها خطوط بالخط الأحمر ، وكان جلياً أن ميك هو الذي رسم هذه الخطوط وقد قرأت فوق أحد الأشعار هذه الكلمات : « لعل هذا يفسر لك بأسهل مما أستطيع ما حاولت أن أشرحه لك في الليلة الماضية

وقرأت الشعر فتأثرت بما في فكرته من جمال ورقة أدركت إذن أن ميك قد أحب هذا الشعر وقد أوصني أمي بقراءته ، لقد كنت نسيت أن مثل هذه الأفكار قد خطرت يوماً برأس ميك ونسيت

كذلك أنه أهدى أمي هذا الكتاب . وعلى حين فجأة خطر لي الحل الذي أبحث عنه ، فكان كالشعاع الذي ينبثق فجأة في زاوية مظلمة ، إن الحياة بين أمي وبينى لن تعود سيرتها الأولى حتى نعالج السبب الذي أدى إلى ما نحن فيه ، ولم نكن حتى الآن قد عملنا شيئاً غير محاولة النسيان . فكان مجهودنا في استرداد سعادتنا الضائعة بمجهوداً رجعياً والحياة لا يمكن أن تعود إلى الوراء . لقد حاولنا أن ننسل إلى الكن الذي كنا نعيش فيه قبل أن تحمل بنا المأساة ، ولكن منذ ذلك اليوم وقع من الأحداث ما يترك في نفوسنا أثراً دائماً يحول دون ما نبغيه ما لم نحول هذه الأحداث إلى الطريق التي تلامنا . وهناك أمر واحد ما فيه من شك ذلك أن أمي قد أحبت ميك وهي لا تزال تحبه !

شعرت فجأة بالحرارة والأقتناع يملآن نفسي فوثبت مندفعاً إلى آلة التليفون ، وأدريت رقفاً فواصل إلى أذني صوت ألفتته من قبل حتى شعرت كأن شرارة كهربائية سرت في كل جسمي وقلت :

— ميك ... ! ميك ... ! مرحى ... ! هذا تيم الذي يخاطبك ... ليسألك إذا كان لديك ما يحول دون مجيئك إلينا هذا المساء ؟ أرجو أن تحضر فالأمر جد هام ... فأنا ... أنا أريد أن أعتذر من عدة أمور ... أود أن أصالحك ... وأسألك إذا كنت ترغب في مساعدتي في رد السعادة إلى أمي ؟ ماذا تقول ؟ ستحضر ؟ أشكر لك يا ميك ! بقيت في البيت وكأن في حلقى سداً يكاد يخنقني

والوحدة وأشباح الذكريات السوداء التي كانت
تملأ حياتنا ...

لما وقفت بعد شهر من هذا اليوم ، أنا وجوديت
في بهو الكنيسة الصغيرة المزينة بالأزهار وشهدنا
القسيس يعقد زواج أمي وميك ، ساءت نفسي
مندهشاً كيف يستطيع ابن أن يرير اتهامه أمه ،
لأى سبب من الأسباب ، إذا هو لم يكن أهلاً حتى
لأن يفهم الأمور التي يمكن أن تحتفظ بها أمه سرّاً
في قلبها ؟

أما جوديت فقد أبدت إعجابها بحفلة الزواج
وجالها ، ومن رأيها أنه يكون جميلاً أن تزوج في
الكنيسة نفسها ... في الخريف المقبل

عبد الحميد محمدي

إلى أن جاء ميك . فتلقفت يده ، ودفعته إلى أحد
الكراسي ، وساد السكوت بيننا فترة طويلة كنت
في أثناءها أطل من الشباك محاولاً تملك نفسي ،
ولم ألبث أن سمعت صوت الرفيق المتعب من ورائي
يقول : « هنا فلنتظاهر ياتيم بأنني كنت هنا طوال
هذا اليوم . فقيم كنت أنت شاغلاً نفسك كل هذه
الساعات ؟ »

وهكذا نجح ميك حيث فشلت أنا ، في وضع
الأمور على أساس متين .

ترى هل بي من حاجة لأن أصف مظاهر
الدهشة والسرور التي ملأت وجه أمي عند ما دخلت
البيت فرأنتني ألعب الورق مع ميك ؟ أبي من حاجة
لأن أصف كيف تلاشت هباء جميع المتاعب

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
العصر لموسيه ، والأديسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومنقولة .

الثنى ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بأثمانه الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد

سِرِّ السِّنُونُفِ

اقصصت مصرية
بقلم الأستاذ د. بني خشيبة

يكون ملك الموت الكريم
ما يزال يرف على القصر وينظر
في حزن إلى الزهر الأسوان
والشجر الكاسف أو أن يكون
قد قبض الروح هناك، وشهد
ذاك القدر هنا، فيحمل إلى الله
العلی رسالة البشرية الظالمة مع
رسالة الموت الحق في آن،
والله بكل شيء عليم...

لقد علقت الملكة أخت الملك وهويته كما هويت
زوجة العزيز نبي الله في مصر، وكما هويت أختايا
بليروفون في اليونان

لعلك لا تعرفين هذه الأسطورة ! إنها بعينها
قصة يوسف، تلك القصة الرائعة التي تمثل على
مسرح الزمان في كل زمان ومكان

علقت الملكة أخت الملك الذي شغفها حباً؛ وقد
تردد أخو الملك أول الأمر، وجعل يصارع جبروت
الحب، لكن الملكة كانت جميلة وساحرة، وكان
لها جسم ممشوق يشير النداء القديم في القلوب المحيطة
به... لقد كانت تمس كالظبي، وترنو بعينين مثل
عينيه، تمهد لها ابتسامات الفم الجميل الدقيق المشتعل
كل سبيل إلى كل قلب... لذلك لم يستطع أخو
الملك أن يقاوم طويلاً... فاستسلم، وجرفه تيار
الحب، وقامت العلاقات الأثيمة بينه وبين الملكة

ولما كانت الملكة هي التي تطارد عاشقها بحبها
فلم تكن تخشى شيئاً في سبيل لقائه والانفراد به...
لقد كانت تنسرق في ظلام الليل من مخدع الزوج
الوفى المريض لتتقلب في أحضان خليلها المسكين،
حتى إذا بلبت أوام قلبها الشرير عادت دون أن تستشعر
(٢)

كانت تصنى إلى حديثه في انتباه شديد وذهول،
وكانت الحمرة الفاتنة التي طالما تأججت بالنزل الملتهب
في خديها قد استحالت إلى شحوب وصفرة، وكانت
عينهاها النجلاوان قد أخذتا ترتعشان، وقد بدا فيهما
أثر البكاء الصامت

وكان نعمان يروي لزوجته الجميلة الهيفاء أسطورة
ساذجة مما يطالعه الناس عفواً في بطون الكتب
ولم يكن يدور بخله أن حديثه يتدفق في قلب فتاته
فيثير فيه الهم ويعكر عليه الصفو، وينزعها من
أحلام الحاضر الجميل فيقذف بها في عالم الذكريات
— فلما مات الملك صفا الجو لأخيه الذي غابت

الشرائط في فؤاده، ورقعت الأبالسة في رأسه،
فلم يطق على لقاء الملكة الفاجرة صبراً، بل انطلق
في جنح الليل البهيم للقاءها... وكأنما كانت وإياه
على موعد، فقد تركت خيئة الزوج الراحل الوفي
مسيحاً على سريرها، وذهبت دون أن تذرف عليها
دمعة لتبادل البشريات والتهاني هي وعشيقتها الآثم
وهناك... تحت الدوحة الحزينة الباكية التي

شهدت غرام الملك، وسمعت عين الملكة، أهوى
العاشق الجديد على الفم الغادر يقبله، غير مبالي أن

وخزة من ضميرها الميت ، فتجد زوجها يبكي ويشكو من علته ، ولو درى لبكى وشكا من زوجته

ولم تمض أيام حتى كان العاشق وصياً على العرش وقائماً مقام الطفل الصغير ولى العهد ، وراعياً للطفلة النبائسة التي فقدت أباهما أشد ما تكون في حاجة إليه ومضى عام أو نحوه ، ثم قيل إن ولى العهد مريض ، وإن علته قاسية قاتلة ، وإنه في حاجة إلى الشمس المنعكسة من الثلج فوق قمم الجبال

ترين ، هل كان مريضاً حقاً ؟ أم أراد الوصى على عرشه حاجة في نفسه فهو يخفيها حينها ؟

وذهبوا بالطفل البري إلى قمة جبل منيف شاهق في مملكة مجاورة ، وخصصت له طائفة من الخدم من بطانة الوصى

ولم تمض أشهر حتى جاء نبي ولى العهد ، ولكن ليس كما ينجى نبي أحد من الناس . لقد قصوا في ذلك قصة عجيبة لو صدقت لكانت أسطورة في أسطورة ذكروا أن العلة اشتدت بالغلام الذي كان يضيق بالدواء وبالخدم ، فتغفل حراسه وانسرق في غابة قريبة ، فلم يزل يتغفل بين الأشجار حتى أمن الأنظار ثم انتحر ...

— أجل ، سأقص عليك كيف فعل ، فإنهم يروون في ذلك قصة هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ...

يقولون إنه ما زال منطلقاً في الغابة لا يدرى أين يستقر ولا ماذا عساه يفعل ، وكان الطقس بارداً والرياح زمهريراً ، فلما غربت الشمس أو كادت ، تطرح الغلام عند جذع شجرة هائلة ، ثم أخذت جفنيه سنة من النوم فاستغرق في سبات عميق

— انتظري ، فسأروى لك كل شيء ... ثم

يقولون إن سرباً من الكراكي وعصافير السنونو كان آيماً من رحلته الطويلة إلى الشمال فشهد الغلام مستلقياً عند جذع الشجرة ، فذهب رائد الطير ليتحسس الخبر ، ثم عاد إلى السرب ، فما هي إلا لحظة حتى أقبل الطير كله يحمل الزهر الجميل فجعل يلقيه فوق الطفل ، ثم أخذ الطير يرف فوق الغابة ويعود بالزهر ليصنع منه مهاداً وثيراً لولى العهد ... وانطلقت العصافير والكراكي ... وأصبح الصباح وأرسلت الشمس أشعتها خَلَلَ الأفنان فسقط منها شعاع فوق الطفل الذي لم يستيقظ بعد ...

وأقبل كركي جميل فجعل يغني ويهتف بالطفل ، لكن الطفل ظل نائماً ولم يستيقظ ... وأقبل كركي آخر وأخذ ينشد ويفرد ، ويقف على الجبين الباهت الناصل الشاحب ... لكن الجبين الباهت الناصل الشاحب ظل ساكناً ولم يتحرك

وهنا وصل العسس الكثير ، ووقف الحراس مسبوهم مشدوهين ... وتقدم رئيسهم فأنحنى فوق الجثة الهامدة فحملها ، وجعل يطرها بدمعه الكريم الحزين ...

وحزنت الملكة أياماً ثم قامت إلى هواها فأخذت فيه من جديد كأنه لم يحدث هذا الحادث المؤلم لولى العهد .

— انتظري فسأروى لك حديث الطفلة ... فهم يذكرون أنها ظلت أياماً تبكي ، وتسأل أين ذهب أخوها ، وكانوا يقولون لها إنه ذهب ليحضر لها باقات الورد من الغابة ، وإنه لا يلبث أن يعود ... فلما مضى العام أو تصرف معظمه ولم يعد ولى العهد ، أخذت وحشة الفتاة اليتيمة تتضاعف ، وبدأت تحس مرارة العيش بعد أبيها الملك وأخيها ولى العهد ... وبدأت

الذكريات والموتى ترقص في هواء الحديقة الخائقة الكريه ... وأخذت قبلات الغرام الأثيم ترقص مع الذكريات سافرة متهمكة مطلة على الملكة من حديق النوار ومقل البنفسج وأعين النرجس ، وآفاق البنسيه . وكانت هذه القبل تسقط كالسهم في حشاشة الملكة لأنها كانت تنشر رائحة الماضي كأنها تنشر رائحة صارخة من قبر قديم ... ومضت سنوات قلائل ... ولم يعرف أحد أين ذهبت الأميرة الصغيرة التي لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها بعد

ووقعت الجفوة بين الوصى الذي أصبح ملكاً وبين الملكة التي لم تصبح شيئاً ... ولم يكن الملك يجهل ما يقوم بنفس صاحبه من غيظ وحنق فكان يحوطها بالجواسيس ويرصد لها العيون كل مرصد ، وكانت هي تحس بهم يحدقون بها ويتعرفون كل حركة من حركاتها ، ولم تكن تجهل أنهم يفعلون ذلك بأمر الملك ، وينقلون إليه خبر كل نفس من أنفاسها ، وعدد الخطوات التي تخطوها في كل حجرة وفي كل مكان

عرفت ذلك الملكة فحفظته وأضمرته وتظاهرت بالسكون ، وآثرت العزلة ، ثم راحت تدبر خطتها للقضاء على غريمها

وقد عاونتها في ذلك خادمة عجوز من خدمها اللواتي أقصين عنها بأمر الملك ، فما زالت تتملق بعض عيونه عليها وترشوه وتغمره بالأعطيات والهدايا واللى ، حتى أصبح أطوع لها من بناتها ، فلما وثقت به أسرت إليه بما تحاوله من إنقاذ الملكة من عسف الملك ، فارتعدت فرائصه أول الأمر ، ثم لان قليلاً قليلاً ، ثم وعدها أنه سيعمل بما ترسم له حتى تنجو الملكة ...

الدنيا تنقلب في عينيها وفي قلبها ظلاماً حالكا برغم مباهج الملك المحيطة بها ، وبرغم الموسيقى التي تبكي كل صباح ، وكل مساء في حدائق القصر ، وبرغم الأنوار الخاطفة المتألقة التي تحارب ظلمات الليل ، فتطني عليها الظلمات ، وتنشر على لآلئها ظلال الحداد والحزن ... لأن ظلمات الليل وحدها تعرف كل شيء ولأنها شهدت كل شيء

— ثم أصبح الصباح يوماً وجاءت وصيفة الفتاة إلى الملكة وهي تصرخ وتندب وتشق جيبها ، لأن الفتاة فرت ، ولأنهم بحثوا عنها في كل مكان فلم يقفوا لها على أثر !!

هل ذهبت تسأل الناس عن الغابة لتلقى أخاها ؟ إن الغابة في أرض مملكة أخرى غير هذه المملكة فيا ترى أين تذهب الفتاة ، ومن يدلها على مكان أخيها ، وهل يذكرها أحد أنه جثة هامدة ، أورفات سحيق في قبر ضيق مظلم ... ؟

والجديد اليوم أن الملكة أخذت تستيقظ من أحلام هواها ، لقد كان حزنها الجديد أمض على نفسها من كل حزن ، لأنه حزن متجمع متمكن ، ولأنه حزن صادف ما تفتح في نفس الوصى على العرش من أمانى وآرب .. لقد شعرت الملكة أنه يريد أن يتخلص من كل الأشخاص الذين يضايقونه ليخلص له الملك ، وليصبح الأمر الناهي ، وليكون السيد المطلق ... ولقد شعرت أيضاً أن دورها قد جاء مثل دور زوجها الملك ، ودور ابنتها ولى العهد ودور ابنتها البريئة الضعيفة التي أبت لأنها لم تستطع ذلك البعد القاهر المرير عن أخيها .

جلست الملكة وحيدة فريدة تحت الدوحة المهدودة تفكر ثم تفكر ... وأخذت أطياف

وقد أفلح تدير المعجوز ، وكان الرأي على أن تفاجئ الملك عصابة من الرجال الأقوياء ممن لم يقرأوا تصرفاته في الوصاية ، ومن شمو رائحة الجريمة تنتشر في كل تصرفاته منذ وفاة الملك ، فعقدوا الخناصر على القصاص منه لسيدهم وولي عهدهم ، وإن كانوا يعلمون أن للملكة في كل ما تم يداً مجرمة تستحق القطع مثل يد عدوهم وأشد تنكيلاً ...

وفي هدأة ساكنة من ليالي أغسطس ، كانت أشباح ملثمة تنهذى كالظلال في حديقة القصر ، وتقفز من شباك هناك إلى حجرة الملكة

وقبل أن يتنفس الفجر صمعت هذه الأشباح كلها ، لأنها سمعت صوتاً مدوياً في ردهة العرش المجاورة لمخدع الملك ينذرهم فيقول : « مكانكم أيها الأشقياء وإلا قتلتم جميعاً ... لترك كل منكم سلاحه على الأرض وليتقدم نحو السور ، ثم ليقف هناك حتى يؤذن له ... »

وألقى المتآمرون أسلحتهم ، ثم نظروا فرأوا أشباحاً ملثمة أخرى تصوب نحوهم سهماً لو طارت عن قسيها لنفذت في صدورهم فقضت عليهم قضاء مبرماً

وأشرق الشمس واستيقظت المدينة ، ومادى الناس إلا أن يروا شوارعهم تمتج بمجنود كثيرين يهتفون باسم ولي عهدهم الذي زعموا أنه انتحر بالورد منذ عشر سنوات ... أو الذي زعموا أن عصفير السنونو قد قضت عليه بالورد حين قصدت أن تمهد له منه فراشاً

وظل الجنود يهتفون للملكهم الشرعي ويطوفون في المدينة برأس الطاغية ، وعرف الملك الفتى ما كان ينتويه الرجال الملتصمون فعفا عنهم ...

أما أمه ... نعم ... أمه ... يا لهول اللقاء ! لقد وضع فوق وجهها لثاماً حتى لا يراها وهو يكلمها ...

— أجل ، هي لذتك البهيمية التي حسنت لك قتل أبي ، ثم ائتمارك بي لألحق بوالدي حتى يخلو لك الجوا أنت وخليك

— لعن عني يا بني واصفح ما دام الله القادر قد حرسك ، وإني لأقسم لك إن صدقت لي قسماً أنني كنت أريد به ما صنعتته أنت أمس !

— ولم لا تريدن له ذلك وفي طبيعتك الشر ... إن مثلك لا يفكر إلا في الجريمة لأنه فطر عليها

— يا بني إنه الشيطان قد أضلني فلا تقتلني بكلامك ألف مرة قبل أن تقتلني بسيفك مرة واحدة ! — الشيطان ! ويلكن يا بنات حواء ! دائماً

تهمن الشيطان بما ليس بحسن شيئاً منه كما تحسنه إطمئني ، فلن أقتلك ... لقد خسرت قيمتك لأنك شهدت عقبي تدير

— حقاً يا بني ! وإني على كل ما كان لأسفة ! — أحب أن أسألك قبل أن نفترق إلى الأبد لماذا عاشرت أبي وأنت لا تحبينه ؟

— ترفق بي يا ولدي ! — لا بد أن تحبني ؟ — أقسم لك إذن أنني لم أحبيه ، و ... — إذن لماذا تزوجته ؟

— لأنه ملك وللتاج بريق يجلب ألباب المذارى — أي أنك آثرت بريق الملك على مني القلب — هذا هو ! ولو كان لي عقل ناضج ما فعلت ذلك ! !

— وماذا كنت تحسبن نحوي باعتباري ابنك الوحيد البكر ! !

— ألا تترفق بي يا بني ؟

— قلت لك لا بد من أن تجيبي قبل أن نفرق

إلى الأبد ، وأحب أن تصدق

— كنت أحس نحوك بكل محبة وعطف إلا

إذا ذكرت أباك

— فماذا كنت تحسبن إذن ؟

— كنت أمقتك ، لأنك ثمرة زواجنا الذي

لم يحم على دعائم من الحب

— وأختي ؟ !

— أختك ؟ !

— أجل ... أختي التي فرت من عسفكم

— إني أجد ريحها في كلامك ... أصدقني

يا بني كما صدقتك ، هل تعرف أين هي أختك ؟

— وماذا يهمك منها ؟

— يهمني منها أنني كنت أحبها حباً لم أشعر

به لا نحوك ولا نحو أييك ... لقد قتلتني بعدها عني

إن الواقعة التي تمت بيني وبين عمك كان سببها بعد

ابنتي ... لقد كرهته وكرهت الدنيا كلها حين قيل

لي إنها قرّت !

— عجيب أن توجد هذه القطرة من الخير

في نفسك !

— ألا تقول لي إن كانت ما تزال على قيد الحياة ؟

— إذن فاطمثنى ...

— إذن هي عائشة

— إنها عائشة

— وهل هي قريبة من هنا ؟

— بل هي هنا ... في هذا القصر !

— سبحي !

— ماذا ؟ ..

— ألا أراها ؟

— لن تريها على أنك أمها ، فقد أخبرتها منذ

ثمانى سنوات أنك مت ، ففرحت ، ولم تذرف

عليك دموعاً كما تفعل البنّيات الصغيرات إذا

توفيت أمهاتهن .. وثق أنها إذا علمت أنك ما تزالين

حية فإنها تنقلب إلى طبيعتك الإجرامية وتقتلك ..

أنا بالطبع لم أذكر لها شيئاً عن جرائمك لأن مثل

هذا لا ينبغي أن يقال للصغار

— إذن ... أن أراها مرة واحدة قبل أن

أموت ...

— سترينها ، وإن كنت أكره لها ذلك ،

لأن نظراتك تدنس كل إنسان تلحقه

— ما أقساك !

— جاء اليوم الذي تعدين فيه كلمة قاسية أشد

من قتل زوج وإزهاق روح ابن ، وهدم سعادة

أسرة وتقويض مملكة ... إسمي ... احذري أن

تذكرى لها شيئاً ، فإنك إن فعلت فإنها سوف

تسفّك ولن تصدق من دعواك شيئاً ...

ثم لقيت الفتاة أمها دون أن تدري من هي ،

وإن تكن قد عجبت للدموع التي كانت تنهمر من

عينها ... وعاشت الأم بعد ذلك في شبه دير تصلي

لله وتستغفره ، ثم ماتت ... ومن يدري ، عسى

أن يغفر لها الله ...

— انتظري فسأروى لك كيف فر ابن الملك ،

وكيف كانت أسطورة عصافير السنونو والورد كذباً

مفتري ، وكيف نشأ الفتى في بلاط أحد الملوك من

أصدقاء أبيه ...

ولكن عذريزة لم تشأ أن تصنى إلى الحديث

ترسلنى ، تصدق على الفتاة التى أحبتها كما أحبتك
بكلمة الطلاق !

— ما هذا ؟ ماذا تقولين ؟ أنت مريضة ؟

— لست مريضة قط !

— إذن ماذا حدث ؟

— أفضل ألا تعرف

— بل يجب أن أعرف !

— إذن ... وما دمت مُصيرًا ، فاعلم أنى
خدعتك !

— خدعتنى ؟ وكيف ؟

— خدعتك يوم بكيت لك ليلة زفافنا لتغفر لى
زلتى ... ألم أقل لك إن شابًا أغوانى ؟

— بلى ، ولقد غفرت لك ونسينا كل شيء ...

— إذن فاعلم أن أحداً من الناس لم يغفونى ،

بل إنى كنت متزوجة زوجًا لم أحبه ، فلما عاشرته
ضقت به ثم هربت ، وقد لقيتني أنت فعطفت على

عطفًا جعلنى أحبك بل أعبدك حتى نسيت السنوات
الثلاث التى عشتها مع الرجل الأول

— وما فى ذلك ؟

— ألا تدري ؟

— لست أرى فى كل ذلك شيئًا !

— كلامك غريب يا نعمان

— ليس غريبًا كما تظنين !

— عجيب !

— أى عجيب ؟

— كيف أكون لك زوجة وأنا زوجة رجل

آخر !

أكثر مما فعلت ... لقد كان القلق باديًا عليها ،
وكان الوجوم يشتد بها ثم يشتد كلما أوغل نعمان
فى قصته المؤسسية المشجية

لقد نهضت وقد راح الدمع ينهمر من عينيها
المحزنتين ، ثم ذهبت إلى مخدعها ، فهب نعمان
فى إثرها وقد ظن أنه سبب لها الألم بروايته تلك
المأساة ... هب ليلاطفها ويرفها عنها ، ويذهب عن
فؤادها الحزن ... لكنها أغلقت الباب وراءها ، ثم
قالت له حينما هتف بها : « انتظر قليلًا أرجوك ... »
وهتف بها ثانية فلم ترد عليه ، فجلس على كرسي ذى
مسندين ، وراح يفكر فيما آلت إليه الحال من أمر
تلك القصة ...

وبعد قليل انفتح باب المخدع ، ثم برزت منه
عزيرة فى ثوب ضافٍ أسود ، وليس فى وجهها أثر
من دمام (تواليت) وفى يدها حقيبة صغيرة متفتحة
قليلاً ، ثم قالت :

— نعمان ... الوداع يا عزيزى !

— الوداع ؟! عزيزة ! ماذا تقولين ؟

— أقول لك الوداع ... إنى ذاهبة !

— رباه ماذا حصل ؟!

— لا شيء ...

— أصدقينى يا عزيزة ... أأست زوجتى ؟

— بلى ... أنا زوجتك ، ولكنى أرجوك

أن ترسلنى ...

— رباه ... أكاد أجن ... أريد أن أعرف

ماذا حدث !

— لم يحدث شيء ... الأفضل لنا معاً أن

- مشكلة !
- ألا ترسلنى يا نعمان ؟
- لا قيمة لكلمة الطلاق لأن زواجنا باطل !
- إذن وداعاً ... وداعاً أيها الرجل الذى
- حمانى ومد ظله على ... وداعاً برغمى يا أعز الناس
- على ... ماذا أعمل ... لقد ذكرت نجيباً وصفية
- فدارت الأرض بى ، وضاق على بما رحبت ...

هذه هي القصة التى رواها لنا نعمان أفندى
عبد الجليل عند ما قابلناه مرة يتردد على مستشفى
المجاذيب حيث كان يزور زوجته عزيزة ، وقد ذكر لنا
أنها جنت لأن زوجها طردها لأن ابنها نجيباً ، وصفية
كانا قد اختارها الله ، ولأنه كان قد طلقها منذ
زمان بعيد .

دربنى مشية

آلام فرتر

الشاعر الفيلسوف جوتة الرومانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

— ❦ —

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونحنها ١٥ قرشاً

- وما العمل إذن ؟
- سأذهب إلى زوجى الأول
- وأنت لا تحبينه ؟
- أجل !
- وكيف يكون هذا ؟
- لأنى لا أريد أن تكون آخرتى مثل آخره
- الملسكة بطله قصتك ؟ !
- ماذا تعنين ؟
- أعنى أن لى طفلين مثل الطفلين فى قصتك !!
- تعنين أنك تفضلين أن تعودى إليهما !
- أجل ... هو ذاك !
- وعبد الحميد !
- أوه ! عبد الحميد ! مسكين !
- هذه مشكلة يا نعمان !
- مشكلة وأى مشكلة !
- لكنه ما يزال صغيراً ، وسينسى !
- أتدعينه بغير أم ؟
- هذا من غير شك عزيز على ، لكنها
- مصيبة ذات شطرين ، ولا بد ...
- لا بد ماذا ؟
- لا بد أن تقسمها معاً .
- وهل تضمنين أن يقبلك رجلك الأول ؟
- من غير شك سوف يقبلنى ، لأنه كان
- يعبدنى ...
- وإذا لم يقبلك فما العمل ؟
- سأرى أولاً ...
- وكيف أقدمت على الزواج منى وأنت متزوجة ؟
- هذه زلة ، وإن تكن كبيرة ، لكنك
- ستغفرها لى

البعث

للكاتب الفرنسي جى دى فوباسان
بقلم الأديب عادل الجسّال

في عينيه حين ارتشف كأسه
الأولى ... فما كاد يأتي على
الثانية حتى كان يلثمها بعينه
في نشوة وشراهة . واستقرت
محتويات القدرح الثالث في جوفه
فتنم قائلاً دون أن يتم جملته :
« لو كان في إمكانك فقط
أيتها الأنسة ديزيرية ... »

ومع فراغ القدرح الرابع كان باتان ممسكاً بشوب
الفتاة وهو يحاول تقبيلها
وتعددت الكؤوس ... واكتملت عشراً ...
وحينئذ أرسل أوبان المعجوز ابنته إلى الخارج وراح
هو بنفسه يشرف على خدمة البقية الباقية من زبائنه
الساهرين . كان أوبان رجلاً حاذقاً لا تخفى عليه
خافية ... فكان يترك ابنته تنقل برشاقتها بين الموائد
لإغراء الزبائن حتى يستريدوا من خمره تاركاً لها
مطلق الحرية في توزيع ابتساماتها الرائعة وإرسال
سهام عينها إلى أفئدة الخمورين وهو واثق منها كل
الثقة دون أى محاولة من جانبه لاكتشاف سر ذلك
البريق الذي كان يشع من عينها . البريق الغامض
الذي كان ينمكس في أغوارها كلما حاولت امتحان
عواطفها إزاء رجل من زبائن الحانة

وأصبح وجه ديزيرية مألوفاً لدى باتان من طول
تردده على حانة أوبان ... فكان يراها ماثلة أمامه وهو
في مركب صيده نائراً شاباً في المياه الهادئة
أو الصاخبة على حد سواء ... أو كان يتخيلها تومي
إليه في حلقة الليل الساجي . أو تحت ضوء القمر
الفضي الساهر ... فكان يطيل التفكير فيها ...
وكم كان يهنأ بذلك التفكير وهو في جلسته عند

— ١ —

لم يكن هناك في قرية « فيكامب » من يجهل
تاريخ الأم « باتان » الحافل بألوان الشقاء ...
كما لم يكن يختلف اثنان في الحكم على قسوة معاملة
زوجها لها طيلة حياته

أتخذها باتان زوجة له منذ عدة سنوات حين
كانت في نضارة الصبا وقد حباها القدر بقسط وافر
من الجمال والجاذبية ... في حين كان هو بحاراً
ماهراً عملاقاً اعتاد الذهاب إلى حانة المعجوز « أوبان »
لتناول أربع أو خمس كؤوس من الكحول .
ولم يكن ذلك هو الحد الأعلى للفرغ معدته ...
بل كثيراً ما ارتفع ذلك الرقم إلى ثمانى أو عشر
كؤوس ... ربما زادت على ذلك قليلاً إذا ما كانت
صفقة صيده رابحة . وكانت ابنة أوبان هي التي
تشرف بنفسها على خدمة رواد الحانة الذين أسرهم
عينها الخالكتا السواد، وامتلكت أفئدتهم بقوامها
الرائع المشوق

ويوم جاء باتان إلى تلك الحانة للمرة الأولى ...
اكتفى بإطالة النظر إلى الفتاة في شوق وحنين
وهو يشير إليها من طرف خفي . وازدادت فتنتها

بحرف . بل راح يكيل لها ألفاظ السباب الحادة ...
فقابلتها الفتاة بأحد منها ، إذ كانت طبيعة والدها
الهمجية متأصلة فيها . وكان ذلك مما يزيد في غضب
زوجها وإيلامه . ولكن تلك الآلام لم تبلغ الذروة
إلا في تلك الليلة التي اعتدى عليها فيها بالضرب
وخلال السنوات العشر التي تعاقبت بعدئذ . .
لم يكن هناك من حديث يدور بين أهل الميناء إلا عن
تلك المعاملة القاسية التي كان يتبعها ياتان مع زوجته ،
لا شيء إلا لأنه كان موهوباً بالسليقة بلهجة في
سبابه لم يكن هناك في فيكامب من يضارعه فيها
وعاشت المرأة المسكينة في جو من الخوف والرعب
عشر سنوات كاملة اعتادت أثناءها الوحدة والسكون ،
عشر سنوات كاملة كان فيها الكفاية لتجعل منها
هيكلاً هزياً يشبه هيكلاً سمكة صغيرة جافة .

— ٢ —

استيقظت المرأة فجأة ذات ليلة على صوت أنين
الرياح وهممة رياح البحر ... فجلست على فراشها
وراحت أفكارها تتجمع في نقطة واحدة حتى تركت
في ذكرى زوجها الغائب في مركبه وسط ذلك البحر
الثائر ، وسكن الصوت ... فاستلقت على فراشها
ولكنها لم تكد تغمض عينيها حتى هبت فزعة
وقد روعها صوت العاصفة ، وقفزت من الفراش
ثم هرولت نحو الميناء التي كانت قد امتلأت
بجموع النساء وقد حملن في أيديهن المصاييح ينرن
بها الطريق للرجال الذين هرعوا بدورهم إلى هناك
لمحاولة نجدة من يحتاج إليهم من الصائدين ... وظلوا
محدثين في المياه السوداء الممتدة أمامهم في جلال
وروعة وقد بدت أشباح مراكب الصيد الصغيرة
وهي ترتفع وتنخفض فوق الأمواج الصاخبة ،

(٤)

«ؤخرة المركب ، ويده مستقرة على مكانه ... بينما
ارتكزت رؤوس بحارته الأربعة على أيديهم ، وقد
راحوا تحت تأثير نومة استسلام هادئ لليد بعد
إجهادهم اليومي المرهق ... وفي كل تلك الحالات
التي كان يتخيلها فيها ... كان يراها تبسم إليه وهي
ترفع يدها لئلا كأسه بالرحيق الملون هامة وهي
تنأهب للاهتمام عنه :

— أليس ذلك هو كل ما تطلب ؟ —

وأحس أخيراً أنها أصبحت تشغل حيز تفكيره
كله ... فلم يستطع كبت تلك الرغبة التي كانت تلح
عليه في أن يتخذها حليمة له . وطلب يدها من أيها
وأجيب ياتان إلى مطلبه : فقد كان يمتلك مركباً
وشباكاً ، علاوة على منزل بالقرب من الميناء ...
في حين كان أوبان المعجوز لا يمتلك شيئاً ... وتمت
معدات الزفاف دون تأخير .

واتقضت ثلاثة أيام استيقظ بعدها ياتان من الحلم
الذي كان يعيش فيه ، وهو يعجب كيف أنه اعتقد
 يوماً أن تلك الفتاة ديزيره تختلف في شيء عن غيرها
من النساء .. وأبتداً ينعت نفسه بالجنون ، ويعيب
عليها ضعفها وخضوعها لذلك القيد الذي قيدت نفسها
به ... القيد الأبدي الذي استسلم إليه تحت تأثير
الخمر ... نعم ! لقد كانت الخمر هي السبب في ذلك
الزواج ... الخمر التي كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن
الفتاة قد منحتها بعض العقاقير السحرية للإيقاع به
ولم يكف ياتان عن سب نفسه طوال ذلك
الوقت ... وما كاد يصل إلى ذلك الحد من التفكير
حتى ألقى فضلات التبغ المتبقية في غليونيه ، وراح
ينقل أسماك الواحدة إثر الأخرى ، وهو ينغمم غاضباً
وعندما وصل إلى منزله وجد زوجته — ابنة
أوبان المعجوز — قابعة هناك كمادتها . فلم يحبها

ودامت العاصفة خمس عشرة ساعة

وكان من نتيجة ثورة الطبيعة أن أحد عشر صائداً قدر عليهم ألا يعودوا إلى منازلهم قط
وكان باتان من بينهم

وقذفت الأمواج بحطام سفينة باتان « أميلي الصفراء » إلى أحضان شاطئ « سان فاليري » .
ولكنها لم تظهر أى أثر لجسد باتان

كان من الممكن أن يكون قد أصبح طعاماً للأسماك . . . كما كان من الممكن أن يكون قد انتشل من المياه وأبحر مع متفديه إلى حيث يقصدون

وعودت المرأة نفسها الحياة كأرملة . . . ولكنها إلى جانب ذلك لم تكن تمتنع عن استقبال سائل أو مسافر أو بحار داخل مخدعها

وانقضت أربعة أعوام على اختفاء رجلها ومالت الشمس إلى الغيب . . . وهبت نسيمت باردة تنذر باقتراب الليل . . . وفزع الأطياف إلى أوكارها . . . في حين كانت المرأة تسير في شارع

« اليهود » وقد لفت نظرها منزل قبطان عجوز . . . كان يقف يبابه « دلال » ينادى على أثاث المنزل لبيعه . . . وفي تلك الآونة كان الرجل ممسكاً بقفص قد استقر فيه يبناء وهو يهتف :

— ثلاثة فرنكات . . . طائر يتكلم كرجل القانون . . . فقط ثلاثة فرنكات

وتمت ديزيريه لصديق كان يتأبط ذراعها :
— يجب عليك شراءه فسيكون لك نعم السمير .

إننى واثقة من أن ذلك الطائر يساوى ثلاثين فرنكا ثقتى من أنك تستطيع بيعه ثانية بعشرين أو خمسة وعشرين فرنكا

وارتفع صوت الدلال مرة أخرى قائلاً :
هيا . . . أربعة فرنكات أيها السادة . . . أربعة فرنكات . . . إنه يستطيع التريل، فياله من أعجوبة نادرة .

وأخيراً . . . انتقلت ملكية البيغاء وقفصه لـ ديزيريه بعد أن رفعت ثمنه لأربعة فرنكات وخمسين سنتياً وتمتت المرأة قائلة بغضب لها رأت نقطة من الدماء تلوث يدها حين لامست رقبتها وهى تضع له شيئاً من الطعام في حجرتها

— يا لله . . . لم أكن أعلم أنه جريح وتوجهت إلى فراشها بعد أن وضعت للطائر شيئاً من الطعام وإناء صغيراً مملوءاً بالماء

ولم تكن أنوار الفجر الوردية قد بدت بعد، حين تعالى إلى أذنى مدام باتان صوت واضح جلي يقول :
— ألم تستيقظى بعد أيتها المنكودة ؟

لقد رجع زوجها أخيراً . . . فذلك الصوت صوته وتلك عادته في مناداتها إذا ما استيقظ في الصباح . وأحست برعشة تسرى في عروقها فدفنت وجهها تحت الوسادة بينما راح جسدها يرتجف ارتجافاً واضحاً وهى تتمم قائلة لنفسها :

— يا إله السموات . . . لقد رجع ثانية وها هو ذا . . . يا لله

وصرت بضع دقائق دون أن يمكر ضفوا السكون الشامل صوت . . فأخرجت رأسها من تحت الوسادة، كانت متأكدة من وجوده بالقرب منها رقبها وهو على أتم استعداد للانهيال عليها بالضرب كما كان في الماضي البعيد . . . ولكنها لم تر شيئاً غير أشعة الشمس التى

أبتدأت تحترق زجاج النافذة، فهمست قائلة لنفسها :
— لا بد أن يكون مختفياً في مكان ما

وظلت تنتظر . . . وطال انتظارها فعاودها بعض هدوئها وغمغمت :

— إننى لم أره . . . إذا . . . لا بد أننى كنت أقيم في وادى الأحلام

وأغمضت عينيها مرة أخرى في اللحظة التى ارتفع فيها صوت باتان كالرعد قائلاً :

ألا زلت نائمة أيتها الملعونة؟

وقفزت من فراشها وقد انتابها فزع المرأة الطيعة التي ظلت أربعة أعوام كاملة وهي ترزح تحت عبء الذكرى الأليمة ... ذكرى العذاب الذي كان يسببه لها صوت ذلك الرجل الكريه ... وهتفت :
— ها أنا ذى يا باتان ... ماذا تريد ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتلفتت حولها في دهشة ... ثم أخذت تبحث في كل مكان ... ولكنها لم تجد أحداً ... وتهالكت على مقعد بالقرب منها وهي تحس بروح باتان ترفرف فوق رأسها ... وأخيراً تذكرت الحجرة الصغيرة الإضافية الواقعة فوق حجرة الطعام .. لا بد وأن يكون مختبئاً هناك في انتظار مفاجأتها ... ثم العودة إلى نفس الحياة القاسية التي كانت تحياها من قبل ... ونظرت إلى سقف الغرفة وهي تقول متسائلة
— هل أنت فوق يا باتان ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتسللت إلى الخارج فأحضرت سلماً تسلقته ونظرت في الحجرة الصغيرة لترى ... لتراه ... ولكنها لم تعثر عليه ... جلست على الأرض وابتدأت تبكي وهي ترتعد. ومن أسفل جاءها صوت باتان يقول :
— أى جو وأى رياح ؟ .. إننى لم أتناول وجبة الصباح بعد

وصرخت المرأة من أعلى قائلة :

— إننى هنا يا باتان .. ها أنا ذى فى طريقى إليك لإعداد طعامك فلا تغضب .. ها أنا ذى آتية. وهبطت السلم بسرعة فائقة . ولكنها لم تجد أحداً بانتظارها وأحست بضعف مميت يغمرها من رأسها لأخصى قدميها . وفكرت فى أن تهرغ إلى الخارج مستغيثة حين ارتفع صوت باتان قائلاً :
— إننى لم أتناول طعامى بعد أيتها الـ ...

كان البيغاء فى قفصه يتابع كلماته ، وهو يحدق فيها بعينين كجمرتين .

ونظرت إليه والدهشة تغمرها ثم تمتعت :
— إذا ... إنه أنت . وتكلم البيغاء ثانية وهو يحرك رأسه :

انتظري ... انتظري قليلاً ... فسألتى عليك درساً لتكونى أشد كسلاً منك الآن .

أى أحاسيس شعرت بها المرأة فى تلك اللحظة ؟ لقد شعرت تماماً أن الرجل الميت قد بعث مرة أخرى ... بعث حياً فى هيئة ذلك البيغاء .

إذا ... سيعود مرة أخرى لإهانتها ... كما كان فى الماضى ... وسوف لا يمر يوم بهدوء ... وجيرانها ... سيعودون حتماً للزء بها والسخرية منها وأسربت المرأة نحو القفص ففتحتة . وأخرجت الطائر الذى راح يدافع عن نفسه بمخالبه فيدمى يديها ... ولكنها لم تتعبأ به ... وتهالكت فوقه على أرض الغرفة ... وراحت بكل قواها تضغط على رقبته حتى سكنت حركته .

لم يعد يتحرك ، لم يعد يتكلم . ولكنه كان مستكيناً استكانة الأبد بين ذراعيها . وجمعت الريشات الخضراء المتناثرة هنا وهناك بيد منجفة ووضعها مع الجسد المسجى على الأرض فى لفافة صغيرة ... ثم هرولت إلى الخارج عارية القدمين ... وقذفت بالحزمة الحاوية لا ... للشئ الميت فى مياه البحر الهادئة ... فبدت كحزمة من البرسيم الأخضر طافية فوق المياه الزرقاء .

وعادت إلى حجرتها فركعت على ركبتيها أمام قفص الطائر الميت ... وراحت تبكي .

كانت تشعر أنها ارتكبت إثمًا ... إنما هائلاً كأكبر الجنايات وحشية ... فابتدأت تدعو الله أن يغفر لها .
عادل الجبال

إيزيس (منهدة وقد خانتها
مداسها) — ما زلت أجهل
يا أختاه الفارق بين اليقظة
والحلم ، نحن نحلم دائماً حتى
في يقظتنا ، لذلك أعتقد أن
اليقظة هي الحلم الصريح والحلم
هو اليقظة المتكررة

كاميليا (تجلس بجانبها

حانية) — أراك في هذه الأيام تحنين إلى العزلة ،
عزلة سكان الأرض (تشير إلى منزلها) حتى شغلك
يثبت أنك لاهية عنه ... ما الخبر ؟ هل من جديد ؟



إيزيس (في هدوء) — كاميليا ... (يخونها

إحساسها المبهم الغامض فتبكي بصوت خفيض)

كاميليا (في حرارة) — ربّاه ، أى شيطان

يراودها ؟ إيزيس هيا قومي إلى محرابك ليعود إليك

الراهبة

قصة مسرحية في فصل واحد
بقلم الأنيّة جميلة العلابي

المشهد : إيزيس راهبة عذراء جميلة ساحرة في الخامسة
والعشرين من عمرها ، جالسة تحت ظل شجرة
كثيفة بعيدة عن بناء الدير وحديقته في طريق
أشبه بالصحراء الوحشة ترمى الفزل في بطاء وتسند
رأسها الجميل إلى يدها البضة محدقة في الأفق يبصر
سارح وذهن شارد ، ثم تحول بصرها لترشق
طيراً رف عليها ثم حلق بعيداً ، وأخيراً تفيض
الطرف لتخفق دموعها التي بدأت تقبل وجنتها في
استحياء ولا تجد من قلبها غير بسة شاحبة مريرة

تفاجئها زميلة لها راهبة دميعة قد جاوزت الأربعين من
عمرها ، عليها طابع العقل الرصين ، تمشي في هواة حتى
تقف بجانبها فتضع يدها على كتفها في حنو قائلة بصوت
خفيض بطي :

— إيزيس، طال بك المكث هنا والجو مكفهر

غير بهيج

إيزيس (تنظر إليها في بطاء ثم تقول بصوت أشبه
بنغم الحلم العميق) — بالعكس ، ما رأيته أبهج منه
اليوم .. أنظري إلى هذا الغمام ! تأمليه . تأمليه جيداً .
ألا ترين اليقظة الحارة تسرى في شرايينه لتحبو
الكون حلاً يحمل خلاصة الرجاء والحنين ؟ ...

كاميليا (بلهجة المتخافتة) — ما عهدتك هكذا

تحمّلين يمانى الدنيا وتخرجين من يقظة الحقيقة
القدسية ؟

اليوم أعمق فكراً وأغزر إحساساً... لقد خلقني الله لأقدم رسالة الكل إلى الكل، ولشد ما أعجب كيف يمنحني الله حقاً ويحرمه على البشر!

كامليا (تقاطعها بوضع يدها على فمها) — كفى كفى لقد ازددت شططاً. خذار أن تسمعك الأم. إنها لا ترحمك مطلقاً وإذا غضبت لا ترضيها صلاة أعوام طوال... لأنها تغضب ليسوع المهان... قوى لنصلي معاً وليغفر لك الرب، وليشفع لك يسوع

إيزيس (بصوت البقن) — الرب يعلم حقيقة السرائر ويسوع يدرك الحقيقة. أما نحن فجهلاء آثمون.. نحارب الإثم بالإثم ونقول ذاك هو الإيمان. ما أقطع هذا! قوى إلى محرابك يا أختاه، لأن من يخاف لهب الشمس وبرد الشتاء ويفر من الوحوش لا يبلغ عمق الحقيقة أبداً... أبداً

كامليا — أي حقيقة يا بلهاء؟ الحقيقة هناك... تنتظرك في معبدك القدسي تحت مصباح العذراء. أنظري (تشير إلى الصليب المعلق على صدرها) هذا علامة الحقيقة

إيزيس (تهز رأسها مستفكرة... يتراى إليهما صوت نافوس الدير)

كامليا — الصلاة... هيا إيزيس — دعيني... لا يمكنني الصلاة الآن...

كامليا — عفوك يارب.. شد أزرها يا يسوع. إهربي من الشيطان يا أختاه... وتعالى معي لتستردى إيمانك المفقود

إيزيس — من قال لك إنني فقدت إيماني؟ ومن أنت حتى تعرفي خفايا الضائر؟ الله وحده يعلم سرائر القلوب... ألا يحتمل أن يكون الشرير

صوابك فلا شك أن الشيطان قابض في هذا المكان الذي ملأه بعبير السحر الكاذب والحلم الموهوم (تحاول إيقافها)

إيزيس (تتنح عن القيام) — كامليا.. إستعني إلى. تعلمين أنني لجأت إلى الدير هرباً من أضيال الجوع، وتخلصاً من الذئاب البشرية التي تجرى وراء الفريسة النسوية في كل مكان... هربت لأن الله بقدر ما منحني من جمال، وهب الآخرين جشع الجسد وضعف النفس. وقد نزعني كل رغبة بشرية وتحررت من قيود كل شعور دنيوي لا اعتقادي أن السعادة في خلو البال وتحرر الجسد من النزعات. أجل فررت من الرياض النضرة العاصفة بالأمان والأحلام ولجأت إلى الصحراء المقفرة مهبط الحقائق والسلام... ولكنني أدركت أخيراً أن كل حياة مهما تنوعت صورها ناقصة مبتورة — كامليا — أصدقيني... ألا تشعرين بحاجة ماسة إلى شيء مجهول. ألا تحسّين في أعماق صدرك بعذاب الحرمان؟ ألا توسوس لك نفسك أحياناً أن تدفني ما تبقى من عمرك لقاء بفض أيام هنيئة مليئة بأعذب الآمال

كامليا (منهدة في حرارة) — ولكن هذا الأمل عبث يا إيزيس، لقد وهبنا أنفسنا للعذراء، وليس من حقنا أن نسترد الهبة.

إيزيس (في شبه ثورة) — العذراء لا تحلل الباطل أبداً... هذا وهم... توارثته الأجيال. لا يمكن أن تكون العذراء أنانية وهي أطهر من الطهر... كيف تحرّم علينا حقاً مشروعاً؟

لقد تمتعت العذراء بحب وخيدها وتنعمت به إلى حين... ذاق الحب والأمومة...

كامليا (متكلفة منطق الحكمة) — اغفر لها يارب (تشير إلى الصليب) يا يسوع رد إليها صوابها إيزيس (في هدوء) — لست مجنونة. بل أنا

السفالك أكثر إيماناً من رجل يتزيا بمسوح الراهب ؟
كاميليا (تحفف مدامها) — إيزيس .. حسبك .

قوى واعتمدى على ذراعى

إيزيس — سأصلى هنا ... كل بقعة فى الأرض
يجب أن تنال حظها من عبادة الله . لأنه موجود فى
كل مكان وهو يشرف على المحراب القدسى كما يشرف
على دار البنى ، يمنح الأول رضاه ، ويهب الثانى حكمة
الأناة ...

(يكرر دق الجرس)

كاميليا (فى ثورة الغاضبة) — عجلى يا إيزيس
الصلاة تدعونا ...

إيزيس — اذهبي أنت ...

(يترامى إليها نشيد الراهبات ، يبدو طيف راهب يتمشى
فى طريقهما حتى يلفهما ... ويفهم عن مشيته أنه كان
بنشدما) .

المشهد الثانى

كاميليا . إيزيس . الراهب

الراهب — طال نبحثنا عنكما ... ألم يلفكما نداء
الصلاة ؟

كاميليا — التوت ساق إيزيس فصمب عليها
السير ، وها نحن تان نتأهب للذهاب إلى الصلاة .
إيزيس — (محنة) لم الكذب يا كاميليا ؟
كاميليا — (تنظر إليها عابسة غاضبة) قلت الصدق
يا إيزيس ... أيجعلك أن يعلم الأخ أنك طفلة
لا تحسن السير ...

إيزيس — (متهمكة) أعرفت أننا لا نمتاز
عن أبناء الدنيا بغير قوة الكبت ، وبراعة التلفيق .
الراهب — ما معنى هذا ؟ لم أفهم شيئاً .

إيزيس — معناه أننا نكذب أيضاً وقد نسرق
وقد تقتل ونظلم . ولكن بأسلوب غير أسلوب الناس .
(تضحك فى شبه جنون وسخرية)

كاميليا — لا شك أنه أصابك مس من جنون
لا بد من مخابرة الأم (تنصرف)

الراهب — (بصوت لطيف) يا أختى الحسنة
أراك غاضبة فائرة ، علام ؟ ...

إيزيس — بدأت أفهم الحياة .

الراهب — خلقت الحياة لكي تكون خادمة لك
وأعتقد أن الرب يوم ولدت خلقتك على مثال المذراء
جمالاً وطهرأ ، لا أكرم عنك أننى أزداد إيماناً وقوة
كلما لمحت وجهك النضير ... آه ليت الدين حل
للراهب أن يأتنس بالجمال كما يأتنس به ابن الحياة .
إيزيس — (متغابئة) هل تعنى أنك تحبني ،
وتشبهيني .

الراهب (فى ثورة وحاسة) — كل الحب والشهوة
إيزيس (فى دهاء المرأة) — وإذا طلبت منك
الفرار من هنا لنعيش سوية كأبناء الحياة ، أتعقل ؟
الراهب (يتردد ويترك مفكراً ملياً ثم يقول) —
ولم لا نجمع بين الدين والمتعة ؟ ... لم لا أقنع
بأخوتك مع تأدية رسالتى الدينية ...
إيزيس (متأكدة) — تريد أن تتمتع بى وأنت
فى لباس الراهب ؟

الراهب — متعة بريئة طبعاً

إيزيس — وهل تفرق بين النظرة النهمة
والاستمتاع الدنى ؟

الراهب (خجلاً) — هناك فرق شاسع بين
نظرتى العاطفية إليك وبين استمتاعى بك

إيزيس (فى جد) — لا أفهم هذا أيها الراهب ؛
والذى أفهمه أنك أصرح ما عرفت من الرهبان ...
هم يجلسون شهواتهم وقد يتنفسون فى خفاء ونفاق

أما أنت فقد استطعت أن تكون أكثر شجاعة
وجرأة ... مينة طيبة على كل حال ... تقدرها
المرأة ... لكن في غير المعابد .. لأن الرجل الذي
يمجز عن كبت شهوته في المبدأ أكثر خطراً على
المجتمع من الرجل الذي يقضى طوال النهار والليل
في دور البغايا

الراهب (يصر وجهه وتبرق عيناه ويهتم) —
أراك أسأت فهم مرماي ؟

إيزيس — ظن ما شئت
وتركته في مكانه بعد أن رمته بنظرة شرراء
وراحت تسير الهوينى ... تسمع صوت ناي بعيد
يقرب منها رويداً ... رويداً ... فتتابعه ...
تقف بغثة وهي تشد جبل صليبيها وتقول: يا يسوع ...
ما هذا الصوت ؟ كأنه صوت الشيطان جاء ليردني
إلى حظيرة الذكرى المريرة ... آه ...

(يقرب الصوت حتى تلتين ألتامه ويقرأ لها صورة الطيف)
(تقول بذعر) إنسان هنا .. تحاول الفرار (الصوت
يستوقها) ... يا أختاه ... يا أختا إيزيس (تنف)
من يناديني ؟ ... يواجهها رجل في زي رعاة الغنم
سقيم الجسم شاحب الوجه في صوته رنة حزن عميق
دفين ...

المشهد الثالث

الراهبة . إيزيس . الرجل

الرجل — أنا

الراهبة — أظاى أنت أم جائع أم تائه تبحث
عن الطريق ؟

الرجل — ظاى إلى الحقيقة ، راغب في الموت
ولكن بعد أن ... (يتهجد صوته تحت تأثير اضطراب قوى
فيتلثم ويسكت ثم يقول بعد عناء) أهذا الذي أراه هو الدير ؟

الراهبة — آه ، تريد أن تهرب لتعلم الحقيقة
من الدير وتمتكن في المحراب لتتطهر من الرجس
الذي تظنه يقطن في كل بقعة من بقاع الأرض ؟
خير لك يا سيدي أن تبحث عن الحقيقة في هذا
المكان المظفر فإن فيه معنى لها . إبحث عن الحقيقة
في النور وفي الضوضاء ، وإبحث عنها في المراقص
والملاحى ودور المفاسد ... هناك النفوس عارية
تميش بحقيقتها الأصلية وإن أسموها حياة الكذب
والخداع ...

الخداع والنفاق هنا حيث يتستر الإنسان بالدين
ليقف الألسنة ويفمض العيون

المس كل شيء ... وذق كل شيء ... فإذا
زهدت أخيراً فأنت من المؤمنين المتطهرين ...

أما أن تجيش نفسك بين جدران الهيام لتتقى
الشر وتصون نفسك من إغراء الحياة ... وتظن
نفسك فاضلاً فأنت أضعف الضعفاء وأكذب
الكاذبين . إن استطعت أن تعيش وسط الظلم صابراً
وبين المجنون طاهراً وفي أعماق الأضاليل تزيهاً فأنت
مؤمن قديس . أما أن تجلس نفسك في الدير فأنت
بالحرمان المطلق تعيش في كنف عبودية مراسيم
لا تفقه لها معنى ولا حقيقة فأنت أشبه بالكافر ...
وما الذي تجنيه من الدير ؟ عقلك يصاب بالشلل

وقلبك يلبه السقم ، وأخيراً تموت

الرجل — سأموت عاجلاً أو آجلاً ولكنني
أريد الموت على الصورة التي تحبب إلي ظلمة القبر
وتهوّن علي وحشة الآخرة

الراهبة (متكة) — أي صورة ؟

الرجل (يتأملها طويلاً) — في صوتك حنانها
وفي لمحاتك معانيها وفي معانيك فلسفتها ووحشتها

الراهبة (وقد ملكتها الدهشة) — صورة من ؟
الرجل — (متلعثا) صورة ... آه صورة... من
أبحث عنها .

الراهبة — عمن تبحث يا سيدي ... ؟
الرجل — كأن حقيقتها سكنت فيك .. ؟
الراهبة — آه، تبحث عن الحقيقة .. تضحك
متهمكة ... كل الناس يبحثون عن الحقيقة ...
والحقيقة ظل كل شيء في الوجود. هي الضوء والنور،
وهي الأمل واليأس، وهي الفرح والحزن ؛ وأخيراً
هي الرجل والمرأة (تعاود الضحك) أي حقيقة تنشد
باسيد والحقيقة هي الصورة الرمزية للقدر، هي القوة
والضعف، هي العدل والظلم، هي الرحمة والرجاء ...
وأخيراً هي الحب

الرجل — (مبهوتا) كأنك هي .. أكاد أجزم.
قلبي نبأني ... (يرتجى على الأرض في شبه إعياء)
الراهبة — (وقد ملكتها الرحمة) إلى هذا الحد
أنت تعب ... مسكين ... (تساعد على الجلوس) ...
أنت جائع بلا ريب ... تعال معي إلى الدير لتأكل
وتستريح

الرجل (محاولاً أن يسترد قواه) — يا أختاه هل
تسمحين لي بسؤالك ؟

الراهبة — سل !
الرجل — أمتصلة أنت بكل راهبات الدير ؟
الراهبة — بالتأكيد

الرجل — متى جئت الدير ؟
الراهبة — منذ عشر سنين (تنهد) قبل أن
يكتمل صباي ... كنت أخطو نحو العبا في عجالة ..

الرجل (متعجباً) — بالضبط منذ عشر سنين ...
هل تعرفين راهبة دخلت في ذلك الوقت ؟
الراهبة — وماذا يهمك من هذه الراهبة ؟ هل
تعرف أن الراهبات تناسين أبناء الدنيا ؟ وهل تظن
أنها تسمح بمخاطبتك لو تقدمت إليها اليوم ... ؟
احفظ ماء وجهك ! !

الرجل — أريد أن أستغفرها
الراهبة — (مقاطعة وقد أحست بشعور مبهم)
علام ؟

لقد غدرت بها من أجل فتاة غنية صورت لي المجد
والمظمة في الثراء ؛ فأنستني المطالع المادية الحب
والوفاء . تركتها بعد أن تقبلت قلبها ... وتنحيت
عنها في جبن ونذالة، وآثرت فتاة اللهو بثرائها، عن
فتاة الحب بشرفها، فذهبت المسكينة المظلومة إلى
الدير، وكأنها ذهبت لتكون دعواتها أقرب إلى الله
فانتقم مني لها !

عبثت المرأة الغنية برجولتي، وهتكت شرفي
وكرامتي، وأخيراً لم يستطع بريق الذهب أن يهون
على المصاب فيما بذلته من دماء شرفي، ولم يستطع
الجاه المزيف أن يرد على مجد الكرامة

ولما ثارت كرامتي لرجولتي ... لعلمتني المرأة
وطردتني كلما يطرده الكلب غير المرغوب فيه ...
أدركت للتو أن الله انتقم للمسكينة البائسة .
فجئت أبحث عنها راجياً أن أموت تحت قدميها

الراهبة — (بصوت منكسر حزين محاولة أن تخفي
مدامها) جئت بعد فوات الوقت . لقد ماتت !
الرجل (مدعوراً صارخاً) — ماتت !

الفصول والغايات

معمزة الشاعر الطائب

ابن العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زيناني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرأتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

الراهبة — (في اختناق) أجل ماتت فتاتك
المحبة ...

الرجل -- إذن يجب أن أموت ... فأين قبرها
لأموت أمام بابي ، وأصلب نفسي على صليبه فأموت
شهيداً ... ؟

الراهبة (مشيرة إلى شجرة بيده) — هناك ...
حيث كانت دائماً ، وقد أوصت أن تدفن هناك
الرجل (يركع تحت قدميها) — باركيني يا أختاه
واذكريني عند ربك بأنني مت شهيداً إذ كفرت عن
ذنبي — باركيني يا أختاه قبل أن أموت — ولتشهدني
موتي لتذكريني عند ربك بأنفاسك الطاهرة .

الراهبة — (تباركه) غفر الله لك .

الرجل (يمشي مولياً وجهه شطر الشجرة التي أشارت
إليها وهي تتبعه في صمت رهيب وحزن قاتل حتى يبلغ
الشجرة) — هنا دفنت ؟

الراهبة — أجل

الرجل — باركيني مرة أخرى

الراهبة (تشير بملامة الصليب) — غفر الله لك

الرجل (يخرج الخنجر ويصوبه إلى صدره متمتماً) —

متمتماً ... إيزيس ... إيزيس ... هاأنذا أجيئك
مغتسلاً بدمي لأبلفك طاهراً

الراهبة (تأخذ الخنجر من يده صارخة) —

زكي ... ماتت إيزيس الساذجة ... وعاشت إيزيس
المتحصنة الماكرة ... وستحيا للحياة بعد اليوم ...

الرجل (صارخاً في بصر وطلاقة) — إيزيس !

الراهبة — زكي !

إلى الحياة ... إلى الحقيقة ...

جميعه العملي

المریحة والنهایة السارة المقنعة .
وقد لا تخص من ضیق بسببه
لك استطلاع آثاره قصة براء
على حين تكون قد أنسیت
من القصص الكاملة كما
كبراً

فقد ركب القطار في طريق
العود إلى مثنوى من إحدى

الضواحي ، وكان أن جلست في ثوب به أشخاص
ثلاثة : رجل أسود الشعر قسم الوجه وسيمه يحوم
حول الأربعين ، وزوجان فصلت بينهما السن فالرجل
كما يبدو يكبر زوجه ، وكان يلوح أن نزاعاً حل
بينهما قبل أن ألق الثوب ، فقد كانت سحب الغضب
والحدة تظلل وجه الزوجة ، بينما كان الرجل حزينا
مهموماً

وقد بادل الزوج جاره الغريب كلمات قلائل
بلهجة المتعارفين من قبل حتى يسدل على ما حدث
ستاراً . أما السيدة — فلي النقيض — لم تحاول
أن تخفي شغورها فقد استوت سامدة كأن على رأسها
الطير ، مقنعة رأسها تحديق في الظلام ، حتى إذا
ما وقف القطار ومد لها زوجها ذراعه ، غادرا الثوب
فأمسيت مع الثالث وحدي

وأنشأنا نرقب الزوجين إذ يسيران سوياً . وكان
طبيعياً أن يستأنفا التشاحن قبل أن يسيرا بضع
خطوات ، وكان رفيق السفر يواجهني ، فلما أن
اختفى الزوجان تلاقت أعيننا في نظرة كلما تفاهم
وإدراك ، وهن كتفيه هزة خفيفة ساخرة فرأيتني
أقول على رغم مني :

من روائع الأدب الإنجليزي

عندما انفج البتار

للكاتبة الإنجليزية سارة جرانج
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

لطالما التمت في الحياة بارقات لوامح ، وقت
لدينا أحداث خوارق ، دون أن نلقى إليها السمع
أو نجد البصر . أحداث بارقات تضرب في قاموس
الحياة الهادرة ، وتتوارى في رحبات الدنيا الصاخبة ،
وتضيع وسط المجيج واللجب ، أحداث غامضات
ترف أمام الناس في المدينة الزاخرة ، والمركبات
الفارحة ، وفي السيارات العامة ، تتوالب على طوار
القطر ، في عربات تقف وتمر ؛ تترامى في أعمال
الناس صغيرة درجت عليها حياتهم رتيبة نافهة طوال
الليل والنهار

وفي الحياة قصص أي قصص : قصص بنته
شتى المواطن وأخلق ونسجته مختلف المشاعر
والأحاسيس : نبالة ونذالة وبطولة ، حب ومقت
ورذيلة ؛ وقصص يتوالى فيها تصاوير الأفراح وتهاويل
المآسي والآلام

ولو كان بين يديك قصة تقتصر على بدء
فحسب ، فأى شوق يحدوك إلى معرفة النهاية ؛ وإن
كانت نهاية فأى نصب تلقاه في تصوير البداية ؟
وله لما يشير الغيظ أن يكون في القصة البتراء من
الروعة ما تقصر عنه القصة الكاملة ذات البداية

— كم كان بودى أن أحضهما النصع .. فتهد الرجل وقال :

— آه ! وأنا أيضاً ، ولكن ليس من اليسير السهل أن يفعل المرء ذلك في هذه الحال — أحسبك توقن بأن الناس يعلمون من أمرهم أكثر مما يعلم الآخرون

— كلا ، فليس هذا من رأيي ، فالنظارة ترى أكثر مما يرى اللاعبون كما تعلمين ، ومع ذلك فمن المبعث أن يحض المرء زوجين على خلاف وتنازع نصيحة خاصة إذا كان كلاهما صلب الدماغ خاطئ الرأي ، وحتى العاقل الرزين من الناس ذو القلب الطيب والمرمي الشريف نراه يأتي أحياناً بأخطاء فاحشة شنيعة على إدراكه فداحة هذه الأخطاء وجسامتها . والآن هذا الرجل — كان هنا منذ لحظات ، كان يقرب زوجه ويحملها على السكوت ويلزمها الصمت ، أو على الأقل يريد أن يبسط عليها حمايته كما لو كانت تجهل كيف تسوس نفسها وتملك قياد أمرها . في يقيني أنها ستحمل له الكره والسخط والشحناء وسيحملها — ولا ريب — على انتهاج سبيل يربأ بها أن تسلكها ، ويتحاشى أن تضرب فيها . أراني عاجزاً عن أن أفهم لم يبيع الرجل لنفسه أن يتخذ من زوجه عبداً يطيعه ولا يعصى له أمراً ، فأنا أؤثر أن أمنح المرأة حرية غير موكوسة إلا في حالات خاصة

— ولكن غالباً ما يكون لهذه الحرية المطلقة عواقب وخيمة ، وكيف يميز المرء هذه الحال الخاصة ؟ — أوه ! لا صعوبة ألينة في ذلك . إن أخلاق النساء كتاب مفتوح في سنهن الباكورة ، وفي وسع

كل من يقرأ أن يقرأه . ومن رأيي أنه إذا انعدمت الثقة بين الزوجين فلا يجديهما الشجار شيئاً ، ولا تخلق الشحناء بينهما هذه الثقة المفقودة . غير أنني لا أجزئ ترك الجبل على الغارب لفتاة صغيرة رعناء . إن ما تريده المرأة رفيقاً لا ولياً ، صديقاً لا قنبلاً ، وكثيراً ما يأتي العقلاء — كما أسلفت — في حياتهم الزوجية بأخطاء جسيمة منكورة . لقد تزوجت بفتاة تصغرني بسنوات عشر ولا أظن أن هذا الفرق في العمرين جد كبير إذا كان بين الاثنين توافق في الطبع وامتزاج في الخلق ؛ غير أننا كنا على طرفي نقيض . إذ كنت أهتم بالحياة الهادئة الساجية المفعمة بالفنون والأدب ، وأمقت ترجية الوقت بالثرثرة في الحفلات والولائم مقتاً كبيراً ، وكانت زوجي تضيق بكل ألوان الفن ، وليس ثمة شيء يدخل على نفسها أسباب المرح والسرور أكثر من وجودها بين جمع صاخب وحفل جياش . وقد أجمعت أمري على أن أدعها وما تهوى فلا أسألها مرة البقاء معي في البيت على أن تدعني هي أيضاً وما أبني فلا تطلب إلي مصاحبتي إلى حفلاتها ومآذبها . وبالرغم من ذلك الحب الكبير الذي يجمع بيني وبينها لم أستطع أن أدرك لماذا جهد كل منا في العمل على توحيد أمرجتنا المختلفة وأخلاقنا المتباينة . إن الزواج لموفق ناجح إذا كانت أساسه التجانس في الأخلاق والتجاذب في الطبع . وليت شعري لم يجلب الزوجان المختلفان في المزاج المتناقضان في الطبع على نفسيهما الشقاء والبؤس بالسعي في توحيد أخلاقهما ، وفي وسع كل منهما أن يتخذ سبيله التي يجب على

أن يرقب بعض الفرص السانحة فيسمع دويتهم برفيقه؟
إننى موثق أن هذه هى السبيل الوحيدة المؤدية إلى
السعادة فى الحياة الزوجية القائمة على أساس متباين
الأركان من الأخلاق والطباع . ألا ترين مى أنهما
يدعمان حياتهما بالتلاقى من حين لآخر يتناقلان
الكلمات الحلوة ويتجاذبان الأحاديث المسولة

أقول قد تركت زوجتى تضرب فى طريقها كما
اتخذت أنا أيضاً سبيلى . وقد أجدت هذه الطريقة
وسيرت ذقة حياتنا على خير ما نرجو . وكانت أحياناً
تبدى رغبة أن أرافقها إلى الحفلات والولائم .
كذلك كنت أحياناً ألح لها برغبتي أن تبقى معى
فى البيت . وبذلك استطعنا قليلاً أن نوفق بين رغباتنا
وأخلاقنا . ولكنى لا أستطيع الجزم بأن إنكار
الذات على هذه الصورة قد صادف فى حياتنا نجاحاً
كبيراً ...

وكان ثمة حفلة مقننة أصرت على أن تذهب
إليها . وأظن أنها لمحت برغبتها فى أن أرافقها ؛
ولكنى تجاهلت تلميحتها ليقينى أنى سأضيق بالحفلة
وضييجها

وقد ذهبت إلى الكرنفال فى ثوب قشيب على
هيئة أحجار الدومينو موشى بخطوط قرنفلية باهتة ،
ومفوف بشرائط بيضاء ناصعة ، وأخذت معها
« مروحة » من ريش النعام الأبيض الثمين . وتبدلى
من قناعها شرائط حريرية هفافة غطت فيها الخمرى
الدقيق . كانت رغبتها قوية فى الذهاب ؛ ولكن
رغبتها ضعفت حينما رأت أنى لن أرافقها . غير أنها
ذهبت لارتباطها بموعد مع أصدقاء لها . ولما أنبأتها
أنى سأبقى بالبيت وعدت ألا تتغيب فى الحفل كثيراً
وران على السأم والملل عند ما ذهبت وتركتنى

وحدى ، فأمسكت بكتاب وأشعلت سيجاراً ؛ ولكن
تبلد ذهنى وعزب لى حينما حاولت القراءة فنحيت
الكتاب جانباً ، واستويت فى جلستى أدخن وأسرح
الخيال المضطرب فى أجواء شتى

وبدأت أفكر : ترى ماذا تصنع زوجى فى
الكرنفال الآن ؟ وهل قابلت أصدقاءها ؟ وجل
بخاطرى أنها ربما لا تلتقى بهم . وقد يسبب لها
ذلك شيئاً من الارتباك والحيرة . وإن مثل هذه
الحفلات المامة لتجمع خلقاً كثيرين من
شتى الطبقات والأجناس . وهناك بعض الحرية
والإباحية لاسيما والوجوه ملثمة مقننة . وزوجى
حتى فى هذا الثوب — ثوب الدومينو — تبدو جميلة
ساحرة . وقد يزعجها من لا أخلاق لهم من الدين
يفشون هذه الحفلات كثيراً . وقد تكون الآن
تراقص امرأة راغبة عنه زاهدة فيه . أترانى أصبت
فى تركى إياها تذهب وحدها ؟ وفجأة ألقى سيجارى
فى الموقد وفزعت واقفاً ولما أهتد لأمر . وأعملت
فكرى قليلاً : آه ! إن لدى ثوباً تنكرياً ذهبت به
مرة إلى إحدى حفلات الكرنفال عند ما كنت
عزباً . كان ثوب « دون إسباني » من الحمل الأسود
من عهد فيليب الرابع . وقد كان بحق زياً جميلاً
اقتبس من صورة وأحكم صنعه . وقد كنت أعجب
بنفسى أى إعجاب وأنا أرتديه . وذهبت إلى غرقتى
التي جعلت منها « استديو » وفى إحدى الخزائن
ألقيت الثوب وقناعه

كان الوقت مبكراً . لماذا إذن لا أرتديه وأذهب
إلى الكرنفال ؟ لقد استقلت زوجى المركبة ، بيد أنه
بجوارنا اصطبل العربات . ثم استدعيت الخادم
وأرسلته فى طلب عربية

وعند ما كفت الموسيقى عن العزف طلبت إلى بعض
المرطبات وأرتنى الطريق إلى المقصف . ولما أن نالت
منها كفايتها — وقد كانت كما كبيرا — تأبطت
ذراعى ، وراحت تدور بي في المكان . كان يبدو أنها
تعرف منه المداخل والخارج ، وتلم بكل غرفة فيه .
وقد أدهشني ذلك كثيرا ، إذ كنت أعلم أنها لم تزر
هذا المكان من قبل ، وقد سألتها في ذلك فأجابت :
— أحضر هنا كثيرا ؟ إني أحضر عند ما
يحلولى .

وهل تملين زوجك ؟

فتمجبت قائلة :

— أوه ! زوجي ؟ ومن أدراك أنى ذات بعل ؟
— إن حسناء مثلك ، ولها ظرفك ، وسحرك
لا يمكن أن تغت من قيود الزواج .

— وأى فرق بين العشاق والأزواج ؟ أليس
من الجنون أن تزوج المرأة وفي مكنتها أن تلم
حولها العشاق المعاميد ؟

وشدت يديها على ذراعى ، ثم رفعت إلى من
تحت قناعها عينين تشعان فتنة وإغراء ... وعجبت ،
أهذه المرأة زوجي ؟ أم هي غانية قارحة تبحث عن
القوت من هذا السبيل ؟ كلا ، لا أعتقد . وحملت
نفسى على الظن بأن ذلك الأسلوب في الحديث وتلك
المواطف الحارة الجامحة التى تبديها زوجي ، إن هي
إلا من مستلزمات الكرشال ، تحت ستار الأزياء
الغريبة والأثواب الشاذة ... ولكن المرأة لا تتقن
ذلك الضرب من الغزل إلا عن اختبار وتجربة ،
وها قد اعترفت أنها تنشى المكان كثيرا ، مما يبدو
لي أنه تصنع منها وتمثيل أن لم ألحظ عليها غشيان

وكان مكان الحفلة يزخر بالناس ، رجالاً ونساء
حين دلفت إليه . ولكن لحسن الحظ وقع بصرى
لأول وهلة على زوجي بزيها ، ومروحتها ، وشرائط
الحرير المتدلّية من قناعها على فمها . عرفتها دون
صعوبة فاتخذت سبيلى إليها قدماً . بيد أنى تنبّهت
حينما اقتربت منها إلى أنها سوف لا تعرفنى بزي هذا
إذ لم ترنى فيه أبداً . بل ربما لا تعلم عنه شيئاً . على أية
حال لم أستطع أن أرد ، وقد رأيتى أمشى إليها . وقد
أدركت أنى أقصدها فلم تعرض ، ولم تشع بوجهها
أوه ! أيمكن أن تسمع لرجل غريب أن يحادثها ،
أو حتى تشجعه على الدنو منها ؟ وساورتنى الريب
والشكوك . فازممت لأبلون إخلاصها ووفاءها .
وبدون أن أهتم باللياقة والتقاليد ، قلت لها فى رقة :
— يخيّل إلى أنك فى انتظارى ، هلا أجبت

بنعم ؟

— حسن ! إنى فى انتظار متعة ولهو .

قالت ذلك فى لهجة رقيقة هى أيضاً كأنما آتت
مرماها من هذا التطفل البغيض إذ كان فى وقوفها
هكذا وحيدة شىء من العرض والإغراء

ورانت على عيني غشاوة ، فلم أر ولم أسمع من
الحفل شيئاً ، ولكنى تماكنت نفسى . وبدأت
الموسيقى تعزف ألحانها الطرية الجنون فسألتها أن
تمنحني هذه الرقصة فقالت وهى تهينى بسمه مضيفة :
— كم أسر بذلك !

ثم تناولت ذراعى ، وقادتني إلى حلبة الرقص ،
وأنا ذاهل مأخوذ . لا ريب أنها غاصت قبلى مع
كثيرين . ولكن هل يتأتى لقناع على وجهي
أن يسدل على شخصيتي كل هذا التستر ؟
كانت فى الرقص بارعة كأنما خلقت لترقص .

هذه الحفلات أبداً . ألم تمسك بالذهب إلى الكرنفال بحجة أنها لم تر حفلاً له من قبل ؟ وإني أقرر لثالث مرة أنني كنت مجنوناً إذ تركتها تذهب وحدها . وإني وإن كنت أعلم عنها الرعونة والطيش إلا أنه لم يدر بخلاي قط أنها مستهترة قارحة ليس في عينيها ملح . كنت أعتقد أنها أمينة على عهدي حافظة لشرفي في كل مكان تفشاء ، وكل حفل تحضره ، ولكنني عرفت هذه الليلة ما انطوت عليه نفسها الخبيثة الآتمة

ولا صرية أن أصدقائي قد عرفوها أجمعين وأشفقوا عليّ من تبذرها واستهتارها . كانت صدمة قاسية . كنت مشتت الذهن عازب البال طوال الوقت . كنت أتهمها بالخيانة والغدر حيناً ، ثم أنلس لها المماذير وأبعد عني شبح اتهامها حيناً آخر . كانت كل القرائن ضدها . بيد أنني لم أستطع أن أتحرر من حبي لها واحترامي إياها في مدى لحظات قصار . ومع كل ، فإذا صنعت لتستحق أن أؤاخذها وأرميها بالغدر والخيانة . حقاً لقد اتبعت في الحديث سبيلاً ملتوياً مبتذلاً ، ولكنني لم أوغل معها فيه ، ولو أوغلت لأبدت ولا ريب استيائها واستنكارها . أتراها تفعل ؟

وكانت يدها مستقرة على ذراعي . فترددت قليلاً ثم أخذتها وضغطت عليها ، فضحكت لشروود ذهني ثم بادلتني الضغط على يدي وقالت :

— ما قد صحوت أيها الدون المَبسوس . إنك بارد العاطفة ، حليف الجهامة والكآبة . ألا تراني أبعت الحياة والشعر ، وأنفت الحب والسحر ؟ وسوف أبعت كل أولئك فيك

فغلي الدم في عروق لهذه الكلمات . ومضى

وقت ليس بقصير قبل أن أملك زمام نفسي . لقد أترع اليأس قلبي ، وتحطمت الآمال في فؤادي . ووددت لو أنتحى ركناً مهملًا وأبكي كطفل صغير . وقد ران عليّ لا غضبٌ وثورة ، بل حزن وأسى فليس ثمة غضب حين ينعدم الأمل . كنت كالقاصر الذي يلتقي بآخر درهم معه ، وطمّنتُ النفس أن أوغل في ذلك الغزل فأعطيها فرصة أخرى ، قلت :

— لقد سباني سحر ك . وأصباني جمالك ودُّك الأمر الذي لا أطيق معه فراقك وهذا الزحام يرهقني فهلم تقادير المكان . إن العربة في انتظارى . هلا أتيت معي ؟

فقلت ضاحكة كأنما تحدث نفسها :

— وعلام الرفض وهو عصبي المزاج ؟ والآن . هذا حسن . صدقني أيها « الدون » الكئيب . ينبي وجهك أنك لم تتمود أن تجييك امرأة بلفظة « لا » — وله ؟ ... حسن جداً ؟

— إن مزاجك العصبي يدل على توقد عاطفتك واضطرامها ، فإلى أراك جامداً بارداً ؟ الحق أنني لا أهضم هذا البرود الذي تشتمل به

— إذن فلي أن أبث فيك السروز والبهجة أما وقد أحسست ذلك فسأبذل كل ما في وسعي . هلا أتيت معي ؟

فضحكت ثانية ... يا لله ! هل يدل ذلك منها على الخضوع والاستسلام ؟ وقدتها إلى مخرج المكان برغبة الشاب المفتون فلم تتمنع . بل قالت إني نافذ الصبر . وقد كنت حقاً نافذ الصبر . كانت كل دقيقة تمر عليّ كأنها ساعة مترعة بالألم والمذاب إلى أن انتهت المهزلة . ولم يكن بوسعي أن أعجل بإنهائها ،

فقد كان الأمر جد خطير . وكان لا مندوحة عن الذهاب بها إلى البيت . وتسالت إلى الخارج بنفسى أبحث عن المركبة ، إذ خشيت أن يعلن اسمي أمامها وأمرت الحوذي بالموءد إلى البيت بينما كنت أساعدها على الركوب .

ولشدنا خشيت أن تنبئه إلى حقيقتي في ذلك الحفل العام . وكأنما صرّ دهر طويل على بدء تحرك العربة في طريق الرحلة إلى البيت .

ابتعدنا عن جلبة الحفل وضيجه ولكني ظلت صامتاً بضع دقائق حتى بدأت تمازحني كرة أخرى نحول وجوى واكتئابى، وارتعت على يجسدها؛ ولست أدري أكان ذلك لا هتزاز المركبة أم عن فجور منها وفسق . على كل حال ، فقد طوقت خصرها بذراعى فلم تعترض ، بل سألتني وقد اقتربنا من طينتنا :

-- أين تقيم ؟ إن هذه الشوارع جد متشابهة ولا أستطيع بحال أن أعرف أين نحن الآن .

— على أية حال لقد وصلنا .

ووقفت المركبة فساعدها على النزول ثم فتحت الباب الخارجى بفتاحي ، ودلفنا إلى الردهة حيث كان الضوء خافتاً ضئيلاً . فأمسكت بيدها وقدمتها إلى غرفة الاستقبال ، وكان الظلام يطمئن في جو الحجرة ، بيد أنى بددته بأن أشعلت السراج ، ثم واجهتها، فرأيتها تضحك عالياً، ولكنها بدت كأنها لم تعرف أين هي !

قلت بلهجة شديدة :

— الآن فلنرفع اللثام يا سيدتي

وما ترددت ، بل أمابت لثامها ونضت عنها ثوب الدومينو .

فشهقت شهقة حادة وجحظت عيناى حتى كادتا تقفزان من عجزيهما .

ثم سقطت على أحد المقاعد . كانت المرأة التي أمامى غريبة ، مخلوقة بشعر فاحم جمعد وعينين سوداوين وأهداب مصبوعة ووجه ملطخ . امرأة من النوع الذى لا يشرف المرء مسيرتها في أى مكان ، أو مصاحبها إلى أى حفل . وددت لو أجتو عند قدميها فأقبل طرف ثوبها . هكذا كان شمورى حينما تحررت من الوسام والظنون ، وتمطل ذهني فلم أستطع شيئاً سوى التحديق في وجهها مبتسماً . وغرتها هيئتي إذ حسبت أن ذلك منى إعجاب صامت بعث في الدهول من جمالها وحسنها ، فوقفت صامتة في هيئة مسرحية تمثل الحجل المصطنع والدال الزائف؛ وظلت الحال كذلك حتى ثبتت إلى نفسي . كان أول ما خطر ببالى هو أن أخلص منها ؛ ولكن كيف أفعل دون أن أخدش كرامتها وأجرح عزتها؟ كان عقلى يعمل بسرعة في انتحال عذر مقبول . ولكن قبل أن أهتدى إلى شيء ، سمعت صوت عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت المفتاح وهو يدار في القفل ، ثم خفيف ثوب من حرير ، ثم خطوات خفيفة تصعد السلم .

لقد بكرت زوجى بالعودة كما وعدت . وأقبلت خطواتها نحو غرفة الاستقبال ، وهمت يدها بإدارة مقبض الباب ...

وكف عن الحديث ثم أطل من النافذة . كان القطار قد وقف منذ لحظات دون أن نحس به . قال الرجل في دهشة :

— « هال ها » لقد بلغت طيتي . وقفز من

القطار عندما تحرك ثانية يواصل السفر

ولم أراه مطلقاً منذ ذلك الحين . وأحسبني لن أراه أبداً ، لذلك سأظل طوال حياتي أكدح ذهني في تصوير ما حدث له عند ما انفتح الباب

محمد عبد الفتاح محمد

— (نظرة علية) ثوب الأنسة إيليان؟ نعم يا سيدتى . لقد عملت فيه أنا وعمتى حتى أنهيناها برغم الأعمال المزدحمة لدينا الآن ، وقد أمرتني أن أسلمه إليك — (أخذت العلبه) — نعماً

صتعت عممتك . إن باستطاعة إيليان أن ترتديه الآن حالاً (تدخل إيليان من ناحية اليمين بزة حسنة ولباس بسيط متواضع) هاهى ذى قد أتت (تخاطبها) أينها الآنسة خذى ثوبك الجليل إيليان (فرحة) — ما أسعدنى... هاتيه حالاً يا أمى... أرجو أن يكون ملائماً لى

بوليت — لا تخرج الأبواب من بين يدي مدام بوفيت إلا حسنة وملائمة دائماً إيليان — حسن ، سأرتديه باعتناء وسأبدو به كأننى إحدى نجوم السينما (تخرج من ناحية اليمين) مدام إيدوان (تخاطب بوليت) — تفضللى بالجلوس قليلاً

بوليت (تجلس) — إن اجنالك ظريفة جداً — إنها ليست ابنتى — سمعتها تدعوك أمها — إنها تدعونى أمها منذ أن تسلمتها من لجنة المساعدة العامة — المساعدة العامة؟

— أجل ، وضعت عندى منذ أن كانت رضيعة وكل الناس يعرفونها عندى ، ألم توضح لك مدام بوفيت الأمر؟

— كلا، إنها تعمل بسرعة لإتمام الثياب وليس لديها وقت للكلام ، ولولا ذلك لحدثتنى ... إذن فالآنسة إيليان؟

فراولن

للكاتبين : مارك صونال وجورج موننيك
بقلم الأستاذ ناجى الطنطاوى

أول شخص : مدام إيدوان ٣٥ سنة ، إيليان ١٦ سنة ، الكونتس ميرفيل ٤٠ سنة ، بوليت ٢٠ سنة في العهد الحاضر قرب بلدة تور الفرنسية ، غرفة ذات أثاث بسيط ، باب في متهى الغرفة وبابان آخران على طرفي المسرح .. إلى اليسار تظهر أريكة ومنضدة شغل .. إلى اليمين مقاعد وأرائك .

المشهد الأول

مدام إيدوان — ثم بوليت — ثم إيليان

عند رفع الستار تظهر مدام إيدوان وهي تزين قبعة جميلة بشريطة زاهية . سيكون وضعت ، تنظر إلى الساعة في يدها لتعرف الوقت

مدام إيدوان — الساعة الآن تبلغ الثانية والنصف ... ستتم قبعة إيليان عند ما تستيقظ من قبولتها (تنهد) بعد أيام ثمانية في مثل هذه الساعة (تسلم للعقد) يجب علينا أن نوطن أنفسنا على تحمل ما لا مفر منه (يرن الجرس في داخل الغرفة) من ذا يا ترى؟ لمنى لا أنتظر زيارة أحد الآن (تذهب لفتح الباب)

(صوت بوليت في الردهة) — هل أما الآن بحضرة مدام إيدوان؟

— أجل يا سيدتى ، تفضللى بالدخول

بوليت (تدخل) — إننى قادمة من دار عمتى مدام بوفيت

— الخياطة؟ حسن ، هل أتيت بالثوب؟

— ما هي إلا يتيمة أتتني من لجنة المساعدة العامة ، وأنا كما تعرفين يدعوني بالرضعة — فهمت ...

— إن بي ميلاً شديداً إلى الأطفال وليس عندي أي طفل . كان زوجي قد سبقني إلى فكرة تبني الأطفال ، فأودعوا عندنا حسب طلبه طفلاً كان أصله مجهولاً لم نستطع معرفته . ولقد سألناه فما أجدي سؤالنا إذ أنه لا يذكر شيئاً ، وقد نشأ هذا الطفل شديد الذكاء طول حياة زوجي ، وبعد وفاة زوجي لم يعد في إمكاني أن أشرف على تربيته فأصبح كثير الشغب وحقاً سفيهاً قاسياً عطماً كل شيء ، عاصياً كل أمر — يعلم الله ما أصله

— فأدركت أن في ذلك خطراً علي ، وبعد عدة حوادث رهيبية حدثت لي معه وأبقت له في ذاكرتي صورة غير حسنة ، طلبت استبدال بنت صغيرة به — ألم تخافي أن تنشأ البنت كالولده ؟

— كنت أشعر برغبة ماسة لأن أرى بقربي مخلوقاً يودني وأوده ، طفلاً أحبه قلبي وأريه وأعني به حتى أراه ينمو ويكبر أمام ناظري ، وأنا أعلم أن التجربة التي قمت بها لم تكن ذات نتيجة حسنة ولكن خسارتى ستكون أقل مع طفلة صغيرة ، وسيكون تدريبها وتهذيبها أسهل علي ... ولقد أصبت في ظني إذ أنني وجدت في إيليان الحبيبة الطفلة التي كنت أنشدها بل وجدتها أسمي مما كنت أتخيل ... كانت سنها عند ما عهد بها إلي أربعة أعوام ، وهي تبلغ الآن من العمر ستة عشر عاماً ، لقد قضيت بقربها اثنتي عشرة سنة كلها مسرة وسعادة وحبور

— ويبدو لي أنها من أيضاً تكن لك من الحب مثل ذلك

— نعم إنها تحبني كثيراً (تضطرب) وبعد ثمانية أيام على الأ كتر سرت ... — بعد ثمانية أيام ؟

— ستترك منزلي وهو منزلي لتذهب ... — إلى أين ؟ — ستذهب لتقطن قصر بريكور وهو على بعد ثلاثين كيلو متراً من هنا — مستخدمة ؟

— كلا ، إنها تتركني إذ لا يحق لي — حسب القانون — أن أبقها عندي ما دمت أحياء هذه الحياة البسيطة ، فلقد قسست لها ثروة كبرى وعرضت عليها حياة نفخة

— — إنني لا أفهم ما نتين — أعني أن الكونتس مرفيل هي مالكة قصر بريكور ، وهي أرملة ليس لها أولاد مثلي ، طلبت مني أن أكون بقربها وأن أتبنى إيليان شرعاً

— عادت المسألة مسألة ثروة فباستطاعتك .. — كلالاً أريد . إنني لم أبلغ بعد السن المخصصة للتبني ، ولا أملك المال الكافي لأتفق على إيليان حسب رغبة اللجنة وتلجأها ، ولم يعد هناك مجال للمفاضلة بين خيائتي التواضعة البسيطة وحياة الكونتس النفخة الثرية — لا ريب في ذلك

— ومن أجل هذا متأتى الكونتس مرفيل بعد أيام ثمانية لتأخذ إيليان وتدعني وحدي في هذه الدار أرى بيني آثار إيليان وذكراياتها دون أن أستطيع عمل شيء (تدفئ سديلاً من عينيها لتسحبها

من الدموع) أستطيعك عذراً . إن هذا ليس من اللياقة ...

— لا تقولى هذا يا مدام إيدوان ... أنتظنين أن البكاء من فرط الألم ليس من اللياقة ؟ ولكن أما كنت تعاملينها معاملة حسنة وتمططين عليها ؟ يجب أن يخفف هذا من ألمك ، ويجب أن يعزيك علمك أنها مسرورة وسعيدة عند الكونتس

— صحيح ولكن ... (متأللة) ذهبت إيليان لتتلقى دراستها الابتدائية في مدينة تور ، وفي دار إحدى صديقاتي اجتمعت بالكونتس فشعرت هذه نحوها بماطفة قوية وذكرتها بابنتها الوحيدة التي ماتت منذ ست سنوات ... وبعد أيام قلائل زارتني ، لتعرض على مشروعها في التبنى وهو حقها الذي يحولها إياه القانون ، فلم أستطع أن أقابل ذلك إلا بالخضوع والتسليم ، وأنا أفكر في مستقبل إيليان ومستقبل بعد إيليان ...

(تدخل إيليان مرتدية ثوبها الجديد وهو على أحدث زى ومخطط باعتناء ودقة)

إيليان (تسلم وهي ضاحكة) — أقدم لكما نفسى إننى إحدى نجوم السينما !

مدام إيدوان (تنظر إليها) — حسن جداً وموافق ... التفتى يا ابنتى ، إن هذا الثوب ذو جمال باهر (تخاطب بوليت) أرجو أن تبلى شكرى مدام بوفيت وتهنئتى على نجاحها في الخياطة

بوليت (وهي تهض) — سأبلغها ذلك وأعتقد أنها ستسر

إيليان — خبريها أن الحزام طويل

بوليت — لا خير ، سأصلحه لك الآن في

بضع دقائق

مدام إيدوان — (تشير بيدها إلى منضدة الشغل) تجدين هناك كل ما يلزمك ... سأتركك قليلاً لتهيئة طعام الغداء (تخرج من اليسار)

المشهد الثانى

إيليان — بوليت

إيليان — أأزع الثوب ؟

بوليت — لا حاجة لذلك فإن العمل لن يطول (تأخذ خيطاً وإبرة وتبدأ العمل)

إيليان — لا تسرعى بالعمل فإننى لست مستعجلة وأرجو أن يمود الحزام ملائماً .

— سيكون ملائماً وعلى حسب رغبتك .

— (تتأمل الثوب) أراه فائقاً أليس كذلك ؟

— جيد ، سيمثلوك طرباً وابتهاجاً ، حقاً إنه من ثياب القصور !

— آه ... أحدثتك أى بشىء ؟

— قالت لى إنك ذاهبة بعد ثمانية أيام لتسكنى قصر بريكور .

— نعم ، وإنه لجميل جداً ... لقد تناولت فيه طعام الغداء مرتين . إنه قصر ساحر ، فيه روضة كأنها إحدى روضات فرساي

بوليت — (بسذاجة) وفيه مياه كثيرة ؟

— يمكن أن يكون كثير الماء . لم يكن لدى الوقت الكافى لأرى كل ما فيه .

— إن حظك عظيم .

إيليان (بابتهاج) — أليس كذلك يا عزيزتى ؟ لقد رأيت غرفتى فيه ، إنها فاخرة : نافذتان كبيرتان وقطعة من الديباج ملأى بالورود ، وسرير جميل مذهب ، وآرائك يفوس الجالس فيها ، ومنضدة من الخشب الثمين ، وأخرى للزينة ، و... و... ماذا أحدثتك !

بدأه هذا الصباح (تخرج من اليمين ، وتخرج بوليت من أقصى الغرفة . وتدخل مدام إيدوان من اليسار)

المشهد الثالث

مدام إيدوان — بوليت

مدام إيدوان — (تنظن أن إيليان موجودة) لقد

سمعت الجرس يرن مرتين

بوليت — (داخلة) مدام الكونتس مرفيل

مدان إيدوان — (في ذهول) مدام مرفيل ؟

وفي هذا اليوم ؟

بوليت — (بصوت منخفض) يمكن أن تكون

هناك بعض تبديلات في القصر .

— أدخلها بصورة لبقة وباحترام

بوليت — (خارجة) هل تفضل سيدتي

الكونتس بالدخول .

(تختفي بوليت وتدخل الكونتس وهي امرأة في الأربعين

من عمرها ، ذات مظهر أرستقراطي قليلا ، تتجافى في أول الأمر)

المشهد الرابع

مدام إيدوان — الكونتس

مدام إيدوان — (في دهشة وتحفظ) تفضل

بالدخول يا مدام كونتس

الكونتس — أنعمي صباحاً يا سيدتي العزيزة،

بيدولي أنك دهشت لرؤيتي .

— نعم ، أعترف بذلك (تقدم لها أريكة)

— (تجلس) لماذا دهشت ؟

— (تواصل كلامها) ذلك لأنك أتيت اليوم ...

يمكن أن ... تكوني عدلت عن مشروعك

— عدلت ؟

— نعم عن مشروعك

— ما أجل هذا القصر !

— وفي الروضة بركة بها قارب أخضر اللون

— هل تحسنين التجديف ؟

— كلا ، ولكني سأتعلمه (تلمب يديها) كم

يسليني هذا !

— أكل ذلك بعد ثمانية أيام ؟

— نعم .

بوليت (وقد أتمت عملها) دونك إلزام فالبييه

إيليان (تضع إلزام) — موافق جداً ، أشكرك

حقاً إن هذا الثوب جميل ... أراني مضطرة للصعود

على درجات القصر بتؤدة كيلا يفسد

— سيكون تحت إمرتك خادمة بلا ريب

إيليان (مسرورة) — طبعاً (تمثل دوراً مزلياً)

هل عادت مدام مرفيل من زيارتها للكاهن أيتها الخادمة ؟

بوليت (تمثل دور الخادمة) — إن سيدتي

الكونتس عادت يا آنسة

— خبريها أنني في غرفتي

— أمرك يا آنسة

— سأزل لأراها بعد قليل .

— أمرك يا آنسة (تنفجران من الضحك ، وسمع

رنين الجرس من الداخل)

إيليان — ألا تسمعين الجرس يرن ؟

— إحدى الزائرات ولا ريب .

— يمكن أن تكون الزائرة ثقيلة . ماذا يحدث

إذا رفضنا أن نفتح ؟ ولكن لا ، إن أمي لا ترضى

بذلك (يرن الجرس ثانية)

— لا تبدلي شيئاً ، سأفتح الباب ، وسأعلم

مدام إيدوان .

— أصبت ، وأنا ذاهبة إلى غرفتي لأنهم كتاباً

— أى عن تبني إيليان ؟

— نعم

— كلا ياسيدتى العزيزة ... لقد نضج مشروعى
بعد أن فكرت فيه طويلاً ، ولقد تمت كل المعدات
ولم يعد هناك أى داع للعدول
— (بحزن) آه ، حقاً أن ...

— سأشرح لك بكل بساطة سبب زيارتي الآن
قبل أن آتي إلى هنا . كنت في زيارة المرأة التي علمت
إيليان حتى خرجتها ، وقد زرتها حسب وعد
قطعت لها إثر كتاب عاطفي أثنى منها ، ولما خرجت
من عندها عزممت على أن آخذ إيليان معي اليوم دون
أن أكون بحاجة للعودة بعد ثمانية أيام
— (بحزن) اليوم ؟

— كيف صحة الطفلة ؟ (مدام ابدوان لا تجيب)

سألتك هل صحتها جيدة ؟

— (تمتلك عواطفها قليلاً) نعم يا سيدتى

— هل تنام القيلولة بعد كل غداء ؟

— دائماً

— حسن ، هل فكرت في تصويرها ؟

— نعم ، وإن صورتها الآن عند صانع الأطر

— هل نجح التصوير ؟

— نعم

— ستبقى لك هذه الصورة ذكرى جميلة ،

وستعطيني طبعاً تكاليف التصوير

— كلا يا سيدتى إنني لست غنية وأنت تعرفين

ذلك

— حسن إذا كان هذا يسرك فلست أدرى

لماذا أريد أن أعارضك به ، ولكنك قلت لي ذلك
بلهجة معادية قليلاً

— معادية ؟ كلا ياسيدتى ... إن لهجتي كانت

حزينة جداً

— ذلك لأنني أتيت قبل مضي ثمانية أيام ،

ولا أراك تصافيني الود

— سواء صافيتك أم لم أصافك إن هذا لا يبدل

شيئاً ... أرجو أن تعلمي أنني أعد هذه الأيام الثمانية

دقيقة بعد أخرى ... وأراك اليوم بجاءة تقولين إنك

ستأخذينها (تنخفض صوته) وتوحين إلى بصورة غير

إرادية أنك آتية لتسرقها !

— (مالكة زمام نفسها) ولكنك يا سيدتى

العزيزة قد نسيت أن القانون كان باستطاعته أن

يسرقها - على حد تعبيرك - منذ ثلاثة أعوام لكي

يضمها تحت التمرين ويسمح لها بأن تعيش حرة .

فأنت إذن قد ربحت أموال ثلاث سنين وهي أكثر

من ثمانية أيام فيما أظن !

— إنني لن أناقشك في هذا الموضوع الذي

يؤلمني ، بل أتي إلى في شغاف قلبي

— لقد كانت دهشتك أقل منها الآن عندما

أثبت أعرض عليك مشروعي ، أذكرك ؟

— هذا صحيح ، لم أكن أنظر إلا لسماعة

إيليان التي عزممت على أن تضمني لها مستقبلها ، ولكن

ثق أن هناك قلب أم حنون يتلوى من الألم ، لقد

قلت ذلك قبل ساعة لابنة عمتي مدام بوفيت

— مدام بوفيت ؟

— نعم الخياطة التي صنعت ثوب إيليان الجديد

— (رأت موضوعاً تتكلم فيه) هل انتهى الثوب

هل رأيته جميلاً ؟ كيف بدت فيه ؟ أجيبيني بسرعة !

— لقد اتبعوا فيه تعليماتك (صمت) آه لو أنني

تنهت إلى نفسي ، إنني منذ اثنتي عشرة سنة أنتظر
حزناً عميقاً .

— ألا تفكرين في امتلاك البنت وتبنيها ؟

— كلا .

— أما أنا فأقول لك يجب أن تقول نعم لأنك
منذ اثنتي عشرة سنة تشعرين بالفرح لوجود هذه
الطفلة إلى جانبك ، وإنك مصيبة في ذلك لأن هذا
الفرح أشعر به أنا أيضاً عندما أكون أما دون أن
أفكر في الألم الذي سيحدثه لي فقدان ابنتي التي أحباها
حب العبادة .

— إنني لم أكن أبداً أما ، ومع ذلك فإنني
أفقد اليوم ابنة لي في الوقت الذي تجدين فيه أنت
ابنة . إنني لا أحسد أحداً ، ولكنني لا أستطيع
أيضاً أن أمنع نفسي من التألم والحزن لحياتي الفقيرة
التي لا تسمح لي باستبقاء إيليان

— حياتك الفقيرة ... ؟ إنك تغالين

— كلا . إنني أقول الحقيقة !

— سيدتي العزيزة ، إنني أكون تحت تصرفك
إذا ...

— (بلا جفوة) أواه يا سيدتي ، إنني لا أطلب
صدقة ، ولقد أردت فقط أن أقول إن دخلي لو كان
كافياً للدرجة التي يطلبونها ، لم أردد قط في استبقاء
إيليان ، إن الحظ يكون في بعض الأحيان رهيباً
— لقد كان رهيباً لي قديماً عندما أفقدت ابنتي .

إننا لا نستطيع إلا أن ننحن أمامه كبيراً وصغيراً .
إن أوامر الله ومقدراته نافذة على الجميع (تدخل إيليان
حاملة يدها كتاباً ، ويبدو عليها السرور) هذه هي
الطفلة العزيزة

المشهر الخامس

مدام إيدوان — الكونتس — إيليان

إيليان — سيدتي الكونتس ؟ لشد ما أنتظرك !

مدام إيدوان (بحماس) — أنظري إلى ثوبها !

الكونتس — (بعد أن تماقت إيليان وتقبل جبينها) :

— جميل جداً ، لقد زادك جمالاً

إيليان — أرايت يا سيدتي ؟ إن أمي قد أحسنت

بإعطائه للخياطة (تخاطب مدام إيدوان) سأقرأ لك

الكتاب الذي انتهيت الآن من كتابته لأرسله إلى

أليس فابنيه (تخاطب الكونتس) : هل تسمحين

يا سيدتي ؟

الكونتس : ضاحكة — أسمح

إيليان (تقرأ بصوت مرتفع) — « أعذربي

يا عزيزتي أليس إذا تأخرت في إجابتني على كتابك

الآخر الذي تسأليني فيه عن الحادث الجديد بانتقالي

إلى قصر بريكور الذي وصفته لك »

الكونتس — (مستحسنة) جيد جداً

إيليان (تتابع قراءتها) — « هذه الحياة الجديدة

بكل معنى الكلمة توقف في في هذه اللحظة أفرأحاً

ليست كلها صبيانية ، ولكنها مع الأسف متبوعة

بلحظات ألم . ذلك عند ما أفكر في الذكريات التي

سأتركها في هذه الدار التي عشت فيها سميدة بقرب

التي وهبتني خالص حبها دون أن تعرف عني شيئاً ،

كما تحب الأم الحنون ابنها الوحيد ، وأظهرت لي

من العطف والود ما لا يفهمه شكر »

مدام إيدوان (تشرق بالسموع) — إيليان !

إيليان (تم) — « إنني أشعر أن ذكرى

هذه الأعوام ستبقى منقوشة في أعماق فؤادي .

ثم إنك تعلمين يا عزيزتي أليس أنني لن أغادر هذا

مدام إيدوان — لشد ما أود ذلك ، ولكنك تعلمين جيداً أن هذا غير ممكن الآن .
الكوتنس (تخاطب إيليان) — إنني أشاطرك حزنك يا إيليان (تهدئها بعطف) ولكن يجب على أن أذكرك أن أمر مستقبلك قد وكل إلى وأنا مضطرة لتأمين سعادتك ، وثق أنني لن أرد لك طلباً .
لمسحى عينيك يا ابنتي العزيزة واذهي لتهدئي ، وسأبقى مع مدام إيدوان (تأخذها نحو اليمين) حالاً يا ابنتي إيليان حالاً (تخرج إيليان)

المشهد السادس

مدام إيدوان — الكوتنس — ثم إيليان
مدام إيدوان — أرجو أن تعذريها
الكوتنس — بل إنني أستحسن ذلك منها
— إنني أخاف أن ...
— لقد عجبت لصيحتها
— إن ذلك شيء طبيعي في فراق كهذا ، إذ أننا سنفترق لغير لقاء .
— فكرة جميلة . إنك ستريتنا غالباً هنا أيضاً .
سأتي بها إليك كل وقت أستطيع فيه ذلك بالسيارة
— يمكن ذلك في الشهر الأول .
والثاني أيضاً وكل الأشهر التالية ، لم لا ؟
— لأن الزمن يسير ، وبأني معه النسيان .
إنني لا أشك أبداً في عاطفتك الحسنة ولكنني أخاف .
لقد عشنا معاً اثنتي عشرة سنة ، الواحدة منا قرب الأخرى . إنك ستأتين بها ، هذا صحيح ولكنها ستأتي زائرة ثم إنها ستنسني ، وأنا أيضاً سأنسها بحكم المادة
الكوتنس (تفكر) — إلا إذا ...
مدام إيدوان — ماذا قلت ؟
— قلت ، إلا إذا

الكان دون أن أشعر بحزن قاتل » (تطوى الكتاب وتخطب الكوتنس) أظنك فهمت عواطفى يا سيدتى
الكوتنس — (بهشة) نعم . نعم . ولكن ما الوسيلة لحل مقبول ؟
مدام إيدوان (تمسح دموعها) — إنني أشكرك يا إيليان من أعماق قلبي
إيليان — بل أنا التي يجب على أن أقدم لك شكري الجرم بعد ثمانية أيام
مدام إيدوان — لم يبق هناك ثمانية أيام والأسفاه !
— كيف ذلك ؟

— إن مدام صر فيل قادمة لتأخذك معها
— (فرحة) اليوم ؟
الكوتنس — نعم يا ابنتي العزيزة
إيليان — هكذا فجأة ؟
الكوتنس (بهدوء) — نعم . لقد وضحت السبب لمدام إيدوان
إيليان (بعد صمت قصير) — إذن أنا متهيئة للذهاب معك يا سيدتى
الكوتنس — لا تتعجلي يا ابنتي ، لن نذهب الآن ...

إيليان — ماذا يجب أن أدعوك منذ الآن ؟
الكوتنس — بوسعك أن تدعيني بكلمة قصيرة وجميلة : ماما
إيليان (تضرب) — ماما ؟
الكوتنس — نعم ماما ، إذ أنني احتلت مكان ...
إيليان (صائحة بحزن) — كلا ، إن هذا لن يكون (ترتفع على عنق مدام إيدوان) ماما ، ماما
مدام إيدوان (تضمها) — يا عزيزتى
إيليان — لا أريد أن أتركك ، استبقيني عندك

— بامتنان (ترتجى بيت ذراعى الكونتس المدودتين ، تدخل إيليان)
 إيليان — لقد تهيأت ، لا ينقصنى إلا قبعتى (تأخذ القبة من على المنضدة وتلبسها)
 الكونتس — أما ذاهبة لأرى العائق (تخرج من أقصى الغرفة)
 إيليان — إننى لست واهمة ، لما دخلت رأيتك تماثين الكونتس
 — (مسرورة) كلا، إنك لست واهمة يا عزيزتى إن مدام مرقيل طيبة القلب وكريمة ورحيمة — نحوى . أما نحوك ؟
 — نحوى أيضاً إذ ستأخذنى معها — إلى قصر بريكور ؟
 — إلى قصر بريكور لأساعدنها فى إدارة الدار وسأكون معك منذ أن أتقل أثاثى من هنا فى وقت قصير
 إيليان — أنا أحلم ؟
 — إنك لا تجلمين يا ابنتى . سترى كل منا الأخرى كما كنا هنا تماماً
 — (مسرورة) : كم أنا فرحة ومسرورة !
 الكونتس — (تظهر) سيؤخذ الأثاث إلى غرفتك فى القصر يا عزيزتى وسنذهب معاً
 — لقد قالت لى أى كل شيء ... إننى سعيدة جداً ، وأشعر بنحوك بحب عظيم
 الكونتس (تأخذ بيدها بحنو) — لقد أصبتُ فيها فعلت ، أمرعى الآن (تخرج)
 إيليان — (ترجع إلى مدام إيدوا فرحة) سأدعوها أى إذا أردت ، ولكن أنت لا أدعوك إلا ماما ... دائماً ماما
 (دمق)
 ناهى الطنطاري

— (يظهر لها بريق أمل) إلا إذا ؟
 — هناك ... من الممكن ... وسيلة ؟
 — أية وسيلة ؟
 — إننى أفكر ... ليس بعيداً عن بريكور ...
 لى صديقة عزيزة ذات قلب رحيم ... أستطيع أن أطلب إليها ... إنك تبيعين أقمشة جيدة أليس كذلك ؟
 — بقدر المستطاع .
 — (تريها القبة التى نسقتها مدام إيدوا)
 وهى راقية .. أنظري قبة إيليان الجميلة هذه ، إنها خرجت من عندك كما أظن ...
 — نعم .
 إذا طلبت من صديقتى أن تأخذك لتبىي الأقمشة عندها وتلاحظى الخدم وما يتطلب المنزل ، أرضين ؟
 — إذا كان وجودى لديها يسمح لى برؤية إيليان بسهولة وفى غالب الأحيان فإننى أوافق
 — إذن ستركين هذه الدار وتنتقلين إلى صديقتك ... وسترين إيليان متى شئت
 — أذهب من هنا ؟ إننى مستعدة لذلك ، ولكن هل لى أن أسألك ...
 — عن اسم هذه الصديقة ؟ هل قبلت ؟
 — نعم وبامتنان عظيم ولكن ما اسمها ؟
 — احزرى
 — لا أستطيع
 — (ضاحكة) تدعى الكونتس مرقيل
 — (بفرح زائد) أنت يا سيدتى ؟
 — (ضاحكة) نعم أنا بكل بساطة
 — (بفرح عظيم) . أستطيع أن أرى إيليان دائماً ؟ اسمح لى أن أعانقك ؟

خاتمة بابنا إصفيه الثاني

للكاتب الأنكليزي "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تمة)

وكان السفير الإنكليزي قد وصل إلى طهران قبل وصولنا إليها يرضة أيام واستقبل بأعظم ما يمكن أن يستقبل به كلب من كلاب النصارى لدى خليفة رسول الله . وأثار الاحتفال به فجة في المدينة وصرح بعض كبار علمائنا بأننا قد ارتكبنا بعض الإثم باحتفالنا بكافر هذا الاحتفال العظيم وأنا سنعذب من أجل ذلك يوم الحساب عذاباً أليماً وذبحت الدبائح من عجول وأبقار تحت حوافر خيل السفير الإنكليزي ، وثرت الأزهار في كثير من الطرق، وسمح له بأن يدق رجاله الطبل يوم دخولهم المدينة ، وهذا لعمري فضل كبير لم ينله أحد غير أمراء إيران

ثم بدأت الضيافة كأحسن ما يمكن أن تكون فأعد خان كبير لنزول السفير ، وفرشت الأبسطه الثمينة ، وأخذنا من الجيران ما احتاج إليه الخان وألحقنا به حديقة بديمة . وأمر خازن المال الأعظم بإطعام السفير ومن معه من يث المال ما أرادوا الإقامة في المدينة وأرسلت الملابس والشيلا ن بعد أن جمعت من رجال الحكومة إلى السفير . وأعلن الشاه في جميع المدينة أن السفير ومنمته في ضيافة جلالتة الخاصة فلم يكن، والحالة هذه، بد من ملاطفة هؤلاء الأغراب والاحتفاء بهم خشية غضب الشاه

ويمكن أن يقال إن كل هذه التعطفات كانت أكثر مما يجب للترحيب بهؤلاء الكفار وإكرامهم ومنحهم وسائل الراحة ولكن حين حل موعد الرسميات نشأت صعوبة مبهمة الأسباب دلت على جود هؤلاء الضيوف ونكرانهم للفضل ، وكان السفير أكثر خلق الله جوداً وعناداً، فأولاً عند ما مثل بين يدي الشاه أبي أن يجلس على الأرض وطلب كرسيًا يجلس عليه فأحضر له كرسي وضع في مكان بعيد عن العرش . وثاني الأمور التي دلت على عناد السفير مسألة الحذاء فلم يقبل ذلك الكافر أن يخلع نعليه أو أن يلبس جواربنا الحمراء . وثالث الأمور أن السفير أبدى رغبته في رفع قبعته عن رأسه أثناء انحنائه أمام الشاه رغم محاولتنا إقناعه أنه ليس من الأدب أن يكشف رأسه . ثم نشأت عن اللباس مشكلة كبرى ، فقد كانت أعدت للسفير ورجاله ملابس يرتدونها تغطي جميع أجسامهم فيمكنهم بها أن يظهروا أمام الشاه بمظهر لائق ، وأعلن ذلك للسفير فأباه إباء شديداً وقال : إنه سيظهر أمام الشاه الفارسي بما تعود أن يظهر به أمام ملكه الإنكليزي من الثياب

ظهرت هذه المشكلة عسيرة الحل إذ لم يحدث أن أحد الفارسيين وجد يوماً في بلاط ملك من الملوك الأجانب ليعرف الملابس الواجب ارتداؤها أمامه . ففى وسع السفير ما دمننا نجمل عادات بلاده أن يرتدى ثياب نومه ويقابل بها الشاه إذا أراد. غير أنني فكرت ملياً في الأمر فتذكرت أن من بين الصور الموجودة في القصر ذى الأربعين عموداً في أصفهان توجد صور بعض الأوربيين الذين كانوا

يفدون على الشاه عباس الكبير وبينهم من أقام في المدينة

وتذكرت أن بين الصور صورة ظهر فيها نفس الشاه عباس فلا شك أن الثياب التي تمثلها تلك الصورة والتي ارتداها الأرييون أمام الشاه عباس هي الثياب الواجب أن يرتديها كل أوربي أمام رأس متوج

فأسرعت بإخبار رئيسي بما رأيت . ونقل هو حديثي إلى الوزير الأكبر وهذا أمر بأخذ نموذج من تلك الصورة بواسطة أمير صناع أصفهان في أقرب وقت ممكن . وعند ما وصلت الصورة إلى طهران أرسلناها إلى السفير الإنكليزي وقتلنا له : إن الشاه قبل أن يراه في ثيابه التي اعتاد السفراء لبسها في البلاط الفارسي ، وإن نموذجاً منها مرسل إليه ليرتدى هو ورجاله على مثاله وليقابلوا الشاه بهذا الزي . ولم يكذ الأشقياء الملاحين أن يروا الرسم ويسمعوا خطابنا حتى علا ضحكهم وكثر صياحهم بشكل لا يمكن وصفه ، ثم قالوا لنا : « إننا لن نضع هذه الثياب على أجسامنا » . وأصرروا على البقاء بزيم المعتاد واضطرونا أخيراً إلى الإذعان لرغبتهم ساد السكون والهدوء بين القوم الذين حضروا اجتماع السفير بالشاه بشكل لم يكن ينتظر من قوم جهلاء لم يتمدينوا ، وعجبنا ودهشنا من قوم هذه جالهم من الجهل بأحوال العالم ثم يستطيعون ضبط شعورهم والسيطرة على إرادتهم في مثل هذا الاجتماع فلا يحدث فيه ما يعكر الصفو

وجلس الشاه على عرش من ذهب وعليه حلة مزركشة بالياقوت والأحجار الكريمة ذات البريق الذي يخطف الأبصار والوميض الذي يبهز الأنظار

وجعلت رعيته تضيح : « من خجشيد ؟ من دارا ومن أنوشروان أمام شاهنا العظيم الجالس على العرش ؟ »

ووقف الأمراء على يمين العرش وعلى يساره فكانوا أبهى وأجل من الأحجار التي تتألق على حلة أبيهم ، ووقف على مسافة من العرش وزراء المملكة الثلاثة ورجال الحكمة وأصحاب المشورة ، واصطف غلمان الشاه من كل أصبح الوجه أسود الطرف معتدل القد أمام الحائط يحملون تيجاناً في أيديهم فكانوا كالملائك يحملون الأنجم الزاهرة ليرصعوا بها قبة السماء

وأخذ الفرنج مقاعدهم في وسط الجمع وأخذيتهم في أرجلهم وعليهم أرديتهم التي ترتفع إلى خصورهم وذقونهم حلقة فكانوا كالطير الذيح المجرد من ريشه أو القردة المريضة التي تساقط شعرها أو أي شيء آخر خلا بني آدم إذا وازنتهم بمن حولهم من السادة الأتجاد ، وقد تجلدوا وتماسكوا فلم يرهبهم هول الموقف ولم يزعجهم وجود الملك حتى خلنا أنهم مثلنا ثباتاً وجلداً في هذه المواقف

تكلم السفير الإنكليزي فعدد مناقب الذين يمثلهم ، تكلم على مثال لهجة قومه وعاداتهم في الكلام فلم يجمع من لفظه ولم يحسن من قوله ، ولولا حذق المترجم وذكاؤه لما لقب الشاه فيما نقل إلينا من حديث السفير بملك الملوك وقبلة العالم

وإني لأحاول مستحيلاً إذا حاولت أن أصف ما بين أخلاق القوم وأخلاقنا وعاداتهم وعاداتنا من الفوارق التي لا تحصى والمفارقات العديدة ، وحاول بعض فلاسفتنا أن يلموا بشيء منها أو يدركوا مبادئ القوم فعزوها إلى أن مناخ بلادهم قائم رطب وإلى (٧)

كان الوزير الأكبر هو الرجل الوحيد في فارس الذي له تأثير على الشاه لما اتصف به من الخلق والمهارة وحضور الذهن وقد شغل منصب الوزارة على حكم الشاه لم تزعزعه التقلبات عامة كانت أو خاصة ولم تضعف نفوذه التغيرات فأصبح ألزم لفارس من أى رجل آخر

فرايت أن أول ما يجب أن أحاوله هو كيف أبال رضاء الوزير الأكبر عنى وحمايته لى . وبدأت بالظهور أمامه يومياً، وإذا كانت مسائل الأوربيين قد شغلت كثيراً من اهتمامه فقد كان لا يرانى إلا سألنى عن شىء من شئونهم ، وأدى ذلك إلى أن الوزير الأكبر كان يعهد إلى برسائل إلى السفير الإنكليزى أعود إليه بالإجابة عليها مضيفاً من عندى مديحاً للوزير وإطراءً وإعجاباً به وبقدرته العظيمة وتدخلت بين الأحزاب وغدوت محبوباً مقرباً من كبير الوزراء

وكان أحب ما تصبو إليه نفس الوزير أن تهدي له الهدايا، فجعلت هذا الأمر قبلتى فى علاقتى مع سفير الإنكليز وبذلت جهدى فى الحصول منه على شىء يقدم للوزير فيرضيه ويكون مساعداً لى على نيل الخطوة لديه، ولم يكن تبادل الهدايا إلا أمراً عادياً لا يجلب مظنة ولا يثير شبهة فالقيت كل اعتمادى فى خدمة نفسى على هذا الأمر . وكنت قد نجحت مرة أو مرتين فى المفاوضة لصالح أمتى ووطنى، فكان الوزير الأكبر ينظر إلى باعجاب وسرور

وكان فى النية عقد محالفة مع الإنكليز وعين رئيس الوزارة مفوضاً من قبل الشاه فأخذت أحوم حول المفاوضات والمفوضين ككلب يبحث عن قطعة عظم، رغم أنه لم يكن لى أى عمل فى المفاوضات، وكنت أشعر بين آونة وأخرى بأنى على باب النجاح

أن الشمس لا تظهر على ربوعها : « كيف يمكن أن يشبه قوم تحيط بهم المياه ولا يشعرون بحرارة الشمس قوماً لا يمر بهم يوم لا ينعمون فيه بأشعة الشمس ويكادون لا يعرفون ما هو البحر . — غير أن العامة أرضاهم وأقنعهم قول بعضهم : « إن كفر القوم وجحودهم أنزلا عليهم اللعنة حتى فى دنياهم، ولو أسلم السفير وأتباعه وأمتة أيضاً واعتنقوا الدين الصحيح لتغيروا جميعاً فى لحظة عين وأصبحوا مثلنا ولزال عنهم ما هم فيه من نجاسة وأقذار ولكان ما لهم الجنة فى الآخرة يوم يسكنها الله عباده الصالحين

الفصل الثامن والسبعون

هابى بابا تلحظه عناية كبير الوزراء

كان ما تقدم مساعداً لى على التقدم معيناً على النجاح فقد عهد إلى بمعظم ما يتعلق بالأوربيين فى فارس من الأعمال نظراً لما ظن فى من العلم بأوروبا والخبرة بشئونها وأدى ذلك لى إلى أن أصبح معروفاً عند كبير الوزراء وزملائه الوزراء وذوى النفوذ والقوة فى الدولة

ولم يكن ميرزا فيروز صاحب ثروة، وانقطع عنه ما كان يعطى له نظير قيامه بأمور الدولة بعد عودته إلى طهران فلم يستطع وهذا أمره أن يمدنى بما أحتاج إليه للعيش، وقد مرته أن رآنى قادراً على كسب قوتى والعمل لنفسى فى الحياة . غير أنه لم يترك فرصة تمر إلا وامتدحنى فيها ممدداً مناقبى وكفايتى ذا كراً جدى واجتهادى، وقد برهنت على صدق ما قال عنى فلم أهمل ولم أهواون حتى أ كسب رضاء الكل وأن أحول نظرم إلى مسلمين وغير مسلمين فهجرنى بحس الطالع وتركنى الشؤم

« ما لا يمكنني أن أقوله . هل فهمت ؟ »
 فقبلت يده باحترام ورفعتها إلى رأسي قائلاً :
 « اطمئن ياسيدي وأقسم إنني إن شاء الله حامل إليك
 أحسن الأخبار ، ومبيض وجهي عندك »
 وانصرفت من لدن الوزير وقصدت إلى دار
 السفير الإنكليزي ، وكلّي آمال طيبة في حسن
 المستقبل . ولست أريد أن أذكر ما قلت وفعلت
 لأقنع السفير بموافقة رئيس الوزارة على آرائه غير
 أنني نجحت نجاحاً باهراً ، وعدت أحمل في يدي
 كيساً مملوءاً بالذهب .

ذهش الوزير الأكبر عند ما رأيته ألقى بالكيس
 أمامه ، وجعل ينظر إليّ ثم إلى الكيس مدة قبل
 أن ينطق بحرف ثم انطلق يمدحني ويقرظ ذكائي ،
 وقال : « حاجي بابا ! إنك أصبحت لي وحدي ولست
 أتركك دون أن أكاثك فتمن عليّ ما شئت »

فجعلت أذكر له أنني خادمه الأمين وتابعة المخلص
 وأنني لم أفعل غير ما يحتمه عليّ واجبي وأني لا أطلب
 غير سماحه لي بالوقوف أمامه . فظهرت بمظهر من
 الإخلاص للوزير والأمانة لا يمكن أن تنطرق إليه
 الريبة ، غير أنه فهم ما وراء هذه الكلمات وقال لي :
 « لا تسترسل في كلامك على غير جدوى . لقد كنت
 أبحث عن رجل مثلك بحث اليأس حتى وجدتك ،
 وأنا أعرف قيمة الخدمة التي أديتها . تقدم يا بني
 في طريقك الذي بدأت تحت حمايتي ورعايتي ، وعليك
 بالفرج فاسلب منهم ما تشاء فإن الذهب مقدس
 في خزائهم ، وهم فوق ذلك محتاجون إلينا . وماذا
 أقول لك أيضاً ؟ إن أهل إيران كالأرض العطشى
 يفعل فيهم الذهب ما يفعله الماء في الأرض . يتظاهرون
 بالفرج بالشعور القومي والإحساس الوطني ، وإنهم

وأخيراً أرسل إليّ كبير الوزراء يطلبني في صباح
 أحد الأيام بعد جلسة استمرت طول اليوم السابق
 في المفاوضات . وأمرت أن أقابل الوزير في حجرته
 الخاصة التي لا يدخلها أحد غير الأخصاء من أتباعه
 وجدته لا يزال في فراشه ولم أجد معه أحداً
 آخر ، وحين رأيته قال بصوت لطيف : « حاجي بابا !
 اقترب مني واجلس بجانبك إذ لدى من المهام ما أريد
 أن أحدثك به »

عند ذلك شعرت برهبة وخجل غير أنني لم أستطع
 إلا الركوع بجانب الفراش إذ كان كلام الوزير
 بصوت منخفض جداً لا يكاد يصل إليّ . لم يبدأ
 الوزير كلامه بمقدمة ولم يستهل أي استهلال بل قال
 إنه في مركز حرج جداً إذ طلب السفير الإنكليزي
 مطالب لا يمكن قبولها ، وقال إنه سينادر طهران
 إذا لم تقبل مطالبه

ثم قال الوزير : « وقد هددني الشاه بقطع رأسي
 إذا سمحت للسفير بترك طهران ، ومن جهة أخرى
 فإنني والمفوض الآخر الذي يشاركني مقتنعان تقريباً
 بأن الشاه لا يمكن أن يوافق على مطالب الإنكليز
 فما العمل ؟ »

فقلت بخضوع وكأنما كان لسكياتي معنى آخر
 غير ظاهرها : « ألا يمكن أن نرشوه ؟ »

قال الوزير : « نرشوه ؟ من أين تأتي بالرشوة ؟
 هذا إلى أن الإنكليز قوم أغبياء فلا يقبلون الرشوة .
 ولكن أصنع إليّ . إننا لا نشاركهم في هذه الغباوة .
 والسفير يريد أن ينال مطالبه بأي ثمن . وأنت
 بلا شك تعلم أنني ما تناولت أمراً إلا وأنجزته ، فانطلق
 إلى السفير وكله بما لك من حق صداقته . قل له
 إنني مرسلك ، وإن في استطاعتك أن تقول له

الأجسام وخبت الأرواح وبأن مصيرهم جهنم وبئس المصير .

وليس من شأني أن أبحث في طبائع هؤلاء الناس ولا في أذواقهم بل كان بحثي منصرفاً إلى كيفية الحصول منهم على المال . وقد أنتج عملي وأثمر وعاد على المال الوفير فلم يذهب تعبى سدى

ويذكر القراء عموماً أنني تحدثت في جزء سالف من هذا الكتاب عن طبيب أجنبي كان يحاول أن يوجد في فارس طريقة لمعالجة الجدري بالتطعيم

لم تنجح طريقته نجاحاً كبيراً وظللنا نعالج أطفالنا المرضى كما كان آباؤنا يعالجوننا . ولكن الطبيب كان يظهر شغفاً شديداً بتحقيق فكرته ونشر طريقته .

وكان يخاطب بنفسه كل سيدة يتمكن من رؤيتها في وجوب التطعيم بمصل الجدري حرصاً على حياة أبنائها . وقد رأيت أن في تقربه من النساء بهذه الوسيلة خطراً عظيماً على الآداب مهما كان السبب الذي يتذرع به فأقنعت رئيس الوزارة بأن يجعل جندياً على باب هذا الطبيب لينع كل امرأة من دخوله وكان هذا العمل قاضياً على كل أمل للطبيب فأدخل اليأس على نفسه

فذهبت إلى هذا الطبيب الأحمق وقلت له : ما الذي يدعوك إلى الحزن مع أنك لم تستفد مالا في مقابل تعبك ؟

فقال لي — وكان قد تعلم لغتنا — ويلك إنك لا تعرف معنى لما تقول . إن طريقة التطعيم يجب أن تتم في جميع البلاد لإيقاظ الأطفال من الموت

فقلت : « وما الفائدة من ذلك ؟ لماذا لا يموتون وهم أطفال وأى نفع جنيته من حياتهم ؟ »

قال : « إذا كنت تريد النفع والفائدة فإني أدفع

إنما يخدمون مصالح بلادهم في كل عمل أو قول أو حركة ، وهذا لعمري ما لست أفقه له معنى . من يدريني بعد موتى أو موت الشاه أن إصلاحاتنا باقية وأعمالنا لا تذهب بها الأيدي العابثة ؟ إن للوطن رباً يحميه ويقيه كيد الكائدين ، فبست ما يقول المكابدون إنهم يخدمون أوطانهم إذ ليس لفرد أن يفهم ما هي هذه الخدمة فكيف يقوم بها ؟ »

وكأنما أزال كلمات السفير حججاً كان فوق عيني ، وفتحت لي طريقاً جديدة للكسب ورننت في أذني كلمات الوزير : « إن الذهب مقدس في خزائن الفرنج وهم محتاجون إلينا » وإلى هذه الغاية وجهت عنايتي ...

الفصل التاسع والسبعون

لا قيت صعوبة كبيرة وبذلت مجهوداً عظيماً إلى أن توصلت إلى الإعلان عن نفسي في المدينة أنني صاحب الوزير الأكبر المقرب إليه ونشرت بين الفرنج أن أمراً واحداً لا يمكن إنجازه من غير وساطتي ، وسرعان ما أنتجت هذه الشهرة نتائجها وأثمرت ثمرها . وأخذت تكثر لدى الطلبات بما يتبعها من الأجر والمنفعة . وكان أظهر ما في طباع ضيوفنا الإنكليز ميلهم الشديد إلى منفعتنا رغم إرادتنا غير مباليين بما يصرفونه في هذا السبيل ورغم ما نقوله نحن عنهم

وكانوا يشعرون نحونا بما لم نشعر به نحو أنفسنا من الود والمنفعة . ولم نستطع رغم ما بذلناه من بحث وتفكير أن نستكشف السر الذي حدا بهؤلاء القوم إلى السعي في مصلحتنا ذلك السعي الشديد — نحن الذين لم ننقطع قط عن رميهم بالكفر والإلحاد ودنس

كانت من الأطمعة التي تزرع في بلاده ولا يوجد مثلها في فارس، وقد قال إنه يريد مساعدته على تعريف الناس بها لتكون أساس تجارة واسعة بين البلدين فامتعض رئيس الوزارة وكلفني أن أذهب إلى السفير وأخبره بأن الأرض الفارسية ممتلئة بالخيرات وأنه لا يقبل مثل هذه الهدية بل يريد هدية من القماش الثمين الذي لديه

ولما أبلغت هذا القول إلى دار السفارة ضحك الشبان الذين فيها والذين ليس لهم لحي ولا شوارب وقالوا: «هل يريد رئيس الوزارة أن يحيل أغذية يستفيد بها الشعب إلى كساء يضعه على ظهره؟» وضحكوا ضحكات عالية مني ومن الذي أرسلني ولكن السفير نفسه كان أعقل كثيراً من هؤلاء الشبان فقابلني بمتنهي الأدب وأمر بتسليمي ما طلبته من الثياب، وفي الوقت ذاته أبقى أن يسترد البطاطس الذي أرسله وطلب توزيعه على الشعب قائلاً إن هديته إلى الوزير علامة على الصداقة وهديته إلى الشعب برهان على الاحترام والتقدير

ولما عدت في ذلك اليوم إلى رئيس الوزارة أطراني وامتدحني وقال إن منزلي عنده أكبر منزلة وإنني سأظل أقرب أخصائه ما بقي على قيد الحياة

الفصل الثمانون

الخاتمة

كادت تنتهي المفاوضات التي بيننا وبين الكفار على أن يرسل الشاه سفيراً من قبله إلى بلاد الإنكليز لتقوية الروابط بيننا وبينهم. وكان كل يوم يمر يزيد في إقناعي بكبر المنزلة التي نلتها عند رئيس الوزارة وكانت حاجته إلى مساعدتي تزداد ظهوراً بمرور الأيام

لكن المبلغ الذي تطلبه وتركتني أعود إلى نشر العمل الذي لم تكن ترى فيه فائدة قبل الآن»

هنا بدأت مفاوضات منته وأظهرت له مقدار المخاطرة التي أتحمّلها بالتكلم في شأنه مع رئيس الوزارة ثم اتفقت معه في النهاية على المبلغ وبعد أيام عاد الزحام على بابي ولم يقل أحد أي شيء عن مخالفة الآداب بمقابلة الطبيب للنساء

ومن حماقات هذا الطبيب أنه طلب تشريع الجثث الأدبية فقلت له: «هل تدعى في هذا الموضوع أيضاً أن العالم سيستفيد من تقطيعك أجساد المسلمين؟» فقال: «يستحيل أن تقدر الفوائد التي تعود على الإنسانية من علم التشريح ويستوى عندي تشريح المسلمين والنصارى واليهود»

ثم عرض عليّ مبلغاً كبيراً لأسمح له بذلك فهدت له الطريق وصرت أشقى غيظي من الكفار بتقديم جثثهم إلى الطبيب لتشريحها وفي الوقت نفسه أجمع ثروة طائلة من هذا الطريق

ولقد كان السفير نفسه يزعم أنه يريد الإصلاح لبلادنا وأنه سيخدم الإنسانية بتنفيذ مشروعاته في هذه البلاد، وكانت لهجته الطيب وقد طلب إليّ أن أساعده على عمل آخر عند رئيس الوزارة ووعداً بهدية كبيرة جداً، ولما كان من عادات رئيس الوزارة أن يظل أنفه عالياً مادام في الجو هدية فقد استمر يسألني كل يوم عن هذه الهدية بعد أن قصصت عليه الحديث الذي دار بيني وبين السفير وقد علم أن السفير أحضر من بلاد الإنكليز مقداراً عظيماً من المنسوجات الغالية وكان الوزير شديد الشغف بالثياب الفاخرة

لكن الهدية التي أرسلها السفير من تلقاء نفسه

وفي اليوم التالي لتوقيع المعاهدة مع انكلترا استدعاني إلى غرفته الخاصة وقال لي : « أصغ إلى يا حاجي بابا فإن لدى حديثاً هاماً أريد أن أحدثك به ولما كنت واثقاً منك فإني مقدر ما ستبديده من الاهتمام »

فأظهرت له أنني عند ظنه وأكدت له ولائي وطاعتي فقال : « سواء أكانت المعاهدة بيننا وبين الإنكليز حسنة أو سيئة فإنها قد تمت وقد قرر الشاه أن يرسل من يمثله في لوندرا : وأنت تعرف الفارسيين كما أعرفهم وتعرف أنهم لا يحبون مغادرة بلادهم وسنجد صعوبة كبيرة في اختيار من يصلح لهذه السفارة ممن يقبلون السفر إلى بلاد الإنكليز . وإني واضح نصب عيني اسم رجل خاص أريد أن يفارق البلاد الفارسية بأسرع ما يمكن وأريد أن تبذل كل ما في وسعك لإقناعه بقبول هذا المنصب »

فهمت لأول وهلة أنه يريد إرسالي وتقليدي هذا المنصب ، ولكنني لم أفهم لماذا يريد إخراجي من فارس . وعلى كل حال فإني لم أشأ أن تفوتني هذه الفرصة فأظهرت أنني فهمت وأنه شاكرو ودعوت له ودنوت منه وقبلت يده وقلت له : « إنني عبدك الخاضع وسأبرهن في كل موقف على خضوعي لك وولائي . صرني وستجدي مطيعاً ولو أدى ذلك إلى موتي »

قال : « هذا كلام حسن يا حاجي بابا والرجل الذي أعنيه هو ميرزا فيروز »

فظهر التجهم على وجهي وبدأت على علام اليأس واستمر رئيس الوزارة يقول : « لقد وجدت نفوذه لدى الشاه آخذاً في الازدياد ، وهو رجل قادر على الكلام والإقناع ، وهو داهية في الرياء قادر

على الكذب والاختلاق . وقد أظهر الشاه من السروره أكثر مما أظهر من السرور بأي إنسان . وقد سمعت أنه يضر لي عداً شديداً وإن كان يتظاهر بأنه خادم مطيع ولم يجرؤ إلى الآن على إعلان عداوته لأي إنسان أو على الدس ضد أي أحد . ولكنني لا أزال خائفاً منه حتى يرحل عنا ، فمتي بعد عن وجه الشاه بالسفر إلى بلاد الكفار استرحت من أكبر مسبب لتأعبي وسأدبر في غيابه الخطط حتى إذا ما عاد ظافراً من مهمته (وأسأل الله ألا يعود) لم يجد مثل ما له الآن من النفوذ »

وافقت رئيس الوزارة دون تردد وإن كان ضميري غير مستريح إلى أي عمل أقوم به ضد هذا السفير الذي كان أصل نعمتي

وقال لي الوزير : « إنني لم أطلعك إلا على جزء من مشروعي فإني أريد غير ما أخبرتك به — أن تذهب أنت أيضاً مع السفير بوظيفة السكرتير الأول وأنت جدير بهذا المنصب لما لك من الإخلاص والمعرفة التامة بما أريده ، والخبرة بمختلف الشؤون » ولقد سرني تقلدي هذا المنصب ، ولكن لعرضه في وقت واحد مع منصب أكبر منه ، واختياري لأصغرهما امتعزت ، وكنت من جهة أخرى أفضل البقاء في إيران ما دمت لن أزال منصب السفير فإن مجال الكسب والعمل فيها أكبر من مجالهما في المنصب الذي اختاره لي . وكنت لا أزال أذكر ألم الغربة ، وأخشى أهوال البحر في رحلة طويلة إلى بلاد الإنكليز التي سمعت عن ظلامها وبردها ما يفضني فيها وعلمت من جود أهلها وثقلهم ما جعلني أتصور الإقامة بينهم فوق الطاقة . وعلى أية حال فقد أجيبت

والمخاطرات؟ وهل سأقطع السنة الذين كانوا يشتتون بي وببيروني بأني ابن حلاق أم سأزيدهم شمة بي؟ وأخذ فكري يحوم حول هذه الخواطر ومشيت في الطريق منتفخاً بحالة تستلفت الأنظار . وكنت أحلم بمسيرتي على جواد مطهم في أصفهان وتحتي شرج موثى بالذهب وفي يدي لجام مذهب وحولي الجنود يحرسونني . وصلت إلى بيت ميرزا فيروز فوجدته مستعداً للكلام معي في شأن السفارة وظهر لي أن السفير الإنكليزي كله في نفس الموضوع الذي كافني رئيس الوزارة بالكلام معه فيه، وقد سهل عليّ موقف الذي كنت أستعصبه أن ميرزا فيروز أظهر سروراً شديداً واغتباطاً بمنصب السفير في لوندرة ، وقد سألتني هل أريد بعد أن استعدت مكاني أن أعود إلى زوجتي شكريب، فتخرجت من الجواب على هذا السؤال لأني كنت أكره الذكرى السيئة .

وفي اليوم التالي أعلن الشاه أنه اختار ميرزا فيروز ليكون سفيراً في انكلترا . وصدر أمر رئيس الوزارة بأن أذهب إلى أصفهان لجمع الهدايا من هناك ولست أريد أن أجهد القاري بذكر التفاصيل عن هذه المهمة وبكفي أن أقول إنني سافرت إلى أصفهان كما يسافر إليها رجل كبير الأهمية وإنني كنت مغمم النفس بشعور من العظمة والجلال لا يمكن أن يدركه إلا أمثالي من الإيرانيين، وقد ظهر لي أن سنوء الحظ فارقتني فصرت في مأمن منه ودلتني كل الظواهر على أن صفحة جديدة من حياتي قد فتحت ليكتب فيها القدر سطور السعد .

ودخل حاجي بابا مدينته باسم ميرزا حاجي بابا نائب الشاه، وهل أريد بعد ذلك أن أقول شيئاً؟

بكلمة القبول التي تجدها حاضرة على لسان كل فارسي مهما كان شعوره الحقيقي ، وقلت له إنني قابل أمره على البين والرأس ، وإنني سأظل خادمه . ثم سكت سكوت الحجر الأصم ففهم الوزير سريعاً ما عنيته وقال لي : « إذا لم تكن تحب ما عرضته عليك فمندی مناصب أخرى ليس بالصعب تعيينك في أحدها ، ولكنني آثرت صالحك ولا يزال موعد السفر بعيداً فاذهب الآن إلى أصفهان مندوباً من قبل الشاه واجمع من أهلها ما تستطيع جمعه من الهدايا لتقدم باسم إيران إلى البلاط الإنكليزي . ولك من هذا العمل مورد كبير للكسب »

لم أدع الوزير يتم قوله فقد كان اقتراحه بأن أعود إلى مدينتي في مثل هذه المهمة معزياً لي وقلت بلهجة من استخفه الطرب : « أقسم بالخير والملح الذي أكلته عندك وأقسم بحياتك وبرأس الشاه إنني مستعد لتلبية ما تأمر به وسأذهب إلى أي مكان تأمرني بالذهاب إليه ولو أمرتني بالذهاب تحت أطباق الأرض لآتي بشيطان من الشياطين »

وقال الوزير : « حسن ما تقول فاذهب أولاً إلى فيروز خان وأخبره إنه هو الرجل الوحيد الذي يصلح من بين الفارسيين لمنصب السفارة وأقنعه بالفوائد العظيمة التي تعود عليه من قبول هذا المنصب . وقل له إن رجلاً آخر يزاحمه عليه وأنه أعقل من أن يضيع هذه الفرصة فيمنعها منافسه . ومتى قلت له ذلك سهل إقناعه »

تركت رئيس الوزارة وأنا لا أعلم هل أنا مساعد إلى السماء أم هابط إلى الأرض وهل تحققت كل أطامعي أم سأعود إلى حياتي الماضية المملوءة بالأخطار

وهنا يقول واضع القصة باللغة الانكليزية إنه قد اتبع نصيحة الدرويش الفارسي فلا يعود إلى سرد القصص إلا إذا أعجب بها السامعون، فإن شجعه القراء وضع قصة أخرى يسرد فيها حوادثه بعد ذهابه إلى انكلترا وما حدث بعد عودته من انكلترا إلى إيران بعد أن عرف عن الغرب وشئونه ما ليس يعرفه الإيرانيون . وواضع هذه القصة في انتظار تشجيع القراء يستأذنيهم في إتمام قصته

آخر عنوانه حاجي بابا في انكلترا وقد ترجمناه ونشرناه في مجلة الرواية في العام الماضي . وقد أعجبنا أيضا إعجاب بطريقة المؤلف في استعراض مظاهر الحياة في إيران فحا كيناه في طريقته ووضعنا على غرار كتابه كتاباً نستعرض فيه الحياة المصرية المصرية وعلاقتها بالشرق والغرب وجعلنا بطل القصة « الدكتور مبارك السنتريسي الملقب بحاجي بابا بولاق وأخباره في مصر وفرنسا والعراق »

وسنوافي به القراء بعد حين
عبد اللطيف النشار

ويقول مترجم القصة إلى اللغة العربية إن واضع القصة باللغة الانكليزية قد وفى بوعده فوضع كتاباً

شركة مصر للملاحة البحرية

شركة مساهمة مصرية

خط رهاب فاخر وسريع بين الاسكندرية - جنوى - مرسيليا وبالعكس

أسماء الصيف ابتداء من ١٥ مايو إلى ٢١ أكتوبر سواء للسفر

من مصر أو من أوروبا

(من الاسكندرية إلى جنوى أو مرسيليا أو بالعكس)

البخرة كوكثر

البخرة النيل

جك

جك

١٦

١٧

درجة أول

—

١٢

درجة ثانية

١٠

—

درجة ثالثة : مخفضة (سباحة)

—

٩

« ثالثة : (خصوصية)

٥

—

درجة رابعة

٣

—

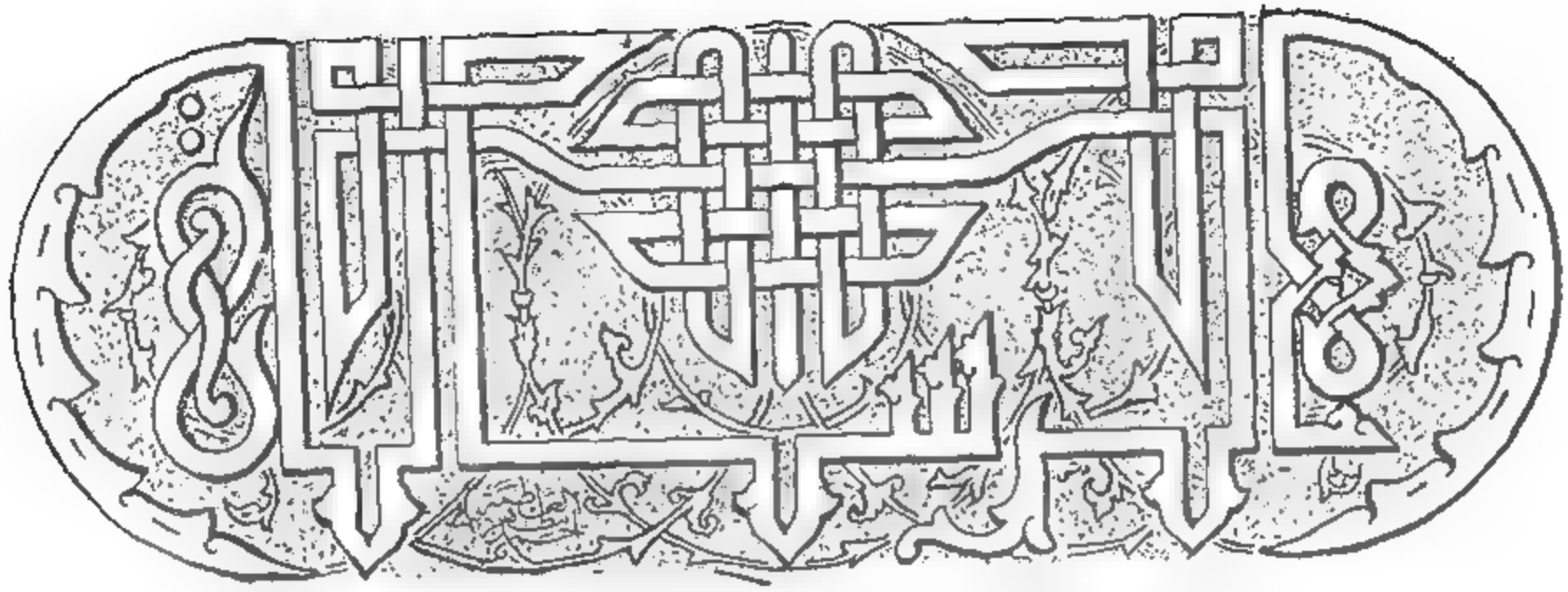
كوكثر

ويمنح للذين يستخرجون ثمنًا كبر الذهب والأياب ما خصم ٢٠٪ على قيمة تذكرة الأياب .

والأجور المبينة أعلاه بالعملة الانجليزية تحصل بواقع ١٧ ١/٢ قرشا للجنينة الانجليزية .

مواعيد السفر من الاسكندرية

البخرة النيل	١٨ مايو	البخرة النيل	٢٩ يونيو
»	١ يونيو	»	٦ يوليو
»	٨	»	١٣
»	١٥ يونيو	»	٢٠
»	٢٢ يونيو	»	٢٧



مَجَلَّةُ الْأَدَابِ الرَّفِيعَةِ وَالْثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجِلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرَصُّدُ ظَوَاهِرِ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُّ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الاشتران الداخلي سنون قرناً . والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبطاقة العربية بمخضم ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

يحل الاشتراك عن ستة

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والروايات

يصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ - أول يونيو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٧

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	القصص	القصص	القصص
٥٠٦	الشريرة	أفصوصة مصرية	بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
٥١٦	وجيدة	أفصوصة عراقية	بقلم الأديب ناجي عمود الغزاوي ...
٥١٩	رثاء	للقصص الروسي أنطون تشيكوف	بقلم الأديب فيصل عبدالله ...
٥٢١	مغامرات فتاة	أفصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دزني خبطة ...
٥٤٠	أباب الفتوح	للكاتب الإنجليزي الكبير «الساقى»	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
٥٤٤	ما ذنبها ؟	أفصوصة مصرية	بقلم الأنسة جميلة العلايلي ...
٥٥١	فقدان الناكرة	عن الإنجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...
٥٥٧	الشیطان	للكاتب الفرنسي جي دي موباسان	بقلم الأديب عادل الجمال ...

ولكن ربما لأنها كانت
أتمسهن جميعاً ولأن تعاستها
هذه كانت السبب الخفى فى
سعادتى بها زمناً طويلاً لن
يمود أبداً

ويرجع عهد معرفتى
بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠
وكنت آنشد طالبا فى اللبنة

الأولى بمدرسة الزراعة العليا ، استيقظت ذلك اليوم
فى الصباح المبكر كمادنى فجاءتنى والدنى وقالت لى :
— حسونه ... أرى أن أخبرك أن ضيفه نزلت
بيئتنا ، وأنها ربما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمى ...
فنظرت إليها بغرابة وقلت لها :

— من هى ...
— زينب هاتم زوج اليوزباشى محمد راضى جارنا .
قامت على الدهشة وقلت :
— لكنها ما زالت عروساً فى شهر العسل ...
أليس كذلك ...؟

— هو ذلك يا بنى ، والظاهر أنها تعدة الحظ
لأنها اضطرت إلى هجر بيتها والالتجاء إلى فى الصباح
المبكر ، وزوجها ولا شك رجل غليظ فظ لا تسهل
معاشرته ، وإلا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم
أن لا أقارب لها فى القاهرة ...

وكانت والدنى شديدة التأثر فقلت :
— مسكينة ...
فقالت بانفعال :
— كانت أم هذه الشابة صديقة صباى ، وإلى

الشرب بركة

أقصوصة مصرية
يقلم الأستاذ نجيب محفوظ

الغالب على أحداث الشبان فى هذه الأيام أن تتجه
نحو غرضين : النساء والسياسة ، وحول هذين
الموضوعين دار الحديث فى مجتمع من الأصدقاء كان
من حظى المشاركة فيه محدثاً ومنصتاً . وقد بدأ الحديث
فاتراً مبتدلاً فلم يستطع أن يجذب إلا بعض انتباهى ،
حتى تكلم ذلك الصديق البارع وتدفقت الذكريات
على لسانه الذرب فألقيت إليه بانتباهى كله ، لأن حديثه
كان قصة مستوفاة العناصر ، ومثل هذا الحديث
يستبد بمشاعرى استبداد المال بقلب اليهودى الشحيح
وإليك ما قصه صاحبي — قال :

لا يكاد يخلو تاريخ شاب من امرأة ، ولكنه
قد يخلو من المرأة المؤثرة التى ترك وراءها شاهداً
عميقاً لا ينال منه طمس السنين كالوشم فى اليد
أو الصدر . وقد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهن
إلا أثرأ ذاهباً من اللذة أو الألم ، أو أطيافاً غارقة
فى الظلام والنسيان ، إلا امرأة ، بدت فى فترة من
حياتى كالشوكب الدرى ينير أبداً ويضيء ما حوله ،
فلا أنا أنساها ، ولا يغمى النسيان حياتى التى غمرتها
بروحها الرقيق ... لماذا ... لأنها كانت أجمل من
صرفت ؟ ... أو أحبهن إلى قلبى ؟ ... لا أعتقد هذا

أرجو صادقة أن تعيش بيننا سعيدة ...

ثم أردفت بلهجة ذات مغزى

— وأن تكون لها يا حسونة أخا كريما ...

وبادرت قائلاً :

— طبعاً ... طبعاً ... يا أماء .

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتي

الأخيرة واللهجة التي قالتها بها ؛ وأحسست بمنح

من الخجل والغضب . ترى هل تشفق والدتي من

سلوكي على ضيقتنا ؟ ثم خطر لي أن أتساءل — هل

هي جميلة إلى حد تبرير والدتي ... حامت أفكاري

حول ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة .

والحق أن كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ

البداية الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيماء إشفاق .

وكان جو بيتنا غاية في الهدوء ، فوالدي كان

حينذاك قاضياً بمحكمة طنطا الأهلية ، وكان يقيم نصف

الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محل عمله ؛

وكان أخي علي في المدرسة الحربية ، وأخي عادل

في بعثة مدرسة الطب بالنمسا . وفي ذلك الجو المغمور

بالهدوء والسكينة عرفت زينب هانم العروس

التعسة ... وقد خيل إلي وأنا ألقى عليها النظرة

الأولى أنني أرى صبية صغيرة . نعم كانت بضعة بمثلثة

بادية الأنوثة ، ولكني قرأت في عينيها العسليتين

نظرة براءة وسذاجة . بل طفولة كاملة لولا ما يلوح

فيهما بين العين والعين من الحزن العميق الذي لا تعرفه

الطفولة الحقة ...

وكان الشباب في ذلك المعهد غيرهم الآن كانوا

أعظم استقامة وأدنى إلى العفة والظاهر ، وأرجى

عهداً للتقاليد ، وكانت المرأة المصونة تبدو دثماً وكأنها

محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة . وكان الحب

بعيداً نسبياً عن النهتك والابتذال اللذين صرعا

أخيراً وأورداه الإباحية والجنون ، فكانت العواطف

تردهر في القلب وتنبت الآمال والأمانى ، وتنصر

في العقل وتخلق الأخيلة والأخلام ، وتكسى بحلى

نادرة من صنع الأوهام والأطياف ...

فكان يقنعني من زينب نظرة أختلسها من

وجهها الحسن أو جسمها البض ، لتكون زادي

في النهار والليل وفي اليقظة والنوم ، وأصبحت

وأسميت في عالم أثيري جميل بث في وجداني حياة

ناضرة كالحياء التي ينشرها الريح في الحقول

والبساتين . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك فجري

الحديث بيننا مرات ، ولعبنا الورق مرة والنرد

أخرى ... وغالبتي غواظي فوسوست إلى نفسي

أن أتشجع وتساءلت بنجبت لماذا لا أجرب حظي .

لماذا لا ألس أناملها في أثناء اللعب مثلاً ؟ أو أهدي

إليها مجولين فتكون فاتحة حديث لذيذ لا يعلم ختامه

إلا الله ... ولكني لقيت من التردد الشيء الكثير ،

ولم تسمحني الجرأة التي تعلمتها فيما بعد ، وضاع الوقت

هباء حتى رجعت يوماً إلى البيت ، فوجدت والدتي

وحدها ... وكنت تعودت أن أراها إلى جانبها ،

فأحسست بوحشة وضيق ، وكنت رغبة تلح علي

بالسؤال لأن تلوث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء ،

وظننت السؤال فاضحاً ، ولم تدعني والدتي فريسة

المذاب فقالت لي :

— شكراً لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر

لزوجته وعاد بها لأنه نقل إلى أسبوط وقد كلفتني أن
أهدي إليك تحياتها ...

وأحسست في الحال إحساس الطالب الذي
يمنى بالسقوط في الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة
اللائقة به . وضاق صدري ذلك اليرم بالبحث ففرت
إلى الخارج لأخلو إلى نفسي بعيداً عن عيني والدتي .
على أن الصبا دائماً قادر على جرف الأحزان والهموم
فاستطعت أن أبرأ في مدة وجيزة ونسيت في غمرة
الحياة والآمال تلك الحسرة التي عصرت قلبي أياماً
فكانت مثل « الزكام » الذي يفقد الإنسان طعم
الحياة حينما يزول سريعاً فبكانه لم يكن ...

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت
على الدبلوم ، ووظفت في وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥ ،
ثم انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس
سنوات . وفي الأيام الأولى لهبوطي إلى الإسكندرية
آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعناء السفر
وأبحث في هدوء عن مسكن مناسب ؛ ووقع اختياري
على فندق (ريش) لحسن موقعه من البحر لأننا كنا
في سبتمبر وهو من الشهور المحبوبة في الإسكندرية
يطيب فيه الجو ويهدأ البحر وينصفو ؛ فحملت حقيبتى
إليه وزلت في حجرة من حجرات الطابق الثانى .
وأذكر أنه لم يكذب تركنى الخادم ويطلق وراءه الباب
حتى سمعت طرقة . فدلقت إلى الباب وفتحته ورأيت
لدهشتي صديقنا الدكتور أحمد شلبي ، واستقبلته
يشوق وأجلسته إلى جانبي وكان يقول لى :

— أحقاً هو أنت ...

ثم أردف :

كنت تاركاً باب حجرتى مفتوحاً فلمحتك

وأنت تتبع الخادم وعرفتك في الحال ..

— هذه فرصة سعيدة

— يا حظك ...

— أى حظ تعنى ... أنت تعلم أن موظفى
الزراعة لا حظ لهم يحسدون عليه
فقال ضاحكاً :

— أنا لا أتكلم عن الكادر ... ولكن عن
فوزك بهذه الحجرة ... فيا حظك ...

— وما الداعى إلى هذا الحسد ... هي حجرة
دون حجرات الصف المقابل التي تطل نوافذها على
البحر ...

— هذا حق ، ولكن شرفها تمس شرفة
الحجرة رقم ٢٤ التي إلى يمينك ؛ وحسبك هذا ...
— وما شأن الحجرة رقم ٢٤ ... ؟
فقال وهو يتنهد :

— تقيم بها امرأة حسناء وحيدة ...

— وحيدة ... ؟

— نعم ... وإلى هذا يعود السبب في أن
حجرات هذا الطابق مأهولة كلها

— لعلها ممثلة أو راقصة ...

— هو ما يظنه الرقم ٢٧

— فقلت مستفهماً :

— الرقم ٢٧ ... ؟

— أعنى زميلى . الدكتور الصواف المقيم في
الحجرة رقم ٢٧ ، ولكنى لم أواقفه على ظنه ؛ لأنى
خبر بالصالات والمراقص جميعاً . والأعجب من هذا
أنها تبدو محترمة ولا ينقصها إلا زوج لتكون من
البصونات حقاً

فابتسمت وقلت :

— عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

— أوه... كل الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة

— ألم يفز أى رقم منها ببطايل ... ؟

— فى الظاهر لا ، والله أعلم بالسرائر

وجالسى الصديق ربع ساعة ، تحدثت فيها ما شاء له الحديث ، ثم ودعنى وانصرف إلى حجرته .

وكنيت تعباً منهوك القوى فنمت ساعة نوماً عميقاً واستيقظت عند الفجر ، وفتحت شرفتى وجلست

فيها أستروح هواء البحر النعش . ولاحظت منى نظرة إلى الشرفة التى إلى يمينى ، فتذكرت ما قال

صديقى الدكتور ، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف ؛ ولكنى استرددت نظرى بسرعة لأنى سمعت صرير

بابها وهو يفتح ، ونظرت أمامى ، ولحظت بروز شخص ، ونخيل إلى أنه امرأة ، وتأكد ظنى

عند ما عطست ، وحافظت على جمودى وتظاهرت بعدم الاكتراث ... وغالباً ما يفيد البرود وهو

إن لم يفد يعز عن الخيبة ...

ولكنى لم أثبت طويلاً ، ونازعنى الشغف إلى النظر فألقيت ببصرى إلى جارتى . ورأيت امرأة أول

ما راعنى منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحول إلى يقين بأنى رأيتها من قبل ، وأنا أتمتع بهذا كره

لا تحيب قط فى حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت ... ذكرت جارتنا القديمة ... التى عاشت معى فى بيت

واحد بضعة أيام كانت كافية لإنصاج وجدانى ... وتمسكتنى الدهشة والاهتمام ...

ولاحت منها نظرة إلى فالتقت عيناتنا ، وتوقعت

بقلب خافق أن أطالع فى وجهها آية التذكير ، وتحفرت

للسلام ولكن خاب رجائى ، لأن نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها ولم تلبث أن ولتني ظهرها وعادت

من حيث أتت . والأسفاه لقد نسيته بغير شك ... وما من شك فى أنها هى جارتنا القديمة وهى ما تزال

تحافظ على جمالها وأنوثتها ، ولكن مالها تعيش وحدها فى هذا الفندق ... وما الذى يحملها على هذه

الوحدة الغريبة ... وأين زوجها يا ترى ... وطال تفكيرى فى شأنها حتى قمت لارتداء

ثيابى وغادرت حجرتى ، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتها على أثر خروجى مباشرة ، فتباطأت

فى خطاى حتى حاذتني وهبطنا الأدراج معاً ووجدت فى نفسى رغبة شديدة فى محادثتها ولم أكن أحجم

فى مثل ذلك الموقف فقلت لها بهدوء غريب : — سعيده يا هانم ... لعلك تذكرينى ...

نجدتني بنظرة إنكار ، ولعلها ظنت أنى أندرع بالحيلة لاستبدراجها إلى محادثتى ، وأسرعت الخطا

فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها : — أهكذا تنسين جيرانك بسرعة ...

ألا تذكرين جرم حسن بك هانم القاضى ؟ .. فألقت على نظرة غريبة ولاحظت فى عينيها

الأحلام وسمعتها تتمم : — عدالات هانم ... شارع الزقازيق ...

فقلت بفرح : — نعم ، هذه والدتى ... وهذا شارعنا ... فهشت لى وسارت إلى جانبي وهى تقول :

— أنت ابنها ؟ ... تذكرت ... كيف حال عدالات هانم ؟ ...

فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدى القديم بها:
— والدتى بخير ... كيف حالك أنت يا هانم؟
— عال ، ولكن أين عدالات هانم ؟ ...
هل أنت هنا وحدك ؟ ...

— نعم ، الأسرة فى رأس البر لأن والدى
يحبها ويفضلها على الاسكندرية ، وأنا هنا بحكم عملى
... نسيت اسمك ...

حسونة ...

وكنيت نسيت اسمها كذلك ولكنى نفرت بطبعى
من سؤالها عنه ، فشيت إلى جانبها صامتة وكان
وجدانى فى يقظة قوية ، وأصارحكم القول بأنى من
الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة
أيا كان جمالها ، وأن رغبتى فى النساء عامة لا تعرف
التخصص ، وقد كنت قبل نحو عشرين عاماً
ذا استعداد للخب ، ولكنى فقدت بمرور الزمن واطراد
التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت
كثيراً من الحيوانات الراقية . وكنت فى ذلك
الوقت خاطباً ، وكنت اخترت خطيبتى من بين
عشرات الفتيات ولكن ذلك لم يمنع قلبى — ذلك
اليوم — من التعلق السريع بتلك المرأة ومباعدة الرغبة
والطمع ، قلت لها :

— أنت وحدك هنا ؟ ...

فقلت بلا اكتراث :

— نعم !

— وزوجك ... ؟

— فى السلم

— ولماذا تمشين وحدك ... ؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

— لا ينقصك إلا أن تفتح محضراً للتحقيق
وتطالبنى بالشهود ...

نفجلت من فضولى ، وضحكت أدارى خجل ،
ولم تكن عواطفى تكف عن الطغيان فقلت :
— ألا يحسن بنا أن نبحت عن مكان صالح
للجلوس ...

فهزت رأسها وقالت بعناد ظريف :

— كلا أنا أفضل المشى لأنى أريد أن أنحف
فنظرت إلى جسمها البض الممتلئ نظرة معذب
ووجدت فى كلامها فرصة ذهبية لا ينبى أن تفلت
منى فقلت بإعجاب :

— وما جدوى هذا التعب ... إن جسمك
كامل الفتنة ...

فألتفت على نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال
وقالت وهى تشير إلى جسمها :

— هذه موضة قديمة

فقلت بحماس :

— هذا جميل وكفى ... وما عدا ذلك فلا وزن
له عندى

— وعند الناس ... ؟

نعم وعند الناس ... كدت أنسى هذا ، إذ نخيل
إلى الوم الساحر أنى صاحب الشأن الأوتحد ، وعلى
أنها قالت ما قالت وهى تبسم إلى ياغراء ، فاستخفى
الوم مرة أخرى واشتد فى الطمع فقلت :

— أنت لم تتغيرى فى هذه الفترة الطويلة وكأن
التي أراها الآن هى السيدة الجميلة التى أشرقت بفتنة

في بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام ، وغربت
بنته كذلك فتركنتني أحلم بها أياماً وشهوراً
فنظرت إلى ينجبت وقالت :
— يالك من ما كر ...

فقلت ضاحكاً :

— ما وجه الغرابة في ذلك ... من يرى هذا
الحسن ولا يتمناه ؟

— الظاهر أني سأجد من الواجب أن أفارقك
لأنجو من أمانيك ...

— حاشا أن تفعل ... بل حاشا أن أتركك
تفعلين . إن فوزى بلقائك بعد هذا الغياب الطويل
نعمة من البطر الشرير الكفر بها ...

— إنك تحدثني كما لو كنا عاشقين اقترقا ثم
تلاقيا ...

— هذا شعوري بحق ...

— هو أدنى إلى الوهم

— أما من ناحيتي فلا ...

— وأما من ناحيتي فنعم ...

ولكنها قالت ذلك بدلال ورقة ، وهي تبسم
ابتسامة عذبة تسيل إغراء (فعلت أن يمينا لم تخرج)
ولم أدهش لما تبدي من استسلام لأن حالتها في الواقع
كانت تدعو إلى الريبة ، وتذكرت ما قال صديق
الدكتور شلبي فقلت :

— إنني أعجب لماذا تقيمين وحدك في هذا الفندق؟

— أراك تموز إلى التحقيق ...

— كلا لا داعي للتحقيق ... ولكنني غلت

أن المقيمين بالطابق الثاني يضايقونك ...

— أبداً لهم يضايقونك أنت ...

فتنهيت وتعمدت أن أسمعها تنهدى ثم قلت :
— فليكن ... ألا ترين من الحكمة أن
(ترك) فندق ريش ... ؟
— ترك ...

— نعم ... أنا أعني ما أقول ، وأعترف فندقاً
هادئاً في لوران فما رأيك ؟

ولم تجبني ، ولأزمت الصمت حيناً ، وبدأ على
وجهها الاهتمام والتفكير ، خفق قلبي وساورني
الخوف والقلق ؛ ولكنني أحسست فجأة بذراعها
تلتف بذراعي وسرنا مشتبكين كالمنشاق أو الأزواج ؛
فأتلج صدري وغمرني الفرح والفوز ، وقنعت بذلك
جواباً ...

وفي مساء ذلك اليوم افتتحنا معاً مأدبة الحب ،
فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران
ونزلنا في فندق اكس لاشابل ، وهو فندق هادي
منعزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يولي
ظهرة ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام
وعشت أياماً أذكرها دائماً كما يذكر السقيم
عهد الفسحة والمافية ؛ كان الحب فيها الحاكم القاهر
المستبد الطاغى الذي لا يترك لشيء مكاناً من عقولنا
أو نفوسنا ، وكنت أعلم أنها أيام وإن طالت قصار ،
وإن صفت فإلى انتهاء سريع ؛ فأقبلت عليها بنهم
وجشع ، أملأ من حسناتها قلبي وحواسي ، كيلا أذع
زيادة لمستريد ، غير مؤجل متعة إلى غد أو مبق على
لذة إلى حين ، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام ... وكانت
شريكتي سعيدة راضية يسكرها الحب وتستخفها
آيات العطف ، فتستريد منها كما يستريد المثل من الطرب
وتبين لي بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة ،

والإيمان أن يظهر بشفة في أفقنا الهادي فتكون الطامة التي لا تدفع ...

وكانت هذه الأفكار تساورني خارج الفندق بعيداً عن ظلها الخفيف ، ولكنني وجدت نفسي مسوقاً إلى مفاحتها بهذا الحديث وقد فعلت ، فسألها يوماً :

— أما من أخبار عن زوجك ... ؟

فاكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت :

— دع هذا الحديث جانباً ...

فاضطرت ساعتهذا إلى السكوت ، وفي نيتي أن أعيد الكرة مهما كلفني ذلك . وكانت تتخامى هذا الحديث وتهرب منه ، ولكنني قلت لها يوماً بإخلاص وحزم :

— ينبغي أن تعلمي أنه ليس الفضول الذي يدفعني

إلى معاودة السؤال ، ولكنه الاهتمام بشخص أعزبه وأحبه وأرجو دائماً أن يفتح لي صدره وقلبه ...

كم فرحت لكلامي هذا ... لقد التصقت بي بوجد وحنان وتهديت بسعادة وقالت :

— يا للسعادة ... طالما ضرعت إلى الله أن يهبني قلباً حنوناً محباً ...

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدي وقلت :

— إذا هيا وصارحيني بكل شيء

— ولكنه حديث مؤلم كريحه

فقلت :

— أنا لا أدري شيئاً ، لأنك لم تريدي أن تطلعي على شيء ، ولكنني كنت أرجو دائماً أن حياتك الزوجية غير سليمة ، ومنها يكن من أمر فينبني أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا ...

فكنت لا أفكر إلا في حاضري ، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة في رشفة واحدة ... أما هي فكانت تنظر إلى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة في أن تطمئن إلى دوام السعادة والحب . وقد هجبت لذلك وعلمت أنني لم أفهم بعد تلك المرة ؛ وقد ظننتها حيناً امرأة مستهترمة متقلبة الأهواء ، تجوب البلاد بعيداً عن زوجها طلباً للحب الآثم وانتهاباً للذات ... ولكنني وجدتني هادئة الطبع ، عظيمة المودة ، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التي توردها أصحابها مهالك الفتن ...

وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص ، فلم يكدر صفوى مكدر ، إلا أن إفراطى الشديدردني إلى شيء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكري أن يتناول أموراً غير الحب ...

فكرت في أنني أعتدى لأول مرة على حرمة الزوجية ، ولم يكن سبق لي أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزني شكة الألم وأحسست بخوف غامض ، وزاد من ألي أنني كنت على عتبة الحياة الزوجية وساءلت نفسي في رعب ألا يجوز أن يقتص الله مني ويصيبني يوماً في المقتل الذي طعمت فيه الآخرين ؟

— وهنا قاطمه أحد المستمعين قائلاً :

— وهل صدقت مخاوفك فيما بعد ... ؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزرراً ثم استأنف حديثه قائلاً :

ثم فكرت في أمر آخر لا يقل عن سابقه خطورة . فكرت في أمر الزوج الغريب الذي يترك لزوجته الحبلى على الغارب . ما الذي عساه يفرق بينهما ؟ وكيف يرضى عن هذه الحياة القريية ؟

لاستعنت به على الصبر والرضا ولكنى حرمت حتى
من هذا العزاء ...

وكانت تتكلم بتأثر شديد فخيّل إلى أنى سأتبعها
إلى البكاء ، وثرّت في نفسى على الحظ التمس الذى
ضيّق عليها الخناق ، وخطرت لى فكرة فقلت لها :
— ألم يكن فى وسعك إصلاح ما أفسد الحظ ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت :

— الحظ التمس لا يصلحه شيء وأنا ما قصرت
قط ، وأصارحك القول بأنى كنت أحبه وما وافقت
على الزواج منه إلا لأنى أحببته يوماً ، ولكنه مضى
بعد الأسبوع الأول من زواجنا يقضى الليل خارج
البيت ولا يعود إلا قبيل الفجر ، وكنت إذا انبريت
لإصلاحه ومدافعة الشقاء الذى يهددنى به سخر منى
وهزأ بمحاولاتى ، ولما ضاق بى ترك السخرية والهزء
وعمد إلى الخشونة والفظاظة ...

وسكنت عن الحديث دقائق وهى مستسلمة إلى
الشعور الأليم الذى أحدثته الذكريات ، ثم أردفت
بصوت أعمق ووجه أشد اكفهراراً

— وأدركنى اليأس منه ، ولما أتم شهراً كاملاً
فى بيتى الجديد ، وكان ذلك لحادثة همجية لا يمكن
أن تمحى من ذاكرتى أبداً منى من الخير ودمرت
كل فضيلة فى نفسى . فى ليلة من ليالى شهر العسل
كنت مستغرقة فى النوم بعد سهاد حزين ، وإذا
بهزة عنيفة توقظنى من نومي فاستيقظت فزعة صارخة
ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيت جالساً إلى حافة
الفراش ، وهممت بتعنيفه ، ولكن لسانى لم يتحرك
فى فى لأنه كان فى حالة سكر شديد كما تبينت ذلك
من نظراته الذاهلة ووجهه المحترق والرائحة التى تنبعث

فهزت منكبيها باستهانة وقالت :

— إنه لا يعرف مقرى على وجه التحقيق ...
— ما أعجب هذا ... أستطيع أن أفهم أنكما
غير متحابين ، ولكن الذى لا أستطيع فهمه هو
أن تبقياً زوجين بعد ذلك ...

— إنه لا يطلقنى لأنه لا يستطيع الاستغناء
عن مالى ... وسوى ذلك فلم يكن زوجاً قط وهو
لا يطيق أن يكون زوجاً فى يوم من الأيام ... على
أنى فى الواقع لا أرغب فى الطلاق ...

فحدقت فى وجهها دهشاً وقلت :

— هذا أعجب !

— لا تعجب لشيء . ألا ترى أنى هكذا مالكة
لحريتى ؟ ... ولو كنت مطلقة ما استطعت أن أذهب
إلى حيث أشاء . ولو كان لى من يهيمه أمرى ويحنو
علىّ بصدق لتغير مصيرى من بادية الأمر ، ولكنى
وحيدة ، وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة . أنت
لا تدري ما الوحدة ... أما أنا فقد تجرعت مذاقها
المرطوال هذه السنين ... مات أبواى والتحق أخى
الأوحد بوظيفة فى قنصلية اليونان ، ونبذنى زوجى ..
فليس لى مكان آوى إليه أو قلب يعطف علىّ ...
أنا منبوذة فى هذه الدنيا ...

فوجت صامتاً وغلبنى التأثر الشديد ، ورأيت
وجهها الجميل محتقناً كقطعة من الجمر ولحت دمة
حبيسة فى عينيها فقلت :

— إنك جميلة وغنية فماذا كان يريد هذا الأحمق ؟

— إنه وحش ضار وقاس جحود ، لم أستطع
أن أعاشره كزوجة إلا أياماً معدودات ثم اضطررت
إلى حياة التشرّد والهيّان ... ولو وهبى الله طفلاً

على أن يعطيني حريتي ، وقد كان ... وغدوت حرة
أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل ...
وهالتي الأمر فقلت :

— وهل عشت سعيدة بعد ذلك ؟ ...

— فتهدت وقالت :

— ليت ذلك كان ممكناً ... ما تمنيت على الله
من شيء مثلاً تمنيت أن يسلبني حريتي هذه في لقاء
أن أحظى بالسعادة التي أحلم بها والمطف الذي أتحرق
إليه ، وأنا مستعدة دائماً أن أتنازل عن حريتي بآثمة
لمن يهبني قلبه وإخلاصه .. كم تعبت وكم بحثت ...
وكم ضقت بحريتي ...

الآن علمت كل شيء ... لقد صرفت هذه المرأة -
التعسة عشرة أعوام في البحث عن العبودية السعيدة
فهل ياترى وفقت إلى ما تريد ؟ ... كلا ... هي
لم توفق ولا ريب ، ولو أنها وفقت إلى الحبيب الصادق
ما ارتمت بين يدي أنا بهذه السهولة . لقد انصرمت
السنوات العشر في خيبة مريرة وخدع أليمة ، وما من
شك في أن الكثيرين تلقفوها بشراة وجشع كما
أفعل الآن ، ثم ردوها قهراً بعد شبع إلى حريتها
البغيضة . وهكذا فالحرية نفسها تهون وترخص أحياناً
وتعني في طلب المستبد الناصب ..

ولما انتهت من سرد قصتها نظرت إلى بطلة نيننة
واستسلام ، ثم ألصقت جبهتها بجبهتي وسمعتها تهمنس
في أذني قائلة :

— وأخيراً ...

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أني ألعب
في روايتها البائسة دور الأمل الأخير ، فإما أن أقوم به
كما تمنى أحلامها وإما أن أشقى بها على اليأس القاتل .

من فقه ، وكان هنالك ما هو أدهى من ذلك ، كانت
تقف قريبة منه امرأة غريبة في مثل حالته من السكر
الشديد . كانت تنتظر بلا ريب أن أوسع لها مكاناً
من فراش العرس ، ولم يمهلي حتى أفيق من فزعي
ودهشتي فقال لي بلسانه الثقيل الملتوى : (تفضلي
خارجاً) ولم تنتظر صاحبتة ، فذنت من الفراش وارتفعت
إلى جانبي ، ولم أتمالك نفسي ففزعت من مكانى
إلى أرض الغرفة وققدت رشدي ؛ فانفجرت غاضبة
وانهلت عليه سباً ولعنات ، ولكنه هن كنفه استهانة
واستلقى إلى جانبها فغادرت الحجرة في حالة جنونية ،
وأحسست برغبة لا تقاوم في هجر البيت ، وكانت
ثيابي في الدولاب داخل الحجرة ، فأخذت غطاء
المائدة القطيفة وتلفعت به وفتحت الباب ووليت
خارجاً ، والديوك تصيح معلنة طلوع الفجر ،
وهرولت في الطريق الموحش لا ألقى على شيء حتى
انتهت قدماي إلى البيت الوحيد الذي تعودنا الذهاب
إليه ... بيت والدتك ... ولعلك تذكر الأيام القلائل
التي قضيتها عندكم ... إني لا أنسى تلك الليلة أبداً ...
ولن تزال قائمة في نفسي بجميع تفاصيلها ... وقد
كانت فاصلة في حياتي بين عهدين ...

إني أذكر تلك الأيام بلا ريب ... ولكن كم
كنت أجهل ما تخفى من التعاسة والبؤس ...

واحترمت فترة الصمت التي تلت ذلك ثم سألتها :

— كيف عدت إليه بعد ذلك ؟ ...

فهزت رأسها باشمزاز وقالت :

— في تلك الليلة انتهت حياتي الزوجية في الواقع
ولكني كنت بلا مأوى وبلا معين فاذا أصنع ؟ ...
عرض على اتفاقية فقبلتها ، وهي أن أعطيه من مالي

نتجاهل كل شيء... لماذا لم تصارحنى بشعورها؟...
ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة...
لم يحدث شيء من هذا

وقد عدت ظهر يوم من عملي بالتفتيش فوجدت
حجرتنا خالية، ويبحث عيناى عن آثارها اللطيفة
التي تعودت رؤيتها كالفساتين التي كانت تعلقها على
المشجب أو الحقيبة التي كانت تضعها على المائدة فلم أر
لها أثراً، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مضراعية
فلم أجد سوى ثيابي، وناديت الخادم وسألته عنها
فأخبرني أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة
صباحاً وأنه أحضر لها بنفسه التاكسي...

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنني
كنت أتوقع أن تترك لي كلمة، ولكني لم أعر على
شيء...

لقد تركتني دون كلمة وانتهى كل شيء
وجلست صامتة واجماً تتنازعني العواطف،
ولم أشعر براحة للخلاص الذي جاءني بدون مشقة،
وأحسست بنجمل وألم ووحشة ثقيلة، ولم أجد رغبة
إلى الطعام فقامت من فوري أبحث عن مسكن جديد،
لأنه كان يتعذر علي أن أبيت ليلتي في تلك الحجرة
المهجورة...

وسكت الراوى لحظة ثم أردف:
ومضت سنوات لم أرها فيها؛ ثم رأيته منذ
عهد قريب تسير شاباً أنيقاً في ميدان المحطة؛ ولكني
لا أدري إن كانت ما تزال تبحث عن الحب والعطف
أم أنها استنامت إلى القنوط؟...

يجيب محفوظ

وأحسست بثقل تبعى وران على صدرى هم
عظيم وتساءلت حيران ترى ما هي أحلامها؟...
أن تدوم هذه العشرة... وكيف لي بدوامها وأنا
على قاب قوسين أو أدنى من الزواج... ومضى تأثرى
الشديد لتعاستها يهدأ نوعاً، وأخذت أفكر في نفسى
وأنظر إلى علاقتي بها بعين متشائمة، وأتساءل في قسوة
وأسفا عن طريقة للخلاص... وكانت تأتي على
أوقات أعجب فيها من أنانيتي وأتساءل في استمزاز
— إذا كيف كان شأن من لم يشعروا بنحوها بغير
الشهوة والطمع؟... الحق أن عالنا الإنسانى عالم
شديد القسوة، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها
في الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء، فهي
في الحق تحصيل حاصل وجهد ما كان أخرى باذليه
بالضن به...

على أن الذى أزعجنى هو أن زينب فطنت لمشاعرى
الخفية من غير أن أصارحها بها، وبدا لي ذلك في
وجومها وبرودها وقنوطها. ولم أدهش لذلك فاني
من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم،
وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم. ولم أكن يئس قط
نية مصارحتها بماطفة مما يعتلج في صدرى أو بفكر
مما يحترق في رأسى، وقد كنت أفكر في خالتها بعطف
ومودة، ولكن العطف شيء والحب شيء.

وكنت أتوقع في خوف وإشفاق أن تفأخني
بما يقوم في نفسها من الوساوس، وكان ذلك يضاعف
آلامى النفسية ورجوت أن تنقشع تلك السحابة
من سماء حياتي دون أن تترك وراءها أثر الحزن أو ألم
أو تأنيب ضمير. ولانقلبت حياتنا تمثيلاً ثقيلاً، وكان
كل منا يعلم ما يشعر به صاحبه نحوه ولكننا كنا

إكراماً وإرضاء لها ، ولكن
سريعاً ما ذبلت الزهرة وطواها
الردى ، وخلفت له ابنة سماها
وحيدة !

ولقد كانت هذه تشبه
أمها كل الشبه ... عينان
متألفتان ، جبين منبسط ،
أنف دقيق ، شعر ذهبي غزير
جسم بض حلو شهي ، كلها آيات توحى الرقة
والإبداع ...

نشأت وحيدة في كنف والدها الذي أحاطها
بمطفه وحنانه حتى أنساها موقع الأم التي فقدتها !
وكان يتحفها بشئ الهدايا المناسبة أو لغير مناسبة .
وما كان أسعده عند ما يرى شبح ابتسامة تلوح على
ثغرها البديع !

ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها السعيد
أضحت كأنها الزهرة النضرة : فتاة ممثلة بالحياة
ويوحى جسدها المشتعل أن فيه روحاً متوثبة مرحة ،
وفيه حياة تندفق كأنها الشلال الصاخب لا يكف
لحظة عن الاندفاع ... سهلة الضحك ، تحب أن تقضى
النهار كله في الحديث والسامرة ، لا مع أيتها الذي
كانت تتضايق كل المضايقة من صمته الممل وسكونه
الدائم ولكن مع ابن خالتها « أمين » الطالب
في كلية الطب !

كان جميل الطلعة ، برى التقاطيع ، صافي
العينين ، دقيق الأنف ، يجمع بين نشاط الرجولة
ورقة الأنوثة .

من صميم الراقع وحيدة ...

أقصوصة عراقية
بقلم الأستاذ ناظم محمود العزاوي

« مهادة إلى الأستاذ الكبير الزيات اعترافاً
بفضله على الأدب والأدباء » . ن . م

السيد كامل بك وهذا هو اسمه المعروف والذي
تنبى عنه بطاقته ذات الحروف البارزة ، رجل فارح
الطول ، عريض المتكبين ، يعجزك تقدير سنه ،
فهي ثمانى عشرة سنة أو خمس وخمسون أو ما بينهما ،
وهو من صنف الرجال الذين لا تذويهم الأعمار
لأنهم قط ما أزهروا^(١) ... !

لم يكن كامل بك من ذوى المناصب العالية ،
والوظائف الكبيرة ، وإنما هو من أصحاب الثروات
الضخمة والمال الوافر الذى جمه بالسمى الدائب ،
والتدبير المعجز ، والربا الفاحش ، والشح الدنى ،
والتقدير المهلك^(٢)

وقد تيسر له بهذا الغنى العريض أن يناسب
إحدى العائلات ذات الحسب الغالى والشرف العالى
والصيت البعيد . فأحب زوجة الحب كله وبسط يده
المغلولة إلى عنقه ، فشاد القصر الضخم وأتمه بالآثاث
الفخم ، واشترى السيارة المريحة : كل هذا وغيره

(١) برنارد شو

(٢) أحمد حسن الزيات

ألا نذكر صفوة مودتنا بالتحدث في هذا الموضوع
مرة أخرى ...

ومضى عام ... وعام ، وفي الربيع زفت وحيدة
إلى الباشا !

كان زوجها قصير القامة ، ناحل الجسم ، أسمر
الوجه بارده ، لا يثير عاطفة ما في نفس المرأة ، ولهذا
بدأت تحس بانقباض في صدرها وبوحشة في نفسها ،
وظنت أنها أصبحت حقاً وحيدة !

ولقد أثر فيها في البدء عطف زوجها وحده
عليها ، لأنه دائم الحرص على راحتها ، وتوفير أسباب
الهناء لها . وما من مرة لمحت بحاجتها إلى شيء
إلا أسرع فكفله لها ، وإذا حدث وأحست مرضاً
أو توعكا فإنه يفنى راحتته في سبيل راحتها ،
ويغمرها بعطف وحب كثيرين . كانت يسرف
في خدمتها ويمده جيلاً منها لو أنها كلفته بالقيام
بأي عمل من أجلها ، وأحاطها بجيش من الخدم
يلبون نداءها لأول إشارة ، وما عليها إلا أن تأمر
فتطاع ، ومع ذلك فهي تشكو وتتذمر !

أما أسعد الأوقات عندها فهي حينما يأتي «أمين»
لزيارتها ، فيتسامران ويتمازحان ، ويقرأ لها أشعار
الحب والنزل ، ويحدثه أحاديث الغرام والوجد !
لقد رأت فيه رجلاً جديداً يختلف تمام الاختلاف
عن زوجها . وجدت في نفسه الرقيقة الفياضة
بالمحبة ، صدى لنفسها المتعطشة إلى الحب ،
وتأكدت أنها لو تزوجته لماشت حياة كلها مرح
وسعادة ، تختلف تمام الاختلاف عن حياتها

ففي إحدى الأمسيات ... كان يسير معها ...
وكان الجو صحوً والنسيم عليلًا ، والهواء معطرًا
بشذى الزهور ، والقمر العاشق يشر بأشعته الفضية
أطراف المحبين المدنفين ... فتحركت عواطفه وقاض
غرامه ... واعترف بحبه ، وقبل أن تفيق من دهشتها
كان قد احتواها بين ذراعيه وسجل غرامه بقبلة
على شفيتها !

ووقفت الفتاة أمامه مضطربة ، صر تجمفة ...
وقالت :

— ولكن ... لم يكن ينبغي أن تفعل هذا ...
وترقرت الدموع في عينيها وأردفت :
— لو رأنا أبي ...

فقاطعها بلهجة الائق :

— لا يهم ، سأفاتيح والدك بالأمر ...

وقصد إلى غرفة أبيها وفاتحه في الأمر ، ولكنه
قال في لطف إنه وعد ابنته رجلاً آخر ...

— رجلاً آخر ؟ كيف ؟ لماذا ؟ أأنت أحق
الناس بها ؟

ومع ذلك فهي تبادلني الحب ، وما قالت لي
إنها مخطوبة ؟

— لعلها لا تعلم ، ولعلك نسيت أن تقاليدنا
في الزواج لا تجعل للفتاة أهمية في هذا الموضوع !
— ولكنها تبادلني الحب !

— اسمع يا أمين : إنك شرفتي بطلب ابنتي .
ويجزئني أنني لا أستطيع إجابة طلبك ، ومن الخير

التي تحياها مع زوجها الباشا !

ومضى عام ... و « أمين » العاشق المغموم يرى بأن وحيدة ضرورية لسعادته كما هو ضروري لها ! ولم يكن يستطيع أن يتصور أن وحيدة في كنف زوج مغموم بها وعليه أن يتركها ليلسو وينمى وتنسى !

والمعجب من زوجها الباشا أنه ماشك يوماً في نية أمين . والحقيقة أن « أمين » ما فكر يوماً أن يعبت بقربيته وينتهك حرمة الزوجية وقديسيها، ولم يكن يخطر على بال وحيدة أنها ستستسلم يوماً ما لأمين التي تعبد عبادة أو ستعمل الاستحيل للزواج به ثانية ! ولكنها امرأة ، ولكنه إبليس !

وفي إحدى الأمسيات المدهمة خرج الباشا لزيارة صديق له فلم يجده . وفي ذلك الحين همت عين السماء بمطر كأنه أفواه القرب ، وازدادت الوحول واشتد زفيف الريح فناله من البرد والمطر ما لم يتحملة جسمه الواهن فوق فريسة الحمى والمرض ، واشتد عليه المرض فجاء الطبيب ووصف الدواء محذراً الزوجة من أن تمطيه أكثر من عشر قطرات في كل وقت وقامت في نفسها فكرة ... شرب زوجها الدواء فنام إلى الأبد ، وانتهت حفلة الدفن ورجع الناس يمدون خصاله ويترحمون عليه ، وترك لزوجته ثروة لا تُعد ولا تحصى ، ملايين من الأصفر الزنان !

وهنا تقرب من الخاتمة ، فبعد العدة بشهرين

زُفَّت وحيدة إلى زوجها الجديد الدكتور « أمين » الذي لم يكن يعلم مادبرته وحيدة للخلاص من زوجها والزواج به

ولقد كان من سوء حظها أن تكتب يومياتها في مفكرة صغيرة عثر عليها أمين فقرأ فيها ما كان ، فماله الأمر وتجاهل أنها فعلت ذلك رغبة فيه . فخرج جاءت وحيدة فمالها أن تجد مذكراتها ممزقة ، مبثرة تتطاير من هنا إلى هناك ، وأن أمين قد خرج ...

وقضت ليلة أرقه مسهدة فيها محنة وفيها عذاب ، فضاعت في عينها الدنيا ورمت بنفسها من النافذة فإذا هي على الأرض كومة من العظم واللحم والدم ! ...

ماجي محمود العزاري

كتاب النقد التحليلي

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

هو أول كتاب في اللغة العربية عالج النقد الأدبي بالطرق العلمية المؤدية ، والمقاييس المنطقية المنتجة . بناء المؤلف على نقد كتاب (في الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين ، ولكنه استطراد لدرس مسائل مهمة في قواعد النقد وأصول الأدب ومناهج البحث حتى جاء الكتاب مرجعاً في هذا الباب ونموذجاً في هذا الفن . وهو في الوقت نفسه يغني القارئ عن كتاب (في الأدب الجاهلي) لأنه تلخيصاً تلخيصاً وافياً .

يبلغ في ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط
وثمنه ١٢ قرشا خلافاً لأجرة البريد

ويطلب من إدارة الرسالة

دون ما صراحتِ تلقى أو خطب
تقال ...

فتشاءب زابوكين وقال :

— الأمين ؟ آه .. أنعنى

ذلك السكير ؟

— إنه هو ... ولكن

لا تنس يا عزيزى أن مادة

عشاء ستؤذّب ، وأجر العربى

سيدفع ، هيا يا صاح فما عليك

إلا أن تلقى بإحدى خطبك على القبر ... وستلمس

بمينيك مدى إعجاب المشيعين بك وتقديرهم لك ...

فأجاب (زابوكين) طلبه دون ما تردد

ولا إحجام ... وتكلف الحزن العميق تأهباً

لما سيأتى . ثم قال لصاحبه : إننى أعرف (الأمين) ..

ذلك الوغد الزنيم .. عليه رحمة الله ! وأدركا الموكب

وقد بلغ المقابر ، وحط النعش على الأرض ، ووقفت

أم الفقيد وزوجه وأختها تذرفان الدمع الممتون —

تبعا للعرف — وما إن أنزل النعش فى القبر حتى

أعولت زوجه وصاحت بأكية : دعونى أرحل معه .

إلا أنها لم ترحل معه ؛ مع أن أحداً ممن حولها لم

يحل دون ذلك . ولعل ما حال دون أن تشاركه رسمه

ذلك الراتب التقاعدى الذى ستتناوله . أما (زابوكين)

فقد سكت حتى شمل الجمع السكون ، فأدار بصره

فى الحاضرين وبدأ خطبته قائلاً :

يا ترى أبصرى وسمى صادقاً ؟ أم إننى أشهد

حلماً مرعباً يبدو لى فيه هذا الرمن المظلم الرحيب

وهذا الحشد الباكي الحزين ... وأأسفاه ... إنها

الحقيقة . فليس ما أراه حلماً ، وليست أبصارنا

— ويا للأسف — بخادعة .. إن من كان حتى

الأمس بفيض صحة ونشاطاً .. قد مات ووورى فى

التراب وأصبح ذكرى تستدرالسمع الساخن الغزير .

لقد سلبه الردى منا ، وهو لا يزال فى عنفوان قوته

من روائع الأدب الروسى

مرشاة ...

للقصصى الروسى أنطون تشيخوف
بقلم الأديب فيصل عبد الله

فى صبيحة يومٍ صاح مشرق مات « عضو
التحكيم » (كيريل أفانوف بايلونوف) صريع
الداءين اللذين كثيراً ما أوديا بحياة الروس :
إدمان الخمر وفضاظة الزوج ... وكان الناس
فى شغل بتشيع موكب جنازته الذى كان فى طريقه
إلى القبر ... إلا أن (بولافسكى) وهو صديق حميم
للفقيد ، أسرع فامتطى عربة أدت به إلى صديق له
يدعى (زابوكين) . ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال
الخطب فائقة ، فهو يقولها أنى كان وحيثما يدعى ،
فلا تموقه سنة ولا حى ولا سكر عن ارتجالها ...
سواء أكان فى مأتم يرثى ، أو فى حفل يلهج ويشيد ،
كانت الكلم تندفق من فيه كالماء غزيراً سلسالاً ...
وكان هذا ما حدا ببولافسكى أن يسرع إليه ،
ولا سيما والخطب الذى ألمّ يحتاج إلى خطيب يمدد
مناقب الراحل الفقيد كزابوكين ... وقال بولافسكى
لزابوكين حينما لقيه :

— إننى آت لأدعوك ... فهيا يا صاح ارتد
ممطفاً واتبعنى . لقد مات اليوم أحد زملائى ،
وموكب جنازته فى طريقه الآن إلى القبر . وليس
لنا فى مثل هذه الخطوب غيرك ... ليس لنا من
خطيب راشر مفوء سواك ... ثق يا صاح أنه
لو كان الميت وصيماً مركزه لما أزعجتك . ولكنه
(الأمين) ... فلا يليق بنا أن نوسده التراب

وبهائه .. وأوج فتوته ونشاطه .. وإن يك متقدماً في السن ... أية خسارة منينا بها ... من ذا الذي يستطيع أن يحتل مكانه في قلوب عارفيه ... لدينا أيها السادة كثير من الموظفين .. إلا أن (بروكوفى أوزبتش) كان جوهرة بتيمة فيما كان يزدهى به ويفخر. وكان - أيها السادة - المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه ، السامى بنفسيته . لقد كان الفقيد يابى الرشوة فلم يرتضها يوماً . وكثيراً ما كان يبدى مقتته واحتقاره لمن كان يلج عليه في أخذها وتقبلها . لقد كان يرفضها كل الرفض ويزدري ضعاف النفوس ممن كانوا على نقيضه . كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه القافه على مشهد منا لزملائه المعوزين . وما أنكم الآن تسمعون بأذانكم تحيب الأرامل والآيى اللاتى كن يمشن من فيض إحسانه . لقد ذهب ذلك الذى وهب حياته للبر ، ونذر نفسه للخير ، وإنكم لا تعلمون بلاشك - أيها السادة - أنه كان أعزب ولم يزل كذلك حتى وسد التراب ... إننى لأتصوره الآن بوجهه المشرق الخليق ويسماته الحاملة العذاب ، ويخيل إلى أننى أكاد أسمع صوته الرؤوف الذى كان يفيض حناناً ويقطر رقة وإخلاصاً . فإلى رحمة الله يا (بروكوفى أوزبتش) ... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز ... وداعاً أيها الراحل الكريم ...

وكان الخطيب مبدعاً حقاً في إلقائه فأحرز بهذا إعجاب السامعين ... إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء . ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب اسم الميت على أنه (بروكوفى أوزبتش) مع أنه كان (كيريل أفانوقتش) . وثانياً أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته في تمكير صفو حياة زوجه ، فكيف يقول الخطيب إنه كان عازباً عن الزواج ؟ وأخيراً لقد كانت للميت لحية حمراء كثرة ولم يك بحليتها ... فلماذا يصفه الخطيب بأنه كان حليتها ؟ ... واشتد عجب السامعين وتبادلوا

الهمس والنظرات ... وهزوا أكتافهم ساخرين وتابع الخطيب كلامه : « إى (بروكوفى أوزبتش) لقد كان وجهك شاحباً مرعباً ... إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلباً طاهراً نبيلاً ونفساً كريمة . وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الدهول . فقد أنجبه بصره إلى ركن من الحشد ، ثم التفت إلى بولافسكى زائع البصر ، وقال بتهديج : إنه حى !

— من تمنى ؟

— بروكوفى أوزبتش . إننى أراه واقفاً عند القبر

— ومن قال لك إنه الميت ... ؟ إن الذى مات

هو (كيريل إيفانوقتش) أيها الأبله ...

— ولكنك قلت لى إن (الأمين) قد مات

— لقد كان (كيريل أفانوقتش) أميناً أيها

الأحمق ... لقد حل محل (بروكوفى أوزبتش) بعد

أن تقل هذا ككاتب فى مستهل العام المنصرم

— وأنى لى أن أعرف هذا ولم يسبق لى به علم ؟

— ولماذا توقفت عن خطابك ؟ استمر أيها البليد

فأدار زابوكين وجهه شطر القبر وواصل رثاءه

وعينا (بروكوفى أوزبتش) عالقان به تحديقاً فى حلق

وغضب ... وما إن انتهى من الدفن وعاد المشيمون

حتى أخذ زملاء (زابوكين) يلفطون ... لقد دفنت

رجلاً حياً ... وأسرع (بروكوفى أوزبتش) إلى

الرائى حاتفاً ساخطاً : « لا بأس أيها النبي الأحمق

بخطبتك إذا كانت رثاء الميت .. أما أن ترثينى وما زلت

حياً فإنها سخريه بى بليغة وتهكماً بخلقى فظيع ...

لقد قلت إننى لم أقبل الرشوة ولست بذى أغراض

ومنافع ... ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حى

إلا بقصد إدانته واتهامه ... لم يطلب منك أحد

أن تصف وجهى بالخفيف المرعب ... إنها إهانة

فظيمة سوف ترى منى العقاب عليها »

— وأختي سيّدة؟ أتبكين .

يا سيّدة ؟

ولكن سيّدة لم تكن تبكي
فحسب ... إنها كانت تذرف
روحها من عينيها الجميلتين
المحزنتين .

لقد حاولت الفتاة أن تخفي

ما بها لكنها لم تستطع ... لقد

انهمرت دموعها بشدة فقالت لها و داد :

— كلا يا سيّدة ! كلا يا أختاه ! إننا لسنا بهذه
الدرجة من الشقاء التي تنكأ في فؤادك مثل هذا
الآلم ... يجب أن نصبر ... إن الله القدير ينظر إلينا
وهو بنا لطيف خبير ... افرضي أننا جلسنا حول
هذا المعجين تبكي طول الليل ، فماذا يكون حالنا؟ هل
تخبّزه دموعنا ؟

فنظرت إليها سيّدة ، وهي تكفكف دمعها ،
وراحت تقول :

— أنا والله لا أبكي لحالي يا أختاه ... إنما يبكي
ما يقاسيه أخي من الجوع ...
فضحكت و داد ثم قالت :

— أي جوع وقد تغدى منذ ثماني ساعات فقط !
فقالت سيّدة :

— ثماني ساعات ! وكيف ؟ إن لنا يومين لم نذق
خلالهما طعاماً !
فقالت و داد :

— يومان ، كيف؟ وحبّات الأرز والعدس التي
سفها طاهر بعد الظهر ؟

وتبسّمت الأم المحزونة ، ثم أومأت إلى سيّدة
أن تشعل النار في الفرن .

مُعْجَزَاتُ الْفَتَاتِ

أَقْصُوصُ صَبِيحَةِ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ دُرَيْخِ خَشَبَةِ

كان المنزل حزيناً واجماً ... وكانت الأم الرؤوم
قد نخلت مسحوقاً أسمر اللون جاقياً وأخذت تعجنه ،
وبحثت ابنتها (سيّدة) عن علبة الثقاب طويلاً ،
ثم لم تجد بها غير عود واحد ... عود واحد من
الكبريت في هذه الليلة الهائلة من ليالي أمشير
القمطير ... وصعدت و داد فوق السطح تجمع أعواد
الحطب المبللة ، وعليها أسمال لا تقى من البرد الذي
كان يشك المسكينة كما تشك الإبر ... وكان الطفل
الصغير طاهر يبكي ويئن ويتلوى من الجوع والبرد ،
وكان يغافل أمه فيلتهم قطعاً صغيرة من عجينة السن
يعالج بها بطنه الخاوي ، فلما شهدته أمه يصنع ذلك
جرت من عينيها دموع غليظة كانت تجاهدها بجاهدة
عنيفة ، وكانت تحرص على ألا تذرف حتى لا تفجر
أحزان العائلة البائسة ... لكن الدمعة غلبت الأم
الضعيفة الواهية فجرت على خدها الشاحب المتقعر ...
ولحمتها سيّدة فتفجرت بالبكاء الذي كانت تحبسه ،
فلما نزلت و داد ورأت هذا المنظر قالت ضاحكة :

— أنت تبكين يا أماه !

— كلا يا ابنتي . إنها دموع تغلبنى من البرد .

يا لها من ليلة !

لشد ما كانت الريح تعصف هذه الليلة ! ولشد ما كان البرد والصقيع يلفحان هذه الدار الواهية !
يا الفقراء !

توفي الشيخ محمد (الفقي) عن هذه الأسرة الشقية ، ولم يترك لها ما يقيم أودها إلا بر أصدقائه وعطف عارفه إن كان بر الأصدقاء وعطف العارفين بقيان في هذا الزمان أودا أو يسدان رمقا أو يستران عورة ، أو يمسخان تلك الدموع التي فجرها ألم البرد وأنين الجوع وزمهرير أمشير في تلك الميون الشقية البائسة !

لقد كان المغفور له يشتري بآيات الله ما يتصدق به الرزؤون عند المقابر ، وما يشترون به رحمة الله يستزلونها فوق الأحداث بالمش والسكك والملايم وأوصال القصب . . . وكان المغفور له محبوباً من الناس لأنه كان يخدم جميع الناس ، ويقضى لهم حوائجهم ، ويحمل أطفالهم ، ويحميهم مكر الطريق وأذى الكلاب . . . وكان قنوعاً لا يساوم في أجر ولا يلحف في طلب ولا يثقل في سؤال . . . وأحسب هذا هو الذي حبب الناس فيه . . . فهم كانوا يستغلون قناعته البائسة في نقصه أجره ، وهذا من ألأم طباع الناس . . .

وكان الشيخ محمد يحرص على إعزاز عائلته حرصاً شديداً برغم هذا الموز الذي كان ملاقيه . . . فلم يكن يسمح لزوجته أو ابنتيه بالذهاب إلى منزل أحد من أعيان المدينة في حاجة مما يدفعهن الفقر إلى سؤالها . . . ورفض ألف مرة ما عرضته عليه زوجته من الخدمة في منازل الأغنياء « لأنه ابن أصل وحامل لكتاب الله » ، كأنهم قالوا إن زوجة ابن الأصل وحامل كتاب الله لا يجوز لها أن تخدم

الناس ولا أن تساعد نساء الأغنياء في الغسل والخبز ولوازم المنازل . فتساعد بهذا زوجها الشقي بما يؤجرها به عملها ، وتخفف من ضغط ما يصنع الفقر بأبدان أبنائها وما يشيع فيها من مرض وجوع ووصب . . .

على كل حال . . . هذا قانون تصنعه العزة ويشرعه التعفف ومصدره الفضيلة والحياة في نفوس الفقراء . . . وهذه هي التراتر التي فصلت بيننا وبين الحيوانات فجعلت لنا تيارات من التفكير تدفع ثمنها برغمنا أحزاناً ودموعاً وشكويات

وكانت سيدة ابنة الشيخ محمد فتاة ممثلة الجسم بضرة الظهر ، لها ابتسامة يحسبها الراى مفتاح القنص . . . وكانت تلفت الأنظار إذا خطرت في الطريق بقدميها الحافيتين الجيلتين البيضاءين ، وبجسمها المشوق الملتف في الملائة السوداء الساحرة .

وكان للشيخ محمد صديق حدث السن ابن تاجر غنى يسمى خالداً ، وكان هذا الصديق مولماً بسيدة ولماً شديداً ، وقد دخل غرامه بها إلى فؤاده عن طريق قدميها . فكان غراماً قذراً لأنه نشأ من التراب وتمرغ في الطين ، ولم يكن كهذا الغرام الذي تبثه الميون النجل فتطهره بالنار وتصهره بالسحر وترفعه إلى السماء .

وقد ظن خالد أن موت الشيخ محمد سوف يسهل عليه قضاء لبائاته من الفتاة التي خلته وسلبت فؤاده وأقامته وأقعدته في هوى مبرح وغرام متقد وفكر سابح في جسمها البض ، وقدماها الفص ، وجمالها الغينان

وكانت سيدة تعرف ما يتطوى عليه خالد من حبا لكنها كانت تعرف أيضاً أنه يريد لها للشيطان

في الهواء فتحسبها موسيقى تنزل من السماء كالخيا
يهتز له الروض وتراقص تحته الأزاهير

كانت وداد بارعة في مضغ كلامها ومطه وإرساله
سهلاً هيناً ليناً ، وإمالته وترصيمه بطرف لسانها
أو بمس شفيتها ... وكانت ترنه إذا شاءت فيجلجل ،
أو تخطفه فينقطع كالنغمة الصامتة التي تقف حين
تقف أغملة الموسيقى على أحد أوتار العود

ما كان أجدر وداد بجنة من زهر وطيرو أنهار
من لبن وخمر وعسل مصفى تعيش فيها مع الملائكة
الأنهار الأبرار ! !

ما كان أجدرها بجنة من سحر وشعر وموسيقى
وغناء وحب !

ما أكثر وداد على هذا الفقر اللثيم اللعين ! !
ولكنها ليست كثيرة على هذه الأم المفتودة ،
والأخت المنكودة ، والأخ الطفل الضعيف اليتيم ...
ليست كثيرة على هذه الأسرة البائسة التي غال الموت
عائلة فقضى عليها بالصبر والجور والحرمان ... إنها
ضحكة مكبوتة في صدر مكروب حزين ... إنها بارقة
الأمل في حلك اليأس وليل الشقاء البهيم ! ...
فلتصبر أحزان أمها سعادة إذن ، ... ولتلعب
في مأساة أختها الناشبة بينها وبين خالد دور البطل ..
ولتنظر كيف تعبت بعبث الزمان ، وكيف تبدد هذه
الآلام والأحزان ... وكيف تحمل محل والدها الفقيه
فتبتر الكمك وتحتال للرغفان ، وتربي الطفل المسكين
بملاليم الخزانى وصدقات الشكالي وقروش المجانين !

كان الخطب مبللاً ، وقد حرصت سيدة لذلك
ألا يذهب عود الكبريت سدى فلا يكون خبز
ولا يكون أكل ولا يكون دفء ، ويكون عكس
ذلك جميعاً

وليس يريد لها الله الرحيم الرحمن ، فكانت تشيح عنه
دون أن تقطع جبل أمله ، وكانت تصلى لله أن يهديه
إلى سواء الحب ، فيثور على تقاليد البيثة ، ويفتح
لها بقلبه ، كما تفتح لها بجسده ، فيتقدم إليها خاطباً
لا أن يقعد لها بكل طريق خاطباً ... على أنها مع
ذاك لم تحبه قط ، بل إنها لم تحمل إليه ولو أقل الميل
وأهونه ...

أما وداد فكانت فتاة مرحة لا ترى أن يكون
الفقر سيباً لهم أو طريقاً إلى ألم ... لقد كانت تشدو
شيثاً من التعليم حصلته في كُتّاب القرية ، وكانت
لذلك تشدو كثيراً من آيات الله وقليلاً من القصص
الديني ... وهذا الكثير من آيات الله والقليل من
القصص الديني إذا صادفا ذهنًا مستنيراً كانا غناء
لفتاة في مثل ظرف وداد وفي مثل طلاقها وإيناسها
وحدة ذكائها

وكانت مع ذلك جميلة ولو لم تبلغ من ذلك جمال
أختها ، لكن جمالها القليل كان أخطر من جمال
أختها الكثير ... لقد كان جمالها خطراً عظيماً على
كل قلب غرير ونفس خالية ... لقد كان لها عينان
تحسنان الغمز وتجيدان التكلم وتعرفان طريقهما
إلى سويداءات القلوب ... فإذا أرادت أن تشير فيها
الرحمة عرفت كيف تفجر فيها الألم ، فينهمر من العيون
دموعاً ... وإذا أرادت أن تترقها في لجج الغرام
فلا نجاة لها ولا خلاص سلطت عليها سهاماً مراشة
تدمى شفافها بل تمزقه ، بل تشب فيها خراماً لا ينفع
فيه طب ولا حيلة معه لدواء

هاتان عينا وداد !

أما مصوتها فكان سلاحاً لا يقل خطراً عن
مهلكات الغرام جميعاً ... لقد كانت ترسل نبراتهما

وذهبت تبحث عن ورقة تشعلها تحت الخطب ،
ولكن عبثاً حاولت أن تجدها ... فلم يكن في البيت
من كتاب غير كتاب الله القدير ، وغير الكتب
الدينية القليلة التي كانت تقرؤها وداد في الكتاب ..
وقد حاولت أمها أن تجعلها تأتي بورقة منها لا لزوم
لها فتشعلها لتشتعل النار وليخبزوا ويأكلوا
ويستدفئوا ... لكن وداد دافعت عن كتبها التافهة
في دعاة وحزم ، وأبت أن تنزع منها ولو غلافة
داخلية لا تؤثر في بهجة كتاب الديانة ، إن كان
لكتاب الديانة القديم الرث بهجة — ولا تنقص
من كتاب التهذيب شيئاً ، إن كان للكتاب كله
وزن في هذه الليلة الليلية التي اشتد قهرها وفدح صرها
واشتد الأخذ والرد بين الأم وسيدة من طرف
وبين وداد من طرف آخر ... وعبست الأم ، لأنها
كانت تضيق بمزاج وداد ذرعاً ... ثم فاضت كأسها
فزجرت وراحت تسب وتشتم وتلمن الكتب
والكتب وبناات المدارس ... والحمد لله فلم تكن
وداد منهم ، وإن تكن من بنات الكتاب
وخشيت وداد أن تتناول الأم كتاب الديانة كله
فتشعله بالنقاب لكي تأخذ في عملها ... وفي الحق
لقد أوشكت الأم أن تصنع ذلك ... لولا أن تضاحكت
وداد ثم طأنت أمها وأكدت أنها ستأتي لها بورقتين
جيدتين ينبغي أن تحرقا جالاً ، وينبغي أن تتخلص
منهما الدنيا بأسرها لا هذا البيت الحزين وحده ...
وذهبت إلى غرفة النوم والاستقبال وتربية
الكتاكت والحزن ، وفتحت صندوق الملابس
والأطباق والبقايب ، ثم عادت تحمل الورقتين
الكبيرتين وهي تضحك ضحكات ساخرة ، ثم أشعلت
عود الثقاب ، ودب اللهب في الورقة الأولى تحت

القش ، فتصاعد الدخان الكثيف يملأ أرجاء المنزل ،
وقبل أن تنطفئ أشعلت الورقة الثانية وقد علا ضحكها
وأغربت فيه حتى نهرتها أمها وصبت عليها جاماً كاملاً
من الشتم واللعن والسباب ... ولكن ذلك لم يمنع
الورقة من أن تحترق وتطوى سرها معها إلى الأبد
كما طوت سرها الورقة الأولى آخر الدهر
وسألها سيدة ماذا كان يضحكها ، وكيف
سرهما أن تضحك على ما هم فيه من هذا الكرب .
فقال لها وداد : « خني ! »

فقال سيدة : « وكيف أخني ؟ »
فقال وداد وهي (تبط) الرغيف و (تخذعه) :
« يجب أن تخمني ! »

فاستشاطت سيدة ، وحدجتها بنظرة محنقة
ثم سكنت

وأكلوا لا هنيئاً ولا مريئاً ... وكان طاهر
يتربص بالرغيف الأول الذي خرج من الفرن فالتهمه
بقليل من الملح ، ثم نام فوق الفرن وتغطى ، وأخذ
يرسل في أرجاء المنزل غطيظاً مزيجاً

وانطلق المؤذن يرسل في سماء المدينة أذان
الفجر ... فهضت العائلة المقدسة تتوضأ وتصلي ،
وتتأهب لزيارة المقابر ، وكان اليوم يوم الجمعة المبارك
الذي تتردد فيه الأرواح على رموس البوق كما يزعم
الجزاني من أهل سكان القبور

وبدت لوداد فكرة خاطفة فلم تتردد في تنفيذها
قالت لأمها :

— اليوم الجمعة يا أماء ، فم تصدق على روح
المرحوم ؟

فقال لها الأم الموهونة :

— تصدق ؟ ولم تصدق يا ابنتي ، وبم ؟

— إذهبي وأنا غير راضية ... واذكري أننا
فقراء إلا من الكرامة يا ابنتي
— إطمئني يا أماء
وهنا قالت سيدة :
— وماذا لو أتيت معك يا وداد ؟
قالت .

— لا ... لا أريد أن يأتي معي أحد ... بل
إن لكم موعداً فلا تخلفوه ...
وانطلقت وداد في ملاءتها السوداء الشاحبة ،
وراحت تطوى الطريق الموحلة تحت قطرات الطل

المدينة ما تزال نائمة ، ولم يستيقظ من أهلها
إلا عباد الله الصالحون ... وهؤلاء عادة هم الطاعنون
في السن الذين ينظرون إلى شبابهم المولى فيطمعون
في شباب مثله يكون لهم في جنة عرضها السموات
والأرض ؛ فيعملون له بالصوم والصلاة وإدمان
التفكير والضراعة إلى الله .. وهذا شيء محمود منهم ،
وكان محمد لهم أكثر لو أنهم فعلوه في فتوة العمر
وشرخ الشباب وعنفوان الصبا ... حين محمد للبرء
مجاهدته للنفس النائرة والقلب الجوح والغريزة الشابة .
أما هذه التقوى التي تأتي عن عجز الجسم وموات
القلب وعزوف الرغبات فهي تقوى الطمع والبكاء
على ما فات ... على أنها تقوى محمودة ، وهي برغم
ما قامت عليه من نقص خير من شئبة تصر على النفي
وتمرح في الضلالة ولا تأبى أن تعصى الله ...

كانت تنهادى وداد في غبشة الفجر بقدمين
رشيقين كقدمي دمية ، وكان الشيخ سيد أحمد قد
خرج من المسجد بعد صلاة الصبح يسبح ويحمد الله
ويسأله أن يمد في عمره حتى يعمل عملاً صالحاً يرضاه

— لم نتصدق ؟ ألا تعرفين لماذا يتصدق الناس ؟
— أعرف لماذا يتصدقون ... ولكن الناس
كلهم لا يتصدقون !
— أجل ، ولكن يتصدق خيارهم !
— وهل الذين لا يتصدقون هم شرار الناس ؟
— وماذا يكونون إذن ؟
— يكونون إما قادرين على الصدقة ولكنهم
لا يفعلونها ، وإما معوزين فهم بالصدقة أحق ...
أليس كذلك ؟ !

— ومن أيهم نحن يا أماء ؟
— نحن من الناس الذين لم يكن عندهم أمس
غير عود واحد من الكبريت ، وغير قدحين من
النخالة ...

— ولكننا أكلنا ودفننا والحمد لله !
— الحمد لله ... هذا ما لا شك فيه ! وهل محمد
على المكروه غير الله ؟
— ونستطيع أن نتصدق أيضاً !
— ولم لا نستطيع إذا كنا أغبياء مثلك ؟
— مثلي أنا ؟ ...
— والله يا ابنتي أنا لا أدري بأي أجزاء جسمك
تفكرين ؟ !

— أفكر برأسي طبعاً !
— إذن ترك لرأسك الدبر المفكر الحصول
على ما تتصدق به
— إذن دعوني أنطلق إلى القراقة وحدي ،
ولا تلحقوا بي إلا بعد الشروق ...

— وماذا تصنعين ثمة ؟
— لا أستطيع أن أذكر لك هذا الآن ...
ولكن أرجو أن تطمئني إلى ما أنا صانعة

- وقبل أن ينحني ليربط حذاءه حانت منه التفاته إلى هذه
الأنثى السارية وحدها في هدأة الصبح ، وقد شدت
ملاءمها حول ردفها شداً وثيقاً فجعل يهز ويرج ويمازل
الآبالسة والشياطين ، ويطلق الأفاعى والشهوات ،
ويسلط الفتنة على أمثال الشيخ من الصالحين الأوابين
ونسى الشيخ صلاته وتسبيحه ، وهرول وراء
الفتاة دون أن يعنى بربط الحذاء ، فالتصقت الأربطة
بالوحل ، وفي سبيل الشيطان ما يلقي الفؤاد الهيمان
وجعل السيد أحمد يتجنح ويرسل في الهواء
بعض ما كان يتقنه من لغة المغازلات أيام الدنيا شباب
والعمر فينان والقلب مشبوب ... وكانت وداد تعرف
ما أصاب فؤاد الشيخ وما انطوت عليه أضالعه ،
فكانت تتخلع في مشيتها أكثر فأكثر لترى ماذا
يصنع المدنف المتصابي ... وهكذا كانت وداد خبيثة
مرحة في طريقها إلى الموتى !!
- وهرول الشيخ سيد أحمد ، وأسرعت وداد ...
ثم برز من الظلام فتى عريض الكتفين مشدود
المضل طوال يبعث في القلوب رهبة ، ويشير في
النفوس حالاً من الوهم لا تدري مصدره ... فانطلق
في إثر الشيخ حتى إذا حاذاه قبض على قفاه بيد جبارة
عاتية وقال له :
- إلى أين أيها الوالد !
— ومن أنت ؟
— ألا تعرفني ؟
— كيف أعرفك وقد أرخيت هذه العبادة على
رأسك كاللصوص والقتلة هكذا ؟
— أي لصوص وأي قتلة يا شيخ سيد أحمد ؟
— عجباً ! أتعرفني ولا أعرفك ؟
— إذن فاطمئن لعرفتي إياك على الأقل
- من أنت بالله عليك ؟
— ليس من شأنك أن أذكر ذلك لك ...
— ومن شأنك أن تكسر رقبتى يا ولدى ؟
— وما قيمة رقبة تخرج من المسجد لتنتقل
وراء امرأة كالكلب المسعور هكذا ؟
— أنا يا ولدى ؟ أستغفر الله ... أستغفر الله !
— أحقاً تستغفر الله يا شيخ سيد أحمد ؟
— أستغفره وأتوب إليه ... لقد تركنا هذه
العصوات لكم يا شباب العصر
— إذن أين كنت معتزماً أن تذهب ؟
— أزور مقابر المسلمين
— وماذا لك في مقابرهم أيها الأب !
— عظة وعبرة لمن لا يتعظ ولا يعتبر يا ...
ما اسمك إذن !
— أنا ... أنا عزرائيل !
— أعوذ بالله منك يا سيد عزرائيل ... أترك
رقبتى جعلت فداك !
— لن أتركها حتى تصدقنى ... ألم تكن تتبع
هذه المرأة الرذاح ؟
— والله إنك لا ذوق عندك !
— وكيف ؟
— لا أنت تركتني في سبيلي ولا أنت الذى
تسرع حتى ...
— حتى ماذا يا سيد أحمد ؟
— حتى لا تفوتنا يا خبيث !
— إذن هلم ...
وانطلق الشيخ والفتى في إثر وداد ، وكانت
قد ابتعدت كثيراً عنهما ، بيد أنهما لحقاها بعد
جهد ، وكان الطريق قد انخرج ناحية المقابر ، وكانت

سكان هذا العالم الثاني ؟ لا أحسب أن الفراق هو الذى يبكي الناس : إنه الفزع من ظلام القبر وديدانه . الفزع من أن يأتى اليوم الذى نغيب فيه فى ظلمات التراب وتناكلنا ديدانه ... نحن نخاف على أنفسنا ؛ ولذلك فنحن نبكي علينا لا على ذوينا . وإن يكن منا قليلون يكون على أحبائهم !

أية فلسفة فارغة هى هذه الفلسفة ؟ أين وداد ؟ آه ! ها هى ذى جالسة على الثرى تتلو آيات من الكتاب ! حقيقة إن فى الدنيا جمالاً هو الذى يحب الناس فيها حتى ليؤثروها على كل شيء ، حتى على الحياة الباقية ... !

ما أجل ما يرتل القرآن قبل الشروق بضوت ساحر هادى رقيق مثل صوت وداد ؟ ! هذا هو القرآن المشهود ... قرآن الفجر !

لقد اجتمع الناس من كل صوب ليسموا إلى هذا الترتيل كأنه ينطلق فى آذانهم من مزممار داود ... ثم سكنت وداد ، فدست الأم المحزونة الجالسة فوق ترى ابنها قطعة فضية من ذات القرشين فى يدها ، وأقبل الناس يدسون فى اليد نفسها قروشاً كثيرة تهلت لها أساور المقرنة الجريئة . ولما انتقلت فى صف آخر من المقابر القريبة وجدت أخانا الشيخ سيد أحمد عند قبر منفرد يتحدث إلى صاحبه الذى يسمى نفسه عزرائيل ، فلما شاهداهما صمتا ... ثم رأى الشيخ أن يمزح كأن فرصة الزاح كانت مؤاتية ، فقال لها وقالت له :

— ألك فى صورة تقرئينها على موتانا يا ست الشيخة ؟

— ولم لا ... أنا مستعدة يا شيخ سيد !

— يا خبز ! أنت تعرفيننى ؟

رهبة الأبدية تنشر ظلالها ثمة ، وأشباح الموتى ترف فى فجر أمشير ، لكنها لم تكن تثير الرعب فى قلب وداد اللعوب ، ولا تردع الرجل والشباب عن متابعة الفتاة .

قال الشيخ وقال الفتى له :

— هل صليت الصبح يا ... سيد عزرائيل ؟

— صليته ما فى ذلك شك ...

— وماذا أفادتك صلاتك ، وقد جعلها الله لتنعى

عن الفحشاء والمنكر ؟

— إنها إن لم تنهى هذه المرة فإنها سوف تنهى

يوماً ما ... لكنك أنت ... هل صليت ؟

— إني أغالب نفسى على الصلاة فلا أستطيعها

وأسال الله أن يهدينى قريباً

— ومتى تنتظر أن يهديك الله يا سيد عزرائيل ؟

— أحسب أننى لن أهتدى قبل أن أتزوج

— وماذا يمنحك من الزواج ؟

— لا يعنى شيء ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— أخشى ألا أهتدى بالزواج كما لم تهتد أنت به !

— ستمود إلى ردالتك من جديد .. أسرع ..

أسرع يا مغفل ... لقد فاتتنا الفتاة ...

وكانت وداد قد فاتتهما بالفعل ، وكانت قد غابت

عن أنظارهما كأنما ابتلعها المقابر

ماذا هنا فى هذا العالم الثانى ؟ !

لماذا يبكي الناس كثيراً هنا ؟

هل هو الفراق الذى يفجر دموعهم وبعلاً

أفقدتهم أجزائاً ؟ !

هل نحن فى هذه الدنيا الخاتلة أحسن حالاً من

— وكيف لا أعرفك وقد كنت صديق والدي !

— والدك !

— أجل والدي ! هل نسيت ؟

— ومن والدك يا ست الشيخة ؟

— يا للوفاء ويا للأوفياء !

— لست أذكر ! من أنت ؟

— ألا تعرفني ؟

— لي الشرف !

— ما دام لك الشرف فاسمعي أقرأ لك أولاً

— تفضلي !

— آمل أن يروقكما ترتيبلي ... أليس كذلك

يا سيد خالد ؟

— خالد ؟ ومن خالد ؟

— صديقك هذا ... أليس هو خالد أفندي

عبد النبي ؟

وجذب الشيخ سيد أحمد الغطاء عن رأس

صاحبه فإذا هو خالد عبد النبي حقيقة ... وقد عجب

عجباً شديداً كيف لم يعرفه وقد ماشاء كل هذا

الوقت من مسجد ولي الله إلى هذا العالم الثاني !

ولكن كيف عرفت وداد خالد ؟ ! المسألة

بسيطة جداً ... إن هذا الجسم الممتلئ الذي اكتنز

عضله ليس لأحد في البلدة إلا لخالد ... وقد كان

خالد المدنف بسيدة بنت الشيخ محمد يحوم حول حمى

حبه في مثل هذا الوقت من كل فجر ... وكانت

وداد تعرف هذا الأمر ، وكانت غيرة خفيفة تدب

في قلبها من أجل أن القنص ليس قنصها ، فلما

خرجت هذا الفجر قاصدة إلى القرافة كان خالد يقطع

الطريق أمام المنزل الفقير جيئة وذهوباً ... وقد

عرفته برغم العبادة الكبيرة التي كان ينجي في ثناياها

رأسه ... أما هو فقد تبعها بعد أن عرفها ليرى إن

كانت الفرصة تسنح ليخاطبها عن سيده ؟ لكنها

كانت خبيثة ، وكانت تعرف أنها ذاهبة إلى المقابر

لترى إن كانت تستطيع أن تصل عمل المغفور له

والدها العزيز الراحل ... لذلك لم تتلصق ليكلماها

خالد ، حتى كانت أمام المسجد ، وكان ما كان من

لقاء الشيخ سيد أحمد للسيد عزرائيل ...

وتربعت وداد على الثرى المبلل وأخذت في ترتيب

آيات الذكر الحكيم ... فلما رتل : (قل للمؤمنين

ينفضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...) جعلت

تردها في خشوع وخشية ، وكان الأفق الشرق

قد بدأ يصطبغ بأمواء الورد والبنفسج ، وكانت

حواشي السحاب الرائع تنشر في الشرقيين أذبالها

فتضاعف جلال الترتيل ، وتمتزع بالصوت البكر

والقراءة العذرية ، ثم تترقق جمالاً وتقوى في قلب

خالد وفؤاد سيد أحمد ، الذي عرف من صاحبه أن

الفتاة هي ابنة صديقه الشيخ محمد رحمه الله

وختمت وداد آياتها ، ثم همت بالانصراف ،

فد خالد يده بقطعة فضية كبيرة ، وكذلك صنع

الشيخ سيد أحمد ، ودست وداد القطعتين في جيبتها

ثم ذهبت من طريق ، وذهب الرجلان من طريق

آخر ، كما ذهبت الشياطين كلها من طرق شتى وفي

وجوهها حسرة ، وفي أفئدتها تلدد ، لما أصابها من

الفضل في أداء مهمة الشر التي أبقت من الجنة

بسببها ؟ والتي من أجلها قاسمت الله العلي أن تقعد

للناس صراطه السقيم .

— لماذا لم تحضروا لميعادكم ؟

— كان أخوك ناعماً نخشيناً أن تركه وحده ...

عسى أن يكون الله قد فتح عليك يا وداد ! !

— الحمد له حمداً حتى يرضى !

— وما هذا الذى فى (طرفك) إذن !

— خير كثير ومال !

— مال !

— ولم لا يكون مالاً ؟

— ومن أين لك المال يا ابنتى !

— كما كان أبى يصنع صنعت !

وجلس و داد تمد الرغفان والكحك، وأقبلت

سيدة وأقبل معها أخوها على أوصال القصب يعصانها

بشغف ، وهما بين الفينة والفينة يقضيان كمكة

أوباً كلان قطعة من المعجوة المقشورة الملبسة بالسهم

وكما أبدت الأم انتقاداً لما صنعت و داد راحا يجادلانها

ألا سبيل إلى (السّر) إلا هذا السبيل ! !

أما النقود فقد أربت على الخمسة وعشرين قرشاً

فكانت وحدها أكبر برهان على عبقرية و داد وصحة

براهين سيدة ، وعقم مرارة الأم وفساد انتقاداتها

اشتهر أمر و داد القرثة ومحبة ليالى المولد النبوى

فى كل القرى المجاورة ، وأخذت أنهار الخير تنصب

فى البيت البائس الفقير حتى عمرته ، وحتى بدلت

أتراحة ، وما راع الناس إلا هذه الماهرة التى جددت

شباب المنزل وكسته بالملاط ودهنت بابه وشبابيكة

فأصبح (فيللا الشيخ محمد ! !) ، كما كان الخبثاء من

أهل المدينة يسمونه ! !

تُرى ! ماذا كان يختبئ فى أعماق و داد من

الأماني والآمال ! ! إن الله قد وهبها مسحة من الجمال

الساحر اللغامض تكفى لأن تكون رأس مال امرأة

تريد أن تلعب دورها فى الحياة بمهارة ... فما بالها إذا

كان الله العلى قد زودها بهذا الصوت الساحر الذى

أخذ يلعب بألباب الجماهير ويخلب أفتدسهم ، والذى

لا تنقصه إلا صنعة قليلة وإلا عود مُرِن ، أو وتر

مرتان لينطلق مدوياً بين أصوات الفنانين !

وبعد ، فلقد ضاقت البلدة الصغيرة ببقرية الفتاة ،

وأخذ الطائر المختبئ فى صدرها يهفو إلى جنات

أخرى ... إنها تسمع إلى راديو المقهى البلدى القريب

من منزلها فتعجب كيف اشتهرت هذه الأصوات

المنكرة وكيف تدوى فى آفاق العالم على حساب

شهرة أصحابها ، فى حين تتوى هى فى هذه البلدة

الصغيرة المجهولة كيوسف المحبوس وهو النبي الوفى

الأمين ! !

ولكن أين تذهب و داد وفى عنقها هذه العائلة

القدسية ! ! إن القاهرة قرية حقاً ، لكن كيف

السبيل إليها ، وبينها وبين مدينة الملك هذا الملاك

الحارس الذى هو أمها ! ! ثم ماذا تصنع فى القاهرة

الفاروقية التى لا تعرف فيها أحداً ؟

ولكن لماذا لا تجازف ؟ هل كانت تعرف أنها

ستبرع تلك البراعة فى ترتيب القرآن وإحياء المولد ؟

إن كل مشروع مفتقر قبل كل شيء إلى المقاحمة .

وكم أمل طويل عريض قضى عليه التردد ، ولوسنده

قليل من الإقدام لطار بصاحبه بجناحي نسر فى سموات

المجد والشهرة .

— سأسافر غداً يا أماء إلى القاهرة ؟

— القاهرة !

— أجل ... القاهرة العظيمة

— ما هذه المفاجأة يا ابنتى ؟

— لا مفاجأة ، ولا شيء ... لقد عزمت

أن أجرب حظى هناك !

- يا ابنتى لقد كبرت ، فكيف أطمئن عليك
في بلاد الغربه ؟
- القاهرة بلاد غريبه !
- ألسنت ستكونين بعيدة عني ؟
- ولماذا أكون بعيدة ؟
- لا أفهم !
- ستلحقون بي بعد قليل
- كلنا !
- كلكم
- وماذا تصنعين هناك وليس في القاهرة
أحد يعرفك !
- سيعرفنى الكثيرون بعد قليل .
- وكيف تعرفين هذا !
- هاتف يا أماء ! هاتف جميل ما يزال يدعونى
ويوسوس بالأمانى البراقة فى صدرى . لابد أن أتبعه
لا بد أن أتبعه !
- ألا تسمعين نصيحتى يا وداد !
- وبم تنصحين يا أماء ؟
- بالأبتادرى بلدتنا هذه
- ولماذا ؟
- لأنها درت علينا أخلاف الرزق
- وهل لا تدر القاهرة أخلاف الرزق ؟
- إن القاهرة يا ابنتى بلدة عظيمة شاسعة ،
وبناء الشهرة فيها من المعضلات ... وليس أشأم
فى حياة الإنسان من ترك ما هو فيه مما عرفه وخبره
من وسائل الرزق إلى ما لا يعرفه من وسائله ، خصوصاً
فى بلد مثل القاهرة . وقد كنا فى حال من الضيق
قبل أن يفتح الله عليك ، فبدل الله ضيقنا سعة وشقاءنا
نعماً ودعة ، فإذا سمعت نصيحتى فامكثى هنا والبشئ
- فى تلك البلدة فى الأهل والوطن والمحيا والمات ...
- ولماذا لا أجرب يا أماء ؟ إن لدينا من النقود
ما لا نخشى معه مغبة التجربة !
- هذا كلام جميل ... لكن ...
- لكن ماذا ؟
- لكنى أخشى عليك من القاهرة يا وداد !
- ولماذا تخشين على منها يا أماء ؟
- إنها فتنة يا ابنتى ... وصنعتك أقرب ألوان
الصنعة إلى فتنة القاهرة وضلالاتها ، فإذا كان
الهاتف الذى يدعوك ويجذبك إلى القاهرة قوياً
مغرياً ؛ فإن هاتفاً أقوى منه قد قذف فى قلبى الرعب
من مشروعك هذا !
- ليس هاتفاً هو الذى قذف فى قلبك الرعب
من أجلى !
- إذا ماذا عساه أن يكون ؟
- إنه قلب الأم
- ليكن هو الذى تقولين !
- من كان يصدق يا أماء أننى أحفظ هذا
الكثير من الكتاب ، ثم أحترف هذه الحرفة التى
تريدن أن تربطينى ببلدتنا من أجلها ؟
- لم يكن أحد يصدق ... هذا صحيح !
- فلماذا لا أطلب المزيد من الشهرة والمال ؟
- الشهرة والمال !
- أجل ... الشهرة والمال ... أليس هذان
هما أكثر جوانب الحياة بريقاً ؟ أليس كل الناس
يطلبون الشهرة والمال ؟ فكرى يا أماء فى حالنا قبل
أن يطير ذكري فى هذه القرى وقبل أن تمتلئ
أيدينا بالمال ... هل كان حال يسر ؟ أتذكرين ليلة

للسكانه ، لأنها سرعان ما تبلى ويأكلها الصدأ وتنقلب
حسناتها إلى سيئات ربما دفعت الدولة أموالاً طائلة
لتتق غوائلها ...

— لقد أسرفت في مدح المال يا وداد

— ولماذا لا أسرف في مدحه وهو عندى كل

شيء في هذه الحياة !

— كل شيء !

— أجل ، كل شيء ، لأننا أصبحنا في عصر

تبدلت فيه الظروف القديمة؛ فتحول الناس عن صوفية
الفقر إلى صوفية الغنى

— ومع ذلك ، فأنا أخشى عليك من القاهرة ؟

— وماذا تخشين على منها يا أمى ؟ أتخشين أن

يحرفنى تيارها ؟

— كدت أقول هذا !

— إنه تيار جميل رخی لن يحسن السباحة فيه

— ومن ذلك الذى يحسن السباحة فى تيار

القاهرة

— أنا !

— أنت ؟

— ولم لا ؟

— لأن التماسيح تسبح فيه بكثرة ، وهى كما

تعلمين تسبح أحسن منك !

— إطمئنى ... فسأحمل بندقية صيدى دائماً

لم تستطع الأم الروم أن تثنى عزيمة ابنتها عن

السفر إلى القاهرة ... لأن إرادة وداد كانت إرادة

فولاذية لا تلين ، وفى الحق ، لقد كانت وداد تسمع

هاتفاً قويا يتاجها ويلون لها الأمانى ويهرج لها

الأحلام ، ويتبدى بها جالسة على عرش عظيم ممرد من

أمشير ؟ أما زلت تذكرين أخى طاهراً وهو يلهم
قطع المجين ؟

— أذكر هذا كله يا وداد ، لكن الشهرة

والمال ليسا شيئاً قط ما لم يكن تحتها دعائم من
السعادة !

— وماذا يصنع السعادة كما يصنعها المال ؟

— المال وحده لا يصنع السعادة يا وداد

— هذه أقوال الفلاسفة النظريين يا أماء ،

أو هى أقوال الساكنين والفقراء ، وهم يقولونها
ليسوا أنفسهم ... إنها علالة يملأون بها أدمغتهم

الفارغة .. إن الرجل الذى لا يسند له المال لا يستطيع

أن يعرف ما هى السعادة ! يشفق الفقراء فيقولون

وماذا ينفع المال إذا أصابت الإنسان مصيبة فى صحته

أو فى عرضه أو فى ولده ؟ ! كأن الفقير بنجوة من

أن تصيبه المصيبة فى صحته أو فى عرضه أو فى ولده ،

وهى إذا أصابته فى شيء من هذا كانت مصيبته أفدح

من مصيبة ذى المال ، لأن مصيبة الفقير تصادف

قلباً مكتظاً ويدا فارغة أما مصيبة الغنى فتصادف

عكس ذلك . إنها تصادف قلباً فارغاً ويدا مكتظة

وشتان بين الحالين ... لا تصدق يا أماء أن للفقير

قيمة فى عالم الحقيقة ... إن أكثر قيمته ناشئ من

عطف الناس المصطنع ... وهم يقولون إن للفقير

ملكات قد لا تكون للغنى ، ولست أدري لماذا

لا يكون للغنى أحسن وأكثر من ملكات الفقير ؟

على أنه إذا كان للفقير ملكات فإذا ينمىها إلا المال ؟

إن الفقير محتاج لكي ينمى ملكاته إلى ملجأ أو جمعية

خيرية أو غنى من أهل البر أو حكومة منصفة عادة

كي تأخذ بيده وتعينه بالمال حتى تنضج ملكاته ،

فإن لم يجد معينه الذى يسند به المال فلا قيمة مطلقاً .

- المجد والشهرة إذا هي ذهبت إلى القاهرة ، وقد
استجابت لندائه ؛ فذهبت إلى المحطة بعد أن ودعت
العائلة المقدسة ، وركبت القطار للمرة الأولى في حياتها
ولقيها الشيخ سيد احمد فحياها وحيته ، وجلسا
على مقعد واحد من مقاعد الدرجة الثالثة :
- إلى أين إن شاء الله يا ست الشيخة !
— ست الشيخة ؟
— يا ست وداد !
— هذا أفضل !
— وله ؟
— أنا ذاهبة إلى القاهرة ، فكيف أكون
الست الشيخة ؟
— زيارة لأهل البيت أم ماذا ؟
— سأزور أهل البيت إن شاء الله ، ولكن
ليس لهذا اعتزمت السفر إلى مصر !
— لعله خير إن شاء الله !
— خير ... خير عظيم إن شاء الله
ثم أخذ الشيخ يداعب ويمزح ، وذكر الفتاة
بفجر أمشير ، فقالت له :
— وبمناسبة فجر أمشير يا شيخ سيد ، هل
أعجبك صوتي يوما ؟
— أعجبني صوتك ؟ الله أكبر ؟
— لم أفهم !
— ما هذا السؤال يا ست وداد ! لقد سحرتني
صوتك وهو ما يزال يرن في أذني إلى اليوم !
— وهل سمعتني بعد ذلك ؟
— سمعتك كثيرا !
— وما رأيك في صوتي بصفتك من موازين
الفن في بلدنا ؟
- رأيي !
— أجل ... أنا أسألك عن رأيك الحق ، ودع
عنك محاولة إرضائي
— رأي أنك لم تخافي لبلدتنا الصغيرة يا ست وداد !
— ولأى البلدان خلقت إذن ؟
— أقول لك الحق !
— هذا هو ما أطلبه منك
— لقد خلقت للعالم بأسرها يا وداد ، واعذريني
إذا خاطبتك هكذا
— أنت تبالغ يا شيخ احمد ... يا شيخ سيد ...
لا تؤاخذني فقد ربكتني
— والله إنك مخطئة في البقاء هناك ! طيري
يا شيخة ! طيري إلى القاهرة فهي مهد الفن ، وهي
وحدها التي تتسع لك
— وماذا أصنع هناك وأنا لا أعرف فيها
إلا قليلين من أقاربي !
— ماذا تصنعين ! أترك لي هذا الأمر أدبره
وأنا أضرب بك كل فنان مصر والشرق !
— يا رجل ...
— أقسم لك يا وداد لو سلمتني زمامك لغدوت
ملكة الغناء في مصر ؟
— ملكة الغناء ؟
— أي نعم ، ملكة الغناء ... -إني أرى
ألا تقصرى حياتك الفنية على ترتيل القرآن وإحياء
الموالد ... إن صوتك المطاط الرنان هو أليق الأصوات
للغناء ، فلودست الألحان وشدوت شيئا من الموسيقى
لغدوت ملكة الغناء كما قلت لك !
— كلامك جميل ولكنه لن يخدعني
— ليس إلى خديمتك أردت يا وداد ... تقى
أننى أقول لك الحق !

— وكيف لي أن أتعلم الألحان والموسيقى ؟
 — هذا من أيسر الأشياء عليك إذا رضيت
 أن تأخذى برأى !
 — إذن ماذا نصنع !
 — صديقى الشيخ زكريا !
 — الشيخ زكريا ؟
 — أجل ... إنه يملك الألحان والمودى
 ثلاثة أشهر
 — ثلاثة أشهر فقط !
 — بل فى أقل من ثلاثة أشهر يا وداد !
 — هذه مبالغة لا شك
 — ليست مبالغة ، لأنك فتاة بطبعك ، والطبع
 كالأرض الخصبة التى لا ينقصها إلا البذر لتعطى
 أكلها
 — إذن ...
 — اتفقنا ...
 — اتفقنا يا شيخ سيد !
 — وعلى ذلك نقصد من محطة مصر إلى منزل
 الشيخ زكريا مباشرة !

المال ! !

هذه هى الأنشودة الهائلة التى كانت تملأ خيال
 الفتاة الفتاة وداد ! المال هو كل شيء فى هذه الحياة ،
 إنه محور السعادة فى نظرها ... والسعادة فى نظرها
 هى القصور والبساتين والسفر وتملأ الفقراء للأغنياء ،
 وشعور القدرة على قضاء الحاجيات ، والتحكم فى
 مقادير الخلق ... المال هو كل شيء فى حياة الأفراد
 كما هو كل شيء فى حياة الدول ... أما المفلسون
 الذين يذمون المال ويشتمونه ، ويفضلون عليه راحة

البال والصحة والحياة الهائلة فى كسر بيت حقير .
 فهؤلاء فى رأيها معذورون لأنهم لا يملكون أن
 يقولوا إلا هذا . وهم يقولونه وهم يعرفون أنهم يغالطون
 أنفسهم ويغالطون المنطق ، لأن الصحة فى الغالب
 لا تتوفر إلا للغنى ، وراحة البال كذلك هى من
 نصيب الغنى قبل أن تكون من نصيب الفقير والحياة
 الهائلة إن كان فى هدوء الحياة شيء من الفضل ،
 هى أقرب متناولا للغنى منها إلى الفقير ، لأن الفقير
 يخشى الجوع دائما وهو من خشية الجوع ينسى
 كثيرا من فضائل الإنسانية العالية ، فهو دائما
 يتملق من هو أعلى منه ، وهو دائما ذليل ينفى
 على الهوان ، ثم هو مع ذلك شديد الحقد شديد
 الحسد ، ثم هو متبع دائم للجرائم . فإذا عف عن
 الجريمة فإنه قلما يعف عن الحقد وحسد الأغنياء ؛
 والدولة التى يشتد الفقر بين أفرادها هى أشد الدول
 انحطاطا وأكثرها عكوفاً على الموبقات ؛ والدولة
 التى لا تعالج فقراءها بإصلاح أحوالهم المعاشية وفتح
 أبواب الرزق لهم ، لن تستفيد كثيرا بالمستشفيات
 والملاجئ والسجون التى لا تبنيها إلا للفقراء ، ومثل
 هذه الدولة معرضة دائما للحسد الأكبر ، والحسد
 الأكبر هو البلشفية ، لأن البلشفية هى ثمرة حسد
 الفقراء للأغنياء ، ثم هى ثمرة غريزة حب التملك ،
 لأنه ليس صحيحا أن البلشفية تأبى التملك ، فلقد
 أراد معتنقوها بآدى الرأى حرمان الأغنياء من
 أملاكهم ليملكوها هم باسم الدولة ، والملكية هنا
 وإن لم تكن حق التصرف فإنها تمنى فائدتها الكبرى
 وهى الانتفاع
 استطاعت وداد هذه الفتاة الفتية المحدودة
 الثقافة ، التى ازدهرت عبقريتها أول ما ازدهرت

مرض وضعف ، ثم إن أمها لم تحس عليها من القاهرة إلا الفتنة ، وما هو من باب الفتنة من حب وغرام وضلالة أخرى

وكانها عاهدت نفسها قبل أن تركب القطار إلى القاهرة إلا أن تحقق رجاء أمها فلا تهزم أمام أبالسة العاصمة ، وشياطين الضلالات فيها ، فكانت دائماً تذكر ما حذرتها أمها منه ، فلم تكن تأبه كثيراً لنظرات العشاق الطائرة ، ولا لكلماتهم المصنوعة ، ولا لأشاراتهم الفاسقة التي لا يريدون بها غير وجه الشيطان ، وغير إشباع اللبانات والشهوات . برعت وداد في الغناء الفنى براعة هائلة ، واستطاعت أن تبتكر ألواناً جديدة من الغناء التمثيلي

نارت بها على عرف التخت الشرقى الجامد ، ولم تبال أن تمزج بين الغناء وبين الرقص التوقيى ، ولم تزل بأختها سيدة تطن في أذنيها بالأمانى الجميلة والآمال المسولة حتى حبيت إليها الحياة الفنية ، وجعلت تغمسها برفق في أجواء المسارح والسينمات ، وكان أكثرهما أن تشاركها أختها في عملها ، فقد أوتيت سيدة من الجمال نصيباً لم يتوفر لوداد ، وجمال ربات الفن هو نصف رأس مالهن ... فإذا اقتسمتا العمل فستكون وداد للغناء وستكون سيدة للرقص ، وجسم سيدة كفيل باجتناب الجماهير ، لأنه جسم مصرى سليم له بشرة وردية يترقرق فيها عطر ليست فيه رائحة ، ولكن فيه مغناطيس يكسبه زغب العذرية سحراً وقوة .

ولكن الرقص ما يزال معدوداً في مصر خلاعة إن لم يكن فجوراً ، والناس - أو أكثر الناس - لا يعرفونه فناً من أرفع الفنون التي لا تقل قيمة عن الشعر أو الرسم أو التصوير أو الموسيقى ، بل

بين القبور وثرى الموتى ، وفي بيت والذها الفقير البائس المعوز المغفور له الشيخ محمد ، استطاعت أن تفكر كل هذه الأفكار ، لأنها أفكار خفيفة سطحية تدور بخلد كثير من الناس فيما يتعلق بدولة المال ، لكنها امتازت عن هؤلاء الناس بإقدامها وحسن استغلالها لما زودها به الله من جمال قليل لكنه غامض ، وهنا مقدار فتك الجمال إذا أُجيد استخدامه ، ثم هذه الحنجرة الغالية التي اكتشفها وداد في فجر أمشير ، وعرف قيمتها الشيخ سيد أحمد فاقترح تقويمها بالألحان والموسيقى لتكون صاحبها ملكة الغناء في مصر .

وقد صدق الشيخ سيد أحمد ، فقد مضت ثلاثة أشهر ثقفت فيها الفتاة عقد الموسيقى العملية ، واستطاعت أن تلمع على العود فتأتى بنغم كان له الفضل الأكبر في تقويم صوتها ، لأنه كان كاللواء والسماد صادفاً أرضاً صالحة فأنبئت من كل زوج بهيج وقد أعجب الشيخ زكريا بوداد ، وراعه منها حسن استعدادها وتوفرها على دروسه ، وكان يربكه منها جمالها الغامض ، واستطاع أن يقاوم مغناطيس الحب في فؤاده شهرين متتابعين طويلاً ، وفي الشهر الثالث صرعه التيار العنيف فباح بحبه ، ولكن ليس بلسانه بل بدموعه ، ولم تسأله وداد لماذا يبكي ، فقد كانت أذكي من تلك المنزلة لكنها داعبته بكلمات ظريفة نسي بها تباريحها ، ثم ظلت تحاصر هواه وتعبث به حتى برعت في الألحان وألمت بدروس العود ...

وحينئذ ... أخذت تقف منه موقف الفتاة التي لم يفتح قلبها للحب بعد ، لأنه قلب يشغله أمل أوسع من الحب دولة وأقوى منه سلطاناً ، ذلك هو أمل المال .. المال قبل الحب ، لأن المال صحة وقوة والحب

التي أعقبت الانتهاء من عرض المنظر الأول، والتي أطلقوا فيها أكتفهم وحناجرهم تصفق وتدوى بالتحية والإعجاب، وكانت باقات الورد والرياحين تنتثر فوق المسرح تحت قدمي وداد، ووداد تبتسم ابتسامة رقيقة محتشمة، وتنظر نظرة واجفة نحو أختها سيدة لتتأمل ماذا تم من أثر هذا العرض في نفسها

وانتهت الحفلة، ونالت نصيبها اللانهائي من النجاح، وفي اليوم الثاني، بدأت طائفة من أكرم الهدايا تصل إلى وداد من شخصيات مصرية كريمة لا يمكن أن يكون تقديرها لما رأت من رقص وسمعت من غناء تقديراً شامها إبليسياً كما تعود الآخرون أن يفعلوا؛ وقد انتقت وداد من الهدايا حلياً غالية وضعتها بيدها على جيدسيدة وفي رأسها وإصبعها ...

— أرايت يا سيدة !

— ... ؟ ...

— هل أصابني سوء مما فعلت يا أختاه ؟

— أنت جريئة ... جريئة جداً يا وداد !

— ولم لا تكونين جريئة أنت أيضاً يا أختي !

— أتمنى أن أكون كذلك ... ولكني لا أستطيع الآن !

— بل تستطيعين ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— تتعلمين

— وماذا أتعلم

— تتعلمين ما تعلمت ... الأستاذ صادق فنان متقدم في السن، خبير الخصال موفور الأدب طيب السيرة، وهو الذي تولى تلقيني هذه الدروس في الرقص، وهو الذي سيتولى تلقينك أيضاً !

يعدونه من تجارة تكسب المال بالأجسام، فهو عندهم باب الزنا . ولذلك فهم يعدون كل راقصة فاجرة تتجر بجسمها أمام الناس وتوزع محاسنها بالقروش على أبصارهم يأكلونها ساعة أو ساعتين ثم ينصرفون وقد تأججت شهواتهم بين أضالعمهم، وفي خلدهم صورة الراقصة السكينة ما تزال تيمس وتدل وتتأود وتثني ...

هكذا ينظر الناس في مصر إلى الرقص والراقصات، وقل منهم من ينظر إليه نظرة أرفع من هذه النظرة وأسمى، ولذلك فقد وقعت وداد أمام مشكلة هائلة وهي تحاور أختها كي تقنعها باحتراف الرقص، وكانت وداد قد تلقت دروساً في الرقص التوقيفي على يدي فنان عظيم، فلم يسمعها يوماً إلا أن تدبر حيلة لتحارب في نفس أختها النفور من تلك الحرفة الجميلة، فدبرت حفلة مجانية في صالة من أكبر صالات القاهرة؛ ثم دعت إليها طائفة كبيرة من عليّة المصريين الذين سمعوا بغنائها وعرفوا ما فيه من أسرار القوة والنبوغ، فلبوا الدعوة جميعاً، ولما حان موعد الغناء تجردت وداد من ثيابها العادية ثم أضفت عليها ثياب الرقص للمنظر الأول الذي أطلقت عليه اسم « أمل فتاة » . وكانت صور المنظر قد نقشت على ستائر المسرح بأيدي كبار الفنانين المصريين الذين أوتوا في هذا السبيل نصيباً عظيماً من العبقرية وسلامة الذوق في أداء المعنى وإضفاء الروح الشعرى على المنظر المطلوب... وبرزت وداد بعد إطفاء الأنوار وأخذت في الغناء وتوزيع الرقص في غمر جميل من الأشعة ذات الألوان المختلفة ... لله ما كان أجملها وما كان أروع ثنائها وهي تتأود في فيض أشعة البرتقال ! لقد كان الناس معذورين في هذه النوبة الجنونية

المال الكثير والثروة المديدة ، واستطاعت أن يكون لها مسرح خاص أصبح قبلة رواد محبي الفن الخالص المجرد الذي لا يستعين في استغواء الشباب بالأرداف والأنفاز والنجوى الخشنة والخلوة التي يطير فيها الميراث وتبده الثروات ... وكان لذكرها برغم صدود وداد منزلة الملحن الأول في المسرح كما كان لصادق برغم صدود سيدة منزلة مخرج أدوار الرقص ... وقد طال حب البطلين للبطلتين ، لكن الفتاتين لم يفتحا قلوبهما لأحد ... لقد أصبح جمع المال وتنمية الثروة طبيعة لهما ... فهما لا تعرفان حباً كحب الذهب ولا غراماً كغرامهما بالأسهم والسندات والدور والقصور والمزارع والضياح ... لقد أصبح لهما من ذلك الشيء الكثير ... لكنهما مع ذاك صارتا عفافهما ، ولم تجمعهما مما جمعتاه مليماً واحداً حراماً ، ولو قد التفتتا إلى جمع المال من طريق حرام لاجتمع لهما هرم كهرم خوفو من الذهب . . . لقد كان غناء وداد دروساً في الوطنية وأغاريد في الحب والجمال وحفز الهمم إلى العالي ، وكان غناؤها يمتزج برقص سيدة فتكون حولها جنة كلها إعجاز وكلها حور ومياه دافقة وزهر وشجر وطير وثمر يانع جناه دان ودوح غصونها حوانى ... لقد كان فهما شيئاً جديداً في الفن المصرى ... لأول مرة شهد الجمهور المصرى رقصاً لا يثير شهوة ولا يتعلق الفريرة الجنسية ، وإن يكن جسم سيدة جسماً يانماً يافماً فيناناً وإن يكن لهذا الجسم اليانع اليافع الفينان ثديان يقلقلان الفؤاد الخلى ، وساقان ناعمتان مستويتان ، وخصر لطيف نحيل وذراعان لدنتان ، تنهيان بأصابع عاجية تكاذ تنعقد من لين وطراوة . . . أما وجهها فهو دولة كاملة من المباهج والمفاتن ، وحسب الفم تلك الابتسامة الغريبة البريئة التي لم تعرف الختل ، وحسب العينين

— وأى يا وداد! آه لو رأيتك الليلة الماضية! —
— أوى! وما دخل أمنا إلا في المحافظة علينا من أن نزل! —
— هي تعتقد أننا في حياتنا هذه أدنى إلى الخطيئة —
— لنتق ما نشاء ، أما نحن فنسأل الله أن يقينا مصارع الزلل —
— وكيف نسأل الله أن يقينا مصارع الزلل ونحن نأق بأنفسنا مكتوفين في اليم؟ —
— هذا وهم كاذب ... إنك يا أختاه ستقومين بأداء أدوار من الرقص التوقيى التمثيلى إما بمفردك وإما معى ، ولن يشترك معنا أحد ... إن آمالى الواسعة في عالم الفن مفتقرة إلى جسمك الخصب أشد الافتقار ... إن جسمك المشوق المتلى لم يخلق لشهوات الأزواج فقط يا سيدة! إنه خلق للكفاح في دنيا الفنون ، وثق أن الله سيحفظنا من شياطين الإنس ما دمنا لا نقع في حبائلهم ولا ننعس في خبائثهم ... فهلمى ... أعينى يا سيدة ... يجب أن نعيش سعداء وأن نهض بتربية أختنا الصغير ، ونضمن لأمتنا آخرة سعيدة هانئة. أما نحن .. أما أنا وأنت ، فسترين كيف يصطرع العشاق تحت أقدامنا فنختار منهم زوجينا ، فإذا ولى الشباب ، ولم يعد لنا رونقه الذى هو أول ضرورات الفن ، اعتزلنا الرقص والغناء ، وأقمنا في قصرينا النيفين إن شاء الله ، تكللاً عينه ، ويسندنا ما ادخرناه لهذا الغد المحتوم

آه لو كان للرجال مثل إرادة وداد! لقد تألق نجمها في عالم الغناء كما تألق نجم أختها في عالم الرقص ... وقد جن الأستاذ صادق بسيدة كما جن الأستاذ زكريا بوداد ... لكن الأختين التزمتا الحفاظ أعواماً ثلاثة استطاعتا خلالها اقتناء

تلك النظرات الهادئة التي لم تقلقها الصنعة ، وحسب الجبين تلك الأشرقة التي تملأ القلوب نوراً ووضاءة ، أما شعرها فقد كان فاحماً ساجياً يغدود على الكتفين ، ثم تطير خصلة منه غير مصفوفة على الجيد ، في حين تنتشر أخرى في الهواء ، حسب ما يتفق التثنى في الرقص وكانت سيدة مع كل هذه المفاتيح لا تثير الحيوان في اصلاص النظارة ، بل كانت تبتعث في أفئدتهم روعة الفن ونعمة التلذذ به ممتزجاً بسحر التصوير وجمال توزيع الضوء ... ثم ... سمو الغناء الجميل الذي كانت وداد تبعثه مع النسيم من فوق القمم ومن صميم الوديان أو من بين السحب !

وتبسم الحظ الوافر للفتاتين

لكن زكريا لم يعد يطيق صبراً على حاله المبرحة من هيامه بوداد ؟ ولا الأستاذ صادق بمطيق التجلد على هوى سيدة

— لست أدري يا صديقي زكريا لماذا أرسلك القضاء إلى بهذه الفتاة ! لقد أورثني حبها السقام ، وصرت من غرامى بها في جحيم وفي نعيم ، وأخشى أن يحرق جحيمي جنتي !

— أسكت يا صادق ! أسكت يا عزيزي ! والله إن قصة حبنا لتثير الشجون ... إن كنت أنت في جحيم وفي جنة ، فأنا في علة دائمة لا أحسبها تنتهي إلا بمنيتي ... عجيباً لهذه الفتاة عجيباً ! إنها لغزا إنها سر غامض .. أتصدق أنني لم أستطع إلى اليوم أن أنتزع منها تصريحاً أو تلميحاً بأنها تميل إلى ولو بمض الليل ، ولو كصديق ، ولو كرجل لقها ألحانها جميعاً وعلوها أسرار الموسيقى ! أنا ! لا لشدة ما يحزنني أنها هزمتني ! أنا الذي لا أعلمها إلا أحاديث الحب وكلمات الغزل وآهات الغرام ! أعلمها كل ذلك وأعجز عن ابتعاث شيء ولو تافها من الحب في قلبها !

— ألا أقول لك يا زكريا ؟

— تقول لي ماذا ؟

— لقد صرنا هرمين يا صديقي ، والبنتان في شبابهما الريان ، ثم لا تنس أنهما أصبحتا من الغنى بمكان يبعدهما عنا كثيراً ... إنهما تطمحان إلى من هم أ كفاً منا وأعلى مقاماً ...

— ماذا تقول يا زكريا !

— أقول الحق يا صديقي ... والرأى أن نظل عائشين في ظلهمما نسعد ونشقى في وقت معاً ... وأطرق صادق رأسه ، ثم نظر إلى زكريا وفي عينه غيرة مترققة توشك أن تنهمر ، ولم ينبس بكلمة ثم نهضا ليذهبا إلى منزل وداد ... أو قبيلاً وداد بمصر الجديدة ، فقد كانا على موعد معها لشأن من شئون العمل

— أهكذا يكون جزائي يا آنسة وداد !

— أي جزاء يا رجل ؟ إن كنت في حاجة إلى نقود فأنا أعطيك ما تريد !

— نقود ؟ أنا لست في حاجة إلى نقودك يا آنسة !

— إذن ماذا تريد ؟

— ألا تعرفين ؟

— ومن يدريني ؟

— إذن أريد قلبك .. أو أريد قلبي يا عزيزي !

— لغة لا أفهمها ... إسمع يا شيخ سيد أحمد ، لا تظن أنك تكلم مطربة ممن تعرفهن في عرض الطريق

— طبعاً ... أنا أ كلف الآنسة الفنانة الكبيرة وداد بنت الشيخ محمد الفقي الله يرحمه !

— رحمه الله رحمة واسعة ، وهل في ذلك ما ينقص قدرى !

— ومن قال إن ذلك ينقص قدرك !
— إسمع يا شيخ سيد ! كم سنة عمرك ؟
— خمس وأربعون
— وكم سنة عمري ؟
— خمس وعشرين !
— كذاب !

— بل أكثر من خمس وعشرين !
وكانت أمها حاضرة هذا اللقاء ، وكانت أمها تود من قلبها أن تزوجه ابنتها وداداً ، لأن الرجل ليس طاعناً في السن كما تحسب الفتاة ، ثم هو في سعة من العيش ، ولم يكن أحد يظن أن مثل الشيخ سيد يرضى أن يتزوج بنت الشيخ محمد الفقي ، فلما جاءت مسألة السن تدخلت وادعت أن وداداً لا تزيد عن عشرين أو إحدى وعشرين ، ثم قالت : إن شهادة ميلادها موجودة وكذلك شهادة ميلاد سيدة ، ومع أن الموقف لم يكن موقف هزل ، فقد تضاحكت وداد فجأة ؛ ثم بالغت في الضحك حتى استلقت على كرسي الذراع القريب ، وهي ما تكاد تملك نفسها من شدة الضحك

— ماذا أضحكك يا وداد ؟

— لا شيء يا أمي ...

— لا يمكن ... لا بد أن أعرف !

— لقد ذكرت شيئاً ...

— وماذا ذكرت ؟

— شيئاً قديماً ... قديماً جداً !

— تكلمي يا وداد

— أمتاً كدة أنت أن شهادتي ميلادي وميلاد

سيدة عندنا ؟

— طبعاً ... ! إنني محتفظة بهما

— إذن قولي فهايتهما

— ولماذا ؟ هل أنا كذابة !
— أستغفر الله أن تكوني يا أمي ... ولكن لأراها وليقتنع الشيخ سيد
وكان خالد أفندي عبد النبي قد أقدم مع الشيخ ليخطب سيدة فتتحنج ثم قال إنه لا يظن أن الأنسة وداد تزيد عن ثمانى عشرة سنة ، وكان تعلقاً ثقيلاً ما كان أغناه عنه ... وذهبت الأم ثم عادت بورقتين دفعتهما إلى وداد التي أغرقت في الضحك إغراقاً شديداً ، لأن الورقتين كانتا ورقتي عقد إيجار ... ثم ذكرت وداد ليسة أمشير التي لا تنسى ، وأنها جاءت لأما بورقتي الميلاد لتستمين بهما في إشعال النار ... فكانت تسلية ظريفة أضحكت الجميع ... ولما هدأت العاصفة قال خالد :

— وأنا يا ست سيدة !

— وأنت ماذا يا سيد خالد ؟

— إنه ليسعدني أن تقبليني زوجاً

— أنا ؟

— طبعاً أنت ؟

— أنا لا شأن لي في هذه الأمور يا عزيزي

— ولن الشأن إذن ؟

— سل وداد !

— أسأل وداد وأمك حاضرة !

— أمي لا تجيد هذه الأمور كثيراً !

وهنا ثارت الأم وزجرت ابنتها فقالت وداد :

— تريد أن تقول إنني وإياها شريكتان في عمل

لا نستطيع أن نتركه ، وعملنا لا يسمحان

بالزواج يا أماء ، وإذا كان لا بد من زواج ...

وهنا دخل الأستاذان زكريا وصادق فجأة فقالا :

— فتنياً ... أليس كذلك يا آنسة وداد ؟

- ثم قال زكريا :
 — ألسنا أحق من هذين ؟
 وقال صادق :
 — ألسنا أحق يا آنسة سيدة
 فقالت وداد :
 — إذن كنما مختبئين ؟ وسمعتما كل شيء !
 فقال زكريا :
 — أي والله !
 فقالت وداد :
 — إذن فابشرا
 فقال زكريا :
 — بشرك الله بكل خير يا ... يا حبيبتى !
 — إذن فابشرا أننا لن نتزوج أبداً يا أستاذ زكريا
 وهنا وجم الجميع ، ونهض الشيخ سيد احمد
 فجاء فقال :
 — ومن يرضى أن يتزوج مطربة ؟
 وقال خالد :
 — ومن يرضى أن يتزوج راقصة ؟
 ثم انطلقا غير مأسوف عليهما
 قالت وداد :
 — أسمعت يا زكريا ؟ أعرفت لماذا نرفض أن
 نتزوج ؟ أليست حياة الفن شقاء في مصر ؟ ! وأنت
 يا سيدة ! هل عرفت أن المال لأمثالنا هو كل شيء ؟ !
 دريتي غشبة

سيدنى سيدنى
 لا تخشى على مجوهراتك لا تخشى على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهي في الحفظ والأمان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة

الأعصاب المفروض أنه مصاب به ... فقد قالت له أخته وهو يتأهب لرحلته الريفية :

— أنا عالة بما ستكون عليه رحلتك ! فلسوف تدفن نفسك حيث لا تتحدث إلى مخلوق من الأحياء ، وعندئذ تضاعف الكآبة مرض أعصابك ؛ وها أنا أكتب في الحال خطابات توصية أقدمك بها إلى جميع الأشخاص الذين أعرفهم هناك . ولقد كان بعضهم ، على ما أذكر ، وديعاً ظريفاً »

تذكر فرامتون كلمات أخته وتساءل في نفسه : ترى مسز سابلتون التي سيتقدم إليها بعد لحظة بأحد خطابات التوصية التي يحملها ، تدخل في نطاق هذا البعض الوديع الظريف »

ولإذ لا حظت الفتاة الرقيقة أن فترة السكوت قد طالت بينها وبين الزائر الغريب سألته :

— أتعرف كثيرين من أهل هذه الناحية ؟
فأجاب :

— أكاد لا أعرف أحداً هنا . ولقد كانت أختي كما تعلمين ،

مقيمة هنا في الأبرشية منذ حوالي الأربع السنوات ، وقد أعطتني خطابات توصية لفريق من أهل هذه الناحية ...

الباب المفتوح

للكاتب الانجليزي الكبير « الساق »
نقلم الأستاذ عبد الحميد محمد

تصريف

« الساق » أو « ساكي » كما تنطق بالانجليزية هو الاسم المستعار الذي تخيره الكاتب الانجليزي الكبير هكتور هيوينج مونرو لتوقيع مقالاته وقصصه المديدة التي نشرت في الصحف والمجلات الانجليزية . وقد تغير هذا الاسم من إحدى رباعيات عمر الخيام التي يخاطب فيها (الساق) بقوله : « إذا صهرت أيها الساق بالرفاق المنتثرين على الأعشاب انتثار النجوم ... الخ »

« وقد ولد مونرو في بورما سنة ١٨٧٠ وماتت أمه وهو في السنة الأولى من عمره فتقله أبوه هو وأخوه إلى نورث ديفور ليعيشوا بين جدهم وعمتهم . وقتل مونرو في فرنسا سنة ١٩١٦ في إحدى معارك الحرب الكبرى . وله كثير من القصص القصيرة والمقالات النقدية البارعة . وقصة « الباب المفتوح » التي نعرضها هنا هي إحدى قصصه القصيرة الطريفة »

— ستحضر خالتي في الحال يا مستر « نتل » ، ولكن يجب في الوقت نفسه أن تجتهد في إنهاء حديثك معي

بهذه الكلمات بادرت الفتاة ضيفها عند عودتها إلى غرفة الاستقبال ، حيث كانت قد تركته ريثما تذهب لإخبار خالتها بقدمه : وفتاتنا صبية رزينة لم تتجاوز الخامسة عشرة من سننها

وحاول فرامتون نتل أن يتخير الكلمات اللائقة التي يستطيع أن يرضى بها ابنة الأخت المائلة أمامه دون أن يكون في هذه الكلمات ما لا يرضى بغير مقتضى ، الحالة التي ستحضر بعد قليل . وقد شك الفتى بينه وبين نفسه أكثر مما شك في أي وقت مضى ،

فما إذا كانت هذه الزيارات الرسمية التي يتقدم بها إلى سلسلة من المائلات التي لا تربطه بها أية رابطة على الإطلاق ، سيكون لها أثر فعال في علاج مرض

وصاغ الفتى كلماته الأخيرة في لهجة تم عن الأسف فتابعت الفتاة الرزينة حديثها قائلة :

— إذن أنت تكاد لا تعرف شيئاً إطلاقاً من أمر خالتي ؟

فأجاب الفتى :

— لا أعرف غير اسمها وعنوانها

فهو لا يدري إذا كانت متزوجة أو أرملة . ولكن شيئاً في الغرفة لا يستطيع أن يتبينه على التدقيق كان يوحى إليه بأن في البيت رجالاً ... على أن الصبية لم تلبث أن قالت :

— لقد نزلت بخالتي مأساتها الكبيرة في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنين كاملة ، ووافق ذلك الوقت الذي غادرت فيه أختك هذه الجهات

فسأل الفتى الذي لم يكن ليتصور أن المآسى تجد طريقها إلى مثل هذا المكان الهادئ المطمئن :

— تقولين مأساتها ؟

فقالت الفتاة وهي تشير إلى أحد الأبواب المطلة على الشرفة وكان مفتوحاً :

— قد يدهشك أن ترى هذا الباب مفتوحاً في مساء يوم من أيام شهر أكتوبر كيومنا هذا ؟ فأجاب فرامتون :

— إن الجو دافئ بالنسبة لهذا الفصل من السنة ، ولكن هل لهذا الباب أية علاقة بالمأساة التي تشيرين إليها ؟

فشرعت الفتاة تحكي القصة الآتية :

— في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات خرج من هذا الباب زوج خالتي وأخواها الأصغر منها سناً ليصيدوا الطير على عادتهم اليومية ، ولكنهم لم يعودوا

من رحلتهم ، لأنه عند اجتيازهم المستنقع للوصول إلى الميدان المفضل عندهم لصيد البكاشين ساخت أقدامهم في بقعة خادعة من الأرض اللينة ، حدث هذا في ذلك الصيف الذي كثرت أمطاره ، على ما تعلم حتى إن الأماكن التي كانت مأمونة في السنوات الأخرى لم تقو على الثبات فانهارت ، وقد اختفت أجسامهم ولم يقف لها أحد على أثر ، وهذا هو أظنع ما في المأساة

وما وصلت الفتاة إلى هذه النقطة من قصتها حتى فقد صوتها ما فيه من رنة الثبات وغلب عليه التأثر ، ثم مضت تقول :

— ومسكينة خالتي لا تنفك تتصور أنهم سيعودون يوماً ما ومعهم كلهم الأسود الصغير الذي ساخ معهم أيضاً ، وأنهم سيدخلون إلى البيت من هذا الباب كما تعودوا أن يفعلوا كل يوم . وهذا هو السبب في تركه مفتوحاً كل مساء إلى أن يهبط النسق . وما أنتمس خالتي العزيرة فلسم كررت على سمى قصة خروجهم ، إذ كان زوجها يحمل معطف المطر الأبيض على ساعده ، بينما روني أخوها الأصغر ينشد أغنية : « لماذا تشب يا برقي » ، كما كان يفعل دائماً ، لينفيها فقد كانت تقول إن هذه الأغنية تهز أعصابها ، ولا أخنى عليك يا سيدي ، أنني في بعض الليالي الساكنة الهادئة مثل هذه الليلة ، يتسرب إلى نفسي غالباً شعور خفي بأنهم جميعاً سيعودون إلينا من خلال هذا الباب ... »

ووقفت الفتاة فجأة عن الكلام مضطربة بعض الشيء ، وأحس فرامتون بالفرج عند ما دخلت الخالة إلى الغرفة تسوق أمامها سلسلة من المعاذير

لتأخرها في إصلاح زينتها وقالت :

— أرجو أن تكون « فيرا » قد سلتك بحديثها ؟

فقال فرامتون :

— لقد كان حديثها جد شائق

وقالت مسز سابلتون في نشاط وخفة :

— أرجو ألا يضايقتك فتح هذا الباب ، فإن زوجي وأخوي على وشك أن يعودوا من الصيد ، وقد تعودوا أن يدخلوا دائماً من هذا الباب ، ولقد خرجوا اليوم لصيد البكاشين في البرك ، وما من شك في أنهم متى عادوا تركوا على سجاجيدى المسكنة آثار ما تحمل أقدامهم من الأوحال ، وهذا هو شأنكم أيها الرجال ؛ فهل توافقنى على ذلك ؟ »

ومضت تتحدث في انشراح عن الصيد وعن ندرة الطيور ، وبخاصة البط في فصل الشتاء ، ولقد بدا هذا الحديث لفرامتون مزججاً قظيماً ، فحاول جاهداً أن يحوله إلى مجرى أقل فظاعة وهولاً ، فلم ينجح في ذلك إلا بعض النجاح ، وقد تبين أن مضيقته لا توليه من عنايتها إلا جزءاً جد يسير ، ولكن نظراتها كانت تتخطاه إلى الباب المفتوح وإلى ما وراءه من حقول ومستنقعات . فما من شك في أن زيارته هذه الأسرة في مثل هذه الذكرى المؤلمة لم تكن إلا مصادفة جد سيئة

وصور الوهم لفرامتون أن القوم الغريباء الذين يجتمع بهم والدين هم معارف الصدفة ، عطاش إلى تعرف أقل ما يمكن من التفصيل عن مرضه وعقله ووسائل شفاؤه فقال :

— لقد اتفق الأطباء في أمرهم لي بأن ألزم الراحة

التامة وأن أتجنب الانفعالات النفسية ، وأن أبتعد عن كل شيء يتصل بالجهد الجسمي ، ولكنهم غير متفقين اتفاقاً تاماً فيما يتصل بمسألة الغذاء

فقال مسز سابلتون :

— ألم يتفقوا ؟

وكان صوتها في هذا السؤال صوت الذى جاهد الثأوب في اللحظة الأخيرة . ثم لم تلبث أن ابتهجت فجأة وبدا عليها مظهر التنبه الشديد ... غير أن هذا التنبه لم يكن لحديث فرامتون . ثم صاحت :

— ها هم قد عادوا آخر الأمر في الوقت المناسب لشرب الشاي . ألا يبدو عليهم أن الأوحال تقطعهم إلى رؤوسهم ؟

فارتجف الفتى ارتجافاً خفيفاً ، ثم نظر إلى ابنة الأخت نظرة تحمل معنى الإشفاق . وكانت الطفلة تحديق من خلال الباب المفتوح ، وفي عينيها معنى الرعب الخاطف . فدار فرامتون في مقعده وقد أحس بصدمة مرعشة من جراء خوف لا يدرك معناه ونظر إلى حيث تنظر الفتاة

فرأى خلال النسق الهابط ثلاثة أشخاص يجتازون الحقل متجهين إلى الباب المفتوح ، وكانوا جميعاً يحملون البنادق على سواعدهم ، وكان أحدهم يحمل ما عدا البندقية معطفاً أبيض من معاطف المطر ألقاه على كتفه ، وكان يتعقب أقدامهم كلب صغير أسود تبدو عليه مظاهر التعب . واقترب هذا الجمع في سكون من البيت ، وإذا بصوت فتى أجش يعنى في النسق :

« إني أسألك يا برنى لماذا تلب ؟ »

لم تكذب عين فرامتون تقع على هذا النظر حتى

الفصول والغايات

معبزة الشاعر الطائب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زرناني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثنى ١٢ قرشاً

أمسك في عنف بمصاه وقبعته ، وفي أسرع من
لمح البصر كان قد اجتاز باب الردهة والمرصوف
والباب الخارجي كأنه السهم المارق ، حتى أن رجلاً
مقبلاً على دراجة لم يتق التصادم به إلا في اللحظة
الآخيرة منحرفاً فجأة إلى السور

ودخل القادمون من الباب المفتوح وقال جامل
المعطف الأبيض :

— ها نحن يا عزيزتي قد عدنا ملوثين بالأحوال
ولكن أكثرها جاف . ولكن من هو هذا الرجل
الذي تلاشى لمجرد ظهورنا ؟

فقلت مسر سابلتون :

هو رجل غريب الأطوار جداً اسمه مستر « تيل »
لا يستطيع أن يتكلم إلا عن مرضه ، ولم يكذب يوماً
حتى اندفع إلى الباب خارجاً دون أن يلتقي بكلمة
وداع أو عبارة اعتذار ، حتى لكأنه قد رأى شبح
عفريت مخيف

فقلت ابنة الأخت في هدوء :

— أظنه قد خاف الكلب ، فقد خبرني أن
بعض الكلاب الضالة هاجته مرة وطارده حتى
ألزمته الهرب منها إلى مقبرة في ناحية ما على ضفة
نهر الجنج ، وقد اضطر أن يقضي الليل في قبر جديد
لم يدفن فيه أحد بينما الكلاب من فوقه تنبح
مكشرة عن أنيابها ، وفي ذلك ما يكفي لجز أعصاب
أي إنسان

لقد كانت خاصة فتاتنا الرزينة اختراع الروايات
على البدهة !

عبد الحميد محمدى

مَا خَبَّرْتَهَا؟ ...

أَقْصُوصُ صَدَةِ مُصَرِّتِ
بِقَلَمِ الْآنِسَةِ جَمِيلَةِ الْعَدْلِي

متقطع محموم ...
وشكت الممرضة في أمره ...
واستطاعت أن تفهم بحكم غريزتها
أن أمام ناظره خيال امرأة ، قد
تكون سبب هذه الصدمة أو سبب
هذه الحمى ... الله يعلم
وانتهزت فرصة غفوة العميقة
فانسلت خفية إلى غرفته تبحث

في محفظته ... حتى رأت بين أوراقه رسالة موجزة
من فتاة تقول فيها :
أخي الفاضل

لا أحب أن أكون أ كذوبة هائلة في تاريخ
حياتك ، إذن يجب أن نسدل الستار

واستمع إلى بعقلك ولعلك لا تكون من الظالمين .
لقد تعارفنا على غير ارتقاب ، وتحايينا لغير غاية ...
ولعلك تذكر يوم لقيتني في منزل الخالة وقدمني إليك
زوجها ... وكان ذلك في عيد ميلاد ابنته ...
وانتهزت فرصة خلو المكان إلا منا فحدثني عن
نفسك في صراحة مطلقة أ كبرت من أجلها ...
وصورت إلى في صراحة ما تعانيه من حرمان وآلام
من جراء يتمك ... ولم تكذب فصل إلى هذا الحديث
المحزن بأكثر في هدوء حتى أحسست أن دموعك
خرجت من قلبك لتسكب في قلبي ، ولذا أؤكد لك
أن دموعك وحدها هي التي جذبتني ... ثم عرجت
في حديثك على حياتك الخاصة فأفهممتني أنك تلهو
بالحسان وتقضي طوال الليل خارج الدار مع جمهرة
من الشبان وعلقت على ذلك بأنك مضطر إلى هذا
الفساد لخلو قلبك من الحب ولعدم توفيقك إلى امرأة
تحميك وترعاك ...

صعق الرجل عند ما بلغه خبر خطبتها وكان على
يقين من أنها لن تزوج غيره ، لأنها أحبته بدليل
أنها بادلت له الحب وارتضت به زوجاً ، والآن ما عساه
يفعل ... هل ينتقم ؟ أم يتناساها ويحب غيرها ؟
أم يسعى إليها علها تعود إليه ... ؟

وارتمى الرجل على مقعده مهموماً مفكراً يتخيلها
بجمالها الرائع وروحها الساحرة وعواطفها الطاغية
وعقلها النابه ...

استعاد كل ماضيه وما يحمله من ذكرى جاحدة ،
فأحس أن خسارته بفقدانها لن تموض أبداً ...
أبداً ... وأنه لن يعثر على فتاة تماثلها عفة ورقة
وسحراً وذكاء ...

فما أعظم المصائب !
بكي فلم يرفه الدمع عنه !

وخرج إلى الشارع يتمشى كالشارد فاصطدم
بسيارة حمل على أثرها إلى المستشفى ... وظن الأطباء
أن الحمى التي انتابته من أثر الصدمة . ولو أنهم كانوا
بخفايا القلوب عالمين لعرفوا موضع الداء الدفين ،
ولأدركوا أن الحمى في قلبه ، وصداها في غه !

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...
لم يكن لديه سوى ترديد هذه الألفاظ بصوت

واقترعنا على أمل أن نكون كصديقين أو أخوين،
ولم أر غضاظة في قبول صداقتك ما دامت تدفع عنك
الضر والشرك كما رُعمت ...

تراسلنا وتقابلنا وحاولت جهدى أن آخذ من
رسائلي أداة لإصلاحك وأن أسيطر على عواطفك
كلما قابلتك لأوجهك إلى الطريق المستقيم ...
فلم أدع صغيرة ولا كبيرة تدفعك في طريق المجد
إلا لفت نظرك إليها ...

أغريتك بكل ما في قلبي من رحمة وبكل ما في
عقلي من ذكاء لا تشكك من البؤرة الدنسة وأرفعك
من الأوحال إلى سماء الطهر والكمال ...
فكنت تكتب إلى بأسلوب رائع لتوهمني أنك
تسير في الطريق المرجو في غير هوادة ... وأنت على
خير ما أتمنى لك من خير وفضيلة

وبرغم تصرفاتك الخاطئة التي كنت أكتشفها
بالمصادفة ... كنت أتناصح وأقول لنفسى من العسير
أن يتحرر من قيود المجتمع دفعة واحدة ...

وفي الواقع يا أخى أنت بارع في تلفيق الأكاذيب ..
بدرجة أنني كنت أثق فيك مع أن البراهين تؤكد
بسوء تصرفك .. والكذب عندك غريزة. أوه ..!
لطالما ضايقتك كذبتك وأرقني وأسلمني إلى أمر الآلام
وأظلم الأحلام ... ورغم ذلك كنت أريد أن أجرب
قدرتي فيك ...

فكنت أجهل وأتسامح علني أنجح في تأدية
مهمتي ...

ولكن عبثاً ...
كيف أنجح وأنت بعيد عني تعيش هناك
كما يحلو لك ... مطمئناً إلى تسامحي وحيي ...
في الواقع لم أحبك ...

ولكننى اتخذت الحب وسيلة إلى إصلاحك
لأنك أفهمتنى أنك لا تردع عن الإثم إلا إذا أحبتك
امرأة ...

ولم أمقتك بل كنت أشفق على شبابك الذى
يذويه الفجور وكنت أتمنى أن أخلق منك الرجل
الكامل ، ثم أدع الطبيعة بمعد ذلك تدنبنى منك
أو تقصينى عنك ...

نوهت لى عن الزواج فلم أمانع ... لا حبا فيه
أو فيك ... بل رغبة في أن أصل بك إلى مستوى
أرفع من مستوى الرجال ... ضحيت في سبيلك بمالى
ووقتي وجعلتك محور تفكيرى وحسنى ... على أمل
أن تصلح ولكنك كنت تقول ولا تفعل ... كنت
تصارحنى بأنك ستعمل كذا وكذا ... وقد عملت
كذا وكذا ... فإذا اكتشفت الحقيقة واستوضحت
الأمر ... ظهر كذبتك ونفاقك ...

رباه ... لشدة ما عذبنى هذا وكنت أصبر راجية
أن تكون من المهتدين ...

كانت رسائلي وحدها كافية لإصلاحك وكان
حنوى وعطفى كافيين لإشباعك ... ولكنك
في الواقع خلقت لغير الحب الأكيد - صدقنى -
لم يكن في نيتي أن أحب غيرك أو أتزوج سواك؛
إذ كنت أريد أن أشعر بالتيه الخالد، لأننى خلقت
رجلاً ... وعجيب أن يكون للعاطفة شيطان يحولها
من الفضيلة إلى الرذيلة ومن الأمل إلى اليأس ومن
الحب إلى الكراهية ...

وكان شيطان حبي ... كذبتك ... فطني عليه
وحوله إلى يأس مرير

ولطالما صارحتك بذلك وقلت لك إن الرجل الذى
يكذب مرة لا يصدق مرة. وأخشى أن تفقدنى بسبب
(٦)

هذا الكذب فحاذر ... فكنت تدافع في براعة
المحامين ولباقة السياسيين حتى أضطر للسكوت لاعن
إيمان وتسليم بل عن جد ورجاء ...
أخيراً ...

أجل أخيراً أيقنت أننا لو تزوجنا لا يمكن أن
تتفق أبداً ... أبداً ... وسنكون وصمة في جبين
التفاهم الروحي الأكيد - فأثرت أن أقف بجانبك
موقف الأخت البارة ترعاك من بعيد بقدر المستطاع
مرحبة بالخطيب الحبيب لما يئتنا من تفاهم وتآلف ...
وأحمد الله الذي وحد بين قلوبنا وروحينا ...

والذي أريده منك الآن ... أن تعود إلى رسائلي
وأن تستعيد ذكري كل ما قلته لترى أنني أخلصت
لك يوم ظننت أنك تصلح لأن تكون مثلي الأعلى ...
فلما واجهتني بحقيقتك تنبه وجداني ، فإذا بالحب
كظلك الذي تلاشي عند ما اختفيت عن نظري
في آخر لقاء ...

يا سيدي ... أو يا أخي إن شئت : الحب
كالبنيان تندك قوائم عرشه بالثقة ويزعزع الشك
وأخيراً يحطمه الكذب والبهتان

ونصيحتي إليك أن تحب المرأة صادقاً وتفهمها
صادقاً وتكشف لها عن مساوئك صادقاً ، ثم حاول
إصلاح نفسك صادقاً. إنها تدفع دمها ثمناً لهذا الصدق.
والشيطان يسخر منك عند ما يحلل لك الكذب
فحاذر ...
كوثر

فهمت المرضة كل شيء ... فأشفقت على الرجل
وفكرت ، أرى المرأة أخطأت ؟
وكانت المرضة ذكية فلم نشأ أن نحكم لها
أو عليها حتى تراها ...

ولكن كيف ؟
آه ... ها هو عنوانها في الرسالة ...
إذن فلتكتب إليها فالريض يحتضر ويدعوها ...
وظل المريض يهذي :
خائنة ... غادرة ... مجرمة ...
اندمل جرح الصدمة الطارئة ولم يندمل جرح
القلب الداي ...
حتى جاءته
مريض يحتضر يدعوها ؟ ... ولم تجد غضاضة
في عيادته .

وأفهمتها المرضة في حكمة ودهاء ... أنها بعثت
إليها رحمة به لأنه يهذي باسمها وقد فهمت من هذيانه
كل شيء .
فشكرتها الفتاة وولجت باب المريض في هدوء
ولطفة ... ونادته ...

فرفع بصره في بطاء ، وقد اربد وجهه فجأة ...
ثم غص طرفه ملياً ، وأخيراً ابتسم في مرارة وقد
انطلق وجهه وغنم ... كوثر ...
قالت : ساء في مصابك. لكن المرضة طمأنني
فالحمد لله

قال : وهل تهتمك حياتي ... خير لي أن أموت
قالت : كيف لا تهمني حياتك وأنا أرجو لك
كل خير وتوفيق ...

وهنا أحس الرجل بانتعاش غريب ففسى ما كان
يشغله من الهواجس القائمة ، واعتدل في مقعده ثم
اقترب منها ليمتزج أنفاسها العبقية بأنفاسه الحرة
قائلاً : أوتدكرين يا كوثر ما مر من حلو الأيام ...
فلم تشأ أن تغير مجرى خياله وقالت : طبعاً أذكر
فابتسم وأعقب : أتدكرين يوم اجتمعنا في غفلة

القدر تحت خيلة في إحدى الحداثق النائية وكنا
أشبه بمصفورين اليقين ضمهما الوكر في حمى الصفاء،
وأحسست يومئذ رغم حاجز العفة الذى كنت تحرصين
دائماً على إقامته بيننا أننا التحفنا بغطاء واحد -
لا أذكر كيف كان - أكانت ماديتنا هى التى
تغطى روحينا، أم نور الحب هو الذى كان يكتسفا حتى
بتنا كأننا نور من نوره. لقد كنت أجهل موضعك
منى وموضعى منك ... ولما سألتك : أين أنا منك ؟
أجبتنى : وأين أنا منك ؟

ولم يكن كلامنا بهذه الحروف المعهودة بل كان
بلغة الصمت الجليلة التى تنساب من قلب إلى قلب
كما ينساب النور فى الأفق . ولما قلت لك : يخيل
إلى لو أننى جردت نفسى من العفة واعتصرتك
لما ارتويت أبداً ... أبداً ...

فأشحت بوجهك عنى حياء وابتعدت عنى ثم
قلت : لأنك بقدر ما تسلب منى أسلب منك !
فأنهمرت دموعى من فرط النشوة وقلت : كل
يوم يزداد حسنك كأن فى معينك كنزا من الجاذبية
لا يفنى

فلت برأسك دلالاً قائلة : من عند ربى . ولما
عاودنى السهوم وأنت حيالى وبدا على وجهى ظلال
أحلامى ...

أهبت بى إلى مكائلك ... ولكنى كنت متفانيا
فى نفسك سارحا فى جنبات قلبك

وظل قلبى يخفق ، ونظرك ينطق
وما زلت أذكر نشيدك الذى كنت أتغنى به
دائماً كأنه تعويذتى الخالدة :

أخشى عليك من العباب يطغى عليك بلا حساب

يا قرّة العينين بل يا منسية القلب المذاب
تفديك روحى يا حبيبى فى حضور أو غياب
ما العيش بعدك فى الحياة سوى بريق من سراب
خذنى إليك ونجنى مما أعانى من عذاب
أنا إن أعش فلاجل أن ألقاك عنوان الشباب
أنا إن أعش فلاجل أن أدنيك من كل الرغاب
أمودى عند المساء وتاركى لضئى ارتقاب
أخطبى ؟ مهلاً لعل أن أعود إلى صوابى !
يا مهجتي الحررى حنا نك قدسئمت من العتاب
ماذا على إذا فتحت له لدى الترحيب بابى
ووهبته ما شاء من عطى وحبى المستطاب
يا ويح نفسى، هل أطيق غيابه بعد اقتراب ؟
أطيق وهو هو المضي بخاطرى مثل الشهاب ؟
يا من هدته عواطفى فى كل مختلف الشعاب
أبدأ أحن إليك يا رضى الأمانى العذاب
وهنا أشرح ملياً ثم عاد يتأملها فى لهفة بادية
قائلاً : غنى يا كوثر ... أعيدى على مسمى هذا
النشيد ... إن كلامك أعذب من أغاريد البلابل ...
غنى غنى ...

فاغتصبت بسمة وقالت بصوت تشيع فيه المرارة:
— عند ما تعاودك العافية كاملة أسممك أجل
الأنشيد ...

فانتصب واقفاً قائلاً :

— أنا بنحير ... انظرى ... هاأذا أتحرك ...
وأسير أيضاً ... فى مقدورى أن أخرج الآن ...
ولا بد أن أخرج معك ... لن أتركك تخرجين وحدك
فأشفقت عليه لأن آثار الحى كانت ما زالت
ظاهرة عليه وقالت :

— لأعودك في الغداة وأصحبك إلى الخارج ...

والآن يجب أن أخرج ...

وحاول أن يستمهلها فاعتذرت وانصرفت وتركته واجماً ساكتاً لا يبدى حراكاً كالطفل الصغير الذي تتركه أمه فيعجز عن اللحاق بها أو استبقائها بجانبه

صرت الأيام وهي تعود ... حتى عوفي وترك المستشفى ... وطلب إليها أن تزوره في منزله فوعده وانتظر في اليعاد فلم تحضر، وصرت الأيام تباعاً ولم تعد ...

وعثر الرجل على الرسالة وكان نسيها، أو لعل الحى هي التي أنسته إياها فقرأها ...

تذكر كل شيء ... فتأرجح جنونه واشتعل وجدانه مفكراً فيما يصح أن يعمل . حتى صبح عزمه على أن يبعث بجميع رسائلها إلى خطيبها، وهي مجموعة موفورة من الحب المشوب المتأجج، وفيها ميثاقها على ألا تتخذ منه بديلاً ...

قد يتخيل المحب أن في مقدوره أن يصفح ويغفر وأن ينسى الإثم والبهتان

وقد يسهل ذلك على المحب العاقل النبيل إلى حد ما ...

وقد يعتقد المحب أن حبيبه كان يحب من قبل غيره ... ولكنه لا يساير هذا الاعتقاد إذ ليس لديه ما يثبت ... حتى إذا حدث ما يؤكد هذا الزعم حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فإما هجر لا لقاء بعده، أو شك يظل يعذب صاحبه على طول الأيام ...

وخطيب الفتاة كان رزيناً حكيماً ولكنه إنسان

له غرائز البشر وخصائص الحب ...

لطالما قالت له الفتاة إنها عرفت كثيراً وجاملت بعض المحبين، وسارت أحياناً في طريق الحب إذا تراءى لها عفا بريئاً حتى إذا تكشف لها عن خدعة تنحت عنه وابتعدت ... وكان يستمع إليها ويسامرها دون أى عبث أو ملام ...

ولكنه اليوم بعد أن تسلم رسائلها ساوره الشك واعتراه الرينة؛ وفاجأها ثائراً لائماً وكأنها تبدلت من ملائكتيها إلى شيطان رجيم أمام ناظره فاهتاج وراح يرميها بأبشع التهم وهي ساكنة هادئة باسمه ...

حتى إذا انتهى قالت له : كلانا خدع في الآخر يا سيدي ... أنت ظننتني ملكاً كريماً فأحببتني وأنا ظننتك المثل الأعلى للرجولة الكاملة فأحببتك . والآن ... ليس ثمة ما يدعو للغضب ما دمنا في أول الطريق ... فليبحث كل منا عن شريكه ...

فاغتاض وقاض شكه وقال : آه في الطريق أكثر من رجل ينتظرك لأنك رميت شبكة الخداع على كثيرين ... أصدقيني هل أحببت هذا الرجل ؟

قالت : أجل ، كما أحببتك قبل اليوم . فدهش الرجل لجرأتها، ولكنه ظن أنها تهاجمه فعاد يقول : ولماذا لم تزوجيه ؟ قالت : إذا خاب المحب انتصر العقل بما يكتسبه من التجارب والأهوال ... أما الزواج فحياته موت لا حياة بعده مهما تجدد بظل طابع الخيبة على جبين المرأة مدى السنين ... وصمتت ملياً ثم قالت : يا سيدي إن الرجل إذا أحب صدقاً يفقر للبني إثمها ... وأنت كما زعمت تحبني ... فكيف تريد أن تحاسبني على تصرف لا تدري كيف فعلته ولماذا ؟

إذا صعب عليك أن تغفر ذنبي في ماضى فقد
صعب عليك أن تغفر ذنوبي في حاضرى والإنسان
لا يسلم من الخطأ ... إذن ابحت لك عن فتاة لم تتعرف
على أى رجل ، وأنصحك أن تأخذ طفلة لم تبلغ
الرابعة من عمرها ... وتركته وانصرفت
يا للشيطان ... إنه يلعب على مسرح العقول
بمهارة ...

خرج الرجل وانقطع عنها فوطنت النفس على
أن ترفضه وتسلوه ...

وحاول الرجل أن يسلوها فلم يستطع لأن ثقته
بطهرها من اختباراته كانت أشد تأثيراً في نفسه
من شكه فيها ، ولكن يعاوده من حين إلى حين وقع
رسائلها في نفسه فيأرق ويتألم ، وظل كذلك ...
حتى ذلك اليوم الذي بعثت فيه أخته إلى كوثر رسالة
تدعوها لزيارتها لأمر هام ...

قذهبت كوثر ، وفي نيتها أن تضع حداً للعلاقة
بينها وبين أخيها وتعلن له رفض يده ...

وهناك قابلتها أخته ، ودخل الخادم يطلب الأخت
لمقابلة الوالد ... فخرجت وغابت ... ثم دخل الرجل ...
دخل الرجل الحبيب الأول ... مفاجأة لم تكن
متأهبة لها . كيف حضر إلى هنا . ولماذا ؟

لم يترك لها الرجل فرصة لمخاطبته إذ قال :
كوثر ... يدهشك أن ألقاك في منزل خطيبك ،
وبعد أن عرف علاقتنا القديمة ... ولكنه نبيل
كريم كما يدل تصرفه ... إذ لم يشأ أن يحطم قلبي
فأباح لي لقياك هنا لنجدد العهد وقد تنازل عنك لي
فضحكت الفتاة متهمكة وقالت : ها ها ها .
أترانى سلعة وأنا لا أدري !

لم تعد لي صلة بك أوبه ...
فقاطعهما : أنسيت حبي يا كوثر ... لقد أخيبتنى
حبا لم تحبه امرأة لرجل وكذلك أخيبتك أنا ...
فمادت تضحك ، ثم قالت : لقد أحبت طيفاً
مجهولاً فيك ... أما أنت فلم أحبك ... أحبت
الإنسان الذى أنشده فيك وله كنت أكتب وعليه
أحنو ؛ فلما وجدت ذاتك غير قادرة على حفظ الروح
الذى أهفوا إليه تنحيت عنك باحثة عن مقر ذاك الروح
لقد كنت تحاول أن تخدعنى بالحب لتباهى بحبي
تخدعتك بالحب أيضاً لأعرف حقيقتك ؛ فلما
عرفتها ارتفعت إلى سمائي ... ولعلك لاحظت فيما
مضى أنني كنت أحاول دائماً أن أرفعك إلى الأفق
الذى أعيش فيه موطنه النفس على القناعة بك
لو استطعت الصعود إلى ... فلما فشلت وعجزت عن
السمو بنفسك إلى مستواي ... تركتك في الأحوال
وحدك وحلفت في عالى النورانى هناك ... فما ذنبي
أريد أن أهبط إلى الأرض لأعيش معك لأنكون
محبة وفية بينا في عمق هذه المحنة الذلة والهوان ...
لماذا لم ترتفع بإنسانيتك إلى سمائي مادمت تهوانى
كما كنت ترغم ...

إن الرجل الذى يعجز عن السمو بنفسه في سبيل
الحب لا يقدر قيمة الحب ولم يكن محباً أبداً ...
أفهمت ما ذنبي إذا استغلت الحب في سبيل الإصلاح
فإذا عمّر الخراب به أجمل به من حب ، وإن عجز
عن البلوغ بصاحبه إلى الغاية المثلى فليذهب في ذمة
التاريخ الضائع ...

ما ذنبي إذا ابتسمت ساخرة من عفتك في التفرير
بي ظناً منك أن كل الفتيات أسيرات الكلام المعسول
والحب المصطنع !

لأى غاية ولن أحبك أيضاً لغاية ... بل أحبتك
لأصلحك ...

إذن لم أكن أنا التي أحبتك ... إنما هو الحب
الذي سخرني لهديك ... فكفرت به

قال : سأكون كما تشائين ... صالحاً تقياً
مؤمناً محباً وفياً ... إن قبلتني زوجاً ؛ وإن أبيت
فلأمت ، ولتنزل عليك نعمة الله ...

فقلت : الله يعلم كيف أضحي في سبيل الإيمان به
فحسبى ...

وهنا دخل خطيبها ملتفتاً إلى الرجل مصوباً إليه
نظرة شزراء ، ثم قال : كفى يا صاحبي . لقد فهمت كل
شيء ... إنها ملك .

مميلة العطار

« النصورة »

المجموعة الأولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
المصر لموسيه ، والأذينة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومنقولة .

الثنى ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

ما ذنبى إذا تغيت بمذب النشيد مناجية الإلف
المجهول ، فتظنك المعنى بذاك القصيد ؟!

ما ذنبى إذا صعب عليك تفهم الحقيقة لتدرك
معنى الحب ؟!

وما ذنبى إذا عجزت عن إصلاح نفسك لتدعيم
حياتك كما ترجو ...

فقاطعها : أنت الجانية . كان في مقدورك إصلاحى
ورعايتى ... لقد تركتني وسط أعاصير الحياة الهوجاء
فقلت : أ كنت تريد أن أحبس نفسى في دارك
لأرعاك ...

فقال : كنت أريد أن أتزوجك ...

فضحكت متهمكة ثم أعقبت : هيه ... آه ...
كان يجب أن أتقدم إليك لأعقد عليك ... أليس
كذلك ؟! ... معذرة يا سيدى ... كان يجب أن
أفعل ذلك ...

فقال : لقد لوحث لك كثيراً فكنت تماطلين
فأجابته جادة : اسمع . الرجل الذى يريد المرأة
ويتمناها لا يسألها رأيها ، ولا يستشيرها ماذا يفعل
لنيلها . إنه يقتحم الطريق الشائك في سبيل الوصول
إليها ، بل يختطفها من بين ذراعى القدر إن تحدها ،
أتفهم ؟

أما هذه التعاويذ الشيطانية التي يلجأ إليها
الرجل ليخدر بها أعصاب المرأة ليطيل من عمر الحب
لينعم ويتسلى فلا أجيزها ولا أفهمها

أنت تعرف جيداً أنني دفعت الثمن غالياً من
عواطفى لإيقاظك ... ولكنك أبيت إلا أن تعيش
في الظلام فما ذنبى ...

ولقد أكدت لك أكثر من مرة أنني لم أحبك

فقدت ذلك مرة

عن الانجليز
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

يصدق فيهما وأجاب : « ذلك
لأنى لا أثق بأنى أستطيع أن
أفعل شيئاً يسرك »

ثم قال بصوت منخفض :
« ولا أثق بأنك تحبيننى ،
ولذلك أفضل الظهور معك
فى مثل هذا المكان على الظهور
معك فى الأماكن المزدحمة »

فتهدت الفتاة تهدأ يدل على الحزن وقالت :
« إننى أتمنى من أعماق قلبى أن أحبك فأنت عزيز
عندى ، ولكن أعطى مهلة فربما ... »
فقاطعها بقوله : « إننى لا أستعجلك ، وإننى
مستعد لانتظارك سنوات »

ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال : « أنا لست
راغباً فى الانتظار سنوات ولكن إذا لم يكن بد
من ذلك فساأنتظر »

قالت الفتاة : « لقد ناقشت نفسى كثيراً فى هذا
الأمـر ولا أرى من حق أحد أن يطالب الآخر
بالانتظار ، على أننى أجـد نفسى أفـعل ذلك وهكذا
أكثر النساء »

وعادت الفتاة إلى ابتسامتها الحزينة فأجابها
فى رقة : « ولكننى راغب فى الانتظار ، وأنا مكثف
بما ترين إعطاءه لى ، وكل ما أتمناه أن تنسى بطرس
والزمن كفيل ... »

فهزت الفتاة رأسها وعض الفتى شفته ثم قال :
« وهل ترين أنه من انصاف نفسك أن تستمرى
فى طريق أنت تعرفين أنه لا أمل فيه ؟ إنه لم يعد
شك فى أنه قد مات ، وأنت قد نزعـت خاتم الخطبة ،

« ما أغرب هذا المكان يا جيمى ؟ »

ونظرت الفتاة إلى جوانب المطعم نظرة استخفاف
فقال لها صاحبها : « إياك أن يسمعك فرانسو وأنت
تقولين ذلك فيطلب إليك الخروج من المطعم »

وكان فرانسو هو رئيس الخدم وقد وقف من هوأ
بين الجالسين كأنه يعتقد أنه ليس فى لوندرا مطعم
آخر غير مطعمه ، ومشى نحو هذين الصاحبين وقال
بلهجة انكليزية مشوبة بلهجة فرنسية : « من زمن
لم تأت أيها السيد ، وأنت يا آنسة هذه أول مرة
تزورين فيها المطعم « نى اسباه » ؟ »

فقالت الفتاة وهى تبسم ابتسامة رقيقة : « ولكن
أرجو ألا تكون آخر مرة »

قال الندل : « إن الدين يزورون هذا المطعم
مرة يمودون دائماً إليه لأنهم يعرفون مزاياه »

ضحكت جيمى وطلب الشاب الذى معها أصناف
الطعام فذهب فرانسو ، وقال الشاب لصاحبه :
« أظنك تضايقت من هذا المطعم ولكنى أحبه
وأفضله على كثير من المطاعم »

قالت جيمى : « ولماذا تظننى أتضايق منه ؟ »
ثم نزعـت قفازيها فبدا تحتها كفان جيلتان أخذ

أليس الأولى بالإنسان أن يواجه الحقائق ؟
ضحكت الفتاة ضحكة خفيفة ثم قالت بصوت يشبه
البكاء : « نعم ذلك هو الأولى بالطبع ، ولكن
ألا تستطيع أن تقنع بالصدقة في البداية يا جورج ؟ »
فقال : « نعم أستطيع أن أقنع بها »
قالت : « إنني أشعر بأنني فقدت جزءاً من نفسي
وأظنني عاجزة عن أن أحب مرة أخرى أى رجل
وأنا أميل إليك يا جورج ، ولكنني لا أعرف هل
أحبك كما كنت أحب بطرس ؟ »

فقال : « أنا أعرف أن ذلك هو الذى سيكون
ولهذا أخاطر »

قالت جيمى : « أنت تستحق كل شيء يا جورج
ولن أقاوم نفسي في حبك إذا استطعت »

فقال : « إن أقل ما تهينته لى أحب من أكثر
ما تهيه امرأة أخرى أيتها العزيزة . ولست أريد
استمجالك ولكن ها هو الفندق فوق هذا المطعم
فهل تقولين نعم ؟ إنك لن تنسى هذه الليلة وأقسم
إنك لن تندى عليها »

فسكنت الفتاة لحظة ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة
وقالت : « نعم » . فقال : « هل أنت راغبة يا جيمى ؟ »
فهزت الفتاة رأسها وقالت : « إنني أعنى ما أقول »

بعد ساعتين عادت جيمى إلى غرفتها وأغلقت
الباب ، وكانت لا تزال ترن في أذنها قبلاته وهمساته
ووقفت لحظة بجانب الموقد وهي تبسم ابتسامة حزن
ثم ذهبت إلى الحائط فوقفت أمام صورة ضابط في
فرقة الحرس ثم جثت أمام هذه الصورة خمس دقائق
خالت في أثناءها إن الصورة تفتح شفتيها وتشكم ،
فقالت : « إنه صديقك يا بطرس فأرجو أن تسامحني

أستحلفك بالحب أن تسامحني يا بطرس »
وخالت أن الصورة تبسم ابتسامة رفيق ثم مدت
يدها إلى المنضدة فتناولت خاتم الخطبة الذى أهدها
إليها بطرس فقبلته وهي تبكي
وقضى جورج شهرين وهو سعيد ولم يبق غير
أسبوعين على زواجه من جيمى . حينما حدث هذا
الحادث الفجائى الذى لا يكاد يحتمل التصديق فوجد
أمامه بطرس

وكان اسم بطرس قد نشر منذ ثلاثة أعوام في
قوائم المفقودين في الحرب . واعتقد الجميع أنه مات
لا تقطاع أخباره طول هذه المدة

وأحس جورج بدوار شديد ثم مشى إلى بطرس
وقال بصوت يهدج : « أين كنت يا عزيزى بطرس
وما الذى تفعله هنا ؟ »

وقبل أن يجيب بطرس على هذا السؤال لاحظ
جورج أن بجانب بطرس امرأة من نساء النور
الفجريات فدهش وأعاد سؤاله : « ما الذى تفعله
هنا يا بطرس وما الذى جاء بك ؟ »

وكانت الفجرية وبطرس يحملان بعض الألبسة
التي تلبس بها قبائل النور في المدن الكبرى . وقال
بطرس : « خفض من صوتك حتى لا يسمعك
البوليس »

وقالت الفتاة : « إنه لا يريد أن يُعلم رئيسه
السابق في الجيش بأنه عاد إلى إنكلترا »
قال جورج مخاطباً بطرس : « ولكن لماذا لم
تخبر أصدقاءك بمودتك ؟ »

فقالت الفجرية : « إنه لا أصدقاء له غيرى »
قال جورج في نفسه : « إذا لم يكن الأمر غير
مفهوم ألبتة فلا بد أن تكون قصة بطرس إنه نجح

من الحرب بأعجوبة وإنه فقد ذاكرته فنتسى كل شيء يتعلق بالماضي

وقال مخاطباً بطرس : « ومن أى عهد تلمب هذه الألعاب الممنوعة ؟ » فقالت الفتاة بحدة : « هذا ليس من شأنك ولا علاقة لك به فإني أتولى شئونى »

لم يتردد جورج لحظة واحدة وكان صوت خفى يهمس فى نفسه قائلاً : « لا تكن أحمق وتجاهله فإن جيمى لن تعلم شيئاً عن أمره »

ثم قال : « لقد كان الأمر غلطة منى وقد حسبته صديقاً لى كنت أظن أنه مات » فقال بطرس : « إننى لا أتذكرك ، إننى فقدت ذاكرتى وهذه ليزا تنظر فى شئونى »

قال جورج فى رقة : « أنا أعرف ذلك وألف شكر لك يا ليزا . ولكنى أدعوكما إلى زيارة منزلى وهذا عنوانه »

ثم كتب عنوان منزله فى ورقة وسلمها إلى الفتاة وهو يقول : « إن تركه على هذه الحالة مؤلم باليزا وأريد أن أعرضه على أحد الأطباء »

قال بطرس : « شكراً لك ولكنى لا أريد أن أرى طبيباً » . فقالت ليزا : « بل خير لك يا بطرس أن يراك طبيب ويظهر أن هذا الرجل رقيق القلب » ثم التفتت إلى جورج وقالت : « ألا تأخذه منى إذا تم شفاؤه ؟ »

قال جورج بلهجة جدية : « إننى أعدك بالأأحاول أخذه منك . ولكن عدينى أنك ستأتين إلى منزلى . إننى أطلب ذلك لمصلحته فقط »

نظرت ليزا إلى جورج نظرة بين الرجاء وبين الخوف وبعد تردد لحظة قالت : « إننى سأأتى به .

ولكنه لى ولا أريد أن تنسى ذلك » وتركهما جورج وهو يمشى متباطئاً وقد انطبعت فى مخيلته صورة ليزا وهى تنظر إلى بطرس نظرة الأم الرحيمة إلى ابنها المريض

ولم يزل يسير حتى وصل إلى حى بيكاديللى ، وليس يشغل ذهنه إلا خاطر واحد هو أن بطرس لا يزال على قيد الحياة . وكان يقول إنه من المستحيل على جيمى أن تعرف الحقيقة ما لم يخبرها بها ، وأن بطرس فى حالته هذه سعيد مع ليزا وليزا سعيدة معه . وأنه من المحتمل ألا تعود ذاكرته إليه . وما فائدتها ؟ ولماذا أكثر من الكلام مع ليزا ؟ ولماذا دعاها إلى منزله ؟ ولماذا لا يقول إن هذا الرجل ليس هو الذى كان يعرفه ، وإنه لا شأن له معه ؟ إن تغيير حالة بطرس تضر كثيرين ولا تفيد أحداً حتى ولا بطرس نفسه ...

وتقابل مع خطيبته جيمى فلاحظت عليه التغير الشديد فقال : إن حادثاً حدث فشغله عن كل شاغل وقال : « إذا رأيتنى أبكى فلا تعلق أهمية على ذلك » ثم استدرك فقال : « إنه لا يريد إخبارها » وتظاهر بالضحك وقال : « إنه لم يجد هدية مناسبة ليقدّمها فى العرس ، وأن هذا هو الذى يشغل خاطره »

سكتت جيمى وسكت جورج أيضاً . وكان شارد الذهن . ثم قال : « أريد منك شيئاً هو أن تعطينى صورة بطرس التى عندك »

فوقفت جيمى وهى مندهشة وكادت تنقطع أنفاسها وقالت : « ألهذا علاقة بهدية العرس ؟ »

فقال : « أريد شيئاً شبيهاً بذلك » قالت : « ما أعزك يا جورج ! ما أعزك ! لقد كنت أفكر فى ذلك منذ عدة شهور أننى سأعطيك الصورة »

ثم صعدت إلى غرفتها وأتت بالصورة وأوصته بالعناية بها . ثم وضعت يدها على كتفه وقالت : « لا أظن الآن أنك ستنتظر مكثفياً بالصدّاقة مدة طويلة » .

وفي اللحظة التالية كانت وحدها . وبعد لحظة كان جورج مع الطبيب ، وكان الطبيب يقول : « هل تقول إنه فقد ذاكرته تماماً ؟ » فأجابه : « إنه لم يعرفنى »

ثم نظر الطبيب إلى الصورة وقال : « أهذه صورته ؟ » فقال : « نعم » — وهل علم أهله ؟

— لم يعلم أحد إلى الآن غيرى وغيرك ، وقد حصلت على الصورة اليوم من جيمى دافترى قال صديقه الطبيب : « تعنى أنك حصلت عليها من خطيبتك ؟ »

فأجابه : « نعم وقد كانت خطيبة لبطرس وهى تظن أنه مات . وهذا هو السبب الوحيد الذى جعلها تقبل خطبتي »

ومضت فترة فى صمت وكلا الرجلين ينظر إلى الآخر . وقد كانت نظرة الطبيب مزيجاً من الدهشة والإعجاب ثم قال : « ولكن ما رأيك إذا نجحت العملية ؟ »

فقال جورج : « وهل تظن فى العالم هدية فى العالم أفضل من العريس الذى تحبه الفتاة ؟ »

قال الطبيب : « وإذا لم تنجح العملية ؟ » فقال جورج : « الله أعلم ! إننا لم نصل إلى تلك الغاية »

وفي هذه اللحظة دخل بطرس تقوده ليزا وسالت عن الرجل الجالس إلى جانب جورج فقال : هو الطبيب

فنظرت إليه نظرة خوف ، وكان أول ما فعله الطبيب أن عرض على بطرس صورته فى ثوبه الرسمى مشّت ليزا إلى جانب بطرس ووقفت معه أمام الصورة وكانت هى البادئة بالكلام فقالت بلمهجة الأم حين تخاطب ابنها المريض : « هذه هى صورتك يا بطرس . هل كنت ضابطاً بهذه الرتبة ؟ »

ثم بدت على وجهها علام الزهو وهى تنظر إلى حبيبها وإلى صورته وهو ضابط . وقال بطرس : « لست أتذكر ، وهذه الصورة تصيب رأسى بالصداع » وبدأ عليه النغم فغضبت ليزا وقالت : « وما فائدة ذلك ؟ هذه سخريّة بنا . إن هذه الصورة كادت تبجته فلماذا لا تتركه وشأنه ؟ » فقال : « لأنى أحاول أن أنبهه »

فوضعت المرأة ذراعها حول عنق بطرس وقال الطبيب : « إننى أريد أن أحصه فى غرفة أخرى وأن أكون معه على انفراد »

فصربت العجيزة رجلها الأرض وقالت مخاطبة جورج : « هل تريد أن تترك ليزا ؟ » قال جورج برفق : « إننا لا نريد أن نأخذه وقد وعدتك بذلك »

نظرت المرأة إليه نظرة ألم وقالت : « هل تقسم على ذلك ؟ » فلما قال إنه صادق فى وعده قالت : إنها ترى أموراً غريبة وأنها لا تفهم شيئاً مما تراه قال لها الطبيب : « كيف وجدته ؟ » فقالت

العجيزة : « وجدته ضالاً فى المجهل التى فيها خيام قبيلتنا ، وهو لا ينى شيئاً فأخذه وعينت به وعلمته ألعاب الفجر ، ونحن سعيدان معاً . وهو لا يتذكر أى شىء فى عهد مضى على مقابلتى إياه »

وقال جورج : « إن هذا طبيب من أكبر

يراقبها وهو مطرق فقالت : « إننى لا أريد شفقتك ولكنى أريد رَجُلِي »

ولما رآته يتأمل فى صورة الفتاة قالت « تذكر الخسارة التى تخسرها بسبب هذه الشفقة . وإنى طالما كنت أفكر من زمن طويل فى أن بطرس ليس بالرجل الذى أصلح له ، ولكننى ألفتة وألفنى » .

قال جورج : « وهل أنت حمدة الحظ يا ليزا ؟ » فقالت : « لقد كنت سعيدة ولكننى أخذت نصيبى من السعادة عاماً »

قال : « ما الذى تفعلين الآن ؟ » . فقالت : « ليس هذا شأنك ولكنه شأنى » . ثم خرجت مندفعة من الباب ...

وقال الطبيب بعد أن فحص بطرس إنه يعتقد أن العملية ستنتج تمام النجاح ، وأنه سيجريها فى صباح الغد ، وأرسل الخدم فأعادوا ليزا ، وطلب إليها الانتظار مع المريض ، وأن تجعله ينام ؛ فبقيت . وهى تنظر إلى المريض نظرة الإنسان إلى أعز ما يملكه

ونجحت العملية بمعاونة ليزا . وفى الصباح التالى وجد جورج ورقة كتب عليها : « لا تبحثوا عني — ليزا »

فلم يكن فى وسعه أن يفعل أى شئ لأنه لا يعرف عنوانها . ولو كان يعرفه لكتب إليها أن بطرس قد استرد ذاكرته ، ولكن عهداً واحداً قد اختفى من ذهنه تمام الاختفاء ؛ فهو لا يعرف أى شئ عن الأعوام الثلاثة الأخيرة . وكان من أوائل الأسئلة التى ألقاها كيف تسير الحرب الآن ؟ ونسى ليزا وعهداً

الطباء باليزا ، وهو يعتقد أن إجراء عملية جراحية له يشفيه من مرضه ، ويعيد إليه ذاكرته .

فقالت الفجرية : « وبذلك يعرف أنه كان ضابطاً » وقال جورج : « نعم ويتذكر حياته الماضية كلها . وبطرسك هذا يا ليزا هو السير بطرس سفوندون الذى كنا نحسبه مات فى الحرب »

ثم عرض عليها صورة فتاة وقال : « وقد كان مخطوباً إلى هذه السيدة » . فقالت الفجرية : « إنه لا ينظر إلى أى إنسان إذا رأى صاحبة هذه الصورة » قال جورج : « وهى تحبه جداً يا ليزا ، وهو أيضاً يحبها ، ولا أعرف أن فى العالم اثنين يحب أحدهما الآخر مثلها ومثله . وهذه الفتاة مخطوبة لى الآن » فقالت ليزا : « وإذا شق بطرس فإنها تتركك » قال بطرس : « نعم هذه هى الحقيقة كما يظهر لى الآن » .

ثم ضحكت الفجرية ضحكة أدل على الحزن من الدموع وقالت : « والعمل الذى تريده الآن يجعلنى ويجعلك من أتعس الناس »

فقالت جورج : « نعم يا ليزا وإنما أقول ذلك لتعلمى أن التضحية ليست من جانبك فقط بل أنا مشترك معك فيها . والطبيب يريد أن يبقى بطرس هنا هذه الليلة ليجرى له العملية غداً فانتظري معه إذا شئت »

نظرت ليزا إلى صورة جيمى وقالت : « وفى غد تأخذه هذه الفتاة . لماذا قابلتنا ولماذا تريد أن تأخذه منى ؟ إنه سعيد ، وإننى سعيدة . لقد قلت لك إنه سعيد منى .

وقد بكت الفجرية كما يبكي الطفل وظل جورج

قالت : « لست أفهم ماذا حدث ولا أعرف إلا أن بطرس قد عاد »

فقال جورج : « هذا يكفي ! أليس يكفي يا عزيزتي ؟ » ثم أمسك بيدها اليسرى وأخرج خاتم الخطبة الذي كان قد أهداه إليها وهو يقول : « لا تضي الخاتم في هذا الأصبع ولكن احتفظي به لديك تذكراً لي »

وهنا سمعت صوت بطرس فقالت : « ادخل فكلمه فهو ينادي » . فقال : « كلا يا عزيزتي فهو لا يريدني وسأخرج الآن من المنزل »

ثم خرج من منزله فلم يكن المحبان في حاجة إليه ولا إلى ليزا

ولكن كلاً أخذ نصيبه من السعادة عاماً كما قالت الفجيرة .

عبد اللطيف النشار

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جون الروماني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وقتها ١٥ قرشا

في هذه الأثناء استبطأت جيمي صاحبها جورج فجاءت لتزوره في منزله . ولكن لما وقع نظرها على النائم في السرير اصفر وجهها وتحركت شفتاها وصارت يداها تنقبضان وتنسضان . وصاحت : « لقد جننت ! لقد جننت ! إنني لا أصدق نظري فهل هذا هو بطرس يا جورج ؟ »

وسمعهما بطرس فالتفت وراها وقال : « أنت جيمي ! تعالى يا عزيزتي »

فصاحت صيحة فرح ، وجثت على ركبتها عند سريره . فأغلق جورج الباب وخرج من الغرفة . فجلس وخواطره سابحة في العالم المجهول . فلم ينبه إلا بجي ليزا . وقالت : « لقد رأيتها وهي تأتي »

قال جورج : « لقد استرجع ذاكرته يا ليزا ، ولكنه نسي الثلاثة الأعوام الأخيرة »

قالت وشفتاها ترتعشان : « هل نسيني ؟ » فقال : « نعم يا ليزا ، ونسي ألعاب الفجر ، ونسي كل شيء في هذا المهد . وهو يظن أنه لا يزال في الحرب »

قالت ليزا : « وهل هي معه الآن ؟ » . فقال : « نعم هي معه »

قالت : « الأفضل أن أذهب فلا أريد أن أراه معها ، إن ذلك يكسر قلبي ، لقد أخذت نصيبه منه عاماً ودعته بالأمس »

ثم ذهبت فراقبها من النافذة فراها تقف كلما خطت خطوتين وتلفت إلى المنزل

قالت جيمي لجورج : « أهذه هي هديتك ؟ » فأجابها وهو يتسم وعينه مغرورتان بالدموع : « نعم فهل أحببتها ؟ »

الشَّيْطَانُ

لِلْكَاتِبِ الْفَرَنْسِيِّ جِي دِي مَوْبَاسَّان
بِكَلِّ الْأَدَبِيِّ عَادِلِ الْجَمَالِ

وضرب الطبيب الأرض
بقدمه محققاً وهو يهتف :
— ما أنت إلا وحش
غليظ القلب ... ولكني
لا أسمح لك أن تفعل ذلك ...
هل فهمت ؟ إن كان عليك
حقاً أن تحصد حقل الحنطة
فلا أقل من استدعاء المرأة

« رابت » للعناية بأمك وأنا أصر على ذلك ...
أما إذا لم تفعل ما أشرت عليك به ... فسأتركك
تموت وحيداً كالكلب الأجير إذا ما افترسك
المرض بأنياه وحانت منيتك ... فتذكر ذلك
أي أحاسيس وجلة خالجت مخيلة أونوريه في تلك
اللحظة ؟ لقد كان يخاف الطبيب الوحيد في القرية ،
ولكنه إلى جانب ذلك كان يعبد المال ويقدسه ؛
وتردد قليلاً قبل أن يسأل الطبيب في النهاية قائلاً
بارتياب :

— وكم تطلب المرأة رابت أجراً للعناية بأمي ؟
وتمم الطبيب :

وأني لى أن أعلم .. إنها تتقاضى أجرها بالنسبة
للزمن الذى تعمل فيه ... فاعليك إلا أن تتفق
معه شخصياً ... وإني أنذرك أنني أريد أن أراها
هنا قبيل مرور ساعة واحدة

— حسن .. يمكنك أن تطمئن أيها الطبيب ..
هأنذا ذاهب إليها

وغادر الطبيب الغرفة بعد أن قال للشاب بلهجة
تهديدية متوعدة :

— مرة أخرى ... إننى لست هازلاً فى تحذيرى
إياك ...

كانت المرأة المعجوز مُسجاة على فراشها وهي
تعالج سكرات الموت، وترقب من بين أهدابها الزهقة
ابنها وهو منتصب أمام طبيب القرية وتحاول بكل
ما أوتيت من قوة وإحساس أن تبين ماهية الحمس
الذى كان يذور بينهما . كانت هادئة ساكنة رغم
ثقتها من أنها ستموت عن قريب ... ولكنها كانت
مستسلمة للواقع الملموس . . . فهي قد أكلت الثانية
والتسعين من عمرها ... وهذا يعنى أنها قد أتمت
رسالتها فى الحياة

وتخللت شمس يوليو النافذة ... وغمرت أشعتها
المتهبية أرض الغرفة وارتفع صوت الطبيب قائلاً بشدة :
— إنك لا تستطيع أن تترك أمك وحيدة
يا « أونوريه » وخصوصاً وهي فى مثل تلك الحالة
فهي قد تموت بين آونة وأخرى
وأجاب أونوريه بقلة اكتراث :

— مهما يكن الأمر ... يجب على أن أذهب
لحصاد الحنطة ... وها هو ذا الجو الملائم لذلك ...
ماذا تقولين فى ذلك يا أماء ؟

ورغم شعور المرأة برغبة الموت وهي تسرى
فى جسدها ... فقد أشارت إلى ابنها بالواقعة وهي
تحت تأثير جشعها وعبادتها للمال ..

يأتسون من التحسن كما تعلمين ... وأنا أشفق على النساء اللاتي يشتغلن بأنفسهن .. يالأي المسكينة .. لقد كانت تعمل كفتاة في العاشرة رغم بلوغها الثانية والتسعين .

وأجابت الأم رابت في اقتضاب وتحفظ :
— إنني أتقاضى سمرين .. فلا أغنياء .. فرنكان لليوم وثلاثة ليل ... أما للفقراء ... فقرنك واحد لليوم واثنان ليل ... وسأعملك كالفریق الثاني : واحد واثنان ...

وراح أونوريه يفكر .. إنه يعرف أمه تماماً .. ويعرف مقدار مقاومتها للمرض ... فربما عمرت أسبوعاً آخر رغم زعم الطبيب بموتها العاجل فأجاب المرأة قائلاً :

— كلا .. : إنني أريد أن أكاثلك إجمالاً لإتمام المهمة .. إنه نوع من المقامرة .. فلقد أكد الطبيب أنها ستموت حالاً ... فلو تم ذلك فسيكون ربحاً لك وخسارة لي . أما إن عمرت يوماً أو اثنين . فسيكون ذلك أقل ربحاً لك وأقل خسارة لي ..

ونظرت إليه الأم رابت بدهشة ... فلم يسبق لها أن عاملت محتضراً بمقد ... وترددت لحظة ... وجأة ... راودتها فكرة الخداع فأمرعت قائلة :

— لا يمكنني الموافقة على ذلك حتى أرى أمك — إذن ... هيا بنا لرؤيتها

وجفت المرأة يديها ثم تبعته صامتة طوال الطريق ، وحين سرورهم بالحقل المجاور للمنزل صرا بجموع الماشية وهي ترمي السكلاً الجاف ... فغمم أونوريه : « اطمئنوا ... فستأكلون القمح الجديد عن قريب » .

ولم تكن المرأة المعجوز قد ماتت بعد ... بل كانت مستلقية على ظهرها ، وقد امتدت يداها فوق

وحين انفرد الشاب بأمه التفت إليها قائلاً بلهجة المغلوب :

— إنني ذاهب لاستدعاء الأم « رابت » كما أصر على ذلك هذا الفر ... فكوني هادئة حتى أعود ، ودون أن ينتظر إجابتها غادر الغرفة

كانت الأم « رابت » امرأة عجوزا تشتغل بكي الملابس وتنظيفها ... وإلى جانب ذلك كانت تعمل كعمرة لقاء أجر معلوم ، وكانت وجهها مجعداً كتفاحة مُمعمة ... وهي حقود حسود ... ذات طبع حاد لا يمكن أن يمت للرحمة البشرية بصلة

وحين استقبلت أونوريه في منزلها ... كانت منهمكة في مزج بعض الألوان لصبغ ثياب بعض فتيات القرية فبادرها قائلاً :

— كيف حالك أيتها الأم رابت ؟ هل تسير الأمور في طريقها العادي ؟

والتفتت إليه المرأة مجيبة :

— نعم . نعم ... شكراً ... كيف حالك أنت ؟

— على أحسن حال ... إنها أي التي تشكو

— أمك ؟

— نعم أي

— وما خطبها ؟

— إنها في طريقها نحو الأبدية وهذا كل

ما هنا لك

— هل بلغ بها سوء الحال إلى ذلك الحد ؟

— لقد قال الطبيب إنها لن تعمر حتى الضحى

— إذاً لا بد أن تكون انتهت الآن ؟

وتلمع أونوريه قليلاً ... فلقد أراد أن يهون

المهمة التي جاء من أجلها ... فكانت المرأة أشد

منه دهاء .. فلم يجد بداً من مفاحتها مباشرة بقوله :

— كم تأخذين للعناية بأي حتى النهاية ؟ إننا

وعادت معه وهي تضطرب إلى الإسراع غير عابئة
بدهشة الرجال الذين كانوا ينظرون إليهما باستغراب،
ولا بنظرات النساء اللاتي كن يرسمن علامة الصليب
على صدورهن. وراهن أونوريه عن بعد... فتساءل
عن سبب إسراع القس، وما كان أسرع جاره
في الإجابة عليه قائلاً :

— إنه سيتلقى اعتراف أمك دون شك
ولم يساور أونوريه العجب لذلك... بل واصل
الحصاد في هدوء

وتلقى القس اعتراف مدام بوتيمبس، ثم غادر
المكان.. ومرة أخرى أصبحت المرأتان على انفراد،
وابتدأت الأم رابت تفقد صبرها وهي تعجب كيف
أن المرأة لم تمت حتى الآن

وشحب لون النهار... وازدادت برودة الجو.
وراحت فراشات الليل تحوم حول النافذة تحاول
التحرر من أسرها كروح المرأة المعجوز التي كانت
راقدة دون حراك وعيناها محمقتان وكأنها في انتظار
رؤية شبح الموت... بينما كانت أنفاسها تتدافع من
صدرها بطيئة ذات صغير خافت أليم.

وعاد أونوريه... فوجد أمه ما زالت على قيد
الحياة... فتساءل دهشاً عن كيفية إمكان ذلك...
ثم ودع الأم رابت بعد أن أوصاها أن تعود في تمام
الخامسة من صباح اليوم التالي... وفعلت عادت المرأة
قبل انبثاق الفجر وأسرت بسؤال أونوريه قائلة :

— ألم تمت أمك بعد ؟
وأجابها وهو يسير نحو الحقل :
— كلا وأظنها أحسن حالاً

وضاقت الأم « رابت » ذرعاً، فتوجهت توا
إلى حجرة المرأة المحتضرة فوجدتها كما كانت بالأمس
تماماً... هادئة ساكنة مفتوحة العينين، ويدها

غطاء الفراش الملون وقد بدا عليهما الضعف والهزال.
واتجهت الأم رابت نحو الفراش ثم حدثت في المرأة
المحتضرة وتحسست بنفسها ثم صرت بيدها على صدرها
وهي تصفي لصوت تنفسها الخافت الذي يشبه النزع،
وألقت عليها بضع أسئلة حتى تتأكد من ضعف
صوتها؛ ثم غادرت الغرفة بعد ذلك الامتحان يتبعها
أونوريه. كان رأيها الشخص أن المرأة لا يمكن
أن تستمر على قيد الحياة حتى المساء
وسألها أونوريه بلهفة :

— والآن ؟
وأجابته المرأة بنحيب :
— ستميش يومين وربما ثلاثة أيام.. وسأقاضي
منك ستة فرنكات..
وردد أونوريه قولها :

— ستة فرنكات... يا لله... ست فرنكات
كاملة؟؟ هل جئت أيتها المرأة؟؟ سوف لا تعيش
إلا خمس أو ست ساعات على الأكثر
واشتد الجدل بين الرجل والمرأة... وأصرت
المرأة على الرحيل... فتخيل أونوريه حنطته في انتظار
الحصاد، فلم يجد بداً من الخضوع وتتم مستسلماً :
— سأعطيك المبلغ على أن ينتهي الأمر كلية
مهما طال أمد.

وأوسع خطاه نحو الحقل... في حين رجعت
الأم رابت إلى حجرة المريضة وهمت قائلة لها :
— لا شك أنك تريدن الاعتراف يا مدام
بوتيمبس ؟

وأشارت مدام بوتيمبس برأسها إيجاباً...
فنهضت الأم رابت بسرور ونشاط وهي تهتف :
— يا إله السموات... سأذهب لإحضار القس
وأسرعت المرأة في طريقها نحو القس...

فبدت مضطربة حائرة ، لا يستقر رأسها على الوسادة في مكان واحد .

واختفت الأم رابت حينئذ وراء الستار السدل بجانب الفراش . وتناولت من صندوق بالقرب منها ملاءة بيضاء ألقتها فوق رأسها فحجبتها من قمة رأسها إلى أخمص القدم . ثم وضعت على رأسها قدرا بدت أرجلها الحديدية كثلاثة قرون مدية . ثم أمسكت بيدها مكنسة مستطيلة ، وما كادت نلتقى من كل ذلك حتى صعدت فوق مقعد مرتفع .

وجأة رفعت الستار وبدت بهيئتها أمام المريضة وصرت لحظة فزع ورعب ... وحاولت المرأة المسكينة بكل قواها أن تهرب من الشيطان ... شيطان الموت الرهيب ... ولكنها ما كادت تتحرك حتى خانتها قواها وارتعت على الفراش مرة أخرى وانتهى كل شيء .

وبكل هدوء ودعة ... أعادت الأم رابت بضاعتها إلى أما كتبها ... ثم أغلقت عيني المرأة الميتة ... الغنيتين الفرعتين المحدثتين في خوف وفزع ... ثم ركعت على ركبتيها جانب الفراش وابتدأت تصلى على الراحلة بحكم العادة

وحين عاد أونوريه من الحقل عند الغروب ... وجد الأم رابت راكعة على ركبتيها تصلى ... فتأكد أن روح أمه قد صعدت إلى باربيها وابتدأ يفكر .

لقد استمرت المرأة في خدمة أمه ثلاثة أيام وليلة ... أي أن أجرها كان يجب أن يكون خمس فرنكات ... ولكن ... يجب عليه الآن أن يدفع ستة وغنم قائلاً بنفصب :

— يا للحظ السيء ... لقد خسرت فرنكاً
عادل الجمان

ممدودتان فوق غطاء الفراش الملون ... يبدو عليهما الضعف والهزال؛ ورأت الأم رابت أن المرأة يمكن أن تظل هكذا يومين أو أربعة ... بل ربما عاشت أسبوعاً آخر ... فأحست بانقباض يسود نفسها ... وبمقد هائل نحو ذلك الذي خدعها بأمه التي لا تريد أن تموت. وظلت عيناها محدقتين بمدام بوتتمبس طيلة هذا الصباح حتى عاد أونوريه للغداء . ثم رجع إلى حقله لإكمال حصاد حنطته .

وكادت الأم رابت تفقد شعورها . فلقد خيل إليها أن كل دقيقة تمر إنما هي زمن مسروق منها ومن حقها أن تتقاضى عليه أجراً .

وأحست برغبة قوية . رغبة مجنونة في أن تضغط على ذلك العنق الهزيل فتخمد أنفاس المرأة التي كانت تسلبها وقتها المقدس ، ولكنها استطاعت حينئذ أن تتصور بشاعة جريمتها .

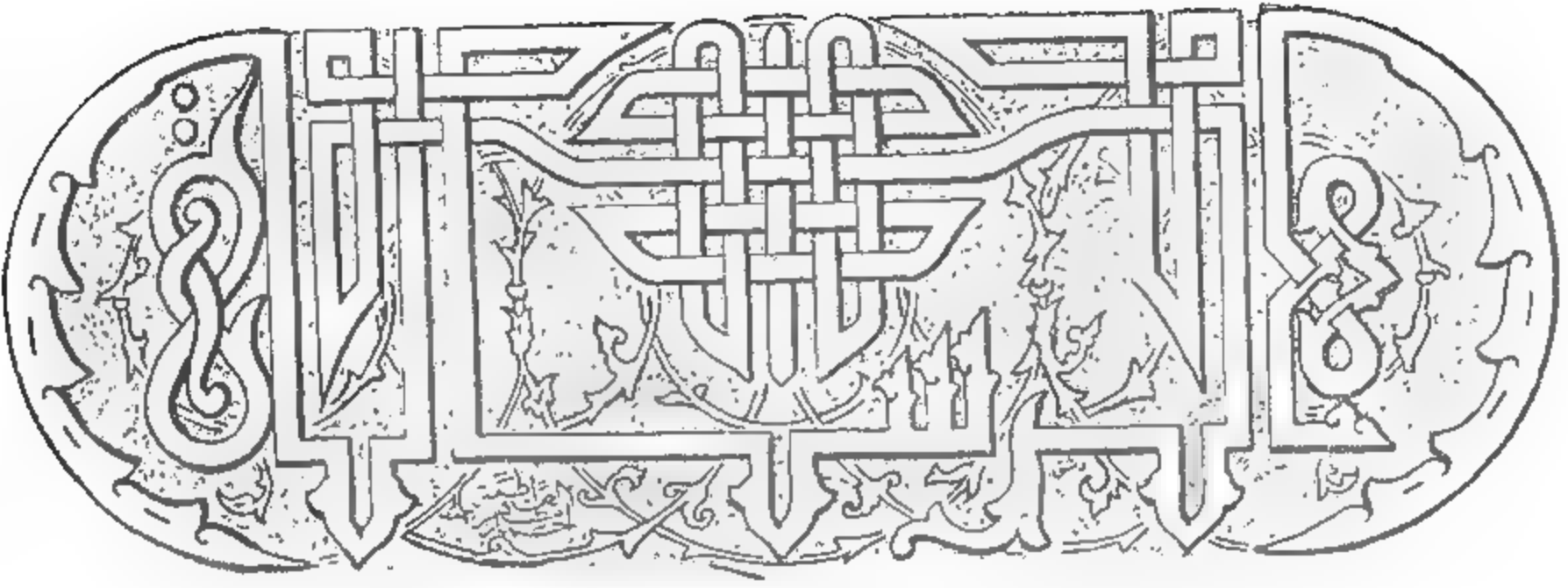
وراودتها فكرة أخرى .

واقتربت من المرأة المحتضرة ، وهجست تسألها — ألم ترى الشيطان بعد ؟

فأجابتها مدام بوتتمبس هامة :

— كلا

وابتدأت المريضة تاقى على مسامعها بعض القصص الخرافية المخيفة . فقالت : إن الشيطان يظهر عادة لهؤلاء الذين على وشك الموت قبل موتهم بدقائق معدودات ... ثم راحت تصف لها شكل الشيطان ، قادت أنه يحمل في يده محصداً كبيراً وعلى رأسه قدر مملوءة بسائل ينلى مسمر به ثلاث قرون . واستمرت في حديثها الرهيب ، فعددت لها أسماء من زعمت أن الشيطان قد ظهر لهم قبل موتهم : وفعل ذلك الحديث فعل السحر في مدام بوتتمبس .



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِي بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هَدْيِ وَبَصِيرَةِ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرَصِّدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الدُّسْتُرَانِ الْإِخْلَاقِيِّ سِتُونَ قُرْشًا ، وَالْخَارِجِيُّ مَا يَسَاوِي جُنَيْهًا مِصْرِيًّا ، وَلِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَصْمِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

نصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٧ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — ١٥ يونيو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٨

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة		
٥٦٢	إخبار زوجة	عن الانجليزية
٥٦٩	دموع قديمة	أقصصة مصرية
٥٩١	زوجة	أقصصة مصرية
٥٩٩	الأعمال والآمال	عن الانجليزية
٦٠٥	الورقة الثالثة عشرة	لكاتب القصص فيليبس أوبنيم
٦١١	نصيحة	عن مجلة تروستورى
		بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
		بقلم الأستاذ دريني خشبة ...
		بقلم الأتسة جيلة الملايلى ...
		بقلم الأستاذ عبد الطيف النشار
		بقلم الأديب عزت السيد ابراهيم
		بقلم السيد ناصر عزيز ...

على بقعة مرتفعة إلى الشمال ،
ولم يكن يفصله عن فناء السجن
غير « الطريق الكبير »
مات أبي وأنا في العشرين
من عمرى ، وبعد شهر من
موته تزوجت من جون
هارداواى وهو الحبيب الوحيد
الذى عرفته

الخبز والزوجة

(قصة سمعت جارية ما تسمى جنبه)

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

وكانت مزرعة أبي جون مجاورة لمزرعتنا ،
وقد اتفقنا على أن نعيش في بيتنا لأنه كان أكبر
من بيت جون وأتم استعداداً

ورغب أبو جون في أن يعيش معنا وكان
كما يصف نفسه « قد ولد مزارعاً » فأشرف بنفسه
على خدمة أرضنا وأرضه

وكان جون أشد ميلاً إلى الماشية منه إلى الأرض
وكذلك كان شائى ، لهذا ربط بيتنا نوع من الشركة
الطبيعية ، فكان جون يرعى القطيع الذى تركه
لأبي

وجرت أمورنا سهلة هنية مرضية إلى أن ساءت
الأقدار هابل كيليون إلى طريق حياتنا

وكانت الفتيات من صاحبائى يقرن لى إننى جميلة
وإننى لو عنت بمظهرى وبترتيب شعرى لأصبحت
في طليعة الجميلات ، على أن جمال وجهى لم يدخل
إلى نفسى شيئاً من الغرور الذى يعمه عادة مثل هذا
الإطراب

وكان جون أجمل رجل في المقاطعة ، طويل
القامة مستقيم الصدر قوى البنية ، أسود العينين ،
له شعر فاحم متماوج تحسده عليه جميع الفتيات .

أحقاً كانت هذه الزوجة غير ودية ؟ وهل
كانت أية امرأة أخرى تسلك غير سلوكها
إذا هي فوجئت بـ ... ؟

كنت في الثانية والعشرين من عمرى عند ما وقع
هذا الحادث . وكانت عشرون سنة من هذا العمر
قد انقضت مفعمة بكل أسباب السعادة . كنت محبة
لعيشتى ولكن فلسفة حياتى كانت بسيطة فالرجال
في نظرى إما خيرون وإما سيئون . والسيئون منهم
كانت تحبسهم عن العالم تلك السجون الغبراء القائمة
كذلك السجن الذى يقع في الوادى القريب منا .
والحياة عندي شيء يجب أن يعيشه الإنسان وينعم
به ، ولم تكن الأيام في نظرى من الطول بحيث
تتسع لجميع مباحج الحياة . وكانت لغبرى من الناس
أحزانهم ولكن أجنحة الحزن العابسة لم تهو ناحيتى
مرة من المرات ، ولقد كنت طليقة فرحة ككل
شيء صغير في مزرعة أبي

كان اسمى إلين دراكوت وكنا نعيش منذ
ولادتي في الولايات المتحدة على رمية حجر من سجن
الولاية . وكنا إذا ذكرنا السجن أشرنا إليه بأنه
البناء الواقع هناك في المنحدر ، لأن بيتنا كان قائماً

وكان من الناحية الخلقية مثله من الناحية الجسمية شديد الاستقامة ، وكان مبدؤه ألا يغضى نظره أمام أى مخلوق وألا يدين لإنسان

لقد وهبت جون هارداواى من الحب كل ما تستطيع زوجة صغيرة سليمة الجسم أن تهب الرجل الذى تحبه ، وكنت كذلك أحيطه بنوع من حب الأمومة الذى لم ينم به قط ، فقد مات أمه وأبى ونحن طفلان ، ويظهر أن هذا العامل المشترك كان من الروابط التى جمعت بين قلوبنا

ولقد بلغ من حبي جون أننى حين كنت أراه يكاد ينزلق فى طريق خطرة منقاداً لبعض الرجال ، الأكبر سنّاً والأكثر تجارباً ، لا أتردد فى أن أسارحه برأى ، ولكنه لم يكن يصنى إلى نصائحي . على أننى لم أكن بطبيبى لحوحة ولم أكن ميالة إلى مضايقة الناس بتدخل فى أمورهم لذلك كنت أكم حزنى فى نفسى عند ما كان يتركنى الليلة بعد الليلة ليذهب إلى المدينة مع هايل كيليون

وكنت بعض الأحيان أتوسل إليه أن يترك هايل وأن يبقى منى فى البيت إذ كنت وحيدة منقطعة ولكنه كان يجيبنى على ذلك بقوله :

— ولكنك لست وحيدة يا عزيزتى فإن أبى معك ولكن أباه كان يعمل كثيراً ، وكانت حاجته شديدة إلى التمتع بساعات نومه ، فلم يكن لى من عمل إلا أن أجلس فى الطابق الأول وحيدة أو أضعد إلى فراشى فأبكي حتى أنام ، ولم يكن كل ما يهمنى أننى وحيدة فقط ولكننى بدأت على مرور الأيام أشعر بالخوف من سلطان هايل على جون

وقال لى حى مرة وهو يحاول أن يواسينى :

— لا تخافى فليس هايل بالشرير الذى تتصورين

إنما هو عصبي الزاج عنيد ، فهو يميل إلى مخالطة الجماعات غير المستقيمة فى المدينة ، ويشرب قليلاً ولكنه لم يقع قط فى ورطة ، وقد راقبه أبوه مراقبة شديدة فى طفولته . لذلك قد أبطأ فى الاستفادة من تجارب الأيام ، ويميل إلى أن جون يشمر بشيء من الخيلاء فى أن يصطحبه رجل أكبر منه سنّاً مثل هايل ، فعليك يا ابنتى بالصبر ، ومتى وضعت مولودك فسيصبح جون رجلاً غير الذى ترين الآن

بعد هذا الحديث غالبت مخاوفى وشرعت أسلى نفسى بأشياء أخر خارج البيت

وكانت الدراسات الخارجية للكلية قد شاعت فى تلك الأيام فسجلت اسمى فى درس التاريخ الانجليزى ، ووجدت أعظم اللذة فى المذاكرة التى كانت تشغل ليالى طوالاً لولاها لكانت ليالى وحدة مملة مزعجة .

وقد ضحك جون من أن زوجته أصبحت طالبة تشمخ بأنفها ولكنى تركته فى تهكمه ومضيت فى درسى .

وفى يوم من الأيام سمح جون لهايل أن يأخذ قطيعاً من الماشية إلى السوق على غير إرادتى ، وكان كل شيء فى هذه الأيام ينتقل على قطرات سكة الحديد ، وكان من المألوف أن يصحب القطيع فى العربة أحد الرجال ، وقد أردت أن يذهب جون بنفسه على عادته ، ولكنه رفض أن يسمع أى معارضة فى ذهاب هايل بدلاً منه ، ولما عاد هايل نقدنى فى الحال نصيبى من ثمن القطيع ، وكنت لا أزال غاضبة ، فسلمته سكباً بالمبلغ دون أن أنطق بكلمة واحدة فقد لاحظت أنه سكران .

ولما ذهبت إلى البنك لإيداع المال علمت أن جون

إلى جانبه . واستعان جو بما يحمل من الخمر على إفاقة جون من غيبوبته . وكان جوادا المتعاركين قد اختفيا ، ولكن جو قال إنه سمع ركض الخيل في طريق المدينة في أثناء مجيئه منها

وعادوا بجون إلى المدينة ؛ ولم يكن في وسعه أن يخبرهم بأكثر من أن هایل غلبه من أول لكمة فأفقده الرشد . وأودع الشريف جون سجن المقاطعة حيث وجده أبوه في صباح اليوم التالي وقال لي حي عند ما عاد إلى البيت :

— يريد جون ألا تهتمى بما حدث فهم سيحققون معه التحقيق الابتدائي بعد ظهر اليوم وسينتهى كل شيء على خير

فلما بكيت صارخة في حال عصبية قال حي : — لا تخافى يا إلين واذا كرى أن في أحشائك جنينا يجب أن تفكرى فيه

ولاحظت في عيني الرجل نظرة غريبة فبذلت جهدا عنيفا لأخفف من ضربات قلبي الهائجة وصحت : — ولكن يا أبى إذا كان هایل ميتا وليس هناك شهود على ما حدث فماذا يكون موقف جون ؟ فقال الرجل في حزم :

— نعم يا إلين إني أرى المركز دقيقا حرجا ولكنى واثق من براءة ابني

وبدأت محاكمة جون في اليوم التالي للتحقيق الابتدائي ، ولقصر الوقت بين التحقيق والمحاكمة رفض طلب إطلاق سراحه بكفالة فبقى في السجن

ولما كانت حالتى الصحية لا تسمح لي بحضور المحاكمة فقد اكتفى بسماع شهادة قصيرة أدليت بها ولم أر جون بعد ذلك إلا عندما أحضره الشريف إلى ليودعنى الوداع الأخير ، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد

لم يودع نصيبه ، وكانت قد مضت عدة أيام بعد عودة هایل وتسديده ثمن القطيع ، فلما جلسنا إلى مائدة العشاء ذكرت ما علمت من البنك لجون وقلت له محذرة :

— يجب ألا تحمل هذا المبلغ الكبير من المال معك يا جون حيثما ذهبت فقد يهاجمك بعض الأشرار فأجاب جون في شيء من الكآبة :

— ليس عندي من المال ما أودعه ، فقد ادعى هایل أن المال كله له

ولكن جون دافع عن صديقه عند ما رى أبوه هایل كيليون بمبارة تحقير وازدراء ، فقال :

— سأحصل على مالى يا أبى عند ما يفيق هایل ، وإنى لأظنه قد وقع في أيدي عصابة هناك في ميدان السوق فصحبوه إلى اجتماع أعدوه . ولتثق يا أبى أن هایل رجل مستقيم

وقضت الأسرة بقية وقت العشاء في صمت . وبعد قليل وصل هایل إلى فناء البيت راكبا وخرج جون معه متجهين إلى المدينة على عادتهما . أما ما حدث بعد وصولهما إلى المدينة فقد علمناه من غيرها على الصورة الآتية :

تعارك جون وهایل أمام قاعة البليارد عندما أعلن هایل أنه غير مدين لجون بشيء من المال . وكانت المعركة حامية جدا قاتل كل فيها أخاه قتالا عنيفا عند ما حاول المشاهدون أن يفرقوا بينهما . على أنهما بعد ذلك تركا المدينة عائدين وهما في أعين الناس على خير ما يكون من المودة والصداقة ، ولكنهما في الواقع قد استأنفا القتال على مفترق الطريق

ورأهما جو استامسى في أثناء عودته وكان جون فاقدا الوعي ، أما هایل فكان جثة هامدة وبندقيته

بنى الحكم على جون على شهادة القرائن ؛ فقد روى قصته على حقيقتها في غير تردد، ولكن القاضي والمحلفين لم يقيموا لها كبير وزن . قال إن هابل كان لا يزال تحت تأثير السكر عند ما غادر المدينة ، ولم يستطع أن يقول أين ذهب بمال جون ، فتشاجرا وكان هابل هو الذى ضرب الضربة الأولى مدعياً أن جون قد وصفه بأنه لص ، على أنهما لم يلبثا أن تصالحا وضحكا على ما كان منهما ، ولكنهما في أثناء عودتهما إلى البيت استأنف هابل القتال

وفي مفترق الطريق ترجلا عن جواديهما وقررا أن يتقاتلا بقبضاتهما عارية عن القفازات ، وألقيا ببندقيتيهما على الأرض وأجفل الجوادان فركضا هارين . وضرب هابل الضربة الأولى فكانت ضربة قاضية أفقدت جون وعيه فلم يعرف شيئاً بعد ذلك إلى أن استيقظ فوجد أستمى منحنيًا عليه

وقال جون :

— لقد كانت بندقيتانا ملقيتين على الأرض إحداها إلى جانب الأخرى فابحثوا عن بندقيتي فحيث وجدتموها وجدتم القاتل

ولكن القرائن ضد جون كانت من القوة بحيث بدت كلماته عديمة القيمة ، وكان الشعور العام متجهاً إلى أنه بعد أن قتل هابل ألقى ببندقيته بعيداً حتى إذا شعر باقتراب أستمى اصطنع الغيوبة والإغماء . واعتقد آخرون أن البندقية التقطها أحد الباحثين عن الأشياء القريبة عندما ازدحم الناس حول الجثة ليلة ارتكاب الجريمة . ولم يصدق يراءة زوجي إلا نفر قليل من شهود المحاكمة

ولما وصلني خبر الحكم على زوجي شعرت بأن الحياة لا تساوي متاعها ، وأحسست بأنني مريضة

النفس والجسم ، ولكن الأمل في محاكمة ثانية شجمني على احتمال الصدمة ، على أن هذا الأمل لم يكن ليتحقق ، ولكنه على كل حال قد قواني على النهوض يوم أحضر الشريف كلم هاوكنز زوجي إلى البيت لتوديعي قبل الذهاب به إلى السجن

فك الشريف القيد الحديدى من يدي زوجي لمجرد دخولها إلى البيت ثم أدار لنا ظهره وأطل من الشباك ، فعاتبنى جون وقال :

— إلين . ثق بأننى برىء من قتل هابل فثقتك بأن الله موجود في السماء

قال جون هذه الكلمات في ثبات وخشوع كما لو كان يقسم قسماً عظيماً ، ولأول مرة زال من نفسى كل شك في براءة زوجي . فعاتفته وانحنيت عليه فقال :

— لم يكن بد من أن أراك يا إلين لأقول لك هذه الكلمات لأنى أعلم أنك كنت تشكين في براءتى . لقد قرأت أفكارك يا عزيزتى ، وكنت دائماً قادراً على قراءتها ، والآن أطلب منك أن تعدينى بالآتية أبداً إلى السجن لرؤيتي . فإني لا أطيق أن تربى أنت أو طفلنا سجيناً . ولا تكتبى لى فإن ذلك يصعب على البقاء هناك ... وسيتكفل أبى بزيارتى . والذي أرجوه منك يا إلين هو ألا تخبرى طفلنا أن أباه سجين . عوديه على أن يحسبني ميتاً . وثمة شيء تستطيعين أن تعمليه من أجلى . فسأنتظر في الساعة السادسة من كل مساء أن أسمحك تقولين : « إني أحبك يا جون » كما كنت تقولين كلما كنت بعيدة في الكلية وسأسمع كلماتك وسأرد عليك بمثلاً »

وكنتم أنا وجون نمتقد بالإيماء وقد أقمنا الدليل على قوته في كثير من الفرص .

وقد سألتني جون :

— أو ستفعلين هذا الذي أطلب منك يا إلين؟
فوعده في كلمات تقطعها الزفرات :

— نعم يا أعز الناس على نفسي لا بد أن أفعل
ذلك ولن أنسى أبداً ، وإني لأصدقك ، وأعتقد
ببراءتك وبأنك لم تقتل هابل كيايون . لن أنسى
ذلك ما حييت .

وكانت عينا جون جافيتين عند ما قبلني ، وكان
صوته ثابتاً رزيناً عند ما ألقى إلي بكلمة الوداع .
وكان ظاهراً أنه قد غالب نفسه وشعوره قبل حضوره
لوداعي ، ولكنني تعلقته به في عنف عند ما أعاد
الشريف القيد الحديدي إلى يده وقال : « هلم بنا
يا جون فلا بد من أن نذهب » .

فقال جون :

— ابق مع إلين يا أبي وحافظ عليها ، واعن
بأمرها واحضر لرؤيتي كلما استطعت الحضور .

وكان من نعمة الله على أن أصابني الإغماء ؛
فحملني حمي إلى فراشي . وفي المساء شعرت بأنه
يفسل وجهي ، وكان الطبيب قد غادر المنزل في
هذه اللحظة ، وسمعت حركة في المطبخ بالطابق
الأول .

وقال حمي :

— يجب على الإنسان أن يحتمل الحياة يا إلين .
وليكن طفلك أول ما تفكرين فيه ، وسأحضر لك
الآن شيئاً من الحساء الساخن ، وقد حضرت ماري
جوز وفرانك لمساعدتنا ، وقد عينا بكل شيء
في البيت ، وإني لو اتق من أنك ستزودين بالشجاعة
في حياتك المقبلة . ومن المحتمل أن نصل إلى محادثة
جديدة كما تعلمين .

ونطق حمي العبارة الأخيرة بلهجة المواساة
الرقيقة . فغالبت حزني واستويت جالسة في فراشي
وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء .

تذكرت وعدى لجون فصليت لله ضارعة وقلت
ينما ذهب حمي لإحضار الحساء :

— اللهم مكنه من أن يسمعي .

فلما دقت الساعة السادسة قلت :

— إني أحبك يا جون .

وبعثت هذه الرسالة بكل ما في نفسي من قوة
معنوية .

واضطربت إلى أعماق نفسي عند ما سمعت الرد
يلب في أذني .

— إني أحبك يا إلين .

كانت هذه الرسائل فائحة رسائل إيمانية عديدة
بيننا فلم أنس قط أن أرسل كل يوم هذه الرسالة
الطائرة التي كان جون ينتظر وصولها إليه وهو جالس
هاديء في سجنه الصخري .

وكان حمي يذهب بنظام لزيارة جون في المواعيد
المحددة للزيارة ولكنني لم أعرف قط ما كان يجري
بينهما من حديث . على أنه كان يبلغني أموراً تتصل
بجون كالفرقة التي كان زوجي يعلمها في أيام الأحاد ،
وهي مؤلفة من جماعة لم تكن من قبل تهتم بأي شأن
من شئون الدين ، وأخبرني أيضاً أن إدارة السجن
عهدت إلى جون بالإشراف على الحركة الرياضية
الجديدة التي أدخلت على نظام السجن .

وأخبرني مرة أن جون أقنع فريقاً من المسجونين
بالعدول عن الهرب من السجن ، وسلم الأسلحة التي
سنعوها بأيديهم إلى أولى الأمر دون أن يذكر لهم
أسماء المتذميرين . وفي مرة أخرى أخبرني أن جون

من يشهد موعد غرامنا غير النجوم والقمر أو ربما خيالات الشتاء الفارس .

وكان في مرعانا المجاور للتل على مقربة من مزرعة السجن أكمة صغيرة ، فكنت أقصد إليها غالباً بعد انتهاء عملي ، وكان يلذ لي أن أجلس فوقها وأرقب مصاييح السجن حين تضاء . فكان المنظر أشبه بقصر من قصور الجان بأضوائه البراقة التي تبعث بأشعتها إلى غسق الوادي النحدر . فلم يكن السجن في هذه الساعات ليشبه في شيء مأوى الآمال الضائعة وبيت العقاب .

كان يحلوي أن أجلس هناك وأفكر في جون فأرسل له وأتلقى رسالتي حبنا الصامتتين . وكان يخيل إليّ في بعض الأحيان ، عندما يكون ضوء النهار لم يغيب بعد عن الأرض المرتفعة ، أن بناء السجن وحش رابض في ظلال الوادي ، فكنت أبغضه لأنه قد ألهم حبيبي .

وفي مساء يوم من الأيام أتيت بروني معي في هذه الرحلة اليومية ، وكان قد بلغ السنة الخامسة من عمره . فلما وقفنا هناك مولين ظهرينا ناحية الشمس الغاربة ، رأينا فريقاً من المسجونين في عربة محملة بالحشائش الجافة تسير بهم مبطنة في الطريق الموصل بيننا وبين السجن ، وكانوا عائدين من أحد الحقول البعيدة وقد استطعت أن أرى هؤلاء الرجال الصامتين رؤية تامة ، ولكن بعد المسافة لم يمكنني من تمييز قسائم وجوههم . وعلى حين فجأة وقف واحد منهم ورفع قبعة السجن ، وبقي على ذلك إلى أن غابت العربة عن نظري . فسألت نفسي: أيمكن أن يكون هذا الرجل هو جون ؟ وذكرت عندئذ أن حي قد أخبرني أن جون كان يشرف على الفرقة من

اعترف له بالقيادة والشجاعة لإخماده حريقاً في نبات القنب .

ولم يدهشني ما علمت من صفات الشجاعة والقيادة التي تميز بها جون ، ولكنني دهشت عندما سمعت أنه قد اختار العمل في المناجم مع أشد المسجونين تهوراً . وقد قال الحارس لمحي إن جون اختار هذا العمل لأن هؤلاء المسجونين كانوا بحاجة إليه لأنه يستطيع أن يقودهم إلى حياة أفضل من حياتهم الحاضرة إذا هو فضل هذا النوع من العمل على الدرس الديني الذي كان قد عهد إليه بإلقائه أول الأمر . ولقد شعرت عندما سمعت هذا الكلام بشعور الفخر بزوجي . فكان من النادر أن يغيب ذكره عن رأسي واحتفظت بصورة جون الفتوة جرافية على مائدة زينتني ، وكنت أقول لابني الصغير :

— هذا هو أبوك ، ونحن نحبه وهو يحبنا ، وما نستطيع أن نراه أبداً ، ولكننا نعلم أنه يفكر فينا على الدوام .

وكنت قد وضعت ابني بعد شهرين من دخول أبيه السجن ، وكان طفلاً جميلاً قوياً ، وقد سميت به رونالد كاسم أبي ، ولكن اسم روني كان أكثر انطباقاً عليه ، وتعودت أنا وحي أن ندعوه بهذا الاسم الصغير . وقبل أن يتكلم بوقت طويل تعلم أن يهز يده مرسلًا في الهواء بقبلة إلى صورة أبيه وكانت أول كلمة نطق بها هي كلمة « أبي » .

وكتبت في بعض الأحيان خطابات مطولة لجون أصف له فيها ابننا الصغير ، ولكنني لم أرسل قط هذه الخطابات .

حافظت على وعدى لجون بالبقاء بقميدة عن السجن ، وكنت في كل ليلة أتحدث إليه ، وليس

المسجونين التي عهد إليها أن تعمل في الزراعة هذا الصيف . فعرفت أن جون هو ذلك الرجل الذي وقف وحياتي أنا وولدا هذه التحية الصامتة .

ولم أخبر حمى بما حدث فقد كان هذا الحادث أمراً مقدساً احتفظت به لنفسى ، ولكنه عند ما عاد إلى البيت بعد يوم الزيارة من الأسبوع التالى قال لى :
— لقد عرّضت يا إيلين ألا آخذ روني مئ مرة أخرى إلى المرعى ، وأظن أنني أنا نفسى لن أذهب إليها ، فهناك مغريات لا تقوى الطبيعة البشرية على مقاومتها . وجون رجل برىء ، فنفسه خالية من الشعور بعدل ما ينزل به من عقاب ، هذا الشعور الذى من شأنه أن يحمل كثيرين من الرجال على أن يخضعوا لأحكام السجن ممثلين . ولقد كان جون حتى الآن مثلاً طيباً فى السلوك ، وليكتنا جميعاً معرضون للتأثر بالمغريات

فصحت :

— ولكن أليست لى يا أبى حقوق ؟ أيجب على ألا أشعر أنا أيضاً ؟

فأجابنى حمى :

— تذكرى يا إيلين أن جون لو هرب من السجن لمعوق كما يعاقب أى سجين آخر ، وهو حتى الآن قد حصل على أحسن تقرير يحصل عليه السجين فإذا هو أضعاف سمته هذه فقد كل ثقة فيه إلى الأبد لم آخذ روني مئ بعد ذلك ولكننى كنت أذهب وحدى وأجلس مفكرة فى جون آملة أن أراه مرة ثانية ، ولكننى لم أسمع صوت عربة السجن قادمة إلا مرة واحدة بعد ذلك ، فطرحت نفسى على الحشيش حتى صرت بى

وإذا كنت قد رويت هذه الحوادث المحزنة

فليس معنى هذا أن الحياة كانت كلها متاعب وأحزاناً فلقد أصبحت فى تلك الأيام امرأة كثيرة المشاغل ، فقد غيرت طبيعة مزيجتى من البيع بالجملة إلى الاتجار فى الألبان ، وقد ارتفعت سمعة قطعان هارداواى فى جميع أرجاء الولاية وحصلت على الجوائز الأولى فى المعارض ، وصرت من العملاء الدائمين مع مخازن ألبان الحكومة ، وتلقيت كثيراً من المحاضرات الخارجية فى كلية الزراعة الحكومية

واشتركت فى كثير من النوادى وهذا هو الميدان الذى اتجه إليه نشاطى ووجدت فيه العزاء من الأحزان التى كادت تدفننى فى الظلام . وكان حبي ابنى أكبر عامل فى شعورى بالانشراح والسعادة فقد قضينا معاً أوقاتاً هنية حقاً ، وقابلت كثيرين من أطف الرجال وكان فى مقدورى أن أتزوج إن أردت ، ولكن لم يكن هناك غير رجل واحد يحتفظ له قلبى بالحب والولاء هو جون هارداواى وفى أحد أيام الشتاء من العام السابع لسجن جون عاد حمى إلى البيت مصاباً ببرد شديد ، وكان قد ذهب لزيارة جون وقد بدا عليه أنه يشعر بهبوط فى حاله النفسية ، ولما ذهب روني إلى فراشه حملت حمى فى إصرار على أن يقص على ما حدث

قال : إن جون قد أصبح بطلاً فى السجن ، وقد شب حريق فى مصنع المراتب أودى بحياة كثيرين من المسجونين وأحد الحراس ، وأنقذ جون أرواحاً عديدة بسرعة تفكيره وحسن قيادته ، وقد لحقته بمض الإصابات ولكن أباه لم يقف على مبلغها لأنه اضطر أن يغادر السجن قبل أن ينتهى الطبيب من عمله ، فقد أمر جون على أن يتولى الطبيب إسعاف جميع المصابين سواء وأن يتركه

هو إلى أن ينتهي منهم جميعاً

وأرقدت حمى في فراشه بعد أن وضعت على صدره « اللصقة » التي يحبها ، ولكن أعراض البرد اشتدت عليه وساءت حاله ، وحضر الطبيب لميادته ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً . وفي اليوم التالي توفي حمى وتركني أنا ورونى وحيدتين ، فكانت وفاته صدمة شديدة لى فقد كانت منزلته في نفسى بعد منزلة أبى مباشرة ، وكان الرفيق الذى لا يفارقه رونى وعلمت بعد مدة طويلة أن الحروق التي أصيب بها جون كانت شديدة ، وكان أفضعها ما أصاب يديه ، وقد فقد أحد إبهاميه من جراء ذلك الحادث فكان كل ما استطعت أن أعمله هو أن أزيد في رسائل الإيحاءية إليه حاملة له حبي من فوق تلك الآلة التي لم أنقطع يوماً عن زيارتها

وبعد وفاة حمى انتقل فرانك ومارى جوتز للإقامة معنا في البيت ، وقد كانا حتى الآن يساعداًنى في أعمال مصنع الألبان ، ولكنى أصبحت محتاجة إلى مساعدتهما في أعمال المزرعة أيضاً . لذلك أصلحت بيت جوتز ليسكنه جاك وود وأخته جين ، وقد أثبت جاك أنه مدير صالح للمزرعة ، ولم تلبث جين أن عرفت في جميع الجهات المجاورة بمهارتها ونشاطها وكانت جين في نهاية السنة العشرين من عمرها جميلة المنظر جذابة الروح ، وكانت شديدة الحب لرونى فكان الطفل دائماً على استعداد لمصاحبة الخالة جين ، فكان من النادر أن تذهب إلى المدينة قبل أن تمر علينا بمرربتها فتستصحبه معها ، ولم يكن جاك أقل تعلقاً برونى من أخته ، وهكذا كان الطفل يقضى أغلب أوقاته عندهما

لم أتكلم حتى الآن كثيراً عن طفلى ، والحق

أنه أصبح في العام السابع من عمره صبيّاً كاملاً يشبه أباه في شكله شبهاً شديداً ، كانت له عيناه الكبيرتان السوداوان اللتان تلمعان في الغضب وتشتعان في السرور ، أما شعره فكان في سواد شمعى . وكان الطفل نظيفاً بطبيعته مثل أبيه ، فالناظر إلى وجهه ويديه يخيل إليه أنه لا ينقطع لحظة عن تنظيفها ، وكان يندر أن يراه الإنسان منفصلاً أو شرس الخلق ، فلم يكن يحتاج إلا إلى القليل من الإرشاد ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يدور حوله ، فكان في هذه السن طفلاً محبوباً من كل من يراه ، كثير التخيل بعض الأحيان ولكنه كان دائماً شديد التأمل

كان الشتاء في هذا العام قارساً مللنا أيامه الطويلة الفظيعة ، ولكن أيام الدفء لم تلبث أن أقبلت ، وكنا في الأيام الأولى من شهر أبريل ، وقد بدأنا نسمع تقيق الضفادع في بركة المرعى . فابتسمت مبتهجة عندما صررت بالبركة في طريقى إلى أكتى المحبوبة . وقد شمعت بانتعاش في نفسى لأننى سأستطيع الآن أن أذهب إليها في أغلب الأوقات لأتبادل مع جون رسائل حبنا ، وإذا بعثت إليه برسالتى في هذه الليلة شمعت بأنه أقرب إلىّ منه في أى وقت مضى .

لقد قدر أن تكون هذه هى آخرى زيارتى للآلة . وكانت الضفادع تنق مطمئنة وأنا عائدة إلى البيت مبطة في مشيتى . وفي منتصف الطريق التقيت بمارى جوتز وكانت قادمة للبحث عنى ، فما رأتنى حتى قالت وهى تلهث :

— لقد كنا نبحث عنك في كل مكان ، فقد اعترف دينى بلان بأنه هو الذى قتل هايل كيليون (٢)

فهو مريض ، وقد أحضروا له القسيس فاعترف له بكل شيء ، فلتسرعى يا مسز هارداواى فإنهم يريدون أن تذهبي مباشرة إلى بيت بلاين

لم أرد أن أسرع لأننى أردت أن أبقى هناك تحت سماء ابريل أشكر الله هذا النبأ المبارك ، على أننى لم أضع وقتاً في الوصول إلى بيت بلاين

وكان ديني في الواقع مريضاً جداً ، ولكنه في هذيانه روى قصة ما حدث على مفترق الطريق منذ سنوات عديدة فقال إنه كان عائداً في طريقه إلى بيته على جواده الصغير بعد زيارة لإحدى العائلات المجاورة ، فلما وصل إلى مفترق الطريق رأى جون وهایل يتقاتلان ، وكان هایل قد ألقى بجون على الأرض وشرع يخنقه ، فالتقط بلاين إحدى البندقيتين من على الأرض وأطلقها على هایل فأصاب الطاق جنبه

وكان جون فاقد الوعي فسقط هایل إلى جانبه جثة هامدة ، ولم يتبين بلاين إذا كانت الإصابة قاتلة أو إذا كان المصاب لا يزال حياً ، ولم يلبث أن سمع صوت جواد قادم من ناحية المدينة ، فوثب إلى سرج جواده ودفعه مسرعاً في الطريق المارض ، وكان لا يزال حاملاً البندقية في يده ، فلما وصل إلى البيت وضعها على رف هناك وهي لا تزال هناك من ذلك التاريخ

وهكذا وضع الحق في قصة جون ، فهو بعد اليوم حر طليق وسيمود إلى بعد قليل ! ولو أن السعادة تقتل الإنسان لكانت قتلتني في تلك الليلة لم يمش ديني حتى يحاكم على فعلته ، فقد قضى عليه المرض بعد أسابيع قليلة من هذا الاعتراف وكان لا بد من انقضاء بضعة أيام يحقق البوليس

في أنثائها رواية بلاين وتمعد فيها الأوراق الخاصة بالإفراج عن جون ، وقد قضيت هذه الأيام منهمكة في إعداد ما تتطلبه عودته من مظاهر الاحتفال ، وقد قلت لرونى إن أباه عائد إلى البيت فلم يكن الطفل أقل منى تأثراً وابتهاجاً بهذا النبأ السعيد

وحضر فرانك إلى البيت في اليوم الثالث لتأكيد البوليس من صدق رواية بلاين وأخبرني بأن الأمر قد صدر بالإفراج عن جون وأنه سيمود إلى البيت في اليوم التالي ، ثم مضى ليشرّف على حلب الماشية وصعدت إلى الطابق العلوى لألبس رداء نظيفاً قبل الإشراف على عملية إخراج الزبد وإعداد أدوات التبريد

فلما عدت إلى الطابق الأول سمعت دقاً شديداً على الباب الجانبي ، فظننت أن الطارق قد يكون جون ولكنى لم ألبث أن ذكرت أنه لا يمكن أن يجيء بهذه السرعة ، فذهبت أفكرى كل مذهب ، غير أننى لم أتصور أن جون يطرق باب بيته . وبينما هذه الأفكار تساورنى تخيلت جون وهو يدخل من الباب مندفعاً يبحث عني في لهفة وشوق فأنحأ ذراعيه كما كان يفعل عادة

ثم فتحت الباب فرأيت واقفاً على عتبة رجلاً قدرا المنظر يلبس صديراً قصيراً تميل قممته إلى الأمام حتى تكاد تخفى عينيه ، وقد أمسكت إحدى يديه الوسختين طرف الباب ، وقد بدا ما بقي من إبهامه المقطوع بشع المنظر لم تلتئم ندبته التاماً ، فجذعت أول الأمر ووددت لو أن فرانك أو ماري كان معي ، ثم قلت :

— أسعدت مساء ، هل تريد شيئاً ؟

فتراجع الرجل قليلاً وقال في صوت أجش :

— إلين ! ألا تعرفينى — أنا جون ؟

فصحت :

— جون ؟ أوه ، لا ! لا ! لست أنت جون ،

لست أنت زوجى !

ثم تذكرت السنوات العديدة التى صرت بنا ؛
فلطفت لمحتى وقلت :

— جون ؟ آه . عزيزى . أدخل .

وشمرت على حين فجأة أن الدنيا قد فقدت
بهجتها ، وأدرجت أن جون زوجى قد بات فى نظرى
فى عداد الأموات ، لقد ختمت مأساة حياتى بهذه
الخانعة الموحمة .

ودخل جون البيت متردداً وكان يرتجف من قة
رأسه إلى أخمص قدمه . وقال :

— لقد أفرجوا عني بأسرع مما كانوا يتوقعون
يا إلين ، ولم أستطع أن أنتظر إلى الغد فقطعت الطريق
جرياً ، واجتزت المرعى بجوار الأكمة فشمرت
بوجودك فوقها ، فانطرحت على الأرض وقبلت البقعة
التي وطأها قدمك يا عزيزتى ! ولكن التى أراها
الآن ليست إلين التى عهدتها ، فهذه امرأة جامدة
كأنما يفصل بينها وبينى مدى بعيد ! أين ولدى ؟ هل
علمته أن يكرهنى أيضاً ؟

فقلت :

— صه يا جون ! وسنتكلم بعد أن نتنسل
وترتدى ملابس نظيفة . إنك متأثر بما صربك من
حوادث ومفاجآت ، وهامى غرفة أيبك فى انتظارك
وستجد فيها ملابس جديدة معدة لك

لم أخبر جون أننى قضيت النهار كله فى غمل
متواصل لإعداد غرفتنا على ما يجب أن تكون
بعد أن نقلت فراش رونى إلى الغرفة الصغيرة

المجاورة . ثم صعدت السلم يتبعنى جون مببطاً فلما دخل
الحمام أسرع بنقل ثيابه إلى الغرفة التى كان يسكنها
أبوه . وكانت هذه الثياب هى التى كان يلبسها قبل
ذهابه إلى السجن ، وهى البقية التى وضعناها فى
الصندوق الخشبى بعد إخراجنا ثياب أبيه

وأدركت أن الثياب ستكون واسعة عليه
جداً فقد نحل جسمه كثيراً ، وبالأمس رقت
ثوب النوم ذا الطراز القديم أمام عيني وقبلت رقبته
وتصورت جون وهو يلبسه . والآن إذ أسرعت
بوضع الثياب فوق سريره تحدرت الدموع من عيني
واجتهدت فى تملك عواطفى حتى لا يخوننى صوتى
عند ما ناديته من خلال باب الحمام قائلة :

— لقد أعددت لك الثياب على الفراش وهناك
ثياب أخرى فى الصندوق ، فلتحضر إلى العشاء
متى انتهيت

وحرصاً على حياتى لم أستطع أن أودع كلماتى
شيئاً من حرارة الحب . ونزلت إلى الطابق الأول
مهزوزة الأعصاب لحد عنيف وقد سحق الحزن
قلبى فلم أستطع الإشراف على عملية اللبن ، وتولت
مارى العمل نيابة عني وقد قالت :

— من رأيى أنه كان يجب أن يخبروك
بما ستواجهينه فإن حياة السجن تشوه رجلاً مثل
جون تشويهاً فظيماً ، فعملهم هذا إثم وعار .
ولا عجب إذا شمرت بانكسار نفسك فدعى عنك
أمر اللبن فساتولاه واذهبى أنت فاجلسى وحاولى
أن تأثنى ما طرأ على حياتك من تبدل

فقلت فى نفسى : إننى لن آلف ذلك أبداً !
فماذا عسانى أستطيع أن أفعل ؟
لقد تعودت أن أرى جون جالساً ملى إلى المائدة

فلن أستطيع أن أتمود أبداً أن أرى مكانه هذا الرجل المشوه الذي عاد ليدعوني أصراً .

ساعدت ماري في إعداد مائدة العشاء ، ولكن ماري هي التي أرشدت جون إلى مكانه على المائدة . ولقد جلست ساكنة كشخص متجمد ، أما روني فقد استدارت عيناه من الدهشة ولم ينبس ببنت شفة ولم يأكل شيئاً . وتكلم فرانك وجون فيما طراً على المزرعة من تغير وعن شئون التعاون وعن موت أبيه ، ولكنهما لم يذكر شيئاً عن شئون جون نفسه . فكان الرجل غريباً على مائدته .

لقد نظف جون نفسه جهد ما استطاع ولكن الصابون لا يزيل قذارة السجن من أول مرة . وكان جون شاعراً بحالته فلم يأكل إلا قليلاً . وعند الانتهاء من الطعام قال فرانك :

— لا تزال هناك بقية من الضوء تمكنك يا جون من مشاهدة بعض أعمال في المزرعة إذا أردت أن تمر بها قبل هجوم الظلام .

فنهض جون وتلمس قميصه ثم بدا عليه أنه يتذكر فتبع فرانك عاري الرأس يسير بخطوات ثقيلة أشبه ما يكون بالشيخ الهرم . ولعل وراء جفنيه السبلين دموعاً متجمعة تغمي البصر كالدموع التي ملأت عيني في تلك اللحظة .

وعاد جون متأخراً في المساء فأوى إلى الغرفة التي كان يسكنها أبوه ، ولم يحاول أن يفتح باب غرفتي ، ولو أنه حاول ذلك لوجده موصداً بالفتاح واستمرت حياتنا شهراً كاملاً على هذا النمط .

ولو أن جون بدأ في الحال يساعد في أعمال المزرعة ولم يكن له من مركز محدد في العمل فقد تلاشي ما كان يتميز به في شبابه من النشاط والخفة والتسلط

وأصبح ينتظر ما يلقي إليه من التعليمات ، ولكنه كان يعمل برغبة صادقة ولذة واضحة في إنجاز ما يشير عليه فرانك بعمله

وكان في سلوكه من رقيقاً غير فضولي ، وكان في بعض الأحيان يشتد به التواضع إلى حد الخجل ؛ وكان قليل الالتفات إلى روني ولكنني لاحظته بعض الأحيان وهو يرمق الطفل بعين ملؤها الحب والاهتمام ، أما روني فلم يقبل قط أن يكون جون أباً له .

شهر واحد من هذه الحياة كاد يدفعني إلى الجنون . ولو أن جون ضمنى بين ساعديه وقبلاني بالقوة لكان من المحتمل أن أثور في وجهه وأن أدفعه عني ولكنني لم أكن لأحتقره كما احتقرته الآن يجب أن ينتهي الأمر بيننا بالطلاق . ولقد

شعرت باقتراب هذه النتيجة ، فإن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه الآن ، ولكنني ترددت في النطق بالكلمة التي تؤدي إلى هذه الغاية . لم يبق في نفسي شيء من الحب لجون ولكنني لم أرد أن أجرحه ، فقد أعرف أن نفسه الحساسة لا تزال مقيمة في جسمه المشوه ، فالجرح الذي أصابه كان بالفعل بالغاً عميقاً ، عميقاً إلى أبعد المدى

وجلست في إحدى الليالي الممطرة إلى مكتبي أراجع بعض الحسابات المهمة ، وكان روني قلقاً كثير الحركة ضايقي بكثرة مطالبه فوضع جون الصحيفة التي كان يقرأها جانباً وناداه :

— تعال يا بني

وكانت حركة جون غير متوقعة فلم أملك أن وقفت على ونظرت لأرى ما يكون ، فرأيت روني يذهب إلى جانب أبيه ، فقال جون :

— قل لي ما هي الهدية التي تفضل أن أحضرها لك ... ؟

فأجاب روني مسرعاً :

— جواد

— حسن ! فلا أحضر لك «سيسى» خاصاً بك.

فقال روني في لهجة التوكيد :

— لا . فإني أريد جواداً كالذي يركبه أبي،

جواداً أبيض كبيراً

— ولكنني لا أفهم ياروني ما تريد؛ فأنا أبوك

ولكنني لا أركب جواداً أبيض

فقال روني والتفت إلى :

— أقصد أبي الحقيقي الذي أراه فوق مائدة

زينة أمي ، فقد حدثتني عنه ... ألم تحدثيني يا أمي

عن أبي ؟

فقلت :

— لقد رويت له يا جون قصة جالاهاد فكان

بعد ذلك يقرنها دائماً بصورتك الفوتوغرافية . ولقد

علمته أن يحب صورتك هذه ولم أحلم قط ...

فقاطعتني جون قائلاً :

— فهمت ... فهمت ... روني يحسب أن له

أبوين ، فإذا نفعل في ذلك يا إيلين ؟ هل ترين أن أتركه

في أحلامه ، أم نوقظه كما استيقظنا أنت وأنا ؟

فأجبت في حدة :

— بل لنتركه في أحلامه

فأجاب جون في لهجة حازمة لم يتكلم بمثناها منذ

عودته من السجن :

— أما أنا فأرى الأمرين . فإن عقل الطفل

أشد ليونة من عقل الإنسان الكبير ، وسيدرك

الحقيقة تدريجاً ثم يقبلها .

عدت إلى مواصلة عملي ، وتكلم جون وروني

عن مركب وعد جون ابنه بأن يصنعها له من قطعة

خشب صغيرة وجدها ، وقد فهمت من حديث جون

أنه قد غوى الحفر في الخشب واشتغل به .

وبعد برهة قصيرة أخذت روني إلى فراشه

في الطابق الثاني ، ولما عدت وضع جون جانباً المجلة

التي نشرت فيها مقالي الأخيرة عن صناعة الألبان .

وسألني :

— إيلين ، ألا تشعرين بأنك تريد أن تتكلمي ؟

أظن أن هناك أموراً يجب أن نتكلم فيها معاً ،

فما أنت بالسعيدة ولا أنا بالسعيد . لقد قاسينا كلانا

الآلم الشديد من هذه التجربة الفظيعة . وليس أحد منا

بملموم على ما حدث ، وما أنا بالرجل الذي أخذوه منك

ولا أنت أيضاً بالفتاة التي تركتها ورأى .

ولكل منا ذكرياته القديمة لا يستطيع

نسيانها ، وكلانا صغير ، فأنا لم أجتاوز السادسة

والثلاثين ، والماضي ورائنا ، ولا يزال أمامنا مستقبل

طويل وعلينا أن نفكر في مستقبل ولدنا ، فهو في هذا

الجو المشبع بالأسى والتوتر سينشأ قلقاً تمييزاً ، لهذا

أشعر بأنه يجب علينا أن نعمل في الحال عملاً ما

لتصحيح هذا الموقف .

لقد قررت أن أذهب إلى البيت . الآخر ،

وانتقلت مع جاك وجين على إعداد ما يلزم لأن أقيم

هناك وأحتل مركزي الشرعي مديراً للمزرعة .

ولدينا كية وافرة من الأرض يا إيلين تمكثنا من

تربية ما نشاء من القطعان دون تعرض لقطيع معمل

ألبانك . ولك إذا أردت أن تمضي في عمالك كما

مضيت حتى الآن .

ثم رفع المجلة وقال :

— إنك قد نجحت نجاحاً مدهشاً. وإنى لمعجب بروحك القوى وقدرتك على إتمام الأعمال الكبيرة التي اضطلعت بها. فأنت امرأة عاملة قديرة وتستطيعين أن تعنى بأمر نفسك ، وليست بك من حاجة إلى إحداث أى تغيير فى أسلوب حياتك ، ورونى ابنك . ولم أترك قط لنفسى العنان فى الشغف به ، لأننى أدركت منذ اللحظة الأولى شعورك نحوى . لقد قضينا عدة أعوام متقاربين تقارباً شديداً من الناحية الممنوية . فلا يتفق مع هذا أن أعجز اليوم عن قراءة أفكارك . وأريد يا إلهى أن أشكر لك قبل أن نفرق تلك الرسائل التي لم أكن لأحتمل حياة السجن بدونها ، ولقد دأبت على انتظارها كل يوم حتى اليوم الأخير .

أنهمرت دموعى لأننى لم أستطع حبسها ، وكان من موجبات الغراء أن أعلم أن جون كان ممتعضاً منى أيضاً حتى أنه يريد الذهاب .

ولكنى شعرت فى كلماته بتيار خفى من الحزن أثر فى نفسى . وقد وقف عن الحديث ، ولكنه لم يرفع نظره إلى حين جاوبته :

— لقد كانت الغلطة الأولى غلطتك أنت يا جون حين حملتنى على أن أعاهدك بالأزورك فى السجن . ولو أننى رأيت بالتدريج ما طرأ عليك من تغير لكان من المحتمل أن أحتفظ بحبك خياً فى نفسى ، غير أنك مع ذلك على حق فيما تقول ، فليس اللوم فيما حدث بواقع على أحدهما .

« إن الغلطة هى غلطة المجتمع فى أن تؤخذ منى شاباً قوياً جيلاً ثم ترد إلى شيخاً مكسور القلب . وإنى ما زلت على استعداد لأن أوجه الأمور خير وجهاتها ، ولكن حب المرأة يا جون يسقط حيث

يريد هو لا حيث تريد هى . فلا أنا أحبك ولا أنت تحبى .

فرفع جون رأسه فى حركة سريعة ، ولكنه حول نظره جانباً وقال فى هدوء :

— إذن أنت تقرين اقتراحى وتوافقين على أن أتقل من هنا ، وهذا هو ما توقعت من قبل ، وطيبى أن يقيم رونى معك ولكنى أريد أن أراه فى أغلب الأوقات فقلت :

— هذا طيبى ورونى صبي رقيق الحس وفى مقدورك أن تكسب حبه وصداقته فى سهولة . وهو لا يزال أصغر من أن يفهم الأمور على حقيقتها ، وإنى أريد منك يا جون أن تحبه ، كما أود أن تدرك مبلغ حزنى لما صارت إليه الأمور ، وإنى لأخجل من موقفى بعد الذى قاسيته أنت من الآلام ، ولكنى أريدك كما كنت يوم أخذك منى زوجى الصغير الجميل بجسمه القوى الرشيق ونظرته الثابتة وشعره الفزير ... ويديك يا جون ...

« ألا فأغفر لى يا جون ولتبق هنا فلا تتركنا وسأحاول أن أصلح كل شئ ! »

ثم غطيت وجهى يدي وبكيت فقال جون :

— أبداً ! فإن بقائى هنا أسوأ من إرسالك إلى السجن لتقضى فيه بقية حياتك . لقد كنت أفكر فى غلطتى حين منمتك من زيارتي فى السجن وانتهيت إلى أن النور الوقتى هو الذى حملنى على ذلك ... على أن أولى غلطاتى مع ذلك كانت تركى لك تقضين لياليك وحيدة مندفعاً وراء هایل كيليون فى حياته الجنونية ، ولقد دفعت ثمن ذلك غالياً

يا عزيزتي ، دفعته ندماً وحزناً ، ولكنني الآن أريد أن أعيش ... وإنك لمخطئة إذ تتصورين أننا نستطيع أن نكون سعيدين أو حتى راضيين في حياتنا معاً في هذا البيت ، ولقد قررت الانتقال إلى البيت الآخر غداً ، وعندى بعض أشياء أريد أن أرتبها ، وهي ما يحويه الصندوق الذي جاءني أمس من إدارة السجن . وأنا من أجل ذلك صاعد إلى الطابق الثاني والآن أرجو يا إلين ألا تحاولي مرة أخرى إصلاح ما حدث ، وإنك لتعلمين أن لا فائدة في الندم ، ولننمش من الآن للمستقبل ، لتستقبل ابنتا الصغير .

حيث جون تحية المساء وتركت الغرفة وقد شعرت الآن بالارتياح بعد أن واجهنا قضيتنا بهذه الصراحة

انتقل جون إلى البيت الآخر ليعيش فيه وعاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل عودته من السجن ؛ غير أنني أصبحت أشعر بأن هناك شيئاً ينقصني . لقد أضمت شيئاً كان يشغل ناحية من حياتي ثم مضى فأنا شاعرة بفقدانه . لقد فقدت زوجي من قبل ، أما الآن فقد انتزعت ذكراه أيضاً من قلبي

وكان روني يقضي وقتاً طويلاً في البيت الآخر ، وقد استحكمت الصداقة بينه وبين جون منذ اليوم الأول حين عاد إلى يحمل بين ساعديه مجموعة من اللعب المصنوعة من الخشب ، وقال :

— أنظري يا أمي ... هذه مزرعة كاملة أعطاها لي جون . أنظري هذه الفتاة الجميلة التي تشتغل بصناعة اللبن ومد يده باللعب في وجهي ، فكانت تمثالاً جميلاً لفتاة عفت جدائلها كالنواج حول رأسها ، وقد ثني ذيل رداؤها إلى أعلى فهي صورة طبق الأصل لي يوم تركني جون ذاهباً إلى السجن : هي الفتاة التي كان

يحلم بها جون ويمررها في الخيال
وقلت لابني :

— أعطني يا روني إحدى لعبك فعندك منها
كثير

فقال الصبي :

إذن خذي هذه العروس الصغيرة فإن الأولاد
لا يلعبون بالمراس

ثم مضى يقول في حماسة :

— أنظري يا أمي إلى هذا الجواد وهذه البقرة
والخنازير الصغيرة ، أنظري إلى ذيلها الجميلة الملفوفة
نظرت ولكنني لم أستطع أن أرى شيئاً لأن
الدموع قد ملأت عيني . لقد كان جون يفكر
في ابنه الصغير وهو في السجن فصنع له هذه اللعب
من الخشب ا

وقال الطفل :

— إنني أحب جون مثل حبي أبي الذي
في الصورة . وهو أب حزين جداً ولكنه يضحك
معي ويروي لي أعجب القصص ، وسيصبحني غداً
في صيد العصافير التي كان يصطادها وهو صغير .
فهو كان صغيراً مثلي وكان يعيش في المزرعة التي
يميش فيها الآن جاك وجين ، وهو يعرف أشياء
عن رعاة البقر وعن الهنود ويعرف كل شيء تقريباً !
ولقد كان الأمر كما قال جون : الطفل يألف

حكم الظروف بأسرع مما يألفه الكبار

وفي مرة أخرى عاد روني من زيارة أبيه
وأخبرني أن جون يعرف كل شيء عن
السجن ، فهم هناك يحبسون الرجال بعيدين عن
أبنائهم الصغار وبناتهم لأن هؤلاء الرجال أشرار ،
وأنا أعرف أن جون لم يكن رجلاً شريراً لأنه

لم يعمل العمل الذي أدخل السجن من أجله ، ويقول جون إنه يحدث أحياناً أن يتعذب الناس بسبب أغلاطهم ، وهذا هو ما يحمل الإنسان على التفكير والحذر من الوقوع في بعض الأغلاط مثل إيدائك شخصاً تحبه في سبيل الجرى على هواك

ويعرف جون يا أمي كل شيء عن الفحم . يعرف العناصر التي يتولد منها ، كما يعرف طريقة إخراجه من الأرض ، وسيفتح محلاً هناك بجوار التل ويسمح للفقراء أن يحضروا إليه ليأخذوا ما يحتاجون إليه من الفحم لتدفئة أطفالهم الصغار . وهكذا أطلع جون روني على السر الذي اجتهدت في إخفائه عنه . ولقد عرفت كيف حدث ذلك ، فقد سأله روني السؤال الذي كان يحيره فأجاب عليه جون بالصدق وحدث الطفل كما لو كان يحدث رجلاً رشيداً

لقد شعرت في أحيان كثيرة أن روني محتاج إلى صبرة رجل طيب ، لذلك فكرت في أن أتزوج مرة أخرى تحقيقاً لهذا الغرض ... والآن أرى أن روني قد أحب جون ، بل هو يحبه أكثر مما يحبني ولكنني لم أغضب لذلك !

كانت هذه أول سنة لروني في المدرسة ، ولقد كنت أتبع بلمهة حركات تقدمه ، وكان يمر في طريقه إلى المدرسة ومنها بيت جين وود ، وكانت جين تأتي به إلى البيت في أغلب الأحيان ، وكان جون يصحبهما في بعض الأوقات . ولقد قابلت صداقته لجين دون أن أحس بأقل أثر من الغيرة ، وقد خطر لي - إذا كانت جين تهتم به - أن أطلقه فقد تكون قادرة على إسعاده ، وما من شك في أنها تصبح زوجة صالحة .

ولم تكن جين أقل مني ابتهاجاً بحياة روني

الجديدة ، فلقد كان التغير الذي أحدثته فيه المدرسة كبيراً . وكانت الفتاة تستوقفه كل ليلة عند عودته لتمطيه فطائر طازجة من الجوزيل أو الكمك ، وكانت دائماً تخاطبني بالتليفون إذا هي أبقتة عندها وقتاً طويلاً . وكانت تقول في بعض الأحيان : لقد ذهب روني مع والده إلى جهة ما وسيحضر إليك بعد قليل

وكانت أشعر بالاطمئنان والرضا حين أعلم أن روني في بيت جين

كنت في هذه الأيام كثيرة المشاغل فقد قبلت أن أتولى كتابة صفحة في مجلة مصانع الألبان ، عدا الاشتراك في مسائل أخرى كثيرة ، وكلما كثرت أعمالي قل تفكيري في نفسي . ولقد عاد إلى الشعور بالسعادة ، فكنت على الأقل أنعم بالحياة وقد خلت نفسي من كل غل أو حقد أو غيرة

وعاد شهر إبريل وكان الربيع بارداً رطباً وصحبت روني إلى المدرسة في صباح أحد الأيام ، وكانت السماء قد أمطرت بعد العشاء مطراً بارداً فاعتزمت أن أذهب هذا المساء بنفسى إلى المدرسة لإحضاره ، ولكن جاءني رجل لأخذ صور للمجلة . وبلغت الساعة الخامسة قبل أن أتنبه إلى الوقت ، فجزعت لعدم عودة روني إلى البيت ودققت التليفون لبيت جين وود ولكن لم أتلقي رداً لدقاتي . وإذا كنت أناهب لللبس معطاني استمداداً للخروج أبصرت بجون يحمل روني إلى البيت ، وأسرعت إلى الباب وفتحته لحظة وصوله إلى عتبته وصحت .

— ماذا حدث يا جون؟ هل أصيب روني بسوء؟

فأجاب جون :

— هو مريض فلا تجزعي . لقد مرض

في المدرسة وجاء إلى بيتنا ماشياً ، ومن هناك حملته إلى هنا .

وبينما هو يتكلم ذهب بروني إلى الصفة فأرقده فوقها ، وكانت حرارة الصبي مرتفعة ولم يكن في استطاعته أن يرفع رأسه ، وقد قال لي في صوت خافت :

— لماذا لم تحضري يا أمي ؟ لقد شعرت بأنني مريض جداً

عندئذ أدركت أنني كنت حتى هذا الوقت أفكر في نفسي وفي أعمالي أكثر من تفكيرى في روني على الرغم من شدة حبه له .

وإذ استوى جون واقفاً بعد أن رتب الوسائد بما يتفق وراحة روني قال له الصبي :

— ابق هنا يا جون

فأجاب جون :

— سأعود يا روني ، فهناك شيء آخر لا بد من عمله وسأراك ثانية يا عزيزى .

ثم التفت جون إلى وقال :

— سأنقله إلى فراشه يا إيلين ، ولكننى ذاهب الآن لإحضار الطبيب فأعطينى مفاتيح سيارتك .

عرفت حكم الطبيب قبل أن ينطق بكلمة « نيمونيا » فنسيت كل شيء في الدنيا إلا هذا العالم الصغير الذى يحيط بولدى وهو فى فراشه يكافح الموت .

وبقى جون بجانب روني الذى لم يسمح له بالذهاب وقضى إلى جانبه أياماً وليالى طوالاً لا يفارقه لحظة في أثناء يقظته ، ولا يبعد عنه إلا قليلاً إذا هو نام .

وكان يعنى بابنه المريض فى لطف وحنان ولكنه لم يكن أقل لطفاً وحناناً مع الزوجة التى جحدته .

ثم جاءت الليلة التى علفت فيها حياة الصغير

فى ميران القدر ، فقد اقتربت الأزمة وجلس الطبيب منحنيًا عند نهاية السرير يرقب التنفس ، ووقفت إلى جانب السرير ووقف جون إلى الجانب الآخر وعند منتصف الليل تلاشى الظل الأغبر عن وجه روني ولم يبق مكانه إلا شحوب زائق . ثم فتح عينيه يتلمس أحداً حوله وقال همساً :

— جون ؟

فأجابه جون :

— هأنذا يا روني ، هأنذا يا صديق العزيز ...

فرت على الشفتين الصغيرتين ابتسامة ملائكية وقال :

— حدثنى يا جون عن بعض المهنود ورعاة البقر فقال جون :

— لا شك فى أننى أعرف من أخبارهم أشياء كثيرة رائعة ولكن يجب الآن أن تنام هادئاً فترة طويلة

فأطاع روني إشارة أبيه وأدار رأسه واستغرق فى النوم

فوقف الدكتور جونسون وقال :

— سيعيش . وكل ما يحتاج إليه الآن هو العناية . ترى هل أعدت مارى شيئاً من القهوة ؟ أظن أنى أتم رائحة قهوة وسأهبط إلى الطابق الأول لأرى رفعت رأسى فرأيت جون ينظر إلى بعينين ملوئهما الحب ، فقلت همساً :

— جون ، جون ، إني أريدك ، أريدك كما أنت

فدار جون حول السرير قادماً نحوى وقابلته فى منتصف الطريق ، وإذا أنا بين يديه بضمنى من جديد بعد هذه السنوات الطوال ، وهو يقول :

— إني أحبك يا إيلين ، ولم يقف قلبى قط عن

— لقد تعبت كثيراً ولكنها كانت تتجالد
فلا تشكو
ثم مضى يقول :

— إنكما لا تدركان مبلغ سرورى بشفاء
طفلكما . وستصبح حياتكم جميعاً سعيدة رائعة
بعد الآن . وأنت أيضاً يا جون اذهب واسترح
وسأبقى أنا هنا فترة من الزمن

قضيت أنا وجون ساعتنا الأولى معاً محاولين
أن نجمع فيها كل ما فقدنا من السعادة طوال هذه
السنوات المرة . وإن هناك من التجارب ما لا تستطيع
الكلمات أن تصفه ، إنما يستطيع أن يقدرها من
يعمر بها فيعرف قيمة الحياة بعدها

عبد الحميد محمدى

النبض بجبك ؛ ولكننى تركتك تعتقد أن الحياة
بدونك كانت مستطاعة ميسورة ، ولم أكن أثق
بضبط نفسى إذا نظرت إليك . وكنت أخشى أن
تدركى أننى أحبك ، والآن ستعود إلينا السعادة
يا عزيزتى .
فأجبت :

— جون ، إنى أحبك حباً صادقاً آخر الأمر
فقال جون فى رقة ولطف :

— ترى هل يفرح صبينا الصغير بهذا ؟
لم أجب على هذا السؤال لأن الطبيب عاد فى هذه
اللحظة إلى الغرفة وقد فاجأنا بقوله :
— خذ زوجتك فأرقدوها فى فراشها
ولما نظر إلى وجهى قال :

سبرى

لا تخشى على مستنداتك

سبرى

لا تخشى على مجوهراتك

او دعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهى فى الحفظ والا مان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة

مُسَهَّدَةٌ تَحْتَ ذَوْبِكَ الْفَضَى
وَهِيَ لَا تَجِدُ أَحَدًا غَيْرَكَ تَجْعَلُهُ
مُسْتَوْدَعًا لِأَسْرَارِهَا ، قَتَشَكَوْ
إِلَيْكَ بِهَا وَهِيَ وَاثِقَةٌ بِكَ ،
مُؤْمِنَةٌ أَرْسَخَ الْإِيمَانُ بِالْوَهْيَتِكَ
الَّتِي تَمْسَحُ الدَّمُوعَ وَتَكْتُمُ
الْأَسْرَارَ وَلَا تَقْشَى مَا تُؤْتِمِنُ
عَلَيْهِ مِنْ بَنَاتِ الْقُلُوبِ !

نَظَرَ إِسْمَاعِيلُ أَفْنَدَى إِلَى

الْقَمَرِ السَّاطِعِ خِلَالَ الشَّرْفَةِ الْكَبِيرَةِ ، وَظَلَّ بَرَهَةً
مُسْبُوهُمَا كَأَنَّهُ فِي حِلْمٍ ، ثُمَّ اقْتَرَحَ أَنْ يَذْهَبَ الْجَمِيعُ
إِلَى الْحَدِيقَةِ لِيَجْلِسُوا ثَمَّةَ تَحْتَ قَمَرِ الْمَنِيَا وَسَمَاءِ الْمَنِيَا ،
وَلِيَشْرَفُوا مِنْ رُبُوعِ الْخِلْدِ عَلَى النَّيْلِ الْقَدِيمِ الْمُقَدَّسِ
الْمُمَثِّلِ فِي هَدُوءٍ وَدَعَا لَوْحَى خُون^(١) الْعَظِيمِ

كَانَ إِسْمَاعِيلُ أَفْنَدَى فِي مُسْتَهْلِ حَيَاتِهِ ضَابِطًا
مِنْ ضَبَاطِ الْبُولِيسِ ، وَكَانَتْ لَهُ سَطَوَاتُ كَانَ صَدَاهَا
يَتَجَاوَبُ فِي فُضَاءِ قَلْبِهِ ، فَتَارَةٌ يَنْتَسِمُ وَتَارَةٌ يَتَجَهَّمُ ،
وَتَارَةٌ يَشْرُدُ لِبِهِ ... وَهَكَذَا كَانَ يَبْدُو أَثَرُ ذِكْرِيَّاتِهِ
عَلَى وَجْهِهِ حِينَ يَنْفَعِلُ بِهَا

وَكَانَ يَقْصُ لَأَبْنَائِهِ بَعْضَ مَجَازِفَاتِهِ فِي مَطَارِدَةِ
الْأَصُوصِ إِذْ هُوَ مُعَاوَنُ بُولِيسِ بَنْدَرِ طَنْطَا مِنْذُ ثَلَاثِ
وَعِشْرِينَ سَنَةً ... وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُ فِي الْقَصَصِ طَرِيقَةً
جَذَابَةً شَائِقَةً ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَبْنَاؤُهُ يَصْنَعُونَ إِلَيْهِ إِصْغَاءً
تَامًا ، وَكَانَتْ الْقِصَّةُ - أَوِ الْحَادِثَةُ - الَّتِي يَرَوِي
وَقَائِمُهَا قِصَّةُ أَخْلَاقِيَّةٍ رَائِعَةٍ مُمَثَّلَةٌ بِالْمَخَاطِرَاتِ الَّتِي
يَزِيدُهَا ظِلَامُ اللَّيْلِ ، وَتَقْيِيقُ الضَّفَادِعِ ، وَعَوَاءُ الذَّنَابِ
فِي رَيْفِ الْغُرْبِيَّةِ الشَّامِعِ رُوعَةً وَرَهْبَةً .

(١) خُونُ وَخُونَسُو مِنْ أَسْمَاءِ الْقَمَرِ عِنْدَ الْمَصْرِيِّينَ
الْقَدَمَاءِ ...

دَمُوعُ فَلَاحِ مَكْتَبِ

أَقْصَصُ نَوْصَةٍ مُضْرِبِيَّةٍ
بِكَلَمِ الْأَسْتَاذِ دِرْيَخِي خَشَبَةِ

جَلَسَ الْوَالِدُ السَّعِيدُ يَسْمُرُ إِلَى أَوْلَادِهِ السَّعْدَاءِ
حَوْلَ مَنَظَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي الرَّدْهَةِ الْفَسِيحَةِ الْمَزْدَانَةِ
بِصُورِ الْعِظَاءِ وَأَعْلَامِ الْفِكْرِ . وَكَانَتْ ثَرَيَاتُ الْكَهْرِبَاءِ
تَسْكَبُ أَذْوَابُهَا عَلَى الْوُجُوهِ الْمَصْفِيَّةِ إِلَى الْحَدِيثِ
السَّاحِرِ الْجَذَابِ ، يَلْقِيهِ إِسْمَاعِيلُ أَفْنَدَى عَبْدَ الرَّءُوفِ
بِطَرِيقَتِهِ الرَّائِعَةِ وَأَسْلُوبِهِ الْقَوِيَّ وَعِبَارَتِهِ الْهَادِثَةِ فَيَنْقُذُ
بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ إِلَى أَقْنَدَةِ بَنِيهِ

وَكَانَتْ لَيْلَةٌ مِنْ لَيَالِي الصَّيْفِ الْقَمَرَةِ . وَلَيَالِي
الصَّيْفِ الْقَمَرَةِ فِي مَدَائِنِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ عَامَةً وَفِي مَدِينَةِ
الْمَنِيَا عَمْرُوسَ مِصْرَ الْعَلِيَا خَاصَةً تَشْبَهُ لَيَالِي الْقَدْرِ ..
لَأنَّهَا لَيَالِي الْأَحْلَامِ وَالْحُبِّ وَالشَّعْرِ وَالسَّمْرِ الْجَمِيلِ
الْحَلُوهِ الَّتِي تَهْدِيهِدُهُ أَغَانِي الصَّعِيدِ الْفَتَانَةِ ، وَتَحْمِلُهُ
نَسَائِمُ الصَّحْرَاءِ فَتَرْطِبُ بِهِ الْقُلُوبَ وَالْأَكْبَادَ

لَهُ مَا أُرْوَعُكَ يَا قَمَرَ الصَّعِيدِ ! وَلَشَدَّ مَا كَانَ
أَبَاؤُنَا مَعْدُورِينَ فِيكَ حِينَ اتَّخَذُوكَ إِلَهًا !
خُونَسُو !

هَكَذَا كَانُوا يُسَبِّحُونَ لَكَ وَيَضْرَعُونَ
بِأَكْفِهِمْ إِلَيْكَ ، وَيَتَمَنُّونَ عَلَيْكَ الْأَمَانِي !
فَكَمْ سَطَرْتَ فِي أَدِيمِكَ الْمَتَلَأَلِيِّ مِنْ قِصَّةِ حُبٍّ
يَا خُونَسُو الْجَمِيلِ ، وَكَمْ شَهِدْتَ دَمُوعًا تَذْرِفُهَا عَيُونُ

- لكن إسماعيل أفندى سكت عن الحديث فجأة ،
وانتظر أبنائه أن يصل قصته ، بيد أنه لم يفعل ،
وبدل أن يتكلم راح ينظر إلى القمر ، أو إلى خونسو بلغة
المصريين القدماء ، كما كان ينظر إليه عبّاده
الأولون ... ثم راح الأبناء الواجدين أن يذرف أبوم
عبرة ترقرت فوق خديه الشاحبين ، لم يستطع أن
يمنعها من أن تندرف .
- ولم يجرؤ أحد من الأبناء أن يسأل أباه لماذا يبكي ،
لكن أمهم لم تبال أن تفعل ...
- أوه ! ماذا ؟ لعلك أسفت لأنك تسببت
في إعدام اللص ؟
- أبداً .. آه .. أجل .. والله لقد آلمني ذلك !
- وله ؟ أليس يستحق القاتل أن يُقتل ؟
- قد يستحق القاتل أن يقتل ، لكن كثيرين
من القتلة لا يستحقون أن يقتلوا .
- إذن تريد أن تضع شريعة جديدة ...
- لست أحاول ذلك .
- ولكن قل لنا أولاً : لماذا أحزنك إعدام
القاتل إلى هذا الحد ؟ !
- لقد ترك أسرة شقية لا عائل لها غيره .
- ولمَ لم يلتمس عيشه من طريق حلال ؟
- ومن يدرينا أنه لم يفعل ! لا شك عندي
أن أكثر لصوص بلادنا مضطرون إلى هذه الدناءة
برغمهم .
- ومنهم المجهول عليها وهو في غير حاجة
إلى السرقة .
- هذا حق لكنه قد يكون معذوراً كذلك !
- كلام عجيب ، وأعجب منه أنه يخرج من فم
رجل كان ضابط بوليس فيما مضى ... وكيف يكون
- معذوراً وهو في غير حاجة إلى السرقة ؟
- قد يكون معذوراً لأنه ربما نشأ في منزل
يعلم الإجرام !
- فلسفة جديدة !
- ليست فلسفة لكنها الحقيقة !
- وكيف ؟
- لو علمنا الناس وحاربنا الفقر لانتفت الجريمة
- وما علاقة المنزل بكل هذا ؟
- المنزل هو البناء والسكان ، وما دام البناء
غير صحي فسيظل الجسم غير صحيح . وما دام الجسم
غير صحيح فسيظل صاحبه يفكر تفكيراً سقيماً
ملتويّاً ، ومع ذاك فهو لا يفكر إلا في الشر والحسد
والحقْد و ... الجريمة ... هذا من جهة البناء ...
ومن جهة السكان ، فهم غالباً امرأة جاهلة شريرة ،
وابنة أجهل من أمها تريد أن تتزوج بأية وسيلة إذا
دب الحيوان في أصلابها ... ثم أبناء متخاصمون
متنافرون لا يرحم بعضهم بعضاً ، ولا يريد أحدهم
الخير للآخر ، لا سيما إذا كان أحدهم متزوجاً ...
- أرجوك أن تدغ هذا كله ... ولكن ماذا
أبكاك ؟ أحقيقة أنك تألت لأن الرجل ترك أسرة
لم يكن لها عائل غيره ؟
- هذا هو !
- أبداً ! ...
- إذن فماذا تحزرن ؟
- أحزر ؟
- أجل
- لا بد أن في المسئلة سرّاً ، وقد حاولت إخفاءه
عنا بهذه الفلسفة في أصل الجريمة !
- أبداً

— كلا، كلا ... لا داعي ... صاغى أباك
يا إحسان ... قبل يده ! هذا هو أبوك يا وجدى ...
ما هذا الظلام الخالك الذى انتشر فجأة فى عيني
إسماعيل ؟ إحسان ؟ من إحسان يا ترى ؟
لقد وجم إسماعيل وجوماً شديداً ، ووقفت
العائلة السعيدة ترمق القادمين بأعين دهشة ساحمة ...
من هؤلاء يا ترى ؟ لقد تساءل الصغار كل بينه
وبين نفسه : من هؤلاء ؟ من إحسان ؟ ومن
وجدى ؟ ومن هى هذه السيدة ... ؟ إن السيدة
تقول : إن أبام هو أبو إحسان وأبو وجدى ،
فإحسان إن صح هذا هى أختهم ... ووجدى ...
هذا الشاب اليافع العجب ببذلة العسكرية هو
أخوهم ... أخت من الطريق وأخ من السيارة ...
وعائلة طرقت باب الحديقة من جوف الليل القمر
ما هذا يا خونسو ؟! ما هذا يا كاتم الأسرار
الرهيب ؟ ألم يتفق عبادك على أنك مستودع بنات
القلوب الذى لا يفشى منها شيئاً ؟ كيف تفجأ عائلة
بمائلة هكذا من غير أهبة وعلى غير استعداد ... ؟
ألا ما أقساك يا خونسو الخبيث الساهر السامى !
تقدمت إحسان إلى إسماعيل افندى فصاغتته ،
ولما همت بتقبيل يده سحبها فى رفق وتلطف ...
ثم تقدم وجدى افندى فصافح الرجل المرتجف
المضطرب ، ولم يحاول تقبيل يده ، بل لم يحاول
الأنحاء القليل اليسير وهو يتناول اليد القاسية
الصارمة التى كان يمتنى نفسه منذ أن أدرك معنى
الحياة وحملها الثقيل بحسابها الحساب العسير
أما سميحة هانم ، أم الأنجال وربة العائلة ، فقد
أحست أنها فى مسرح كبير شاسع مكتظ بالرواد ،
تضج جنباة بالصغير والتصفيق والصخب ... وأول

— أبدأ ... هل هذا صحيح ؟
— وماذا يهمنى أن أقول كل شئ عن سر حدث
منذ ثلاث وعشرين سنة ؟
— ليس يهمك شئ ؟
— بلى ... لا يهمنى مطلقاً ...
— على كل ، شكراً للقمر العجيب الذى أبكاك !

وقبل أن تهض الأسرة المباركة لتنام ، وكانت
الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة سمع صوت
سيارة تقف عند باب الحديقة ، فأوماً إسماعيل افندى
إلى الخادم لينظر من المقبل
من ؟!

سيدة نصف^(١) ملثمة بلثام أسمر خفيف
يداعب التسيم حواشيه ، وفتاة تاهد فى مقتبل الصبا
وشرخ الشباب ، ترفل فى ثياب ثمينة تدل على السعة
والثروة والعيش الناعم المخفرج ... ثم شاب سامق
كالرمح يثب فى خطاه كذكر الحجل ، عليه بذلة
رسمية مما يلبس تلاميذ مدرسة البوليس ، أخذ القمر
يراقص أزوارها الصفر النحاسية ويفازل أشرطها
الحر الزاهية

— مرحباً مرحباً ، لعلكم فضلتم أن تستريحوا
عندنا !

— شكراً يا إسماعيل بك ! ألا تستطيع أن تذكر
من أنا ؟

— أنت ! ! ! أهلاً وسهلاً ... إجلسوا
أولاً ... أ ... لعل الطقس ملائم هنا ... أو ...
تفضلوا فى حجرة الجلوس يا حامد ... يا حامد ...
أودة الجلوس يا ولد !

(١) النصف التى بلغت الأربعين من النساء

المصنفين الصاجين هو ذلك القمر الساطع الساخر في عليانه ، الذي يكاد ينشق قطعتين من شدة الصغير والتصفيق .

لقد راحت سميحة هانم تنفّس في هذا الركب الذي انشق عنه جوف الليل كما تنشق القمام عن عفاريت سليمان !!

وراحت تسائل نفسها عن هذا الفتى وهذه الفتاة ولدى السيد إسماعيل زوجها العزيز

ثم جعلت تفكر في الرسالة التي وردت باسمها اليوم تحمل إليها نبأ هذا اللقاء المفاجئ العجيب ... « لقاء سيدة يسعدنا كثيراً أن نال مساعدتها في أمر هام سي جلب السعادة لكثيرين ، وسيشقى جراحاً طال عليها الزمان ما تفتأ تسبب آلاماً لكثيرين ... » ... هذه كلمات من الرسالة الهائلة التي تسلمتها سميحة هانم اليوم واليوم فقط ... لقد تسلمتها في الساعة الثامنة صباحاً ، والساعة الآن الحادية عشرة ونصف مساء ... فكأنه لم يمض إلا نصف يوم وبضعة ساعات حتى تم اللقاء التي أُنذرت به - أو خبرت به - الرسالة الهائلة

ولم تكن سميحة هانم تصدق أن وراء زوجها الوفي الأمين سرّاً عميقاً كهذا السر ، إذ كيف يكون ما جاء في الرسالة حقاً وهذا هو زوجها الوفي الأمين يباشرها عشرين عاماً لا تدل إلا على الوفاء الجهم والمحبة الصافية لها ولأبنائها ... وكيف يستطيع رجل مثل هذا الرجل الوفي الأمين أن يكتم سرّاً مثل هذا السر في أعماق قلبه فلا يبوح به لزوجته التي هي نصف حياته إن لم تكن حياته كلها ؟!

لقد قرأت سميحة هانم رسالة تلك السيدة التي وصلتها اليوم عشرات المرات ، وكانت تخرج منها

في كل مرة بمعنى جديد لم يخطر لها ببال ، ثم كانت تارة تصدق وأخرى تكذب ، تصدق لأن ألقاظ الرسالة ألقاظ حزينة مكتوبة فيها إخلاص وفيها دموع وفيها حشرات ، وتكذب لأنها لم تعهد في زوجها إلا الأمانة والصدق والبساطة أحياناً . فكيف يستطيع أن يخفى عليها سره هذا وهو سر هائل هكذا ؟

وُخيل لسميحة هانم أن الرسالة مفتوحة أمام عينيها .. فهي تتلوها سطرّاً سطرّاً وكلمة كلمة . بل خيل إليها أن أحروف الرسالة أحلام سوداء عانق بعضها بعضها ، وأخذت ترقص في رأسها المضطرب هكذا :

حضرة السيدة المحترمة حزم إسماعيل بك عبدالرؤف « لا تزعمي يا أختاه فهذه رسالة من أخت ، أو صديقة ، لا تحقد عليك ، ولا تتمنى لك إلا كل خير وسعادة ... على أنني لست أدري إذا كنت قد علمت قصتي أو عرفت اسمي قبل اليوم ؟ أنا أرجح أنك لا تعلمين من أمرى شيئاً ، ولذلك ، فربما تظنين أنني أرسل إليك بهذه الكلمة الحزينة لأحدث في حياتك الهائلة حدثاً يرتق صفاءها لا قدر الله .. كلا يا أختاه ... فلقد صبرت للنكبة التي حلت بي صبراً جميلاً ، وكرست حياتي لإسعاد ولدى مجدى وإحسان ، وسأحت إسماعيل على ما صنع بي ، وإن لم يكن له عذر قط ... قد لا تظنين أنني أقصد إسماعيل بك عبدالرؤف زوجك المحترم .. إطمئني يا أختاه ... إنه هو نفس الرجل الذي أعنى ... قد لا يكون عندك خبر بما كان بيننا منذ ثلاث وعشرين سنة ... أوه ! ثلاث وعشرون سنة زمان طويل جداً وقديم ، وإثارة الذكريات التي ترجع

استشاط غضباً ، ودبر لنا حيلة ليجمعنا وإياه معاً ليرى فينا رأيه ... وأأسفاه ! ليته لم يفعل يا أختاه ! لقد جمعنا ليلقي حتفه بيد إسماعيل ! ... أما كيف كان ذلك فلهذا قصة طويلة حالكه ما تزال طي الكتمان إلى وقتنا هذا ، وأنا ألخصها لك في كلمات ... لقد احتدت المناقشة بين أبي وبين ... حبيبي ... وهم الوالد المغيظ المجروح في عرضه المطمون في شرفه أن يبطش . بإسماعيل ، فأخرج من جيبه غدارة محشوة ليفرغ ناراها في صدر الشاب ، ولست أدري كيف نسي إسماعيل عند ذلك حبه ، وتممرت في رأسه عسكريته ؛ فإنه أخرج مسدسه بأسرع من البرق ، ثم أطلقه في رأس أبي ...

— يا للهول ! ... إنني أتذكر الوالد المسكين يا أختاه وهو يسقط إلى الأرض ناظراً إلى ... إلى أنا وحدي ... تصوري أيتها العزيزة موقفي ذاك بين أبي وبين حبيبي ... أستغفر الله ... بل بين أعز الآباء وأكرمهم وبين هذا الحبيب الوحش القاتل ، سافك الدماء ! ... على أن أبي العزيز كان كريماً حتى في موته ... لقد ظل يجود بروحه أكثر من عشر دقائق نسي فيها موقفه ومأساتي ، وذكر خلاصي وخلاص ... إسماعيل !!

« لقد طلب إلى قلماً وورقة ، فأحضرتهما على عجل ، فكتب بيد مرتجفة أنه ينتحر تخلصاً من مرضه ، وسجل الاعتراف بكتابة اسمه في هدوء عجيب وطمانينة لا يذكرها أحد ساعة الموت !

وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، انحنى إسماعيل يقبله ، فتبسم أبي ثم تمم : « هل تزوج كريمة يا إسماعيل ؟ » . فأجهش إسماعيل بالبكاء ثم قال : « إطمئن أيها الوالد فسأزوجها ، والله على ما أقول شهيد ... »

إلى قبل هذا التاريخ هو شيء مؤلم ، ومثير للمواقف . لماذا لا نفضل أن ننسى هذا الماضي ؟ آه ! قد تعصف بنا ضرورة فنشير هذه الذكريات برغمنا ... فثلاً ... لا تنزعج يا أختاه إن لم تكوني قد عرفت مأسا ذكره لك ... فثلاً ... لقد حدث أمر قهري بيني وبين إسماعيل بك قبل ذاك التاريخ البعيد ... قد تسأليني ماذا حدث ، وسأريحك حتى لا تفكري طويلاً ... لقد أحبني إسماعيل وأحبته ، وأجب كل منا الآخر حباً من ذلك الحب الذي تستعر ناره بسرعة وفي عنب لأنه يصادف قلوباً خالية فيتمكن ويكون جارفاً عارماً قوياً ... حب الشباب يا أختاه ... وأحسبك قد أحببت إسماعيل كما أحبته ، لأنه قبل عشرين سنة كان فتي ممهر القامة ، خلاب اللفات ؛ وكان في روحه شيء غريب غامض تنجذب إليه أرواح الفتيات في شدة من دون أن تكون لهن إرادة في ذلك ، فلا يلبث أن يقعن في شراكه كما تقع الحشرة في نسيج العنكبوت ... أخشى أن أمسك لأنني أطيل عليك ... فاعذريني إن خرجت عن موضوع رسالتي ، لأنني أذكرك بما كان في إسماعيل ، زوج كليتنا ، من جاذبية وسحر ، لأن تذكرك بهذا سيكون أقوى أدلتي عندك على صحة قولي ... ولا بد أنك تذكرين جاذبيته وسخره تماماً ، خصوصاً إذا كنتم قد تحاييتنا قبل الزواج .

— نما خبنا يا أختاه ، وسقته دموعنا ، فترعرج وأظلنا كالذوذة الباسقة ... وأرتبط قلبانا برابط قوى مقدس ... لكننا لم نصبر على جوى الحب كما يصبر الآخرون . لقد زلت قدمنا يا سميحة هانم . يا لله لماذا أبوح بكل هذا ؟ ... ولما لاحظ المأسوف عليه . — أو الغفور له . — والذي ما تغير من حالي ،

وقيدت الحادثة انتحاراً كما أراد والدى الكريم
الرحيم البار ، ولم يحث إسماعيل فيما قاسم عليه أبي ،
وتزوجنا ، ورشونا المأذون فقيد التاريخ في صحيفة
سابقة ، حتى لا يكون كلام بين الزواج وبين الحادث
وبين الوضع ...

وعشنا في ظلال الحزن أعواماً ثلاثة ، كانت
تتمثل لنا الحياة طولها جحيماً لا صبر لنا عليه ...
فقد فترجبننا ، وخذت جذوته التي كانت تشيع
بالكهرباء في جوانحننا ... وولدت لإسماعيل إحسان ،
لكنه لم يرها إلى اليوم ، فهل تصدق ذلك ؟ وظنى
أنه لا يذكر أخاها وجدى ... وجدى الحبيب الذى
لو رأيته اليوم لسرك شبابه ، وراقك عنفوانه ...
وجدى هذا لا يذكره إسماعيل أبوه ... كما لا يذكر
أخته ، لأنه ، عفا الله عنه أبى إلا أن تنفصل قبل
أن أضع ابنته بأربعة أشهر ، وكان عمر وجدى إذ ذاك
عامين ونصف العام على وجه التقريب

ولم أعارضه فيما رأى ... وأبرأته من كل شيء ،
واقترقنا على ألا نلتقى إلا الأبد

وعلمت بعد ذلك أنه خطبك وبنى عليك ، فوالله
ما حزنت لهذا ولا ضقت به ، بل ذكرت الله ربى لى
ولولدى ، وصليت له من أجلهما

واليوم ... وبعد عشرين عاماً يا سميحة هانم ...
كبرت عزيزتك - إن رضيت منى هذا التعبير -
«إحسان» وتقدم إلى خطبتها شاب رضى الخلق سرى
النفس كريم الأرومة ، من أسرة غريقة في بلدتنا
طنطا . وهو طبيب من أشهر أطباء المدينة له جاه وله سمعة
طبية ... غير أنه ، ولا أدري كيف عرف هذا ،
علم أن والد إحسان ما يزال حياً يرزق ، وإنه يقيم
في منزله في مدينة المنيا كحسن ما يقيم الوالد الكريم

بين أبنائه ... فأصر على وجوب اشتراك الوالد في
خطبة ابنته ، وفي عرسها أيضاً ...

- حاولت يا سميحة هانم أن أثنيه عن هذا
الإصرار فأبى ، وقال إنه ذهب إلى المنيا وعرف من
سيرة إسماعيل بك الشيء الكثير ... إن جميع
أهالى المنيا يمتدحون أخلاقه ويطرون سيرته ،
ويضعونه في الدروة من شرفهم جميعاً ، فإذا يمنته
من المشاركة في عرس ابنته ، ولماذا لا تنتهز هذه
الفرصة الثمينة لنسيان الماضى ؟

- خفت يا أختاه أن أصر على الرفض خشية
من العواقب ، وإقصاء لأشباح الذكريات المرة
حتى لا تمكر على صفو أحزاني ؟ أجل ! صفو أحزاني
يا أختاه ... فقد صار لأحزاني صفو رضيت به ،
فأنا أجمع غصته في سكون وهدوء وشجاعة ...
لأنى أنسى ماضى كله في سبيل حاضرى المستمر ،
وهو السهر على تربية ولدى الذى فرأبوها وتركهما
في عنق ...

- فإذا تقولين يا سميحة هانم ؟ هل كثير
أن عرفت هذا السر المزيج الذى ما أظن إسماعيل
قد وقفك عليه ؟ وهل كثير أن أضرع إلى هذا
الوالد الكريم أن يشارك في عرس ابنته مشاركة
إن شاء جعلها رضية ، وإن شاء جعلها فعلية ؟
إن هذا أو ذاك لا يكلفه كثيراً ... فأنا والحمد لله
في سعة ، وقد ترك لى المرحوم والدى أطيافاً واسعة
وعقاراً عظيماً ومالاً جماً ... فمن جهة المادة لا أريد
أن أكلفه شيئاً ، والذى أطلبه منه أن يكون أباً
لإحسان يوماً أو يومين ، وأن يذكر تضحيتى
في سبيل ولدى ؛ فقد رفضت خطبة أطباء ومثربين

ومحامين وقضاة ، وفضلت أن أغيش لوجدى وأن
أعيش لإحسان أرحامها بين الأمومة الحزينة الباكية
وأعطف عليهما بالصدر الذى كله أشجان وحشوه
آلام وذكريات وأحزان ...

« فإذا تقولين إذن ؟ هل ستكونين شفيعى
لدى هذا الرجل ؟ هل تضمنين صوتى إلى صوتك
فى سبيل إيقاظه من هذه النوم الطويلة ؟ لقد
عزمت أن أزورك فجأة ... و ... وربما لا يمضى
طويل حتى أكون عندكم ...

« وتقبلي يا أختاه تحيات أم مهيضة كسيرة ،
وقبلات ابن يتيم وأبوه حى ، وسلام فتاة بريئة لم تسعد
بوالدها القريب البعيد ! ! »

« كريمة بهاء الدين »

تخيلت سميحة أن هذا الخطاب الطويل مبسوط
أمام عينيها ، فهي تقرأه ، ثم تقرأه ، ثم تعيد قراءته
عشرات المرات فلا تستغرق المرة أكثر من طرفة
عين ، وعجبت كيف يكون ما جاء فيه حقاً وكيف
تكون هذه السيدة - كريمة هانم بهاء الدين - حقيقة
لا ريب فيها ... ثم تفرست فى الشاب ... وجدى ...
ما أحلى هذا الاسم وما أرقه ! ! وجدى ! ! الثمرة
البريئة لحماقة عاشقين ! ! فيأتري ، هل يعرف وجدى
هذه القصة القديمة المؤلة ؟ ... إنه قطعة من أبيه
ما فى هذا شك ، وها هى ذى ظلال فضية من أشعة
القمر تنكسر على جبينه فتعكس السحر من ناظريه ...

صورة قديمة كالصورة التى وصفتها كريمة هانم فى
خطابها لشباب إسماعيل وجاذبته وسحره ... ولقد
أحبت سميحة هانم زوجها إسماعيل وهامت به بتأثير
هذه الجاذبية الغامضة التى كانت تفيض بها روحه
كما ذكرت كريمة ... لكن إسماعيل أيضاً كان يبادل

زوجته حياً بحب وهياماً بهيام ... فيأتري ، هل كان
يذكر كريمة فى فصول غرامه التى كان يملأ بها أذنى
سميحة ، ويرتلها على سمعها ترتيلاً ؟ ؟ أليس فى هذا
العشق بعد العشق نفاق على القلب وتدليس على الروح ؟ ؟
لقد تكلم إسماعيل عن الجريمة والمجرمين الليلة ، وقد
سكت فجأة وهو يقص على أبنائه إحدى مخاطرته ...
فلماذا سكت فجأة يا ترى ؟ ! أ يكون قد ذكر هذه
المأساة الدامية ؟ ! إنه لابد قد ذكرها إن لم يكن قد
ذكر ما هو أشد منها هولاً وأغزر دماءً بريئة ؟ !
ولكن وجدى ... هذا الفتى المشوق السمهرى
ما ذنبه ؟ ؟ كيف ساع لإسماعيل أن يتركه ويترك
ما فى بطن أمه ثم يفر كالجبان النذل ليتزوج مرة
أخرى بدل أن يعتكف فى خلوة أو يعتزل الناس
فى جبل أو دير ؟ ! ألا ما أشقى الإنسانية بكثيرين
ممن ينتسبون إليها ظلماً وهم إلى وحوش الغاب أقرب !
ثم هذه الفتاة الجميلة إحسان ؟ ! كيف نشأت
طوال هذه السنين ؟ قد يظن الإنسان أنها كانت
تكون أشد شقوة لو أنها كانت فقيرة ، والإنسان
حين يظن هذا ينسى أن ملء العالم ذهباً لا يؤمّض
على فتاة مثل إحسان تلك الأبوة التائهة ... ! إنها
لا بد قد سألت نفسها ألف ألف مرة: أين أبى مادام
موجوداً ؟ ولماذا لا يعيش مع أى كذا يعيش الآباء
مع الأمهات ؟ ولماذا يكون أبى بهيماً هكذا وكل الآباء
بشر لهم قلوب وفى قلوبهم رحمة وعطف ومحبة ؟ !
لا بد أن إحسان قد سألت نفسها هذه الأسئلة ألف
ألف مرة ، بل هى تسألها صباح مساء وفى كل
لحظة . وليس صحيحاً أنها لا تعرف ما الأبوة لأنها لم
تجربها ولم تنعم بها ... ليس صحيحاً هذا ...
وإلا فقد بطل علمنا بالله لأننا لم نره ، فإن إحسان

تعيش كما يعيش أربابها، ولكل من أربابها والد بر
رحيم محب ودود، لكن إحسان ليس لها أب لا بر
ولا غير بر، وإذا سألت أمها أجابها بدموع غزار
حرار، ثم لم تشأ أن تكذب ابنتها، فتصرفها عن
سؤالها في رفق وعطف وحزن وتلد

ما هذا الوالد اللئيم الذي يفر من أبنائه كما تفر
ذكران القطاط والكلاب والحير و... و... ؟
كيف يسمو علينا نحن الآدميين الحمام والمصافير
وسائر الطير وهي من مراتب الحيوان ولو أن لها
أجنحة ؟

— «صاخي أباك يا إحسان ! قبل يده ! هذا
هو أبوك يا وجدى !» قد يكون الإنسان جالساً
مع بعض صحبه فيسقط عليه جامود من الصخر فجأة
فلا يحسن الألم في الحال، لكنه يقع في شبه غيبوبة
عميقة إذا أفاق منها بدأ يصيح كالطفل، وقد لا يشعر
أين مكان الألم من جسمه، لكنه كلما ذكر أن حجراً
سقط عليه من علو استفظع الأمر واستمر في
الصياح... وهكذا كان حال إسماعيل أفندى حينما
سمع السيدة تقول هذه العبارة الهائلة: «صاخي أباك
يا إحسان ! قبل يده ! هذا هو أبوك يا وجدى !»
إنه فوجئ لأول مرة في حياته بأن له ابنة تدعى
إحسان ! لم يكن يعرف ذلك من قبل، وإن يكن
يعرف أنه ترك كريمة جاملاً... يا لقسوة الفؤاد
الذى ينسى رجولته تحت إصر الجريمة ؟ ! لقد نزل
عليه الخبر كما يصطدم رأس السارية بعامود من
حديد أو جدار من الحجر الصلد، وقد أسلمه ذلك
إلى غيبوبة عميقة زاد في عمقها أنها حدثت أمام
زوجه وأبنائه...

لقد نظر كل من هؤلاء نظرات تائهة إلى السيدة
الملثمة في ضوء القمر، فلما قالت قولتها، انصرفت
نظراتهم متبعثرة تنتثر على وجه أبيهم ووجه إحسان
ووجه وجدى... لكنها كانت أعلق بوجه الوالد
من أوجه الغرباء المفاجئين !

هل عرفت الماء الآسن الراكد حين تقذف فيه
بحجر ماذا ترى على سطحه من تغيرات ؟ ! لقد
كان وجه إسماعيل أفندى يشبه تماماً ! بل كان
وجه إسماعيل أفندى يتقلص مرة ثم تملؤه كآبة ثم
تشيع في أساريره ظلمات فتجعله كالبحر اللجى...
ففيه مغفور كالهوة السحيقة بين كل موجتين،
وعيناه كأنهما زورقان يتلاعب بهما الماء ليقذف بهما
من حلق...

— لماذا لا تحبى أبنائك يا إسماعيل بك

— أبنائى ؟ ! ...

أجل... إحسان التى لم ترها قبل اليوم،
ووجدى الذى كان أعز مخلوق عليك فى الحياة ؟...
ألا تذكر ؟ ! هل نسيت ؟ عجباً ! هل نسيت كل
شئ ؟ ...

— ومن أنت ؟ ...

— من أنا ؟ ... أنا أم ولديك هذين ! أنا
كريمة بهاء الدين !
— آه... كريمة !

ثم التفتت كريمة إلى سميحة هانم فقالت :

— هل وصلت خطابى يا سميحة هانم ؟

— أجل يا عزيزتى لقد وصلتني

— لعله لم يزعجك !

— وكيف يزعجنى وقد كتبتة عزيزة جداً مثلك ؟

— عفواً... كم كنت أفضل ألا أسبب لكم

فكراً قد يسوؤكم !

— ولماذا يسوؤنا أن نعرف؟
— هذا أمر طبيعي إن لم يكن إسماعيل بك
قد ذكر لك شيئاً من ماضيه
وهنا تدخل إسماعيل قائلاً:
— على أننى لا أدري ما الذى جعلك تذكرينى
بعد عشرين سنة؟

— وهل كنت تظن أن الدهر كله يفصل
بينك وبين أبنائك؟
— من هم أبنائى؟

من هم أبنائك؟ إسماعيل بك! أفق تماماً،
ولا تجعل البلوى بلوتين بإنكارك... قد تحاول
أن تقطع الزمن فتجعل لك ماضياً تحب أن تجهله
أسرتك الثانية براءة من أسرتك الأولى، ثم تجعل لك
حاضراً تشعره أنك ملاك... إحذر أن تحاول هذا
أيها الرجل... على أننى لست أفهم لماذا تحاول ذلك؟
لقد جاهدت طويلاً في أن يظل وجدى يذكرك،
ولا ينساك لأنك أبوه، ومن لا والد له فهو
لا شرف له وإن يكن هو مظلوماً في ذلك. أما إحسان
فهى ابنتك التى فررت من أبوتها فظلمتها وهى لم تر
الدنيا بعد، فهل تريد أن تنكرها هى أيضاً؟
قبل أن تفعل، تذكر أنك كنت رجلاً رسمياً من
رجال الحكومة، ففكر فى العواقب التى تبنى
على إنكارك... وأريد أن أطمئنك... إنى لم أحضر
إلى هنا لأنقص عليك صفوك... أو لأقتص منك...
لا... لقد نسيت كل شيء... لقد علمتنا مأساتنا الخير
المحض، فأنا ووجدى وإحسان نمرح دائماً منذ
فررت. فى رعاية الله وحمايته... وقد عرفت أنك
تزوجت من سميحة هانم فى نفس الشهر الذى بنيت
عليها فيه، فلم يثر فى قلبى أى حقد عليكما، بل - والله

شهيد على ما أقول - لقد طلبت لكما السعادة كما طلبت
لنفسى المعونة على تربية ولدى... وكان يبكى فقط
أن يسألا عن والدهما أين هو؟ فأقول لهما إنه حى
يرزق، وهو سعيد، فاطلبا من الله أن يزيد سعادة،
أليس كذلك يا وجدى!

— أى! —
— ماذا يا بنى؟
— أريد أبى أن ينكرنا؟
— سله أنت يا بنى... إنه لا بد بحبيك بالحق...
فهذه لحظة لا يستطيع فيها لسان آدم أن يفترى...
إنها لحظة من لحظات الله!

— أبى! —
— ...؟ —
— ألسنت أنا حبيبك وجدى؟
— وجدى من! —
— حبيبك وأعر الناس عليك، وجدى الصغير.
ألسنت أنت الذى كتبت هذا الكلام تحت صورتى
هذه من سبعة عشر عاماً؟

ومد الشاب يده بالصورة بعد أن أخرجها من
جيبه، ثم أعطاها لأبيه... ولكن الأب الشارد
كان ما يزال فى غيبوبته فلم يمد يده ليتناول الصورة
القديمة العزيزة التى طالما طبع عليها آلاف القبل،
وسفح عليها آلاف العبرات قبل أن يعتزم الفرار
من كريمة.

— لماذا يا أبى تأبى أن تتناول الصورة؟ هل
صرت قاسياً إلى هذا الحد؟... تكلم أرجوك...
لقد كبرت، ولى سبعة عشر عاماً أو أكثر لم أراك.
ألم تفكر فى كما فكرت فىك؟ كم كنت أتمنى أن
أراك أيها الوالد... أهؤلاء... أولادك؟... الله

— شكرًا لك يا سميحة هانم ... أرجو ألا أكون قد سببت لك قلقًا

— أى قلق يا عزيزتى ! كلا والله ... عشمى ألا تتأثرى من إسماعيل ... إن الموقف صربك من غير شك ...

— ولماذا يرتبك ؟

— لماذا يرتبك ؟ على الأقل لأنه لم يذكر لنا عنكم شيئًا مطلقًا ... ثم هذه السنون العشرون ... إنها عمر يا كمله يا عزيزتى ...

— ألم يقرأ خطابى يا سميحة هانم ؟

— خطابك ؟ ... بل أنا الذى قرأته !

— وهو ؟

— لم يقرأه ... بل لم أذكر له عنه شيئًا

— وله ؟

— لأننى لم أصدقه بادی رأى ... إنه قصة

مشجية ، أليس كذلك يا كريمه هانم ؟

— لكن لهجته الباكية تدل على أنه حق !

— الآن فقط عرفت أنه حق .. بل ربما لم يحو

كل الحق يا كريمه هانم ... ما شاء الله ! إن صورة

وجدى وهو صغير تشبه صورة عبيد تمامًا

— ومن عبيد ؟

— عبيد ابنى ، أخو وجدى !

— والخط الذى فى ظهر الصورة !

— هو خط إسماعيل ، ليس فى هذا شك !

— إذن ... فأليك هذه الصورة أيضًا ...

— آه ... آه ... هيه !

— آه ماذا يا سميحة هانم ؟ !

— هذه هى صورتكما !

— هى بعينها ... هل كنت تعرفينها ؟

— لقد كشفتها فى كتاب قديم بعد (دخلتنا) !

ما أسعدنى بهم ! كم كنت أتمنى أن يكون لى أخ فهو لاء إذن إخوتى ! تكلم يا أبى ... إني أحس كأنما قلبي ينجذب إليك ...

يبد أن الرجل وقف متخشبًا بل وقف كأنه صنم من أصنام بوذا ... تفكير عميقة لكنها من صخر ، ولا يهم أن تكون من صرصر ! وهنا تألت سميحة هانم لضراعة الشاب الذى يشبه أباه شبهًا كبيرًا ، فقالت والهم يعتصر فؤادها :

— لم لا تجيب يا إسماعيل ؟ أليس وجدى ابنك ؟

— ليس ابنى ولا أعرفه !

— عجيب جدًا ... لكنه يشبهك كثيرًا ...

— هذا لا يهم !

— أرنى الصورة يا وجدى أفندى !

ثم تناولت الصورة وجعلت ترمقها فى ضوء القمر ، فراعها أن يكون الخط خط زوجها ... لكنها لم تعجل ، بل دعت الجميع ليدخلوا فقد أخذ الموقف يتخرج ، ولم يُحس القادمون بأية تحية ، وليس هذا من عرف الصعيد الكريم المضياف ... وحاولت كريمه هانم أن تعتذر فأقسمت سميحة أن تقبل دعوتها ... وهنا بدأ الجميع يتحركون كالأشباح المتعبة إلى الداخل ... وبقى إسماعيل فلم يتحرك .. وبقى معه ولداه .. وجدى .. وعبيد ..

ولما جلسوا قليلًا فى الغرفة الفسيحة المؤثثة ، وشربوا عصير البرتقال المثلوج ... دار الحديث فكان ذا شجون :

— مرحبًا بك يا كريمه هانم ... ما شاء الله

الآنسة إحسان جميلة جدًا ... إن شاء الله ربنا يتم بخير .. الله ! إن لها خالًا فى خدها .. مثل إسماعيل تمامًا ... وفى نفس الموضع

— ثم ...
 — ثم أنكر أن تكون السيدة شيئاً إلا ...
 — إلا ماذا ؟
 — ... ؟ ...
 — لعله أخبرك أنها حظية أو واحدة من صويحباته !!
 — لا تحزنى يا كريمة هانم ... الحق أن زواجكما بعد الحادث المؤلم الذى ذكرته لى كان ينبئ ألا يتم !
 — وأين كنت أذهب بوجدى يا أختاه ! ؟
 — وجدى ... آه ... بل كان ينبئ أن تزوجا !
 ما ذنب وجدى ؟
 — لولم يكن فى أحشائى منه شئ مما آثرت أن ...
 ثم حبس الدمع منطق السيدة المحزونة فلم تستطع أن تكمل
 — على كل حال لقد برهنت على نبل وأرومة مجد يا كريمة هانم !
 — شكراً لك يا أختاه ! ماذا كنت أستطيع غير هذا ؟ !
 — عجيب جداً أمر إسماعيل ... الآن عرفت سر أحلامه !
 — أحلامه ... ؟ !
 — أجل ... لقد كان يحلم فى اليقظة وفى المنام ..
 وكان يتمم بكلمات لا نفهمها وعيناه مفتوحتان جاحظتان
 — ولكن لماذا يحاول أن ينكرنا ؟ لعله ظن أننا فى حاجة إلى عون المادى ؟ !
 — وإذا كنتم كذلك فإذا يمنعم من طلب هذا العون ؟ إنه ملزم بهذا بل هو ملزم بأكثر من هذا ...
 إنه ملزم بنفقة ابنته طوال هذه السنين ، وأحسب أن نصف ثروته لن تقوم بذلك !

— ومع ذلك فأنت التى تقولين هذا !
 — ولم لا أقول هذا وقد خيل لى أنه ربما فرمنا مثلما فرمناك ؟ !
 — لا ... لا قدر الله ... ولماذا يصنع ؟ إنه لم يفر منا يا أختاه ، بل هو قد فر من الذكريات ، ولولا هذا ما أعفيتها ...
 — هذا ضعف ، فقد غفر له والدك قبل أن يموت وأتجاه من القصاص العادل ... إن هذه يد لا يجحدها إلا لثيم ...
 — سيدتى ... أنا أعتذر ... يبدو لى أننى ورطتك فى الثورة على زوجك ...
 — بالعكس ... حقيقة أننا كنا نعيش سعداء ، لكن أحلامه كانت تنغص علينا صفونا ، وكان جهلنا أسبابها يرهقنا بل يزججنا ... لقد كانت تتنابه حالات من الذهول والشروء هى أشبه بالجنون ...
 فكنا كلنا نبكى من أجله ... ولن ننسى مرة حين سمعناه يصرخ فى سكون الليل طالباً المغفرة من ابنه ... قائلاً : يا رب ... إغفر لى يا بنى ... ليست خطيئتى أنا وحدى ... إصْفَحْ عني يا وجدى ! ...
 هذا الغلام الذى لا أشك الآن فى أنه هو ... ولقد جعل مرة يضحك فى رمضان ساعة الأصيل ويقول : نفاق ... رياء ... أنا منافق ... لقد كنت لا أصوم رمضان ... ولكنى أصومه منذ عشرين سنة ، وكنت لا أصلى كذلك ، ولكن هأنذا أصلى منذ عشرين سنة أيضاً . فلماذا ؟ ! لماذا أعبد الله على هذا النحو ؟ ! أليغفر لى ؟ ... أبدأ ... أبدأ ...
 لن يغفر الله لى .. فالآن يا سيدتى عرفت السبب ..
 لقد كان يخفى عنا كل شئ ، فأما وقد عرفنا كل شئ فسيكون يسيراً جداً أن نعالجه ... لقد كسبنا كثيراً ...

الشاب بالسر الهائل . ربما ذكر له أنه ابن إثم ،
وثمره جريمة . ولذلك تار و جدى وحاول أن يقتل أباه

وسافرت الأسرتان إلى طنطا للاحتفال بعرس
إحسان ... وحينما تقدمت الفتاة لتأخذ من والدها
هديته — ألف سهم من أسهم بنك مصر — نظر
إليها أبوها نظرة عميقة صامتة ، ثم طبع على جبينها
الجميل قبلة طويلة ... لكنه سقط إلى الأرض
مغشياً عليه . .

وتقدم الدكتور العريس فجئا بجانب الرجل
وأخذ يفحصه ، ثم أمر بإخلاء الردهة لتجديد
الهواء ...

وتوفى إسماعيل أفندى عبد الرؤوف في مدينة
المنيا العامرة بعد غرس ابنته بعشرة أيام ، بعد أن
كأت في معالجته حيل الأطباء ...

لكنه مات كريماً آخر الأمر ، وترك خلفه
قلوباً صحيحة
درينى غشبية

الأم فتر

للساعر الفيلسوف موت الألمانى

مترجة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونمها ١٥ قرشا

— عجيب جداً ... إنك زوجة كاملة !
— أشكرك .. بل أنا شريكك في هذا الأمر
ورجائى أن تلىنى معه ، فهو رجل طيب ، وقد تنفعينه
أكثر من أى شخص آخر .
ماذا حدث في الخارج ؟
ما هذا الصياح الشديد ؟

— كلا ... كلا ... لا تقتلنى يا وجدى ...
حرام عليك يا بنى ... أنا أبوك ... كيف تبوء
بأئى ؟ ... تعال ... سأقدم لك الدليل الذى يبدد
شكوكك ...

كانت هذه الكلمات ترتفع ثم ترتفع ... ثم
دخل إسماعيل أفندى فجأة ... وتناول صورة كبيرة
ذات إطار مذهب فكسرها ، وقض ألقافها من
خلف ، ثم أخرج من داخل ذلك كله صورة
متوسطة قدمها للفتى الذى كان يعدو وراءه ...
لوجدى !

— ها أنت ذا يا بنى ... أليست هذه صورتك
بينى وبين أمك ... أليست هى نفس صورتك
وأنت طفل ؟ لقد صورت الصورتان ، هذه والى
معك ، فى يوم واحد ... فاطمئن يا بنى ... إنك
ابنى وأنا أبوك

وتناول وجدى الصورة من يده أبويه فخلق فيها
ثم ذهب إلى أمه باسمًا فقدم إليها الصورة قائلاً :
— لقد تكلم والدى كلاماً لم أصدقه ... يبدو لى
أنه متعب ، أو مريض ... أضحج ما قال يا والدتى
— ماذا قال لك يا بنى ؟

— لا داعى لذكر ما قال ... لا بد أنه متعب ...
إن هذه الصورة التى كان محتفظاً بها هى حسبى ...
أليست ابن حلال يا أمى ؟
فعرفت الأم كل ما قال زوجها القديم . لقد طمن

زفر جنة

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَنْثَى جَمِيلَةِ الْعَالِيَةِ

السبب حسب ما يرسمه ذهنه
على ضوء تفكيره وإحساسه..
وأنا وحدي كنت أعرف
السبب ... فقد أهدى لها
خطيبها أول يوم صارحها بهواه
باقة من زهر البنفسج ثم جعله
بعد ذلك تحية معطرة يقدمها
إليها كلما لقيا حتى خيل للفتاة

أن هذا الزهر رمز سعادتها المنشودة ومفتاح تفاؤل
نفسها المتمطشة لكل ما تطمع إليه عذراء في سن
العشرين من عمرها ... وكانت تحرص كل الحرص
على أن يحتفظ الزهر بروقه وعطره حتى أنها راحت
تبحث في كتب الطبيعة لتعلم كيف تصون الزهر من
الذبول ، وانتقت له إناء جميلاً كانت لاتعنى بأى عمل
في منزلها إلا تنظيفه ، ولم تحاول أن تعرف تنظيف
أى أداة من أدوات البيت غيره ...

لم أرها غير مرة واحدة وهي تتقبل منه الباقة
— لما زارها في منزلها — تقبلته في فرحة الطفل
الطروب الذي عثر على أعز ما يتمناه من لعب
قد يكون ذرف في سبيل العثور عليها أحر الدموع .
قبلت الزهر في حنان ثم وضعت في الإناء بخفة
ما لمحتها فيها أبداً ... كأنها تستودع أحلامها وأمانها
قلب القدر ... حتى في يوم العيد كان يرفق الهدية
بالباقة ...

تصرف مألوف كأي عمل معروف ... إنما
الإنسان هو الذي يخلق من العدم الوجود بحسبه
وتفكيره ... نحن نرى الزهر في كل مكان وبجمل
به كل مكان نزين به ... ولكن الإحساس الذي

في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعنى
صاحبتى لحضور عرسها وقد أسمعنى يومئذ أجمل
أناشيد السعادة المرتقبة ، وأرتنى الأمل الوضاء إلهاماً
وسحراً

يا لفرحة العروس عند ما يجمع القدر بينها
وبين الرجل الذى تحبه

لا أحسب إلا الفرحة خلقت لها في مثل هذا
اليوم . وما زالت صورتها برداء عرسها الأبيض
تترامى لى من وراء الخيال الذاهب تمثل ما كان
يجبوها من صرح وبشر لا أدرى إن كان مبعثهما
ذلك الزواج المرغوب فيه ، أم الحب المشبوب الصادق ،
أم أن الله خلق البهجة والسرة لها وحدها أم خلقها
لها — لا أعرف — والذي أعرفه أننى تمنيت يومئذ
أن ينيلنى الله ما يبعث فى نفسى هذه الفرحة الباقية
فأكتسب مثلها من الأمل المحقق طلعة الأطفال
الأبرياء وفرحة السعداء المتفائلين ...

وتساءل الناس فى شبه همس ما الذى حداها
أن تضع باقة زهر البنفسج على صدرها والمفروض
أن تضع باقة من الفل أو الياسمين لتمائل لون
رداء العرس الأبيض ... وصور كل متسائل

الابتدائية ثم تركت المدرسة وخلفتها ورأتى فى الفرقة الثانية، وظلت هكذا متوانية متأخرة لا تترك الفرقة إلا بعد أن تمكث بها سنتين على الأقل ...

وهى فى المنزل لا تمتاز عن المدرسة لا تحاول أن تساعد أمها فى أى شىء وتستنكر القيام بأى عمل مهما كانت ظروف البيت، وتعتقد أنها خلقت لتبدي جمالها الذى منحها الله أكبر قسط منه، ولكى تجيد لعب الباسكت والتنس وتقارن بين جمال جريتنا ونور ماوين عظمة جارى كوبر ورامون

هى بحق تجيد معرفة كل ما يتعلق بالسينا والمسرخ والرياضة والتجهيل

وساءلت نفسى يوم علمت بخطبتها: أيمكنها أن تكون ربة بيت ...

وأيقنت يومئذ أنها لا بد عاكفة على دراسة شئون الدار وخصوصاً بعد أن انقطعت عن المدرسة ولكى أتاأ كد من صحة يقينى سألها:

— ماذا أنت فاعلة فى مقبل الأيام؟ علك بدأت تفهمين حقيقة الواجبات المنزلية ...

فضحكت فى بلاهة وقالت: أى واجب يا صاحبتى أظنين أنه يمكن أن أعرف غير مضجى الذى أقضى فيه ساعات النوم والمائدة التى أجلس عليها وقت تناول الطعام والقيثار الذى أعزف عليه بفيض الألحان؟ قلت: هه.. أظنين ذلك كفيلاً بتهيئة بيتك.. هناك غير ذلك أشياء أكثر أجلاً شأنًا وأعظم خطراً.. تهيئة بيتك ليكون كاللدوحة الظليلة لزوجك والفردوس الأرضى لأمرتلك التى سوف يكل القدر أمر تكوينها وإسعادها إليك ... وتكونين بحكم الزواج ملكة مسئولة عن مملكتها الصغيرة المتواضعة

يفعم هذا لرؤية الزهر غير ما يفعم ذاك، والشعور الذى ينتابنى حينما أرى الزهر أو الورد وخصوصاً ما ترتاح إليه نفسى ويطمئن إليه قلبى غير الشعور الذى ينتاب صاحبتى أو أى إنسان ... فأنا أرى فى الياسمين معنى يوحى إلى بأحب الأخيلة يننا يمر عليه غيرى غير آبه. قلت لصاحبتى مرة لأداعبها:

— ما أعجب شأنك ... إن فى لون البنفسج معنى يدفع المرارة إلى النفس فضربتنى على شفتى بأطراف أناملها فى لطف وهى تقول:

— لو قدّم لك خطيبك زهر «التولب» لكنت أحب الزهور إليك

فطوقتها بذراعى وأنا أنظر إليها مسرورة لسعادتها وتفاؤلها قائلة:

— الآن فهمت يا صاحبتى أن السعادة فى المعنى لا المظهر

ثم حضرت مجلسهما مرة أخرى فشمت فى الرجل غموضاً لا يتفق مع براءة الفتاة ... وأنا أعرف أن الغموض لا يحدث إلا مع عشيقين مدنسين يحاول كل منهما أن يخفى حقيقته ليحظى برفيقه ... أما الخطيبان الحبيبان فلا مكان لتآلفهما غير الصراحة والصدق

وعجبت كيف اتفقا مع تناقضهما، ولكننى رجحت أن يكون الله جمعهما لحكمة لا يعلمها إلا هو

كانت الفتاة فى نهاية مرحلة التعليم الثانوى ولقد ذهبت إلى المدرسة تنفيذاً لأمر والدها الذى يرغب أن يجعل منها فتاة مستنيرة ولكن الفتاة لا تميل إلى التعليم مطلقاً فقد كانت معى فى المدرسة

فهزت كتفيها ومطت شفيتها وقالت في غير
اكتراث : خطيبي يحبني وأنا أحبه

قلت : للزواج مطالب أخرى غير الحب أكثر
خطورة . إن الحب يقنع بكل شيء لأن من صفاته
التسامح واللين، أما الزواج فيحتاج إلى العقل والحكمة
بجانب القلب والإيمان

فقلت مستخفة : بقی أن تقول لی وبمحتاج
للشعر والفلسفة أيضاً ...

قلت : ما عنت هذا ... ولا يمكن أن أقوله
لأن هذه ملطفات تلجأ إليها النفس بإيحاء غير مدرك
ولا علاقة لها بالزواج ، فالشاعر غير الزوج وكذلك
الأديب أو الرسام أو العامل أو الفلاح أو الوزير
فسياسة الزعيم في مكتبه غير معاملته لأسرته، أنظري
إلى الفلاح ... إنه أمام صاحب الأملاك كالعبد الدليل
ولكنه في المنزل كسيد أمر قاهر، والدكتاتور كقوة
القدر الجائر يبدو أمام الناس ، ولكنه أمام زوجته
أو أولاده ألطف من السحر . والذي أرجوه يا عزيزتي
كصديقة تحب لك السعادة أن تحاولي معرفة المسؤولية
التي ستأتي على عاتقك . أنت مسئولة عن سعادة زوجك
وتكليف حياته ومساعدته بفكرك وحسك ليسمو
بنفسه وأسرته إلى السهاك، ومسئولة عن صغارك ليكون
لهم في العالم مكان على : ومسئولة عن بيتك ليكون
مجمعا عالميا ...

فقاطعتني متهمكة ... أي مجمع تعنين يا صديقتي ؟
أتريدین أن يكون بيتی أكاديمية للعلوم والفنون
والآداب ؟

ثم ضحكت متهمكة ...

قلت : وأجل منها إن شئت ... إی والله، أليس

البيت كالملكة يحتاج للآداب والفنون والفلسفة ؟
لا تضحكي فلست هازلة ... إن أعقد المسائل
العالية تشبه أبسط الظواهر المنزلية ... إنه مملكة
تحتوي مجموعة وزارات ، وأنت وحدك المسئولة أمام
الله والشريعة والناس عن رئاسة هذه الوزارات
وتسييرها بحكمة تتطلب منك عقلاً علياً يشبه عقل
وزير المعارف وسياسة وزير الخارجية وحكمة وزير
الداخلية وإدراك وزير الصحة ولباقة وزير التجارة
والصناعة وذكاء وزير الزراعة وقوة وزير الحربية .
وأخيراً لك قلب الملك الصالح . فظلت تضحك
حتى كادت تستلقي على ظهرها وهي تقول : ما دام
في وسع زوجي أن يحضر إلى الخدم فماذا يهم ؟
حسبي أن أشرف على الوزراء .. وفهقمت، وشاورتني
ممرارة من الشك في سعادتها المرتقبة ولكنني
لم أشأ أن أكون متشائمة . فقلت : يا منى : الخادم
لا يمكن أن يحسن العمل إن لم يلحظ فيك خير
مثال للعاملين النابهين . أبعدى عن ذهنك يا عزيزتي
هذا الخاطر ، وتأكدي أن بيتك لا تثبت أركانه
إلا إذا ثبتت قوائم عرشك فيه بفضل قلبك وعقلك
افتحي قلبك .. وحكي عقلك ..

ليكن هذا شعارك دائماً .

وهنا دخل الخطيب فهرعت إليه تقول : أحمد ،

جيمي تخيفني من الحياة الزوجية ..

فربت الخطيب على خدها في لطف قائلاً :

لا شك أنها تداعبك .

قالت في دل ظريف : بل تجداً ..

فلم أشأ أن أصارحه بالأمر خوفاً من أن يكون
(٥٠)

على يقين من أنها مملعة بشئون البيت . فأفتح ناظريه على ما لا يعلم فيرتد .

فقلت : إسمع يا سيدى ... كنت أتصفح هذه المجلة فأعجبني ذاك القصيد ... قلت لها اسمى ... فقالت : لا أحب أن أسمع غير كلام خطيبى ... وأنت تعرف أننى أحبها ... (فطبعاً عزت) ... وإذا كان هذا حالها اليوم فما عساها تفعل بعد الزواج ؟ طبعاً ستنسى جيمى .

فابتسم وقال : وهل يمكن أن تنساك ؟ إنها تحبك ؟ ... وكل ما فى الوجود يذكركها بك . فقاطعتة قائلة : لا ... إنها لم تقل ذلك ، ولكنها تقول : يجب أن أقوم بشئون البيت . ثم دنت منه رابطة على كتفه فى خفة مردفة : وأنت تعرف أننى لا أعرف أى عمل فى البيت . ثم مطت شفيتها وهى تقول : حتى ملابسى لا أعرف كيف أنظمها أو أعلقها على المشجب . فضحك طويلاً وقبض على يدها وهو يقول : لا تفكرى فى هذا .. سيقوم الخدم بأعمال البيت ، وأنا مستعد يا حبيبتى للقيام بكل عمل بدلاً منك ...

فنظرت إليه فرحة ، وقد شاع طرب نفسها من كل خالجة فيها . لكننى تأملت إذ كان فى مقدوره أن يهيب بها إلى تعرف المسؤولية فى لطف لتحاول أن ترضيه على الأقل ولكى يشعرها بقيمة حياتها ، وضرورة تأدية واجباتها - ولو فعل - لردها إلى عقلها وعملت على تعرف ما لم تعرف .

فقلت فى شبه دمدمة : وإذا مرض الخادم ؟ فأعقبت : غيره يقوم بعمله .

قلت : لنفرض أن الخدم تأمروا عليك ، وتركوك بغتة كما حدث لإحدى الملاكات فماذا تفعلين ؟

فهزت كتفها ، ونظرت إليه كأنها تستلهمه الجواب ، فقال مسرعاً : أقوم أنا بكل شئ .

قلت : ولكنك لا تعرف واجبات ربة الدار والزوجة والأم ، أنت تعرف واجب الزوج ، ورب الدار .

قال مستخفاً : ياستى نستعين بكتاب التدبير . فقالت ضاحكة : آه نسيت « مرشد الفتاة » قلت : وغيره إن شئت ... إنما التجارب أنفع من القراءة .

ووجدت من العبث أن أحملهما على تعرف ما وراء المستقبل القريب لأنهما فى نشوة الحب . فانسحبت راجية لهما كل خير وتوفيق .

واليوم عيد ميلاد زفافها السعيد ، وقد مضى العام دون أن أراها إذ سافرت مع زوجها بعد الزفاف مباشرة إلى مقر عمله ، وأتتني رسالة منها البارحة تنبئني بأنها نقلت منذ أيام إلى المنصورة وأنها متلهفة لرؤيتي ...

وتذكرت أن ذاك اليوم عيد ميلاد زفافها فذهبت إليها لأقدم إليها تهنئتي الصادقة ولعلنى كنت شغوفة لرؤيتها بعد ذاك العام لأعرف ماذا فعلت بحياتها الزوجية وكيف صارت .

وهرعت إليها وبى من الشوق إليها ما يزرى بشوق كل حبيب .

وطرقت بابها وقلبي يخفق ويكاد من لهفة الحنين يصمت ...

ولما فتح الباب أدخلتني الخادم فى غرفة (الصالون) وصرت دقائق ، وأنا وحدى أنتظرها ، تأملت خلالها محتويات الغرفة . ولشد ما أدهشنى أن أرى الأثاث

الجديد يبدو كأنه من تراث جدها القديم! أى خيبة ساورتني عند ما لمحت الإهمال يتجسم في الغرفة ؟

ورددت طرفي لكيلاً أشوب حرارة حنيني بمرارة أنين نفسي لما أصابها من ألم له في عالم الحقيقة صورة مرسمة في أرجاء هذا (الصالون) ...

ودخلت (منى) وقبل أن أعانقها ارتمت على صدرى كأنما شاءت أن تستودعه حرارة وجدانها لتستريح حتى أحسست أن كل كياني بمحاربتها يحس وينتفض... ثم رفعت وجهها بيدي وأنا أتأمل الوجه الجميل في شغف لأتبين وجه المرأة وأقارن بينه وبين وجه العذراء ...

أجل ... نظرت إليها طويلاً لأقارن بين وجه رفيقة طفولتي وبين وجه المرأة التي تخطت قبلي عتبة باب المسئولية

وظللت هكذا أتأملها لأقارن بين حياة الحلم الماضي والواقع الراهن ، وبين حياة المتعة والحرمان كما يقولون ...

لم تتكلم ونظرت إلى بعينين دامعتين وشفتين مرعشتين ... ولم أتكلم ونظرت إليها بعينين شاع منهما خوفاً عليها وحباً لها ، وقد بدت ظلال هذا الشعور الحار المتوثب على شفتي في شبه بسملة مريرة وأخيراً تمت بصوت من يستيقظ بعد حلم عميق : منى ...

فأجابتنى بصوت مرتمش كأنه قطرات من الماء الصافي تنسكب في هوادة ورقة تماذجها قوة لا تبين : جيمى ...

قلت : أخيراً التقينا ... مضى العام ... اثنا عشر شهراً هي في حسابي اثنا عشر عاماً ... ونظرت إليها نظرة معناها : أليس كذلك ؟

قالت : بل اثنا عشر دهنياً يا جيمى قلت : إذن أحسست بالوحشة كما أحسست بها ولقد ظننت أن زوجك أنساك جيمى وسعادتك . بحث من ذا كرتك ذكريات الطفولة المليئة بأجل ما في الحياة من طهر ومرح وحلم وسذاجة

فتمهدت قائلة : ليت هذه الأيام يا جيمى قيدتنا في باطن الغيب كما تقيد الجاذبية البدر بين الأرض والشمس ، أو لعلنا متنا قبل أن تفتتح بصائرنا على ضوء الأحلام والآمال فتتخيل ... حتى إذا داهمنا الواقع رأينا الحياة تخفى وراءها من الحقائق ما تخفى ...

وغالبت دموعها — على ما أظن — لأنني لمحت الضوء يبدو فيهما ويتلاشى ليبدو أكثر قوة والتماعاً وكانت لهجتها متكسرة عميقة بطيئة كأنها آتية من أعماق الأبد ... تخرج قوية ثم تفترو وتتلاشى لطول مسافة الزمن ... فعجبت لهذا المظهر الجديد الذي لم أتيينيه فيها من قبل فقلت : لم يكن في حسابي أن الزواج يعلم الفلسفة ، أهكذا يمنحك الزواج من الحكمة في عام ما لم تمنحك إياه الحياة في عشرين عاماً ... يا عجبا !!

قالت : وعلمني أكثر ... ثم أسندت رأسها إلى صدرى كأنها تحاول أن تتخيل — بالإحساس على الأقل — أنها مرتكزة على صدر حنون . ثم رفعت بصرها إلى في التماع مترقرق بالدمع الحار وغمنمت : جيمى ... كيف ترينني ؟

قلت : آه . أنسيتني ما يجب أن أقوله ... ترى هل جمّت بجميلة أو جميل ، وكنا اتفقنا منذ زمن أن نسمي كل منا بكرها باسم صديقتها تلميذاً لذكرى الصداقة الأكيذة البريئة

فتمتعت بشفتين مبللتين بالدموع : جاءت جميلة ...

ولم أدعها تم عبارتها وعدوت أبحث عن الطفلة الجميلة التي كانت تتصورها قبل زواجها أجل أطفال العالم، ورسمت لها منهج حياتها رسماً يسمو بها فوق متن الريح لتستقر على عرش الطهر والرفعة والكمال

هرغت إلى مخدعها عل الصغيرة نائمة فيه ... تدفني عواطف لالتها ما كأنها كانت ابنة روي قبل أن تكون ابنة أمها .. ولما لم أجد لها في مخدع الأم ضحك من خيالي الذي أنساني أنها لا بد أن تكون في مخدع صغير خاص جعل لنوم الصغيرة بعض الوقت ، وتحرسه ملائكة الرحمة والحب كل الوقت ، ولكنني لم أجد السرير الصغير أيضاً ..

أتكون في غرفة أخرى ؟ لا بد . وقبل أن أغادر الغرفة لحقت بي منى قائلة : حبسك تعباً . وجذبتني في دق وهي تقول : لم يشأ الله أن يتركها تحت تصرف القدر الجائر . فاستردها ليستودعها حنان حور الجنان . ثم صممت من فرط الالتئاع وتركت دموعها تعباً عن أساها .

ففهمت وحنوت عليها أشجعها بأجل الأماني المرتقبة قائلة في النهاية : آمني بالله ! فقالت بلجة الخشوع :

عندما ولدتها وجربت كيف يفصل الله بين الروحين بقدرة قادرة .. آمنت بالله وأقمت له الصلاة ولما ماتت وكنت يومئذ متبرمة من حياتي نائمة على ولادتها ... ازدادت إيماناً به ورحت أرتل باسمه بكرة وأصيلاً ..

قلت وأنا أشد منها إيماناً : يا سبحان الله ... في لحظة يثبت لنا الله قدرته وعظمته بما تعجز عن إثباته قوى العالمين في أجيال . ثم اغتصبت ضحكة لأرفه عنها وقلت : أتذكرين يا « منى » يوم كنت أدعوك لتؤدي فريضة الصلاة معاً ؟ ... كنت تضحكين وتسخرين مني وتقولين : فرضت الصلاة على الناس يوم كان لا عمل لهم . أما اليوم فالوقت يضيق بالعمل والجهد . ثم تبسمين في بلاهة وتردفين : إن الله غفور رحيم ...

ولطالما حاولت أن أغلب شيطانك بنصحك فكنت أفشل لأن تأثير نيتك كان أشد وأقوى عليك مني ... لأن أمك متمدينة متطرفة لا تقيم للحياة ميزاناً إلا بما تجلبه عليها من طرب ومسرة ومتعة ...

وهنا لمحت الأسى يغالبها فسحبت رأسها وأسندته إلى صدري ورحت أنا أفكر في ماضيها وحاضرها . وأقارن بين هذا وذاك ...

من يصدق أن منى المرحلة الطروب الجاهلة التي تبدو كأنها في سن الثامنة من عمرها أو أقل بينما هي قد بلغت الحلقة الثانية منه من - يظن أنها الآن تبدو وكأنها في سن الخمسين من عمرها مع أنها لم تزد على العشرين غير عامها الأول من عمر الزواج ؟

تبدل بالمرح سكون رهيب خيف وتلاشت النضارة ليحل مكانها الشحوب البارز .

لمن لم يصدق أن يقارن بين ابنة العشرين الحاملة المتفائلة ، وبين أختها المتألمة المتشائمة ليعرف أن عمر الحياة ليس في حساب الزمن إنما في معناه وما يجلبه من مروح أو ترح . وفجأة تذكرت زوجها ...

فرفعت وجهها في رفق وأنا أقول : فإني أن
أسألك كيف حال زوجك ؟

فنظرت بعيداً كأنها تفكر فيما تقوله .

فمجبت لهذا المنظر واضطرت أن أكرسوا إلى:
زوجك كيف حاله ؟

فتهدت وأطرقت قائلة بصوت خفيض : بخير ..
فشمت في لهجتها سرّاً رهيباً أفرعني وراعني أنها
جملت حيزاً من الفراغ بين (زوجي بخير) حتى أحسست
أنها تفصل بينهما لكيلا تصل بين زوجها والخير

فارتعدت وخفت أن يكون جدّ لها مالا أرجوه
فقلت لأستدرجها : أهو على سفر ؟ المفروض أن
يكون في المنزل اليوم لأنه يوم العطلة الرسمية ...

فقلت وقد اعتدلت كأنها تتأهب لمصارحتي
بما كتمته عني : أتعرفين صلاح ؟

قلت : كيف لا أعرف زوجك ؟ مالك شاردة
كالذاهلة هكذا ؟ أترين جيئني أزعمك !! عله لا يبيح
لك لقاء صديقاتك ، إن كان ذلك كذلك فدعيني
أنصرف وحسي أنني رأيتك فكل ما أتمناه هناك

ووقفت أتأهب للانصراف فأجلستني في هدوء
وهي تقول : جيئني ، كان يجب أن تفهمي كل شيء
بمجرد رؤيتي ، وأنت أعرف الناس بطبيعتي ...

من كان يظن أن « منى » الزهرة الناضرة تذبل
دون أوان ؟ ولطالما قلت لك عند ما كنت أراك تتألمين
لمشهد محزن : يا صديقتي ... خلقنا لنضحك وإذا

عشنا لمشاطرة الناس آلامهم ماذا نستبقى من الزمن
للفرح .. لا شيء بالتأكيده. إذن خير لنا أن نخلق
البهجة والمسرّة لنغلب بها الحزن والضنى ...

ولطالما داعبتك بنوادرى لأبدد تجمهمك ولا أتركك

حتى يسمع الجيران ضحكنا ..
قلت : حقاً ، ولقد حرمت متعة الضحك الأكيد
منذ فارقتك

قلت : إذن ماذا تفهمين من دموعي
قلت : قد تكون الدموع من تأثير الفرح
كما تكون من تأثير الحزن. ولقد تعمدت أن أجاهل
ما انتابني من شك في سعادتها لأستنطقها
فقلت : قولي ذلك لمن لا يعرفك ... أما أنا
فقد علمتني كيف أعرف ماذا أنت قائلة قبل أن تفصحني
عن سرّك

قلت : تقرير جميل ... من تعليم مدرسة الزواج حقاً.
كل ما فيك قد تغير ...

فقاطعتني : ذهب جمالي وثلاثي فرحي وماتت
بهجتى ...

قلت : أمن أجل موت طفلة تميمين نفسك
حسبك زوجك والله نعم المعوض ... وماذا يجدي
الحزن ؟ ...

قلت : لم يكن مصابي في ابنتي كصابي في زوجي
فاضطربت وقلت : أمرريض هو ؟

قلت : لو كان لهان الخطب ، على الأقل كنت
أتمزّي بالأمل في المعافاة

قلت : لهجتك مبروعة تخيفني ، أفصحني ماذا
جري ؟ ...

قلت : مات وهو حي
قلت : يا لله ! هل أصابك مس من الجنون
يا « منى » كيف تهمين زوجك الحبيب بالموت
وهو حي

صمتنا إذ سمعنا طرقاتاً على الباب . فازداد وجهه

صاحبتى امتقاعاً ثم سمعناه يسأل الخادم بلهجة جافة :
من هنا ؟

فقلت لها : اسرعى إليه لتستقبله ثم تعالى معه
إلى — إن شاء — لأحييه .

فلم تتحرك ولازمها الوجوم ... وقبل أن أحملها
على الخروج دخل علينا وقد ابتسم — ولعله تكلف
البسمة — قائلاً : كيف حال الأنسة ؟ أراك على
أحسن حال ، صحتك ونضارتك ...

فقاطعت له كيلاً يستطرد : وأنت علك كذلك
فقاطعتنى : الجو هنا بديع ... بديع جداً ...
ففهمت أنه لا يريد أن يعترف بأنه على خير
ويأبى أن أشتم رائحة سوء تفاهمهما ...

فاحترمت رغبته واستأذنت لأصرف وقبل أن
أصافحهما خاطبها بلهجة جافة : لقد نسيت هنا بعض
أوراق رسمية فى غلاف كبير ، أين هو ؟
قالت : لا أدري !

قال (موجهاً الكلام إلى) : اسمى « ياستى »
الهانم (مديرة البيت) لا تعرف أين يضع زوجها
حاجياته .

فابتسمت على مضض قائلة لها : أنت مخطئة
يا منى إن كان ذلك حقاً ... على أنك لا بد تريد
أن تعلميه كيف يأخذ معه أوراقه خوفاً من أن
تتعطل أعماله . لاشك ، وأظنه عقاب حلوى إصلاح بك
فقاطعتنى : ذلك تعليل قد أقبله لو كنت أجهلها .
ثم انفجر كالبركان النائر مردفاً :

إنما حضرتها لا تعرف كيف تكون زوجة ...
أقوم فى الصباح ... أرتدى ملابسى وحدى وهى
فى مضجعها وإذا قامت فلكى تقول لى لا تتأخر
فضحكت : جميل أن تدعوك دائماً إلى العودة

لتأتنس بك وأجل منه أنها تعلمك الاعتماد على نفسك
لكيلا تعجز عن ارتداء ملابسك إذا كانت مريضة
مثلاً أو على سفر !

قال : يا آنسة . . . ينحجلنى أن أصور لك مبلغ
إهمالها وعدم اكتراثها بحياتها المنزلية .. أعرف أنك
صديقتها ، وأعرف أن لك فى الحياة رأياً سديداً .
فإذا تقولين لمن تعجز عن إعداد الغداء إذا خرج
الخادم وتضطرنا لأكل الجبن والزيتون فى الظهر .
أو استحضار اللحم والخضار من (مطبخ) السوق
فصرخت فى وجهه : حضرتك تعرف أننى لا أعرف
كيف (أطبخ) ؟ وتزوجتني وأنت تعلم أننى لا أعرف
أن أؤدى أى عمل منزلى ؟ فقاطعتها : لكن الفتاة
فى بيت والدها غير المرأة فى بيت زوجها ...

وهنا خفت أن يشتد عرا كهما ؛ فسحبت
صديقتى وخرجت بها إلى الخارج ، ثم رجوتها أن
تركه ريثما يهدأ وتباشر الخادم لإعداد لوازم راحته
وتعمل له كوباً من الليمون أو الشاي أو القهوة
حسب ما يجب . وتركتها بعد أن هدأتها ، وقد فهمت
من حوارهما لم مات قلب الرجل ، ولم شقيت المرأة .
ولما عدت إليه وعده أن أرشد صاحبتى
إلى ما تجهله من شئون الدار . ولما هدأ قلت بلهجة
جادة : اسمح لأختك أن تقول لك كلمة تقبلها منى
بسعة صدر الرجل الحكيم ، تذكر أننى أعرفت كيف
تحياتها وتزوجتها وأنت قلت لها على مسمع منى إنك
رضيت بها زوجاً حبيبة ، ولم تأبه يومئذ لعجزها
عن تأدية مهماتها ، فما ذنبها ياسيدى ؟

فكر واحفظ الجواب لنفسك وخذ من الجواب
ما يعينك على توجيه زوجك إلى حياة الاستقرار
« الصورة » .
محمد العلي

وقال : « سذهب غداً إلى
السينما يا عزيزتى » فقالت :
« لا بأس ولكن على ألا تغيب
أكثر من ساعتين »
وقال : « إن القطعة التى
يعزفها الجيران على البيان هذه
الليلة قطعة جميلة » فقالت :
« نعم إن هذا الدور من أحسن
الأدوار »

الأخلاق والكامر

عن الأنجلو
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ومضت فترة في صمت كان فيها الزوجان يصغيان
إلى البيان، قالت الزوجة: « هل كنت مشغولاً ؟ »
فقال : « نعم . لقد استغرق شغلنا طول النهار
ويظهر أن أكثر الناس أغنياء . فهم يشترون أثاثاً
من كل نوع وبأى ثمن . إن الأغنياء سعداء المخطوظ
قالت: « لا تكرر هذه الجملة الظالمة . فإن حظك
ليس بالسيء » . فقال : « إننى غير ساهط على الحظ
ولم أقصد إلى الشكوى ؛ ولكن تجارة الأثاث
تدهش الإنسان لكثرة ما يراه فيها من الغرائب .
وإذا استثنينا الأطباء فإن تجار الأثاث يطمعون
على الباطن من حياة أية طبقة أخرى ، وقد أُرثمت
نفسى خطة هى أنى لا أسأل أى سؤال ، ولا أفتح
فى بكلمة عما أراه .

ثم أشعل لقافة أخرى وتناول الجريدة ، وقرأ
قليلاً لزوجته ثم كتب خطاب شكر . وخرج من
المنزل فاشتري علبة سكاو وعاد . وكانت الساعة
قد تجاوزت العاشرة . فاطفاً الزوجان النور وناما .
وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى تناولوا
طعام الإفطار ، وقبل الزوج زوجته وهو يغادر المنزل
وسألها عن رأيها فى الذهاب إلى السينما . فقالت إنها

جلس فردريك جيمز سميث ماداً قدميه أمام
الموقد جلسة تدل على العظمة والزهو . وكان له الحق
فى ذلك فقد تقرر فى ذلك اليوم أن يزداد راتبه الأسبوعى
من ثلاثة جنيهات إلى خمسة . وفى هذه الزيادة تقدير
عظيم لخدمته مدة سبعة أعوام فى شركة بنسبيت

وكان يسمع وهو جالس هذه الجلسة صوت
زوجته وهى تغنى فى غرفة المطبخ أغنية هندية وتغسل
أطباق السردين من آثار العشاء ، وكان فى الوقت
نفسه يسمع صوت البيان فى المنزل المجاور

وأشعل فردريك جيمز لقافة وألقى نظرة على
إحدى الصحف ولكنه كان لشدة سروره لا يستطيع
أن يتناولها ليقرأها ، وكان يفكر فى مستقبله فينعش
نفسه بالأمل فى صيرورته يوماً من الأيام مثل المستر
بنسبيت الذى أصبح من أغنى الأغنياء بسبب الاتجار
فى المفروشات

ودخلت زوجته وفى يدها عندد من الملاعق
والشوكات والسكاكين فوضعتها فى مكانها ثم التفتت
إلى المرقد الذى عليه ابنها النائم . وعادت فالتفتت
إلى زوجها الذى كان يتأمل فى وجهها أو لعلها لم تحل
فى عينيه إلا الآن

مستقبله في الساعة السادسة قرب دارالسيا في شارع كرايبورن .

وفي الساعة التاسعة وأربع دقائق كان جالساً إلى مكتبه فجاء الخادم وأخبره بأن المستر بنسبيت يريد أن يراه في اللحظة التي يأتي فيها .

قال في نفسه : « لماذا يريدني ؟ » . ثم خالجه الشك في أن يكون قد حدث خطأ ، وأن زيادة المرتب ليست له . وألقى نظرة على الأوراق التي أمامه وذهب إلى « قدس الأقداس » وهذا التعبير صالح جداً للاعتراب عن نظرة الموظفين إلى الرؤساء .

وقابل المستر سميت سكرتير الرئيس فاستأذن له عليه ...

وقف الرئيس وهو رجل طويل القامة متقدم في السن ذو لحية كبيرة يبدو عليه التهذيب وقال الرئيس : « ماذا تعمل يا مستر سميت ؟ » فقال : « أنا في قسم المبيعات يا سيدي »

قال الرئيس : « أرى أن تترك هذا القسم فاذهب وسلم ما بمهدتك وانتظرنى عند أسفل السلم بعد خمس دقائق »

وبعد أربع دقائق ونصف كان سميت ينتظر كالحارس في أسفل السلم . وبعد نصف دقيقة نزل الرئيس فتجاهل وجود سميت في طريقه وخرج من الباب فجلس في العربة ثم التفت إلى سميت وأشار له بالجلوس

وجرت العربة إلى شارع اكسفورد . وفي الطريق قال الرئيس : « نحن ذاهبان إلى ريشموند لنقابل فيها عميلاً جديداً هو المستر مارشال فلا كستون

الأمريكي ويظهر أنه متمجّل جداً ولا أعرف ماذا يريد وقد يدعوك عمله إلى الاشتغال طول النهار » فقال سميت : « لا بأس »

ولكنه ذكر في نفسه مواعده مع زوجته في الساعة السادسة ، ووصلت العربة إلى ريشموند في نصف ساعة، ثم وقفت عند منزل، فاستقبلهما رجل يظهر أنه كان في انتظارهما ، وهو صغير الجسم كبير العمر مجعد الجلد أسمر اللون . وقال ساعة رأها : « بول وبنسبيت ؟ » . فأحنى المستر بنسبيت رأسه وقال : « أنا بنسبيت وهذا مساعدى »

فنظرة المستر مارشال إليهما نظرة احترام . وأدهش سميت أن تكون كل هذه النظرة موجهة إليه . ثم مشيا إلى الردهة فظهر أن المنزل خال من الأثاث

ونادى المستر مارشال فنزلت سيّدة مسرعة وحيث الزائرين ثم تبادلت مع زوجها المستر مارشال نظرة ، وجلس الجميع فأخذت الزوجة تملأ على سميت بيان الأثاث المطلوبة من سجّاجيد ومفروشات وكراسى وأدوات زينة الخ الخ

ولم يزالوا يتنقلون من غرفة إلى غرفة وسميت يكتب قوائم جديدة حتى أصبح ثمن الأشياء المطلوبة يستغرق ثروة رجل ميسور ... ولكن ذلك لم يكن كثيراً على المستر مارشال ملك النترات والبوتاس فلما صارت الساعة المباشرة قال مارشال : إنه متمجّل جداً

قال بنسبيت : إنه سيعرض عليه النماذج وقائمة الأثاث في ظرف أسبوع ، ف ضرب مارشال الأرض بقدمه وقال : « ليس الأمر أمر نماذج ولا أثاث

فصاح الأمريكي محتدأ: « اللورد في جهنم . استندع
خمسين عاملاً بالتلفون واستحضر أنواعاً مختلفة من
الستائر لعمل التجاريزب »

ووجد التاجر حماسة الرجل لا تقبل المناقشة ؛
فاستدعى العمال بالتلفون وترك المستر سميث لينوب عنه
وعاد إلى متجره ليرسل البضائع .

لم يمض غير عشر دقائق حتى صارت حديقة
المنزل المراد فرشته بالاثاث كأنها معسكر لكثرة من
جاء إليها من العمال ولكثرة السيارات في الحديقة
وأمام الباب .

وكان سميث واقفاً أمام النافذة ينتظر مفروشات
الغرفة التي هو فيها فلمح عربة فخمة تقف عند الباب
وسمع الجرس يدق وعلى أثر ذلك دخلت الغرفة زوجة
المستر فلكستون تتبعها فتاة متناهية في الحسن وقالت
الفتاة لأُمها : « من هذا ؟ »

فأجابتها : « هو تاجر الاثاث »

ثم نخرجتا وسمع سميث صوت الفتاة تقول :
« ألم يأت خبر عن الكونت ؟ »

قالت : « كلا »

وقالت الفتاة : « ما أشد الشبه بين الشاب
الواقف في الغرفة وبين أنطونيوا »

وكان سميث قد ألزم نفسه ألا يهتم بشؤون الغير
فلم يمر هذه المحادثة اهتماماً وانتقل إلى الغرفة المجاورة
ليعد المعدات لفرشها . وفي هذا الحين رأى الذين
جاءوا في العربة الفخمة يدخلون من حديقة الدار وهم
جماعة من الصينيين وقالت السيدة : « عفواً يا مستر

(٦)

ولكني أريد أن يكون المنزل مفروشاً بكل ماطلبته
في الساعة الثالثة من هذا النهار »

وكان بنسبيت قد لاحظ على عميله الجديد علام
ظنها دالة على الجنون ، فبعد الحركة الأخيرة لم يبق
عنده شك في صدق هذا الظن

قال صاحب المتجر : « أظن هذا مستحيلاً »
فقال الأمريكي : « كم عدد موظفيك ؟ »

قال : « عندنا في المصانع والمتاجر والإدارة
والمخازن بضعة آلاف »

قال الأمريكي : « هذا حسن فادعهم جميعاً
إلى العمل » فقال صاحب المتجر : « أخشى أن تكون
تكاليف ذلك ... »

قال الأمريكي مقاطعاً : « إنني لم أسألك عن
التكاليف ... أليس في المدينة سيارات ؟ أليس فيها
تليفونات ؟ أليس عندكم مخازن ؟ إنني أكرر لك
القول بأنني لا أبالي بالتكاليف وبأنني أريد أن يكون
المنزل مفروشاً في الساعة الثالثة »

دارت عينا بنسبيت كما تدور عينا كلب الصيد
حين يرى الأرنب ؛ ولم يقين بعد هل هو الأرنب
أم لا . واستمر الأمريكي يقول : « استحضر
أسطولاً من سيارات النقل وخمسين رجلاً لفرش
كل غرفة »

قال سميث : « ولكن السجاجيد والستائر ... »
فقال الأمريكي مقاطعاً : « مالها ؟ إن المقاسات
أمامك وقد فرش اللورد جاستوتش منزله بالأمس .
وغرفته في مثل اتساع هذه الغرف »

قال سميث : « ولكن منزل اللورد ... »

سميث لا تنزعج من أى شيء وستنال ترضية على كل شيء تفعله . إن حادثاً لم يكن منتظراً قد وقع الآن وزيد منك أن تدعى شخصية لست صاحبها لمدة لحظة واحدة . ولك مكافأة كبيرة »

قال : « لا مانع يا سيدتى ولك الشكر »

ودخل الصينيون فاستقبلتهم السيدة وكان يصحبهم المستر فلكتون . وقدمت السيدة المستر سميث باسم السنيور أنطونيو بن الكونت أندومى فأخنى رجل وجيه من بين الصينيين رأسه أمامه . واضطر سميث برأ بوعده لصاحبة المنزل إلى إحناء رأسه أيضاً . وتقدم المترجم لينقل إلى اللغتين الصينية والإنكليزية كلام الطرفين

قالت صاحبة المنزل : « إن سعادة الحاكم الصينى يريد منك يا سنيور أنطونيو تنازلاً كتابياً عن خطبتك لرودا مالىسترا وعن جميع الحقوق التى لك فى مملكة جزيرة بارى »

وهنا غمز المستر فلكتون ذراع سميث فقال إنه مستعد لتوقيع هذا التنازل

وقال المستر فلكتون : « إن هذا الشرط هو الذى اتفقنا عليه لزواجك من بنتى وسيتزوج سعادة الحاكم الصينى من رودا التى كانت مخطوبة لك » ثم كتب ورقة هذا نصها :

« أنا أنطونيو برونو أندروسى أقر بأنى نزلت عن خطبة الأميرة رودا مالىسترا وعن حقوق كلهما فى مملكة جزيرة بارى . »

وقدم هذه الورقة إلى الحاكم الصينى فتناولها هذا ثم أخنى رأسه وخرج مسرعاً

وعلى أثر خروجه دخل مئات من العمال يحملون الأبسطة والستائر والتمارق والكراسي . وبعد قليل دخل المستر بنسبيت وأخذت المطارق تدق والمفروشات ترتب وسميث واقف يراقب ذلك ويشترك فى كل عمل يستطيع الاشتراك فيه

وفى وسط هذه الحركة القوية أعلن المستر فلكتون أن الساعة هى الثانية عشرة ، وأنه لم يبق غير ثلاث ساعات . وأخذ سميث يصيح بالعمال أن يسرعوا . فلما انتهى فرش الغرفة الأولى جاء فلكتون بستين جنياً وأمر بتوزيعها على العمال مكافأة لهم على الإصرار ، واستنهاضاً لهمتهم حتى يتم العمل فى الموعد المطلوب .

وفى الساعة الثانية وخمس دقائق كان سميث واقفاً وحده ليستريح قليلاً فى غرفة لم تفرش بعد . وكان يرتب بنظره كيفية فرشها . فرأى على حين فجأة أربعة من الصينيين ، وأشار له أحدهم فتبعه إلى أعلى السلم وهناك شعر بمادة ذات رائحة غريبة قد ألقيت على وجهه . ثم امتنع شعوره بعد ذلك .

ولما أفاق سميث بعد ذلك وجد نفسه نائماً مكتوف اليدين فى سفينة ، ورأى البحارة حوله جميعاً من الصينيين . نخلال نفسه فى إحسدى حزر الأرخييل اليابانى ، أو فى جزر الهند الشرقية .

ولكن وجه الغرابية هو أن البحارة كانوا يتكلمون باللغة الإنكليزية .

وقال لأحدهم : « أين نحن الآن ؟ » . فأجابه : « ستعلم متى جاء سعادة الحاكم » .

قال سميث : « ولماذا أنا مقيد اليدين ؟ » .

فأجابه البحار : لا أستطيع إخبارك بشيء حتى يأتي الحاكم. ولكن لماذا تتكلم بالانكليزية ؟ أأنت إيطاليا ؟

قال سميث : أنا فردريك سميث، وصناعتى كاتب فى شركة بنسبيت . فتدخل بحار آخر وقال : أأنت السنيور أنطونيو ؟

حاول سميث أن يتذكر كيف وأين سمع هذا الاسم ولكن ذاكرته خاتته وقال : إنه جائع فجاء له البحار بقليل من الطعام ثم غلبه النعاس بعد ذلك فنام وعند ما أفاق من النوم سمع البحارة يتكلمون وكان واحد منهم يقول : إن سعادة الحاكم لم يطمئن إلى التنازل الذى كتبه السنيور أنطونيو وليس يكفى أن يطالب بحقوقه فى الملك ولا أن يأمن فى حب خطيبة أنطونيو ما دام هذا الأخير موجوداً . ولذلك اختطفه بعض أعوانه وجاءوا به إلى هنا لإرساله إلى إلى جزر الملايو . ولكن الغريب أن الرجل كما ظهر لنا الآن ليس إيطالياً مع أنه اعتقل فى نفس المنزل الذى وقعت فيه الوثيقة بتوقيع أنطونيو . وكان أحد الذين اختطفوه ممن حضروا توقيعه على وثيقة التنازل فلا يبعد إذن أن يكون الأمريكى قد خدع الحاكم وجاء برجل مزيف ليمثل دور السنيور انطونيو وهنا تهامس البحارة بلزوم الصمت لأن سعادة الحاكم مقبل

وعند مجيئه سمع سميث صوت رئيس البحارة وهو يكلمه بصوت منخفض فلم يتبين ما قاله . ثم سمع الحاكم يقول بصوت كهزيم الرعد : « لا تركوه يتكلم ! إقطعوا رقبتة وألقوه فى الماء » اضطرب سميث لعلمه أن هذا الكلام عنه وانتظر ما يخبئه له

القدر على يد هذا الحاكم الصينى ، وبعد دقائق دخل الحاكم ونظر إليه نظرة وعيد وقال : « إننى أمرت بإعادتك إلى منزلك ولكن إذا فئت بأية كلمة عن أى شيء مما رأيته اليوم فإني سأهشم رأسك وسأتى لتأديبك ولو كنت فى أقصى مكان من الأرض » - وكان صوت هذا الجبار مثل نظراته شديد الدلالة

على الوعيد

قال سميث : « لن تجد منى غير الصمت وألف شكر لك »

وبعد قليل كان سميث مغمض العينين فى عربة تجرى فى شوارع لوندرا وهو لا يعرف هل مضى عليه بعد مفارقتة هذه المدينة أيام أو ساعات أو أعوام « ولم يرفع المنديل عن عينيه إلا عندما وقفت به العربة أمام باب منزله . وكان تشييع الصينى له نظرة تهديد قال جواباً عليها إنه ذاكر وعده وإنه سيلزم الصمت

ودخل سميث إلى منزله فنظر إلى نتيجة معلقة على الحائط فوجد أنه لا يزال فى اليوم الذى باشر فيه المهمة فى بيت فلكستون ، ونظر إلى ساعته فوجد نفسه فى الساعة الخامسة فأسرع إلى مقر عمله وهناك رأى كل شيء على نفس النمط الذى كان عليه عند ما ترك هذا المتجر . وتلقاه المستر بنسبيت فقال : « كيف حالك الآن يا مستر سميث ؟ »

قال : « بخير »

وقال بنسبيت . « لقد علمت أنه أغمى عليك فى أثناء العمل بمنزل فلكستون فنقلوك إلى منزلك فى عربة » فقال سميث : « نعم لقد كان الأمر كذلك »

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الأتاب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زغالي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع الكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرأتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

ولكنه عجب من رواية ما أصابه على هذه
الصورة المقتضبة . وتذكر وعده بلزوم الصمت
فسكت ...

وقبيل الساعة السادسة أسرع إلى المكان الذي
اتفق مع زوجته على مقابلتها فيه ليندبها إلى السينا ؛
فوجدتها في انتظاره وقال : « أظنني جئت متأخراً »
قالت : « كلا بل جئت في الموعد . هل كان
عندك اليوم شغل كثير ؟ » فأجابها : نعم نحن
لا نستريح طول النهار بل هي حركة مستمرة »

قالت : ماذا رأيته اليوم ؟ فقال : إنني لا أحب
التدخل في شئون العملاء وإذا استثنينا الأطباء
فلا أحد يطلع على أسرار البيوت كما يطلع عليها تجار
المفروشات ؛ ولكنني أنظر ولا أسأل ، وأرى شأن
لي بأسرار العملاء ؟ لقد تنازلت اليوم في أثناء عملي
عن حقوق في مملكة باري ، وعن خطبتي للأميرة
رودا الصينية وخطبت بنت مليونير أمريكي واختطفني
رجال العصابة الصينية وكاد رأسي يقطع بالسكين ؛
وسافرت في السفينة إلى جزر الملايو ، وهانذا
أعود في الساعة السادسة بعد أدائي كل هذه الأعمال »

فضحكت زوجته لاعتقادها أنه يمزح وقالت :
« هل كنت اليوم تمثل في رواية من روايات شارلي
شابلن ؟ »

فقال : « ساحيني إذا لم أجيبك فإني مأمور
بالصمت »

وكم يرى المرء في حالتي النوم والإغماء ، وكم
في شئون الحياة مما يظنه المرء حقيقة رآها وهو وهم
يخيل له . أليست الأعمال كلها وليدة الآمال ؟ !

عبد اللطيف النشار

— حالاً وفي أى سيارة
لأمر هام

— حسن ...

واعتذر سلين إلى رفاقه
ووضع قبعته على رأسه وارتدى
معطفه واستقل أول سيارة
صادفته إلى مسكن صديقه
اللورد مينشنجهام ...

ودخل سلين مسكن صديقه بالطابق الثالث
وبعد أن أعطى الخادم قبعته ومعطفه ولج غرفة
المكتب حيث رأى اللورد جالساً مع اثنين من رفاقه
على مائدة اللعب وقد طغت على وجوههم موجة من
القلق والاضطراب ... ومدرب البيت يده مصاحفاً
سلين قائلاً :

— إننى سعيد بمجيئك يا سلين ... أظنك
تعرف رفيقى

فالتقى إليهما سلين بالتحية وقد عرف الأول
جورينج بريت الموظف بوزارة الخارجية والثانى السير
مارتن فيلبس عضو البرلمان والسنام فى عدة شركات
وله اسم رنان فى الأسواق المالية، ولحظ سلين خلو
المقعد الرابع ولما كان يعرف أن لعبة البريدج
لا تصلح إلا بوجود شخص رابع قال :

— ولكن أين رابعكم ؟

— كان صديقنا روني كارترت جالساً منذ ساعة
نحن الأربعة حول المنضدة وقرر الورق أحداً ثم دخل
خادمى طومسون وأخبر كارترت أنه مطلوب فى
التليفون فخرج هذا ولا يزال نصيبه من ورق اللعب
فى يديه يرتبه أثناء سيره إلى قاعة التليفون وقبضنا
ننتظره مدة طويلة دون أن يعود، وأخيراً قمت لأرى
ماذا يفعل فوجدت الغرفة خالية وأوراق اللعب ملقاة

الورقة الثالثة عشرة

للكاتب القصصى فيليبس أوبنهم
بقلم الأديب عزت السيد إبراهيم

خرج جاسبر سلين مع رفاقه من المقصف
إلى قاعة اللعب بمنتهى لافندره عندما جاء الخادم قائلاً :

— التليفون يناديك يا سير جاسبر

فلزم سلين الصمت برهة وهو يفكر فيمن
سيحدثه فى مثل هذه الساعة من الليل ثم قال :

— هل تعلم من هو ؟

— لم يذكر لى اسمه يا سيدى ولكنى أظنه
صوت اللورد مينشنجهام وهو يطلبك لأمر هام
فنظر سلين إلى رفاقه قائلاً :

— احجزوا لى مكاناً على المنضدة فسوف أعود
بعد أن أعلم لم يطلبنى مينشنجهام فى مثل هذه
الساعة من الليل

ودخل غرفة التليفون ووضع السماعة لصق
أذنه وقال :

— أهذا أنت يا مينشنجهام ؟

فأجابه الصوت فى لهجة مختصرة :

— نعم أيها الدجال ... ماذا تفعل عندك ؟

— كنت على وشك أن ألعب البريدج

— هذا ما كنت أفعل أنا أيضاً لولا معاكسة

الأقدار . هل تستطيع الحضور حالاً إلى بيتى فى
كننجهام مانشون

— حالاً ؟ أم بعد انتهاء اللعب ؟

على المنضدة بجوار آلة التليفون وباب المسكن مفتوحاً على مصراعيه فاستدعيت الخادم ورحنا نبحث في أرجاء البيت دون جدوى

وأخيراً هبطت الدرج إلى البواب فوجدته في حجرته المطلة على الباب، وبسؤاله أجاب أنه واثق من عدم خروج أى شخص في نصف الساعة الأخير وبذلك اختفى كارتريت ولكنى لا أظنه اختفى بعيداً بل هو في نفس المارة، ولكن أين ؟! هذا ما استدعيتك من أجله والطابق الأرضى كله حوانيت مطلة أبوابها على الطريق العام والطابق الأول عبارة عن مكاتب لبعض رجال الأعمال وتفتح أبوابها في تمام الساعة السابعة من كل يوم والطابق الثانى الذى يقع أسفل مسكنى مباشرة تسكنه الأميرة الروسية مادزيويل

— وهل كان يعرفها كارتريت ؟!

— كلا ...

— إذن دعنا نبحث في مسكنك أولاً ...

وتقدمهم سلين إلى قاعة التليفون فوجد ورق اللعب مرتباً حسب لونه ولكنه عند ما عده دهش إذ وجدته اثنتى عشرة ورقة بدلاً من ثلاث عشرة فأخذ سلين يبحث عن الورقة الناقصة في جميع أرجاء البيت ولكنه باء بالفشل فحاول أن يتصل بالسنترال بالتليفون ولكنه وجدته معطلاً فسأل طومسون :

— هل تحدث مستر كارتريت من هذه الآلة ؟

— نعم يا سيدى

— وهل حدثنى سيدك اللورد منها أيضاً ؟

— كلا يا سيدى بل تحدث إليك من غرفة

البواب عند ما هبط لسؤاله ...

ودخل اللورد مع صديقيه فسأل سلين :

— هل اهتديت إلى شيء ؟!

— إن التليفون معطل وسأهبط الآن لأوجه بعض الأسئلة إلى البواب قبل أن تزور الأميرة الروسية

وبسؤاله أجاب بأنه واثق من عدم دخول أحد أوخروجه من المارة وكذا أكد خدام المصعد، وطلب سلين من البواب أن يرافقه إلى الطابق الأول حيث فحصوا جميع الأبواب فإذا هى محكمة الإيصاد وعندما سأل البواب عن أصحاب هذه المكاتب قال :

— إنهم جميعاً محترمون فمستر هابل المحامى خرج مبكراً الليلة ولم يلبث وكيهله أن تبعه وأما كاتباه والخادم فقد خرجوا في الساعة السادسة، ومستر ممبسون متعهد الأفلام الأمريكية مستأجر المكتب لمدة ثلاثة أعوام وقد خرج مع سكرتيرته السحابة السابعة والشخص الثالث هو مستر ميشايل تاجر الفراء والتحف وهو رجل لا غبار عليه

— وما ذا تقول عن سكان الطابق الثانى ؟!

— إنها الأميرة الروسية مادزيويل وهى أرملة كريمة نادراً ما تخرج ولكنها كثيراً ما تزار من بعض الشخصيات البارزة ...

— وهل عندها خدم كثيرن ؟

— سكرتيرة صغيرة ووصيفة وخمسة آخرون

من الرجال

وبعد أن نفحه سلين بورقة مالية ليفك عقدة

لسانه سألته :

— لقد رأيت في غرفتك آلة تليفونية لتصلك

بجميع سكان المارة فما السبب الذى من أجله قطع

السلك الموصل إلى تليفون اللورد مينشنجهام ؟!

— يا إلهي . . . لقد كان سليماً عند ما رأيته
لآخر مرة

— أفهم ذلك فقد حدثني اللورد في الساعة
التاسعة من تليفونه فلا بد إذن من وجود أحد
إما خرج أو دخل إلى العمارة بعد الساعة التاسعة

— كلا يا سيدى ما عدا سكرتيرة الأميرة التى
تخرج في مثل هذا الوقت من كل يوم لتزده السكبتين
الصغيرتين ، وكذلك أحد خدم الأميرة فقد خرج
ليدخل سيجارة أمام الباب ولينتظر عودة الفتاة، أما فيما
عدها فلم يدخل أو يخرج أحد من الساعة السابعة .
وفى رأي أن مستر كارترأيت ألقى بنفسه من نافذة
أو هبط إلى مسكن الأميرة .

— سئزى ذلك فأرجو لا تنادر غرفتك
حتى آذن لك .

ثم صعد سلين إلى رفاقه وقال : إنه لم يبق إذن
سوى البحث فى مسكن الأميرة فقاطعه اللورد :
— من الصعب أن تفعل ذلك يا سلين إذ كيف
تطرق باب سيدة فى مثل هذا الظرف والساعة
الحادية عشرة مساء .

وأحسن سلين وهو يهبط إلى مسكن الأميرة أنه
يقرب من حل هذه المشكلة الدقيقة وعند ما ضغط
بأصبعه على زر الجرس انفرج الباب عن خادم وقور
فسأله :

— هل سمو الأميرة موجودة ؟

— نعم يا سيدى ، ولكنها لا تستقبل أحداً
فى مثل هذه الساعة من الليل .

— إن الأمر أهم مما تظن فأرجو أن تقدم إليها
بطاقتى هذه :

وغاب الخادم برهة ثم عاد يقول :
— تفضل يا سيدى .

ثم قاده إلى قاعة الجلوس ، حيث وجد الأميرة
ممددة على إحدى الأرائك، وهى متشحة بالسواد بينما
جلست على يمينها فتاة ممسكة بكتاب كانت تقرأ فيه
لسيدها وبعد أن أبدى لها سلين أسفه على إزعاجها
أشارت له بالجلوس .

فأطاعها وسرد لها قصة اختفاء صديقه كارترأيت
والأبحاث التى قام بها دون أن يجده أو يعثر عليه ،
ثم أردف :

— ولم يبق يا سيدتى الأميرة سوى مسكنك
فهو الذى لم نفتشه .

وامتنعت الأميرة وبدأ على وجهها الأرسقراطى
شئ من الضيق ثم قالت :

— ثق يا سيرجاسبار أن أحداً لم يدخل مسكنى
منذ الساعة الثامنة مساء ، وغير ذلك فأنا لا أستقبل
سوى أصدقائى الأعزاء أما صاحبك فأنا لم أسمع
باسمه قبل الآن .

— ولكن يا صاحبة السمو إن الظروف التى
أحاطت باختفائه غريبة وليس من المعقول أن إنساناً
مكوناً من لحم ودم وعظام يتبخر ويصعد إلى السماء
وقد بحثنا عنه فى كل شبر من العمارة فلم نعث له على أثر
ولا أطمع فى شئ سوى أن تسمحى لنا بالبحث
هنا حتى يهدأ بالى وأطمئن أصدقائى الذين ينتظروننى
فى الطابق الأعلى ...

فضحكت الأميرة برهة ثم قالت :

— كما تشاء يا سيرجاسبار . اقرعى الجرس
يا آنا ليرافق جرابلنج السيرجاسبار .

فشكر سلين الأميرة وتبع الخادم الذى أخذ

يطوف به غرف المسكن ابتداء من مخدع الأميرة ،
وغرفة الزينة دون أن يقف على أثر يدل على زيارة
كارترابت هذا المكان ، وأخيراً قال جرابلنج :
— لم يبق يا سيدى مكان لم تره .

ففنحه سلين بورقة مالية ثم عاد به إلى قاعة
جلوس الأميرة التى ابتدرته قائلة :

— لا أعتقد أنك وجدت صديقك ياسير جاسبار
مختبئاً تحت فراشى أو فى خزانة ثيابي !

وتضرج وجه سلين بحمرة الحجل ، ثم كرر
شكره للأميرة على سماحها له بالتفتيش فى مسكنها ثم
قبل يدها وحيا السكرتيرة وتأهب للانصراف بينما
قالت ربة البيت :

— أرجو ألا تكون هذه آخر مرة تزورنى
فيها ياسير جاسبار .

— سأفعل دون شك يا صاحبة السمو .

وبينما هو فى طريقه إلى باب الخروج لمح شيئاً
على منضدة صغيرة فتقدم منها وراح يتظاهر بأنه يشتم
باقة الزهر الموضوعة عليها بينما تناول ذلك الشيء ،
وأخفاه دون أن يراه أحد لأن جسمه كان حائلاً بين
المنضدة وقاعة الجلوس التى فيها الأميرة والسكرتيرة
وصعد سلين إلى رفاقه وقبل أن يسأله عما فعل
ابتدرهم قائلاً :

— ليمد كل منكم أوراق لبعه

فمقلت الدهشة ألسنتهم ولكنهم أطاعوه فإذا
مع كل ثلاث عشرة ورقة بينما عد سلين الأوراق
التي تركها كارترابت على المنضدة المجاورة للتليفون
فإذا هى اثنتا عشرة ورقة ، وهنا أخرج من جيبه
الشيء الذى وجدته على منضدة الأميرة فإذا هو الورقة
الثالثة عشرة ، ثم قال :

— قبل أن تقدم على أى مغامرة لتتأكد من
أن هذه الورقة هى الناقصة فهل مع أحد منكم
العشرة الدينارى ؟

— كلا !

— حسن . إذن فقد كانت هذه الورقة ضمن
أوراق كارترابت وما احتفظ بها إلا سهواً أو ليمبث
بها فى طريقه . . . وقد وجدت مطوية جملة طيات
على منضدة الأميرة

فقال اللورد مينشنجهام :

— ولماذا دخل هذا الأحمق عند الأميرة وغاب
لديها إلى هذا الوقت . . . هل وجدته ؟

— كلا . . لم أترك شبراً فى مسكنها إلا وبحث
فيه كما أكدت الأميرة أن أحداً لم يدخل عندها
هذه الليلة ، فأين إذن اختفى وشهادة البواب تثبت
أنه لم يخرج من الباب

فقال جوريج بريث :

— لعله قفز من النافذة . . .

— إننا فى الطابق الثالث والشارع مرصوف
ولو فعل لدقت عنقه . . . وعلى كل حال لنجرب هذه
الفكرة . وهبط الأربعة إلى الطريق العام بعد
أن طلب سلين من خادم المصعد أن لا يسمح لأحد
مهما كان بالدخول أو الخروج من المارة .

ورافق سلين البواب فطافاً حول البيت يبحثان
عن أى أثر يؤيد شكوكهما دون أن يوفقا وكان
الضوء ينبعث من نوافذ مسكن الأميرة فسأل البواب :

— نوافذ من تلك التى تحت نوافذ الأميرة ؟

— إنها نوافذ مستر ميشايل تاجر الفراء
والعاديات . . . وهو رجل ضخيم الجثة مرسل اللحية
يرأس عدة موظفين . . .

ثم التفت إلى البواب قائلاً: احتفظ بهذه الفتاة
ربما أحدث بالتليفون

وحاولت الفتاة أن تصبح لولا أن وضع الرجل
يده على فمها ، بينما طلب سيلين سكوتلانديارد وطلب
حضور المفتش ستمبسون مع أربعة من رجاله ، فلم
تض عشر دقائق حتى كانوا جميعاً في كمنجهم
مانشون ، وسرد عليهم سيلين قصة اختفاء كارتر
وعندئذ قال المفتش :

— لقد أنا اليوم تقرير عن المدعو ميشايل
تاجر الفراء

فالتفت سيلين إلى البواب قائلاً : أعط حضرة
المفتش المفاتيح الاحتياطية ودع الأنسة تنزه كلبها
وما إن فعل حتى قال المفتش :

— إننا سنهاجم عصابة قوية فأرجو أن يتكرم
أصدقاؤك بالابتعاد

ولكن اللورد ورفقاؤه أبوا إلا المكن ،
ففتح المفتش باب تاجر الفراء وأشعل الضوء الكهربائي
فوجدوا أنفسهم في ردهة مليئة بأنفخ أنواع الفراء ،
وعندئذ سطع ضوء في إحدى الغرف المظلة على الردهة
ثم انطفأ ، فطلب سيلين من المفتش أن يرسل اثنين
من رجاله الأشداء لحراسة المارة من الخارج ففعل
ثم تقدموا جميعاً إلى الغرفة التي انبعث منها الضوء
ولكن بابها كان موصداً ففتحه بالمفتاح الاحتياطي
ثم دلف إليها شاهراً مسدسه ، ولشد ما دهش عند
ما وجد أن المكان خال إلا من روني كارتر التي وقد
شد وثاقه في مقعد ضخم وتدلّى من السقف
سلم من الجبال الغليظة وما كاد روني يرى أصدقاءه
حتى صاح :

واتجه سيلين إلى اللورد سائلاً عما إذا كان
يملك سلاحاً ومصباحاً كهربائياً ، فدهش أصدقاؤه
بينما أتى اللورد بما يريد سيلين الذي قال :

— في استطاعتكم أن تهبطوا معي لاختلاس
السمع خلف باب مكتب مستر ميشايل ، فإن لم نسمع
شيئاً فقد عجزنا عن الاهتداء إلى صديقنا كارتر التي
وعند ما صاروا أمام الباب تقدم سيلين وراح
يصيح بأذنه من ثقب المفتاح ، وبعد برهة أضاعت
عيناه يريق غريب وأشار لرفاقه بالهبوط إلى غرفة
البواب وأعطاه مسدساً وأمره بأن يحذر من
خروج أحد من المارة بينما يتصل هو بقسم
البوليس ... وعند عودته سمع رنين جرس المصعد
فناد يسأل البواب :

— من ذا الذي يطلب المصعد ليخرج في هذه
الآونة من الليل ؟

— لا أدري يا سيدي

وصعد الخادم بالمصعد ثم ما لبث أن هبط وفي داخله
مد موازيل أنا سكرتيرة الأميرة وهي تحمل الكلب
الصغير على يدها ، فاعترضها سيلين قائلاً :

— آسف يا سيدتي فليس الوقت مناسباً لنزعه
الكلب فضلاً عن أنك خرجت به قبل الآن
فألتفت الفتاة عليه نظرة احتقار وأجابت :

— إنني أخرج به جملة مرات كل ليلة ولولا
زيارتك المتأخرة لكنت ...

فقاطعها سيلين :

— آسف يا سيدتي ، فليست نزعه الكلب
بالأمر الهام

مسكن الأميرة الروسية لقابلة مندوب وزارة الخارجية عندها ... وما كدت أقبل يد الأميرة حتى هجم على الطاهي وكان ما تعرفونه

وعند ما سأل سلين وزير الخارجية عما تم في أمر هؤلاء الجواسيس أجابه :

— خشنا أن نعاقيهم فتنشأ عن ذلك أزمة دولية فاكثفينا بنفيهم جميعاً وأرجو ألا يصل خبر هذه الحادثة إلى الصحف حتى لا ينقلب علينا الرأي العام وسأل كارترابت سلين : كيف أمكنه أن يعلم المكان الذي سجن فيه عند الأميرة ، فقال وهو يضحك :

— عرفته بمشوري على ورقة اللعب الثالثة عشرة يا صديقي ! عزت السيد إيهاليم

— إن هذا السلم المدلى يوصل إلى مطبخ الأميرة وقد صعد الطاهي اللعين مع ميشايل منذ برهة ... هيا قبل أن يلوذوا مع عصبتهم بالفرار ... لأنهم جواسيس ملاعين

وفي مساء اليوم التالي كان السير جاسبار مدعوًا مع أصدقائه في الحفل الذي أقامه وزير الخارجية اعترافًا بجميله حيث قال :

— إن الحكومة يا مستر جاسبار عاجزة عن شكرك لتمكنك من القبض على هذه المصيبة بعد أن فشل رجال بوليسنا في تعقب أثرها ، ولم نكن نظن في يوم من الأيام أن الأميرة الروسية ماديرويل مندجبة فيها ، بل كنا نعلم أنها فرت من روسيا بأموالها بعد أن ادعت أنها من مؤيدي الثورة ، ثم تغير اعتقادها فاعتنقت البلشفية ظانة أنها تفيد بلادها فأخذت توافي حكومة موسكو بتقاريرها السرية حتى حدثت هذه الحادثة الأخيرة التي تعرفها من كارترابت

فقال سلين : ولكن كارترابت لم يذكر لي شيئاً عنها

— هناك باخرة تمخر عباب بحر المانش وعلى ظهرها مليون من الذهب الروسي وقد بذل معتنقو البلشفية هنا جهدهم كي يحصلوا على ما اعتزمته حكومتنا من أمر ضبطها ، وكان كارترابت هو الرجل الوحيد الذي يعرف ذلك فنصب البلشفيون هذا الفخ لاصطياده وانتزاع المعلومات منه .

وقال كارترابت يروي ما حدث له : عند ما طلبت إلى التليفون خاطبني شخص وقال لي كلمة المرور السرية الخاصة بوزارة الخارجية وهي « إنك مطلوب حالاً » فاتبعت أوامره التي كانت تقضى بالهبوط إلى

مجموعات الرسائل

تباع مجموعات الرسائل مجلدة بالانجليزية

٥٠٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

فراراً من ذلك العار ... لقد
حلت النكبة ... فالأحرى بهم
أن يلبثوا في محلم وألا
يذهبوا بعيداً ، وأن يصمدوا
للأرزاء حتى تخف وتلين
قناتها ... »

ولم تلبث نفس الصحيفة

أن طلعت على القراء بعد يومين بخطاب خارجي موجه
إلى حنا و مرغريت رئيسي الأسرة المنكوبة ، وكان
هذا نصه :

عزيزتي مارغريت ... عزيزي حنا
ما أشد الشبه بين موقفكم الآن بعد نكبتكم
وآخر وقفته أسرتي لعشر سنين خلت ! وسأقص
عليكم حادثنا مفصلاً على قدر إمكاني آملة أن تجدوا
فيه عزاء لمصابكم وسلواناً :

كان عدد أفراد أسرتنا مطابقاً تمام الانطباق
لأفراد أسرته : أب وأم وثلاث بنات كبار وابن
صغير ، وقد كان الأخ على أي حال أصغرنا سنًا
وأنا أليه في الكبر

عشنا في بلدة لا تقاس بمدنتكم ، فقد كانت
صغيرة الحجم ولا يربو عدد سكانها على ستة آلاف
شخص ، وفي مثل هذه البلدة يندر ألا يكون
شخص ملماً بأسماء باقي الأشخاص وأحوالهم ،
وعلى ذلك كنا معروفين من السكان جميعاً ...
وهذا وحده كاف لجعل فضيحتنا أشد من أن تحتمل

فضيحة ...!

مترجمة عن مجلة " تروستوري "
بقلم السيد ناصر عزيز

طلعت إحدى الصحف الصادرة في (أمريكا)
ذات يوم على القراء وفي إحدى زواياها نبأ مؤلم تحت
عنوان : « خطب عاتلي » وهذا نصه :

هنالك أسرة تتألف من الأب (حنا)
وزوجته (مرغريت) وأطفالها الأربعة . وقد كانت
إلى عهد قريب أسرة سعيدة هائلة ؛ ولكن الدهر
يأبى أن يبقى على سعادة أو يديم سروراً

فقد هربت ابنة حنا الكبرى بصحبة رجل
متزوج لكي تعيش معه . وكم كان وقع هذه
المصيبة على هذه الأسرة أليماً ! لقد أصبح أعضاؤها
نهب الأُمى والغم ، وشعروا بالخجل يغمرم والخزي
يحيط بهم فسحبوا أنفسهم من المجتمعات وأصبحوا
عن أصدقائهم بمعزل

ثم أوعزت (مرغريت) إلى (حنا) أن يبيع
حانوته بغية الرحيل إلى مدينة نائية حيث لا صلة
لأحد بهم ولا علم له بعارم

ولكن حنا .. كان من رأيه أنه ليس لمجرد فضيحة
فرد من أفراد الأسرة يهيم الباقيون على وجوههم

من المعلوم أن الخطب يشتد وقعة على المرء كلما عظم شأنه ، وتعالى قدره ! فمن البديهي أن يعظم في نظرنا ما نزل بنا ، ونحن أسرة ألفت المجتمعات ، وربطتها التقاليد الدينية السائدة ، فكان أفرادها في الكنيسة أعضاء عاملين !

أنهيت تحصيلي العالي في الكلية وأنا مشرفة على الحادية والعشرين ... وسرعان ما شغلت وظيفة تدريسية شاعرة في مدرسة محلية ...

أما أختي سوزان فلم تدرس سوى سنتين فقط في البدء ... لم تكن نظن أننا سنقع في فضيحة ... أما الآن وقد حلت الكارثة وأصابنا القدر بسهمه الصائب فقد حجبنا أنفسنا عن جميع الناس ... حتى عن أصدقائنا القدماء ! ولا تسأل عمادهي أخي وأختي الصغرى أثناء تنقلهما في المدارس المديدة لتلقى العلم ، من ألم وكمد ! ...

وقد دار بخلدنا أخيراً أن مواجهة الصدمة في محلنا ليس في قدرتنا ، فاعتزمنا الرحيل ... وكان علينا قبل تنفيذ فكرتنا أن نعمل أشياء كثيرة بسرعة متناهية ... لذلك ألحفنا على الوالد أن يترك شغله دون أن يتقاضى لقاء خدماته الطويلة شيئاً ! غير أنه كان قد ادخر من شغله قليلاً من المال كان خير عون لنا بعد أن تذكر لنا الدهر ، فصممنا على تشييد دار جديدة لنا ... بعيداً جداً ... حيث لا يعرفنا أحد

ولم يواتنا الحظ في بيع دارنا (وهل لي أن أقول إننا ذوو حظ ؟) ، فإننا لم نجد لها شاربياً فتركناها خاوية ! ...

تركنا دارنا بعد أن أدير عنا الحظ ، قاصدين بلاداً

لمعبر سنوات مضت ... بدأت أختي الكبرى المشرفة على الثالثة والعشرين تماشى رجلاً متزوجاً ولم يمض طويل وقت حتى عرف الجميع ذلك ولم نكن لنذكر ما سيعقب ذلك حتى نزلت المصيبة !

فقد أعلنت جهراً فجأة أنها عازمة على الذهاب بصحبة الرجل المتزوج للمعيشة معه ... وتركت البيت فعلاً إثر تصريحها وصحبته حيث أخذنا في التنقل من محل لآخر كما كانت تستدعيه لذلك أعماله ... ولكنهما كثيراً ما قصدا بلادتنا في عطلة آخر الأسبوع أو في المطل الأخرى ...

وما كاد يطرق سمع زوجة الرجل علاقته بأختي حتى طلبت الطلاق على الفور ... وقد أجيب مطلبها في الوقت المناسب

وعلى أثر ذلك اقترن الرجل بأختي (سوزان) وعاشا في بيته رغم قضائهما جلّ الأوقات في السفر والتنقل

وهكذا ... ضربت أختي سوزان رقماً قياسياً في الوقاحة إذ ذهبت تنهل السمادة من أحضان زوجها وخلفتنا نحرق الأرم ونندب حظنا المأثر ... ورجو بانزوائنا اندمال قلبنا المكسوم !

كان أبي يشغل في معمل إعداد اللوازم الحديدية ، وكان يظهر عليه أنه قادر على تجميل بيته وتجهيزه وإدخال ضروب اللو والترف إلى أسرته ...

وقد أنهى بصحبة أمي الشطر الأكبر من عمره في المدن ... فأصبحت بذلك ذوى صلة بكثير من الأصدقاء

ولم نعد ترى ابتهامة القديمة المشرقة : تلك الابتسامة التي طالما علت شفثيه فأسكرتنا بهجة ورضى

وأخيراً ... حدث الأمر الذي لا مفر منه !
مهما أردت التخلص من شيء بهروبك منه وجدت ذلك الشيء مندفعاً نحوك اندفاع السهم ، لا يعوقه عن مواجهتك عائق خصوصاً إذا كان في الأمر فضيحة

فقد قذفت الأقذار إلى قريتنا شاباً جاء من مدينتنا القديمة لقضاء عطلة عيد الفصح فيها، ويشاء حظنا الماثر أن يلح أخى (بوب) في الطريق وأن يعرفه على الفور ! ولم يأل جهداً في استقصاء أخبارنا فلم أننى أشغل وظيفة تدريسية، وهنا تأتى بقية القصة رجعت إلى وظيفتي بعد انقضاء العيد، ولكنى لم أكـد أخطو فيها حتى لمست فى الجو تكهرباً .
وقلما أخطأ شعور الإنسان إذ ما لبثت أن كشفت سر ذلك التكهرب ، فقد أخطرتنى المدرسة باستغنائها عن خدماتى منذ الآن !

يا لله ! ألاحظ النحاس البائس أينما حل ! ماذا ترانى فاعلة بعد هذا المصاب ؟ ولم يبق لدى شك فى أن حالة والدتى الصحية ستزداد رداءة وخطورة عما كانت عليه فى السنة الماضية . وظهر لدينا جلياً أن سحابة اليأس والقنوط موشكة أن تظلنا جميعاً

ولم يكن فى وسعنا بعد الآن غير السفر ثانية إلى بلدة أخرى نلتمس فيها الاستقرار والصحة . فسافرنا فعلاً وحده والدتى الأقدار على أنها لم تربطه الآن بعمل آخر ليضحي ثانية به .

ألقت السفينة مرساها فى مدينة تناثرت المصانع فى أرجائها ، وتعالى سحب الدخان من أفواه المداخن

بعيداً نأمن به شر المار ... وأخيراً أشرفنا على قرية س ... الصغيرة النائية فعمشنا فيها ، وكانت هذه القرية واقعة فى الشمال ، وقد تيسر لى الحصول على وظيفة تدريسية فيها .

دعنا سبتمبر ونحن فى مقرنا الجديد ، وقد عثر والدتى على شغل ولو أنه لم يكن راغباً فيه ...

وكان من المنتظر أن نكون فرحين بعد عثورنا على مورد معيشتنا ، ولكن فى الحقيقة لم نكن كذلك ! فقد غدت والدتى مريضة قانطة ، ولم تكن تقدر أنها ستشعر بكل هذه الآلام حتى كانت تحبنا على الرخيل ، وقد كان عجيباً حقاً أن تشمر بأى ألم بعد انتقالنا إلى عشنا الجديد تاركين مهد الفضيحة وراءنا بعيداً، ولكن لعل ذلك راجع إلى انقطاعها عن الأصدقاء القدماء ... الأصدقاء الذين تربطنا بهم رابطة الصداقة المتينة التى يرجع عهدا إلى زمن الطفولة ، وقد أحس والدتى أيضاً بهذه الخسارة برغم أننا لم نعدم أصدقاء عديدين فى محلنا الجديد، ولكن ما أشد تباين الصداقتين !

والآن ، لأبسط لكم حالنا .. لقد لزمنى المرض والقلق ، وكان هذا حال أختى الصغرى ، وأخى بوب المشرف على الخامسة عشرة !

وسوف لا أطيل الكلام حول تلك السنة التى قضيناها فى قرية س ... وإنما يكفى أن أقول إن والدتى ضعفتها المرض طوال الشتاء ، ولزمتنى الكآبة مع أختى وأخى

أما والدتى فبالرغم من تركه العمل لم يكن يشكو شيئاً ، ولكن ظهر عليه أنه يتقدم فى العمر بسرعة

كثيفة قائمة ... فنزلنا في تلك المدينة مصممين على السكنى فيها .

وبعد أيام أسمعني الحظ بالعثور على وظيفة تدريسية في (مدينة المصانع) ... وكان لرئيسي القديم الفضل الأكبر في إيجادها لي .

أما أختي وأخي فقد شغلا وظيفتين في حاتوتين صغيرين ، فقد كان من العسير جداً العثور على وظائف حسنة في ذلك الوقت . وكانت الحاجة أيضاً هي التي دفعتهما لهذا الشغل التافه الأجرة . وقد كان الشتاء التالي من أشد أيام حياتنا إذ لم يكن يتنا مريحاً كالبيوت التي اكرتيناها سابقاً ... ولم يشأ والدي أن يتورط في شغل آخر بعد الآن !

انصرم الشتاء وأقبل الربيع بإشراقه ، وعبر أزهاره ، وسحر جماله ، حاملاً تحت طياته نبأ خطيراً فقد وافقنا الأنباء بحلول كارثة مروعة شنت شمل أختي سوزان وبعلها ... ومفاد تلك الأخبار أن السيارة التي كانا يسوقانها انقلبت فقتل الزوج شر قتلة ، وأصيبت سوزان بجراح خطيرة نقلت على أثرها إلى المستشفى وهي بين الحياة والموت ! هل تحسبان أننا فكرنا يوماً في الذهاب إليها ! نحن كثيراً ما دعونا وابتهلنا لو أنها ماتت ، إذاً لكان ذلك أولى من أن نجلب لأسرتنا تلك الفضيحة !

أما الآن ... وهي بين برائن الموت ... فهل في الإمكان نكرانها !؟

تحرك الحب الأعمى وهو أقوى صلة وأعظم رابطة على سطح الأرض !

من الجائز أن والدتي قد ظنت في وقت من الأوقات — بسبب الفضيحة — أنها قطعت تلك الرابطة وأسقطت ابنها من حسابها ، ولكن ... ولكن صرخة الطفل وقت الكرب يجب أن تلي ! وهكذا كان ... فقد قرر والدي ووالدتي الذهاب لرؤية سوزان ، ولم يمكن تركهما يذهبان دون أن أرافقهما ... فقد كانت صحة والدتي متضعضعة وخشيت أن تصبح السفرة ولقاء الجريمة وبالأعلى عليها ، لذلك صحبتهما

لا أنسى قط نظرة الارتياح المشوبة بالفرح التي ظهرت على وجه سوزان المعذبة عند ما فتحت عينيها فأبصرت بوالدتها واقفة بجانب سريرها !

كانت لحظة عنيفة خالدة ... أتت على جميع ما حمل قلب والدتي من الأحقاد التي ولدتها السنتان الخاليتان ! لقد أجهشت في البكاء ، وأخذت دموعي تنهمل على خدي ... وفي نفس الوقت تملكنتي الدهشة وعمراني الدهول لما أبصرت من قدرة والدتي على التجلد وحبس الدموع في ذلك الموقف الهائل ! والدتي التي كانت آثار المرض : مرض الجسم والنفس ، ظاهرة على قسبات وجهها بجلاء ووضوح ! مضت بضعة أيام كانت حياة أختي سوزان خلالها معلقة في الميزان ، ولكن والدتي لم تدع لليأس إلى نفسها سبيلاً . وأخيراً ... أخذ الخطر يزول تدريجياً حتى أيقننا أن سوزان لن تلبث طويلاً أن تتعافى !

كنا أثناء زيارتنا سوزان قد استأجرنا غرفة
في إحدى المنازل ، فقصداً أصدقاء كثيرين ليعربوا
عن سرورهم بشفاء سوزان

لماذا لا ترجعون للمعيشة في منزلكم ؟ لماذا بالله ؟
كان هذا السؤال يتردد على ألسنة جميع أصدقائنا
وقد أسمعونا إياه أكثر من مرة . حقاً .. لقد خطرت
لنا نفس الفكرة حيناً ثم أخذت في النمو ... لماذا
لا نرجع إلى منزلنا الذي لا زلنا نملكه ... ؟ لماذا
لا نهرع إليه في التو واللحظة بعد كل ما حدث !
ولم يلبث الخاطر أن بعث إلى العمل وتحقق .
فقد رجعنا إلى منزلنا في البلدة ، وقفلت راجعة
لأنهى أجل تعليمي في (مدينة المصانع) ... وبعد
ذلك قصدت دارنا في يولية حيث كانت في انتظاري
وظيفة تدريسية ... نفس الوظيفة التي أسندت إلي
قبل فرارنا بسنتين ؟

لشد ما تبدل الأحوال ! فقد وجدنا بعد
رجوعنا إلى منزلنا القديم في بلدنا أن العار القديم
قد طمست معالمه وتطرق إليه النسيان فقد كانت
الستتان اللتان احتجنا فيهما كفيلتين بتخفيف
وطء العار القديم ، وتقليل تأثيره . أما نحن فنادرأ
ما كنا نفكر فيه

دخلت سوزان على أثر شفائها المستشفى للتدرب
على التمريض ، وقد برعت في عملها فأرسلت إلى مدينة
نائية لتقوم بعملها كمرضة ؛ ولا زالت إلى الآن
تمارس مهنتها بجد ونشاط . ولم يكن يؤرقها ويشغل
فكرها سوى شيء واحد : ذلك هو عارها القديم !
آه لو أمكن اندثاره ونسيانه ، إذا لماشت
سعيدة هائلة !

وكأنما الأقدار أشفت عليها مما حل بها فحققت
أمنيتها ! فقد أمكنها من تكوين شخصية محبوبة
لا تمت لشخصيتها الأولى بسبب . فقد أحبا الناس
لبشاشتها ورقتها وحبها على الفقراء وطول باعها
في العمل ! ثم أخذت بين مدة وأخرى تزورنا فبرهنت
بذلك على توبتها واستقامتها !

وأخيراً تزوجت منذ خمس سنوات وسبقني أختي
الصغرى في زواجها بسنة واحدة ، وعشنا سعيدتين
بالقرب من والدينا . وبفضل ابتسام الحظ وزوال
التجهم أصبح والدي قادراً على المساهمة في الشركة
التي كان بها عاملاً من قبل . ولم تلبث الشركة أن
أصبحت تحت إدارته الحازمة حيث لاقت نجاحاً باهراً
فأسمت أعمالها وعظمت شهرتها !

أما والدتي فقد استرجعت سرورها وبشرها ،
ولم يمد يلقها المرض ثانية ، ولم يزل أخي يوب في عمله
مثال النشاط والإقدام !

فلأجل ذلك ... أحب أن أهنس في أذنك
يا عزيزي حنا ألا تضحي بعملك وبمجهوداتك التي
بذلتها في أحسن سنى حياتك متشبهاً بالآمل الواهي ،
الآمل في إيجاد سلوة عن الخطب بذهابك إلى
محل بناء عن بلدك ؛ فقد علمتنا التجارب القاسية
أننا لا نقدر على الإفلات من الهم أو الهرب من
المتاعب ، ووجدنا أن الأجدد بنا مواجهتها في
المحل الذي وقعت فيه ، إذ يظهر أن تلك المصيبة
تلاحق الشخص إلى أقاصي المعمورة !

وفي نفس الوقت ... احرص على توطيد علاقاتك

مع الأصدقاء ، فإنهم عند الشدة درع حصين ،
 وخير معوان على درء الكوارث أو إضعافها
 إليه مارغريت العزيزة . . . لقد أطلعتك على
 قصتنا ولا شك أنك قد ظفرت بحقيقة لا شك فيها ،
 ذلك أن الزمن كفيل بإزالة القسم الأكبر من الشقاء
 والبؤس . . . وعما قريب سيواتيكم الحظ قسعدون !
 أنا لا أنكر أن ملاقاتكم ما نزل بكم في مدينتكم
 يفتقر إلى شجاعة في البدء . . . ولكن ذلك خير
 لكم من الفرار إلى بلد آخر مادامت المصاعب
 تلاحق الإنسان أينما ذهب أو حل !
 وفي النهاية . . . أختم كلمتي هذه بوضعة أبيات
 اقتطفها من قصيدة صغيرة طالما وجدت الراحة
 في ترديدها أثناء ما حل بنا وهي :
 عند بلوغك أخطر نقطة في حياتك ،
 يجب عليك مواصلة سعيك برغم كل الصعوبات
 إذ لا سبيل لرجوعك إلى الوراء أو إلى أي
 جهة أخرى .
 وليس لك سوى السير حثيثاً إلى الأمام ،
 فإن الدجاجير لن تلبث أن تتبدد ، والعاصفة
 العاتية عن قريب ستزول .
 والله على إراحتك خير معوان ونصير !
 المخلصة : م . ب . س
 « البصرة » ناصر عزيز منصور
 مدرس بمدرسة المشار الابتدائية

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

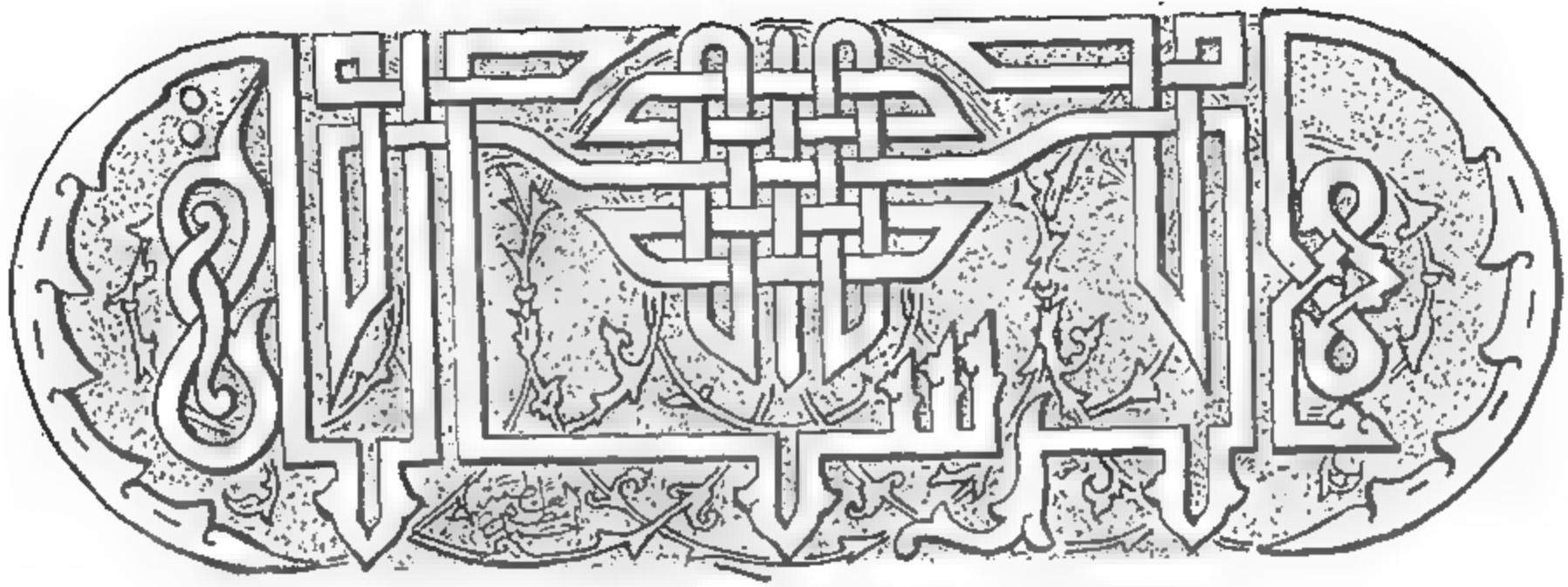
فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
 العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات
 نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
 كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
 ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين
 و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
 خلاف أجره البريد

كتاب النقد التحليلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

هو أول كتاب في اللغة العربية عالج النقد الأدبي
 بالطرق العلمية المؤدية ، والمقاييس المنطقية المنتجة .
 بناء المؤلف على نقد كتاب (في الأدب الجاهلي)
 للدكتور طه حسين ، ولكنه استطرد لدرس مسائل
 مهمة في قواعد النقد وأصول الأدب ومناهج البحث
 حتى جاء الكتاب مرجعاً في هذا الباب ونموذجاً
 في هذا الفن . وهو في الوقت نفسه يعني القارئ
 عن كتاب (في الأدب الجاهلي) لأنه تلخيصاً
 وافياً .

يبلغ في ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط
 وثمنه ١٢ قرشاً خلاف أجره البريد
 ويطلب من إدارة الرسالة



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَتَسْجِلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الاشترار الدخلى سنون قرناً ، والمخارجى ما يسارى جنيهاً مصرياً ، وللبند العربى بنظم ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للفصحى والتاريخ

نصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ — أول يولية سنة ١٩٣٩

العدد ٥٩

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	موضوع	مؤلف
٦١٨	حياة لغير	أقصصة مصرية
٦٢٣	وهبتها حياة ثانية	عن الانجليزية
٦٤٢	الأب	لكاتب الألمانى ولهم شمتبون
٦٥٢	إغراء الشيطان لآدم وحواء	من الأدب الفرنسى
٦٥٧	عابد الشمس	أقصصة مصرية
٦٦٦	الطائر الأزرق	لكاتب الأسباني روين داريو
٦٦٩	جندى قبل الاعدام	عن الانجليزية
	بقلم الأستاذ نجيب محفوظ	
	بقلم الأستاذ عبد الحيد حمدى	
	بقلم الدكتور على حسين	
	بقلم الأديب محمود الرصنى	
	بقلم الألسة جميلة العلايلى	
	بقلم الأديب شكري محمد عباد	
	بقلم الأديب مصطفى صبحى	

فأزاح الجريدة عن وجهه
ونظر إلى حديقة البيت المجاورة
نظرة التمع فيها الابتهاج فرأى
وجهاً مشرقاً يرنو إليه بعينين
سوداوين صافيتين يطالعه
بالبراءة والحسن ، فأحس
إحساس الحران هب عليه نسيم

حياة اللغيم

أقصصة مصرية بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

بارد مطر بالياسمين ورد تحيتها قائلاً :

— أهلاً بالآنسة سمارة !

فابتسمت إليه ووقفت تلاعب كلبها الأبيض
الصغير. كانت في السادسة عشرة ، يتجاذب وجهها
الصباح وقدما المشوق براءة الصبا وأنونة الشباب
وأشار إلى كلبها وسألها :

— كيف هو اليوم ؟

— تم شفاؤه ... الحمد لله ...

فضحك قائلاً :

— لعل هواء الإسكندرية لم يوافق مزاجه ؟

— على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا

لا تسمعه من الفرح ...

فنظر إلى وجهها الذي كسا الشاطئ بياضه
جمرة كأنه غمسه في الشفق وقال برقة :

— لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سمارة !

فاستضحكت ، وعدا الكلب في تلك اللحظة

فولته ظهرها وعدت وراءه ...

وبدا عليه تغير ظاهر ، ففاضت من عينيه نظرة
الجد والرزانة وخلفتها نظرة حنان وأحلام ، وطاب له
أن يختلس منها نظرات طويلة سعيدة ، فشاهدها ،
وهي تجلس إلى الكرسي ، وتنحني لتلاعب كلبها
الصغير ، وجعلت أناملها تنخل شعره الأبيض

ساعة الأصيل هي الساعة المختارة التي يهبط
فيها عبد الرحمن أفندي إلى حديقة البيت الصغيرة
وهي عاده التي يلازمها أو التي تلازمه أغلب شهور
السنة ، لأنه من القلة النادرة التي لا تروح إلى ترك
البيت إلا لعمل أو ضرورة . وقد نزل إلى الحديقة
ذلك اليوم من أيام سبتمبر المعتدلة ، وألقى عليها
النظرة الممهودة ، وتمشى بين طرقاتها اللتوية يسرح
بصره بين شجيرات الورد وأصص الزهور ، ثم
جلس على أريكة على كنب من السور المقام من
الأسلاك الشائكة الذي يفصل بين حديقة بيته
وحديقة البيت المجاور ، وبسط جريدة من جرائد
المساء كانت مطوية تحت إبطه ومضى يطالع ...

وكان في مشيته كما كان في جلسته آية للرزانة ؛
فمن كان يراه لا يشك لحظة في أنه بإزاء رب بيت
وعاقل أسرة ؛ فحركاته وإيماءاته ترقن دائماً بالهدوء
والاتزان ، ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة
والمسؤولية ، ورأسه الكبير وشاربه الفزير يدلان على
أنه ابن أربعين وإن كان في الحقيقة لم يجاوز
الخامسة والثلاثين إلا بشهور قلائل . وكان مستغرقاً
في مطالعته حين استيقظ فجأة على صوت رقيق يهتف
به قائلاً :

— سعيدة يا عمي ...

من الجنس الثاني التي رمت بها الأقدار في عزلة القاسية ... فتسرب الحب إلى قلبه خفية ، في أناة وهدوء ، وبلا قصد أو حذر تسرب الكرى إلى أجنان حالم مستسلم إلى هبات النسيم اللطيفة في جلسة طويلة هادئة على شاطئ النيل ...

وكان في أول عهده بها يتمتع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذاً لحنان صدره المكتوم ، فلما أن انقلب عاشقاً أنشبت فيه الحيرة أظافرهما وحرمت القناعة السعيدة وصار يعذبه كل شيء حتى عطفها وحديثها ، لأنها كانت تقبل عليه براءة ولم تشعر حياله شعور امرأة بأزاء رجل ، وقد حدجها مراراً بنظرات نفذ منها لهيب الهوى قهراً فلم تستجب له ولم تحس به وأصرت على أنه « عمها العزيز » لا أقل ولا أكثر . ما عسى أن يكون ردها لو طلب يدها ؟ ... كيف يكون شعورها ؟ ... وكيف تكون دهشتها ؟ ... وماذا تقول لأبيها ؟ ... وماذا تقول لنفسها ؟ ... وهل يمكن أن يراها بعد ذلك كما يراها الآن في حديثها وأن يتمتع برؤيتها مقبلة مذبذبة محدثة مداعبة أم ينقطع عهده بها إلى الأبد ؟

وهب أنه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفتح أباها - صديقه العزيز - في هذا الشأن الخطير فما عسى أن يقول له ؟ ... يا له من قول عسير ... وفكر طويل ، ثم أغمض عينيه وحدث نفسه وكأنه يحدث صديقه : « صديقي العزيز لقد جئت أحدثك في أمر خطير لم تكن تتوقع أن أحدثك فيه أبداً ، وربما لم أكن أتوقع ذلك أنا أيضاً ، ولست واثقاً من موافقتك ولا من أهليتي للطلب الذي أتقدم به ولكني لم أرد أن أضيع فرصة ذهبية لمجرد توهي الإخفاق ... سيدي ... وصديقي ... »

ولم يتم حديثه لأن صوتاً عذباً أيقظه من حلمه قائلاً :
— أنا نائم أنت ؟

فانتبه خافق القلب وقد تولاها ما يشبه الرعب ، وقال :

الطويل ، ومضى الكلب يلحق يدها مسروراً ويثب على ركبتيها وذنبه يرقص طرباً ، وفي أثناء ذلك تدلت خصلات شعرها الحريري وحامت حول عنقها وخديها ، وكان في مشاهدته سعيداً مبتهجاً ، ولكن انقبض صدره فجأة ، فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئاً ، لأنه تذكر أن سلوكها نحوه لم يتغير منذ كانت تدرج في الطفولة والصبا ، وأنها ما تزال تناديه بقولها « عمي » كما كانت تفعل وهي صغيرة تلعب بالعراس ، وكان فيما مضى يفرح بهذا النداء ويمده آية على ما له في نفسها ونفس أبيها من المودة والصداقة ، أما الآن فهو يضيق به ويتأذى منه ولا يكاد يسمعه حتى ينقبض صدره وتتولى عنه الميسرة وانجبه بصره إليها مرة أخرى وتساءل — ولم يكن يفعل ذلك للمرة الأولى — أمن المستحيل أن تصير سمارة زوجي يوماً من الأيام ؟

وهز رأسه في إنكار واستغراب كأن القرض من المستحيلات حقاً ، ولكنه لم يسلم بلا جدال فتساءل مرة أخرى : ما وجه الاستحالة ؟ ... العمر ! ... فهو ابن ستة وثلاثين وهي بنت ستة عشر ، فعشرون عاماً تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرر « عمومته » لها فكيف يتأني للعلم أن يصير زوجاً وحييياً ؟ حقاً إن الكثيرين لا يمتدحون بعقبة العمر ، ولا ينزلون عند حكمها ويذلونها بغير مبالاة ، ولكن لكل تضحية من هذا القبيل ثمن ، فما عسى أن يكون الثمن الذي يبذله لثل هذه التضحية الغالية ؟ ... هو في الواقع ليس إلا موظفاً منسياً في وزارة الداخلية لا يتجاوز مرتبه الخمسة عشر جنياً فلا مكانة له يعتد بها ، ولا مال له يسدل به على نقائصه سترأ من الرواء والجلال ؟ ومع ذلك فهو يحبها ، ويدوله أنه لم يكن من حبها بد ، وكيف كانت تتاح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يوماً بعد يوم ستة عشر عاماً ؟ ... وكانت إلى ذلك الإنسانية الوحيدة

— كلا ...

— مبدرة ... رأيتك مغمض العينين ...

— كنت أفكر ...

— وفيه تفكر . ؟

حذق في وجهها بعينين حاريتين وتساءل بماذا يجيب ؟ ... أيقول لها فيك أنت ؟ ... ولكنها مجازفة سابقة لأوانها ، فلازم الصمت ، وأحس رغم ارتباكها بلذعة سخرية لا اضطرابه أمام هذه الطفلة ، وكان ينم النظر في عينيها السوداءوين ، ومرت دقيقة على جوده ، فشمع بسرمان تخدير لذيد ولم يعد يرى إلا سواداً جليلاً ، ثم لاحظ تغيراً فجائياً يطرأ عليها ، فرأى وجنتيها تتوردان وشففتيها تفلقان ، وعينيها تتحولان إلى هدف وراءه ... وشاهدها تفر نافرة إلى داخل البيت ، ونظر خلفه دهشاً فرأى أخاه أنور يقف مبتسماً ويمد له يده للسلام . وأحس بكآبة لم يدر ما سببها وخفق قلبه خفقان الخوف والخيبة ، ولكنه سلم عليه مبتسماً وقال له : أهلاً كيف حالك يا دكتور ؟ فضحك الشاب وقال بصراحة :

— كم أنت سعيد يا أخى !

وأدرك ما يعنى من اتجاه بصره ولهجته ، وآله ذلك غاية الألم ، ولكنه تجاهل الأمر وقال بإنكار :

— سعيد ؟

— طبعاً ، من يحدث سمارة ينبئ أن يكون سعيداً فابتسم ابتسامة صفراء وقال لنفسه : إما أن هذا الشاب خبيث ما كره ، وإما أنه غبي لا يفقه لما يقول معنى . ليس السعيد حقاً من تحدثه سمارة ولكنه من تخجل من محادثته ومن يتورد وجهها حين رؤيته فلا تملك إلا أن تفر هاربة . . . هذا هو السعيد حقاً . . . أفلا يفهم ذلك هذا الشاب أم أنه يتعابى ويمكر ؟ على أنه كان يحرص على ألا يبدو عليه شيء مما

في نفسه ، فقال يغير مجرى الحديث :

— كيف كانت ليلتك بالأمس ؟

فجلس الشاب إلى جانبه وقال :

— كان قصر العيني أمس حافلاً بالحوادث الزعجة ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلم بعينين ساهمتين وعقله دائب على التفكير ... كان ذا قلب كبير يفيض حنانه ، فهو يحب شقيقه وقد أمده هذا الحب الأخوى بالعمون والصبر فرباه ورعاه كما ربى أخوين له من قبل ، ولكن يداخله أحياناً من ناحيته خوف وجفول وربما أكثر من ذلك ... نعم هي الحقيقة فهو يكرهه أحياناً وهو أشد ما يكون كراهية له إذا جرى ذكر سمارة على لسانه ، فجرد نطقه لذلك الاسم الحبيب يؤذيه ويمذبه وتستحيل هذه الكراهية المؤقتة مقتناً إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما حدث منذ حين قليل ... على أن هذا لا يعنى أن هذه الكراهية عاطفة ثابتة فهي مجرد انفعال عفيف ، وغير ذلك فهو يحبه ، وينظر إلى مستقبله كشيء جميل من صنع قلبه وكده ، فأى حيرة وأى عذاب ... ترى هل يفتن الشاب إلى ما يحدثه في نفس شقيقه الأكبر من الشقاء ... ؟ كلا ... هو بلا شك لا يتصور أن مثله يمكن أن يحب هذه الصبية الجميلة !

وكان الدكتور الشاب يفكر في تلك اللحظة من حياته السعيدة في أمور هامة فقال لأخيه : — لدى أمور هامة أريد أن أفشى إليك بها ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هذه الرغبة فقال : — إخلع ملابسك أولاً وارنح قليلاً ... ولكن الشاب قال بإصرار : — استمع لي أولاً يا أخى فإن حياتي في مفترق الطرق ...

فسكت الرجل وأردف الشاب :

— ستنتهى بعد أشهر مدة تمريني كطبيب امتياز في القصر وقد أخبرني أستاذي الدكتور

فعدني أن نذهب غداً إلى مقابلة والدها ولعل لا أصدى
هناك بما يحيب أُمِّي

— حسن .. ولكن ما الداعي إلى هذه السرعة؟
— لا بد من السرعة فليس أُمِّي سوى شهو
قلائل ينبغي أن يتم في أثنائها الاتفاق والاستعداد
للسفر إلى إنجلترا

ثم ضحك الشاب وقال وهو يهيم بالوقوف :
— ألا ترى أنني سيأمنى شهر العسل خارج
القطر كالوجهاء ؟

فابتسم الرجل ، وحياء الشاب وذهب إلى داخل
البيت ...

وتبعته عيناه حتى غيبه الباب ثم عادتا تنظران
إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تني التفاصيل ،
فأحس إحساساً غامضاً بالسمة التي أخذت تشوب
الكون والسكون الساري في مفاصله ، وضاق بجلسته
فقام يمشي في الحديقة الصغيرة يائساً محزوناً محتثاً
ودار دورتين ثم رجع إلى الأريكة وارتقى عليها
بشيء من العنف كأنه يسلم إليها حظه الشمس لاجسمه
المهولك ...

ووجد في تلك اللحظة رغبة خفية قاهرة
في الفرار إلى الماضي ...

فطار خياله في الزمان عشرين عاماً في غمضة
عين إلى تلك الفترة من العمر التي تبدو فيها الحياة
كقطعة من المعجن في يد الخيال يعبت بها كما يشاء
ويصنع منها ما يعلى عليه هواه بمبدأ عن قساوة
الواقع . في ذلك الوقت البعيد كان هذا الرجل
الممتلئ رزاة وهماً وحزناً صديقاً مرحاً مدلاً يفيض
قلبه بالأفراح والآمال وقد ميزته الطبيعة مذ رأى
النور ، فكان أول من خفق له قلب والديه بالأبوة
والأمومة من الأبناء . ثم كان من بعد ذلك غلاماً
مجتهداً تضيء حياته المدرسية استعدادات عالية
ومواهب نامية تبشر بالنبوغ والتفوق والمستقبل

براون بأن النية متجهة إلى اختياري عضواً في هيئة
كلية الطب ...

فأحس الرجل بارتياح غير منتظر وقال بفرح :
— مبارك. مبارك. أنت أهل لذلك بغير شك.
والظاهر أنه كان لدى الشاب ما يقوله غير ذلك
لأنه قال بارتباك وبصوت خافت :

ولكني ... أعني ... أريد أن أقول ... إنني
إذا سافرت فلن أسافر منفرداً ...
— لا أفهم شيئاً ...

في الواقع أنه يفهم كثيراً ، أو فهم على الأقل
ما جعل قلبه يرتد إلى الجفول ، وكان الشاب قد
تغلب على ارتباك فقل :

— سأسافر زوجاً إن شاء الله
— يا لها من مفاجأة ! ... إنه لم يسبق لك
التحدث إلى أحد في هذا الموضوع ... أليس
كذلك ؟

— بلى ...
— هل نبت في رأسك على حين غرة ؟
— كلا ولكني أوتر الصمت حتى أخرجني
عنه السفر المنتظر !

وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثم قال :
— هل أفهم من ذلك أنك وفقت إلى الاختيار ؟
فأخى الشاب رأسه وأشار بذقنه إلى بيت
الجار وقال :

— سمعنا ...
وساد الصمت ، وقلق الشاب لسكوت أخيه ،
فسأله بلهفة :

— ما رأيك يا أخي ؟ ... ألا تمجيك ؟
فقال الآخر بسرعة :
— نعم الاختيار ... نعم الاختيار ...
فابتهج الشاب وقال :
— أشكرك يا أخي ... وأرجو ألا تتوانى ،

وربما كان الزمن في ذلك شأن وأى شأن، فما كاد
أكبرهم يتخرج ضابطاً في مدرسة البوليس حتى
تزوج وترك العباء له وحده وتبعه بمد قليل أخوه
الثاني المهندس فاضطر إلى البقاء أعزب حتى هذه
السن ...

ثم ذكر كيف أنه كاد يختار أخيراً ما يكمل به
حياته وكيف جاء الاختيار بعيداً عن التوفيق وكيف
أنته الطعنة النجلاء من يد طالبا آثرها بالحب
والعطف، وقد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة
بالأمل والسعادة كأنه ذاك الحكيم الذي يترنم
بأنشودة السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التي
لا تراها العين ...

وفيما هو في أحلامه إذ سمع صوتاً ينادى قائلاً :
« عبده ... لماذا تبقى في الظلام »
هذا صوت أمه الحبيب ... رباه ... لقد لفه
الليل وهو لا يدري ...

وقام من جلسته متثاقلاً وسار يبطء إلى الداخل
وبادرته أمه قائلة :

— هل حدثك أنور ؟

فقال : « نعم ... »

— ما رأيك ؟

— اختيار جميل يا أمه ، سأذهب غداً لمقابلة

جارنا وأطلب يد ابنته الجميلة لابننا النابه !

فقلت بحنان :

— لم يبق إلا أنت !

ولازم الصمت هذه المرة ...

من يعلم ؟ ... ليس الذي ياتي الآن بأشد قساوة
مما لقي في ماضيه ، وما هذه بأول كارثة يمتحن بها
قلبه الكبير ، وقد علمته الحياة فضيلة الصبر كما علمته
حقيقة أجل : هي أنه يستطيع أن يسمد وهو
يحقق السعادة للآخرين ... يجب محفوظ

البسام ، ولكن الحقيقة أن ما خفي من فضائله كان
أعظم ، وأنه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور في أبهى
الحلل ، وقد جاءت هذه الفرصة ولكنها لم تكن
والأسفاه سوى وفاة والده ...

ترك الوالد المتوفى أسرة بائسة مكونة من أرملة
وأربعة أبناء أكبرهم — عبد الرحمن — في مستهل
الشباب ، وأربعة جنهات معاشاً ، وهكذا تصدت
الحياة للشباب السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس ،
استأدته أشد الواجبات ، وحتمت عليه أن يخلع رداء
الطفولة ليحمل على عاتقه اللدن أثقل التبعات ...
وكان عليه قبل كل شيء أن يتناسى أطماعه ، ويدرج
في الأكفان آماله ، ويقبر مواهبه لكي يهيئ للأسرة
الضعيفة حياة سميدة ، ويوليها بعض العناية التي كان
يوليها إياها الأب الراحل ، ورضى كارهاً بوظيفة
بائسة لم يتصور قط أن تنتهي إليها آماله ...

كانت تلك الأيام في بدئها مؤلة شديدة المرارة
تبعث في النفس الأسى والحسرة واليأس ؛ ولكنها
لم تبلغ به قط حد الثورة أو الغضب الهائل . لماذا ؟
كان قلبه كبيراً ينضج بالحنان والأخوة . فوهبه
أمه وإخوته ، وهانت لذلك تعاسته ، وخففت الأيام
من وقع الخيبة في نفسه ، وتجددت في قلبه آمال
أخرى لا تتعلق بمستقبله هو ، ولكن بسعادة إخوته
ومستقبلهم ، وذاق سعادة جديدة ، هي السعادة التي
يحدثها بذل النفس والعمل من أجل سعادة الغير ،
وبذلك شغل الشاب مكان أبيه ، ودخل في طور
الرجولة الحق قبل الأوان ..

وذكر هنا كيف أنه كان يشعر بالفراغ الأليم
رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال ، ولكنه كان ينجح
دائماً في إبعاد فكرة الزواج عن قلبه حباً في أسرته
وإيثارة لإخوته ، واستوصى بالصبر ، لكن أثبتت له
الأيام أن إخوته أقل صبراً وأعنى بنفوسهم منه

وَهَبْنَاهَا حَيَاتَانِ

(قِصَّةٌ اسْتَحَقَّتْ بِأَنْتِ جَنَّتُهُ)
عن الانجلى ليرنى
بقلم الأستاذ عبد الحميد دحمى

الليلة قد انتهت من تمريض
السيدة شيد بعد وضعها ولدها
الثالث . وقد تركتها هي وطفلها
في صحة جيدة .

وفكرت وأنا أسير في
الطريق في مسكني المريح في بيت
السيدة ميل حيث قضيت الخمسة
عشر عاماً الأخيرة . فكرت

مسرورة في مطبخي النظيف النير ، واعتزمت أن
أتعشى الليلة سجعاً وخبيص البطاطس . فذلك الجو
هو الجو المناسب لثل هذا العشاء .

ولقد كنت دائماً أشعر باللذة عند عودتي إلى
مسكني ، وكان في واجهة الطابق الأول من الدار .
فلما وصلت إلى الباب فتحتة وضغطت زر الكهرباء
ففاصت غرفة الجلوس بضوء لطيف .

وإذ تلفت لأغلق الباب سمعت صوت نشيج
مكتوم فوقفت أسمع فكان الصوت آتياً من المسكن
المواجه لمسكني .

كانت تقيم في ذلك المسكن سيدة اسمها مسز
فرانكلن استأجرته منذ بضعة أسابيع ولم أعرف من
أمرها إلا الشيء القليل جداً . كانت شابة لا تتجاوز
سنها السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين ،
طويلة القامة ملفوفة ، سوداء العينين جذابتها في
وجه أبيض مستطيل . وقد تعودت أن تصبغ شفيتها
بالأحمر الزاهي ، وكان ذوقها في لباسها جينلاً بسيطاً .
ولم أشك في أنها حين كانت أصغر سناً كانت مفرطة
الجمال . وقد أخبرتني مسز ميل صاحبة الدار أن
الساكنة الشابة تشتغل بالتصوير للمجلات ، وتبعث

[لم ترد أن تعيش بغير الرجل الوحيد
الذي حرك هوامل الحب في قلبها]

مضى على الآن ثلاثون عاماً في مهنة التمريض ؛
فقد أصيب زوجي — وأنا في الثانية والعشرين من
عمرى — بمرض طالت أيامه ؛ فعنيت بتمريضه
طوال العشرة الأشهر التي قضاها في الفراش ، حتى
إذا انتقل إلى العالم الآخر واصلت حياة التمريض .
ولقد خلقت بعض النساء ممرضات بالطبيعة ،
وأنا واحدة من هؤلاء ، وقد وجدت عملاً كثيراً
في بلدة أيسر انجليان التي ولدت فيها ؛ وقضيت
حياتي بين أهلها الذين أعرفهم ، وأستطيع التفاهم
مهم .

وكان الأجر الذي أتناوله قليلاً ، لذلك لم أدخر قط
مالاً كثيراً ، ولسكني ادخرت طائفة كبيرة من
الذكريات لا تقوم بمال مهما كثر ؛ والآن يعرفني
جميع أهل المقاطعة باسم العمة سارة كشنج .

وفي ليلة قارسة البرد من ليالي شهر نوفمبر عدت
إلى بيتي بسرعة ، وكانت الأنواء منبعثة من نوافذ
البيوت التي صرث بها . وكنت كلما استنشقت الريح
الباردة شعرت بأن الحياة شيء جميل . وكنت في تلك

بالمناذج إلى كتب الأزياء .

وإذ كنت أليفة الروح فإني لم ألبث على أثر سكن مسز فرانكلن في الدار أن خطبت ودهابنية الصداقة ، وكانت الشابة كريمة النفس ، ولكنني لاحظت بعد قليل أنها لا تريد أن ترتبط بروابط الصداقة مع أحد من الناس .

فلما سمعت صوت النشيج المكنوم نظرت خلال فتحات بابها فلم أر أثرًا للضوء ، ففكرت فيها وحيدة في الظلام ، وقد تكون مصابة بأزمة مرضية حادة فأبجى قلبي إليها .

وقلت في نفسي : « إنني لا أستطيع أن أقترح الدار عليها غير مستأذنة » . ثم خطرت لي خاطر سريع . فدخلت إلى مسكني ، ووضعت كيس نقودي على كرسي ، وخلعت قبعتي ومعطفي ، وكانت ساعتى في هذه اللحظة تدق التاسعة .

رتبت شعري ، واجتزت الردهة ، وطرقت باب مسز فرانكلن فلم أسمع جوابًا ؛ فأعدت الطرق بأشد مما فعلت أول الأمر . فسمعت صوتًا مكتومًا يقول :

« مرحى ! من الطارق ؟ »

فأجبت :

« إنها العمدة سارة » .

ثم قلت :

« أيمكن أن تقرضيني شيئًا ؟ »

فقلت :

« أرجو أن تنتظري لحظة واحدة » .

وسمعت حركة مشيها من وراء الباب المغلق . ثم انبث الضوء فجأة من فتحة عتبه ، ولم يلبث أن فتح في بطاء ، ووقفت الشابة كالخيال بيني وبين

الضوء . وقالت :

— أنتفضلين بالدخول ؟

فشكرتها وخطوت إلى داخل الغرفة .

والتفتت إلى ؛ فسقط الضوء على وجهها فغمره ، وكان شعرها الأسود الكثيف مرتبًا غير مشوش . وكان ثوبها الأسود منتظرًا في بساطته ، كذلك كانت عيناها السوداء وان براقتين لا أثر للدموع فيهما . نخلت إلى أنه يكاد يكون من المستحيل أني سمعت نشيجها منذ لحظة .

وسألتني الشابة في اقتضاب وعلى فيها ابتسامة رقيقة منتصبة :

— أى شيء أستطيع أن أقرضك ؟

قلت :

— ليس عندي شيء من الشاي . فهل يمكن أن تعطيني ما يكفي قديمًا أو قديمين ؟

فأجابت :

— بدون شك وسأحضره في الحال !

فلما سارت متجهة إلى المطبخ فحمت الغرفة بنظرة سريعة لعل أعثر على ما يفسر أسباب حزنها نكطاب أو تلفراف مثلاً .

ولكني لم أر شيئًا غير جريدة المساء ملقاة على الأرض إلى جانب كرسي موضوع تحت المصباح . وعادت مسز فرانكلن إلى الغرفة وفي يدها علبة من الشاي . وقالت ملحة في لهجة سريرة متوترة :

— أرجو أن تأخذها كلها فعندي غيرها !

فشكرتها وأمالا أزال غير راغبة في الانصراف . فقد كانت روح المأساة تسود الغرفة ، ولقد كنت على يقين من ذلك . فقلت :

— إن البرد شديد في الخارج .

فارتجفت الشابة وقالت :

— أهو كذلك ؟

ثم اصطبغ وجهها بلون أغبر ، ورأيت أصابعها الدقيقة تنقلص على ساعديها ، وقد ضمتها إلى صدرها من أثر التألم . فسألها بسرعة :

— أمريضة أنت ؟

فالت نحوى مترنحة ، والتقت نظراتنا ، وكان الألم الصارخ يبدو جلياً في عينيها ، ولكنها قالت في لهجة القلق الذي فرغ صبره :

— لا . لا . أنا لست مريضة .

وخيل إلى أن عينيها تبعثان بنظراتهما إلى داخل نفسي ، وكأنهما لا تريان شيئاً .

واسترعت الجريدة الملقاة على الأرض نظري ، ففني رأس الصفحة الأولى كتبت هذه الكلمات بالخط المريض :

« سيشنق كريج غداً . الرجل التهم بقتل زوجته يلقي جزاءه » .

ودون أن أفكر في كلماتي قلت :

— إذن سيشنقون كريج غداً .

لم أكأ أنطق بهذه الكلمات حتى تصلبت الفتاة ونكصت عني كما لو كنت قد ضربتها ، وسقط ساعداها في دفعة واحدة إلى جانبيها ، ومال رأسها إلى الوراء ، وخرجت من حلقها صرخة فظيعة مجتذبة حبست بين شفثيها الحراوين . وكانت صرخة غير دنيوية تجمد لها نخاع عظامي . فامسكت بكتفيها وهزتها في لطف . وقلت في لهجة الأمر :

— قفي هذا يا مسز فرانكلن !

فانفتحت عيناها في بطاء ، فكانتا تفيضان بمجزع بمجزع القول عن وصفه . ثم قالت في همس حاد :

— نعم سيشنقونه غداً .

وترنحت الشابة مائلة نحوى فامسكت بها وأسندتها وأجلستها على الكرسي . ثم لم تلبث أن استولت عليها قشعريرة حادة . فكان الفزع الشديد الكامن في نفسها يهزها في عنف كما يهز ربح الشتاء الغاضب شجيرة ضعيفة .

فقلت وقد ألمت لحالها :

— سأحضر لك شيئاً من الخمر فلا تتحركي حتى أعود إليك .

واجترت الردهة جارية حتى وصلت إلى مطبخي فصببت نصف زجاجة من الخمر في قدح وعدت بسرعة إلى حيث كانت الشابة لا تزال ترتجف .

فركزت حافة القدح بين شفثيها وقلت :

— اشربي هذا !

فشربت جرعة أو جرعتين من الفسح ، وفي لحظات قليلة وقفت القشعريرة فقالت وهي كالتأهية :

— شكراً لك ، وأنا الآن على أحسن حال .

كانت هذه الكلمات إيذاناً لي بالانصراف ، ولكنني لم أصغ لها . وقلت في لهجة الاعتراض :

— لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال من المرض ، وأنت تعرفين أنني ممرضة . فاسمحي لي أن أبقى معك فترة قصيرة .

فهزت رأسها في إشارة رفض سريعة ، ولكن كتفها لم تلبث أن مالتا متعبتين . وقالت :

— نعم : أرجو أن تبقى معي . لا تتركي وحيدة . إبقى معي حتى ... الصباح .

قلت :

— ألا ترقدين وتسمحين لي بأن أريحك ؟

فقلت الشابة وكان صوتها الألم الجسم :

(٢)

وما سمعت كلمات الشابة المنكوبة حتى طوقها
بساعدي وصحت في لهجة المواساة والحنو :

« عزيزتي ! »

وعادت هيلارى تنسج نسيجاً جافاً لا يصحبه
دمع حتى ليخيل إلى الإنسان أنه يمزق قلبها قطعاً
وقلت لها في لهجة الرجاء :

— حدثيني بأمرك يا هيلارى ، ففي الكلام
تفرج عن نفسك

فقلت في صوت متوتر مخفق :

— ولم لا أتكلم ، ليس في تاريخ حياتي ما يعد
أمراً خاصاً أحاول إخفائه ، فلقد قرأ كل من أراد
قصتي منشورة على صفحات الجرائد ، فلماذا أخفي
عن إنسان واحد وجه الحقيقة فيها ؟

وبدأت هيلارى تذرع أرض الغرفة من جديد
جيئة وذهوياً ؛ وكانت عيناها مسبلتين وشفتاها
ترتجفان وقد لاحظتها بينما عادت ذاكرتي إلى الماضي
مسرعة تستعرض ما قرأته من قصة هيلارى لي
وما قرأته يلخص في أن هيلارى كانت الابنة
الوحيدة لرجل غني . وكانت يتيمة الأم منذ طفولتها
وكانت فتاة جميلة صلبة الرأي ، تملك المال الزائد جداً
على حاجتها . وقد أذيع أنها خطبت ثلاث أو أربع
مرات ، وقيل إنها هجرت أحد خطابها في اليوم
الذي حدد لعقد الزواج

وقد شغلت الصحف وقتاً ما صفحاتها الأولى
بقصة حب هيلارى للشباب الجميل الذي كان يشغل
عند أبيها مركز رئيس الركيبة وهي قصة قصيرة
مكفهرة ، ولقد فصل أبوها هذا الموظف من عمله
وأمرع فصحب ابنته في رحلة في أرجاء العالم المختلفة
وبذلك تلاشت قصة ذلك الغرام

— تريحيني ؟ وهل أعرف الراحة بينما هو
ينتظر الموت ؟

ثم وثبتت ووقفت على قدميها ، وشرعت تذرع
أرض الغرفة ذهوياً وجيئة . ثم وقفت أمامي على حين
بجأة ، وكانت عيناها في نظري كالجرتين المتقدتين .
وكان صوتها وهي تتكلم أشد فظاعة من عينيها ،
وقد قالت :

— إنهم سيشتقونه غداً . وليس في يدي من
شيء أستطيع عمله لإنقاذه . . . نعم لا شيء على
الإطلاق !

فسألتها في صوت بالغ في الرقة :

— أو تحبينه ؟

فأجابت :

— أنا هيلارى لي

عندئذ أدركت سبب جزعها وآلامها

فقد قرأت ما كتب عن جناية القتل التي اقترفتها
كريج ، كما قرأها كل من يطلع على الصحف ، فقد
شغلت الصفحات الأولى من الجرائد أشهراً طوالاً ،
وفي أول الأمر تكرر اسم هيلارى لي عدة مرات
مقترباً بالظروف التي أدت إلى الجريمة ، ولكن في
القسم الأخير من المحاكمة اختفى هذا الاسم فلم يسمع
به أحد

نشرت قصة غرام هيلارى لي القصيرة على
جمهور متعطش للأخبار المثيرة ، وأضيفت لها الحواشي
التي تزيد الرغبة في قراءتها ، ولكن قصة هذا الغرام
انتهت وطويت صفحتها قبل حادث القتل بزمان طويل
ولم يستطع القانون ولا الصحافة أن يجدا أية حلقة
تربط بين حب نيكولاز كريج لهيلارى وبين قتله
امرأته ليلى

وحدث بعد ذلك أن أباهما ادوارد لى فقد ثروته ما بين عشية وضحاها نتيجة معلومات خاطئة اتصلت به فى أعماله ، فلم يستطع الرجل احتمال التفكير فى حياة الفقر فانتحر فى غرفة مكتبة بيته فى «سورى» وعادت الصحف مرة أخرى تذكر اسم هيلارى فى رؤوس صفحاتها

وبعد ذلك تركتها الصحف مطمئنة فترة من الزمن إلى الليلة التى فيها أطلق نيكولاز كريج الرصاص على زوجته فى مسكن بوست أند

كان نيكولاز كريج وزوجته متباعدين منذ سنوات ، لم يستطع أحد أن يكشف قط عن السبب الحقيقى لارتكاب الجريمة ، فمادت الصحف إلى ذكر قصة غرام هيلارى لى ولكنها لم تستطع أن تجد هيلارى لى

ولقد تخيلت هيلارى فتاة متغطرة حجرية القلب ، أول تفكيرها وآخره وكله فى نفسها ، وكان من الصعب أن أصدق أن السيدة الشاحبة اللون ذات العينين السوداوين اللتين تنبعث منهما آلام العذاب النفسى هى حقاً هيلارى لى المشعوذة الخداعة ثم بدأت الفتاة تتكلم فى جل قصيرة مقتضبة كما لو كانت كل كلمة تنطق بها قطرة جديدة من الألم الصارخ تعصر من قلبها ، وكانت وهى تتكلم تذرع أرض الغرفة بخطواتها ، ولقد سبق لى أن رأيت حيواناً محبوساً فى قفص يخطو مثل هذه الخطوات اليائسة

ولم أقاطعها فى أثناء حديثها ، بل جلست أصغى لها وقلبي يتفطر تألماً لها مع كل كلمة تنطق بها . وهذا ما قالته :

لقد جعلت الصحف من حبنا «أنا ونيكولاز» شيئاً رخيصاً فاجراً ، ولكننى فى الواقع لم يكن كذلك فقد كان نيكولاز يشرف على خيل أبى شهوراً عديدة قبل أن أحبه ، ولم يكن فى نظرى غير واحد من الموظفين المديدين الذين يعملون فى اصطبلات أبى ، على الرغم من أننا قد ركبنا معاً مرات عديدة ، إلى أن جاء اليوم الذى ذهب فيه لمقابلة أبى فى بيتنا الرقيق بنيو فرست وقد طلب أبى منه أن يصحبني فى السيارة إلى ذلك البيت

ولما اقتربنا من منتصف الطريق داهمتنا عاصفة هائلة

فتركنا السيارة وعدنا على الأقدام تحت المطر المنهمر إلى كوخ على مقربة من الطريق كان نيكولاز قد لمح . وطرقتنا باب الكوخ ولكننا لم نسمع لطرقتنا جواباً ، ولم يكن هناك من مكان آخر نستطيع أن نأوى إليه اتقاء المطر ، لذلك عاج نيكولاز قفل الباب بسكين ففتحه . وأسرع فأشعل النار وبخشنا فى المكان فوجدنا ملابس جافة ، ولم أكن قد رأيت نيكولاز قبل هذا اليوم فى غير ملابس الركوب فلما رأيته يرتدى سراويل من الصوف الأبيض وقميصاً من الصوف الأزرق رأيته إنساناً آخر مخالفاً للذى كنت أراه

وطبخ نيكولاز لنا عشاء من بعض المأكولات المحفوظة فى العلب التى وجدناها فى أحد الأصونة ، وكانت العاصفة لا تزال فى عنفوانها ، وخيل إلينا أنها تشتد عنفاً مع توالى ساعات الليل ، وكان المطر يطرق النوافذ فى شدة ، وكان عصف الرياح أشبه بولولة مجموعة كبيرة من الشياطين

وقال نيكولاز :

— يدولي أنك مقرورة فدعيني ألف هذا الدثار حولك .

ووضع الدثار على كتفي فابتسمت له ، فإذا به يضمني على حين فجأة بين ساعديه ، واندفع يقبلني قبلات ما عهدتها من رجل قبله ... قبلات جائعة ... كما لو كان ذا مسغبة من الحب

ولقد تعلقت به وقلت في نفسي : « إن هذا هو الحب ، وإنني لم أعرف قط ما هو الحب حتى هذه اللحظة »

لم أعد أشعر بشيء من البرد فلقد كنت ألهب بنار سرور غريب ، فتركت له شفتي وقلبي ونفسي ، وقد رأيت أن حق الحياة يقضى بأن أكون معه في ذلك المكان أغمره بحبي ، بل بدالي أن ذلك أحق من كل شيء آخر عملته في حياتي ولما أشرق الصباح أشعل نيكولاز النار وأعد لنا قهوة قوية . فلما انتهيت من شرب فنجانتي ابتسمت له في كثير من الإعجاب ، فلقد كان الرجل الذي لا تملك امرأة نفسها دون الإعجاب به والافتخار بقربه . كان طويل القامة يقرب طوله من ستة أقدام عربض المنكبين دقيق الوسط والردفين ، وكان شعره الكثيف الجمعد في لون القمح الناضج . رمادي العينين واسمهما في وجه قوى تزينه سمرة مبهجة ، ورد نيكولاز على ابتسامتي بابتسامة عذبة رقيقة ، فلمحت بريق أسنانه البيضاء القوية وصحت في لهفة :

— لنزوج يا عزيزي بأسرع ما نستطيع ، وسنخبر أبي بزواجنا بعد عقده ، فإذا هاج غضبه — وهو لا بد أن يهيج — فلنمش بميداً عنه حتى يعود إلى نفسه ويهدأ غضبه

وما كدت ألفظ بهذه الكلمات حتى اختفت ابتسامة نيكولاز ورأيت شفتيه تنطبقان في خط متجهم عابس ، وقال :

— إنني متزوج بالفعل يا هيلاري

وسمعتني أقول صائحة :

— لا ، يا نيكولاز لا لا لا !

ولكن خيل إلي أن الصوت الذي يصيح بهذه الكلمات لم يكن صوتي المألوف فاقترن حاجباه في تقطعية محزنة وقال في صوت يقطر منه الألم :

— إنني متزوج منذ أربعة أعوام ، ولم أكن إلا طفلاً عند ما التقيت بيلي ، وكانت راقصة في أحد المتنديات الليلية ، فخيّل إلي أنني أحببتها ، ولست أدري لماذا تزوجت مني فقد ملت معاشرتي بعد بضعة أشهر من الزواج

ثم ازدادت غنة الألم في صوته وهو يقول :

— أنا لست إلا زوج المصادفة ، فإننا نعيش أحياناً بعيدين أحداً عن الآخر أشهراً عديدة متتابعة ، ثم ترسل إلي فأوافيها — كالكلب الذي يسير في كعب صاحبه .

فسألته في بلاهة :

— هل تحبها ؟

فأجاب :

« لا — لا أحبها الآن ، لا أحبها بعد الليلة الماضية

فصحت محتدة :

— كان يجب أن تقول لي ذلك في الليلة الماضية فضمني بين ساعديه وقال :

— لقد كانت الليلة الماضية جنوناً — جنوناً عذياً

فقال في بطاء :

— لقد ظننت أنك أحببتني ، بل لقد كنت
واثقاً أنك أحببتني في الليلة الماضية .
فقلت غاضبة وقد سحبت معطفي :
« فلتنس ذلك »

وحين وصلنا إلى بيتنا الريفي انهال أبي على
نيكولاز بكلمات الغضب العنيفة . ثم أزعجني أن
سمعت نيكولاز يرد على أبي صائحاً بأنه قد أحبني
واتصل خبر هذه المشادة بالصحف فخلقت منها
قصة كبيرة ، وقد أعادني أبي إلى لندن في تلك الليلة
نفسها وبعد يومين ركبنا الباخرة في رحلتنا العالمية
ولم أحاول أن أكتب لنيكولاز قبل سفرنا
فقد كنت لا أزال أشعر بالجرح الذي أصابني وكنت
في حيرة شديدة

وفي أقل من أسبوع في البحر فقد قلبي ما أصابه
من جمود وعاد يشمر بالألم ، فأدركت أن نيكولاز
قد أحبني حقاً وأنتى كنت قاسية في صرفه من غير
كلمة أزوده بها

لقد عرفت أننا لن نكون أبداً أحداً للآخر ،
فهو قد أحب ليلى على طرازه إلى الليلة التي أحبني
فيها ، ولقد نارت نفسي على فكرة الطلاق
وسهرت ليلة كاملة في الكتابة إليه ، فقلت له
في كتابي إنني أحبته ، وإنني لن أستطيع أن أنساه
أبداً ، وتذكرت غيبوبة حبنا وسألته أن يذكرني
دائماً ، وختمت الكتاب بأن طلبت منه ألا يراني
بعد ذلك

وضعت هذا الخطاب في صندوق البريد بأول
مرفأ رسونا فيه . ترى لماذا تضع النساء قلوبهن على
صفحات الورق ؟ لماذا يكتبن كلمات قد تهلك الرجل
المرسلة إليه ؟

جديداً على يا عزيزتي . وإنك لنجم من السماء يا هيلاري
ولقد سعدت إليك ولستك . ولن أكون أبداً بعد
ليلة أمس كما كنت من قبل ، لقد ضمت بين ساعدي
النار والثلج وتربة النجم . ولن أدعك تتركيني أبداً
ويجب أن تطلقني ليلى ، فهل تزوجين مني متى أصبحت
حرّاً طليقاً ؟

ولكنني قد جرحت في عواطفى جرحاً بالغا
قاسياً ، فقد كان الفتى رجل امرأة غيرة .

فصحت وأنا أجاهد للتخلص من بين ساعديه :
— لا ، لا ، لا أنا لا أريد زوج امرأة أخرى ،
لقد كنا مجنونين في الليلة الماضية . نعم كنا مجنونين
وقعنا في شرك الغرام . أما في هذا الصباح فقد عاد
إلينا صوابنا . فلتنس ما كان يا نيكولاز ولنبدأ من
اليوم حياة جديدة

فاقترب مني وتناول وجهي بين كفيه وقبلني
في رقة ولطف وسألني :

— أتمتدين حقاً يا عزيزتي أننا نستطيع
نسيان الليلة الماضية ؟ لقد تذوقت عذوبة تربة النجم
يا هيلاري ، فلن أقتنع بعد الآن بما هو دونها .
وسيأتي اليوم الذي تصبحين فيه لي دون سائر الناس
فقلت له في خشونة :

— لا فائدة فيما تقول يا نيكولاز فلن أتزوج
منك أبداً ، وسأنساك ، ويجب أن أنساك . وكان
ما حدث ليلة أمس لم يحدث قط ، وإنني لا أريد أن
تجري الأمور بيننا على هذا الأساس ولنعد الآن
إلى السيارة !

ثم قلت في لهجة وحشية :

— من يدري إن لم يكن القلق قد بلغ بأبي
في هذه اللحظة حد الجنون !

قضيت وأبي حوالى ثلاثة أشهر فى رحلتنا بعيدين عن لندن ؛ فلما عدنا إلى دارنا لم يعض علينا أسبوع واحد حتى فقد أبى جميع ثروته واختار أسهل الطرق للخروج من نكبته

تولانى اليأس فى الأشهر الأولى بعد موت أبى ، وكان لى قليل من المال ورثته عن أمى ، فاخفيت عن العالم وعن أصدقائى إلى أن التأمت جروحي قليلاً وبعد عام من موت أبى استخدمت قسماً من مالى فى أحد حوانيت الملابس بمانشيستر ، ودخلت العمل باسم مستعار واجتهدت جادة فى استهلال حياة جديدة وفى يوم من الأيام جاءت ليلى لمقابلتى . ولقد عرفتها منذ اللحظة التى وطأت فيها قدمها أرض الحانوت ، عرفتها قبل أن تقول : « وأنا ليلى كريج فهل أستطيع أن أراك على انفراد ؟ »

كانت المرأة جميلة مكثرة من الصباغ ، وقد أحالت شعرها إلى لون البلاينيوم ولكن جذوره بقيت سوداء ، وقد تصلبت حواجبها بما استعملت من مواد ، وفى الجملة كانت ليلى شريرة رخيصة المدن وثقة

أجبتها :

« ألك أن تدخل إلى مكتبى ؟ »

فلما أغلق علينا الباب رمقتنى من فة رأسمى إلى إخص قدمى وعلى فها ابتسامة عريضة وثقة . وقالت وقد دخلت مباشرة فى الموضوع الذى جاءت من أجله : — مى كتاب قد تحبين أن تشتريه . فقد نزل

بى أنا ونيكولاز فى الأيام الأخيرة شىء من العسر المالى ، فنحن أشد ما نكون حاجة إلى المال فتذكر زوجى هذا الكتاب الذى بعث به إليه فى يوم من

الأيام وظن أنه قد يساوي عندك مائتى جنيه وأخرجت من فمطرها كتاباً رأيت على غلافه طابعاً أجنبياً والكتابة التى عليه من خط يدى ... وقالت المرأة وهى تبتسم ابتسامتها الوثقة :

— إن فى هذا الخطاب مادة ساخنة ، فهل يمجبك أن تنشر محتوياته على الجمهور ؟ وهل تحبين أن أقرأ لك تذكرة بما فيه ؟

فأمسكت بمجنب المكتب ورأى لأسند نفسى وصحت بها ألا تقرأ شيئاً من الخطاب الذى شخص به نظرى وهى بمسكة به فى وجهى . لقد أحببت رجلاً فى وقت من الأوقات ... أحبته حباً كلياً وكل حبي له كان مكتوباً على صفحات هذا الكتاب . والآن يرسل هذا الرجل امرأته لتستبدل بهذا الحب نقوداً جامدة

ولقد سألت المرأة فى مرارة :

— لماذا لم يحضر نيكولاز بنفسه ؟

فضحكت وقالت :

— نيكولاز عامل فقير مسكين

ولقد شعرت كأن شفتى قد بردتا وتجمدتا حين قلت :

— أنت تطلبين مائتى جنيه ثمناً للكتاب ؟

أجابت المرأة :

— هو ذاك !

فشعرت بأن مرجل الفضب يغلى داخل نفسى وفكرت لحظة فى أن أتناول سماعة التليفون وأدعو رجال البوليس ، ثم خيل إلى أننى أرى تلك الكلمات التى كتبها بخطى منشورة على صفحات الجرائد فلم أحتمل هذه الفكرة وقلت :

— سأشتري الكتاب

في الساعة الخامسة مساء
وقد وجدت رقم تليفون نيكولاز في دفتر
التليفون فلما طلبته كان هو نفسه الذي أجاب النداء
فقلت له :

« لا بد لي من أن أراك »

فصاح صبيحة أستطيع أن أقسم بأن غنة الفرح
فيها كانت حقيقية صادقة وقد قال :

« أين أنت يا عزيزتي فساخضر لك في الحال »
نخبرته باسم الشارع ورقم السكن وفي أقل من
عشرين دقيقة كان معي

فما كدت أراه وأسمع صوته حتى بدأ قلبي يدق
دقاً عنيفاً حتى يخيل إلي أنني سأختنق

ولقد رأيت في عينيه نشوة الحب حين صاح :

« هيلاري حبيبتى إننى لم أجسر قط على أن
أؤمل في هذه السعادة ، لم أجسر قط على أن أؤمل
في أن ترسلى إلي يوماً من الأيام
فقلت في حرارة :

« إجلس يا نيكولاز ولننته من هذا الأمر ،
فأنا هنا لأشتري صورة كتابي ، فكم تطلب ثمناً لهذه
الصورة ؟ »

لم أكّد ألفظ بهذه الكلمات حتى رأيت أمارات
الدهشة والارتباك تملأ وجهه ، وقال في حدة :

« إنك لم تخبريني عم تتحدثين »

نخبرته بما حدث في بضع جل قصيرة مريرة ،
قلت في ختامها :

« ولقد دفعت لاصراًتك بالفعل مائتي جنيه وأريد
اليوم أن أنهي الصفقة معك »

وهنا علا اصفرار الموت وجهه نيكولاز ، وقد

كان في خزانة مكتبي ما يزيد قليلاً على مائتي
جنيه ، فعددت المائتين ووضعتها على المكتب ،
فوضعت هي الكتاب إلى جانبها ثم أخذت الأوراق
المالية فعدتها في تأن ووضعتها في قطرها . ولم أكن
حتى هذه اللحظة قد لست الكتاب ، إذ لم أحتمل
لسه وهي معي في الغرفة

ومشت المرأة إلى الباب ثم وقفت وقالت مكررة
ابتسامتها الفاجرة :

— إنك لطيفة جداً في المعاملة فهل من رسالة
أحملها إلى نيكولاز ؟

قلت :

— لا رسالة له عندي

وترددت المرأة لحظة وهي ممسكة بأكرة الباب
ثم قالت :

— بهذه المناسبة أرى أن أخبرك بأن لدينا
صورة فوتوغرافية لهذا الكتاب ، فإذا أعسرنا
مرة أخرى فإننى أخشى أن أضطر عندئذ للعودة إليك
ثم اختفت وراء الباب

فالتقطت الكتاب وبدون أن أخرجه من غلافه
مزقته إرباً

وكانت الأيام التي أعقبت هذا الحادث أشبه
بكابوس فظيع . ففي كل يوم يشرق على كفت
أخشى أن تمود . وكلما دق جرس التليفون توقعت
أن أسمع صوتها . ولما لم أعد أحتمل عذاب الانتظار
قصدت إلى لندن لأشتري صورة كتابي الفوتوغرافية
ذهبت مباشرة إلى مسكن صديقة قديمة وكانت
قد خرجت في الساعة العاشرة لقضاء بعض حاجتها ،
فكان المسكن تحت مطلق تصرفي إلى أن عادت

أسودت عيناه من شدة الغضب ، وانتشل من جيبه الداخلي حافظة نقود رقيقة ، وفتح أحد جيوبها الداخلية ، فلم يلبث أن أحدق بصره بها بينما بدا الجزع في عينيه ، وقال :

« أنا أعرف أنها شيطانة ولكنني لم يخطر لي قط أنها تفعل ذلك ، لقد ضاع الكتاب ، وأحسب أنها قد استمانت ببعض أصحابها خفاف الأيدي على سرقته »

فصحت :

« ألم ترسلها إلي لتبيني الكتاب ؟ »

فأعاد حافظة نقوده إلى جيبه ، وفي أسرع من لمح البصر انتقل إلى جانبي وطوقني بساعده وقبلني قبلات عنيفة وقال جواباً على سؤالي :

« إني أحبك »

ثم صاح وقد أحكم تطويق يساعديه

« سأقتلها من أجل ذلك »

فقلت راجية :

— لا تقل مثل هذا الكلام. فما أبالي ما حدث وكل ما يهمني أن أراي مرة أخرى بين ساعديك يا حبيبي

— ما كان أشد شعوري بالوحشة لبعديك ، وكـ من مرة حلت بك ! وما كان أشد تشوقى لرؤيتك ؟ إنني لم أعش قط معها ، حتى ولا ساعة واحدة بعد تلك الليلة التي قضيناها معاً . فما كنت لأتخذ امرأة غيرك ؛ فما زلت أنت نجمتي التي بها أهتدي يا حبيبتى .

فقلت :

— لا تتركني أبداً يا نيكولاز ؛ فما أريد أن أفترق عنك .

فأجابني واعداً :

— أبداً يا حبيبتى .

مرت الساعة وأنا ممسكة بالساعة بين يدي أحاول يائسة ألا تفلت منها ، وحتى في هذا الموقف بين ساعديه القويتين كنت أشعر شعوراً باطنياً بأن هذه هي آخر ساعة ألقاه فيها .

وقبل أن يتركني وكـد لي أنه سيجد طريقة للحصول على صورة الكتاب . وقال في لهجة الوعد الصادق :

— فـهـي لن تؤذيك أبداً بعد الآن يا حبيبتى .

ثم قال :

— إنني أعرف كيف أعاملها ، وسأحملها الآن على أن تترك لي حريتي بالطلاق ، ويجب ألا يكون لك أى نصيب في الموضوع . فأنت نجمتى السماوية ؛ فلتعديني بأن تبقى بعيدة مهما حدث من أمر . فوعده ، فقبلني وانصرف .

وعدت إلى مانشستر في الليلة نفسها .

يا لله ! كم تمنيت لو أنني لم أتركه .

لقد انتظرت طوال اليوم التالي أن تأتيني رسالة منه ، وقد حملت إلى "صحف المساء" الرسالة التي كنت أنتظر . لقد قتلها في مسكنها ثم سلم نفسه للبوليس . وإنني لأعرف الآن أنه فعل ذلك في ثورة غضبه حين عنفته بكتابي ورفعته في وجهه وتحدته أن يجسر على الاقتراب منها لأخذه .

ولقد أخذه فعلاً وأعدمه قبل أن يحضر رجال

البوليس .

أخذت أول قطار إلى لندن وذهبت مباشرة إلى

مستر لاين المحامى الذى كان يتولى أعمال أبى . فقلت له
والزفرات تقطع حديثي :

— يجب أن تنقذه . فقد فعل ذلك من أجلى ،
ويجب أن أذهب إليه فهو بحاجة إلى :
فقال مستر لاين فى حزم :

— يجب أن تبقى بعيدة من هذا الأمر . فإنك
لن تفيديه شيئاً باندفاعك إليه الآن ، بل لملك بذلك
تضرين قضيته . فاركبى القطار التالى عائدة إلى
مانشستر ، وسأعمل يا هيلارى كل ما أستطيع لإنقاذه
فقلت راجية :

— أرجو أن تكون دائماً على اتصال بى ؛
فبندى بعض المال وسأنفق كل ما أملك فى الدفاع عنه
فوعدتى المحامى بقوله :

« سأبذل كل جهدى لمصلحته ، وسأتصل
بك يومياً »

وهكذا عدت إلى مانشستر ، ولكنى علمت
أن فترة اطمئنانى القصيرة قد انتهت ، وأنه يجب أن
أعود مرة أخرى إلى الاختفاء

وكانت شريكى فى المتجر راغبة أشد الرغبة
فى إبتياح حصتي فيه ، فبعتها هذه الحصة وأرسلت
ثمها إلى مستر لاين لإنفاقه فى الدفاع عن نيكولاز ،
ثم اختفيت من جديد

: ولقد حاولت عدة مرات أن أرى نيكولاز ،
ولكن محاولاتي ضاعت عبثاً ، فقد كان نيكولاز
ومستر لاين متشدين فى رفض طلبى . وقال مستر
لاين فى لطف :

« هو لا يريد أن تزوريه يا هيلارى ، وأكبر

معروف تقدمينه له هو أن تبقى بعيدة عن هذه
القضية »

وكان مستر لاين يحمل رسائل نيكولاز إلى
ويحمل رسائل إلى . ومما قاله نيكولاز : « إن نجوم
السما لا مكان لها فى السجون ولقد وعدتني بأن
تبقى بعيدة عن هذه المشكلة »

انتهت المحاكمة إلى نتيجة سريعة ، وقد صدمنى
القرار صدمة شديدة وإن كنت قد توقعت من أول
الأمر . فقد كيفت الجريمة بأنها نتيجة الغيرة ، وقال
نائب الاتهام : إن نيكولاز قد ذهب إلى ليلى برجوما
أن تعود إليه فلما رفضت أطلق عليها النار فى ثورة
الغيرة التى ملكت نفسه

وبعد أن صدر الحكم عليه حضرت إلى هذا
المسكن حيث كنت واثقة أن ليس هناك من يعرفنى .
ولقد أردت أن أستهل حياة جديدة إذا أمكن إنقاذ
نيكولاز

وكنت كلما مررت الأيام تعلقت بالأمال تعلق
جنون ، أما الآن فلم يبق لى شئ حتى ولا الأمل . ولقد
كنت أشعر واثقة بأنه سيرسل إلى لأراه مرة أخرى !
ولكن ما هى ذى الساعات الأخيرة تمضى مندفعة
فى سرعتها ؟ وهو هناك ينتظر الموت الذى يوافيه
صباح الغد . وأنا هنا على مسافة أميال عديدة منه
أحاول أن أعيش خلال ساعات الليل الفظيمة المربعة
وسيكون الصباح نهاية كل منا ، فما أستطيع أن
أحيا بدم موته ، ولن أحاول أن أبقى على قيد الحياة .
وما أستطيع أن أتركه يموت وحده ، وما هى قيمة
الوعد الآن ؟ يجب أن أذهب إليه ، ولا يزال
(٣)

في الوقت متسع لذلك إذا أنا أردت الذهاب

وتناولت حقيبة يدها من فوق مائدة صغيرها
وقششها لتعرف ما لديها من النقود ثم قالت :
« يجب أن أحصل على مال أكثر من هذا .
وستقرضيني بعض المال فهل تضنين على بذلك ؟ »
وكانت عيناها براقتين جامدتين كالزجاج وقد
تقلصت عضلات وجهها في حال عصبية خيفة ، وقد
لاحظت أنها على وشك الإغماء ، لذلك أمسكت
بيديها الباردتين بين يدي وأسندتها بقوة وقلت في
لهجة حازمة :

— اسمي يا هيلارى لي . لقد وعدته وعداً ،
ويجب أن تحافظي عليه . ومنذ بدء الخليقة ضحى
الرجال أرواحهم في سبيل حبهم المرأة . ولن يتحمل
نيكولاز مرارة توديعك له . فاركبه يقابل الموت
كما يريد أن يقابله . دعيه يذهب وهو لا يزال يشعر
بنعيم القبلات السماوية على شفثيه ، وعظمة نجمته
أمام عينيه . صدقيني أنه يريد أن يلقى الموت على هذه
الصورة ...

فبدأت الفتاة تنسج نشيجاً عنيفاً وسألتنى :
وأنا ؟ ماذا يكون من أمرى بعد موته ؟ ماذا
يكون من أمر الند وجميع الأيام التي تعقب الند ؟
ألا فأعلمي أن ليس لي بعد الآن مكان في هذه الدنيا
وليس هناك من به حاجة إلي . فلقد كان هو الرجل
الوحيد الذي يعنى بأمرى .

فقلت :

إن لكل منا مكاناً في هذه الدنيا ، ولكل منا

عمل يؤديه . فنحن جميعاً أعضاء في مجموعة الدنيا
العظيمة ، وستجدين مكانك وعملك يا هيلارى لي ،
والأمر متوقف على شجاعتك وإيمانك
فأجمعت عيناها وقد ملتتاً بأنسا إلى الساعة المعلقة
فوق الجدار ، وقالت منتحبة :
— لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد ولا يزال
الوقت يسمح لي بالذهاب إليه .
فقلت :

— إنهم لم يسمحوا لك برؤيته

فصاحت في عنف شديد :

— اللهم رحمتك بي اللهم رحمتك به وبى جميعاً !

ثم وجهت إلى الحديث وقد ملتت عيناها رعباً
فقالت :

— ابقى معي ولا تتركيني وحيدة ، فإذا جاءت
ساعة التنفيذ فأمسكي بيدي وادعي الله أن يميتني
قلت :

— تعالى إلى مسكني ، يا عزيزتي ، فيكون
الأمر أسهل عليك في غرفة لم تتألى فيها مثل ما تألت
في هذه الغرفة .

ثم طوقتها بساعدي وقدها خلال الردهة حتى
دخلنا غرفة جلوسى فارتعت مترنحة على أحد الكراسي
وهي ترتجف في حال عصبية عنيفة : —

أخملت حقيبة أدويتي وذهبت بها إلى المطبخ ،
فسخن ماء وصببت بعض الخمر في قدح ، وأخرجت
من علبة في الحقيبة قرصين أقيتهما في القدح ، فلما
ذابا صببت على الخمر الماء الساخن ، وعدت إليها
فوضعت حافة القدح بين شفثيهما وقلت في لهجة الأمر :

— اشربى هذا كله

قالت متوجمة :

— إننى أشعر بالبرد الشديد

قلت :

— سيدفئك هذا

فجرعت الفتاة كل ما فى القدح ثم وثبت واقفة وعادت إلى حركتها الاضطرابية تذرع الغرفة ذهاباً وجيئة ، وكنت أرقبها عن كثب . وقد صاحت فى صوت مخنق فطبع :

— تسع ساعات ... ألا خبرينى كيف أحتمل عذاب هذه الساعات التسع ! خبرينى كيف أحفظ بعقلي إلى الساعة الثامنة ... والموت !

فقلت وأنا أطوقها بساعدى :

— قوى نفسك يا هيلارى واجتهدى فى ألا تفكرى فى شيء

فأغمضت عينيها ومالت على متعبة وقالت همساً :
— أنا متعبة حائرة

ثم ارتجفت وهمست باسم نيكولاز ومالت إلى الأمام فأمسكت بها وحملتها بين ساعدى

وأنا امرأة قوية وكانت هى هزيلة ضعيفة فحملتها إلى غرفة نوى وأرقدتها على سريرى ، وخلعت حذاءيها وجوربيها ونزعت ثوبها الخارجى وسحبته عليها غطاء السرير ، وكان تنفسها إذ ذاك هادئاً منتظماً ، وكنت أعلم أنها ستنام إلى ساعة متأخرة من الصباح، ومن المحتمل أن تبغضنى متى استيقظت ولكنى قد حميتها العذاب الذى ينزل بها وهى ترقب عقارب الساعة تدنو من الساعة القاتلة

وسحبته كرسياً إلى جانب وجلست عليه أرقبها وكان وجهها أشبه بقناع من الشمع . وإذا كنت أعلم أنها ستنام ساعات عديدة فقد اختلست فترة أرحت فيها جسمى بقليل من النوم

ولما استيقظت كانت عيناها لا تزالان مغمضتين وكانت مستغرقة فى النوم . وساءلت نفسى لم لا تفلت روحها المذبذبة من جسمها وتعرف بوسيلة ما غريبة طريقها إلى الرجل الذى أحبته فتواسيه فى ساعاته الأخيرة؟ ورجوت الله أن يكون هذا هو الذى حدث لم يبق غير خمس دقائق حتى تبلغ الساعة الثامنة فأمسكت بيدها المترهلة بين يدي ، فقد وعدتها أن أفعل ذلك ، وشعرت بوحشة السكوت المرعب الذى يكسر القلب ... ثم دقت الساعة الثامنة فأحسيت رأسى ودعوت الله فى بساطة أن يبارك روحه

وما زالت هيلارى نائمة هادئة ، وقد ألفت أهدابها السوداء خطوطاً بمن الظلال على وجهها الأبيض النحيل

ودقت الساعة التاسعة ، فقلت فى نفسى :

— فلا تبلى بشيء من طعام الإفطار

ثم دق جرس التليفون فاخترقت الساعة قبل أن يدق مرة ثانية ، وسمعت المتكلم يقول :

— أنا الدكتور مارتى . أيمكنك الحضور فى الحال ؟ عندى حالة وضع متعبة وأنا محتاج إليك فأجيبته :

— نعم يمكننى أن أحضر حالاً

فقال الدكتور :

— مريضة من مسر إلى كبر العبيدة وسيد مسر
إليك زوجها بعد خمس دقائق
ارتديت معطى وقبعتي وذهبت إلى غرفة النوم
فالتفت نظرة على عيلاري إلى مروجت وبها حيفاً
في غرفة تولى تحمل بك إلى أمان أسير في الساعة
الأولى أن تمنى بأمرها ؟
فأجابت مسر ميل :
— سأعمل لها بعض الحساء إذا لم تعودى



هذه لك . فذهبت إلى الطابق الأول وطارت باب
مسر تحمل قبعته وتقسها فقلت لها :
— ألا متظيرة بالنعاب إلى مريضة ممتعة .
وكانت مسر فرانكلان قد شعرت بالمرض وهي في
سجادة أسيرة في الطابق تركتها إلى جانب مسر توم
الذكر الشاب . فقال له في صوت أحسن من نجمة :
— ماري مريضة جداً

فنظرت مسرعة إلى وجهه المتع وحاولت
مواساته فقلت :

— لا تنزعج يا توم

لم يمض على زواج توم من ماري أكثر من
سنة أشهر وكان زواجاً إجبارياً وقد سمعت أنهما
تعاركا عراكاً فظيماً وأنه هددها أكثر من مرة
بأن يتركها

ولم تكن المسافة بعيدة بين بيتي والبيت الصغير
الذي يسكنه باركز ، فدخلت إلى الدار مسرعة
وصعدت السلم الضيق إلى غرفة النوم حيث وجدت
الدكتور مارتن منحنياً على السرير فلما رأيته قال :
— حمداً لله إذ حضرت يا سيدتي الممرضة ،
فإن الشابة ضعيفة جداً ، وليس في مقدوري أن
أجعل الولادة طبيعية

وكنت أعرف ما يجب أن أعمل فبدأنا عملنا
في سرعة وسكون حتى إذا سلمني الدكتور طفلاً
قوياً باكياً قال لي في صوت متوتر :

« لا تهتمى الآن بأمر الطفل ، فكل جهادنا
الآن في سبيل إنقاذ الأم »

وبعد عشر دقائق قضيناها في جهد يائس التفت
عيوننا على الشابة ماري وقد جددت حركاتها، فهزرت
رأسي وقلت :

« لقد ذهبت إلى العالم الآخر »

ولما رفع الدكتور مارتن كتفيه المتعبتين رأيت
وجهه أغبر مجهداً . وقال في بطاء :

« لقد كانت صغيرة جداً لمثل هذا الموقف ،
لقد كانت هي نفسها طفلة »

ثم وضع يديه على عيني ، فقلت مسرعة :

« إنك متعب يا دكتور »

فهز رأسه وقال :

« لقد قضيت في هذه العملية الليلة كلها ، وقد
جئت إلى هنا مباشرة بعد عملية أخرى شاقة »

فقلت :

« إنك لن تستطيع عمل شيء آخر هنا ، فعد
إلى بيتك وحاول أن تنام »
فهز رأسه متعباً وقال :

« نعم ... أظنك على حق ، مسكينة هذه الطفلة
لقد تمنيت لو استطعت إنقاذها »

ثم مسح شعر ماري بأصابعه في لطف ؛ ثم سار
إلى الباب . وقال :

— أنا ... ألك أن تخبري توم ؟

فقلت :

— سأخبره يا دكتور .

وهبط الطبيب السلم الضيق ، وسمعتة يستقل
سيارته ويسير بها ، فسويت شعر الميثة ، وعشقت
ساعديها على صدرها ، وسحبت الغطاء على جسمها
الصغير .

وقلت في نفسي :

— مسكين هذا الطفل لقد كان خيراً له لو مات
هو أيضاً .

دقت الساعة الحادية عشرة فأخرجت الطفل
من الدار الذي لفته فيه ، وشرعت أدلك جسمه
بالزيت الباقى ، وكان صبيّاً لطيفاً قوياً .

فتح الباب ودخل توم باركز فال في تشاقل
إلى الجدار وسألني في همس أجش وقد ملأ الجزع
عيني :

— هل ماتت ماري يا عمة سارة ؟

فقطيت الطفل مرة أخرى وذهبت إلى حيث

وقف أبوه وقلت له في لطف :

— نعم يا توم، قد ماتت ماري ولكنها قد تركت لك طفلاً ذكراً لطيفاً

فكانه لم يسمع ما قلت له فقال :

— لا بد أن أذهب إليها

ومشى يترنح متجهاً إلى السلم

وذهبت إلى المطبخ فوجدت إبريق الشاي على

الوجاق فملأت قدحاً وشربته شاكرة

وبعد فترة قصيرة هبط توم السلم مبطناً وكان

وجهه الصغير مجهداً ، فقال منهيًا عبارته بتهد

عميق :

— هي راقدة جامدة لا تتحرك !

ولقد حاولت أن أواسيه ولكن لم أعرف كيف

وبدأ الطفل يبكي عند ما حملته ووضعته على

ساعدي توم قائلة :

— احمله حتى أسخن بعض الماء ، وإنه لطفل

كبير يكاد يبلغ وزنه تسعة أرطال

ووقف توم أول الأمر يحمل الطفل حائراً ،

ثم رفعه إلى قرب كتفيه وضمه إلى صدره وأخذ ينهيه

ويطمئنه بقوله إنه أصبح في حزن أيه . فسكت

الطفل عن البكاء ، وبدأ الأب يظهر إعجابه بولده .

وذهبت إلى المطبخ فأعدت شاياً جديداً وجئت

بقطع من الخبز المقدد وعدت إلى توم وألححت عليه

أن يأكل شيئاً ولكنه هز رأسه ، ومد إلى يديه

بالطفل ثم اندفع على حين فجأة في البكاء وقد تقلصت

عضلات وجهه وقال :

— يجب أن أتكلم مع أحد من الناس يا عمة

سارة !

فجلست أحمل الطفل بين ساعدي وقلت :

— تكلم معي يا توم

فجلس أمامي وقد تقلصت أصابعه المشددة بعضها

بعض حول ركبته حتى لقد ابيضت مفاصلها .

وانهمرت الدموع على خديه وبدأ يقول في حزن

عميق :

— إنني لم أحبها قط ، وإنه ليحزنني أن أقول

ذلك وهي راقدة في سرير الموت ، ولم أكن راغباً

في الزواج منها ولكن لم يكن من ذلك بد من أجل

الطفل وكنت أنا المولود . ولم تكن كلانا نرغب في

الطفل المنتظر ، فكنا صغيرين جداً فلم يكن ينبغي أن

يكون لنا طفل فأنا لم أبلغ العشرين بعد وكانت هي

في السابعة عشرة وبعد أن تزوجنا وعشنا في بيت

واحد أبغض أحدهما الآخر بغضاً شديداً ، وكنا

نتشاجر كل الوقت ، ومن أتس الأمور أن يعيش

إنسانان معاً وهما متباغضان مثل بغضنا

— ولقد اجتهدت أول الأمر أن أكون لطيفاً

في عشرتها فقد كان يحزنني أمرها . ولكنها لم تكن

تترك لي فرصة الاستمرار في اللطف ، لقد أبغضتني

لأنها كانت تترقب أن تصبح أما . لقد كانت صغيرة

وجيلة وكانت تود أن تسعد بأيام شبابها . وقد اعترمت

أن أتركها وأرحل بعيداً على أثر الولادة ، وقلت لها

ذلك أمس فقط .

قلت لها : إنني سأب بعيداً عنك

وإنني لأسف الآن أن قلت لها ذلك . ولقد

عبرت لها عن هذا الأسف منذ لحظة وهي على سرير

الموت . ولكنها لم تسمعني . فهي لن تعرف بعد

الآن أنني أسفت على ما قلت .

وحبست التنهات صوت الفتى فوضع يديه على عينيه

فلما نظرت إليه تألم قلبي لحاله ... إنه حقاً لفتى

تعييس ! ليس له أهل يحيطون به ، فهو مخلوق وحيد لا صديق له وبين يديه طفل عليه أن يعنى بأمره .
فقلت :

— لقد كنت أنت ومارى صغيرين جداً بالنسبة للزواج . وأنما فى الواقع لم يفيض أحداً كما الآخر ولكنكما كنتم تثرين على الحياة ، ولو أنها عاشت لصلحت الحال بينكما . فقال متهدداً :

« لقد قلت لها أمس إننى أبغض مجرد النظر إليها » قلت :

« ولكنك لم تقصد ما قلت ... وكن واثقاً أن مارى تعلم فى أى مكان كانت الآن . أنك لم تقصد ما قلت »

فتوجع الفتى وقال :

« أود لو أصدق هذا الكلام »

قلت :

« حاول أن تصدقه يا توم »

فسألنى فى لهجة اليأس وقد رفع إلى عينيه المغرورقتين بالدموع :

« وماذا عسانى أن أفعل الآن ؟ »

فقلت فى لهجة حازمة :

« يجب أن تواصل عملك . وعليك أن تزيل الأفكار المحزنة من رأسك ، وستجد بيتاً صالحاً للطفل ويمكنك أن تدفع نفقات العناية به »

فوقف الفتى واثباً وأقبل نحوى فأخذ الطفل من بين يدي ، وقال وقد زالت عن وجهه نظرة الطفولة وبدت فيه خطوط جدية حابسة :

« هذا هو ابنى ، ولقد طردت من بيتى وأنا فى الماشرة من عمرى ، فلم يكن لى قط ما يمكن أن أسميه بيتاً . ولكن هذا ابنى ... هو ملكى وهو

بضعة منى « ولن يأخذه أحد من بين يدي »
فقلت معترضة لعلنى بقلة الأجر الذى يتقاضاه :
— ولكن كيف تربيته يا توم ؟ كيف تستطيع أن تعنى بأمره ؟

فأجاب فى صوت ملؤه الجذ :

— سأجد طريقى إلى ذلك ، وقد اعتزمت ألا أبعده عن بيتى . سأجد المرأة التى تحضر إلى هنا مقابل الأكل والسكن . امرأة تعنى بابنى العناية التى أريدها ، فهل تساعدنى يا عمة سارة فى البحث عن مثل هذه المرأة ؟

وكانت عبارته الأخيرة مشبعة بلهجة التوسل والرجاء .

وعلى حين فجأة كشف الأمر أمام عيني وحلت عقدة الخيط المربك ، ووجد المكان والعمل لمن هم أشد ما تكون حاجة إليهما . فقلت فى لطف :

« إنى أعرف امرأة قد تقبل مسرورة أداء هذه المهمة »

فقال الفتى متأنياً فى حديثه :

« لقد قلت الآن إنه حيثما كانت مارى فإنها ستعلم بأننى آسف على ما قلت ، فأظن أننى لو حملت ابنى الآن إلى حيث هو راقدة ساكنة فسترانا معاً وستعلم أننى لا أبغضه »

فسألته :

« أتريد أن أصعد معك »

أجاب :

« لا ... فإنى أفضل أن أذهب وحدى »

وفى الساعة الأولى جاءت إحدى الجارات لتبقى مع توم ريثما أذهب إلى بيتى ثم أعود . ثم خرجت إلى جونوفير القارس

ووجدت هيلارى لى لا تزال نائمة . ورأيت
على وجهها معالم الجمال والسلام

غسلت وجهى ويدي ورتبت شعري وارتدبت
ثوباً نظيفاً

وتحركت هيلارى وتأوهت ثم فتحت عينيها
وقالت فى شيء من الخمول :

— إنه الصباح

قلت :

— نعم يا هيلارى

فجلست وأزاحت شعرها الكثيف الأسود عن
جبهتها ثم قالت فى لهجة مجردة من كل معنى :

— لقد مات

قلت :

— نعم يا هيلارى

فضمت تقول متمهلة فى الحديث :

— لقد حملت حلاً غريباً . لقد خيل إلى أننى

اجتمعت به وتحدثت معه ، فقبلنى وطلب منى
ألا أحزن . لقد كان ذلك حلاً ، ولكنه كان أشبه
بالحقائق حتى أننى احتفظت به ؟

وتجمع حاجباها فى تقطع يدل على الحيرة وقالت :

— أنت سقيتنى شيئاً يجلب النوم ؟

— نعم يا هيلارى

فسألتنى :

— وهل علمت أن هذه هى الوسيلة الوحيدة

التي تمكننى من الوصول إليه ... والجلوس معه
آخر الأمر ؟ هل علمت أننى فى أثناء النوم ينطلق

قلبي حراً فيذهب إليه ؟

أجبت :

— إننى لم أعلم ذاك ولكننى رجوت

فضمت يدي بين يديها وقالت :

— لقد كنت فى شديدة الشفقة والرحمة ،
فساعدبني الآن على الحياة فى الأيام التي كتبت لى
أن أعيشها

فقلت :

— إن هناك إنساناً أشد ما يكون حاجة إليك
ثم خبرتها بقصة توم ومارى والطفل الذى
لا يريد أبوه أن يخرج من بيته ، حتى إذا انتهت
من قصتي وقفت مترنحة قليلاً وهى تقول :

— ذلك الطفل الصغير المسكين ! نعم سأذهب
إليه ، إنه ل يبدو غريباً أن يكون هناك حقاً من هو
فى حاجة إلى

ورأيت عينيها وقد زال منهما أثر الجزع فكاتتا
هادئتين حزينتين لحد يستحيل وصفه

ثم قالت فى بساطة :

— يريدنى نيكولاز على أن أفعل ذلك . فقد
طلب منى فى الليلة الماضية ألا أحزن .

وأسرعت هيلارى فى ارتداء ملابسها حتى إذا
انتهت أحضرت لها قدحاً من الشاي ، وقالت :

— سنتغدى فى بيت توم ، ولا بد أن يكون
المسكين جائعاً جداً .

وبينما كنا نصعد سلم بيت توم سألتها :

— هل تعرفين شيئاً عن العناية بالأطفال ؟

أجابت :

— أستطيع أن أتعلم .

كان توم جالساً إلى جانب الموقد يحمل الطفل
على ركبتيه ، وكان بكاء الصغير يصعد من طيات
الدثار الملفوف فيه . فذهبت هيلارى مباشرة إلى
حيث يجلس وقالت :

لقد وجدته في تلك الليلة . لقد وجدته حقاً .
ولم أفقده قط منذ تلك الليلة . فهو أقرب إلي مما كان
في أي وقت من أوقات حياته . وهذا هو الذي
يشجعني ويهيني الأمل والسلام . وإني لأعلم أنني
سأبقى دائماً قريبة منه . وإني لأحلم به في أغلب
الليالي وأنا بذلك جد سعيدة

وسأعمل وأنتظر تلك الليلة التي يذهب فيها
قلبي إليه بمدنوبي فيلقاه وأعلم أنني ستبقى معه بعد
ذلك إلى الأبد

ثم ضحكت في رقة وقالت :

إننا نسمى ذلك الموت ولكنني أعلم أن هذا
الأمري متى جاء إن هو إلا حياة الخلود ...

عبد الحميد محمد

المجموعة الأولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
المصر لموسيه ، والأديسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومنقولة .

الثنى ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

— إعطاني الطفل . فقد جئت لأعني بأمره !
وجلس على أقرب كرسي ، وقد شعرت فجأة
بأنني قد شخت وتعبت جداً ، ولاحظت أن عقربي
الساعة قد أشارا إلى الثانية . فقلت في نفسي :
— سأتمشي الليلة بالسجق والبساطس .

وبقيت هيلاري لي مع نوم إلى أن بلغ الطفل
السنة الثالثة من عمره ؛ ثم تزوج نوم مرة أخرى
من فتاة طيبة جداً أحببت الطفل حباً شديداً . وغادرت
هيلاري البلدة ؛ فشعرت بوحشة شديدة لها لأنني
قد تعودت أن أحبها .

وغابت هيلاري ستة أشهر . وفي إحدى الليالي
عند ما عدت من بيت بعض المرضى وجدتني جالسة
في غرفة جلوسى ، فلما رأني ابتسمت وقالت :

— مرحى ياسارة ، لقد عدت لأقيم معك
إذا كنت محتاجة إلى

فقبلتها وقلت :

— بارك الله فيك ، إنني لم أشعر قط بوحشة
لإنسان كما شعرت بالوحشة لك .

فقلت :

— إنني أريد أن أعمل مثل عمالك ، فهل تظنين
أننى أصالح ممرضة نافعة ؟

فقلت :

— إنك تصلحين ممرضة نافعة جداً للوالدات

قالت :

— إذن قد اتفقنا

ولما جلسنا تلك الليلة نتمشي في غرفة جلوسى
البهيجة تحدثت معى عن نيكولاز ، فقالت وقد
أكسبها بريق عينيها جمالاً رائعاً :

الأب

لِلْكَاتِبِ الْأَلْمَانِيِّ وَلِهَيْلَمِ شِمْبُونِ
بِقَتْلِهِ الدَّكْتُورَ عَلَى حُسَيْنِ

في الحصول على شبه العوبة
أهوبها

على أن الرغبة كانت في نفس
امراتي أقوى وأمر، ولكنها
كانت تهرب من رغبتها في صمت
وبحال تكاد لا تدرك . غير
أنني لم أستسلم لتحاييلها وتهربها
ولربما لم يكن لي إلا الفرزة

التي تدفع الرجل ليصير أباً

وفي النهاية اشتدت الرغبة في المرأة أيضاً
وأصبحت تلح في الحصول على طفل ، ولما لم تهينا
الطبيعة ابناً وجب علينا بدورنا أن نخدعها كما خدعتنا
فأخذنا نبحث عن طفل غريب

ولكن ما العمل في ظرف مثل هذا ؟

عمدنا إلى مستشفى قرينتنا حيث تلد الشابات
أبناء لا يلبثون أن يصبحوا عبثاً عليهن . كلا
لا توجد هناك أم لا تحرص على ابنها كل الحرص
رغم كل شدة وضيق

بقي احتمال آخر : وهو أن نرضى بطفل من
هؤلاء قصد تربيته فقط وفي هذا من المخاوف والمخاطر
أن يسترده أهله بعد زمن ؛ وكيف يكون خالي وقد
شفقت به حياً ؟

انتهى تفكيري في الطفل كالعوبة وأداة للتلهي
وأصبحت أفكر في طفل يدوم لنا فسمد بنموه
ولا يجسر أحد أن ينزعه منا ، يبقى بيننا ويقضي
الحياة معنا ويحبنا حب الأبناء للآباء الحقيقيين

حقيقة قد أصبح لنا في مدى الاثنتي عشرة
سنة من زواجنا كلبان ولكننا لم نرزق طفلاً واحداً
ولقد بدء الكبر على الكلب الثاني من كثرة
التجوال طوال هذي السنين فاستأجرنا منزلاً
كي نكفل له فيه الراحة

لذلك وجب علينا أيضاً البقاء معه في المنزل
ولو أن أقدامنا لا تشكو تعباً بل على العكس تتحفز
كلفاً بالرحيل وحباً في الحركة . إذن وجب علينا
الخصوع لصيف مملوء بالأمطار وشتاء يكثف فيه
الضباب بينما كان في وسعنا - لولا هذا البيت -
الرحيل إلى الجنوب

هنا تولد في نفوسنا شغف جديد نحو حياة
أغزر وأوفر من الحياة التي نعيشها . نتوق إلى حياة
تضاف إلى حياتنا، فضمامنا إلى أسرتنا قطاً في الأسبوع
الثالث من حياته لم تقو عيناه على شدة الضوء

وأضفنا إلينا ما طالب من دجاج وخراف أو ماعز
ولكن البيت ينقصه شيء : ينقصه طفل
والواقع أنني في البداية ما شفقت شغفي هذا إلا لرغبة

لاصراأتى أخت التحقت بحاشية فتاة ثرية مسنة يجب أن تصحبها في رحلة . ولقد مات زوج هذه الفتاة قبل ولادة طفلها . والآن تريد أن تكل أمر هذه الابنة إلى من تطمئن إليهم فسألتنا إن كنا نقبل رعايتها لمدة ثلاثة شهور أو لنصف عام . ولم يمض خمس دقائق حتى كان الرد في صندوق البريد بالموافقة

موافقة ليس فيها تحفظ ، وقد غلبنا طيش المفاجأة فلم نفكر في صعوبة انتزاع الطفلة من بيننا بعد ربع أو نصف عام . لقد قبلناه اقتراحاً منقذاً لنا مما نحن فيه من اضطراب عايناه كتلبية لصوت القدر . وعلى كل حال إن هي إلا تجربة نتعرف بها حال طفل غريب بيننا ، وكيف نوفق بيننا وبين هذه الطفلة في هذه العلاقة الجديدة

جاءت الأم بالطفلة ، وتكاد تكون الأم أيضاً طفلة ، شقراء وضاعة الوجه باسمه كالملاك . وكانت طول يوم الفراق دأمة الابتسام فتفتر عن ثنايا جميلة يبدو معها جانب من اللثة . بقيت معنا هذا اليوم تقود لنا طفلها في كل تصرفاتها وعاداتها ، وتحدث إليها وتغنى لها ، ثم تنظر إلينا كي ترمق فينا عين الرضاء .

رضى ا وأى رضى ا لقد كنا نرتعد من فرط النشوة . وبقينا نرقب اللحظة التي تفارقنا فيها الأم وتبقى لنا الطفلة وحدها ، وكنا نأخذ التعاليم الدقيقة في تمن ونفهم شئون التغذية وطريقة حمل الطفلة والعناية بها .

أعجب ا لقد ظهر أن زوجتي مدركة كل أمور الطفلة كالأم تماماً ؛ إننى لم أرزق طفلة فحسب

حقيقة أمرنا أن شغفاً قوياً ملك علينا مشاعرنا ، نريد أن يغمرنا حب طفل . حب إنسان لا تتغير ولا تبدل مشاعره نحونا شأن الأصدقاء الذين صافيناهم وفقدناهم نريد حياته وحظوظه متصلة بنا لنكون وحدة سامية وسط هذه الحياة الملوثة بالبغض الجمة الصعاب والمتاعب

أيقال: عديم الأبناء عديم الهموم؟ إننا نريد هذه الهموم ! لقد أصبحنا لا نحتمل الناصفة في الحياة إننا نبني الحياة كاملة بهمومها وآلامها وأيضاً بسعادتها

تصفحنا الجرائد فوجدنا بين الإعلانات عدداً ليس باليسير من الأطفال قد عرضوا كسلعة تباع وأعلنوا عنهم بين العقار والآثاث والآلات المستعملة . وإن تعجب فعجب لمن يتناولون أموراً لا تكون في متناول أى إنسان : أعنى حظوظ البشر

ولما كثر علينا العرض أصبح لنا أن ننتخب وندقق في الانتخاب

حقاً لقد صرنا نتخير وندقق بيننا غيرنا من الآباء يقبلون ما وهبوا من بنين؛ وهم بما وهبوا سعداء حتى ليتعلق الآباء الحقيقيون بأبنائهم المرضى أو المعجزة أو العمى بحنان وعطف خارقين

أما نحن معشر الآباء المتبنين لا نعرف لرغائبنا خد الاعتدال . إنا لا نبني سوى طفل كامل الصحة قوى البنية تام التكوين فتنة في جماله . فنحن نتطلب من دنيا النقائص كمالاً ليس في عالمنا

ولما أضنانا البحث والتنقيب طوال ستة شهور أقبلت المقادير في عوننا

بل وهبت امرأة في حال جديدة ، والأمير الوحيد
الذى لم يكن فى استطاعة زوجتى القيام به هو تغذية
الطفلة من ثديها ، وبذلك وجب على أن أتنازل عن
هذه الصورة الخلابية من الحياة

ترقد الطفلة فى الحديقة فى عربتها الزرقاء
الخشبية التى اشتريناها بمجرد حضورها ، وهى الآن
نائمة قد حولت وجهها إلى الجانب . وقبلما كانت
لا تحركنى قوة لمشاهدة رضيع ولو هنية قصيرة .
والآن وهبت العين التى ترى المعجزة التى يحملها
هذا الوجه الذى لا زال يحوى ضوءاً من أضواء
العالم الذى أتى منه ، وإنى لأشعر بإشفاق يملكنى
إزاء هذه المخلوقة العاجزة التى لا يدرى سوى الله
أى المتاعب تنتظرها ، كذلك تملكنى الشعور القوى
بأن أتعهدا بحمايتى وأدود عنها .

صه ! هناك ساعة الكنيسة تدق الساعة .

همت الأم لتهياً للرحيل فى صمت وجود وفى
شئ من السرعة ، لأن الطريق إلى المحطة طويل .
وعادت إلى الحديقة والقبعة على رأسها وقد لبست
معطفها الصبغى وأقبلت تودع ابنتها

بكاد وجه الصغيرة يهبط بين ثنيات الوسادة
وبقيت زاوية صغيرة من وجهها لتطبع الأم
عليها قبلتها . ولم تحاول أن توقظ الطفلة كي يكون
الفراق هيناً . ولم تبلل عينيها دموعاً واحدة ؛ وكل
ما حدث أن جانباً من فمها حوته قشعريرة فيها شئ
من المرارة

ثم قالت وهى تبسم ابتسامة قواهنة « بعد ربيع

عام ! »

ولقد حمدنا الله كثيراً أن انتهى الفراق بهذه
الوداعة .

ولكنها ما وصات إلى باب الحديقة حتى لاحظت
وأنا أرافقها خلف النافذة بناظرى أن خطاها بدأت
تتمثر فكأنها أخذت تستيقظ من حلم . وبدأت
تشر بيدها الخالية وكانت تحمل طفلتها قبل هنية ،
ثم حولت وجهها نحو الطفلة مرة أخرى ولكنها لم
ترها فقد اختفت خلف جانب من البيت وتابعها
ناظرى وهى تسير فى صحبة زوجتى بخطى خائرة
كالذين يمشون فى نومهم وهى تعتمد بكل خطوة
تخطوها عن طفلتها وشاهدت أكتافها تهتز هزات
عنيفة نتيجة بكاء مكتوم

لا أعجب فى الوجود من محكوم عليه بالإعدام
يحرك قدمه ويسعى إلى مكان حتفه بنفسه

هنا عمى شعور من الحياء عظيم . هنا بداية

للإثم كبير

لقد تظاهرتنا جميعاً كأن كل ما فى الأمر مرور
ربيع عام ولكننا نعلم فى خفايا أنفسنا أنه وداع أبدي
وفى هذه اللحظة فتحت فمى لأصرخ خلف الأم
لأقول لها : « قنى لا شأن لى بطفلتك »

فى هذه اللحظة انطلقت صرخة صادرة من الأم
ليست من أصوات البشر بل صرخة حيوان

لقد استحال إشفافى إلى حلق فما سمعت إلا
اتهاماً لى ، إنى لأتوارى خجلاً أمام جيرانى ، ألم يكن
هذا هو القدر الصارخ الذى اغتال أباهما

والآن يحتل مكان الوالد آخر . أنا ذا الذى
يحتل مكان الوالد وبذا أكون قد أديت عملاً جليلاً

— ٢ —

هذه الرواية التي تخيلني بنمونها

وبعد زمن هيانا للطفلة حظيرة : سياجا من
الخشب مربع الشكل فيه تتحرك جالسة وهي تستخدم
كلتا ذراعيها كأداة ترحل بهما وكأنها عاتمة تسبح
بهما من مكان لآخر

ولقد عجبنا كل العجب حين وجدناها في يوم
من الأيام فوق الأعشاب خارج الحظيرة . فقد نهضت
وعمدت إلى الملق وأزاحتها فانفرج وهذه أول ظاهرة
ليقظة الذكاء والجمل الطريف أنها استخدمت
للخلاص والحرية

لقد أصبح في غير المستطاع حصر قوة الحركة
في الطفلة في هذا المكان الخشبي الضيق فقد طفت
على معقلها وطفقت تجوب الأنحاء طورا هنا وطورا
هناك ، تتحرك وفي صحبتها كلب وقط إلى أن تصل
إلى سور الحديقة ، ولا تتعداه كقوة لا تغلب ولكن
إلى متى ؟ ومتى تقتحم هذا الحصن أيضا ؟

إن بين الأطفال والحيوانات لعلاقة غريبة ...
تعذبها وتضع أصبعها في أعينها وتجذبها من آذانها
وأذنانها ، وكثيرا ما تصيح هذه الحيوانات من
من فرط الألم وتفر ، ولكنها لا تؤذي الطفلة
ولا تلبث بعد قليل أن تعود إليها . ولم يكن تعذيب
الطفلة للحيوان عبثا إذ لا بد أنه عن قصد يمت إلى
غريزة لا تدرك في الخلق من بداية نشأتهم ؛ ولا بد
أن الحيوان يشعر نحو هذه المخلوقة بشيء من التبعية
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تحس وتخضع للغلبة
البشرية فيها

كنا إذا تحدثنا إلى الطفلة - ولو أنها لا تفهم
ما نقول - نمتنا أنفسنا : أمّا وأبّا . وهكذا

ربما كنت الوالد الوحيد الذي يستطيع أن يقول
عن طفليته ما أجملها وإنها أجل مخلوقة في العالم ،
أستطيع أن أقول ذلك ولا أكون موضع سخرة
لأنني حين أبهر لمراى هذه العيون المنحرفة قليلا ،
وأفتن بشعرها المحكم وبهذه الأيدي الدقيقة الصغيرة ،
إن فعلت ذلك لا أسخر من نفسي فليس لي شخصيا
فضل في ذلك

لا يوجد في دم الطفلة ذرة واحدة تنفرها منا
ولا بد أنها شاعرة بطيب العيش بيننا كما لو كانت
مع أمها . بل هي الآن أسعد حالا إذ بدلت قنم
المدينة بدنيا ملؤها الشمس ، واستعاضت أرضا
مغطاة بالأسفلت بأخرى تكسوها الحشائش . ولقد
أخذت الطفلة تنمو وترعرع وتتفتح بعد أيام
قلائل . وكثيرا ما تركناها عارية فوق الأعشاب
وبذا اكتسبت بشرتها سمرة جميلة

وكثيرا ما توافد علينا الجيران - وقد اكتسبنا
تقهم - ويقولون وهم يهبطون برؤوسهم إلى الطفلة :
« لقد صادفت الطفلة هنا مقاما رجبا »

وحين تكون في الفضاء تجلس وتعلق في الهواء
بكلتا ذراعيها ، وتحدث ولو أنها لا تستطيع أن
تنطق بكلمة واحدة ، إن هي إلا أصوات ومقاطع
تطول وتقصر ، وحين ترتفع وحين تهبط ، وكأنها
تسامر وتحدث إلى جمع لا يرى من المستمعين
وكثيرا ما يقاطع الحديث ضحك فكك عجيب ، أما
ذراعاها فكانتا تارة تمتدان نحو السماء وتأتيان بحركات
فيها ازدراء واحتجاج غير مسموع ، وطورا تجمع
هاتان الذراعان الدنيا كلها بينهما
وكثيرا ما وقفت في جانب من البيت لأشهد

وأنها لا تبكي قط ، فأجبته على الفور في غير وعي :
« لقد أخذت هذا الطبع عنى ! »

لقد زال من فكرى كل ما يذكركنى بالوالد
الحقيقى للطفلة . ولما استحضرتنا لها قدحاً لتشرب
منه اللبن نقشنا عليه الحرف الأول من اسمها إلى
جانب الحرف الأول من اسمى ، وحين قيدنا اسمنا
في قائمة الضرائب ووجب ذكرها قيدتها بلا تفكير
إلى جانب اسمى

أنا خطاب من أم الطفلة ترجونا بل تتوسل
إلينا أن نستبقها عندنا . ولقد أهملت الرد على هذا
الخطاب لأن بقاء الطفلة عندى مسلم به لا شك فيه .
أنا لن أفرط في هذه الطفلة إلى الأبد

إن هذه الطفلة تخصنى بقوة إيمانى و يقينى

— ٣ —

بعد حين حدث أمر أفرعنا

خرجنا مرة نتمشى ، وفي أوبتنا سمعنا بكاء الطفلة
عن بعد فسعيننا إليها سعيًا فوجدنا الخادمة تضربها
بفصن شجرة وتقول لها : « أيتها القبيحة » ولم تبد
الخادمة أى اهتمام ، وادعت أن الطفلة كانت تبكي
ولا تريد أن تقف بيكائها عند حد وإنما فعلت
ما فعلت لإسكانها . ولما أنبناها قالت : « ماذا ؟
ليست الطفلة طفلتكم وليس للطفلة أب »

أى فخش نطقت به الفتاة ! أمتحقر طفلتنا
ولا تعترف بأبوتى ؟ من هذا الحين أصبحنا نخشى
ترك الطفلة في البيت فوضعت توأ مقعداً أمام دراجتى
وبذا أصبح في الإمكان أن تقطع معى المسافات
الطويلة بين الأجرار والوديان لتبسم للعالم وتغنى له
ولقد بدأت الشكوك تتولد في نفسى نحو أهل
القرية في أنهم إنما يضمرون لى السوء ، وجعلت أجد

كنت أنعت نفسى فأقول للطفلة : « أتريدى الذهاب
إلى مكتب البريد مع أبيك ؟ »

وما تحركت قدماى إلى مكتب البريد إلا والطفلة
معى . لأننا نسير في طرق ملأى بالحوانيت وأمام
الحوانيت تقف الناس ، فأحمل الطفلة فوق ذراعى
وأمر بها خلال المزارع ، ثم أعرج إلى الشارع
الرئيسى بخطى مرنة ، وأشمر وكأن كتنى زودنا
بجناحين والكل يفوه بكلمة الإعجاب ، وتغر النساء
بأيديهن فوق شعر الطفلة الحربرى الأشقر الناصع
إلى حد البياض ، وحيناً تقف بعض الفتيات
المتجولات وينعمن النظر في الطفلة وفى ، وبديهي
أن يحسبننى الوالدالحقيقى وهذا ما يجعلنى أزهى وأباهى .
وحدث أن وقفت إحداهن وتناولت يد الطفلة
وتحدثت عن وجه الشبه بين الطفلة وبينى !

بدأت أنسى شيئاً فشيئاً أن هذه الطفلة ليست
طفلتى وأخذت أشمر بغضاضة وإيلام حين يذكرك
الناس أن الطفلة وجدت بيننا مكاناً رحباً . إننى
لا أريد أن يذكركنى أحد أن للطفلة مقاماً أو موطناً
في أى ناحية أخرى . وحيناً كنت أتفرس في المرأة
لأرى وجه شبه بين الطفلة وبينى . فكثيراً ما يصبح
بمرور الوقت بين الزوجين شبه ، وبين الصديق
والصديق شبه ، حتى الكلاب تحمل من ملامح
سيدها شيئاً ...

وكثيراً ما كنت أرحل بدراجتى ومعى الطفلة
إلى البلدان القريبة حيث لا يعرفنى أحد ؛ وهناك
أستمع بزهو الوالد دون أن يعكر على أحد نشوتي .
وأصبحت أتحاشى المرور من الشارع الرئيسى حتى
لا يذكركنى مذكر بمركز أبوتى . ولقد أطرت
أصراى مرة طبع الطفلة المرح وخلقها الهادى

في كل كلمة قيلت غرضاً مقصوداً ، وبقيت في هياج
شأن كل حياة تحوى كذباً

ليس هناك ثمة دليل على أن الناس لا يعتبرون
الطفلة الاعتبار كله . على أنه ليس هناك أيضاً أدنى
شك في أنهم أرادوا إيلاى . فقد كشف لهم عن
موطن الضعف عندي ، وهذا أمر كائن في طبيعة
البشر ؛ وبأدى بدء يأتون ما يفعلون حباً في الردع ،
ثم حباً في المداعبة ؛ وفي النهاية حباً في الإيذاء
للإيذاء فهم يعذبونني تعذيب الطفلة للكلب والقط
يسألون الطفلة عن أمها وهي لا تدرى مايقولون
ولكن إلى متى تبقى لا تدرى

لا بد من الخلاص من هذه القرية حيث يعرفنا
كل إنسان إلى مكان نكون فيه غرباء يتحول
كذبي فيه حقيقة

— ٤ —

تدعونا رقة الطفلة إلى الرحيل للبحار وأقربها
منا البحار الجنوبية ، إذن هيا إلى البحار . هنالك
عشش صغيرة من الخشب يجلس الناس حولها طول
النهار فوق الرمال ويغطي التليان أطفالهم بالرمال
فلا يبدو منهم سوى الرأس وهذا ما فعلناه مع طفلتنا
كي يقوى جسمها بهذه الوسيلة

ولقد وجدناها مرة تلهو بالرمال بمجرف وإماء
فأغمضنا أعيننا من ضوء الشمس ؛ وبعد ربع ساعة
اختفت فهممنا في خوف نبحت عنها فالفيناها في جمع
من السيدات والسادة التليان قد سمعوا بها وبشرها
الأشقر .

وكما سئلت الطفلة عن اسمها أجابت « لو »
وبذلك احتفظت بهذا الاسم الذي أعطته لنفسها

وكانت « لو » ملاك الشاطئ الرقيق الصغير
وأنا الوالد الذي يتقبل الاطراء والتهاني في مداعبة
وبساطة أجدت التظاهر بهما وفي الليل اضطجع
بقلب خائف من فرط الطرب بسعادتي
ولم يكن الشعر الأشقر وحده الذي اجتذب
قلوب الناس في « لو » فقد كانت على الشاطئ ممثلة
أسوجية بطفلها التي صادقت « لو » وقد حدث
لطفلتنا أكثر مما أسمح به فما انحنت رؤوس السيدات
إلا « للو » ولا قبلن غير « لو » ولا حملن فوق
أذرعهن سوى « لو » ولا كانت الهدايا إلا « للو »
ولقد كان بين الزلاء زوجان لم يرزقا ولدا مثلنا
انهالا على « لو » بالحلوى والحلى واللعب إلى حد
اضطرننا إلى منعهما في شيء من الشدة ، كذلك وجب
علينا أن نقي طفلتنا من الاطراء والألفاظ الحلوة
المفسدة للصغار ففزنا بغضب الناس الذين بدأوا
يحنقون علينا حنقا مصدرة الجسد

هنا شعرت بانتصار وزهو يتزايدان ولو علم
الناس الحقيقة !

في هذا الحين بدت سحابة قاتمة في سماء حياتي
الجديدة إذ كلما كانت « لو » في جمع من الناس
الغرباء وأردت أخذها من بينهم بكت
وقد كانت إلى هذه الآونة طفلة بغير عبرات ؛
وكانت إذا سقطت على الأرض ضحكت ولا تعرف
للضحك نهاية

والآن تبكي بكاء عجيباً في هدوئه ، عجيباً في طوله .
وأعجب من هذا أنها تقوس أصابعها الصغيرة وتعمل
بأظفارها رغبة في إيلاى

لقد أذهلني بكاؤها الذي لا أفهم كنهه كما
أذهلتنى هذه الرغبة الجديدة في إيلاى

— ٥ —

جاءت الحرب

وقف الناس على الشاطئ في لباس الحمام
والصحف اليومية في أيديهم

إذن وجبت علينا العودة

وكنا نسمع سنابك الخيل تصطك بالأرض
وكانت هذه أول ظاهرة مروعة للتعبئة

ولقد وقف بنا القطار في كنستانس ومن ثم
وجب علينا الانتقال إلى ألمانيا سعيًا على الأقدام

وكانت النساء السويسريات وأطفالهن معهن
يشهدن بعيون باكية الرجال الألمان الساعين إلى الموت.

وكنت أحمل طفلي فوق ذراع وجعيتي بالذراع
الأخرى ولذلك اختصني إشفاق معظم الناس، وهنا

كنت أستمري لذة الأبوة في معنى ما كنت أتوقمه
ولقد استقبلتني زوجتي وابنتي على المحطة لدى

أول عطلة لي في الجيش . ترى هل نسيتني «لو» ؟
كلا . وإن أنس لا أنس التعبير المرتسم على

حياتها وهي تطل على لأول وهلة ، هذى المخلوقة
الرفيقة الفخورة أن لها أبا كما كنت نخوراً لعكس

السبب .

ولكن بما هذا البحث والفحص اللذان تقوم
بهما عيناها ؟ هل بدأت صورتي تضعف في غيبتها

مدة غيبتني ؟ وبدأت صورة والدها الحقيقي تمثل أمامها
ومصدر هذا إلهام غامض أثاره حنين الدم ! ترى هل

شعرت بخيبة بعد طول الانتظار ؟ وهل من أجل
ذلك كان جمودها وسكونها في البيت

صاحت طفلي رغم تطلق لها ؟ غير أنها كانت
تبرم مني وتجمد أمامي وتعرض عني وتعمد إلى

هرائسها حيث خلقت لنفسها ينها عالمًا غير عالي

وفي المساء تبكي بكاء عجيباً طويلاً لا يؤثر فيه المطف
إلا أن يزيد في اشتداده

إن بكاءها موجه إلى المجهول ، إلى الأب الذي
تشعر به شعوراً غامضاً .

هل هو يناجيها من عالم بعيد عن تصورنا ؟
وهل يغبطني على امتلاك الطفلة ؟ أجل إنني لأشعر

بعدائه لي وقد بدأت الغيرة تجرد مني غذاء شهياً ...
وهذه لا تلبث أن تتحول إلى بغض طائش .

ولقد عمدت إلى صورته فأقصيتها حتى لا يتسنى
للطفلة الوصول إليها حتى بعد سنوات . سوف يأتي

الوقت الذي نقص عليها فيه قصته ونذكر لها أنها
ليست من دمنا وأنها لم تكن سوى ربيبة . ولكن

لا عجلة في ذلك .

— ٦ —

وضعت الحرب أوزارها وسقط المارك ووصلت
أسعار الحاجات إلى الأرقام الخيالية وعاش المضارب

والفلاح في ثراء ورغد ، وعانت الطبقة المتوسطة
ما عانت ، فكانت « لو » الضوء والأمل والسعادة

التي تنسينا هم العيش ، وقد وصلت إلى السن التي
يجب أن تذهب فيها إلى المدرسة .

قالت زوجتي : الآن حان الوقت الذي نرفع لها
فيه النقاب عن أ كذوبتها .

قلت : إذن نكون قد أوجدنا سبباً لسخرية
الأطفال من « لو » وكيف تتحمل الصدمة ؟

إن الذي يقودها إلى المدرسة ليس بوالدها الحقيقي
ككل الأطفال الآخرين . غير أنني كنت أخشى

في نفس الوقت أن أفقد حبها بهذا التصريح .
صارت تسمى كالطير في خفة ورشاقة إلى المدرسة

رغم جمعيتها الضخمة التي تشغل عاتقها .

وكنّا نجلس مساءً في شرفة المنزل الخشبية
نمزف بالقيثار ونغنى وأخفت صوتي حتى يبقى صوت
« لو » عاليًا جليًا فتعني في عذوبة كتغريد البلابل .
ترى ماذا عانت هذه الروح الوديمة حتى يصدر
غناؤها مرتعد الرنين ؟

بدأت أشعر كأن نفسي في قرارها تغني مأخوذة
بقوة فائقة خفية وكأن قديمي بدأنا تسبحان خفة
وطربًا . لقد جعلت الطفلة مني رجلًا طيبًا

أواه ، لقد عاودني الوسواس بفقدانها . وأصبح
الكذب لا يجدي فتيلًا

لقد وجدت لو زملاء للعب وإنه ليسرني أن أراها
وسط الأطفال ترقص وتمرح بينهم

والمعجب إذا حان الرحيل وانصرف الأطفال
عنها كانت لا تطيق البعد عنهم ولقد روعني عنادها
وتعلقها بالأطفال حين انصرفهم عنها

ولقد نفر الطفلة مني تطرفي في حبها الذي وقعت
فيه كي أرضيها فقد أحست لأول مرة ما يخفى هذا
الحب من اضطراب وأصبحت تقابل عطفي وإشفاق
لأول مرة بشيء من التمتع والجفاء . ولقد باغت الطفلة
مرة وهي تفحصني بناظرها خلسة خفصًا وإنها لنظرة
لا يمكن للخلوقة أن تلقىها على والدها الحقيقي وخاصة
في هذه السن في عامها الثامن

والمصيبة أن والده إحدى صويحبات « لو »
أحست أن هناك سرًا خلف علاقتي « بلو » ولقد
لمحت هذه المرأة وهي تفحصني بناظرها خفصًا ، وهذه
هي نفس النظرة التي اكتشفتها في « لو » والآن أعلم

مصدر هذه النظرة ، وإذ يلتقي ناظري بنظر هذه المرأة
في هذه الآونة تجمد كأن فكرة معذبة تعانيتها
والكارثة الكبرى أن الطفلة أخذت عن المرأة
الجمود الذي جعلها جامدة إزاء كل كلمة أوجهها
إليها ، وهذا ما أقام بين عالمها وعالي سياجًا . وحينما
ألحظ في وجهها عداوة ومرارة ظاهرتين يتبعهما
بكاء هادي طويل لا ينتهي إلى منتصف الليل إلا
حين تجلس امبرأتني إلى حافة سريرها وتضم الرأس
الأشقر إلى صدرها في سكون

وبعد عام اتخذت « لو » لنفسها صديقًا وهو
طفل في الحادية عشرة من عمره عليه سياء أهل
الجنوب وجدت فيه المثل الأعلى لتخيلاتنا ، وقد
وفد إلى قريتنا لقضاء عطلة الصيف بها ولا يوجد
في الوجود سواه من أخذ من نفسها هذه المكانة
من الاحترام والتجلة ، كما لا يوجد مخلوق تتق بكل
كلمة منه غيره ، وهو الوحيد الذي له سلطان عليها .
وهنا أيضًا وجدتني تلقى الطرف بأحشة في الوجه
الجديد ... هي تبحث عن الوجه الغامض في غيبتها
لتتبين وجه الوالد الحقيقي . والمعجب أن وجه هذا
الطفل الأسمر الواسع العينين بسياء أهل الجنوب ،
يطابق وجه والدها الميت تمامًا - مع أن الطفلة
لا تعرف عن والدها شيئًا - ولقد أصبحت في محبة
هذا الطفل هادئة بتلاؤ وجهها في سعادة نفسية وخيلة
وكأنني بها امرأة صغيرة قد ملأ الحب نواحي
نفسها فبدت برشاقة لا حد لها ، وكنت أشعر
بسعادة لم رأي هذين الطفلين جالسين متعانقين على
مقعد طويل يتحدثان بصوت خافت ؛ ولم يداخلى
- وإيم الله - غيرة ولا حاولت أن أسمع ما يدور
بينهما من حديث ، وشعرت كأن جانبًا من جزيرتي
(٥)

« ليس بينك وبين لو شبه » إذ شعرت أنها قد جرحتنى جرحاً قاتلاً فطردتها من بيتي .

— ٧ —

لقد انتابني حى في الأعصاب لا أفهم لها سبباً وبعد ساعة من الإصابة كنت في عربة المستشفى و « لو » في صحتي تنظر من نافذة العربة ولا تفهم للرحلة خطورة فلم تكن لها سوى نزعة سريعة . ووجب على زوجتي أن تبقى معي ، وتركنا لو مع الخادمة في البيت .

في هذا الوقت كانت لو في الخامسة عشرة من عمرها وقد وجدت مدة غيبتنا شاباً تعلقت به وجعلت له من منزلنا موطناً رحباً يدخل ويخرج ويأكل ويشرب كأنه في بيته تماماً . وكنت أقول لها « كل ما نملك لك » فكانت تهب هذا الفتى - وكأنها في حلم - كل ما يصل إلى يديها مأخوذة بنزعة حب الإعطاء . أما الشاب فكان من العاطلين الذين لا يصلحون لشيء

ولما خرجت من المستشفى وعدت إلى البيت كان الفتى في انتظارنا لدى الباب كأنه منا

يا للفرابة، ياله من أمر لا يدرك كنهه، هو إنسان جديد أسود الشعر أسمر اللون بسياء أهل الجنوب . ألا يشابه والد « لو » كل الشبه ؟ أليست له نظريته تماماً ؟

لم يكن من سبيل إلى إقصاء هذا المتعطل من بيتي سوى استعمال القوة ...

فصرخت له صرخات كأنها جنت جنوناً . وانتابها حى أيضاً حى في الأعصاب

نحو هذه الطفلة قد حل عني وقد كان هماً يملأ صدري غماً نخف عني

ولما فارقنا الطفل اصطحبته « لو » إلى المحطة دون أن يبدو منها ما يشعر أنها تفقد من سعادتها شيئاً .

ولكنها بعد حين وقد أصبحت وحيدة بيننا وقد بعد القطار في ناحية قاصية وبدت لها القرية كأنها خاوية ، هنا مالت الطفلة برأسها على المائدة وصرخت صرخة عالية وهذه نفس الصرخة التي تمت إلى الحيوان التي نفتها أمها عند وداعها لها

ثم نطقت بالفاظ كأنها في قوتها من أساطير الأولين ، ألفاظ ما كان يدور بخلد إنسان أن هذه الطفلة تفوه بها ، قالت صارخة : « لماذا وجب عليه الرحيل ؟ لماذا لا يبقى هنا ؟ الأشجار باقية ، وكل الناس باقون . لماذا وجب رحيله هو ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

كاد قلبي يتفطر شعوراً بجبروتي وإثمى فأنا الوحيد الذي يعرف أن هذه الشكوى صادرة إلى الوالد المجهول

ثم الاتفاق أن أعلم « لو » حقيقة أمرها في عيد ميلادها العاشر واحتفظت لنفسى بأمر تمريرها بالوالدها الحقيقي وأنزل نفسى إلى مرتبة الربى فقط غير أن الوقت قد فات ولم أجد الشجاعة على ذلك .

وكنت أقول تبريراً لموقفي إني أخشى عليها من وقع الخبر .

ولم يقف جنونى عند هذا الحد بل لقد طردت المرأة ذات النظرة الغريبة عند ما قالت مرة :

إنها سفرة لمدة ثمانية أيام فأطاعت لو وأصبحت
لا تسمع لنا كلمة

وفي أثناء الطريق ونحن في القطار سردنا لها
الحقيقة مجردة فقبلتها دون انفعال نفسى رغم رقة
إحساسها ، وذلك ما كنت أخشاه ، فالحقيقة أخف
وطأة على النفس دائماً مما يعتقد الإنسان والكذب
وحده هو الأثقل من الصخور عليها .
وكانت أمها في انتظارها على المحطة فكان مشهد
أختين تتعانقان

ولم تتحول « لو » فرفضنا بغتة وتعلق بالأم
وحدها .

فقد كان للكذب الطويل الأمد قوة هائلة
فبكت حين رحيلنا وبقيت لدى الأم كأنها في حلم
فقد كان التباين عظيماً لا يتحملة هذا الرأس الصغير
في وضوح وروية

بقيت لدى أمها عامين كاملين بدل الأسابيع
القلائل التي أرادت تمضيها مع الأم ، وعوفيت
« لو » من البكاء الطويل المتواصل ولّى الآن أن
أتنفس الصعداء إذ تحررت من إثمى .

لم يضعف حبي بل زاد وبالع في الزيادة والسبب
في أنه لم يقف عند حد أن القدر لا يجيزه لى ، وهذا
الحب سوف يقضى على راحة الطفلة كما تلهم الحرارة
النبات الذى يحتاج إلى طقس ندى .

أما هذا التطرف المضى في هذا الحب فصدره
الكذب .

وطغى الحقيقى الذى لا يجيزه لى الحياة - أين
هو في هذا الكون ؟ ليس في وسعه أن يصل إلى
ينادىنى كما أناديه دون جدوى .

وهذا مصدر الآلام ا على صين

فكان هذا المرض الواحد هو الشيء الوحيد
الذى بقى بيننا رباطاً يصلنا

وأصبحت تصد كل كلمة تقال في سبيل تهديتها
أو التفاهم معها في شدة وعنف وعنت
وكنت أقول دائماً : « الفقراء أحسن الناس »
وها قد صادفت فقيراً فما باله لا يروقى الآن ؟

وإني لأحبها من أجل بسالتها التي تذود بها
عن حبيبها ، وإنه لمسير على أن أفرق بين حبيبين
غير أننا هنا إزاء فتى عاطل يزهو بكبرياء ويناصبنى
العداء ويمطرني بوابل من الرسائل كلها تحمد وخطرة
وهذه الفتاة تميل إليه

إن « لو » لا تخصك أنت أيها الفتى الذى
ترتمى تحت قدميه بماطفة قوية هوجاء أعلم أنا وحدى
ماذا تريد

هى تبحث عن والدها . هى تبحث بجذ عمى
تخصه ...

ليس في وسعى أن أهبها من مات غير أننا نستطيع
أن نعمل ما في مقدورنا عمله حتى نكفر عن فريتنا
الكبرى مصدر كل بلاء ، فنى استطاعتنا أن نردها
لأمها الحقيقية

أما مجرد الإفصاح عن الحقيقة فأصبح وحده
لا يجدى . إذن لها أن تقول : مالك تمنعنى عمى
أحب ولست بوالدى ؟

يجب أن أردّها إلى أمها وعلى الأم أن تجد القوة
لإنقاذ ابنتها من المخاطر التي تقع فيها باندفاع من
جاء جريرتي

سافرنا بها إلى براغ حيث تقطن الأم وقلنا لها

حواء — لست أنا التي
أفشيهِ ... !

الشيطان — إذا أنا وثقت
بك ... سأخذك بكلماتك
وسأفشي لك بهذا السر ... !
أنا لا أريد منك أى ضمان آخر
حواء — يمكنك أن تثق
بكلامى ... !

الشيطان — أنت فى حجة رجل كريم النفس
ولكنى أراه ليس جديراً بمطفك وحنانك ... !
لقد رأيته وعرفته فقط غليظ القلب ... أحق
لا يفقه شيئاً
حواء — هو ليس بالقدر الذى تصفه به ولكنه
مع ذلك خشن بعض الخشونة .
الشيطان — سيق مع الأيام ويروض نفسه
ما دمت بجانبه على الرقة ولين الجانب ... !
ولكنه الآن أصلب من الحديد ... ! أليس
كذلك ... ؟

حواء — إنى لأعرفه نبيلاً يحمل نفساً عزيزة
كريمة ، وإنه لعل خلق عظيم ... !
الشيطان — أولى لك أن تصفيه بأنه رجل
وحشى لا هم له إلا مطاردة الحيوان ليفترسه ... !
هو كالحیوان فكرة ومعنى ، لا يعنى بنفسه ، بل
لا يريد أن يعنى بها .

لندعه وشأنه فهو خرفى نفسه ، ولكن ألا
ترين مى أنه على الأقل ينبى له أن يعنى بشريكه
الوحيدة وزفيقته الأليفة
أنت كائن رقيق ضعيف لا حول له ولا قوة

من الأدب الفرنسى

اغراء الشيطان لآدم وحواء

بِسْمِ الْإِلهِ مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ

المنظر الأول : (الشيطان وحواء)

الشيطان — حواء ... ! ها نذا قد أتيت إليك
ساعياً للقائك !

حواء — لماذا ... ؟ ماذا تريد منى أيها الشيطان
المريد ... ؟ ما وراءك خبرنى ... ؟

الشيطان — إنى أبحث بحث المعنى عن سعادتك
التي تشدينها ، ومرفك الأثيل الذى تحافظين
عليه ... !

حواء — لئمنحننا إياها الله عز وجل ... !
الشيطان — لا تخافى ... لا ترتعدى ... ! لقد
عرفت منذ زمن مديد أسرار السعادة الخالدة فى هذه
الجنة ... ! سأخبرك كيف تحصلين عليها .

حواء — ابدأ حديثك إذا وقص على ما تريد
وما أنا ذى أصنى إليك

الشيطان — أحقاً ستصغين إلى ... ؟

حواء — أجل ... ؟ وسأكون لك مطيعة رقيقة !
الشيطان — وهل تحافظين على السر الذى سأفشي
به إليك ؟

حواء — أجل ... وإيمانى برأى ... !

الشيطان — ألا تفشينه ... ؟

أنت يا من هي أندى من الزهر وأنضع من البلور
والثلج المتساقط على الجليد الرائق النقي — لقد خلق
الخالق منكم أزواجين غير متزوجين ، متنافرين غير
متوافقين ... !

واعجبا .. ! أنت رقيقة الحاشية ، حلوة المشر؛
وهو جاف غليظ القلب صاف بفيض لروح جميل
كروحك . وعلى الرغم من ذلك أراك صابرة غافلة
رزينة متزنة في غير ملل ولا خج . كل أفكارك
وآرائك تصدر عن روية وعقل . . . أفكلامك مغم
بالمعاني والعبر ، وقلبك يفيض بالمطف والحنان ...
خبرني هل ترينه بعد ذلك يعطف عليك ويعطيك
حقوقك من العناية والرعاية .. ؟

وأخيراً ... ! أريد أن أقول لك شيئاً

حواء — لأفأظك رنين عذب وجرس شجي !
أفرض إلى برك فانا حفيظة عليه في قلبي ... !
الشیطان — أذكرك ... فهذا السرشيء مقدس
ليكون يتنا نحن الاثنين أناشدك الله ألا تفضي
به لأي مخلوق ... !

حواء — من هذا الذي يستطيع أن يعرفه مني ؟
الشیطان — حتى ولو كان آدم نفسه ؟
حواء — أجل ... !

الشیطان — إذاً آت لي أن أتكلم ... أصني
إلى ... أنا لا أرى إنساً في هذا المكان غيرنا ...
وآدم هناك بعيد عنا لا يستطيع أن يسمع الحديث
الذي يدور بيننا

حواء — تكلم ... ! تكلم بصوت عال ، إنه
سوف لا يعرف كلمة ما ... !
الشیطان — أذكرك من مكيدة خطيرة وخديعة

كبيرة دبرت في الخفاء في هذا الفردوس الخالد
وذلك أن الثمرة التي منحك إياها الله ليست
أحلى من تلك التي طالما حذرك منها . أراه
لا يريد أن يمتك بها إذ تحمل صفات جليلة
وفضائل جمة لا قبل لك بها ... ! هو يستكثرها
عليك ... !

فيها ينبوع الحياة والقوة والسلطان والعلم
والمعرفة بكل شيء ... ! هي الأمل والنهاية وفيها
الخير والشر ... وبالجمل تجميع في نفسها كل شيء
في الوجود ... !

حواء — ترى ما طعمها وكيف يكون ذوقها ؟
الشیطان — منحت طعماً من السماء وذوقاً
إلهياً دونه كل ذوق أو طعم ... !

هي لجسمك الغض الجميل ولجياك الوضاح
الوسيم أضمن غذاء وأشهى طعام ... ! ستصبحين
بعدها ملكة الدنيا بأسرها والسماء وعرشها وجهنم
وسعيرها ... ! ستعرفين كل ما هو موجود وكل
ما ينبغي أن يوجد ... ! وبالجمل ستكونين مليكة
مسيطرة على العالم بأسره ... !

حواء — أتجمع الثمرة كل هذه الصفات ؟
واعجبا ... !

الشیطان — أجل ... ! هي كذلك ... !
(تمسك حواء الثمرة المحرمة وتعم النظر فيها وبعد
ما تأملها هنيهة تقول) :
لا شيء يستهوى بصري غير منظرها الجذاب
الجميل ... !

الشیطان — ماذا يحدث إذا أكلت منها ؟
لا شيء ... حاولي ... سوف تكونين أرشق قدراً
وأهيف قامة ... ! إذا تذوقت هذه الثمرة العجيبة

فستبهرين آدم بمنظرك الملائكي .. سيعبدك بعد ذلك ولا يستطيع لك فراقاً ... !

حواء « مضطربة مترددة » — لست أدري ماذا أفعل !

الشیطان — هلاً تريدین أن تثق بی ؟ ... ألا تعتقدين في كلامي ... ؟ خذي أنت الثمرة أولاً ثم أعط آدم إياها وانظرا ماذا يحدث بعد ذلك ... ستكونان ملكا السماء والأرض . ستستوليان فوراً على عرش الفردوس ، ستكونان كالخالق العظيم صفة وشبهاً . وإذا ذاك لا يستطيع أن يرفض لكما أمراً ولا يخفي عنكما سرّاً !

في اللحظة التي تأكلان من الثمرة حيث شئتما ستتحول روحكما من حال مادية فانية إلى حال روحانية خالدة ، إذ تشاركان الله في ملكه وتبوان مكانكما من عرشه

سوف تصبحان في قوة وعزة أنداد الله في الخير والحق والجمال ...

هيا كلا منها ما شئتما ... هيا إلى الخير ... هيا إلى المجد .. إلى الخلود .. إلى الفخار والمظمة .. حاولا ولا تخافا ... أجمعا الرأي ولا تترددا

فالتردد ليس خليقاً بكما وقد اصطفا كما الله ! وهنا ابتعد الشيطان عن حواء ونزل إلى الجحيم وجاء آدم إلى حواء حزيباً مكتئباً لحديثها مع الشيطان الشرير وقال لها في حدة :

خبريني أيتها المرأة ماذا طلب منك هذا الشيطان البغيض وماذا يريد منك ؟

حواء — كان حديثنا يدور حول مجدنا وعظمتنا

وكيف نضمن خلودنا بهما ! آدم — لا تثق في الخائن ولا تعتقد في المجرم إنك ما زلت ساذجة على عيالك نقاء الطوية وصفاء النفس وطهارة القلب ... !

ثقي بي أنا وحدي فأنا من معدتك وأنت مني وكلانا صنو الآخر ... هيا نمرح في جنتنا التي اختارها الله لإقامتنا ... ! لا تفسدي علينا هذه السعادة التي منحنا إياها الله !

أما وراءك ظهرياً كلام هذا الماكر الكاذب الشديد التلغيق ... ! لا تستهوك ألفاظه العذبة الرنانة المنعممة ولا وعوده المسولة الخادعة !

هو لا يملك شيئاً حتى بعد هذه الوعود ، هو منبوذ قد لعنه الله إلى يوم الدين !

أنصحك أيتها الرفيقة الجميلة ألا تطمعي في شيء أكثر مما نحن فيه ... نحن في جنان الفردوس الخالدة حيث لا ظلم ولا جوع ولا برد ولا ضرور ولكن ظلال الله والملائكة الأبرار في عليين .. فنحن في حمى الله الرحيم المتعال

أنوسل إليك ألا تصني لهذا الشرير ... ! لأنه زمر الألم والندم ... أنا أعرف به منك ولي خبرة بأفعاله وخصاله ... !

حواء — كيف تعرفه هذا القدير من المعرفة ؟ آدم — ذلك لأنني بآلوته وخبرته عن كذب حواء — ماذا يهمني من ذلك ... ! أنت إذا نظرته فأني زعيمة بأنك ستغير رأيك فيه لأن هيئته تحملك على ذلك ... !

آدم — كلا ... ذلك لن يحصل — لأنني لاثقة لي به ولا أعتقد بكلامه بعد الذي رأيت من خداعه

وخيانته وكذبه وتلفيقه ... !

لا تدعيه أن يأتي إليك أو يقرب منك

إنه على خلق خبيث ونفس شريرة ماكرة ... !
وقديماً أراد أن يخون سيده فكفر بنعمته
وأنكر صنيعته بأن سلب عرشه متجاوزاً كل حد
من الكفر والنكران

أنا لا أريد هذا الخبيث أن يصل إلى قلبك
الطاهر أو ينفذ إلى نفسك الصافية العذبة ... !

(في هذه اللحظة يصعد ثعبان برفق وهوادة على جذع
الشجرة المحرمة، حواء تقترب منه وكأنها ترهف أذنيها كأنها
تريد أن تصنى إلى نصحه ... ! ولكنه يقدم لها تفاحة جميلة
جذابة النظر فتأخذها وتقدمها بدورها إلى آدم الذي يصر
على رفضها باباء وشم)

فتقول له حواء :

كل يا آدم ولا تخف ... إنك ما زلت تجهل
طعمها ... ! هيا لنأخذ هذا الخير الذي قدم لنا
ليكون طوع بناتنا ... !

آدم — وهل مذاقها حلو إلى هذا القدر
حتى تستهويننا وتغرينا ... ؟ !

حواء — ستعرف حلاوة طعمها حين تأكلها
وما دمت تحجم عن تذوقها فلا تستطيع أن تعرفها.
لخاول ولا تخش شيئاً

إني لم أعهدك جياناً هكذا ... !

آدم — بل أشعر بإحساس غريب وشعور
غامض ! أتوجس خيفة أن يقع لنا شيء ... ! أقول
لك الحق إن رعدة شديدة تستقلني وتجتاز جسمي
وعقلي لا أعرف لها سبباً ولا أصلاً ... !

حواء — لا تخف. أنا لا أشعر بمثل ما تشعر به

أنت. هيا إلى الخير فهو في متناول يدينا ...

هيا لا تتمهل ... !

آدم — كلا لن أفعل ما تدعونني إليه ...
أخشى شيئاً ... أخشى شيئاً ...
حواء — تخشى خطأ كبيراً إذا أنت أصررت
على هذا الرفض

آدم — أوه، حسن ... ! سأخذها ... !

حواء — إذا فكل منها ما شئت ... وإذ ذاك
ستعرف الخير ... والشر ... ! هاأنذا أتذوقها
قبلك ... !

آدم — إذا فعلت فأنا مقدم على أكلها بعدك
حواء — نعم ... ! سنأكلها ونقتسمها سوياً
في أمن وسلام ... !

(وعندئذ أكلت حواء جزءاً من الثمرة المحرمة وقالت لآدم.)
ها أنا ذى قد تذوقتها ... !

يا إلهي ما ألد طعمها ... ! لم أتذوق بعد طعماً
أشهى منها ... !

ما أجملك وأشهاك أيتها الفاكهة التي طالما
حرمتنا إياك ... !

الآن قد عرفت لماذا منعت عنا وحذرنا منها .
آدم — ماذا تقولين ... ؟ خبريني ما طعمها
أسرعى .. وخبريني ... !

حواء — لم يتذوق إنسان طعماً ألذ من ذلك .
فالآن أنظر نظراً ثاقباً ... ! لقد أصبحت في صفوف
الآلهة أدانيهم في العظمة ، وأساويهم في القوة
والسلطان

ما أعجب هذه الثمرة ... ! إنها لساحرة ... !

وا أسفاه ... ! ما أشقى الآثم وأبأس المجرم ...
 ما الذى فعلته حتى غضب على الله هذا الغضب، وقضى
 على هذا القضاء الذى لا مرد له ولكن أما قلت هذا
 لرفيقتى ...؟ أما قلت لها إن شيئاً سيحدث لنا ...
 ها نحن ذان قد حرمتنا جنتنا والسعادة التى كنا نمرح
 فيها فى غير فكر ولا ندم ... !
 اللهم أنزل لعنتك وغضبك على هذا الأثم فهو
 الذى راودنا وهو الذى أغرانا !
 ألا لعنة الله على هذه الشجرة ! لك الله يا حواء !
 هاذا قد مت فى غير رجعة ولا أوبة ... !
 وهبطت فى عالم لا أعرفه ... !
 [ستار]

محمود المصطفى

كلية الآداب - القسم الفرنسى

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف موتة الاطالانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

. وثمنها ١٥ قرشا

لقد عرفت كل ما هو موجود ، وسأعرف كل
 ما سيوجد . عرفت سر العالم بأسره .
 كل يا آدم وشاركنى فى أكلها ، أريدك سعيداً
 مثلى ... ! تذوق طعمها الجميل ولا تحرم نفسك .
 أسعد نفسك بأكلها ، وأنعمها بجمالها الذى
 لا يضارع ... وطعمها الذى لا يقارن ... !
 (فبأخذ آدم التفاحة على أثر هذا الاغراء ويقول لحواء)
 إني لأرى نفسى تثق بك ثقة عمياء لأنك رفيقة
 حياتى ، وشريكى فى السراء والضراء ولا قبل لى
 بالاستغناء عنك !

أيتها الزهرة الجميلة التى لن تذبل وهى بين أناملى !
 ويا أيتها الفسادة الحسنة التى استهوت قلبى
 واستولت على نوازع نفسى وبهرت بصرى بجمالها
 وخفة حركاتها

يا من لا تفارق ثفرك الصغير تلك الابتسامة
 العذبة السعيدة ...

يا من أسكن إليك بعد التعب والنصب
 وأنا سعيد قرير العين راضى النفس مطمئن البال ..
 لا أطمع فى شيء إلا رضاك وحنانك ولا أطلع
 إلا لصحبتك ورفقتك !

أيها المخلوق العطوف ... لأجدن نفسى لا تقدر
 على ردّ سؤالك أو رفض ما تريدنيته منى ...

ولكن ... ما زلت لا أستطيع !

حواء - خذها من يدي وكلها ولا تخش سوءاً
 (هنا يأكل آدم جزءاً من الثمرة ولم يكده ينتهي من
 أكلها حتى عرف خطيئته : فحاول أن يخفى نفسه حتى لا يراه
 أحد . وجرد من ثيابه الأنيقة للزركشة فحصف على نفسه
 من ورق الشجر ليستتر جسده وعند ذلك أظهر ندمه وأسفه
 وأخذ فى غير طائل قائلاً :

ولا أحسبك إلا غاضبة على
عند ما تعرفين الآث أننى
لا أجفف من دمك ولا أرفه
عن أساك ، بل أشدك من
شورك فى قسوة لا تتفق مع
رحمتى التى جذبتك إلى كفى
فى تواضع رغبة فى مواساتى
وطمعا فى نصيحة ترد إليك
كبرياءك الذاهبة

عائلك الشمس

أقصوصة مصرية بقلم الأنيسة جميلة العلايلي

أجل أجذبك فى عنف وأتى بك فى الحب الذى
أشعلته يديك ... ليتطهر جسمك وتنصهر ماديتك
فى بوتقة الألم والعذاب ... وفى النهاية ستشعرين
عن يقين أنك شفيت رغم ما تركه الحب على جسمك
من علامات ما كابدت به من عذاب

وليس الحب الذى أدفمك إليه كالنار أو الشرر
المتطاير ... إنما هو لب النفوس كلها أجمعه بحجرة
قلم من محيط الكون فى دائرة محدودة ، ولا ألقىك
وحدك إنما ألقى معك فى وسط هذه الدائرة الملهبة
بغير دخان ، أنفاس الرجل الذى خانك ، وأخرجها
فى حرارة كما يقول وقد أتنق صياغتها بقلبه البارع
هذه الأنفاس التى تمحي وتميت ... الأنفاس
التي أحييتك وبعثت فى نفسك حلو الآمال ثم أماتتك
تاركة خلفك أمة الآلام

هذه الأنفاس هى رسائل الرجل الذى أحبك
بالقلم وتركك بالقلم ، وهى التى أدفمها الآن ثمنك لما
أصابني منك من جهد الخيال ... فأعرضها لتكشف
للناس صورة من صور الأضاليل ... كيف يبدع القلم
التصوير ولا يعاف القلب التعبير ؟

والآن لا أريد إليك رسائل صاحبك التى بعثها

عزيزتى الحائرة

ما عساي أن أقول لك بعد أن مرضت ، وهل
يرى الجرح غير يد الطيب ؟ وطيبك مع الأسف
رجل لا يعرف من المرأة غير جسمها ، ولا يلمس
فى الحياة غير مواطن المادة

وأنا لست طيبة يا صاحبتى ... كل ما أجوده
على الخلائق حنانى وعطفى ، وهل يكفى الحنان لتضميد
الجروح ؟ لا أظن !!

ودليلي أن الحنان يفتح دائماً فوهة القلب فإذا
بعميون من العواطف تتطلع إلى ما هو أعمق من
الحنان وأغزر من العطف ، إلى التهل العذب الذى
يفيض بالرحيق المشتعي الذى يصوره المنطق فى شبه
حروف تؤلف كلمة واحدة - الحب - ويترنم به الحس
ويسميه الشعور !

إذن لا فائدة من مواساتى بعد أن صدمتك
الحياة فى الصميم ، لتردك إلى محط المعرفة فيلسوفة
بغير تعليم

خلى عنك نصائحي فإنها لا تجدى ... ومتى
أصلح النصيح مخطئاً أو هدى ضالاً ... ؟

حسبك ما علمتك إياه الحياة عن طريق صدمتك .

إنك الآن أكثر منى تفهماً للحياة

خاطر جميل ، والآن وقد اكتملت هذه الأدوات
وارتحت بين أكناف الريف الوديع الجميل فإني
أكتب إليك ذاكرة تلك السعادة التي غمرتني
بمعرفتك

وبعد: فإني طائر شاعر يعيش على الأحلام ويقتات
بالذكريات لا يحب أن يصطدم بالواقع ولكنه دائم
الاصطدام، فهو يود الحياة مستقيمة سهلة، لا عوج
فيها ولا نتوء !

وإني لأطمع أن تفتحي لي كوة أطل منها على
دنياك، رياضها وجنانها، هضابها ونجادها، وأن تمديني
بفيض من الأحلام والإلهام ففي هذه البيئة أحياء،
وبين هذه المكافئ الحبيبة أنتقل وأعيش

— ٢ —

« هبة »

وصلتني رسالتك وأول ما ألاحظه عليها قصرها
— هذا القصر المخل — مع أنني أريدها طويلة كالسافة
التي بيننا، متعددة المناظر كالتي أتملاها وأنا في الطريق
إليك !! . أريدها رسالة يشفق البريد من حملها،
ولكنك أبدأ ضئيلة حتى بالكلام... آه... « هبة »
لقد وقعت في الشرك حتى لم يعد لي أمل في
النجاة، فأنا — ولا أخفي عليك — قد حاولت أكثر
من مرة ألا أسترسل معك في الكتابة . بل لقد
حاولت جهدي ألا أطالعك على ذاتي مجردة عارية ،
ولكن قاتل الله الثلاثة : يدي ، قلبي ، ونظري
أحبك ، نعم — وأعبدك ، وأحرق ذاتي بخوراً
في هيكلك المقدس ولكنك لا تحسن أبداً بهذا
الحب العابد المحترق !

يا هبة . لا أحب أن أشرح أو أصف لك
مأعاني ، وكل ما أحب أن أقوله إني وهبت قلبي لك

إلى " لأطلع عليها وأبدي رأيي فيما ينتجه القلم الصامت
على ضوء الحب الكاذب .

لا أردّها إليك سرّاً بل أردّها إليك جهراً
بين ضجيج كل من يجذب نظره ضوء الأدب ...
وقد لا يفيدك هذا — على ما أعتقد — إذ سوف
يترحم عليك كل قلب رحيم ... فاجمعي كل ما يصل
حسّك من مواساة الأرواح اللاصريّة واستعيفي
بها عما أصابك من بلاء روي سببه لك ذلك الرجل
الذي يحب كل النساء كما تقولين ويعبد كل شمس
متجسمة في امرأة

آنستي (هبة)

إنها لسكتة غير قصيرة طال فيها أمد الصمت ،
ولست أدري بماذا أو كيف أقطع عليك هذا الصمت
الذاهل فأحرمك تأملات فلسفية ، ورؤى شعرية
سحرية ، ولست أدري أيضاً أخطيء أنا أم مصيب
حين أفاجئك بهذه الرسالة فأقطع عليك سلسلة
خواطرك وإلهاماتك ، وأنقلك من دنياك الشرقية
الواعية ، إلى دنيانا العابسة الفارغة؛ وسواء أخطأت
أم أصبت فليس ثمة محيص من الكتابة إليك بعدما
انتظرت أن تكتبي لي ولو بما يطمئني على سلامة
عودك ، ولكني لم أحظ حتى الآن إلا بمرارة
الانتظار ! ولم يكن في الاستطاعة أن أكتب إليك
فيما سبق ؛ فأنا شاب لم يألّف الكتابة بين الصخب
والضجيج والارتجال والانتقال ، ولم يكن ذلك
هو السبب الأصيل ، ولكن هناك سبب آخر ،
ذلك أنني رأيت أن أخصك بأدوات جديدة للكتابة
فلا أكتب بها أو فيها إلا لك ، ولست أدري تعليل
هذا الخاطر ، ولعله خاطر شعري ، وعلى كل حال فهو

ولكن الذى لا أفهمه أو أطيقه أن تنفضي أنت منى . ومنذا الذى ألوذ به وأطلعه على خبيثة نفسى بعد اليوم إذا كنت تعاملينى معاملة أولئك الأرقاء ؟

ألا فلتتق الله فى نفسى وقلبى فإنى لا أعتقد أنك تمنين ما أعانى وتجدين ما أجد وتحملين نفسك ما لا تطيق !

وانى لأعنى أن تظل نظرتك إلى واحدة على الأيام .

وإذا كنت هفوت هفوة لم أقصدها فحسبى عقاباً هذا السكوت الذى أقض مضجعى وأمض نفسى وأطلق فى سماء حياتى سحب اليأس والضيق والبرم بالحياة

وأخيراً ما زلت لك المخلص الأمين .

— ٤ —

« هبة »

ومهما يكن من شىء فإنى مدين لك بهذه الرسالة التى فتحت أمام ناظرى آفاقاً جديدة وعوالم غريبة من نفسك — نفسك التى طالما لفتها بثوب من الحذر والغموض . وهكذا لا بد للورد من وخز الشوك . والآن بعد أن اجتزت فترة الاختبار فى تجربتك القاسية فإنى أرى نفسك تبدو أمامى عارية من كل ثوب مجردة عن كل غطاء ، وإذا هى طفلة وديعة طاهرة نبيلة تهيج أحياناً وتتور ولكن هياج النبوغ وانفعال العبقريّة وما أشبهنى باللوجة تحركها النسمة فإذا هى غاضبة ثم سرعان ما يستحيل هذا الغضب إلى رحمة وحنان على الصخور

وإنه ليسرنى أن تنثرى بين يدي نفسك ماحوته ووعته ثم لا بأس عليك من ذلك — وماذا يكون

فإذا شئت أن يحيا فهو لك . وإذا شئت أن يتحطم فهو لك أيضاً . ولكن رويدك فقد سرقت قلباً ونسيت مفتاحه ، وكنت أريد ألا أعطيك مفتاحه حتى يظل أمامك طلسماً وتظلين أمامه فى حيرة ولكن ما انتفاعى بالمفتاح ما دام قد سرق الكنز ؟ يا هبة

قلبي شره إلى آخر حدود الشره ، فهو إذا جاع أو عطش فلا خيرات الأرض وأثمارها ولا أنهارها وبحارها بكافية لأن تسد جوعته أو تطفى حرارة ظمئه .

ولعلك بعد ذلك تعرفين كيف تنتفعين به ومنه .

— ٣ —

هبة !

ليتنى أدرى ما الذى ثنأك عنى ومثلك لا يمكن أن تكون إلا ودية كريمة ...

يشهد الله أنى ما حملت لك أو أحمل إلا كل عاطفة شريفة ونية طاهرة مطهرة وقلبا يرف عليك ويشهد الله كذلك أنى لم أحلك من نفسى إلا فى أعماق مكان ولم أضعك إلا فى مصاف الآلهة الألى أتوسل إليهم بصلواتى وفناء ذاتى ، ويشهد الله أيضاً أنها لكلمات يسيل بها القلم خالصة مخلصنة لا تعرف الرياء أو النفاق . فى مثل اضطراب الأمواج خواطرى فى هذه الأيام ، ومثل الغيب نفسى المظلمة — !

ولو علمت أى حدث جرى وأية زلة ارتكبت لجثوت أمامك تائباً مستغفراً . لقد أفهم أن تنكر لى الحياة فلا آبه لها وأن ياتمر بى الواجدون فلا أحفل بهم ، وأن يقطع الأصدقاء خبل مودتى فلا ألتفت إليهم

في مثل هذه الظروف القابضة ؟ إنني لقادر على أن أعيش في كل صقع وأحيا في كل مكان ، وأن أقابل الشدائد فلا تنال مني إلا كما تنال الرياح العاتية من الجبل الأثمن !

ولكن الذي لم أزل أهفو إليه وأفتش عنه هو القلب !

القلب الذي يؤنس وحشتي ويبدد ظلمتي ويقدرني دائماً على المقاومة والتجدد في الحياة !

ولا تظني أنني أجرب قلبي بهذه الجمل الموشاة ، ولا تظني كذلك أنها كلمات كتلك الكلمات التي اعتاد الرجل أن ينال بها إعجاب المرأة ويستولى على قلبها ، ولكنها كلمات أروى فيها طويلاً قبل أن أسطرها — فهي كلمات من لحم ودم ، كلمات ترخر بالحياة وتموج بالصدق ، ولولا أنني واضح ظاهر ما سجلت إليك كلمة واحدة من هذا ...

وأنا إذ أبدى لهفتي إليك وانشغالي بك — أحب أن تقدرى هذه العواطف النبيلة

العواطف التي لا ترمي إلى شيء وراءها ، فإني أحبك لما بهرتني من روحك القوية السمحة ودمايتك الفائقة وشاعريتك المتنوعة ، أما الجسم وإن كان رقيقاً فاتناً بديماً فلا شأن لي به ولا مطمح ، وإذا كان هناك ما يخيفك من الرجال فليس الذنب على وإنما هو على سماحتك التي تفرض كل الرجال ملائكة لا أناساً

أما بعد فطائرُك الفرد لا يزال بين يديك ، فحذار أن تثقل عليه بهذه الأساليب التي لا تجدى معه شيئاً وإلا أبلغه أن يهجر جنتك آسفاً ، وإذا ذاك يظل قابلاً في وكره فلا ينفعك ولا ينفع نفسه ، وبذلك تشقن نفسك وتشقينه !

لو اتخذ كل منا من صاحبه أخاً لنفسه يهمس إليه بما يختلج في خاطره إن خيراً أو شراً دون خجل أو حياء ، ورب أخ لك لم تلده أمك .

أعود إليك يا صاحبتى ...

كان يكفي أن أقف بك هنا لأترك القارئ ينسرح بخياله في عالم نوراني يرى في سمائه كل ما يشتهي المخلص من أمان حسان ولكن لا بد أن أعقب على تعليقك بعد هذه الرسالة ... إذ تقولين إن تلك الرسائل رغم سحرها لم تبلغ عمق نفسك وإن الشك ظل يراودك ويقف بك بعيدة عن رغبات صاحبك حتى اشتدت حيرتك بين رغبتك وحذرک ...

قلبك يدنيك منه

وعقلك يقصيك عنه ...

وضباب الشك يشرف على أحلامك فيشوه حقائق أمانيك ...

وظللت هكذا حتى كتب لك :

(هبة)

إسمي يا هناء !

إني لأعجب من تمردك على هذه الأيام ومحاولتك مسي بالاجماع ، مساً دون مقتضى أو داع ! أتقصدين ذلك حقاً ؟ أم تفعلين على سبيل التدلل ؟

أما الأول فلا أطيقه ، وأما الثاني فقد أحمله ! على أن المؤلم أنك في الوقت الذي أنتظر فيه رحمتك بفضيبن ، وأقرب فتمعين ، وأتكم قسكتين ، وأتق قسكتين !

ومتى تؤدين رسالتك يا فتاتي ... إن لم تؤديها

أجلامي . لقد رأيتك فرأيتني منجذباً إليك أنجذاب الحديد بالمغناطيس ، وتطلعت إلى عينيك فإذا بي أرى فيهما رهبة معبد مقدس ... لقد كانتا عميقتين عمق الأبد تنظران إلى السماء كأنما تبحثان عن سر ضائع . وأخيراً استمعت إلى حديثك فإذا كلمات عليها طابع الدوام كأنما تحمل تجارب القرون ...

حينئذ شعرت أنني ولدت ميلاداً جديداً وأن روض حياتي قد نجمت فيه أزهار من نوع جديد ! وحينئذ أيضاً حرصت على مودتك وعاهدت نفسي أن أكون حريصاً على الوفاء لك ما بقي بجسمي نفس يتردد !

والآن ، هل تدرين مدى تأثيرك في حياتي ! لقد نقلتني من الظلام إلى النور وأجريت في أعصابي خلاصة أجيال من عزم وإرادة وعبادة للحق والقوة والحرية والجمال ! ...

ثم هل تدرين أيضاً وفائي لك في بعدك ؟ إنني أستعيز بك عن رؤية الناس وموداتهم فأنت تسامرينني في وحدتي واجتماعي وأنت تمسحين عن جبيني عرق الملل والكلال كلما أجهدتني عجلة الحياة !

وأنت تفتحين أمامي أودية المجهول فأرودها ! وأنت تلازمينني في منزلي ، وأنت تؤنبنيني كلما أهملت في واجب ! وأنت في النهاية تعصمينني من التردّي في مهاوى الهلاك وموارد الضلال ! ...

فلهذا أحبك حباً صرفاً ولهذا أدعوك إلى أن تصححي نظراتك إلى علاقتنا السماوية المباركة

وكل ما أريده أن تهينني كل عاطفتك ولتتصارع حتى بالرغبات الخفية ولتفرغني إلى دنياي

أرجو أن يضلّك هذا وقد عادت إليك ابتسامتك وإشراقك . أما الآن طريح الفراش يا هبة ولا أحد مني يؤنسني إلا زفرات حارة أصعدها ، فالرحمة الرحمة ، — واعلمي أن كلمة منك طيبة كفيلة بأن تزيح عني عبثاً ثقيلاً فهل أنت فاعلة ؟

(هبة)

إني لأتألم ... بل أعجب كيف أنك إلى الآن لا تزالين تجهلين نفسي وعواطف وميولي تماماً ... وأنا أطمع في أن يشملني حبك وتفرقني رغبته الأكيّدة في أن تكوني بجانبني إلى النهاية مهما جالت بيننا الحوائل

أنا الآن في المنزل جالس إلى مكتبي بعد أن عدت من العمل خائر القوى ، ومع أن الحر شديد والتعب يكاد يمسك عليّ مسارب أفكارى ، فإن بي نزوعاً إلى استئناف الكتابة إليك

وأحب أن تذكرى أن حبي لك غريب لا يمت إلى ما تواضع عليه الناس بصلة ، حب يميزه عن سائر أنواع الحب عمقه وطهارته وخلوده وإخصابه !

لست أنكر أنني عرفت من قبلك ألف قلب وقلب وحطمت ألف قلب وقلب ... حطمتها لأنني لم أجِد فيها القوة السحرية الخفية التي تفتح عيني على النور وتوقظ في أشواق الحياة وتدفعني إلى الخلق والإبداع ، وتجمل الوجود في ناظري

حطمت كل هذه القلوب لأنها كانت كالمراسم والدمى ، بل لأنها كانت (كورد الجمار ١١) منظر ولا رائحة !

وإذا كنت لا أنكر ذلك فإني لا أنكر كذلك أنك كنت المثل الأعلى الذي تصبو إليه بروحي ونحني

كلما أعوزك الصدق والحب في دنيا الناس ولتكوني
وفية لي في محضري ومنعبي ولتتجسسى مبول
وتنفذي ما أرتاح إليه

لا أريد أن تمبّري عما تطوي عليه جوانحك
بكلمة ولكن باختلاجة أو حركة أو روح عامة
تموج في رسائلك فتشعري بما لي عندك من منزلة
أو اعتبار

إنني لا أريد أن تقف علاقتنا عند حد السطحية
بل أريد أن أسمع منك : دع هذا وافعل ذاك وتعال
هنا واحذر أن تتأخر وأغضب منك إذا فعلت كذا
إنني لا أكون غالباً إذا قلت لك إن اهتمامي بك
يربو على اهتمام الوالدين والإخوة ، ولست آسفاً
على شيء ، فإنني ما دمت أنت بجانبني أستمد من
تشجيعك قوة ومن حبك أشعة تبديد ألامي ضباب
الحياة ! ...

آه ! ماذا أقول ؟ ومالي أجشمك ارتياد هذه
الوديان المتأشبة ؟ وأخيراً ... ثقي أني سأطوى قلبي
على حبك وسوف أكون لك الدوحة الفينانة التي
تفرعين إليها فتتوء عليك من ظلالها ، وتضمك
إلى أحضانها كلما لجأت إليها

واعلمي أن الغيب يضمرك حياة خالدة بحبي .
هبة ...

كلمات كثيرة تريد أن تثب من شفقي على أسلة هذا
القلم ولكني أكبحها بقوة هائلة !

آه لو تدركين ما أريد ، ولكن أنت لا ترجمين
مهجة صب .

كنانة الذكرى

وليست هذه الكنانة إلا مجموعة من الرسائل
وعاها ظرف واحد وهبطت على منك في فترات
متقطعة ...

ولست أدري كيف اجتذبتني إلى عالمها بين
هضاب ووهاد وزهور وأشواك وتقطيب وإشراق
وهدهوء وثورة وثرثرة وصمت وآمال وآلام وحقائق
وأحلام وتلميح وتصريح وبيان وغموض ، ولقد
قرأتها رسالة رسالة ، واستوعبتها فكرة فكرة ،
ووقفت على ما يحسن أمامه الوقوف فرأيتك فيها على
اختلاف أغراضها وتباين مناحيها مثلاً للفتاة الطيبة
السريرة ، الفتاة التي تحيا في الحياة بعقل حالم وخيال
كاشف وروح مستغرق وخاطر متوثب وإحساس
متفتح وشعور غامر دافق !

أجل ، ورأيتك أيضاً مثلاً للعبقريّة الفائقة الخالقة
العبقريّة التي تعبد الفن وتغنى في ذاته كما يغنى الصوفي
بين نور الإله الجليل ، ولقد وجدت في هذه الرحلة
الروحية متاعاً لم أستلذه أو آلفه من قبل حتى لقد
أمضيت فترة طويلة وأنا في ضيافتها ذاهلاً عن نفسي
وعما يفمرها من صخب الحياة وضجيجها ، وهكذا
هداني بل عودني بخلك الكتابي أن أفزع إلى كنانة
الذكرى كلما غلقت الأبواب ، وأوصدت المنافذ دوني
وإن في هذه الكنانة لمستودعاً حافلاً بأفانين السلاوى
والوان العزاء ، وذلك غاية ما أتمناه منك فاكثبي بعد
ذلك أو لا تكثبي ، وجودي أو لا تجودي ، ونامي عن
شاعرك أو لا تنامي ، فما عاد يحفل بهذا أو ذاك مادام
ظفر منك أيتها البخيلة ، بكنانة الذكرى

(هبة)

كان مما يقدرني على أعبائي الثقال وكان مما يجعل
الحياة في ناظري ، شعوري بأن الحياة رزقتني حبيبة
أفزع إليها وألوذ بها لدى الصدمات
وكان كذلك مما يعزيني ويحبيني في الحياة

شعورى أيضاً بأن هذه الحبيبة قد تخصصت في دراسة ميولى وأهوائى حتى أصبحت تعرف سبحات فكرى وخلجات نفسى وهتافات شعورى

و كنت أستبعد أن تدب بيننا بدواتُ الشك وهمسات الظنون فيما بيننا من حب ولده الامتزاج السامى وغذته العاطفة المزهة عن الشوائب ورعاء الوفاء الكريم . واليوم ، بل ومن قبل اليوم ، يدهشنى أن هذه الحبيبة قد بدأت تنأى بجانبها وتتمرد على صلتنا الروحية المقدسة ... فى مرة منفعة غاضبة ، وأخرى صامتة لا تتكلم ولا تجيب ، وثالثة متوعدة المزاج ورابعة تعد بأن تتكلم ، وأخيراً هى تشتم رائحة النفاق فى أنفاس ... ماذا أيتها الساحرة !

أبهذه السرعة تريد أن تتحلى من صلتنا ، وأن تحطى كل ما شدناه من صروح ، وأن تنكرى لمن حاشاه أن يتفكر لك مهما جازيته على الإخلاص حرماناً وعلى الوفاء جحوداً ونكراناً

إنه لمن الجائر أن تبعثى بمثل هذا الكلام الصارم الملقى على عواهنه إلى من اعتادوا إرسال الكلام على عواهنه تزجينة للفراغ ودفعاً للسأم

أما أنا الذى أفكر فيما أكتب وأفكر فيما أقرأ ! ! يمكن أن يحدث معى هذا ؟

على أن ما أذهلنى حقاً أن تختتم رسالتك بقنبلة تذهب شظاياها بقلبي ، فهل تعرفين حقاً أنني أحاول أن أتلهى بحبك

إنك لتؤذين نفس الشاعر وتسيئين إليها حينما تزجين بها فى أخلاط النفوس البشرية وتظنين أنها صيغت من طبيعتهم أو نسجت على غرارهم !

وما دام الأمر كذلك فأنى — مع إخلاصى الدائم لك — قد صممت على أن أرجع إلى عالى

القديم ... عالم الظلام والغيب ، وسأقفل من ورائى باب صومعتى الأزلية وهيهات أن أصنى لأى صوت ! أو أستجيب لأى دعاء ! أو أخف لأى نور !

وبعد فإذا كنت لا تأسفين على أى شىء ، فأنى آسف على كل شىء ! وإذا كنت قد كتبت ما كتبت إلى أخيراً وبسمة العبث والطفولة تهوم على نفسك ، فأنى قد كتبت هذا ودموع قلبي تكاد تفرقنى ، يا إلهى ، حتى من كنت أرجو أن تتحقق على يديها الآمال تكون هى آفة الآمال !

يا إلهى إن أحشائى تنقطع والدم الفائر يكاد يلهب شرايينى ، فأنقذنى يا إلهى وألق على نفسى الطليحة وروحي الكليمة برد العزاء

إلى هنا أكتفى بهذه اللوحات من رسائل صاحبك وهى فى الواقع خلاصة فناء الفكر فى القلم .. ولا أقول فناء القلب أو الروح فى القلم لأن فناءهما فى الواقع معناه خلود الحب ... أما وقد تلاشى ذاك الحب فلا أظن للقلب أو الروح سلطاناً عليه .. على أن هذه الرسائل لا تخلو من إغراء يبعث الحجرة فى وجه الحسنة ويشمرها بأنها إنسانة محبوبة مرغوب فيها ...

ولعل صاحبتى صدقت ذلك لأنها سايرت صاحبها بخواطرها عن طريق قلمها كما يقول وباعترافها أيضاً .. إنما كانت فطنتها أشد من إيمانها صرت الشهور وهو يحاول أن يثبت لها حبه بأعذب الألحان الشعرية وهى حائرة بين ما يبعثه فى صدرها من تخدير عاطفى ، بين ما تلمحه عليه من آثار القلق والاضطراب والركود والاستسلام لخواطر لا تتعلق بها .. فلطالما حدثها عن العذارى وأسمعها

رجل يشور ويهدأ ويحب ويكره في آن واحد ،
وهأنذا أكتب ولا أدري إلام تنتهي مثل هذه
الكتابات الضالة .

ومع أنى مضطرب الشعور موزع الخاطر ؛
فأني أحب أن تمتدني أنى لم أكن عهدك مطلقاً ولم
أله بمخلوق أو مخلوقة — حقاً إن حياتي كانت وما زالت
ملأى بالمجائب والمغريات ، ولكن أى مغريات
هذه ؟ إننى لست ممن يجرون وراء ملذاتهم حسبما
اتفق ، فأنا رجل فنان شاذ ، فإذا سقطت ففى سقطة
الفنان والحمد لله إذ نجابا ، وما كان لمثل أن يتلهى
بالموتى . وبعد فأياك أن تثيرى الضباب برياحك
الموجاء ، ودعيني — دعى هذا المريض يحلم —
يحلم بمقدم هذا الطبيب — ويمينا لن لم يشفى من
هذا الداء لألقين به من حلق ، ولأذهبن أنا وهو
إلى الجحيم .

إلى هنا أدع صاحبك وأعود إليك . كيف
خدعك حسك أنت التى خلقت من مجموعة أعصاب
حساسة ... ؟

قد يكون للأسلوب الجذاب تأثيره على الأفتدة
والأفتدة الشاعرة على الأخص ، ولكن ما صلة
الحب بهمسات القلم ؟

قد تعترضين وتقولين ، وهل كانت همسات القلم
إلا خواطر النفس وسوايح القلب .
ومعك الحق ، ولكن فى غير هذا الزمن
يا صاحبتى ...

فقد طفت المادية على كل شئ وشوهدت جلال
الروحانية الشفيفة ...
اسمى إلى جدتك عند ما تقص عليك حديث

أناشيد الهوى المستمر بإيحائهن
ومن الطبيعى أن تسترسل فى خيالها وتقيم
لكل مشهد من أحيائه قصة واقعية أثرت فى حياته
تأثيراً أهاب بشاعريته إلى التفتنى ...
وشاءت أن تظل فى محراب تحفظها وتدأب
على اختبارها حتى تتكشف حقيقة نفسه فكتبت
إليه تقول :

أتركك لتتغم بالحب فى كل واد
فكتب إليها يقول :

يا لك طفلة ! أنا أحب ؟ ومن أحب ؟ وهل
خلق الله بعد تلك التى تستطيع أن تهض بحبى ... ؟
إننى يا عزيزتى ما أحبيت مطلقاً ، ولن أحب أبداً ...
إننى يوم أحب أحطم أو أتحطم أو هما معا . وأين
هذه الحبيبة التى لها من الرهافة والحساسية
ما تستطيع أن تلمس نبضات قلبى واهتزاز مشاعرى
وخلجات روحى ؟

إن هذا الشعر الذى كان يروقك أنت وغيرك
كذب كله ، إنه ضرب من الغزل التجريبي ألقيت به
فى محيط القلوب الفارغة انتقاماً منها وسخرية بها ،
لقد كان لى حبيبة واحدة ... آه نعم حبيبة صفعتنى
على خدئى بيد رطبة صغيرة يوم قالت لى :

أنت مجنون

حبيبة ضربت على تخوم عالمها عجائب الرق .
ثم سمعت إليها فى ضباب يتنفس عن شذى البنفسج
وأنا أعرف على أوتار قلب جديد أناشيد مجنحة . حتى
إذا انتهيت إليها تباهت وتجاهلت ونفرت مغفمة :
أنا لا أعرفك

إذن دعيني من حديث الحب . فأنا لا أحب ،
فأى فتاة تطيق الإقامة بجانب رجل مريض النفس
والعقل ؟

قلها . واسمى إلى نفسك — أنت المستنيرة المثقفة
ثم قولى أيكما أصدق وأعف وأقدر على الاحتمال
والصبر ...

الفطرة التى حاربناها فى الصميم وشوهناها
بظواهر المدنية الراهنة التى عفت على الصدق والعفة
والقناعة والطمانينة

وفى الواقع لا ذنب لك ولا ذنب لصاحبك أيضاً
كلاكما مسرح لأضاليل الحياة . أنت معذورة لأنك
حسبت أن قلبك الطيب جدير بحب رجل ، وهو
معذور لأن المرأة تناديه من كل مكان ، فى الشارع
وفى النوادى ، فى المتاجر وفى المراقض ، وهى مستسلمة
تعبث بكل شىء فى سبيل تحقيق أمنية ترجوها ...
ولا بد أن تأمل ولا بد أن تسمى إلى أملها ...
لأن الرجل فى هذا العصر لا يبحث عن المرأة
المتحصنة التى تحبس نفسها داخل دارها خوفاً على
سمعتها وكرامتها ...

إذن كان أمر صاحبك فى النهاية ... لا بد منه

قارنى فى دهشة يتساءل : وما هذه النتيجة ؟
وكنت أحب أن أتركه حيث هو يتساءل ويفكر ..
ولكن لا بد من إجابته وإلا آتتهنى بالقصور لأنه
تعود أن يجد على مائدته الأدبية كل ما تشتهى نفسه
أما أن يفكر ويبحث عما وراء هذا ونهاية ذاك
فلم يحن ذلك الوقت بعد ...

ذهبت صاحبتى لعيادة صاحبها المريض بعد أن
أفهمها أنها سبب علته وأنه فى طريقه إلى القبر ...
ذهبت إليه دون أن تحدد موعداً وكانت لها

بأسرته علاقة تبيح لها الزيارة فى كل وقت
لم تجده ... فانتظرت وراحت تتلمح بمطالمة
الكتب والمجلات الملقاة على مكتبه ... ودفعها الفضول
إلى فتح درج مكتبه ... ويبد حذرة سحبت بعض
لפافات الورق ...

وبسرعة البرق الخاطف تطلعت إلى غوى كل
رسالة ...

رسائل غرام متنوعة ...

كتبت إلى ثبت من الفتيات ...

عائشه ، فاطمه ، نemat ، سنيه ، نفوسه ، زينب
الخ هذه الأسماء ...

وكلها تفيض بأحاديث الحب المشبوب المستعر
وكلها تصور غرام الكاتب

وكلها تضعه تحت قدمى المرأة فى خضوع لا يتفق
مع كبرياء الرجل

رسائل ... بما تحويه من لخب وشوق وحنين ورغبة
وأمل وتوئب ... كتبها لمبشرات الفتيات وكل
ما يفرق بين هذه وتلك ... اسم المرسل إليها

كان ذلك يكفى لرد الفتاة إلى محراب عقلها ...
محطمة ذلك الهيكل الخيالى الذى سمته حقيقة وسمته به
إلى ما وراء الخلود ، لكن هل كل فتاة يمكن أن
تحذر وتعود إلى نفسها دون عناء كهذه ؟

لقد خفف الشك وطأة المصاب فهل كل فتاة
تشك فى الرجل الذى تحبه !! أنا أدعو إلى الشك
فيه لتظل بعيدة حتى إذا صدمها القدر به غر عليها
البكاء .

جميعه المولى
(٧)

لم تكن مجرد دعاية . فقد
كان سكيراً حزيناً . وحين
كنا نسأله لماذا يعبس ويحدق
في السقف ينهنا نحن جميعاً نضحك
كالجانين أو كالأطفال السذج
كان يجيب في ابتسامة مرة :
« يا رفاق ، إن برأسى طائراً
أزرق ، ولهذا ... »

الطائر الأزرق

للكاتبة الإسبانية روبين داريو
بتم الأدب شكرى محمد عيتاد

... ثم إنه كان عظيم الشغف
بارتياد الحقول إبان الربيع . فقد
كان هواء الغابات يلائم رتيبه كما
كان الشاعر يقول لنا . وحين
كان يشوب من رحلاته كان يحضر
نعه دائماً باقات من الزهر
وبطاقات من الشعر . أما الزهر
« فلنبنى » جارته ، وهي فتاة
غيسانة لها خدان موردان وعينان
عميقتا الزرقة ، وأما الشعر فلنا ،
وكنا نقرأه ونطرب له ، فقد كنا
جميعاً نعجب بجارسن . كان نجماً

تعريف بالقصة

روبن داريو كاتب إسباني عاش
في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل
المقرن وشهرته الأدبية قائمة على
أشعاره وإن كان قد جمع إلى الشعر
كثيراً من النقد والرحلات وقليلاً من
الأقاصيص ، ويعد روبين داريو
صاحب أبداع أسلوب إسباني في العصر
الحديث ، وشعره ينجح إلى الإغراق
في الوصف الحسى . ولكنه غنى
باللفظ الجميل والخيال البعيد . وقد
كان داريو مفرماً بالأديين الأغريق
واللاتين . عظيم الانتفاع بهما في شعره
وهذه الأقصوصة الصغيرة من خير
ما كتب ، وأصح تمثيلاً لفنه وطريقته

باريس بلد طروب ولكنه
مخيف . فلم يكن أحد بين رواد
مقهى بلومبير من الرسامين
والنحاتين والشعراء - وهم شباب
كلهم يطمحون إلى إكليل النار
القديم - من هو أحب إلى
القلوب من جارسن المسكين .
كان دائماً الحزن ، يدمن شراب
الأبنست ، تسكره الأحلام
ولا تفعله الخمر ، يحسن - ككل
بوهيمى - ارتجال الكلام
وكانت ترين جدران حجرتنا

يوشك أن يتألق ، كان وقته لا ريب سيجىء . أوه؟
سوف يخلق الطائر الأزرق في السموات العلى امرحى
يا جارسن اهات أيها الساق كاساً أخرى من الأبنست

خذ من الزهر بنفسجه ،
ومن الجواهر صغيره (١) ،
ومن الحياة السماء والحب

تلك مبادئ جارسن : ثم : « الجنون خير من

الصغيرة التي كانت معقد اجتماعاتنا المريحة ، رسوم
بريشة من أصبح يوماً « دلا كروا » (١) ، بينها
آيات من الشعر في خط ثقيل منجن ، مقطوعات
كاملة لطائراً الأزرق

والطائر الأزرق هو جارسن المسكين . ألا تعلم
لماذا أطلقت عليه هذه الكنية ؟ نحن الذين أطلقناها

(١) دلا كروا رسام فرنسى شهير ، ملون ماهر ومجده
نائر ، كان رأس المدرسة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر
(١٧٩٩ - ١٨٦٣)

الجلود « هكذا كان الشاعر يقول

وكان الحزن يرين على نفس جارسن من حين إلى حين ، فيقطع الشوارع لا يأبه بالركبات الفاخرة ولا بالشباب الفرائيق ، ولا بالنسوة الفارهات . وقد يتسم حين يمر بمحاثوت جوهرى ؛ ولكنه كان إذا صادف مكتبة اقترب من النافذة وخذق في محتوياتها شرها . وكان يقول : إن الحق قد يسعر قلبه حين ينظر إلى المجلدات الضخمة وينشئ وجهه العبوس . وليسرى عنه الهم قد ينظر إلى السماء ويتنهد ، ثم يهرع إلينا في المقهى نائراً مهتاجاً فيطلب كأساً من الأيسنت ويقول : « أجل إن برأسى طائراً أزرق حبيساً يريد الحرية »

وبدأ بعض الصحاب يظن أنه مجنون واستشير إخصائى فى العقل فقال : إنه مصاب « بالمونومانيا ^(١) » ، ولم يبق شك فى أمره حقاً لقد كان جارسن المسكين مجنوناً وذات يوم تسلم من أبيه خطاباً . وأبوه هذا تاجر قديم من تجار القماش فى نورماندى . وكان هذا مضمون الخطاب :

« لقد سمعت بمسلكك الطائش فى باريس . واعلم أنك إن واطبت عليه فلن تنال دانقاً منى . نعال وقم على حساب المتجر ، فإذا أحرقت أيها الأحق كل كتاباتك البليدة ، فإنك تستطيع عندئذ أن تنعم بمالى »

وقد قرئ هذا الكتاب جهرة فى مقهى بلووير هل تذهب ؟ ألا تذهب ؟ هل توافق ؟ هل تفكر فى مثل هذا الخطاب ؟

مرحى يا جارسن ! لقد مرق الخطاب وأطل بجذعه من النافذة ، وهو يضحك فى صوت مجلجل وارتجل مقطوعة تنتهى على ما أستطيع أن أذكر بهذين البيتين :

ولست بيباك على شقوتى ولا أنا ذاك الذى يُشنى
إذا ظل فى رأسى المبقرى مقباً به الطائر الأزرق !

ثم بدأت أخلاق جارسن تتبدل ، فجنح إلى الثروة ومال إلى المرح ، وابتاع سترة جديدة ، وبدأ قصيدة معنونة - بالطبع - « الطائر الأزرق »

وحينما كنا نلتقى كل مساء كان يقرأ لنا منها جزءاً جديداً . لقد كانت رائعة ، سامية ، خلابة . كانت تصور سماء بديمة ، وحياة طليقة ، وحقولاً كأنما رسمتها ريشة « كوردت ^(١) » السحرية تلوح وجوه الأطفال من بين أزاهيرها ، وعينى « نينى » مخضلتين كبيرتين ، وطائراً أزرق أرسله الله محلّقاً فوق ذلك كله ، فبنى وكره دون أن يعلم فى رأس جارسن المسكين ، وبقي هناك سجيناً . فإذا أراد الطائر أن ينطلق من محبسه ، رف بجناحيه ، وضرب بهما جدران سجنه ، فيرفع الشاعر رأسه ، ويمقد جبينه ، ويشرب الأيسنت بماء قليل ، وهو يجتر فى نفس الوقت سيجارة . تلك كانت العقيدة .

وذات ليلة جاءنا جارسن يضحك ضحكات عالية ، ولكن الحزن مع ذلك جاثم فوقه .

لقد حملت جارتة الجميلة إلى المقبرة .
« لقد جئتكم بشيء جديد : الجزء الأخير من قصيدتى . لقد ماتت نينى . الربيع يقبل وتدبر نينى يستطيع البنفسج أن يطمئن على سوقه . والآن إلى (١) كوردت : رسام فرنسى اشتهر بلوحاته الريفية

(١٧٩٦ - ١٨٧٥)

(٢) Monomania أو جنون الفكرة الواحدة

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

أبي العلاء المعري

طرفة من دوائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقذو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زغاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرأتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

خاتمة القصيدة ، إن الناشرين لم يتفضلوا على بقراءة
أشعاري . سوف يتصدع شملكم جميعاً . إنه قانون
الزمن . يجب أن تمنون الخاتمة : « كيف انطلق
الطائر الأزرق إلى السموات الزرقاء ... »

الربيع في عنفوانه ! الأشجار تزهو بخضرتها .
السحب وردية في الصباح شاحبة في المساء . النسيم
الرفيق يداعب أوراق الشجر ويلهو بمخيوط أكواخ
القش . ولكن جارسن لا يذهب إلى الحقول .
ها هو ذا يأتي ، في سترة جديدة ، إلى مقهى بلومبير
الحبيب ، شاحباً وهو يبسم في حزن : « ودعوني
يا أصدقائي بملء قلوبكم ، فإن الطائر الأزرق يوشك
أن ينطلق ... »

وبكى جارسن المسكين ، وصافح أيدينا في قوة
وذهب

وقلنا جميعاً : سيعود الولد العاق جارسن إلى أبيه
في نورمانديا . وداعاً أيها الشعر ؛ وداعاً أيها الجمال ؛
لقد أزعج شاعرنا أن يبيع القماش ! هيا ! كأساً
لجارسن

وفي اليوم التالي وقف رواد مقهى بلومبير جميعاً
في مسكن جارسن خشماً وبكياً

لقد كان الشاعر مسجى على فراشه الملطخ بالدم ،
ورأسه قد هشمته رصاصة وعلى الوسادة فلذ من
غله ... فما أبشع !

وحين أفقنا من هول الصدمة ووقفنا نبكي على
جثمان صديقنا ، وجدنا ثمت القصيدة الشهيرة ، وقد
خطت على الصفحة الأخيرة منها هذه الكلمات :
« اليوم ، في عنفوان الربيع ، فتحت باب القفص
للطائر الأزرق المسكين »

آه يا جارسن ! وما أكثر الذين يغريهم الحزن
مثلاً فراك !
شكري محمد عياد

جُنَيْدُ قَبْلِ الْأَعْلَامِ

عن الانجليزية
بقلم الأديب مصطفى صبيح

في السجن ينتظر تنفيذ العقوبة .
فيا ترى كيف يقضى الوقت إلى
أن تحين ساعته ...

وأثرت لهجة الرجل في نفس
القس . فقال يروح عنه : دعنا
نأمل رحمة الله ... لماذا نياس !

قال : نعم . نعم . فلنبتهل

إلى الله ولنضرع إليه إنه غفور رحيم .

كان « بنى » قبل التحاقه بالجندية يقول لى :
ساعيش يا أبى خجولاً أمام نفسى وأمام الناس إذا
أنا لم أستعمل ذراعى القويتين المفتولتين من أجل
بلادى عندما تقع الحرب وبدعوى الوطن . وكنت
أقول له : إذهب يا ولدى ، إذهب فى حراسة الرب ،
وها قد حرسه الله !

ونطق مستر أوين بالعبارة الأخيرة فى بطء
كما لو كان رغم إيمانه قد ساوره الشك فى رحمة السماء !
فقال القس : تشجع يا صديق تشجع ،
ولا تقنط من رحمة الله !

وأصغت لومى لهذا الحوار ، وهى فى موضعها
منكسة الرأس ، بالغة الأمى ، بمتعة اللون ، لنا
أصاب أخاها « بنى » ؛ لكن لم ترسل عينها دمعاً
ولم تسمح لهمها وكدرها أن يشيما على عيهاها .
وكانت على حداثة سنّها تقوم بنصيب موفور فى إدارة
شؤون البيت ؛ ولذلك هبت واقفة حين سمعت طرّقاً
خفيفاً على باب « المطبخ » ؛ وأسرعت وفتحت
الباب ووجدت رجلاً يقدم إليها خطاباً .

وحملت الخطاب إلى أيها وهى تقول :

— إنه منه ... من أخى ...

جلس مستر أوين فى غرفته الخاصة بداره
الكبيرة فى جرين مونت بالولايات المتحدة ، وكان
كاسف البال ، شديد الكآبة ؛ وإلى جانبه قسيس
القرية يواسيه ويخفف عنه .

بينما مكثت لومى الصغيرة فى ركن الغرفة تنصت
إلى حديث الرجلين دون أن تلفظ بيت شفة .

وتكلم مستر أوين قال : كنت أحسب حين
وهبت ابنى لهذا الوطن أنى فعلت من أجل بلادى
ما لم يفعله أى رجل آخر فى أمريكا على سعتها ،
إذ ليس لى ولد غيره ؛ لكن هبتى لم تعش طويلاً ،
لأن ولدى المحبوب قد غلبه النعاس فنام دقيقة واحدة
فى نوبة حراسته بالمسكر ، وهو الذى لم يغفل لحظة
عن أداء واجبه ؛ وكان مثلاً للنشاط الموفور والهمة
العالية ...

صحيح أنه قد استسلم للكرى دقيقة ، واستحق
حكم الإعدام الذى صدر ضده . لكن ليتهم رحموا
شبابه ، وراعوا حداثة سنّه . هو فى الثامنة عشرة
فقط ... من يصدق هذا ؟

إنهم الآن يتهيئون لرميه بالرصاص . لأن هذا
التعس نام بضع ثوان ، ولم يظل ساهراً الليل بطوله
يراقب قدوم جيوش الأعداء المهاجمين . إنه الآن

وكان الخطاب وصية ميت أو رسالة من القبر !
فقد تطلع فيه مستر أوين دون أن يجسر على فض
غلافه وارتجفت أصابعه وهو يدفعه إلى القس كالمو
كان طفلاً لا حول له ولا قوة
وفض القس الغلاف وقرأ ما يلي :
أبي العزيز :

— عند ما تصلك هذه الرسالة أكون في عالم
الأبدية ! فالموت ينتظرنى عند باب السجن . ما أشد
ما أخافنى هذا الخاطر وروعنى ! على أنى فكرت
كثيراً وقلبت الأمر على كل الوجوه حتى لم يعد
الإعدام مخيفاً فى نظرى ... لقد احترموا آخر رغباتى
فى الحياة وسوف لا يضمون الأغلال فى يدى
ولا العصابة على عيني وعلى ذلك سألقى الموت كما يلقاه
الرجل الشجاع الباسل وفى هذا تعزية كبرى
غير أنى كنت أرجو أن تقضى الأقدار بغير
ما قضت ، وأن تكون ميتى أشرف من هذه الميتة
كنت أود لو أموت شهيداً فى ساحة الوغى وحومة
النضال مدافعاً عن بلادى وفى سبيل المجد ، إما أن
أعدم رمياً بالرصاص كالكلب وبتهمة إهمال الواجب
المسكرى وهو شئ يضارب الحياة ، فذلك ما يؤلمنى
أشد الألم ولا أدري كيف لم تقتلنى هذه الفكرة
قبل أن تقتلنى بنادقهم

أبى : سوف لا يكون فى حادثتى ما يخذش
اسمك أو يصم شرف أسرتك . سأعترف ها هنا بكل
شئ . وعند ما أفارق الحياة أأمل أن تشرح للدانى
وأصدقائى ما وقع . أما أنا فرجل ميت والموتى
لا يتكلمون

تذكر أنى كنت قد وعدت أم صاحبي « جى
كار » أن أعنى بولدها الذى هو زميلى فى الفرقة

فلما سقط « جى كار » مريضاً بذلت كل جهودي
من أجل راحته والأخذ بيده حتى تماثل للشفاء على أنه
قبل أن تجتمع له قواه وترد إليه صحته صدرت الأوامر
لفرقتنا بالتقدم إلى خطوط النار . وناء « جى »
بحملة فحمله عنه فضلاً عن حقائبي وقطعنا شوطاً
بعيداً ، وانقضى النهار وبدأ الرجال يشمرون بالتعب
وخارت قوانا جميعاً . أما « جى » فقد عجز عن مواصلة
السير ولم يمش إلا بعد أن مددت له يد المساعدة
وحين شارفنا المعسكر كنت فى أشد حالات
التعب وأحوج الرجال إلى الراحة . لكن شاءت الصدفة
أن تكون نوبة الحراسة تلك الليلة لزميل « جى كار »
ورأيتة محطاً يكاد يقتله الضعف والتعب فتقدمت
للحراسة عنه ونسيت أنى فى تلك اللحظة كنت أشد
منه ضعفاً وإعياءاً ووهناً ، وصدقنى يا أبى أنى كنت
عند ما غالبنى النوم على حال من التعب والإعياء بحيث
لو أطلقت على رأسى رصاصة لما فتحت عيني أو حركت
سأكنأ

على أنى مخطئ ومخطئ أنى لم أظن لحالى إلا متأخراً
جداً .. وعند ما وصل القس إلى هذا الحد من القراءة
قأطعه مستر أوين بهذه العبارة :

شكراً لله ، إن ابني يموت شهيداً وليس خائفاً
وعاد القس يقرأ هكذا :

قيل لى اليوم إن إعدائى تأجل يوماً واحداً
بسبب ظروف طارئة ، وهذه فرصة لكى أكتب
إليك كما يقول رئيسى الطيب القلب . اصفح عنه
يا أبى فإنه لم يفعل سوى أن قام بواجبه ، وقد كان
يود بإخلاص أن ينقذنى لكن القوانين العسكرية
صارمة ولا حيلة فيها . كذلك أرجو ألا تضع
مسئولية إعدائى على رأس « جيمى كار » فإن

المسكين منكسر القلب شديد الأسف لما حل بي .
وقد ألح عليهم أن يأخذوه فدية عني ولكن أحداً
لم يمر طلبه الثقافتا بطبيعة الحال

أبي ، لا أجسر أن أفكر في أمي ولا في أختي
لومي فيا ليتك تواسيها وتجفف دمعهما وليتك
تقول لها إنني أموت شجاعاً بأسلاً وإنه عند ما تنتهي
الحرب سينسيان العار الذي سيلحق بي الآن

في هذا المساء عند ما تغرب الشمس ويول
النهار سوف تمر بخاطري صورة من صور السعادة
الضائعة فأرى قطمان الماشية تمشي الهويناً من الرعي
إلى الحظيرة وأرى بعير الخيال شقيقتي لومي
في الشرفة واقفة تنتظرني وتلوح لي حين تراني ؛
على أنها لن تراني ولن أعود !

أستودعكم الله واصفحوا عن ابنكم السيء الحظ
« بني »

في ساعة متأخرة من تلك الليلة فتح باب الشرفة
الخلفية بمنزل مستر أوين وانسابت من بين مصراعيه
صبية صغيرة وهبطت الدرج الذي يؤدي إلى الطريق
وكان المشاهد يحسبها لسرعتها طائرة لا ماشية
وكانت تهول إلى جهة معينة لا تلتفت إلى يمين
أو شمال لكنها ترفع رأسها بين حين وحين شطر
السما ويدها منقبضتان كأنها تضرع إلى ربها وتبتهل
وبعد ساعتين طويلتين قضتهما هذه الصغيرة
تسير وحدها في ظلمة الليل ووحشته وصلت إلى محطة
ميل . وقبل أن تشرق الشمس كانت لومي في العاصفة
تسرع الخطا إلى البيت الأبيض الذي يقيم فيه
رئيس الجمهورية

وكان مستر لنكولن (رئيس الجمهورية العظيم)

قد دخل غرفته تواء وبدأ يلتقي نظرة على الأوراق
المكدسة على مكتبه وأقبل بفحضا وينظر في شئون
دولته . . . وبدون أية جلبة فتح الباب بهدوء
وانسابت لومي إلى الداخل وخطت نحوه ثم وقفت
قبالته بخشوع ورهبة : عيناها إلى الأرض ويدها
منقبضتان

ووقع نظر الرئيس عليها ولم يبد عليه أنه غضب
أو تامل حين فوجئ بدخولها ، بل ابتسم لها مترقفاً
وخاطبها بصوت مشجع ، قال :

— نعم يا صغيرتي ؛ ماذا تريد في هذا الوقت المتأخر

— أريد حياة « بني » يا سيدي

— بني ؟ من هو بني ؟

— أخي . إنهم يرمونه بالرصاص بسبب نومه

في نوبة حراسته

فعاد مستر لنكولن إلى الأوراق التي أمامه

ينظر فيها وهو يقول :

— آه ، لقد تذكرت الآن ؛ إنه نام في أخرج

الأوقات وأخطرها واعلم يا صديقتي الصغيرة أنه

اختار لنومه ساعة تتوقف عليها مصائر بلاده وحياه

ألف من الجنود . وهذا استهتار شنيع

قالت :

— وهكذا يقول أبي لكن « بني » المسكين كان

متعباً جداً يا سيدي وكذلك كان « جي » وقد قام

أخي بعمل رجلين ولم تكن تلك الحراسة حراسته .

كانت النوبة على « جي » ولكن « جي » كان

مريضاً وعندما حل أخي محله لم يكن يفكر في نفسه

ولا في تعبته ونسي أنه منهك القوى

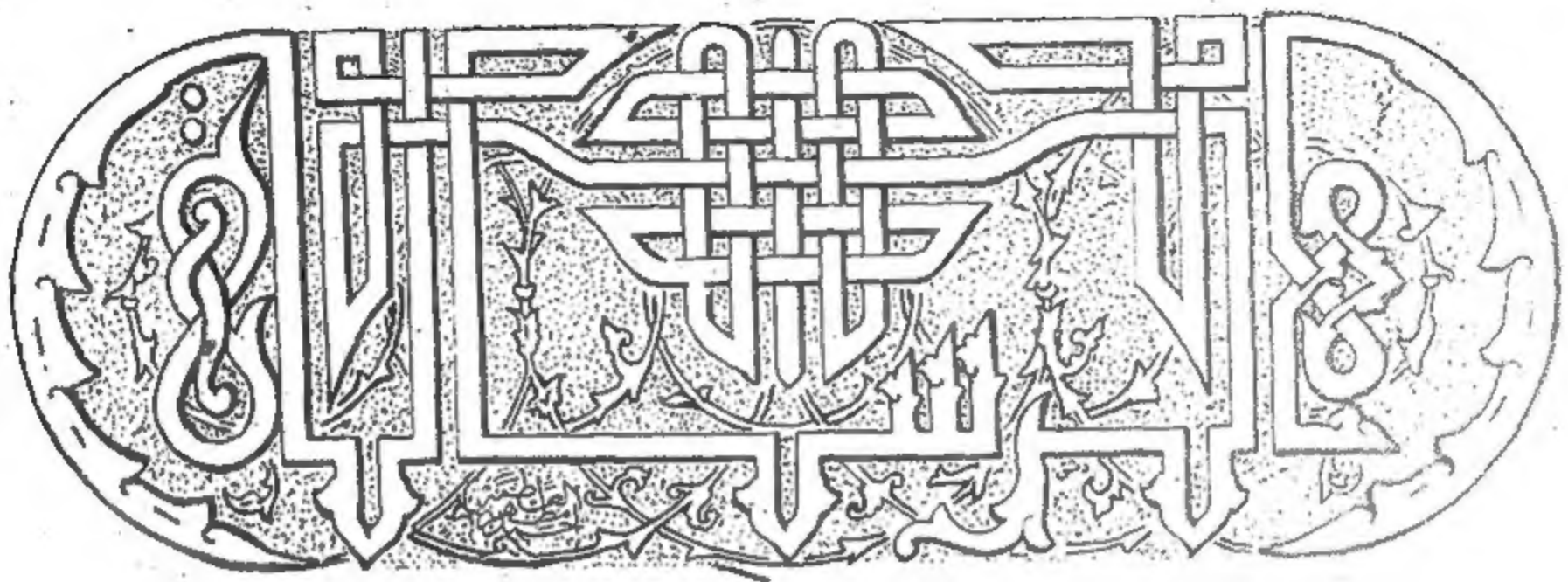
ورفع الرجل العظيم رأسه من بين الأوراق

وعاد ينظر إلى زائرتة الصغيرة وقال :

ما هذا الكلام يا طفلي؟ أنا أكاد لا أفهم شيئاً . تعالى إلى جانبي وقص قصتك وبمثل العناية التي يبذلها دائماً في مختلف شئون الدولة أقبل الرئيس لنكولن يفحص هذه الدعوى ومشت لوسى إليه فربت على منكبيها وحول يديه وجهها إليه وأحست بعطفه عليها فرددت قصتها وقدمت إليه خطاب أخيها لأبيها فأخذه منها وألقى عليه نظرة ثم قرأه بعناية ، وحالاً انتهى منه أمسك قلعه وخط بسرعة بضعة أسطر على ورقة ودق جرساً أمامه فأقبل أحد الحجاب ، وسمعت لوسى الرئيس وهو يقول للحاجب : ابعث بهذه الرسالة في الحال ! وبعد يومين من هذه المقابلة وفد إلى دار الرئاسة جندي شاب ومعه صبية صغيرة . كان الشاب « بنى »

وكانت الصبية أخته « لوسى » واستقبلهما الرئيس في غرفته الخاصة واحتفى بهما وكان يلبس حلة عسكرية جديدة تزين كتفها شارات الترقية التي رفعت به إلى درجة ملازم وخاطبه الرئيس قال : لقد عفوت عنك ورفعت درجتك يا بنى لأن الجندي الذي يحمل حقائب زميله المريض ويموت من أجل غيره دون أن يشكو أو يتبرم ، يستحق تقدير الوطن . وعاد بنى ولوسى إلى جرين مونت ، حيث استقبلتهما الجماهير الهائفة في المحطة وبسط مستر أوين يده لولده والدموع تهمر من مآقيه على خديه وسمعه الناس وهو يهتف بحرارة : « لله الحمد ! » مصطفى صبحي





مكتبة الادب الرفيع والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

- الرسالة تعبّر بإخلاص عن روح النهضة المصرية
- الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
- الرسالة تصوّر مظاهر العبقرية للأمم العربية
- الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية
- الرسالة تحيّي في النشء أساليب البلاغة العربية
- الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق

الجديد، وسجل الآداب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الاضخم سنون قرناً. والمخارجى ما يبارى جنىها مصرى، وللبعد العربية بمضم ٢٠٪

FIN

DU

DOCUMENT

الموسم

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

تصدر مؤقثاً في أول كل شهر وفي نصف

1939

Volume 1